إقــــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

فهم النَّص الدِّيني بين السَّلف والمدرسة العقلية القديمة والمعاصرة

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وإن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

DECLARATION

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification

Student's name:	اسم الطالب/ة: عبدالرحمن زكي حمد
Signature:	التوقيع:
Date:	التاريخ: 15 / 02 / 2016

الجامعـــــة الإســـــلامية – غــــزة
عمـــــادة الدراســــــات العليـــــا
كليـــــــة أصــــــول الـــــــدين
قســـم العقيــدة والمــذاهب المعاصــرة



فهم النَّص الدِّيني بين السَّلف والمدرسة العقلية القديمة والمعاصرة

Understanding Religious Texts between the Salaf and the Rational school(both ancient and contemporary)

إعداد الطالب:

عبد الرحمن زكي شحادة حمد

إشراف الأستاذ الدكتور:

محمود يوسف الشوبكي

قُدِّمت هذه الرسالة استكمالًا لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير
بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية أصول الدين بالجامعة الإسلامية بغزة

١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م





الجامعة الإسلامية – غزة
The Islamic University - Gaza

مكتب نائب الرئيس للبحث العلمي والدراسات العليا   هاتف داخلي 1150

الرقم......ج س غ/35/ Ref

التاريخ...... 2015/11/18 Date

نتيجة الحكم على أطروحة ماجستير

بناءً على موافقة شئون البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **عبدالرحمن زكي شحادة حمد** لنيل درجة الماجستير في **كلية *أصول الدين*/ قسم العقيدة الإسلامية** وموضوعها:

فهم النص الديني بين السلف والمدرسة العقلية القديمة والمعاصرة

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الأربعاء 06 صفر 1437هـ، الموافق2015/11/18م الساعة الواحدة والنصف ظهراً بمبنى القدس، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. محمود يوسف الشوبكي	**مشرفاً و رئيساً**	....
د. أحمد جابر العمصي	**مناقشاً داخلياً**	....
د. محمد مصطفى الجدي	**مناقشاً خارجياً**	....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الماجستير في **كلية *أصول الدين*/ قسم العقيدة الإسلامية.**

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق ،،،

نائب الرئيس لشئون البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. عبدالرؤوف على المناعمة

ص.ب. 108 الرمال، غزة، فلسطين هاتف Tel: +970 (8) 286 0700 فاكس fax: +970 (8) 286 0800 P.O. Box 108, Rimal, Gaza, Palestine
public@iugaza.edu.ps www.iugaza.edu.ps



قال الله ﷻ:

﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُم وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وقال النبي ﷺ:

"فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجذِ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالة".

سنن أبي داود (٤٦٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٢٥٤٩.

وقال ﷺ أيضاً: " يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين".

السنن الكبرى للبيهقي(٢٠٩١١)، وصححه الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح، رقم ٢٤٨.



أهدي هذا البحث إلى:

* من صبرت وتحملت، وربَّت فأحسنت، إلى نور عيني، ومهجة قلبي، إلى أمي الحبيبة.

* من رباني صغيراً، وأحاطني بكنفه ورعايته كبيراً، وأعانني بنفسه وماله لإكمال دراستي، والوصول لهذه المنزلة، إلى أبي الغالي.

* من عاشت معي الأيام بحلوها ومُرها، وتحملت كثرة انشغالي أثناء دراستي، ووقفت بجانبي وشجعتني، إلى زوجتي الغالية.

* من رزقني الله إيَّاهم فضلاً منه ونعمة، وانشغلت عنهم لكثرة أعبائي، إلى أبنائي الأحباب: عبد الله وأسامة وأسماء.

* من كانوا عوناً وأنساً لي في هذه الحياة منذ طفولتي، إلى إخوتي، وأخواتي، وعائلتي الأعزاء، حفظهم الله ورعاهم.

* من رافقني على هذا الدرب، وبادلني النصيحة بحب، وأعانني على الثبات ومواصلة الطريق، إلى رفاق دربي، وأصحابي.

* من أسرجوا بدمائهم قناديل العزة والكرامة، وسبقونا إلى الله عز وجل، إلى إخواني الشهداء، وإلى أسرى الحرية، عجل الله فرجهم.

* الصرح العلمي الشرعي الذي تربينا فيه على حمل هم الدين والدعوة، إلى كليتي العريقة: كليةِ أصول الدين، و إلى قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة.

* من أنار الله بهم قلبي؛ فعلموني حب الله ورسوله، وطلب العلم الشرعي، إلى مشايخي وأساتذتي الأفاضل، ومدرسيَّ الكرام - حفظهم الله -.

* أئمة الهدى ومصابيح الدجى . . من العلماء الربانيين والدعاة المخلصين .

* كلِّ طالب علمٍ غيورٍ على دينه، ومقتفٍ لأثر نبيه ﷺ، وصحبه الكرام، والسلف الصالح من بعدهم.

* جميع أبناء أمتي الغالية، وإلى جميع إخواني في الله ﷻ .

إليكم جميعاً أهدي هذا البحث المتواضع

الباحث

عبد الرحمن حمد



الحمد لله ربِّ العالمين، الحمد لله حمداً كثيراً، طيباً، مباركاً فيه، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شاء ربُّنا من شيءٍ بعد، والصلاة والسلام على رسوله الأمين، وعلى آله وصحبه، ومن سار على دربه، واقتفى أثره بإحسانٍ إلى يوم الدين، أما بعد:

فانطلاقًا من قول الله ﷻ: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾[لقمان:١٤]، فإنني أحمدُ الله ﷻ، وأشكرُه على ما منَّ به عليَّ من إتمام كتابة هذه الرسالة، وما كان ذلك ليتمَّ لولا التيسير والتوفيق من المولى ﷻ، فله الحمد أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً، حمداً يوافي نعمَه، ويكافئ مزيدَه، كما يحب ربُّنا ويرضى، فهو القائل جلَّ شأنه:﴿ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر:٣٥]، فله الحمدُ والمنةُ على فضله وإحسانه، ثم الشكرُ لوالديَّ الغاليين، اللَّذيْن حبياني بالرعاية والتوجيه، منذ طفولتي، وحتى يومنا هذا.

وانطلاقًا من قول الله ﷻ: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، وقول النبي ﷺ: **(من لا يشكر الناس، لا يشكر الله)**[1]، فإنَّني أتقدم بشكري، وامتناني، إلى جامعتي العريقة: الجامعةِ الاسلامية، ممثلةً بالقائمين عليها، والعاملين في أركانها، فبارك الله فيهم جميعًا.

وأخصُّ بالشكر، كليتي الغراء: كليةَ أصول الدين، والعاملين فيها من أكاديميين، وإداريين.

كما أتوجه بالشكر، وخالص الامتنان، إلى المربي الفاضل، فضيلة الأستاذ الدكتور: محمود يوسف الشوبكي– رئيس قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة سابقاً–، والذي تفضل بالإشراف عليَّ في هذه الرسالة، ووجهني فيها خير توجيه، وأفادني فيها خير فائدة.

والشكرُ موصولٌ كذلك إلى اللَّذيْن تفضلا بمناقشة رسالتي، وتقويمها؛ لتخرج في أبهى صورةٍ، ومن أجل الارتقاء بها إلى الأفضل، والأحسن، فضيلة الدكتور:أحمد العمصي– رئيس قسم العقيدة والمذاهب المعاصرة حالياً–، وفضيلة الدكتور: محمد الجدي– المحاضر بالجامعة الإسلامية بغزة والعديد من الجامعات الفلسطينية–.

(١) أخرجه الإمام الترمذي في سننه، في أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، رقم ١٩٥٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم ٦٦٠١.

ولا يفوتني أن أبعث بعاطر شكري، وجميل تحياتي، إلى شيخيَّ الحبيبين: الشيخ محمد حسان[١]- حفظه الله-، والذي تربيتُ على الكثير من دروسه ومحاضراته، ممَّا جعلني أهتم بهذا الموضوع، لما لمسته من كثرة تركيزه في دروسه وخطبه ومحاضراته على هذه القضية المهمة، ألا وهي قضية الفهم عن الله ورسوله.

والشكر موصولٌ لشيخي الفاضل الشيخ سلمان بن نصرٍ الداية[٢]- حفظه الله-، والذي استفدتُ كثيراً من علمه وأدبه، فأسأل اللهَ أن يبارك فيهما وفي جميع علمائنا، وأن يحفظهم ويطيل في أعمارهم في الطاعة والخير، وأن ينفعنا بهم والمسلمين.

والشكر ختاماً لكلِّ من أفادني في بحثي هذا، من قريبٍ أو بعيد، وأعانني على إتمامه حتى خرج بهذه الصورة.

فجزى الله هؤلاء جميعاً خير الجزاء، وجعل ذلك في ميزان حسناتهم يوم القيامة.

الباحث

عبد الرحمن حمد

---

(١) محمد بن إبراهيم بن إبراهيم حسان، المشهور بمحمد حسان، داعية إسلامي مصري، ولد بمحافظة الدقهلية بمصر عام ١٩٦٢م، حاصل على درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف، في رسالته العلمية المقدمة بعنوان:(منهج النبى في دعوة الآخر)، من شيوخه: الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ العثيمين، والشيخ عبد الله بن جبرين، له مئات الدروس والسلاسل العلمية والخطب والبرامج التلفزيزنية فى شتى فروع العلم، من مؤلفاته: حقيقة التوحيد، وخواطر على طريق الدعوة، وأئمة الهدي ومصابيح الدجى، وأحداث النهاية، وغيرها، وله نشاطات في زيارة الكثير من دول العالم محاضراً وداعياً وخطيباً ومشاركاً فى عشرات المؤتمرات الدولية والمحلية المهتمة بالإسلام والمسلمين، ويقوم بالتدريس فى معاهد إعداد الدعاة فى المنصورة، ورئيس مجلس إدارة مجمع أهل السنة. انظر: موقع طريق الإسلام، http://ar.islamway.net/article/1101، بتاريخ ٢٧/١١/٢٠١٥م.

(٢) سلمان بن نصر بن أحمد الداية ، ولد في غزة عام ١٩٦١م، حاصل على درجة الدكتوراه في الفقه وأصوله، له العشرات من الدروس والمحاضرات والبرامج التلفزيونية، من مؤلفاته: مسائل في الفقه المقارن، آداب العالم والمتعلم، آداب حملة القرآن والسنة، منكرات الأفراح، وله شروحات على عدد من الكتب، مثل: شرح كتاب التوحيد، وشرح بلوغ المرام، وشرح منهاج الطالبين، وشرح كتاب الاعتصام، وشرح اقتضاء الصراط المستقيم، وله دروس منتظمة يعقدها في مكتبة بيته ضمن مشروع معهد الأخلاء، الذي شرفني الله بأن أكون أحد طلابه. انظر: صفحة الشيخ على موقع الجامعة الإسلامية بغزة على الرابط /http://site.iugaza.edu.ps/sdaya/cv، بتاريخ ٢٧/١١/٢٠١٤م.

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، وصفيه من خلقه وخليله، أدَّى الأمانة وبلَّغ الرسالة، وجاهد في الله حقَّ جهاده، صلوات ربي وسلامه عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فإنَّ من نِعَمِ الله ﷻ على هذه الأمة أنْ أكمل لها دينها، وأتمَّ عليها نعمته، ورضي لها الإسلام ديناً، وما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ ، إلا وقد تركها على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالكٌ، وما ترك خيراً يُقرِّبُها إلى الجنة، ويُبْعدُها عن النار، إلا ودلَّها عليه، ولا شرَّاً إلا وحذَّرها منه؛ ليهلك مَن هلك عن بيِّنة، ويحيى مَن حيَّ عن بينة.

فسار سلفنا الصالح من الصحابة والتابعين ﷽، ومن سلك نهجَهم، وخطا خُطاهم، على نهج النبيِّ ﷺ ، كما أمرَ الله ﷻ في قوله:﴿ **وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾[الأنعام:١٥٣]؛ فكانت رايةُ أهل السُّنة والجماعة خفاقةً، يتناولونها قرناً بعد قرن، ينفُون عنها تحريف الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويل الجاهلين، ويتميزون عن غيرهم بمنهجٍ في التلقِّي والاستدلال والفهم، له قواعدُه المحكمة، فكانت كالسراج لمن جاء بعدهم، واهتدى بهديهم، وسلك سبيلهم.

ولمَّا أظلمت السُّبل، وكثرت الفتن، وظهرت الفِرَق، واتُّخذت الأدلة مركباً للأهواء والبدع، نشأت معركة فهم النص الديني، وهي معركةٌ قديمةٌ، بدأت منذ عصر الصحابة ﷺ عندما ظهر فكر الخوارج[١] الذين أرادوا تفسير النصوص الشرعية، وفهمها فهماً مغايراً لفهم أصحاب رسول الله ﷺ، فخرجوا بمقولاتٍ عجيبةٍ، وآراءٍ شاذةٍ غريبةٍ، مخالفةٍ لما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ﷺ.

وقد أخبر النبي ﷺ عن مجاهدين من أمته يقاتلون على فهم القرآن والسنة؛ ليردُّوا الناس إلى الفهم الحق، فعن أبي سعيدٍ الخدري ﷺ قال:" كنَّا جلوساً ننتظر رسول الله ﷺ، فخرج علينا من بعض بيوت نسائه، قال: فقمنا معه، فانقطعت نعله، فتخلَّف عليها عليٌّ يخصفها[٢]، فمضى رسول الله ﷺ ومضينا معه، ثمَّ قام ينتظره وقمنا معه، **فقال:(إنَّ منكم من يقاتل على تأويل هذا القرآن، كما قاتلتُ**

---

(١) الخوارج: من أقدم الفرق الاسلامية ظهورًا، حيث ظهرت سنة: (٣٧هـ)؛ إثر قضية التحكيم في موقعة صفين، فخرجوا على عليٍّ ومعاوية، ويُسمون بالحرورية، وهم يرون تكفير مرتكب الكبيرة، وتخليده في النار، إذا مات مصرًا عليها. انظر:الملل والنحل، للشهرستاني(١/١١٤-١١٥).

(٢) أي: كان يَخْرِزُها وَيُرَقِّعُها، من الخَصْفِ: وهو الضم والجمع، وأصل الخصف ترقيع النَّعْل أَو نسجها، ويُقال:خصف النعل، إذا أطبق عليه قطعة وجمعها معه. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٢/١٠٠).

على تنزيله)، فاستشرفنا وفينا أبو بكرٍ وعمرَ، **فقال: (لا، ولكنه خاصف النعل)**، قال: فجئنا نبشره، قال: وكأنَّه قد سمعه"[١].

إنَّ المعركة مع أهل التحريف والتأويل الباطل مستمرةٌ لم تتوقف على مرِّ العصور والأيام، وفي كلِّ زمانٍ ومكانٍ لها دعاتُها وأربابها، وقد أثنى النبي ﷺ على طائفةٍ من الأمة تقف في وجه هؤلاء المُحرِّفين للنصوص، فقال ﷺ :(**يحمل هذا العلم من كلِّ خلفٍ عُدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال**[٢] **المبطلين، وتأويل الجاهلين)**[٣]، وما زال العلماء وطلبة العلم بحمد الله في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، يصدُّون أولائك المُحرِّفين، ويردُّون عليهم تأويلاتهم الباطلة؛ لتحقيق موعود الله ﷻ في حفظ الوحي لفظاً ومعنىً.

لقد أدرك أعداء الدِّين أنَّ الله قد تكفل بحفظ نصوص الوحيين؛ ولذلك لم يكن من مدخلٍ يدخلون منه إلى دين المسلمين، إلا تحريفَ معاني ودلالات النصوص الشرعية، سيراً على منهج اليهود الذين قال الله فيهم:﴿ **يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة:٧٥] ، وقد أخبر النبيﷺ أنَّ من الأمة من سيتَّبع سنن اليهود والنصارى، " ولمَّا كان النبي ﷺ قد أخبر أنَّ هذه الأمة تتَّبع سنن من قبلها...، وجب أن يكون فيهم من يُحرِّف الكلم عن مواضعه؛ فيُغيِّرَ معنى الكتاب والسنة، فيما أخبر الله به، أو أمر به..."[٤].

وها هي معركة تحريف وتأويل النصوص الشرعية قائمةٌ في الأمة على أشُدِّها، تصديقاً لما أخبر به النبي ﷺ، فقد غزت العقيدةَ الإسلامية تياراتٌ من الانحراف والضلال، كان من أبرزها تلك الفرق التي تجعل من العقل بديلاً عن النقل في استقاء الأحكام والمفاهيم؛ فأساءوا فهم النصوص، إمَّا بجهلٍ أو هوىً أو سوء قصد، الأمر الذي يُعدُّ تعدياً قوياً على منهج السلف– رحمهم الله– في التَّلقِّي والاستدلال، فظهرت الخوارج، والشيعة الروافض[٥]،

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم ١١٧٧٣، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٤٨٧.

(٢) انتحال: الادعاء بالباطل، والإشارة إلى خلط ملة بملة. انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس(٥/٤٠٣)، وانظر: مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للمباركفوري(١/٣٤٢).

(٣) أخرجه الإمام الآجري في الشريعة(١/٢٦٨)، وأخرجه ابن وضاح في البدع رقم ١، والبزار في مسنده برقم ٩٤٢٣، والطحاوي في مشكل الآثار برقم ٣٨٨٤، والبيهقي في السنن الكبرى برقم ٢٠٩١١، وابن بطة العكبري في الإبانة الكبرى برقم٣٣، وصححه الألباني في تحقيقه لمشكاة المصابيح للتبريزي(١/٨٢)، رقم ٢٤٨.

(٤) مجموع الفتاوى،لابن تيمية(٢٥/١٣٠).

(٥) الروافض، الشيعة: هم الذين شايعوا عليًا ﷺ على الخصوص، وقالوا بإمامته نصًا ووصيةً، واعتقدوا أن الإمامة لا تخرج عن أولاده، وهم يعتبرون الإمامة ركنًا من أركان الدين، والأئمة عندهم معصومون من الصغائر والكبائر، وهم فرقٌ كثيرةٌ، كانت بذرة نشأتهم في عهد عثمان ﷺ، بتأثير عبد الله بن سبأ اليهودي. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(١/١٤٦-١٤٧).

والمعتزلة[1]، والأشاعرة[2]، والصوفية[3]، وغيرها من الفرق التي تخالف السلف في اعتقادهم، وقامت هذه الفرق بدراسة النصوص الدينية دراسةً امتزجت برواسب التأويل الفاسد، وتقديم العقل على النقل، واعتماد علم الكلام والمناهج الفلسفية، وقد تأثر بهذه الفرق والمناهج جمعٌ من الناس قديماً وحديثاً، وما نراه في واقعنا المعاصر من النعرات التي تنادي بإعادة فهم الدين من جديد، ومواكبته للعصر من بعض المفكرين والأدباء والإعلاميين، وربما من بعض من يدَّعون أنهم علماء، لهو أكبر دليلٍ على ذلك؛ فضلَّت في هذا الموضوع أفهامٌ، وزلت فيه أقدامٌ، وزاغت فيه أقلامٌ، بعيداً عن منهج السلف، وهذا كلُّه يمثل ضرورةً في بيان هذا الموضوع، وإرساء القواعد والمنهج الأصيل الذي كان عليه سلفنا الصالح ﷺ، والردِّ على أهل البدع من الفرق الضالة المخالفة لأهل الحق في المعتقد؛ ولذلك كان لا بد من تسليط الضوء على موضوع فهم النص الديني وأهميته، وبيان منهج السلف في ذلك، وإرساء الضوابط التي يجب مراعاتها، وتوضيح اتجاهات الفرق التي زاغت عن هذه الأصول في الفهم، فجاء هذا البحث تحت عنوان:(**فهمُ النَّص الديني بين السَّلف والمدرسة العقلية القديمة والمعاصرة).**

وإن كنتُ أدرك من نفسي قصورها، ومن الموضوع سعته، لكنِّي لم أجد لنفسي عذراً أن أتركه، لضرورة الحاجة إليه في زماننا الذي انتشرت فيه البدع والأهواء المخالفة لمنهج سلفنا الصالح، وما هذا البحث إلا جولةٌ من الجولات الكثيرة في الدفاع عن القرآن والسنة، ونفي شبه المبطلين والغالين والجاهلين، وأمنيةٌ مني لأن أندرج في ركب الذابين عن دين الله ﷻ، راجياً ثوابه عند ربي يوم الدين، وأسأل الله أن يُوفق وأن يُعين، كما أسأله سبحانه أن يتقبل مني هذا الجهد، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن أُقدِّمَ به نفعًا للمسلمين، والحمد لله رب العالمين.

أولًا: أهمية الموضوع:

تتبع أهمية هذا الموضوع من خلال النقاط التالية:

(١) المعتزلة: من أبرز الفرق الكلامية، التي ظهرت في عصر التابعين، وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل في المبحث الأول من الفصل الثاني من هذا البحث– بعون الله تعالى–.

(٢) الأشاعرة: من أبرز الفرق الإسلامية الكلامية، وسيأتي الحديث عنها بالتفصيل في المبحث الثاني من الفصل الثاني من هذا البحث– بعون الله تعالى–.

(٣) حركةٌ دينيةٌ انتشرت في العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري كنزعاتٍ فردية تدعو إلى الزهد وشدة العبادة كردِّ فعلٍ مضادٍّ للانغماس في الترف الحضاري، ثمَّ تطورت تلك النزعات بعد ذلك حتى صارت طرق مميزة معروفة باسم الصوفية، ويتوخّى المتصوفة تربية النفس والسمو بها بغية الوصول إلى معرفة الله تعالى بالكشف والمشاهدة لا عن طريق إتباع الوسائل الشرعية، ولذا جنحوا في المسار حتى تداخلت طريقتهم مع الفلسفات الوثنية الهندية والفارسية واليونانية المختلفة. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، لمانع الجهني(٢٤٩/١).

١- قضية الفهم عن الله ﷻ ورسوله ﷺ من أخطر وأهم القضايا، فهي أساس اختلاف الفرق، وذلك باستعمال الدليل الواحد للشيء ونقيضه، مع أنَّ وجه الدلالة واحدٌ، ولا تنضبط هذه المسألة إلا بالسير على قواعد واضحةٍ، وموازين دقيقةٍ، يُقتفى فيها أثر السلف، وطريقتهم في التعامل مع النصوص.

٢- التأكيد على عقيدة السلف ومنهجهم في التلقي والاستدلال، وبيان فضلها؛ كونها الأولى بالاتباع والاقتفاء؛ والأقرب إلى الفطرة السليمة.

٣- معرفة مسالك الدفاع عن عقائد الإسلام، ووسائل الوقاية من تسرب الأفكار الضالة والمنحرفة، بمعرفة الأصول التي يدين بها السلف في اعتقادهم .

٤- التحذير من شبهات ودعاوى المدرسة العقلية القديمة والمعاصرة من خلال بيان مناهجهم في سوء فهم النص الديني .

٥- تحقيق التوازن في حياة الأمة بعيداً عن الهوى والعبث، وحفظ الفرد والجماعة من التيه والضلال من خلال ترسيخ الفهم الصحيح للنص الديني.

ثانيًا : أسباب اختيار الموضوع:

تُعدُّ الأسباب التالية من أهم الأسباب التي دفعت الباحث لاختيار هذا الموضوع للبحث:

١- ما ذكرته سابقاً من أهمية الموضوع كان من أهمِّ أسباب اختياره .

٢- عبارةٌ تُكتب بماء الذهب قرأتُها في أحد كتب شيخ الإسلام ابن القيم [١]- رحمه الله-، وسمعت شيخي الشيخ محمد حسان-حفظه الله- يُردِّدها كثيراً في دروسه وخطبه، فأثرت فيَّ أيَّما تأثير، حيث يقول ابن القيم- رحمه الله- : "سوء الْفَهم عَن الله وَرَسُوله أصل كل بِدعَةٍ وضلالةٍ نشأت فِي الْإِسْلَام، بل هُوَ أصل كلِّ خطأٍ فِي الْأُصُول وَالْفُرُوع، وَلَا سِيَّمَا إِن أُضيف إِلَيْهِ سوء الْقَصْد، فيتفقَ سوء الْفَهم فِي بعض الْأَشْيَاء من الْمَتْبُوع، مَعَ حسن قَصده، وَسُوء الْقَصْد من التَّابِع، فيا محنة الدّين وَأَهله وَالله الْمُسْتَعَان، وَهل أوقع الْقَدَرِيَّةَ والمرجئة والخوارج والمعتزلة والجهمية والرافضة وَسَائِر الطوائف من أهل الْبدع فيما وقعوا فيه، إِلَّا سوءُ الْفَهم عَن الله وَرَسُوله، حَتَّى صَار الدَّين بأيدى أَكثر النَّاس هُوَ مُوجب هَذِه الأفهام، والذى فهمه الصَّحَابَة وَمن تَبِعَهُمْ عَن الله وَرَسُوله، فمهجورٌ لَا يُلْتَفت إليه، وَلَا يرفع هَؤُلَاءِ بِهِ رَأْساً"[٢]، فعقدتُ العزم على دراسة هذا الموضوع دراسةً تحليليةً.

---

(١) محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد الزُّرْعي الدمشقيّ، أبو عبد الله، شمس الدين، أحد كبار العلماء، تتلمذ على شيخ الإسلام ابن تيمية، وهو الّذي هذَّب كتبه ونشر علمه، وسجن معه في قلعة دمشق، وأُطلق بعد موت ابن تيمية، وكان حسن الخلق محبوباً عند الناس، من مصنفاته: إعلام الموقعين، وشفاء العليل، وزاد المعاد، والصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، وتوفي ٧٥١هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(٦/٥٥-٥٦).

(٢) الروح، لابن القيم، ص٦٣.

٣- المشورةُ الطيبة من أساتذتي في الكلية، حيث أشار علينا أحد الأستاذ الدكتور جابر السميري- حفظه الله- في أحد المساقات، بالكتابة في موضوع الفهم المغلوط للدِّين، فأعرتُ مشورته القبول والاهتمام.

٤- حال الأمة في واقعنا المعاصر وما تمرُّ به من فُرقةٍ وتشتتٍ واختلافٍ، وأمنيتي منذ بدء الدراسة الشرعية أن أكتب في هذا الموضوع ، وأن يكونَ لي بصمةٌ في جمع كلمة المسلمين قدر الإمكان.

٥- ما لهذا الموضوع من أهميةٍ عظيمةٍ للأمة الإسلامية؛ كونه يمايز بين عقيدة أهل السنة والجماعة، وبين مخالفيهم، ويجمع بين المنتسبين لأهل السنة والجماعة تحت لواءٍ واحدٍ.

ثالثاً: أهداف الدراسة والغاية منها:

إنَّ لهذه الدراسة أهدافاً وغاياتٍ متعددةً، منها:

١- إثراءُ المكتبة الإسلامية بدراسةٍ علميةٍ تتناول موضوع فهم النص الديني، ولا تكون مجرَّد كتابٍ يُوضع على رفِّ المكتبة، وإنَّما تكون لها فائدةٌ عمليةٌ في واقع المسلمين وحياتهم.

٢- فتحُ آفاقٍ جديدةٍ أمام الدارسين وطلبة العلم الشرعي، وذلك من خلال النتائج والتوصيات التي خرج بها الباحث في خاتمة هذا البحث.

٣- بيانُ أهمية منهج السلف في فهم النص الديني، ودوره في ريادة الأمة .

٤- كشفُ عورات وسوءات المدرسة العقلية ومنهجها في فهم النص الديني .

رابعاً: الدراسات السابقة:

بعد الاطلاع والبحث عن الدراسات السابقة في هذا الموضوع، ومن خلال البحث في مركز الملك فيصل للدراسات والبحوث بالمملكة العربية السعودية، والكشف في المكتبة الالكترونية بالجامعة الإسلامية، لم أعثر على رسالةٍ علميةٍ تحمل العنوان نفسه، وقد وجدتُ بعض المفردات التي سأتناولها بالبحث متناثرةً في كتابات السلف والمتأخرين، فعزمتُ على لمِّ شتاتها وترتيبها، وإعادة صياغتها في عبارةٍ سهلةٍ وجيدةٍ تكون قريبةً من ذهن القارئ، وقد بلغت الدراسات السابقة التي اطلع عليها الباحث أكثر من ثلاثين دراسة، ما بين رسائل علميةٍ جامعيةٍ، وما بين أبحاث مؤتمرات علميةٍ، وما بين كتبٍ مطبوعة، وقد قسَّم الباحث هذه الدراسات بحسب علاقتها بموضوع البحث إلى أربع مجموعات، وهي كما يلي:-

أولاً: دراساتٌ تناولت موضوع فهم النص الديني من ناحيةٍ واحدةٍ، والتركيز عليها على مدار البحث، مثل:

١- **(القرينة عند الأصوليين وأثرها في فهم النصوص)**، وهي عبارة عن **رسالة ماجستير** للباحث محمد قاسم الأسطل، بإشراف الدكتور مازن هنية، تقدم بها الباحث لكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية

بغزة، عام ٢٠٠٤، وتحدث فيها الباحث عن دور القرينة في فهم النصوص من حيث التخصيص والبيان والتأويل والتأكيد والنسخ والترجيح بين الأدلة.

٢- **(أسباب النزول وأثر معرفتها في فهم معاني القرآن الكريم)**، وهي **رسالة ماجستير** للباحثة مناري عز الدين، بجامعة الإسكندرية عام ١٩٨٩م، حيث تحدثت الباحثة عن أسباب النزول، وطرق معرفتها، ودورها في فهم النص القرآني، وضرورتها في إزالة الالتباس لبعض المعاني القرآنية.

٣- **(أثر تأويل النص الشرعي في الاختلاف الفقهي)**، للباحث عاطف أبو هربيد، وهو **بحث مؤتمر** مقدم للمؤتمر العلمي الدولي "النص بين التحليل والتأويل والتلقي"، والذي عقدته جامعة الأقصى بغزة بتاريخ ٤-٦ إبريل/ ٢٠٠٦ م، حيث تحدث الباحث عن معنى التأويل وأنواعه وضوابطه وأثره في الاختلاف الفقهي.

٤- **(تحقيق المناط وأثره في اختلاف الفقهاء)**، للباحث عصام صبحي شرير، وهي **رسالة ماجستير** تقدم بها الباحث لكلية الشريعة بالجامعة الإسلامية بغزة لعام ٢٠٠٩م، بإشراف الدكتور سلمان الداية، وتحدث فيه الباحث عن أهمية تحقيق المناط، كسببٍ من أهم أسباب اختلاف الفقهاء، وأثره في توجيه الدليل وتوجيه الاعتراض عليه.

٥- **(فهم النص على ضوء المصالح والمفاسد في الواقع المعاصر)**، للدكتور محمد علي الصليبي، **بحث مؤتمر** مقدم للمؤتمر العلمي (مؤتمر النصوص الشرعية)، المنعقد في الجامعة الأردنية، بتاريخ ٤-٦/١١/٢٠٠٨م، حيث تحدث فيه الباحث عن بيان وعرض الخصائص والضوابط التي تُميِّز المصالح والمقاصد، وعلاقة ذلك بفهم النص.

٦- **(الفتوى وفهم النص الشرعي)**، للدكتور سعد بن رجاء العوضي، **بحث مؤتمر** مُقدَّم لمؤتمر الفتوى واستشراف المستقبل، المنعقد بجامعة القصيم في الفترة ٢٣-٢٤/١/١٤٣٥هـ، حيث تحدث فيه الباحث عن أهمية النص الشرعي في الفتوى، والفهم الصحيح له، وأثره في الفتوى، ونماذج من الفتاوى المبنية على الفهم الصحيح، ونماذج أخرى مبنية على الفهم الخاطئ للنص الشرعي.

ثانياً: دراساتٌ تناولت موضوع منهج السلف، ومنهج المخالفين لهم في الفهم، وما يتعلق بذلك من مسائل، مثل:

١- **(منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة)**، للباحث عثمان علي حسن، وأصل الكتاب **رسالة ماجستير**، تقدم بها الباحث لكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بتاريخ ٢٣/١١/١٤١٠هـ، وتحدث فيها الباحث عن مصادر الاستدلال على العقيدة عند السلف، والمنهج المتبع عندهم في فهم مسائل الاعتقاد.

٢- **(منهج التلقي والاستدلال بين السنة والمبتدعة)**، لأحمد بن عبد الرحمن الصويان، وهو **كتابٌ مطبوع**، تحدث فيه الكاتب عن منهج أهل السنة في التلقي والاستدلال من حيث تعظيم النصوص

وصحة فهمها، وبيَّن مسلك المبتدعة في التعامل مع النصوص الشرعية من حيث رد وتأويل النصوص التي تخالف أهوائهم.

٣- **(منهج السلف والمتكلمين في موافقة العقل للنقل وأثر المنهجين في العقيدة)**، للباحث جابر إدريس علي أمير، وأصل الكتاب **رسالة دكتوراه** بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة عام ١٤١٩هـ، وتحدث فيها الباحث عن منهج السلف في موافقة العقل والنقل على سبيل الإجمال والتفصيل، وعن منهج المتكلمين في ذلك على سبيل الإجمال والتفصيل، وأثر المنهجين على العقيدة، ونقد الباحث منهج المتكلمين، وردَّ عليهم في كلِّ مسألةٍ طرحها في بحثه.

٤- **(الأصول الخمسة عند المعتزلة وموقف السلفيين منها)**، للباحث صالح زين العابدين الشبيبي، **وهي رسالةٌ ماجستير** مقدمةٌ لقسم العقيدة، في جامعة الملك عبد العزيز عام ١٣٩٧هـ، وقد تحدث فيها الكاتب عن فرقة المعتزلة وأصولهم الخمسة، من التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانحرافاتهم في كلِّ أصلٍ، وموقف السلف من هذه الأصول، والردِّ عليها.

٥- **(تنزيه الله تعالى عما أوجبه عليه المعتزلة)**، للباحث أحمد محمد بناتي، وهي **رسالة دكتوراه** مقدمة بجامعة أم القرى، عام ١٤٠٤هـ، حيث تحدث فيها الكاتب عن نشأة فرقة المعتزلة وأهم رموزهم، وعن أصولهم الخمسة، وعن الأمور التي حكم المعتزلة بوجوبها على الله ﷻ، والردِّ عليهم في كلِّ ذلك.

٦- **(الانتصار في الردِّ على المعتزلة القدرية الأشرار)**، ليحيى بن أبي الخير العمراني شيخ الشافعية باليمن، المتوفى ٥٥٨هـ، دراسة وتحقيق الدكتور سعود الخلف، وأصل الكتاب **رسالة دكتوراه**، تقدَّم بها المُحقِّق لنيل درجة الدكتوراه في قسم العقيدة بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، عام ١٤١١هـ، وتحدث فيها المحقق عن التعريف بالمؤلف والكتاب، ودراسة أهم موضوعاته مثل الإيمان بالقدر، وخلق أفعال العباد، والقدرة، والإرادة، والمشيئة، وخلق القرآن، والشفاعة، والرؤية، وانحراف المعتزلة في ذلك كلِّه، والردِّ عليهم.

٧- **(المعتزلة بين القديم والحديث)**، لمحمد العبده، وطارق عبد الحليم، وهو **كتابٌ مطبوع**، تحدث فيه المؤلفان عن علم الكلام، ونشأته، وذمِّ السلف له، ثمَّ تحدَّثا عن الأصول الخمسة عند المعتزلة، وعن منهجهم في الحديث والتأويل، ثمَّ تحدَّثا عن تطوُّر المعتزلة الفكري والسياسي حتى العصر الحديث، وبروز المدرسة الإصلاحية الحديثة في العالم الإسلامي؛ لإعادة بثِّ أفكار المعتزلة من جديد.

٨- **(الأشاعرة في ميزان أهل السنة)**، لفيصل بن قزاز الجاسم، وهو **كتابٌ مطبوع**، تحدَّث فيه الكاتب عن فرقة الأشاعرة وعقائدهم المخالفة لمنهج السلف، والردِّ عليهم، وذكر الكاتب أقوال العلماء قديماً وحديثاً في الحكم عليهم.

٩- **(منهج الأشاعرة في العقيدة)**، لسفر بن عبد الرحمن الحوالي، وهو **كتابٌ مطبوع**، تحدَّث فيه الشيخ بأسلوبٍ مختصرٍ عن منهج الأشاعرة في مسائل الاعتقاد، وأثبت فيه مخالفتهم لمنهج أهل السنة والجماعة في كثيرٍ من المسائل.

١٠- **(موقف ابن تيمية من الأشاعرة)**، لعبد الرحمن بن صالح المحمود، وأصل الكتاب **رسالة دكتوراه** تقدم بها المؤلف بجامعة الإمام محمد بن سعود، قسم العقيدة، بتاريخ ١٩/٥/١٤٠٩هـ، وتحدث فيها الكاتب بشكل مطولٍ ومفصلٍ عن موقف شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- من الأشاعرة وعقائدهم؛ وذلك لمعاصرته لهم، وأذيتهم لهم.

١١- **(وسطية أهل السنة بين الفرق)**، محمد باكريم محمد باعبد الله، وأصل الكتاب **رسالة دكتوراه**، تقدم بها الباحث بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، سنة ١٤٠٩هـ، وتحدث فيها الكاتب عن وسطية أهل السنة والسلف بين سائر الفرق، واستفدت من هذا البحث عند الحديث عن المعتزلة والأشاعرة.

ثالثاً: دراساتٌ تناولت موضوع المدرسة العقلية، وبعض خصائصها ومميزاتها، مثل :

١- **(موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف، دراسة تطبيقية على تفسير المنار)**، للباحث شفيق عبد الله شقير، وأصل الكتاب **رسالة ماجستير**، تحدث فيها الكاتب عن المدرسة العقلية الحديثة، وخاصة في مصر، وجعل تفسير المنار نموذجاً لذلك في بيان موقفهم من السنة النبوية.

٢- **(موقف الاتجاه العقلاني الإسلامي المعاصر من النص الشرعي)**، للباحث سعد بن بجاد العتيبي، وأصل الكتاب **رسالة دكتوراه** تقدم بها الباحث لنيل درجة الدكتوراه من جامعة الملك سعود، وتحدث فيها الباحث عن الجذور التاريخية للاتجاه العقلاني المعاصر، وعن معارضتهم للنص الشرعي ورده وتأويله، وأورد أمثلةً على كل نقطةٍ طرحها، وردَّ عليهم في كلِّ ذلك.

٣- **(بدعة إعادة فهم النص)**، للشيخ محمد صالح المنجد، وهو **كتابٌ مطبوعٌ**، تحدث فيه الكاتب عن دعوى العقلانيين والعصرانيين بضرورة إعادة فهم النصوص، بحجة أنها لا تناسب العصر، وردَّ على شبهاتهم، وبيَّن المنهج الصحيح الوارد عن السلف في فهم النصوص.

٤- **(الاتجاهات العقلانية الحديثة)**، للدكتور ناصر عبد الكريم العقل، وأصل الكتاب **رسالة ماجستير** بقسم العقيدة والمذاهب المعاصرة بكلية أصول الدين، بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وتحدث فيها الكاتب عن المدرسة العقلية القديمة، وعلاقتها بالاتجاهات الحديثة، ثمَّ تحدَّث عن آراء ومزاعم أصحاب الاتجاهات العقلية الحديثة في قضايا الدين عامة، وعن منهجهم في دراسة الإسلام، وعن أهدافهم المشبوهة، وسماتهم المميزة لهم.

٥- **(حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها)**، للدكتور عبد الرحيم بن صمايل السلمي، وهو **كتابٌ مطبوعٌ**، تحدث فيه الكاتب عن الفكر الليبرالي ونشأته في الغرب، وتطوره، ومراحله، ودخوله إلى العالم الإسلامي، ومخالفاته لأصول الدين والشريعة والسلوك، وأبرز تناقضاته، وأضراره على الفرد والمجتمع.

٦- **(منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير)**، للدكتور فهد عبد الرحمن الرومي، وهو **كتابٌ مطبوع**، تحدث فيه الكاتب عن المدرسة العقلية الحديثة المتمثلة بجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وتلاميذهما، وعن أبرز أفكارهم، ومنهجهم في تفسير آيات القرآن، وتأويلها بما يتوافق مع علوم العصر والحضارة الغربية.

٧- **(الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة في مصر وبلاد الشام)**، للدكتور محمد عبد الرزاق أسود، وهو **كتابٌ مطبوع**، تحدث فيه الكاتب عن الاتجاهات التي قامت بدراسة السنة النبوية في مصر وبلاد الشام، وقسَّمها إلى الاتجاه السلفي، والاتجاه العقلي، والاتجاه المنحرف، وذكر الكاتب منهجية كلِّ اتجاهٍ، وضرب أمثلةً كثيرة على ذلك، وردَّ على المخالفين شبهاتهم وأباطيلهم.

٨- **(المدرسة العصرانية في نزعتها المادية تعطيلٌ للنصوص وفتنةٌ بالتغريب)**، لمحمد حامد الناصر، وهو **كتابٌ مطبوعٌ**، تحدث فيه الكاتب عن المدرسة التي تنادي بتغيير النصوص والأحكام الشرعية؛ لتوافق علوم العصر، وحضارة الغرب، ومثَّل على ذلك بشخصيتين معاصرتين، هما جودت سعيد، وخالص جلبي، وردَّ عليهما فيما يطرحونه من أفكار، واعتبر الردَّ عليهما ردٌ على كلِّ من يسير خلفهما، ويحمل نفس أفكارهما.

٩- **(ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر)**، للدكتور خالد بن عبد العزيز السيف، وهو **كتابٌ مطبوعٌ**، تحدث فيه الكاتب عن تأويل النصوص كظاهرةٍ معاصرةٍ يقوم عليها كُتابٌ ورموزٌ لهم مشاريع تحريفيةٌ مدروسةٌ، يهدفون من خلالها لهدم الدين، وزعزعة المُسلَّمات والعقائد في نفوس المسلمين، وبيَّن الكاتب ضعف مسالكهم، وردَّ عليهم بأسلوبٍ علميٍ قوي.

١٠- **(رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية ومنكري السنة)**، للدكتور سيد بن حسين العفاني، وهو **كتابٌ مطبوعٌ**، تحدث فيه الكاتب عن رموز هذه المدرسة المشبوهة، وبيَّن ضلالاتهم، وردَّ على مزاعمهم.

رابعاً: دراساتٌ تناولت موضوع التجديد في الدين والحداثة[١]، وهما من إفرازات المدرسة العقلية المعاصرة، مثل:

١- **(التجديد في الفكر الإسلامي)**، لعدنان محمد أمامة، وأصل الكتاب **رسالة دكتوراه** نوقشت في كلية الإمام الأوزاعي ببيروت بتاريخ ١٥/ شعبان/١٤٢٢هـ، وتحدث فيها الكاتب عن تعريف التجديد، وأهميته، وركائزه، وشروط المجدد وصفاته، ونماذج من المجددين، والتجديد في العلوم الإسلامية،

---

(١) الحداثة: مذهبٌ فكريٌ علمانيٌ، بُني على أفكارٍ وعقائد غربيةٍ خالصةٍ، وتهدف الحداثة إلى إلغاء مصادر الدين، وما صدر عنها من عقيدةٍ وشريعةٍ، وتحطيم كل القيم الدينية والأخلاقية والإنسانية، بحجة أنها قديمةٌ وموروثةٌ؛ لتُبنى الحياة على الإباحية والفوضى والغموض، والغرائز الحيوانية، وهي خلاصة مذاهب خطيرة ملحدة، ظهرت في أوروبا، وهي إفراز طبيعي لعزل الدين عن الدولة في المجتمع الأوروبي، ولظهور الشك والقلق في حياة الناس. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، د/ مانع الجهني(٢/٨٦٧). بتصرف يسير

وعلاقته ببعض مصادر الاستدلال، ثم تحدث عن التجديد بمفهومه المنحرف عند العصرانيين، وضرب الأمثلة على ذلك، وردَّ عليهم.

٢- **(العصرانيون ومفهوم تجديد الدين،عرضٌ ونقد)**، للأستاذ الدكتور عبد العزيز مختار ابراهيم، وهو **كتابٌ مطبوع**، تحدث فيه الكاتب عن مفهوم التجديد عند السلف وشروطه وضوابطه، وناقش المفاهيم الخاطئة عند العصرانيين في هذا المجال، وبيَّن تلبيسهم وضلالهم.

٣- **(تجديد الدين مفهومه وضوابطه وآثاره)**، للدكتور محمد حسانين، وهو **كتابٌ مطبوعٌ**، تحدث فيه الكاتب عن مفهوم تجديد الدين عند أهل السنة والجماعة، وحقيقة التجديد في ضوئه، وبيَّن نقاط الفصل والوصل بين التيارات المختلفة التي تتجاذب هذا المصطلح، واقترح مشروعاً تجديدياً لنهضة الأمة في آخر كتابه.

٤-**(الحداثة في ميزان الإسلام)**، للدكتور عوض بن محمد القرني، وهو **كتابٌ مطبوعٌ**، تحدث فيه الكاتب عن الجذور التاريخية للحداثة، والغموض في أهدافها، وسعيها لتغيير حياة المسلمين إلى المادية الصرفة، وبيَّن بعض مواقف الحداثيين من ديننا وقيمه، وكشف أساليبهم في نشر أفكارهم.

٥- **(تقويم نظرية الحداثة وموقف الأدب الإسلامي منها)**، للدكتور عدنان علي رضا النحوي، وهو **كتابٌ مطبوعٌ**، تحدث فيه الكاتب عن الحداثة بين النظرية والتطبيق، وارتباطها بالمادية الغربية، وأثرها في الواقع الإسلامي.

٦- **(الانحراف العقدي في أدب الحداثة وفكرها، دراسةٌ نقديةٌ شرعية)**، للدكتور سعيد بن ناصر الغامدي، وأصل الكتاب **رسالة دكتوراه** مقدمةٌ إلى قسم العقيدة بكلية أصول الدين بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، بتاريخ ١/٢٦/ ١٤٢٠هـ، تحدث فيها الكاتب عن الأصول والمحاور الاعتقادية والفكرية للحداثة، وعن انحرافاتهم المتعلقة بأركان الإيمان، والأحكام، والسلوك، ونظام الحياة، وتصوراتهم المتأثرة بالوثنيات والديانات المحرفة، وذكر الباحث نماذج كثيرةً من انحرافاتهم وضلالاتهم، وعبثهم وسخريتهم بالمصطلحات الشرعية.

وتختلف الدراسة التي قام الباحث بإعدادها، عن جميع الدراسات السابقة، بأنَّ الدراسات السابقة تناولت مواضيع قريبةً من موضوع فهم النَّص الديني، ولم تتطرق لقضية الفهم بالتأصيل، وذِكر المنهجية المتَّبعة في ذلك؛ بل اكتفت بدراسة سببٍ واحدٍ من أسباب الاختلاف في الفهم، أو تناولت المدرسة العقلية من ناحيةٍ معرفيةٍ وعلميةٍ وأدبيةٍ، بخلاف ما قام به الباحث من تناولها من ناحية شرعيةٍ وتأصيليةٍ، فقد قام الباحث بدراسةٍ مقارنةٍ نقديةٍ بين منهج السلف في فهم النص الديني، ومنهج المدرسة العقلية القديمة والمعاصرة، حيث قام الباحث بالتأصيل لمنهج السلف في فهم النص الديني، وذكر أسباب الفهم الصحيح للنص الديني، وذكر معوقاته، ثم قام الباحث بدراسة منهج الاشاعرة والمعتزلة في فهم النص الديني، وبيان ما وقعوا فيه من ضلال، ونقد هذا المنهج، ثم قام الباحث ببيان

منهج المدرسة العقلية المعاصرة في فهم النص الديني، ونقض منهجهم والرد عليهم، وقد قام الباحث بالتركيز على توضيح مناهج هذه الفرق في فهم النص الديني، ثم ختم الباحث بحثه بذكر آثار مخالفة منهج السلف في الفهم، وموضوع الدراسة بجملته، لم يتم دراسته في بحثٍ مسبقٍ، بهذا الطرح، وهذا الشكل.

خامسًا: مُحدِّدات البحث:

قام الباحث في هذا البحث بتناول عدة مناهج واتجاهات في التعامل مع النصوص الدينية وهي: منهج السلف الصالح، ومنهج المدرسة العقلية القديمة المتمثلة في المدرسة الكلامية– وهم الأشاعرة والمعتزلة–، ومنهج المدرسة العصرانية بشقَّيها، العقلية الحديثة المشهورة بالإصلاحية، والمدرسة الليبرالية العربية.

سادساً: منهج البحث وطبيعة العمل فيه:

استخدم الباحث في هذه الدراسة مجموعةً من المناهج العلمية، أبرزها المنهج الوصفي التحليلي؛ باعتباره أنسب المناهج لمثل هذا الموضوع، وجاءت المناهج العلمية كالتالي:

١– المنهج الوصفي[١]: حيث قام الباحث بتوصيف عقائد وأفكار مناهج الفرق المطروحة في البحث كالسلف والمعتزلة والأشاعرة والعقلانيين والليبراليين من مصادرهم الأصلية، وبيان كلام أبرز رموزهم دون أي تجنٍ على أحدٍ منهم، وذلك من خلال نقل النصوص وتوثيقها من المصادر المعتمدة عند كلِّ اتجاه.

٢– المنهج التحليلي[٢]: وذلك بتحليل الأفكار والعقائد، ومتابعة التطور والاختلاف في الأفكار عند بعض المدارس، ومحاولة استنتاج أسباب ذلك، ومقارنة ذلك كله بمنهج السلف.

---

(١) المنهج الوصفي: هو "وصف منظم للحقائق أو ميدان من ميادين المعرفة المهمة بطريقةٍ موضوعيةٍ صحيحة"، أو هو:"أسلوب من أساليب التحليل المركزي على معلومات كافية ودقيقة عن ظاهرة أو موضوع محدد، أو فترة أو فترات زمنية معلومة، وذلك من أجل الحصول على نتائج علمية، ثم تفسيرها بطريقة موضوعية، بما ينسجم مع المعطيات الفعلية للظاهرة". دليل البحث والتقويم التربوي، ص٦٢، البحث العلمي أساسياته النظرية وممارساته العملية، لرجاء دويدري(١/١٨٣).

(٢) المنهج التحليلي: هو "إجراءات منهجية تقوم بمعالجة المعطيات ابتغاء تقديم أجوبة مناسبة عن الأسئلة التي يطرحها الباحث، أو للتحقق من صحة فرضية، أو لامتحان نظرية، أو للوصول إلى وضعٍ يسمح بإطلاق الأحكام، أو الاستنتاجات أو التعميمات حول ظاهرةٍ ما". البحث العلمى أساسياته النظرية وممارسته العملية، لرجاء دويدري(١/٢١٥).

٣- المنهج التاريخي[١]: وذلك من خلال تتبع نشأة فكرة كلِّ مدرسةٍ وبيان مؤسسيها ورموزها، وما مرَّت به من تطوُّر، وتسليط الضوء على أقوالهم.

٤- المنهج النقدي[٢]: حيث قام الباحث بعمليةٍ نقديةٍ واسعةٍ للمنهج العقلي في التعامل مع النصوص قديماً وحديثاً، مبيناً ما وقعوا فيه من ضلالاتٍ وتناقضاتٍ، من خلال الرد على أفكارهم وشبهاتهم، ورصد آثار فهمهم المغلوط للنصوص على الفرد والمجتمع.

وبالمجمل فقد قام الباحث بدراسة تفاصيل القضية المطروحة، وهي قضية فهم النَّص الديني عند السلف، ومقارنته بالمدرسة العقلية، ونقد منهجهم، وكشف شبهاتهم من خلال هذا البحث.

سابعاً: صعوبات البحث:

تتمثل صعوبات البحث بالنسبة للباحث في النقاط التالية:

١- ضخامة الموضوع واتساع نطاقه؛ لاتساع محدداته، حتى إنَّ كلَّ مدرسةٍ فكريةٍ مطروحةٍ في البحث يمكن أن تُبحث في رسالةٍ مستقلة.

٢- كثرة المصادر التي تتكلم عن هذه المدارس الفكرية، ممَّا يستدعي الاطلاع الكثير، والحصول على كلِّ أو معظم مؤلفات وآراء أصحاب هذا الاتجاه، والردود الموجهة إليهم.

٣- تأرجح بعض الشخصيات، وخاصة المعاصرين بين الاتجاهات والمدارس الفكرية المختلفة، حيث يصعب فرزهم ضمن اتجاهٍ محددٍ، أو أنه يمكن إدراجهم في اتجاهين فكريين بآنٍ واحد.

٤- انقطاع التيار الكهربائي الكثير والمتكرر، وعدم توفر الكهرباء إلا ساعاتٍ قليلة، ممَّا تسبب في تعطيل الباحث عن كثير من أوقات الدراسة، بسبب الاعتماد على النسخ الإلكترونية المصورة للكثير من المراجع لعدم توفرها في قطاع غزة.

٥- الحرب على غزة عام ٢٠١٤م، حيث جاءت الحرب خلال فترة الدراسة، واستمرت ما يقارب الشهرين، وما لحقها من فترةٍ ليست بالقصيرة حتى استطاع الباحث أن يُلملم أوراقه، ويعود للكتابة من جديد، خاصةً وأنه قد تمَّ تدمير جزء من المنزل من جراء القصف الصهيوني خلال الحرب.

---

(١) المنهج التاريخي: هو "مجموعة الطرائق والتقنيات التي يتبعها الباحث التاريخي والمؤرخ للوصول إلى الحقيقة التاريخية، وإعادة بناء الماضي بكل وقائعة وزواياه، وكما كان عليه في زمانه ومكانه، وبجميع تفاعلات الحياة فيه". البحث العلمى أساسياته النظرية وممارسته العملية، لرجاء دويدري(١/١٥١).

(٢) المنهج النقدي: هو قيام الباحث بتحليل وتصنيف الآراء التي حصل عليها، ثم التفسير النقدي لها مبيناً بطريقةً منطقيةً أوجه القوة والضعف، وأوجه الاعتدال والانحراف في هذه الآراء، وهو خطوةٌ متقدمةٌ عن مجرد الحصول على الحقائق، وتُطبق هذه الطريقة عادةً عندما تتعلق المشكلة بالأفكار، أكثر من تعلقها بالحقائق. انظر: البحث العلمي أساسياته النظرية وممارساته العملية، لرجاء دويدري(١/٧٥).

٦- المشاكل التقنية حيث تعطَّل الحاسوب أكثر من مرة، وفقدتُ كلَّ بيانات الدراسة في إحدى المرات، واسترجعت منها نسخةً ناقصة ممَّا اضطرني إلى إعادة العمل في بعض النقاط أكثر من مرة.

ثامناً: طريقة البحث:

تمثلت طريقة البحث في النقاط التالية:

١- بيان موقع الآيات القرآنية في المصحف، وذلك بذكر اسم السورة، ورقم الآية في متن الرسالة، مع كتابة الآية القرآنية بخط المصحف الشريف على مدار البحث، ومُشكلةً برواية حفصٍ عن عاصم الكوفي، وموضوعة بين قوسين مزهرين بهذا الشكل ﴿ ﴾.

٢- كتابة الأحاديث النبوية الشريفة بخط غامق، ووضعها بين قوسين بهذا الشكل( )، مع شكل الكلمات الغريبة منها، وتخريج الأحاديث وذلك بعزوها إلى كتب السنة، حسب ضوابط التخريج وأصوله، ونقل حكم العلماء على الأحاديث التي في غير الصحيحين، أما إذا كان الحديث في الصحيحين؛ فأكتفي بتخريجه منهما، ولم ألتزم بالحكم على الآثار الواردة عن الصحابة والسلف.

٣- أخذ النصوص من مظانها، وعزوها إلى أصحابها، ومراعاة الأمانة العلمية في النقل والتوثيق والتعليق.

٤- عندما أقتبس النص حرفياً أضعه بين علامتي تنصيص بهذا الشكل" "، ولا أكتب في الحاشية لفظ: انظر، وإذا اختصرت بعض المعاني فإنني أشير في نهاية التوثيق للنص بلفظ: (بتصرف)، أمَّا إذا اقتبسته بالمعنى فإنني أكتب لفظ: (انظر).

٥- حين الاقتباس من كتابٍ ما، فإنني أختصر التوثيق في هوامش الصفحات، وذلك بذكر اسم الكتاب، واسم مؤلفه، ورقم الجزء والصفحة، بينما أوثقه في فهرس المصادر والمراجع توثيقا كاملاً، وذلك بذكر كل ما يتعلق بالكتاب من بيانات.

٦- توضيح معاني بعض المفردات الغريبة، والتي تحتاج إلى بيان، وذلك في الحاشية.

٧- الترجمة لبعض الأعلام، وخاصةً المغمورين منهم، المذكورين في متن الرسالة.

٨- ترتيب المصادر والمراجع في مجموعاتٍ حسب الأحرف الهجائية.

٩- إعداد فهارس علمية في نهاية البحث، وهي: فهرس الآيات القرآنية، فهرس الأحاديث النبوية، فهرس الأعلام المترجم لهم، فهرس المصادر والمراجع، فهرس الموضوعات.

تاسعاً: خطة البحث:

وضع الباحث خطةً لهذا البحث فجعله في مقدمةٍ، وأربعة فصول، وخاتمةٍ على النحو التالي:

المقدمة: وتشتمل على أهمية البحث، أسباب اختياره، أهداف الدراسة والغاية منها، الدراسات السابقة، محددات البحث، منهج البحث وطبيعة العمل فيه، صعوبات البحث، طريقة البحث، خطة البحث.

المطلب الثاني: عوامل ظهور الليبرالية في العالم الإسلامي.

المطلب الثالث: أبرز تيارات ومفكري الليبرالية في العالم الإسلامي.

المطلب الرابع: منهج المدرسة الليبرالية العربية في فهم النص الديني.

المطلب الخامس: الحكم الشرعي في الليبرالية.

المبحث الثالث: آثار المخالفين لمنهج السلف في الفهم

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: رد النص الشرعي بتأويله أو تعطيله.

المطلب الثاني: تشويه التاريخ الاسلامي والتطاول على الصحابة والسلف.

المطلب الثالث: انتشار البدع والشبهات والشهوات والفتن والاستهزاء بالدين.

المطلب الرابع: رواج المذاهب الكلامية والأفكار الفلسفية بين المسلمين.

الخاتمة:

وفيها أبرز النتائج التي توصَّل إليها الباحث خلال هذا البحث، ثم أهم التوصيات التي تخدم غرض البحث .

الفهارس العامة:

وتحتوي على فهرس الآيات القرآنية، وفهرس الأحاديث النبوية، وفهرس الأعلام المترجم لهم، وفهرس المصادر والمراجع، وفهرس الموضوعات.

وهذا الجهد المبذول في هذا البحث، يبقى جهدًا بشرياً، قاصراً عن بلوغ درجة الكمال، مهما سعيتُ لإتقانه، وكماله؛ فإنَّ الكمال المطلق لله وحده، فما كان في هذا البحث من توفيقٍ، فالفضل لله ﷻ وحده، وما كان فيه من تقصيرٍ، فمن نفسي، ومن الشيطان، وأستغفر الله على كل حال.

والله وحده ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

الباحث

عبد الرحمن حمد

الفصل التمهيدي

مقدمات في فهم النص الديني

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف الفهم وأنواعه.

المبحث الثاني: تعريف النص الديني.

المبحث الأول
تعريف الفهم وأنواعه

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: تعريف الفهم.

المطلب الثاني: تفاوت الفهم وأنواعه.

المطلب الثالث: الفهم والمفهوم.

المبحث الأول: تعريف الفهم وأنواعه

إنَّ من المتفق عليه بين العقلاء، أن بداية فهم أيِّ موضوعٍ، تبدأ بتعريفه وتصوره في الذهن، ومن ثَمَّ يُمكنُ الوقوف على تفاصيله، فالعقل لا يحيط بأيِّ مصطلحٍ، إلا إذا عرف معناه ودلالته في اللغة والاصطلاح؛ ولذلك سيقوم الباحث بالتعريف بعنوان البحث، وما تضمنه من مفرداتٍ، قبل الخوض في صلب البحث، حتى يستطيع القارئ تصور القضية والموضوع، وفهم ما يقصده الباحث فيما يأتي من فصولٍ ومباحث.

المطلب الأول: تعريف الفهم

أولا: الفهم لغةً:

جاء في لسان العرب، الفهم هو: "معرفة الشيء بالقلب، وفهمتُ الشيء: عقلتُه وعرفتُه"[١]، وقال ابن فارس[٢]: "الفاء والهاء والميم عِلمُ الشيء"[٣]، وجاء في تاج العروس:"فهمه فَهماً وفَهامةً وفَهاميةً بالفتح، أي عَلِمه وعَرِفه بالقلب"[٤].

وجاء في القران الكريم قوله ﷻ: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ [الأنبياء:٧٩]، أي: "علمناه حقيقة القضية، وحسن الحكومة"[٥].

وممَّا سبق يتبين أنَّ المعاني اللغوية تتفق على أن الفهم هو العلم بالشئ ومعرفتُه بالقلب، ونُسبت المعرفة إلى القلب؛ لأنَّها هي المعرفة النافعة التي تُؤثر في حصول الشئ وتحققه، وإذا وقر الشيء في القلب صار له أثرٌ في الجوارح.

ثانيا: الفهم اصطلاحاً:

جاء في بيان المعني الاصطلاحي لكلمة الفهم، عدة تعريفاتٍ متقاربةٍ في المعنى، وتدلُّ على شئٍ واحدٍ، ومن هذه التعريفات:

١- هو: "جودة الذهن لادراك وتصور المعنى من لفظ المخاطب"[٦].

---

(١) لسان العرب، لابن منظور (١٢/٤٥٩).

(٢) أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، من أئمة اللغة والأدب، أصله من قزوين، وأقام مدة في همذان، ثم انتقل إلى الري فتوفي فيها سنة: (٣٩٥هـ)، من مصنفاته: تمام الفصيح، المجمل، متخير الألفاظ. انظر: الأعلام للزركلي(١/١٩٣).

(٣) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس (٤/٤٥٧).

(٤) تاج العروس، للحسيني (٣٣/٢٢٤).

(٥) أوضح التفاسير، لمحمد الخطيب (١/٣٩٦).

(٦) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (١/١١٧).

٢- هو: "تصوُّر المعنى من لفظ المخاطب"[١].

٣- هو: "جودة الذهن من جهة تهيئته لاقتناص كلِّ ما يَرِدُ عليه من المطالب"[٢].

٤- هو: إدراك معنى الكلام بسرعة[٣].

٥- هو:" فطنةٌ يفهم بها صاحبها من الكلام ما يقترن به من قولٍ أو فعل"[٤].

وعليه فالفهم في الاصطلاح هو: جودة الذهن من جهة قدرته على إدراك المعنى من لفظ المخاطب، وما يقترن به من قولٍ أو فعل.

وهناك تقاربٌ كبيرٌ بين مصطلحات الفهم والعلم والفقه والتفسير، ويجوز في الغالب أن نُعبِّر عن هذه الكلمات مكان بعضها، لتقاربها الشديد في المعنى والدلالة؛ ولكنَّ الفهم أخصُّ من هذه الألفاظ، وأرقى منها منزلة، ويدلُّ على ذلك أنَّ الإمام البخاري[٥] – رحمه الله– بوَّب في صحيحه باباً بعنوان: الفهم في العلم[٦]، ويُفهم بداهةً من هذا العنوان، أنَّ الفهم قدرٌ زائدٌ على مجرد العلم، وأنَّه أخصُّ منه؛ ولذلك عدَّ النبي ﷺ الفهم خيراً وهبةً من الله، يؤتيه من يشاء، حيث قال ﷺ :**(من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنَّما أنا قاسمٌ والله يعطي)**[٧]، "فالْفَهم فِي الْعلم منزلةٌ عظيمةٌ، ورتبةٌ ساميةٌ عن مجرد العلم بالنص، وهو المراد من هذا الحديث"[٨].

(١) التعريفات، للجرجاني (١٦٩/١).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي (٦/١).

(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية، للسفاريني (٤٤١/٢).

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني (١٦٥/١).

(٥) محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله، الحافظ لحديث رسول الله ﷺ، ولد في بخارى، ونشأ يتيماً، وقام برحلة طويلة في طلب الحديث، فزار خراسان والعراق ومصر والشام، وسمع من نحو ألف شيخ، وجمع نحو ست مئة ألف حديث، اختار منها في صحيحه ما وثق برواته، وهو أول من وضع في الإسلام كتاباً على هذا النحو، ومن كتبه: التاريخ، والضعفاء، وخلق أفعال العباد، والأدب المفرد، وتوفي ٢٥٦هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(١٢٢/٢)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(٤٧/٩)، والوفيات، لابن قنفذ(٤٥٥/١)، والأعلام، للزركلي (٣٤/٦).

(٦) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الفهم في العلم (٢٥/١).

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين ،(٢٥/١)، حديث رقم ٧١.

(٨) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني (٥٢/٢).

المطلب الثاني: تفاوت الفهم وأنواعه

أولا: التفاوت في الفهم

إنَّ الناس يختلفون ويتفاوتون في الفهم، فبعضُهم أعلى درجةً في الفهم من الآخر، ففهمُ العالم للنصوص الشرعية، ليس كفهم العامي، بل إنَّ الانسان قد تمرُّ عليه الآية من القرآن، في صفاء فكرٍ، وحضور قلبٍ، وقوة ايمانٍ، فيفهمَ منها من المعاني، ما لم يخطر له على بالٍ، مع أنه قد يكون حفظها وكرَّرها قبل ذلك مئات المرات، بل قد يفهم العالم من النص القرآني أو الحديث النبوي معنىً لا يفهمه عالمٌ آخر.

وفي ذلك يقول ابن القيم- رحمه الله-: "وتفاوت الأمة في مراتب الفهم عن الله ورسوله، لا يُحصيه إلا الله، ولو كانت الأفهام متساويةً، لتساوت أقدام العلماء في العلم، ولما خصَّ سبحانه سليمان بفهم الحكومة في الحرث، وقد أثنى عليه وعلى داود بالعلم والحكمة" [١].

ويقول أيضاً:" والناس متفاوتون في الفهم عن الله ورسوله أعظم تفاوت، فرُبَّ شخصٍ يفهم من النص حكماً أو حكمين، ويفهم منه الآخر مائةً أو مائتين"[٢].

وقال في النونية المشهورة :

"وتفاوت العلماء في أفهامهم ... للوحي فوق تفاوت الأبدان"[٣].

وفي نفس المعنى يوضح سيدُنا عليٌّ بنُ أبي طالبٍ ﵁، أن التفاوت يكون في الفهم، وأنه نعمةٌ من الله ﷻ، حيث سُئل:"هل عندكم شيءٌ من الوحي إلا ما في كتاب الله؟ قال: لا والذي فلق الحبَّة، وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهماً يعطيه الله رجلا في القرآن"[٤]، وجاء في كتاب عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري ﵁: "الفهمَ الفهمَ فيما أُدلي إليك"[٥]، فالفهمُ نعمةٌ من الله ﷻ على عبده، ونورٌ يقذفه الله في قلبه، يعرف به، ويدرك ما لا يدركه غيره ولا يعرفه، فيفهمَ من النص ما لا يفهمه غيره، مع استوائهما في حفظه، فالفهم عن الله ورسوله عنوان الصديقية، ومنشور الولاية النبوية، وفيه تفاوتت مراتب العلماء، حتى عُدَّ ألفٌ بواحد[٦].

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم (٢٤١/١).

(٢) مفتاح دار السعادة، لابن القيم (٦٠/١).

(٣) متن القصيدة النونية، لابن القيم (٢٦٥/١).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الاسير ،(٦٩/٤)، رقم ٣٠٤٧.

(٥) السنن الكبرى للبيهقي (٢٥٢/١٠)، رقم ٢٠٥٣٧.

(٦) مدارج السالكين، لابن القيم(٦٤/١). بتصرفٍ يسير.

وكان شيخُ الإسلام ابنُ تيمية[1] رحمه الله، يسأل اللهَ الفهم، حيث كان يقول: "ربما طالعتُ على الآية الواحدة نحو مائة تفسيرٍ، ثم أسأل الله الفهم، وأقول يا معلمَ آدم وإبراهيم علِّمني، وكنتُ أذهب إلى المساجد المهجورة ونحوها، وأمرِّغ وجهي في التراب، وأسأل الله، وأقول: يا معلم إبراهيم فهمني"[2].

ثانياً: أنواع الفهم:

لقد قسَّم العلماءُ الفهم إلى عدة تقسيمات: فمنهم من قسَّمه بحسب السرعة إلى فهمٍ سريعٍ وفهمٍ بطئ؛ ومنهم من قسَّمه بحسب صحته: إلى فهمٍ صحيحٍ وفهمٍ فاسد؛ ومنهم من قسَّمه بحسب اكتسابه: إلى فهمٍ فطريٍ وفهمٍ مكتسبٍ. وسيشير الباحث إلى كل نوعٍ منها بايجاز.

١ – تقسيم الفهم بحسب السرعة:

أ–الفهم السريع: وهو أن يفهم المخاطَب مدلول الكلام في وقتٍ وجيزٍ، وهذا يدل على رجاحة عقله، وسعة فهمه.

ب– الفهم البطئ: وهو أن يستغرق المُخاطَب وقتاً أطول من المعتاد، في فهم مدلول الكلام، ومثل هذا النوع يُعيي ويُتعبُ من يُحاوره؛ لأنه يحتاج إلى تكرار الكلام وتبسيطه حتى يفهمه.

وتُعتبر سرعة الفهم منقبةٌ في الشخص، ودليلٌ على ذكائه، والسرعة قيدٌ في الفهم الجيد[3]، بل إن سرعة الفهم من علامات الذكاء، "فالذكاء في الفهم أن يكون فهماً تاماً سريع القبول"[4]، وقد جاء في تراجم السلف والصالحين، ما يدلُّ على أن سرعة الفهم ممدحةٌ للإنسان، كما جاء في مناقب عليٍ بن أبي طالب ﷺ ما يُبين ذلك، حيث يقول الواصف: "كان غزيرَ العلم، سريع الفهم، يفهم بديهةً ما لا

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام، ولد في حرَّان، وتحول به أبوه إلى دمشق فنبغ واشتهر، وطُلب إلى مصر من أجل فتوى أفتى بها، فقصدها، فتعصب عليه جماعةٌ من أهلها فسُجن مدةً، ونُقل إلى الإسكندرية، ثم أُطلق فسافر إلى دمشق سنة ٧١٢ هـ، واعتُقل بها سنة ٧٢٠، وأطلق، ثم أعيد، ومات معتقلاً بقلعة دمشق، فخرجت دمشق كلها في جنازته، كان نابغاً في التفسير والأصول، فصيح اللسان، وأفتى ودرّس وهو دون العشرين، من تصانيفه مجموع الفتاوى، والإيمان، ومنهاج السنة النبوية، والفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان، والصارم المسلول على شاتم الرسول، ورفع الملام عن الأئمة الأعلام، والتوسل والوسيلة، والسياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية، وتوفي ٧٢٨ هـ. انظر: فوات الوفيات، لمحمد بن شاكر(١/٣٥–٤٥)، والدرر الكامنة، لابن حجر(١/١٤٤)، والبداية والنهاية، لابن كثير(١٤/١٣٥)، والأعلام للزركلي (١/١٤٤).

(٢) رأس الحسين، لابن تيمية(١/١٧٦).

(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية، للسفاريني (٢/٤٤١).

(٤) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢/١٤٦).

يفهمه المتبحر في العلوم، المشتغل بدرسه"[1]، وكما ورد في حق عبد الله بن أبي بكرٍ الصديق ﷺ أنَّه "غلامٌ شابٌ ثَقِفٌ لَقِنٌ:أي حاذق سريع الفهم، حسن التلقي لما يسمعه ويعلمه"[2]، وكذلك جاء في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، أنه كان سريع الفهم، "فقد كان متوقد الذكاء، كثير الفطنة، سريع الفهم والاستيعاب، فقد كان يُفتي في أمور الدين، وهو ابن الثانية والعشرين من عمره"[3].

٢- تقسيم الفهم من حيث الصحة والفساد:

أ- الفهم الصحيح: وهو "حُسن تصور المعنى المُراد من لفظ المخاطَب، وإدراك مراميه، وهو الذي يوافق ما دلَّت عليه النصوص، وجاءت به السنة ويطابُقها"[4]، وهو معلقٌ على وجود أشياءٍ منها: التمكن من العلوم الشرعية، وعلوم الآلة: كعلم اللغة وأصول الفقه وأصول التفسير ونحو ذلك، وقبل ذلك وبعده لجوء العبد إلى ربه أن يرزقه الفهم عنه وعن رسوله ﷺ .

ب- الفهم الفاسد: وهو الذي لم يُستمد من كتاب الله، ولا من سنة رسوله ﷺ ، وهو المخالف لفهم أئمة وعلماء السلف .

وعن عليٍ ﷺ قال:" إنه لا خير في عبادةٍ لا علم فيها، ولا خير في علمٍ لا فهم فيه، ولا خير في قراءةٍ لا تدبر فيها"[5]، ويقول ابن القيم:" سوء الفهم عن الله ورسوله، أصل كل بدعةٍ وضلالةٍ نشأت في الإسلام، بل هو أصل كل خطأٍ في الأصول والفروع"[6]، ويقول ابن القيم رحمه الله:

"وكم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفتُه من الفهم السقيمِ

ولكن تأخذ الأذهان منه ... على قدر القرائح والفهومِ

وهكذا الواقع في الواقع حقيقةً، أنه ما اتَّهم أحدٌ دليلاً للدِّين، إلا وكان المُتهِم هو الفاسد الذهن، المأفون في عقله، وذهنه، فالآفة من الذهن العليل، لا في نفس الدليل"[7].

٣- تقسيم الفهم بحسب تحصيله:

أ- الفهم الفطري: وهو ما يخلقه الله لعبده، وما يمنُّ به عليه من فهمٍ واستيعابٍ، وهو متفاوتٌ بين الناس، كتفاوت الأرزاق، يقول ابن القيم رحمه الله:" إنَّ الله سبحانه فاوت بين قوى الأذهان، كما فاوت

---

(١) منح الجليل شرح مختصر خليل، لمحمد عليش (٩/٦٤٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، تفسير القرطبي (١٠/١٦٠).

(٣) رأس الحسين، لابن تيمية(١/١٧٧).

(٤) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم (١/١٨٧).

(٥) أخرجه الدارمي في مسنده (سنن الدارمي)، باب من قال: العلم الخشية وتقوى الله، (١/٣٣٩)، رقم ٣٠٦.

(٦) الروح، لابن القيم(١/٦٣).

(٧) مدارج السالكين، لابن القيم(٢/٣١٩) .

بين قوى الأبدان"[١]، وقال أيضاً:" وقد فاوت الله سبحانه بين عباده فيما تناله عقولهم وأذهانهم أعظمَ تفاوت"[٢]، وهذا الفهم هو الذي عناه عليٌّ ﷺ في قوله "إلَّا فهماً يُؤتيه الله عبداً في كتابه"[٣].

ب- الفهم المكتسب: وهو الذي يُنمِّيه الإنسان بربطه بين المعلومات بتسلسلها، ومجالسته للعلماء وأهل البصيرة، وازدياده في طلب العلم، خالصاً لوجه الله ﷻ، والإكثار من ذكر الله، مما يزيد البصيرة نوراً، يقول ابن القيم عن شيخه ابن تيمية:"وكان شيخنا كثيرَ الدعاء بذلك، وكان إذا أُشكلت عليه المسائل يقول:"يا معلم إبراهيم علِّمني"[٤].

ومن أسباب تحصيل هذا النوع من الفهم، التعلمُ، والمراجعةُ، والمذاكرةُ، ومجالسةُ أهل العلم، وكثرةُ الطاعة والعبادة، وزكاةُ النفس، ورقةُ القلب.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١٨٧/٢).

(٢) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٤٤٧/٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب فكاك الاسير(٦٩/٤)، رقم ٣٠٤٧.

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١٩٨/٤).

المطلب الثالث: الفهم والمفهوم

ذكر الباحث فيما سبق ما يخصُّ مصطلح الفهم، ويحسنُ هنا أن نفرِّق بين الفهم والمفهوم، فالفهم كما ذُكر، هو: جودةُ الذهن لادراك وتصور المعنى من لفظ المخاطَب، أي هو العملية التي يقوم بها الذهن لاستيعاب الخطاب، وأما المفهوم فهو اسم مفعول، أي: ما يُفهم من اللفظ، "وهو ما دلَّ عليه اللفظ لا في محل النطق"[1]، فدلالة الألفاظ على المعاني، إما أن تستفاد من مجرد النطق والتصريح بالمراد، أو من جهة التعريض والتلويح به، ويتفرع عن هاتين الحالتين المنطوق والمفهوم.

أولاً: المنطوق وأنواعه:

فالمنطوق "هو ما دلَّ عليه اللفظ في محل النطق"[2]، وينقسم إلى[3]:

١- **النص:** وهو ما أفاد بنفسه معنىً صريحًا، لا يُحتمل غيره، ومثاله: قوله ﷻ:﴿ **فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ** ﴾ [البقرة:١٩٦]، فإن قوله (عشرةٌ) دفع توهم دخول الثلاثة في السبعة، وقوله (كاملةٌ)، تأكيدٌ لهذا المعنى، ودفعٌ لأي احتمالٍ آخرٍ غير العشرة.

٢- **الظاهر:** وهو ما أفاد بنفسه معنىً صريحًا، واحتمل غيره احتمالًا مرجوحًا، ومثاله: قوله ﷻ:﴿ **وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ** ﴾[البقرة:٢٢٢] فإنه يُقال لانقطاع الدم: طُهرٌ، وللاغتسال منه: طهرٌ، والثاني أظهر، وهو الراجح.

٣- **المؤول:** وهو ما حُمل لفظه على المعنى المرجوح لدليلٍ، ومثاله قوله ﷻ:﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** ﴾[الإسراء:٢٤] ، فالظاهر من كلمة جناح، هو جناح الريش، ويستحيل حمله على الظاهر؛ لاستحالة أن يكون للإنسان أجنحة، فيُحمل على الخضوع وحسن الخلق[4]، وبهذا صُرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليلٍ، وهو هنا الاستحالة.

ومن المنطوق ما يكون غير صريحٍ، ويُراد به دلالة اللفظ على الحكم التزامًا، وهو نوعان:

---

(١) مباحث في علوم القرآن، للقطان (٢٥٧/١).

(٢) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (١٠٦/٣).

(٣) للزيادة والتفصيل، انظر: مباحث في علوم القرآن، للقطان(٢٥٦/١-٢٦٠)، مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح (١/ ٣٠١ وما بعدها).

(٤) انظر: الإتقان في علوم القران، للسيوطي(٢/ ٤١).

١- **دلالة الاقتضاء:** وهو ما توقفت دلالة اللفظ فيه على إضمارٍ، ومثاله قوله ﷻ: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة:١٨٤] ، فإن دلالة اللفظ على المعنى، تلزم إضمار كلمة "فأفطر"، والمعنى فمن كان منكم مريضًا أو على سفر فأفطر، فعدةٌ من أيامٍ أُخر؛ لأن قضاء الصوم إنما يجب إذا أفطر وليس لمجرد السفر أو المرض.

٢- **دلالة الإشارة:** وهو ما دلَّ لفظُه على ما لم يُقصد به قصدا أوليًّا؛ بل من لازمه، كقوله ﷻ:﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾[البقرة:١٨٧]، فإنه يلزم من جواز الأكل والشرب والجماع حتى الفجر بحيث لا يتسع الوقت للغسل من الجنابة، أن يصبح الصائم على جنابةٍ، "فتكون دلالة اللفظ أشارت إلى جواز إصباح الصائم على جنابةٍ، وهو معنىً لم يُقصد باللفظ قصدًا أوليًّا، بل من لوازمه"[١].

والخلاصة أن المنطوق خمسة أقسام: النص، والظاهر، والمُؤول، ودلالة الاقتضاء، ودلالة الإشارة.

ثانياً: المفهوم وأنواعه:

المفهوم هو ما دلَّ عليه اللفظ لا في محل النطق، وينقسم إلى مفهوم موافقةٍ، ومفهوم مخالفةٍ[٢]، فإن كان حُكم المسكوت عنه موافقاً لحُكم المنطوق به، سُمي مفهوم موافقة، وهو نوعان:

١- **فحوى الخطاب:** وهو ما كان المفهوم فيه أولى بالحكم من المنطوق، كقوله ﷻ:﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾[الإسراء:٢٣] ، فيُفهم من الآية تحريمُ كلِّ أشكال الأذى للوالدين من الضرب والتعنيف، مع أن المنطوق في النص هو التأفيف وحده، والضرب أشد إيذاءً من التأفيف؛ فيكون أولى بالحكم منه[٣].

٢- **لحن الخطاب:** وهو ما كان المفهوم فيه مساويًا لحكم المنطوق، كقوله ﷻ:﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ اليَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠]، "فالمنطوق

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٢ /٤٢).

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، مناع القطان(١/٢٥٧-٢٦٥).

(٣) انظر: الإحكام فى أصول الأحكام، للآمدي (٢/٢٧٦).

تحريمُ أكل مال اليتيم ظُلمًا، والمفهوم تحريم إحراقه أو أي استهلاك له بغير حق، لأن ذلك مساوٍ للأكل في الإتلاف" [1].

أما إن كان حكم المسكوت عنه يخالف حكم المنطوق فيسمى حينئذٍ مفهوم مخالفةٍ، وينقسم إلى أنواعٍ منها[2]:

١- **مفهوم صفة:** سواءٌ كان نعتاً، أو حالاً، أو ظرفاً، أو عدداً، وذلك بأن يكون في المنطوق صفةٌ لا توجد في المفهوم؛ فيختلف الحكم، كقوله ﷻ:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا**﴾[الحجرات:٦]، فالمنطوق أن شهادة الفاسق لا تُقبل، والمفهوم أن شهادة العدل تُقبل.

ومثال العدد، كقوله ﷻ:﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً**﴾[النور:٤]، فالمنطوق ثمانين جلدة، والمفهوم ألا يجلدوا أقلَّ من الثمانين، ولا أكثر منها.

٢- **مفهوم شرط:** وذلك بأن يكون في المنطوق شرطٌ لا يوجد في المفهوم؛ فيختلف الحكم، كقوله ﷻ:﴿**وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ**﴾[الطَّلاق:٦]، فمعناه أن غير الحوامل لا يجبُ الإنفاق عليهن؛ لعدم وجود الشرط، وهو الحمل، قال الإمام الطبري- رحمه الله-:" لا نفقة للمبتوتة إلَّا أن تكون حاملاً؛ لأنَّ الله جلّ ثناؤه جعل النفقة للحوامل دون غيرهنّ من البائنات من أزواجهن، ولو كان البوائن من الحوامل وغير الحوامل في الواجب لهنّ من النفقة على أزواجهنّ سواء، لم يكن لخصوص أولات الأحمال بالذكر في هذا الموضع وجه مفهوم، إذ هنَّ وغيرهنَّ في ذلك سواء، وفي خصوصهن بالذكر دون غيرهنَّ أدلُّ الدليل على أن لا نفقة لبائنٍ إلا أن تكون حاملاً"[3].

٣- **مفهوم غاية:** وهو أن يكون الحكم في المنطوق مُقيدًا بغاية، والمفهوم أن الحكم يزول بعدها، كقوله ﷻ:﴿**وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ**﴾[البقرة:١٨٧]، فالمنطوق إباحة الأكل والشرب حتى طلوع الفجر، والمفهوم تحريم الأكل والشرب بعد طلوع الفجر.

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٤٢/٢).

(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن، للقطان(٢٦٠/١-٢٦١)، دراسات في علوم القرآن، للرومي(٤٥١/١-٤٥٣).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن المعروف بتفسير الطبري، لابن جرير الطبري(٤٦٠/٢٣).

٤- **مفهوم حصر**: وهو أن يكون الحكم محصورًا في صورة المنطوق، وألا يتحقق المفهوم في غير هذه الصورة، كقوله ﷻ:﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[الفاتحة:٥]، فالمنطوق أن العبادة لله والاستعانة بالله، والمفهوم ألا يُعبد غير الله .

ثالثاً: حُكم الاحتجاج بالمفهوم

أمَّا مفهوم الموافقة فهو حجةٌ بإجماع السلف، ولم يخالف في الاحتجاج به إلا الظاهرية[١]، وهذا من بدع الظاهرية[٢]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" ومن لم يلحظ المعاني من خطاب الله ورسوله، ولا يفهم تنبيه الخطاب وفحواه من أهل الظاهر؛ كالذين يقولون: إن قوله:{فلا تقل لهما أف}، لا يفيد النهي عن الضرب، هذا في غاية الضعف؛ بل وكذلك قياس الأولى، وإن لم يدل عليه الخطاب، لكن عرف أنَّه أولى بالحكم من المنطوق بهذا؛ فإنكاره من بدع الظاهرية التي لم يسبقهم بها أحدٌ من السلف، فما زال السلف يحتجون بمثل هذا وهذا"[٣].

وأمَّا مفهوم المخالفة فاحتجَّ به الجمهور، وخالفهم في ذلك الحنفية والظاهرية[٤]، واستدلَّ الجمهور على صحة الاحتجاج بمفهوم المخالفة بأدلةٍ منها:

١- في قوله ﷻ:﴿ **وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾[النساء:٢٥]، فمنطوق الآية أنه يُباح لمن لم يستطع الزواج من الحرة، أن يتزوج أمةً، والمفهوم أن من يستطيع أن يتزوج حرةً؛ فلا يجوز له أن يتزوج أمةً، وقد أجمع العلماء على ذلك، واشترطوا لإباحة الزواج من أمةٍ عدم القدرة على الزواج من حرةٍ؛ احتجاجًا بمفهوم المخالفة في هذه الآية [٥]، واستدلوا كذلك بما ذهب إليه ابن عباس ﷺ، من عدم توريث الأخت مع البنت، احتجاجًا بمفهوم المخالفة في قوله ﷻ:﴿ **إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ** ﴾ [النساء:١٧٦]، فالمفهوم أنه إذا كان له ولدٌ، ابنٌ أو بنتٌ، فإن الأخت لا ترث[٦].

---

(١) الظاهرية: مذهبٌ فقهيٌ يُنسب إلى داود بن علي بن خلف الأصبهاني، أبو سليمان، الملقب بالظاهري، أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام، يقولون أن الإجماع هو إجماع الصحابة فقط، وينكرون القياس، ويقفون عند حدود الألفاظ التي وردت من الشارع، دون عنايةٍ بالبحث عن عللها ومقاصدها، ودون اهتمامٍ بالقرائن والظروف التي أحاطت بالألفاظ حين ورودها. انظر: الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثالث الهجري، لعبد المجيد محمود(٣٣٥/١).

(٢) انظر: معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، لمحمد الجيزاني(٤٥١/١).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٠٧/٢١).

(٤) انظر: دراسات في علوم القرآن الكريم، لفهد الرومي(٤٥٥/١).

(٥) انظر: المهذب في فقه الإمام الشافعي، للشيرازي(٢ /٤٤)، تبيين الحقائق، للزيلعي(٢ /١١١).

(٦) انظر: تفسير الطبري، لابن جرير الطبري(٤٤٣/٩).

٢- ومن الأدلة العقلية، أن القيود التى تَرِد فى النصوص الشرعية لا يمكن أبداً أن تَرِد عبثا، بل لا بدَّ أن تكون واردةً لحكمةٍ وفائدةٍ، فإذا لم تكن لها فائدةٌ سوى تخصيص الحكم بما وُجد فيه القيد، فإنه يجب نفى الحكم عما لا يوجد فيه القيد، أى الأخذ بمفهوم المخالفة، وذلك لئلا يكون ذكر القيد عبثاً ولغواً، وهو ما يُنزَّه عنه كلام الشارع الحكيم، ومثال ذلك: أنه لو كان حكم الفاسق وغير الفاسق سواءٌ في وجوب التثبت من خبره كما في قوله ﷻ:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[الحجرات:٦] ، لما كان لتخصيص الفاسق بالذكر فائدةٌ، وقِس على ذلك سائر الأمثلة.

رابعاً: شروط الاحتجاج بمفهوم المخالفة:

وللجمع بين قول من قال بالاحتجاج بمفهوم المخالفة، وهم مالك[١] والشافعي[٢] وأحمد[٣] – رحمهم الله جميعاً–، وقولِ من قال بعدم الاحتجاج به وهو أبو حنيفة[٤] وأصحابه– رحمهم الله–، فقد اشترط العلماء للاحتجاج بمفهوم المخالفة شروطاً منها:

---

(١) مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، أبو عبد الله، إمام دار الهجرة، وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه تُنسب المالكية، مولده ووفاته في المدينة، كان صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء والملوك، من أعظم كتبه: الموطأ، وله رسالة في الرد على القدرية، وأخباره كثيرة، وتوفي ١٧٩هـ. انظر: الوفيات، لابن قنفذ(٤٣٩/١)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(٥٠/١٠)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي (٩٩/٢)، والأعلام، للزركلي(٢٥٧/٥).

(٢) محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي القرشي المطلبي، أبو عبد الله، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، وإليه نسبة الشافعية كافة، ولد في غزة (بفلسطين)، وحُمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين، وزار بغداد مرتين، وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفي بها، برع في الفقه والحديث، وأفتى وهو ابن عشرين سنة، وكان ذكياً مفرطاً، وله تصانيف كثيرة، أشهرها: كتاب "الأم" في الفقه، ومن كتبه: "المسند" في الحديث، و"الرسالة" في أصول الفقه، وتوفي ٢٠٤هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٣٢٩/١)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(٢٥/٩)، والوفيات، لابن قنفذ(٤٤٧/١)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي(١٤٠/٢)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(٦٣/٩)، وطبقات الشافعية، للسبكي(١٨٥/١)، والبداية والنهاية، لابن كثير(٢٥١/١٠)، والأعلام، للزركلي(٢٧/٦).

(٣) أحمد محمد بن بن حنبل، أبو عبد الله، الشيبانيّ الوائلي، إمام المذهب الحنبليّ، وأحد الأئمة الأربعة، ولد ببغداد، ونشأ منكبّاً على طلب العلم، وسافر في سبيله أسفاراً كثيرة، ومن مصنفاته: "المسند" في الحديث، ويحتوي على ثلاثين ألف حديث، والرد على الزنادقة فيما ادعت به من متشابه القرآن، وفضائل الصحابة، والزهد، والعلل والرجال، سُجن ثمانية وعشرين شهراً لامتناعه عن القول بخلق القرآن، وأطلق سنة ٢٢٠ هـ، وتوفي ٢٤١هـ، انظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي(١٩٠/٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير(٢٣٥/١٠)، والأعلام، للزركلي(٢٧/٦).

(٤) النعمان بن ثابت، التيمي بالولاء الكوفي، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة، ولد ونشأ بالكوفة، انقطع للتدريس والإفتاء، له مسندٌ في الحديث، جمعه تلاميذه، وتوفي ببغداد سنة ١٥٠هـ. انظر: النجوم الزاهرة، لأبي المحاسن الحنفي(١٢/٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير (١٠٧/١٠)، والأعلام، للزركلي(٣٥/٨).

١- انتفاء الدليل المُعارض، الذي يمنع من تحقق معنى المفهوم، كقوله ﷻ:﴿ **إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ** ﴾[لقمان:١٨]، إذ يقتضي مفهوم الآية إثبات الحُبِّ لمن فيه أحد الوصفين المذكورين، ولكن "دلالة المفهوم إنما يُعوَّل عليها عند عدم المعارض، وهو هنا موجودٌ، إذ دلَّ الدليلُ على تحريم الاختيال والفخر مطلقاً"[١]، وعليه "فإذا وُجد منطوقٌ معارضٌ للمفهوم، فإن المفهوم حينئذ يُعطَّل، ويبقى العمل بالمنطوق وحده"[٢].

٢- ألا يكون القيد خرج مخرج الغالب، وذلك كالقيد بالحجور، في قوله ﷻ:﴿ **وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ** ﴾[النساء:٢٣]، والربيبة هي بنت الزوجة من غير زوجها، وتَحرُم على زوج الأم إذا دخل بأمها، والقيد في الآية أن تكون في حجره وتتربى عنده، ومفهوم المخالفة أنها إذا لم تكن في حجر الزوج لا تَحرُم عليه، والصحيح أنها تَحرُم، سواءٌ كانت في حجره أم لم تكن، وإنما ذُكر القيد لأن الغالب أن بنت الزوجة تعيش عند أمها مع الزوج الجديد، ولا أثر لذلك في الحكم[٣].

٣- أن لا يكون القيد المذكور لبيان فائدةٍ أخرى، غير تقييد الحكم: كالترغيب، أو الامتنان، أو التنفير، أو التفخيم، أو لبيان الواقع، كقوله ﷻ:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً** ﴾[آل عمران:١٣٠]، لا يدل على أنَّ الربا لا يَحرُم إلا إذا كان أضعافًا مضاعفة؛ بل يحرم ولو كان قليلًا، وإنما وُصف بالأضعاف المضاعفة للتنفير مما كانوا عليه في الجاهلية من الظلم، ومثال بيان الواقع كقوله ﷻ:﴿ **وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكَافِرُونَ** ﴾[المؤمنون:١١٧]؛ لأن الواقع أن أي إلهٍ باطلٍ لا برهان عليه، وقوله:{لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ}، صفةٌ لازمةٌ، جِيء بها للتوكيد والتهكم بمُدعي إلهٍ مع الله، لا أن يكون في الآلهة الباطلة ما يجوز أن يقوم عليه برهانٌ، ومثل ذلك أيضاً، قوله ﷻ:﴿ **وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا** ﴾[النور:٣٣] ، فلا مفهوم هنا يدل على إباحة إكراه السيد لأمته على البغاء إن لم تُرد التحصن، وإنما قال:{إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّناً}؛ لأن الإكراه لا يتأتى إلا مع إرادة التحصن[٤].

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٢/٢٦١).

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني(٢/٢١٧).

(٣) انظر: شرح تنقيح الفصول، للقرافي ص٢٧١، وانظر: تيسير التحرير، لأمير بادشاه الحنفي(١/ ٩٩).

(٤) انظر: مباحث في علوم القرآن للقطان(١/ ٢٦٢) وما بعدها.

المبحث الثاني
تعريف النص الديني

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تعريف النص.

المطلب الثاني: تعريف الديني والشرعي.

المبحث الثاني: تعريف النص الديني

تعدَّدت التعريفات التي شرحت مفهوم النَّص ودلالته، ومن الضروري في البدء الكشف عن المعنى اللغوي لكلمة (نص)، ومن ثم بيان المعنى الاصطلاحي لهذه الكلمة، لبيان المعنى المراد من العبارة المركبة فهم النص الديني.

المطلب الأول: تعريف النَّص

أولاً: النَّص لغةً:

كلمة النَّص في اللغة هي: الظهور والارتفاع والاكتمال في الغاية، وهي مشتقةٌ من مادة نصص، ونَصَّ الحديث رفَعه، ونصَّ ناقته استخرج أقصى ما عندها من السير، ونصَّ المتاع جعل بعضه فوق بعض، وسيرٌ نَصٌّ ونَصيصٌ سيرٌ جَدٌّ، والُنصَّة بالضم الخُصلة من الشعر [١].

وفي مختار الصحاح: "نصَّ الشيء رفعه، ونصَّ الحديث إلى فلان رفعه إليه، ونصُّ كلِّ شيءٍ منتهاه، ونصنص الشيء حرَّكه"[٢].

وفي لسان العرب:"النصُّ رفعُك الشيء، والنصُّ أصلُه منتهى الأشياء، ومبلغ أقصاها، وانتصَّ الشيء وانتصب إذا استوى واستقام"[٣].

ويمكن القول أن كلمة النص، تشتمل على مدلولٍ ماديٍ، وآخر معنويٍ، فمن المادي ما وجدناه في "مِنصَّة"، والتي تعني المكان المرتفع البارز للناظرين، والنُصة وهي الخصلة من الشعر، وكما في نصَّ الشيء، أي: حرَّكه، ونصَّ المتاع، أي: جعل بعضه فوق بعضٍ، والنَّصُّ السير الشديد، ومن المعاني المعنوية، نصُّ الأمور شديدُها، ونصَّ الرجلَ، أي: سؤاله عن شيءٍ حتى يستقصي ما عنده، "والمعاني كلُّها تدور على الوضوح والثبات، وبلوغ النهاية في الشيء، بما لا يكون فيه مجالٌ للزيادة أو التداخل"[٤].

ثانياً: النَّص اصطلاحاً:

النَّص في الكتابات الشرعية، يُقصد به المعنى الإصطلاحي، وقد جاء مفهوم النص في الاصطلاح المتداول في مجال النصوص الشرعية منبثقاً عن معناه اللغوي الدال على الوضوح والثبات، فعندما يتكلم الأصوليون عن النصوص، فإنهم يتكلمون عن معنىً خاصٍ للنصوص من حيث قوة وضوحها في الإبانة عن مراد الشارع الحكيم، فيجعلونه اسماً على ما ثبتت نسبتُه إلى الله ﷻ أو

---

(١) القاموس المحيط، للفيروزآبادي (٦٣٢/١). بتصرف

(٢) مختار الصحاح، للرازي(٣١٢/١).

(٣) لسان العرب، لابن منظور (٩٧/٧).

(٤) ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، لخالد السيف، ص٤١٤.

إلى رسوله ﷺ، مما لا يحتمل إلا معنىً واحداً، ويُعدُّ الإمام الشافعي– رحمه الله– من أوائل من أعطى مفهوماً للنص، بأنَّه "المُستغني بالتنزيل عن التأويل"(١)، وجاء في تعريفه أيضاً بأنه: "كلُّ ملفوظٍ مفهومِ المعنى من الكتاب والسنة، سواءٌ كان ظاهراً أو نصاً أو مُفسَراً، حقيقةً أو مجازاً، عاماً أو خاصاً"(٢)، وقيل هو:"ما لا يحتمل إلا معنىً واحداً، ولا يحتمل التأويل، وهو سوق الكلام لأجل ذلك المعنى"(٣)، وقيل هو:"كل لفظٍ دلَّ على الحكم بصريحه، على وجه لا احتمال فيه"(٤)، وقيل هو: اللفظ الذي يفيد معناه بنفسه من غير احتمالٍ، مثل قوله ﷻ:﴿وَأَحَلَّ اللهُ البَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾[البقرة:٢٧٥] ، نصٌ في نفي التماثل بين البيع والربا، فكلُّ ما كانت دلالته على معناه في هذه الدرجة سُمي بالإضافة إلى معناه نصاً(٥).

فالنص في اصطلاح الأصوليين هو ما تأويله تنزيله، فإنه بمجرد ما ينزل، يُفهم معناه، وهو ما لا يحتمل إلا معنىً واحداً، وتكون دلالته على المراد واضحةً من غير لبسٍ، وأما ما يحتمل معنيين وترجح أحدهما فهو الظاهر، والمرجوح يقال له: المؤول(٦).

أما النَّصُّ بالمعنى الأوسع، فهو القرآن الكريم والسنة النبوية، ومنه القاعدة الأصولية، لا اجتهاد مع وجود النص(٧)، فيُطلق النص على كل ما ورد في الكتاب والسنة، وهو بهذا الاصطلاح يقابل الإجماع والقياس(٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله–:"ولفظ النَّص يُراد به تارةً ألفاظُ الكتاب والسنة، سواءٌ كان اللفظ دلالته قطعيةً أو ظاهرةً، وهذا هو المراد من قول من قال: النصوص تتناول أحكام أفعال المكلفين، ويراد بالنص تارةً ما دلالته قطعيةٌ لا تحتمل النقيض"(٩).

والذي سيعتمده الباحث في هذا البحث، هو أنَّ النَّص يُعنى به القرآن الكريم والسنة النبوية؛ لأنَّ هذا التعريف شاملٌ لجميع أنواع النصوص الثابتة عن الشارع الحكيم، مهما كانت درجةُ وضوحها وخفائها، ومهما كان موضوعها؛ ولأن مقصود الباحث بيانُ منهج السلف في فهم كل ما جاء في كتاب

---

(١) الرسالة، للشافعي، ص٥٤.

(٢) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للتهانوي (١٦٩٦/٢).

(٣) التعريفات، للجرجاني(٢٤١/١).

(٤) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه، لابن قدامة (٢٧/٢).

(٥) انظر: المهذب في علم أصول الفقه المقارن، لعبد الكريم النملة(١١٩٥/٣).

(٦) انظر: شرح الورقات، لعبد الكريم الخضير(٥/٩).

(٧) انظر: تيسير التحرير، لأمير بادشاه الحنفي(١٨١/٣).

(٨) انظر: التقرير والتحبير، لابن أمير حاج (٤٣/٣)، العدة في أصول الفقه، لأبي يعلى (١٣٨/١)، رسالة في أصول الفقه، للعكبري ص١٠٥، شرح تنقيح الفصول، للقرافي ص٣٦.

(٩) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٨٨/١٩).

الله ﷻ، وكل ما ثبت عن رسول الله ﷺ ، وبيان منهج من خالف السلف في فهم أو تأويل، أو ردِّ هذه النصوص.

وينبغي التنبيه إلى أن بعض العلماء قد يُعبِّر عن النص الديني، بعبارة (الخطاب الديني)، أو (الدليل الديني)، أو (الكلام الديني)، وكلها عباراتٌ قريبةٌ في دلالتها على نفس المعنى المراد من عبارة النص الديني، وهو الكلام المنسوب إلى الله ﷻ، وإلى رسوله ﷺ.

أمَّا لفظ الخطاب فهو من الفعل خطب، وهو الكلام بين متكلمٍ وسامع، وهو الكلام الذي يفهم المستمع منه شيئاً، وهو اللفظ المُتواضَع عليه، المقصود به إفهام من هو متهيئٌ لفهمه[1]، والقرآن والسنة باعتبار أنهما كلامٌ موجهٌ من الله ﷻ والرسولﷺ إلى الناس، يصحُّ أن تُسمى خطاباً إلهياً أو نبوياً، فالخطاب الديني أو الشرعي المقصود به الكتاب والسنة[2].

و**أمَّا الدليلُ** فهو بمعنى المُرشِد إلى المطلوب، ويُطلق على كل ما يُعرف به المدلول، حسياً كان أو شرعياً، قطعياً كان أو غير قطعيٍ، فالحس والعقل والنص والقياس وخبر الواحد وظواهر النصوص كلها أدلةٌ، والدليل عند الأصولي: هو ما يُمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوبٍ خبري، وهو الذي يلزم من العلم أو الظن به، العلم أو الظن بتحقق شيء آخر [3]؛ وعليه فالدليل هو الآيةُ، أو الحديثُ، أو نصُّ الإجماع، الذي يُستشهد به على الحكم الشرعي لمسألةٍ ما، فمثلا قوله ﷻ:﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾[البقرة:٤٣] ، دليلٌ على وجوب اقامة الصلاة، وكلمة الشاهد لها نفس المعنى تقريباً، ولكن الشاهد أخصُّ من الدليل، لأن الشاهدَ هو الجزء من الدليل الذي يدلُّ مباشرة على الحكم، وكثيراً ما يقول الفقهاء في كتبهم موضع الشاهد من الآية أو الحديث كذا[4].

وأمَّا الكلام فهو "الأصوات المسموعة، والحروف المؤلفة، وينقسم إلى مفيدٍ وغير مفيد، وأهل العربية يخصون الكلام بما كان مفيداً"[5].

وممَّا سبق يتبين أنَّ هذه الكلمات الاربعة، النص، والخطاب، والدليل، والكلام، تُستخدم مكان بعضها لتؤديَ معانٍ متقاربة، وإذا أُضيف إليها لفظ الديني أو الشرعي، خُصت بما جاء من عند الله ﷻ، وما ثبت عن رسول الله ﷺ .

---

(١) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(٩٥/١)، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأبي العباس الفيومي(١٧٣/١).

(٢) انظر: شرح الورقات، للفوزان، ص١٣٤.

(٣) انظر: الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، لأبي البقاء الحنفي(٤٤٠/١).

(٤) انظر: الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، للمنياوي (٨٩/١).

(٥) روضة الناظر وجنة المناظر، لابن قدامة المقدسي(٥٠٥/١).

وينتج عن هذه الأمور الأربعة، الحكم الشرعي في المسألة، وهو مقتضى خطاب الله المتعلق بأفعال المُكلَفين، أو مدلول خطاب الله، أو الأثر الذي يترتب على الدليل كالوجوب والحرمة والإباحة[١].

المطلب الثاني: تعريف الديني والشرعي

أولاً: لفظ الديني

١-**الدِّين لغةً:** إن لفظ الدين لغةً يُطلق على معانٍ شتى، فهو من قبيل الألفاظ المُشترَكة، فيأتي بمعنى الطريقة، والمذهب، والملة، والعادة، والشأن، والجزاء، والمكافأة، والسياسة، والقهر، والسلطة، والحُكم، والأمر، وهو مشتقٌ من الفعل الثلاثي دان، وهو تارةً يتعدى بنفسه، وتارةً باللام، وتارةً بالباء، ويختلف المعنى باختلاف مايتعدى به، فإذا تعدى بنفسه يكون "دانه" بمعنى ملكه، وساسه، وقهره وحاسبه، وجازاه، وإذا تعدى باللام يكون "دان له" بمعنى خضع له، وأطاعه، وإذا تعدى بالباء يكون "دان به" بمعنى اتخذه ديناً ومذهباً واعتاده، وتخلّق به، واعتقده [٢].

٢- **الدِّين اصطلاحاً:** إنَّ معنى الدين في الشرع والاصطلاح، لا يخرج عن المعنى اللغوي، كما سيتبين؛ لأنَّ الدِّينَ يقهر أتباعه ويسوسهم وفق تعاليمه وشرائعه، كما يتضمن خضوعَ العابد للمعبود وذلتِه له، والعابد يفعل ذلك بدوافع نفسيةٍ، ويلتزم به بدون إكراهٍ أو إجبار.

واختُلف في تعريف الدين اصطلاحاً اختلافاً واسعاً، فكلٌّ عرَّفه حسب تصوره، وما يرى أنه من أهم مميزات الدين.

أ- **الدين عند المسلمين:** وهو الاستسلامُ لأمر الله بالتوحيد، والانقيادُ له بالطاعة، والخلوصُ من الشرك، واتباعُ أمر رسول الله ﷺ ، وأخذُ هذا الاستسلام والاتباع عقيدةً وشريعةً ومنهاج حياة، وهو ما شرعه الله لعباده من أحكام، سواء ما يتصل منها بالعقيدة أو الأخلاق أو الأحكام العملية، فالدين بمعنى الإسلام[٣]، وجاء في الموسوعة الميسرة: "الدين هو: التسليم والاستسلام لله ﷻ وحده، وعبادته بما شرعه على لسان أنبيائه، من العقائد والأحكام والآداب، وكل شؤون المعاش، فهو منهجٌ للحياة، وهو ملة الإسلام، ودين جميع الأنبياء والمرسلين"[٤]، فهو اسمٌ لما شرع الله ﷻ لعباده على لسان

---

(١) انظر الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، للمنياوي(١/٨٦).

(٢) انظر: لسان العرب، لابن منظور (٢/١٤٦٧).

(٣) انظر: المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني، ص١٦٥، ولسان العرب، لابن منظور(٢/ ١٤٦٩)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، ص١١٩٨، والمصطلحات الأربعة في القرآن، للمودودي(١/٧١-٧٩).

(٤) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة (٢/١٠٥٧)، والموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة ، ص١٠.

الأنبياء؛ ليتوصلوا به إلى جوار الله[1]، وهو وضعٌ إلهيٌ سائقٌ لذوي العقول السليمة باختيارهم إلى الصلاح في الحال، والفلاح في المآل، أو هو وضعٌ إلهيٌ يشير إلى الحق في الاعتقادات، وإلى الخير في السلوك والمعاملات [2].

ويلاحظ على هذه التعريفات جميعاً، قصر مفهوم الدِّين على الدين السماوي فقط، مع أن الصحيح أن كل مايتخذه الناس، ويتعبدون به، يصحُّ أن يُسمى ديناً، سواءٌ كان صحيحاً، أو باطلاً، بدليل قوله ﷻ:﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥] ، وقوله ﷻ:﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾[الكافرون:٦]، فسمَّى اللهُ ما عليه مشركي العرب من الوثنية ديناً، فالدين هو جملةٌ من المبادئ التي تدين بها أمةٌ من الأمم اعتقاداً وعملاً[3]، وهو اعتقاد قداسة ذاتٍ، ومجموعة السلوك الذي يدلُّ على الخضوع لتلك الذات ذلاً وحباً، رغبةً ورهبةً[4].

ب- الدِّين عند الغرب: أمَّا تعريف الدين في الاصطلاح الغربي، فيختلف تماماً عن معناه في الاصطلاح الإسلامي، إذ يقوم المنهج الغربي على إقصاء الدين عن مجالات الحياة، بزعم أن الدين في تصورهم مرحلةٌ زمنيةٌ في حياة الأمم تجاوزتها البشرية بفضل العلم ومعطيات العقل البشري، فيزعمون أنَّ الدين لا علاقة له بشؤون المعاش[5]، وأنَّه مجموعةٌ من التورعات التي تقف حاجزاً أمام الحرية المطلقة لتصرفاتنا[6].

ثانياً: لفظ الشريعة:

١- الشريعة لغةً: لفظ الشريعة في اللغة مشتقٌ من الفعل شَرَعَ، ومنه شَرَعَ الوارد أي: تناول الماء بفيه، وشَرَعَت الدواب في الماء أي دخلت، والشَرِيعة المواضع التي يُنْحدر إلى الماء منها[7]، والشَرْع هو نهج الطريق الواضح [8].

٢- الشريعة اصطلاحاً: هي ما شَرَع اللهُ ﷻ لعباده من الأحكام، التي جاء بها نبيٌ من الأنبياء، سواءً كانت متعلقةً بكيفية عملٍ، وتسمى فرعيةً وعمليةً، أو بكيفية الاعتقاد، وتسمى أصليةً واعتقاديةً، وهي

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني(٧٧٣/١).

(٢) انظر: التعريفات، للجرجاني(١٠٥/١)، وكشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، للتهانوي(٨١٤/١)، وتحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي(٢٠/١).

(٣) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، د. مانع الجهني(١٠٥٧/٢).

(٤) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، د. سعد الخلف، ص١٠.

(٥) انظر: الموسوعة الميسرة، د. مانع الجهني(١٠٥٨/٢) .

(٦) انظر: الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د. محمد دراز، ص٣٦.

(٧) انظر: لسان العرب، لابن منظور(١٧٦/٨).

(٨) انظر: المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني(٤٥٠/١).

الطريقة الإلهية من الدين، والشرع كالشريعة، وهو: كل فعلٍ أو تركٍ مخصوصٍ من نبي من الأنبياء صريحاً أو دلالةً[1].

فالشريعة بهذا المعنى تشمل الاعتقاد والأخلاق والأحكام العملية، ويُسمى الشرع أيضا بالدين والملة؛ فإن تلك الأحكام من حيث إنها تُطاع دينٌ، ومن حيث إنها تُملى وتُكتب ملةٌ، ومن حيث إنها مشروعةٌ شرعٌ؛ فالتفاوت بينها بحسب الاعتبار لا بالذات.

وقد يُخصُّ الشرع بالأحكام العملية الفرعية، فعند العلماء المعاصرين نجد استعمال كلمة الشريعة ظاهراً ومنتشراً، يريدون بها أحياناً معناها العام؛ فهي ترادف الدين، أو الإسلام، أو الكتاب والسنة، بينما نجد معظمهم يستعملها بمعنى الفقه الذي هو معرفة الأحكام العملية.

وتطلق الشريعة عند بعض العلماء بمعنىً آخر؛ حيث يطلقونها على العقائد التي يعتقدها أهل السنة والجماعة من أمور الإيمان، فقد سَمُّوا أصول اعتقادهم شريعةً، وهذا المعنى كتب فيه بعض العلماء كتباً مُفردة، مثل كتاب (الشريعة) للآجري[2]- رحمه الله-، وهو خاصٌ باعتقاد أهل السنة والجماعة، ومثله أيضاً كتاب (الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية) لابن بطة العكبري[3]- رحمه الله-.

وبناءً على ما سبق من بيان معنى النَّص والدِّين والشريعة، فإنَّه إذا أُضيف لفظ الدِّيني أو الشرعي إلى النَّص، قُيِّد بما نُسب إلى الدِّين والشرع، وهو ما ثبتت نسبته من الكلام إلى الله ﷻ، أو إلى رسوله ﷺ ؛ فيدخل فيه آيات القرآن الكريم، والأحاديث الصحيحة، سواءٌ منها ما كان قطعياً في دلالته، أو ما كان ظنياً.

وبعد أن عرَّف الباحثُ كلاً من الفهم والنَّص والدِّين، نخلص إلى تعريف عنوان البحث" فهم النص الديني"؛ وهو: جودة الذهن في محاولته إدراك وعلم ومعرفة المراد من كلام الله ﷻ، وما صحَّ عن رسوله ﷺ ، مما يتعلق بمسائل الدين العلمية والعملية، أو هو: كدُّ الذِّهن في محاولته الوصول إلى علم وفقه واستنباط مراد الله ﷻ ومراد رسوله ﷺ من مجموع النصوص الشرعية أو أفرادها.

---

(١) انظر: كشاف اصطلاحات الفنون، للتهانوي(١٢٩/٤)، والكليات، لأبي البقاء الكفوي(٣/٥٦-٥٧)، والإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم(٤٢/١).

(٢) محمد بن الحسين بن عبد الله، أبو بكر الآجري، نسبته إلى آجر (من قرى بغداد)، فقيهٌ شافعيٌ محدثٌ، قال الخطيب: كان ديناً ثقةً، من تصانيفه: أخلاق العلماء، وأخلاق حملة القرآن، وكتاب الشريعة، وتوفي ٣٦٠هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٣/ ٩٣٦)، والأعلام، للزركلي(٦/ ٣٢٨).

(٣) عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان، أبو عبد الله العكبريّ، المعروف بابن بطة، عالم بالحديث، فقيه من كبار الحنابلة، من أهل عكبرا مولداً ووفاةً، رحل إلى مكة والثغور والبصرة وغيرها في طلب الحديث، صنف كتباً كثيرة تزيد على المائة، منها: الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، والإبانة الصغرى، وصلاة الجماعة، وتحريم الخمر، وتوفي سنة ٣٠٤ هـ. انظر: طبقات الحنابلة، لأبي يعلى، ص ٣٤٦، وشذرات الذهب، لأبي الفلاح الحنبلي(٣/ ١٢٢)، ومعجم المؤلفين، لعمر بن رضا الدمشقي(٦ / ٢٤٥)، والأعلام، للزركلي(١٩٧/٤).

وهذا المعنى يشملُ ما إذا كان الفهم صحيحاً أو فاسداً، ولتقييده بالفهم الصحيح، لا بدَّ من تقييده بفهم السلف الصالح، لأن مُستندهم في معرفة مراد الله ﷻ من كلامه، ما يشاهدونه من فعل رسوله ﷺ وهديه، وهو يُفصِّل القرآن ويُفسِّره[1]، وهذا ما سيوضحه الباحث بإذن الله في الفصل التالي؛ ليصبح الأمر أكثر وضوحاً.

(١) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم(٤/١٥٣).

الفصل الأول

منهج السلف في فهم النص الديني

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: السلف ومكانتهم وحقيقة الانتساب إليهم.

المبحث الأول: أهمية فهم السلف وحجيته.

المبحث الثاني: أساسات فهم النص الديني عند السلف.

التمهيد

السلف ومكانتهم وحقيقة الانتساب إليهم

وفيه ثلاث مسائل:

أولاً: تعريف السلف.

ثانياً: مكانة السلف الصالح.

ثالثاً: حقيقة الانتساب إلى السلف.

التمهيد: السلف ومكانتهم وحقيقة الانتساب اليهم

لقد جاء النبي ﷺ بهذا الدين نقياً صافياً من عند ربه ﷻ، وتلقاه عنه أصحابه الكرام ﷺ كما جاء؛ ففقهوه ونقلوه إلى من بعدهم، فحفظ الله بهم دينه، وحفظهم بدينه، فكانوا بحقٍّ خيرَ هذه الأمة علماً وعملاً، ثمَّ خلفت من بعدهم خلوفٌ، خالفوا هديه ﷺ ، واستنوا بغير سنته، وابتدعوا في الدين ما لم يأذن به الله؛ فأُصيبوا بضعف الإيمان، وقلة اليقين، ولكن من عدل الله ﷻ وحكمته، ألا يخلو الزمان من أهل الحق، أتباع السلف الصالح، فهم الذين يدينون بالعقيدة الصحيحة، والمنهج القويم، وينشرونه بين الناس، كما أخبر عنهم ﷺ بقوله:**(لا يزال من أمتي أمةٌ قائمةٌ بأمر الله، ما يضرهم من كذَّبهم، ولا من خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك)**[١]، وهؤلاء أصحاب عقيدةٍ مُتَّبعةٍ، ومنهجٍ مُقتفى؛ ولذلك تميَّزوا عن غيرهم بعقيدتهم، ومنهجهم، وسوف نتعرف في هذا الفصل بإذن الله على أبرز مظاهرهم، وعلى أصول منهجهم.

أولاً: تعريف السلف

١- السَّلَف لغةً:

السلف في اللغة هو التَقدُّم والسبق، قال ابن فارس:"السين واللام والفاء أصلٌ يدلُّ على تَقدُّمٍ وسبقٍ، من ذلك السلف: الذين مضوا، والقوم السُّلَّاف: المتقدِّمون، والسُّلْفة: المُعجَّل من الطعام قبل الغداء"[٢]، والسلف من تقدَّمك من آبائك وذوي قرابتك، الذين هم فوقك في السنِّ والفضل، وقيل: سلفُ الإنسان من تقدَّمه بالموت من آبائه وذوي قرابته، ولهذا سُمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح[٣].

وقد استعُملت كلمة سلف في القرآن الكريم على المعنى نفسه، في ثمانية مواضع، منها قوله ﷻ:﴿ **عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ** ﴾[المائدة:٩٥]، أي: ما سبق وتقدم، ويدلُّ على هذا، قولُ النبي ﷺ لابنته فاطمة: **(ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا لك)**[٤].

ومن خلال التعريف اللغوي لكلمة "سَلَفَ"، يتبين أنها تدور في أغلب استعمالاتها حول معنى التقدُّم والسبق.

---

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون}، حديث رقم ٧٤٦٠.

(٢) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس(٩٥/٣).

(٣) انظر: لسان العرب، لابن منظور(١٥٩/٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس، ومن لم يخبر بسر صاحبه، فإذا مات أخبر به، حديث رقم ٦٢٨٥.

٢- **السَّلَف اصطلاحاً**: من حيث المعنى الاصطلاحي، فكلمة السلف لها إطلاقان:

أ- **المفهوم التاريخي للمصطلح**: وهو اطلاقه على حقبةٍ زمنيةٍ مُعينةٍ، تختص بأهل القرون الفاضلة الثلاثة المتقدمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم ﷺ، فهي متضمنةٌ للمنهج والزمان، ويدلُّ عليه حديث عمران بن حصينٍ[١] ﷺ عن النبي ﷺ قال:**(خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)**[٢].

واختُلف في تحديد مفهوم السلف زمنيًا على عدة أقوالٍ، والعمدة في ذلك كله، هو الحديث المذكور في خيرية القرون الثلاثة، وهذه الأقوال هي:

١- من قَصَرَه على جيل الصحابة ﷺ فقط[٣].

٢- من قَصَرَه على جيل الصحابة والتابعينﷺ، وإليه ذهب أبو حامد الغزالي[٤] في قوله: "اعلم أن الحق الصريح الذي لا مراء فيه عند أهل البصائر، هو مذهب السلف أعني مذهب الصحابة والتابعين"[٥].

٣- أنهم الصحابة والتابعون وتابعوا التابعينﷺ، أي: القرون الثلاثة التي أثبت لها النبي ﷺ الخيرية، كما في حديث عمران بن حصينٍ ﷺ السابق، وإليه ذهب أكثر أهل العلم، قديما وحديثا[٦]، وعليه يدلُّ صنيع شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-، حيث يقول: "سلف الأمة وخيار قرونها"[٧].

---

(١) عِمران بن حُصينٍ بن عُبيدٍ، أبو نجيدٍ الخُزاعي، من علماء الصحابة، أسلم عام خيبر (سنة ٧ هـ)، وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة، وبعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقههم، وتوفي بها سنة ٥٢هـ، وهو ممن اعتزل حرب صفين، له في كتب الحديث ١٣٠ حديثا. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٢٨/١)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(١٢٥/٨)، وصفة الصفوة لابن الجوزي (٢٨٣/١)، والطبقات، لابن سعد(٤/٧).

(٢) أخرجه البخاري، في كتاب الشهادات، باب لا يشهد على شهادة جور إذا أشهد، حديث رقم ٢٦٥١.

(٣) وهو قول عددٍ من شراح الرسالة لابن أبي زيد القيرواني، انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(٩٦/١).

(٤) محمد بن محمد بن محمد، أبو حامدٍ الغزَّالي بتشديد الزاي، وكان أبوه غزَّالاً، أو هو بتخفيف الزاي نسبة إلى (غزاله) قرية من قرى طوس، فقيهٌ شافعيٌ أصولي، متكلمٌ، متصوفٌ، رحل إلى بغداد، فالحجاز، فالشام، فمصر، وعاد إلى طوس، من مصنفاته: البسيط، والوسيط، والوجيز، والخلاصة، وكلها في الفقه؛ وتهافت الفلاسفة، وإحياء علوم الدين. انظر: طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة(١٠١/٤)، والأعلام، للزركلي(٢٤٧/٧)، والوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي(٢٧٧/١).

(٥) إلجام العوام من علم الكلام، لأبي حامد الغزالي، ص ٥٣.

(٦) انظر: التحف فِي مَذَاهِب السّلف، للشوكاني، ص٧-٨. وانظر لوامع الأنوار البهية، للسفاريني (١/ ٢٠).

(٧) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (١٣٤/٧).

٤- أن السلف هم من كانوا قبل الخمسمائة الهجرية، وهذا قول البيجوري[1]؛ فإنه قال: السلف: وهم من كانوا قبل الخمسمائة[2] وشذَّ من قال بهذا الرأي، ولم يتابعه عليه أحدٌ من أهل العلم، ولعل سبب ذهاب البيجوري إلى ذلك، هو رغبته إدخال أئمة الأشاعرة في مفهوم السلف؛ إذ لا يمكن إدخالهم في مفهوم السلف زمنيًا؛ إلا على رأيه هذا، إذ كلهم كانوا بعد القرون الثلاثة، باستثناء الإمام الأشعري[3] الذي توفي سنة ٣٢٤ هـ[4].

والقول الذي عليه جمهور العلماء، أن السلف بالمفهوم الزمني هم أصحاب القرون المفضلة من الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، ومن بعدهم يُسمَّون الخلَف، إذا كانوا على الإسلام، أما المُغيِّرون والمنحرفون فيقال لهم: الخَلْف بسكون اللام، بمعنى: خالف بسوءٍ، فالخلَفَ معهم الإيمان، ولكن هم أنقص من السلف، والخَلْف خَلَف سوءٍ، كما في قول الله ﷻ:﴿ **فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا** ﴾[مريم:٥٩]، فالخلَف بالفتح الصالح، وبالجزم الطالح، وخَلْف بالإسكان تُستعمل في الذم، وخَلَف بالفتح في المدح، ومنه قيل للرديء من الكلام: خَلْفٌ، وهذا هو المستعمل المشهور[5].

وبعد بيان هذا، ينبغي التنبيه لأمرٍ مهم، وهو أنَّنا إذا قلنا بأنَّ المراد بالسلف زمنيًا هم أهل القرون الثلاثة المفضلة، فليس معناه أنَّ كلَّ من عاش في هذه القرون يُعد سلفًا يُقتدي به؛ وذلك لوجود بعض أئمة أهل البدع والأهواء في تلك الحِقبة، ففيها خرجت الخوارج في عهد الخليفة الراشد الرابع علي بن أبي طالب ﷺ، وفيها ظهر التشيع والرفض على يد ابن سبأ اليهودي الذي ادعى الإسلام، وزعم محبة آل البيت،

---

(١) إبراهيم بن محمد أحمد الباجوري شيخ الجامع الأزهر، فقيهٌ شافعيٌ، ولد في الباجور (أو هي البيجور) إحدى قرى المنوفية بمصر، وتعلم في الأزهر، من مؤلفاته: التحفة الخيرية على الفوائد الشنشورية في الفرائض، وتحفة المريد على جوهرة التوحيد، وحاشية على شرح ابن قاسم، وتوفي ١٢٧٧هـ. انظر: معجم المؤلفين، لعمر بن رضا الدمشقي(٢٤٩/١)، وإيضاح المكنون، لإسماعيل بن محمد (٢٤٤/١).

(٢) انظر: تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، للبيجوري، ص ٩١.

(٣) علي بن إسماعيل بن إسحاق، أبو الحسن، من نسل الصحابي أبي موسى الأشعري، مؤسس مذهب الأشاعرة، كان من الأئمة المتكلمين المجتهدين، ولد في البصرة، وتلقى مذهب المعتزلة وتقدم فيهم ثم رجع وجاهر بخلافهم، قيل: بلغت مصنفاته ثلاثمئة كتاب منها مقالات الإسلاميين والإبانة عن أصول الديانة، وتوفي ببغداد ٣٢٤ هـ. انظر: طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة(٢٤٥/٢)، والأعلام، للزركلي(٢٦٣/٤).

(٤) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(١٠٠/١).

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن المعروف بتفسير القرطبي، لأبي عبد الله القرطبي (٣١١/٧).

وفيها نبتت فتنة القدرية[١]، وفيها أيضًا ظهرت بدعة الإرجاء[٢]، وفيها ظهر التجهم، والاعتزال؛ وبهذا يتضح أن القرون الثلاثة عاش فيها سلفٌ صالحٌ يُقتدي به، كما عاش فيها أصحاب أهواءٍ وابتداعٍ، أدخلوا على الإسلام والمسلمين أمورًا ليست من الدين، وفتحوا عليهم أبواب شرٍ عظيمٍ، ما زالت الأمة تعاني من آثاره إلى اليوم، ولكن هذه البدع وأصحابَها كانت حالاتٍ فرديةً شاذةً في أغلبها، لا تُمثِّل أهل تلك الحقبة الزمنية المباركة.

ولذلك فإن السبق الزمني ليس كافيًا في تعيين السلف؛ بل لا بد أن يُضاف إلى هذا السبق الزمني، موافقةَ الكتاب والسنة، فمن خالف رأيُه الكتاب والسنة، فليس بسلفيٍ وإن عاش بين ظهراني الصحابة والتابعين[٣]؛ ولذا فمن المستحسن تقييدُ هذا المصطلح إما بالجمهور؛ ليخرج منهم الشواذ، أو بوصف السلف الصالح، ليخرج الطالح من أهل الأهواء، أو بالتقييد المنهجي الذي سيأتي في التعريف الثاني للسلف.

واختُلف في المراد بكلمة "قرني" في حديث النبي ﷺ السابق، على عدة أقوالٍ، فمن أهل العلم من حدَّده بزمنٍ، واختلفوا في تحديده، من عشرة أعوام إلى مائةٍ وعشرين عاماً[٤]، والمشهور أنه مائةُ عام، ويدلُّ عليه حديث عبد الله بن بُسْرٍ[٥]ﷺ، أن النبي ﷺ وضع يده على رأسه وقال:**(يعيش هذا الغلام قرناً؛ فعاش مائة سنة)**[٦].

ومن أهل العلم من أطلقه من غير تحديدٍ، وقالوا: "القرن هو مقدار التوسط في أهل كل زمانٍ، وكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم"[٧]، وعبَّر عنه ابن حجرٍ

---

(١) القدرية: هم القائلون باستقلال العبد بخلق أفعاله، وكان متقدموهم ينكرون علم الله بالأشياء قبل وجودها، وقد كفَّرهم السلف على ذلك، وقد كان من أعلامهم: معبد الجهني، أما متأخروهم: فيثبتون العلم، وينازعون في مرتبة الخلق، ومن أشهر فرقهم: المعتزلة. انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري(٢/٢٩٨)، ولوامع الأنوار البهية، للسفاريني(١/٢٩٧-٣٠٢).

(٢) الإرجاء والمرجئة: وهم الذين أرجئوا العمل عن الإيمان، اعتقادًا واصطلاحًا، فقالوا: لا يضر مع الإيمان ذنبٌ، كما لا ينفع مع الكفر طاعةٌ، والإيمان عندهم لا يزيد ولا ينقص. انظر: الفرق بين الفرق، للأسفراييني، ص١٩٠-١٩٤.

(٣) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم (١/١٠٢).

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر العسقلاني(٧/٨)، ولسان العرب، لابن منظور(١٣/٣٣٤).

(٥) عبد الله بن بسر المازني، أبو صفوان، ويقال أبو بسر، من بني مازن ابن منصور، صحابيّ، كان ممن صلى إلى القبلتين، توفي بحمص سنة ٨٨هـ، وقيل سنة ٩٦هـ، وهو ابن مائة سنة، وهو آخر الصحابة موتاً بالشام. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني(٤/٢٠-٢٢)، والأعلام، للزركلي(٤/٧٤).

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين(٤/٥٠٠)، رقم ٨٥٢٤، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم(٢٦٦٠).

(٧) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٤/٥١).

العسقلاني[1] بأنهم: "أهل زمانٍ واحدٍ متقاربٍ، اشتركوا في أمرٍ من الأمور المقصودة، وأن مدة القرن تختلف باختلاف أعمار أهل كل زمانٍ، وهو القدر المتوسط من أعمار أهل كل زمنٍ"[2]، ولذا قال أهل العلم: الأصحُّ أنه لا ينضبط بمدةٍ، فقرنُه ﷺ هم الصحابةﷺ، وكانت مدتهم من المبعث إلى آخر من مات من الصحابة، سنة مائة وعشرين للهجرة، وقرنُ التابعين إلى نحو مائةٍ وسبعين للهجرة، وقرنُ أتباع التابعين من ثمَّ إلى نحو العشرين ومائتين، وفي هذا الوقت ظهرت البدع ظهوراً فاشياً، وأطلقت المعتزلة ألسنتها، ورفعت الفلاسفة رؤوسها، وامتُحن أهلُ العلم؛ ليقولوا بخلق القرآن، وتغيرت الأحوال تغيراً شديداً [3].

وبناءً على ما سبق، فقرنُ النبي ﷺ هم الصحابة ﷺ، والثاني: التابعون رحمهم الله، والثالث: تابعوهم رحمهم الله جميعاً.

ب- المفهوم المنهجي لمصطلح السلف: وهو إطلاق التعريف على منهجٍ محددٍ، غير مرتبطٍ بزمنٍ مُعينٍ، وهي الطريقة التي كان عليها الصحابة والتابعون، ومن تبعهم بإحسان، من التمسك بالكتاب والسنة ظاهراً وباطناً، قولاً وعملاً[4].

فالسلف بالمفهوم المنهجي هو: "ما كان عليه الصحابة الكرام ﷺ، وأعيان التابعين لهم بإحسان، وأتباعهم، وأئمة الدين ممن شُهد له بالإمامة، وعُرف عظم شأنه في الدين، وتلقى الناس كلامهم خلفاً عن سلفٍ، دون من رُمي ببدعة، أو شُهر بلقبٍ غير مرضيٍ، مثل: الخوارج، والروافض، والقدرية، والمرجئة، والجبرية[5]، والجهمية[6]، والمعتزلة،

---

(١) أحمد بن عليٍ بن محمدٍ الكناني العسقلاني، أبو الفضل، شهاب الدين، ابن حَجَر، من أئمة العلم والتاريخ، أصله من عسقلان (بفلسطين)، ومولده ووفاته بالقاهرة، أقبل على الحديث، ورحل إلى اليمن والحجاز وغيرهما لسماع الشيوخ، وأصبح حافظ الإسلام في عصره، ولي قضاء مصر مرات ثم اعتزل، تصانيفه كثيرةٌ منها: الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ولسان الميزان، وتقريب التهذيب، والإصابة في تمييز أسماء الصحابة، وبلوغ المرام من أدلة الأحكام، ونزهة النظر في توضيح نخبة الفكر، وفتح الباري في شرح صحيح البخاري، وتوفي سنة ٨٥٢ هـ. انظر: الضوء اللامع، للسخاوي(٣٦/٢)، والبدر الطالع، للشوكاني(٨٧/١)، والأعلام، للزركلي(١٧٨/١).

(٢) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني (٥/٧).

(٣) انظر: لوامع الأنوار البهية، للسفاريني(٣٩١/٢).

(٤) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، لعثمان علي حس (٣٥/١-٣٦).

(٥) الجبرية: هم الذين ينفون الفعل عن العبد، ويضيفونه إلى الرب ﷻ، وهم درجاتٌ، فمنهم الغالي الذي لا يثبت للعبد فعلًا ولا قدرة أصلًا، وهم الجبرية الخالصة، ومنهم من يثبت له قدرة غير مؤثرة، وهم الجبرية المتوسطة كالأشاعرة. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(٨٥/١-٨٦)، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للرازي، ص٦٨-٦٩.

(٦) الجهمية: هم أتباع الجهم بن صفوان، يرون الجبر والاضطرار إلى الأعمال، وأن الإيمان هو المعرفة بالله، والكفر هو الجهل به، وأن الجنة والنار تفنيان وتبيدان، وأن القرآن مخلوقٌ، وهم معطلةٌ للأسماء والصفات. انظر: الفرق بين الفرق، للأسفراييني، ص١٩٩، والفِصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم(١٥٥/٤).

والكرَّامية[١]، ونـحو هؤلاء"[٢].

ويشهد لهذا المعنى، ما ورد في بعض روايات حديث الافتراق، عندما قال ﷺ عن الفرقة الناجية:(**وتفترق أمتي على ثلاثٍ وسبعين ملةً، كلُّهم في النار إلا ملةٌ واحدةٌ، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي)**[٣]، فالنبي ﷺ لم يربط الفرقة الناجية بما كان عليه أهل فترةٍ زمنيةٍ مُحددةٍ، وإنما بمنهجٍ واضحٍ محدد المعالم، وهو ما عليه النبي ﷺ ، وأصحابه ﷺ، وهذا يشمل كل ما كانوا عليه في الاعتقادات والعبادات والمعاملات والأخلاق والسلوك.

وبناءً على ذلك، فمفهوم السلف مرتبطٌ بهذا المنهج، وإنْ تأخَّر به الزمان، فمن التزمه فهو سلفيٌّ، وإن كان في العصور المتأخرة، فتُطلق كلمة السلفيِّ أو السلفيَّة على كلِّ من اتبَّع ذلك المنهج من المتقدمين والمتأخرين، ممن أحيا سنة السلف المتقدمين ودعا إلى الالتزام بما كانوا عليه من الفهم والعمل والاعتقاد، قال الشيخ ابن عثيمين[٤]: "هل يُمكن أن تكون السلفية في وقتنا الحاضر؟ نعم يمكن، ونقول: هي سلفيةُ عقيدة، وإن لم تكن سلفيةً زمناً؛ لأن السلف سبقوا زمناً، لكن سلفية هؤلاء سلفيةُ عقيدة؛ بل عقيدةٌ وعملٌ"[٥].

فالتحديد الزمني ليس شرطًا في ذلك؛ بل الشرط هو موافقةُ الكتاب والسنَّة في العقيدة والأحكام والسلوك بفهم السَّلف، فكلُّ من وافق الكتاب والسنة فهو من أتباع السَّلف، وإن باعد بينه وبينهم المكان والزمان، ومن خالفهم فليس منهم وإن عاش بين ظهرانيهم[٦].

ويُطلق على السلف الصالح ﷺ، عدة تسمياتٍ وألقابٍ، كلُّها أُخذت من أوصافهم التي وردت على لسان المصطفى ﷺ، وتدلُّ على حالهم، وتُطابق منهجهم، ومن هذه التسميات والألقاب أهل

---

(١) الكرَّامية: هم أتباع أبي عبد الله محمد بن كرَّام، وهو يثبت الصفات إلا أنه ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه، ويقولون بحلول الحوادث في ذات الرب ﷻ، وبالتحسين والتقبيح العقليين كما المعتزلة، وإن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط، كما الكفر واقع باللسان، وقد تفرقت إلى اثنتي عشرة فرقة. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(١/١٠٨-١١٣)، والفرق بين الفرق، للأسفراييني، ص٢٠٢-٢١٤.

(٢) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني (١/٢٠).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة،(٥/٢٦) رقم٢٦٤١، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٥٣٤٣.

(٤) أبو عبد الله محمد بن صالح بن محمد العثيمين، فقيهٌ ومفسرٌ ولغويٌ وأصوليٌ سلفيٌ حنبليٌ، من كبار علماء البلد الحرام والعالم الإسلامي قاطبة، له مؤلفاتٌ عديدةٌ تميزت بتحرير المسائل وسهولة العبارة وتقريب المعاني، منها: الشرح الممتع على زاد المستقنع، والقواعد المثلى، وشرح رياض الصالحين، وشرح العقيدة الواسطية، من شيوخه: ابن باز والسعدي ومحمد الأمين الشنقيطي، ت ١٤٢١ هـ. انظر: المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين، لأعضاء موقع ملتقى أهل الحديث(١/٢٩٨)، والوفيات والأحداث، لموقع ملتقى أهل الحديث(١/٢١٧).

(٥) شرح العقيدة السفارينية، لابن عثيمين، ص١٩.

(٦) انظر: الوجيز في عقيدة السلف الصالح، لعبد الله الأثري، ص٢٨.

السنة والجماعة، وقد يُطلق عليهم أهل السنة فقط، دون إضافة الجماعة، وقد يُطلق عليهم الجماعة فقط، وأهل الأثر أو الأثرية، وأهل الحديث، والفرقة الناجية، والطائفة المنصورة.

فهؤلاء هم سلفنا الصالح، الذين أُمرنا باتباعهم واقتفاء أثرهم، وهذه هي أسماؤهم وألقابهم المشرِّفة، والتي ظلَّت على مدار التاريخ تدلُّ على الطائفة التي أعزها الله ﷻ، وحفظ بها دينَه، وأظهرها على من عاداها وخالفها، من أهل الزيغ والضلال.

وبعد التعرف على معنى الفهم والنص والسلف، نخلص إلى تعريف فهم السلف للنص الديني، وهو ما عَلِمه وفَقِهه واستنبطه الصحابة والتابعون وأتباعهم، من مجموع النصوص الشرعية أو أفرادها، مراداً لله ﷻ ولرسوله ﷺ ، مما يتعلق بمسائل الدين العلمية والعملية.

ثانياً: مكانة السلف الصالح:

إنَّ للسلف الصالح مكانةً عظيمةً، ومنزلةً رفيعةً في نفس كل مسلمٍ صادق، فحُبُّهم دينٌ وإيمانٌ، وموافقتهم شرفٌ واهتداءٌ، ومخالفتهم ضلالٌ وانحرافٌ، وبغضهم نفاقٌ وطغيانٌ، وإنَّ من عظيم مكانتهم، واعتقاد حُبِّهم واتِّباعهم أنَّ الله ﷻ أثنى عليهم في كتابه الكريم، وأثنى عليهم رسوله ﷺ، لما لهم من المحاسن والفضائل التي لا يمكن أن يلحقهم فيها من جاء بعدهم، فهم خير من جاء في أمة محمد ﷺ.

ومن ثناء الله ﷻ على السَّلف في كتابه العزيز، قولُه ﷻ:﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[التوبة:١٠٠] ، ففي هذه الآية "أخبر الله ﷻ أنه قد رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم، أو سَبَّهم، أو أبغض، أو سبَّ بعضَهم، فإن الطائفة المخذولة من الرافضة يعادون أفضل الصحابة، ويُبغضونهم ويسبونهم، عياذاً بالله من ذلك، وهذا يدلُّ على أن عقولهم معكوسةٌ، وقلوبهم منكوسةٌ، فأين هؤلاء من الإيمان بالقرآن، إذ يسبون من رضي الله عنهم؟"[١].

وأثنى عليهم الرسول ﷺ ثناءًا عاطراً، ويكفيهم فخراً أنه ﷺ كان راضياً عنهم، وشهد بخيريتهم، ومن ثناءه ﷺ على السلف عامةً والصحابة خاصةً، قوله ﷺ :**(لا تسبوا أحداً من أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه)**[٢]، بل جاء في فضلهم ما هو أعظم من

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير(٢٠٣/٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذا خليلا، حديث رقم ٣٦٧٣.

ذلك، فعن ابن عمر رضي الله عنه أنَّه قال: "لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ فإن مَقام أحدهم ساعةً- يعني مع النبي ﷺ أفضل من عمل أحدكم عمره" [1].

وعن عمران بن حصينٍ رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال:**(خيرُكم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم)**[2]، فهذا دليلٌ على أفضلية السلف، وعلى أن ترتيبهم في الفضل كترتيبهم في الوجود، فقد تركهم النبي ﷺ على محجةٍ بيضاء صافيةٍ، فعن العِرباض بن ساريةٍ[3] رضي الله عنه، قال:" وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، قلنا: يا رسول الله، إن هذه لموعظة مودعٍ، فماذا تعهد إلينا؟ قال:**(قد تركتكم على البيضاء، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ، ومن يَعشْ منكم، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)**[4].

ولقد فاض كلام الصحابة رضي الله عنهم، في الثناء على السلف، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:"إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمدٍ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمدٍ ﷺ ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه"[5]، وقال رضي الله عنه أيضاً:"من كان منكم متأسياً فليتأسَّ بأصحاب محمدٍ ﷺ ؛ فإنهم كانوا أبرَّ هذه الأمة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلها تكلفاً، وأقومها هدياً، وأحسنها حالاً، قوماً اختارهم الله تعالى لصحبة نبيه ﷺ ، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدي المستقيم"[6].

وقال حذيفة بن اليمان[7] رضي الله عنه: "اتقوا الله يا معشر القراء، وخذوا طريق من كان قبلكم، فلعَمري لئن اتبعتموه، لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن تركتموه يمينًا وشمالًا، لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا"[8]؛ وبناءً على

---

(١) أخرجه البيهقي في الاعتقاد(٣٢٣/١)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٣٢٣/٧)، رقم ٢٣٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يُحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها، رقم ٦٤٢٨.

(٣) العرباض بن سارية السُّلمي، ويكنى أبا نجيح، كان من أهل الصفة، توفي بالشام سنة خمس وسبعين في أول خلافة عبد الملك ابن مروان. انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد(٢٨٩/٧)، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر(١٢٣٩/٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، في افتتاح الكتاب، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، رقم ٤٣، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٩٣٧.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (٨٤/٦)، رقم ٣٦٠٠، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٦) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، (٩٤٧/٢)، رقم ١٨١٠.

(٧) حذيفة بن حِسل بن جابر العبسيّ، أبو عبد الله، واليمان لقب حسل، صحابي، من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سر النبي ﷺ في المنافقين، ولاه عمر على المدائن بفارس، فأقام بينهم وأصلح بلادهم، وفتح نهاوند والدينور، وهمذان والري، وتوفي بالمدائن ٣٦هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٢١٩/٢)، والإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني(٣١٧/١)، وحلية الأولياء، للأصفهاني(٢٧٠/١)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي(٢٤٩/١).

(٨) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، (٩٤٧/٢)، رقم (١٨٠٩).

ذلك، فأفضل العلوم في تفسير القرآن، ومعاني الحديث، والكلام في الحلال والحرام، ما كان مأثورًا عن الصحابة والتابعين وتابعيهم من أئمة الإسلام المشهورين، المُقتدى بهم، وفي ذلك يقول ابن مسعود ﷺ:"إنكم في زمانٍ كثيرٌ فقهاؤه، قليلٌ خطباؤه، قليلٌ سؤاله، كثيرٌ مُعطوه، العمل فيه قائدٌ للهوى، وسيأتي من بعدكم زمانٌ، قليلٌ فقهاؤه، كثيرٌ خطباؤه، كثيرٌ سؤاله، قليلٌ مُعطوه، الهوى فيه قائدٌ للعمل، اعلموا أن حسن الهدي، في آخر الزمان، خيرٌ من بعض العمل"[١].

ولقد امتلأت مصنفات علماء الإسلام، عبر القرون الإسلامية، بالثناء على ما كان عليه الرعيلُ الأول من الصحابة والتابعين ومن بعدهم؛ وما كانوا عليه من الهدى في العلم والعمل،

فقد قال الإمام الأوزاعي[٢] –رحمه الله–: "العلم ما جاء عن أصحاب محمدٍ ﷺ، وما لم يجئ عن واحدٍ منهم، فليس بعلمٍ"[٣]، وقال أيضاً: "اصبر نفسك على السنة، وقِف حيث وقف القوم، وقل فيما قالوا، وكفَّ عما كفُّوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم"[٤].

وقال الحافظ ابن رجبٍ الحنبلي[٥] –رحمه الله– في كتابه النافع – فضل علم السلف على الخلف–: "وقد ابتُلينا بجهلةٍ من النَّاس، يعتقدون في بعض من توسَّع في القول من المتأخرين، أنه أعلم ممن تقدَّم، فمنهم من يظنُّ في شخصٍ أنَّه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم، لكثرة بيانه ومقاله، وهذا تنقصٌ عظيمٌ بالسلف الصالح، وإساءة ظنٍ بهم، ونسبته لهم إلى الجهل، وقصور العلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله"[٦].

وقال شيخُ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– في بيان فضلهم: "وأصحابُ رسول الله ﷺ خيار المؤمنين"[٧]، وقال في موضعٍ آخرٍ: "ومن المعلوم بالضرورة لمن تدبر الكتاب والسنة، وما اتفق عليه أهلُ السنة والجماعة من جميع الطوائف، أنَّ خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقاد

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب المفرد،(١/٢٧٥)، رقم ٧٨٩، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٣١٨٩.

(٢) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد الأوزاعي، من قبيلة الأوزاع، أبو عمرو، إمام الديار الشامية في الفقه والزهد، وأحد الكتاب، ولد في بعلبك، ونشأ في البقاع، وسكن بيروت وتوفي بها، عُرض عليه القضاء فامتنع، من مصنفاته: السنن (في الفقه)، المسائل، ويقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عليها كلها، توفي سنة: (١٥٧هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٣/٣٢٠).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر،(١/٦١٧)، رقم ١٠٦٧.

(٤) أخرجه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة(١/١٧٤)، رقم ٣١٥، والأصبهاني في حلية الأولياء (٦/١٤٣).

(٥) عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السّلامي البغدادي ثم الدمشقيّ، أبو الفرج، زين الدين، حافظ للحديث، من العلماء، ولد في بغداد ونشأ وتوفي في دمشق، من كتبه جامع العلوم والحكم، ولطائف المعارف، وأهوال القبور، وتوفي ٧٩٥هـ. انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر العسقلاني(٢/٣٢١)، والأعلام، للزركلي(٣/٢٩٥).

(٦) بيان فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب الحنبلي(١/٥). بتصرف يسير

(٧) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٥/٥٩).

وغيرها من كل فضيلةٍ، القرنُ الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، وأنهم أفضل من الخلف في كل فضيلةٍ، من علمٍ، وعملٍ، وإيمانٍ، وعقلٍ، ودينٍ، وبيانٍ، وعبادةٍ، وأنّهم أولى بالبيان لكل مشكلٍ، وهذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علمٍ"[١].

وقال الإمام محمد بن صَبيحٍ بن السَمَّاك[٢]– رحمه الله–، ردَّاً على من انتقص السلف والصحابة: "أيها العائب لأصحاب محمدٍ ﷺ ، لو نمتَ ليلك، وأفطرت نهارك، لكان خيراً لك من قيام ليلك، وصوم نهارك، مع سوء قولك في أصحاب رسول الله ﷺ ، فويحك لا قيامُ ليل، ولا صومُ نهار، وأنت تتناول الأخيار، فأبشر بما ليس فيه البشرى، إن لم تتب مما تسمع وترى، وبم تحتج يا جاهل إلا بالجاهلين، وشرُّ الخلف خلفٌ شتم السلف، لواحدٌ من السلف خيرٌ من ألفٍ من الخلف"[٣].

وختاماً ممَّا يرفع من فضل السلف ومكانتهم، جهودُهم في خدمة العقيدة، ولهذا ما ظهرت بدعةٌ ومُحْدثةٌ في الدين، إلا ووقف السلفُ بكل حزمٍ وشجاعةٍ ويقينٍ لردِّها، والإنكار عليها، وعلى أهلها، لا تأخذهم في الله لومة لائمٍ، فحفظ الله بهم الدين، وأتم بهم النعمة.

ثالثاً: حقيقة الانتساب إلى السلف:

إنَّ المُتأملَ في واقع المسلمين اليوم، يجدُ أن كثيراً من الجماعات والأشخاص، يدَّعون الانتساب إلى السلف، وهذه الدعوى قد يدَّعيها الصادق والكاذب، ويدَّعيها من لا يَعِي معناها، ومن هم متلبسون بمخالفاتٍ بينةٍ لعقيدة السلف اعتقاداً ومنهجاً وسلوكاً، وربما يدَّعي بعضهم أنَّه وحدَه الجدير بحيازة هذا اللقب، والأدهى من ذلك أن يستدل هؤلاء بالكتاب والسنة على صحة مسلكهم، ويؤلون النصوص لتوافق أهوائهم.

ومن جهةٍ أخرى فإنَّ من الناس من يسعى إلى جمع المسلمين على غير كلمةٍ سواء، إنما على ما افترقوا عليه من اختلاف المعتقدات والضلالات والبدع، ولا شك أن جمع كلمة المسلمين هدفٌ عظيمٌ، ولا يُنكره إلا ضالٌ أو جاهلٌ، لكنَّ جمع كلمة المسلمين يجب أن يكون على الحق، وعلى الكتاب والسنة، والاعتصام بالله، لا على مجرد الشعارات.

ولذلك كان من الواجب بيانُ حقيقة الانتساب إلى السلف، وما يترتب على هذا الانتساب من التزاماتٍ في حق من ينتسب إليهم.

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٥٧/٤).

(٢) أبو العباس محمد بن صَبيحٍ العجلي مولاهم الكوفي، المعروف بابن السماك، الزاهد، القدوة، سيد الوعاظ، روى عن: هشام بن عروة، والأعمش، وروى عنه: أحمد بن حنبل، توفي سنة ١٨٣هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٣٢٨/٨).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(١٥٤٧/٨).

ولا شك أن المسلمين اليوم أفراداً وجماعاتٍ، منهم من هو جديرٌ بالانتساب إلى السلف الصالح، ومنهم من هو بعيدٌ كلَّ البعد عن السلف ومنهجهم، ومنهم من لا يهمُّه إلى أي عقيدةٍ ينتمي؛ ولذلك سنسلط الضوء في هذا المطلب على نقطتين مهمتين في هذا الموضوع وهما:

أ- حكم التسمِّي بالسَّلفيِّ أو السَّلفيّة

ذكر الباحث فيما سبق معنى السلف بالمفهوم التاريخي، والمفهوم المنهجي، فالسلف بالمفهوم التاريخي حقبةٌ زمنيةٌ قد انتهت، وهي القرون الثلاثة المفضلة، فلا يصحُّ أن ينتسب إليهم أحدٌ بعد هذه القرون بهذا المعنى، وأما بالمفهوم المنهجي فيجوز الانتساب إليهم، ممن امتثل هذا المنهج قولاً وعملاً، ظاهراً وباطناً، فهو بهذا المعنى يُسمى سلفياً، وإن تأخَّر به الزمان.

وقد انتقد بعضُ أهل العلم المعاصرين من سَمَّى نفسه سلفيَّاً أو أثريَّاً، وقالوا: أنَّ هذا من باب التزكية للنفس(١)، وأنَّ الأصل أن نُسمِّي أنفسنا بالمسلمين، كما سمَّانا الله ﷻ في كتابه، ولا نخرج عن هذه التسمية؛ ولذلك اعتبر البعض أنَّه "من الخطأ أن نعمد إلى كلمة السلف، فنصوغَ منها مصطلحاً جديداً طارئاً على تاريخ الشريعة الإسلامية، ألا وهو السلفية، فنجعله عنوانًا مميزًا تتدرج تحته فئةٌ معينةٌ من المسلمين"(٢).

وقد انتقد بعضُ أهل العلم المعاصرين أن يتسمَّى بالسلفيِّ أو السلفيِّين من لا يُحقِّقون مقصودها؛ فتكون من باب الادِّعاء، أو من يجعلون السلفية حزباً لا منهجاً، ويُحمل اعتراض العلماء في ذلك، على من تسمَّى بالاسم وهو لا يستحقُّه، وإلَّا فهم مجمعون على وجوب اتباع السلف في منهجهم.

قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-:" ولا شكَّ أنَّ الواجب على جميع المسلمين أن يكون مذهبُهم مذهب السلف، لا الانتماء إلى حزبٍ مُعينٍ يُسمَّى السلفيين، والواجب أن تكون الأمة الاسلامية مذهبُها مذهب السلف الصالح، لا التحزُّب إلى من يُسمَّى السلفيُّون، فهناك طريق السلف، وهناك حزبٌ يُسمَّى السلفيُّون، والمطلوب اتِّباع السلف"(٣).

وقال الشيخ صالح الفوزان:" التسمِّي بالسلفية إذا كان حقيقةً لا بأس به، أمَّا إذا كان مجرَّد دعوى؛ فإنَّ هذا لا يجوز له أن يتسمَّى بالسلفية، وهو على غير منهج السلف، المطلوب أنَّ الإنسان يتَّبع الحق، ويبحث عن الحق، ويطلب الحق، ويعمل به، أمَّا أنَّه يتسمَّى بأنَّه سلفيٌّ أو أثريٌّ، أو ما أشبه ذلك، فلا داعي لهذا، والتسمية جائزةٌ على حسب الحاجة، إذا احتاج إلى هذا، بأن صار بين

---

(١) انظر: موقع شبكة العلوم السلفية، مقال منشور بتاريخ ٢٠٠٩/٨/٢٠، ضمن الأجوبة الذهبية على الأسئلة المنهجية، للشيخ محمد أمان الجامي- رحمه الله-.http://aloloom.net/vb/showthread.php?t=3548 .

(٢) السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، لمحمد البوطي، ص ١٣.

(٣) شرح الأربعين النووية، للعثيمين(٢٨٢/١).

أناسٍ يظهرون مظهر المخالفين، فهو يذكر هذا من أجل أن يُبيِّن أنَّه ليس على عقيدة هؤلاء، إذا دعت إليه الحاجةُ فلا بأس، أمَّا إذا لم تدعُ إليه حاجةٌ؛ فلا ينبغي هذا؛ لأنَّه من تزكية النفس ومن التمدُّح؛ إنَّما يجوز هذا عند الحاجة فقط"(1).

إنَّ المتتبع لأقوال أهل العلم السابقين والمعاصرين، يجد أن هذه التسمية تسميةٌ شرعيةٌ عند ثبوتها في حق الشخص أو الجماعة، ولها لوازمُ مترتبةٌ عليها، ومن ينكرها أو ينتقدها؛ فإنه يقول ذلك في حقِّ من يدَّعي الانتساب إلى السلف وهو لا يتبع منهجهم، فالخلاف كما يبدو للباحث في هذه المسألة لفظيٌّ اصطلاحيٌّ، لا اختلاف تضاد، ولتقرير ذلك فهذه بعض أقوال أهل العلم في ذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" لا عيب على من أظهر مذهب السلف، وانتسب إليه، ورجع إليه، بل يجب قبول ذلك منه بالاتفاق، فإن مذهب السلف لا يكون إلا حقا"(2).

وقد يُوصف الرجل بهذا الوصف إخباراً عن حاله، كما قال الذهبي(3)- رحمه الله- عن الدارقطني(4)- رحمه الله-:" لم يدخل الرجل أبداً في علم الكلام ولا الجدال، ولا خاض في ذلك، بل كان سلفيا"(5)، وقد جاء في كتاب الأنساب للسمعاني(6)- رحمه الله-، قال:" السَلَفيُّ بفتح السين واللام

---

(1) انظر: موقع الألوكة الإسلامي، المجلس العلمي،اشراف الدكتور سعد بن عبد الله الحميد، مقال منشور بتاريخ 4جمادى الأولى-١٤٣١هـ، على الرابط http://majles.alukah.net/t56052/#ixzz2p5fRuaQA، وانظر منتديات الهدى والنور السلفية http://alhouda-wannour.com/vb/showthread.php?p=6406 ضمن الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة.

(2) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٤٩/٤).

(3) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، شمس الدين، أبو عبد الله، حافظ، مؤرخ، علامة محقق، تركمانيّ الأصل، مولده ووفاته في دمشق، رحل إلى القاهرة وطاف كثيرا من البلدان، وكف بصره أخر عمره. تصانيفه كبيرة كثيرة تقارب المئة، منها: دول الإسلام، وتاريخ الإسلام الكبير، وسير أعلام النبلاء، والعبر في خبر من غبر، والكبائر، وميزان الاعتدال في نقد الرجال، وتوفي ٧٤٨هـ. انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر(٣٣٦/٣)، والنجوم الزاهرة، لأبي المحاسن الحنفي(١٨٢/١٠)، والأعلام، للزركلي(٣٢٦/٥).

(4) علي بن عمر بن أحمد بن مهدي، أبو الحسن الدّارقطنيّ الشافعيّ، إمام عصره في الحديث،، ولد بدار القطن (من أحياء بغداد)، ورحل إلى مصر، وعاد إلى بغداد فتوفي بها ٣٨٥هـ، من تصانيفه: كتاب السنن، والعلل الواردة في الأحاديث النبويّة، والمجتبى من السنن المأثورة، والمؤتلف والمختلف، والضعفاء. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٣٣١/١)، وطبقات الشافعية، للسبكي(٣١٠/٢)، والأعلام للزركلي(٣١٤/٤).

(5) سير أعلام النبلاء، للذهبي(٤٥٧/١٦).

(6) عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد، مؤرخ رحالة من حفاظ الحديث، رحل إلى أقاصي البلاد، ولقي العلماء والمحدثين، وأخذ عنهم، وأخذوا عنه، من كتبه: الأنساب، وتاريخ مرو، وأدب الإملاء والاستملاء، والتحبير في المعجم الكبير، توفي ٥٦٢هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٣٠١/١)، والنجوم الزاهرة، لأبي المحاسن الحنفي(٥٦٣/٥)، والأعلام، للزركلي(٥٥/٤).

وفي آخرها الفاء، هذه النسبة إلى السلف، وانتحال مذهبهم على ما سمعت"[١]، وقال ابن الأثير[٢]- رحمه الله-عَقْب كلام السمعاني السابق: "وعُرف به جماعةٌ"[٣]، وهذا يعني: أن التلقب بالسلفية والانتساب إليها عُرف في عصر الإمام السمعاني أو قبله، وأطلق شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- لقب "السلفية" في بعض مصنفاته[٤].

وكذلك أطلق هذه النسبةَ وهذا اللقبَ، علماءُ أفاضل في عصرنا الحاضر، عُرفوا بالتمسك بالسنَّة، والذبِّ عنها، كالشيخ عبد الرحمن المُعلِّمِي[٥]- رحمه الله- في كتابه "القائد إلى تصحيح العقائد"، والشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني[٦]- رحمه الله- في كتابه "مختصر العلو"، ومقدمته لشرح العقيدة الطحاوية، وكتابه "التوسل"، والشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز[٧]- رحمه الله-، وغير هؤلاء كثيرٌ من أهل العلم المعاصرين[٨]، وقال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-:"فأهل السنة والجماعة هم السلف معتقداً، حتى المتأخر إلى يوم القيامة إذا كان على طريقة النبي ﷺ

---

(١) الأنساب، للسمعاني (١٦٨/٧).

(٢) علي بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانيّ الجزري، أبو الحسن عز الدين ابن الأثير، المؤرخ الإمام، فكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء، وتوفي سنة ٦٣٠هـ، من تصانيفه: "الكامل" في التاريخ مرتب على السنين، بلغ فيه عام ٦٢٩هـ، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، و"اللباب" اختصر به أنساب السمعاني وزاد فيه. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٣٧٤/١)، والأعلام، للزركلي(٣٣١/٤).

(٣) اللباب في تهذيب الأنساب، لابن الأثير(١٢٦/٢).

(٤) انظر مثلاً: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية(٤٠٨/١)،(٨٢/٥)،(١١٠/٦).

(٥) عبد الرحمن بن يحيى بن علي بن محمد المُعلِّمي العتمي، فقيهٌ من العلماء، نسبته إلى (بني المعلم) من بلاد عتمة، باليمن، تولى رئاسة القضاة ولقب بشيخ الإسلام، سافر إلى الهند وعمل في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد، مصححا كتب الحديث والتاريخ زهاء ربع قرن، ثم عاد إلى مكة ، فعُين أميناً لمكتبة الحرم المكيّ إلى أن فارق الحياة ١٣٨٦هـ، ودُفن بمكة، من تصانيفه: الأنوار الكاشفة في الرد على كتاب (أضواء على السنة) لمحمود أبي رية، وكتاب العبادة، وحقق كثيرا من الكتب. انظر: الأعلام، للزركلي(٣٤٢/٣).

(٦) محمد ناصر الدين نوح نجاتي الألباني، محدث وفقيه سلفي، ولد في مدينة أشقودرة عاصمة دولة ألبانيا، ثم هاجر وهو صغير بصحبة والده إلى دمشق الشام للإقامة الدائمة فيها، من تلاميذه: مقبل الوادعي، وربيع المدخلي، وعلي الحلبي، ومشهور حسن سلمان، وسليم الهلالي، ومن مؤلفاته: سلسلة الأحاديث الصحيحة، وسلسلة الأحاديث الضعيفة، وصفة صلاة النبي ﷺ كأنك تراه ، توفي ١٤٢١هـ. انظر: الوفيات والأحداث، لأعضاء موقع ملتقى أهل الحديث(٢١٦/١).

(٧) عبد العزيز بن عبد الله بن باز، محدث سلفي وفقيه حنبلي، مفتي المملكة العربية السعودية، ورئيس هيئة كبار العلماء، ورئيس اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء، من شيوخه: محمد بن إبراهيم آل الشيخ، ومن تلاميذه: ابن عثيمين وابن جبرين وصالح الفوزان وابن غديان، ت ١٤٢٠ هانظر: الوفيات والأحداث، لأعضاء موقع ملتقى أهل الحديث (٢١٦/١).

(٨) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(١١٠/١).

وأصحابه، فإنه سلفي"[1]، فهؤلاء الأفاضل من أهل العلم، لم يرَوا باسًا في إطلاق لقب "سلفي" أو "السلفيين"، مشيرين به إلى أولئك السائرين على منهاج السلف وطريقتهم.

وعليه يتبين جواز أن يُسمَّى الرجل سلفياً؛ لاتباعه لمنهج السلف وتأسيه بهم، وأقلُّ ما يقالُ في ذلك، هو جواز التلقب بذلك والانتساب إليه، وأنه اصطلاحٌ ولا مشاحة في الاصطلاح، ما دام المعنى صحيحًا، وحقًا في أصله، كما تقدم كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في ذلك.

وإنْ احتجَّ بعض من ينكر هذه التسمية، بأنَّها لم تكن موجودةً على عهد النبي ﷺ صراحةً، فنقول إنها كانت موجودةً ضمناً في كلام النبي ﷺ ، الذي وضَّح فيه منهج الفرقة الناجية، عندما قال:**(هم على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي)**[2]، ثم إنَّه لم يكن هناك حاجةٌ لهذه التسمية في عهد النبي ﷺ ؛ لأنهم كانوا على الدِّين القويم، وعلى الصراط المستقيم، ولكن لمَّا ظهرت البدع بعدهم، احتيج لهذه التسمية؛ ليتميز أهل الحق والاتِّباع عن غيرهم من أهل الزيغ والضلال، فلا حرج في الانتساب للسلفية، إن كانت التسمية لمن يستحقها، ويحقق لوازمها.

وبلا شكٍ العبرةُ بالحقائق لا بالدعاوي والمسميات، فمن كان على منهج السلف فهو سلفيٌّ، وإن لم يتسمَ بذلك، ومن خالف منهجهم فليس بذاك وإن تسمَّى بذلك.

والتسمِّي بالسلفية لا يلزمُ منه ترك التسمِّي بالإسلام، ولكن الهدف منه التفريق بين المسلم الذي ينتهج الإسلام ويتأوله على هواه، وبين المسلم الذي ينتهج الإسلام الحق بفهم خير القرون.

ومجرد النسبة للسلف في التسمية هو مباحٌ من المباحات، ولا يرتبط بمجرد النسبة ثوابٌ ولا استحبابٌ، وإنما يدخل الثواب والاستحباب على صاحب هذه النسبة من جهة دلالة هذه النسبة على التمسك بما كان عليه السلف، ثم من جهة قصده الحسن في التعلق بالانتساب للسلف.

وينبغي التنبيهُ هنا أنَّه قد ظهر في زماننا من يجعل السلفية حزباً من الأحزاب، ويقصر الحق على نفسه، وهذا ظلمٌ وافتراءٌ وقصورُ نظر، فالسلفيةُ ليست حزبًا، أو تكتلاً، أو فكرًا بشريًّا، إنما هي منهج حياة للمسلمين كلِّهم على اختلاف طبقاتهم ومستويات تعليمهم، فأكثر المسلمين سلفيُّون، وإن كان بعضهم ربَّما لم يسمع بالسلفية، ولا ببقية التسميات الأخرى، لا سيَّما العوام، فالسلفيةُ لا يمكن أن تُختزل فى جماعةٍ أو حزبٍ، بل السلفيةُ هي الإسلام الذي نزل على محمدٍ ﷺ بفهم أصحابه ﵃، فهي شاملةٌ لكل الدين، وليس هناك سلفيةٌ علميةٌ، وسلفيةٌ جهاديةٌ، وسلفيةٌ تعبديةٌ، فالدين واحدٌ، وإن اختلفت شرائعه، ولا مانع من اختلاف التنوُّع الذي يُنمِّي العمل، ويرتقي به، فتهتم طائفةٌ بشريعةٍ من

---

(١) شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين (٥٤/١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة،(٢٦/٥) رقم٢٦٤١، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٥٣٤٣.

الشرائع كالدعوة والتعليم، وتهتم طائفةٌ أخرى بشريعةٍ أخرى كالجهاد والإعداد، وهكذا، ويتعاون الجميع على العمل لرفعة هذا الدين.

ب- حقيقة الانتساب إلى السلف ومستلزماته:

إنَّ الانتساب إلى السلف الصالح ﷺ، ليست كلمةً تُقال بدون تطبيقٍ وامتثالٍ للمنهج، وليست شعاراً يرفعه البعض، وواقعهم يُخالف ذلك، وإنما تكون حقيقة الانتساب الى السلف من جهة التزام منهجهم في التلقي والاستدلال، ومن جهة الاعتقاد باعتقادهم في مسائل الدين العلمية والعملية، التي تميزهم عن أهل البدع والأهواء، وهذا الانتساب ليس مقتصراً على الجانب العقدي العلمي فقط، بل هو شاملٌ لجميع الجوانب التي تناولها الإسلام من العبادات والمعاملات والسلوك والاخلاق وغيرها.

ومن لوازم الانتساب الى السَّلف ما يلي:

١- أن يتعلَّم عقيدتهم، وأن يتشبَّع بها، وأن يكون مُلماً بأصولها في الجُملة، وأن يتقيد بمضمون هذه العقيدة، فلا يُقبل أن يدَّعي الانتسابَ للسلف من يُؤَولُ صفاتِ الله ﷻ، ويقول على الله بغير علمٍ، ويقعُ فيما حذَّر منه السلف رحمهم الله من تقديم العقل وكلام الرجال على كلام الله وكلام رسوله، قال الإمام الشاطبي[١] رحمه الله:" ولقد زل بسبب الإعراض عن الدليل والاعتماد على الرجال أقوامٌ، خرجوا بسبب ذلك عن جادة الصحابة والتابعين، واتبعوا أهواءهم بغير علمٍ؛ فضلوا عن سواء السبيل"[٢].

٢- لا بد أن يدعوَ إلى هذه العقيدة على بصيرةٍ وهدىً، ويُبينها للناس، ويذودَ عنها، ويتبرأ من البدع والشركيات، فمثلاً السلف لا يتمسحون بالقبور والأحجار والآثار والصخور، ولا يدعون غير الله ﷻ، ولا يستغيثون بالأموات، وغير ذلك من البدعيات.

٣- يجبُ عليه أن يظهر أثر ذلك على أفكاره وأهدافه، وأقواله وكتاباته، وعلى سلوكه وأعماله، فيتمسكَ بالسنن والأخلاق الفاضلة، والعجبَ كلُّ العجبِ أن يدَّعي الانتساب للسلف من يُدافع عن البدع، أو يُروِّج لها، أو يرضى بها، وأين هذا من عقيدة السلف؟!.

٤ – أن يُواليَ دعوتهم ودعاتهم وأئمتهم السابقين والمعاصرين، وأن يردَّ على من انتقصهم، وحارب دعوتهم، ويتمايز عن أهل البدع والضلال، وتكون عنده مفاصلةٌ في الحق، ولكن من غير تعصبٍ أعمىً مقيتٍ، يصمُّ الآذان عن سماع الحق، ويُعمي الأبصار عن رؤية الدليل، ومن غير جعلِ أساسِ الحبِّ والبُغض آراءَ الرجال ومذاهبهم، وإنما الفيصلُ في ذلك الدليلُ الشرعيُّ من الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله:" وليس لأحدٍ أن يُنصِّبَ للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها، غير النبي ﷺ ، ولا يُنصِّب لهم كلاماً يوالي عليه ويعادي، غير كلام

---

(١) إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، أصولي حافظ، من أهل غرناطة، كان من أئمة المالكية، من كتبه: الاعتصام، الموافقات، أصول النحو، توفي سنة: (٧٩٠هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٥٧/١).

(٢) الاعتصام، للشاطبي(٨٦٣/٢).

الله ورسوله، وما اجتمعت عليه الأمة، بل هذا من فعل أهل البدع، الذين يُنصِّبون لهم شخصاً، أو كلاماً، يُفرِّقون به بين الأمة، ويوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويعادون"(١).

ولذلك فإن السلفيين يعذر بعضهم بعضًا في اجتهاده المبنيِّ على الدليل، بعد استفراغ الجهد والوُسع في طلب الحق، ولا يُؤثِّر هذا في أُخوَّتهم، فتجدُ الإمام أحمد إمام أهل السنة والجماعة تتلمذ على الإمام الشافعي، والإمام الشافعي تتلمذ على الإمام مالك رحمهم الله جميعاً، وكلُّهم إمامٌ له مذهبُه الفقهي، ويختلفون في بعض الفروع الفقهية، ولم يُؤثِّر هذا على أُخوَّتهم وتحابِّهم في الله، وتعاونِهم جميعًا على البرِّ والتقوى، أقول: وهكذا يجب أن نكون.

وبناء على ما سبق ذكره من هذه اللوازم؛ فإنَّ المنتسبين للسلف لا يحصرهم مكانٌ ولا زمانٌ، فهم بحمد الله موجدون في أكثر من مكانٍ، وأكثر من بلدٍ، وهم في أرض الله الواسعة منتشرون، وقد وصفهم النبي ﷺ وصفاً يُعرفون به؛ فهم على هدى رسول الله ﷺ ، مظهراً ومخبراً، عقيدةً وسلوكاً، علماً وعملاً؛ "فالانتساب لمنهج السلف ليس حبُّ السلف الصالح فقط، بل لا بد للمنتسب إليهم من حب السلف والذود عنهم، وعن منهجهم، وفهم المنهج الذي ساروا عليه، والالتزام بمنهج السلف، خُلقاً، ودعوةً، وسلوكاً، وقولاً، وفعلاً، وأي إخلالٍ بواحدٍ من هذه الأسس يعتبر إخلالاً بانتساب الفرد إلى السلف"(٢).

والسلف الصالح ومن سار على دربهم شعارُهم المودةُ والمحبةُ في الله لكل مسلمٍ موحدٍ، وصفاءُ القلب على المسلمين، ممتثلين قول الله ﷻ:﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ** ﴾[الحشر:١٠]، ويرون أنَّ إقامة الدين في حياة الناس من أولى الواجبات عليهم، تحقيقاً لمراد الله ﷻ، عندما قال:﴿ **وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ** ﴾[الذاريات:٥٦]، ويرون أن الجماعات الإسلامية المعاصرة التي ينتمون إليها، ما هي إلا وسائلَ لتنظيم العمل، والتعاون على الخير؛ للوصول لهذه الغاية العظيمة، وهي عبادة الله في الأرض، وأن يكون الدين كله لله، مع الإقرار بواجب الأُخوة والمحبة والنصرة والولاء، لكل من كان على منهج السلف من غير جماعتهم، أوخالفهم في بعض الوسائل والاجتهادات المبنية على الدليل، بعد استفراغ الجهد في إصابة الحق.

أمَّا إنْ أصبحت هذه الجماعات فرقاً متناحرةً ومتنازعةً فيما بينها، ومختلفةً ومتفرقةً في منهجها في سُبلها، وكل حزبٍ بما لديهم فرحون، وأصبح المنتمون إليها يتعصبون لها تعصباً بغيضاً، وأصبح كلُّ الهمِّ عند المنتمين لها، الدعوة إليها والموالاة والمعاداة عليها، فسيكون هذا من العقبات التي

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٠/١٦٤).

(٢) الحكمة، لناصر العمر(٥١/١).

تُؤخِّر العمل الإسلامي، وإن تبنت الجماعات هذه النظرة، فقدت أهليتها في قيادة الأمة، وتسببت في الضعف والفشل والفرقة بين المسلمين، كما قال ﷻ:﴿ **وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾[الأنفال:٤٦]؛ فالسلفيون المستحقون لهذه التسمية، يرَون أن جماعاتهم مكملةً لبعضها في إصابة الحق الكامل، وأن جماعاتهم المنطوية تحت لواء أهل السنة والجماعة، هي مرحلةٌ انتقاليةٌ للوصول إلى الدولة المسلمة، والخليفة المسلم الذي يجمع كلمة المسلمين، وعندها تكون فقط الجماعة المسلمة التي تحوي كلَّ المسلمين تحت مظلتها، وبهذا الفهم وبهذه الروح يكون منهج السلف منهجاً شمولياً عاماً، ليس حِكراً على أحدٍ أو جماعةٍ، وإنَّما هو أصولٌ وضوابطٌ، من التزم بها نجا وأفلح، ولو كان وحده، كما جاء في الأثر عن ابن مسعود ﷺ: "إنما الجماعةُ ما وافق طاعةَ الله وإن كنتَ وحدَك"[١]، فيجبُ على المسلم أن يتحرَّى الحقَّ، وأن يبحثَ عمن يُعينه ويُثبِّته على الخير والطاعة، من أهل العلم والجماعات الإسلامية والجمعيات الشرعية، التي تنشر دين الله في الأرض، مع التنبيه والعلم أن الأكثريةَ من المسلمين اليوم هم من العامة، الذين يغلبُ عليهم عدمُ الإلمام بتفصيلات العقائد، وهؤلاء جمهورُهم على الفطرة، والأصل فيهم البرآءة وسلامة الاعتقاد، ومن كان هذا وصفُه فهو داخلٌ في سواد أهل السنة، ما لم تحرفهم شياطين البدع والخرافات، وشياطين الفرق والطرق والأهواء ودعاة الضلالة؛ ولذلك فان على المنتمين لمنهج السلف في زماننا، إحسانُ الظن بالمسلمين، وبذلُ الوقت والجهد؛ لإدخالِهم في هذا المنهج، لا إخراجُهم منه بجرَّة قلمٍ أو كلمةٍ عابرةٍ، والله المستعان.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي (١/١٢١)، رقم ١٦٠.

المبحث الأول
أهمية فهم السلف وحجيته

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أهمية فهم السلف وعنايتهم به.

المطلب الثاني: حجية فهم السلف.

المطلب الثالث: آثار التمسك بمنهج السلف في الفهم

المبحث الأول: أهمية فهم السلف وحجيته

لقد اصطفى الله ﷻ خيار القرون؛ ليكونوا لنبيه ﷺ أصحاباً وحواريِّين يقتدون بهديه، ويستنون بسنته، يسمعون كلامه فيَعُونه، ويدركون مُراد الله ﷻ، ومراد رسوله ﷺ فيمتثلونه، وإن أُشكل عليهم شيءٌ سألوا عنه، حتى أكمل الله لهم الدين، وأتمَّ عليهم النعمة، ثم حمل الأمانة من بعدهم تلامذتُهم، فكانوا ينفون عن دين الله تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، فكان فهمهم بحقٍ حجةً على من بعدهم، يلزمُهم الرجوعُ إليه والتزامُه، وهؤلاء الكرام ﷺ ما وصلوا إلى هذه المكانة، إلَّا باتخاذ الأسباب الصحيحة لحصول الفهم، وسلوك السُّبل الصحيحة للاتباع، وتجنب المعوقات والموانع التي تُسبب الحرمان من الفهم الصحيح؛ فكان لفهمهم الصحيح للنصوص الشرعية، أبلغَ الأثر في حياة الفرد المسلم والمجتمع المسلم، وهذا ما سيوضحه الباحث في هذا المبحث إن شاء الله تعالى.

المطلب الأول: أهمية فهم السلف وعنايتهم به

أولاً: أهميَّة فهم السلف:

إنَّ نصوص الشارع الحكيم في مُجملها واضحةٌ محكمةٌ، لا غموض فيها، ولا لبس، ولكنْ لحكمةٍ يعلمُها الله ﷻ، أنزل مع الآيات المُحكمات أُخرَ متشابهاتٍ، وأمر بالإيمان بالكتاب كلِّه، وردِّ متشابهه إلى مُحكمه؛ فلذلك كان الاختلاف في الأمة من سنن الله الكونية، وهو واقعٌ لا محالة، ومن أكثر أسبابه الغلط في فهم النص، وفهمه على غير مراد الله ﷻ، ومراد رسوله ﷺ ، قال ابن تيمية – رحمه الله–:"والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل، أو لذهولٍ عنه، وقد يكون لعدم سماعه، وقد يكون للغلط في فهم النص، وقد يكون لاعتقاد مُعارضٍ راجح"[(١)]؛ ومن هنا كان حرياً الرجوعُ إلى فهم السلف الصالح؛ لفهم هذه النصوص الفهمَ الصحيح، الذي هو مراد الله ﷻ، ومراد رسوله ﷺ .

وتبرز أهمية فهم السلف من خلال النقاط التالية:

١– معرفة مراد الله ﷻ ومراد رسولهﷺ هي غاية كلِّ مسلمٍ، يريد الاعتصام بالكتاب والسنة، قولاً وعملاً، ظاهرًا وباطنًا، لينجوَ من الفتن، ويحققَ عبودية ربه على هدىً وبصيرة، والسبيل لتحقيق ذلك هو الاعتصام بفهم السلف للنصوص؛ إذ كلُّ اعتقادٍ وعملٍ تعبديٍ اعتقده السلف الصالح، وعملوا به تقرباً إلى الله ﷻ، إنما هو مبنيٌ على ما فهموه من نصوص الكتاب والسنة، الدالة على ذلك، وهو مرادٌ لله ولرسوله من هذه النصوص، وكلُّ اعتقادٍ أو عملٍ تعبديٍّ مخالفٍ لاعتقادهم وعملهم، فهو مخالفٌ لما فهموه من هذه النصوص، وليس مراداً لله ولرسوله، بل هو بدعةٌ وضلالةٌ، فلا يُلتفت إلى فهم من

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٣/٣٤٤).

خالفهم، فكلُّ فهمٍ في العقيدة لا يعرفه السلف؛ فهو محدثٌ باطلٌ؛ ولذلك وجب على المتعبِّد لله ﷻ، أن يبحث عن فهم السلف للنصوص الشرعية، ويلتزم به[1].

٢- فهم السَّلف للنصوص حجةٌ مُلزمةٌ لمن بعدهم، وسيأتي تفصيل الأدلة من الكتاب والسنة والإجماع على ذلك في المطلب التالي، فالوقوفُ على فهم السلف الصالح هو المرحلة الثانية لطالب العلم بعد الوقوفِ على الأدلة الشرعية، والتبيُّن من صحتها وثبوتها؛ ليضبط فهمه لهذه النصوص، ويَسْلم من الانحراف إفراطاً أو تفريطاً، فإنَّ من أكبر أسباب الابتداع هو الانحراف في فهم النصوص، وما انحرفت الخوارج، إلا لانحرافهم في فهم نصوص الوعيد، والضابط لهذا الفهم هو فهم الصحابة ﷺ، ولذلك احتج ابن عباس ﷺ على الخوارج عندما ناظرهم بقوله:" أتيتكم من عند صحابة النبي ﷺ من المهاجرين والأنصار، لأبلغكم ما يقولون، فعليهم نزل القرآن، وهم أعلم بالوحيِّ منكم، وفيهم أنزل، وليس فيكم منهم أحدٌ"[2].

٣- السلفُ الصالح علمُهم أتمُّ وأحكمُ، وأعلمُ وأسلمُ؛ فلهذا كانوا أعرف الناس بالحق وأدلته، وبطلان ما يعارضه[3]، والصحابة خاصةً هم أكملُ الأمة عقولاً، وأشدها اتِّباعًا، وأقواها إيمانًا، وأزكاها علمًا، وأتمها فهمًا، وأنه لا كان ولا يكون مثلهم في الإيمان والعلم والفهم والعمل، فمن المحال أن يحرم الله من هذه صفاتُهم الفهمَ الصحيح للدين، وهم الذين حملوه لنا، وبلَّغوه كما علموه، ثمَّ يُوفَّق إلى فهمه الصحيح من جاء من بعدهم، وقد قال ﷺ في حقهم:**(قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك)**[4]، وقال أبو ذرٍ ﷺ:"لقد تركنا محمدٌ ﷺ ، وما يُحرِّك طائرٌ جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا"[5]؛ فكانوا بحقٍّ أعظمَ الناس قيامًا بدين الله ﷻ، لا تأخذهم في الله لومةُ لائمٍ، ولا تصدُّهم عن سبيل الله العظائم، بل يتكلمُ أحدهم بالحق الذي عليه، ويتكلمُ في أحب الناس إليه، من أجل دينه وإيمانه؛ ولذلك كان فهمهم مُقدَّمًا على غيره من الفهوم.

٤- سلامةُ مصادرهم في التلقِّي، فقد تلقَّوا الدين بتجردٍ تامٍ، وإيمانٍ كاملٍ، وتسليمٍ مطلقٍ، ولم يحاكموه إلى غيره من العقول القاصرة، أو الفلسفات المأخوذة عن الأمم الأخرى، وعرفوا أنَّ في الوحي غنيةٌ عما سواه، وأنَّه لم يحوجنا الله ﷻ إلى رأي فلانٍ، ولا إلى الفلسفة الفلانية، أو المنطق الفلاني، ومن الشواهد على ذلك، أن كثيرًا من المخالفين للسلف من كبار أهل الكلام وغيرهم، تركوا علم الكلام

---

(١) انظر: الموافقات، للشاطبي(١٢٨/٤)، وانظر: شفاء العليل، لابن القيم(١٨/١).

(٢) المستدرك على الصحيحين، للحاكم رقم ٢٦٥٦، وصححه الحاكم على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٣) انظر: درء التعارض، لابن تيمية (١٧٩/٧).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، في افتتاح الكتاب، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، رقم ٤٣، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٩٣٧.

(٥) مسند الإمام أحمد، رقم ٢١٣٦١، وقال محققه أحمد شاكر: حديثٌ حسن.

ورجعوا إلى الوحي بعد أن ذاقوا مرارة البعد عنه، وأدركوا ضياع أنفسهم حين نأَوا عنه، وأقرُّوا على أنفسهم بالخطأ، واعترفوا بأهمية الرجوع إلى الوحي[1].

٥- حرصُهم الشديد على طلبِ العلم، وفهمِ النصوص، والسؤالِ عمَّا أُشكل عليهم، فهذا عبد الله بن مسعود ﷺ، يقول: "والذي لا إله غيره، ما أنزل الله سورةً من كتاب الله، إلا وأنا أعلمُ أين نزلت، ولا أُنزلت آيةٌ في كتاب الله، إلا وأنا أعلمُ فيما أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلمَ مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبتُ إليه"[2]، وبالإضافة إلى ذلك أيضاً، كانوا أحرص الناس على العمل بما سمعوه من رسول الله ﷺ ، ولا يمكن العمل إلا عن فهمٍ وعلمٍ ودرايةٍ، وقد شهد لهم النبي ﷺ بذلك فقال:**(ما من نبيٍّ بعثه الله في أمَّةٍ قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحابٌ، يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنَّه تخلُف من بعدهم خُلُوفٌ، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يُؤمرون)**[3]، فالصحابةُ شاهدوا الوحيَ والتنزيل، وهذا أورثهم مزيد فهمٍ، لا يشاركهم فيه غيرهم، وقد نقله عنهم تلامذتهم من التابعين، ثم أتباعهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "وللصحابة فهمٌ في القرآن، يخفى على أكثر المتأخرين، كما أنَّ لهم معرفةً بأمور السنة وأحوال الرسولﷺ ، لا يعرفها أكثرُ المتأخرين، فإنَّهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعاينوا الرسول، وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله، مما يستدلون به على مُراده، ما لم يعرفه أكثر المتأخرين، الذين لم يعرفوا ذلك؛ فطلبوا الحكم مما اعتقدوه من إجماعٍ أو قياسٍ"[4].

٦- السلف هم أعلمُ الناس بلغة القرآن الكريم، فقد نزل القرآن بلسانهم، جريًا على معهودهم في الكلام، وعادتهم في الخطاب، من غير تعلُّمٍ منهم للغة، ولا مدارسةٍ واكتسابٍ لأساليبها، ولا يُعلم أحدٌ أفصحَ لسانًا، وأسدَّ بيانًا، وأقومَ خطابًا من أهل القرون الأولى المفضلة، وأولاهم في هذا الفضل والسبق أصحابُ رسول الله ﷺ [5].

وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ الجهل باللسان العربي، من أكبر أسباب سوء الفهم للنصوص الشرعية، ولهذا قال الشافعي- رحمه الله-: "ما جهل الناس ولا اختلفوا، إلا لتركهم لسان العرب،

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص٢٢٧ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب القراء من أصحاب رسول الله، رقم(٥٠٠٢) واللفظ له، وأخرجه مسلمٌ في صحيحه ، كتاب في فضائل الصحابة، باب فضل ابن مسعود وأمه، رقم (٢٤٦٢) بنحوه.

(٣) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، رقم (٥٠).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٠٠/١٩).

(٥) الموافقات، للشاطبي (٢٥٣/٤). بتصرف يسير

وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس[1]"[2].

ثمَّ إنَّ اللغة التي ينبغي أن تُعدَّ مرجعًا في تفسير القرآن الكريم وفهم نصوصه، هي اللغة التي كانت متداولةً في عصر التنزيل، دون الالتفات إلى اللغة الحادثة، وما طرأ عليها في العصور التالية من دلالات الألفاظ، مما لا يُوافق دلالة الألفاظ في زمن التنزيل[3].

يقول ابن تيمية- رحمه الله-: "ومن لم يعرف لغة الصحابة التي كانوا يتخاطبون بها، ويخاطبهم بها النبيﷺ ، وعادتهم في الكلام، إلاَّ حرَّف الكلم عن مواضعه، فإنَّ كثيرًا من النَّاس ينشأ على اصطلاح قومه، وعادتهم في الألفاظ، ثم يجد تلك الألفاظ في كلام الله أو رسوله أو الصحابة، فيظنَّ أنَّ مُراد الله أو رسوله أو الصحابة بتلك الألفاظ ما يريده بذلك أهل عادته واصطلاحه، ويكون مراد الله ورسوله والصحابة خلافَ ذلك"[4].

ثانياً: عناية العلماء بفهم السلف:

لقد اهتمَّ أهل العلم قديماً وحديثاً بهذا الجانب من الدين، وهو فهمُ السلف للنَّص، فصنَّفوا فيه المصنفات، وألَّفوا فيه المؤلفات، وتكلَّموا عن ذلك بكلامٍ بديعٍ رصينٍ، راسمين بذلك المنهج والقواعد والأسس التي يجب أن يسلكَها السائرون إلى الحق؛ لفهم مراد الله ورسوله من نصوص الشرع، وإنَّ أمرًا هذا شأنه، لجديرٌ بأن تُصرف إليه الهمم في جمعه وتدوينه، والعناية به، وقد بدأ ذلك مبكرًا مع تدوين السنة النبوية؛ لأنَّه في جملته من السنة، وخاصة موروث الصحابة ﷺ، الذين كانوا خير وأفضل من فهموا الدين فهماً صحيحاً، ويدلُّ على ذلك ما رواه صالح بن كيسان[5]، قال:"اجتمعتُ أنا والزهري[6] ونحن نطلب العلم، فقلنا: نكتب السنن، فكتبنا ما جاء عن رسول الله، قال: ثم قال الزهري: نكتب ما

---

(١) أرسطو، الفيلسوف اليوناني، تتلمذ على أفلاطون، وعلّم الإسكندر الأكبر، ومعنى أرسطاليس: محب الحكمة، وقيل: محب الفضيلة، برع في الفلسفة والطب، وكان مشركًا، من مؤلفاته: الالهيات، الحروف، والسياسة، توفي سنة: (٣٢٢ ق.م). انظر: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، لشهاب الدين العمري(٩/٣١-٣٨).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي(١٠/٧٤).

(٣) انظر: محاسن التأويل، للقاسمي(١/٢٣٦).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١/٢٤٣).

(٥) صالح بن كيسان المدني، مؤدب أبناء عمر بن عبد العزيز، كان من فقهاء المدينة، الجامعين بين الحديث والفقه، وهو أحد الثقات في رواية الحديث، عاش أكثر من مئة سنة، وتوفي ١٤٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٤/٣٩٩)، والأعلام، للزركلي(٣/١٩٥).

(٦) محمد بن مسلم بن عبد الله بن شِهَاب الزهري، من بني زهرة بن كلاب، من قريش، أبو بكر، أول من دون الحديث، وأحد أكابر الحفاظ والفقهاء، تابعي، من أهل المدينة، نزل الشام واستقرّ بها، وتوفي ١٢٤هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(١/١٠٢)، ووفيات الأعيان، لابن خلكان(١/٤٥١)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(٩/٤٤٥)، والأعلام، للزركلي(٧/٩٧).

جاء عن الصحابة؛ فإنَّه سنَّة، قال: فقلتُ أنا: لا، ليس بسنَّة،لا نكتبه، قال: فكتب ولم أكتب؛ فأنجح وضيَّعتُ"[١].

ولهذا فلفظ السنَّة "يُطلق أيضاً على ما عمل عليه الصحابةُ، وُجد في الكتاب والسنة، أو لم يُوجد؛ لكونه اتباعاً لسنةٍ ثبتت عندهم لم تُنقل إلينا، أو اجتهادًا مُجمعًا عليه منهم، أو من خلفائهم"[٢]، وتظهر عناية العلماء بذلك فيما أودعوه في مُصنفاتهم من آثارَ قوليةٍ وعمليةٍ للصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان، مما أُثر عنهم من فهمهم لمسائل الدين العلمية والعملية، ويتبيَّن ذلك من خلال النقاط التالية:

١- ما ألَّفه العلماء من كتبٍ تُبين صحةَ منهج السلف في الفهم، وذمَّ طريقة المتكلمين، والردَّ عليهم، مثل كتاب:(الرد على الجهمية والزنادقة) للإمام أحمد بن حنبل، وكتاب:(الرد على الجهمية للدارمي[٣]، وكتاب:(الإختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة) لابن قتيبة الدينوري[٤]، وكتاب:(الرد على الجهمية) لابن منده[٥]، وكتاب:(ذم الكلام وأهله) للهروي[٦]،

---

(١) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، باب الحض على لزوم السنة والاقتصار عليها، (١١٧٦/٢)، رقم ٢٣٢٧.

(٢) الموافقات، للشاطبي (٤/٤).

(٣) عثمان بن سعيد بن خالد الدارميّ السجستاني، أبو سعيد، محدث هراة، له تصانيف في الرد على الجهمية، منها "النقض على بشر المريسي المسمى: رد الامام الدرامي عثمان بن سعيد، على بشر المريسي العنيد، وله مسندٌ كبير، وتوفي ٢٨٠هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(١٧٧/٢)، والأعلام، للزركلي(٢٠٥/٤).

(٤) عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينَوَريّ، أبو محمد، ولد ببغداد وسكن الكوفة، ثم ولي قضاء الدينور مدة، فنسب إليها، وتوفي ببغداد، من كتبه: تأويل مختلف الحديث، ومشكل القرآن، والمشتبه من الحديث والقرآن، وتفسير غريب القرآن، وغريب الحديث، وتوفي ٢٧٦هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٢٥١/١)، والأعلام، للزركلي(١٣٧/٤).

(٥) محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى، ابن منده، أبو عبد الله العبديّ الأصبهاني، من كبار حفاظ الحديث، الراحلين في طلبه، المكثرين من التصنيف فيه، من كتبه: الرد على الجهمية، ومعرفة الصحابة، والتوحيد ومعرفة أسماء الله عزوجل وصفاته على الاتفاق والتفرد، وتوفي ٣٩٥هـ. انظر: طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى(١٦٧/٢)، وميزان الاعتدال، للذهبي(٢٦/٣)، ولسان الميزان، لابن حجر(٧٠/٥)، والأعلام، للزركلي(٢٩/٦).

(٦) عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، أبو إسماعيل، شيخ خراسان في عصره، من كبار الحنابلة، من ذرية أبي أيوب الأنصاري، كان بارعاً في اللغة، حافظاً للحديث، عارفاً بالتأريخ والأنساب، مُظهراً للسنّة، داعياً إليها، امتُحن وأوْذي، وسُمع يقول:"عُرضت على السيف خمس مرات، لا يُقال لي ارجع عن مذهبك، لكن يُقال لي اسكت عمن خالفك، فأقول: لا أسكت!"، من كتبه: ذم الكلام واهله، الفاروق في الصفات، وكتاب الأربعين في التوحيد، والأربعين في السنة، ومنازل السائرين، وتوفي ٤٨١هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(١٢٢/٤).

وكتاب:(تحريم النظر في كتب الكلام) لابن قدامة المقدسي[١]، وكتاب:(الإبانة عن أصول الديانة) لأبي الحسن الأشعري، وكتاب:(الرد على المنطقيين)، وكتاب:(درء تعارض العقل والنقل)، وكلاهما لابن تيمية، وكتاب:(الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة) لابن القيم، وغيرها.

٢- ما أودعه العلماء في كتب الصحاح والسنن والمسانيد، من آثار الصحابة والتابعين، ومن ذلك ما أودعه الإمام البخاري من آثار السلف القولية والعملية في تراجم صحيحه، وتبعه في ذلك الإمام الترمذي[٢] -رحمهما الله تعالى-.

٣- ما حوته كتب المصنفات والمعاجم من آثارٍ مُسندةٍ للصحابة والتابعين وأتباعهم، ومن الأمثلة على ذلك: مصنفي عبد الرزاق[٣] وابن أبي شيبة[٤]، فقد حوى (مصنف عبد الرزاق) على ما يزيد على واحدٍ وعشرين ألف حديثٍ وأثرٍ، عامتها من أقوال السلف، كما حوى (مصنف ابن أبي شيبة) على نحو تسعة عشر ألف حديثٍ وأثرٍ، عامتها من أقوال السلف كذلك[٥].

٤- ما حوته كتبُ العقيدة المتقدمة، من آثارَ مسندةٍ إلى السلف الصالح، مثل كتبٍ سُميت (السنة)، أو الإيمان، لكلٍ من: أحمد بن حنبل، ، وعثمان بن سعيد الدارمي، ونعيم بن حماد الخزاعي[٦]، وأبي بكر

---

(١) محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي، شمس الدين، أبو عبد الله، ابن قدامة المقدسي الجماعيلي الأصل، ثم الدمشقيّ الصالحي، حافظٌ للحديث، عارفٌ بالأدب، من كبار الحنابلة، أخذ عن ابن تيمية والذهبي وغيرهما، وصنف ما يزيد على سبعين كتاباً، ومات قبل بلوغ الأربعين، من كتبه: المحرر في الحديث، وفضائل الشام، والعلل في الحديث، والإحكام في فقه الحنابلة، وتراجم الحفاظ، وتوفي بدمشق٧٤٤هـ، انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر(٣/٣٣١)، والبداية والنهاية، لابن كثير(١٤/٢١٠)، والأعلام، للزركلي (٥/٣٢٦).

(٢) محمد بن عيسى بن سورة بن موسى السلمي البوغي الترمذي، أبو عيسى، من أئمة علماء الحديث وحفاظه، تتلمذ على البخاريّ، وقام برحلة إلى خراسان والعراق والحجاز، وعمي في آخر عمره، وكان يُضرب به المثل في الحفظ، من تصانيفه: الجامع الكبير المعروف باسم سنن الترمذي، والشمائل النبويّة، والتاريخ، والعلل، وتوفي٢٧٩هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٩/٣٨٧)، وتذكرة الحفاظ، للذهبي(٢/١٨٧)، والأعلام، للزركلي(٦/٣٢٢).

(٣) عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري، مولاهم، أبو بكر الصنعاني، من حفاظ الحديث الثقات، من أهل صنعاء، قال الذهبي: هو خزانة علم، من كتبه: كتاب في تفسير القرآن، والمصنف في الحديث، وتوفي٢١١هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٦/٣١٠)، وميزان الاعتدال، للذهبي(٢/١٢٦)، والأعلام، للزركلي(٣/٣٥٣).

(٤) عبد الله بن محمد بن أبي شيبة العبسي، مولاهم، الكوفي، أبو بكر، حافظ للحديث، له فيه كتب، منها: المسند، المصنف في الأحاديث والآثار، الإيمان، توفي سنة: (٢٣٥هـ). انظر: الأعلام، للزركلي (٤/١١٧).

(٥) انظر: ضوابط فهم السنة، د. عبد الله وكيل الشيخ، ص١٨.

(٦) نعيم بن حماد بن معاوية بن الحارث الخزاعي المروزي، أبو عبد الله، أول من جمع المسند في الحديث، كان من أعلم الناس بالفرائض، ولد في مرو، وأقام مدة في العراق والحجاز يطلب الحديث، ثم سكن مصر، ولم يزل فيها إلى أن حمل إلى العراق في خلافة المعتصم، وسُئل عن القرآن: أمخلوق هو؟ فأبى أن يجيب، فحُبس في سامرا، ومات في سجنه، من كتبه: الفتن والملاحم، وتوفي ٢٢٨هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(١٠/٤٥٨)، وتذكرة الحفاظ، للذهبي(٢/٧)، وميزان الاعتدال، للذهبي(٣/٢٣٨)، والأعلام، للزركلي(٨/٤٠).

الخلال[1]، وأبي بكر ابن خزيمة[2]، وعبد الرحمن بن أبي حاتم[3]، وأبي القاسم الطبراني[4]، وأبي عبد الله بن منده، وأبي بكر الآجري، وأبي القاسم اللالكائي[5]، وعبد الله بن أحمد بن حنبل[6]، ومَن قبلهم مثل كتاب (الإيمان) لابن أبي شيبة، و(الإيمان) لأبي عبيد القاسم بن سلَّام[7]، وغيرهم[8].

٥- ما حوته كتبُ التفسير بالمأثور، من نصوصَ مسندةٍ عن السلف الصالح، مثل:(تفسير عبد الرزاق)، و(تفسير عبد بن حميد)[9]،

---

(١) أحمد بن محمد بن هارون، أبو بكر، الخلال، مفسرٌ عالم بالحديث واللغة، من كبار الحنابلة، قال الذهبي: جامع علم أحمد ومرتّبه، من كتبه: تفسير الغريب، والسنة، والعلل، والجامع لعلوم الإمام أحمد في الحديث، قيل: لم يصنف في مذهب مثله، وتوفي ٣١١هـ. انظر: طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى(١٢/٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير(١٤٨/١١)، وتذكرة الحفاظ، للذهبي(٧/٣)، والأعلام، للزركلي(٢٠٦/١).

(٢) محمد بن إسحاقٍ بن خزيمةَ السُلمي، أبو بكر، إمام نيسابور في عصره، كان فقيهاً مجتهداً، عالماً بالحديث، مولده ووفاته بنيسابور، رحل إلى العراق والشام والجزيرة ومصر، ولقبه السبكي بإمام الأئمة، تزيد مصنفاته على ١٤٠ مصنفاً، منها: التوحيد وإثبات صفة الرب، ومختصر المختصر المسمى بصحيح ابن خزيمة، وتوفي ٣١١هـ. انظر: طبقات الحفاظ، للسيوطي(٣٤٥/١)، والأعلام، للزركلي(٢٩/٦).

(٣) عبد الرحمن بن محمد أبي حاتم ابن إدريس بن المنذر التميمي الحنظلي الرازي، أبو محمد، حافظ للحديث، من مصنفاته: الجرح والتعديل، التفسير، الرد على الجهمية، توفي سنة: (٣٢٧هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٣٢٤/٣).

(٤) سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم، من كبار المحدثين، أصله من طبرية الشام، وإليها نسبته، له، من مصنفاته: ثلاثة معاجم في الحديث، هي المعجم الكبير والصغير والأوسط، والتفسير، والأوائل، ودلائل النبوة، وغير ذلك، وتوفي ٣٦٠هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٢١٥/١)، والأعلام، للزركلي(١٢١/٣).

(٥) هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري أبو القاسم، حافظ للحديث، من فقهاء الشافعية، من أهل طَبَرِسْتان، ونسبته إلى بيع اللوالك، التي تلبس في الأرجل، من كتبه: السنن، شرح السنة، أسماء رجال الصحيحين، توفي سنة: (٤١٨هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٧١/٨).

(٦) عبد الله بن أحمد بن محمد بن حنبل الشيبانيّ البغدادي، أبو عبد الرحمن، حافظ للحديث، من أهل بغداد، من مصنفاته: الزوائد على كتاب الزهد لأبيه، وزوائد المسند، زاد به على مسند أبيه نحو عشرة آلاف حديث، ومسند أهل البيت، والثلاثيات، وتوفي ٢٩٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(١٤١/٥)، والأعلام، للزركلي(٦٥/٤).

(٧) القاسم بن سلاَّم الهروي الأزدي الخزاعي، بالولاء، الخراساني البغدادي، أبو عُبيد، من كبار العلماء بالحديث والأدب والفقه، ورحل إلى بغداد فولي القضاء ثماني عشرة سنة، ورحل إلى مصر وإلى بغداد، فسمع الناس من كتبه، وحج، فتوفي بمكة، من مصنفاته: الغريب المصنف في غريب الحديث، ألفه في نحو أربعين سنة، وهو أول من صنف في هذا الفن، وفضائل القرآن، والايمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته، وتوفي ٢٢٤هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٥/٢)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(٣١٥/٧)، والأعلام، للزركلي(١٧٦/٥).

(٨) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤١٢/٥ ـ ٤١٣).

(٩) عبد بن حميد بن نصر الكِسي، أبو محمد، من حفاظ الحديث، قيل اسمه عبد الحميد، وخفف، نسبته إلى كِس (من بلاد السند)، من كتبه: تفسير مسند للقرآن الكريم، المعروف بتفسير عبد بن حميد، وتوفي ٢٤٩هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(١٠٤/٢)، والأعلام، للزركلي(٢٦٩/٣).

و(تفسير ابن جريرٍ الطبري)[١]، و(تفسير عبد الرحمن بن أبي حاتم)، وغير ذلك من كتب التفسير، وقد جمع السيوطي[٢] في كتابه:(الدر المنثور)، كمًا هائلًا من آثار السلف في التفسير.

٦- ما ألَّفه العلماء من كتبٍ ومصنفاتَ؛ لدفع الاختلاف والتعارض الظاهري، المُتوهم بين النصوص، وأوَّل من ألَّف في هذا الفن، هو الإمام الشافعي- رحمه الله- في كتابه:(اختلاف الحديث)، حيث قام بجمع نصوص السنة المختلفة والمتعارضة في الظاهر، ثم قام بالتوفيق بينها، والجمع بين مدلولاتها، وذكر جملةً من الأحاديث، وبيَّن كيفية إزالة التعارض بينها؛ لتكون نموذجا لمن بعده من العلماء في كيفية دفع التوهم والتعارض بين النصوص، ثم سار ابن قتيبة على نفس الدرب، وألَّف كتابه:(تأويل مختلف الحديث)، وردَّ على من ادَّعى التناقض والاختلاف بين نصوص الشريعة، ثمَّ تبعهما على ذلك الإمام الطحاوي[٣] في كتابه:(شرح مشكل الآثار)، ويُعتبر هذا الكتاب أوسع ما كُتب في هذا المجال، فبيَّن الإشكال الواقع في بعض النُّصوص، وكيفية إزالته ودفعه، وقام بشرح النصوص التي أوردها في كتابه[٤].

---

(١) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر، المؤرخ المفسر الإمام، ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها، وعرض عليه القضاء فامتنع، وهو من ثقات المؤرخين، وكان مجتهدا في أحكام الدين لا يقلد أحداً، من مصنفاته: أخبار الرسل والملوك المعروف بتاريخ الطبري، وجامع البيان في تفسير القرآن المعروف بتفسير الطبري، واختلاف الفقهاء، وتوفي ٣١٠هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٢/٣٥١)، والوفيات، لابن رافع(١/٤٥٦)، والبداية والنهاية، لابن كثير(١١/١٤٥)، وميزان الاعتدال، للذهبي(٣/٣٥)، والأعلام، للزركلي(٦/٦٩).

(٢) عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد ابن سابق الدين الخضيري السيوطي، جلال الدين، إمام حافظ مؤرخ أديب، نشأ يتيماً، له نحو ٦٠٠ مصنف، منها: الإتقان في علوم القرآن، والألفية في مصطلح الحديث، والألفية في النحو، وتاريخ الخلفاء، وتدريب الراويّ في شرح تقريب النواوي، وتنوير الحوالك في شرح موطأ الإمام مالك، والجامع الصغير في الحديث، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، والديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، وتوفي٩١١هـ. انظر: شذرات الذهب، لأبي الفلاح الحنبلي(٨/٥١)، والضوء اللامع، للسخاوي(٤/٦٥)، والأعلام، للزركلي(٣/٣٠١).

(٣) أحمد بن محمد بن سلامة بن سلمة الأزديّ الطحاوي، أبو جعفر، فقيهٌ انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، ولد ونشأ في (طحا) من صعيد مصر، وتفقه على مذهب الشافعيّ، ثم تحول حنفياً، وتوفي٣٢١هـ، من تصانيفه: شرح معاني الآثار، وبيان السنّة، ومشكل الآثار، وأحكام القرآن، والاختلاف بين الفقهاء، ومناقب أبي حنيفة.انظر: البداية والنهاية، لابن كثير(١١/١٧٤)، ولسان الميزان، لابن حجر(١/٢٤٧)، والأعلام، للزركلي(١/٢٠٦).

(٤) انظر: أحاديث العقيدة التي يوهم ظاهرها التعارض في الصحيحين، للدبيخي(١/٣١).

٧- ما حوته كتب الفقهاء، وشُرَّاح الحديث، ككتب المذاهب الأربعة، وكتب ابن عبد البر[١]، و(السنن الكبرى) للبيهقي[٢]، و(المغني) لابن قدامة، و(المجموع) للنووي[٣]، و(فتح الباري) لابن حجرٍ العسقلاني، وغيرهم من أصحاب الموسوعات الفقهية والحديثية الكثيرة.

٨- التأليف في العلوم المُعينة على فهم النص، مثل علوم القرآن من الناسخ والمنسوخ، والمُجمل والمُفصل، والمُحكم والمُتشابه، وأسباب النزول وغيرها، مثل كتاب:(الناسخ والمنسوخ) لقتادة السدوسي[٤]، و(غريب القرآن) لابن قتيبة، و(الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي، وغيرها من الكتب المُؤلَّفة في هذا الفن، وما ألَّفه العلماء أيضاً في أصول الفقه والقواعد الفقهية، التي تبين الأصول الصحيحة التي يُفهم من خلالها النص، مثل كتاب:(الرسالة) للشافعي، و(الإحكام في أصول الأحكام) لابن حزم[٥]،

---

(١) يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي، أبو عمر، من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، بحاثة، يقال له حافظ المغرب، من مصنفاته: الدرر في اختصار المغازي والسير، والعقل والعقلاء، والاستيعاب في معرفة الأصحاب، وجامع بيان العلم وفضله، والتمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، والاستذكار في شرح مذاهب علماء الأمصار، والإنصاف فيما بين العلماء من الاختلاف، والكافي في الفقه، وتوفي ٤٦٣هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٣٤٨/٢)، والأعلام، للزركلي(٢٤٠/٨).

(٢) أحمد بن الحسين بن علي، أبو بكر، من أئمة الحديث، ولد ونشأ في بيهق بنيسابور، ورحل إلى بغداد ثم إلى الكوفة ومكة وغيرهما، قال الذهبي: لو شاء البيهقي أن يعمل لنفسه مذهبا يجتهد فيه لكان قادراً على ذلك؛ لسعة علومه ومعرفته بالاختلاف، من مصنفاته: السنن الكبرى، والسنن الصغرى، والأسماء والصفات، ودلائل النبوة، والترغيب والترهيب، والمبسوط، وشعب الإيمان، ومعرفة السنن والآثار، والاعتقاد، وفضائل الصحابة، وتوفي ٤٥٨هـ. انظر: طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة(٣/٣)، والأعلام، للزركلي(١١٦/١).

(٣) يحيى بن شرف بن مُرِّي بن حسن الحِزامي الحوراني، النووي، الشافعيّ، أبو زكريا، محيي الدين، علَّامة بالفقه والحديث، مولده ووفاته في نوى من قرى حوران، بسورية، تعلم في دمشق، وأقام بها زمناً طويلاً، من كتبه: منهاج الطالبين، والمنهاج في شرح صحيح مسلم، والتقريب والتيسير في مصطلح الحديث، وخلاصة الأحكام من مهمات السنن وقواعد الإسلام، ورياض الصالحين من كلام سيد المرسلين، وبستان العارفين، والتبيان في آداب حملة القرآن، والأربعون حديثا النووية، وتوفي ٦٧٦هـ. انظر: طبقات الشافعية للسبكي(١٦٥/٥)، والأعلام، للزركلي(١٤٩/٨).

(٤) قتادة بن دعامة بن قتادة بن عزيز، أبو الخطاب السدوسي البصري، مفسر حافظ ضرير، قال الإمام أحمد ابن حنبل: قتادة أحفظ أهل البصرة، وكان مع علمه بالحديث، رأسا في العربية ومفردات اللغة وأيام العرب والنسب، مات بواسط في الطاعون سنة ١١٨هـ.انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(١١٥/١)، والأعلام، للزركلي(١٨٩/٥).

(٥) علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهري، أبو محمد، عالم الأندلس في عصره، وأحد أئمة الإسلام، كانت له ولأبيه من قبله رياسة الوزارة وتدبير المملكة، فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، انتقد كثيرا من العلماء والفقهاء، وكان يقال: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان، من مصنفاته: الفصل في الملل والأهواء والنحل، والمحلى، والإحكام لأصول الأحكام، وتوفي ٤٥٦هـ. انظر: لسان الميزان، لابن حجر(١٩٨/٤)، والأعلام، للزركلي(٢٥٤/٤).

و(العدة في أصول الفقه) للقاضي أبي يعلى[١]، و(الفصول في الأصول) لأبي بكر الجصَّاص[٢].

وغير ذلك مما يصعب حصره، وهذا دليلٌ قاطعٌ على عناية علماء الأمة بفهم السلف الصالح، وعلومهم وفقههم للنصوص الشرعية، والأحكام العلمية والعملية المستنبطة منها.

مع التنبيه أيضاً أن "العلم ليس بكثرة النقل والبحث والكلام، ولكنْ نورٌ يُميَّز به صحيحُ الأقوال من سقيمها، وحقُّها من باطلها، وما هو من مشكاة النبوة مما هو من آراء الرجال"[٣]، ولذلك قال الإمام مالك– رحمه الله–: "إنَّ العلم ليس بكثرة الرواية، إنَّما العلم نورٌ يقذفه الله في القلب"[٤]، وقال الخطيب البغدادي[٥]– رحمه الله–:"إنَّ العلم هو الفهم والدراية، وليس بالإكثار والتوسع في الرواية"[٦]؛ ولذلك فإنَّ" كلامُ السلف قليلٌ كثيرُ البركة، لكنَّ كلام الخلف كثيرٌ قليل البركة"[٧].

---

(١) محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفرَّاء، أبو يعلى، عالم عصره في الأصول والفروع، ارتفعت مكانته عند العباسيين، وولوه قضاء دار الخلافة، وكان قد امتنع، واشترط أن لا يحضر أيام المواكب، ولا يخرج في الاستقبالات، ولا يقصد دار السلطان، فقبلوا شرطه، من مصنفاته: الإيمان، والأحكام السلطانية، والكفاية في أصول الفقه، وأحكام القرآن، والعدة في أصول الفقه، وغير ذلك، وكان شيخ الحنابلة، وتوفي ٤٥٨هـ. انظر: طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى(١٩٣/٢)، والوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي(٧/٣)، والأعلام، للزركلي(١٠٠/٦).

(٢) أحمد بن علي الرَّازي، أبو بكر الجصاص، فاضل من أهل الري، سكن بغداد ومات فيها، وانتهت إليه رئاسة الحنفية، وخوطب في أن يلي القضاء فامتنع، من كتبه: أحكام القرآن، وكتاباً في أصول الفقه، وتوفي ٣٧٠هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(١٧١/١).

(٣) اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، ص٨٠.

(٤) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣١٨/١٠).

(٥) أحمد بن علي بن ثابت البغدادي، أبو بكر، المعروف بالخطيب، أحد الحفاظ المؤرخين، منشأه ووفاته ببغداد، وكان فصيح اللهجة عارفا بالأدب، يقول الشعر، ولوعا بالمطالعة والتأليف، ولما مرض مرضه الأخير وقف كتبه وفرق جميع ماله في وجوه البر وعلى أهل العلم والحديث، من مصنفاته: تاريخ بغداد، والبخلاء، والكفاية في علم الرواية، والجامع، لأخلاق الراويّ وآداب السامع، وتقييد العلم، وشرف أصحاب الحديث، والرحلة في طلب الحديث، والفقيه والمتفقه، واقتضاء العلم العمل، وتوفي ٤٦٣هـ. انظر: طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة(١٢/٣)، والنجوم الزاهرة، لأبي المحاسن الحنفي(٨٧/٥)، ووفيات الأعيان، لابن خلكان(٢٧/١)، والأعلام، للزركلي(١٧٢/١).

(٦) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي(١٧٤/٢).

(٧) فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب(٥/١).

المطلب الثاني: حجية فهم السلف

بعد أنْ ذكر الباحثُ في المطلب السابق أهميةَ فهم السلف، يحسنُ في هذا الفصل أن نُفصِّل الأدلة الشرعية الدالَّةَ على حجية فهم السلف، ووجوب تقديم فهمهم، والرجوع إليه عند التنازع والاختلاف، واعتباره الحَكَم في معرفة دلالات النصوص، ومراد الله تعالى ورسوله منها، وهذه الأدلة منها ما هو صريحٌ في دلالته، ومنها ما هو دالٌّ بمفهومه، ومن هذه الأدلة:

أولاً: الأدلة القرآنية:

١- قال ﷻ:﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾[النساء:١١٥].

ومما لا شكَّ فيه أنَّ السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وأتباعهم بإحسان، هم أولى الناس دخولاً في من سمَّاهم الله هنا بالمؤمنين، محذرًا ومتوعدًا من اتَّبع غير سبيلهم، "وقد شهد الله لأصحاب نبيه ﷺ، ومن تبعهم بإحسان بالإيمان، فعُلم قطعًا أنهم المراد بالآية الكريمة"[١].

"والآية آمرةٌ بإتباع سبيل السلف الصالح، متوعدةٌ من خالفهم، واتبع غير سبيلهم بالخذلان والنار، وقد ضمنت لهم العصمة من الخطأ في اجتماعهم تشريفًا لهم وتعظيمًا لنبيهم ﷺ" [٢].

"وهذه الآية قد استدلَّ بها العلماء على أنَّ إجماع هذه الأمة حجةٌ قاطعةٌ"[٣]، وأنَّها في جملتها معصومةٌ من الخطأ؛ ولذلك فإنَّ مخالفة فهم السلف وما كانوا عليه خرقٌ للإجماع؛ لأنه قد اتبع غير سبيلهم.

وقد جعل الله ﷻ مشاقة الرسول ﷺ، وإتباع غير سبيل المؤمنين متلازمين، فكلُّ من شاقَّ الرسول من بعد ما تبين له الهدى، فقد اتبع غير سبيل المؤمنين، وكلُّ من اتَّبع غير سبيل المؤمنين فقد شاق الرسول ﷺ [٤].

كما تُفيد الآيةُ أنَّ متابعة سبيل السلف، وهي طريقتهم في عقائدهم وأعمالهم، من الواجبات، فالنهي عن مخالفة سبيلهم، يتضمن بمفهوم المخالفة الأمر بإتباع سبيلهم، وإتباعهم يكون باعتماد ما اعتمدوه، وأجمعوا عليه من القول والعمل، ومن المعلوم أنَّ الأقوال والأعمال إنَّما تصدر عن فهم،

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢/٤).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٣٦٥/٢).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي(١٦٧/٢).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٩/ ١٩٣ـ ١٩٤).

ومتابعتهم في أقوالهم واعتقاداتهم يتضمن متابعتهم في فهمهم؛ لأنَّ من خالفهم في الفهم لا بدَّ أن يخالفهم لزاماً في القول والعمل(١).

٢- قال ﷻ:﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ ﴾[التوبة:١٠٠].

فالآية صريحةٌ في الثناء على المُتَّبِعين للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم أئمة السلف الصالح، والاتِّباع شاملٌ للاعتقاد والعمل، المبنيّ على صحة الفهم، وهذا المدح يتضمن صحة ما كانوا عليه من ذلك، كما دلَّت بالمفهوم على بطلان ما خالفهم في ذلك، فدلَّت على أنَّ فهمهم حجةٌ على من بعدهم في مسائل العقيدة والعمل(٢).

وقد احتجَّ الإمام مالكٌ- رحمه الله- بهذه الآية على وجوب اتِّباع الصحابة ﷺ (٣)، وهذا كلُّه تنبيهٌ للأمة على صحة مسلكهم، ووضوح حجتهم، والأمرِ باتِّباع آثارهم، وأنَّ فهمهم هو الفهم الصحيح، وما سواه مما عارضه فهو فهمٌ سقيمٌ عاطلٌ، ورأيٌ باطلٌ (٤).

٣- قال ﷻ:﴿ فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ ﴾[البقرة:١٣٧] .

فقيَّد سبحانه الهداية في هذه الآية، بالإيمان بمثل ما آمن به الرسول ﷺ وأصحابه، فالإيمانُ الصحيح هو كإيمان الصحابة، ولا شكَّ أنَّ هذا الإيمان إنَّما هو نتيجةُ الفهم الثاقب، والعلم الصائب للوحي الرباني، وكما أنَّه لا يمكنُ لمنْ جاء من بعدهم، أن يتساوَوا معهم في كمية الإيمان، فدلَّ على أنَّه لم يبقَ إلا المساواة في الكيفية، وهو المنهج والسبيل المذكور في الآية(٥).

ثانيًا: الأحاديث النبوية:

لقد جاء في السنة الصحيحة عن النبي ﷺ أحاديثَ تدلُّ على وجوب تقديم فهم السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم من القرون المفضلة، إما بمنطوقها، وإما بمفهومها، ومن هذه الأحاديث ما يلي:

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي(٢/١٦٤-١٦٥).

(٢) تذكير الخلف بوجوب اعتماد فهم السلف لأدلة الكتاب والسنة، وليد بن راشد السعيدان، ص٨.

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم(٤/١٢٣).

(٤) المصدر السابق (١/٩).

(٥) انظر: زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي (١/١٣٤).

١- قولُه ﷺ:(فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ)[١].

فهذا أمرٌ صريحٌ باتِّباع سنَّة الخلفاء الراشدين ﷺ، وهم أئمة السلف وخيارهم، فدلَّ على وجوب الاستنان بهم ﷺ، في الفهم والعلم والاعتقاد والعمل، فكيف الأمر إذا كان الصحابة مجتمعين على فهم أمرٍ معينٍ من النص؛ سيكون من باب أولى لزوم فهمهم[٢].

والمقصود باتِّباع سنة الخلفاء الراشدين أنَّهم مقتدون برسول الله ﷺ، وأنَّ سنَّته تُؤخذ عنهم؛ ولذلك "فليس المراد بسنَّة الخلفاء الراشدين إلا طريقتهم الموافقة لطريقته ﷺ، ومعلومٌ من قواعد الشريعة أنَّه ليس لخليفةٍ راشدٍ أن يُشرِّع طريقةً غير ما كان عليها النبي ﷺ"[٣].

قال الإمام الشاطبي -رحمه الله-: "فقرَن ﷺ سنَّة الخلفاء الراشدين بسنَّته، وأنَّ من اتِّباع سنَّته اتِّباع سنَّتهم، وأنَّ المُحدثات خلافُ ذلك، ليست منها في شيءٍ؛ لأنهم رضي الله عنهم فيما سنُّوا، إمَّا متبعون لسنَّة نبيهم عليه الصلاة السلام نفسِها، وإمَّا متبعون لما فهموه من سنَّته في الجملة والتفصيل، على وجهٍ يخفى على غيرهم مثلُه، لا زائدة على ذلك"[٤].

ومن اللطائف في هذا الحديث أنَّ النَّبي ﷺ، بعد أنْ ذكر سنَّته وسنَّة الخلفاء الراشدين، قال عَضُّوا عليها، ولم يقل عّضُّوا عليهما؛ للدلالة على أنَّ سنَّته وسنَّة الخلفاء الراشدين منهجٌ واحدٌ، ولن يكون ذلك إلا بالفهم الصحيح.

٢- قوله ﷺ: (خيرُ القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجئ أقوامٌ تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته)[٥].

وهذا الحديث رواه خمسة عشر صحابيًا، وقد نصَّ على تواتره جماعةٌ من أهل العلم والرواية[٦].

فدلَّ الحديث بمنطوقه على أنَّ أهل هذه القرون الثلاثة الذين هم السلف الصالح ﷺ، خيرُ الأمة بإطلاقٍ، وذلك يقتضي تقديمهم في كل بابٍ من أبواب الخير، وإلَّا لو كان الخير من بعض

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، (٣٤١/٤)، رقم ٢٦٧٦، وصححه الألباني في الصحيحة برقم ٢٧٣٥.

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم (١٤٠/٤). بتصرف يسير

(٣) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري(٤١/٣).

(٤) الاعتصام، للشاطبي (٦٠/١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل أصحاب النبي ﷺ، رقم ٢٦٥٢.

(٦) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر (١٢/١)، ونصَّ على ذلك أيضاً السيوطي في متواتره.

الوجوه دون بعض، فلا يكونون خير القرون مطلقًا[1]؛ فهم خيرُ الأمة فهمًا، وأزكاها علمًا، وأعمقها تأصيلاً، وأحسنها اعتقادًا وعملاً.

وبما أنَّهم أفضل ممن بعدهم؛ فالاقتداء بهم خيرٌ من الاقتداء بمن بعدهم، وذلك أن إجماعهم لا يكون إلا معصومًا، وإذا تنازعوا؛ فالحق لا يخرج عنهم، فيمكن طلب الحق في أقاويلهم [2].

ويُستشهد على حُجيَّة فهمهم أيضاً، بجميع الأحاديث والآثار التي مدحت الصحابة، وأثنت عليهم، وحثت على الاقتداء بهم[3]، مثل حديث:(**لا تسبوا أصحابي، فلو أنَّ أحدكم أنفق مثل أحدٍ ذهباً، ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه**)[4]، وحديث:(**النجوم أَمَنَةٌ للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أَمَنَةٌ لأصحابي فإذا ذهبتُ أتى أصحابي ما يُوعدون، وأصحابي أمَنَةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون**)[5]، ونحوها.

وعليه فترجيحُ منهجٍ آخر غير منهج الصحابة ﷺ، فيه إبطالٌ لجميع النصوص الشرعية التي تدلُّ على فضلهم وسبقهم؛ إذ كيف يفضِّلُهم الله ﷻ، ويأمرنا باتِّباع سبيلهم، وهم لم يفهموا الدين فهماً صحيحاً.

٣- قال ﷺ:(**إنها ستكون فتن)، قالوا: فكيف لنا يا رسول الله؟ أو كيف نصنع؟ قال:(ترجعون إلى أمركم الأول**)[6].

والخطاب هنا للصحابة ﷺ، فكأنَّه ﷺ يشير إلى وقوع فتنة الاختلاف، ويرشد إلى الحل، وهو أن ترجعوا إلى أمركم الأول، زمنه عليه الصلاة والسلام، وزمن الشيخين، قبل ظهور الفتن والاختلاف، وهذا شاملٌ لفهمهم للنصوص، وعملهم بمقتضاها[7]، والشاهد من الحديث أنَّه كلما قَرُب العهد من النبوةِ وصدرِ الإسلام، كان أسلمَ من الفتن، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ السلامة في الرجوع إلى ما عليه السلف

(١) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم (١٣٦/٤).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٤/١٣).

(٣) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم (١٣٧/٤) فما بعدها في توجيه دلالات هذه النصوص.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: لو كنت متخذًا خليلاً، رقم (٣٦٧٣).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب بيان أن النبي ﷺ أمان لأصحابه، رقم (٢٥٣١).

(٦) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير(٢٤٩/٣)، والمعجم الأوسط(٢٩٤/٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، رقم ٣١٦٥.

(٧) انظر: شرح مشكل الآثار، للطحاوي (٢٢١/٣).

الأول، وهو ما تركهم رسول الله ﷺ عليه، عندما قال:(**قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك)** [1].

ثالثًا: من مأثورات الصحابة والأئمة المقتدى بهم

كثُرت النصوص الواردةُ عن الصحابة والتابعين وأئمةِ الدين المُقتدى بهم، في الحثِّ على الاقتداء بالسلف الصالح، وتتبع خطاهم في كل فهمٍ وعلمٍ وعملٍ واعتقادٍ.

وقد ذكر الباحث في أهمية فهم السلف بعض هذه الآثار الواردة في هذا الأمر، وهذه أيضاً بعض النقولات من مأثور أقوالهم في هذا الموضوع زيادةً على ما سبق، وتأكيداً على هذا الأمر المهم[2].

١- عن حذيفة بن اليمان ﷺ قال:"يا معشر القراء، خذوا طريق من كان قبلكم، فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقًا بعيدًا، ولئن تركتموه يمينًا وشمالاً، لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا"[3].

ومن المحال ألا يكون الصواب في فهم غير طريق من قد سبق إلى كل خير على الإطلاق[4].

٢- قال ابن مسعود ﷺ :" من كان مستناً فليستنَّ بمن قد مات، أولئك أصحابُ محمدٍ ﷺ، كانوا خير هذه الأمة، أبرَّها قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلَّها تكلفاً، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيه ﷺ، ونقلِ دينِه، فتشبَّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم كانوا على الهدي المستقيم"[5].

٣- وقال ابن مسعود ﷺ أيضاً:" تعلَّموا العلم قبل أن يُقبض، وقبضه أن يذهب أهلُه، ألا وإيَّاكم والتنطع، والتعمق، والبدع، وعليكم بالعتيق[6]"[7]، وهذا الأمر شاملٌ لفهمهم وعملهم واعتقادهم ﷺ.

ومثله ما جاء عن ابن عباس ﷺ، عندما سأله أحد طلابه أن يوصيه، فقال له: "عليك بالاستقامة، واتبع الأمر الأول، ولا تبتدع"[8].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، في افتتاح الكتاب، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين، رقم ٤٣، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة، رقم ٩٣٧.

(٢) للزيادة والتفصيل انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم (١٣٩/٤) وما بعدها ، ففيها جملةٌ من هذه النصوص.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الاعتصام، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم (٧٢٨٢)، ، بنحوه.

(٤) إعلام الموقعين، لابن القيم (١٣٩/٤).

(٥) شرح السنة، للبغوي، باب رد البدع والأهواء (٢١٤/١)، رقم ١٠٤،.

(٦) العتيق أي: ما كان عليه الصحابة ﷺ زمن النبي ﷺ، وهو الأمر الأول. انظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي(١٧١/٢).

(٧) مسند الدارمي، باب من هاب الفتيا وكره التنطع والتبدع (٢٥١/١)، رقم١٤٤.

(٨) الإبانة الكبرى، لابن بطة، باب ما أمر به من التمسك بالسنة والجماعة، والأخذ بها، وفضل من لزمها،(٣١٩/١)، رقم ١٥٨.

٤- وقال عمر بن عبد العزيز[١] -رحمه الله-:" فعليكم بلزوم السُنَّة، فإنَّ السنَّة إنَّما سنَّها من قد عرف ما في خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق، فارضَ لنفسك ما رضِيَ القوم لأنفسهم؛ فإنَّهم عن علمٍ وقفوا، وببصرٍ نافذٍ قد كَفُّوا، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضلٍ لو كان فيه أحرى، فلئن قلتم: أمرٌ حدث بعدهم، ما أحدثه بعدهم إلا من ابتغى غير سنَّتِهم، ورغِب بنفسه عنهم، إنَّهم لهم السابقون؛ فقد تكلَّموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، لقد قرؤوا منه ـ يعني القرآن ـ ما قرأتم، وعلموا من تأويله ما جهلتم"[٢].

٥- وقال الأوزاعي- رحمه الله-:"اصبرْ نفسك على السنة، وقفْ حيث وقف القوم، وقلْ بما قالوا، وكفَّ عما كفُّوا، واسلكْ سبيل سلفك الصالح، فإنَّه يسعك ما وسعهم"[٣]، وقال أيضاً:"عليك بآثار من سلف وإن رفضك الناس"[٤].

٦- وقال الإمام مالك- رحمه الله- :"والتسليمُ للسُنن، لا تُعارض برأيٍ، ولا تُدافع بقياسٍ، وما تأوَّله منها السلف الصالح تأوَّلناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويسعُنا أن نمسك عما أمسكوا، ونتَّبعهم فيما بيَّنوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج من جماعتهم فيما اختلفوا فيه وفي تأويله"[٥]، وهو القائل للعبارة المشهورة، والتي تُعد منهجًا في الإتباع:"لا يُصْلح آخرَ هذه الأمة إلا ما أَصْلَح أولَها"[٦].

٧- وقال أبو الحسن الأشعري- رحمه الله- عند رجوعه لمنهج السلف: "قولُنا الذي نقول به، وديِنُنا الذي نَدين لله به، التمسكُ بكتاب ربِّنا، وسنَّة نبينا، وما رُوي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون..."[٧].

---

(١) عمر بن عبد العزيز بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو حفص، الخليفة الصالح، والملك العادل، وربما قيل له خامس الخلفاء الراشدين تشبيهاً له بهم، وكان يدعى "أشج بني أمية" رمحته دابة وهو غلام فشجّته، ولد ونشأ بالمدينة، وولي الخلافة سنة ٩٩ هـ، وسكن الناس في أيامه، والأخبار في عدله وحسن سياسته كثيرة، ومدة خلافته سنتان ونصف، وتوفي ١٠١هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٤٧٥/٧)، وحلية الأولياء، للأصفهاني(٢٥٣/٥)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي(٦٣/٢)، والأعلام، للزركلي (٥٠/٥).

(٢) أخرجه البيهقي في القضاء والقدر(٣١٨/١)، والآجري في الشريعة، (٥٥٥/١) برقم ٥٣٩، وابن بطه في الإبانة، (٣٣٥/٢) برقم ٥٦٠ ، وذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى (٤/ ٧ ـ ٨).

(٣) الشريعة، للآجري (٦٧٣/٢)، رقم ٢٩٤.

(٤) المصدر السابق (٤٤٥/١)، رقم ١٢٧.

(٥) ذكره ابن القيم في اجتماع الجيوش الإسلامية، (١٥٥/٢).

(٦) مسند الموطأ، للجوهري،(٥٨٤/١)، رقم ٧٨٣.

(٧) الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري (٢٠/١).

٨- وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:" الذي يجب على الإنسان اعتقادُه في ذلك وغيرِه، ما دلَّ عليه كتابُ الله وسنةُ رسوله ﷺ ، واتَّفق عليه سلفُ المؤمنين، الذين أثنى الله عليهم وعلى من اتَّبعهم، وذمَّ من اتَّبع غير سبيلهم"[١].

٩- وقال الإمام الذهبي- رحمه الله- :" فإنْ أحببت يا عبد الله الإنصاف؛ فقفْ مع نصوص القرآن والسنة، ثمَّ انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات، وما حكَوه من مذاهب السلف، فإمَّا أنْ تنطق بعلمٍ، وإمَّا أنْ تسكت بعلم"[٢].

رابعًا: الإجماع:

لقد انعقد إجماع أهلِ السنة والجماعة، على أنَّ خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقادات، وغيرها من كل فضيلةٍ، القرنُ الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم.

وقد حكى هذا الإجماع غيرُ واحدٍ من أهل العلم، ومن ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- فقال:"من المعلوم بالضرورة لمنْ تدبَّر الكتاب والسنة، وما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف، أنَّ خير هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقادات، وغيرها من كل فضيلةٍ، القرنُ الأول، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، كما ثبت ذلك عن النبي ﷺ، من أكثر من وجهٍ، وأنَّهم أفضلُ من الخلف في كل فضيلةٍ؛ من علمٍ، وعملٍ، وإيمانٍ، وعقلٍ، ودينٍ، وبيانٍ، وعبادةٍ، وأنَّهم أولى بالبيان لكلِّ مشكلٍ، وهذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضلَّه الله على علم"[٣]، ولذلك فقد أصبح اتباع السلف في فهمهم شعاراً، وأصلاً من أصول أهل السنة والجماعة، يقول الإمام أحمد -رحمه الله-:" أصولُ السنة عندنا، التمسكُ بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ ، والاقتداءُ بهم، وتركُ البدع"[٤]، "كما أنَّ شعار أهل البدع، هو ترك انتحال إتباع السلف"[٥].

خامسًا: المعقول والاعتبار الصحيح:

إنَّ مما يدلل على حجية فهم السلف من المعقول والاعتبار الصحيح، ما يلي:

١- أنَّه من المتقرر عند عامة المسلمين أنَّ الصحابة هم أكملُ الأمة عقولاً، وأشدُّها اتباعاً، وأقواها إيمانًا، وأزكاها علمًا، وأتمُّها فهمًا، وأنَّه لم يأتِ من هو مثلُهم في الإيمان والعلم والفهم والعمل، فمنَ المُحال والممتنع أنَّ من هذه صفته، أنْ يكون مَنْ بعدَه من الخلف أزكى منه، وأوفق لمعرفة الحق

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٣٥/١٢).

(٢) العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، للذهبي(١٣/١).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٥٨/٤).

(٤) أصول السنة، للإمام أحمد(١٤/١).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٥٥/٤).

بالفهم الصحيح منه، ومن المحال أن تكون القرون الثلاثة المفضلة، بما فيها قرنُه ﷺ الذي بُعث فيه، غير عالمين، ولا فاهمين للحق، ولا قائلين وعاملين به.

٢- أنَّه عند اختلاف فهم السلف مع فهم من بعدهم، فلا يخلو الحال من أحد أمرين:

أ ـ إمَّا أن يكون الحقُّ مع القوم الذين اصطفاهم الله لصحبة خير خلقه وصفوة رسله.

ب ـ وإمَّا أن يكون الحقُّ مع قومٍ إنَّما أخذوا علومهم من المنطق اليوناني، ومن القواعد الفلسفية المناقضة للمعقول والمنقول، فأيُّ الفريقين أحقُّ بمعرفة وفهم ما أنزل الله على رسوله ﷺ، ولذلك "فإن أصل وقوع أهل الضلال في مثل هذا التحريف، هو الإعراض عن فهم كتاب الله ﷻ كما فهمه الصحابة والتابعون، ومعارضة ما دلَّ عليه بما يُناقضه، وهذا من أعظم المحادة لله ولرسوله، لكن على وجه النفاق والخداع"(١).

٣- أنَّ الكثير من علماء الخلف وكبارهم، قد اعترفوا بخطأ ما هم عليه من الفهم وطرائق الاستدلال، وندموا على ما تعلَّموه ممَّا هو مخالفٌ لفهم السلف، وأنَّهم لم يكن معهم إلا الوهم، والخيالات الفاسدة، المُفضية لعذاب الشك والحيرة وعدم اليقين(٢)، "وأمَّا أهلُ السنة والحديث، فما يُعلم عن أحدٍ من عُلمائهم، ولا صالح عامتهم، رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبراً على ذلك، وإنْ امتُحنوا بأنواع المحن، وفُتنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين"(٣).

٤- أنَّه من المعلوم أنَّ استنباط الأحكام من النصوص الشرعية له ركنان أساسيان، "أحدهما علم لسان العرب، وثانيهما علم أسرار الشريعة ومقاصدها، أمَّا الركن الأول، فقد كان وصفًا غريزيًا في الصحابة والتابعين والعرب الخلص؛ فلم يكونوا في حاجةٍ لقواعدَ تضبطه لهم، كما أنَّهم كسبوا الاتصاف بالركن الثاني من طول صحبتهم لرسول الله ﷺ، ومعرفتهم الأسباب التي تَرَتَّب عليها التشريع، حيث كان ينزل القرآنُ، وتَرِدُ السنة نجومًا بحسب الوقائع، مع صفاء الخاطر؛ فأدركوا المصالح، وعرفوا المقاصد التي راعاها الشارع في التشريع"(٤)؛ وكذلك لاختصاصهم ببعض الأمور دون غيرهم؛ مما يجعل فهمهم مقدمًا على غيرهم.

وبعد هذا البيان للأدلة من الكتاب والسنة والإجماع والمعقول على حجية فهم السلف، نخلص إلى أنَّ طريقة السلف في الفهم هي الواجب سلوكها، والعقيدة التي فهموها واعتقدوها هي الواجب اعتقادها، وهي الهدى الذي بعث الله ﷻ به رسوله ﷺ، وهي الصراط المستقيم الذي أمرنا الله ﷻ باتِّباعه، فمن اتَّبعها فإنَّه على هدى، ومن تركها وحاد عنها فإنَّه على ضلال؛ لأنها عقيدةٌ مستمدةٌ من

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٥/٣٨٣).

(٢) انظر: الاستقامة،لابن تيمية(١/٧٩)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/٢٣).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/٥٠).

(٤) الموافقات، للشاطبي(١/٥).

كتاب الله ﷻ، وسنَّة رسوله ﷺ، وهذا يعني أنَّها الأسلم والأعلم والأحكم، وأنَّها بالضرورة هي الأولى بالاتباع، وأنَّ التزامها متعينٌ؛ لأنَّها الحق، والحقُّ أحقُّ أن يُتَّبع، فهي العروة الوثقى، والدين الخالص، والصراط المستقيم، وهي وصية رسول الله ﷺ، وهي سبيل المؤمنين، وسبيل المؤمنين لاشكَّ أنه سبيل الصحابة والتابعين، والقرون الفاضلة في الدين.

وليكون فهمُ السلف حجةً على من بعدهم في المسائل التي تكلَّموا فيها، فإنَّ هذا يقتضي إجماعهم أو إجماعَ جمهورهم على تلك المسائل، أو انتشارَ قول آحادهم مع عدم وجود مخالفٍ لهذا القول، وهذا النوع من فهم السلف مجمعٌ عليه، وهو حجةٌ مُلزمةٌ لمن بعدهم، ويلحق به ما نُقل عن آحادهم، ولم يخالفه فيه غيره منهم، سواءٌ كان في أصول الدين أو فروعه[١]، وقد أوضح النبي ﷺ أنَّ في اجتماع كلمتهم إصابةٌ للحق، حيث قال ﷺ :**(إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة)**[٢].

ولذلك فإنَّ اشتراط إجماع السلف أو جمهورهم على فهم مسألةٍ من المسائل، يخرج به اجتهاد أفراد الصحابة، أو من دونهم، في بيان بعض الأحكام الجزئية، أو تفسير أفرادهم لبعض الآيات القرآنية، التي اختلفوا فيها، وتعددت أقوالُهم، أو جانب الصوابَ فيها بعضُهم، فهذا يُعدُّ فهماً لبعض السلف، وليس هو فهم السلف[٣].

وهذا النوع يختلف الحكم فيه إنْ كان هناك مخالفٌ للصحابي من الصحابة ﷺ، أو لم يُوجَد؛ فإذا وُجد المخالفُ لقول الصحابي في زمانه، فلا يعتبرُ قولُ أحدهم حجةً على الآخر، ويتخير العالم من أقوالهم أقربَها إلى الكتاب والسنة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:"أمَّا أقوالُ الصحابة إن انتشرت، ولم تُنكر في زمانهم، فهي حجةٌ عند جماهير العلماء، وإن تنازعوا ردُّوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله، ولم يكن قولُ بعضهم حجةً على مخالفة بعضهم له باتفاق العلماء، وإنْ قال بعضهم قولاً، ولم يقل بعضهم بخلافه، ولم ينتشر، فهذا فيه نزاعٌ، وجمهور العلماء يحتجون به"[٤].

وكذلك من أصول الإمام أحمد- رحمه الله-، أنه "إذا اختلف الصحابة تخيَّر من أقوالهم أقربَها إلى الكتاب والسنة، ولم يخرج عن أقوالهم، فإنْ لم يتبين له موافقة أحد الأقوال، حكى الخلاف فيها، ولم يجزم بقولٍ"[٥]؛ فقد يخالف الصوابَ بعضُ أفرادهم، وهم في ذلك معذورون ومأجورون، ولكن لا نُقلِّده

---

(١) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم (١٢٦/٤) .

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، (٤٦٦/٤)، رقم ٢١٦٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ١٨٤٨.

(٣) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم(١٢٧/١).

(٤) مجوع الفتاوى، لابن تيمية(١٤/٢٠) .

(٥) إعلام الموقعين، لابن القيم(٣١/١) .

ولا نُجرِّحه؛ لأنهم قالوا بمبلغ علمهم، مع بذل الجهد والوسع في إصابة الحق[1]، ولم يحدث هذا إلا في مسائل معدودةٍ، "وإلَّا فهم فوقنا في كل عقلٍ، وعلمٍ، وفضلٍ، وسببٍ، يُنال به علمٌ، أو يُدرك به صوابٌ، ورأيهم لنا خيرٌ من رأينا لأنفسنا"[2].

ويقول ابن القيم– رحمه الله–: "فإذا وُجد قولٌ لأصحاب رسول الله ﷺ في مسألةٍ من المسائل، كان الظنُّ بأنَّ الصوابَ في جهتهم، والحقَ في جانبهم من أقوى الظنون، وكان الرأيُّ الذي يوافق رأيهم هو الرأيُ السديد"[3]؛ بل لقد ذهب بعضُ أهل العلم إلى أن تفسيرهم له حكم المرفوع للنبي ﷺ، من جهة الاستدلال والاحتجاج به، قال أبو عبد الله الحاكم[4] –رحمه الله–: "وتفسير الصحابي عندنا في حُكم المرفوع"[5].

وقال الإمام أحمد– رحمه الله–:" إنَّه ما من مسألةٍ إلا وقد تكلَّم فيها الصحابةُ، أو في نظيرها"[6]، وهذا يعني أنَّه ينبغي على المسلم الحريصِ على دينه، أن ينظر إلى ما فهمه من النصوص الشرعية، وبنى عليه الاعتقاد أو العمل، فيعرضَه على فهم السلف الصالح لهذه النصوص، هل اعتقدوا ذلك أم لا؟، وهل عملوا به أم لا؟، فيحمدَ الله على الموافقة، ويستغفرَ الله من المخالفة، ويُراجع نفسه، ويتهمَ علمه وفهمه، إن خالفهم في شيء.

---

(١) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم(٣/٢٨٣) .

(٢) نسبه ابن القيم إلى الشافعي في الرسالة البغدادية القديمة، ولذلك لم أعثر عليه في كتاب الرسالة المطبوع، انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم(٢/١٨٥).

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم(٤/١٤٧) .

(٤) محمد بن عبد الله بن حمدويه بن نعيم الضبي، الطّهماني النيسابوريّ، الشهير بالحاكم، ويعرف بابن البيّع، أبو عبد الله، من أكابر حفاظ الحديث والمصنفين فيه، مولده ووفاته في نيسابور، رحل في طلب العلم وأخذ عن نحو ألفي شيخ، صنف كتباً كثيرةً منها: تاريخ نيسابور، والمستدرك على الصحيحين، ومعرفة أصول الحديث وعلومه وكتبه–المطبوع باسم (معرفة علوم الحديث)–، وتوفي ٤٠٥هـ. انظر:ميزان الاعتدال، للذهبي(٣/٨٥)، ولسان الميزان، لابن حجر(٥/٢٣٢)، والوافي بالوفيات، للصفدي(٣/٣٢٠)، والأعلام، للزركلي(٦/٢٢٧).

(٥) المستدرك على الصحيحين، للحاكم(١/٢١١).

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٩/٢٠٠).

المطلب الثالث: آثار التمسك بمنهج السلف في الفهم

لا شكَّ أنَّ الالتزام بفهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنَّة، له ثمراتٌ يانعةٌ، وآثارٌ نافعةٌ، تحفظ المرء في عقيدته وعبادته، وتعصمه بإذن الله من الأهواء والمفاهيم الشاذَّة والأفكار المنحرفة، فما سُلَّت السُّيوف، وأُزهقت الأرواح، وسُفكت الدماء، وانتُهكت الحُرمات، وكُفِّر المسلمون، وفُرِّقت جماعتُهم قديماً وحديثاً، إلا بسبب التأويل الباطل المبنيِّ على الفهم السقيم للنُّصوص الشرعيَّة(١)، المخالف لفهم السلف الصالح ﷺ.

وقد قَسَّم الباحث هذه الآثار الايجابية للتَّمسك بمنهج السلف في الفهم، إلى آثارٍ متعلقةٍ بالفرد المسلم، وآثارٍ متعلقةٍ بالمجتمع المسلم.

أولاً: آثار التمسك بمنهج السلف على الفرد المسلم.

إنَّ التمسُّك بمنهج السلف الصالح في فهم النصوص، له أثرٌ كبيرٌ على الفرد المسلم، من ناحية قوته العلمية والعملية، وزيادة إيمانه، ومعرفته بأمور دينه، وتوفيقه في الدنيا، ثم فوزه وفلاحه في الآخرة، ومن هذه الآثار:

١- معرفة مراد الله ﷻ ومراد رسوله ﷺ: إنَّ معرفة مراد الله ورسوله من النَّصوص هو غاية كلِّ مسلمٍ يريد الاعتصام بالكتاب والسنة، قولاً وعملاً، ظاهرًا وباطنًا؛ لينجوَ من الفتن، ويحققَ عبوديَّة ربه على هدىً وبصيرة؛ وذلك لأنَّ "الانحياز إلى جانب الصحابة ﷺ وأتباعهم، والتمسكَ بطريقتهم وهديهم، هو عينُ الفلاح، وأساسُ النجاح، فأسعدُ الناس وأسدُّهم رأيًا في جميع أمور الدين، وما يُقرِّب من ربِّ العالمين هو من تلقَّى دينه من مشكاة الوحي المبين، ورغِب بعقله وفطرته وإيمانه عن آراء المُتهوكين، وتشكيكات المُشكِّكين، وتكلُّفات المتنطعين، واستمطر الهداية من كلمات أعلم الخلق برب العالمين، فإنَّ كلماته الجوامع النوافع التي كفت وشفت، وجمعت وفرَّقت، وأوضحت وبيَّنت، وحلَّت محلَّ التفسير والبيان لما تضمنه القرآن"(٢).

إنَّ عامة ما عند السلف من العلم والإيمان هو ما استفادوه من نبيِّهم ﷺ، الذي أخرجهم الله به من الظلمات إلى النور، وهداهم به إلى الصراط المستقيم، كما قال ﷻ:﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ**﴾[آل عمران:١٦٤]، ولا شكَّ أنَّ أعلم النَّاس بهذا الصراط، وأحرصَهم على الهداية إليه، هم صحابة رسول الله ﷺ وأتباعُهم من أئمة السلف الصالح، ولذلك قال عمر بن

(١) انظر: إعلام الموقعين لابن القيم (١٩٣/٤).

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم(٣/١)، بتصرف يسير.

الخطاب ﷺ:"إذا لقيتم الذين يتَّبعون المتشابه فخذوهم بالسُّنن، فإنَّ أصحاب السَّنن أعلمُ بكتاب الله تعالى"[1].

ولذلك فإنَّ اتِّباع السلف الصالح في علومهم وفهمهم يوصِل المسلم لفهم مراد الله ورسوله؛ وبالتالي تصحُّ عبادتُه عند الله ﷻ، وتُقبلُ منه.

٢- **حصول العزَّة بالانتماء للسلف عقيدةً ومنهجاً:** إنَّ تحصيل العزة التي ذكرها الله ﷻ في قوله:﴿**وَللهِ العِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ**﴾[المنافقون:٨]، يكون بصدق الإيمان، ومن ذلك صدقُ الانتماء للسَّلف الصالح، ويكون ذلك بالتمسك بالطريقة التي كان عليها أهل تلك القرون الفاضلة من التمسُّك بالكتاب والسنة، وتقديمها على ما سواهما من رأيٍ وعقلٍ وذوقٍ وقياسٍ، والعملِ بهما على مقتضى فهم الصحابة والسلف، فكلُّ من التزم منهاجهم في العلم والعمل، وإن تأخَّر زمانُه عن عصر السلف، فهو منهم، وسلفيٌّ معهم.

قال أبو الوفاء بن عقيل[2]- رحمه الله- لبعض أصحابه:"أنا أقطعُ أنَّ الصحابة ماتوا وما عرفوا الجوهر والعَرَض، فإن رضيتَ أن تكون مثلهم، فكن مثلهم، وإن رأيتَ أنَّ طريقة المتكلمين أولى من طريقة أبي بكر وعمر فبئس ما رأيت"[3].

إنَّ الشعور بالعزة في هذا الجانب ينبع من صدق الانتماء والإتِّباع للسلف؛ "لأنَّ عقيدة السلف التي يعتقدونها هي جملة ما أخذوه عن كتاب الله، وسنَّة نبيِّه ﷺ، وهو الاعتقاد الصحيح، والواقع الحق، الذي لا يزيغ عنه إلا هالكٌ، بخلاف عقائد غيرهم، الذين خلطوا عقائدهم بعلم الكلام، وآراء الفلاسفة، فجاءت نتاجاً مشوهاً"[4]، وخيرُ شاهدٍ على ذلك كلام من رجع إلى عقيدة السَّلف بعد التيه في علوم الكلام والفلسفة؛ وفي ذلك ينقلُ ابن القيِّم- رحمه الله- عن بعض المتكلمين تجربتَهم في علم الكلام، وحبَّهم لعقيدة السلف، بعدما أنار الله بصيرتهم لها، وأيقنوا أنَّها الحق، الذي لا شكَّ فيه، فيقول ابن القيم- رحمه الله-: "وقال بعض الطالبين من المتأخِّرين، وقد سافر في طلب ربِّه على هذه الطريق، فلم يزددْ إلا حيرةً وبُعدًا من مطلبه، حتى قيَّض الله له من أخذ بيده، وسلك به على الطريق

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (٤٧/١)، رقم ١٢١، والآجري في الشريعة(٢٤٠/١)، رقم ٩٣، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٢٣/١)، رقم ٢٠٣.

(٢) علي بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادي الظفري، أبو الوفاء، يعرف بابن عقيل، عالم العراق وشيخ الحنابلة ببغداد في وقته، اشتغل بمذهب المعتزلة في حداثته، ثم أظهر التوبة ورجع عما كان عليه، له تصانيف منها: كتاب الفنون، والفرق، والفصول في فقه الحنابلة، والرد على الأشاعرة، وإثبات الحرف والصوت في كلام الكبير المتعال، وكفاية المفتي، وتوفي ٥١٣هـ. انظر: شذرات الذهب، لأبي الفلاح الحنبلي(٣٥/٤)، ولسان الميزان، لابن حجر(٢٤٣/٤)، وطبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى، ص٤١٣، والأعلام، للزركلي(٣١٣/٤).

(٣) تلبيس إبليس، لابن الجوزي(٧٧/١).

(٤) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، د. غالب عواجي(١٣٠/١).

التي سلك عليها الرُّسل وأتباعُهم، فجعل يهتف بصوته لأصحابه: هلمُّوا، فهذه واللهِ الطريق، وهذه أعلام مكة والمدينة، وهذه آثارُ القوم، لم تنسخها الرياح، ولم تُزِلها الأهوية"[١].

وقال ابن القيم- رحمه الله- أيضاً: "قال بعض المتكلمين: أفنيتُ عمري في الكلام، أطلب الدَّليل، وأناْ لا أزدادُ إلا بُعداً عن الدليل، فرجعتُ إلى القرآن أتدبَّره، وأتفكرُ فيه، وإذا أنا بالدليل حقاً معي، وأنا لا أشعر به، ورأيتُ فيه من أدلة الله، وحُججه، وبراهينه، وبيِّناته، ما لو جُمع كلُّ حقٍّ قاله المتكلمون في كتبهم، لكانت سورةٌ من سور القرآن وافيةً بمضمونه، مع حُسن البيان، وفصاحة اللفظ، وحُسن الاحتراز، والتنبيهِ على مواقع الشُّبه، والإرشاد إلى جوابها، وجَعلتْ جيوش الكلام بعد ذلك تَفِدُ إليَّ كما كانت، وتتزاحم في صدري، ولا يأذن لها القلبُ بالدُّخول فيه، ولا تلقى منه إقبالًا ولا قَبولًا، فترجعُ على أدبارها"[٢].

ويثمرُ هذا الاعتزاز بمنهج السلف، الدفاعَ عن عقيدتهم ومنهجهم، وقد كانت هذه السمة غالبةً على علماء السلف من أهل السنة، وعلى كثيرٍ ممن رجع من أهل الكلام إلى مذهب السَّلف، فحينما تراجع بعض المتكلمين عن اعتقاداتهم، نسفوا كلَّ ما كتبوه فيها، فلم يَعدْ لها وجودًا في قلوبهم، واتَّجهوا للتأليف في العقيدة الصحيحة، فأصبحوا معتنقين لمذهب السلف، ملازمين للفطرة السَّوية، وهذا أمرٌ ليس بالعسير؛ فإنه "ليس من شروط عقيدة السلف أن يتلقَّنها الإنسان في مدرسةٍ؛ بل من فهمها بفطرته، وآمن، وأقَّر بها، دون تحريفٍ، ولا تأويلٍ، ولا تمثيلٍ، فهو سلفيٌّ، ولو لم يدرسْ ذلك في كتابٍ خاص"[٣].

ولذلك يفخر ويعتز المسلم بانتمائه للسلف الصالح عقيدةً ومنهجاً، ويحظى بالحقِّ، ويفوز بالقبول.

٣- السَّلامة والنجاة من الشُّبهات والبدع: إنَّ الإلتزام بمنهج السلف في الفهم يعصم المسلم من الشبهات الكثيرة التي وقع فيها من خالف منهجهم، ولقد اتسعت مظانُّ الشبهات، حتى شملت مداخل كثيرة، وظنَّ البعض أنَّ منهج من جاء بعد السلف أعلم وأحكم، فقال: طريقة السَّلف أسلم، وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهؤلاء لم يُحصِّلوا شيئاً؛ بل تركوا النُّصوص، وفيها الحق واليقين، ولجأوا إلى احتمالاتٍ وتجويزاتٍ، أوقعتهم في الحيرة والضياع.

يقول الشوكاني- رحمه الله-:" فهم متفقون فيما بينهم على أنَّ طريق السلف أسلم، ولكن زعموا أن طريق الخلف أعلم، فكان غاية ما ظفِروا به من هذه الأعلميَّة لطريق الخلف، أنْ تمنى مُحقِّقُوهم وأذكياؤهم في آخر أمرهم دينَ العجائز، وقالوا: هنيئاً للعامَّة، فتدبَّر هذه الأعلميَّة التي

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٦٦٨/٢-٦٦٩).

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم(١٤٦/١).

(٣) حوار هادئ مع محمد الغزالي، لسلمان العودة، ص٣٤.

حاصلها أن يُهنِّئ من ظفر بها الجاهلَ الجهل البسيط، ويتمنى أنَّه في عدادهم، فإن هذا يدلُّ بأوضح دلالة على أنَّ هذه الأعلمية التي طلبوها، الجهلُ خيرٌ منها بكثير، فما ظنُّك بعلمٍ يقرُّ صاحبُه على نفسه أنَّ الجهل خيرٌ منه، ففي هذا عبرةٌ للمعتبرين، وآيةٌ بيِّنةٌ للناظرين"[١]؛ ولذلك فإنَّ النجاة موقوفةٌ على متابعة السلف، والسكوت عما سكتوا عنه، فكلُّ مسألةٍ سكت عنها الصحابة والسلف الصالح، وتكلَّم فيها الخلف ولا سِيَّما فيما يتعلق بمسائل الاعتقاد والإيمان، إلَّا كان السكوتُ عنها أولى وأليق، ولم يأتِ فيها الخلف بمزيد علمٍ[٢]؛ كما قال عمر بن عبد العزيز – رحمه الله–:"عليكم بلزوم السنَّة، فإنَّ السنة إنَّما سنَّها من قد عرف ما في خلافها من الخطأ والزلل، والحُمق والتعمُّق، فارضَ لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنَّهم عن علمٍ وقفوا، وببصرٍ نافذٍ قد كَفُّوا، ولهم كانوا على كشف الأمور أقوى، وبفضلٍ لو كان فيه أحرى"[٣].

وقال غيره:"عليكم بآثار من سلف، فإنَّهم جاؤوا بما يكفي ويشفي، ولم يحدث بعدهم خيرٌ كان لم يعلموه"[٤].

إنَّ اتِّباع منهج السَّلف يُورث الطُمأنينة والأمن النفسي القاطع لشوائب الاحتمالات المُقدَّرة، الرافع للإشكالات المُتوهَّمة، فمتى علم طالب العلم أنَّ فهمه للدليل موافقٌ لفهم السلف الصالح، كان ذلك حاسمًا للتردُّدات، شاهدًا صادقًا على صحَّة الاستدلال بالدليل، مُصدِّقًا له، فموافقة فهم السلف وخاصَّةً الصحابة منهم هو الضابط في معرفة السنَّة من البدعة، فكلُّ دينٍ لم يكن معروفًا عند السلف، فهو من الابتداع والإحداث في الدين، وقد تقدَّم مأخذ ابن عباس ﷺ على الخوارج، بأنَّه ليس فيهم أحدٌ من صحابة رسول الله ﷺ، الذين هم أعلم النَّاس بتأويل القرآن، فدلَّ ذلك على أنَّ الحُجَّة بفهم الصحابة وما كانوا عليه وليس العكس، وأن أهل البدع هم الذين انشقوا عن الجماعة وخالفوا الصحابة والأئمة، ولذلك" فلا أحد يسْلمُ من البدعة، ولا يسْلمُ له عقيدةٌ، إلا أنْ يُسْلم كما أسلم السلف، وأن يفهم النُّصوص كما فهموا، ويترك علم ما لم يُكلَّف، وهذا مسلك أئمة السُّنة[٥]، "ومن عَدلَ عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أنَّه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم أو غيرَ الحق، وهذا ممَّا حرَّمه الله ورسوله"[٦]، ولذلك فإنَّ "الشاهد على المتخاصمين، النظرُ في حال السَّلف، وهل كانوا يفهمون هذه النُّصوص على

---

(١) التحف فِي مَذَاهِب السّلف، للشوكاني(٢٨/١).

(٢) انظر: بيان فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب الحنبلي(٤/١).

(٣) الشريعة، للآجري (٩٣٠/٢)، رقم ٥٢٩.

(٤) ذكر هذا الأثر ابن تيمية في مجموع الفتاوى(١٥٨/٤)، وبحثت عنه في كتب السنة والآثار فلم أجده.

(٥) انظر: إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، لابن الوزير(١٢٢/١).

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٨٨/٧).

هذا النحو أم لا؟، وهل كانوا آخذين فيها؟ أم كانوا تاركين لها أو غافلين عنها، مع القطع بتحقُّقهم بفهم القرآن، ويشهد لهم بذلك النبي ﷺ ، والجمُّ الغفير، فلينظرْ امرؤٌ أين يضعُ قدمه"[١].

إنَّ ألناجي في أمَّة محمدٍ ﷺ هو من كان على مثل ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه والسَّلف من بعدهم، فكلَّما قرُب الإنسان من السلف، كان أقرب للصواب في العقيدة والفقه، وأسلم في المنهج والحُجَّة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "كلُّ من كان إلى طريق الرسالة والسَّلف أقرب، كان إلى موافقة صريح المعقول وصحيح المنقول أقرب"[٢]، وهذا إنَّما يُعرف عن طريق السُّنن المرويَّة، والآثار الصحابيَّة، وأولى الناس بمعرفة ذلك هم السلف الصالح، ومن سار على منهجهم وطريقتهم؛ وذلك لاشتغالهم وعنايتهم بالسُّنن والآثار، وانتسابهم إليها، بعكس أهل البدع أمثال المعتزلة والخوارج والشيعة، فكلُّهم يطعن في الصحابة ﷺ طعناً صريحاً، فمنهم من يلعن الصحابة كالرافضة، ومنهم من يكفِّرهم كالخوارج، ومنهم من يفسِّقهم كالمعتزلة[٣]، فكيف يُقال في هؤلاء جميعاً أنَّهم موافقون للصحابة في علومهم وأعمالهم؟!.

وبناءً على ما سبق فإنَّ اتِّباع منهج السلف وطريقتهم يورث انشراح الصدر وطمأنينة القلب، والسلامة من البدع والشبهات، وبذلك تكون الهداية، كما قال ﷻ:﴿ **فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ** ﴾[الأنعام:١٢٥]، فمن أراد الله له الهداية وانشراح الصدر، هداه إلى الإسلام أولاً، ثم إلى سلامة العقيدة من شوائب البدع والشبهات ثانيًا.

٤- **تحصيل ولاية الله عز وجل ومحبته:** إنَّ إتِّباع منهج السَّلف في فهم النُّصوص يجعل المسلم يتعبد لله ﷻ وفق ما أراده الله ﷻ، وبذلك يزيد إيمانُه وتقواه، ومحبةُ الله ﷻ له، فيكون من أولياء الله ﷻ، ومن الطائفة المنصورة الظاهرة على الدِّين الذين يقتفون آثار السَّلف، كما قال الإمام البخاري- رحمه الله- في الطائفة المنصورة:"هم أهل العلم بالآثار"[٤]، وكما قال الإمام أحمد- رحمه الله-:"إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم"[٥].

(١) الموافقات، للشاطبي(١٩٨/٤).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٩١/٨).

(٣) انظر: الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، للإسفراييني(٣٠٤/١-٣٠٩).

(٤) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني(٢٩٣/١٣).

(٥) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي(٦٧/١٣).

قال القاضي عياض[1]– رحمه الله– تعليقاً على الكلام السابق للإمام أحمد:" إنَّما أراد أحمد أهلَ السنة والجماعة، ومن يعتقد مذهب أهل الحديث"[2].

إنَّ اتِّباع منهج السلف الصالح يسلك بالمسلم إلى طريق النور والهداية، كما قال ﷻ: ﴿ **اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾[البقرة:٢٥٧]، ولا يكون الرجل من أولياء الله حقاً، إلَّا إذا كان مُتَّبعاً للكتاب والسنة كما كان السَّلف الأوائل، "فلو رأيتم الرجل يطير في الهواء، أو يمشي على الماء، فلا تغتروا به حتى تنظروا وقوفه عند الأمر والنهي، ... وأفضل أولياء الله أكملُهم متابعةً للأنبياء،... ولا طريق للعباد إلى الله إلا باتِّباع الواسطة الذي بينهم وبين الله وهو الرسول، ومعيار الولايات هو لزوم الكتاب والسنة، فأولياء الله المتقون هم المتبعون لكتاب الله وسنة رسوله، كما قال ﷻ:﴿ **قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[آل عمران:٣١]، وطريقهم طريق أنبياء الله المرسلين"[3].

إنَّ بالتزام منهج السلف يتحصل المسلم على محبة الله ﷻ، وعلى محبة الخلق التي يجعلها الله لعباده الصالحين في قلوب الخلق، كما قال ﷻ:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا**﴾[مريم:٩٦]، ويتحصل أيضاً على نور البصيرة التي يُفرِّق بها بين الحق والباطل، كما قال ﷻ:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ**﴾[الأنفال:٢٩]، فكلَّما ازداد العبد علماً وفهماً، ازداد رُقيًّا في مدارج الإيمان ومعارج اليقين، والتصديق عن حجةٍ وبرهان، وهذا أفضل ما اشتغل به المسلم، مع تحقيق الإخلاص في علمه وعمله، والإخلاص يتوقف في حصوله وكماله على معرفة العبد لربه، وتعظيمه وتأليهه، ومعرفة أسمائه ﷻ وصفاته، والتعبد لله بمقتضاها، فمن كان بالله أعرف كان له أخلص، وفيما عند الله تعالى أرغب، ومن عقوبته أرهب، فالعلم بفهمٍ وعمل سبيلٌ لرفع الدرجات وحصول البركات،

---

(١) عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل، عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته، توفي بمراكش مسموماً، وقيل: سمَّه يهودي، من تصانيفه: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، والغنية، وشرح صحيح مسلم، والإعلام بحدود قواعد الإسلام، وتوفي ٥٤٤هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٣٩٢/١)، والأعلام، للزركلي (٩٩/٥).

(٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر (١٦٤/١).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٦٦٦/١١)، وانظر: الرد على المنطقيين، لابن تيمية (٥١٦/١).

قال ﷻ:﴿ يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾[المجادلة:١١] .

٥- **هداية العقل واستنارته:** إنَّ فهم النُّصوص الشرعية وفق منهج السلف الصالح يقضي على الخصومة المفتعلة بين النقل والعقل، وبين الوحي والرأي، فمنهج السلف يحترم العقل ويُعلي من شأنه، ويحثُّ على التَّعقل والتدبر كما أمر الله ﷻ في أكثر من آيةٍ، كقوله ﷻ:﴿ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[يوسف:٢]، وقوله ﷻ:﴿ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾[هود:٥١].

إنَّ عقيدة السلف تذمُّ التقليد الأعمى الذي هو حجاب العقل، وغطاء الفهم، كما قال ﷻ عمن كذَّبوا الرُّسل:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ ﴾[البقرة:١٧٠]، وهي تهدي العقل إلى مجالاته النافعة، كما قال ﷻ:﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ ﴾[الذريات:٢١]، وتحظر على العقل ما لا يمكن الخوض فيه رحمةً به، فتوفر طاقته فيما يطيقه ويحسنه، كما قال ﷻ:﴿ وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾[الاسراء:٨٥].

إنَّ منهج السَّلف- رحمهم الله- في شأن العقل وسطٌ بين طرفين نقيضين، المهملون للعقل مثل كثيرٍ من المُتصوفة الجُهال، والمُقدِّسون له كأهل الكلام والفلاسفة، فمن انضبط بمنهج السلف، اهتدى عقله، وسلم ذهنه من الانحراف، ووقف على الحُجج البيِّنة، وكثُر صوابه، وقلَّ خطؤه، وأمن من شرور البدع[1].

إنَّ المسلم إذا أراد النجاة في دنياه وأخراه، فلا بدَّ له من اتِّباع عقله للنَّقل الثابت عن الله ورسوله، فهما متلازمان، ولا تعارض بينهما البتَّة، ومحالٌ أن يصل العقل وحده إلى حقائق الإيمان، وأركان وأصول وثوابت الإسلام بدون الوحي أبداً؛ إذ كيف يتعرف العقل على أمور الغيب كلِّها بدون الوحي والرسالات، أو كيف يتعرف العقل على كيفية الصلاة، وكيفية الزكاة، وكيفية العمرة، وكيفية الحج، دون أن يرجع إلى الوحي المعصوم من الكتاب والسنة، ولله در ابن القيم- رحمه الله- إذ يقول:

لا يَسْتَقِلُّ العقلُ دونَ هدايةٍ ... بالوحي تأصيلاً ولا تفصيلاً

كالطَّرْف دون النُّورِ ليس بمُدْرِك ... حتى يراهُ بُكرةً وأصيلاً

وإذا الظَّلاَمُ تلاطمت أمْواجُهُ ... وطَمِعْتَ بالإبصارِ كنتَ مُحِيلاً

وإذا النُّبُوَّة لم يَنَلكَ ضياؤُها ... فالعقلُ لا يَهْديكَ قطُّ سبيلاً

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٣٨-٣٣٩).

نورُ النُّبُوَّة مثل نورِ الشمس لل ... عينِ البصيرةِ فاتَّخِذْهُ دليلاً

طرقُ الهُدَى مسدودةٌ إلاَّ علَى ... مَن أمَّ هذا الوحيَ والتنزيلاَ

فإذا عَدَلتَ عن الطريق تَعَمُّدًا ... فاعلمْ بأنَّك ما أردتَ وصولاً

يا طالِبًا دَركَ الهُدَى بالعقلِ دو ... نَ النقل لن تَلقَى لذاك دليلاً[١].

٦- **الفوز بنعيم الآخرة والنَّجاة من النار**: إنَّ امتناع الخلود في النَّار لمن ظلم نفسه من الموحِّدين، ودخول الجنة ابتداءً لمن اقتصد من أصحاب اليمين، والفوز بالدرجات العُلى لمن سبق بالخيرات، مع رضوان الله ﷻ ورؤية وجهه الكريم، هو غاية المطالب، ونهاية الرغائب لجميع المؤمنين، قال ﷻ:﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ**﴾[فاطر:٣٢-٣٣]، وهذا النعيم لا يتحصل إلا لمن عبد الله ﷻ كما أمر، وكما أنزل على رسوله ﷺ، وهذا لا يتحقق إلا بمتابعة ما كان عليه النبي ﷺ، وأصحابه من العقيدة والمنهج، فيكون عندها متَّبعاً صادقاً للنَّبي ﷺ، لا يُبدِّل ولا يُحرِّف، بل يكون مقتفياً للأثر، فيكون النبي ﷺ في انتظاره على الحوض، كما بشَّر بذلك ﷺ، فعن أبي هريرة ﷺ، **عن النبي** ﷺ، **أنَّه أتى المقبرة، فسلَّم على المقبرة، فقال:السلام عليكم دارَ قومٍ مؤمنين، وإنا إن شاء الله تعالى بكم لاحقون، ثم قال: لَوَدِدْنَا أنَّا قد رأينا إخواننا، قالوا: يا رسول الله أولسنا إخوانك؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواني الذين يأتون من بعدي، وأنا فَرَطُكم[٢] على الحوض، قالوا: يا رسول الله كيف تعرف من لم يأتِ من أمتك؟ قال: أرأيتم لو أن رجلاً له خيلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ، بين ظهراني خيلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ[٣]، ألم يكن يعرفها؟ قالوا: بلى، قال: فإنَّهم يأتون يوم القيامة غُرَّاً مُحَجَّلين[٤]، من أثر الوضوء، وأنا فَرَطُكم على**

---

(١) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٣/٩٧٩).

(٢) فرطكم: أي أتقدمكم إليه، وفي انتظاركم، ويقال فرط إذا تقدم وسبق القوم ليرتاد لهم الماء ويهيئ لهم الدِّلاء.انظر: حاشية السيوطي على سنن النسائي(٤/٦٢)، حاشية السندي على سنن ابن ماجة(٢/٥٨١).

(٣) دُهم: أي سود لم يخالط لونها لون آخر، وقرنه بالدهم تأكيداً للسواد. انظر: الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي(٣/٧٧٥).

(٤) غُرْ: جمع أغر، من الغرة وهي بياض الوجه، وغرة كل شيء أكرمه، والتحجيل: بياض في الرجلين، وقال أهل اللغة: الغرة بياض في جبهة الفرس، والتحجيل بياض في يديها ورجليها، والغرة والتحجيل: نور يُعرفون به، ثواباً للوضوء. انظر: كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي(١/٣٩٦)،(٣/٤٤٧)، وانظر: المنهاج، للنووي (٣/١٣٥).

الحوض، **ألا لَيُذَادَنَّ**[1] **رجالٌ عن حوضي، كما يُذاد البعير الضال، فأناديهم: ألا هلمُّوا، فيقال: إنَّهم قد بدَّلوا بعدك، ولم يزالوا يرجعون على أعقابهم، فأقول: ألا سُحقاً سحقاً**[2]**)**[3]، وفي ذلك الموقف يظهر النَّاجي من الهالك، ولن ينجوَ إلا من كان مُتَّبعاً، ولم يُبدِّل، ولم يرجع على عقبيه، وهذا هو الذي يبيض وجهُه يوم القيامة، كما قال ﷻ:﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾[آل عمران:١٠٦]، قال ابن عباس رضي الله عنهما:" فأمَّا الذين ابيضَّت وجوههم فأهل السنة والجماعة، وأمَّا الذين اسودَّت وجوههم فأهل البدع والأهواء"[4]، فمن التزم منهج السلف نجا وأفلح بإذن الله.

٧- **تحقيق كمال الدِّين، وتمام النِّعمة، وقيام الحُجَّة:** إنَّ التزام منهج السلف فيه اعترافٌ حقيقيٌ بأنَّ الله ﷻ أكمل الدِّين، وأتمَّ النِّعمة، وأنَّ الرسول ﷺ بلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، وكشف الغُمَّة، وأقام الحُجَّة، وأوضح المحجة، كما قال ﷺ:**(قد تركتُكم على البيضاء، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ)**[5]، وفيه اعترافٌ كذلك أنَّ الصحابة رضي الله عنهم أقاموا الدِّين علماً وعملاً، وبلَّغوه لفظاً ومعنىً، وهذا وإن كان واضحاً في كلِّ مسائل الدِّيانة، إلا أنَّه في مسائل الاعتقاد أشدُّ وضوحاً، وأعظمُ رسوخاً؛ لأهميَّتها وقيام الدِّين عليها، ومُحالٌ على مَن علَّمهم النبي ﷺ كلَّ شيءٍ لهم فيه منفعةٌ في الدِّين وإن دقَّت، أن يترك تعليمهم ما يقولونه بألسنتهم، ويعتقدونه بقلوبهم في ربهم ومعبودهم ربِّ العالمين؛ بل هذا خُلاصة الدَّعوة النَّبوية، وزُبدة الرسالة الإلهيَّة، فكيف يَتوهم من في قلبه أدنى ذرةٍ من إيمانٍ وحكمةٍ، أن لا يكون بيانُ هذا الباب قد وقع من الرسول ﷺ على غاية التَّمام، ومن المُحال أن يكون خيرُ أمَّتِه، وأفضلُ قرونها قصَّروا في هذا الباب، وفي تبليغه للنَّاس كما علموه، وفي هذا حجةٌ واضحةٌ على من خالفهم في اعتقادهم ومنهجهم[6].

٨- **تعظيم نصوص الكتاب والسنة:** إنَّ من تعظيم الله ﷻ وإجلاله تعظيمُ كلامه سبحانه، وتعظيمُ كلام رسوله ﷺ، قال ﷻ:﴿**ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾[الحج:٣٢]، وقد ذمَّ

---

(١) الذود هو الطرد والدفع، وقال أهل العلم هم المنافقون، أو المرتدون، أو أصحاب الكبائر، أو المبتدعة، أو الظلمة. انظر: مسند الإمام أحمد(٣٤٩/١٣)، وانظر: تعليق مصفى البغا على صحيح البخاري(١١٢/٣).

(٢) سُحقا سحُقا: أي بُعداً بعداً، والمكان السحيق أي البعيد، ونصب على تقدير ألزمهم الله سحقا، أو سحقهم سحقا.انظر: شرح محمد فؤاد عبد الباقي على صحيح مسلم(٢١٨/١).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب استحباب إطالة الغرة والتحجيل في الوضوء، (٢١٨/١)، رقم ٢٤٩، وأخرجه ابن ماجة في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر الحوض، (١٤٣٩/٢)، رقم ٤٣٠٦، وصححه الألباني.

(٤) الشريعة، للآجري، (٢٥٦١/٥)، رقم ٢٠٧٤.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين (١٦/١)، رقم ٤٣ ، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٩٣٧.

(٦) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥/٦-٧).

الله ﷻ من لا يُعظِّمه ولا يُعظِّم أمره، فقال ﷺ:﴿ **مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا** ﴾[نوح:١٣]، فلا يتمُّ إيمان العبد إلا بتعظيم الربِّ، ولا يتمُّ تعظيم الرب إلا بتعظيم أمره ونهيه، فتعظيم الأمر دليلٌ على تعظيم الآمر، كما أنَّ توهين الأمر دليلٌ على توهين الآمر، فعلى قدر تعظيم العبد لله سبحانه يكون تعظيمه لأمره ونهيه، "وأول مراتب تعظيم الأمر التصديق به، ثمَّ العزم الجازم على امتثاله، ثمَّ المسارعة إليه والمبادرة به رغم القواطع والموانع، ثمَّ بذل الجهد والنصح في الإتيان به على أكمل الوجوه، فالمُعظِّم لأمر الله يُجري الأوامر والنواهي على ما جاءت، ولا يُعلِّلها بعللٍ تُوهنها، وتخدش في وجه حُسنها، فضلاً عن أن يُعارضها بعللٍ تقتضي خلافها، فهذا حال ورثة إبليس، والتسليم والانقياد والقبول حال ورثة الأنبياء"[١].

ومن علامات تعظيم السلف- رحمهم الله- للنُّصوص، قبولها على ما جاءت به، والتسليمُ لها، والتعظيمُ للأوامر برعاية أوقاتها وحدودها والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحريها في أوقاتها، والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حقٍ من حقوقها، وتعظيم النهي بالحرص على التباعد من مظانِّ المعاصي والنواهي وأسبابها، وما يدعو إليها، ومجانبة كلِّ وسيلةٍ تُقرِّب منها، وأن لا يسترسل الواحد مع الرخصة إلى حدٍّ يكون صاحبه جافياً غير مستقيمٍ على المنهج الوسط، فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يُعارضا بترخصٍ جاف، ولا يُعرَّضا لتشديدٍ غالٍ، ولا يُحملا على علةٍ توهن الانقياد[٢].

وهذا الموقف من النُّصوص هو منهج السلف، والالتزام بهذا المنهج يجعل المسلم في موقف المُعظِّم لنصوص الكتاب والسنَّة؛ لأنَّه يعتقد أنَّ كلَّ ما تضمنته هو الحقُّ والصواب، وفي خلافها الباطل والضلال، أمَّا المخالفون لهذا المنهج فقد سقطت من نفوسهم هيبة النُّصوص حتى استحلُّوا حُرماتها، وعاثوا فيها تكذيباً أو تأويلاً باطلاً لا يحتمله المعنى، يقول ابن تيمية- رحمه الله-:" جماع الفرقان بين الحق والباطل، والهدى والضلال، والرشاد والغيِّ، وطريق السعادة والنجاة وطريق الشقاوة والهلاك، أن يجعل ما بعث الله به رسلَه، وأنزل به كتبه، هو الحق الذي يجبُ اتِّباعُه، وبه يحصُل الفرقان والهدى والعلم والإيمان؛ فيُصدِّق بأنَّه حقٌّ وصدقٌ، وما سواه من كلام سائر الناس يُعرض عليه، فإن وافقه فهو حقٌّ، وإن خالفه فهو باطلٌ، والعلم ما قام عليه الدليل، والنافع منه ما جاء به الرسول"[٣].

إنَّ الصحابة والسلف الأوائل ﷺ كانوا يُعظِّمون النُّصوص، ويحرصون على عمل السنَّة لأنَّها سنَّة، ونحن نترك السنَّة لأنَّها سنَّة؟!، فشتان بين الأمرين، وسبب هذا والله أعلم أنَّ "التعبير بلفظ السنَّة

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(١٥٦١/٤-١٥٦٢).

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم (١٣-١٤).بتصرف يسير

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٣٦/١٣).

عند المتأخرين قد يُفضي إلى التهاون بفعل ذلك، وإلى الزهد فيه وتركه، وهذا خلاف مقصود الشارع من الحثِّ عليه، والترغيب فيه بالطرق المُؤديَّة إلى فعله وتحصيله"[١].

ومن علامات تعظيم النُّصوص أنَّ المسلم لا يتقدم بين كلامه ﷻ، وكلام رسوله ﷺ بقولٍ ولا عقلٍ ولا رأيٍ ولا فكرٍ ولا ذوقٍ ولا قياسٍ، امتثالاً لقوله ﷻ:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[الحجرات:١].

وثمرة تعظيم النُّصوص والانقياد إليها الاستقامةُ على طريق الخير، كما يقول ابن القيم – رحمه الله– "وهذا التعظيم هو أحد سببي استقامة القلب وسلامته في طريقه إلى الله، والسبب الآخر هو أن تكون محبة الله عنده تتقدم على جميع المحابّ"[٢].

٩- اليقين والثبات والسلامة من شكِّ أهل الكلام: إنَّ الالتزام بمنهج السلف يُورث المسلم يقيناً وثباتاً، ومخالفته تورثه اضطراباً وتنقُّلاً، يقول ابن تيمية– رحمه الله– في بيان ذلك:"إنَّك تجد أهل الكلام أكثر النَّاس انتقالاً من قولٍ إلى قولٍ، وجزماً بالقول في موضعٍ، وجزماً بنقيضه، وتكفير قائله في موضعٍ آخرٍ، وهذا دليل عدم اليقين،... أمَّا أهل السنَّة والحديث فما يُعلم أحدٌ من علمائهم، ولا صالح عامَّتهم رجع قطُّ عن قوله واعتقاده؛ بل هم أعظم النَّاس صبراً على ذلك، وإن امتُحنوا بأنواع المحن، وفُتنوا بأنواع الفتن، فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنَّة أضعاف أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة"[٣]؛ فمخالفة منهج السلف أورثت المخالفين شكاً وحيرةً وضياعاً، كما قال عمر بن عبد العزيز– رحمه الله–:"من جعل دينه غرضاً للخصومات أكثر التَّنقل"[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله–:"وقد بلغني بإسنادٍ مُتَّصلٍ عن بعض رؤوسهم أنَّه قال عند الموت: أموتُ وما علمت شيئاً إلَّا أن الممكن يفتقر إلى الواجب، ثمَّ قال: الافتقار وصفٌ عدميٌّ، أموتُ وما علمت شيئاً"[٥].

وقال بعض رؤوس المتكلمين:"بتُّ البارحة أفكِّرُ إلى الصباح في دليلٍ على التوحيد سالمٍ عن المُعارض فما وجدته"[٦].

إنَّ أكثر العارفين بالكلام والفلسفة؛ بل وبالتصوف، الذين لم يُحقِّقوا ما جاء به الرسول ﷺ تجدهم حيارى في الحق، فهذا الفخر الرازي– رحمه الله– يقول:

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي(١٥٦/٢).

(٢) الوابل الصيب من الكلم الطيب، لابن القيم(٨/١).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/٥٠–٥١).

(٤) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٩٣١/٢)، رقم ١٧٧٠.

(٥) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٢٦٢/٢).

(٦) المرجع السابق(٣/ ٢٦٣).

نهايةُ إقدام العقول عقالُ ... وأكثرُ سعي العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشةٍ من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذىً ووبالُ

ولم نستفدْ من بحثنا طولَ عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا[١].

وهذه الحيرة التي وقع فيها الفلاسفة والمتكلِّمون أمرٌ مُتوقَّعٌ ممَّن خالف طريق الهدى، فإنَّ الله ﷻ قال في شأن المخالفين لأمر النبي ﷺ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]؛ فبسبب مخالفة منهاج النبي ﷺ، وطريقته، وسُنَّته، وشريعته، كانوا عُرضةً للضلال، ولعلَّ ذلك هو ما يحياه المُتكلِّمون، فقد كانوا أكثر الناس شكاً عند الموت[٢].

وقد صرَّح أبو حامد الغزالي- رحمه الله- بهذا الأمر، فقال: "أكثر النَّاس شكَّاً عند الموت، أهلُ الكلام"[٣].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عن الفلاسفة والمُتكلِّمين: "فلا يثبتون على دينٍ واحدٍ، وتغلب عليهم الشُّكوك، وهذا عادة الله فيمن أعرض عن الكتاب والسنة"[٤]؛ ولهذا من أدركته رحمةُ الله ﷻ من المتكلمين خرج عن ذلك، ورجع إلى طريقة السلف وأوصى بذلك، فهذا إمام الحرمين أبو المعالي الجويني[٥] - رحمه الله- يقول:" لقد جُلتُ أهل الإسلام وعلومهم، وركبتُ البحر الأعظم، وغُصتُ في الذي نهَوا عنه، كلُّ ذلك في طلب الحقِّ، وهرباً من التقليد، والآن فقد رجعتُ عن الكلِّ إلى كلمة الحقِّ، عليكم بدين العجائز، فإن لم يُدركني الحقُّ بلطيف برِّه فأموت على دين العجائز، ويختم

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٥٩-١٦٠).

(٢) انظر: إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل، لسليمان بن سحمان، ص٥٣.

(٣) نقض المنطق، لابن تيمية، ص٢٦.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤/١٥٧).

(٥) عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجُوَيْني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين الإمام الكبير، شيخ الشافعية، صاحب التصانيف، ولد في جوين (من نواحي نيسابور)، ورحل إلى بغداد، ثم إلى مكة حيث جاور أربع سنين، وذهب إلى المدينة فأفتى ودرس، ثم عاد إلى نيسابور، فبنى له الوزير نظام الملك المدرسة النظامية فيها، من تصانيفه: العقيدة النظامية في الأركان الإسلامية، والبرهان في أصول الفقه، والإرشاد في أصول الدين، ورجع في آخر حياته إلى مذهب السلف في الصفات مع القول بتفويض المعنى، وقال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما اشتغلت بالكلام، وقال في في مرضه: اشهدوا علي أني قد رجعت عن كل مقالة تخالف السنة، وأني أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور، وتوفي ٤٧٨ هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(١/٢٨٧)، وتبيين كذب المفتري، لابن عساكر، ص٢٧٨ – ٢٨٥، والأعلام، للزركلي (٤/١٦٠).

عاقبة أمري عند الرحيل بكلمة الإخلاص، فالويل لابن الجويني"(١)، وكان يقول لأصحابه:"يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أنَّ الكلام يبلغُ بي ما بلغ، ما تشاغلتُ به"(٢).

وهذا الشك والحيرة والتيه والضلال كثيرٌ فيمن خالف منهج السلف، يقول ابن تيمية- رحمه الله-: "ولو جمعتُ ما بلغني في هذا الباب عن أعيان هؤلاء، لكان شيئاً كثيراً، وما لم يبلغني من حيرتهم وشكِّهم، أكثرُ وأكثر؛ وذلك لأنَّ الهدى هو فيما بعث الله به رسله، فمن أعرض عنه لم يكن مهتدياً، فكيف بمن عارضه بما يُناقضه، وقدَّم مُناقضه عليه؟!"(٣).

إنَّ السَّلف الصالح – رحمهم الله- لمَّا كانوا مُلتزمين بالمنهج الصحيح في التَّلقي والاستدلال والفهم، كان كلامهم صحيحاً مُتَّفقاً؛ وذلك لأنَّ اعتقاد الحقِّ الثابت يُقوِّي الإدراك ويُصحِّحه، كما قال ﷻ:﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾[محمد: ١٧]، أمَّا غيرهم من الفلاسفة والمُتكلِّمين والمُتصوِّفة، فكلامهم خبطٌ من غير علمٍ، ولا يدلُّ عليه عقلٌ ولا نقلٌ فضلاً عن الإجماع؛ بل هو أشبه بالأساطير، ولهذا قال ابن تيمية- رحمه الله- :"والخطأ فيما تقوله الفلاسفة في الإلهيَّات والنُّبوات والمعاد والشرائع أعظمُ من خطأ المُتكلِّمين، وأمَّا فيما يقولونه في العلوم الطبيعية، فقد يكونُ صوابُ المتفلسفة أكثرُ من صواب من ردَّ عليهم من أهل الكلام، فإنَّ أكثر أهل الكلام في هذه الأمور بلا علمٍ، ولا عقلٍ، ولا شرعٍ"(٤).

إنَّ من أراد بلوغ الحقِّ والثبات عليع والدِّفاع عنه، فعليه بطريقة السلف، "فالطريقة النبوية السُّنية السَّلفية المحمدية الشرعية إنَّما يُناظر بها من كان خبيراً بأقوال الشارع التي تُناقض الفلاسفة والمُتكلمين، فيعلم حينئذٍ فساد أقوالهم بالمعقول الصريح المطابق للمنقول الصحيح، فكلُّ من أمعن في معرفة هذه الكلاميَّات والفلسفيَّات التي تُعارَض بها النصوص من غير معرفةٍ تامةٍ بالنُّصوص ولوازمها، وكمال المعرفة بما فيها، وبالأقوال التي تُنافيها، فإنَّه لا يصلُ إلي يقينٍ يطمئن إليه، وإنَّما تُفيده الشكَّ والحيرة؛ بل هؤلاء الفُضلاء الحُذَّاق الذين يدَّعون أنَّ النُّصوص عارضها من معقولاتهم ما يجبُ تقديمُه، تجدهم حيارى في أصول مسائل الإلهيات، حتى مسألة وجود الربِّ تعالي وحقيقته، حاروا فيها حيرةً عجيبةً، ويذكرون عدة أقوالٍ يزعمون أنَّ الحق ينحصر فيها، وهي كلُّها باطلةٌ؛ ولهذا تجدُ كثيراً من هؤلاء لمَّا لم يتبين له الهدي في طريقته نكص علي عقبيه، فاشتغل باتِّباع شهوات الغيِّ، لعدم العلم واليقين الذي يطمئن إليه قلبُه، وينشرح له صدرُه، وهؤلاء المعرضون عن الطريقة النَّبويَّة

---

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي(١/٧٧).

(٢) المصدر السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٦٦)، وانظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية(٢/٣٦٦).

(٤) الرد على المنطقيين، لابن تيمية(١/٣١١).

السَّلَفيَّة يجتمع فيهم اتِّباع شهوات الغي، ومُضلَّات الفتن، فيكون فيهم من الضلال والغيِّ بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله"[1].

إنَّ "من أمعن النظر في مناهج المُتكلِّمين، يجدها تثير من الشُّبه ما تعجز معه عن الإقناع؛ لأنَّها تمثل منهجًا شيطانيًا، يؤدِّي إلى الفُرقة والاختلاف؛ ولذلك كان مصير كباره الحيرة، والاعتراف بالعجز، وعدم الاهتداء، ورجوع كثيرٍ منهم إلى مذهب السلف، بعد أن أدركوا إفلاس مناهجهم، فتملكتهم الحيرة، وأعلنوا التوبة، وعضُّوا أصابع الندم على ما فات من حياتهم التي قضوها في القيل والقال، الذي يهدم ولا يبني، ويُفسد ولا يُصلح، ويُفرِّق ولا يجمع"[2].

ثانياً: آثار التمسك بمنهج السلف على المجتمع المسلم:

إنَّ التمسك بمنهج السلف في فهم النُّصوص له آثارٌ ايجابيةٌ كثيرةٌ على المجتمع المسلم؛ بل هو الحصن الحصين في الحفاظ على قوَّة المجتمع وصيانته من الأعداء الداخليين كالمنافقين وأهل البدع وأصحاب الأفكار المنحرفة، ومن الأعداء الخارجيين كاليهود والنصارى ومن يكيدون لدين الإسلام من غيرهم، وتتمثل آثار التمسك بفهم السلف في النقاط التالية:

١- استقامة الحياة على الوجه الأتمّ الأكمل: إنَّ صحَّة سلوك الدرب الذي ارتضاه الله ﷻ لعباده، يكون باتباع منهج السلف الصالح، إذ تقرر في منهجهم بالأدلة والبراهين اليقينية إثبات كمال وتمام الدين، وعصمة الشارع الحكيم، بحيث لا يجوز الاستدراك عليه، وأنَّه ليس في الشرع ما يخالف مقتضيات العقول الصحيحة، كما أنَّه ليس في العقل الصحيح ما يخالف نصاً صحيحاً صريحاً من نصوص الكتاب والسنة؛ بل كلُّ ما يُظنُّ أنَّه يخالف الشرع من العقل، فيمكن إثبات فساده بعقلٍ صحيحٍ يُبيِّن أنَّ تلك المخالفة مجرد ظنٍّ وتوهُّمٍ[3]؛ وعليه فيجب النَّظر إلى الشريعة بعين الكمال لا بعين النقصان، واعتبارها اعتباراً كُليَّاً في العقائد والعبادات والمعاملات، وعدم الخروج عنها البتَّة؛ لأنَّ الخروج عنها تيهٌ وضلال، كيف وقد ثبت كمالها وتمامها، فالزائد والمُنقِص في جهتها هو المبتدع، المنحرف عن جادَّة الصَّواب، وهذا هو الذي أغفله المبتدعون فدخل عليهم بسببه الاستدراك على الشرع"[4].

إنَّ السعادة وطيب العيش يكون باتِّباع منهج السلف في فهم النُّصوص الشرعية، وسدِّ باب التأويل الفاسد والتحريف والتعطيل لنصوص الشريعة، ونفي التعارض بين وحي الله ﷻ بعضه مع بعض، أو ما يُتوهم معارضتُه كالعقل؛ فتنعم البشرية بهدي الله وشرعه، وتنتفع بما أنعم على خلقه،

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٦٤-١٦٥).

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، لعبد الغني المقدسي ص٦٥.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٣/٨٥٦)، (٤/١٢٠٧).

(٤) الاعتصام للشاطبي(٢/ ٨٢٢) بتصرف يسير.

فتتقدم في العلوم والمعارف الدينية والعقلية والتطبيقية، كما كان قبل مئات السنين، عندما كان المسلمون في أوج حضارتهم وتقدُّمهم، في حين كان الكفر وأهله يغرقون في ظلمات الجهل والجاهلية، ولأهل السنة بعد توفيق الله ﷻ اليد الطولى في حصول ذلك، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– عن السلف أهل الحديث:" وأمَّا كونُهم أعلم ممَّن بعدهم وأحكم، وأنَّ مُخالِفهم أحقُّ بالجهل، فمن المعلوم أنَّ أهل الحديث يُشاركون كلَّ طائفةٍ فيما يتحلَّون به من صفات الكمال، ويمتازون عنهم بما ليس عندهم، فهم أكملُ النَّاس عقلاً، وأعدلُهم قياساً، وأصوبُهم رأياً، وأسدُّهم كلاماً، وأصحُّهم نظراً، وأهداهم استدلالاً، وأقومُهم جدلاً، وأتمُّهم فراسةً، وأصدقُهم إلهاماً، وأحدُّهم بصراً ومكاشفةً، وأصوبُهم سمعاً ومُخاطبةً، وأعظمُهم وأحسنُهم وجداً وذوقاً، وهذا هو للمسلمين بالنسبة إلى سائر الأمم، ولأهل السنة والحديث بالنسبة إلى سائر المِلل، فكلُّ من استقرأ أحوال العالم وجد المسلمين أحدَّ وأسدَّ عقلاً، وأنهم ينالون في المدة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما ينالُه غيرُهم في قرونٍ وأجيالٍ، وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم بذلك متمتعين، وذلك لأنَّ اعتقاد الحقِّ الثابت يُقوِّي الإدراك ويُصحِّحه"[1].

ومن ثمرات هذا الفهم الصحيح والعمل الموافق لمراد الله ورسوله، توفيق الله ﷻ لعباده، وفتح البركات عليهم، وإغنائهم عن الحاجة لغيرهم، كما قال ﷻ:﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾[الأعراف:٩٦]، ومن ذلك حُصول العزَّة وتمام الكرامة والشرف، كما قال ﷻ:﴿ **وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ** ﴾[المنافقون:٨]، ومن ذلك أيضاً الشعور بمشاعر الأمن والاطمئنان، كما قال ﷻ:﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ** ﴾[الأنعام:٨٢]، ومن ذلك أيضاً مدافعة الله عن المؤمنين وإنجائه لهم ونصرهم على أعدائهم، كما قال ﷻ:﴿ **إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** ﴾[غافر:٥١]، وهذا كلُّه من بركات طاعة الله ورسوله كما أمر سبحانه وأراد.

٢– **السَّلامة والنَّجاة من العقائد المُهلِكة:** إنَّ التزام منهج السلف يقي المُتَّبِع له من اعتقاد العقائد الباطلة التي قد تصل بصاحبها إلى الكفر، كنفي الصفات عن الربِّ ﷻ، والقول بخلق القرآن، والتكذيب بالقدر، ونفي رحمة الربِّ ﷻ ومشيئته واختياره، والقول بحلول الله في خلقه، واتحاده معهم في نفس الصورة، والغلوِّ في الأولياء والصالحين لدرجة دعائهم والاستغاثة بهم من دون الله، واعتقاد تحكُّم

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٠/٤).

الأئمة بأمور الكون والفصل بين العباد، والتكذيب بأخبار المعاد وحشر الأجساد، والطعن في الصحابة وحملة الدِّين وتكفيرهم ولعنهم، وغير ذلك من الأمور، وقد كان لكلِّ فرقةٍ من الفرق المخالفة للسَّلف نصيبٌ من هذه الأمور وغيرها، قال أبو الوفاء بن عقيل- رحمه الله-:" وقد أفضى الكلام بأهله إلى الشُّكوك، وكثيرٌ منهم إلى الإلحاد؛ تشمُّ روائح الإلحاد من فلتات كلامهم، وأصل ذلك كلِّه أنَّهم ما قنعوا بما قنعت به الشرائع"[1]، وهذا من أكبر الخسران وأبينِه، أن يخسر المسلم دينه وعقيدته، لأجل اتِّباعه لشبهاتٍ هنا وهناك، وكما أنَّه يغلب على مخالِف منهج السلف أن يكون داعياً إلى بدعته؛ لأنَّه يعتقد أنَّ ما هو عليه دينٌ وشِرعةٌ، وأنَّ ما عليه غيرُه بدعةٌ وضلالةٌ، وهذا شرٌّ من العاصي؛ لأنَّه يعتقد الباطل حقًّا، بخلاف العاصي فإنَّه مُقِرٌّ بمخالفته ومعصيته، فهذا رجوعُه وتوبتُه أيسرُ وأسهلُ من ذلك المبتدع، كما قال ﷺ: **(إنَّ الله حجب التوبة عن كلِّ صاحب بدعةٍ حتى يدع بدعته)**[2].

إنَّ اتباع منهج السلف يحسم مادَّة الابتداع، ويسدُّ باب البدعة والإحداث في الدين؛ لأنَّ المبتدعة عادةً ما يتعلَّقون ببعض النُّصوص ويتأولونها على غير تأويلها، ويفهمونها على غير مُراد الله ومُراد رسوله ﷺ؛ لتوافق أهواءهم وما استحدثوه من البدع، وفهم السلف هو الفيصل في هذه المسألة، كما قال ﷻ:﴿ **فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ** ﴾[البقرة:١٣٧].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" وفي الجُملة من عَدَل عن مذاهب الصحابة والتَّابعين وتفسيرهم إلى ما يخالفهم كان مُخطِئًا في ذلك؛ بل مبتدعاً، وإن كان مُجتهداً مغفوراً له خطؤُه، ونحن نعلم أنَّ القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنَّهم كانوا أعلمَ بتفسيره ومعانيه، كما أنَّهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسولَه، فمن خالف قولهم، وفسَّر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدَّليل والمدلول"[3]؛ بل إنَّ العدول عن فهم السلف للنُّصوص هو من أخطر أبواب الانحراف والضلال، فمن فسَّر القرآن الكريم والسُّنة المُطهَّرة وتأوَّله على غير التفسير المعروف عن الصحابة ﷺ والتابعين، فهو مُفترٍ على الله ﷻ، مُلحدٍ في آيات الله، مُحرِّفٍ للكلم عن مواضعه، وهذا فتحٌ لباب الزندقة والإلحاد، وهو معلوم البطلان بالاضطرار من دين الإسلام، وهؤلاء أغلظ الناس حجاباً عن فهم كتاب الله ﷻ"[4].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٨/٤٩).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/٢٨١)، برقم ٤٢٠٢، وابن أبي عاصم في كتابه السنة برقم ٣٧، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٥٤.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٣/٣٦١).

(٤) المرجع السابق(١٣/٣٤٣)، (١٦/٥١).

٣- **بيان الحق وإقامة الحُجَّة على المخالفين:** إنَّ من رحمة الله ﷻ وفضله أنَّه لا يُؤاخذ مُخطِئًا إلَّا بعد قيام الحُجَّة عليه، كما قال ﷻ:﴿ **وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا** ﴾[الإسراء:١٥]، فبيَّن الله ﷻ أنَّ "مُقتضى عدله، وحكمته ورحمته أنَّه لا يُعذِّب أحدًا على فعل شيءٍ أو تركه إلَّا بعد إنذارٍ، ولا يعاقب النَّاس إلا بعد إعذارٍ؛ وقد تكفَّل سبحانه بذلك، فأوضح الأحكام، وبسط العقيدة، ويسَّرها، وبعث الرسل إلى النَّاس؛ لإقامة الحجة عليهم، بالآيات المُبيِّنة للأحكام، والحلال، والحرام، والثواب، والعقاب"(١)، فقال ﷻ:﴿ **رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا** ﴾[النساء:١٦٥]، "وهذا من كمال عزَّته ﷻ وحكمته، أن أرسل إليهم الرُّسل، وأنزل عليهم الكتب، وذلك أيضًا من فضله وإحسانه، حيث كان النأَّس مضطرين إلى الأنبياء أعظم ضرورةٍ تُقدَّر، فأزال هذا الاضطرار، فله الحمد وله الشكر، ونسأله كما ابتدأ علينا نعمته بإرسالهم أن يُتمَّها بالتوفيق لسلوك طريقهم؛ إنه جواد كريم"(٢).

إنَّ المُتتبع لمنهج السلف- رحمهم الله- في التعامل مع النُّصوص يجد أنَّه قد أقام الحجة على النَّاس، وهيأ لهم البساط؛ ليسلكوه إلى دار الفوز، فمنهم من أجاب، ومنهم من أخذه العناد بالضلال، وقد أُقيمت الحُجة من خلال وضوح منهج السلف، حيث إنَّ العقيدة الاسلامية توقيفيةٌ، قائمةٌ على الاتِّباع، فهي "مبنيةٌ على الدَّليل من كتاب الله ﷻ، وسنَّة رسوله ﷺ، وما كان عليه صحابته الكرام ﷺ وأرضاهم، فهي صافيةٌ نقيَّةٌ، واضحةٌ جليةٌ، ليس فيها غموضٌ ولا تعقيدٌ"(٣)؛ ولأجل هذا "كان أئمة السلف يأمرون ألَّا يقول الإنسان إلا الحق، ولا يخرج عن السُّنة في حالٍ من الأحوال، وهذا هو الصَّواب الذي أمر الله ﷻ به ورسوله"(٤)، وهم "يذمُّون ما كان من الكلام، والعقليَّات، والجدل باطلاً، وإن قُصَد به نصرُ الكتاب والسنة، فيذمُّون من قابل بدعةً ببدعةٍ، وقابل الفاسد بالفاسد، فكيف من قابل السُّنة بالبدعة، وعارض الحقَّ بالباطل، وجادل في آيات الله بالباطل؛ ليدحض به الحق؟!"(٥).

لقد كانت عقيدة السلف واضحةً كوضوح الشمس، وإنَّ ما وقع فيه من خالفهم من الحيرة والشكِّ والتيه والندم، كان كافياً في الاعتبار والعظة؛ وإنَّ "رجوع أكابر المتكلِّمين، بعد أن أفنوا أعمارهم في البحث، لهو من أوضح الحُجج على من دونهم"(٦)؛ ولهذا نجد شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-

(١) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، للزحيلي(٣٦/١٥).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي، ص٢١٥.

(٣) قطف الجني الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لعبد المحسن العباد، ص٣٠.

(٤) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية(٣٤٢/٢).

(٥) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١٦٥/٧). وانظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(١٢٧٣/٤). وانظر: الصفدية، لابن تيمية(١٦٣/١).

(٦) القائد إلى تصحيح العقائد، للمعلمي، ص٧٥.

ينكر أشدَّ الإنكار على ما وصل إليه المتكلمون من الجهل، والضلال، وذمِّ السُّنة، وموافقتهم لأهل البدع، وإعراضهم عن نصوص الكتاب والسنة[1]؛ لأنَّ الحُجة مُقامةٌ على من خالف منهج السلف، بوضوح الحق، وتراجع الأعلام الكبار عمَّا خالفوا فيه، " ولم يبقَ أمام أصحاب العقول السليمة، من المُتأوِّلة المعاصرين، بعد أن تبرَّأ كبار أئمتهم وشيوخهم من هذه العقيدة الفاسدة، وحذَّروا منها، وأعلنوا رجوعهم عنها إلى معتقد السلف، إلَّا أن يُراجعوا مذهبهم، ويرجعوا عنه إلى معتقد السلف؛ إذ لا عذر لأحدٍ منهم، بعد أن أعلن أئمتُهم المتبوعون رجوعَهم إلى المعتقد الحقِّ، وماتوا عليه"[2].

وما زال أهل السنة في كلِّ زمانٍ يُبصِّرون أهل العمى، ويردُّون من ضلَّ إلى الهدى كما فعل ابن عباس رضي الله عنهما مع الخوارج حين ناظرهم، وردَّ شبهاتهم بالكتاب والسنة، حتى انقشعت الظُلمة، واستبانت المحجَّة، فرجع منهم خلقٌ كثيرٌ، ونحوُ ذلك ما فَعَلَه شيوخ السنة في مناظراتهم لرؤوس المبتدعة في كلِّ مكانٍ وزمانٍ[3].

٤- **توحيد الصفوف وجمع الكلمة:** إنَّ الالتزام بمنهج السلف يُوحِّد بين صفوف المسلمين، ويجمع كلمتهم على الحق؛ على تنوع اهتماماتهم العلمية والعملية، وتفاضل مقاديرهم في العلم والإيمان، ويُعينهم على التخلُّص من التفرُّق والاختلاف المذموم، ولا يعني هذا الاتفاق في جميع تفاصيل المسائل ودقائقها، ولكن اتفاقٌ في الطريق والمنهج الموصِل إلى الحقِّ، فإن وُجد اختلافٌ بعد ذلك لم يُفسد للودِّ قضيةً؛ بل يندفع بالتناصح والتشاور، ويذوب في بحر الأُلفة والمودَّة.

قال أبو القاسم الأصبهاني- رحمه الله-:"السبب في اتِّفاق أهل الحديث أنَّهم أخذوا الدِّين من الكتاب والسنة وطريق النقل؛ فأورثهم الاتفاقَ والائتلاف، وأهلُ البدع أخذوا الدِّين من المعقولات والآراء؛ فأورثهم الافتراق والاختلاف، فإنَّ النَّقل والرواية من الثقات المتقنين قلَّما تختلف، وأمَّا دلائل العقل فقلَّما تتفق؛ بل عقلُ كلِّ واحدٍ يرى صاحبه غير ما يرى الآخر، وهذا بيِّنٌ والحمد لله، وقد وجدنا أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم اختلفوا في بعض أحكام الدِّين، ولم يفترقوا ولم يصيروا شيعاً؛ لأنهم لم يُفارقوا الدِّين، ونظروا فيما أُذن لهم، فاختلفت أقوالهم وآراؤهم في مسائل كثيرةٍ، فكانوا مع الاختلاف أهلَ مودَّةٍ ونُصحٍ، وبقيت بينهم أُخوَّة الإسلام، ولم ينقطع عنهم نظام الأُلفة، فلم يُورِّث ذلك الاختلاف بينهم عداوةً ولا بُغضاً ولا تفرَّقاً، وبقيت بينهم الألفةُ والنَّصيحةُ والودُّ والرحمةُ والشفقة"[4].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤٦٧/١٢).

(٢) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، لعبد العزيز الطويان(٣٤٧/١).

(٣) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة، للإمام أحمد، ص٥٥-٥٧.

(٤) الحجة في بيان المحجة، لقوام السنة الأصبهاني (٢٤١/٢-٢٤٢).

إنَّ "الاختلاف مع التَّعادي والتَّفرُّق عادةُ أهل البدع، والاختلاف مع التَّوالي والتَّصويب عادة السَّلف والصَّالحين"[١]، ولذلك قال قتادة– رحمه الله–:" لو كان أمرُ الخوارج هدىً لاجتمع، ولكنَّه كان ضلالاً فتفرَّق، وكذلك الأمر إذا كان من عند غير الله وجدتَ فيه اختلافاً كثيرا"[٢].

وقال ابن قتيبة– رحمه الله–:" ولو أردنا رحمك الله أن ننتقل عن أصحاب الحديث ونرغب عنهم، إلى أصحاب الكلام ونرغب فيهم، لخرجنا من اجتماعٍ إلى تشتُّتٍ، وعن نظامٍ إلى تفرُّقٍ، وعن أُنسٍ إلى وحشةٍ، وعن اتِّفاقٍ إلى اختلافٍ"[٣].

وقال أبو المظفر السمعاني– رحمه الله–:" إنَّ الله ﷻ أبى أن يكون الحقُّ والعقيدة الصحيحة إلا مع أهل الحديث والآثار؛ لأنَّهم أخذوا دينهم وعقائدهم خلفاً عن سلف، وقرناً عن قرن، ولا طريق إلى معرفة ما دعا إليه رسول الله ﷺ الناسَ من الدِّين المستقيم، والصراط القويم، إلَّا هذا الطريق الذي سلكه أصحابُ الحديث، وأمَّا سائر أهل البدع فطلبوا الدِّين بغير طريقه؛ لأنَّهم رجعوا إلى معقولهم وخواطرهم وآرائهم، فإذا سمعوا شيئاً من الكتاب والسُّنة، عرضوه على معيار عقولهم، فإن استقام لهم قبلوه، وإن لم يستقم في ميزان عقولهم ردُّوه، فإن اضطُروا إلى قبوله، حرَّفوه بالتأويلات البعيدة، والمعاني المُستكرهة؛ فحادوا عن الحقِّ، وزاغوا عنه، ونبذوا الدِّين وراء ظهورهم، وجعلوا السُّنة تحت أقدامهم، وقد برَّأ الله رسوله من أهل هذا التفرُّق والاختلاف، فقال ﷻ: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾[الأنعام: ١٥٩]، وأمَّا أهل السُّنة فجعلوا الكتاب والسنَّة أمامهم، وطلبوا الدِّين من قِبلها، وما وقع لهم من معقولهم وخواطرهم وآرائهم، عرضوه على الكتاب والسنة، فإن وجدوه مُوافقاً لهما، قبلوه وشكروا الله حيث أراهم ذلك ووفَّقهم له، وإن وجدوه مُخالفاً لهما، تركوا ما وقع لهم، وأقبلوا على الكتاب والسنة، ورجعوا بالتُّهمة على أنفسهم، فإنَّ الكتاب والسنَّة لا يهديان إلَّا إلى الحق، ورأيُ الإنسان قد يكون حقاً، وقد يكون باطلاً"[٤]؛ ولذلك فإنَّ اتِّباع منهج السلف والاجتماع عليه فيه الوحدة والقوة، وهو السبيل الوحيد في توحيد صفوف المسلمين عامةً، والعلماء وطلبة العلم خاصةً، قال ﷻ:﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا** ﴾[آل عمران:١٠٣]، فأيُّ تجمُّعٍ على غير ذلك مصيرُه التَّفرق والتَّنازع والإخفاق، والتاريخ أكبرُ شاهدٍ على ذلك.

---

(١) إيثار الحق على الخلق، لابن الوزير(١/١٥٠)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية (٢٤/ ١٧٢).

(٢) جامع البيان المعروف بتفسير الطبري(٦/١٨٨).

(٣) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة(١/٦٤).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة،لابن القيم(١/٥٩٨–٦٠٠) بتصرف يسير.

إنَّ مخالفة طريق السلف ومنهجهم تُسبِّب التنازع والفشل، كما قال ﷻ:﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[الأنفال:٤٦]؛ بل قد يصلُ الاختلاف إلى الاقتتال، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ لابن عباسٍ ﷺ:" كيف تختلفُ هذه الأمة، وكتابُها واحدٌ، ونبيُّها واحدٌ، وقبلتُها واحدةٌ؟ قال ابن عباس: " يا أمير المؤمنين، إنَّما أُنزِل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل، وإنَّه يكون بعدنا أقوامٌ يقرءون القرآن، ولا يعرفون فيم نزل، لكلِّ قومٍ فيه رأيٌ، فإذا كان لقومٍ فيه رأيٌ اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا"[١]، فنسأل الله العفو والعافية.

٥- **حفظ الدين والعلم الشرعي:** إنَّ الإلتزام بمنهج السلف يُساعد في حفظ العلم بحفظ قواعدِه، وأصولِه ومسائِله، وفي هذا حفظٌ للدِّين نفسه؛ لأنَّ العلم الشرعي دينٌ يُدان لله ﷻ به، كما جاء عن السَّلف:"إنَّ هذا العلم دينٌ فانظروا عمَّن تأخذون دينكم"[٢]، وإذا كان العلم الشرعي مطلوب الحفظ عامةً، فلا شكَّ أنَّ منهج السلف في فهم النصوص، والذي ينبني عليه الاعتقاد الصحيح، والنَّجاة عند الله عز جل، أولى بذلك؛ لأنَّه به يتحقَّق أولُ الواجبات وآخرُها وألزمُها على المُكلَّف، وهو التوحيد الخالص من شوائب الشرك والضلالات التي وقع فيها من خالف منهجهم من المبتدعة، قال ابن القيم- رحمه الله-: "إن العبد لو عرف كلَّ شيءٍ، ولم يعرف ربَّه، فكأنَّه لم يعرف شيئًا"[٣].

إنَّ حفظ العلم كما يكون بتعلُّمه، يكون بتعليمه وتوريثه وبذله لطالبيه، وهذا من أفضل القُرب وأعلى الرُّتب، ففي الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال: **(خيرُ ما يُخلِف الرجل من بعده ثلاثٌ: ولدٌ صالحٌ يدعو له، وصدقةٌ تجري يبْلُغه أجرُها، وعلمٌ يُعمل به من بعده)**[٤]، وبهذا يُحفظ العلم، ويُبلَّغ للناس، وينتشر الحقُّ ويظهر.

٦- **تكثيرُ الصَّواب وتقليل الخطأ:** إنَّ اتِّباعَ منهج السلف يُقلِّل الخطأ في المجتمع، ويكثِّر الصواب والتوفيق، وهذا الخطأ الواقع من الناس يكون بسبب نقص علم المُستدلِّ، أو قصورِ فهمه، أو سوءِ قصده، "وهذا قد يُوجد في بعض أهل السنة، وهذا لا يُنكره إلا جاهلٌ أو ظالمٌ، ولكن هم بالنسبة إلى غيرهم في ذلك، كالمسلمين بالنسبة إلى بقيَّة الملل، فكلُّ شرٍّ يكون في بعض المسلمين فهو في غيرهم أكثر، وكلُّ خيرٍ يكون في غيرهم فهو فيهم أعلى وأعظم، وهكذا أهل الحديث والسنة بالنسبة إلى غيرهم

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان(٥٤٢/٣) رقم ٢٠٨٦، والخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الرّاوي وآداب السامع رقم ١٥٨٧، والمتقي الهندي في كنز العمال رقم ٤١٦٧ .

(٢) ذكره الإمام مسلم في مقدمة صحيحه، باب في أن الإسناد من الدين، (١٤/١)، وهذا الأثر منسوب لابن سيرين ومنسوب للإمام مالك.

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم(٦٨/١).

(٤) أخرجه ابن ماجة في سننه في افتتاح الكتاب، باب ثواب معلم الناس الخير، (٨٨/١)، رقم ٢٤١، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم ٧٩.

من طوائف المسلمين"[١]، فهم "يعرفون الحق ويرحمون الخلق، أمَّا أهل البدع فيُكذِّبون بالحقِّ، ويُكفِّرون الخلق، فلا علم ولا رحمة"[٢].

إنَّ إظهار منهج السلف في المجتمع يؤثِّر في إرشاد المُسترشدين، وهداية المُنحرفين، فالناظر في حال المجتمع المسلم يرى منهم الموافقَ للسَّلف، الساعي للخير والعلم، ويرى منهم المعارضَ والمخالفَ عن جهلٍ أو عن هوىً، وهؤلاء جميعاً يستفيدون من إظهار منهج السَّلف ممن يسير عليه؛ فيزداد الموافق ثباتاً وتأييداً، ويتأثر المخالف بمخالطتهم؛ فيرجع عمَّا هو فيه، أو تُقام الحجة عليه إن أصرَّ على المخالفة.

إنَّ التمسك بمنهج السلف وإظهاره، والوقوف أمام التيارات الإلحادية، والأهواء البدعية، يكون فيه ثواب الدعوة إلى الله، والمنافحة عن الإسلام، والمدافعة عن السنة، وقد افتتح الإمام أحمد– رحمه الله– كتابه "الرد على الجهمية والزنادقة" بذكر أوصاف أهل العلم، فقال:" يدعون من ضلَّ إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يُحيون بكتاب الله الموتى، ويُبصِّرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيلٍ لإبليس قد أحيَوه، وكم من ضالٍّ تائهٍ قد هدَوه، فما أحسنَ أثرهم على الناس، وأقبحَ أثر الناس عليهم، ينفون عن كتاب الله تحريفَ الغالين، وانتحالَ المبطلين، وتأويلَ الجاهلين"[٣].

٧– **مخالفة مسالك الأمم الضالة واجتماع محاسن الفرق كلِّها:** إنَّ الالتزام بمنهج السلف يُفيد في مجانبة مسالك الأمم الضَّالة من اليهود والنصارى وغيرهم، وقد أُمرنا بمخالفة طرائقهم، وتجنُّب سُننهم، وأن نسأل الله ذلك في كل صلاةٍ[٤]، كما قال ﷻ في سورة الفاتحة:﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ** ﴾[الفاتحة:٦-٧]، ومن طرائقهم التي أُمرنا بمخالفتها أنَّهم ردُّوا على الرُّسل ما جاؤوا به، واعترضوا عليه بالاعتراضات الباطلة، كما قالت اليهود لموسى– عليه السلام–:﴿ **لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً** ﴾[البقرة: ٥٥]، وقد حدث مثلُ هذا من الفرق الضَّالة والمبتدعة في ردِّ ما جاء من عند الله ورسوله ﷺ، "فكلُّ من أوقف الإيمان بالنُّصوص على موافقة عقلِه أو قياسِه أو ذوقِه أو كشفِه أو منامِه أو حسِّه، ففيه شبهٌ من اليهود والنصارى والذين كفروا، وقد أُمرنا بمخالفتهم؛ ولهذا لا تكاد تجد شبهةً أو مقالةً منحرفةً في الفرق المخالفةِ لأهل السنَّة والجماعة، إلَّا وفي اليهود والنصارى نظيرها"[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٥/٤).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٦٠٤/١).

(٣) الرد على الجهمية والزنادقة، للإمام أحمد (٥٦/١).

(٤) بدائع الفوائد، لابن القيم(٣٢/٢)، وانظر: مدارج السالكين، لابن القيم(٧٦/١).

(٥) منهج الإستدلال على مسائل الإعتقاد عند أهل السنة والجماعة، لعثمان حسن ص ٧٣٨.

إنَّ الالتزام بمنهج السَّلف يجمع لمن اتَّبعه كلَّ ما عند الفرق الأخرى من الحقِّ، مع نبذ أباطيلهم، فكلُّ طائفةٍ سوى أهل السنة والحديث المُتَّبعين لآثار النبي ﷺ، لا ينفردون عن سائر الطوائف بحقٍّ؛ بل كلُّ ما معهم من الحقِّ ففي أهل السنة من يقولُ به[1]، فأهلُ السُّنة يأخذون بالوجه الحقِّ عند كلِّ طائفةٍ، ويدَعون الوجه الباطل، وسبب هذا التوفيق هو استدلالهم بجميع النُّصوص، من غير توهُّم تعارضٍ بينها، أو بين النَّقل والعقل الصحيح، أمَّا أهل الفرق الأخرى فقد ضربوا النُّصوص بعضها ببعضٍ، أو عارضوها بآرائهم وأقيستهم الفاسدة، فآمنوا ببعض الكتاب وكفروا ببعضٍ، وأهل السنة آمنوا بالكتاب كلِّه، وأقاموه علماً وعملاً، يقول ابن القيم- رحمه الله-:" فأهل الصراط المستقيم بريئون من الطائفتين الزائغتين عن الحقِّ، إفراطاً أو تفريطاً، إلَّا من حقٍّ تتضمنه مقالاتهم، فإنَّهم يوافقونهم عليه، ويجمعون حقَّ كلٍّ منهما إلى حقِّ الأخرى، ولا يُبطلون ما معهم من الحقِّ لما قالوه من الباطل، فهم شهداء الله على الطوائف، وأُمناؤه عليهم، حُكَّامٌ بينهم، حاكمون عليهم، ولا يحكم عليهم أحدٌ منهم، يكشفون عن أحوال الطوائف، وهؤلاء أفراد العالم ونخبتُه وخلاصتُه، ليسوا من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً، ولا من الذين تقطَّعوا أمرهم بينهم زُبراً؛ بل ممَّن هم على بينةٍ من ربهم، وبصيرةٍ في إيمانهم، ومعرفةٍ بما عند الناس"[2].

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (١٧٧/٥)، وانظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(٧/١).

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم(٤١٨/١).

المبحث الثاني
أساسات فهم النص الديني عند السلف

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أسباب الفهم الصحيح للنص الديني.

المطلب الثاني: معوقات الفهم الصحيح للنص الديني من منظور السلف.

المطلب الثالث: قواعد فهم النص الديني عند السلف.

المبحث الثاني: أساسات فهم النص الديني عند السلف

إنَّ أيَّ معلومةٍ أو فكرةٍ، لا يُمكن أن تُقبل، ولا أن تُودع في حيِّز الفكر إلا بالدليل؛ ولذا ما من أحدٍ ادَّعى فكراً، أو ارتأى رأياً، إلَّا وبرهن عليه بدليلٍ، ولكنْ هل يكفي أن يقوم شخصٌ ما بطرح فكرةٍ أو ادِّعاء رأيٍ، ثمَّ يُبرهن ويدلل عليه بما يحلو له من الأدلة؟، أليس من الممكن أن يكون صاحب الدليل متلاعباً في الدليل، ماهراً في تحريف الكلم عن مواضعه؟، وليس إلا الساذج البسيط هو الذي يقبل بأي دليلٍ، كما هو حال قوم فرعون الذين ضربهم الله مثلاً للسذاجة والسخافة، فقال عنهم ﷻ:﴿ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴾[الزُّخرف:٥٤]؛ لذلك لا بدَّ من صحة الدليل لقبول الدعوى، ولكنَّ المشكلة أنَّ كلَّ صاحب دعوى يسرد أدلةً صحيحةً من القرآن والسنة الصحيحة، يبرهن فيها على دعواه، فهل يُقبل منه ما ادَّعاه، ويُسلَّم له فيما أراد، لو ذكر آيةً أو حديثاً يُدلِّل فيه على رأيه، لو قلنا: نعم، لمنحنا الشرعية والصحة لكلِّ الفرق والملل المنتسبة للأمة، ولكنَّ الأمر ليس كذلك، فهناك أمرٌ مهمٌ لا بدَّ منه، وهو فهم الدليل، وما يدلِّل عليه سياق النص، وفهم المعنى الذي يريده المتكلم بالنص؛ ولذلك فإنَّ هذا المنعطف، هو الذي تشعَّبت عنه الأمة إلى فرقٍ مختلفة، ولعل تلك المناظرة التي عقدها حبر الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنه مع الخوارج، أكبرُ دليلٍ على ذلك[١]، فقد استدلُّوا على خروجهم بنصوصٍ شرعيةٍ صحيحةٍ، ولكن وقعوا في سوء فهم النصوص، واستنباط الدليل منها، فردَّ عليهم ابنُ عباسٍ فهمهم المغلوط، وبيَّن لهم الفهم الصحيح لهذه النصوص؛ فرجع معه منهم بعد هذه المناظرة خلقٌ كثير؛ فكانت مشكلتهم في الفهم العليل لا في صحة الدليل، ويشهد لذلك ما قاله ابن أبي العز الحنفي[٢]، عندما قال:" وكم جنى التأويل الفاسد على الدين وأهله من جنايةٍ، وهل خرجت الخوارج، واعتزلت المعتزلة، ورفضت الروافض، وافترقت الأمة على ثلاثٍ وسبعين فرقة، إلا بالتأويل الفاسد"[٣].

ولعل الإمام البخاري، قد فطن لهذا المعنى وأراده، عندما عنون في كتاب العلم من صحيحه لبابين، فقال في الأول: باب العلم قبل القول والعمل[٤]، ثم راح يسرد الآيات التي تحثُّ على العلم، وكأنَّه يقصد الخطوة الأولى لإصابة الحق، وهي أنَّه لا يُقبل قولٌ أو عملٌ إلا بدليل، والدليل يأتي

---

(١) لمعرفة تفاصيل هذه المناظرة، انظر: مسند الإمام أحمد بن حنبل (٥/٢٦٤-٢٦٥).

(٢) علي بن علي بن محمد بن أبي العز، علاء الدين، الدمشقي، الحنفي، فقيه، كان قاضي القضاة بدمشق، ثم بالديار المصرية، ثم بدمشق،(٧٣١ - ٧٩٢ هـ)، من تصانيفه: التنبيه على مشكلات الهداية في فروع الفقه الحنفي، وشرح العقيدة الطحاوية. انظر: الدرر الكامنة،لابن حجر(٣/٨٧)، والأعلام، للزركلي(٥/١٢٩)، ومعجم المؤلفين، لعمر بن رضا الدمشقي((٧/١٥٦).

(٣) انظر:شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/٢٠٨).

(٤) صحيح البخاري، كتاب العلم (١/٢٤).

بالعلم، ثم قال في الثاني: باب الفهم في العلم(١)، وكأنَّه يقصد الخطوة الثانية ، وهي أنَّه لا بد من الفهم الفهم الصحيح للدليل؛ ولذا لا يكفي أن يُقال: هذا دليلٌ صحيح؛ بل لا بد من فهمٍ صحيحٍ للدليل، ولهذا الفهم الصحيح أسبابٌ لا بد من توافرها لتحققه، وهناك موانع لا بد من انتفائها؛ ليصل الناظر في الدليل إلى الحق، وهذا ما سيبينه الباحث في المطالب التالية.

المطلب الأول: أسباب الفهم الصحيح للنص الديني

إنَّ لتحصيل العلم النافع، وإصابة الفهم الصحيح أسبابًا، متى توفرت تحقَّق للعبد مقصودُه بإذن الله ﷻ، وهو فهم مراد الشارع الحكيم، والتعبد لله وفق هذا الفهم، وفي ذلك تكون النجاة والفلاح عند الله ﷻ، وقد وجد الباحث أنَّ هذه الأسباب الموصلة للفهم الصحيح للنص الديني، منها أسبابٌ متعلقةٌ بطالب العلم، وحالِه مع الله ﷻ، واستعدادِه لطلب وتلقي العلم، وهذه الأسباب يجعلُها العبد مقدمةً بين يدي طلبه للحق؛ ليوفقه الله للفهم الصحيح، ومنها أسبابٌ متعلقةٌ بالنَّص، ومتصلةٌ به اتصالاً وثيقاً، تُبيِّن كيفية فهمه، وهي أهمُّ وألزم، ولا بدَّ لطالب العلم أن يراعيَها حتى يصلَ إلى الفهم الصحيح، الخالي من الخلل، وأنْ يُلمَّ ببعض الأمور والأسباب الضرورية؛ لإدراك معاني النص ومقاصده، وهي علومٌ وأدواتٌ، يستعين بها الناظر في نصوص الشرع؛ ليفهمَها فهماً صحيحاً.

أولاً: الأسبابِ المتعلقة بطالب العلم:

١- **الفطرة السليمة:** لقد فطر الله النَّاس على الإسلام، وعلى معرفة الحق، وجعل الشرع مرتبطًا بتلك الفطرة؛ ولذلك تُعدُّ الانحرافاتُ الواقعةُ في البشرية انحرافًا عن الفطرة، وخروجًا عن طبيعتها، سواءٌ كانت تلك الانحرافات في العقيدة أو السلوك، وقد نصَّ الله ﷻ في كتابه على أنَّه خلق الناس على الهيئة التي ترشحهم لمعرفة الحق، قال الله ﷻ:﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾[الرُّوم:٣٠] ، وفي الحديث القدسي:**(إني خلقتُ عبادي حنفاء، فاجتالتهم(٢) الشياطين عن دينهم)**(٣).

قال ابن تيمية – رحمه الله–: " فإنَّ الله قد أرسل رسله بالحق، وخلق عباده على الفطرة، فمن كَمَّل فطرته بما أرسل الله به رسله، وَجَدَ الهدى واليقين الذي لا ريب فيه، ولم يتناقض"(٤).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم (٢٥/١).

(٢) قال السيوطي: "فاجتالتهم بالجيم، وروي بالخاء المعجمة أي أزالتهم وأذهبتهم". الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، للسيوطي(٢٠٢/٦).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يُعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (٢١٩٧/٤)، رقم: (٢٨٦٥).

(٤) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية (٢٧١/٥).

فالشرع هو الذي يحفظ الإنسان مما يغشى الفطرة ويحاول النيل منها، وقد بَيَّن الله ﷻ في كتابه الكريم أنَّ دعوة الرسل عليهم السلام جاءت لتقرير الحفاظ على الفطرة، وذلك بالدعوة إلى منهج الله ﷻ الكريم، وصراطه المستقيم، "فمنهج الله ﷻ هو المنهج الموصل إليه، ولا شيء غيره، أمَّا المناهج التقليدية، هي التي تصدُّ القلوب عما فُطرت عليه، وهذه المقالات السلبية لم يقل بشيءٍ منها إمامٌ من أئمة المسلمين، ولا نطق بها كتابٌ ولا سنةٌ"[1]، كما روي عن أرسطاليس أنه كتب في أول كتابه في الإلهيات: "من أراد أن يشرع في المعارف الإلهية فليستحدث لنفسه فطرةً أخرى"[2]؛ ولذلك اعترف من ضلَّ عن منهج السلف، بأنَّ منهجهم ليس على الفطرة؛ بل إنَّه معارضٌ لها، ولا يمكن للنَّاس أن يفهموه[3]، وكانت الفطرة السليمة في كثيرٍ من الحالات هي المُحرِّكة نحو تراجعهم عن مذاهبهم إلى المذهب الحق[4].

٢- **تقوى الله والتزام طاعته:** التقوى هي وصية الله للأولين والآخرين من عباده، قال الله ﷻ: ﴿ **وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ** ﴾[النساء:١٣١] ، وهي أيضًا وصية النبي ﷺ لأمته في حجة الوداع، حين قال:**(اتَّقوا الله ربكم، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدُّوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم)**[5]، وكان ﷺ إذا بعث أميراً على سرية، أوصاه في خاصة نفسه بتقوى الله، وبمن معه من المسلمين خيراً، ولمْ يَزَلْ السلفُ الصالح يتواصَون بها في خُطبهم ومكاتباتهم ووصاياهم عند الوفاة.

وحقيقةُ التقوى كما جاء عن السلف "أنْ تعمل بطاعة الله، على نورٍ من الله، ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله، على نورٍ من الله، تخاف عقاب الله"[6].

ومن ثمار التقوى أنَّ الله يفتحُ على المتقين من العلوم النافعة ما يُوفِّقهم ويهديهم به، قال ﷻ:﴿ **وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[البقرة:٢٨٢]، فالتقوى تقود إلى نور البصيرة، قال ﷻ:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ** ﴾[الأنفال:٢٩]، وهذا الفرقان يدخل فيه ما يفتح الله على الإنسان به من العلم والفهم، بحيث يفتح الله على المتقين من العلوم ما لا يفتحه لغيرهم، فإنَّ التقوى يحصُل بها زيادةُ

---

(١) انظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية(٣٦٦/٢).

(٢) أساس التقديس في علم الكلام، لفخر الدين الرازي، ص٢١.

(٣) انظر: إلجام العوام عن علم الكلام، للغزالي، ص٣٤٥-٣٤٦.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٤٧٧/١٨)، طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي(١٩٠/٥).

(٥) سنن الترمذي، أبواب السفر، باب منه، (٧٥٥/١)، رقم ٦١٦، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٨٦٧.

(٦) مصنف ابن أبي شيبة، (١٦٤/٦)، رقم ٣٠٥٦.

الهدى، وزيادةُ العلم، وزيادةُ الحفظ، وزيادةُ الفهم، ولا شكَّ أنَّ الإنسان كلَّما ازداد علمًا؛ ازداد معرفة وفرقانًا بين الحق والباطل، والضار والنافع.

إنَّ تقوى الله وخشيته في جميع الأحوال فيها الفرج، كما قال ﷻ:﴿ **وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ** ﴾[الطَّلاق:٢-٣]، ومعلومٌ أنَّ حصول العلم والفهم من أفضل الرزق؛ فهو خروجٌ من ضيق الجهل وظلمته، إلى سعة العلم ونوره، وإذا اتقى العبد ربه باتِّباع أوامره واجتناب نواهيه، وترك الشبهات، مخافة الوقوع في المحرمات، وشَغَلَ قلبه بالنية الخالصة، وجوارحه بالأعمال الصالحة، جعل الله له بين الحق والباطل فرقاناً، ورزقه فيما يريد من الخير إمكاناً[١].

ومن التقوى المُعينة على العلم والفهم، استشعارُ رقابة الله ﷻ على الدوام، وملازمة خشيتِه ﷻ، فعن ابن مسعود ﷺ قال:" ليس العلمُ بكثرةِ الرواية، ولكنَّ العلم الخشية"[٢]، وعنه ﷺ أيضاً قال: "كفى بخشية اللّه علماً، وكفى بالاغترار باللّه جهلاً"[٣].

ومما يُعين أيضاً على الفهم والعلم، مراعاةُ غضِّ البصر، فغضُّ البصر يُلبس القلب نوراً، كما أنَّ إطلاقه يُلبسه ظُلمةً، ومن اللطائف في ذلك أنَّ الله ﷻ ذكر آية النور:﴿ **اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ** ﴾[النور:٣٥]، عُقيب الأمر بغضِّ البصر عندما قال ﷻ قبلها بآيات:﴿ **قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾[النور:٣٠]، وكأنَّ بين الأمرين ارتباطاً، "فإنَّ المسلم إذا غضَّ بصره عن الحرام؛ أنار الله قلبه، وإذا استنار القلبُ، أقبلت وفود الخيرات إليه من كل ناحيةٍ، كما أنَّه إذا أظلم أقبلت سحائب البلاء والشر عليه من كل مكان، ومن ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه، فإذا غضَّ المسلم بصره عن محارم الله، عوَّضه الله بأن يُطلِق نور بصيرته عِوضاً عن حبسه بصره لله، ويفتحَ له بابَ العلم والإيمان والمعرفة والفراسة"[٤].

وكذلك من التقوى التي يجبُ أن يحرصَ طالبُ العلم ومريدُ الفهم على تحصيلها، المداومةُ على الورد القرآني، فإنَّ الإيمان الذي يُحدثه القرآن في النفوس له تأثيرٌ عجيبٌ، ويكفي فيه قول الله ﷻ:﴿ **إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا** ﴾[الإسراء:٩]، فإذا ما داوم المرء على تلاوة القرآن، وأعطاه وقتًا معتبرًا من يومه، فإنَّ هذا

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير(٤/٣٨)، وتيسر الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي(١/٣١٩)، (١/٣٨)، (١/٩٦١).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني(١/١٣١).

(٣) المعجم الكبير، للطبراني(٩/١٨٩)، رقم ٨٩٢٧.

(٤) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، لسفر الحوالي(١/٤٢٥).

من شأنه أن يزيدَه إيمانًا وتوفيقاً وبركةً وهدايةً، وباستمرار التلاوة والتدبر يزدادُ الترقِّي الإيماني، ويزدادُ ظهورُ ثمار الإيمان على صاحبه، ومنها فهمُ مراد الله ورسوله من نصوص الشرع، "فإن عَلِم سبحانه من التالي لكتابه صدق ضميرٍ وعنايةٍ حتى يجمع همَّه للفهم، أفهمه،ألا تسمعُه يقول:﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال:٧٠] ، فإذا أقبلتَ على الله بصدق نيةٍ، ورغبةٍ لفهم كتابه بإجماع همٍّ، متوكلًا عليه أنَّه هو الذي يفتح لك الفهم، لم يخيِّبك من الفهم والعقل عنه إن شاء الله"[١].

وكذلك أيضاً يجبُ على طالب العلم أنْ يُداوم على أذكار الصباح والمساء، وأن يأخذ حظَّه من التفكُّر والتأمُّل والتدبُّر، وقيام الليل، والدعاء في وقت السحر، فهي من أعظم أسرار التوفيق، وهي من الثوابت الإيمانية لكل طالبٍ للعلم، وقاصدٍ للفهم، وأمثال هذه الطاعات تُعد من الخبايا بين العبد وربه، وتظهر بركتُها في الدنيا قبل الآخرة، قال أحمد بن حنبل– رحمه الله– قال: ما رفع الله ابن المبارك[٢] إلا بخبيئةٍ كانت له"[٣].

٣– صلاح القلب: "القلب وعاءُ العلم، وسيِّدُ الأعضاء، ومحلُّ التدبر والفهم، فإنْ كان الوعاء صالحاً؛ خزن ما فيه وحفظه، وإن كان الوعاء فاسداً؛ ضيَّع ما فيه"[٤]، والرسول صلي الله عليه وسلم جعل صلاح القلب أساس كلِّ صلاحٍ، فقال ﷺ:(**ألا وإنَّ في الجسد مضغةٌ، إذا صَلُحت صَلُح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب**)[٥]، والقلبُ هو موضعُ نظر الربِّ العليِّ ﷻ، قال ﷺ:(**إنَّ الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم**)[٦]، "فالقلبُ ملكُ الأعضاء، وبقيَّةُ الأعضاء جنودُه، فإنْ كان الملك صالحاً كانت هذه الجنود صالحةً، وإن كان فاسداً كانت جنوده بهذه

(١) فهم القرآن ومعانيه، للحارث المحاسبي(٣٢٤/١).

(٢) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظليّ بالولاء، التميمي، المروزي أبو عبد الرحمن، الحَافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره في الأسفار، حاجاً ومجاهداً وتاجراً، مات بالعراق منصرفاً من غزو الروم، له كتابٌ في الجهاد، وهو أول من صنَّف فيه، وكتابٌ في الزهد والرقائق، وتوفي ١٨١هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٢٥٣/١)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(١٦٢/٨)، والأعلام، للزركلي(١١٥/٤).

(٣) صفة الصفوة، لابن الجوزي(٣٣٠/٢).

(٤) شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين(٣٤٢/١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، رقم ٥٢، وأخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب المساقاة، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، رقم ١٥٩٩.

(٦) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم، وخذله، واحتقاره ودمه، وعرضه، وماله، حديث رقم ٢٥٦٤.

المثابة فاسدةً، ولا ينفعُ عند الله إلا القلبُ السليم"[1]، كما قال ﷻ:﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾[الشعراء:٨٨-٨٩].

وصلاحُ القلب يكونُ بمعرفة الله تعالي بأسمائه وصفاته، والتفكُّرِ في مخلوقاته وآياته، وتدبُّرِ القرآن، وكثرةِ السجود وقيام الليل، ومُحاسبةِ النفس، مع مراعاة تجنب مفسدات القلب وأمراضه، فإنَّها إنْ وُجدتْ في القلب؛ فإنَّه لا يستطيع حمل العلم، وإنْ حمَلَه فإنَّه لا يفقهه، ولا يُوفق للعمل به[2]، كما قال الله ﷻ عن المنافقين مرضى القلوب:﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ﴾[الأعراف:١٧٩].

والأمراضُ والفتنُ التي تصيبُ القلوب، وتمنعُ صاحبها من الفهم نوعان: شهواتٌ، وشبهاتٌ، فالشهواتُ كحبِّ الدنيا وملذاتِها، والانشغالِ بها، وحبِّ النظرِ المحرم ، وسماعِ المُحرَّمات من الأصوات والمزامير والغناء، وأما الشبهاتُ فهي كالاعتقاداتِ الفاسدة، والأعمالِ المُبتدَعة، والانتماءِ للاتجاهات الفكريَّةِ البدعيَّةِ المخالفةِ لمسلك السلف الصالح، وينشأُ عن هذين النوعين من الأمراض: البدعُ، واتباعُ الهوى، وهذان هما أصلُ كلِّ شرٍّ وفتنةٍ وبلاءٍ، وبهما كُذِّبتْ الرُّسلُ، وعُصي الربُّ، ودُخلت النارُ، وحَلَّت العقوبات"[3].

ومن أمراض القلوب الصادَّةِ عن العلم، الحسدُ، والغلُّ، والكبرُ، ومن مُفسداتِ القلوب، فضولُ النومِ، وفضولُ الكلامِ، وفضولُ النظرِ، وفضولُ المُخالطةِ، وفضولُ الطعامِ، فإنَّ الخسارةَ في هذه الفضلات، وهي تُفوِّت على العبد خير دنياه وآخرته، ولمَّا كان صلاحُ القلب واستقامتُه، متوقفاً على جمعيته على الله، ولمِّ شَعَثِه بإقباله بالكليَّة على الله ﷻ، كان فضول الطعام والشراب، وفضول مخالطة الأنام، وفضول الكلام، وفضول المنام، مما يزيده شعثاً، ويُشتِّته في كل وادٍ، ويقطعُه عن سيره إلى الله ﷻ، أو يُضعفه أو يُعوِّقه ويُوقفُه [4].

فتجنُّبُ كلِّ هذه الأمراض والمُفسدات فيه صلاحٌ للقلب، وبالتالي أهليَّتُه للعلم والفهم، "وإذا سَلِمَ العبدُ من فتنة الشُّبهات والشَّهوات، حصل له أعظم غايتين مطلوبتين، بهما سعادتُه وفلاحُه وكمالُه، وهما الهدى، والرحمة"[5].

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب(٢١٠/١).

(٢) انظر: بدائع الفوائد، لابن القيم(١٩٢/٣)، وزاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم(٨٢/٢)، ومفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم، لابن القيم(١٨٧/١)، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم(٢٢/١)، (٨٤/١).

(٣) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١٠٦/١)، وإغاثة اللهفان، لابن القيم (١٦٥/٢-١٦٧).

(٤) بدائع الفوائد، لابن القيم(٢٧٣/٢)، وزاد المعاد، لابن القيم(٨٢/٢)، والفوائد، لابن القيم(٥٨/١)، بتصرف يسير.

(٥) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم(١٦٨/٢).

٤- **الاستعانة بالله عز وجل وسؤاله التوفيق والسداد:** إنَّ المرء ضعيفٌ لا حول له ولا قوة إلا بالله؛ فإذا وكل أمره إلى الله ﷻ، واستعان به على طلب العلم أفلح ونجا، وإذا وُكل إلى نفسه ضاع وهلك[١]، وقد حثَّ الله ﷻ على الاستعانة به، فقال ﷻ:﴿ **إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾[الفاتحة:٥] ، وقال ﷻ:﴿ **وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ** ﴾ [الطَّلاق:٣]، ويقول النبي ﷺ:**(لو أنَّكم توكلون على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً)**[٢]، وأعظمُ الرزق: العلمُ.

ويكون صدق اللجوء إلى الله ﷻ، بأن يدرك العبد بأنَّ مصدر العلم هو الله ﷻ وحده، وأنَّ العلم بيده وحده، لا يُنال إلا من عنده، قال ﷻ حكايةً عن الملائكة:﴿ **قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ** ﴾[البقرة:٣٢]، وقال ابن القيم- رحمه الله-:"قد أجمع العلماء بالله على أنَّ التوفيق أن لا يَكِلَ اللهُ العبدَ إلى نفسه، وأجمعوا على أنَّ الخذلان أن يخلِّيَ بينه وبين نفسه"[٣]، وقال الإمام الغزالي- رحمه الله-:"لا خفاء بالحاجة إلى التوفيق، ولذلك قيل:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى .... فأكثرَ ما يجني عليه اجتهادُه"[٤].

ولذلك فعلى طالب العلم أنْ يُدرك بأنَّ الذي علَّمه ما لم يكن يعلم هو الله ﷻ، وأنَّ العلم الذي تعلَّمه إنَّما هو عطيةٌ وهبةٌ من الله ﷻ له، فينسب الفضل كلَّه أولَه وآخرَه، ظاهرَه وباطنَه فيما حصَّله من علمٍ إلى اللهِ العليمِ جلَّ جلاله [٥]، وقد دلَّل وأكَّد على هذا الأصل العظيم، نبيُّنا محمدٌ ﷺ عندما قال:**(من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي)**[٦]؛ ولذلك كان ﷺ يسأل اللهَ ﷻ التوفيق، وألَّا يَكِلَه إلى نفسه، حيث كان يدعو:**(يا حيُّ يا قيومُ، برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين)**[٧]، وكان ﷺ يسأل الله ﷻ أيضاً زيادة العلم والانتفاع به، فكان يدعو:**(اللهم انفعني بما علَّمتني، وعلِّمني ما ينفعني، وزدني علمًا)**[٨]، وكان ﷺ يقول إذا صلى

---

(١) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم(٤١٢/١)،(٤٢٧/١)، والفوائد، لابن القيم(١٨٤/١).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الزهد، باب في التوكل على الله، رقم ٢٣٤٤، وصححه الألباني

(٣) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم(٢٨٨/١).

(٤) إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي(١٠٧/٤).

(٥) انظر: الفوائد، لابن القيم(٥٦/١)، ومفتاح دار السعادة، لابن القيم(٢٨٨/١)

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، رقم ٧١، وأخرجه مسلمٌ في كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، رقم ١٠٣٧.

(٧) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين،(٧٣٠/١)، رقم ٢٠٠٠، وقال: صحيح على شرط الشيخين، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٢٧.

(٨) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب في الايمان وفضائل الصحابة والعلم ، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم ٢٥١، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٣١٥١.

الصبح:(**اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً**)[1]، وهذا نبي الله موسى عليه السلام، لمَّا كلَّفه ربُّه بالرسالة، طلب العون والتوفيق من الله ﷻ، كما جاء في القرآن:﴿ **قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾[طه:٢٥-٢٨]، وقد كان هذا هو حال جميع أنبياء الله ورسله، فقد قال جل وعلا حكايةً عن شعيب عليه السلام أنه قال:﴿ **وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾[هود:٨٨] .

فالإنسانُ مهما جمع من العلوم، ومهما أُوتي من الفهوم، ومهما أُعطي من مالٍ وجاهٍ، ومهما ملك من سلطان، فإنَّه يظلُّ مخلوقاً ضعيفاً يحتاج إلى توفيق الله ﷻ، ومن وصايا الإمام الشافعي- رحمه الله- لطلبة العلم قوله: "فحقٌ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدهم في الاستكثار منه، والصبرُ على كلِّ عارضٍ دون طلبه، وإخلاصُ النية لله في استدراك علمه، والرغبةُ إلى الله في العون عليه، فإنَّه لا يُدركُ خيرٌ إلا بعونِه"[2]، وهذا شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- يقول:" إنَّه ليقفُ خاطري في المسألة التي تُشكِلُ عليَّ؛ فأستغفرُ الله ﷻ ألف مرةٍ أو أكثر؛ حتى ينشرح الصدر، وينحلَّ إشكالُ ما أُشكل"[3]، ويقول عنه تلميذه ابن القيم- رحمه الله-:" وشهدتُ شيخ الإسلام قدَّس الله روحه، إذا أعيته المسائل، واستصعبت عليه، فرَّ منها إلى التوبة والاستغفار، والاستغاثةِ بالله، واللُّجأِ إليه، واستنزالِ الصواب من عنده، والاستفتاحِ من خزائن رحمته، فقلَّما يلبث المددُ الإلهي أن يتتابع عليه مدّاً، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ، ولا ريب أنَّ من وُفق إلى هذا الافتقار علماً وحالاً، وسار قلبُه في ميادينه بحقيقةٍ وقصدٍ، فقد أُعطي حظَّه من التوفيق، ومن حُرمه فقد مُنع الطريق والرفيق، فمتى أُعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق، فقد سُلك به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم"[4]، ولا زال العلماء علي هذا النهج يتضرعون إلي الله ﷻ، ويسألونه العلم، والتوفيق والسداد في أمورهم؛ حتى فتح الله ﷻ عليهم من بركاته ورحماته، ما علموا وفهموا به ما ينفعهم، ويرفعهم عند الله ﷻ، يقول ابن القيم- رحمه الله-: "وليس شيءٌ من الأسباب أنفعَ من الدعاء، ولا أبلغَ في حصول المطلوب"[5]؛ ولذلك "إذا كان العبد مصغيًا إلى كلام ربه، ملقي السمع وهو شهيد القلب، متبرئاً من حوله وقوته، مفتقرًا إلى التَّفهم بحالٍ مستقيمٍ، وقلبٍ

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب اقامة الصلوات والسنة فيها ، باب ما يقال بعد التسليم ، رقم ٩٢٥، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه.

(٢) الرسالة، للشافعي(١٩/١).

(٣) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، لشمس الدين محمد بن أحمد الحنبلي(٢٢/١).

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١٣٣/٤).

(٥) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، لابن القيم (١٧/١).

سليمٍ، بدعاءٍ وتضرعٍ، وابتئاسٍ وتمسكنٍ، ومنتظرًا للفتح عليه من عند الفتَّاح العليم؛ فهذا القارئ أحسن الناس صوتاً بالقرآن، وفي مثله يقول الله ﷻ:﴿ **الَّذِينَ آَتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ**﴾[البقرة:١٢١]، وهذا هو الراسخ في العلم، جعلنا الله من هذا الصنف"[١].

٥- الحرصُ على طلب العلم والصبرُ عليه: إنَّ طلبَ العلم، والصبرَ عليه، ومكابدةَ الليالي، هو البوابةُ التي يعبر منها مبتغي الفهم لمُراده، فلا فهم من غير طلبٍ وجهدٍ وصبر، وإنَّ مريد الفهم من غير طلبٍ للعلم وصبرٍ عليه، كمريد الولد من غير زواج، فأنَّى له ذلك، فالعلم نورٌ، ينير لصاحبه طريق الهداية والرشاد، ومن أحبَّ أن يكون للأنبياء وارثاً، وفي مزارعهم حارثاً فليتعلم العلم النافع[٢]، وليحضر مجالس العلم، فإنَّها رياض الجنة، ومن أحبَّ أن يعلم ما نصيبه من عناية الله، فلينظر ما نصيبه من الفقه في دين الله، ففي الحديث عن النبي ﷺ، قال:**(مَن يُرد الله به خيراً يفقهه في الدين)**[٣]، وقال ﷺ أيضاً:**(إنَّ العلماء ورثة الأنبياء)**[٤]، وقال ﷺ أيضاً:**(إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حِلَق الذكر)**[٥].

واعلم أنَّ العلم والفهم يحتاجُ إلى جهدٍ في طلبه، وحرصٍ على تحصيله، وصبرٍ على مُرِّه، ولا يحسبُ طالبُ العلم أنَّ طلبه يتمُّ بيومٍ أو يومين، أو سنةٍ أو سنتين، بل إنَّ طالب العلم يحتاج إلى عمره كلِّه ليتعلم، ولا يزال الرجل عالماً ما طلب العلم، يقول الإمام أحمد- رحمه الله-: "جلستُ في كتاب الحيض تسع سنين حتى فهمتُه"[٦]، وقيل لبعضهم: "بم أدركت العلم؟ فقال: بالمصباح، والجلوس إلى الصباح، وقيل لآخر فقال: بالسفر، والسهر، والبكور في السحر"[٧]، ولله درُّ عليٍ ﷺ، حين قال:

"إنّي رأيتُ، وفي الأيامِ تجربةٌ ... للصَّبرِ عاقبةً محمودةَ الأثرِ
وقلَّ منْ جدَّ في أمرٍ يحاولهُ ... واستصحبَ الصَّبرَ إلاَّ فازَ بالظَّفرِ"[٨]

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي (١٨١/٢).

(٢) انظر: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، لابن القيم(٣٩/١)، ومفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم، لابن القيم(٧٠/١) وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين،(٢٥/١)، حديث رقم ٧١.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم،(٣١٧/٣)، حديث رقم ٣٦٤١، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، رقم٦٢٩٧.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الدعوات (٥٣٢/٥)، رقم ٣٥١٠، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٥٦٢.

(٦) طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى(٢٦٨/١).

(٧) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي(٢٠٧/٢).

(٨) العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي(٢٠١/١).

ويقول ابن القيم- رحمه الله-:" المصالحُ والخيراتُ واللَّذاتُ والكمالاتُ كُلها لا تُنال إلا بحظٍّ من المشقة، ولا يُعبر إليها إلا على جسرٍ من التَّعب، وقد أجمع عقلاء كلِّ أمةٍ على أنَّ النَّعيم لا يُدرك بالنَّعيم، وأنَّ من آثر الراحة فاتته الراحة، وأنَّه بحسب ركوب الأهوال واحتمال المشاقِّ، تكون الفرحة واللذة، فلا فرحة لمن لا همَّ له، ولا لذَّة لمن لا صبر له، ولا نعيم لمن لا شقاء له، ولا راحة لمن لا تعب له، بل إذا تعب العبد قليلاً استراح طويلاً، وإذا تحمل مشقة الصبر ساعةً، قاده لحياة الأبد، وكلُّ ما فيه أهل النعيم المقيم فهو صبر ساعة، والله المستعان ولا قوة إلا بالله، وكلَّما كانت النفوس أشرف، والهمةُ أعلى، كان تعبُ البدن أوفرَ، وحظُّه من الراحة أقل، كما قال الشاعر:

وإذا كانت النفوس كبارًا   تعبت في مُرادها الأجسام"[١].

وطلبُ العلم والانتفاعُ به لا يتحصَّل لطالبه، إلَّا إذا وقع تعظيمه في القلوب، ولعلَّ الإمام الدارمي صاحب المسند قد فطن لهذا الأمر، فذكر في كتابه المسند باباً في إعظام العلم[٢]، قبل البدء بذكر أبواب العبادات والأحكام، وكأنَّه يريد أن يقول: إن كلَّ ما سيُذكر من الأبواب اللاحقة، لا ينتفعُ به العبد إلا إذا كان مُعظِّماً للعلم، وأنَّ كلَّ ما سيأتي من الأبواب، هو ببركة تعظيم العلم.

وطلبُ العلم، وبذلُ الجهد فيه، له لذةٌ ومتعةٌ، ومن ذاق عرف، ورحم الله الإمام الشافعي حين قال:

"سهري لتنقيحِ العلوم ألذُّ لي ... من وصل غانيةٍ وطيب عناقِ

وصريرُ أقلامي على صفحاتها ... أحلى من الدَّوكاء[٣] والعُشَّاق

وألذُّ من نقر الفتاة لدُفِّها ... نقري لألقي الرمل عن أوراقي

وتمايلي طرباً لحلِّ عويصةٍ ... في الدرس أشهى من مدامة ساقي

أأبيتُ سهرانَ الدجى وتبيتَه ... نوماً وتبغي بعد ذاك لَحاقي"[٤].

وعند النظر في سير العلماء، وكيفية حرصهم على اغتنام الزمان، وتقييد الفوائد نرى عجباً، فهذا الإمام البخاري- رحمه الله- يستيقظ مراتٍ كثيرةٍ في الليلة الواحدة؛ ليُقيِّد الفوائد والخواطر، قال أحد تلاميذه:" كنتُ مع محمد بن إسماعيل بمنزله ذات ليلةٍ، فأحصيتُ عليه أنَّه قام وأسرج يستذكرُ

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم(١٥/٢)، ونسب ابن القيم هذا البيت للمتنبي.

(٢) انظر: مسند الدارمي، بابٌ في إعظام العلم، (٤٩٩/١).

(٣) الدوكاء هو الحجر الذي يُسحق به الطيب. انظر: علو الهمة، للمقدم(٢٧/١). وقال بعضهم: هم السكارى. انظر: مجلة البيان، العدد٢٣٢، صفحة ٨.

(٤) ديوان الإمام الشافعي، تحقيق محمد خفاجي(١/ ١١٣)، ومن أهل العلم من ينسب هذه الأبيات إلى غير الشافعي كالتاج السبكي والزمخشري والألوسي.

أشياءَ يُعلِّقُها في ليلةٍ ثمان عشرة مرة"[1]، وهذا الإمام الشافعي- رحمه الله- تحكي عنه ابنته أنها أسرجت له السراج في ليلةٍ سبعين مرة [2].

٦- **الإخلاص وحسن القصد في طلب العلم:** إنَّ الإخلاص في طلب العلم من أهم الأسباب لإدراك المطلوب، والفوز بالمرغوب فيه من العلم والفهم؛ ولذلك يتحتم على مريد العلم المفيد، والفهم السديد، أن يجعل في قلبه نيةً صالحةً خالصةً لله ﷻ، وذلك بأن يكون قصدُ المسلم بطلب العلم رضا الله والدار الآخرة، كما قال ﷻ:﴿ **فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا** ﴾[الكهف:١١٠]، وكذلك امتثالَ أمر الله ﷻ عندما أمر بالعلم، ورفعَ الجهل عن نفسه وعن غيره، ونفعَ الخلق تعليمًا وتوجيهاً، وبهذه النوايا تُنال خشيةُ الله، قال ﷻ:﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ** ﴾[فاطر:٢٨].

وقد افتتح الإمام البخاري- رحمه الله- كتابَه الصحيح المعروف بصحيح البخاري بحديث:**(إنَّما الأعمال بالنيات..)**[3]، إشارةً إلى أهمية الإخلاص في كلِّ عملٍ يعمله العبد طاعةً لله ﷻ، قال الإمام أحمد- رحمه الله-: "العلم لا يَعدُله شيءٌ لمن صحَّت نيَّتُه"[4]، فمن أخلص في طلبه للعلم فتح الله عليه من فُتوحاته وبركاته، وءاتاه علماً وفهماً يفوق به أقرانه، ويجلب قلوب الناس إليه، وهذا من بركة الإخلاص، قال ابن القيم_ رحمه الله-: "وقد جرت عادةُ الله التي لا تتبدل، وسنَّتُه التي لا تتحول، أن يُلبس المُخلصَ من المهابةِ والنورِ والمحبةِ في قلوب الخلق، وإقبالِ قلوبهم إليه ما هو بحسب إخلاصه ونيَّتِه ومعاملتِه لربه، ويُلبس المُرائي اللابس ثوبي الزور من المقتِ والمهانةِ والبغضِ ما هو اللائق به؛ فالمخلص له المهابةُ والمحبةُ، وللآخر المقتُ والبغضاءُ"[5].

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي(١٢/ ٤٠٤)، وانظر: علو الهمة، للمقدم (١/١٦٥).

(٢) انظر: آداب الشافعي ومناقبه، لابن أبي حاتم الرازي(١/٣٥)، وانظر: علو الهمة، للمقدم(١/١٦٥).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم ١ .

(٤) ذكره الشيخ ابن عثيمين في كتاب العلم (١/٢٢)، وكتاب شرح الأربعين النووية(١/٢٤٦). وبحثت عن هذا القول في كتب الإمام أحمد فلم أجده، ولكني وجدته في مخطوطة غير محققة لأبي طاهر السلفي المتوفى ٥٧٦هـ، بعنوان: "الثالث والعشرون من المشيخة البغدادية لأبي طاهر السلفي"، نُشرت في برنامج جوامع الكلم المجاني التابع لموقع الشبكة الإسلامية، وهذا إسناد هذا القول عن الإمام أحمد، قال أبو طاهر السلفي: قرئ على الشيخ أبي الحسين الطيوري، وأنا أسمع، أخبركم أبو إسحاق إبراهيم بن عمر البرمكي، أنا أبو بكر عبد العزيز بن جعفر صاحب أبي بكر الخلال، إجازة، نا أحمد بن محمد بن هارون، نا محمد بن عمرو بن مكرم، سمعت مهنا بن يحيى، قال: قلت لأحمد بن حنبل: ما أفضل الأعمال؟ قال: طلب العلم لمن صحت نيته، قلت: وأيش تصحيح النية؟ قال: ينوى بتواضع فيه، وينفى عنه الجهل. الثالث والعشرون من المشيخة البغدادية لأبي طاهر السلفي (١/٣٦).

(٥) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(٤/١٥٣).

وإذا افتقد طلب العلم لإخلاص النية، انتقل من أفضل الطاعات إلى أحطّ المخالفات، ولا شئ يُحطِّم العلم، ويمنع الفهم مثل ترك الإخلاص، والمرائي في طلب العلم فضلاً عن خسارته في الدنيا، فإنَّه مُعاقبٌ في الآخرة، كما جاء في حديث أول من تسعر بهم النار، حيث قال ﷺ في حقِّهم:(... **ورجلٌ تعلَّم العلم، وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم، وعلمتُه وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمتَ العلم ليُقال: عالمٌ، وقرأتَ القرآن ليُقال: هو قارئٌ، فقد قيل، ثم أُمر به فسُحب على وجهه حتى أُلقي في النار**)[1].

فعلى طالب العلم والفهم أن يتنبه لهذه المسألة المهمة، وألا ينوي أن يتوصلَ بعلمه إلى مرتبةٍ، أو رُتبةٍ، أو يتعلَّمَه ليماريَ ويجادلَ به، فقد قال ﷺ:(**من تعلّم علمًا مما يُبتغى به وجه الله تعالى، لا يتعلَّمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا؛ لم يجد عرف الجنة يوم القيامة، يعني: ريحها**)[2]، وقال ﷺ أيضاً: (**من تعلم العلم ليباهيَ به العلماء، ويجاريَ به السفهاء، ويصرفَ به وجوه الناس إليه، أدخله الله جهنم**)[3].

إنَّ طالب العلم في أمسِّ الحاجة لأن يكون قصده حسناً في طلبه للعلم، لنشر دين الله ﷻ في الأرض؛ وإعلاء كلمة الله، وإظهار الحق، ولو على لسان غيره، وإنصاف الخلق، فالعاقل فضلاً عن المسلم الصادق طالبُ حقٍّ، باحثٌ عن الحقيقة، ينشُد الصواب، ويتجنب الخطأ، يقول الشافعي– رحمه الله–:" ما ناظرتُ أحداً إلا ولم أبالِ بيَّن اللهُ الحقَّ على لساني أو لسانه"[4]، ويقول أبو حامد الغزالي– رحمه الله–:" التعاونُ على طلب الحق من الدين، وله شروطٌ وعلاماتٌ، منها: أن يكون في طلب الحق كناشد ضالةٍ، لا يفرِّق بين أن تظهر الضالة على يده، أو على يد مُعاونه، ويرى رفيقه معيناً لا خصماً، ويشكره إذا عرَّفه الخطأ وأظهره له"[5].

ويقول ابن القيم– رحمه الله–: "وصحةُ الفهم وحسنُ القصد، من أعظم نعم الله التي أنعم بها على عبده؛ بل ما أُعطي عبدٌ عطاءً بعد الإسلام أفضلَ ولا أجلَّ منهما؛ بل هما ساقا الإسلام، وقيامُه عليهما، وبهما يأمنُ العبد طريق المغضوب عليهم الذين فسد قصدهم، وطريق الضالين الذين فسدت

---

(١) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار،(١٥١٣/٣)، حديث رقم ١٩٠٥.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، حديث رقم ٢٥٢، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم ٢٢٧.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، في افتتاح الكتاب، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم ٢٦٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٦١٥٨.

(٤) حلية الأولياء، للأصبهاني(١١٨/٩).

(٥) إحياء علوم الدين، للغزالي(٤٤/١).

فهومهم، ويصيرُ من المُنعَم عليهم الذين حسُنت أفهامهم وقُصودهم، وهم أهلُ الصراط المستقيم الذين أُمرنا أن نسأل الله أن يهدينا صراطهم في كل صلاة"(١).

وقال ابن القيم أيضاً: "وحسن القصد لُقاحٌ لصحة الذهن، فإذا فُقدا فُقد الخير كله، وإذا اجتمعا أثمرا أنواع الخيرات"(٢)؛"ولهذا كان ما فهمه الصحابة من القرآن أولى أن يُصار إليه مما فهمه من بعدهم، فانضاف حسن قصدهم إلى حسن فهمهم، فلم يختلفوا في التأويل في باب معرفة الله وصفاته وأسمائه وأفعاله واليوم الآخر، ولا يُحفظ عنهم في ذلك خلافٌ لا مشهورٌ ولا شاذٌ، فلمَّا حدث بعد انقضاء عصرهم من ساء فهمه وساء قصده، وقعوا في أنواعٍ من التأويل بحسب سوء الفهم وفساد القصد، وقد يجتمعان وقد ينفردان، وإذا اجتمعا تولد من بينهما جهلٌ بالحق، ومعاداةٌ لأهله، واستحلالُ ما حرَّم الله منهم، وإذا تأملتَ أصول المذاهب الفاسدة رأيتَ أربابها قد اشتقُّوها من بين هذين الأصلين، وحملهم عليها منافسةٌ في رياسةٍ أو مالٍ أو توصلٌ إلى عَرضٍ من أعراض الدنيا، فيتفق للعبد شبهةٌ وشهوةٌ، وهما أصل كلِّ فسادٍ ومنشأ كلِّ تأويلٍ باطلٍ"(٣).

وبهذا يتبين أنَّ حسن القصد أصلٌ مُهمٌ، حتى ولو كان رأي الإنسان صحيحاً، لكنَّه لم يقصد به وجه الله ﷻ والنُّصح للمسلمين، فإنَّ عمله مردودٌ غير مقبولٍ، وهو مأزورٌ غير مأجورٍ.

قال ابن تيمية– رحمه الله–: "وهكذا الردُّ على أهل البدع من الرافضة وغيرهم، إن لم يقصد فيه بيانَ الحقِّ، وهدى الخلق ورحمتهم والإحسان إليهم، لم يكن عمله صالحاً، وإذا غلظ في ذمِّ بدعةٍ ومعصيةٍ كان قصده بيان ما فيها من الفساد؛ ليحذرها العباد، فإنَّ الإنسان عليه أولاً أن يكون أمره لله، وقصده طاعة الله فيما أمره به، وهو يحبُّ صلاح المأمور، أو إقامة الحجة عليه فإن فعل ذلك لطلب الرياسة لنفسه ولطائفته، وتنقيص غيره كان ذلك حميةً لا يقبله الله، وكذلك إذا فعل ذلك لطلب السمعة والرياء كان عمله حابطاً، وهذا ما يصيب أصحاب المقالات المختلفة، إذ كلٌ منهم يعتقد أنَّ الحق معه، وأنَّه على السنة؛ ولكنَّ أكثرهم قد صار لهم في ذلك هوىً أن ينتصر جاههم أو رياستهم وما نُسب إليهم، لا يقصدون أن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدين كله لله، بل يغضبون على من خالفهم، وإن كان مجتهداً معذوراً لا يغضب الله عليه، ويرضون عمن يوافقهم، وإن كان جاهلاً سيئ القصد، ليس له علمٌ ولا حسنُ قصدٍ؛ فيُفضي هذا إلى أن يحمَدوا من لم يحمده الله ورسوله، ويذِمُّوا من لم يذمه الله ورسوله، وتصير موالاتهم ومعاداتهم على أهواء أنفسهم لا على دين الله ورسوله، ومن هنا

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(٦٩/١).

(٢) الفوائد، لابن االقيم(٢٠٠/١).

(٣) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٥١٠/٢).

تنشأ الفتن بين الناس، وأصل الدين أن يكون الحب لله، والبغض لله، والموالاة لله، والمعاداة لله، والعبادة لله، والاستعانة بالله، والخوف من الله، والرجاء لله، والإعطاء لله، والمنع لله[١].

وهذا الأصل العظيم الذي يسعى طالب العلم لتحقيقه يحتاج إلى جهدٍ ومجاهدةٍ، قال سفيان الثوري[٢]- رحمه الله-:"ما عالجتُ شيئاً أشدَّ عليَّ من نفسي"[٣].

ولا بد مع الإخلاص وحسن القصد من موافقة السنة، لأنَّ الذي يأتي بالبدعة متقرِّباً بها إلى الله قصدُه حسن، ولكنَّه لم يوافق ويتابع النبي ﷺ، فيفقد أحد الشرطين لقبول العمل، وهما الإخلاصُ لله، والمتابعة لرسوله ﷺ، وقد قال ﷺ:**(من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ)**[٤]، وفي لفظ لمسلم: **(من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد)**[٥]، ودلَّ الحديثان على ردِّ كلِّ البدع المُحدَثة على صاحبها، سواءٌ أحدثها الفاعل، أو سبق بإحداثها غيرُه، وعمل هو بها.

ومِمَّا يدلُّ على أنَّه لا بدَّ مع حسن القصد من موافقة السنَّة، قصةُ الصحابيِّ الذي ذبح أُضحيته قبل صلاة العيد، فقال له النَّبيُّ ﷺ:**(شاتُك شاةُ لحم)**[٦]، أي ليست أضحيةً، وليس لها ثواب الأضحية، بل هي كغيرها مما يُذبح عادةً للأكل، بالرغم من أنَّ قصد الرجل حسناً، وهو أن يكون أول من يذبح، وأن يصنع لحم أضحيته ويطبخه، ويُطعم منه الأهل والجيران، وهذا قصدٌ طيبٌ؛ ولكن لا بدَّ من التزام السنة، قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله- في شرح هذا الحديث: "وفيه أنَّ العملَ وإن وافق نيةً حسنةً لَم يصح إلاَّ إذا وقع على وفق الشرع"[٧]؛ ولذلك فإنَّ حسن القصد، وطيبة القلب وحدها لا تكفي، ولا يكون حسن قصد الفاعل معتبراً مع مخالفته للسنة؛ ولذلك يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه رداً على من عمل عملاً خلاف السنة، وكان قصده حسناً: "وكم من مريدٍ للخير لن يصيبه"[٨].

٧- **الدراسةُ على الشيوخ الثقات وملازمتهم:** إنَّ طلب العلم له طريقان، أحدُهما: أنْ يتلقى الطالب

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٥/٢٣٩- ٢٥٥).

(٢) سُفْيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من مضر، أبو عبد الله، أمير المؤمنين في الحديث، كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى، وكان آيةً في الحفظ، ولد ونشأ في الكوفة، وراوده المنصور العباسي على أن يلي الحكم، فأبى، وخرج من الكوفة فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهدي، فتوارى، وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيا، من مصنفاته: الجامع الكبير، والجامع الصغير، وكتاب في الفرائض، وتوفي ١٦١هـ. انظر: الطبقات، لابن سعد(٦/٢٥٧)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(٦/٣٥٦)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(٤/١١١)، والأعلام، للزركلي(٣/١٠٥).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني(٧/٦٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فهو مردود، رقم ٢٦٩٧.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة ورد محدثات الأمور، رقم ١٧١٨.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأضاحي، باب قول النبي ﷺ لأبي بردة: ضح بالجذع من المعز، ولن تجزي عن أحد بعدك، رقم٥٥٥٦.

(٧) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني(١٠/١٧).

(٨) أخرجه الدارمي في سننه، باب في كراهية أخذ الرأي (١/٢٨٦)، رقم ٢١٠.

العلم من الكتب الموثوق بها، والتي ألَّفها علماءُ معروفون بعلمهم، وأمانتهم، وسلامةِ عقيدتهم من البدع والخرافات، ولكي ينتفع الطالب بذلك لا بد من تحقق شرطين، وهما: "أنْ يَحصُل له من فهم مقاصد ذلك العلم المطلوب، ومعرفةِ اصطلاحات أهله؛ ما يتمُّ له به النظر في الكتب، وأنْ يتحرى كُتب المتقدمين من أهل العلم المراد؛ فإنهم أقعد به من غيرهم من المتأخرين"[١]، وهذه الطريقة قد يضلُّ فيها الطالب وهو لا يدري، إما لسوء فهمه، أو قصور علمه، أو لغير ذلك من الأسباب؛ ولذلك اشتُهر عن العلماء قولُهم:"لا تأخذ العلمَ عن صَحَفِي[٢]، ولا القرآنَ عن مُصْحَفِي"، وقالوا:"لا يفتي الناس صَحَفي، ولا يقرئهم مُصْحَفي"[٣]، وقديماً قيل: من كان شيخه كتابه؛ كان خطؤه أكثر من صوابه[٤]، ولكنَّ هذا الأمر ليس على الإطلاق في الحقيقة[٥].

وأمَّا الطريقُ الثاني لطلب العلم فهو أن يتلقى طالب العلم علمه من عالمٍ موثوقٍ في علمه ودينه، وهذا الطريق أسرع وأتقن للعلم؛، "فكم من مسألةٍ يقرؤها المتعلم في كتابٍ، ويحفظُها ويردِّدُها على قلبه؛ فلا يفهمها، فإذا ألقاها إليه المعلم فهمها بغتةً، وحصل له العلمُ بها، وهذا الفهم يحصل إمَّا بأمرٍ عاديٍ من قرائن أحوالٍ، وإيضاح موضع إشكالٍ لم يخطر للمتعلم ببال، وقد يحصل بأمرٍ غير معتادٍ، ولكن بأمرٍ يهبه الله للمتعلم عند مثوله بين يدي المُعلم، ظاهر الفقر، بادي الحاجة إلى ما يُلقى إليه"[٦]؛ فالطريقة المثلى في طلب العلم أن يُتلقى العلم عن العلماء، ولله در القائل:

من يأخُذِ العلمَ عن شيخٍ مُشافهةً ... يكن عن الزيغ والتصحيف في حَرَم

ومن يَكُنْ آخذاً للعلم من صُحُفٍ ... فعلمُهُ عند أهل العلمِ كالعَدَمِ[٧].

وأجمل منه قولُ القائل:

يظنُّ الغَمْر أنَّ الكتب تهدى ... أخا فهمٍ لإدراكِ العلومِ

وما يدري الجهولُ بأنَّ فيها ... غوامض حيَّرتْ عقل الفهيمِ

إذا رُمت العلوم بغير شيخٍ ... ضللت عن الصراط المستقيم

---

(١) الموافقات، للشاطبي(١/١٤٧).

(٢) ومن اللحن قولُهم: صُحُفي بضمتين، والصواب صَحَفي بفتحتين، رداً إلى صَحيفة، والصَحَفي: من يأخذ العلوم عن الصحف بدون تلقٍ عن العلماء، أو من يخطئ في قراءة الصحيفة، والمُصحفي من يتلقى القرآن من المصحف لا عن القراء الحفاظ، وكل منهما يكون كثير الغلط والخطأ.انظر: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي للسيوطي(٢/٦٦٦).

(٣) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي(١/١٦٢).

(٤) انظر: الإعلام بحرمة أهل العلم والإسلام، للمقدم (١/٣٣٥).

(٥) انظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين(٢٦/١٩٧).

(٦) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي(١/١٤٥).

(٧) يُنسب هذا الشعر لمحمد بن محمد بن حسن بن علي بن يحيى بن محمد بن خلف الله الكمال التميمي الداري الشُمُنِّي المالكي، ت٨٢١هـ، انظر: الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، للسخاوي(٩/٧٥).

وتلتبسُ الأمورُ عليك حتى ... تصيرَ أضلَّ من تُوما الحكيم[1].

وهذه الطريقةُ يكون فيها التعلُّم من أدب الشيخ، وطريقة تدريسه، والمناقشة مع المعلم، وكيفية الدفاع عن الأقوال الصحيحة، وردِّ الأقوال الضعيفة؛ فينفتح بذلك لطالب العلم أبوابَ كثيرةً في الفهم والتحقيق، لا يستطيع تحصيلها وحده؛ لأنَّ الله ﷻ يفتح على الطالب بين يدي شيخه ما لا يفتحه عليه وحده، ولا زال هذا الأمر مشاهداً في الأمة إلي وقتنا هذا.

وقد اهتمَّ سلفُنا الصالح والعلماء من بعدهم إلى زماننا هذا بهذه الأسس والمبادئ؛ فتلقَوا العلم على يد مشايخهم؛ بل عدَّدوا من يأخذون العلم عنهم، ولقد "كان الإكثار من الشيوخ سمةً بارزةً بين علماء السلف الصالح، فما من عالمٍ له شأنٌ، إلا ونجدُ وراء نبوغه عددًا غير قليلٍ من العلماء، الذين تتلمذ على أيديهم"[2].

وعلى طالب العلم أن يتحرى الشيوخ الثِّقات، المشهود لهم بالعلم والتقوى؛ ليأخذ عنهم، وينهل من علمهم، قال محمد بن سيرين[3]:" إنَّ هذا العلم دينٌ، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم"[4]، وقال بعض السلف:" كُنَّا إذا أتينا الرجل لنأخذَ عنه، نظرنا إلى صلاته؛ فإنْ أحسنَ الصلاة أخذنا عنه، وإنْ أساء الصلاة لم نأخذْ عنه"[5].

---

(١) نُسبت هذه الأبيات لأبي حيان النحوي، قالها تهكماً بأحد معاصريه؛ لأنه لم يكن له شيوخ تعلم عليهم، وتوما المذكور في الأبيات، والذي يضرب به المثل في الجهل المركب، كان قد امتهن مهنة التطبيب وراثة عن أبيه وأخيه، ولكن كان المريض إذا دخل عليه لا يخرج سليماً في الغالب، فلما راجعوه وجدوه قد جمع عدداً من الحيات والثعابين السوداء؛ ليعالج بها المرضى، فلما سألوه قال مكتوبٌ عندي"الحيَّة السوداء شفاءٌ من كل داء"، فتصحَّف الحديث من الحبَّة الى الحيَّة، ولجهله وأخذه من الكتب مباشرةً وقع فيما وقع. انظر: طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي(٩/٢٨٦)، وانظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة،لابن حجر(٢/٧٥).

(٢) الاقتصاد في الاعتقاد، لعبد الغني المقدسي، ص٢٢.

(٣) محمد بن سيرين البصري، الأنصاري بالولاء، أبو بكر، إمام وقته في علوم الدين بالبصرة، تابعي من أشراف الكتّاب، مولده ووفاته في البصرة، تفقه وروى الحديث، واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا، استكتبه أنس بن مالك، بفارس، وكان أبوه مولىً لأنس، ينسب له كتاب: تعبير الرؤيا، وكتاب: منتخب الكلام في تفسير الأحلام، والصحيح أنه ليس له، وتوفي ١١٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٩/٢١٤)، ووفيات الأعيان، لابن خلكان(١/٤٥٣)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(٢٨٢٦٣)، والأعلام، للزركلي(٦/١٥٤).

(٤) أخرجه الدارمي في سننه، بابٌ في الحديث عن الثقات، (١/٣٩٨)، رقم ٤٣٨، وانظر: مقدمة صحيح الإمام مسلم (١/١٤)، ونسبه بعضهم للإمام مالك كما في سير أعلام النبلاء، للذهبي(٥/٣٤٣).

(٥) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي(١/٤٠٩).

إنَّ من بركة ملازمة العلماء والأخذ عنهم أن يتحصل الطالب على أجر حضور مجالس العلم، ومن ذلك أن رسول الله ﷺ قال:**(إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا[١]، قالوا: وما رياض الجنة؟ قال: حلق الذكر)**[٢]، ويدخل في حلق الذكر، مجالس العلم، التي يُتداول فيها العلم الشرعي ويُتذاكر؛ قال عبد الرحمن بن مهدي[٣]: "كان الرجلُ من أهل العلم، إذا لقي مَنْ هو فوقه في العلم، فهو يوم غنيمته، سأله وتعلَّم منه، وإذا لقي من هو دونه في العلم علَّمه، وتواضع له، وإذا لقي من هو مثله في العلم ذاكره ودارسه"[٤].

لقد أدرك هؤلاء الأجلاء أنَّ مجالسة العلماء تعكس على القلب صفاءً، وتُضفي عليه من الصلاح أنوارًا، وتثمر من العلم والعمل إعزازًا وفلاحًا، فتزيد من الإيمان، وتُقوِّي صلة الإنسان بربه ﷻ، قال ميمون بن مهران[٥]: "العلماء هم ضالَّتي في كل بلدةٍ، وهم بُغيتي، وجدتُ صلاح قلبي في مجالسة العلماء"[٦]؛ فمجالسةُ أهل الصلاح والاستقامة تنفي عن القلب صدأ الذنوب، ومجالسةُ ذوي المروءات تدلُّ على مكارم الأخلاق، ومجالسة العلماء تُزكِّي القلوب [٧]، وهي من أهم العوامل المؤثرة في المتعلم، وثباته على الحق، وانتمائه لمذهب السلف، وهذا ما حصل مع الإمام ابن القيم- رحمه الله-، حيث كاد أن يتأثر بأصحاب البدع والأهواء؛ وذلك أن "ابن القَيِّم كان قد عاش في بيئةٍ يسودها كثيرٌ من الفساد الديني والأخلاقي، وتنتشر فيها عاداتٌ اجتماعيةٌ مترديةٌ، وتروج فيها أفكارٌ ونحلٌ منحرفةٌ مع انتسابها زورًا للإسلام، وشاء الله ﷻ أن يشرح صدر ابن القيم للمنهج الحق، وأن يُريه الطريق المستقيم، وأن يُحبِّب إلى قلبه التمسك بالكتاب والسنة، دون سواهما، وكان من توفيق الله ﷻ

---

(١) "الرَّتع": الأكل والشرب رغدًا في الريف، يقال: خرجنا نرتع ونلعب، أي: ننعم ونلهو، وفي هذا الحديث: أراد برياض الجنة: ذكر الله، وشبه الخوض فيه بالرتع في الخِصْب، وهو كناية عن السعي في الاستزادة من العبادة والعلم، والإشارة إلى حلق الذكر بأنها رياض الجنة؛ بناءً على أن الإكثار من القيام بالعبادة، وطلب العلم، سبب في الحصول على رياض الجنة. انظر: لسان العرب، لابن منظور(١١٢/٨)، وتحفة الأحوذي، للمباركفورى، (٣٤٤/٩-٣٤٥).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، في أبواب الدعوات(٥٣٢/٥)، رقم ٣٥١٠، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٢٥٦٢.

(٣) عبد الرحمن بن مهدي بن حسان العنبري البصري اللؤلؤي، أبو سعيد، من كبار حفاظ الحديث، حدث ببغداد، ومولده ووفاته في البصرة، توفي سنة: (١٩٨هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٣٣٩/٣).

(٤) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، للرامهرمزي، ص٢٠٥.

(٥) ميمون بن مهران، أبو أيوب، فقيه من القضاة، نشأ بالكوفة، واستوطن الرَّقَّة، فكان عالم الجزيرة، وسيدها، واستعمله عمر بن عبد العزيز ﷺ على خراجها وقضائها، وكان ثقة في الحديث، كثير العبادة، توفي سنة: (١١٧هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٣٤٢/٧).

(٦) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٢٢١/١)، رقم (٢٣٩)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني (٨٥/٤).

(٧) انظر: روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لابن حبان، ص٢٣٣-٢٣٤.

أن هيأ له أستاذًا فاضلًا، وعلمًا شامخًا، وعالمًا مجاهدًا، وهو شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-، الذي كان سبقه إلى سلوك هذا السبيل، فكان له بعد توفيق الله خير القدوة، ونعم المُرشد"[١]، "ولازم ابن القيم شيخه إلى أن مات، فأخذ عنه علمًا جمًا، فصار فريدًا في بابه في فنونَ كثيرةٍ، مع كثرة الطلب ليلًا ونهارًا، وكثرة الابتهال"[٢]، وقد لازمه حضرًا وسفرًا وسجنًا؛ فأضحى من أبرز تلاميذه وأشهرهم، وكان سببًا في هدايته من مزالق المذاهب الفاسدة[٣]،"وهكذا كان لابن تيمية أثرٌ كبيرٌ؛ بل أكبر الأثر في حياة ابن القيم توجيهاً وتعليماً، وتربيةً وإرشادًا؛ فقد أخذ عنه علماً غزيراً، واستفاد منه منهجاً قويماً في حياته ودعوته"[٤].

وهذا ما أبَان عنه الإمام ابن القيم في قصيدته المشهورة بالنونية، التي قال فيها:

يا قومِ واللهِ العظيمِ نصيحةٌ ... من مُشفقٍ وأخٍ لكم مِعوانِ

جرَّبتُ هذا كلَّه ووقعتُ في ... تلك الشباك وكن ذا طيرانِ

حتى أتاح ليَ الإلهُ بفضله ... من ليس تجزيه يدِي ولسانِي

حبرٌ أتى من أرض حَرَّانَ[٥] ... فيا أهلًا بمن جاء من حرانِ

فالله يجزيه الذي هو أهلُه ... من جنة المأوى مع الرضوانِ

أخذتْ يداه يدي وسار فلم يَرِم[٦] ... حتى أراني مطلع الإيمان[٧]

ولذلك فإنَّ المتابعة مع الشيخ الثقة المُعلِّم وملازمتَه، من المُقوِّمات الأساسية لحصول العلم والفهم، ولله در القائل:

أخي لن تنال العلم إلا بستةٍ ... سأُنبيك عن تفصيلها ببيانِ

ذكاءٌ وحرصٌ واجتهادٌ وبلغةٌ ... وإرشادُ أستاذٍ وطولُ زمانِ[٨].

---

(١) ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها، لجمال السيد(١/١١٣).

(٢) البداية والنهاية، لابن كثير(١٤/٢٣٤).

(٣) الأثبات في مخطوطات الأئمة ص٢٣١-٢٣٢، بتصرف يسير.

(٤) ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها، لجمال السيد(١/١١٣-١١٤).

(٥) "حَرَّان": مدينة واقعة بشمال العراق، بالقرب من تركيا، بمنطقة الجزيرة بين دجلة والفرات، على طريق الموصل والشام، قد فتحت في عهد عمر بن الخطاب ﷺ سنة (١٨هـ). انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي(٢/٢٣٥-٢٣٦)، والروض المعطار في خبر الأقطار، للحميري، ص١٩١-١٩٢.

(٦) أصلها من: "رامَهُ يَريمُه رَيْمًا، أي بَرحَه، يقال: لا تَرِمْه، أي لا تبرحْه". الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، للفارابي(٥/١٩٣٩).

(٧) متن القصيدة النونية، لابن القيم، ص١٤٣.

(٨) ينسب هذا البيت لعلي بن أبي طالب، وينسب للإمام الشافعي، وينسب لإمام الحرمين الجويني، وينسب لغيرهم، انظر: طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي(٥/٢٠٨) .

وإذا جمع الطالب بين طريقة القراءة من كتب السلف، والأخذ عن الشيوخ الثقات، كان ذلك أكملَ وأتمَّ، ويضمن طالب العلم بذلك التزام فهم السلف، عن طريق قراءة كتبهم، والتتلمذِ والتعلمِ على يد من سار على نهجهم وطريقتهم(١).

٨- **التدرج في طلب العلم:** إنَّ التدرج في طلب العلم مثل صعود السلم، لا بدَّ للإنسان أن يتدرج في الصعود عليه؛ ولذلك لا نرى أحداً من العلماء يُنازع في أهمية مراعاة مبدأ التدرج في طلب العلم؛ لأن التدرج هو الوسيلة الناجحة لأخذ العلم وفهمه، والتدرج والتمهل ليس بدعاً من القول، وإنَّما هو مأخوذٌ من كتاب الله ﷻ؛ فقد قال الله ﷻ:﴿ **وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا** ﴾[الإسراء:١٠٦] ، فقوله:"على مُكثٍ"، يعني: على تمهلٍ(٢).

وقد بيَّن سبحانه أن التدرج في نزول القرآن، فيه تثبيتٌ للنبي ﷺ والمؤمنين معه، فقال ﷻ:﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا** ﴾[الفرقان:٣٢] .

ويُفهم التدرج في طلب العلم من حديث النبي ﷺ:**(سدِّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيءٌ من الدُلجة**(٣)**، والقصدَ القصدَ تبلغوا)**(٤)، أي: الزموا الوسط المعتدل في الأمور، لتبلغوا مقصدكم وبغيتكم.

وقال ابن عباس رضي الله عنه في تفسير قوله ﷻ:﴿ **وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ** ﴾[آل عمران:٧٩]، "أي كونوا: حلماء فقهاء، والرباني هو الذي يُربِّي الناس بصغار العلم قبل كباره"(٥)،"أي يبدأ بالقضايا الواضحة السهلة، قبل المسائل الدقيقة والكبيرة"(٦).

والتدرج سنةٌ عامةٌ في التعلُّم وفي غيره، و"من طلب العلم جملةً، فاته جملةً، وإنَّما يُدرك العلم حديثٌ وحديثان"(٧)، ولعلَّ هذا بعض الحكمة في نزول القرآن الكريم مفرقاً على مدى سنوات البعثة.

---

(١) انظر: الموافقات، للشاطبي(١/١٤٥).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/١١٦).

(٣) الدُلجة بضم المهملة وسكون اللام ويجوز فتحها، سير الليل، يقال: سار دلجة من الليل أي ساعة، وهي السير آخر الليل. انظر: فتح الباري، لابن حجر(١١/٢٩٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، حديث رقم ٦٤٦٣.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب العلم قبل القول والعمل(١/٢٤).

(٦) انظر: فتح الباري، لابن حجر(١/ ١٩٥).

(٧) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي(١/٢٣٢)، رقم٤٥٠.

وقد قرَّر المنهج النبوي هذه الطريقة في التعليم، فعن جندب بن عبد الله[1]ﷺ، قال:"كنَّا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاورة[2]، فتعلَّمنا الإيمان قبل أن نتعلَّم القرآن، ثم تعلَّمنا القرآن؛ فازددنا به إيماناً"[3]، وقال ابن عمرﷺ:" لقد عشنا بُرهةً من دهرنا وإنَّ أحدَنا يُؤتى الإيمان قبل القرآن، وتنزل السورة على محمدٍ ﷺ، فيتعلمُ حلالَها وحرامها، وما ينبغي أن يُوقف عنده فيها كما تَعلَّمون أنتم القرآن، ثم قال: لقد رأيت رجالاً يُؤتى أحدُهم القرآن، فيقرأ ما بين فاتحته إلى خاتمته ما يدري ما آمِرُه ولا زاجره، ولا ما ينبغي أن يُوقف عنده منه، ينثره نثر الدَّقل[4]"[5].

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ، قال:" كنَّا إذا تعلمنا من النبي ﷺ عشرَ آياتٍ من القرآن، لم نتعلم من العشر التي نزلت بعدها، حتى نعلم ما فيه[6]، ف"تعلَّم عمرُ بن الخطاب ﷺ سورة البقرة في اثنتي عشرة سنةً، فلما ختمها نحر جزوراً"[7]، granted وورد عن عبد الله بن عمرﷺ، "أنَّه مكث على سورة البقرة ثمان سنين يتعلمها"[8].

ولذلك يجب على طالب العلم ألا يأخذ نفسه بما لا يطيقه، بل يقتصر على اليسير الذي يضبطه، ويُحكم حفظه ويُتقنه، قال سفيان الثوري- رحمه الله-: "كنت آتي الأعمش[9]، فأسمع أربعة أحاديث خمسة، ثم أنصرف، كراهة أن تكثُر وتَفْلِت"[10].

---

(١) جندب بن عبد اللَّه بن سفيان البجلي ثم العلقي، أبو عبد اللَّه، وقد ينسب إلى جده فيقال: جندب بن سفيان، سكن الكوفة ثم البصرة، وروى عنه أهل الكوفة والبصرة والشام، ويقال له جندب الخير، وجندب الفاروق، وعاش إلى حدود سنة ٧٠هـ. انظر: الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر(٦١٣/١)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي(١٧٥/٣).

(٢) حزاورة: جمع الحزور وهو الغلام إذا اشتد وقوي وحزم، أو الذي قارب البلوغ. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٣٨٠/١).

(٣) أخرجه ابن ماجه، في سننه، في افتتاح الكتاب، باب في الإيمان، (٢٣/١)، رقم ٦١، وصححه الألباني في صحيح وضعيف سنن ابن ماجه، برقم ٦١.

(٤) الدَّقَل بفتحتين، وهو رديء التمر فإنه لرداءته لا يُحفظ ويُلقى منثوراً.انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري(١٧٧/٣).

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، (٩١/١)، رقم ١٠١، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين، ولا أعرف له علّة، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، والبيهقي في السنن الكبرى (١٧٠/٣)، رقم ٥٢٩٠.

(٦) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٧٤٣/١)، رقم ٢٠٤٧، وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، والبيهقي في السنن الكبرى (١٧٠/٣)، رقم ٥٢٨٩.

(٧) شعب الإيمان، للبيهقي(٣٤٦/٣)، رقم ١٨٠٥.

(٨) المصدر السابق(٣٤٥/٣)، رقم ١٨٠٣.

(٩) سليمان بن مهران الأسدي بالولاء، أبو محمد، الملقب بالاعمش، تابعي، مشهور، منشأه ووفاته في الكوفة، كان عالماً بالقرآن والحديث والفرائض، وتوفي ١٤٨هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(١٣٥/٣).

(١٠) الجامع لأخلاق الرواوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي(٢٣٢/١)، رقم ٤٤٨ .

وقال شعبة[١]:" كنت آتي قتادة فأسأله عن حديثين، فيحدثَني، ثم يقول: أزيدك؟ فأقول: لا حتى أحفظهما وأتقنهما"[٢]، وقال الزهري:"إنَّ هذا العلم إنْ أخذته بالمكابرة له غلبك، ولكن خُذه مع الأيام والليالي أخذاً رفيقاً؛ تظفر به"[٣]، ويقول الماوردي[٤]:"واعلم أنَّ للعلوم أوائل تُؤدِّي إلى أواخرها، ومداخل تُفضي إلى حقائقها، فليبتدئ طالب العلم بأوائلها؛ لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها لتفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر، ولا يعرف الحقيقة؛ لأنَّ البناء على غير أُسٍّ لا يُبنى، والثمر من غير غرسٍ لا يُجنى"[٥]، وقد أشار الإمام النووي لهذا المسلك التربوي، فقال: "وينبغي أن يُؤدَّب المتعلِم على التدريج بالآداب السُّنية، والشِّيم المرضية"[٦]، وقال ابن خلدون[٧]:" اعلم أنّ تلقين العلوم للمتعلّمين إنّما يكون مفيداً، إذا كان على التّدريج شيئاً فشيئاً، وقليلاً قليلاً"[٨].

والسبب في وجوب التدرج في طلب العلم أنَّ هذا العلم متينٌ، ويحتاج إلى صبرٍ ومجاهدةٍ في تحصيله، كما قال النبي ﷺ:**(إن هذا الدين متينٌ، فأوغل فيه برفق، ولا تُبغِّض إلى نفسك عبادة الله، فإن المُنبَتَّ[٩] لا أرضاً قطع، ولا ظهراً أبقى)**[١٠].

---

(١) شعبة بن الحجاج بن الورد العتكيّ الأزدي، مولاهم، الواسطي ثم البصري، أبو بسطام: من أئمة رجال الحديث، حفظا ودراية وتثبتا، قال الشافعيّ: لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق، وكان عالما بالأدب والشعر، له كتاب (الغرائب) في الحديث، وتوفي ١٦٠هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٣٣٨/٤)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(١٤٤/٧)، والأعلام، للزركلي(١٦٤/٣).

(٢) الجامع لأخلاق الرواوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي(٢٣٢/١)، رقم ٤٤٩ .

(٣) المرجع السابق(٢٣٢/١)، رقم٤٥٢.

(٤) علي بن محمد حبيب، أبو الحسن الماوردي، أقضى فضاة عصره، من المعلماء الباحثين، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة، ولد في البصرة، وانتقل إلى بغداد، وولي القضاء في بلدان كثيرة، نسبته إلى بيع ماء الورد، ووفاته ببغداد، من كتبه: أدب الدنيا والدين، والأحكام السلطانية، والحاوي في فقه الشافعية، وأعلام النبوة، وتوفي ٤٥٠هـ. انظر: الوفيات، لابن قنفذ(٣٢٦/١)، وشذرات الذهب،لأبي الفلاح الحنبلي(٢٨٥/٣)، والأعلام، للزركلي(٣٢٧/٤).

(٥) أدب الدنيا والدين، للماوردي(٤٨/١).

(٦) التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي(٤١/١).

(٧) عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، وليّ الدين الحضرميّ الإشبيلي، الفيلسوف المؤرخ، العالم الاجتماعي البحاثة، اشتهر بكتابه: العبر وديوان المبتدإ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر، والمقدمة وهي تعد من أصول علم الاجتماع، وتوفي ٨٠٨هـ. انظر: الضوء اللامع، للسخاوي(١٤٥/٤)، والأعلام، للزركلي(٣٣٠/٣).

(٨) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، لابن خلدون(٧٣٤/١).

(٩) المُنْبَتَّ: أي الذي عطب مركوبه من شدة السير، مأخوذٌ من البت وهو القطع، أي: صار منقطعاً لم يصل إلى مقصوده، وفقد مركوبه الذي كان يوصله لو رفق به. انظر: فتح الباري، لابن حجر(٢٩٧/١١).

(١٠) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك، (٣٤٦/٢٠)، رقم ١٣٠٥٢، والحديث حسن بشواهده. انظر: مسند الإمام أحمد، تحقيق الأرنؤوط(٣٤٧/٢٠)، وضعفه الأباني في ضعيف الجامع الصغير برقم ٢٠٢٢.

فالتدرج في طلب العلم أمرٌ لا بُدَّ منه؛ ليرتقي طالب العلم سُلَّم الكمال بخطواتٍ ثابتة؛ فينفع نفسه، وينتفع به غيره؛ ولهذا نجد أهل العلم في كل زمانٍ كثيراً ما ينصحون طلابهم بالتدرج وفق منهجٍ علميٍ صحيحٍ واضحٍ؛ لأن الكثيرين في هذه الأيام قد افتقدوا هدي وسمت أهل العلم في العلم والعمل؛ لأنهم لم يسلكوا طريق السلف في التدرج في طلب العلم، كما أنهم ابتُلوا أيضاً بالعجلة والتسرع وقلة الفهم، فنتج عن ذلك سرعة الملل والضجر والنكوص عن طريق التعلم، والفوضى في طلب العلم المنتشرة بين الأكثرين اليوم، حيث إنَّ الكثير يأخذ علمه متخبطاً بين الكتب، فقد يروق له هذا الكتاب تارةً؛ فيأخذ منه صفحةً أو صفحتين، ثم ينتقل إلى غيره، ثم إلى ثالثٍ وإلى رابعٍ، وربما يمكث زماناً طويلاً يتعلم بهذه الطريقة؛ لكنه ما حصَّل علماً ولا أصولاً، ولا وقف على أرضٍ صلبةٍ، ثم فجأةً يتصدر الناس، فيأتي بالعجائب والغرائب، ولو أنَّه جلس بين أيدي العلماء، وصبَّر نفسه وربَّاها وعوَّدها على أن تتعلم ممن سبقها، وأن تتعلم ما تحبه وما تكرهه، وما تشتهيه وما لا تشتهيه؛ لنال بفضل الله العلم والفهم[1].

وينتج عن عدم التدرج في طلب العلم، واستعجال قطف الثمرة، التصدر قبل النضوج والاستعداد، فيُسأل ويُستفتى المتصدِّر قبل أوانه في مسائل كثيرةٍ، فيتحرج من قوله: لا أعلم؛ فيفتي بغير علم، فيَضِل هو، ويُضلَّ غيره، وقد قال رسول الله ﷺ:(**إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالماً، اتخذ الناس رءوساً جهالاً، فسُئلوا فأفتوا بغير علمٍ، فضلوا وأضلوا)**[2].

وقال عمر بن الخطاب ﷺ: "تَفَقَّهُوا قَبْلَ أَنْ تُسَوَّدُوا[3]"[4]، وقال الشافعي- رحمه الله-: "تفقَّه قبل أن ترأس، فإذا رأست فلا سبيل إلى التفقه"[5]، وقال أيضاً:" إذا تصدر الحدث؛ فاته علمٌ كثيرٌ"[6].

وكثيرٌ من الأمراض الموجودة بين طلبة العلم اليوم هي نتيجة عدم مراعاة التدرج، فتراهم يقفزون إلى أعلى الدرجات، دون أن يبدأوا بالأساسات والمقدمات، فتوجد هذه الانفصامات العجيبة، والفتاوى الغريبة.

---

(١) انظر: درس للشيخ محمد صالح المنجد بعنوان التدرج في طلب العلم، قام بتفريغه موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net ، وموجود على المكتبة الشاملة ضمن دروس الشيخ المنجد برقم (١٥/٢٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب كيف يرفع العلم، حديث رقم ١٠٠.

(٣) أي: تُجعلوا سادة، ومعناه تفقهوا قبل أن تصيروا سادة فتمنعكم الأنفة عن الأخذ عمن هو دونكم فتبقوا جهالا؛ لأن الرئيس قد يمنعه الكبر والاحتشام أن يجلس مجلس المتعلمين. انظر: فتح الباري، لابن حجر(١/١٦٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الاغتباط في العلم والحكمة، (١/٢٥)، وأخرجه الدارمي في سننه، بابٌ في من هاب العلم، (١/٣١٤)، رقم ٢٥٦.

(٥) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي(٢/١٥٢).

(٦) فتح الباري، لابن حجر(١/١٦٦).

ولجميع ما سبق لا بدَّ من المنهجية والتدرج في طلب العلم؛ ليستطيع طالب العلم أن يفهم المسائل على أصولها الصحيحة، وينقلها للأمَّة بعد ذلك بفهمٍ صحيح، أمَّا أن يهجم الإنسان على العلم، يريد أخذه بجميع أطرافه فلا يُمكنه ذلك، وسيسقط ويفشل، والذي ضرَّ الآن كثيراً ممن يتصدر لطلب العلم،أنه يخوض في المسائل الكبيرة قبل أن يتقن بدهيات المسائل، فتجده يبدأ بباب الجرح والتجريح، ويبدأ في تصنيف الناس، ولا يحسن أن يقرأ سورةً من القرآن، وهذه بداية شؤمٍ، وتجده يفتي في مسألةٍ من المسائل، لو عُرضت على عمر بن الخطاب ﷺ، لجمع لها أهل بدرٍ واستشارهم، ولو عُرضت على عالمٍ من السلف، لرعدت فرائصه من خشية الله، والله المستعان[١].

٩- التزام فهم السلف: إنَّ من المهم والضروري لطالب العلم أن يحرص على الفهم الصحيح، فإنَّ حُسن الفهم من أهم أُسس طلب العلم، قال الخطيب البغدادي- رحمه الله-:"العلم هو الفهم والدراية، وليس بالإكثار والتوسع في الرواية"[٢]، وقال ابن عبد البر- رحمه الله-: "والذي عليه جماعة فقهاء المسلمين وعلمائهم، ذمُّ الإكثار دون تفقهٍ ولا تدبرٍ"[٣]؛ ولذلك يجب على طالب العلم والفهم، أن يبنيَ طلبه للعلم على أصول، ولا يتخبط تائهاً، فمن لم يتقن الأصول حُرم الوصول.

وتعتبر النصوص الشرعية من كتاب الله ﷻ، وما صحَّ من سنة رسول الله ﷺ مفزع كلِّ متكلمٍ في الأمور الشرعية؛ فهما عماد كلِّ متحدثٍ ومؤلفٍ وكاتبٍ في النواحي الشرعية؛ ولكنَّ منشأ الخلاف أنَّ الاستدلال بهذه النصوص الشرعية تباينت فيه الآراء، واختلفت فيه أنظار المتحدثين؛ تبعاً لمقاصد كل فريقٍ، وهذا الخطأ في الاستدلال هو ما سبب وجود الفرق المنحرفة في تاريخ الإسلام؛ لأنَّه ما من فرقةٍ إلَّا وتستدلُّ لما تذهب إليه بنصوص الشريعة، واجتزاء ما يوافق أهواءها.

ولذلك فإنَّ فالفهم الصحيح للنص الشرعي لا يمكن التوصُّل إليه بمعزلٍ عن القواعد التي وضعها علماء السلف، وما أجمعوا عليه من طرقٍ لاستنباط المعاني الصحيحة من النصوص الشرعية، وخاصةً الصحابة ﷺ فهم قد شاهدوا التنزيل، وأخذوا مباشرةً من رسول الله ﷺ، وعرفوا من سنته العملية ما يُرشد لفهم النصوص، وكذا التابعين وأتباعهم من القرون المفضَّلة؛ فلديهم من فصاحة اللسان، وسلامة الفطرة، ما يُؤهلهم لإنزال النصوص منازلها التي تليق بها[٤]، ومتى ما كان المتكلمُ يُسفِّه فهوم السلف، أو طريقتهم في الاستنباط، ؛ فهذا إنَّما أُوتي من جهله؛ وهذه علامة خذلانٍ له[٥]،

---

(١) انظر: درس صوتي للشيخ محمد حسان بعنوان: سوء الفهم عن الله ورسوله، قام بتفريغه موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net، وموجود على المكتبة الشاملة ضمن دروس الشيخ برقم (٨/٥٤).

(٢) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي(٢/١٧٤).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٢/١٠١٢) .

(٤) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٧/٣٩٠).

(٥) انظر: المرجع السابق(٤/١٥٥).

فالسبيل الوحيد للتخلص من الاضطراب والتقلب في الفهم، يتمثل في لزوم طريق السلف، والسير على نهجهم.

فمن أراد السعادة والنجاة فعليه بلزوم طريق السلف؛ فإنَّ الإنسان كلَّما أخذ من الأقربين عصرًا كان اعتقاده أسلم وأحكم، وهذا الذي ميَّز الصحابة وفضَّلهم عن غيرهم، ولا شك أنَّ هذه الأفضلية التي اختصُّوا بها، والتي لا يمكن أن ينال فضلها أحدٌ ممن جاء بعدهم، تجعل لهم منزلةً في فهم النصوص وإدراكها؛ ولذلك كان السلف يفتخرون في أنَّ دينهم أخذوه عن التابعين عن الصحابة[١]، فهذا شريك بن عبد الله[٢] لما قيل له: إنَّ قوماً من المعتزلة ينكرون هذه الأحاديث، أي: أحاديث النزول، حدَّث بنحو عشرة أحاديث في هذا، وقال: "أما نحن فقد أخذنا ديننا هذا عن التابعين عن أصحاب رسول الله ﷺ فهم عمَّن أخذوا؟"[٣].

ولذلك لا خير في عقيدةٍ تُخالف عقيدة السلف، ولا خير في منهجٍ لا يُوقِّرها، ولا يُسلِم نفسه إليها، وإلا فهو جانٍ على نفسه، وعلى من تابعه؛ لأنَّ طريقة السلف هي "الوصايا الموروثة المتبوعة، والآثار المحفوظة المنقولة، وطرائق الحق المسلوكة، والدلائل اللائحة المشهورة، والحجج الباهرة المنصورة، التي عملت عليها الصحابة والتابعون، ومن بعدهم من خاصة الناس وعامتهم من المسلمين، واعتقدوها حجةً فيما بينهم وبين الله رب العالمين، ثم من اقتدى بهم من الأئمة المهتدين، واقتفى آثارهم من المتبعين، واجتهد في سلوك سبيل المتقين، وكان مع الذين اتقوا والذين هم محسنون"[٤].

ويدخل في التزام فهم السلف، الاطِّلاع على كتب السلف ومن سلك طريقهم، فهي تمثل إحدى صور التواصل مع العلماء، والتأثر بعقيدتهم ومنهجهم في الفهم، وهي حلقة وصلٍ بين طلاب العلم وبين علماء السلف، وإنَّ من أهم الكتب المعتبرة في ذلك، والتي كان لها الأثر الكبير في رجوع المخالفين لمذهب السلف، كتب شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-، فلقد وضع الله ﷻ له قبولًا بين الناس، وصارت كتبه منارات لأهل العلم، قال أبو حفص البزار[٥]: "حدثني غيرُ واحدٍ من العلماء

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(١/٦٥).

(٢) شرِيك بن عبد الله بن الحارث النَّخعي، أبو عبد الله، عالم بالحديث، فقيه، اشتهر بقوة ذكائه وسرعة بديهته، استقضاه المنصور العباسي على الكوفة، ثم عزله، وأعاده المهدي، فعزله موسى الهادي، وكان عادلًا في قضائه، مولده في بخارى، ووفاته بالكوفة، سنة: (١٧٧هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٣/١٦٣).

(٣) ايضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، لبدر الدين الحموي المتوفى٧٣٣هـ، (١/٣٦).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، للالكائي(١/٧-٨).

(٥) عمر بن علي بن موسى بن الخليل البغدادي، الأزجي، البزار، الفقيه المحدث، سراج الدين، أبو حفص، كان حسن القراءة للقرآن والحديث، ذا عبادة وتهجد، وصنف كثيرًا في الحديث وعلومه، وفي الفقه والرقائق، توفي سنة: (٧٤٩هـ). انظر: ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي(٥/١٤٦-١٤٨).

الفضلاء، أنَّ كلًا منهم لم يزل حائرًا في تجاذب أقوال الأصوليين، ومعقولاتهم، وأنه لم يستقرْ في قلبه منها قولٌ، ولم يبنْ له من مضمونها حقٌ؛ بل رآها كلَّها موقعةً في الحيرة والتضليل، وجلَّها مُمعنٌ بتكلف الأدلة والتعليل، وأنَّه كان خائفاً على نفسه من الوقوع بسببها في التشكيك والتعطيل، حتى مَنَّ الله ﷻ عليه بمطالعته مؤلفات الإمام أحمد ابن تيمية شيخ الإسلام، وما أورده من النقليات والعقليات في هذا النظام، فما هو إلا أن وقف عليها، وفهمها، فرآها موافقةً للعقل السليم، وعلمها حتى انجلى ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من الظلام، وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك، وظفر بالمُرام"[١].

فيا للعجب من أناسٍ تركوا منهج السلف، وعدلوا عنه إلى مناهج أخرى، ثمَّ ما أجمل السير على منهج السلف الصالح، القائم على التسليم والانقياد له ﷻ، يقول الطحاوي- رحمه الله-: "ولا تثبتُ قدم الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام، فمن رام علم ما حُظر عنه علمُه، ولم يقنع بالتسليم فهمُه، حجبه مرامُه[٢] عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان، فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً، تائهاً، شاكاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً مكذباً"[٣].

وقد ذكر الباحث في الفصل السابق الكثير من الأدلة والشواهد على ضرورة التزام فهم السلف، وأهمية وحُجيَّة فهمهم، فارجع إليه في مكانه، ففيه كفايةٌ عن التكرار.

١٠- العمل بالعلم: إنَّ كلَّ علمٍ لا يعمل به صاحبه هو حجةٌ ووبالٌ عليه؛ بل لا يُوصف العلم بكونه نافعًا إلا إذا أثمر العمل؛ ولذلك كان ﷺ يستعيذ بالله من العلم الذي لا ينفع صاحبه، فكان يقول:**(اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع، ومن قلبٍ لا يخشع، ومن نفسٍ لا تشبع، ومن دعوةٍ لا يُستجاب لها)**[٤]، ويقول عليٌّ ﷺ:"هتف العلم بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل"[٥]، ويقول الفضيل بن عياض[٦]: "لا يزال العالم جاهلاً بما علم، حتى يعمل به، فإذا عمل به كان عالماً"[٧]،

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للبزّار، ص٣٢-٣٣.

(٢) "مرامه": أصله من "رَوَمَ"، وتعني: مطلبه ومراده. انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس(٤٦٢/٢).

(٣) تخريج العقيدة الطحاوية (متن الطحاوية)، ص٤٣، فقرة رقم: (٣٦).

(٤) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب العلم، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل، رقم ٢٧٢٢.

(٥) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي(٣٥/١).

(٦) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي، أبو علي، شيخ الحرم المكيّ، من أكابر العباد الصلحاء، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلقٌ كثير منهم الإمام الشافعيّ، ولد في سمرقند، وسكن مكة وتوفي بها ١٨٧هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٢٢٥/١)، وتهذيب الكمال، للمزي(٢٩٤/٨)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي(١٤٣/٢)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(٨٤/٨)، والأعلام، للزركلي(١٥٣/٣).

(٧) اقتضاء العلم العمل، للخطيب البغدادي(٣٥/١).

وقال الشعبي[1]:" كُنَّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، وكنا نستعين على طلبه بالصوم"[2]، وقال الإمام أحمد: "ما كتبتُ حديثاً عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم إلا وقد عملتُ به، حتى مرّ بيَ الحديث: أن النبيَّ -صلى الله عليه وعلى آله وسلم- احتجم وأعطى أبا طيبة الحجّام ديناراً، فاحتجمتُ وأعطيتُ الحجّام ديناراً"[3]، وقال عمرو بن قيسٍ المُلائي[4]: "إذا سمعت بالخير فاعمل به، ولو مرةً واحدة"[5]، وقال السيوطي:"واعلم يا أخي أنَّ كلَّ من فاته العلم تخبط؛ فإنْ حصل له العلم، وفاته العمل كان أشدَّ تخبطاً"[6]، وقد أفرد الإمام الحافظ الخطيب البغدادي- رحمه الله- كتاباً بعنوان "اقتضاء العلم العمل"، كلُّه يتحدث عن هذا الموضوع.

يقول الإلبيري[7] في قصيدته التي يوجّه فيها النصيحة لابنه، بكيفية طلب العلم:

إذا ما لم يُفِدْك العلم خيرًا ... فخيرٌ منه أن لو قد جهلتا

وإن ألقاك فهمُك في مَهاوٍ ... فليتك ثم ليتك ما فهمتا[8].

فلا بُدَّ من القول والعمل وإخلاص النية فيهما؛ ليكون العلم نافعاً، والعمل صحيحاً، ولا بُدَّ من اتِّباع السنة في أي عملٍ يتعبد به العبد لربه جلَّ وعلا، يقول الحسن البصري[9]- رحمه الله-:

---

(١) عامر بن شراحيل بن عبد ذي كبار، الشعبي الحُميري، أبو عمرو، من التابعين، ومن رجال الحديث الثقات، يُضرب المثل بحفظه، استقضاه عمر بن عبد العزيز، وكان فقيهاً، شاعراً، وتوفي بالكوفة ١٠٣هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٥/٦٥)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(٤/٣١٠)، والأعلام، للزركلي(٣/٢٥١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٢/١١).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي، للخطيب البغدادي(١/١٤٤ رقم ١٨٤)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي(١١/٢١٣).

(٤) عمرو بن قيس الملائي الكوفي من كبار الكوفيين، متعبد، وكان سفيان يأتيه يسلم عليه يتبرك به، وكان يبيع الملاء، قال: وجدنا أنفع الحديث لنا ما نفعنا في أمر أخرانا من قال كذا فله كذا، كَانَ سُفْيَان إذا ذكر عَمْرو بْن قيس قَالَ: حسبك بِهِ شيخا. انظر: تهذيب الكمال، للمزي(٢٢/٢٠٠)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي(٦/٢٥٠).

(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني(٥/١٠٢).

(٦) حقيقة السنة والبدعة، للسيوطي(١/٩٨).

(٧) إبراهيم بن مسعود بن سعيد، أبو إسحاق التُّجيبي الإلبيري، شاعر أندلسي، أصله من أهل حصن العقاب، اشتُهر بغرناطة وأنكر على ملكها ابن نغزلة (اليهودي)، فنُفي إلى البيرة، وقال شعراً في ذلك فثارت صنهاجة على اليهودي وقتلوه، له ديوان شعر مطبوع معروف بديوان الإلبيري، وتوفي ٤٦٠هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(١/٧٣).

(٨) ديوان أبي إسحاق الإلبيري(١/٢٧).

(٩) الحسن بن يسار البصري، أبو سعيد، تابعي، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة في زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة، وشبَّ في كنف علي بن أبي طالب، وسكن البصرة، وعظمت هيبته في القلوب فكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم، لا يخاف في الحق لومة، أخباره كثيرة، وله كلمات سائرة وكتاب في فضائل مكة، وتوفي بالبصرة١١٠هـ. انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي(١/٢٤٥)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(٢/١٣١)، والأعلام، للزركلي(٢/٢٢٦).

"لا يصحُّ القول إلا بعمل، ولا يصحُّ قولٌ وعملٌ إلا بنية، ولا يصح قولٌ وعملٌ ونيةٌ إلا بالسنة"[١].

ومن بركة العمل بالعلم أن يُرزق صاحبه زيادة العلم والفهم من الله ﷻ، " فمن عمل بما علم، رزقه الله علم ما لم يعلم"[٢]، ولزوم العمل الصالح بعد تحصيل العلم النافع، يورث صاحبه نوراً في قلبه، يفتح الله عليه فيه من بركاته وفتوحاته، فيُؤتى فهم المقربين والصالحين، ويزيده الله هداية وتوفيقاً كما قال ﷻ: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾[محمد:١٧]، وقال ﷻ: ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾[مريم:٧٦]، فكلما عمل الإنسان بعلمه زاده الله حفظاً وفهماً.

١١- الأدب والتواضع: "إنَّ من أهم ما يبادر به اللبيبُ في شبابه، ويدئبُ نفسَه في تحصيله واكتسابه، حسنُ الأدب الذي شهد الشرعُ والعقلُ بفضله، واتفقت الآراء والألسنة على شكر أهله، وإنَّ أحقَّ الناس بهذه الخصلة الجميلة، وأولاهم بحيازة هذه المرتبة الجليلة، أهلُ العلم الذين جلوا به ذروة المجد والسناء، وأحرزوا به قصبات السبق إلى وراثة الأنبياء؛ لِعِلْمِهم بمكارم أخلاق النبي ﷺ وآدابه، وحسن سيرة الأئمة الأطهار من أهل بيته وأصحابه، وبما كان عليه أئمة علماء السلف، واقتدى بهديهم فيه مشايخ الخلف"[٣].

ويصل طالب العلم إلى هذه المنزلة بترويض النفس على محاسن الأخلاق، وفضائل الأقوال والأفعال التي استحسنها الشرع، وأيدها العقل، واستعمال ما يُحمد قولاً وفعلاً[٤].

وما طُلب العلم بشئٍ مثل الأدب، قال سفيان الثوري- رحمه الله-:" كان الرجل إذا أراد أن يكتب الحديث تأدَّب وتعبَّد قبل ذلك بعشرين سنة"[٥].

والأدب هو مفتاح الفهم والتوفيق، "فبالأدب يُفهم العلم، وبالعلم يصحُّ العمل، وبالعمل تُنال الحكمة"[٦]، قال أحد السلف: "علمٌ بلا أدب، كنارٍ بلا حطب، وأدبٌ بلا علم، كروحٍ بلا جسم"[٧].

وحاجةُ طالب العلم إلى التواضع والأدب أشدُّ من حاجته إلى العلم نفسه، قال عبد الله بن المبارك- رحمه الله-:"نحن إلى قليلٍ من الأدب أحوجُ منا إلى كثيرٍ من العلم"[٨]، وقال أيضاً:" كاد

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(٦٣/١).

(٢) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني(١٦٣/٦).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، لابن جماعة(٦/١). بتصرف يسير

(٤) انظر تعليق د. مصطفى ديب البغا على كتاب الأدب في صحيح البخاري (٢/٨).

(٥) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني(٣٦١/٦).

(٦) المرجع السابق(٢٣٩/١٠).

(٧) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي(٨٠/١).

(٨) المعجم، لابن المقرئ(٢٦٨/١).

الأدب أن يكون ثلثي الدين"[١]، بل لقد قال ابن القيم- رحمه الله-:" الأدب هو الدينُ كلُّه"[٢]؛ لأنَّ كلَّ عبادةٍ وعلمٍ يتقرب به العبد لربه ﷻ، لا بدَّ لهما من أدبٍ يكون مقدمةً بين يدي هذه العبادة ويلازمُها.

ولقد أوصى الله ﷻ عباده بالأدب والتواضع، فقال ﷻ:﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [الحجر:٨٨]، وكذلك أوصى النبي ﷺ بالأدب والتواضع، وأوضﷺح أنَّ فيه الرفعة والمنزلة العالية، قالﷺ:**(إنَّ الله أوحى إليَّ أنْ تواضعوا؛ حتى لا يبغي أحدٌ على أحدٍ، ولا يفخر أحدٌ على أحد)**[٣]، وقالﷺ أيضاً:**(من تواضع لله رفعه الله)**[٤].

إنَّ طلب العلم يحتاج إلى تواضعٍ مهما وصل الإنسان في المنزلة، فعن ابن عباسٍ ﷺ قال:"إنَّه كان يبلغُني الحديث عن الرجل، فآتي بابه وهو قائلٌ، فأتوسد ردائي على بابه، يسفي الريح عليَّ من التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ﷺ ما جاء بك؟، هلَّا أرسلتَ إلي فآتيك؟، فأقول: لا، أنا أحقُّ أن آتيك، قال: فأسألُه عن الحديث"[٥].

وهذا الإمام الشافعي- رحمه الله- يقول:" رأيتُ من مالك بن أنس ما رأيتُ من هيبته وإجلاله للعلم، حتى ربَّما كنتُ أكون في مجلسه، وأريد أن أصفح الورقة فأصفحها صفحاً رقيقاً هيبةً له؛ لئلا يسمع وقعها"[٦].

وإذا لم يراع طالب العلم التواضع والأدب في طلبه للعلم، حُرم العلم والفهم، وكان كحاطب ليلٍ لا يدري ما يجمع، قال مجاهد[٧]- رحمه الله-: "لا يتعلّم العلم مستحيٍ، ولا مستكبر"[٨].

وقال ابن القيم- رحمه الله-:" وأدبُ المرءِ عُنوانُ سعادته وفلاحه، وقِلَّةُ أدبه عنوانُ شقاوته وبواره، فما استُجلب خيرُ الدنيا والآخرة بمثل الأدب، ولا استُجلب حرمانُهما بمثل قلة الأدب، وتأمل أحوال كلَّ شقيٍ ومغترٍ ومُدبِرٍ، تجدُ أنَّ قلة الأدب هي التي ساقته إلى الحرمان"[٩].

---

(١) صفة الصفوة، لابن الجوزي(٣٣٠/٢).

(٢) مدارج السالكين، لابن القيم(٣٦٣/٢).

(٣) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥.

(٤) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (١٧٢/٨)، رقم ٨٣٠٧، وصححه الألباني في الصحيحة رقم ٢٣٢٨.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (١٨٨/١)، رقم ٣٦٣، وقال: صحيحٌ على شرط البخاري.

(٦) تاريخ دمشق، لابن عساكر(٢٩٣/١٤).

(٧) مجاهد بن جبر، أبو الحجاج المكيّ، مولى بني مخزوم، تابعيٌ، مفسرٌ، قال الذهبي: شيخ القراء والمفسرين، أخذ التفسير عن ابن عباس، تنقل بين البلدان، واستقرَّ في الكوفة، وله كتابٌ في التفسير، ويقال: أنه مات وهو ساجد ١٠٤هـ. انظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي(١١٧/٢)، وميزان الاعتدال، للذهبي(٩/٣)، والأعلام، للزركلي(٢٧٨/٥).

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحياء في العلم (٣٨/١).

(٩) مدارج السالكين، لابن القيم(٣٦٨/٢).

فعلى طالب العلم أن يدرك بأنَّه مهما بلغ من العلم، فإنَّ فوقه من هو أعلم منه، قال ﷻ: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[يوسف:٧٦]، وعلى طالب العلم ومريد الفهم أيضاً أن يلزم التواضع مع الناس عامةً، ومع أهل العلم خاصةً، ويجاهد نفسه عن الاستشراف لكبرياءٍ، أو غطرسةٍ، أو حُبِّ ظهورٍ، أو عُجبٍ، ونحو ذلك من آفات العلم القاتلة له، المذهبة لهيبته، المطفئة لنوره.

ومن الأدب الذي ينبغي أن يلتزم به طالب العلم ومبتغ الفهم، إنصافُ الخلق، وإنْ كانوا مخالفين له في الرأي، وعدم هضمهم حقَّهم ومكانتَهم، وعدم تتبع عوراتهم، وهفواتهم، وزلاتهم، وسقطاتهم، فقد قال ﷺ:(**يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته**)[١]، فإذا ظهر هذا وتبين، علمنا أن تصيُّد الأخطاء، وتتبع العثرات، والبحث عن الهفوات، مع التغافل عن الحسنات، دليلٌ على عدم الأدب وفساد القصد وسوء الطوية، ورحم الله الشعبي إذ يقول: "لو أصبتُ تسعاً وتسعين، وأخطأتُ واحدةً، لأخذوا الواحدة وتركوا التسعةَ والتسعين!"[٢].

وقد أكد السلف الصالح على أهمية هذا التوازن، وضرورة العدل، وسطَّروا لنا أروع الأمثلة في هذا الباب، وبيَّنوا أنَّ من كثُر خيره وانتشر، يُعفى عن قليل خطئه، ومن أقوالهم الجميلة في ذلك، قول سعيد بن المسيب[٣]- رحمه الله-:" ليس من شريفٍ ولا عالمٍ ولا ذي سلطانٍ، إلا وفيه عيبٌ، ولكنْ من الناس من لا تُذكر عيوبُه، من كان فضلُه أكثرَ من نقصه، وُهِب نقصُه لفضله"[٤]، ويقول ابن القيم: "وكيف يُعصم من الخطأ من خُلق ظلوماً جهولاً؟، لكن من عُدَّت غلطاتُه، أقربُ إلى الصواب ممن عُدَّت إصاباته"[٥].

وقد أمر الله ﷻ بالإنصاف وألَّا يكون البغض مانعاً من الإنصاف والعدل، فقال ﷻ:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لله شُهَدَاءَ بِالقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة:٨].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الغيبة، رقم ٤٨٨٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٧٩٨٤.

(٢) حلية الأولياء، للأصبهاني(٤/٣٢٠).

(٣) سعيد بن المسيَّب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، أبو محمد، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة، جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاءً، وكان أحفظ الناس لأحكام عمر ابن الخطاب وأقضيته، حتى سمي راوية عمر، وتوفي بالمدينة ٩٤هـ. انظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي(٢/٤٤)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(٢/١٦١)، والأعلام، للزركلي(٣/١٠٢).

(٤) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي(١/٧٩).

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم(٣/٤٨٢).

وإنَّ مما يوقع في الجور وسوء الحكم والفهم، أن ينظر الواحد بعينٍ لا ترى إلا المساوئ دون المحاسن، كما قال الشاعر:

"شرُّ الورى بمساوئ الناس مشتغل ... مثل الذباب يراعي موقع الخلل"(١)

وكما قال الشاعر:

وعينُ الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلةٌ ... كما أنَّ عينَ السُّخط تُبدي المساويا(٢).

إنّ من لا يرى إلا المساوئَ دون المحاسن، يقع في الجور وسوء الفهم، وفي المقابل من لا يرى إلا المحاسن دون المساوئ، يقع في المداهنة والنفاق، وكلٌ هذا فيه مجانبةٌ للإنصاف، وقد قال الشاعر:

عَلَيْك بأوساط الْأُمُور فَإِنَّهَا ... طريقٌ إِلَى نهج الصَّوَاب قويمُ

وَلَا تَكُ فِيهَا مُفْرطاً أَو مُفرِّطاً ... كلا طرفِي قصد الْأُمُور ذميمُ (٣).

١٢- سعة الصدر في مواطن الخلاف: من الآداب التي ينبغي أن يلتزم به طالب العلم ومريد الفهم، أن يكون صدره رحباً في مواطن الخلاف الذي مصدره الاجتهاد المعتمِد على الدليل؛ لأنَّ مسائل الخلاف بين العلماء أكبر من أن تنضبط، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" وأما الاختلاف في الأحكام، فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كلَّما اختلف مسلمان في شيءٍ تهاجرا، لم يبقَ بين المسلمين عصمةٌ ولا أُخوة"(٤).

والاختلاف الحاصل بين الناس في الدين على نوعين يُسميهما شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- باختلاف التنوع واختلاف التضاد(٥)، فالاختلاف الحاصل من منطلقاتٍ صحيحةٍ، وخلفيةٍ علميةٍ سليمةٍ؛ لا حرج على صاحبه ما دام قد سلك الطرق الصحيحة في الاستنباط ومسالك الاستدلال، وإنَّما الذمُّ مُوجَّهٌ لمن لم يسلك الطرق الصحيحة المعتبرة التي وضعها الأئمة لفهم النص الشرعي على وجهه الصحيح، واكتفى بإعمال فكره المُجرَّد في استنباط ما يظنه مؤدياً إليه الدليل الشرعي(٦).

وعليه فحكم الخلاف على قسمسن:

أ- إمَّا أن يكون ممَّا لا مجال للاجتهاد فيه، ويكون الأمر فيه واضحاً كمسائل أصول العقيدة، ولا يكون مبنياً على الدليل، وإنَّما مُعتمده على الرأي والعقل، فهذا ليس فيه حجةٌ لصاحبه، بل لو تتبع طالب العلم هذه الخلافات، وأخذ بالآراء الشاذة، فإنه يُخشى عليه الهلاك، قال ابن القيم- رحمه الله-:"

---

(١) نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن، لأحمد الشرواني(١/١٤٨).

(٢) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي (٢/١٩٤)، وهذا البيت لعبد الله بن معاوية بن جعفر بن أبي طالب.

(٣) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر البغدادي(٢/١٢٢)، وينسب هذا البيت إلى الإمام الخطابي.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٤/١٧٣).

(٥) انظر: مقدمة في أصول التفسير،لابن تيمية (١/١١).

(٦) انظر: الموافقات، للشاطبي(٥/١٣٩-١٤١)،(٥/٢١٠)، والرسالة، للشافعي (١/٥٦٠).

ليس كلُّ خلافٍ يُستروح إليه، ويُعتمد عليه، ومن تتبع ما اختلف فيه العلماء، وأخذ بالرخص من أقاويلهم، تزندق أو كاد"[١].

وهناك أمورٌ وأحكامٌ لا يُعذر أحدٌ بمخالفتها، ويكونُ المخالف مبتدعاً، قال ابن تيمية- رحمه الله-:"نعم من خالف الكتاب المستبين، والسنة المستفيضة، أو ما أجمع عليه سلف الأمة خلافاً لا يُعذر فيه؛ فهذا يُعامل بما يُعامل به أهلُ البدع"[٢].

وقال ابن القيم- رحمه الله-:" وهذا النوع هو الذي وصف الله أهله بالبغي، وهو الذي يُوجب الفُرقة والاختلاف وفساد ذات البين، ويُوقع التحزب والتباين"[٣]، وهذا الخلاف لا يُعدُّ خلافاً معتبراً، كما قيل:

وليس كلُّ خلافٍ جاء معتبراً ... إلاّ خلافٌ له حظٌ من النّظر[٤].

ب- وإمَّا أن تكون مسائل الخلاف الفرعية ممَّا للاجتهاد فيها مجالٌ، بناءً على تنوعِ الأدلة وتعددِها، وفهمِ أهل العلم لها، فهذه يُعذر فيها من خالفها، ولا ينبغي أن يُتخذ من هذا الخلاف مطعنٌ في الآخرين، أو يُتخذ منه سببٌ للعداوة والبغضاء، بل كلٌّ منهم يجتهد في نصر قوله بأقصى ما يقدر عليه، ثم يرجعون بعد المناظرة إلى الأُلفة والمحبة والمصافاة والموالاة، من غير أن يضمر بعضهم لبعضٍ ضغناً، ولا ينطوي له على عتابٍ ولا ذمٍ، وهذا الاختلاف أصحابه بين الأجرين والأجر، وكلٌّ منهم مطيعٌ لله بحسب نيته واجتهاده وتحريه الحق[٥]، "وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، إذا تنازعوا في الأمر، اتَّبعوا أمر الله ﷻ في قوله:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴾[النساء:٥٩]، وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورةٍ ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية مع بقاء الألفة والعصمة وأُخوة الدين"[٦]، قلت: ويا ليتنا نتشبه بهم في زماننا.

"ووقوع الاختلاف بين الناس أمرٌ لا بدَّ منه؛ لتفاوت إرادتهم وأفهامهم، وقوى إدراكهم، ولكنَّ المذموم بغيُ بعضهم على بعضٍ، وإلا فإذا كان الاختلاف على وجهٍ لا يؤدي إلى التباين والتحزب، وكلٌّ من المختلفين مقصده طاعة الله ورسوله، لم يضر ذلك الاختلاف؛ فإنه أمرٌ لا بد منه في النشأة الإنسانية؛ ولكن إذا كان الأصل واحداً، والغاية المطلوبة واحدةٌ، والطريق المسلوكة واحدةٌ؛ لم يكد يقع

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم(٢٢٨/١).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٧٢/٢٤).

(٣) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٥١٤/٢).

(٤) شرح الأربعين النووية، لابن عثيمين(٣٣٥/١).

(٥) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٥١٨/٢)، بتصرف يسير.

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٧٢/٢٤).

اختلاف، وإنْ وقع كان اختلافاً لا يضرُّ كما تقدم من اختلاف الصحابة، فإنَّ الأصل الذي بنوا عليه واحدٌ وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، والقصد واحدٌ وهو طاعة الله ورسوله، والطريق واحدٌ وهو النظر في أدلة القرآن والسنة، وتقديمها على كل قولٍ ورأيٍ وقياسٍ وذوقٍ وسياسة"(١).

فالواجب على طالب العلم ومبتغ الفهم، أن يكون صدره رحباً في مسائل الخلاف المعتبرة، ليِّناً على إخوانه، رفيقاً بهم، يأنسُ به من يُجالسه ويُحاوره، ولا ينفرون منه، كما قال رسول الله ﷺ:**(إنَّ الله رفيقٌ يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه)**(٢)، وقال:**(من يُحرم الرفق، يُحرم الخيرَ كلَّه)**(٣)، وعلى طالب العلم أن يحذر أن يكون ممن يحذر الناس محاورته اتقاء شر لسانه، وهذا من أشرِّ الناس منزلةً عند الله ﷻ، قال ﷺ:**(إنَّ شرَّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة من ودعه أو تركه الناس لاتقاء فُحشه)**(٤).

وقد خاطب الله نبيه ﷺ، بأنه لو كان فظاً غليظاً لانفض الناس من حوله، ولم يتبعوه، كما قال ﷻ:﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ** ﴾[آل عمران:١٥٩]، فهذه وصيةٌ لكل مسلمٍ ولكل طالب علمٍ بأن يكون هيناً ليناً سهلاً يألف الناس ويألفه الناس، نسأل الله أن يرزقنا الأدب والتواضع.

١٣- التوفيق الإلهي وشرح الصدر: إنَّ إرادة الله ﷻ للعبد بالهداية والاستقامة؛ لهو من الأمور التي لها دورٌ كبيرٌ في معرفة المسلم للحق، والثبات عليه، وإبصاره للنور، لا سِيَّما إذا صاحبته الفطرة السَّوية، فحينها يعظُم الشأن، وينبري القلب بالبصيرة والفراسة، فالله ﷻ له الملك والحكمة، يضلُّ من يشاء، ويهدي من يشاء، ويهب عباده ما يُنوِّر به قلوبهم وطريقهم، قال ﷻ:﴿ **أَفَمَنْ شَرَحَ اللهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ** ﴾[الزُّمر:٢٢].

وهذا النور لا يتحقق إلا بملازمة المنهج القويم، والصراط المستقيم، قال ابن القيم- رحمه الله- في تفسير قوله ﷻ:﴿ **يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ**

---

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٥١٩/٢).

(٢) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل الرفق، رقم ٢٥٩٣ .

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الرفق، رقم ٤٨٠٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم ٦٦٠٦.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن العشرة، رقم ، ٤٧٩١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

﴿وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[النور:٣٥]، "والنور على النور: نور الفطرة الصحيحة والإدراك الصحيح، ونور الوحي والكتاب، فينضاف أحد النورين إلى الآخر، فيزداد العبد نورًا على نور؛ ولهذا يكاد ينطق بالحق والحكمة، قبل أن يسمع ما فيه بالأثر، ثم يبلغه الأثر بمثل ما وقع في قلبه، ونطق به، فيتفق عنده شاهد العقل والشرع، والفطرة والوحي، فيريه عقله وفطرته وذوقه أن الذي جاء به الرسول ﷺ هو الحق، لا يتعارض عنده العقل والنقل البتة؛ بل يتصادقان ويتوافقان"[(١)]، وعندها يفتح الله على عبده من البصيرة والفراسة، ويصبح وكأن الحجب قد تكشَّفت أمامه، كما قال ﷺ:(**إنَّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسُّم[(٢)]**)[(٣)]، ويُؤيِّد هذا الحديث، ويصلح شاهداً له، قول النبي ﷺ:**(اتقوا فِراسة[(٤)] المؤمن فإنه ينظر بنور الله)**[(٥)].

ولقد عدَّ ابن القيم– رحمه الله– صحة الفهم والبصيرة والفراسة من عطاء الله وتوفيقه الذي يختصُّ به من يشاء من عباده، حيث يقول– رحمه الله–:" وصحة الفهم نورٌ يقذفه الله في قلب العبد، يميز به بين الصحيح والفاسد، والحق والباطل، والهدى والضلال، والغي والرشاد ويمدُّه حسن القصد، وتحرِّي الحق، وتقوى الربِّ في السر والعلانية، ويقطع مادتُه اتِّباع الهوى، وإيثار الدنيا، وطلب محمدة الخلق، وترك التقوى"[(٦)].

ويقول أيضاً:" فالبصيرة نورٌ يقذفه الله في القلب، يرى به حقيقة ما أخبرت به الرسل، كأنَّه يشاهده رأي عين؛ فيتحقق مع ذلك انتفاعه بما دعتْ إليه الرسل، وتضرره بمخالفتهم، والبصيرة تُنبت في أرض القلب الفراسة الصادقة، وهي نورٌ يقذفه الله في القلب، يفرق به بين الحق والباطل، والصادق والكاذب"[(٧)].

فإذا أراد الله ﷻ لعبده النور هيأ له أسبابه، وشرح صدره له، ووفقه للاعتقاد الصحيح، وعرَّفه به، وثبَّته عليه؛ فعلى الإنسان أن يدعوَ الله ﷻ بأن يمنحه ذلك النور، الذي به يحيا بين الناس على

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم(٥٢/٢).

(٢) التوسم: هو التفرس والفِراسة والتأمل. انظر: تاج العروس، للزبيدي(٣٢٨/١٦)، ومعجم الفروق اللغوية، للعسكري (٥٧١/١).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، رقم ٢٩٣٥، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١٦٩٣.

(٤) الفِراسة بكسر الفاء هي الفراسة بالعين: وهي ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس، أما الفَراسة، بالفتح: فهي الحذق بركوب الخيل وأمرها وركضها والثبات عليها. انظر: تاج العروس، للزبيدي(٣٢٩/١٦).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة الحجر، رقم ٣١٢٧، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير، رقم ١٢٧.

(٦) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(٦٩/١).

(٧) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم(١٤٣/١-١٤٨).

المنهج القويم، فإنْ حاد هنا أو هناك هداه الله فأرجعه للحق، وحبَّبه فيه، وكرَّه إليه طرق المنحرفين، وضلالاتهم.

١٤- التجرد للحق والسلامة من الهوى: يقصد البعض بالتجرد ألَّا يكون لطالب العلم أيُّ رأيٍ مسبقٍ، أو موقفٍ شخصيٍ تجاه القضية محلَّ البحث والفهم؛ حتى يبحث فيها ويصل إلى نتيجةٍ بعد الدراسة والتمعن، وهذا فيه تفصيلٌ، "فأغلب الأدباء الكفار الذين ليس لهم دينٌ ولا عقيدةٌ، ولا موازين للحق، يتجردون حتى من عقائدهم الباطلة، وهذا طبيعيٌ في حقهم، أما المسلم فلا يجوز له أن يتجرد من دينه وعقيدته؛ لأنه لا يصحُّ له أن يتجرد من كل شيءٍ، حتى من الحق، وألَّا يكون له عقيدةٌ ولا رأيٌ، ولا يستند على الوحي؛ لأنَّ من تجرد بهذه الطريقة، فقد وقع في الشك والريبة في دينه، وربَّما شكَّ في أمورٍ سبق الحكم فيها، وقرَّرها الله ﷻ، وربَّما تكون المسألة التي يتجرد فيها عن أي رأيٍ أو اعتقادٍ، ليست مسألةً اجتهاديةً، وإنَّما هي من أصول العقيدة، فهنا لا يصحُّ التجرد، بل يجبُ أن يلتزمَ الحق ويستدلَّه، أمَّا المسائل الاجتهادية، فيتجرد فيها الإنسان من أن يكون له هوىً أو رأيٌ مسبقٌ؛ حتى يصل إلى نتيجةٍ، ويتقرر عنده الدليل الشرعي؛ ولذلك كان السلف يبتعدون عن هذا المسلك، فكانوا يتجردون من الهوى والرأي الشخصي، ولكن لا يتجردون عن الحق"[١].

ومن التجرُّد للحق، السلامةُ من هوى النفس، فقد أمر الله ﷻ عباده بالتجرد والسلامة من الهوى، فقال ﷻ:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا** ﴾[النساء:١٣٥].

والهوى مرضٌ يجعل صاحبه يرى الصحيح سقيماً، والعليل سليماً؛ ولهذا حذَّر منه اللهُ ﷻ، وأوصى الله نبيه داود- عليه السلام- بالحذر منه، فقال جلَّ وعلا:﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الحِسَابِ** ﴾[ص:٢٦] .

وحينما يُبتلى المرء بداء الهوى، والميل والتجافي والمحاباة، فلن يعرف إلا ما يهوى، ولن يحبَّ إلا ما يهوى؛ حتى يعميَه الهوى ويصمَّه، وآية ذلك الإعراض عن الحق؛ فترى صاحب الهوى مائلاً إلى قول من اتبعه، مُعرضاً عن الدليل من كلام الله وكلام رسوله ﷺ[٢]، وصدق الله جلَّ وعلا، حيث

---

(١) درس صوتي مفرغ بعنوان التجرد والموضوعية وقيدهما في الشريعة، للدكتور ناصر بن عبد الكريم العقل، قام بتفريغه موقع الشبكة الإسلامية http://www.islamweb.net .

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٤٥٧/٧).

قال:﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي القَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[القصص:٥٠] ، وقال ﷺ:**(لا يؤمن أحدُكم حتى يكونَ هواه تبعاً لما جئتُ به)**[١].

وقال ابن تيمية– رحمه الله–: "وصاحب الهوى يُعميه الهوى ويُصمُّه، فلا يستحضر ما لله ورسوله في ذلك، ولا يطلبُه، ولا يرضى لرضا الله ورسوله، ولا يغضب لغضب الله ورسوله، بل يرضى إذا حصل ما يرضاه بهواه، ويغضب إذا حصل ما يغضب له بهواه، وهذا حال المختلفين الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً، وكفَّر بعضُهم بعضاً، وفسَّق بعضهم بعضاً"[٢]، وقال أيضاً– رحمه الله–:" فإنَّ الهوى يُعمي ويُصمُّ، وصاحب الهوى يقبل ما وافق هواه بلا حجةٍ تُوجب صدقَه، ويردُّ ما خالف هواه بلا حجةٍ تُوجب ردَّه"[٣].

ومن التجرد للحق عدم التعصب للرجال وآرائهم من غير دليلٍ وبينة، فلا ينبغي لأحدٍ أو جماعةٍ أن يُعيِّنوا شخصاً من الشيوخ أو من العلماء، يوالون ويعادون عليه، إنَّما يجبُ أنْ يكون الولاء لله ورسوله والمؤمنين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– في كلامٍ بديعٍ:" والواجبُ على كل مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمدا رسول الله، أن يكون أصل قصده توحيدَ الله بعبادته وحده لا شريك له، وطاعةَ رسوله ﷺ، يدور على ذلك، ويتَّبعه أين وجده، ويعلم أنَّ أفضل الخلق بعد الأنبياء هم الصحابة، فلا ينتصرْ لشخصٍ انتصاراً مُطلقاً عاماً، إلا لرسول الله ﷺ، ولا لطائفةٍ انتصاراً مُطلقاً عاماً، إلا للصحابة ﷺ، فإنَّ الهدى يدور مع الرسول حيث دار، ويدور مع أصحابه دون أصحاب غيره حيث داروا ؛ فإذا أجمعوا لم يجمعوا على خطأٍ قط، بخلاف أصحاب عالمٍ من العلماء، فإنَّهم قد يجمعون على خطأٍ؛ بل كلُّ قولٍ قالوه ولم يقله غيرهم من الأمة لا يكون إلا خطأً؛ فإنَّ الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ ليس مُسلَّماً إلى عالمٍ واحدٍ وأصحابِه، ولو كان كذلك لكان ذلك الشخص نظيراً لرسول الله ﷺ، وهذا القول شبيهٌ بقول الرافضة في الإمام المعصوم"[٤].

وقال– رحمه الله– في كلامٍ يُكتب بماء الذهب:" فدُينُ المسلمين مبنيٌّ على اتِّباع كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة هي أصولٌ معصومةٌ، وما تنازعت فيه الأمة ردُّوه إلى الله والرسول، وليس لأحدٍ أن يُنصِّبَ للأمة شخصاً يدعو إلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها، غير

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة(١/١٢)، رقم ١٥، والبيهقي في المدخل إلى السنن الكبرى(١/١٨٨)، رقم ٢٠٩، والبغوي في شرح السنة(١/٢١٣)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (١/٣٨٧)، رقم٢٧٩، وقال النووي في أربعينه: هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح، وقال الألباني في مشكاة المصابيح: سنده ضعيف.

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٥/٢٥٦).

(٣) انظر: المرجع السابق(٦/٢٠٢).

(٤) انظر: المرجع السابق(٥/٢٦٢).

النبي ﷺ، ولا يُنصِّبَ لهم كلاماً يوالي عليه ويعادي، غيرَ كلام الله ورسوله وما اجتمعت عليه الأمة؛ بل هذا من فعل أهل البدع الذين يُنصِّبون لهم شخصاً أو كلاماً يُفرِّقون به بين الأمة، يوالون به على ذلك الكلام أو تلك النسبة ويُعادون"(١).

قلت: وهذا كلامٌ غالٍ، عزَّ تطبيقه في زماننا، وليت المسلمين عامةً وطلبة العلم خاصةً يعون هذا الكلام ويطبقونه.

١٥- **تجنب الجدل والخصومات في الدين:** الجدل هو اللَّدد في الخصومة، والقدرة عليها، أي يخاصم بما يُشغل عن ظهور الحقِّ، ووضوحِ الصواب(٢).

والجدال نوعان:

أ- الجدال المحمود الممدوح، وهو: كلُّ جدالٍ أيَّد الحقَّ، أو أوصل إليه بنيةٍ صالحةٍ خالصةٍ، وطريقٍ صحيح، قال ﷻ:﴿ **ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾[النحل:١٢٥] ، والمجادلة بالتي هي أحسن، هي التي تكون عن علمٍ، وبصيرةٍ، وحُسنِ خُلقٍ، ولُطفس، ورفقٍ، ولينٍ، وحُسنِ خطابٍ، ودعوةٍ إلى الحق وتحسينه، وردٍّ للباطل وبيانِ قُبحِه بأقرب طريقٍ موصلٍ إلى ذلك، وأن لا يكون القصد منها مجرد المغالبةِ، وحبِّ العلو والظهور؛ بل يكونُ القصدُ بيانُ الحق وهدايةُ الخلق(٣).

ب- الجدال المذموم: وهو كلُّ جدالٍ أيَّد الباطل أو أوصل إليه، أو كان بغير علمٍ وبصيرةٍ، وهذا النوع هو من أعظم آفات اللسان، قال ﷻ:﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ** ﴾ [الحج:٣-٤]، وقال ﷻ أيضاً:﴿ **وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ** ﴾[الحج:٨].

وقال ﷺ:**(لا تعلَّموا العلم لتُباهوا به العلماء؛ ولا لتُماروا به السفهاء، ولا لِتَخيّروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار)**(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٠/١٦٤).

(٢) انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي(١/٩٧٦)، والمعجم الوسيط، لمجمع اللغة العربية بالقاهرة(١/١١١).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير(٢/ ٥٩٢)،(٣/ ٤١٦)، وتيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي(٤/ ٢٥٤)،(٦/ ٩٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه في افتتاح الكتاب، باب الانتفاع بالعلم والعمل به، رقم ٢٥٤، و٢٥٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير رقم ٧٣٧٠.

وقال ﷺ أيضاً:(**ما ضلّ قومٌ بعد هُدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل، ثم تلا:{مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ}[الزخرف: ٥٨]**)[١].

وقد بشَّر النبيُّ ﷺ من ترك الجدال ولو كان محقاً، وضمن له بيتاً في الجنة فقال ﷺ: (**أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ**[٢] **الجنة لمن ترك المِراء**[٣]**، وإن كان مُحقاً**)[٤]، وقد بيَّن ﷺ أنَّ الله ﷻ لا يحبُّ المجادل بالباطل المخاصم من غير حق، فقال ﷺ:(**إنَّ أبغض الرجال إلى الله تعالى الألَدُّ الخَصِمِ**[٥])[٦]؛ وبيَّن ﷺ أنَّ من الخصام بالباطل موجِبٌ لغضب الله ﷻ، فقال ﷺ:(**ومن خاصم في باطلٍ وهو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه**)[٧]؛ بل إنَّ غاية ما يريده الشيطانُ من المسلمين، أن يُوقع بينهم العداوة والبغضاء، كما قال رسول الله ﷺ:(**إنَّ الشيطان قد أَيِس أن يعبدَه المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم**)[٨].

وقد وردت عن السلف الصالح آثارٌ كثيرةٌ، تذمُّ الجدال والمِراء، وتحذرُ منه أشدَّ التحذير، وتوضِّح أنَّ تعاطي الجدل والمِراء فيه شرٌ ومهلكةٌ، وحرمانٌ من العلم والفهم، وأنَّه سلعة البطَّالين، ومن هذه الآثار قول عمر بن الخطاب ﷺ:"يهدمُ الإسلامَ زلَّةُ العالم، وجدالُ المنافق بالكتاب، وحكمُ الأئمة المُضلِّين"[٩]، وعن عليٍّ ﷺ قال: "إيَّاكم والخصومةُ، فإنَّها تمحق الدين"[١٠].

---

(١) أخرجه الترمذي، كتاب التفسير، باب ومن سورة الزخرف، برقم ٣٢٥٣، وابن ماجه في سننه في افتتاح الكتاب، باب اجتناب البدع والجدل، برقم ٤٨، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٥٦٣٣.

(٢) أي: ما حولها خارجاً عنها، تشبيهاً بالأبنية التي تكون حول المدن وتحت القلاع، والمقصود أي نواحيها وجوانبها من داخلها لا من خارجها، والمراد به أدناها. انظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري(١٠٩/٦).

(٣) المِراء في اللغة: الجدال، وتفسيره: استخراج غضب المجادل، من قولهم: " مريت الشاة "، إذا استخرجت لبنها، انظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/ ١٨).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، برقم ٤٨٠٠، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٧٣.

(٥) الألدّ: شديد الخصومة؛ لأنه كلما احتُج عليه بحجةٍ أخذ في جانبٍ آخر، وأما الخَصِم فهو الحاذق بالخصومة. انظر: المنهاج شرح النووي على مسلم(٢١٩/١٦).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم والغضب، باب قول الله تعالى: وهو ألد الخصام، رقم ٢٤٥٧، وأخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب العلم، باب في الألد الخصم، رقم ٢٦٦٨.

(٧) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب فيمن يعين على خصومة من غير أن يعلم أمرها، رقم ٣٥٩٧، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤٣٧.

(٨) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا، رقم (٢٨١٢).

(٩) أخرجه الدارمي في مسنده المعروف بسنن الدارمي (٢٩٥/١)، رقم ٢٢٠، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، رقم ٢٦٩.

(١٠) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(١٤٣/١)، رقم ٢١١.

وعن مسلم بن يسارٍ[١]- رحمه الله- قال:" إيَّاكم والمِراء؛ فإنها ساعة جهل العالم، وبها يبتغي الشيطانُ زَلَّته"[٢]، وعن ميمون بن مهران- رحمه الله- قال:" لا تمارِ مَن هو أعلمُ منك، فإنَّك إنْ فعلتَ ذلك خَزَن عنك علمه، ولم يضرَّه ما قلتَ شيئًا"[٣]، وعن معروف الكَرخيِّ[٤]- رحمه الله- قال:" إذا أراد الله بعبدٍ شرًّا، أغلق عليه باب العمل، وفتح عليه باب الجدل"[٥]، وعن الإمام مالك- رحمه الله- قال:"الجدال في الدين يُنشئ المِراء، ويَذهبُ بنور العلم من القلب، ويقسِّي، ويُورث الضغن"[٦]، وقال أيضاً في ردِّ الجدل، وبيان أنه يؤدي إلى الشك والحيرة:" كلَّما جاءنا رجلٌ أجدلَ من رجلٍ تركنا ما نزل به جبريل على محمد ﷺ لجدله"[٧]، وكان إذا جاءه بعض أهل الأهواء، قال: "أما أنا فعلى بينةٍ من ديني، وأما أنت فشاكٌّ، اذهب إلى شاكٍّ مثلِك فخاصمه"[٨]، وسمع الحسن البصري- رحمه الله- قومًا يتجادلون، فقال:" والله ما هؤلاء إلا قومٌ ملُّوا العبادة، ووجدوا الكلام أهونَ عليهم، وقلَّ ورعهم فتكلموا"[٩]، وعن الحسن البصري أيضاً أنَّ رجلاً أتاه فقال: "يا أبا سعيد إنِّي أريد أنْ أخاصمك، فقال الحسن:إليك عنِّي، فإنِّي قد عرفتُ ديني، وإنما يخاصمك الشاكُّ في دينه"[١٠].

وقد أورد الإمام ابن بطة العُكبرى- رحمه الله- في كتابه الإبانة الكبرى عن الجدال والخصومة أكثرَ من ثلاثمائة وأربعين نصاً وأثراً عن السلف، ثمَّ عقَّب على ذلك بقوله: "فاعلم يا أخي أنِّي لم أرَ الجدال والمناقضة والخلاف والمماحلة والأهواء المختلفة والآراء المخترعة من شرائع النبلاء، ولا من أخلاق العقلاء، ولا من مذاهب أهل المروءة، ولا مما حُكي لنا عن صالحي هذه الأمة، ولا من سير السلف، ولا من شيمة المرضيين من الخلف، وإنَّما هو لهوٌ يُتعلم، ودرايةٌ يُتفكه بها، ولذةٌ يُستراح إليها،

(١) مسلم بن يسار الأموي بالولاء، أبو عبد الله، فقيه، ناسك من رجال الحديث، أصله من مكة، سكن البصرة، فكان مفتيها، وتوفي فيها ١٠٨هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(١٠/١٤٠)، وحيلة الأولياء، للأصبهاني(٢/٢٩٠)، والأعلام، للزركلي(٧/٢٢٣).

(٢) أخرجه الدارمي في سننه (١/ ٣٨٩)، رقم ٤١٠، وقال محققه: إسناده صحيح.

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(١/ ٥١٧)، رقم ٨٣٦.

(٤) معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ، أحد أعلام الزهاد والمتصوفين، اشتُهر بالصلاح وقصده الناس حتى كان الإمام أحمد ابن حنبل في جملة من يختلف إليه، وتوفي ٢٠٠هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٢/١٠٤)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي(٢/١٧٩)، وطبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى(١/٣٨١)، والأعلام، للزركلي(٧/٢٦٩) .

(٥) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/٢٩٦)، رقم ١٦٩٢.

(٦) موطأ الإمام مالك(١/٢٥٤).

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي (١/١٦٣)، رقم ٢٩٣.

(٨) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني(٩/١١٢).

(٩) المصدر السابق(٢/١٥٦).

(١٠) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(١/١٤٤)، رقم ٢١٥.

ومهارشة[١] العقول، وتذريبُ[٢] اللسان بمحق الأديان، وضراوةٌ على التغالب، واستمتاعٌ بظهور حجة المخاصم، وقصدٌ إلى قهر المُناظِر، ومغالطةٌ في القياس، وبُهتٌ في المقالة، وتكذيبُ الآثار، ومكابرةٌ لنص التنزيل، وتهاونٌ بما قال الرسول، ونقضٌ لعقدة الإجماع، وتشتيتُ الألفة، وتفريقٌ لأهل الملة، وشكوكٌ تدخل على الأمَّة، وضرواةُ السلاطة، وتوغيرُ للقلب، وتوليدٌ للشحناء في النفوس، عصمنا الله وإيَّاكم، وأعاذنا من مجالسة أهله"[٣].

وقد كان السلف الصالح رحمهم الله لا يلجؤون إلى المناظرة والمجادلة إلا في أضيق الحدود، وإذا ناظروا بعضهم بعضاً كانوا يتحاورون بأدبٍ عالٍ، ويتمنى كلُّ واحدٍ منهم أن لو ظهر الحق على لسان صاحبه، كما قَالَ الإمام الشافعي-رحمه الله-:" ما ناظرتُ أحداً قط، إلَّا أحببتُ أن يُوفق ويُسدد ويُعان، ويكونُ عليه رعايةٌ من الله وحفظٌ، وما ناظرتُ أحداً إلَّا ولم أبالِ بيَّن اللهُ الحقَّ على لساني أو لسانه"[٤].

رحمك الله، ما أعظمك من إمام، ولو التزم الناس وطلبة العلم ما تقوله في زماننا؛ لدامت المحبة والألفة بين جميع المختلفين، كما قال ابن القيم- رحمه الله-:" فمن هداه الله سبحانه إلى الأخذ بالحق حيث كان، ومع من كان، ولو كان مع من يبغضه ويعاديه، وردِّ الباطل مع من كان، ولو كان مع من يحبه ويواليه، فهو ممن هُدي لما اختُلف فيه من الحق، فهذا أعلم الناس، وأهداهم سبيلاً، وأقومهم قيلاً، وأهل هذا المسلك إذا اختلفوا فاختلافهم اختلاف رحمةٍ وهديٍ يقرُّ بعضهم بعضاً عليه ويواليه ويناصره"[٥].

وكما أن ترك الجدل من غير فائدة مطلوب فكذلك ترك التباغض مطلوبٌ، وخاصةً على أهل العلم، قال الإمام أحمد- رحمه الله-:" لحوم العلماء مسمومةٌ، من شمَّها مرض، ومن أكلها مات"[٦]، وقال الحافظ ابن عساكر[٧]- رحمه الله-:"اعلم يا أخي وفقنا الله وإيَّاك لمرضاته، وجعلنا ممن يخشاه

---

(١) أي: خفة العقول وضعفها، ومهارشة الكلاب: تحريش بعضها على بعض، والتهريشُ: الإفساد بين الناس. انظر: تهذيب اللغة، لأبي منصور الأزهري(٦/٥٠)، معجم مقاييس اللغة، لابن فارس(٦/٤٧).

(٢) تذريب اللسان: حِدَّتُه، ويقال لسان ذرب ومذروب، والذرب بالتحريك: فساد اللسان وبذاؤه . انظر: تاج العروس، للزبيدي(٢/٤٣٠)، لسان العرب، لابن منظور (١/٣٨٦).

(٣) الإبانة الكبرى، لابن بطة(٢/٥٣١).

(٤) حلية الأولياء، للأصبهاني(٩/١١٨).

(٥) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٥١٦).

(٦) العقد التليد في اختصار الدر النضيد (المعيد في أدب المفيد والمستفيد)، لعبد الباسط الدمشقي(١/٦٠).

(٧) علي بن الحسن بن هبة الله، أبو القاسم، ثقة الدين ابن عساكر الدمشقي، المؤرخ الحافظ الرحالة، كان محدث الديار الشامية، من مصنفاته: تأريخ دمشق الكبير، يُعرف بتاريخ ابن عساكر، وتبيين كذب المفتري في ما نسب إلى أبي الحسن الأشعري، ومعجم الصحابة، وتوفي ٥٧١هـ. انظر: البداية والنهاية، لابن كثير(١٢/٢٤٩)، وطبقات الشافعية، لابن قنفذ(٤/٢٧٣)، والأعلام، للزركلي(٤/٢٧٣).

ويتَّقيه حق تقاته، أنَّ لحوم العلماء مسمومةٌ، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومةٌ، وأنَّ من أطال لسانه في العلماء بالثلب، بلاه الله قبل موته بموت القلب؛ لأنَّ الوقيعة فيهم بما هم منه براءٌ، أمره عظيم، والتناول لأعراضهم بالزور والافتراء مرتعٌ وخيم، والاختلاق على من اختاره الله منهم لنقش العلم خلقٌ ذميم، والاقتداء بما مدح الله به قول المتبعين من الاستغفار لمن سبقهم وصفٌ كريم"[١]؛ فالعلماء هم أولى الناس بولاية الله ﷻ، قال الشافعي– رحمه الله–: "لو لم يكن العلماء أولياء فليس لله وليٌّ"[٢]، وقد توعَّد الله من عادى أوليائه بالحرب، فقال ﷺ في الحديث القدسي الذي يرويه عن ربه، قال الله ﷻ:**(من عادى لي وليّاً فقد آذنته بالحرب)**[٣].

وممَّا تقدَّم يتبين أن هدي السلف ﷺ هو الكفُّ عن كثرة الخصام والجدال، وأنَّه لا يُسار إليه إلا عند الضرورة، لإحقاق حقٍ أو إبطال باطلٍ، وأنَّ التوسع فيه من قلَّة الورع، وأنَّ المجادلة إنَّما وُضعت؛ ليستبين الصواب، ويظهر الحق، وإذا حدثت مناظرة ومحاورةٌ بين أهل العلم وطلبته، فلا بدّض من التزام الأدب والمحبة والنصيحة، وبقاء الألفة والمودة بعد انتهائها، وعدم التشبه بمناظرات أهل الأهواء التي لا تُولِّد إلا شبهةَ، ولا تُثمر إلا حَيرةً، بل ويكابرون لردِّ الحق، فتجد أحدهم يتبين لَهُ الصواب مَعَ خصمه ولا يرجع، ويضيق صدره كيف ظهر الحق مَعَ خصمه، وربَّما اجتهد فِي ردِّه مَعَ علمه أنَّه الحق، وهذا من أقبح القبح، وبالجملة فالجدال مكروهٌ للعلماء الألبَّاء، فكيف للجُهال الأغبياء؟!.

١٦– **الذكاء والفطنة:** إنَّ اختلاف ألسنتنا وألواننا ومظاهر خلقنا آيةٌ من آيات الله ﷻ، كما ذكر ﷻ في كتابه:﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ** ﴾[الرُّوم:٢٢]، وإذا كان هذا كذلك؛ فإنَّ اختلافَ مداركنا وعقولنا وما تُثمره تلك المدارك والعقول آيةٌ من آيات الله ﷻ أيضاً، ودليلٌ من أدلة قدرته البالغة، فإنَّ الله ﷻ قد خلق الناس بعقولٍ ومداركَ متباينةٍ؛ وقسَّم العقول والأفهام كما قسَّم الأرزاق، وقد فضَّل الله بعضهم على بعضٍ فيها؛ لحكمةٍ أرادها ﷻ، فهو العليم الحكيم، ولذلك نجد أفهام العباد متفاوتةٌ ومختلفةٌ، فمنهم الذكي الفطن الذي يفهم الكلام بمجرد أن يُقال، ومنهم الغبي البليد الذي لا يفهم ما تقول ولو حشوت الكلام في رأسه حشواً، فما يدركه الواحد لا يفهمه غيرُه، وما يراه الواحد قد يغيب عن الآخرين، وقد أشار القرآن إلى اختصاص بعض الناس بالفهم السديد كما في قوله ﷻ:﴿ **فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ** ﴾[الأنبياء:٧٩]، أي: أنَّه سبحانه خصَّه بالتفهيم في القضاء، مع اشتراكه مع غيره في الحكمة والعلم، وبيَّن سبحانه أنَّه هو الذي

---

(١) تبيين كذب المفتري، لابن عساكر(٢٩/١).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لملا علي القاري(٢٣/١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم ٦٥٠٢.

فهَّمه، وفي ذلك يقول ابن القيم –رحمه الله–: "وتفاوت الأمة في مراتب الفهم عن الله ورسوله لا يُحصيه إلا الله، ولو كانت الأفهام متساويةً؛ لتساوت أقدام العلماء في العلم، ولما خَصَّ سبحانه سليمان بفهم الحكومة في الحرث، وقد أثنى عليه وعلى داود بالعلم والحكمة"(١).

ويقول ابن الجوزي(٢)– رحمه الله: "وما أكثر تفاوت الناس في الفهوم، حتى العلماء يتفاوتون التفاوت الكثير في الأصول والفروع، وبعضهم فهمه رديءٌ؛ كما يُروى عن بعضهم: أنه قال في قوله ﷺ:**(لا يبولن أحدُكم في الماء الدائم ثمَّ يتوضأ منه)**(٣)، فقال: إن بال غيرُه جاز!!، فما يفهم المراد من التنجيس، بل يأخذ بمجرد اللفظ!!، نعوذ بالله من سوء الفهم"، إلى أن قال:" ومثلُ هذا إذا نُوقش كثيرٌ ؛ فأقلُّ موجودٍ في الناس الفهم والغوص على دقائق المعاني"(٤).

ويقول ابن القيم– رحمه الله–: "ووقوع الاختلاف بين الناس أمرٌ ضروريٌ لا بُدَّ منه؛ لتفاوت إرادتهم وأفهامهم وقُوى إدراكهم"(٥).

وممَّا يُدلل على علاقة الفهم بالذكاء والفطنة، أنَّ بعض العلماء كابن حجرٍ العسقلاني – رحمه الله– عرَّف الفهم بأنه هو الفطنة فقال: "الفهم هو فطنةٌ يفهم بها صاحبها من الكلام ما يقترن به من قولٍ أو فعلٍ"(٦).

بل وممَّا يُؤكد هذا المعنى أنَّ الله ﷻ لمَّا ذكر الحكمة في كتابه، بيَّن سبحانه أنه يختص بها من يشاء، وختم الآية ببيان أنه لا يؤتاها إلا أولو الألباب، فقال ﷻ:﴿ **يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ**﴾[البقرة:٢٦٩]، وأكثر أقوال المفسرين أنَّ الحكمة في الآية السابقة هي الفهم، وإصابة الصواب في القول والفعل عن فهمٍ وعلمٍ

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم(٢٤١/١).

(٢) عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي القرشي البغدادي، أبو الفرج، علَّامة عصره في التاريخ والحديث، له نحو ثلاث مئة مصنف، منها: الناسخ والمنسوخ، وتلبيس إبليس، وصيد الخاطر، وغريب الحديث، والموضوعات في الأحاديث المرفوعات، وزاد المسير في علم التفسير، وشرح مشكل الصحيحين، وغيرها، وتوفي ٥٩٧هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٢٧٩/١)، والبداية والنهاية، لابن كثير(٢٨/١٣)، والأعلام، للزركلي(٣١٦/٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوضوء، باب البول في الماء الدائم، رقم ٢٣٩، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب النهي عن البول في الماء الدائم، رقم ٢٨٢.

(٤) صيد الخاطر، لابن الجوزي(٤٨٧/١–٤٨٨).

(٥) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٥١٩/٢).

(٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني(١٦٥/١).

ومعرفةٍ[1]، "وتذييل الآية بذكر أولي الألباب للتنبيه على أنَّ من شاء الله إيتاء الحكمة هو ذو اللب، وأن تَذَّكُر الحكمة واستصحاب إرشادها، بمقدار استحضار اللب وقوته، أي: مقدار الفهم والذكاء"[2].

وإنَّ كثيرًا من المسائل لا يمكن أن يفهمها العوام؛ بل اشتغالهم بها من العبث، والاشتغال بما لا يُطاق، فإنَّما يشتغل بالطلب من كان أهلاً له، فمن لم يتأهل لذلك بذكائه فلا يمكن أن يزاحم أهل العلم عليه، ولتميز بعض الناس بالفهم والذكاء وسبقهم الناس في ذلك أمر الله ﷻ بالرجوع إلى أهل الذكر والعلم عند اشتباه المسائل؛ لعدم قدرة الجميع على الفهم والاستنباط، قال ﷻ:﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[النحل:٤٣] .

والذكاء قسمان: موهوبٌ ومكتسبٌ:

أ- الموهوب: ما فطر اللهُ الناسَ عليه، وقد خلق الله الناس متفاوتين في هذا الذكاء والإدراك.

ب- المكتسب: ما يحصُل بالدعاء والعبادة، مثلما يحدث مع العلماء إذا صعبت عليهم المسائل، فإنهم يلجؤون إلى الله ﷻ في حلِّها، "وقد كان شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- إذا استغلقت عليه مسألةٌ، وصعُب عليه فهمُها، أقبل على الله بالدعاء، فيجتهد ويقول:"يا مُفهِّم سليمان فهِّمني، ويا مُعلِّم داود علِّمني، ويجتهد بذلك حتى تُفتح له المسألة"[3].

والذكاء من الأسباب القوية المعنية علي تحصيل العلم، وفهمه وحفظه، والتفريق بين المسائل، والجمع بين الأدلة، وغير ذلك، قال ابن الجوزي- رحمه الله-:" إذا تكامل العقل، قوِي الذكاءُ والفطنة، والذكي يتخلَّصُ إذا وقع في آفةٍ"[4]، فإن كان المرء ذكياً بطبعه وجِبِلَّته قوَّى هذه الميزة في نفسه، وإلَّا بذل جهده حتى يكتسبه، والذكاء أولُّ درجات السلم لطالب العلم ومريد الفهم، فإنَّ العلم لا يُسلم زمامه لغبيٍ ولا بليدٍ؛ بل لابد أن يكون طالب العلم ذكياً، ومن السلف وأهل العلم من وُصفوا بالذكاء وكان لهم أبلغ الأثر في دراسة المسائل وتحقيقها؛ فأفادوا الأمة أيما فائدة، مثل ابن عباس رضي الله عنهما، والإمام الشافعي- رحمه الله-، وشيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-، وغيرهم كثير.

إنَّ الذكاء لا بدَّ أن يقترن مع الإيمان والتقوى؛ ليكون محموداً، وليسخره صاحبه في الخير، وفي خدمة الحق، فلا خير في ذكاءٍ من غير دينٍ، وبئس الذكاء بلا تقوى، كما قال الإمام الذهبي في

---

(١) انظر: جامع البيان المعروف بتفسير الطبري(١٢/٥).

(٢) التحرير والتنوير، لابن عاشور(٦٤/٣).

(٣) رأس الحسين، لابن تيمية(١٧٦/١).

(٤) صيد الخاطر، لابن الجوزي(٤٦٠/١).

آخر ترجمته لابن الراوندي[١] الذي كان غايةً في الذكاء، ولكنه كان فيلسوفاً مُلحداً:" لعن الله الذكاء بلا إيمانٍ، ورضي الله عن البلادة مع التقوى"[٢].

١٧- **خلو الذهن والقلب من الشواغل:** إنَّ الإنسان بطبعه لا يستطيع أن يُركِّز في المسألة ويعطيها حقَّها، وذهنه منشغلٌ بشيءٍ آخر، أو أن يكون في نفسه حاجاتٌ ورغباتٌ قويةٌ لفعل شيءٍ آخر، أو أن هناك أموراً تستحكم على قلبه وعقله، وتمنعه من صفاء الذهن، كالجوعِ والظمأ والغضب والهمِّ والخوف ومدافعة الأخبثين، وتعلُّقِ القلب بالدنيا تعلُّقاً شديداً، ولقد نهى النبي ﷺ أن يقضيَ القاضي بين المتخاصمين وهو غضبانٌ أو جائعٌ أو عطشانٌ؛ لأنه في هذه الحالة لا يستطيع أن يصل لفهم كل ما يُقال، والترجيح بين الأقوال؛ لوجود الشواغل الذهنية الصارفة له عن الفهم، فقال ﷺ:(**لا يحكم أحدٌ بين اثنين وهو غضبانٌ)**[٣]، وفي روايةٍ أخرى:**(لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان)**[٤]، وممَّا يُدلل أيضاً على أن الغضب يمنع الفهم، أنَّ أبا عوانة الإسفراييني[٥] عندما ترجم لهذا الحديث في مستخرجه قال: "باب بيان حظر الحكم بين اثنين، والحاكم غضبان، والدليل على أن الغضب يزيل الفهم"[٦].

وكذلك يلحق بالغضب في منع الفهم كلُّ ما يُشغل القلب ويُشوِّش الفكرَ من غلبة النعاس أو الهمِّ أو المرض أو نحوها، "وسبب ذلك أنَّ الحُكم حالة الغضب قد يتجاوز بالحاكم إلى غير الحق؛ فمُنع، وبذلك قال فقهاء الأمصار، ولما يحصل بسببه من التغير الذي يختل به النظر، فلا يحصل

---

(١) أحمد بن يحيى بن إسحاق، أبو الحسين الراونديّ، أو ابن الراونديّ، فيلسوفٌ مجاهرٌ بالإلحاد، من سكان بغداد، قال ابن كثير: أحد مشاهير الزنادقة، طلبه السلطان فهرب، ولجأ إلى ابن لاوي اليهودي وصنف له كتاباً يطعن به فيه في القرآن، وقال ابن حجر: ابن الراونديّ، الزنديق الشهير، كان أولاً من متكلمي المعتزلة، ثم تزدنق، واشتهر بالإلحاد، وكان غايةً في الذكاء، وقال ابن الجوزي: أبو الحسين الريوندي، الملحد الزنديق، وإنما ذكرته ليعرف قدر كفره؛ فإنه معتمد الملاحدة والزنادقة، ثم قال: وكنت أسمع عنه بالعظائم، حتى رأيت ما لم يخطر على قلب أن يقوله عاقل، وتوفي ٢٩٨هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٢٧/١)، ومروج الذهب، للمسعوديّ(٢٣٧/٧)، والبداية والنهاية، لابن كثير(١١٢/١١)، والملل والنحل، للشهرستاني(٨١/١)، ولسان لميزان، للذهبي(٣٢٣/١)، والأعلام، للزركلي(٢٦٧/١).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي(٤٠/١١).

(٣) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب الأقضية، باب كراهة قضاء القاضي وهو غضبان، رقم ١٧١٧.

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الأحكام، باب لا يحكم الحاكم وهو غضبان، رقم ٢٣١٦، وصححه الألباني في إرواء الغليل رقم ٢٦٢٦.

(٥) يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوريّ ثم الأسفراييني، أبو عوانة، من أكابر حُفاظ الحديث، طاف بلاداً كثيرة في طلب الحديث، واستقر في أسفرايين فتوفي بها، وهو أول من أدخل كتب الشافعيّ ومذهبه إليها، من كتبه "الصحيح المسند" وهو مخرج على صحيح مسلم، وله فيه زيادات، وتوفي ٣١٦هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٢/٣)، ومعجم البلدان، لياقوت الحموي(٢٢٨/١)، والأعلام، للزركلي (١٩٦/٨).

(٦) مستخرج أبي عوانة، للأسفراييني(١٦٨/٤).

استيفاء الحُكم على الوجه، وعدَّاه الفقهاء بهذا المعنى إلى كل ما يحصلُ به تغيُّر الفكر، كالجوع والعطش المفرطين، وغلبة النعاس، وسائر ما يتعلق به القلب تعلقاً يُشغله عن استيفاء النظر، فإنَّه لمَّا نهى عن الحكم حالة الغضب، فُهم منه أنَّ الحكم لا يكون إلا في حالة استقامة الفكر، ويُكره للحاكم أن يحكم وهو جائعٌ أو تَعِبٌ أو مشغولُ القلب، فإنَّ ذلك يُغيِّر القلب[١].

وقال الشافعي– رحمه الله–: "ومعقول الحديث أنَّ المراد أنَّ القاضي لا ينبغي أن يحكم في الحالة التي يتغير فيها عقلُه وخلقُه، وأنَّه يلتحق بالغضب المرض والحُزن والفرح والجوع والنُّعاس والمِلال، وسائرُ ما يُغيِّر الخُلقَ والطبعَ، ولكن يتوقف ويتأنى حتى يثوب إليه عقلُه"[٢].

وقال ابن القيم– رحمه الله–: "هل يستريب عاقلٌ في أنَّ النبيَّ ﷺ لمَّا قال: لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان، إنما كان ذلك لأنَّ الغضب يُشوش عليه قلبَه وذهنه، ويمنعُه من كمال الفهم، ويحولُ بينه وبين استيفاء النظر، ويعمى عليه طريق العلم والقصد، فمن قصر النهى على الغضب وحده دون الهمِّ المُزعج، والخوف المُقلق، والجوع والظمأ الشديد، وشُغلِ القلب المانعِ من الفهم، فقد قلَّ فقهه وفهمُه"[٣]، ويشهد لهذا المعنى– أي استجماع الفكر لمحاولة فهم تفاصيل المسألة–، عادة علماء السلف عندما كانوا يُسألون عن المسألة، فلم يكونوا يتسرعون في الإجابة؛ بل منهم من كان يصمت لحظةً، ويطرق بفكره، وربما أغمض أحدهم عينيه وخفض رأسه؛ ليستجمع ما عنده من العلم، ولئلا يتلهى بما يراه حوله؛ فينقطع فكره؛ ليصل بذلك كلِّه إلى الجواب الصحيح الذي يوافق مراد الله ورسوله من التشريع؛ فيخبر به السائل، فإن لم يعلم جواباً قال بلا حرجٍ: لا أعلم، فعن ابن عمر رضي الله عنه "أن رجلاً سأله عن مسألةٍ، فقال:لا علم لي بها، فلما أدبر الرجل، قال ابن عمر: نِعم ما قال ابن عمر، سُئل عما لا يعلم، فقال: لا علم لي بها"[٤]، وعن حماد بن زيد[٥]– رحمه الله– قال: سُئل أيوب[٦] عن مسألةٍ، فصمت، فقال الرجل: يا أبا بكر لم تفهم أعيد عليك، فقال أيوب: قد فهمت، ولكني أفكر كيف

---

(١) فتح الباري، لابن حجر(١٣٧/١٩).

(٢) شرح مسند الشافعي، للقزويني (٤١٩/٣).

(٣) إعلام الموقعين، لابن القيم(١٦٦/١).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين (٦٤٧/٣)، رقم ٦٣٧٨.

(٥) حماد بن زيد بن درهم الأزدي الجهضميّ، مولاهم، البصريّ، أبو إسماعيل، شيخ العراق في عصره، من حفاظ الحديث المجوّدين، يُعرف بالأزرق، مولده ووفاته في البصرة، وكان ضريرا طرأ عليه العمى، خرّج حديثه الأئمة الستة، وتوفي ١٧٩هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٢١١/١)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(٩/٣)، وحلية الأولياء، للأصبهاني (٢٥٧/٦)، والأعلام، للزركلي(٢٧١/٢).

(٦) أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني البصري، أبو بكر، سيد فقهاء عصره، تابعي، من النساك الزهاد، من حفاظ الحديث، كان ثبتاً ثقة رُوي عنه نحو ٨٠٠ حديث، وتوفي ١٣١هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٢٩٧/١)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(٣/٣)، والأعلام، للزركلي(٣٨/٢).

أجيبُك"[1]، "وجاء رجلٌ إلى مالك بن أنس يسأله عن شيءٍ أياماً ما يجيبُه، فقال: يا أبا عبد الله إنِّي أريد الخروج، وقد طال الترددُ إليك، قال: فأطرق طويلاً ثم رفع رأسه فقال: ما شاء الله، يا هذا إنِّي إنَّما أتكلم فيما أحتسب فيه الخير، ولستُ أحسن مسألتك هذه"[2].

وبناءً على ما سبق، فإنَّ على طالب العلم أن يتريث وأن يتمهل قبل أن ينكلم، وأن يُقبل على المسألة التي يريد فهم أسرارها، مُفرِّغاً قلبه من الهموم والشواغل؛ لتتفتح أمامه الصعوبات، وليصل إلى مراده من أقصر طريق.

ثانياً: الأسباب المتعلقة بالنص:

١- معرفة اللغة العربية والإلمام بفنونها: إنَّ معرفة اللغة العربية تُعد من أساسيات فهم النص الشرعي؛ لأنّ نصوصَ الشريعة جاءت بلسانٍ عربيٍّ مبينٍ، فاللغة العربية هي لغة القرآن، وبها نزل، قال ﷻ:﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف:٢]، وهي أيضاً لغة السنة التي جاءت مبيّنةً للقرآن، قال ﷻ:﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل:٤٤]، وكتب عمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري ﷺ: "أما بعد: فتفقهوا في السُنَّة، وتفقَّهوا في العربية، وأعربوا القرآن، فإنه عربيٌّ"[3]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- تعليقاً على هذا الأثر: "وهذا الذي أمر به عمر ﷺ من فقه العربية، وفقه الشريعة، يجمع ما يُحتاج إليه؛ لأنَّ الدين فيه أقوالٌ وأعمالٌ، ففقهُ العربية هو الطريق إلى فقه أقواله، وفقه السُنَّة هو فقه أعماله"[4].

وعن أبي بن كعبٍ ﷺ قال: "تعلَّموا العربية كما تَعلَّمون حفظ القرآن"[5]، وقال مجاهد- رحمه الله-: "لا يحل لأحدٍ يُؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"[6]، "فمن لم يكن له إلمامٌ بلغة العرب، لن يستقيم له فهمٌ للنصوص الشرعية، ولا يُمكنه استخراج الأحكام من الكتاب والسنة"[7]؛ لأنه من المقرر عند أهل العلم، أنَّ "فهم ألفاظ النصوص الشرعية، لا بدَّ أن يكون وفق أساليب اللغة العربية، وطرق الدلالة فيها على المعاني، وما تدل عليه ألفاظها مفردة ومركَّبة، ولا سبيل إلى فهم مدلولات الألفاظ العربية من غير جهة لسان العرب[8]، ولا يمكن الوصول

(١) المدخل إلى السنن الكبرى، للبيهقي(١/٤٤٠)، رقم٨٢٧.

(٢) المصدر السابق (١/٤٣٧)، رقم ٨١٦.

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/١١٦)، رقم ٢٩٩١٤.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية(١/٥٢٧).

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف (٦/١١٦)، رقم ٢٩٩١٥.

(٦) البرهان في علوم القرآن، للزركشي(١/٢٩٢)، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٤/٢١٣).

(٧) شرح مختصر الروضة، لنجم الدين الطوفي(١/٤٦٨).

(٨) المحلى بالآثار، لابن حزم(٣/٤١١).

إلى معنىً جزئيٍ في النص فقهياً كان أم أصولياً إلا بالانطلاق من اللغة، ولذلك كان أولُ ما يجبُ وما " يُحتاج أن يُشتغل به من علوم القرآن، العلومُ اللفظية، وتحقيقُ الألفاظ المفردة؛ فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن من أعظم الوسائل لمن يريد أن يُدرِك معانيه، وليس ذلك نافعاً في علم القرآن فقط؛ بل هو نافعٌ في كلِّ علمٍ من علوم الشرع"[1].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" فإنَّ نفس اللغة العربية من الدِّين، ومعرفتها فرضٌ واجبٌ، فإنَّ فهم الكتاب والسنة فرضٌ، ولا يُفهم إلا بفهم اللغة العربية، وما لا يتمُّ الواجبُ إلا به فهو واجبٌ، ثم منها ما هو واجبٌ على الأعيان، ومنها ما هو واجبٌ على الكفاية"[2].

ومما يبين أهميتها وضرورة تعلمها على صورتها الفصيحة، أنَّ نصوص القرآن الكريم والسنّة النبوية قد جاءت على ما عهدته العرب في لسانها؛ ولذلك يجب أنْ يكون الفهم لمعاني الألفاظ على صورتها التي كانت عليها حال نزول الوحي، وأن تكون المعاني المُستنبَطة منضبطةً بقواعد اللسان العربي، يقول ابن القيم- رحمه الله-:" وهذا موضعٌ زلَّت فيه أقدام كثيرٍ من النَّاس، وضلَّت فيه أفهامهم، حيث تأوَّلوا كثيراً من ألفاظ النصوص، بما لم يُؤلَف استعمال اللفظ له في لغة العرب البتة، وإن كان معهوداً في اصطلاح المتأخرين، وهذا مما ينبغي التنبهُ له، فإنَّه حصل بسببه من الكذب على الله ورسوله ما حصل"[3]، ويقول أيضاً- رحمه الله-: "القرآن والسنة إنَّما تُحمل ألفاظهما على لغة القوم، لا على الاصطلاحات الحادثة، فإن هذا أصلُ كلِّ فسادٍ وتحريفٍ وبدعةٍ، وهذا شأن أهل البدع دائماً، يصطلحون على معانٍ يضعون لها ألفاظاً من ألفاظ العرب، ثم يحملون ألفاظ القرآن والسنة على تلك الاصطلاحات الحادثة"[4].

يقول الزمخشري[5]: "من بدع التفاسير قول من قال: إنَّ الإمام في قوله ﷻ: ﴿**يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ**﴾[الإسراء:٧١]، جمع "أم"، وأنَّ الناس يُدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم، قال: وهذا غلطٌ أوجبه الجهل بالتصريف، فإنَّ لفظة أم لا تُجمع على إمام"[6].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني (٥٤/١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية(٥٢٧/١).

(٣) الصواعق المرسلة، لابن القيم(١٨٩/١).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٢٣٢/١).

(٥) محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمي الزمخشريّ، جار الله، أبو القاسم: من أئمة العلم بالدين والتفسير واللغة والآداب، ولد في زمخشر(من قرى خوارزم)، وسافر إلى مكة فجاور بها زمنا فلقب بجار الله، وتنقل في البلدان، ثم عاد إلى الجرجانية (من قرى خوارزم) فتوفي فيها عام ٥٣٨ هـ، من أشهر كتبه: الكشاف في تفسير القرآن، وأساس البلاغة، وكان معتزلي المذهب، مجاهراً بمذهبه. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٨١/٢)، ولسان الميزان، لابن حجر(٤/٦)، والأعلام، للزركلي(١٧٨/٧).

(٦) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٢١٣/٤).

ويقول السيوطي- رحمه الله- عن تفسير القرآن بلغة العرب:"وأمَّا ما لم يرد فيه نقلٌ فهو قليلٌ وطريق التوصُلُ إلى فهمه، النظرُ إلى مفردات الألفاظ من لغة العرب، ومدلولاتها واستعمالها بحسب السياق"[1].

ومن أهمِّ علوم العربية المُعينَة على فهم النص الديني، واستجلاء الدلالة فيه، وإظهار المعنى المُراد، علمُ النحو، فهو علمٌ شريفٌ عظيمٌ، ولا يمكن لأي طالب علمٍ أن يطلب فهم الشريعة من دونه؛ لأنَّه من المهم لطالب العلم أن يستقيم لسانُه، وأن يعقل عن الله مراده، وكذلك عن رسول الله ﷺ، ومن ثمَّ "ففرضٌ على الفقيه أن يكون عالماً بلسان العرب؛ ليفهم عن الله ﷻ، وعن النبي ﷺ، ويكون عالماً بالنحو، فمن جهل اللغة، وجهل النحو الذي هو علم اختلاف الحركات الواقعة لاختلاف المعاني، فلم يعرف اللسان الذي به خاطبنا الله ﷻ، ونبيُنا ﷺ، ومن لم يعرف ذلك اللسان لم يَحِلْ له الفُتيا فيه؛ لأنه يُفتي بما لا يدري"[2]، وصدق القائل:

اجْنَحْ إِلَى النَّحْوِ تَجْدْهُ عِلْمَا ... تَجْلُو بِهِ الْمَعْنَى الْعَوِيْصَ الْمُبْهما[3].

فعلم النحو من العلوم الضرورية لكلِّ طالب علمٍ، ولا يُستغنى عنه البتة بحيث "لو سقط علم النحو لم تُفهم نصوص الشارع الحكيم"[4]؛ فلا بدَّ للمتعامل مع النص الشرعي أن يكون خبيراً عالماً بقواعد علم النحو، لأنَّ فهم النص الديني بشكلٍ صحيحٍ كاملٍ مرتبطٌ ارتباطاً كلياً بمعرفةِ موقع الكلمة في الجملة العربية، ومعرفةِ إعرابها، وهذا لا يتيسر إلا لمن عنده زادٌ طيبٌ في هذا العلم[5].

وعلم النحو هو من العلوم التي لا يكون الفقيه فقيهاً، ولا الأصولي أصولياً، إلا إذا كانت له قدمٌ راسخةٌ فيه، ولذلك يقول السيوطي في مقدمة ألفيته المسماة بالفريدة في النحو:

"النحوُ خيرُ ما به المرء عُني ... إذ ليس علمٌ عنه حقاً يَغتني"[6].

٢- معرفة علم أصول الفقه وعلوم القرآن وعلوم الحديث: إنَّ طالب العلم لا بُدَّ له من العناية بما يخدم النَّص الديني، ويُعين على فهمه، وأولى ما يُستعان به على ذلك، التمكن من علم أصول الفقه الذي يُتوصل به إلى الفقه في الدين، ومعرفة الحلال من الحرام، ويعين على كيفية التعامل مع نصوص الكتاب والسنة، وبذلك يتأصَّل الدارس تأصيلاً فقهياً عن طريق معرفة الكليات والقواعد الكبرى، التي تقوده إلى استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها التفصيلية، يقول ابن تيمية- رحمه الله-:

---

(١) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٢٢٢/٤).

(٢) الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم(١٢٦/٥).

(٣) التحفة الوسيمة شرح على الدرة اليتيمة(٣/١)، لمحمد عبد القادر الجزائري، وينسب هذا البيت لسعيد بن سعد بن نبهان الحضرمي (ت ١٣٥٤هـ)، صاحب نظم الدرة اليتيمة في النحو.

(٤) رسائل ابن حزم الأندلسي(١٦٢/٣).

(٥) انظر: قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله، لعبد الرحمن حبنكة الميداني(٨٩/١).

(٦) جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده، لطاهر حمودة(٣١٩/١).

"إنَّ المقصود من أصول الفقه أن يُفقه مُراد الله ورسوله بالكتاب والسنة"[1]، "ولا يمكن للطالب أن يصير متفقهاً، ما لم تكن له درايةٌ بالأصول، ولو قرأ الفقه سنين وأعواماً، ومن ادَّعى غير ذلك كان كلامه إمَّا جهلاً وإمَّا مكابرة"[2].

وهذا العلم لا غنى لطالب العلم عنه البتَّة، يقول الشوكاني[3] -رحمه الله- في مقدمة كتابه (إرشاد الفحول):" فإنَّ علم أصول الفقه لمَّا كان هو العلم الذي يأوي إليه الأعلام، والملجأ الذي يُلجأ إليه عند تحرير المسائل، وتقرير الدلائل في غالب الأحكام، وكانت مسائله المقررة وقواعده المحررة تُؤخذ مسلمةً عند كثيرٍ من الناظرين، فإنَّ أحدهم إذا استشهد لما قاله بكلمةٍ من كلام أهل الأصول، أذعن له المنازعون، وإن كانوا من الفحول؛ لاعتقادهم أنَّ مسائل هذا الفنِّ وقواعدِه مؤسسةٌ على الحقِّ الحقيقِ بالقبول، مربوطةٌ بأدلةٍ علميةٍ من المعقول والمنقول، تقصر عن القدح في شيءٍ منها أيدي الفحول، وإن تبالغت في الطول"[4].

وتبرز أهمية هذا العلم في أنه لما كثر اختلاط العرب بغيرهم، وبعدوا عن عصر الرسالة احتاجوا إلى قواعد وضوابط تعينهم على فهم الكتاب والسنة، وقد وُجد هذا العلم مبثوثاً ومنثوراً في كتب الأئمة، مثل كتب الإمام الشافعي كالرسالة والأم وهو أول من صنف في هذا العلم تصنيفاً مفرداً مستقلاً، ثم أُلفت بعد ذلك الكتب والمؤلفات الخاصة بهذا الفن، وتتابع فيها التأليف والجمع إلى زماننا هذا ما بين مصنفٍ وجامعٍ وناظمٍ وشارحٍ ومختصرٍ، خدمةً لهذا الفن المهم من علوم الشريعة[5]؛ فعلمَ الأصولِ من العلومِ المساعدةِ على فهم النصوص الشرعية ومثله علمي اللغة ومصطلح الحديث، فهذه العلوم الثلاثة يسميها العلماء علوم الآلة، أي: الآلات التي تساعد طالب العلم على الوصول إلى الحكم الشرعي، فبعلم الأصول يتعلم طالب العلم كيف يستنبط الحكم الشرعى من الكتاب والسنة، وبعلم اللغة يتوصل إلى المراد بالألفاظ والتراكيب في لغة العرب، وقد تقدم الكلام عن أهميته.

أمَّا علم المصطلح فيستدلُّ به طالب العلم على صحة الحديث من عدمه، ويُحصِّن السنة من كلِّ دخيلٍ، ويحميها من المس والوضع، من خلال بيان حال الرواة والمتن وما يتعلق بذلك من اتصالٍ وعدالةٍ وضبطٍ وشذوذٍ وعلةٍ وغيرها من المباحث الكثيرة في هذا العلم، وهو من العلوم التي اختصت

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤٩٧/٢٠).

(٢) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن بدران(٤٨٩/١).

(٣) محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني، فقيهٌ مجتهدٌ من كبار علماء اليمن، نشأ بصنعاء، وولي قضاءها، ومات حاكما بها، له مؤلفات كثيرة، منها: نيل الأوطار من أسرار منتقى الأخبار، والبدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، والفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة، وفتح القدير، وإرشاد الفحول، والتحف في مذهب السلف، وغيرها، وتوفي ١٢٥٠هـ. انظر: البدر الطالع، للشوكاني(٢١٤/٢)، والأعلام، للزركلي(٢٩٨/٦).

(٤) إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني(١٥/١).

(٥) انظر: مذكرة في أصول الفقه، للشنقيطي(٤/١).

بها الحضارة الإسلامية دون غيرها من الحضارات، "فإسناد النص وضبط رجاله، وإحكام اتصال رجاله، من الأوصاف التي خصَّ الله ﷻ بها المسلمين دون سائر أهل الملل كلها"[١].

وأمَّا معرفة علوم القرآن، فهي ضروريةٌ لفهم مواقع الخطاب، وادراك مقاصد النصوص، وإلا فكيف يعرف ويفهم طالب العلم ما يُخاطب به من التكاليف من الأوامر والنواهي، وهو لا يعرف العام والخاص، والمطلق والمقيد، والناسخ والمنسوخ؛ فيي علومٌ ضرورية ينبني عليها معرفة الأحكام المعمول بها، فقد يُفتي أحدُهم بحكمٍ دليله منسوخ، أو يتخذ موقفاً في الحياة، بناءً على حكمٍ منسوخٍ، وهذا نقيصةٌ في حق طالب العلم، كما قال الإمام أحمد- رحمه الله-: "إنَّ العالم إذا لم يعرف الصحيح والسقيم، والناسخ والمنسوخ من الحديث لا يُسمى عالماً"[٢]، "فلا يجوز لأحدٍ أن يُفسر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ"[٣].

ولا يخفى على طالب العلم أنَّ كل هذه العلوم وسيلةٌ إلى معرفة كلام الله ﷻ، وحديث رسول الله ﷺ، والغاية من معرفة كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ العمل بهما، والدعوة إليهما؛ لأنَّه ليس المقصود من معرفة النصوص حفظ حروفها فقط، فالحفظ مطلوبٌ، ولكن مطلوبٌ معه الفهم والاستنباط والعمل؛ لأن النصوص إنَّما نزلت للتعبد والعمل بها، وعليه "فاستغراق الوقت بالوسيلة عن الغاية خطأٌ ظاهرٌ لا يليق بطلاب العلم، ولا يصدر من ذوي البصائر والفقه في الدين، فنجد أنَّ الكثيرين قد ضيعوا الأوقات في دراسة تفاصيل فضول علوم الآلة، رغم أنَّ العلماء وضعوها كطريقٍ لفهم الكتاب والسنة، لا عوضاً عنهما، فهي وسيلةٌ لا غايةٌ، فهي كاسمها آلةٌ بمعنى أنَّها ليست مقصودةً لذاتها، وإنَّما هي مقصودةٌ لغيرها"[٤]، ولكنها مع ذلك تبقى من أهمِّ مقتضيات العلم؛ لأن من فقد هذه العلوم لم يصل إلى مُبتغاه من الفهم، فلا بُدَّ من عدم التفريط في علوم الآلة كعلوم اللغة والمصطلح، مع عدم الإغراق فيها؛ لأنَّها وسيلةٌ وليست غايةً.

٣- **معرفة أسباب النزول وأسباب الورود:** إنَّ أسباب النزول هي "الحادثةُ أو القصةُ التي وقعت في زمن النبي ﷺ، أو سؤالٌ وُجه إليه، فنزلت الآية ببيان ما يتصل بتلك الحادثة، أو بجواب هذا السؤال"[٥]، وعند الوقوف أمام معاني بعض الآيات، "لا يمكن معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها، دون

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم(٦٨/٢).

(٢) معرفة علوم الحديث، للحاكم، ص ٦٠.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٦٦/٣).

(٤) تاريخ ابن خلدون(٧٣٩/١).

(٥) مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني(١٠٦/١).

الوقوف على قصَّتِها، وبيان سبب نزولها"[1]، "فمعرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية؛ لأن العلم بالسبب يُورث العلم بالمسبَب"[2]؛ بل "إنّ بيان سبب النزول، طريقٌ قويٌ في فهم معاني القرآن"[3].

وأما أسباب الورود، "فهي الأسباب الداعية إلى ذكر رسول الله ﷺ الحديث لأوَّل مرة"[4]، "ولا بُدَّ لفهم الحديث فهمًا سليمًا دقيقًا، من معرفة الملابسات التي سيق فيها النصُّ، وجاء بيانًا لها، وعلاجًا لظروفها، حتى يتحدد المُرادُ من الحديث بدقةٍ، ولا يتعرض لشطحات الظُنون، وإذا كانت أسباب نزول القرآن مطلوبةً لمن يفهمه أو يُفسره، كانت أسبابُ ورود الحديث أشدَّ طلبًا؛ ذلك أنَّ القرآن بطبيعته عامٌ، وليس من شأنه أن يعرض للجزئيات والتفصيلات، أمَّا السنة فهي تعالج كثيرًا من المشكلات الموضعية والجزئية والآنية، وفيها من الخصوص والتفاصيل ما ليس في القرآن"[5].

ومن فوائد معرفة أسباب النزول وأسباب الورود، الوقوف على المعنى الصحيح للنصِّ، وإزالة الإشكال، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في الخبر أنَّ بعض الناس في غزوة مع الروم احتجوا على رجلٍ من المسلمين حمل على صف الروم يقاتلهم حتى دخل فيهم، "فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة، فقام أبو أيوب الأنصاري ﷺ فقال:"يا أيها الناس إنَّكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل، وإنَّما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لمَّا أعزَّ الله الإسلام، وكثُر ناصروه، فقال بعضنا لبعضٍ سراً دون رسول الله ﷺ: إنَّ أموالنا قد ضاعت، وإنَّ الله قد أعزَّ الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله ﷻ على نبيه ﷺ يردُّ علينا ما قلنا:﴿ **وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[البقرة:١٩٥]، فكانت التهلكةُ الإقامةَ على الأموال وإصلاحها، وتركَنَا الغزو"[6].

والأمثلة من السنة لبيان أهمية أسباب الورود، وأثرها في الفهم الصحيح كثيرةٌ، فمثلاً الحديث الذي يقول فيه ﷺ:**(أنتم أعلم بأمر دنياكم)**[7]، اتخذه دعاة العلمانية ذريعةً للفصل بين الدنيا والدين، وأنَّ الرسول ﷺ وكَلَ إلى الناس أمر دنياهم، فهم أعلم بها، وهذا خطأٌ في الفهم، يُردُّه معرفة سبب ورود

(١) أسباب نزول القرآن، للنيسابوري(١/٨).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٣٩).

(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(١/١٠٨).

(٤) الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، لمحمد أبو شهبة(١/٤٦٧).

(٥) كيف نتعامل مع السنة النبوية، للقرضاوي(١/١٢٥).

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن، باب ومن سورة البقرة، حديث رقم ٢٩٧٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ١٣.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا، على سبيل الرأي،(٤/١٨٣٥)، حديث رقم ٢٣٦١.

الحديث، وهي قصة تأبير النخل–أي: تلقيحه–، فقد مرَّ رسول الله ﷺ بقومٍ على رءوس النخل، فقال:"ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأنثى فيلقح، فقال رسول الله ﷺ: ما أظن يغني ذلك شيئاً، فأُخبروا بذلك فتركوه، فأُخبر رسول الله ﷺ بذلك، فقال: إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإنِّي إنَّما ظننتُ ظناً، فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئاً، فخذوا به، فإنِّي لن أكذب على الله عز وجل"[1]، فتبيَّن من سبب ورود الحديث أنه قيل في حادثةٍ مخصوصةٍ لبيان أمرٍ ما، وليس معناه فصل الدين عن الدنيا، أو أنَّ الدين ليس له شأنٌ في شئون الحياة؛ بل الدنيا لا تصلح إلا بالدين وشرائعه وأحكامه وعدله، فإنَّ مما أرسل الله به رسله، أن يضعوا للناس قواعد العدل، وموازين القسط، وضوابط الحقوق والواجبات في دنياهم، حتى لا تضطرب مقاييسهم، وتتفرق بهم السبل، كما قال ﷻ:﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ** ﴾[الحديد:٢٥].

وينبغي التنبيه أن الآية أو الحديث إذا نزلت لسببٍ مُعينٍ، أو ورد في حادثةٍ مُعينةٍ، فإنَّ حكمهما يشمل كل من اشترك في نفس العلَّة، أو كان من نوعها، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكلُّ قولٍ فيه ذكر نوعٍ في الآية، ذُكر لتعريف المستمع بتناول الآية له، وتنبيهه به على نظيره، لا سِيَّما إن كان المذكور شخصاً، كقولهم إنَّ آية الظهار نزلت في امرأة أوس بن الصامت ﵁، وأنَّ آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله ﵁، فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أنَّ حكم الآية مختصٌ بأولئك الأعيان دون غيرهم؛ فإنَّ هذا لا يقوله مسلمٌ ولا عاقلٌ على الإطلاق، فلم يقل أحدٌ من علماء المسلمين أنَّ عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المُعيَّن، وإنَّما غايةُ ما يُقال إنَّها تختص بنوع ذلك الشخص، فيعمُّ ما يُشبهه، والآية التي لها سببٌ معينٌ إن كانت أمراً ونهياً فهي متناولةٌ لذلك الشخص ولغيره ممَّن كان بمنزلته، وإن كانت خبراً بمدحٍ أو ذمٍ فهي متناولةٌ لذلك الشخص وغيره ممن كان بمنزلته أيضاً"[2].

٤– فهم دلالة السياق وقصد المتكلم: إنَّ ألفاظ اللغة العربية ذات دلالاتٍ متنوعةٍ، وأساليبَها متعددةٌ، ووجوه تصريف القول في اللسان العربي كثيرةٌ، فلا بُدَّ في فهم النص من إدراكٍ سليمٍ، ومعرفةٍ عميقةٍ بدلالات الألفاظ على المعاني، وبالتغير الذي يطرأ على دلالة النَّص تبعاً للسياق المُحيط به، يقول ابن القيم– رحمه الله–:" السياق يُرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المُحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المُراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوعِ الدلالة، وهذا من أعظم القرائن الدالة على مراد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل ، باب وجوب امتثال ما قاله شرعا، دون ما ذكره ﷺ من معايش الدنيا، على سبيل الرأي،(١٨٣٥/٤)، حديث رقم ٢٣٦١.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٣٩/١٣).

المتكلم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته، فانظر إلى قوله ﷻ:﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾[الدُخان:٤٩]،كيف تجد سياقه يدلُّ على أنَّه الذليل الحقير"(١).

وممَّا يُبين أهمية معرفة دلالة السياق وقصد المتكلم أنَّ الكلام الواحد تختلف دلالته تبعاً للمقتضيات المحيطة به، فدلالة الألفاظ تابعةٌ لقصد المتكلم وإرادته، "ولمَّا كان المقصود من التخاطب التقاء قصد المتكلم وفهم المخاطب على وجهٍ واحدٍ، كان أصحُّ الأفهام وأسعد الناس بالخطاب، ما التقى فيه فهم السامع ومراد المتكلم، وهذا هو حقيقة الفقه الذي أثنى الله ورسوله به على أهله، وذمَّ من فقده"(٢)؛ ولذلك لا بُدَّ من فهم دلالة السياق وقصد المتكلم؛ ليُفهم المراد من كلامه، وفي هذا المعنى يقول الشاطبي- رحمه الله-: "إنَّ العرب فيما فُطرت عليه من لسانها، تُخاطِب بالعام يُراد به ظاهره، وبالعام يُراد به العام في وجهٍ، والخاص في وجهٍ، وبالعام يُرَاد به الخاص، والظاهر يُراد به غير الظاهر، وكلُّ ذلك يُعرَف من أول الكلام أو وسطه أو آخره، وتتكلَّم بالكلام يُنبئ أوَّلُه عن آخره، أو آخرُه عن أوَّلِه، وتتكلَّم بالشيء يُعرف بالمعنى كما يُعرَف بالإشارة، وتُسمِّي الشيء الواحد بأسماء كثيرةٍ، والأشياء الكثيرة باسمٍ واحدٍ، وكلُّ هذا معروفٌ عندها، لا ترتاب في شيءٍ منه هي ولا من تعلَّق بعلم كلامها، فإذا كان كذلك فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب"(٣).

ويقول ابن القيم- رحمه الله-:" والتعويل في الحكم على قصد المتكلم، فالألفاظ لم تقصد لنفسها، وإنما هي مقصودةٌ للمعاني، والتوصل بها إلى معرفة مراد المتكلم، ومراده يظهر من عموم لفظه تارةً، ومن عموم المعنى الذي قصده تارةً، وقد يكون فهمه من المعنى أقوى، وقد يكون من اللفظ أقوى، وقد يتقاربان"(٤).

وقد اهتم العلماء في موضوع فهم النص بالألفاظ وعلاقتها بالمعاني، بل إنَّ البحث عن المعنى الذي يحمله النص كان هو الأصل والقصد عند الأصوليين؛ لأنَّ الألفاظ التي جاءت في النَّص الشرعي ليست في مستوىً واحدٍ من حيث الوضوح والإبانة والخفاء، بل "إن اللفظ الواحد قد يدلُّ على الحكم بصيغته ومنظومه، أو بفحواه ومفهومه، أو بمعناه ومعقوله"(٥)، وهذا ما صرح به الإمام الشاطبي- رحمه الله- عندما قال:" الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب هو المقصود الأعظم، بناءً على أن العرب إنَّما كانت عنايتها بالمعاني، وإنَّما أصلحت الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلومٌ عند

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم(١٠/٤).

(٢) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٥١٠/٢).

(٣) الموافقات، للشاطبي(١٠٤/٢).

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١٦٦/١).

(٥) المستصفى، للغزالي(١٨٠/١).

أهل العربية، فاللفظ إنَّما هو وسيلةٌ إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود"[١]، وهذا يعني أنَّ معرفة كيفية دلالة الألفاظ على المعاني والأحكام لا بُدَّ منه؛ ليقع الفهم واضحاً، "ولئلا تختلط المعاني والمدلولات، فيُسمَّى بعضها باسم بعضٍ، فيؤدي ذلك إلى وضع معنىً في غير موضعه، فتبطلُ الحقائق، ويقعُ الإشكال وكثيراً ما كان الصحابة والسلف، والعلماء من بعدهم، يستشهدون في ردودهم على المخالفين بأنَّ اللغة وسياق النَّص لا يحتمل فهمهم؛ وبالتالي فهو مغلوطٌ مردودٌ"[٢].

وفهم مراد المتكلم متوقفٌ على أمرين، وهما: بيان المتكلم، وتمكن السامع من الفهم، فإن لم يحصل البيان من المتكلم، أو حصل له ولم يتمكن السامع من الفهم، لم يحصل مُراد المتكلم، وإذا بيَّن المتكلم مراده بالألفاظ الدالة على مُراده، ولم يعلم السامع معنى تلك الألفاظ، لم يحصل البيان، فلا بُدَّ من تمكن السامع من الفهم، وحصول الإفهام من المتكلم[٣]، "فإذا فهم السامع مقصود المتكلم، فقد فهم حقيقة كلامه"[٤]، وأعظم من يُحتاج لمعرفة مُراده هو الله ﷻ، ورسوله ﷺ؛ لأنَّه على هذه المعرفة ينبني الاعتقاد والعمل، قال ابن تيمية- رحمه الله-:" ولا بُدَّ في تفسير القرآن والحديث من أن يُعرف ما يدلُّ على مراد الله ورسوله من الألفاظ، وكيف يُفهم كلامُه"[٥]، ثم يأتي بعد ذلك في المنزلة معرفة مراد الصحابة من كلامهم المُفسِّر للسنة، والمُبيِّن لتفاصيلها، "فمعرفة مراد الرسول ومراد الصحابة هو أصل العلم، وينبوع الهدى"[٦].

وبناءً على ما سبق فإنَّ فهم قصد المتكلم ودلالة السياق، يُعدُّ من القواعد الأساسية في فهم النَّص، وتبديل الألفاظ لا يُغير من الحقيقة شيئاً إن فُهم المُراد من السياق، وممَّا يُدلِّلُ على ذلك أنَّ الناس في آخر الزمان يستحلون الخمر، يسمونها بغير أسمائها[٧]، ومع ذلك تبقى مُحرمةً ولا تصبح حلالاً، "فاختلاف اللفظ لا يؤثر مع اتفاق المعنى، والعبرة في المعاني لا في الألفاظ، والأسماء لا تغير الحقائق"[٨].

---

(١) الموافقات، للشاطبي (١٣٨/٢).

(٢) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم(١٩١/١)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤٢٢/٥).

(٣) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٣١٠/١) بتصرف يسير.

(٤) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٣٣٠/١).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١٦/٧).

(٦) المرجع السابق(٤١٣/٥).

(٧) الحديث في سنن ابن ماجه، رقم(٣٣٨٥)، ومسند أحمد (٣١٨/٥) ، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، حديث رقم ٩٠.

(٨) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، لصالح الفوزان(١٦٢/١).

٥- **معرفة المصالح والمقاصد الشرعية في النص:** إنَّ من الفهم السليم لنصوص الشريعة "مراعاة تحصيل المصالح التي جاءت بها الشريعة وتكميلُها، وتعطيلُ المفاسد وتقليلُها، إذ أنَّ الشريعة مبنيةٌ على الإتيان بما فيه صلاح البشر في العاجل والآجل، في جميع ما أمرت به"(١).

والمراد بالمصلحة هنا ليس ما اشتُهر بين الناس من تحقيق النفع الشخصي؛ وإنَّما هي "المحافظة على مقصود الشرع؛ ومقصود الشرع من الخلق خمسةٌ: أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم، وعقلهم، ونسلهم، ومالهم، فكلُّ ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحةٌ، وكلُّ ما يُفوِّت هذه الأصول فهو مفسدةٌ، ودفعها مصلحةٌ"(٢)، وهذه المصالح والمقاصد لا تُنتهك إلا بمسوغٍ صحيحٍ صريحٍ من الشرع نفسِه، وإلا نبقى على الأصل لا نتجاوزه ولا نتعداه، فكلُّ حكمٍ أو قولٍ يؤدي إلى خللٍ بأحد هذه الكليات لا عبرة به، إلَّا أنْ يكون أمراً مشروعاً كالحدود على من يستحقُّها، أو ما فيه ابتلاءٌ للمكلف، كالصبر على الجهاد مع ما فيه من كره الناس له، كما قال ﷻ:﴿ **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:٢١٦]؛ ولذلك لا سبيل لمعرفة المصالح والمفاسد، وما فيه المنفعة والضرر، وما فيه الخير والشر، إلا من طريق الشرع، قال العزُّ بن عبد السلام(٣) – رحمه الله- في كتابه البديع -قواعد الأحكام في مصالح الأنام-، الذي جعله كلُّه في هذه المسألة:" وأما مصالح الآخرة ومفاسُدها فلا تُعرف إلا بالنقل، فكلُّ مأمورٍ به، ففيه مصلحة الدارين أو إحداهما، وكلُّ منهيٍ عنه ففيه مفسدةٌ فيهما أو في إحداهما، ولا سعادة أصلح من العرفان والإيمان وطاعة الرحمن، ولا شقاوة أقبح من الجهل بالديان، والكفر والفسوق والعصيان، ومعظم مقاصد القرآن، الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها"(٤).

والموازنة بين المصالح والمفاسد منهجٌ دلَّنا عليه الله ﷻ في كتابه، عندما تدرَّج في تحريم الخمر، وبيَّن أنَّ مفاسدها من غياب العقل والصدِّ عن ذكر الله ﷻ، أكثر من نفعها الآني في نظر

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٣٦/٣٠).

(٢) المستصفى في أصول الفقه، للغزالي(١٧٤/١).

(٣) عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السُّلمي الدمشقيّ، عز الدين الملقب بسلطان العلماء، فقيهٌ شافعيٌّ، بلغ رتبة الاجتهاد، توفي بالقاهرة ٦٦٠هـ، من كتبه: التفسير الكبير، وقواعد الأحكام في إصلاح الأنام، وترغيب أهل الإسلام في سكن الشام. انظر: فوات الوفيات، لمحمد بن شاكر(٢٨٧/١)، وطبقات الشافعية الكبرى، للسبكي(٨٠/٥)، والأعلام، للزركلي(٢١/٤).

(٤) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام (٨/١).

الإنسان من حيث التجارة فيها وكسب الأموال، فقال ﷻ:﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾[البقرة:٢١٩].

والموازنة بين المصالح والمفاسد منهجٌ نبويٌ شريف، ورد في السنة في مواطن كثيرةٍ، ومن الأمثلة على ذلك: تركُه ﷺ قتل المنافقين للمصلحة العامة، مع أنَّ موجِب القتل كان حاصلاً في حقهم، وهو الكفر بعد النطق بالشهادتين، والسعي في إفساد حال المسلمين، فقتلهم كان درءاً لمفسدة إفسادهم في الأرض، إلَّا أنَّه ﷺ لم يقتلهم، وقال:**(لا يتحدث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه)**[(١)]، فكانت مصلحة بقائهم أرجح من قتلهم، راجياً بذلك دخول قبائل العرب الإسلام، لما يسمعون من أنَّ محمَّداً يُكرم ويُعزِّز من دخل دين الإسلام[(٢)].

وفي موقفٍ آخر يدل على الموازنة بين المصالح والمفاسد " قدَّم النبي ﷺ في صلح الحديبية المصلحة الجوهرية على الشكلية، من قبول شروطٍ يُظنُّ في أول وهلةٍ أنَّها إجحافٌ بأهل الإسلام، كحذف البسملة ووصف الرسالة من وثيقة الصلح، وقد رضي بذلك الرسول ﷺ؛ ليُحقق من وراء هذا نشر دعوته في أمنٍ وأمان"[(٣)].

وقد قدَّم كثيرٌ من أهل العلم درء المفسدة على جلب المصلحة عند التساوي، ويُعلِّلون ذلك بأن اعتناء الشرع بالمنهيات أشدُّ من اعتنائه بالمأمورات؛ ولذا قال ﷺ:**(إذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم)**[(٤)]؛ بل وجعلوا تقديم درء المفسدة على جلب المصلحة قاعدةً فقهيةً كُلِّيةً يندرج تحتها فروعٌ كثيرة، فقالوا: درء المفاسد أولى من جلب المصالح، وإذا تعارضت مفسدةٌ ومصلحةٌ قُدِّم دفع المفسدة، "واستنبط العلماء هذه القاعدة من نصوص القرآن والسنة، فمثلاً في سبِّ الأصنام وسبِّ آلهة الكفار مصلحةٌ، وهي تحقيرُ دينهم، وتسفيهُ أحلام الذين يعبدونها من دون الله جل وعلا، وإهانتُهم لشركهم بالله ﷻ، ولكن هناك مفسدةٌ أعظم، وهي مقابلتُهم السبَّ بسبِّ الله ﷻ، فإذا سبَّ المؤمن الصنم، يُخشى أن يقوم كافرهم وجاهلهم وخبيثهم فيسبَّ الله جل وعلا، وهذه مفسدةٌ أعظم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: {سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم، لن يغفر الله لهم، إن الله لا يهدي القوم الفاسقين}، (١٥٤/٦)، حديث رقم ٤٩٠٥.

(٢) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام(٦٤/١).

(٣) المصدر السابق(٩٥/١).

(٤) أخرجه البخاري، كتاب أخبار الآحاد، باب الإقتداء بسنن رسول الله ﷺ، رقم ٧٢٨٨، وأخرجه مسلم في الحج باب فرض الحج مرة في العمر، رقم ٤١٢، وفي الفضائل باب توقيره ﷺ وترك إكثار سؤاله مما لا ضرورة إليه، رقم ١٣٣٧.

بكثير من مصلحة سبِّ هذه الأصنام، ولذلك منعنا الله من سبِّ الأصنام درءاً للمفسدة فقال:﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾[الأنعام:١٠٨].

وكذلك في قصة تغيير بناء الكعبة وإرجاعها على قواعد إبراهيم، فإنَّ النبي ﷺ همَّ أن يُعيد بناء الكعبة على ما بناها عليه ابراهيم- عليه السلام-، وقال لعائشة ﵂:(**لولا أنَّ قومك حديثو عهد بجاهليةٍ أو قال: بكفرٍ لأنفقتُ كنز الكعبة في سبيل الله، ولجعلتُ بابها بالأرض، ولأدخلتُ فيها من الحجر)**[١]، فهذا الحديث أصلٌ في أن دفع المفسدة مُقدَّمٌ على جلب المصلحة، وذلك أنَّه لو هدم الكعبة، وهم قد دخلوا الإسلام قريباً، فسيُفتتون عن دينهم؛ فلذلك راعى النبي ﷺ المفسدة والمصلحة في هذه المسألة، ووازن بينهما.

وبناءً على ذلك فإنَّه يجب على الفقيه عند نظره في الواقع تنزيل النصوص حسب رتب المصالح ودرجات المفاسد، "فالحاصل أنَّ النصوص الشرعية تدلُّ أنَّ المفاسد إذا تعارضت، ارتَكَب المكلَّفُ أَيسرَها لدفعِ أشدِّها، وأنَّ المصالحَ إذا ازدحمتْ يَفعلُ المكلَّفُ أرجحها ولو فات أَدنَاها"[٢]، "وإذا اجتمعت مصالحٌ ومفاسدٌ فإنْ أمكن تحصيلُ المصالح ودرءُ المفاسد فعلنا ذلك، وإنْ تعذَّر الدرء والتحصيل، فإنْ كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة ولا نبالي بفوات المصلحة، وإنْ كانت المصلحة أعظم من المفسدة حصَّلنا المصلحة مع التزام المفسدة، وإنْ استوت المصالح والمفاسد فقد يُتخير بينهما وقد يُتوقف فيهما"[٣]، ومن فالأمثلة على ذلك أنَّ الكذب مفسدةٌ محرمةٌ، لكنْ متى تضمَّن ذلك جلب مصلحةٍ تربو عليه جاز، كالكذب في الإصلاح بين الناس، وفي الحرب لخداع العدو، وعلى الزوجة لإصلاحها، وهذا كلُّه راجعٌ إلى ارتكاب أخف المفسدتين في الحقيقة"[٤].

ولذلك ليس الفقيه هو من يعرف الخير والشر، وإنَّما هو من "يعلم خير الخيرين، وشرَّ الشرين، ويعلم أنَّ الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلَّا فمن لم يوازن ما في الفعل والترك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية، فقد يدع واجبات ويفعل محرمات"[٥].

ومن مراعاة المصالح والمقاصد في النصوص، معرفة علل النصوص ومقاصدها، "فالغالب في الشرع مناسبة العلل لأحكامها، وزوال الأحكام بزوال أسبابها، فالحكم يدور مع علته وجوداً وعدماً"[٦]، ومما يلزم طالب العلم معرفته أيضاً في باب المصالح والمقاصد في النَّص أنَّ الوسائل لها أحكام

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب نقض الكعبة وبنائها، رقم ١٣٣٣.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٨/٢٨٤).

(٣) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام(١/٩٨).

(٤) الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة، لابن نُجيم (١/٧٨).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٠/٥١٢).

(٦) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي(١/٨٥٦)، وشرح القواعد الفقهية، للزرقا(١/٤٨٣).

المقاصد، وذلك بأنَّ "المقصد إذا كان سيئاً فإنَّ الوسيلة تكون ممنوعة، والمقاصد إذا كانت حسنةً فلا يجوز أن يُتوصل إليها إلا بوسائل مباحةٍ، ومعناه أنَّ الغاية لا تُبرِّر الوسيلة، فإذا كان مأموراً بشيءٍ كان مأموراً بما لا يتمُّ إلا به، فما لا يتم الواجب إلا به فهو واجبٌ، وإذا كان منهياً عن شيءٍ كان منهياً عن جميع طرقه ووسائله، فبيع العنب مباحٌ في الأصل، لكن عندما يُعلم أن المشتري إنَّما يريده ليعصره خمراً، فإنَّ بيعه له يَحْرم، وكذلك الوسائل إلى سائر المعاصي كالزنا، والسرقة، وشرب الخمر ونحوها كلُّها محرَّمةٌ، وكذا الحالُ في بيع السلاح فإنَّه مباحٌ في الأصل، ولكن لا يجوز أن يُباع لمن يستخدمه في قطع الطريق، وكلُّ مباحٍ يُتوصل به إلى ترك واجبٍ، أو فِعْل مُحرَّمٍ فهو محرمٌ"[(١)].

ومن ثَمّ فإنَّه لا يسعُ أحداً أنْ يُنكر هذا الأصل المهم في فهم النَّص؛ لأنّ إنكاره تعطيلٌ للنُّصوص، وإهدارٌ لما أجمعت عليها الأمَّة من أنّ نصوص الشريعة جاءت لتحقيق مصالح العباد، ودفع الضرر والأذى عنهم.

٦- **معرفة الثابت من المتغير:** من أسباب الفهم الصحيح لنصوص الشرع التمييز بين المقاصد والأهداف الثابتة التي تسعى الشريعة إلى تحقيقها، وبين الوسائل الآنية والبيئة التي تحددها للوصول إلى الهدف المنشود، والدارس المتعمق في النصوص الدينية، يتبين له أن المهم هو الهدف، وهو الثابت والدائم، والوسائل قد تتغير بتغير البيئة أو العصر أو العرف أو غير ذلك من المؤثرات[(٢)]، قال الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله-:"والوسائل لا تنحصر، فقد تكون وسيلةً اليوم، وغير وسيلةٍ في اليوم الثاني، أما العبادات الثابتة فهذه لا يجوز فيها التغيير، لا في زيادةٍ ولا نقصٍ، مثلاً مكبر الصوت وسيلةٌ لإيصال خطبة الجمعة إلى المسجد، ولو كان كبيراً، فهذا طيبٌ ومفيدٌ، أو وسيلة الخطوط التي في فراش المسجد، هذه أيضاً طيبةٌ؛ لأنها وسيلةٌ إلى تسوية الصفوف"[(٣)].

والوسائل تتغير من عصرٍ إلى عصر، ومن بيئةٍ إلى أخرى، "فإذا نصَّ الحديث على شيءٍ منها، فإنَّما ذلك لبيان الواقع، لا ليقيِّدنا بها، ويجمِّدنا عندها؛ بل إذا نصَّ القرآن على وسيلةٍ مناسبةٍ لمكانٍ معينٍ وزمانٍ معينٍ فلا يعني ذلك أن نقف عندها، ولا نفكر في غيرها من الوسائل المتطورة بتطور الزمان والمكان، ومن ذلك قوله ﷻ:﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ** ﴾[الأنفال:٦٠]]، فلم يفهم أحدٌ أن المرابطة في وجه الأعداء لا تكون إلا بالخيل التي نصَّ القرآن عليها، بل يفهم كلُّ من له عقلٌ يعرف اللغة والشرع أنَّ خيل العصر هي الدبابات والمدرعات ونحوها من أسلحة العصر، ومثل ذلك ما جاء في فضل من رمى بسهمٍ في سبيل الله، مثل حديث النبي ﷺ:**(من رمى بسهمٍ في سبيل الله فبلغ العدو أخطأ أو أصاب، كان له كعدل رقبةٍ، ومن أعتق**

(١) موسوعة الفقه الإسلامي، للتويجري(٢/٢٩٣).
(٢) انظر: كيف نتعامل مع السنة، للقرضاوي(١/١٣٩).
(٣) لقاء الباب المفتوح، لابن عثيمين(٢٨/٢٢٧).

رقبةً مسلمةً، كان فداء كل عضوٍ منه عضواً منه من نار جهنم، ومن شاب شيبةً في سبيل الله، كانت له نوراً يوم القيامة)[١]، فهو ينطبق على الرمي بالسهم أو البندقية أو المدفع أو الصاروخ أو أي وسيلةٍ أخرى يُخبِّئها الغيب"[٢]، قلت: وهكذا يجب أن تُفهم النصوص الشرعية، بفهم أهدافها ومقاصدها، واستغلال كل الوسائل الشرعية المتاحة لتطبيقها، أمَّا التوقف عند حرفية النص من غير فهم مقاصده، فإنه يُدخل المسلم في متاهاتٍ كثيرة، كما حدث مع الخوارج قديماً، وكما يحدث معهم حديثاً، ولذلك لا بدَّ لطالب العلم من فهم فقه الواقع الذي يحياه، وظروف عصره، وعادات الناس وأعرافهم، وما عمَّت به البلوى، كما قال ابن القيم– رحمه الله– :" ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحكم بالحقِّ إلا بنوعين من الفهم، أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، والنوع الثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه، أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبق أحدهما على الآخر؛ فمن بذل جهده واستفرغ وسعه في ذلك لم يعدم أجرين أو أجراً؛ فالعالم من يتوصل بمعرفة الواقع والتفقه فيه إلى معرفة حكم الله ورسوله"[٣].

ومن الأمثلة على ذلك تعيين البعض السواك بعود الأراك، وإنكارهم لغيره لتطهير الأسنان، فالهدف من التسوك هو طهارة الفم، حتى يرضى الرب، كما في الحديث:**(السواك مطهرةٌ للفم مرضاةٌ للربِّ)**[٤]، ولكن هل السواك من الأراك مقصودٌ لذاته، أم كان هو الوسيلة الملائمة الميسورة في ذلك الوقت، فوصف لهم النبي ﷺ ما يُؤدِّي الغرض ولا يَعسُر عليهم، ولا بأس أن تتغير هذه الوسيلة في مجتمعاتٍ أخرى، لا يتيسر لها هذا العود، إلى وسيلةٍ أخرى تفي بالغرض والمقصد مثل فرشاة الأسنان، وقد نصَّ الفقهاء على جواز ذلك، قال الإمام النووي– رحمه الله–: "وبأى شيءٍ استاك مما يزيل التغير كالخِرقة الخشنة وغيرها أجزأه؛ لأنَّه يحصل به المقصود"[٥]، وبهذا نعلم أن الفرشاة والمعجون يمكن أن يُجزئا المسلم في عصرنا، مع إقرارنا أنَّ عود الأراك أفضل؛ لأنه هو المُصرَح به في النص.

ويدخل في ذلك أيضاً ما جاء من الأحاديث المتعلقة بأدب المائدة في طريقة الأكل بالأصابع الثلاث، حيث ثبت **(أنَّ رسول الله ﷺ كان يأكل بثلاث أصابع، فإذا فرغ لعقها)**[٦]، "وَإِنَّ الذي ينظر

---

(١) سنن النسائي، كتاب الجهاد، باب ثواب من رمى بسهم في سبيل الله ﷻ، حديث رقم ٣١٤٥، وصححه الألباني.

(٢) انظر: كيف نتعامل مع السنة، للقرضاوي(١/١٤١).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١/٦٩).

(٤) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب سواك الرطب واليابس للصائم، (٣/٣١)، وأخرجه النسائي، كتاب الطهارة، باب الترغيب في السواك، رقم ٥.

(٥) المجموع شرح المهذب، للنووي(١/٢٨١).

(٦) صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب استحباب لعق الأصابع والقصعة، وأكل اللقمة الساقطة بعد مسح ما يصيبها من أذى، وكراهة مسح اليد قبل لعقها ، حديث رقم ٢٠٣٢.

إلى لفظ هذه الأحاديث فقط لا يفهم منها إلا الأكل بالأصابع الثلاث، وربما نظر إلى من يأكل بالملعقة نظرة اشمئزازٍ وإنكارٍ؛ لأنه في رأيه مخالفٌ للسنة متشبهٌ بالكفار، والحق أنَّ روح السُنَّة الذي يؤخذ من هذه الأحاديث هو تواضعه ﷺ، وتقديره لنعمة الله ﷻ في الطعام، والحرص على ألا يضيع منه شيءٌ هدرًا بغير منفعةٍ، كبقايا الطعام التي تُترك في القصعة، أو ما يعلق بالأصابع، أو اللقم التي تسقط من بعض الناس، فيستكبر عن التقاطها، إظهاراً للغنى والسعة، وبعداً عن مشابهة أهل الفقر والعوز"[1]، فلا حرج في الأكل بالملعقة أو أي شئٍ آخرٍ فهي وغيرها وسائلُ متجددةٌ، وكما جاء في الأثر:"**الحكمة ضالة المؤمن يأخذها إذا وجدها**"[2]، ولا حرج في استعمال هذه الأدوات، ما لم يصاحب ذلك تقليد الكفار في عاداتهم وتقاليدهم في التعامل مع هذه الأشياء، مثلاً: كإمساك السكينة باليد اليمنى، والشوكة باليد اليسرى، وتقطيع الطعام باليمنى والأكل باليسرى، فهذا فيه مخالفةٌ للشرع وتشبهٌ بالكفار، وليست المخالفة في استخدام الشوكة والسكين والأكل بها، وإنَّما في طريقة الاستعمال، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله:" أما الإفادة ممَّا عند الكفار اليوم، من صناعاتٍ، وعلومٍ تطبيقيةٍ ونحوها، فهذا أمرٌ لا علاقة له بموضوع التشبه؛ لأنَّ هذه العلوم والصناعات ليست من خصوصيات الكفار وإن احتكروه؛ لأنَّها إمكاناتٌ بشريةٌ لا بدَّ أن تتوفر عند من يحرص عليها، وينميها ويجدُّ في تحصيلها، سواءٌ كان مسلمًا أو كافرًا، كما أنَّ استيراد الصناعات وعلومها لا يعد من قبيل التشبه والتقليد؛ لأنَّ الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كان يستعمل ما يصنعه الكفار من لباسٍ وآنيةٍ ونحو ذلك، إنَّما طريقة الإفادة من الصناعات إذا صاحبها نقل عاداتهم وتقاليدهم ونُظمهم وكلُّ ما هو من خصائصهم؛ فإنَّ هذا هو المحذور"[3].

وهذه الضابط يستلزم من طالب العلم فهم ضابط البدعة، وأنَّ من شروط الأمور المحدثة حتى تكون بدعةً، أن تكون مخترعةً في الشرع وليست في الدنيا، "فلو كانت طريقةٌ مخترعةٌ في الدنيا، لم تُسمَّ بدعةً؛ كإحداث الصنائع والبلدان التي لا عهد بها فيما تقدَّم"[4].

ويُشترط في البدعة أيضاً أن يكون مقتضى وسبب فعلها موجوداً في عهد رسول الله ﷺ وأصحابه، ولكنهم لم يفعلوها ولم يتعبدوا لله بها، "فالبدعة كلُّ شئٍ قام المقتضى بفعله في زمن النبوة، ولم يفعله النبي ﷺ، فما فعله على وجه التقرب كان عبادةً تُفعل على وجه التقرب، وما أعرض عنه ولم يفعله مع قيام السبب المقتضي لم يكن عبادةً ولا مُستحباً"[5].

---

(١) انظر: كيف نتعامل مع السنة، للقرضاوي(١/١٤٣).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٧/٢٤٠)، رقم ٣٥٦٨١.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية(١/٤٨).

(٤) الاعتصام، للشاطبي(١/٥١).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٧/٤٢٢)، وإعلام الموقعين، لابن القيم(٢/٢٧٨).

وعرَّف الإمام الشاطبي- رحمه الله- البدعة بتعريفٍ بديعٍ، فقال:"البدعة طريقةٌ في الدين مخترعةٌ، تضاهي الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه"[1]، فهي طريقةٌ في الدين مخترعةٌ على غير مثالٍ تقدَّمها من الشرع، وبهذا القيد تميزت البدعة عن ما يظهر أنَّه مُحدثٌ مما هو متعلقٌ بالدين، كعلم النحو والتصريف، ومفردات اللغة، وأصول الفقه، وأصول الدين، وسائر العلوم الخادمة للشريعة، وهذه العلوم والتقسيمات وإن لم توجد في الزمان الأول، فأصولها موجودةٌ في الشرع، والمراد من ذلك كلِّه تقريب العلم وتسهيله، وإبرازٌ لما هو موجودٌ في الكتاب والسنة وتقريبُه، فمثل هذا لا يُوصف بالبدعة إلا على سبيل المجاز، أو من باب التسمية اللغوية [2]، ومن أمثلة ذلك جمع عمر بن الخطاب ﷺ الناس على صلاة التراويح خلف إمامٍ واحدٍ في المسجد، فقد كان الصحابة يصلونها في عهد النبي ﷺ، بل صلاها بهم النبي ﷺ جماعةً، ولكنه لم يخرج إليهم بعد أيامٍ خشية أن تُفرض عليهم[3]، ثمَّ إنَّ الخلفاء الراشدين فعلهم سنةٌ، كما قال ﷺ:**(فعليكم بسنَّتي، وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم والأمور المحدثات، فإنَّ كل بدعةٍ ضلالةٌ)**[4]، "فما سنَّه الخلفاء الراشدون لاحقٌ بسنَّة رسول الله ﷺ؛ لأنَّ ما سنُّوه لا يعدو أحد أمرين: إمَّا أن يكون مقصوداً بدليلٍ شرعيٍ؛ فذلك سنةٌ لا بدعة، وإمَّا بغير دليلٍ ومعاذ الله من ذلك، ولكن هذا الحديث دليلٌ على إثبات فعلهم سنةٌ، ولذلك أردف اتِّباعهم بالنهي عن البدع بإطلاقٍ، ولو كان عملهم بدعةً؛ لوقع في الحديث التدافع"[5].

٧- **معرفة طريقة حل التعارض المُتوهَم بين النصوص:** لقد اهتمَّ العلماء بنصوص الشريعة ما بين الجامع لها في الصدور والسطور، والشارح لها، والمبين لما استُشكل منها، والمُتكلم على أسانيد الروايات، والمُميز لصحيح السنة من سقيمها، " ولمَّا كثُر الطاعنون في الكتاب والسنة، والمُتبَّعون لما تشابه منها ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، بأفهامٍ كليلةٍ، وأبصارٍ عليلةٍ، ونظرٍ مدخولٍ بعللٍ رديئةٍ وشبهاتٍ باطلةٍ، حرَّفوا الكلام عن مواضعه، وعدلوه عن سبله، ثم قضَوا عليه بالتَّناقض، والاستحالة، واللَّحن، وفساد النَّظم والاختلاف"[6]، تصدَّى لهم حراس الشريعة، وعلماء الأمة، "فأزالوا الشكوك وأبطلوا الشبهات، وبيَّنوا المتشابهات، وأوضحوا المستشكلات، سواءٌ ما يتعلق بالكتاب العزيز أو السنة

---

(١) الاعتصام، للشاطبي(١/٥٠).

(٢) المصدر السابق(١/٥٣).بتصرف يسير

(٣) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٦٤)، والبدعة ضوابطها وأثرها السيء في الأمة، لعلى الفقيهي(١/١٣)، واتباع لا ابتداع قواعد وأسس في السنة والبدعة، لحسام الدين عفانة(١/٣٥).

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، افتتاح الكتاب، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، (١/١٥)، حديث رقم ٤٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٧٣٥.

(٥) الاعتصام، للشاطبي(١/٢٤٠).

(٦) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة(١/٢٣).

المطهرة"[1]، فكانت المؤلَفات في بيان ما يُشكل فهمه من النصوص، أو يُتوهم استحالتُه أو معارضتُه لغيره، ومن أشهر ما أُلف في هذا الفن، كتاب اختلاف الحديث للإمام الشافعي- رحمه الله-، وهو أولُ من كتب في هذا الفن من العلم، وكتاب تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري- رحمه الله-، وكتاب مشكل الآثار للإمام الطحاوي- رحمه الله-.

وقد عرَّف العلماء التعارض والاختلاف بتعاريف كثيرةٍ، من أشهرها: أنَّ "التعارض بين الأمرين هو تقابلهما على وجهٍ يمنع كلٌّ واحدٍ منهما مقتضى صاحبه"[2]، أو: "أن يأتيَ حديثان متضادان في المعنى ظاهراً، فيُوفق بينهما أو يُرجَّح أحدهما"[3].

ويبدو أنَّ ما يوهم ظاهره التعارض، والإشكال أعمُّ من ذلك، فقد يكون تعارضاً ظاهرياً بين نصَّين، وقد يكون سببه غموضاً في دلالة لفظ النَّص على معناه، فلا بدَّ من قرينةٍ تُزيل خفاءه، وقد يكون معارضة النَّص للإجماع أو القياس أو مناقضته للعقل[4].

ومعرفة المشكل والمختلف وطريقة الترجيح هو علمٌ مهمٌ لمبتغِ الفهم، "فلا بد من معرفة تعارض الأدلة، ومعرفة الأسباب التي يترجح بها بعض الأدلة على بعض، ولا يمكن الاستنباط من الأدلة إلا بعد معرفة التعارض والترجيح؛ لأنَّ دلائل الفقه مفيدةٌ للظنِّ غالباً، والمظنونات قابلةٌ للتعارض، مُحتاجَةٌ إلى الترجيح"[5]؛ بل تشتد الحاجة إليه كما قال الإمام النووي- رحمه الله-:" وهذا فنٌ من أهم الأنواع، ويضطر إلى معرفته جميع العلماء من الطوائف"[6].

إنَّ توهم التعارض لا يكون إلا بين نصَّين صحيحين، وإلَّا إذا كان أحدهما ضعيفاً أو موضوعاً فإنَّه يُطرح من البداية، ولا تعارض حينئذٍ، قال الإمام الشافعي- رحمه الله-:" وجماع هذا أن لا يُقبل إلا حديثٌ ثابتٌ كما لا يُقبل من الشهود إلا من عُرف عدلُه، فإذا كان الحديث مجهولاً أو مرغوباً عمن حمله كان كما لم يأتِ؛ لأنَّه ليس بثابتٍ"[7].

وقد ذمَّ شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- طريقة من ذهب ليجمع بين أحاديث صحيحةٍ وأخرى ضعيفةٍ أو موضوعةٍ، فقال:" ولكنَّ هؤلاء يقرنون بالأحاديث الصحيحة أحاديث كثيرةً موضوعةً، ويقولون بتأول الجميع"[8] .

---

(١) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة(١/١٢٧).

(٢) نهاية السول شرح منهاج الوصول، للإسنوي(١/٢٥٤).

(٣) التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، للنووي(١/٩٠).

(٤) انظر: أحاديث العقيدة التي يوهم ظاهرها التعارض في الصحيحين، للدبيخي(١/٢٨).

(٥) نهاية السول شرح منهاج الوصول، للإسنوي(١/٩).

(٦) التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، للنووي(١/٩٠).

(٧) اختلاف الحديث، مطبوع ملحقا بالأم، للشافعي(٨/٥٩٨).

(٨) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٥/٢٣٦) .

ومما ينبغي علمُه في هذه المسألة " أنَّ الأدلة الشرعية متوافقةٌ متآلفةٌ، ولا يمكن أن يأتي التعارض في شيءٍ منها مطلقاً إلا بحسب الظاهر فقط، بالنسبة للمجتهد، أو بحسب توهُمه ما ليس بدليلٍ دليلاً، أو بحسب تصورِه أنَّ نصَّين من النُّصوص يدلان على حكمين متعارضين، بينما النَّصان في الواقع لا تعارض في حكمهما؛ بل لكل واحدٍ منهما جهةٌ غيرَ جهة الآخر، فالتعارض حينئذٍ يكون في عقل المجتهد، لا في نصٍّ ولا في مدلوله"[1]، "فالنصوص توافق بعضها بعضاً، ويصدق بعضها بعضاً، فإنَّها كلَّها من عند الله، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه ولا تناقض، وإنَّما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره، قال ﷺ:﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا** ﴾[النساء:٨٢] "[2].

قال الشافعي- رحمه الله-:" ولم نجد عنه ﷺ شيئاً مختلفاً فكشفناه إلا وجدنا له وجهاً يحتمل به ألا يكون مختلفاً"[3]، ويقول في موضعٍ آخرٍ:" وأن يعلم أنَّ أحكام الله ثم أحكام رسوله لا تختلف، وأنَّها تجري على مثالٍ واحدٍ"[4]، ويقول الشاطبي- رحمه الله-:" أدلة الشريعة لا تتعارض، ولا تجدُ البتة دليلين أجمع المسلمون على تعارضهما بحيث وجب عليهم الوقوف، لكن قد يقع التعارض في فهم الناظرين"[5]، وقد حكى الخطيب البغدادي- رحمه الله- الإجماع على منع التعارض بين الأدلة الشرعية في نفس الأمر مطلقًا، فقال:" فكل خبرين عُلم أنَّ النبي ﷺ تكلم بهما، فلا يصح دخول التعارض فيهما على وجهٍ، وإن كان ظاهرهما متعارضين، لأنَّ معنى التعارض بين الخبرين والقرآن من أمرٍ ونهيٍ وغير ذلك، أن يكون موجب أحدهما منافياً لموجب الآخر، وذلك يبطل التكليف إن كانا أمراً ونهياً وإباحةً وحظراً، أو يوجب كون أحدهما صدقاً والآخر كذباً إن كانا خبرين، والنبي ﷺ منزهٌ عن ذلك أجمع، ومعصومٌ منه باتفاق الأمة وكلِّ مثبتٍ للنبوة"[6].

وقال ابن القيم- رحمه الله- في نونيته مؤكداً على هذا المعنى:

"ونصوصه ليست تعارض بعضها ... بعضاً فسل عنها عليم زمانِ

وإذا ظننت تعارضاً فيها فذا ... من آفة الأفهام والأذهان

---

(١) انظر: التعارض والترجيح عند الأصوليين في الفقه الإسلامي، لمحمد الحفناوي(٨٤/١)، والإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٨٨/٣).

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم(٢١٠/٢).

(٣) الرسالة، للشافعي(٢١٦/١).

(٤) المصدر السابق(١٧٣/١).

(٥) الموافقات، للشاطبي(٣٤١/٥).

(٦) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي(٤٣٣/١).

أو أن يكون البعض ليس بثابتٍ ... ما قاله المبعوث بالقرآن"[١].

ودفع التعارض المُتوهَم لا بُدَّ أن يكون جارياً على القواعد التي وضعها أهل العلم عند وجود التعارض، فيتم التوفيق بين الأحاديث المختلفة بالجمع إن أمكن، فإن تعذر الجمع فالبنسخ إن تحقق الناسخ، فإن تعذر النسخ فالترجيح، قال الشافعي- رحمه الله-: " وكلَّما احتمل حديثان أن يُستعملا معاً، استُعملا معاً، ولم يعطل واحدٌ منهما الآخر، فإذا لم يحتمل الحديثان إلا الاختلاف، كما اختلفت القبلة نحو بيت المقدس والبيت الحرام، كان أحدُهما ناسخاً، والآخر منسوخاً، ومنها ما لا يخلو من أن يكون أحد الحديثين أشبه بمعنى كتاب الله، أو أشبه بمعنى سنن النبي ﷺ، أو أشبه بالقياس، فأيُّ الأحاديث المختلفة كان هذا فهو أولاهما عندنا أن يُصار إليه"[٢].

ومن هنا فإنَّه يجب أن يكون موقف المجتهد تجاه الدليلين المتعارضين فى نظره، "بالجمع بينهما بأى نوعٍ من أنواع الجمع، حيث إنَّ العمل بهما ولو من وجهٍ أولى من إسقاط أحدهما بالكلية؛ لأنَّ استعمال النصوص أولى من إهمالها، ولأنَّ الأصل في كلِّ واحدٍ من المتعارضين هو الإعمال، غير أنَّ هذا الجمع مشروطٌ بألَّا يُؤدِّى إلى إبطال نصٍّ من نصوص الشريعة، وألَّا يكون بالتأويل البعيد، فإن تعذر ذلك كان على المجتهد النظر في تاريخ المتعارضين، فإن عرفه حينئذٍ، حَكَمَ بنسخ المُتأخِّر للمتقدم، حيث أنَّه لا يُتصور ورود نصَّين متعارضين من الشارع الحكيم في زمنٍ واحدٍ، فإن تعذَّر ذلك أيضاً فإنَّ على المجتهد أن يلجأ إلى الترجيح – أى تفضيل أحدهما على الآخر الذى يعارضه-، وذلك عند تَعذُّر الجمع، وعدم معرفة النسخ"[٣]، "فإن تعذَّر ذلك كلُّه عليه، توقَّف في المسألة، أو حكم بسقوط الدليلين المتعارضين، والرجوع إلى البراءة الأصلية، والحقُّ أنَّه ليس فى شريعتنا دليلان تعارضا من كلِّ وجهٍ، وعزَّ الجمع والترجيح ومعرفة التاريخ وحُكم عليهما بالسقوط، فما قاله الجمهور هنا من القول بالسقوط إنَّما هو بيانٌ للجواز العقلى دون الوقوع الفعلى، ولقد ذهب بعض العلماء إلى القول بالتخيير حينئذٍ بدلاً من السقوط، وذلك إذا كان الدليلان مما يمكن فيهما التخيير"[٤]، فلا بُدَّ لطالب العلم من معرفة هذه القواعد والطرق؛ ليفهم النَّص فهماً صحيحاً.

٨- **معرفة منزلة العقل مع النَّص:** إنَّ العقل في الإسلام له مكانةٌ رفيعةٌ، "ولقد كرَّم الإسلام العقل حين جعله مناط التكليف، وفضَّله به على كثيرٍ ممن خلق تفضيلاً، وكذلك كرَّمه حين وجهه إلى النظر والتفكر في النفس والكون والآفاق، اتِّعاظاً واعتباراً وتسخيراً لنعم الله واستفادةً منها، وكرَّمه أيَّما تكريم حين أمسكه عن الولوج فيما لا يُحسنه ولا يُطيقه ولا يهتدي فيه إلى سبيلٍ، رحمةً به وابقاءً على

---

(١) متن القصيدة النونية، لابن القيم(١/١٥٥).

(٢) اختلاف الحديث، للشافعي(٨/٥٩٨).

(٣) قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن، ص٥٣.

(٤) دراسات أصولية في القرآن الكريم، لمحمد الحفناوي(١/٢٦٨).

قوَّته وجهده فيما كُلف به"[١]، ولقد اعتمد الإسلام في الوصول إلى المعرفة طريقين، هما: طريق الوحي وطريق التجربة التي تجمع بين الحس والعقل [٢]، فأعطى للعقل مجالاً ومساحةً للتفكر والتدبر والتأمل في الكون، وإنَّ من أرادوا تمجيد العقل حسب زعمهم، لم ولن يصلوا إلى عشر معشار ما بلغه الإسلام من تكريمٍ للعقل وتشريفٍ له؛ بل لقد أساؤوا إلى العقل عندما أقحموه فيما لا يتصوره ولا يُدركه، حتى صار أحدهم يأتي بالحكم ونقيضه في نفس الأمر، مع إجماعهم على أنَّ حجة العقل قطعيةٌ، ولكن مع ذلك فهم مختلفون فيه، مخالفون له، يقول ابن قتيبة الدينوري– رحمه الله– في ذمِّ طريقتهم: "فما بالهم أكثر الناس اختلافاً، لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمرٍ واحدٍ في الدين"[٣]، وهذا هو شأن كلِّ من أعرض عن طريق الهداية، كما وصفهم الله ﷻ في قوله:﴿ **فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ** ﴾[البقرة:١٣٧].

"لقد ظَلَّ المسلمون يضعون العقل في منزلته التي أرادها الله ورسوله ولا يتجاوزونها، حتى اتسعت الفتوحات، واتصل المسلمون بغيرهم من الأعاجم، وترجموا التراث اليوناني، وتأثر بعضهم بالأنماط الفكرية الجديدة، وحاولوا إيجاد صياغةٍ جديدةٍ لها، حتى تجد لها قبولاً في الوسط الإسلامي"[٤]، فظهر من أراد التوفيق بين الفلسفة وبين الإسلام، ومحاولة دفع صور الاختلاف بينهما[٥]، وظهر من أُعجب بتقديس الفلاسفة للعقل، "فجعلوه محور معرفتهم، وسبيل وصولهم إلى الحقائق، وأرادوا دفع شبه الخصوم بمحض الحجج العقلية ودون اعتبارٍ لنصوص الوحي"[٦]، "زعماً منهم أنَّ الحُجج التي جاء بها الوحي ضعيفةٌ وقاصرةٌ وقد تنقض، بخلاف الحجج العقلية"[٧]؛ "فردُّوا البدعة بالبدعة، والباطل بمثله، حتى أحدثوا في دين الله ما لم يتصوره أحدٌ، وقد اصطُلح على تسمية هذه الطائفة بالمتكلمين، الذين جعلوا أصل علمهم العقل، والإيمان والوحي تابعٌ له، وجعلوا المعقولات هي الأصول الكلية المستغنية عن غيرها"[٨]، وفي المقابل ظهر المتصوفة الذين يذمُّون العقل ويعيبونه، "ويدَّعون أنَّ كثيراً من القوانين العقلية باطلةٌ، ويمدحون السكر والجنون والوله، وأموراً من

---

(١) مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن، ص٧٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٦٩.

(٣) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة(١/٦٢).

(٤) الرد على المنطقيين، لابن تيمية(١/١٤٤)، بتصرف يسير

(٥) كابن سينا في الإلهيات والنبوات. انظر: المصدر السابق(١/١٤٣).

(٦) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٧/٣٦١).

(٧) المرجع السابق(٧/٣٦٠).

(٨) مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن، ص ٧٠.

المعارف والأحوال التي لا تكون إلا مع زوال العقل، فيرون أنَّ الأحوال العالية والمقامات الرفيعة لا تحصل إلا مع عدم العقل، وهذا ما يُعرف كذبه بصريح العقل"[١].

أمَّا أهلُ السنة والجماعة فمذهبهم وسطٌ بين غالٍ ومفرِّطٍ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله-:" العقل شرطٌ في معرفة العلوم، وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل، لكنَّه ليس مُستقلاً بذلك؛ بل هو غريزةٌ في النفس، وقوةٌ فيها، بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتَّصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتَّصل به نور الشمس، وإن انفرد بنفسه لم يُبصر الأمور التي يعجز وحده عن إدراكها، وإن عُزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أموراً حيوانيةً، قد يكون فيها محبةٌ ووجدٌ وذوقٌ كما قد يحصل للبهيمة، فالأحوال الحاصلة مع عدم العقل ناقصةٌ، والأقوال المخالفة للعقل باطلةٌ، فالمسرفون فيه قضوا بوجوب أشياء وجوازها وامتناعها لحججٍ عقليةٍ بزعمهم، اعتقدوها حقاً وهي باطلٌ، وعارضوا بها النبوات وما جاءت به، والمعرضون عنه صدَّقوا بأشياء باطلةٍ، ودخلوا في أحوالٍ وأعمالٍ فاسدةٍ، وخرجوا عن التمييز الذي فضَّل الله به بني آدم على غيرهم"[٢]، فهؤلاء المخالفون للمنهج الحق الوسط في إنزال العقل منزلته مع النقل منهم من اعتمد العقل طريقاً إلى الحق واليقين مع إعراضه عن الوحي بالكلية كما هو حال الفلاسفة، ومنهم من أسقط حكم الوحي عند التعارض المُفترى كما هو حال المتكلمين، ومنهم من جعل الحق والصواب فيما تشرق به نفسه، وتفيض به روحه وإن خالف أحكام العقل الصريحة، أو نصوص الوحي الصحيحة، كما هو حال الصوفية، وهذا كله مخالفٌ لمنهج ظاهل السنة والجماعة [٣].

إنَّ الله ﷻ قد خلق العقل، وجعل من وظائفه أن يفهمَ عنه، ويعقلَ دينه وشرعه، فلا يجوز في حقِّه أن يَردَّ شيئاً من الوحي، بحجة أنَّه يخالف العقل، فالشريعة كلُّها بأخبارها وأحكامها ليس فيها ما يُعلم بطلانه بالعقل؛ بل العقل يشهد بصحَّتها إجمالاً وتفصيلاً، وما قَصَّر العقل عن إدراكه من مسائلها، فهذا لعظم الشريعة وتفوقها، ومع ذلك فليس في العقل ما يمنع من وقوع تلك المسائل التي عجز العقل عن إدراكها، فالشريعة قد تأتي بما يُحيِّر العقول لا بما تُحيله العقول" [٤].

والعلوم بالنسبة لإدراك العقل لها على ثلاثة أقسام، قسمٌ ضروريٌ لا يمكن التشكيك فيه، ويلزم جميع العقلاء، ولا ينفكُ عنهم، وقسمٌ نظريٌ يمكن العلم به، ويمكن أن لا يُعلم به، ويُكتسب بالنظر والاستدلال، وقسمٌ لا يعلمه البتة بواسطة عقله، وذلك كعلم الغيبيات، فعلمُه بهذه الأمور بلا دليلٍ غيرُ ممكنٍ"[٥]، والعقل وإن كان لا يدرك هذه الأمور الغيبية، فهو لا يُحيل ذلك،

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٣٨).

(٢) المرجع السابق(٣/٣٣٩).

(٣) انظر: مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن، ص٧٥.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١/٢٤٤)، وانظر: قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن، ص٦٦.

(٥) الاعتصام، للشاطبي(٢/٨٣٢).

ولا يقول بإنكار وجودها[1]؛ ولهذا ضرب الله الأمثال لتقرير مسائل الغيب، تنبيهاً للعقول على إمكان وجودها، فاستدلَّ على النَّشأة الآخرة بالنَّشأة الأولى، وعلى خلق الإنسان بخلق السماوات والأرض، وهي أعظم، وعلى البعث بإحياء الأرض الميتة، إلى غير ذلك من الأمثلة الكثيرة، وهذه الأمثال المضروبة هي المقاييس العقلية [2].

فالعقل له حدودٌ لا يتجاوزها، ومراتبٌ لا يتخطاها، وقد جعل الله للعقول في إدراكها حداً تنتهي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كلِّ مطلوبٍ، ولو كانت كذلك لاستوت مع الباري ﷻ في إدراك جميع ما كان وما يكون وما لا يكون إذ لو كان كيف كان يكون"[3]، وهذا محالٌ، "ولو أدرك العقل كل مطلوبٍ لاستغنى عن الوحي والنبوات"[4].

إنَّ دعوى الصراع بين العقل والنقل في الإسلام مصطنعةٌ، حيث ابتدأه أعداء الإسلام، واستمروا يحركونه خلال العصور الإسلامية المختلفة، والحقيقة أنَّه ليس بين القرآن الكريم وبين أحكام العقل الصريح الراشد أدنى ذرةٍ من التعارض، كذلك ليس هناك أدنى ذرةٍ من تعارضٍ أو اختلافٍ بين السنَّة المُحققة الصحيحة، وبين أحكام العقل الصريح الراشد؛ بل بينهما تعاضدٌ وتأييدٌ، فالعقل الصريح من مصادر المعرفة والاستدلال، ولكنَّه ليس مستقلاً؛ بل يحتاج إلى تنبيه الشرع وإرشاده.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" وليس في الكتاب والسنة والإجماع شيءٌ يخالف العقل الصريح، ولكن فيه ألفاظٌ قد لا يفهمها بعض الناس، أو يفهمون منها معنىً باطلاً، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة"[5]، ويقول ابن القيم- رحمه الله-:"وما يُؤتى أحدٌ إلا من غلط الفهم، أو غلطٍ في الرواية، ومتى صحَّت الرواية وفُهمت كما ينبغي، تبيَّن أنَّ الأمر كلَّه من مشكاةٍ واحدةٍ صادقةٍ، مُتضمنةٍ لنفس الحق وبالله التوفيق"[6]؛ "ولذلك فلا يُعلم حديثٌ واحدٌ يخالف العقل أو السمع الصحيح، إلَّا وهو عند أهل العلم ضعيفٌ، بل موضوعٌ"[7].

وختاماً وبعد ذكر هذه الأسباب، التي تُعين طالب العلم على فهم النَّص الشرعي، والوصول لمراد الله ورسوله منها، ينبغي أن يحرص طالب العلم على تحقيقها؛ لتحصيل العلم المفيد والفهم السديد، طالباً في ذلك العون والتوفيق من الغني الحميد.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٨٢).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢/٣٧)، ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/٣٢).

(٣) الاعتصام، للشاطبي(٢/٨٣١).

(٤) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٨٢).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١/٤٩٠).

(٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم(١/٢٢).

(٧) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٥٠).

المطلب الثاني: معوقات الفهم الصحيح للنَّص الديني من منظور السلف

إنَّ فهم النَّص فهماً صحيحاً، والعمل بهذا الفهم، هو العصمةُ للأمَّة اليومَ من الوقوع في الفتن والشبهات، وإنَّ تفشِّي ظاهرة الانحراف في فهم النصوص في هذا الزمن، تستلزم من طلبة العلم البحث عن أسباب ظهور هذه الظاهرة؛ حتى يتسنى معالجتها، فمعلومٌ أنَّ السبب ينتج عنه المُسبَب، ومن ثَمَّ فالوقوف على أسباب انحراف الفهم، ينبغى أن يُقدم على المُسبَب وهو ما نتج عنه من استدلالاتٍ خاطئةٍ وأحكامٍ باطلة؛ فبمعرفة منشأ الاشتباه تُستأصل الشُبه من منبتها وأصلها، وتبزُغ شمسُ الحق ونوره.

ولا شكَّ أنَّ الفهم الخاطئ للنَّص له أسبابه وعلله التي تولَّد عنها، فالذي يزلُّ به الفهم، ويبعد عن الطريق الصحيح، لم يكن ضلاله عبثاً؛ ولذلك سيُبيِّن الباحث في هذا المطلب معوقات وموانع الفهم الصحيح للنَّص من منظور السلف، وهذه الموانع منها موانعٌ متعلقةٌ بالشخص نفسه، كضعفه وعدم استعداده للعلم والفهم، ومنها موانعٌ ومعوقاتٌ متعلقةٌ بفقد بعض العلوم والقواعد المتعلقة بالنص، وينبغي أن يُلاحظ أنَّ كلَّ ما ذكره الباحث سابقاً من أسباب الفهم عند انعدامها أو حصول ضدِّها، تصبح مانعاً ومعوقاً من موانع ومعوقات الفهم الصحيح للنَّص.

أولاً: موانع ومعوقات الفهم المتعلقة بالشخص نفسه:

١- **الجهل:** الجهلُ ضدُّ العلم، والجهل نوعان: جهلٌ بسيطٌ، وجهلٌ مركبٌ، فمن لم يعرف ما جاء به الرسول، ولم يتبينه، ولا عارضه بمعقولٍ، أو رأيٍ، فهو من أهل الجهل البسيط؛ لأنَّ قلبه عندما كان خالياً من معرفة الحق واعتقاده والتصديق به ومحبته، كان مُعرَّضاً لاعتقاد نقيضه والتصديق به(١)، وأمَّا أهل الجهل المركب فهم الذين يحسبون أنَّهم على علمٍ وهدىً، وهم أهل جهلٍ وضلالٍ، فهؤلاء يجهلون الحقَّ ويعادونه، ويعادون أهله، وينصرون الباطل ويوالونه، ويوالون أهله، وهم يحسبون أنَّهم على الحق(٢)؛ ولذلك فإنَّ الخطأ الناتج عن عدم فهم النَّص، شأنُه خطيرٌ؛ بل قد يكون أشدُّ خطراً من الجهل بالنص نفسه؛ لأنَّ الجاهل الذي يُخطىء بعدم معرفته للشيء يعرف أنَّه جاهلٌ، وقد يتعلم؛ فيرتفع عنه الجهل؛ لكنَّ الذي يفهم خطأً يعتقد في نفسه أنَّه عالمٌ مصيبٌ للحق، ويعتقد أنَّ هذا الذي فهمه هو مراد الله ورسوله، فيصعب رجوعه إلى الحق(٣).

وممَّا يُدلل على خطورة الجهل أنَّ الله ﷻ ذمَّ الجهلَ وأهلَه في مواضع كثيرةٍ من كتابه، فأخبر أنَّ الجهل كان مانعاً عند البعض من الإيمان وإتباع الرسل، وأنه يُزيِّن لصاحبه الخطأ، ويفتنه

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم(١١٣٢/٣).

(٢) انظر: اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن تيمية(٥٥/٢).

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٢٦٥/٢)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥٣٩/٧)، وبدائع الفوائد، لابن القيم(٢٠٩/٤).

بالضلال، ويحرف صاحبه عن الفطرة السليمة، ويدفعه للشذوذ في تفكيره وأخلاقه، ويجعل لا يميز بين الخير والشر، بل ربَّما دعا على نفسه بهلاكها، ولم يقتصر سبحانه على تشبيه الجهال بالأنعام، حتى جعلهم أضلَّ سبيلاً منهم، فأخبر أنَّ الجُهَّال شر الدوابِّ عنده على اختلاف أصنافها، وليس علي دين الرسل أضرُّ من الجُهال؛ ولذلك أمر نبيه محمداً ﷺ بالإعراض عنهم، فقال:﴿ **وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾[الأعراف:١٩٩]، وأثني كذلك على عباده الذين يُعرضون عنهم كما في قوله:﴿ **وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا** ﴾[الفرقان:٦٣]، وهذا كلُّه يدلُّ على قُبح الجهل عنده سبحانه، وبغضه للجهل وأهله، وهو كذلك عند الناس، فإنَّ كلَّ أحدٍ يتبرأ منه، وإن كان فيه[١].

وقد جاء في حديثٍ مُخيفٍ أنَّ النَّبي ﷺ، دعا بالهلاك على من تكلَّم في الدِّين بغير علمٍ، فقد روى جابر بن عبد الله ﷺ قال: خرجنا في سفرٍ فأصاب رجلاً منَّا حجرٌ فشجَّه في رأسه، ثمَّ احتلم، فسأل أصحابه فقال: هل تجدون لي رخصةً في التيمم؟ فقالوا: ما نجد لك رخصةً وأنت تقدر على الماء، فاغتسل فمات، فلمَّا قدمنا على النبي ﷺ أُخبر بذلك، فقال:**(قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنَّما شفاء العِيِّ[٢] السؤال)**[٣].

يقول ابن القيم- رحمه الله- تعليقاً على هذا الحديث:" وقد جعل النبيُّ ﷺ الجهلَ داءً، وجعل دواءَه سؤالُ العلماء"[٤]؛ ولذلك أخبر النبي ﷺ أنَّ العلماء ينفون عن الدِّين تأويل الجاهلين وشبهاتهم وأباطيلهم، كما قال ﷺ:**(يحملُ هذا العلم من كل خلفٍ عدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين)**[٥].

وأصلُ حدوث الاختلاف المذموم، والتفرق بين الأمة، هو الجهل بالدِّين، كما روي أنَّ عمر بن الخطاب ﷺ خلا بنفسه ذات يومٍ، فجعل يُحدث نفسه، فأرسل إلى ابن عباس ﷺ فقال: كيف تختلف هذه الأمة، وكتابها واحدٌ، ونبيها واحدٌ، وقبلتها واحدةٌ؟ قال ابن عباس: " يا أمير المؤمنين، إنما أُنزل علينا القرآن فقرأناه وعلمنا فيم نزل، وإنَّه يكون بعدنا أقوامٌ يقرءون القرآن ولا يعرفون فيم نزل، لكل قومٍ

---

(١) انظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم(٥٣/١)، (٦٠/١).

(٢) العي: هو الجهل. النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٣٣٤/٣).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، (٩٣/١)، حديث رقم ٣٣٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٣٦٣.

(٤) الداء والدواء، لابن القيم(٥/١)، وانظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم(١٥/١).

(٥) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى(٣٥٣/١٠)، رقم ٢٠٩١١، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح (٨٢/١)، رقم ٢٤٨.

فيه رأيٌ، فإذا كان لقومٍ فيه رأيٌ اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا"[١]، ولذلك فإنَّ "اللبس إنَّما يقع إذا ضعُف العلم، واختلط بالجهل، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ إنَّما تُنقض عُرى الإسلام عروةً عروةً إذا نشأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية، وهذا من كمال علم عمر ﷺ، فإنَّه من لم يعرف الجاهلية، وهو كلُّ ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ وقع في الجهل، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم، ممَّن ابتدع بدعةً ودعا إليها وكفَّر من خالفها"[٢].

ومن شرف العلم وقبح الجهل، أنَّ "العلم حياةٌ ونورٌ، والجهل موتٌ وظلمةٌ"[٣]، "ولا ريب أنَّ الجهل أصلُ كلِّ فسادٍ، وكلُّ ضررٍ يلحق العبد في دنياه وأخراه فهو نتيجة الجهل"[٤]، حتى "أمراض القلب من الشهوات والشبهات كلُّها متولدةٌ عن الجهل، ودواؤها العلم"[٥]، بل "إنَّ كلَّ صفةٍ مدح الله بها العبد في القرآن، فهي ثمرة العلم ونتيجتُه، وكلَّ ذمٍّ ذمَّه فهو ثمرة الجهل ونتيجتُه، وشجرةُ الجهل تثمر كلَّ ثمرةٍ قبيحةٍ من الكفر والفساد والشرك والظلم والبغي والعدوان، وبالجملة فالخير بمجموعه ثمرٌ يُجتنى من شجرة العلم، والشرُّ بمجموعه شوكٌ يجتنى من شجرة الجهل"[٦]، و"الجاهل ميتُ القلب والروح، وإن كان حي البدن، فجسده قبرٌ يمشي به على وجه الأرض؛ لأنَّ العلم حياة القلوب من الجهل، فالقلب ميتٌ، وإنما حياته بالعلم والإيمان"[٧]، وصدق فيهم قول الشاعر:

وفي الجهل قبل الموت موتٌ لأهله ... وأجسامهم قبل القبور قبورُ

وكلُّ امرىءٍ لم يحيَ بالعلم ميِّتٌ ... وليس له حتى النشور نشورُ[٨]

وبناءً على كلِّ ما سبق "فالجهلُ من أولِ الأسباب المانعة من قبول الحق وفهمه والعمل به، وهذا السبب هو الغالب على أكثر النفوس، فإنَّ من جهل شيئاً عاداه وعادى أهله، فإنْ انضاف إلى هذا السبب بغضُ من أمره بالحقِّ ومعاداتِه له وحسدِه، كان المانع من القبول أقوى، فإنْ انضاف إلى ذلك إلفُه وعادتُه ومرباهُ على ما كان عليه آباؤه ومن يُحبه ويُعظمه قَوِيَ المانع، فإنْ انضاف إلى ذلك توهُمه أنَّ الحق الذي دُعي إليه يحول بينه وبين جاهِه وعزِّه وشهواتِه وأغراضِه قَوِي المانع من القبول

---

(١) شعب الايمان، للبيهقي(٥٤٢/٣)، برقم ٢٠٨٦.

(٢) الفوائد، لابن القيم(١١٠/١).

(٣) مفتاح دار السعادة، لابن القيم(٥٣/١).

(٤) المرجع السابق(٨٨/١).

(٥) المرجع السابق(١١١/١).

(٦) المرجع السابق(١١٧/١).

(٧) مدارج السالكين، لابن القيم(٢٤٥/٣)، اغاثة اللهفان، لابن القيم(٢٣/١).

(٨) تُنسب هذه الأبيات لمؤيد الدين الأصبهاني المعروف بالطغرائي المتوفي سنة ٥١٣هـ، انظر: روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، لابن الخطيب قاسم(١٨٣/١).

جداً"[1]؛ بل ومن عجائب الجهل والجهلاء، أنَّ من جهل شيئاً عاداه من غير سببٍ، ولو علموا لحصل الوفاق، ولم يُسمع الخلاف [2].

والجهل بالدين آفةٌ خطيرةٌ، وداءٌ عظيمٌ، فهو يحجب صاحبه عن معرفة الحق، ويُبعده عن سنن الهدى، ويؤدِّي به إلى الضلال، ويُوقعه في البدع المتعددة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "ما أُحدث في الإسلام من المساجد والمشاهد على القبور والآثار، فهو من البدع المحدثة في الإسلام، من فِعل من لم يعرف شريعة الإسلام، وأهلُ الجهل بذلك أقربُ الناس إلى الشرك والبدع ولهذا يوجد ذلك في الرافضة أكثر مما يوجد في غيرهم؛ لأنَّهم أجهلُ من غيرهم وأكثرُ شركاً وبِدعاً"[3]، ويقول ابن القيم- رحمه الله-:"فإن قيل: فما الذى أوقع عُبَّاد القبور فى الافتتان بها، مع العلم بأنَّ ساكنيها أمواتٌ، لا يملكون لهم ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً؟ قيل: أوقعهم فى ذلك الجهل بحقيقة ما بعث الله به رسوله، من تحقيق التوحيد وقطع أسباب الشرك، فقلَّ نصيبهم جداً من ذلك، ودعاهم الشيطان إلى الفتنة، ولم يكن عندهم من العلم ما يُبطل دعوته؛ فاستجابوا له بحسب ما عندهم من الجهل، وعُصموا بقدر ما معهم من العلم"[4]، "فأصلُ كلِّ خيرٍ هو العلم والعدل، وأصلُ كلِّ شرٍّ هو الجهل والظلم"[5]، وشرور الدنيا والآخرة إنَّما هي من الجهل بما جاء به الرسول ﷺ والخروج عنه، وهذا برهانٌ قاطعٌ على أنَّه لا نجاة للعبد ولا سعادة إلا بالاجتهاد في معرفة ما جاء به الرسول ﷺ علماً والقيام به عملاً"[6]، فأصلُّ البلاء كلُّه من الجهل وعدم العلم"[7].

يقول ابن القيم- رحمه الله-:"ومنشأ جميع الأخلاق السافلة، وبناؤها على أربعة أركان، الجهلُ والظلمُ والشهوةُ والغضبُ، فالجهل يُريه الحَسن في صورة القبيح، والقبيح في صورة الحسن، والكمال نقصاً، والنقص كمالاً"[8].

والجهل الذي يمنع من الفهم، يدخل في كل شعبةٍ من شُعب العلم، فهناك الجهلُ بالقرآن وعلومه، والجهل بالحديث روايةً ودرايةً، والجهلُ بأصول الفقه، والجهلُ بمقاصد الشريعة، والجهلُ باللغة العربية، والجهلُ بمعرفة الأحكام الفقهية، والجهلُ بمنهج السلف، وغيرها، وكل هذه الجهالات من موانع الفهم الصحيح للنَّص الشرعي.

---

(١) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن القيم(١/٢٤٥).

(٢) انظر: الاعتصام، للشاطبي(١/٢٨).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٧/٤٩٧).

(٤) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم(١/٢١٥).

(٥) المرجع السابق(٢/١٣٧).

(٦) الرسالة التبوكية- زاد المهاجر إلى ربه-، لابن القيم(١/٤٤).

(٧) شفاء العليل، لابن القيم(١/١٧١).

(٨) مدارج السالكين، لابن القيم(٢/٢٩٥).

٢- **اتِّباعُ الهوى**: "إنَّ اتِّباعَ الهوى يطمس نور العقل، ويُعمي بصيرة القلب، ويصدُّ عن اتِّباع الحق، ويُضلُّ عن الطريق المستقيم، فلا تحصلُ بصيرةٌ معه البتة، والعبد إذا اتَّبع هواه فسد رأيُه ونظرُه؛ فأرته نفسُه الحَسنَ في صورة القبيح، والقبيحَ في صورة الحسن؛ فالتبس عليه الحقُّ بالباطل، فأنَّى له الانتفاع بالتَّذكر أو بالتَّفكر أو بالعظة؟"[١].

وإنَّ اتِّباعَ الهوى سببُ الفساد في الأرض، وبابُ حبوط العمل، ومانعٌ وقاطعٌ لمادة الفهم، كما قال ابن القيم- رحمه الله-:" صحةُ الفهم نورٌ يقذفه الله في قلب العبد، يُميز به بين الصحيح والفاسد، والحقِّ والباطل، والهدى والضلال، والغيِّ والرشاد، ويقطعُ مادتَه اتباعُ الهوى، وإيثارُ الدنيا، وطلبُ محمدة الخلق، وتركُ التقوى"[٢]، " فاتِّباع الهوى يُعمي عين القلب، فلا يُميز بين السُّنَّة والبدعة، أو يُنكِّسه فيرى البدعة سنةً، والسنة بدعةً"[٣]، "والهوى يُعمي، ويصم، وصاحب الهوى يقبل ما وافق هواه بلا حجةٍ توجب صدقه، ويردُّ ما خالف هواه بلا حجةٍ توجب ردَّه"[٤]، ثمَّ إنَّ الهوى قد يعرض لصاحبه قبل معرفة الحق فيصدَه عن النظر فيه، فلا يتبين له الحق، وقد يعرض الهوى بعد أن عرف الحق فيجحده ويعرض عنه"[٥]، فمن كانت هذه حاله فأنَّى له العلمُ والفهمُ، "فالهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده، فإن وقع في العلم أخرجه إلى البدعة والضلالة، وصار صاحبُه من جُملة أهل الأهواء، وإن وقع في الزهد أخرج صاحبه إلى الرياء ومخالفة السنة، وإن وقع في الحكم أخرج صاحبه إلى الظلم وصدَّه عن الحق"[٦]؛ ولهذا كان "كل من خرج عن موجب الكتاب والسنة، هو من أهل الأهواء؛ كما كان السلف يسمون أهل البدع بأهل الأهواء؛ وذلك لأنَّ كل من لم يتبع العلم فقد اتَّبع هواه، والعلم بالدِّين لا يكون إلا بهدى الله الذي بعث به رسوله ﷺ، وميلُ القلب إن لم يكن موافقاً للأمر الشرعي، كان من اتِّباع الهوى، وأصل ضلال من ضلَّ هو بتقديم قياسه على النَّص المُنزَّل من عند الله، وتقديم اتباع الهوى على اتِّباع أمر الله"[٧].

إنَّ "اتباع الهوى والبدع المتولدة عنه، هما أصل كلِّ شرٍّ وفتنةٍ وبلاءٍ، وبهما كُذبت الرسل، وعُصي الرب، ودُخلت النار، وحلَّت العقوبات، ولهذا كان السلف يقولون: احذروا من الناس صنفين: صاحب هوى فتنه هواه، وصاحب دنيا أعجبته دنياه"[٨].

---

(١) مدارج السالكين، لابن القيم(٤٤٨/١).

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم(٦٩/١).

(٣) الفوائد، لابن القيم(١٠١/١).

(٤) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٣٠٢/٦).

(٥) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية(٥٣/٥).

(٦) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم(٤٧٤/١).

(٧) الاستقامة، لابن تيمية(٤١٣/١)(٢٢٥/٢)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٣٣/٢٨).

(٨) إعلام الموقعين، لابن القيم(١٠٦/١).

وقد جاء في القرآن الكريم آياتٌ كثيرةٌ في ذم اتِّباع الهوى، وكلُّها تدلُّ على استحالة اجتماع العلم والفهم الصحيح مع الهوى، قال ﷻ:﴿ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ﴾[ص:٢٦]، وقال ﷻ لنبيه ﷺ:﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[الجاثية:١٨]، "فقسَّم سبحانه الأمر بين الشريعة التي جعله عليها، وأوحى إليه العمل بها، وأمر الأمة بها، وبين اتَّباع أهواء الذين لا يعلمون؛ فأمر بالأول، ونهى عن الثاني"[١]، وهذا يدلُّ أوضح الدلالة على أنَّ اتِّباع الهوى يضلُّ صاحبه، ويزيغ به عن إصابة الحق في القول والعمل، وفي العلم والفهم، "وقد حكم الله ﷻ لتابع هواه بغير هدىً من الله أنَّه أظلم الظالمين، وجعل ﷻ المتَّبعين قسمين لا ثالث لهما، إمَّا متَّبعٌ لما جاء به الرسول، وإمَّا للهوى، فمن اتبع أحدهما لم يمكنه اتباع الآخر، والشيطان يطيف بالعبد من أين يدخل عليه، فلا يجد عليه مدخلاً، ولا إليه طريقاً إلا من هواه؛ فلذلك كان الذي يخالف هواه يَفْرَق الشيطان من ظله، فإنَّ متابعة الهوى الداء الأكبر، ومخالفته الشفاء الأعظم، وإنَّما سُمي هوىً لأنَّه يهوى بصاحبه إلى أسفل السافلين، والهوى ثلاثة أرباع الهوان، وهو شارع النار الأكبر، كما أنَّ مخالفته شارع الجنة الأعظم"[٢].

وقد أخبر سبحانه أنَّه باتباع الهوى يطبع على قلب العبد، فقال ﷻ:﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴾[محمد:١٦]، "فإتِّباع الهوى مادةُ كلِّ فسادٍ، فإنَّ اتِّباعَ الهوى يعُمي عن الحق معرفةً وقصداً"[٣].

"وقد جعل الله ﷻ متبَّع الهوى بمنزلة عابد الوثن، فمن أحب لهواه، وأبغض له، ووالى عليه، وعادى عليه، فإلهه هواه"[٤]، كما قال ﷻ:﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ ﴾[الجاثية:٢٣] ، قال الحسن البصري– رحمه الله– في تفسير هذه الآية:"هو الذي لا يهوى شيئاً إلا ركبه"[٥]، وقال قتادة– رحمه الله–: "هو الذي كلَّما هوى شيئاً ركبه، وكلَّما اشتهى شيئاً أتاه، لا يحجزه عن ذلك ورعٌ ولا تقوى"[٦].

---

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم(٣٨/١).بتصرف يسير

(٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم(٤٠١/١– ٤٠٥).

(٣) الفوائد، لابن القيم(٩٩/١)، وانظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم(٨٤٤/٣)، والرسالة التبوكية، لابن القيم(٣٤/١).

(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي(٥٢٤/١).

(٥) أخرجه الطبري في تفسيره (٢٤١٣٤)، وذكره القرطبي في تفسيره (٣١/١٣).

(٦) أخرجه عبد الرزاق في التفسير(٢٨٣١)، والطبري في تفسيره (٢٤١٣٤) .

وقد حذَّر النبي ﷺ من اتِّباع الهوى، وبيَّن أنَّه يُخاف على من اتبع الهوى أن ينسلخ من الإيمان وهو لا يشعر، فقال ﷺ:**(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به)**[1]، وصحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: **(إنَّ مما أخشى عليكم شهواتِ الغيِّ في بطونكم وفروجكم ومضلاتِ الهوى)**[2]، وقال ﷺ أيضاً:**(ما أخافُ على أُمّتِي إلا ثلاثاً: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوىً متَّبعٌ وإمامُ ضلالٍ)**[3]، وبيَّن ﷺ أيضاً أنَّ اتِّباع الهوى من المهلكات، فقال ﷺ:**(ثلاثٌ مهلكاتٌ، وثلاثٌ مُنجِّيات، فقال: ثلاث مهلكات: شح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه، وثلاث منجيات: خشية الله في السر والعلانية والقصد في الفقر والغنى والعدل في الغضب والرضا)**[4].

وفي جميع الأحاديث السابقة دليلٌ على فقدان العلم واالفهم، وذهابهما عند اتباع الهوى، وقد أحسن الشاعر عندما بيَّن تأثير الهوى على العقل والفهم، قائلاً:

وآفةُ العقل الهوى فمن علا ... على هواه عقلُه فقد نجا[5] .

ولقد جاء عن السلف- رحمهم الله- آثارٌ كثيرةٌ تُبيِّن خطورة اتِّباع الهوى، وضلالِ صاحب الهوى، قال الحسن البصري- رحمه الله-:"لا تُمكِّن أذنيك صاحب هوى، فيمرض قلبك"[6]، وجاء عن بعض السلف:"ما من إلهٍ يُعبد من دون الله، أبغضُ إلى الله من صاحب هوىً"[7]، وقال أحد السلف:" لئن يجاورني أهلُ بيتٍ من يهودٍ، ونصارى، وقردةٍ، وخنازير، أحبُّ إلي من أن يجاورني صاحبُ هوىً يُمرض قلبي"[8]، وقال الإمام الشافعي- رحمه الله-: "لَأَن يلقى الله العبد بكل ذنبٍ ما خلا الشرك،

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في كتابه السنة(١٢/١)، برقم ١٥، وابن بطة في الإبانة الكبرى(٣٨٧/١) برقم ٢٧٩، وقال النووي: هذا حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح، وقال الألباني في تخرج مشكاة المصابيح إسناده ضعيف.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده من حديث أبي برزة الأسلمي (٣٣/٣٣) برقم ١٩٧٨٧، والبزار في مسنده (٢٩٢/٩)، برقم ٣٨٤٤، والطبراني في الصغير (٣٠٩/١) برقم ٥١١، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٢/١) برقم ٥٢.

(٣) أخرجه البزار في مسنده(٢٣٨/٢) برقم١٦٠٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٣٢٣٧.

(٤) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١ / ١٤٣)، والطبراني في الأوسط (٥٥٨٤)، وأبو نعيم في الحلية (٢ / ٣٤٣)، والبيهقي في شعب الإيمان(٢ / ٣٨٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٨٠٢.

(٥) يُنسب هذا البيت لأبي بكر محمد بن الحسين بن دريد الأزدي المتوفى سنة ٣٢١ هـ، انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي(١١٣/٢).

(٦) جامع معمر بن راشد(٣٢٦/١١)، برقم ٢٠٦٦٧.

(٧) البدع والنهي عنها، لابن وضاح(٢٨/١).

(٨) الإبانة الكبرى، لابن بطة (٤٦٨/٢)، برقم ٤٧١.

خيرٌ من أن يلقاه بشيءٍ من الهوى"[1]، وقال مجاهد- رحمه الله-:"ما أدري أيُّ النعمتين عليَّ أعظم أن هداني للإسلام، أو عافاني من هذه الأهواء"[2].

ومدافعة الهوى ومخالفته تحتاج إلى صبرٍ ومُجاهدةٍ؛ بل هي من أعظم الجهاد، ويُعين على ذلك أمورٌ كثيرةٌ منها أن يعلم طالب العلم ومريد الفهم، أنَّ "اتِّباع الهوى يغلق عن العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان، وأن يعتقد أنَّ التوحيد واتباع الهوى متضادان، فإنَّ الهوى صنمٌ، ولكلِّ عبدٍ صنمٌ في قلبه بحسب هواه، وإنَّما بعث الله رسله بكسر الأصنام وعبادته وحده لا شريك له، وليس مراد الله سبحانه كسر الأصنام المجسدة، وترك الأصنام التي في القلب؛ بل المراد كسرها من القلب أولاً"[3].

ومما يُعين على مدافعة الهوى أيضاً أن يعلم طالب العلم "أنَّ متابعة الهوى مجلبةٌ لداء القلب والبدن، فأمراضُ القلب كلُّها من متابعة الهوى، ولو فتَّشتَ على أمراض البدن؛ لرأيت غالبها من إيثار الهوى على ما ينبغي تركُه، فمن خالف هواه أراح قلبه وبدنه وجوارحه فاستراح"[4].

إنَّ مخالفة الهوى تورث العبد قوةً في بدنه وقلبه ولسانه، وإنَّ جهاد الهوى إن لم يكن أعظم من جهاد الكفار، فليس بدونه، قال رجلٌ للحسن البصري- رحمه الله-: "يا أبا سعيد، أيُّ الجهاد أفضل، قال: جهادُك هواك"[5]، ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- كما نقل عنه تلميذه ابن القيم- رحمه الله-:" جهادُ النَّفس والهوى أصلُ جهاد الكفار والمنافقين، فإنَّه لا يقدر على جهادهم، حتى يجاهد نفسه وهواه أولاً، حتى يخرج إليهم"[6].

٣- **فعل الذنوب والمعاصي**: إنَّ ترك الذنوب والمعاصي من أعظم الأسباب في بقاء العلم وزيادته، والانتفاع به، وفي المقابل فإنَّ اقتراف المعاصي والذنوب، من أعظم ما يحرم الإنسان لذة الطاعة، ويتسبب في عدم العلم والفهم، فقد جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنَّه قال:**(إنَّ العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه)**[7]، والفهم عن الله ورسوله من أعظم الرزق.

ولا شكَّ أنَّ نقص العلم أو نسيانه، أو عدم الفهم في العلم، من أعظم المصائب والحرمان، يقول ابن القيم- رحمه الله-:" فإنَّ العلم نورٌ يقذفه الله في القلب، والمعصية تُطفئ ذلك النور، ولمَّا جلس الإمام الشافعي بين يدي مالكٍ، وقرأ عليه، أعجبه ما رأى من وفور فطنته، وتوقُّد ذكائه، وكمال

(١) أخرجه البيهقي في الاعتقاد(٢٣٩/١).

(٢) أخرجه الدارمي في السنن (٣٤٤/١) رقم ٣١٧ ، وأبو نعيم في حلية الأولياء(٢١٨/٢) .

(٣) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم(٤٨٢/١).

(٤) المرجع السابق(٤٧٥/١).

(٥) المرجع السابق(٤٧٨/١).

(٦) المرجع السابق (٤٧٩/١).

(٧) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، رقم ٤٠٢٢، وهو جزء من حديث حسَّن الألباني بعضه وضعف بعضه، انظر: صحيح وضعيف سنن ابن ماجة للألباني برقم ٤٠٢٢.

فهمه، فقال: إني أرى أنَّ الله قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية، وقال الشافعي- رحمه الله-:

شكوتُ إلى وكيعٍ سوء حفظي ... فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأنَّ العلم فضلٌ ... وفضل الله لا يُؤتاه عاصي[1].

ومما ينبغي أنْ يعلمَه طالب العلم، "أنَّ الذنوب والمعاصي تضر، وضررُها في القلب كضرر السموم في الأبدان، وهل في الدنيا والآخرة شرٌ وداءٌ إلا سببُه الذنوب والمعاصي"[2]، "فمفارقتُها تمحق بركةَ العمر، وبركةَ الرزق، وبركةَ العلم، وبركةَ العمل، وبركةَ الطاعة، وبالجملة تمحقُ بركةَ الدين والدنيا، وما مُحقت البركة من الأرض إلا بمعاصي الخلق"[3]، كما قال ﷻ:﴿ **وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ**﴾[الشُّورى:٣٠]، وقال ﷻ:﴿ **ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[الرُّوم:٤١].

وللمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة، والمضرّة بالقلب والبدن، والدنيا والآخرة، ما لا يعلمه إلا الله، ومن ذلك وحشةٌ يجدها العاصي في قلبه بينه وبين الله، وبينه وبين الناس، ولا سيَّما أهل الخير منهم؛ فيُحرم بركة الانتفاع بهم، ومنها تعسير أموره عليه، فلا يتوجه لأمرٍ إلا وجده مغلقاً دونه، أو متعسراً عليه، كما قال بعض السلف:" إنِّي لأعصي الله فأعرف ذلك في خلق حماري وخادمي"[4].

ومن عقوبات المعاصي أيضاً أنها تُفسد العقل، فإنَّ للعقل نوراً، والمعصية تُطفئ نور العقل، وإذا طفئ نوره ضَعُف ونَقُص، والذنوب كذلك تُزيل النعم، وتُحلُّ النِّقم، فما زالت عن العبد نعمةٌ إلا بذنبٍ، ولا حلَّت به نقمةٌ إلا بذنبٍ؛ كما قال ﷺ:(**لا يُصيب عبداً نكبةً فما فوقها أو دونها إلا بذنبٍ، وما يعفو الله عنه أكثر، وقرأ {وما أصابكم من مصيبةٍ فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير}[الشورى:٣٠]**)[5]، وكما جاء في الأثر: "إنَّه لم ينزل بلاءٌ إلا بذنبٍ ولم يُكشف إلا بتوبةٍ"[6]، وقد أحسن القائل، عندما قال:

إذا كنتَ في نعمةٍ فارعها ... فإنَّ الذنوب تُزيل النِّعم

---

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء (٥٢/١).

(٢) الداء والدواء، لابن القيم(٤٢/١).

(٣) المرجع السابق(١٩٩/١).

(٤) من كلام الفضيل بن عياض، ولفظه في حلية الأولياء، للأصبهاني(٨/ ١٠٩).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه في أبواب التفسير (٣٧٧/٥)، برقم ٣٢٥٢، وحسنه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٧٧٣٢.

(٦) ذكره ابن حجر في فتح الباري(٤٩٧/٢)، والألباني في كتابه التوسل(٦٢/١)، وهو جزءٌ من دعاء العباس عمِّ النبي ﷺ في الاستسقاء في زمن عمر بن الخطاب ﷺ.

وخُطها بطاعة ربِّ العباد ... فربُّ العباد سريع النِّقم[1]،

إنَّ من الذنوب والمعاصي تحرم طالب العلم من التوفيق والفهم أكل الحرام، فالكسب الحرام يُظلم القلب، ويُضيِّق الصدر، ويُورث القلق والريبة، ويُعمي البصيرة، ويُوهن الدين، ويُقسِّي القلب، ويُقعد الجوارح عن الطاعات، ويُوقع في حبائل الدنيا وفتنها، ويحجب الدعاء ويُذهب لذَّة الطاعة، ويحرم من عطاء الله، ففي الحديث الذي رواه مسلمٌ في صحيحه، أنَّ رسول الله صلي الله عليه وسلم:(**ذكر الرجل يطيلُ السفر أشعثٌ أغبرٌ، يمدُّ يديه إلى السماء، يا ربِّ، يا ربِّ، ومطعمُه حرامٌ، ومشربُه حرامٌ، وملبسُه حرامٌ، وغُذِّيَ بالحرام، فأنَّى يستجاب لذلك؟**)[2]، فهذا الرجل قد استجمع من صفات الذلِّ والمسكنة والحاجة والفاقة إلى ربِّه ما يدعو إلى رثاء حاله، ويؤكدُّ شدة افتقاره، ولكنَّه قد قطع صلته بربه، وحَرَمَ نفسه من عطاء الله وفضله، وحال بينه وبين قبول دعائه ما هو عليه من استعمالٍ للحرام في المأكل والمشرب والملبس.

وكلَّما زادت تقوى المؤمن، وبعدُه عن الذنوب والمعاصي، ألهمه الله ﷻ التبصُّرَ بالأمور، وسرعةَ الفهم، ولذلك قال بعض السلف: "من غضَّ بصره عن المحارم، وأمسك نفسه عن الشبهات، وعمَّر باطنه بدوام المراقبة، وظاهره باتِّباع السُّنة، وعوَّد نفسه أكل الحلال، لم تُخطئ له فراسةٌ"[3]، فالواجب على طالب العلم ومريد الفهم التحرز من الذنوب والمعاصي وخطواتها، "فإنها تُعمي بصيرة القلب، وتطمس نوره، وتسدُّ طرق العلم، وتحجب مواد الهداية"[4]، وهذا أمرٌ يستوجب اليقظة الدائمة والحذر الدائم والاحتياط الدائم.

٤- **عدم التجرد للحقِّ والتعصب للرجال:** إنَّ عدم التجرد للحق، آفةٌ خطيرة، ومهلكةٌ عظيمة في حقِّ من وقع في ذلك، يقول الغزالي- رحمه الله- في ذمِّ من تعصَّب حتى ولو كان على حقٍّ: "إنَّ التعصُّب من آفات علماء السوء، فإنَّهم يُبالغون في التعصُّب للحقِّ، وينظرون إلى المخالفين بعين الازدراء والاستحقار، وتتوفر بواعثهم على طلب نُصرة الباطل، ويقوى غرضهم في التمسك بما نُسبوا إليه، ولو جاؤوا من جانب اللطف والرحمة والنصح في الخلوة، لا في معرض التعصب والتحقير لأنجحوا فيه، ولكن لمَّا كان الجاه لا يقوم إلا بالاستتباع، ولا يستميل الأتْباع مثلُ التعصُّب واللعن والتُّهم للخصوم، اتخذوا التعصب عادتهم وآلتهم، وسموه ذبَّاً عن الدِّين، ونضالاً عن المسلمين، وفيه على التحقيق هلاك الخلق، ورسوخ البدعة في النفوس"[5].

---

(١) الداء والدواء، لابن القيم(١/١٨١)، ويُنسب هذا الشعر لعلي بن أبي طالب ﷺ.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم ١٠١٥.

(٣) الاعتصام، للشاطبي(١/١٢٩).

(٤) الداء والدواء، لابن القيم(١/١٨٧).

(٥) إحياء علوم الدين، للغزالي(١/٤١).

إنَّه "غالباً ما يكون عدمُ التجردِ للحقِّ، والجَور في الحُكم، وفوت العدل، ووضوح الميل، عند الكثيرين؛ بسبب التقليد والتبعية والمحاكاة من غير بينةٍ ودليل، إذ فيه تعطيلٌ للعلم، وتقديم الآراء والأهواء على الحُجج الواضحات، والبراهين الساطعات، وتقديم عقول الرجال وآرائهم على العدل الذي شرعه الله ورسوله، كما هو حال كلِّ من اتبع أحداً من الرؤوس فيما يُخالف الكتاب والسنة، سواءً كانوا من رؤوس أهل النظر والكلام والمعقول والفلسفة، أو رؤوس أهل الفقه في الأحكام الشرعية، أو من رؤوس أهل العبادة والزهادة والتألُّه والتَّصوف، أو من رؤوس أهل المُلك والإمارة والحُكم والولاية والقضاء"[(١)]، "ويظهر هذا جلياً في الشيعة والمتصوفة، مع أنَّه لا تكاد طائفةٌ من طوائف المبتدعة تخلو من ذلك، فعند الشيعة الإمامية يعتقدون العصمة في أئمتهم، وعند الصوفية يعتقدون الولاية لشخصٍ مُعينٍ، وأنَّه أعظم من الأنبياء أو مساوٍ لهم إلا أنَّه لا يُوحى إليه، ولا يحقُّ للمريد أن يُراجع شيخه في أي شيءٍ يقوله أو يطلبه، حتى قالوا: ليكن المريد بين يدي شيخه كالميت بين يدي المغسِّل،... ويظهر ذلك في اتِّباع العوائد من العبادات المبتدعة، فيحتجُّ المبتدع بأنَّ هذا الفعل اعتاده الناس منذ كذا وكذا، وجرى العمل به، وأمثال ذلك من الحجج الواهية"[(٢)].

وقد كان علماء السلف يرفضون التقليد الأعمى والتعصب المذموم، قال عبد الله بن مسعودﷺ:" ألا لا يقلِّدن أحدُكم دينه رجلاً، إن آمن آمن، وإن كفر كفر، فإنَّه لا أسوة في الشر"[(٣)]، وقال سفيان بن عيينة[(٤)]- رحمه الله-:"اضطجع ربيعةُ[(٥)] مقنِّعاً رأسه وبكى، فقيل له: ما يبكيك؟ فقال: رياءٌ ظاهرٌ، وشهوةٌ خفيةٌ، والناس عند قادتهم كالصبيان في حجور أمهاتهم ما نهوهم عنه انتهوا، وما أمروهم به ائتمروا"[(٦)].

وهذا الذَّم مصروفٌ في حقِّ من يستطيع معرفة الحكم، والتعبد لله ﷻ به، أو في حقِّ من قلد الرِّجال بعد تَبيُّن الحقِّ له بخلاف ما قالوه، "أمَّا العامة فلا بُدَّ لها من تقليد علمائها عند النازلة تنزل

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٣١٨/٥).

(٢) حقيقة البدعة وأحكامها، لسعيد الغامدي(٣٤١/١-٣٥٠)، بتصرف يسير

(٣) جامع بيان العلم وفضله، باب فساد التقليد ونفيه والفرق بين التقليد والاتباع، (٩٨٨/٢)، رقم ١٨٨٢.

(٤) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، أبو محمد، مُحدِّث الحرم المكيّ، كان حافظاً ثقةً، واسع العلم كبير القدر، وكان أعور، وحجَّ سبعين مرة، له (الجامع) في الحديث، وكتاب في التفسير، وتوفي ١٩٨هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٢٤٢/١)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي(١٣٠/٢)، والأعلام، للزركلي(١٠٥/٣).

(٥) ربيعة بن فرّوخ التيمي، المدني، أبو عثمان، إمامٌ حافظٌ فقيهٌ مجتهدٌ، كان بصيراً بالرأي- (وأصحاب الرأي، هم أصحاب القياس، لأنهم يقولون برأيهم فيما لم يجدوا فيه حديثاً او أثراً)- فلُقب ب(ربيعة الرأي)، وكان من الأجواد، وكان صاحب الفتوى بالمدينة وأحد الفقهاء السبعة من كبار التابعين، وبه تفقه الإمام مالك، وتوفي ١٣٦هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(١٤٨/١)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(٢٥٨/٣)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي(٨٣/٢)، وميزان الاعتدال، للذهبي(١٣٦/١)، والأعلام، للزركلي(١٧/٣).

(٦) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٩٨٧/٢)، رقم ١٨٨٥ .

بها؛ لأنَّها لا تتبين موقع الحُجَّة؛ فكما أنَّ الأعمى لا بدَّ له من تقليد غيره ممن يثق بمعرفته بالقِبلة إذا أُشكلت عليه، فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به، لا بدَّ له من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أنَّ العامة لا يجوز لها الفُتيا، وذلك والله أعلم لجهلها بالمعاني التي منها يجوز التحليل والتحريم والقول في العلم"[١].

ولقد شدَّد الأئمة الأربعة على وجوب اتِّباع ما جاء عن الله ورسوله، وترك أقوال الرجال المخالفة للكتاب والسنة؛ بل وقالوها صراحةً بأنَّه إذا خالف قولهم قول رسول الله ﷺ، فلا تأخذوا به، قال الإمام أبو حنيفة– رحمه الله–:" إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي"[٢]، وقال الإمام مالك– رحمه الله–:" ليس أحدٌ بعد النبي ﷺ، إلا ويُؤخذ من قوله ويُترك إلا النبي ﷺ"[٣]، وقال الإمام الشافعي– رحمه الله–: "إذا صحَّ الحديث عن رسول الله ﷺ، فقلت قولاً، فأنا راجعٌ عن قولي، وقائلٌ بذلك"[٤]، وقال أيضاً:" كلُّ مسألةٍ صحَّ فيها الخبر عن رسول الله ﷺ عند أهل النقل بخلاف ما قلتُ، فأنا راجعٌ عنها في حياتي وبعد موتي"[٥]، وقال الإمام أحمد– رحمه الله–:" لا تُقلِّدني ولا تُقلِّد مالكاً ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا"[٦]، وقال أيضاً: "من ردَّ حديث رسول الله ﷺ فهو على شفا هلكةٍ"[٧].

فهذه هي أقوالهم الواضحة في الأمر بالتمسك بالسُّنَّة، والنهي عن تقليدهم دون بصيرةٍ، وهي من الوضوح والبيان بحيث لا تقبل جدلاً ولا تأويلاً، "وعليه فإنَّ من تمسَّك بكل ما ثبت في السنة، ولو خالف بعض أقوال الأئمة لا يكون مبايناً لمذهبهم، ولا خارجاً عن طريقتهم؛ بل هو متبعٌ لهم جميعاً، ومتمسكٌ بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، وليس كذلك من ترك السُّنَّة الثابتة لمجرد مخالفتها لقولهم؛ بل هو بذلك عاصٍ لهم ومخالفٌ لأقوالهم المتقدمة"[٨]، قال الإمام الشافعي:" أجمع المسلمون على أنَّ من استبان له سنَّةَ رسول الله ﷺ، لم يكن له أن يدعها لقول أحدٍ من الناس"[٩].

---

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٢/٩٨٨)، رقم ١٨٨٧.

(٢) رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين(١/٦٨).

(٣) نسبةُ هذا الكلام إلى الإمام مالك هو المشهور عند المتأخرين، وقد رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله (٢/٩١)، وهذا الكلام من قول الحكم بن عُتَيبة، ومجاهد، وهو في الأصل من قول ابن عباس، وأخذ هذه الكلمة من ابن عباسٍ مجاهدٌ، وأخذها منهما مالك، واشتهرت عنه، ثم أخذها عنهم الإمام أحمد. انظر: أصل صفة صلاة النبي، للألباني (١/٢٩).

(٤) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني (٩/١٠٧).

(٥) إعلام الموقعين، لابن القيم(٢/٢٠٣).

(٦) المرجع السابق(٢/١٣٩).

(٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(٣/٤٧٧).

(٨) صفة صلاة النبي ﷺ من التكبير إلى التسليم كأنك تراها، للألباني(١/٥٣)، بتصرفٍ يسير.

(٩) إعلام الموقعين، لابن القيم(١/٦).

فالحكم بين العباد هو كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ كما قال ﷻ:﴿ **فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآَخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا** ﴾[النساء:٥٩]، وقوله ﷻ:﴿ **إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[النور:٥١]، وقوله ﷻ:﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[النساء:٦٥]، "فهذه الآيات تدلُّ أبلغ دلالةٍ، أنَّ المرجع عند الاختلاف هو حكم الله ورسوله، وحكم الله هو كتابه، وحكم رسوله بعد أن قبضه الله ﷻ هو سنَّته، ولم يجعل الله ﷻ لأحدٍ من العباد وإن بلغ في العلم ما بلغ، وجمع منه ما جمع، أن يقول في هذه الشريعة بشيءٍ لا دليل عليه من كتابٍ ولا سُنَّةٍ"[1]، وهذا هو المنهج الذي سار عليه أئمة الإسلام، وعلماؤه الكرام، بصفائه ونقائه، والعجيب كلَّ العجب أنَّه مع وضوح هذه المسألة وتواترها عن علماء الأمة، إلا أنّ طائفة ليست هينة تعاني من داء التقليد الأعمى من غير بينةٍ، وفي هذا يقول الغزالي: "وهذه عادة ضعفاء العقول، يعرفون الحقَّ بالرِّجال، لا الرِّجال بالحقِّ، كما قال علي بن أبي طالب ﷺ:لا تعرف الحقَّ بالرِّجال؛ بل اعرف الحق تعرف أهله"[2].

وأحياناً قد يحمل الغلوُّ في الأشخاص، والتعصبُ للرأي، إلى تحريف الدليل، أو تحميله ما لا يحتمل؛ ليوافق ما ذهب إليه المتعصب، يقول الشاطبي– رحمه الله– في شأن أمثال هؤلاء:" فليس نظرُهم في الدليل نظرَ المستبصر، حتى يكون هواه تحت حكمه؛ بل نظر من حكم بالهوى، ثم أتى بالدليل كالشاهد له، فكثيراً ما ترى الجُهال يحتجون لأنفسهم بأدلةٍ فاسدةٍ، اقتصاراً بالنظر على دليلٍ ما، واطراحاً للنظر في غيره من الأدلة الأصولية والفروعية العاضدة لنظره أو المعارضة له، وكثيرٌ ممَّن يدَّعي العلم يتخذ هذا الطريق مسلكاً، وربَّما أفتى بمقتضاه، وعمل على وفقه إذا كان له فيه غرضٌ، وكذلك الأمر في كلِّ مسألةٍ فيها الهوى أولاً، ثمَّ يطلب لها المخرج من أدلَّة الشرع، فمن لا يعتبر بالنَّص من أوله إلى آخره، ويعتبر ما ابتنى عليه؛ زلَّ في فهمه، وليس هذا من شأن الراسخين، وإنَّما هو من شأن من استعجل؛ طلباً للمخرج في دعواه"[3]، وهل يدفع الإنسان ليطلب في الأدلة ما يصحح هواه إلا تعصبُه لرأيه، وغلوه فيه؛ فيجعله يلجأ للتحريف، كما عبَّر النبي ﷺ في الحديث عمَّن يحرِّفون الدين بسبب غلوهم وتعصبهم، فقال:(**يحمل هذا العلم من كل خلفٍ عُدوله ينفون عنه تحريف الغالين**

---

(١) الاستقامة، لابن تيمية (١ /٣٨٦)، بتصرف يسير

(٢) المنقذ من الضلال، للغزالي(١/١٥٢).

(٣) الاعتصام، للشاطبي(١/٢٨٣-٢٨٤).

وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين)[١]، "فقد جمعوا التحريف والغلو، ولعلَّه لولا غلوهم ما حرَّفوا، وليس هذا من بعض المسلمين ببعيدٍ، فمن أهل القبلة من يرى رأياً أو يعتقد اعتقاداً، ويغالي به إلى درجة إسباغ العصمة عليه، وقد يُوالي ويُخاصم عليه، ويسعى جاهداً ليُنطق كلَّ نصٍّ بدعواه، ويستنبط منه ما ادَّعاه؛ فيقع في شرك التحريف والفهم الخاطئ، كما ذُكر أنَّ قدرياً قيل له: كيف تقول: ما خلق الله شراً، وهو ﷻ يقول:﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[الفلق:٢]، فقال: لستُ أقرؤُها هكذا، قيل له: فكيف تقرؤها؟ فقال: من شرٍ ما خلق، فيُنوِّن شراً، ويجعل ما نفياً، فيا لله ماذا يفعل التعصب والغلو بأهله، يفسدون الْقُرْآن ويخالفون رَبهم حَتَّى يُصلحوا اعتقادهم ومذهبهم"[٢].

فلا شكَّ أنَّ الغلوَّ في الأشخاص، والتَّعصُّبَ للرأي من موانع فهم النص فهماً صحيحاً، وعاملٌ قويٌ في تفريق الكلمة، وتشتيت الصف.

٥- الضعف في اللغة العربية: إنَّ الخطأ في فهم النَّص، ينبع من الجهل بأدوات الفهم، ومن أهم أدوات الفهم، معرفة اللغة العربية؛ لأنَّ "النُّصوص الشرعية عربية اللسان، وقد نزل القرآن على ما كان يعرفه العرب من لسانهم"[٣]، كما قال ﷻ:﴿ كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾[فصِّلت:٣].

فالشريعة عربيةٌ في ألفاظها، وفي تراكيب تلك الألفاظ، وفي أساليبها ومعانيها، فمعاني كتاب الله موافقةٌ لمعاني كلام العرب، كما أنَّ ألفاظه موافقةٌ لألفاظها؛ ولهذا فلا يمكن لأحدٍ أن يفهم كلام الله ورسوله إلا من هذه الجهة، ومن لم يترسخ في علوم العربية؛ لن يستقيم فهمه لنصوص الشريعة، كما يقول الشاطبي- رحمه الله-:"فعلى الناظر في الشريعة، والمتكلم فيها أصولاً وفروعاً أمران، أحدهما: أن لا يتكلم في شيءٍ من ذلك حتى يكون عربياً، أو كالعربي في كونه عارفاً بلسان العرب، بالغاً فيه مبالغ العرب، وثانيهما: إذا أُشكل عليه في الكتاب أو السنة لفظٌ أو معنىً، فلا يُقدِم على القول فيه، دون أن يستظهر بغيره ممن له علمٌ بالعربية؛ لأنَّ بعض اللغة يعزُب عن علم بعض العرب، فالواجب السؤال، كما سأل الصحابة عن ذلك وهم أرباب اللغة، فيكون على ما كانوا عليه، وإلا زلَّ، فقال في الشريعة برأيه لا بلسانها،... فإن لم يبلغ ذلك فحسبه في فهم معاني القرآن التقليد، ولا يُحسن ظنَّه بفهمه، دون أن يسأل فيه أهل العلم به"[٤].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى(٣٥٣/١٠)، رقم ٢٠٩١١، وصححه الألباني في تحقيق مشكاة المصابيح (٨٢/١)، رقم ٢٤٨.

(٢) حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر، لابن الحاج القناوي(١٠٨/١).

(٣) الموافقات، للشاطبي(٢٢٤/٤).

(٤) الاعتصام، للشاطبي(٨٠٩/٢-٨١٢)، بتصرف يسير

وما زال السلف ومن كان على هديهم يستدلُّون على معاني الكتاب والسنَّة بكلام العرب من شعرٍ وغيره، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" فمعرفة اللغة العربية التي خوطبنا بها ممَّا يُعين على أن نفقه مُراد الله ورسوله بكلامه، وكذلك معرفة دلالة الألفاظ على المعاني؛ فإنَّ عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنَّهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدَّعون أنَّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمر كذلك"[١].

إنَّ من أكبر أسباب الوقوع في فهومٍ فاسدةٍ وخاطئةٍ للنصوص هو "خروج أصحابها عن مدلول اللغة العربية في ألفاظها ودلالاتها، وبسبب تخرُّصهم على الكلام في القرآن والسنة العربيين مع الضعف في علم العربية، الذي يُفهم به عن الله ورسوله، فيفترون على الشريعة بما فهموا، ويدينون به، ويُخالفون الراسخين في العلم، فمثل هذه الاستدلالات لا يُعبأ بها، ولا يُعتد خلاف أمثالهم، وما استدلوا عليه من الأحكام الفروعية أو الأصولية؛ فهو عين البدعة، إذ هو خروجٌ عن طريقة كلام العرب إلى اتِّباع الهوى"[٢].

قال الحسن البصري عمَّن ضل بسبب الضعف في العربية: "أهلكتهم العجمة، يتأولونه على غير تأويله"[٣]، وقال الإمام الشافعي- رحمه الله-:" ما جهل النَّاس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب"[٤]، "فمن أراد تفهُّم كتاب الله فمن جهة لسان العرب يُفهم، ولا سبيل إلى تطلُّب فهمه من غير هذه الجهة"[٥]، وقال الإمام مالكٌ- رحمه الله-:" لا أُوتى برجلٍ غير عالمٍ بلغة العرب يُفسِّر كتاب الله إلا جعلتُه نكالاً"[٦]، وقال مجاهدٌ- رحمه الله-:" لا يحلُّ لأحدٍ يُؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلَّم في كتاب الله إذا لم يكن عالماً بلغات العرب"[٧]، وقال أيوب السختياني- رحمه الله-:" عامَّةُ من تزندق بالعراق لقلَّة علمهم بالعربية"[٨].

وقد ذكر الشاطبي- رحمه الله- أمثلةً كثيرةً على الخطأ الناتج عن الضعف في العربية عند التعامل مع النُّصوص الشرعيَّة، فقال:" كلُّ معنىً مستنبطٌ من القرآن غيرُ جارٍ على اللسان العربي؛ فليس من علوم القرآن في شيءٍ، لا ممَّا يُستفاد منه، ولا ممَّا يُستفاد به، ومن ادَّعى فيه ذلك؛ فهو في

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١٦/٧).

(٢) الاعتصام، للشاطبي (٣٠١/١-٣٠٣)، بتصرف

(٣) أخرجه البخاري في خلق أفعال العباد(٧٥/١).

(٤) سير أعلام النبلاء، للذهبي(٧٤/١٠).

(٥) الموافقات، للشاطبي(٦٤/٢).

(٦) شعب الإيمان، للبيهقي(٤٢٥/٢).

(٧) البرهان في علوم القرآن، للزركشي(٢٩٢/١).

(٨) الزينة، لأبي حاتم، ص١٢٣.

دعواه مبطلٌ"[١]، ومن الأمثلة التي ذكرها الشاطبي- رحمه الله- على ذلك، أنَّه قال: "ومن أرباب الكلام من ادَّعى جواز نكاح الرجل منَّا تسعَ نسوةٍ حرائر، مُستدلًّا على ذلك بقوله ﷻ:﴿ **فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا**﴾[النساء:٣] ، ولا يقول مثلُ هذا من فهم وضع العرب في مثنى وثلاث ورُباع"[٢]، وقال القرطبي[٣]- رحمه الله- في تفسير هذه الآية:"خاطب الله ﷻ العرب بأفصح اللُّغات، والعرب لا تَدَعُ أن تقول تسعةً، وتقول اثنين وثلاثة وأربعة، وكذلك تستقبح ممن يقول: أعطِ فلاناً أربعةً ستةً ثمانيةً، ولا يقول: ثمانية عشر"[٤]، "فالمراد بالآية التخيير بين تلك الأعداد لا الجمع، ولو أراد الجمع لقال تسع، ولم يعدل عن ذلك إلى ما هو أطول منه، وأقل بياناً"[٥].

فيظهر هنا كيف يُوقع الضعف في العربية في الخطأ في فهم كلام الله ﷻ، وكلام نبيه ﷺ، وأنَّ ذلك يُؤدِّي إلى تحريف الكلم عن مواضعه"[٦].

والخلاصة أنَّ الجهل بلغة العرب، وهي لغة النَّص الشرعي، من أكبر وأخطر مداخل الفهم الخاطئ للنص الديني.

٦- **الكِبْر**: إنَّ الكِبْر داءٌ عُضالٌ[٧]، إذا أصاب القلب أفسده، وأحدث فيه من الأمراض والبلايا ما الله به عليمٌ، يقول ابن القيم- رحمه الله-:" أصلُ الأخلاق المذمومة كلِّها من الكِبْر، فالفخر والبطر والأشر والعُجب والحسد والبغي والخُيَلاء والظلم والقسوة والتجبر والإعراض، وإباء قبول النصيحة، والاستئثار وطلب العلو، وحبُّ الجاه والرئاسة، وأن يُحمد بما لم يفعل، وأمثالُ ذلك كلُّها ناشئةٌ من الكِبْر"[٨].

إنَّ الكبر هو أولُ ذنبٍ عُصي اللهُ ﷻ به، قال ابن القيم- رحمه الله-: "أولُ ذنبٍ عُصى الله به الكِبْر، فكان الكبر ذنبَ إبليس اللعين، وذنبُ إبليس حمله على الإصرار، فأهل الكبر والإصرار، مع

---

(١) الموافقات، للشاطبي(٤/٢٢٥).

(٢) الموافقات، للشاطبي(٤/٢٢٧).

(٣) محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي، أبو عبد الله، القرطبي، من كبار المفسرين، صالح متعبد، استقر بمصر، وتوفي فيها٦٧١هـ، من كتبه: "الجامع لأحكام القرآن" المعروف بتفسير القرطبي، والأسنى في شرح أسماء الله الحسنى، والتذكرة بأحوال الموتى وأحوال الآخرة. انظر: الأعلام، للزركلي(٥/٣٢٢).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي(٥/١٧).

(٥) التسهيل لعلوم التنزيل، لابن جزي(١/٢٣٢).

(٦) الاعتصام، للشاطبي(٢/٨١٥).

(٧) داء عضال: أي شديد لا يقبل الدواء. انظر: غريب الحديث، للخطابي(٢/٢٠٠).

(٨) الفوائد، لابن القيم (١/١٤٣).

شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس"[1]، قال سفيان ابن عيينة: "من كانت معصيتُه في شهوةٍ، فأرجو له التوبة، فإنَّ آدم عصى مشتهياً فغُفر له، وإذا كانت معصيتُه في كبرٍ، فأخشى على صاحبه اللعن، فإنَّ إبليس أبى مستكبراً فلُعن"[2].

إنَّ الكبر إذا دخل القلب واستقرَّ فيه، قاد صاحبه إلى عدم الفهم، وردِّ الحق، فأنَّى لصاحبه التوفيق بعد ذلك، يقول ابن القيم- رحمه الله-:" إنَّ القلب يَعْرض له مرضان عظيمان، إن لم يتداركهما العبد تراميا به إلى التَّلف ولا بُد، وهما الرياء والكبر، فدواء الرياء بإيَّاك نعبد، ودواء الكبر بإيَّاك نستعين، وكثيراً ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: إيَّاك نعبد تدفع الرياء، وإيَّاك نستعين تدفع الكبرياء، فإذا عُوفي من مرض الرياء بإيَّاك نعبد، ومن مرض الكبرياء والعجب بإيَّاك نستعين، ومن مرض الضلال والجهل باهدنا الصراط المستقيم، عُوفي من أمراضه وأسقامه، ورفل في أثواب العافية، وتمَّت عليه النعمة، وكان من المُنعم عليهم، غير المغضوب عليهم وهم أهل فساد القصد، الذين عرفوا الحق وعدلوا عنه، والضالين وهم أهل فساد العلم، الذين جهلوا الحق ولم يعرفوه"[3].

ويقول ابن القيم في نونيته المشهورة، ما يبيِّن أن الكبر يمنع الفهم:

وسَلْ العياذ من التكبُّر والهوى ... فهما لكل الشر جامعتان

وهما يصدَّان الفتى عن كل طرق... الخير إذ في قلبه يلجان

فتراه يمنعه هواه تارةً ... والكبر أخرى ثم يشتركان

والله ما في النار إلا تابع ... هذين فاسأل ساكني النيران

والله لو جرَّدت نفسك منهما ... لأتت إليك وفود كلِّ تهان[4].

إنَّ من ملأ قلبه بالكبر، تنقلب عنده الموازين، فيري الباطل حقاً، والحقَّ باطلاً، يقول ابن القيم- رحمه الله-:" أركان الكفر أربعة، الكبر والحسد والغضب والشهوة، فالكبر يمنعه الانقياد للحقِّ، فإذا انهدم ركن الكبر سَهُل عليه الانقياد"[5]، وقال أحد السلف: "ما صحبني متكبرٌ قطٌّ إلَّا اعتراني داؤه؛ لأنَّه يتكبر، فإذا تكبر غضبتُ، فإذا غضبتُ أدَّاني الغضب إلى الكبر، فإذا داؤه قد اعتراني"[6]، وقال الشافعي- رحمه الله-:" التواضع من أخلاق الكرام، والتكبر من شيم وأخلاق اللئام"[7].

(١) مدارج السالكين، لابن القيم(٣١٦/٢).

(٢) شعب الإيمان، للبيهقي(٤٩٦/١٠)، رقم ٧٨٦٧.

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم(٧٨/١).

(٤) متن القصيدة النونية المسماة الكافية الشافية، لابن القيم(٢٨٧/١).

(٥) الفوائد، لابن القيم(١٥٧/١-١٥٩).

(٦) شعب الإيمان، للبيهقي(٤٩٦/١٠)، رقم ٧٨٦٦.

(٧) المصدر السابق(٥١٥/١٠)، رقم ٧٩١٣.

ولقد أوضح ﷺ المعنى الصحيح للكبر، وأنَّه لا يكون في التَّجمُّل وتحسين الصورة، ولبس الثياب الحسنة، وإنَّما يكون في ردِّ الحق ودفعه وإنكاره، واحتقار الناس، فعن أبي هريرة ﷺ أنَّ رجلا أتى النبيَّ ﷺ، وكان رجلاً جميلاً، فقال: يا رسول الله، إنِّي رجلٌ حُبب إليَّ الجمال، وأُعطيتُ منه ما ترى، حتى ما أحبُّ أن يفوقني أحدٌ، أفمن الكبر ذلك؟ قال: **(لا، ولكن الكبر من بطر الحق[1]، وغمط الناس[2])**[3]، "فالمتكبر ينظر إلى نفسه بعين الكمال، وإلى غيره بعين النقص، فيحتقرَهم ويزدريهم، ولا يراهم أهلاً لأن يقوم بحقوقهم، ولا أن يقبل من أحدٍ منهم الحقَّ إذا أورده عليه"[4].

وسُئل ابن المبارك- رحمه الله-: ما الكِبْر؟ قال: أن تزدري الناس، قال: وسألته عن العُجب، قال: أن ترى أنَّ عندك شيئاً ليس عند غيرك، قال: ولا أعلم في المصلين شيئاً شراً من العُجب"[5]، وسُئل الفضيل بن عياض- رحمه الله- عن التواضع، فقال:"يخضعُ للحقِّ، وينقادُ له، ويقبلُ الحقَّ ممَّن سمعه منه"[6]، وفي هذا المعنى قال ﷺ: **(فإنَّما المؤمن كالجملِ الأنفِ[7]، حيثما قِيد انقاد)**[8].

إنَّ الكبر من أشدِّ موانع العلم والفهم، فهو بمثابة غطاءٍ سميكٍ على القلب يمنع من رؤية الحق، كما جاء عن بعض السلف أنَّ " دون الفهم أغطيةٌ على القلوب قد حجبت الفهم: الذنوب والتكبر على المؤمنين"[9]؛ بل ربَّما يُسلبُ العلم من صاحبه بسبب الكبر، فالكبر قد يمنع صاحبه من الجلوس بين أيدي العلماء والسماع منهم، كما قال مجاهد- رحمه الله-:" لا يتعلم العلم مستحيٍ ولا مستكبر"[10]، ولقد جاء في كتاب الله ﷻ ما يُبيِّن أنَّ صاحب الكبر محرومٌ من الفهم، كما في قوله ﷻ:﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا

---

(١) بطر الحق: هو دفعه وإنكاره ترفعاً وتجبراً. انظر المنهاج شرح النووي على مسلم(٢/٩٠).

(٢) غمط الناس: يعني احتقارهم والاستهانة بهم، فهو في نفسه عالٍ على الحق، وعالٍ على الخلق، لا يلين للحق ولا يرحم الخلق والعياذ بالله. انظر: شرح رياض الصالحين، لابن عثيمين(٣/٥١).

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب اللباس، باب ما جاء في الكبر،(٤/٥٩)، رقم ٤٠٩٢، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٦٠٨، وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٥٥٦)، وابن حبان في صحيحه(٥٤٦٧)، والحاكم في المستدرك(٤/ ١٨١)، والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٦١٩٣.

(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب الحنبلي(٢/٢٧٥).

(٥) المصدر السابق(١٠/٥١٤)، رقم ٧٩١٠.

(٦) المصدر السابق(١٠/٥١٠)، رقم ٧٨٩٥.

(٧) أي شأن المؤمن في ترك التكبر والتزام التواضع للمؤمنين، كالجمل الذي جُعل الزمام في أنفه، فيجره من يشاء من صغيرٍ وكبير. انظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه(١/٢١).

(٨) أخرجه ابن ماجه في سننه، في افتتاح الكتاب، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، (١/١٦)، رقم ٤٣، وصححه الألباني.

(٩) شعب الايمان، للبيهقي(١٠/٤٩٦)، رقم ٧٨٦٨.

(١٠) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب الحياء في العلم (١/٣٨).

﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾[الأعراف:١٤٦]، قال سفيان بن عُيينة- رحمه الله-: "أي أنزعُ عنهم فهم القرآن"[١]، ويقول ابن كثيرٍ[٢]- رحمه الله- في تفسير هذه الآية:" أي سأمنع فهم الحُجج والأدلَّة الدالَّة على عظمتي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي، ويتكبرون على النَّاس بغير حقٍّ، أي كما استكبروا بغير حقٍّ أذلَّهم الله بالجهل"[٣]، وقال الزركشي[٤]- رحمه الله-:" اعلم أنَّه لا يحصل للنَّاظر فهم معاني الوحي، ولا يظهر له أسراره، وفي قلبه بدعةٌ أو كبرٌ أو هوىً أو حبُّ الدنيا، أو وهو مصرٌّ على ذنبٍ، أو غيرُ مُتحقِّقٍ بالإيمان، وهذه كلُّها حجبٌ وموانع، بعضُها آكدُ من بعضٍ"[٥]، ويقول ابن القيم- رحمه الله-: "عدمُ متابعة الحقِّ يكون بسبب قيام مانعٍ، وهو إمَّا حسدٌ أو كِبرٌ، وذلك مانع إبليس من الانقياد للأمر، وهو داء الأولين والآخرين إلَّا من عصم الله"[٦] .

فالكبر يمنع من العلم والفهم والهداية والتوفيق، "ومن أشدَّ الكبر وأفجره، التكبرُ عن الحق، وعدمُ التواضع للدِّين، وعدمُ الانقياد لما جاء به الرسول ﷺ، والاستسلام له، والإذعان، وذلك بأن يُعارض شيئاً ممَّا جاء به بشيءٍ من المُعارِضات الأربعةِ الساريةِ في العالم، المُسمَّاة: بالمعقول، والقياس، والذوق، والسياسة، فالأولى: للمنحرفين أهل الكبر من المتكلمين، والثاني: للمتكبرين من المُنتسبين إلى الفقه، والثالث: للمتكبرين المنحرفين من المنتسبين إلى التَّصوُّف والزهد، والرابع: للمتكبرين المنحرفين من الولاة والأمراء الجائرين، فهؤلاء الأربعة هم أهل الكبر، والتواضعُ التَّخلُّصُ من ذلك كلِّه"[٧]، عافانا الله من الكبر وأهله.

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري(١٣/١١٢).

(٢) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوّ بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقيّ، أبو الفداء، عماد الدين، حافظ مؤرخ فقيه، من كتبه: البداية والنهاية، وتفسير القرآن الكريم، وجامع المسانيد، واختصار علوم الحديث، وتوفي ٧٧٤هـ. انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر (١/٣٧٣)، والبدر الطالع، للشوكاني(١/١٥٣)، وشذرات الذهب، لأبي الفلاح الحنبلي(٦/٢٣١)، والأعلام، للزركلي(١/٣٢٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير(٣/٤٧٤).

(٤) محمد بن بهادر بن عبد الله الزركشي، أبو عبد الله، بدر الدين، عالم بفقه الشافعية والأصول، له تصانيف كثيرة منها: الإجابة لإيراد ما استدركته عائشة على الصحابة، ولقطة العجلان في أصول الفقه، والبحر المحيط في أصول الفقه، وإعلام الساجد بأحكام المساجد، والديباج في توضيح المنهاج، وذيل وفيات الأعيان، وتوفي ٧٩٤هـ. انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر(٣/٣٩٧)، والأعلام، للزركلي(٦/٦٠).

(٥) البرهان في علوم القرآن، للزركشي(٢/١٨٠).

(٦) مفتاح دار السعادة، لابن القيم(١/٩٦).

(٧) مدارج السالكين، لابن القيم(٢/٣١٨).

٧- **تلبيسُ إبليس وغِواية الشيطان:** إنَّ العداوة بين الشيطان والإنسان هي عداوةٌ قديمةٌ بقدم الخليقة، وهي مستمرةٌ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها؛ ولذلك أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، وأنزل الكتب نوراً وهدايةً للخلق، "وقد جاء الأنبياء بالبيان الكافي، وقابلوا الأمراض بالدواء الشافي، وتوافقوا عَلَى منهاجٍ لم يختلف، فأقبل الشَّيْطَان يخلط بالبيان شُبهاً، وبالدواء سُمَّاً، وبالسبيل الواضح درباً مُضلَّاً، وما زال يلعب بالعقول إِلَى أن فرَّق الجاهلية فِي مذاهب سخيفةٍ، وبدعٍ قبيحةٍ، ففرَّق الأكثرون دينهم وكانوا شيعاً"[١].

ولقد بيَّن الله ﷻ أنَّ الشياطين هي سبب إضلال الناس، كما جاء في الحديث: **(وإنِّي خلقتُ عبادي حنفاء كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتْهم أن يُشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطاناً)**[٢]، وأخبر ﷺ أن الشيطان لا يدَّخر جهداً في إغواء الإنسان كما جاء في الحديث:**(إنَّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم[٣])**[٤].

إنَّ الشرَّ الحاصل في البشرية ينبع من أمرين، هما: نفس الإنسان الأمارة بالسوء، أو وسوسة الشيطان، "ومن تأمَّل القرآن والسنة، وجد اعتناءهما بذكر الشيطان وكيدِه ومحاربتِه، أكثرَ من ذكر النَّفس، فإنَّ النَّفس المذمومة ذُكرت فى قوله ﷻ:﴿ **إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾[يوسف:٥٣]، وأمَّا الشيطان فذُكر فى عدة مواضع، وتحذير الربِّ ﷻ لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النَّفس، فإنَّ شرَّ النفس وفسادَها ينشأ من وسوسته[٥]، وقد جمع النَّبي ﷺ بين الاستعاذة من هذين الشرَّين عندما سأله أبو بكرٍ ﷺ، فقال: يا رسول الله مُرني بكلماتٍ أقولُهن إذا أصبحتُ، وإذا أمسيتُ، قال: قل:**(اللَّهمَّ فاطرَ السموات والأرض، عالمَ الغيب والشهادة، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكَه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذُ بك من شرِّ نفسي، ومن شرِّ الشيطان وشِرْكه، وأن أقترف على نفسي سوءاً أو أجرَّه إلى مسلمٍ، قال: قلها إذا أصبحتَ، وإذا أمسيتَ، وإذا أخذتَ مضجعك)**[٦].

---

(١) تلبيس إبليس، لابن الجوزي(٤/١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (٢١٩٧/٤)، رقم ٢٨٦٥.

(٣) قيل هو على ظاهره وأنَّ الله تعالى جعل له قوةً وقدرةً على الجري في باطن الإنسان ومجاري دمه، وقيل هو على الاستعارة لكثرة إغوائه ووسوسته فكأنَّه لا يُفارق الإنسان كما لا يفارقه دمُه، والله أعلم. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٧/١٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب صفة إبليس وجنوده، (١٢٤/٤)، رقم ٣٢٨١.

(٥) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم(٩٠/١).

(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب منه، (٣٣٤/٥)، رقم ٣٣٩٢، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٢٧٥٣.

وقد أمرنا الله ﷻ بالتَّعوذ من الشيطان على كل حالٍ، وأمر بدفع شرِّ الشيطان بالاستعاذة منه فقال ﷻ: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾[فصِّلت:٣٦]، وقال ﷻ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾[المؤمنون:٩٧]، وحتى عند فعل الخير يستعيذ المسلم بالله من الشيطان، ومثاله عند قراءة القرآن، قال ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾[النحل:٩٨]، وجاء في معنى هذه الآية أنَّ الشيطان يوسوس للقارئ بكلِّ جهده على أن يَحُول بين قلبه وبين مقصود القرآن؛ حتى يُشغله عن تدبُّر وتفهُّم القرآن، ومعرفة ما أراد به سبحانه، فلا يَكمُل انتفاع القارئ به، فأُمر عند الشروع أن يستعيذ بالله ﷻ منه[1]، والشيطان لا يَفتُر ولا يملُّ من أن يُغويَ الإنسان، ويقعدَ له في كل طريق، ويحاولَ أن يقطع عليه كلَّ خيرٍ، وحتى إن يئس الشيطانُ من تحقيق الكثير من الغواية والإضلال، فإنَّه يرضى بالقليل، ولا يترك الإنسان من غير وسوسة، كما قال ﷺ: **(إنَّ الشيطان قد أَيِسَ أن يعبدَه المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم)**[2]؛ بل قد يفتح الشيطان على الإنسان أبواباً من الخير؛ ليجرَّه في النهاية إلى بابٍ من الشر، قال أحد السلف: "إنَّ الشيطان ليفتحُ للعبد تسعة وتسعين باباً من الخير يريد به باباً من السوء"[3].

إنَّ إبليس وأتباعه شغلهم التلبيس، والتلبيس إظهارُ الباطل في صورة الحقِّ، وهو نوع جهلٍ يُوجب اعتقاد الفاسد صحيحاً، والرديء جيداً، وسببه وجود شبهةٍ أوجبت ذلك، وإنما يدخل إبليس على الناس ويزيد تمكنه منهم ويقل، على مقدار يقظتهم وغفلتهم وجهلهم وعلمهم[4].

والشيطان يوسوس للإنسان في كلِّ الاتجاهات، "وما أمر الله سبحانه بأمرٍ إلَّا وللشيطان فيه نزغتان: إمَّا إلى تفريطٍ وتقصيرٍ، وإمَّا إلى مجاوزةٍ وغلوٍّ، ولا يُبالى بأيِّهما ظَفَر، وقد ضلَّ أكثرُ النَّاس إلا أقلَّ القليل في هذين الواديين، والقليلُ منهم الثابت على الصراط الذي كان عليه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه، فقومٌ قصَّر بهم حتى منعهم من الاشتغال بالعلم الذي ينفعُهم، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا العلم وحدَه هو غايتهم دون العمل به، وكذلك قصَّر بقومٍ حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حلَّلوه، والحرام ما حرَّموه، وقدَّموا أقوالهم على سنَّة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة، وقصَّر بقومٍ حتى قالوا: إيمان أفسق الناس

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم(٩٣/١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب باب تحريش الشيطان وبعثه سراياه لفتنة الناس وأن مع كل إنسان قرينا، حديث رقم ٢٨١٢.

(٣) حلية الأولياء، للأصبهاني(٣٣١/٧).

(٤) انظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي(٢٣/١)، (٣٦/١).

وأظلمِهم كإيمان جبريل وميكائيل، وتجاوز بآخرين حتى أخرجوا العاصي من الإسلام بالكبيرة الواحدة، وقصَّر بقومٍ حتى نفوا حقائق أسماء الربِّ تعالى وصفاته وعطَّلوه منها، وتجاوز بآخرين حتى شبَّهوه بخلقه ومثَّلوه بهم"[1]، فكم فتن الشيطانُ من إنسان، وكم حال بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان؟، وكم زيَّن الباطل وأبرزه فى صورةٍ مُستحسنةٍ، وشنَّع الحق وأخرجه فى صورةٍ مُستهجنةٍ؟؛ فأبرز لهم الشرك فى صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعُلُوِّه على عرشه وتكلُّمِه بكتبه فى قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى قالب التَّودُّد إلى الناس وحُسن الخلق معهم، والإعراض عمَّا جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام فى قالب التقليد[2].

ومن أجمع وأجمل ما كُتب في هذا المجال، ما كتبه ابن الجوزي- رحمه الله- في كتابه "تلبيس إبليس"، وما كتبه ابن القيم- رحمه الله- في كتابه "إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان"، وقد ذكر الإمامان في كتابيهما أنواعاً كثيرةً من حِيَل الشيطان على مُعظم الفرق والطوائف [3].

إنَّ الواجب على العاقل بعد معرفة كلِّ هذا أن يأخذ حذره من هذا العدو اللئيم الذي أظهر عداوته له من أوَّل لحظةٍ خُلق فيها، وبذل كلَّ ما يملك في فساد أحوال بني آدم، كما قال ﷻ:﴿ **وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[البقرة:١٦٨-١٦٩]، وعلى الإنسان أن يُقابل عداوة الشيطان له بعداوةٍ مثلها؛ لينجوَ من شرِّه ووسوسته، كما قال تعالي:﴿ **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾[فاطر:٦]، وفي القرآن من هذا كثير[4].

وممَّا يعصم من كيد الشيطان ووسوستِه لزومُ جماعة المسلمين، وصراطِ الله القويم، كما قال ﷺ:**(عليكم بالجماعة وإيَّاكم والفُرقة، فإنَّ الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة)**[5].

يقول ابن القيم- رحمه الله- :" فلا نجاة من مصائد الشيطان ومكائده إلَّا بدوام الاستعانة بالله ﷻ، والتَّعرُّض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه، وإقباله عليه فى حركاته وسكناته، والتحقُّق بذلِّ العُبودية الذى هو أولى ما تلبَّس به الإنسان؛ ليحصل له الدخول فى ضمان﴿ **إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ**

---

(١) إغاثة اللهفان، لابن القيم(١/١١٦-١١٨).

(٢) انظر: المصدر السابق(١/١١٠).

(٣) انظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي(١/٨٥-١٤٧)، وإغاثة الللهفان، لابن القيم(١/١١٨-١٢٣).

(٤) انظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي(١/٢٣).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة،(٤/٤٦٥)، رقم ٢١٦٥، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٤٣٠.

﴿عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾[الحجر:٤٢]، فهذه الإضافة هى القاطعة بين العبد وبين الشياطين، وحصولها يُسبب تحقيق مقام العبودية لرب العالمين، وإشعار القلب إخلاص العمل ودوام اليقين، فإذا أُشرب القلب العبودية والإخلاص صار عند الله من المُقرَّبين، وشمله استثناء﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾[الحجر:٤٠] [١]، عصمنا الله من كيد الشيطان ووسوسته.

ثانياً: معوقات وموانع الفهم المتعلقة بالنص:

١- تقديم العقل على النَّص: إنَّ معارضة الوحي بمخرجات العقل من الآراء والأهواء والقياس الفاسد هو مذهب أهل البدع، وإمامهم في ذلك إبليس اللعين، قال الشهرستاني[٢]- رحمه الله-:"اعلم أنَّ أوَّل شبهةٍ وقعت في الخليقة، شبهةُ إبليس لعنه الله، ومصدرُها استبدادُه بالرأي في مقابلة النَّص، واختيارُه الهوى في معارضة الأمر، واستكبارُه بالمادة التي خُلق منها وهي النار على مادة آدم عليه السلام وهي الطين"[٣]، "وكلُّ من قال برأيه وذوقه وسياسته مع وجود النَّص، أو عارض النَّص بالمعقول فقد ضاهى إبليس، حيث لم يُسلِّم لأمر ربه"[٤]، "وهؤلاء المعارضون للوحي بما يُسمونه عقليات، تجد بينهم من الاختلاف والتنازع ما لا يَقدر أحدٌ على جمعه، فيتذبذب الواحد منهم بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار والإنكار، موسوساً تائهاً، شاكاً زائغاً، لا مؤمناً مصدقاً، ولا جاحداً مُكذِّبا"[٥]، "ولهذا كان عامة الخائضين في ذلك بمجرد رأيهم، إمَّا متنازعين مختلفين، وإمَّا حيارى متهوكين"[٦]، حتى قال الشهرستاني- رحمه الله- عن حالهم، وقد كان منهم، وقد خبر طريقتهم:

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلِّها ... وسرَّحتُ طرْفي بين تلك المعالمِ

فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائراً ... على ذقنٍ أو قارعاً سنَّ نادمِ[٧].

فأخبر أنَّه لم يجد إلا شاكاً مريباً، أو من اعتقد ثم ندم في آخر أمره لمَّا تبين له خطؤه،

---

(١) إغاثة اللهفان، لابن القيم(٥/١).

(٢) محمد بن عبد الكريم بن أحمد، أبو الفتح الشهرستاني، كان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة، وكان وافر الفضل، كامل العقل، ولولا تخبطه في الاعتقاد ومبالغته في نصرة مذاهب الفلاسفة والذب عنهم لكان هو الإمام، من كتبه: الملل والنحل، ونهاية الإقدام في علم الكلام، وتوفي سنة ٥٤٨ هـ.انظر: الأعلام، للزركلي(٢١٥/٦).

(٣) الملل والنحل، للشهرستاني(١٤/١).

(٤) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٢٤٢/١).

(٥) المصدر السابق(٢٤٢/١).

(٦) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١٥١/١).

(٧) الملل والنحل، للشهرستاني(١٧٣/١).

وقد رد عليه الإمام الصنعاني[1] – رحمه الله– ببيتين جميلين قال فيهما:

لعَلَّك أهملتَ الطواف بمعهد الـ ... رسول ومن لاقاه من كل عالمِ

فما حارَ مَنْ يُهدى بهدي محمدٍ ... ولستَ تراه قارعاً سن نادمِ[2].

وهذا الذي وقعوا فيه من الحيرة والتيه، كان نتيجةً حتميةً لتقديمهم عقولهم القاصرة على شرع الله، واقحامها فيما لا تقدر عليه، حتى قال قائلهم: "أضطجعُ على فراشي وأضعُ الملحفة على وجهي، وأقابلُ بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيءٌ"[3].

وقد وصف الإمام أحمد– رحمه الله– من يُقدِّمون عقولهم على النَّص من الكتاب والسنة بقوله:" فهم مختلفون في الكتاب، مخالفون للكتاب، مجمعون على مفارقة الكتاب، يقولون على الله، وفي الله، وفي كتاب الله بغير علمٍ، يتكلمون بالمتشابه من الكلام، ويخدعون جُهَّال الناس بما يُشبِّهون عليهم، فنعوذ بالله من فتن الضالين"[4].

وقال العز بن عبد السلام– رحمه الله–:" وما أشدَّ طمعَ الناس في معرفة ما لم يضع الله على معرفته سبباً، كلَّما نظروا فيه وحرصوا عليه ازدادوا حيرةً وغفلةً، فالحزم الإضراب عنه كما فعل السلف الصالح، والبصائر كالأبصار، فمن حرص أن يرى ببصره ما وارته الجبال لم ينفعه إطالة تحديقه إلى ذلك مع قيام الساتر، وكذلك تحديق البصائر إلى ما غيَّبه الله عنها وستره، بالأوهام والظنون والاعتقادات الفاسدة، وكم من اعتقادٍ جزم المرء به وبالغ في الإنكار على مخالفه، ثم تبيَّن له خطؤه وقبحُه بعد الجزم بصوابه وحُسنه، والسعادةُ كلُّها في اتِّباع الشريعة في كل وردٍ وصدرٍ، ونبذ الهوى فيما يُخالفها؛ فقد قال ﷻ:﴿ **فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى** ﴾[طه:١٢٣]، أي فلا يضلُّ في الدنيا عن الصواب، ولا يشقى في الآخرة بالعذاب"[5].

وعند التحقيق في مسألة العقل والنقل، نجد أنَّ شبهة تعارض العقل والنقل هي شبهةٌ مفتعلةٌ من الفلاسفة وأهل الكلام، وأنَّ النقل والعقل متلازمين، ويستحيل تعارضهما، فلا تعارض بين نقلٍ صحيحٍ وعقلٍ صريح، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله–:"والمقصود أنَّ ما جاء وصحَّ عن

---

(١) محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد الحسني، الكحلاني ثم الصنعاني، المعروف كأسلافه بالأمير، مجتهدٌ، أصيب بمحنٍ كثيرة من الجهلاء والعوام، له نحو مائة مؤلف، من كتبه: (توضيح الأفكار شرح تنقيح الأنظار) في مصطلح الحديث، و(سبل السلام شرح بلوغ المرام من أدلة الأحكام لابن حجر العسقلاني)، و(الروض النضير)، و(شرح الجامع الصغير للسيوطي)، وتوفي ١١٨٢هـ. انظر: أبجد العلوم، للقنوجي، ص٨٦٨، والبدر الطالع، للشوكاني(١٣٣/٢)، والأعلام، للزركلي(٣٨/٦).

(٢) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم، لابن الوزير (المقدمة/١٢).

(٣) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٢٤٧/١).

(٤) الرد على الجهمية والزنادقة، للإمام أحمد(٥٧/١).

(٥) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام(١٩/١).

النبي ﷺ، موافقٌ لفطرة الخلائق وما جُعل فيهم من العقول الصريحة، والقصود الصحيحة، ولا يخالف العقل الصريح، ولا القصد الصحيح، ولا الفطرة المستقيمة، وإنَّما يظنُّ تعارضها من صدَّق بباطلٍ من النُّقول، أو فهم منه ما لم يدلَّ عليه؛ أو اعتقد شيئاً ظنَّه من العقليات وهو من الجهليات، أو من الكشوفات وهو من الكسوفات، أو ما يظنُّه منقولاً عن النبي ﷺ ويكون كذباً عليه، أو ما يظنه لفظاً دالّاً على شيءٍ ولا يكون دالّاً عليه"(١).

"وإنْ بدا أيُّ اختلافٍ أو تعارضٍ بين نصوص الوحي وبين العقل في الظاهر، فهناك أمورٌ أوجبت ظنَّ التعارض بين السمع والعقل، ومن ذلك أن يكون العقل ليس بصحيحٍ ولا صريحٍ، أو أن يكون العقل صحيحاً صريحاً، ولكن يكون النقل مكذوباً، وهذا تعارضٌ بين دليلٍ صحيحٍ ودليلٍ فاسدٍ، والدليل الفاسد لا يصلح أن يكون دليلاً، فضلاً عن أن يُعارض الدليل الصحيح، فالواجب تقديم الصحيح سمعياً كان أم عقلياً، أو أن يكون النقل صحيحاً، ولكن عند غلط المستدل في الاستدلال به، يظهر التعارض نتيجة الفهم القاصر"(٢).

ويقول ابن تيمية– رحمه الله– أيضاً مُبيِّناً طريقة المبتدعة في تقرير أصولهم البدعية: "وأهل البدع ابتدعوا ألفاظاً ومعاني، إمَّا في النفي، وإمَّا في الإثبات، وجعلوها هي الأصل المعقول المُحكم، الذي يجب اعتقاده والبناء عليه، ثمَّ نظروا في الكتاب والسنَّة، فما أمكنهم أن يتأولوه على قولهم تأولوه، وإلا قالوا هذا من الألفاظ المتشابهة المشكلة التي لا ندري ما أُريد بها، فجعلوا بدعهم أصلاً مُحكماً، وما جاء به الرسول فرعاً له ومُشكلاً إذا لم يوافقه، وهذا أصلُ الجهمية والقدرية وأمثالهم، وأصلُ الملاحدة من الفلاسفة الباطنية، ومعرفة الفرق بين هذا وهذا من أعظم ما يُعلم به الفرق بين الصراط المستقيم الذي بعث الله به رسوله، وبين السبل المخالفة له، فالواجب أن يجعل ما أنزله الله من الكتاب والحكمة أصلاً في جميع هذه الأمور، ثم يردُّ ما تكلَّم فيه الناس إلى ذلك، فيقبل ما وافق الكتاب والسنة، ويردُّ ما خالفهما"(٣).

ولذلك إذا استقام فهم النَّص، وسلمت مقررات العقل وأحكامه، فإنَّه يستحيل أن يوجد بينها أدنى تعارضٍ أو اختلافٍ، يقول ابن القيم– رحمه الله– في نونيته:

"فإذا تعارض نصُّ لفظٍ واردٍ ... والعقل حتى ليس يلتقيانِ

فالعقل إما فاسدٌ ويظنُّه الرائي ... صحيحاً وهو ذو بطلانِ

أو أنَّ ذاك النَّص ليس بثابتٍ ... ما قاله المعصوم بالبرهان"(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٦/٥٨٠).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/٧٩)، بتصرف يسير

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٧/٣٠٦).

(٤) متن القصيدة النونية، لابن القيم (١/١٥٤).

ولقد تصدَّى شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- لمن يحتجون بالعقل على معارضة الوحي والنقل، وأفرد لذلك مؤلفه الكبير المعروف بدرء تعارض العقل والنقل، وردَّ عليهم في أكثر من أربعين وجهاً، وقد ردَّ ابن تيمية على المتكلمين والمحتجين بالعقل على الشرع بنفس طريقتهم، وبنفس قانونهم، وبنظير ما قالوه فقال:" إذا تعارض العقل والنقل وجب تقديم النقل؛ لأنَّ الجمع بين المدلولين جمعٌ بين النقيضين، ورفعهما رفع النقيضين، وتقديم العقل ممتنعٌ؛ لأنَّ العقل قد دلَّ على صحة السمع، ووجوب قبول ما أخبر به الرسول ﷺ، فلو أبطلنا النقل لكنَّا قد أبطلنا دلالة العقل، ولو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل؛ لأنَّ ما ليس بدليلٍ لا يصلح لمعارضة شيءٍ من الأشياء، فكان تقديم العقل موجباً لعدم تقديمه، فلا يجوز تقديمه، وهذا بينٌ واضحٌ"[١].

وسار على نفس درب ابن تيمية- رحمه الله- تلميذه ابن القيم- رحمه الله- في كتابه الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، وردَّ عليهم في أكثر من مائتين وأربعين وجهاً، فكانت كتبهم درءاً لهذه الأباطيل، وصواعق تنزل على رؤوس المبتدعة؛ فتُحطِّم ما فيها من الجهل والهوى.

وقد أحسن الشاطبي- رحمه الله- حين نصح المسلم بأن يُسلِّم للنص ولو لم يتبين له الحق؛ لأنه سيتبين له بعد ذلك، فقال: "فإنَّ كلَّ ما ورد على من حكَّم عقله في شرع الله ممَّا يُصادم الرأي، فإنَّ الحقَّ يتبينُ له على التدريج، حتى يظهر فساد ذلك الرأي، وأنَّه كان شبهةً عرضت، وإشكالاً ينبغي أن لا يلتفت إليه؛ بل يتهم عقله أولاً، ويعتمد على ما جاء في الشرع، فإنَّه إن لم يتبيَّن اليوم تبيَّن غداً، ولو فرض أنَّه لا يتبين أبداً فلا حرج، فإنَّه متمسكٌ بالعروة الوثقى"[٢].

وفي هذا المعنى يقول ابن تيمية مبيناً ضرورة تقديم الشرع والوحي الثابت الصحيح على كلِّ عقلٍ:" وإذا قُدِّم الشرع على العقل، كان المُقدِّم له قد ظفر بالشرع، ولو قُدِّر مع ذلك بطلان الدليل العقلي، لكان غايته أن يكون الإنسان قد صدَّق بالشرع بلا دليلٍ عقلي، وهذا مما ينتفع به الإنسان، بخلاف من لم يُبق عنده لا عقلٌ ولا شرعٌ، فإنَّ هذا قد خسر الدنيا والآخرة"[٣].

٢- الخلل في مصادر التلقي: لقد ظلَّ المسلمون في عهد النبي ﷺ، وصدرٍ من عصر الصحابة رضي الله عنهم، على منهاجٍ واحدٍ، وسبيلٍ مُتحدٍ، وكان بينهم الوفاق العلمي والاتفاق العملي، يأخذون دينهم من الكتاب والسنَّة، عنهما يصدرون، وبهما يحتجون، وإليهما يتحاكمون، فلم يعرضوا عن نصوص الوحي ولا عارضوها، ولم يعطلوا أحكامه ولا حرَّفوها، ولا يقبلون من أحدٍ كائناً من كان مقالةً في الدين، حتى تكون موافقةً للكتاب والسنة، ثمَّ بدأت بعد ذلك بعض الآراء والاتجاهات الشاذة تُطلُّ على المسلمين، ثمَّ

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٧٠).

(٢) الاعتصام، للشاطبي(٢/٨٢٠).

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٥/٢٧٧).

تطورت هذه الاتجاهات لتصبح فرقاً ونحلاً[1]، وكان من أهم أسباب الانحراف عند هذه الفرق هو الخلل في مصادر التلقي والاستدلال على المسائل الشرعية، والاضطراب في التعامل مع هذه المصادر، فمنهم من زاد عليها ما ليس منها، ومنهم من أنقص منها ما هو أصلٌ أساسيٌ، ومنهم من خرج بها عن ضوابطها، فزلَّ وضلَّ في هذا الباب، "ومصادر التشريع المتفق عليها عند أهل السنة، هي القرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة، والإجماع، والقياس، وهناك مصادرٌ أخرى غيرُ متفقٍ عليها، مثل: الاستحسان، والمصالح المرسلة، والعرف، وشرع من قبلنا، وغيرها"[2]، وهذه المصادر جميعُها قد تطرَّق إليها الطعن من أهل الزيغ والضلال، على النحو التالي:

أ- أما القرآن الكريم، فهو المصدر الأول من مصادر التشريع، وإليه ترجع بقية المصادر، والقرآن كلُّه حقٌ لا ريب فيه، منقولٌ إلينا بالتواتر[3]، الذي يستحيل معه الكذب أو التحريف؛ فهو قطعي الثبوت[4]، وقد حفظه الله ﷻ من التحريف والتبديل، فقال ﷻ:﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[الحجر:٩]، ولكن مع ذلك نجد من يقول بأنَّ القرآن محرَّفٌ، وأنَّ الصحابة كتموا بعض ما فيه، كما يقول الشيعة الرافضة؛ بل ويعلنون ذلك، ويُؤلِّف أحد علمائهم كتاباً يسميه "فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب"[5]، وبالتالي فهم يفسرون الآيات على ما تهواه قلوبهم، ويحمِّلون النصوص ما لا تحتمل؛ لتوافق معتقدهم.

ب- وأمَّا السُّنَّة النبوية فهي المصدر الثاني من مصادر التشريع، وللسنة مكانتها العظيمة عند المسلمين، ولا يمكن فهم القرآن بعيداً عن السنة، ولا يمكن فصل أحدهما عن الآخر، فالسنة قد تأتي موافقةً لما جاء في القرآن، أو مفسرةً وشارحةً وموضحةً لما أجمله القرآن؛ بل وتأتي مشرعةً لأحكامٍ

---

(١) انظر: مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن(٥/١).

(٢) علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف(٢٢/١).

(٣) التواتر: هو أن ينقل جماعةٌ يستحيل تواطؤهم على الكذب خبراً أو وقائع مختلفة تشترك في أمرٍ واحدٍ، ولا يعتبر فيهم عددٌ محصور؛ بل يعتبر ما يفيد العلم على حسب العادة في سكون النفس إليهم، وعدم تأتِّي التواطؤ على الكذب منهم، إمَّا لفرط كثرتهم، وإمَّا لصلاحهم ودينهم، والمتواتر يفيد العلم اليقيني. انظر: المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية(٢٣٥/١)، تدريب الراوي، للسيوطي(٦٣١/٢)، الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(٢/ ١٤)، المحصول، لابن العربي(١١٣/١)، إرشاد الفحول، للشوكاني(١٢٨/١).

(٤) انظر: علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف(٤٢/١)، مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن(١٦/١).

(٥) مؤلف الكتاب هو حسين بن محمد تقي النوري الطبرسي، المتوفى ١٣٢٠هـ، وهو من علماء النجف، وقد طُبع كتاب الطبرسي في إيران سنة ١٢٩٨هـ. انظر: الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية، لمحب الدين الخطيب(١٢/١)، وفرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي (٤٢٢/١).

جديدةٍ لم تُذكر في القرآن، قال ابن القيم- رحمه الله-:" والسُّنَّة مع القرآن على ثلاثة أوجهٍ، أحدها: أن تكون موافقةً له من كلِّ وجهٍ؛ فيكون توارد القرآن والسنة على الحكم الواحد من باب توارد الأدلة وتظافرها، والثاني: أن تكون بياناً لما أُريد بالقرآن وتفسيراً له، والثالث: أن تكون موجبةً لحكمٍ سكت القرآن عن إيجابه، أو مُحرِّمةً لما سكت عن تحريمه"(1).

وقد أمرنا الله ﷻ بالتمسك بسنة النبي ﷺ، وتصديقه وطاعته، واتِّباعه فيما أخبر به، وأمر من أمور الشرع، فقال ﷻ: ﴿ **وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ العِقَابِ** ﴾[الحشر:٧]؛ بل لقد جعل الله ﷻ طاعة الرسول ﷺ طاعةً له ﷻ، فقال ﷻ:﴿ **مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا** ﴾[النساء:٨٠]، والآيات في ذلك كثيرةٌ.

ورغم ما ورد من أدلةٍ كثيرةٍ في بيان مكانة السنة وحجيتها، فقد تطرَّق الطعن إليها؛ بل ونالها من الطعن الكثير، ما بين نافٍ لحُجيتها بالكلية، وما بين رادٍّ لمُعظمها، كما فعل الرافضة بتكفير نقلتها وحملتها من الصحابة ﷺ، وباطن أمرهم الطعن في الرسالة، أو كمن قَبِل المتواتر منها وردَّ الآحاد(2)، أو كمن جعل عقله حاكماً على النَّص، فقبل ما وافق عقله، وردَّ ما خالف عقله وهواه(3)، فخرج علينا من يطعن في حُجيَّة السنة، ويقول: يكفينا القرآن، ولسنا بحاجةٍ إلى السنة، وقد بيَّن النبي ﷺ دعوى هؤلاء قبل أن يخرجوا، فقال ﷺ: **(ألا إنِّي أوتيتُ الكتاب، ومثله معه، ألا يوشك رجلٌ شبعانٌ على أريكته، يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرامٍ فحرِّموه، ألا لا يحلُّ لكم لحم الحمار الأهلي، ولا كلُّ ذي نابٍ من السَّبُع)**(4).

وهؤلاء المنكرون لحجية السنة قومٌ لا خلاق لهم كما وصفهم الشاطبي- رحمه الله-: "إنَّ الاقتصار على الكتاب رأيُ قومٍ لا خلاق لهم، خارجين عن السُّنَّة"(5)، وقال أيوب السختياني- رحمه

---

(1) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(٢/٢٢٠).

(2) الآحاد هو ما لا ينتهي من الأخبار إلى حدِّ التواتر، ويجب العمل والتعبد به بدليلٍ قاطعٍ أوجب العمل عند ظن الصدق، وقد ثبت أنَّ ذلك مجمعٌ عليه من السلف، وإنَّما الخلاف حدث بعدهم، والراجح أنَّه يفيد العلم إذا احتفت به قرائن دالةٌ على صدقه. انظر: المستصفى، للغزالي(١/١١٦)، ارشاد الفحول، للشوكاني(١/١٣٤).

(3) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٣/٤٦٣)، وحجية السنة ودحض الشبهات التي تثار حولها، لمحمود الطحان، ص٤٤-٤٥، ومفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، للسيوطي، ص٦.

(4) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، (٤/٢٠٠)، رقم ٤٦٠٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم ٢٦٤١.

(5) الموافقات، للشاطبي(٤/٣٢٥-٣٢٦).

الله-: "إذا حدَّثتَ الرجل بالسُّنَّة، فقال: دعنا من هذا، وحدثنا من القرآن، فاعلم أنَّه ضالٌ مُضلٌّ"[١]، وقال السيوطي- رحمه الله-: "فاعلموا رحمكم الله أنَّ من أنكر كون حديث النبي ﷺ، قولًا كان أو فعلًا، بشرطه المعروف في الأصول حجةٌ، كفر وخرج عن دائرة الإسلام، وحُشر مع اليهود والنصارى، أو مع من شاء الله من فرق الكفرة"[٢].

ثم خرجت نابتةٌ أخرى، وقالوا: القرآنُ كلُّه متواترٌ وقطعي الثبوت فنقبله، أمَّا السُّنَّة فمنها ما هو متواترٌ ومنها ما هو آحادٌ، والآحاد -كما يقولون- لا يُستدلُّ به؛ لأنَّه ظنِّيُّ الثبوت[٣]، وعليه فقد ردُّوا أحاديث الآحاد، وما استُدل عليه بها من العقائد، وهذه دعوى قديمةٌ متجددةٌ، وقد أشبعها العلماء ردَّاً، وردُّوا على المشككين شبهَهم، وأثبتوا أنَّ ما صحَّت نسبتُه إلى النبي ﷺ، سواءٌ كان متواتراً أو آحاداً، وجب التصديق به، والعمل به، سواءٌ كان في العقائد، أو في العبادات[٤]، وهذا ليس مقام بسط الأدلة على هذا؛ ولذلك سأفرد خبر الآحاد بالتفصيل في بيان منهج السلف في الفهم في المطلب التالي.

ثم ثارت شبهةٌ أخرى في وجه السنة، وهي قولُ من قال بالتعارض بين العقل والنقل، وأنَّ العقل مُقدَّمٌ على السنة؛ لأنَّ العقل في نظرهم قطعيٌ والسنة ظنيةٌ، وهذه حجةٌ واهيةٌ متساقطةٌ، والحقيقة أنَّه لا تعارض بين نصٍ صريح وعقلٍ صحيح كما قرر العلماء، وأنَّ المشكلة تكون في قصور العقل والفهم، لا في صحَّة النص، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" يأخذ المسلمون جميعَ دينهم من الاعتقادات والعبادات وغير ذلك من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتُها، وليس ذلك مخالفاً للعقل الصريح، فإنَّ ما خالف العقل الصريح فهو باطلٌ، وليس في الكتاب والسنة والإجماع باطلٌ، ولكن فيه ألفاظٌ قد لا يفهمُها بعضُ الناس، أو يفهمون منها معنىً باطلاً، فالآفة منهم لا من الكتاب والسنة"[٥]، "فيجبُ على المسلم أن يتقبَّل كلَّ شيءٍ ثبت عن النبي ﷺ بسندٍ صحيح، ويعلم أنَّه إن لم يحصل له الهدى والنجاة باتِّباع ما ثبت عنه ﷺ، فإنَّه لا يحصل له ذلك بتحكيم عقله التائه في ظلمات الحيرة والجهل"[٦].

ج- أمَّا الإجماع فهو المصدر الثالث من مصادر التشريع، وهو "اتفاق مجتهدي أمَّة محمدٍ ﷺ بعد وفاته في عصرٍ من العصور، على أمرٍ من الأمور"[٧].

---

(١) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، ص١٦.

(٢) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، للسيوطي، ص٥.

(٣) انظر: الاعتصام، للشاطبي(١/٢٩٨).

(٤) انظر: مذكرة في أصول الفقه، للشنقيطي(١/١٢٤)، وانظر: روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لابن قدامة المقدسي (١/٣٠٥).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١/٤٩٠).

(٦) مذكرة في أصول الفقه، للشنقيطي(١/١٢٥).

(٧) إرشاد الفحول، للشوكاني(١/١٩٣).

وجماهير العلماء على أنَّ الإجماع حجةٌ شرعيةٌ، وحجيتُه ثابتةٌ بالكتاب والسنَّة والمعقول[1]، أمَّا دليله من القرآن فمنها قوله ﷻ:﴿ **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾[النساء:١١٥]، وهذه الآية من أقوى ما استُدلَّ به على حُجيَّة الإجماع، وأوَّل من استدلَّ بها هو الإمام الشافعي- رحمه الله-[2]، "والآية دلَّت على أنَّ الله ﷻ جمع بين مشاقة الرسول ﷺ، ومخالفة سبيل المؤمنين في الوعيد، فلو كان اتباع غير سبيل المؤمنين مباحاً لما جمع بينه وبين المحظور، ومتابعة غير سبيلهم تقع بمخالفة أقوالهم وأفعالهم التي أجمعوا عليها"[3].

وأمَّا دليل الإجماع من السُّنَّة، فقال ﷺ:**(إنَّ الله لا يجمع أمتي، أو قال: أمَّة محمدٍ ﷺ على ضلالةٍ، ويدُ الله مع الجماعة)**[4].

وكتب عمر بن الخطاب ؓ إلى شُريحٍ القاضي[5]- رحمه الله- :"أن اقضِ بما في كتاب الله، فإنْ لم يكن في كتاب الله، فبسنة رسول الله ﷺ، فإنْ لم يكن في كتاب الله، ولا في سنة رسول الله ﷺ، فاقضِ بما قضى به الصالحون"[6].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- وهو يصفُ أهل السنة والجماعة :" وسُمُّوا أهل الجماعة؛ لأنَّ الجماعة هي الاجتماع، وضدُّها الفُرقة؛ والإجماع هو الأصل الثالث الذي يُعتمد عليه في العلم والدين، وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوالٍ وأعمالٍ باطنةٍ أو ظاهرةٍ ممَّا له تعلقٌ بالدِّين"[7].

---

(١) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(٢٠٠/١).

(٢) انظر: الإبهاج في شرح المنهاج، للسبكي(٣٥٣/٢).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٧٨/١٩).

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن باب ما جاء في لزوم الجماعة (٤٦٦/٤)، رقم ٢١٦٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ١٨٤٨ .

(٥) شريح بن الحارث بن قيس بن الجهم الكندي، أبو أمية، من أشهر القضاة الفقهاء في صدر الإسلام، ولي قضاء الكوفة، في زمن عمر وعثمان وعلي ومعاوية، ومات بالكوفة ٧٨هـ. انظر: الطبقات، لابن سعد(٩٠/٦)، ووفيات الأعيان، لابن خلكان(٢٢٤/١)، والأعلام، للزركلي(١٦١/٣).

(٦) أخرجه النسائي في سننه، كتاب آداب القضاة، باب الحكم باتفاق أهل العلم، (٢٣١/٨)، رقم ٥٣٩٩، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٧١٩/١٤).

(٧) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٥٧/٣).

والإجماع لا بُدَّ وأن يستند إلى دليلٍ ومستندٍ من الكتاب والسنة، أو قياسٍ أو أمارةٍ، سواءً علمه من بلغه الإجماع، أم لم يعلمه، وحكى الآمدي[1]- رحمه الله- الاتفاق على ذلك[2].

وقال ابن تيمية- رحمه الله-:" فلا يوجد قطُّ مسألةٌ مُجمعٌ عليها، إلَّا وفيها بيانٌ من الرسول ﷺ، ولكن قد يخفى ذلك على بعض الناس ويعلم الإجماع، ولا يوجد مسألةٌ يتفق الإجماع عليها إلا وفيها نصٌّ"[3].

ومع كلِّ ذلك فقد طعن الطاعنون والمُشكِّكون في حُجية الإجماع؛ بل وأنكروا إجماعاتٍ كثيرةً أجمع عليها السلف والعلماء؛ لأنَّها لا توافق أهوائهم ومعتقداتهم التي بنوها على مقدماتٍ فاسدةٍ، محتجين بأنَّ الإمام أحمد- رحمه الله- أنكر الإجماع، والحقيقةُ أنَّهم لم يفهموا عبارة الإمام أحمد- رحمه الله- ولا مراده منها، فقد نُقل عن الإمام أحمد- رحمه الله- أنَّه قال:" من ادَّعى وجود الإجماع فهو كاذبٌ"[4]، وقد وجَّه أهل العلم هذه العبارة توجيهاً صحيحاً، وبيَّنوا مراد الإمام أحمد- رحمه الله- من ذلك، فقالوا: ثبت عن الإمام أحمد- رحمه الله- أنَّه نَصَّ على أنَّ الإجماع حجةٌ مقطوعٌ بها، يجب المصيرُ إليه، وتحرُم مخالفتُه، ولا يجوز أن تجتمع الأمَّة على الخطأ، وقد نصَّ الإمام أحمد- رحمه الله- على هذا في الأخذ بأقوال الصحابة إذا اختلفوا في مسألةٍ فلا يُخرج عن أقاويلهم، فقيل له: "أرأيتَ إن أجمعوا، له أن يخرج من أقاويلهم؟، فقال: هذا قولٌ خبيثٌ، قول أهل البدع"[5].

بل وصرَّح الإمام أحمد- رحمه الله- بالإجماع الصريح في عدة مسائل، كما في قوله ﷻ:﴿ **وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾[الأعراف:٢٠٤]، قال الإمام أحمد- رحمه الله-: "أجمعوا على أنَّها في الصَّلاة"[6].

وإنَّما مقصود الإمام أحمد من عبارة "من ادَّعى الإجماع"، استبعاد أن ينفرد أحدٌ بادِّعاء الإجماع، والاطلاع عليه دون مَن سواه، إذ لو كان إجماعاً حقاً لاطَّلع عليه غيره معه، أو أنَّه قالها على سبيل التورع، وزجراً عن الجرأة على دعوى الإجماع دون تحرٍ، وتتبُّعٍ لأقوال العلماء، لجواز أن يكون هناك خلافٌ لم يبلغه، فالأولى عدم الجزم، ولذلك قال في نفس العبارة المنقولة عنه: لعل الناس

---

(١) سيف الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي، الآمدي، الحنبلي، ثم الشافعي، ولد سنة خمسمائة نيف وخمسين، وكان يتوقد ذكاء، من مصنفاته: "أبكار الأفكار" في الكلام، و"منتهى السول في الأصول"، قال ابن تيمية: يغلب على الآمدي الحيرة والوقف، ومات ٦٣١هـ.انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٣٦٤/٢٢)، وفيات الأعيان، لابن خلكان(٢٩٣/٣)، والبداية والنهاية، لابن كثير(١٤٠/١٣)، وشذرات الذهب، لأبي الفلاح الحنبلي(١٤٢/٥).

(٢) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(٢٦١/١).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٩٥/١٩).

(٤) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(١٩٨/١).

(٥) المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية(٣١٥/١).

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٦٩/٢٣).

قد اختلفوا، ولذلك فالأفضل أن يقول القائل لا نعلم الناس اختلفوا، وهذا ما اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية[١]، ويُحتمل أنَّ الإمام أحمد– رحمه الله– قال ذلك في معرِض ردِّه وإنكاره على فقهاء المعتزلة، الذين يدَّعون إجماع الناس على مقالاتهم مع قلَّة معرفتهم بأقوال الصحابة والتابعين، فيردُّون السنَّة بإجماعاتٍ متوهَمةٍ، وهذا ما رجَّحه ابن القيم– رحمه الله–، فقال بعد أن ذكر عبارة الإمام أحمد: "وليس مُراده بهذا استبعاد وجود الإجماع، ولكنَّ أحمد وأئمة الحديث بُلوا بمن كان يردُّ عليهم السنَّة الصحيحة بإجماع الناس على خلافها، مع عدم معرفتهم بالأحاديث ومن ذهب إليها من الصحابة والتابعين، وسمَّوا عدم علمهم إجماعاً، وردُّوا به كثيراً من السُّنن"[٢].

وهذا ما يحدث من الخطأ في التعامل مع هذا المصدر من مصادر الاستدلال من بعض الناس، حيث يردُّ بعضهم الإجماع الصحيح، أو يدَّعي البعضُ الإجماع على أمورٍ مختلفةٍ؛ ليُبرر ما ذهب إليه من اعتقاداتٍ فاسدة، وأقوالٍ شاذة.

د– وأمَّا القياس فهو المصدر الرابع من مصادر التشريع، وهو إلحاق أمرٍ غيرِ منصوصٍ على حُكمه الشرعي، بأمرٍ منصوصٍ على حُكمه؛ لاشتراكهما في علَّة الحُكم[٣]، كقياس حُرمة المخدرات على حُرمة الخمر؛ لاشتراكهما في علَّة الإسكار.

وأتفق العلماء على حُجيَّة القياس الصحيح المستوفي للشروط، ووجوب امتثال الحكم الثابت به؛ بل ونقل الأصوليون إجماع السلف على ذلك[٤]، ودلَّ على حُجيَّة القياس ذلك الكتاب والسنة، كما في قوله ﷻ:﴿ **فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ** ﴾[الحشر:٢]، حيث أنَّ الاعتبار عند أهل اللغة هو تمثيل الشيء بغيره، وإجراء حُكمه عليه، ومساواته به، وهذا هو القياس[٥]، والاعتبار كذلك هو الانتقال من الشيء إلى غيره، وذلك متحققٌ في القياس، حيث إنَّ فيه نقل الحكم من الأصل إلى الفرع[٦].

والشاهدُ من السُّنة حديث معاذ ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ لمَّا أراد أن يبعثه إلى اليمن، قال:(**كيف تقضي إذا عرض لك قضاءٌ؟، قال: أقضي بكتاب الله، قال: فإن لم تجد في كتاب الله؟، قال: فبسنَّة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ، ولا في كتاب الله؟ قال: أجتهد رأيي، ولا**

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٧١/١٩)، والمسودة في أصول الفقه، لآل تيمية(٣١٦/١).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٦١١/١).

(٣) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(١٩٠/٣)، والمستصفى، للغزالي(٢٨٠/١)، وارشاد الفحول، للشوكاني(٩٠/٢).

(٤) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(٥/٤)، والمستصفى، للغزالي(٢٨٣/١)، وارشاد الفحول، للشوكاني(٩١/٢)، والموافقات، للشاطبي(٢٨٨/١).

(٥) انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس(٢١٠/٤).

(٦) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(٢٩/٤).

آلو، فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولَ الله لما يُرضي رسول الله)[1]، "وقد أقرَّ النبي ﷺ معاذ على اجتهاد رأيه، فيما لم يجد فيه نصاً عن الله ورسوله"[2].

قال الخطابي[3]- رحمه الله-:" قولُه: أجتهد برأيي، يريد الاجتهاد في ردِّ القضية من طريق القياس إلى معنى الكتاب والسنة، ولم يرد الرأي الذي يسنح له من قبل نفسه، أو يخطر بباله عن غير أصلٍ من كتابٍ أو سُنةٍ، وفي هذا إثبات القياس وإيجاب الحكم به"[4].

"وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ يجتهدون في النوازل، ويقيسون بعض الأحكام على بعض، ويعتبرون النظير بنظيره"[5]، وأصرحُ شيءٍ في ذلك قول عمر ﷺ لأبي موسى الأشعري ﷺ: "اعرف الأشباهَ والأمثال، ثمَّ قِسِ الأمور بعضها ببعضٍ، وانظر أقربها إلى الله وأشبهها بالحق، فاتَّبعه واعهد إليك"[6].

"والفقهاء من عصر رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، قد استعلموا المقاييس في الفقه في جميع الأحكام في أمر دينهم، وأجمعوا بأنَّ نظير الحقِّ حقٌّ، ونظير الباطلِ باطلٌ، فلا يجوز لأحدٍ إنكارُ القياس؛ لأنَّه التشبيهُ بالأمور والتمثيلُ عليها"[7]، وبالرغم من ذلك فقد أنكر أناسٌ القياس بجميع أنواعه،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأقضية، باب اجتهاد الرأي في القضاء، رقم ٣٥٩٢، وأخرجه الترمذي برقم ١٣٧٦ و ١٣٧٧، وهو في مسند أحمد برقم ٢٢٠٠٧، وإسناده ضعيف؛ ولكن مال إلى القول بصحته غير واحدٍ من المحققين من أهل العلم منهم الفخر البزدوي في أصوله، والجويني في البرهان، وأبو بكر بن العربي في عارضة الأحوذي، والخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه، وابن تيمية في مجموع الفتاوى(٣٦٤/١٣)، وابن كثير في مقدمة تفسيره، وابن القيم في إعلام الموقعين، وقال الخطيب البغدادي في الفقيه والمتفقه(١٨٩/١): "إنَّ أهل العلم قد تقبَّلوه واحتجوا به، فوقفنا بذلك على صحته عندهم، كما وقفنا على صحة قول رسول الله ﷺ: "لا وصية لوارث"، وقوله في البحر: "هو الطهور ماؤه الحل ميتته"، وإن كانت هذه الأحاديث لا تثبت من جهة الإسناد، لكن لما تلقتها الكافة عن الكافة، غنوا بصحتها عندهم عن طلب الإسناد لها، وقال شمس الحق آبادي في عون المعبود(٩/ ٣٦٩): وللحديث شواهد موقوفةٌ عن عمر بن الخطاب وابن مسعود وزيد بن ثابت وابن عباس، أخرجها البيهقي في سننه عقب تخريج هذا الحديث تقويةً له.

(٢) إعلام الموقعين، لابن القيم(١٥٤/١).

(٣) الإمام العلامة، الحافظ اللغوي، أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم ابن الخطاب البستيّ، فقيهٌ محدِّثٌ، من نسل زيد بن الخطاب (أخي عمر بن الخطاب)، من كتبه: "معالم السنن" في شرح سنن أبي داود، وبيان إعجاز القرآن، وإصلاح غلط المحدثين، وغريب الحديث، وشرح البخاري باسم تفسير أحاديث الجامع الصحيح للبخاريّ أو أعلام السنن في شرح البخاري، توفي في رباط على شاطئ هيرمند سنة ٣٨٨هـ.انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(١٢/ ٤٩٦)، وفيات الأعيان، لابن خلكان(٢/ ٢١٤)، والأعلام، للزركلي(٢٧٣/٢).

(٤) معالم السنن، للخطابي(١٦٥/٤).

(٥) إعلام الموقعين، لابن القيم(١٥٥/١).

(٦) مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ﷺ وأقواله على أبواب العلم، لابن كثير(٥٤٦/٢).

(٧) عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعظيم آبادي(٣٧٢/٩).

واستباحوا أموراً كثيرةً، ثبت بالقياس اشتراكُها مع الأصل في علَّة التحريم، والحكم يدور مع علَّته وجوداً وعدماً، محتجِّين بردِّ بعض أهل العلم للقياس، وهم في الحقيقة لم يفهموا مُراد أهل العلم فيما نُقل عنهم، فالقياس المأخوذ به بين جماهير أهل العلم، هو ما وقع النَّصُّ على علَّته، وما قُطع فيه بنفي الفارق، وهذا قياسٌ صحيحٌ(١).

ومن نفى القياس من أهل العلم قصد بذلك القياس الفاسد، غيرَ المستوفي للشروط، والذي يترتب عليه أمورٌ باطلةٌ، فهم لم يقولوا بإهدار كلِّ ما يُسمى قياساً؛ بل جعلوا القياس الصحيح مدلولاً عليه بدليل الأصل، مشمولاً به، مندرجاً تحته، فالخلاف صار لفظياً فقط، وهو من حيث المعنى متفقٌ على الأخذ والعمل به(٢)، "فيُحمل ما نُقل عنهم من إنكار العمل بالرأي والقياس على ما كان من ذلك صادراً عن الجُهَّال، ومن ليس له رتبة الاجتهاد، وما كان مخالفاً للنَّص، وما ليس له أصلٌ يشهد له بالاعتبار، وما كان على خلاف القواعد الشرعية"(٣).

ومن النَّاس من يقيس ويجتهد مع وجود النَّص الحاكم في المسألة، وهذا إعراضٌ عن الدليل الواضح، فيُشترط في الفرع المقيس له عند الفقهاء أن يكون خالياً عن نصٍّ أو إجماعٍ يُنافي حكم القياس، فإن وُجد نصٌّ أو إجماعٌ ينافي الحكم الذي أخذناه عن طريق القياس، فلا يصحُّ القياس؛ لأنَّه لا قياس مع النَّص، ولا قياس ولا اجتهاد مع وجود النَّص(٤).

ويجب معرفة مراتب الأدلة ودلالات النصوص عند القياس عليها، "فلا يُقاس على حكمٍ منسوخٍ، أو عامٍّ جاء ما يُخصِّصه، أو مطلقٍ جاء ما يُقيِّده، أو متشابهٍ جاء ما يُحكمه، فيشترط لصحة القياس أن يكون الحكم ثابتاً مستمراً في الأصل، أمَّا إذا لم يكن ثابتاً؛ لكونه قد نُسخ مثلاً؛ فإنَّه لا يجوز أن يُقاس عليه، ولا بناء حكم الفرع عليه؛ لأنَّ كون الشيء مبنياً على الغير صفةٌ له، وتحقُّقُ الصفة يستدعي تحقُّقَ الموصوف، فإذا لم يكن الموصوف ثابتاً لم تكن الصفة ثابتةً له"(٥).

وبناءً على كلِّ ما سبق، فالخلل في التعامل مع مصادر الاستدلال يكون من وجهين:

أ- **الوجه الأول:** هو عدم مراعاة الضوابط التي أجمع عليها أهل العلم للتعامل مع هذه المصادر، وذلك كمن ردَّ ما جاء في القرآن كما فعل الشيعة، أو من قال بالاكتفاء بالقرآن دون السنة، أو ردَّهما بمعارضة عقلٍ أو هوى، أو كمن استدلَّ بالأحاديث الضعيفة والموضوعة على أمرٍ ما(٦)، أو من ادَّعى إجماعاً مُخترعاً؛ ليمرر قوله على الناس، أو قاس قياساً باطلاً غير مستوفٍ للشروط، أو قال برأيٍ شاذٍ

---

(١) انظر: ارشاد الفحول، للشوكاني(١٠٣/٢).

(٢) انظر: المصدر السابق(١٠٤/٢)، ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٣٣٧/٧).

(٣) الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(٥١/٤).

(٤) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم(٥٤/٧)، الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(٢٥٠/٣).

(٥) الجامع لمسائل أصول الفقه وتطبيقاتها على المذهب الراجح، لعبد الكريم النملة(٣٤٢/١).

(٦) انظر: الاعتصام، للشاطبي(٢٨٧/١ وما بعدها).

مبنيٍّ على تأويلٍ مُتعسفٍ، خالف فيه قائله دلالات النصوص وإجماع الأمة، أو كمن اجتهد ولم تتوفر فيه شروط الاجتهاد؛ فخالف الحق، أو كمن تتبع زلات وسقطات العلماء الموجودة في بطون الكتب، واعتبرها منهجاً له يسير عليه، وربَّما يكون أصحاب هذه الزلات قد تراجعوا عنها.

ب- الوجه الثاني: هو الزيادةُ في مصادر الاستدلال على ما قاله السلف والعلماء، والقول بمصادر جديدةٍ، مبناها الجهلُ بالشريعة، أو اتِّباع الهوى، أو تلبيس الشيطان، كمن قال بوجوب اتباع قول الإمام المعصوم وإن خالف القرآن والسنة كما تدَّعي الشيعة[١]، أو كمن قال بالاستدلال بالذوق والكشف والإلهام من الصوفية، والغالب عليهم عالم التَّوهم[٢]، أو كمن جعل العقل دليلاً مُستقلاً مُقدماً على الكتاب والسنة من أمثال المعتزلة والمتكلمين[٣]، أو كمن جعل عُرف الناس وعاداتهم دليلاً وإن خالف النَّص الصحيح والإجماع الصريح، أو كمن جعل هواه واستحسانه دليلاً وإن خالف القرآن والسنة كأصحاب الهوى، أو كمن جعل تحقيق المصالح وإن كانت مُحرَّمةً دليلاً على ما ذهب إليه من مخالفة الكتاب والسنة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في وصف كل هؤلاء:" وهذا حال من أعرض عن نور السُّنَّة التي بعث الله بها رسوله؛ فإنَّه يقع في ظلمات البدع، ظلماتٌ بعضُها فوق بعضٍ"[٤]، عافانا الله من ذلك كلِّه.

٣- عدم مراعاة المقاصد والمصالح الشرعية في النَّص: إنَّ الشريعة المعصومة لم تُوضع تكاليفُها لمجرد إدخال الناس تحت سلطة الدِّين فحسب؛ بل وُضعت لتحقيق مقاصد الشارع الحكيم في قيام مصالحهم في الدِّين والدنيا[٥]، "فالقاعدة المقرَّرة أنَّ الشرائع إنَّما جيء بها لمصالح العباد، فالأمر والنهي والتخيير جميعًا راجعةٌ إلى حَظِّ المكلف ومصالحِه؛ لأنَّ الله غنيٌّ ومنزَّهٌ عن ذلك"[٦].

إنَّ الجهل بالعلم الشرعي بصفةٍ عامةٍ، وعدمَ التمكُّن من معرفة المقاصد والمصالح في النصوص بصفةٍ خاصةٍ، يتسببُ في كثيرٍ من المخالفات، وعدم إتقان قاعدة المصالح والمفاسد، أو فقه الأولويات والموازنات؛ يؤدي إلى تداخل الأمور والتباسِها، "وهذه القاعدة من أعظم قواعد الشريعة، والجهل بها يجرُّ على المسلمين الشرور والويلات"[٧].

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٤٣٦/٦)، ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٣٣٨/٧).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥٨/٢).

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٦/١).

(٤) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٤٤٢/٦).

(٥) انظر: الموافقات، للشاطبي(٥/١).

(٦) المصر السابق(٢٣٤/١).

(٧) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام(٩٨/١).

إنَّ من لم يفقه مقاصد الشريعة الإسلامية من النصوص؛ فهم النُّصوص على غير وجهها، أو حرَّفها عن مقصدها، أو عطَّل بعضها، أو تقدَّم عليها بالإحداث والابتداع، ويتسبب ذلك في عدم إصابة الحق، عند تنزيل النصوص الشرعية على واقعٍ ما، يقول ابن القيم- رحمه الله-:" ولا يتمكن المفتي ولا الحاكم من الفتوى والحُكم بالحقِّ إلا بنوعين من الفهم، أحدهما: فهم الواقع والفقه فيه، والثاني: فهم الواجب في الواقع، وهو فهم حكم الله الذي حكم به في كتابه أو على لسان رسوله في هذا الواقع، ثم يطبِّقُ أحدَهما على الآخر "[١].

والخلل في معرفة المصالح والمقاصد كثيراً ما يحدث ممن نال من العلم يسيراً، فلم تتكون عنده الأهلية التي تُمكِّنه من جمع النصوص، وفهمها فهماً موضوعياً، أو فهم الواقع والأولويات فيه، فيُنزِّل النُّصوص الشرعية على خلاف معناها المراد منها، وهذا شأن من لم يرسخوا في طلب العلم، ممن قال فيهم ﷺ: **(يأتي في آخر الزمان قومٌ، حدثاءُ الأسنان، سفهاءُ الأحلام، يقولون من خير قول البريَّة، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميَّة، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم)**[٢].

إنَّ الخطأ في هذا الأمر أكبر خطراً، وأعظم ضرراً من الجهل بالحُكم نفسه؛ لأنَّه يرى في نفسه ما لا يراه الجاهل من العوام؛ فيخوض في نصوص الكتاب والسنة ظانَّاً في نفسه أنَّه بلغ رتبة الفهم لها، ولا شكَّ أنَّه تعجَّل في أمرٍ ربما توقف فيه علماء أفذاذٌ، إذ تنزيل النُّصوص الشرعية على واقعٍ مُعينٍ ليس بالأمر اليسير، ولا يحسنُه الكثير، "وقد أصَّل الأصوليون لهذا التنزيل تأصيلاً، ورسموا له ضوابط وقواعد، ومن ذلك أنَّ لكلِّ حكمٍ شرعيٍ مقدمتين، نقليةٌ وعقليةٌ، فالنقلية تُعرف من خلال النُّصوص الشرعية، أمَّا العقلية فيعنون بها تحقيق مناط الحكم الشرعي وتنزيله على ما يُناسبه من وقائع، ومن له هدايةٌ من الله ﷻ، لا يكاد يخفى عليه المقصود في غالب الأمر "[٣].

ومن الأمثلة على ذلك أنَّ رجلاً كان يُضحك رسول الله ﷺ، وكان النَّبي ﷺ قد جلده في الشراب، فأُتيَ به يوماً فأمر به فجُلد، فقال رجلٌ من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يُؤتى به، فقال النبي ﷺ: **(لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إلا إنَّه يحبُّ الله ورسوله)**[٤]، ففي هذا الحديث لم يُجوِّز النبي ﷺ إطلاق اللعن على هذا الرجل الذي كان يشرب الخمر، مع أنَّه ورد نصٌّ في لعن شارب الخمر بإطلاق، حيث قال ﷺ: **(لعن الله الخمرَ، وشاربَها، وساقيَها، وبائعَها، ومبتاعَها، وعاصرَها،**

---

(١) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم(٦٩/١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب علامات النبوة،(٢٠٠/٤)، رقم ٣٦١١.

(٣) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٤٧٤/٢)، وانظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٦١/٣١)، (٣٢٩/٢٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وإنه ليس بخارج من الملة، (١٥٨/٨)، رقم ٦٧٨٠.

ومعتصرَها، وحاملَها، والمحمولَة إليه)[1]، فهناك فرقٌ بين اللَّعن المُعيَّن، وبين اللَّعن المُطلق، فتنزيل النصِّ على الواحد المُعين يحتاج إلى علمٍ ودرايةٍ، ومثل ذلك يُقال في إطلاق جميع الأحكام من كفرٍ، وردةٍ، وبدعةٍ، وفسقٍ، ونحوه على المُعيَّنين، وهذا كلُّه يحتاج إلى توفر شروطٍ، وانتفاء موانعَ؛ ليقع الحُكم على المُعيَّن، وهذا بابٌ عظيمٌ لا يقدر عليه إلا الراسخون من أهل العلم[2].

٤- الجهل بمنهج السلف في فهم النُّصوص: إنَّ للسلف الصالح منهجاً متميزاً، وطريقةً واضحةً في التعامل مع النصوص الشرعية، وهذا المنهج يتمثل في الأصول والقواعد الكليَّة التي أجمعوا عليها، والتي بها تلقَّوا الدِّين، وتعاملوا مع النَّصوص من حيث تعظيمها، والتصديق بها، وفهمها، وطريقة التلقي والاستدلال بها، ثمَّ العملُ والتعبُّد لله ﷻ بمراده منها، وهذا المنهج هو الذي مايز بينهم وبين أهل البدع، إذ كلُّهم يدَّعي الانتساب إلى الكتاب والسنة، ولكن لكلٍ منهجُه في التعامل مع هذين المصدرين[3]، فالسلف الصالح لهم ميزةٌ وسبقٌ في هذا الأمر؛ لأسبابٍ اجتمعت فيهم ولم تجتمع في غيرهم، فكانت طريقتُهم أسلمَ وأحكمَ ممَّن خالفهم، وإن ادَّعى السَّلامة فيما ذهب إليه، يقول ابن تيمية- رحمه الله-:" وللصحابة فهمٌ في القرآن يخفى على أكثر المتأخرين، كما أنَّ لهم معرفةٌ بأمورٍ من السُّنَّة وأحوال الرسول لا يعرفُها أكثرُ المتأخرين، فإنَّهم شهدوا الرسول والتنزيل، وعاينوا الرسول، وعرفوا من أقواله وأفعاله وأحواله ما يستدلون به على مرادهم، ما لم يعرفه أكثر المتأخرين الذين لم يعرفوا ذلك"[4]، فقربهم من النَّبي ﷺ مكاناً وزماناً أوجب لهم هذه الفضيلة، وكلَّما بَعُد العهد عن زمن الرسالة، كلَّما وقع اللبس والخطأ، وأصبح الأمر أصعبَ مما مضى؛ لتشتت العلوم وكثرتها، ولتغيُّر أحوال الناس ومصطلحاتهم الحادثة التي خلطوها بألفاظ النُّبوة؛ فالتبس عليهم الأمر.

يقول ابن القيم- رحمه الله- في بيان فضل السلف في الفهم: "فالعربية طبيعتُهم وسليقتُهم، والمعاني الصحيحة مركوزةٌ في فطرهم وعقولهم، ولا حاجة بهم إلى النَّظر في الإسناد وأحوال الرُّواة وعللِ الحديث والجرح والتعديل، ولا إلى النَّظر في قواعد الأصول وأوضاع الأصوليين؛ بل قد غنوا عن ذلك كلِّه، فليس في حقِّهم إلا أمران، أحدهما: قال الله تعالى كذا، وقال رسوله كذا، والثاني: معناه كذا وكذا، وهم أسعد الناس بهاتين المُقدِّمتين، وأحظى الأمة بهما، فقواهم متوفرةٌ مجتمعةٌ عليهما، وأمَّا المتأخرون فقواهم متفرقةٌ، وهِممُهم متشعبةٌ، فالعربية وتوابعُها قد أخذت من قوى أذهانهم شعبةً، والأصول وقواعدُها قد أخذت منها شعبةً، وعلم الإسناد وأحوال الرواة قد أخذ منها شعبةً، وفكرهم في كلام مصنفيهم وشيوخهم على اختلافهم وما أرادوا به قد أخذ منها شعبةً، إلى غير ذلك من الأمور،

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأشربة، باب العنب يعصر للخمر، (٣٢٦/٣)، رقم ٣٦٧٤، وصححه الألباني صحيح الترغيب والترهيب رقم ٢٣٥٦.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥٠١/١٢)، (٢٢٩/٣).

(٣) انظر: قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن، ص٤.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٠٠/١٩).

فإذا وصلوا إلى النُّصوص النبوية، إن كان لهم همٌ تُسافر إليها، وصلوا إليها بقلوبٍ وأذهانٍ قد كلَّت من السير في غيرها، وأوهن قواهم مواصلة السير في سواها؛ فأدركوا من النصوص ومعانيها بحسب تلك القوة، وهذا أمرٌ يَحسُّ به الناظر في مسألةٍ إذا استعمل قوى ذهنه في غيرها، ثم صار إليها، وافاها بذهنٍ كالٍّ، وقوةٍ ضعيفة"[١].

إنَّ التهاون في هذا المنهج الواضح عند السلف، هو الذي أدى إلى وقوع الخطأ في فهم الكثير من القضايا الكبرى والمصيرية في الأمة، فحدثت نتيجةً لذلك الفتن والفرقة، فكان الأولى الحذر والتريث عند من أراد فهم النُّصوص، بدلاً من الوقوع في مثل هذه المزالق الهاوية، والمفاهيم الخاطئة، التي سلكها أهل الابتداع في دين الله، كالخوارج الذين استحلُّوا دماء المسلمين، وكالمُرجئة الين هوَّنوا فعل الحرام على قلوب الناس، وجرَّؤوهم على المعاصي، وكالجهمية الذين نفوا صفات الربِّ العليِّ ﷻ، وكالروافض الذين كفَّروا الصحابة، وابتدعوا ديناً جديداً، ونسبوه لأئمةٍ أطهارٍ هم بُرءاؤ من افتراءاتهم، وكغلاة المُتصوِّفة الذين تركوا العمل بالنصوص، لأنَّها عبادة العوام، وهم من الخاصة الذين رُفع عنهم التكليف كما زعموا، وغيرُهم كثيرٌ ممَّن ضلَّ وانحرف عن الجادَّة؛ لأنَّهم خالفوا وصية رسول الله ﷺ عندما أخبر عن وصف الفرقة الناجية فقال:(**إنَّ بني إسرائيل تفرقتْ على ثنتين وسبعين ملةً، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين ملةً، كلُّهم في النَّار إلا ملةٌ واحدةٌ، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي**)[٢]، "وهذا الحديثُ وغيرُه يدلُّ على ضرورة التزام سبيل المؤمنين في فهم الكتاب والسنة، ووجوبِ ذلك وتأكيدِه، وهذه النقطة يسهو ويَغفلُ عن ضرورتها ولزومها كثيرٌ من أصحاب الفرق، وهؤلاء قد يكونون في دواخل أنفسهم صالحين ومخلصين، ولكن هذا وحده غيرُ كافٍ ليكون صاحبه عند الله ﷻ من الناجين المفلحين؛ بل لا بُدَّ بالإضافة إلى ذلك من أن يكون منهجه منهجاً سوياً سليماً وصحيحاً مستقيماً، ولا يتمُّ ذلك على وجهه إلا بإتباع ما كان عليه سلفُ الأمَّة الصالحون رضوان الله تعالى عليهم أجمعين"[٣].

إنَّ النظر في عمل السلف وفهمهم للدليل، "شاهدٌ على صحَّة الاستدلال به، ومصدقٌ له، فعمل السَّلف بالدليل مُخلِّصٌ له من شوائب الاحتمالات، قاطعٌ بوجهٍ مُعينٍ، ومُبيِّنٌ للمُشكِل، ورافعٌ للإشكال، ودافعٌ للإيهام،... فلهذا كلِّه يجب على كلِّ ناظرٍ في الدَّليل الشرعي مراعاةُ ما فهم منه الأولون، وما كانوا عليه في العمل به؛ فهو أحرى بالصَّواب، وأقومُ في العلم والعمل"[٤].

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١١٤/٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الإيمان، باب ما جاء في افتراق هذه الأمة، رقم ٢٦٤١، وحسنه الألباني في صحيح الجامع برقم٥٣٤٣، وفي السلسلة الصحيحة برقم ٢٠٤، ١٣٤٨.

(٣) موسوعة العلامة الإمام محمد ناصر الدين الألباني، لشادي نعمان(٢٦٨/٤).

(٤) الموافقات، للشاطبي(٢٨٨/٣-٢٨٩).

ويندرج تحت هذه النقطة أيضاً، الابتعادُ عن العلماء المُتبعين لغير منهج السلف، وعدمُ الأخذ عنهم، وعدمُ الرجوع إليهم في فهم النُّصوص الشرعية، وهذا من الأسباب التي تؤدِّي إلى عدم الفهم وقلة الإدراك، أو إلى خللٍ وانحرافٍ في السلوك، فالذي لا يمتلك الأدوات التي تُعينه على الفهم، معرَّضٌ للخطأ أكثرَ من غيره، ولذا قال ﷻ:﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾[الأنبياء:٧].

وبسبب البعد عن منهج السلف وعلماء السلف، ينصرف التائه إلى من لا علم عنده، فيأخذَ منهم، وعندها تكون المصيبة في الضلال والإضلال.

٥- الاشتغال بعلم الكلام والفلسفة وفهم النَّص على أساسهما: إنَّ علم الكلام من العلوم الدخيلة على المسلمين؛ بل لقد سعى منذ لحظات إنشائه الأولى إلى غزو عقيدة السلف، وإقصاء الناس من حولها.

وقد وردت تعريفاتٌ كثيرةٌ لعلم الكلام، والتي كان من أبرزها، أنَّه: "علمٌ يُقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحُجج ودفع الشُبهة"(١)، أو: "هو العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية"(٢)، وقال ابن تيمية- رحمه الله-: "إنَّ الجدال بالعقل في علم العقائد يسمى كلامًا"(٣)، وقد عرفه الشيخ ابن عثيمين- رحمه الله- بقوله: "هو ما أحدثه المتكلمون في أصول الدين من إثبات العقائد بالطرق التي ابتكروها، وأعرضوا بها عمَّا جاء في الكتاب والسنة"(٤).

ويُسمَّى هؤلاء أهل كلام؛ لأنَّهم تكلموا فيما سكت عنه الصحابة والتابعون، مثل الكلام في ذاته ﷻ وصفاته وأسمائه بما لم يرد في النصوص، وتأويل المتشابه، والبحث في القدر، ونحو ذلك، ولأنَّهم لم يفيدوا بذلك علماً لم يكن معروفا، وإنَّما أتوا بزيادة كلامٍ قد لا يُفيد(٥).

ومن الواضح الذي لا يخفى على أحدٍ أنَّ علم الكلام والفلسفة، ليسا من سبيل أهل القرون الفاضلة؛ بل هما من صراط المحدَثين(٦)، فالخوض في علم الكلام قد جرَّ إلى مخالفة السلف(٧)، وتعكير صفاء العقيدة(٨)، يقول شيخ الإسلام عن طريق المتكلمين: "فهذه الطريقة ممَّا يُعلم بالاضطرار أنَّ محمداً ﷺ لم يدعُ الناس بها إلى الإقرار بالخالق ونبوة أنبيائه؛ بل قد يترتب عليها أمورٌ معلومة

---

(١) المواقف، للإيجي(٣١/١)، وانظر: لوامع الأنوار البهية، للسفاريني(٤/١).

(٢) شرح المقاصد في علم الكلام، للتفتازاني(٥/١).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١/ ٣٣٦).

(٤) فتح رب البرية بتلخيص الحموية، لابن عثيمين، ص٩٥.

(٥) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٧٥/٩)، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٢٤٢/١).

(٦) انظر: القائد إلى تصحيح العقائد، لعبد الرحمن المعلمي، ص٤١.

(٧) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم، ص٧٤.

(٨) انظر: الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، لمحمد القحطاني، ص٩٣.

الفساد في الشرع والعقل"(١)؛ ولذلك تواترت أقوال السلف في التحذير من علم الكلام وأمثاله، يقول ابن مسعودﷺ:"أنذرتُكم صِعاب المنطق"(٢)، ولذلك لم يكن الصحابة ﷺ والتابعون من بعدهم يتكلفون في تعلُّم ما لا طائل من ورائه، ولا فائدة تُرجى منه، كما قال الإمام مالك- رحمه الله-: "لا أحبُّ الكلام إلا فيما تحته عمل"(٣)، ويقول الشاطبي- رحمه الله-: "ومن طِماح النفوس إلى ما لم تُكلَّف به نشأت الفرق كلُّها أو أكثرُها"(٤).

وإليك بعضاً ممَّا جاء في التحذير من علم الكلام، قال الإمام أحمد- رحمه الله-: "عليكم بالسُّنة والحديث، وما ينفعكم الله به، وإيَّاكم والخوض والجدال والمراء، فإنَّه لا يفلح من أحبَّ الكلام، وكلُّ من أحدث كلامًا لم يكن آخر أمره إلا إلى بدعةٍ؛ لأنَّ الكلام لا يدعو إلى خيرٍ، ولا أحبُّ الكلام ولا الخوض ولا الجدال، وعليكم بالسنن والآثار والفقه الذي تنتفعون به، ودعوا الجدال، وكلام أهل الزيغ والمراء، أدركنا النَّاس ولا يعرفون هذا، ويجانبون أهل الكلام، وعاقبة الكلام لا تئول إلى خيرٍ، أعاذنا الله وإيَّاكم من الفتن، وسلَّمنا وإيَّاكم من كلِّ هلكةٍ"(٥)، وقال أيضاً:"لا يُفلح صاحب كلامٍ أبدًا، ولا تكاد ترى أحدًا نظر في الكلام إلا وفي قلبه دغلٌ(٦)"(٧)، وقال البربهاري(٨)- رحمه الله-: "وإيَّاك والنَّظر في الكلام، والجلوس إلى أصحاب الكلام، وعليك بالآثار وأهل الآثار، وإيَّاهم فاسأل، ومعهم فاجلس، ومنهم فاقتبس"(٩)، وقال الرازي(١٠)- رحمه الله-:" لقد تأملتُ الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٣٩/١).

(٢) شرح السنة، للبغوي(٣٠٨/١).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٩٣٨/٢)، أثر رقم: (١٧٨٦).

(٤) الموافقات، للشاطبي(١٤٣/٢).

(٥) الإبانة الكبرى(٥٣٩/٢)، رقم(٦٧٦).

(٦) الدال والغين واللام أصلٌ يدل على التباسٍ والتواء من شيئين يتداخلان، ومنه الدَّغَل: الشجر الملتف، والدغل في الشيء:الفساد، ويقولون: أدغل في الأمر، إذا أدخل فيه ما يخالفه. انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس(٢٨٤/٢).

(٧) جامع بيان العلم وفضله (٩٤٢/٢)، أثر رقم: (١٧٩٦).

(٨) أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري، الفقيه، كان قوَّالًا بالحق، داعية إلى الأثر، لا يخاف في الله لومة لائم، من مؤلفاته: شرح السنة، توفي سنة: (٣٢٩هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٩٠/١٥-٩٤).

(٩) شرح السنة، للبربهاري، ص١٠٥.

(١٠) أبو عبد الله، فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التيمي القرشي، البكري الرَّازِي، الأصولي، المفسر، ويعرف بابن الخطيب، وبابن خطيب الرَّي، أحد الفقهاء الشافعية المشاهير، وتلميذ إمام الحرمين، وأحد أئمة الأشاعرة الذين مزجوا المذهب الأشعري بالفلسفة والاعتزال، ولكنه عاد إلى مذهب السلف، وأثنى على طريقتهم، ووبَّخ المتكلمين وطرائقهم، من مصنفاته: التفسير، والمحصول في أصول الفقه، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ومناقب الإمام الشافعي، والأربعين في أصول الدين، وتوفي سنة ٦٠٦هـ.انظر: البداية والنهاية، لابن كثير(٥٥/١٣-٥٦)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي(٥٠٠/٢١-٥٠١)، والأعلام، للزركلي(٣١٣/٦).

رأيتُها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيتُ أقرب الطرق طريقة القرآن،... ومن جرَّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي"[١].

ومن أقحم نفسه وعقله في متاهات علم الكلام، وأفسد على الناس دينهم، وأثار بينهم الشبهات والشُّكوك، استحقَّ العقوبة والتعزير، كما قال الإمام الشافعي- رحمه الله-:"حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنِّعال، ويُطاف بهم في القبائل والعشائر، ويُقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام"[٢]؛ بل لقد عدَّ العلماء الولوغ في علم الكلام من أكبر الفتن والذنوب، كما قال الإمام الشافعي- رحمه الله-: "لَأَن يلقى الله ﷻ العبد بكل ذنبٍ ما خلا الشرك، خيرٌ من أن يلقاه بشيءٍ من الكلام، ولقد سمعتُ من بعضهم كلاماً لا أقدر أن أحكيه"[٣].

وبناءً على ما سبق فلا يصحُّ تسمية العقيدة الإسلامية بعلم الكلام؛ للتباين بينهما[٤]، وأهل السُّنة لا يعتبرون الكلام وتعلمه علماً؛ بل يعدُّونه جهلاً، قال أبو يوسف[٥]- رحمه الله-: "العلم بالكلام هو الجهل، والجهل بالكلام هو العلم"[٦]، وقال الإمام أحمد- رحمه الله-: "علماء الكلام زنادقة[٧] وما ارتدى أحدٌ بالكلام فأفلح"[٨]؛ ولذلك "فإنَّ المعظمين للفلسفة والكلام، المعتقدين لمضمونهما، هم أبعد عن معرفة الحق، وأبعد عن إتِّباعه، وهذا أمرٌ محسوسٌ؛ بل إذا كشفت أحوالهم، وجدتهم من أجهل الناس بأقواله ﷺ، وأحواله، وبواطن أموره، وظواهرها، حتى لتجد كثيرًا من العامة أعلم بذلك منهم، ولتجدهم لا يميزون بين ما قاله الرسول ﷺ، وما لم يقله؛ بل قد لا يفرقون بين حديثٍ متواترٍ عنه، وحديثٍ مكذوبٍ موضوعٍ عليه، وإنَّما يعتمدون في موافقته على ما يوافق قولهم، سواءٌ كان موضوعاً،

---

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٢٤٤/١).

(٢) شرف أصحاب الحديث، للخطيب البغدادي (٧٨/١)، مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١٩/٥).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٩٣٩/٢)، رقم ١٧٨٨.

(٤) موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، لسليمان الغصن(٢٧/١).

(٥) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي، أبو يوسف، صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه، ولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد، ومات في خلافته، وهو أول من دُعي قاضي القضاة، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه، على مذهب أبي حنيفة، من كتبه: اختلاف الأمصار، وأدب القاضي، والأمالي في الفقه، وغيرها، وتوفي ١٨٢هـ. انظر: النجوم الزاهرة، لأبي المحاسن الحنفي(١٠٧/٢)، والبداية والنهاية، لابن كثير(١٨٠/١٠)، والأعلام، للزركلي(١٩٣/٨).

(٦) الإبانة الكبرى، لابن بطة(٤١٨/١)، رقم ٣٣٩.

(٧) زنادقة: جمع زنديق، وهو الذي يؤمن بأزلية العالم، أو لا يؤمن بالآخرة وأن الله واحد، وهو كل من ليس على ملة من الملل المعروفة، ثم استعمل في كلِّ معطِّل، وفي من أظهر الإسلام وأسرَّ غيره، وتُوسِّع فيه فأصبح يُطلق على كل شاكٍّ أو ضالٍّ أو ملحد. انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي(٣/ ٢٤٢)، وتهذيب اللغة، لأبي منصور الهروي(٢٩٧/٩).

(٨) تلبيس إبليس، لابن الجوزي(١ /٧٥)، مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٤٣/٦).

أو غير موضوعٍ، فيعدلون إلى أحاديث يعلم خاصةُ الرسول ﷺ بالضرورة اليقينية أنَّها مكذوبةٌ عليه، عن أحاديث يعلم خاصته بالضرورة اليقينية أنَّها قوله"[١]؛ ولهذا اتَّفق كلُّ من خَبِر مقالة هؤلاء المتفلسفة في العلم الإلهي، أنَّ غالبه ظنونٌ كاذبةٌ، وأقيسةٌ فاسدةٌ، وأنَّ الذي فيه من العلم الحقِّ قليلٌ"[٢].

فعلماء السلف يرون أنَّ علم الكلام بمسائله، واصطلاحاته، يُعدُّ من قبيل فضول الكلام، الذي لا يُفيد الاشتغال به؛ بل إنَّ العمل به مضيعةٌ للجهد والوقت، بعد أن كفانا الله ﷻ بما بيَّن لعباده ما يحتاجون إليه في عاجلهم وآجلهم، "والسلف والأئمة يذمُّون ما كان من العقليات والجدل والكلام مُبتدعًا، وإن قُصد به نصر السنة، فكيف ذمُّهم لمن عارض السنة بالبدعة، والوحي بالرأي، وجادل في آيات الله بالباطل؛ ليدحض به الحق"[٣].

إنَّ علم الكلام يُمثِّل سبباً مباشراً في إفساد العقيدة، وتشتيت المسلمين، وذيوع الفتن[٤]، فقد احتوى على مسائل كثيرةٍ وعظيمةٍ، كردِّ القرآن أو السنة بالرأي، أو ضرب بعضه ببعض، أو التشكيك في محكمه بمتشابهه، أو الكلام في الدين بالرأي، مع ما احتواه علم الكلام من مخالفة لكلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ، وهذا كافٍ في معرفة حكم الشارع فيه، وقد حذَّر النبي ﷺ من هذه الأمور، وشدَّد في آحادها، فكيف بها مجتمعة؟"[٥]، فالحقُّ الذي لا مرية فيه أنَّ علم الكلام مصطنعٌ ممَّا دانت به عقول أهل اليونان وفكرهم، وذلك "عن طريق ترجمة كتب الفلسفة اليونانية، التي فُتن بها المعتزلة؛ وكانت سبباً للقول ببدعٍ كثيرةٍ، وسبباً لأنواع الفساد، والاضطراب في المنهج"[٦]، ولعلَّ ذلك يُفسِّر ما قام به عمر بن الخطاب ؓ من حرقٍ للكتب العجمية[٧].

إنَّ الانشغال بعلم الكلام أودى بمن اشتغل به إلى الانحراف عن عقيدة السلف؛ "وكلُّ ذلك لأجل أنَّهم خاضوا في علم الكلام والفلسفة، وتركوا الاعتماد على الكتاب والسنة وما كان عليه السلف الصالح"[٨]؛ ولذلك جرت عادة السلف على التحذير من النظر في كُتب المتكلمين[٩].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/٩٥).

(٢) الاستقامة، لابن تيمية(١/٧٩).

(٣) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٤/١٢٧٣).

(٤) انظر: تحريم النظر في علم الكلام، لابن قدامة المقدسي، ص١٧.

(٥) قمع الدجاجلة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، لعبد العزيز الراجحي، ص٣٣٧.

(٦) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، لعثمان ضميرية وعبد الله العبادي، ص٢١٣.

(٧) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية(١/٣٧٧).

(٨) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، لعبد الرحمن المحمود(٢/٨٩١).

(٩) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(١/٢٠١)، رقم (٣٢٢).

"إنَّ منهج علم الكلام يقوم على أسسٍ غريبةٍ عن المنهج الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وإنَّ أيَّة محاولةٍ للعودة بالمسلمين إلى الإسلام، لا بُدَّ أن تكون أولى خطواتها العودة إلى صفاء العقيدة، وتخليصها مما ران عليها من شوائب علم الكلام والفلسفة"(١)؛ ولذلك كان من الأصول التي امتثلها السلف، "عدم الخوض في علم الكلام، والفلسفة، والاقتصار في بيان وفهم العقيدة على ما في الكتاب والسنة"(٢).

ولقد حقق السلف ﷺ التوحيد دون وجود علم الكلام، أو الفلسفة والمنطق، "ولم يكن عند أحدٍ منهم ما يستدلُّ به على وحدانية الله ﷻ، وعلى إثبات نبوة محمد ﷺ سوى كتاب الله، ولا عرف أحدٌ منهم شيئًا من الطرق الكلامية، ولا مسائل الفلسفة"(٣).

يقول الغزالي– رحمه الله– وهو من أكابر من جرب الفلسفة وعلم الكلام ثمَّ رجع عنه في آخر أمره:"إنَّ الصحابة ﷺ كانوا مُحتاجين لمحاجَّة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمدٍ ﷺ، فما زادوا على أدلة القرآن شيئاً، وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية، وترتيب المقدمات، كلُّ ذلك لعلمهم بأنَّ ذلك مثارُ الفتن، ومنبعُ التشويش، ومن لا يُقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيفُ والسِّنان، فما بعد بيان الله بيان"(٤).

وينبغي التنبيه إلى أنَّ ما ذكره الباحث في هذه المسألة، لا يتعارض مع القول بأنَّ الحُجج النظرية قد تكون مهمةً لطالب العلم؛ لأنَّ "فائدتها في آحاد الناس، وطلبة العلم فائدةٌ معتبرةٌ؛ إذ لا يَحسُن بحامل السنة الجهلَ بالحُجج النَّظرية على عقائدها"(٥)، فقد يُضطر إليها أهل العلم أحياناً؛ للدفاع عن الإسلام، وهذا مما لا حرج فيه، قال الإمام الدَّارمي– رحمه الله–: "وقد كان من مضى من السلف يكرهون الخوض في هذا وما أشبهه، وقد كانوا رُزقوا العافية منهم، وابتُلينا بهم عند دروس الإسلام، وذهاب العلماء، فلم نجد بُدَّاً من أن نردَّ ما أتَوا به من الباطل بالحقِّ"(٦).

فالفلاحُ كلُّ الفلاحِ في لزوم ما قاله السلف، وما دون ذلك من علم الكلام، والفلسفة، والمنطق، فإنَّه لا يجني على من يتشاغل به إلا الخرابَ والدمار.

٦– الخطأ في الاستدلال بالنَّص: إنَّ الخطأ في الاستدلال، غير الخطأ في مصادر التلقي، فقد يكون الطرفان المُختلفان متفقين على مصادر التلقي من القرآن والسنة الصحيحة، سواءٌ كانت متواترةً أو آحاداً، وكذلك الإجماع المعتبر، والقياس المُستوفي للشروط، والعقل الصحيح، ولكن قد يختلفان في

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، لعبد الرحمن المحمود(١/٥٧).

(٢) المصدر السابق(١/٥٥).

(٣) الانتصار لأهل السنة والحديث في رد أباطيل حسن المالكي، لعبد المحسن العباد، ص١٧٠.

(٤) إلجام العوام عن علم الكلام، للغزالي، ص٨٩ . ٩٠.

(٥) تاريخ ابن خلدون(١/٥٩١).

(٦) الرد على الجهمية، للدارمي، ص٢١.

ثبوت دليلٍ بعينه، أو معرفة وجه الدَّلالة فيه، أو كيفية توظيف هذه الأدلة، وإنزالها في مناطها الصحيح؛ ولذلك لا يُظنُّ بأحدٍ من أهل العلم أنه يخالف الدليل الصحيح وهو يعتقد صحَّته؛ بل لا بدَّ أنَّه قد قامت عنده شبهةٌ في ثبوت هذا الدليل أو فهمه، ولم تتبين له هذه الشبهة وتبينت لغيره، يقول ابن تيمية- رحمه الله-:"وليُعلم أنَّه ليس أحدٌ من الأئمة المقبولين يتعمَّدُ مخالفة رسول الله ﷺ في شيءٍ من سنَّته؛ دقيقٍ ولا جليلٍ، فإنَّهم متفقون اتفاقاً يقينياً على وجوب اتِّباع الرسول ﷺ، وعلى أنَّ كلَّ أحدٍ من الناس يُؤخذ من قوله ويُترك، إلَّا رسول الله ﷺ، ولكن إذا وُجد لواحدٍ منهم قولٌ قد جاء حديثٌ صحيحٌ بخلافه، فلا بُدَّ له من عُذرٍ في تركه، وجميع الأعذار ثلاثة أصناف: إمَّا عدم اعتقاده أنَّ النبي ﷺ قاله، أو عدم اعتقاده إرادة تلك المسألة بذلك القول، أو اعتقاده أنَّ ذلك الحكم منسوخٌ"[١].

وقد بسط وفصَّل ابن تيمية- رحمه الله- في رسالته "رفع الملام عن الأئمة الأعلام"، الأسباب التي دعت العالمَ والمجتهدَ إلى عدم الأخذ بالنَّص الصحيح، والتمس لهم العذر، وبيَّن وجوب موالاة العلماء ومحبتهم مع عدم الغلوِّ فيهم[٢].

وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في كتابه "رفع الملام" مجموعةً من الأسباب التي تسبب الفهم الخاطئ للمسألة، ومعظم هذه الأسباب هي من قبيل الخطأ في الاستدلال، ويمكن تلخيص هذه الأسباب على النحو التالي:

أ- أن لا يكون الحديث قد بلغ العالم أو المجتهد، ومن لم يبلغه الحديث لم يُكلف أن يكون عالماً بموجِبه، فقد يقول العالم في تلك القضية بموجِب ظاهر آيةٍ أو حديثٍ آخر؛ أو بموجب قياسٍ، وقد يُوافق ذلك الحديث تارةً، ويخالفه أخرى، وهذا السببُ هو الغالبُ على أكثر ما يُوجد من أقوال السلف مخالفاً لبعض الأحاديث؛ لأنَّ الإحاطة بحديث رسول الله ﷺ لم تكن لأحدٍ من الأمة، وقد كان النبي ﷺ يُحدِّث بالشيء فيسمعه أو يراه من يكون حاضراً، ويُبلِّغه أولئك أو بعضُهم لمن يُبلِّغونه، فينتهي علمُ ذلك إلى من شاء الله ﷺ من العلماء، ثمَّ في مجلسٍ آخرٍ قد يُحدِّث أو يفعل شيئاً، ويشهده بعض من كان غائباً عن المجلس الأول، ويُبلِّغونه لمن أمكنهم، فيكون عند هؤلاء من العلم ما ليس عند هؤلاء، وعند هؤلاء ما ليس عند هؤلاء، فمن اعتقد أنَّ كلَّ حديثٍ صحيحٍ قد بلغ كلَّ فردٍ من الأئمة أو إماماً مُعيناً فقد أخطأ خطأً فاحشاً، فإنَّ مجموع سنَّة رسول الله ﷺ من أقواله وأفعاله وإقراره لا يوجد عند رجلٍ واحدٍ أبداً، ولو كان أعلم أهل الأرض[٣].

ب- أن يكون الحديثُ قد بلغ العالم أو المجتهد، لكنَّه لم يثبت عنده، إمَّا لأنَّ مُحدِّثه أو غيره من رجال الإسناد مجهولٌ عنده، أو مُتهمٌ أو سيئُ الحفظ،، وإمَّا لأنَّه لم يبلغه مُسنداً بل منقطعاً، مع أنَّ ذلك

---

(١) رفع الملام عن الأئمة الأعلام، لابن تيمية(١/٧-٩).

(٢) انظر: المصدر السابق(١/٨)،(١/٨٧).

(٣) انظر: المصدر السابق(١/١٧)، والصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٣٥٣).

الحديث قد رواه الثقات لغيره بإسنادٍ متصلٍ، أو قد اتَّصل من غير الجهة المُنقطعة، أو لتلك الرواية من الشواهد والمُتابعات ما يُبيِّن صحَّتها، أو أن يكون ناقل الحديث يعتبره أحدهما ضعيفاً، ويعتبره الآخر ثقةً، ومعرفة الرجال علمٌ واسعٌ، فيه من الإجماع والاختلاف بين العلماء مثلَ ما لغيرهم من سائر أهل العلم في عُلومهم[1].

ج- اشتراط بعض أهل العلم في خبر الواحد العدل شروطاً يُخالفه فيها غيرُه، كاشتراط بعضهم أن يكون الراوي فقيهاً إذا خالف ما رواه القياس، واشتراط بعضهم انتشار الحديث وظهوره إذا كان ممَّا تعمُّ به البلوى، وغيرِها من الشروط، فيختلف بناءً على ذلك ثبوت الحديث عندهم [2].

د- "أن ينسى العالمُ أو المجتهدُ الحديثَ أو الآيةَ، كما نسيَ عمر بن الخطاب ﷺ قول الله ﷻ: ﴿ **إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ** ﴾[الزُّمر:٣٠] عند وفاة النبي ﷺ، وهذا كثيرٌ في السلف والخلف؛ فيكون الناسي معذوراً، ولكن ما عُذر الذاكر للنَّص إذا قلَّد النَّاس، وخالف الذاكر والذكر"[3].

هـ- عدم معرفة دلالة الحديث، إمَّا لكون لفظِ الحديث غريباً، أو أن يكون لذلك اللفظ في لُغته وعُرفه معنىً غير معناه في لُغة الرسول ﷺ، أو لكون اللفظ مُشتركاً، أو مُجملاً، أو مُتردِّداً بين حقيقةٍ ومجازٍ؛ وتارةً لكون الدلالة من النَّص خفية، ودلالات الأقوال مُتسعةٌ جداً، يتفاوت النَّاس في إدراكها[4].

و- اعتقاد المُجتهِد أنَّه لا دلالة في الحديث، ويكون ذلك بأن يتبيَّن له وجه الدلالة، ولكن عنده من الأصول ما يردُّ تلك الدلالة، مثل أن يعتقد بأنَّ المفهوم ليس حُجَّةً [5].

ز- اعتقاد المجتهد أنَّ تلك الدَّلالة قد عارضها ما دلَّ على أنَّها ليست مُرادةً، مثل مُعارضة العام بخاصٍ، أو المطلق بمُقيَّدٍ، أو الأمرَ المجردَ بما ينفي الوجوب، أو الحقيقةَ بما يدلُّ على المجاز، أو اعتقادُه أنَّ الحديث مُعارَضٌ بما يدلُّ على ضعفه، أو نسخه؛ أو تأويله إن كان قابلاً للتأويل، بما يصلح أن يكون مُعارِضاً[6].

وهذه الأسباب المذكورة سابقاً هي الأسباب الظاهرة الناشئة عن الخلل في الاستدلال، وينشأ عنها سوء الفهم للنَّص، ولكن في كثيرٍ من الأحيان قد يكون للعالم حجةٌ في ترك العمل بالحديث لم نطَّلع عليها؛ فإنَّ مدارك العلم واسعةٌ، ولم نطَّلع على جميع ما في بواطن العلماء، والعالِم قد يُبدي حُجَّتهَ وقد لا يبديها، وإذا أبداها فقد تبلغُنا وقد لا تبلغُنا، وإذا بلغتنا فقد نُدركُ موضعَ احتجاجه، وقد لا

---

(١) انظر: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، لابن تيمية(١/١٩-٢٠).

(٢) انظر: المرجع السابق (١/٢٢)، والصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٥٥٩).

(٣) رفع الملام عن الأئمة الأعلام(١/٢٥)، والصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٥٦٠).

(٤) انظر: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، لابن تيمية(١/٢٥-٢٩)، والصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٥٦١-٥٧٣).

(٥) انظر: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، لابن تيمية(١/٣٠)، والصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٥٧٧-٥٨٠).

(٦) انظر: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، لابن تيمية(١/٣٠-٣٥)

نُدركه، سواءٌ كانت الحُجَّة صواباً في نفس الأمر أم لا، وهذا الحُكم مختصٌّ بالعالم المجتهِد الذي يُعمِل الأدلةَ والقواعدَ، ويستنبطُ الأحكامَ بعد استفراغ جهده في إصابة الحق، بخلاف من تكلَّم بما لا يعلم، مثل من أفتَوا المشجوج في البرد بوجوب الغسل؛ فاغتسل فمات؛ فقال ﷺ فيهم:**(قتلوه، قتلهم الله، هلَّا سألوا إذا لم يعلموا؟ إنَّما شفاء العِيِّ السؤال)**[١]، فإنَّ هؤلاء أخطئوا بغير اجتهادٍ؛ إذ لم يكونوا من أهل العلم[٢].

ويحسن هنا أن أُلخِّص ما نقله ابن القيم- رحمه الله- عن ابن حزمٍ- رحمه الله- في بيان أسباب الخلاف الواقع بين الأئمة بعد اتفاقهم على أصلٍ واحدٍ، وهو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فيقول: "لمَّا رأيتُ وشاهدتُ اختلاف علماء الأمة فيما سبيلُه واحدٌ، وأصلُه غيرُ مُختلِفٍ، بحثتُ عن السبب الموجِب للاختلاف، ولترك من ترك كثيراً ممَّا صحَّ من السُّنن، فوضُح لي بعد التفتيش والبحث أنَّ كلَّ واحدٍ من العلماء بشرٌ ينسى كما ينسى البشر، وقد يحفظُ الرجلَ الحديثَ ولا يحضُره ذكره؛ فيفتي بخلافه، وقد يعرِض هذا في آي القرآن، وقد يَذكرُ العالمُ الآيةَ والسنة، ولكن يتأوَّل فيهما تأويلاً من خُصوصٍ أو نسخٍ أو معنىً ما،... وقد كان الصحابة يتفاوتون في علمهم بحسب ما كانوا يحضُرون من الوحي عند رسول الله ﷺ،... ثمَّ لمَّا تفرَّق الصحابة في الأمصار تفقَّه أهلُ كلِّ مِصر على ما عند هذا الصحابي، ولم يبلغهم ما عند أهل المِصر الآخر من العلم، وهم معذورون في ذلك، ولا يكلف الله نفساً إلا وُسعها،... وقد يبلغ الرجل منهم نصَّان ظاهرهما التعارض؛ فيميل إلى أحدهما بضربٍ من الترجيحات، ويميلُ غيرُه إلى النص الآخر الذي تركه بضربٍ آخرٍ من الترجيحات، فعلى هذه الوجوه ترك بعض العلماء ما تركوا من الحديث ومن الآيات، وعلى هذه الوجوه خالفهم نظراؤهم، لا قصداً إلى خلاف النُّصوص، ولا تركاً لطاعتها، ولكن لأحد الأعذار التي ذكرنا،... ثم كثُرت الرِّحلُ إلى الآفاق، وتداخَلَ الناس، وانتُدب أقوامٌ لجمع حديث النبي ﷺ وضمِّه وتقييده، وقامت الحُجَّةُ على من بلغه شيءٌ منه، وجُمعت الأحاديثُ المبيِّنةُ لصحَّةِ أحد التأويلات المتأوَّلة في الحديث، وعُرِف الصحيحُ من السقيم، وسقط العذرُ عمَّن خالف ما بلغه من السُّنن ببلوغها إليه، وقيام الحجةِ بها عليه، ولم يبقَ إلا العنادُ والتقليد"[٣].

وختاماً ينبغي أن يُعلمَ أنّه وإن جاز التماس العذر للعالم المجتهد في مخالفته للنَّص، فإنَّه لا يجوز أن نعدل عن قولٍ ظهرت حُجَّتُه بحديثٍ صحيح إلى قول عالمٍ خالف النَّص بعذرٍ ممَّا ذكرنا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، (١/٩٣)، حديث رقم ٣٣٦، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٤٣٦٣.

(٢) انظر: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، لابن تيمية(١/٣٦-٣٨).

(٣) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٥٣٠-٥٤٠)، بتصرف.

سابقاً؛ لأنَّه ليس لأحدٍ أن يُعارض الحديث الصحيح عن النبي ﷺ بقول أحدٍ من النَّاس، فإنَّ الأدلة الشرعية حجةٌ الله على جميع عباده، بخلاف رأي العالم[1].

٧- **التَّأويل الفاسد والتَّوسُّع في القول بالمجاز:** إنَّ التَّأويل في اللُّغة أصلُه من الأَوْل، وهو الرُّجوع، وعليه فالتأويلُ إرجاعُ الكلام إلى ما يحتمله من المعاني[2].

أمَّا التَّأويل عند السلف فله معنيان:

أ- **الأولُ:** تفسيرُ الكلام وبيانُ معناه، وبذلك يكون التأويل والتفسير مُترادفين، وهذا ما يَعنيه الإمام الطبري في تفسيره حين يقول: القول في تأويل الآية كذا.

ب- **الثاني:** هو نفسُ المُراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً، كان تأويلُه نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويلُه نفس الشيء المُخبِر به؛ وعليه فالتأويل هنا نفس الأمور الموجودة في الخارج، سواءٌ كانت ماضيةً أم مستقبلةً، فإذا قيل: طلعتْ الشّمس، فتأويل هذا هو نفسُ طُلُوعِها، وهذا في نظر ابن تيمية- رحمه الله- هو لغة القرآن التي نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كلِّ ما جاء في القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثاني.

وأمَّا التأويلُ عند المتأخِّرين من الأصوليين والكلاميِّين، فهو: صرفُ اللَّفظ عن المعنى الرَّاجح إلى المعنى المرجوح لدليلٍ يقترن به[3]. " فإن حُمل عليه لدليلٍ فصحيحٌ، أو لِما يُظنُّ دليلاً من الواقع ففاسدٌ، أو لا لشيءٍ فلعبٌ لا تأويلٌ"[4].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" وأما التأويل المذموم والباطل فهو تأويل أهل التحريف والبدع، الذين يتأولونه على غير تأويله، ويدعون صرف اللفظ عن مدلوله إلى غير مدلوله بغير دليلٍ يُوجب ذلك"[5].

وقد يُطلق التأويل ويُراد به الحقيقةَ التي استأثر الله بعلمها، فنحن إذا أخبرنا الله بالغيب الذي اختصَّ به من الجنَّة والنَّار، علمنا معنى ذلك، وفهمنا ما أُريد منَّا فهمُه بذلك الخطاب، وفسَّرنا ذلك، وأمَّا نفسُ الحقيقة المُخبَر عنها إنَّما تكون في الآخرة، فذلك من التأويل الذي لا يعلمه إلا الله[6].

والاستدلال بظاهر النَّص وحقيقتِه، هو طريقة السلف في فهم النصوص، ولا يُعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلَّا عند وجود قرينةٍ تدلُّ على أنَّ الظاهر غيرُ مُرادٍ، قال الإمام الشافعي- رحمه الله-:" فكلُّ كلامٍ كان عاماً ظاهراً في سُنَّة رسول الله ﷺ فهو على ظهوره وعُمومه، حتى يُعْلَمَ

---

(١) انظر: رفع الملام عن الأئمة الأعلام، لابن تيمية(١/٣٩-٤٠).

(٢) انظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي(٣/ ٣٣١)، لسان العرب، لابن منظور(١/١٧١).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٣/٢٨٩)، التفسير والمفسرون، لمحمد حسين الذهبي(١/١٥).

(٤) تشنيف المسامع بجمع الجوامع، للزركشي(٢/٨٢٠).

(٥) التدمرية، لابن تيمية(١/١١٣).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٥٥).

حديثٌ ثابِتٌ عن رسول الله ﷺ يدلُّ على أنَّه إنَّما أُريد بالجملة العامة في الظاهر بعضُ الجملة دون بعضٍ"[١]؛ ولذلك فصرفُ الكلام عن ظاهره المُتبادَر من غير دليلٍ يوجبه أو يُبيِّنُ مُراد المُتكلِّم، تصرفٌ غيرُ مقبولٍ، سببه الجهل أو الهوى، وإن سمَّاه المتأخرون تأويلاً، إلا أنَّه أقرب إلى التَّحريف، يقول ابن القيم– رحمه الله–:" وأنت لا تجدُ الاختلاف في شيءٍ أكثرَ منه في آراء المُتأوِّلين، وسوانح أفكارهم، وزُبالة أذهانهم التي يُسمُّونها قواطع عقليةً وبراهين يقينيةً، وهي عند التحقيق خيالاتٌ وهميةٌ، وقوادح فكريةٌ، نبذوا بها القرآن والسنة وراء ظهورهم كأنَّهم لا يعلمون"[٢].

وعليه فلا يُسَلَّم لأيِّ مُتأوِّلٍ تأويلَه حتى تتوفر فيما تأوَّله شروطُ قَبول التأويل، "وذلك بأن يُبيِّنَ احتمال اللفظ لذلك المعنى الذي أورده من جهة اللغة، وأن يُبيِّن وجه تعيينِه لهذا المعنى أنَّه المراد، وأن يُقيم الدليلَ الصارف للفظ عن حقيقته وظاهره؛ لأنَّ الأصلَ عدمُه، وأن يُبيِّن سلامة الدليل الصارف عن المُعارِض"[٣].

وقد وضع العلماء هذه الشروط لتأمين النَّص من التأويلات التحريفية، التي يأتي بها مَن لا هَمَّ لهم إلا التلاعبُ بالمعنى الحقيقي للنَّص، والوصول إلى ما يُسمُّونه المعنى الباطن، وهو المعنى الذي لا تتحمله طبيعةُ النَّص في دلالته على المعنى؛ وذلك لأنَّ التأويلَ خِلافُ الأصل، ولا يُصارُ إليه إلَّا في أضيقِ السُّبُلِ بعد تعذُّر حمل النَّص على معناه الظاهر المُتبادَر من الخطاب؛ لوجود القرينة القويَّة الدَّالة خلاف الظاهر.

وممَّا يدلُّ على خطورة التأويل الفاسد وعلى ضرورة إعمال الظاهر، أنَّه لا يتمُّ بلاغٌ، ولا يكمُلُ إنذارٌ، ولا تقوم الحجةُ، ولا تنقطع المعذرةُ بكلامٍ لا تُفيد ألفاظُه اليقين، ولا تدلُّ على مُراد المُتكلِّم بها، يقول ابن القيم– رحمه الله:" إنَّ التأويل إن سُلِّط على علوم الخلائق أفسدها، فكذلك إذا استُعمل في مخاطباتهم أفسد الأفهام والفهم، ولم يُمكن لأمةٍ أن تعيش عليه أبداً، فإنَّه ضدُّ البيان الذي علَّمه الله الإنسان؛ لقيام مصالحه في معاشه ومعاده"[٤]، "فأصلُ خراب الدِّين والدنيا، إنَّما هو من التأويل الذي لم يُرده الله ورسوله بكلامه، ولا دلَّ عليه أنَّه مُراده، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلَّا بالتأويل، وهل وقعت في الأمَّة فتنةٌ كبيرةٌ أو صغيرةٌ إلَّا بالتأويل، وهل أُريقت دماء المسلمين في الفتن إلا بالتأويل، وليس هذا مختصًا بدين الإسلام فقط؛ بل سائرُ أديان الرسل لم تزلْ على الاستقامة والسداد حتى دخلها التأويل؛ فدخل عليها من الفساد ما لا يعلمُه إلا ربُّ العباد"[٥].

---

(١) الرسالة، للشافعي(٣٤١/١).

(٢) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٣١٩/١)

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٦٠/٦)، والصواعق المرسلة، لابن القيم(٢٨٨/١).

(٤) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٤٠٠/٢).

(٥) إعلام الموقعين، لابن القيم(١٩٢/٤).

وأمَّا المجازُ فهو قريبٌ من معنى التأويل عند المتأخرين، وهو: "ما استُعمل في غير ما اصطُلح عليه من المخاطبة، أو اللفظ المُستعمَل في غير ما وُضع له"[١].

وشرط وقوع المجاز في اللفظ، وجودُ علاقةٍ بين المعنى الأصلي والمعنى المجازي، ووجود قرينةٍ مانعةٍ من إرادة المعنى الأصلي، مثل قولهم: رأيتُ أسداً يرمي، فهو مجازٌ عن شجاعة شخصٍ بتشبيهه بالأسد، ومثل قوله ﷻ:﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾[يوسف:٨٢]، فقد أطلق في هذه الآية المحلَّ وهو القريةُ، وأراد الحالَّ فيها وهم أهلُها؛ لأن القرية من الجمادات التي لا تنطق فيستحيل سؤالها[٢].

وقد وقع الخلاف بين أهل العلم في وجود المجاز في نصوص الوحي من عدمه، والذي يظهر في هذه المسألة هو التفصيل؛ لأنَّ منكري المجاز طائفتان، طائفةٌ ترى أنَّه أسلوبٌ من أساليب العرب معروفٌ، ولكنهم لا يُسمُّونه مجازاً، والخلاف مع هؤلاء لفظيٌّ، والطائفة الثانية تقول أنَّه لم يَردْ في القرآن لفظٌ مُستعملٌ على غير موضوعه الأصلي، وقالوا بذلك خوفاً من تأويل أهل الزيغ والضلال، وإلزاماً لهم بإثبات صفات الرب جلَّ وعلا، ويظهر ذلك عند قولهم بالمعنى الذي قال به من قال بالمجاز في تفسير بعض الآيات، وإن اختلفوا في المُسمَّى، فالحاصل أنَّ الخلاف اصطلاحيٌّ، ولا مشاحاة في الاصطلاح[٣]، يقول ابن رجبٍ الحنبلي- رحمه الله-:" ومن أنكر المجاز من العلماء فقد يُنكر إطلاق اسم المجاز؛ لئلا يُوهم هذا المعنى الفاسد، ويصير ذريعةً لمن يُريد جحد حقائق الكتاب والسنة ومدلولاتهما"[٤].

إنَّ التَّوسُّع في القول بالتأويل والمجاز قد أوقع كثيراً من أهل البدع في نفي صفات الله ﷻ، وتأويل الأمور الغيبية، يقول ابن تيمية- رحمه الله-:"أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلِّها في القرآن والسنة والإيمانِ بها، وحملِها على الحقيقة،لا على المجاز، وأمَّا أهلُ البدع من الجهمية والمعتزلة والخوارج، فكلُّهم يُنكرُها؛ ولا يحملُ شيئاً منها على الحقيقة، ويزعمون أنَّ من أقرَّ بها مشبهٌ، وهم نافون للمعبود، والحقُّ ما نطق به كتاب الله وسنة نبيه ﷺ"[٥].

ويقول ابن تيمية- رحمه الله- أيضاً في بيان خطورة القول بالمجاز في أمور الغيب والإيمان: "فإنَّ عامة ضلال أهل البدع كان بهذا السبب؛ فإنَّهم صاروا يحملون كلام الله ورسوله على ما يدَّعون

(١) شرح الورقات في أصول الفقه، للفوزان(٦٠/١).

(٢) انظر: المرجع السابق(٦١/١-٦٥).

(٣) انظر: الرسالة، للشافعي، ص٦٢-٦٣، والفقيه والمتفقه، للبغدادي(٢١٤/١)، وشرح الورقات، للفوزان(٦٥/١).

(٤) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي(٣٨٥/١).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٢١/٣).

أنَّه دالٌّ عليه، ولا يكون الأمرُ كذلك، ويجعلون هذه الدلالة حقيقةً، وهذه مجازاً، كما أخطأ المُرجئة في اسم الإيمان، حيث جعلوا لفظ الإيمان حقيقةً في مجرد التَّصديق، وتناولَه للأعمال مجازا"[١].

ولشدة خطورة التوسع في القول بالمجاز عدَّه ابن القيم- رحمه الله- طاغوتاً؛ لأن كثيراً من الفرق الضالة اتخذته مطيةً لهدم الدين، وتفريغ النُّصوص من مدلولاتها، قال ابن القيم- رحمه الله-:" فصلٌ في كسر الطاغوت الثالث الذي وضعته الجهمية؛ لتعطيل حقائق الأسماء والصفات، وهو طاغوت المجاز، هذا الطاغوت لهج به المُتأخرون، والتجأ إليه المُعطِّلون، وجعلوه جُنَّة يتترسون بها من سهام الراشقين، ويصدُّون عن حقائق الوحي المبين"[٢].

٨- **فسادُ التَّصور للمسألة:** إنَّ الحكم على أيِّ مسألةٍ يتطلب من الدَّارس لها، أن يستوعب ببحثه جميعَ جوانبها؛ ليستطيع تصوُّرَها تصوراً صحيحاً، ومن ثَمَّ يمكنه الحُكم عليها، وإلَّا لزمه الوقوعُ في الخطأ؛ لأنَّ الحُكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّرِه[٣].

إنَّ أغلبَ الخلافِ الحاصل بين المتنازعين يكونُ من عدم التَّصور السليم والكامل للمسألة محلِّ النقاش[٤]، فالإنسان لا يستطيع أن يحكم على مجهولٍ ولا مستحيلٍ[٥]، يقول ابن تيمية- رحمه الله-:" والخطأ في أسباب العلم إمَّا لفوات شرط العلم، من فسادِ قُوى الإدراك وضعفِها، أو عدمِ التَّصوُّر التامِّ لطرفي القضية، التي يَحصُل العلم بالتصديق عند تصوُّر طرفيْها، أو لوجود مانعٍ من الأهواء الصادَّةِ عن سبيل الله، فإذا كان كذلك فلا تحصل معرفة الحق إلا بوجود شروطه وانتفاء موانعه"[٦].

ولذلك فإنَّ كثيراً من النتائج غير الصحيحة التي يَصِلُ إليها طالب العلم، تعود إلى عدم تصوُّر المسألة المبحوثة تصوراً صحيحاً، وعدم تحديدِها بدقةٍ، وكذلك "الخطأُ في الفتوى أيضاً قد ينتج من عدم تصوُّر المُفتي للمسألة المطروحة تصوُّراً صحيحاً ودقيقاً ومتكاملاً، وهذا مخالفٌ لأهمِّ ركنٍ لإصدار الفتوى"[٧].

لقد بنى كثيرٌ من أصحاب المذاهب الباطلة مذاهبهم المُحدَثة على تصوُّراتٍ فاسدةٍ، واعتقدوا أنَّ تلك التَّصوُّرات من الصِّحَّة بحيثُ لا يُمكن أن يُجادِل فيها أحدٌ، فتجاوزا الكلام في تقريرها إلى البناء عليها والاستدلال بها؛ ولهذا قام العلماء ليُبيِّنوا لهؤلاء أنَّ تصوُّراتهم التي بنَوا عليها مذاهبهم تصوُّراتٍ فاسدةٍ أصلاً، لا يُقرُّها عقلٌ، ولا يقبلُها منطقٌ سليمٌ، يقول ابن القيم- رحمه الله-:" وأكثرُ آفات

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١٦/٧).

(٢) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(١٨٥/١).

(٣) انظر: نهاية السول شرح منهاج الوصول، للإسنوي(٧٩/١)، وإرشاد الفحول، للشوكاني(٨/١).

(٤) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم(٧٣١/٢).

(٥) انظر: غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، لأبي العباس الحنفي(٣١٤/٢).

(٦) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية(٥٧/١).

(٧) الأصول من علم الأصول، لابن عثيمين(٨٣/١).

النَّاس من الألفاظ، ولا سِيَّما في المواضع التي يَعزُّ فيها تصورُ الحقِّ على ما هو عليه، والتعبيرُ المُطابقُ، فيتولدُ من ضعفِ التصورِ، وقصورِ التعبيرِ نوع تخبيطٍ، ويتزايدُ على ألسنة السامعين له وقلوبهم، بحسَب قُصورهم وبُعدهم من العلم، فتفاقمَ الخطبُ، وعَظُمَ الأمرُ، والتبس طريق أولياء الله الصادقين بطرائق الزنادقة المُلحدين، وعزَّ المُفرِّق بينهما، فدخل على الدين من الفساد من ذلك ما لا يعلمه إلا الله"(١).

ويقول الإمام الغزالي– رحمه الله– في نفس المعنى:"معظم الأغاليط والاشتباهات ثارت من الشغف بإطلاق ألفاظٍ دون الوقوف على مداركها ومآخذها"(٢)، فعدم تحرير المصطلحات والمعاني بشكلٍ دقيقٍ يُوقع في كثيرٍ من الخلط والنزاع، ويُؤدِّي إلى فساد التَّصوُّر، الذي ينبني عليه في الغالب عدمُ صحَّة الأحكام، ومن ذلك جهلُ المتنازعَين بحقيقة الأمر الذي يتنازعان فيه، أو الجهلُ بأنَّ كلاً من القولين همَّا في الحقيقة قولٌ واحدٌ، لكنَّ العبارتين مختلفتين(٣).

يقول ابن تيمية– رحمه الله– " فإنَّ كثيراً من نزاع النَّاس سببُه ألفاظٌ مُجمَلةٌ مُبتدَعةٌ ومعانٍ مُشتبِهةٌ حتى تجدَ الرجلين يتخاصمان ويتعاديان على إطلاق ألفاظٍ ونفيِها، ولو سُئل كلٌّ منهما عن معنى ما قاله لم يتصورْه، فضلاً عن أن يعرف دليلَه، ولو عرف دليلَه، لم يلزم أنَّ من خالفه يكون مخطئاً؛ بل يكون في قوله نوعٌ من الصَّواب، وقد يكون هذا مصيباً من وجهٍ، وهذا مصيباً من وجهٍ، وقد يكون الصواب في قولٍ ثالثٍ"(٤)، فمثلاً عند التَّكلُّمِ عن تفضيل شيءٍ على شيءٍ، أو شخصٍ على شخصٍ، يقول ابن القيم:"فعلى المُتكلِّم في هذا الباب أن يعرف أسبابَ الفضل أولاً، ثمَّ درجاتِها، ونسبةَ بعضها إلى بعضٍ، والموازنةَ بينها ثانياً، ثمَّ نسبتها إلى من قامت به كثرةً وقوةً، ثمَّ اعتبارَ تفاوتِها بتفاوت محلِّها رابعاً، ومن تأمَّل كلام أكثر الناس في هذا الباب، رأى غالبه غيرَ سالمٍ من هذا، وهذا مُنافٍ لطريقة العلم والعدل التي لا يقبلُ الله سواها، ولا يرضي غيرها، ومن هذا تفضيل كثيرٍ من أصحاب المذاهب والطرائق وأتباع الشيوخ كلٌّ منهم لمذهبه وطريقته أو شيخه"(٥).

ومن أهمية التصوُّر الصحيح للمسألة أنَّ النبي ﷺ نهى القاضي أن يقضيَ بين اثنين وهو غضبان، أو وهو يُدافعه البول؛ وذلك لعلَّة أنَّه يكون مشغولَ الذِّهن؛ فلا يستطيع تصوُّر المسألة المُتنازع فيها تصوراً صحيحاً(٦).

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم(٣/٧٨).

(٢) شفاء الغليل، للغزالي، ص١٩٩.

(٣) انظر: قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن، ص ٣٦.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٢/١١٤).

(٥) بدائع الفوائد، لابن القيم(٣/١٦٢).

(٦) انظر: فتح الباري، لابن حجر(١٩/١٣٧)، وإعلام الموقعين، لابن القيم(١/١٦٦)،(٢/١٢٠).

إنَّ فساد التَّصوُّر والخلاف المذموم قد ينشأ عن سوء القَصد من المنازِع، لما في نفوس النَّاس من البغي والحسد، وحب الرئاسة، وإرادة العُلوِّ في الأرض بغير حقٍّ، والفساد فيها، ونحو ذلك، فالأمر ينتهي إلى عدم التَّصوِّر التَّام وهو الجهل، أو العناد المحض، وهذا أصلُ كلِّ ضلالٍ، فالعناد وصف المغضوب عليهم، والجهل وصف الضالين[1].

يقول ابن تيمية- رحمه الله-:"فإن الاختلاف تارةً ينشأ من سوء الفهم ونقص العلم، وتارةً من سوء القصد"[2]، ويقول ابن القيم- رحمه الله- في نفس المعنى: "وتحريفُ الكَلِمِ عن مواضعه ينشأ من سوء الفهم وسوء القصد"[3]، "فإذا اجتمع في الشخص الواحد سوء الفهم مع نوع فسادٍ في التَّصوُّر أو القصد، أحدثا ما شئتَ من خبطٍ وغلطٍ واشكالاتٍ، وضَرْب كلامِه بعضه ببعضٍ، وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، والله المستعان"[4]،" فمن شاء أن يُهذِّب أخلاق الناس، ويُقوِّمَ اعوجاجها، فليهذِّب تصوُّراتهم، وليقوِّم أفهامهم؛ يتحقق له ما يريد من التهذيب والتقويم"[5].

وبناءً على سبق، فالخروج من الخلاف يكون أولاً بتحرير محلِّ الخلاف تحريراً دقيقاً، ومعرفةِ القضية المُتناولة، فإن حُرر محلُّ النِّزاع ولا زالت المشكلةُ قائمةً، فعندها نأتي إلى المقارنة بين الأدلَّة، ومعرفة الصحيح من السقيم، والترجيح بينها.

وختاماً أقول: إنَّ الفهم الخاطئ للنَّصِّ مهما كان سببُه أو الدافعُ إليه، فإنَّه يزيغ بصاحبه عن الحقِّ، ويُوقعه في التيه والضلال، وفقدان النجاة في الدنيا الآخرة.

رزقنا الله جميعاً الفهم الصائب، والعمل الصالح.

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية (٣٢٣/٨).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣١٠/١٦).

(٣) شفاء العليل، لابن القيم(١٠٦/١).

(٤) مفتاح دار السعادة، لابن القيم(٢٧٢/٢).

(٥) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، لمحمد الفقي(١٧٨/٢).

المطلب الثالث: قواعد فهم النَّص الدِّيني عند السلف.

إنَّ للسلف الصالح منهجاً واضحاً في التعامل مع النصوص الشرعية، وكيفية فهمها، واستنباط الأحكام منها، وهذا المنهج له معالم واضحةٌ تُمَيِّزُه عن غيره من المناهج الأخرى، ويحسُن بنا قبل ذكر منهج السلف في الفهم، والقواعد التي بنوا عليها منهجهم، أن نُعرِّف المنهج والقاعدة في اللُّغة والاصطلاح؛ لنربط التأصيل الشرعي بالتأصيل اللغوي.

أولاً: تعريف المنهج

أ- في اللغة: لفظ المنهج من الفعل نَهَجَ، والنَهْجُ: هو الطريق الواضح، وكذلك المَنْهَجُ والمِنْهاجُ، ونهج لي الأمر أي أوضحه[١].

ب- في الاصطلاح: المنهج أو المنهاج هو الطرق والأساليب المتكررة التي يعتمدها فردٌ أو جماعةٌ في التعامل مع قضية معينة[٢].

ثانياً: تعريف القاعدة

أ- في اللغة: القاعدة من الفعل قَعَّد، وهي أصلُ الشيء، وقواعدُ البيت أساسُه[٣].

ب- في الاصطلاح: "هي قضيةٌ كليَّةٌ مُنطبقةٌ على جميع جُزئياتها"[٤].

وبناءً على ما سبق فمنهج السلف هو: "الطريقةُ الواضحة التي سلكها علماء السلف في العقيدة والعمل، فميَّزتهم عن غيرهم"[٥].

وقواعد الفهم عند السلف هي: القضايا الكُليَّة المُتعلِّقة بالتعامل مع النَّص الشرعي، والتي أجمعوا عليها، ويدخل تحتها كلُّ ما ورد عنهم من الأقوال والأفعال التي كانوا يدينون بها لله ﷻ.

لقد كان للمنهج الذي سلكه السلف الصالح أبلغَ الأثر في ثبات عقيدة السلف على مرِّ العُصور، وعدم تفرُّقهم وتشتُّتهم كما حدث مع أصحاب المقالات المبتدعة، يقول أبو المظفر السمعاني[٦]- رحمه الله-: "وممَّا يدلُّ على أنَّ السلف على الحقِّ، أنَّك لو طالعتَ جميعَ كُتبِهم المُصنَّفة من أوَّلهم إلى آخرهم، قديمِهم وحديثِهم، مع اختلاف بُلدانهم وزمانهم، وتباعُدِ ما بينهم في

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، لابن فارس(٣٦١/٥)، مختار الصحاح، للرازي(٣٢٠/١).

(٢) هذا التعريف ارتضاه الباحث، انظر قريباً منه: منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، لحمود الرحيلي(٣١/١).

(٣) انظر: تاج العروس، للزبيدي(٦٠/٩).

(٤) التعريفات، للجرجاني(١٧١/١).

(٥) المنهج الكلامي ملامحه وآثاره على مناهج التعليم الديني المعاصر في العالم الإسلامي، لسهل العتيبي، ص٢.

(٦) منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزي السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعيّ، أبو المظفر، مفسر، من العلماء بالحديث، كان مفتي خراسان، له تفسير السمعاني، والانتصار لاصحاب الحديث، والقواطع في أصول الفقه، وهو جد السَّمْعَاني صاحب الأنساب، وتوفي ٤٨٩ هـ.انظر: الاعلام، للزركلي(٣٠٣/٧).

الدِّيار، وَجَدتَّهم في بيان الاعتقاد على وتيرةٍ واحدةٍ، ونمطٍ واحِدٍ، يَجْرُون فيه على طريقةٍ لا يحيدون عنها، ولا يميلون فيها، قولُهم في ذلك واحدٌ، وفعلُهم واحدٌ، لا ترى بينهم اختلافاً ولا تفرُّقاً في شيءٍ ما وإن قلَّ؛ بل لو جمعتَ جميعَ ما جرى على ألسنتِهم، ونقلوه عن سلفِهم، وجدتَّه كأنَّه جاء من قلبٍ واحدٍ، وجرى على لسانٍ واحدٍ، وهل على الحق دليلٌ أبينَ من هذا؟، وأمَّا إذا نظرت إلى أهل الأهواء والبدع، رأيتَهم مُتفرِّقين مُختلفين، وشيعاً وأحزاباً، لا تكادُ تَجِدُ اثنين منهم على طريقةٍ واحدةٍ في الاعتقاد، يُبدِّع بعضُهم بعضاً؛ بل يرتقون إلى التكفير، يُكفِّر الابنُ أباه، والرجلُ أخاه، والجارُ جاره، تراهم أبداً في تنازعٍ وتباغُضٍ واختلافٍ، تنقضي أعمارُهم ولمَّا تتفقُ كلماتُهم، وهل على الباطل دليلٌ أظهرَ من هذا؟، وكان السبب في اتفاق أهل الحديث؛ أنَّهم أخذوا الدِّين من الكتاب والسنة وطريق النقل؛ فأورثهم الاتفاق والائتلاف، وأهل البدعة أخذوا الدين من المعقولات والآراء؛ فأورثهم الافتراق والاختلاف"[1].

ولذلك فإنَّ "الثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنَّة أضعافَ أضعافَ أضعافَ ما هو عند أهل الكلام والفلسفة"[2]، وهذا ما يُمكن أن يُسمَّى بالوحدة الفكرية عندهم[3]، يقول ابن تيمية- رحمه الله-: "وأما أهلُ السنَّة والحديث فما يُعلمُ أحدٌ من علمائهم ولا صالحِ عامَّتهم رجع قطُّ عن قوله واعتقاده؛ بل هم أعظمُ الناس صبراً على ذلك، وإن امتُحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن"[4].

وعليه "فشعارُ أهلِ السنة اتِّباعُهم السلف الصالح، وتركُهم كلَّ ما هو مبتدعٌ مُحدَثٌ"[5]، والمعيارُ لمن أراد صحة الانتساب لمنهج السلف، والسير على دربهم، والاقتداء بهديهم، أن يتَّبع منهجهم في أصول الاعتقاد، وفي أصول الاستدلال، ولا يخرج عن نهجهم بأصولٍ في الاعتقاد مبتدعةٍ، أو أصولٍ في الاستدلال منحرفةٍ.

لقد أصبحت الحاجة ماسَّةً إلى بيان منهج السلف في فهم النُّصوص، حيث دار النِّزاعُ حول أصول الدين، وحاول الجميعُ الانتساب إلى السلف الصالح، ولذلك كان لا بُدَّ من ظهورِ قواعدَ واضحةٍ للمنهج السلفي، تُميِّزُه عن مُدَّعي الانتساب إليه، يسترشد بها من يبتغي الفهم الصحيح للنُّصوص الشرعية كما فهمها السلف[6]، وهذا ما سيُبيِّنه الباحث في هذا المطلب بإذن الله.

---

(١) الانتصار لأصحاب الحديث، للسمعاني(١/٤٥-٤٧).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/٥١).

(٣) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، لعبد الرحمن المحمود(١/٧٤).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/٥٠)، وانظر: تذكرة المؤتسي، لعبد الرزاق البدر، ص١٦.

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١/٣١).

(٦) انظر: قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي، لمصطفى حلمي، ص١٥٧-١٥٩، والإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، لابن بطة(١/٢١٧)، وأصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة، لسعود الخلف(١/٤)، والعقيدة الواسطية، لابن تيمية(١٢٧-١٢٨).

وينبغي التأكيد على أنَّ كلَّ ما ذكره الباحثُ سابقاً من أسباب الفهم الصحيح للنَّص هي من منهج السلف في الفهم، فقد حقَّقوها كاملةً في منهجهم، وكلُّ ما ذكره الباحثُ سابقاً من موانع الفهم، قد اجتنبها السلف اجتناباً كاملاً؛ ففتح الله عليهم في فهومهم ما لم يفتحه على من بعدهم، فكان منهجهم بحقٍّ هو الأسلم والأعلم والأكمل.

ويرى الباحث أنَّه لا حاجة إلى تكرار ما ذُكر سابقاً في أسباب الفهم وموانعه، ولذلك سأقتصر في منهج السلف على ذكر أمورٍ لم تُذكر سابقاً، ومن هذه القواعد:

أولاً: الإيمانُ بجميع نصوص الكتاب والسنة: إنَّ السلف الصالح- رحمهم الله- متفقون على وجوب الإيمان بالوحي كتاباً وسنةً، وبكلِّ ما جاء فيهما من عقيدةٍ وشريعةٍ[1]، وكذلك قبول كلِّ ما ثبت بإجماع الأمَّة، سواءٌ عُرف معناه، أم لم يُعرف؛ لأنَّه صدقٌ بلا ريب[2]، فأهل السُّنة يؤمنون بجميع نصوص الكتاب والسنة الصحيحة، ويعتقدون اشتمال الكتاب والسنة على كلِّ ما يحتاجُه المسلم، وأنَّه قد جاء بيان ذلك بياناً شافياً، قاطعاً للعذر.

يقول ابن تيمية- رحمه الله-:" الرسولُ ﷺ قد بيَّن جميعَ الدين أصولَه وفروعَه، باطنَه وظاهرَه، علمَه وعملَه، فإنَّ هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان، وكلُّ من كان أعظمُ اعتصاماً بهذا الأصل، كان أولى بالحق علماً وعملاً"[3].

وقد أثنى الله ﷻ في كتابه على الراسخين في العلم، وذكر أنَّ صفتهم أنهم "يتلقون جميع النصوص بالإيمان والتصديق، ومن هنا كان امتداحُهم، وجعلُهم في درجة الرسوخ، والتمكنِ في العلم[4]، كما قال ﷻ:﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ**﴾[آل عمران:٧].

إنَّ السلف- رحمهم الله- يلتمسون طريق النجاة في التَّسليم والمتابعة، ويلتمسون الحُجَّة في كلام الله ﷻ في إثبات ما أثبته، ونفي ما نفاه، وفيما صحَّ من سنَّة النبي ﷺ، يقول ابن تيمية- رحمه الله-:" فدين المسلمين مبنيٌّ على اتِّباع كتاب الله ﷻ، وسنَّةِ نبيه ﷺ، وما اتفقت عليه الأمة، فهذه الثلاثة هي أصولٌ معصومةٌ، وما تنازعت فيه الأمة ردُّوه إلى الله والرسول"[5].

وتتمثل هذه القاعدة من قواعد التعامل مع النُّصوص عند السلف في ركائز مُهمَّةٍ، هي:

---

(١) انظر: الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، لمحمد أمان الجامي، ص٢٤.

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٤١).

(٣) المصدر السابق(١٩/١٥٥).

(٤) انظر: قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن، ص ٨.

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٠/١٦٤).

١- أنَّ هذا الدِّينَ كاملٌ، لا يُحتاج معه إلى غيره من مناهج البشر، كما قال ﷻ: ﴿**اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا**﴾[المائدة:٣].

يقول الشاطبي- رحمه الله-:" إنَّ الله ﷻ أنزل الشريعة على رسوله ﷺ فيها تبيانُ كلِّ شيءٍ يَحتاج إليه الخلقُ في تكاليفهم التي أُمروا بها، وتعبداتِهم التي طُوِّقوها في أعناقهم، ولم يَمُتْ رسول الله ﷺ حتى كَمُل الدين، فكلُّ من زعم أنَّه بقي في الدِّين شيءٌ لم يَكْمُل فقد كذَّب بقوله ﷻ:﴿**اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ**﴾[المائدة:٣] "[١]؛ ولذلك فإنَّ الاعتمادَ على الكتاب والسنة، يسدُّ باب الابتداعِ والإحداثِ في الدِّين، أمام أصحاب الأهواء والآراء الضالة الذين يبغون تحريفه وصرف النَّاس عن الحق.

٢- الاعتقاد الجازم أنَّه لا يتحقَّق رضا الله، والفوزُ بجنَّته، والنَّجاةُ من عذابه، إلَّا بالإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة، والعمل بما جاءا به، وما يترتَّب على هذا من وجوب أن يعيش المسلم حياتَه كلَّها اعتقادًا، وعملاً، وسلوكًا، مستمسكًا ومعتصمًا بهما، لا يزيغُ عنهما، ولا يتعدَّى حدودهما، ومن مستلزمات هذا أن يُتحاكم إليهما عند التنازع والاختلاف، فنصوصُ الكتاب والسنة هي الأصل والميزان والحَكم عند النِّزاع، وبها تُوزَن الأقوال والآراء[٢]؛ كما قال ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا**﴾[النساء:٥٩].

يقول الشوكاني- رحمه الله-:" فقد اتفق المسلمون سلفُهم وخلفُهم، من عصر الصحابة إلى عصرنا هذا، أنَّ الواجب عند الاختلاف في أيِّ أمرٍ من أمور الدِّين، هو الردُّ إلى كتاب الله ﷻ وسنَّةِ رسوله ﷺ، ومعنى الردِّ إلى الله ﷻ، الردُّ إلى كتابه، ومعنى الردِّ إلى رسوله ﷺ، الردُّ إلى سنَّته بعد وفاته، وهذا مما لا خلاف فيه بين جميع المسلمين"[٣].

ومما يُدلِّلُ على وجوب الإيمان والتسليم بكلِّ ما أخبر به الرسول ﷺ عن الله ﷻ، أنَّ العاميَّ يُسلِّم لأهل الاختصاص في جميع العلوم كالطب والهندسة ونحوها ما يقولونه دون اعتراضٍ، حتى وإن لم يتضح له وجهه، وإذا اتضح ازداد نوراً على نور، ويظنُّ أنَّ في قولهم الصواب والنجاة، فتصديق الرسول ﷺ فيما أخبر به أولى من ذلك، وهو الصادق المصدوق[٤].

---

(١) الموافقات، للشاطبي(٨١٦/٢).

(٢) انظر: المصدر السابق(٧/٢).

(٣) شرح الصدور بتحريم رفع القبور، للشوكاني(٣/١).

(٤) انظر: قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن، ص ١١.

يقول ابن تيمية- رحمه الله-:" أهل الحقِّ والسنَّة لا يكون متبوعُهم إلا رسول الله ﷺ، فهو الذي يجبُ تصديقُه في كلِّ ما أخبر، وطاعتُه في كلِّ ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة؛ بل كلُّ أحدٍ من الناس يُؤخذ من قوله ويُترك إلَّا رسول الله ﷺ، فمن جعل شخصاً من الأشخاص غير رسول الله ﷺ معياراً وميزاناً لتصنيف الناس، من أحبه ووافقه كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالفه كان من أهل البدعة والفرقة، كما يوجد ذلك في الطوائف من أتباع أئمة في الكلام في الدين وغير ذلك، كان من أهل البدع والضلال والتفرق"(١).

٣- تعظيمُ النصوص الشرعية، وعدمُ تقديم أيِّ شيءٍ عليها من رأيٍ أو عقلٍ أو ذوقٍ أو غيرِها، وهذا يستلزمُ الأدبَ مع نصوص الكتاب والسنة، وذلك بأن تُراعى ألفاظُهما عند بيان الشريعة، وألاَّ تُستخدم الألفاظُ والمصطلحاتُ المُوهِمةُ غيرُ الشرعيَّة.

يقول ابن تيمية- رحمه الله-:"إنَّ السلف كانوا يُراعون لفظ القرآن والحديث، فيما يُثبتونه وينفونه في الله وصفاته وأفعاله، فلا يأتون بلفظٍ مُحدَثٍ مُبتدَعٍ في النفي والإثبات؛ بل كلُّ معنىً صحيحٍ فإنَّه داخلٌ فيما أخبر به الرسول ﷺ، والألفاظُ المُبتدَعة ليس لها ضابطٌ؛ بل كلُّ قومٍ يُريدون بها معنىً غير المعنى الذي أراده أولئك، بخلاف ألفاظ الرسول ﷺ، فإنَّ مُراده بها يُعلم كما يُعلم مُراده بسائر ألفاظه"(٢).

ويقول- رحمه الله- أيضاً: "وممَّا ينبغي أن يُعلَم أنَّ الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث، إذا عُرِف تفسيرُها، وما أُريد بها من جهة النبي ﷺ، لم يُحتجْ في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللُّغة، ولا غيرِهم، وكان من أعظمِ ما أنعم الله به على السلف اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، أنَّه لا يُقبل من أحدٍ قطُّ أن يُعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده، فإنَّهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيَّات والآيات البيِّنات، أنَّ الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأنَّ القرآن يهدي للتي هي أقوم"(٣).

٤- أنَّ ظواهر النُّصوص مرادةٌ للشارع، ومفهومةٌ لدى المخاطبين؛ لأنَّهم مطالبون بالتعبد لله بما فهموه من النُّصوص، وكلَّما كانت حاجة العباد إلى الشيء أقوى، كان بذله لهم أكثر وأسهل، وكانت الطُّرق إلى تحصيل معرفته أبينَ من غيره، وهذا من كمال حكمة الربِّ تبارك وتعالى وتمام نعمته وإحسانه(٤)؛ ولذلك لا يجدُ النَّاس صعوبةً في التعامل مع منهج السلف؛ لوضوحه؛ وانسجامه مع الفِطَر السَّوِيَّة،

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٤٦).

(٢) المصدر السابق(٥/٤٣٢).

(٣) المصدر السابق(١٣/٢٧-٢٨).

(٤) انظر: مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(١/٥٨).

"وقد دلَّ الكتاب والسنَّة على ظهور دين الإسلام، وسهولةِ تعلُّمِه، وأنَّه يتعلمُه الوافد ثم يُولِّي في وقته"[١].

ولضمان صحَّةِ فهم النُّصوص، يجب مراعاةُ ومتابعة فهم الصحابة ﷺ لها، فما فهموه منها وعملوا به كان هو مُراد الله ورسوله، وقد جاءت الآثار تدلُّ وتُؤكِّد على هذا الأصل الأصيل، ومن ذلك قول الإمام الأوزاعي– رحمه الله–: "العلمُ ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجئْ عن واحدٍ منهم، فليس بعلمٍ"[٢]، فالصحابة ﷺ لم يأتِ عنهم سوى ميراث النبي ﷺ، وهو العلم الصحيح.

وقال كذلك– رحمه الله–: "اصبرْ نفسك على السُّنة، وقِفْ حيث وقف القوم، وقلْ فيما قالوا، وكفَّ عما كَفُّوا عنه، واسلكْ سبيل سلفك الصالح؛ فإنَّه يَسَعُك ما وسعهم"[٣].

وقد بوب الإمام الآجُرِّي– رحمه الله– بابًا عظيمًا يدلُّ على عقيدة السلف فقال: "باب الحث على التمسك بكتاب الله ﷻ، وسنةِ رسول الله ﷺ، وسنةِ أصحابه ﷺ، وتركِ البدع، وتركِ النَّظر والجدال فيما يُخالف فيه الكتابُ والسنَّةُ وقولُ الصحابة ﷺ"[٤].

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ من منهجَ السلف الصالح الإيمانُ بجميع نصوص الكتاب الحكيم، وما ثبت من حديث رسول الله ﷺ، ويتضح أنَّ عقيدة السلف ومنهجَهم هو الأسلمُ والأحكم، وهو أقربُ الطُّرق المُوصلة إلى الله ﷻ؛ كونَها الطريق التي ارتضاها، وأرادها الله ﷻ دون غيرها.

ثانياً: حُجيَّة السنَّةِ الصحيحة في العقائد والأحكام، ومن ذلك خبر الآحاد: إنَّ سلامة النَّص القرآني من تحريفه أو تبديله، أو دخول شيءٍ عليه، أمرٌ مُجمعٌ عليه بين جميع علماء الإسلام والفرق الإسلامية قديماً وحديثاً، إلا من شذَّ من الشيعة الروافض[٥]؛ لأنَّ القرآن كلُّه متواترٌ وقطعيُّ الثُّبوت، "فقد قيَّض الله للقرآن حفظةً، بحيث لو زيد فيه حرفٌ واحدٌ؛ لأخرجه آلافٌ من الأطفال الأصاغر، فضلاً عن القرَّاء الأكابر، وهكذا جرى الأمر في جملة الشريعة"[٦].

وقد لقيت السنَّة النَّبوية هي الأخرى عنايةً كبيرةً، واهتماماً واسعاً من السَّلف، في حفظها والعناية بها، ودراسة أسانيدها ومتونها، وتمييز المقبول من المردود منها، ولم يكن عندهم فرقٌ بين حديثٍ ثبتت نسبتُه إلى النَّبي ﷺ، أن يكون آحاداً أو متواتراً، فأهلُ السُّنَّة عندهم المقبول والمردود من الأحاديث حسب صحَّتها من المتن والسند؛ ولذلك فقد أجمع السلف على حُجيَّة السنة الصحيحة في العقيدة والشريعة وفي سائر أمور الدين، "وهذه من القواعد الكبرى في منهج السلف، تميزوا بها عن

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص٥١٨.
(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٦١٨/١)، أثر رقم: (١٠٦٧).
(٣) الشريعة، للآجري(٦٧٤/٢)، أثر رقم: (٢٩٤).
(٤) المصدر السابق(٣٩٨/١).
(٥) انظر: الإحكام في أصول الحكام، لابن حزم(٩٦/١).
(٦) الموافقات، للشاطبي(٩٣/٢).

كثيرٍ من أهل الأهواء والبدع، وبذلوا في سبيل ذلك جُهودًا منقطعة النَّظير، ولم يُميِّزوا بين الأحاديث المتعلقة بالأحكام، والأحاديث المتعلقة بالعقائد"[١]، وعلى ذلك سار سائر الأئمة، والعلماء، والمحققون من السلف والخلف، ومعتقدهم جميعاً "أنَّ الحديث النبوي الشريف، الذي صحَّ حسب القواعد الأصولية، حجةٌ على جميع الأمَّة، وقد أجمعوا على ذلك إجماعًا"[٢]، وذلك من عصر الصحابة إلى يومنا هذا، لم يُخالف في ذلك أحدٌ منهم[٣].

يقول الإمام الشوكاني- رحمه الله-: "إنَّ ثُبوت حُجيَّة السُّنَّة المطهرة، واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورةٌ دينيةٌ، ولا يُخالف في ذلك إلا من لا حظَّ له في دين الإسلام"[٤].

إنَّ التفريق بين المتواتر والآحاد في إفادة العلم، اصطلاحٌ حادثٌ لم يدل عليه كتابٌ ناطقٌ، ولا سنةٌ ماضيةٌ، ولم يعرفه الصحابة ولا التابعون، والقول بعدم إفادة خبر الواحد العلم، يعطِّلُ الدِّين والدنيا معاً، وهو خرقٌ صريحٌ لإجماع الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل العلم[٥]؛ بل "إنَّ التَّفريق بين العقائد والأحكام في ثبوتها بحديث الآحاد باطلٌ بإجماع الأمَّة، وبدعةٌ لا عهد للسلف بها، فسيرتهم وتصانيفهم تشهدُ بعكس ذلك تماماً، ولم يزل الصحابة والتابعون وتابعوهم وأهل الحديث والسنَّة يحتجُّون بهذه الأخبار في مسائل الصفات والقدر والأسماء والأحكام، ولم يُنقل عن أحدٍ منهم أنَّه جوَّز الاحتجاج بها في مسائل الأحكام دون الإخبار عن الله وأسمائه وصفاته"[٦]، وقد كان للشيخ الألباني- رحمه الله- جهدٌ مشكورٌ في هذا الباب، حيث ألَّف كتابين يُقرِّران الصواب في هذه المسألة، ويردُّ فيهما على شُبَه المُخالفين، وهما كتاب: "وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة والرد على شبه المخالفين"، وكتاب: "الحديث حجةٌ بنفسه في العقائد والأحكام".

لقد ردَّ المتكلمون، وكثيرٌ من أصحاب الأهواء خبرَ الآحاد، فلم يأخذوا به في مجال العقيدة؛ بحُجَّة إفادته الظنَّ، فيقول الرازي مثلاً: "أمَّا التَّمسُّكُ بخبر الواحد في معرفة الله تعالى فغيرُ جائزٍ"[٧]، ومنشأ الخطأ عند علماء الكلام في التَّفريق بين العقيدة والأحكام العملية، هو اعتقادهم "أنَّ العقيدة لا

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، لعبد الرحمن المحمود(١/٦٠).

(٢) حجية السنة النبوية ومكانتها في التشريع الإسلامي، للسندي، ص٩١-٩٢.

(٣) انظر: حجية السنة ودحض الشبهات التي تثار حولها، لمحمود الطحان، ص٤٠.

(٤) إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني(١/٩٧).

(٥) انظر: الرسالة، للشافعي(١/٤٥٠)، ومختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(١/٥٧٦-٥٧٨)،(١/٥٨٥-٥٨٦)، والإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم(١/١٣٤).

(٦) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(١/٥٩٠).

(٧) أساس التقديس في علم الكلام، للرازي(١/١٢٧).

يقترنُ معها عملٌ، والأحكام العملية لا يقترنُ معها عقيدةٌ، وكلا الأمرين خطأٌ، فلا بُدَّ للأحكام العملية من العلم والعمل، وكذلك لا بُدَّ للعقيدة من علمٍ وعملٍ، دون تفريقٍ بين الآحاد والمتواتر في ذلك"(١).

يقول ابن أبي العز الحنفي- رحمه الله-:" فإنَّ الشارع لم يَكتفِ من المُكلَّف في العمليات بمجرد العمل دون العلم، ولا في العلميات بمجرد العلم دون العمل، وليس العمل مقصوراً على عمل الجوارح؛ بل أعمالُ القلوب أصلٌ لعمل الجوارح، وأعمال الجوارح تبعٌ"(٢) .

لقد دلَّ القرآن والسنة والإجماع على حُجيَّة خبر الآحاد في العقيدة.

أمَّا الأدلَّة من القرآن، فمنها قوله ﷻ:﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾[المائدة:٦٧]، والشاهد من الآية أنَّ البلاغ المذكور فيها تقوم به حجةٌ على المُبلَّغين، وهذا يشمل التبليغ في جانب العقيدة قبل الأحكام، وهذا التبليغ لو لم يُفد العلم لم تقمْ لله على العباد حجةٌ، فالله ﷻ أرسل رسوله محمداً ﷺ وحده، ومع ذلك صدَّقه الناس، وقبلوا ما جاء به، والرُّسل الذين أرسلهم الله ﷻ كانوا أفراداً، ولا شكَّ أنَّ هذا دليلٌ على أنَّ خبر الواحد يُقبل، ويُفيد العلم في العقائد والأحكام، يقول ابن القيم- رحمه الله-:"والمعلوم أنَّ البلاغ هو الذي يقوم به الحُجَّة على المُبلَّغ، ويحصُل به العلم، فلو كان خبر الواحد لا يَحصُل به العلم، لم يقعْ به التبليغ الذي تقوم به حُجَّة الله على العباد، فإنَّ الحُجَّة إنَّما تقوم بما يحصُل به العلم"(٣).

ومن الألَّة أيضاً على حُجيَّة خبر الواحد قولُه ﷻ:﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾[الإسراء:٣٦]، قال ابن القيم- رحمه الله- مُعقِّباً على هذه الآية:" أي لا تتبعْه ولا تعمل به، ولم يزلْ المسلمون من عهد الصحابة يقْفُون أخبار الآحاد، ويعملون بها، ويُثبتون لله ﷻ بها الصفات، فلو كانت لا تفيد علماً لكان الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمةُ الإسلام كلُّهم قد قَفُوا ما ليس لهم به علمٌ"(٤).

ومن الأدلَّة أيضاً قوله ﷻ:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾[الحجرات:٦] ، فهذه الآية تدلُّ على قبول خبر الواحد، ومعناها أنَّه إذا كان غيرُ فاسقٍ فإن خبره يُقبل، قال ابن القيم- رحمه الله- مُعقِّباً على هذه الآية :"وهذا يدلُّ على الجزم بقبول خبر الواحد؛ لأنَّه لا يحتاج إلى التثبيت، ولو كان خبرُه لا يفيد العلم، لَأَمَرَ التثبيت حتى يحصل العلم، وممَّا يُدلَّل على ذلك أنَّ أهل السنة وأئمة الإسلام، لم يزالوا يقولون:قال رسول الله ﷺ كذا، وفعل كذا، وأمر بكذا، ونهى عن كذا، وهذا معلومٌ في

(١) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٤٢٠).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٣١٧/١) .

(٣) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٣٩٦).

(٤) المرجع السابق(٢/٣٩٦).

كلامهم بالضرورة، وكثيرٌ من أحاديث الصحابة ﷺ يقول فيها أحدُهم قال رسول الله ﷺ، وإنَّما سمعه من صحابيٍ غيرِه، وهذه شهادةٌ من القائل، وجزمٌ على رسول الله ﷺ بما نسبه إليه من قولٍ أو فعلٍ، فلو كان خبر الواحد لا يُفيد العلم، لكان هذا شاهداً على رسول الله ﷺ بغير علم"[1].

ومن الأدلة على ثبوت العلم بخبر الواحد، والرد على من قال أنَّه يفيد الظن، أنَّ الشرع قد يُطلِق الظنَّ بمعنى اليقين، كما قال ﷻ:﴿**الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ**﴾[البقرة:٤٦][2]، ولم يأتِ ذمٌ في شرع الله لمن اتَّبع الظنَّ الغالب، وإنَّما جاء الذمُّ في كتاب الله لمن اتبع الظنَّ بمعنى الوهم في مقابل ردِّ النُّصوص الشرعية، كما قال ﷻ:﴿**وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾[النَّجم:٢٨] [3].

وأمَّا الأدلَّةُ من السُّنَّة على حُجيَّة خبر الآحاد في العقيدة والأحكام، فقد ثبت أنَّ النَّبيَّ ﷺ كان يكتفي بخبر الواحد، ويأمر بالاكتفاء به، حيث كان يُرسلُ الشخصَ الواحدَ إلى مجموعةٍ من النَّاس، ويأمرُه بتبليغ ما يأمره به، ويطلبُ إلى الناس قبول ما يأمرهم به، والانتهاء عما نهاهم عنه؛ كما أرسل معاذاً إلى اليمن وهو واحدٌ، وقد بعثه بالعقيدة قبل الأحكام، كما جاء في الحديث قال ﷺ لمعاذ:(**إنَّك تقدُم علي قومٍ أهلَ كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أنَّ الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم**)[4].

ومن الأدلَّة من السُّنَّة أيضاً على حُجيَّة خبر الآحاد أنَّ النبي ﷺ لمّا بعث الرُّسل إِلَى ملوك الأرض قاطبةً؛ ليُبلِّغهم العقيدة والتوحيد، بعثهم رسلاً أفراداً آحاداً، ولم يبعث جماعاتٍ.

وكذلك السلف الصالح من الصحابة ﷺ ومن بعدهم، لا يشترطون لقبول رواية الحديث عن رسول الله ﷺ والعمل به، سوى عدالة الراوي وثقتِه وتقواه، فكانوا إذا رَوى الثِّقةُ حديثاً عن النبي ﷺ تلقَّوه بالقبول والعلم، ويدلُّ على ذلك تخريج أئمة الحديث كالبخاري ومسلم- رحمهما الله- لأحاديث الآحاد المُثبِتة للعقائد في مُصنَّفاتهم، فلم يكونوا يفرقون بين العقائد والأحكام في ذلك، ومعلومٌ أنَّ صحيحي البخاري ومسلم من أصحِّ الكتب الحديثية، وقد تلقتهما الأمة بالقبول، ومن الجميل في هذا الصَّدد أنَّ الإمام البخاري- رحمه الله- قد بدأ كتابه الصحيح بحديث آحادٍ فردٍ، لم يروه إلَّا عمر بن الخطاب ﷺ، وهو قول النبي ﷺ:(**إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى، فمن كانت هجرتُه إلى دنيا**

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٢٩٤).

(٢) انظر: قواطع الأدلة، للسمعاني(١/١٩)، والعدة في أصول الفقه، لأبي يعلى(١/ ٨٣).

(٣) انظر: الأنوار الكاشفة، للمعلمي، ص١٣٩.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة ، باب لا تؤخذ كرائم أموال المسلمين في الصدقة، (٢/١١٩)، حديث رقم ١٤٥٨.

يصيبها، أو إلى امرأة ينكحُها، فهجرتُه إلى ما هاجر إليه)[1]، وختم البخاري- رحمه الله- صحيحه بحديث آحادٍ، وهو حديث أبي هريرة ﷺ الذي يقول فيه ﷺ:**(كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم)**[2]، ولعل البخاري- رحمه الله- قد تعمَّد ذلك؛ ليردَّ على من قال بعدم الأخذ بحديث الآحاد، أو أنَّه توفيق من الله ﷻ له؛ ليكون ذلك دليلاً دامغاً، وردَّاً قويَّاً على من قال بعدم الأخذ بحديث الآحاد والتفريق بين المتواتر والآحاد في ثبوت العقائد.

ومن الأدلَّة على حُجيَّة خبر الآحاد أيضاً أنَّه لمَّا نزل تحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام، لم يعلم بعض الصحابة بذلك، فكانوا في مسجد قباء على القبلة التي اعتادوها، وبينما هم في الصلاة، إذا جاء أحدُ الصحابة، فلمَّا رآهم على حالهم ذاك، أخبرهم بأنَّه نزل قرآنٌ في ذلك؛ فغيَّروا وجهتهم إلى المسجد الحرام وهم في الصلاة[3].

وقد أورد الشيخ الألباني- رحمه الله- في كتابه "وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة" عشرين وجهاً تُوجب الأخذ بخبر الآحاد في العقائد، فمن أراد الزيادة فليرجع إليه، فهو نافعٌ ومفيد.

وأمَّا الدَّليل من الإجماع على حُجية خبر الآحاد في العقائد، فإنَّ الإجماع مُنعقدٌ على قبول الأحاديث في العقائد والأحكام دون تفريقٍ بينهما؛ فمسألة عدم الأخذ بأخبار الآحاد في العقيدة مسألةٌ وقع فيها الخلاف بين المتأخرين فقط، وإلَّا فإنَّ الإجماع متقدمٌ وواقعٌ قبل هذا الخلاف المُحدَث، ولكنَّ المُتأخرين اختلفوا في هذه القضية؛ فخرقوا الإجماع الضروري المُتيقَّن ثبوتُه عن أهل السنة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "ولهذا كان جمهور أهل العلم من جميع الطوائف على أنَّ خبر الواحد إذا تلقتهُ الأمَّة بالقبول، تصديقًا له، أو عملًا به، أنَّه يوجِب العلمَ، وهذا هو الذي ذكره المصنِّفون في أصول الفقه من أصحاب أبي حنيفةَ[4]، ومالكٍ[5]، والشافعيِّ[6]، وأحمدَ[7]، إلا فرقةٌ قليلةٌ من

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، (٦/١) ، حديث رقم ١ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: {ونضع الموازين القسط ليوم القيامة} [الأنبياء: ٤٧]، وأن أعمال بني آدم وقولهم يوزن (١٦٢/٩)، حديث رقم ٧٥٦٣.

(٣) انظر الحديث في صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله تعالى{سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم}،(٦/ ٢١)، حديث رقم ٤٤٨٦ .

(٤) انظر: المبسوط، للسرخسي(٨٧/١)، وانظر: الإحكام في أصول الأحكام، للآمدي(١١٧/٢).

(٥) انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر(٨/١).

(٦) انظر: الأم، للشافعي(٢٠١/٧).

(٧) انظر: المسودة في أصول الفقه، لآل تيمية، ص٢٤٠، والعدة في أصول الفقه، لأبي يعلى(٨٩٩/٣).

المُتأخِّرين، اتَّبعوا في ذلك طائفةً من أهل الكلام أنكروا ذلك، ولكنَّ كثيراً من أهل الكلام أو أكثرُهم يوافقون الفقهاءَ وأهلَ الحديث وأهلَ السنة علي ذلك"(١).

قال النووي– رحمه الله–: "ولم يزل الخلفاء الراشدون وسائرُ الصحابة ومن بعدهم أهل السنة والخلف علي امتثال الخبر الواحد"(٢).

وذكر ابنُ القيم– رحمه الله– الإجماع على بُطلان التفريق بين العقائد والأحكام في ثبوتها بأخبار الآحاد، فقال: "وهذا التفريقُ باطلٌ بإجماع الأمَّة"(٣).

وقال ابنُ حزمٍ– رحمه الله–:" فصحَّ بهذا إجماع الأمَّة على قبول خبر الواحد الثِّقة عن النبي ﷺ، وأنَّ جميع أهلِ الإسلام كانوا على قَبول خبر الواحد الثقة عن النبي ﷺ، يجري على ذلك كلُّ فرقةٍ في علمها، كأهل السنة والخوارج والشيعة والقدرية، حتى حدث متكلموا المعتزلة بعد المائة من التاريخ، فخالفوا الإجماع في ذلك، ... وقد صحَّ الإجماع من الصَّدر الأول كلِّهم"(٤).

وقال أبو المظفر السمعاني– رحمه الله–: "أجمع أهلُ الإسلام متقدِّموهم ومتأخِّروهم على رواية الأحاديث في صفات الله وفي مسائل القدر، والرؤية وأصل الإيمان، والشفاعة والحوض، وإخراج الموحِّدين المذنبين من النار، وفي صفة الجنة والنار، وفي الترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، وفي فضائل النبي ﷺ ومناقب أصحابه، وأخبار الأنبياء المتقدِّمين عليهم السلام، وهذه الأشياء علميةٌ لا عمليةٌ، وإنَّما تُروى لوقوع علم السامع بها"(٥).

وقال ابن أبي العز الحنفي– رحمه الله–: "وخبرُ الواحد إذا تلقته الأمَّة بالقَبول، عملاً به وتصديقاً له، فإنَّه يُفيد العلم عند جماهير الأمة، وهو أحد قسمي المتواتر، ولم يكن بين سلف الأمَّة في ذلك نزاعٌ"(٦).

وقد بيَّن ابن القيم– رحمه الله– خطورة من يقول بعدم الاحتجاج بخبر الواحد في العقائد، وأنَّه بفريته هذه يهدم الدين كلَّه، فقال: "إنَّ الصحابة هم الذين رووا هذه الأحاديث، وتلقَّاها بعضُهم عن بعضٍ، ومن سمعها منهم تلقَّاها بالقبول والتصديق لهم، وهذا أمرٌ يعلمُه ضرورةً أهلُ الحديث، كما يعلمون عدالة الصحابةِ وصدقِهم وأمانتِهم، ونقلهم ذلك عن نبيهم ﷺ كنقلهم الوضوء والغسل من

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٥١/١٣)، وللزيادة انظر: حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام، لعامر صبري، ص١٠، ومختصر التحرير شرح الكوكب المنير، لابن النجار الحنبلي(٣٤٩/٢–٣٥٠)، والباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، لابن كثير، ص٣٤.

(٢) شرح النووي علي صحيح مسلم(١٣٢/١).

(٣) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٣١٢/٢).

(٤) الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم(١٠٨/١).

(٥) الانتصار لأصحاب الحديث، للسمعاني، ص ٣٦.

(١) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٣٥١/١).

الجنابة، وأعداد الصلوات وأوقاتها، ونقل الأركان والتشهد والجمعة والعيدين، فإنَّ الذين نقلوا هذا، هم الذين نقلوا أحاديث الصفات، فإن جاز عليهم الخطأُ والكذبُ في نقلها، جاز عليهم ذلك في نقل غيرها ممَّا ذكرناه، وحينئذٍ فلا وثوق لنا بشيءٍ نُقل لنا عن نبينا البتَّة، وهذا انسلاخٌ من الدِّين والعلم والعقل، فهؤلاء أعطوا الانسلاخ من السنَّة والِّدين حقَّه، وطردوا كفرهم، وخلعوا ربقة الإسلام من أعناقهم، وتقسَّمت الفرقُ قولَهم هذا في ردِّ الحديث"[1].

فهذه بعضُ الأدلَّة من القرآن والسنة والإجماع وأقوال العلماء في حُجيَّة خبر الواحد في العقائد والأحكام، وعدمِ التفريقِ بين المتواتر والآحاد، فليس هناك دليلٌ واحدٌ على الأخذ بخبر الواحد في الأحكام دون العقائد، ولم يقلْ أحدٌ من أئمة السلف أنَّ خبر الواحد يُقبل في الأحكام، ولا يُقبل في العقائد، وهذا من أبين الأدلَّة على وقوع إجماعهم على حُجيَّته في العقائد والأحكام [2].

ثالثاً: الجمع بين الأدلة في الباب الواحد: إنَّ من أهم الآليات والضوابط التي يُستعان بها على فهم النص، ضابطُ وِحدة الموضوع، فجمعُ النُّصوص وعدمُ الاقتصار على بعضها، يُفصِّل المُجمَلَ، ويُخصِّص العام، ويُقيِّد المُطلق، ويُبيِّن المُبهَمَ، ويرفعُ التَّشابه، ويُحكِمُ النَّصَّ ويُفسِّرُه على مراد الله، ومراد رسوله ﷺ، كما قال الإمام أحمد– رحمه الله–:" الحديثُ إذا لم تُجمع طرُقُه، لم تفهمه، والحديثُ يفسِّرُ بعضُه بعضًا"[3].

ويقول الشاطبي– رحمه الله–:" إنَّ مأخذ الأدلَّة عند الأئمة الراسخين، إنَّما هو على أن تُؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة، بحسب ما ثبت من كُلِّياتها وجُزئيَّاتها المرتَّبَة عليها، وعامِّها المرتَّب على خاصِّها، ومطلقِها المحمول على مقيَّدِها، ومُجملِها المفسَّر ببيِّنها، وشأنُ متَّبعي المتشابهات أخذُ أيِّ دليلٍ عفواً وأخذاً أوليَّاً، وإن كان ثمَّ ما يُعارضه، فالدليل الواحد لا يُعطى في مفهوم أحكام الشريعة حكماً حقيقياً، فمتَّبعُه متَّبعُ متشابهٍ، ولا يتَّبعُه إلا من في قلبه زيغٌ كما شهد الله به"[4].

وقد حذَّر الله عزَّض وجلَّ من التمسك ببعض الكتاب والكفر ببعضه؛ لأنَّ هذا يؤدِّي إلى تقطيع النُّصوص وبترها، كما قال ﷻ في ذمِّ اليهود:﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾ البقرة:٨٥].

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٢/٤٣٣).

(٢) انظر: الرسالة، للشافعي(١/٤٥٧)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(٣/٥٠٧)، وشرح الفقه الأكبر، للملا علي القاري الحنفي(١/١٦٥).

(٣) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، للخطيب البغدادي(٢/٢١٢)، رقم ١٦٤٠.

(٤) الاعتصام، للشاطبي(١/٣١١).

وقد اشتدَّ العلماء على من اتَّبع هذه الطريقة في إصدار الأحكام، وكان ابن حزمٍ- رحمه الله- شديدَ اللَّهجة على من أصدر حُكماً شرعياً معتمداً على نصٍّ واحدٍ، ومهملاً لباقي النصوص، فقال: "ومن أراد أن يجدَ جميع الأحكام كلَّها في آيةٍ واحدةٍ، فهو عديم عقلٍ، مُتعلِّلٍ في إفساد الشريعة"(١).

وبيَّن الشاطبي- رحمه الله- أنَّه لا بُدَّ من جمع الأدلة في الباب الواحد، ولا بُدَّ كذلك من النظر في سياق النَّص أوله وآخره، والسابق واللاحق في الدليل الواحد؛ لفهمه فهماً صحيحاً، فقال: "فلا محيص للمُتفهِّم عن ردِّ الكلام على أوله، وأوله إلى آخره، وبذلك يحصل مقصود الشارع في فهم المكلَّف، فإن فرَّق النظر في أجزائه؛ فلا يتوصلُ به إلى مراده؛ فلا يصحُّ الاقتصار في النظر على بعض أجزاء الكلام دون بعضٍ"(٢).

إنَّ عدم الجمع بين الأدلَّة مزلقٌ خطيرٌ من المزالق التي يقع فيها البعض، وإنَّ كثيراً من البدع والضلالات في القديم والحديث إنّما ظهرت بسبب إهمال هذه القاعدة الجليلة، فيعتمدون على دليلٍ دون آخر، ولذا لا يُوفقوا للصواب في كثيرٍ من المسائل، فالخوارج مثلاً أخذوا بنصوص الوعيد، وتركوا نصوص الوعد؛ ففهموها على غير مُرادها؛ فكفَّروا المسلمين، واستباحوا دمائهم وأموالهم.

يقول الشاطبي- رحمه الله-:" كثيراً ما تري الجُهَّال يحتجُّون لأنفسهم بأدلةٍ فاسدةٍ وبأدلةٍ صحيحةٍ، اقتصاراً على دليلٍ ما، وإطراحاً للنَّظر في غيره من الأدلَّة"(٣).

ومن الأمثلة على هذا الضابط، أنَّ بعض النَّاس يستدلُّ بقوله ﷻ:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ**﴾[المائدة:١٠٥]، على ترك النَّاس وشأنهم في فعل المعاصي والحرام، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويغفلُ عن قول النَّبي ﷺ: **(من رأى منكم منكراً فليُغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان)**(٤)، ويغفلُ عن فهم الصحابة لهذه الآية كما بيَّن ذلك صدِّيقُ الأمَّة أبو بكرٍ ﷺ، حيث قال بعد أن حمد الله، وأثنى عليه: **"يا أيها الناس، إنَّكم تقرءون هذه الآية، وتضعونها على غير مواضعها:﴿ عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾**[المائدة:١٠٥]، **وإنَّا سمعنا النبي ﷺ يقول:(إنَّ النَّاس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب)**(٥).

---

(١) انظر: الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم(٥/٧).

(٢) الموافقات، للشاطبي(٢٦٦/٤).

(٣) الاعتصام، للشاطبي(١٦٧/١).

(٤) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيانكون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، (٦٩/١)، حديث رقم ٤٩.

(٥) أخرجه أبو داوود في سننه، كتاب الملاحم ، باب الأمر والنهي، حديث ٤٣٣٨، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم ٥١٤٢.

وكما بيّن ذلك أبو ثعلبة الخُشني[١]ﷺ عندما سأله رجلٌ عن هذه الآية، فقال له: "أما والله لقد سألتَ عنها خبيراً، سألتُ عنها رسول الله ﷺ، فقال: **(بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيتَ شُحَّاً مُطاعاً، وهوىً مُتَّبعاً، ودنيا مُؤثرةً، وإعجابَ كلِّ ذي رأي برأيه، فعليك – يعني – بنفسك، ودع عنك العوام، فإن من ورائكم أيام الصبر، الصبر فيه مثلُ قبضٍ على الجمر، للعامل فيهم مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله)**[٢].

وممَّا يُبيِّن المعنى أكثر، وأنَّ ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مختصٌ بزمنٍ معينٍ وصفه النبي ﷺ في قوله:**(كيف بكم وبزمانٍ يُوشك أن يأتيَ، يُغربَل الناسُ فيه غربلةً، وتبقى حثالةٌ من الناس قد مرجت عهودهم، وأماناتهم، فاختلفوا، وكانوا هكذا، وشبَّك بين أصابعه، قالوا: كيف بنا يا رسول الله إذا كان ذلك؟ قال: تأخذون بما تعرفون، وتدعون ما تنكرون، وتقبلون على خاصتكم، وتذرون أمر عوامكم)**[٣].

وعليه فالفهمُ الصحيح للآية أنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر واجبٌ في كلِّ وقتٍ حتى يأتيَ ذلك الزمان الذي وصفه رسول الله ﷺ، والذي لا منفعة فيه بأمرٍ بمعروفٍ، ولا نهيٍ عن منكرٍ، أو أنَّ معنى الآية أنَّه لا يضرُّكم من ضلَّ إذا فعلتم ما عليكم من دلالتهم على الحقِّ، وهدايتهم هداية الدلالة والإرشاد، لا إذا قصَّرتم عنها، ومثلُ هذا المعنى واردٌ في قول الله لنبيه ﷺ:﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ**﴾[البقرة:٢٧٢]، فهو مع نفي هدايته لهم، مفترضٌ عليه دعوتُهم وجهاد من صدَّ منهم حتى يردَّهم إلى دين الله الذي بعث به رسوله، وأمره أن يُقاتل الناس حتى يرجعوا إليه، والقول الأول أبينُ معنىً من هذا المعنى، وإن كان هذا المعنى صحيحاً[٤].

---

(١) أبو ثعلبة الخشني اختلف فِي اسمه واسم أبيه اختلافا كثيراً، فقيل: اسمه جرهم، وقيل: جرثوم بن ناشب، وقيل: ابن ناشم، وقيل: ابن ناشر، وقيل: عَمْرو بن جرثوم، وقيل: الأسود بن جرهم، وقيل: وائل بن النمر بن وبرة بن ثعلب بن حلوان، ولم يختلفوا فِي صحبته ولا فِي نسبته إلى خُشين، غلبت عَلَيْهِ كنيته، وَكَانَ ممن بايع تحت الشجرة بيعة الرضوان، وقاتل في خيبر، وأسلم قومه على يديه، نزل الشام ومات بأيام معاوية، وقيل: توفي سنة خمس وسبعين أيام عبد الملك بن مروان.انظر: أسد الغابة، لابن الأثير(٤٣/٦).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب الأمر والنهي، حديث رقم ٤٣٤١، والحاكم في المستدرك (٣٥٨/٤)، رقم ٧٩١٢، وقال صحيح على شرطي البخاري ومسلم ولم يخرجاه، وصححه الذهبي، وحسَّنه الأرنؤوط في تحقيقه لسنن أبي داود (٣٩٦/٦) .

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب التثبت في الفتنة، رقم ٣٩٥٧، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة برقم ٢٠٥.

(٤) انظر: مشكل الآثار، للطحاوي(٢٠٨/٣-٢١٤).

ومن الأمثلة على الجمع بين النُّصوص أيضاً، قوله ﷻ:﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴾[البقرة:٢٢٨]، فهذه الآيةُ عامَّةٌ في كلِّ مُطلَّقةٍ، ولكن خُصَّ منها المُطلَّقة التي لم يُدخل بها فلا عِدَّة عليها، لقوله ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴾[الأحزاب:٤٩]، وخُصَّ منها كذلك المُطلَّقة الحامل فعدَّتُها وضعُ حملِها، لقوله ﷻ:﴿ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ﴾[الطَّلاق:٤]، "ولو لم يجمع المفسرُ آية الطلاق الأولى بباقي الآيات المُتعلِّقة بالطلاق لعمَّم الحُكم، وهو ثلاثةُ قروءٍ على كلِّ مُطلَّقةٍ في جميع الأحوال، سواءٌ أكان متوفَّى عنها الزوج، أو غيرَ مدخولٍ بها"(١).

إنَّ التَّتبُع والاستقراء لمدلول اللفظ في مجموع النُّصوص الشرعية يُعين على فهم النَّص، فمثلاً كلمة قروءٍ تحتملُ معنى الحيض والطهر، ولكن عند النظر في السُّنة نجد أنَّ النَّبي ﷺ قد استعملها بمعنى الحيض، عندما شكت امرأةٌ إليه الدَّم، فقال لها رسول الله ﷺ:**(إنَّما ذلك عرقٌ فانظري إذا أتى قَرؤُكِ فلا تصلِّي، فإذا مرَّ قَرؤُكِ فتطهَّري، ثمَّ صلَّي ما بين القَرء إلى القَرء)**(٢)، فيتبيَّن هنا أنَّ القَرءَ معناه الحيض.

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّه ينبغي على من يريد فهم النَّصِّ فهماً صحيحاً أن ينطلق من وحدة الموضوع، وذلك بجمع جميع النُّصوص التي تشترك في الموضوع الواحد، وأن لا يترك شيئاً منها على حساب النُّصوص الأخرى، والدارس لكتب أهل العلم يجد أنَّهم قد اهتموا بضابط وحدة الموضوع، واعتبروه شرطاً منهجياً في التفسير، وضابطاً أساسياً في الأحكام، وهذا يُوجب على مريد الفهم الصحيح أن يضمَّ كلام الله ﷻ وكلام رسوله ﷺ بعضه إلى بعض؛ ليفهم منهما الفهم الصحيح (٣).

رابعاً: رد المُتشابِه للمُحكَم: لقد اختلف العلماء في تعيين المحكم والمتشابه على عدة أقوالٍ فقالوا: أنَّ المُحكَم ما عُرف المُراد منه إمَّا بالظهور وإمَّا بالتأويل، والمُتشابِه ما استأثر الله بعلمه كقيام السَّاعة، وخروج الدجال، والحروف المُقطَّعة في أوائل السور، وقيل: المُحكم ما لا يحتملُ من التَّأويل إلا وجهاً واحداً، والمُتشابه ما احتمل أوجهاً، وقيل: المُحكم ما استقلَّ بنفسه، والمتشابه ما لا يستقلُّ بنفسه إلا بردِّه إلى غيره (٤).

---

(١) أحكام القرآن، لابن العربي(٢٥٣/١).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب باب في المرأة تستحاض، ومن قال: تدع الصلاة في عدة الأيام التي كانت تحيض ،(٧٢/١)، رقم ٢٨٠، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٣٦٣.

(٣) انظر: المحلى بالآثار، لابن حزم(٣٤٨/١).

(٤) انظر: الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٢/٣).

والصواب والله أعلم ما ذكره ابن الأثير – رحمه الله– أنَّ "المُتشابه على ضربين: أحدُهما إذا رُدَّ إلى المحكم عُرف معناه، والآخرُ ما لا سبيل إلى معرفة حقيقتِه، فالمُتتبِّعُ له مبتغٍ للفتنة؛ لأنَّه لا يكاد ينتهي إلى شيءٍ تسكنُ نفسُه إليه"(١).

والدليل الذي يتفرعُ عنه الكلام في هذه القضية، هو قول الله ﷻ:﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ**﴾[آل عمران:٧].

وقد حكى المُفسِّرون في المسألة ثلاثةَ أقوالٍ:

أ- أنَّ القرآن كلَّه محكمٌ؛ لقوله ﷻ: ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آَيَاتُهُ**﴾[هود:١]، وهذا هو الإحكام العام.

ب- أنَّ القرآن كلَّه متشابهٌ؛ لقوله ﷻ:﴿ **اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ**﴾[الزُّمر:٢٣]، وهذا هو التَّشابه العام.

ج- انقسامُه إلى مُحكمٍ ومُتشابهٍ؛ للآية المذكورة في آل عمران، وهذا هو الإحكام والتشابه الخاص، والجواب عن الآيتين أنَّ المراد بإحكامه إتقانُه وعدمُ تطرُّق النَّقص والاختلاف إليه، وهذا هو الإحكام العام، والمقصود بتشابهه كونُه يُشبه بعضُه بعضاً في الحقِّ والصِّدق والإعجاز، وهذا هو التشابه العام(٢)، وإنَّ المحكم والمتشابه بمعناهما الخاص هما المقصودان في هذه القاعدة الجليلة في فهم النَّص.

وأصل الخلاف بين العلماء في جواز معرفة المتشابه في القرآن من عدمه، هو الخلاف في الوقف على لفظ الجلالة الله في آية آل عمران السابقة، والخلاف في نوع الواو في الآية في كلمة "والراسخون" في الآية السابقة:-

أ- فمن قال أنَّها عاطفة، فيكون الراسخون في العلم ممَّن يعلم تأويله، وهذا ما ذهب إليه بعض السلف، وكثيرٌ من المُفسِّرين والأُصوليين، واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-، وعليه يكون معنى التأويل في الآية هو التفسير، ولم يذمَّ الله المُتَّبعين للمتشابه على هذا القول؛ لأنَّ الذم مُتوجِّهٌ لمن اتَّبعه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، كما هو مُصرَّحٌ في الآية، أمَّا من كان مقصده الاسترشاد والاستفهام لإزالة ما عرض له من الشُّبهة، فها غير مذمومٍ، وقد كان الصحابة ﷺ إذا عرضت لأحدهم شبهةٌ أو إشكالٌ في آيةٍ أو حديثٍ سأل عنه.

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٢/٢٤٢).

(٢) انظر: البرهان في علوم القرآن، للزركشي(٢/٦٨)، والصواعق المرسلة، لابن القيم(١/٢١٢).

ب- وأمَّا من قال أنَّ الواو استئنافيةٌ، فإنَّ معنى التأويل الوارد في الآية عندهم هو حقيقة الشيء التي يؤول إليها، وهو ما استأثر الله بعلمه، كوقت الساعة، وحقيقة ما في الجنة والنار، وهو ما نفهم معناه، ولا ندرك حقيقته وكيفيته [١].

وقد جمع بعض أهل العلم بين القولين بكلامٍ بديعٍ، حيث يقول الراغب الأصفهاني[٢]- رحمه الله-: "جميعُ المُتشابَه على ثلاثة أضربٍ: ضربٌ لا سبيل إلى الوقوف عليه كوقت الساعة، وخروج الدابة، ونحو ذلك، وضربٌ للإنسان سبيلٌ إلى معرفته كالألفاظ الغريبة، والأحكام الغَلِقة، وضربٌ متردِّدٌ بين الأمرين، يختصُّ بمعرفته بعضُ الراسخين في العلم، ويخفى على من دونهم، وإذا عرفتَ هذه الجهة عرفتَ أنَّ الوقف على قوله:﴿ **وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ**﴾، أو وصله بقوله: ﴿ **وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ**﴾ جائزٌ، وأنَّ لكلِّ واحدٍ منهما وجهاً، حسبما دلَّ عليه التفصيل المُتقدِّم"[٣].

إنَّ "الوضوح والإشكال في النُّصوص الشرعية أمرٌ نسبيٌّ، يختلف فيه الناس بحسب ما عندهم من العلم والفهم، فما يكون مشكِلاً عند شخصٍ قد لا يكون كذلك عند آخر؛ بل قد يكون عنده واضحاً جلياً"[٤]، أمَّا أن يكون في النُّصوص الشرعيَّة ما لا يمكنُ لأحدٍ من الأمَّة معرفةُ معناه، فهذا غير موجودٍ، فإنَّ الدلائل الكثيرة من الكتاب والسنة وأقوال السلف على أن جميع القرآن مما يُمكن علمُه وفهمُه وتدبُّره، وهذا مما يجب القطع به"[٥].

قال الإمام النووي- رحمه الله-:" يبعُد أن يخاطب الله عباده بما لا سبيل لأحدٍ من الخلق إلى معرفته"[٦]، وإذا أُطلق قولٌ للسلف في وجود ما لا يعرفه إلا الله، فإنَّما يقصدون ما اختصَّ الله بعلمه، كحقيقة ما في الجنة من النعيم، فهذا لا يعلمه إلا الله.

قال ابن تيمية- رحمه الله-" ومن قال من السَّلف إنَّ المتشابه لا يعلم تأويله إلا الله، فقد أصاب أيضاً، ومرادَه بالتأويل ما استأثر الله بعلمه، مثل وقت الساعة، ومجيء أشراطها، ومثل كيفية نفسه وما أعده في الجنة لأوليائه"[٧].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٤٣/١٣)،(٣١١/١٣)،(٣٨٣/١٧-٣٩٣).

(٢) الحسين بن محمد بن المفضل، أبو القاسم الأصفهاني (أو الأصبهاني)، المعروف بالراغب، من الحكماء العلماء، سكن بغداد، واشتهر، حتى كان يقرن بالإمام الغزالي، من كتبه: الذريعة إلى مكارم الشريعة، والأخلاق ويُسمَّى (أخلاق الراغب)، وجامع التفاسير، والمفردات في غريب القرآن، وتوفي٥٠٢هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(٢٥٥/٢).

(٣) المفردات في غريب القرآن، للأصفهاني(٤٤٥/١).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٤٤/١٣).

(٥) انظر: المرجع السابق(٣٩٠/١٧)،(٢٨٥/١٣).

(٦) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي(٢١٨/١٦).

(٧) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٤٤/١٣).

"وعلى هذا فالراسخون في العلم يعلمون تأويل هذا المتشابه الذي هو تفسيره، وأما التأويل الذي هو الحقيقة الموجودة في الخارج فتلك لا يعلمها إلا الله"(١).

إنَّ الأحاديث والآثار الواردة في إثبات هذه القاعدة كثيرةٌ، وكلُّها تبُيِّن المنهج الصحيح الذي كان عليه السلف في التعامل مع هذه القضية، وهو العمل بالمحكم والإيمان بالمتشابه (٢)، ومن هذه الأحاديث والآثار ما يلي:

أ- عن أم المؤمنين عائشة ﷺ قالت: تلا رسول الله ﷺ هذه الآية:﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ**﴾، قالت: قال رسول الله ﷺ:(**فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم**)(٣).

ب- وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ، قال: جلستُ من رسول الله ﷺ مجلساً ما جلستُ قبله ولا بعده أغبطَ عندي، قال: فخرج من وراء حُجراته قومٌ يُجادلون بالقرآن، قال: فخرج مُحمرَّةً وجنتاه كأنَّما يقطران دماً، فقال:(**يا قومِ لا تُجادلوا بالقرآن، فإنَّما ضلَّ من كان قبلكم بجدالهم، إنَّ القرآن لم ينزل ليكذِّب بعضُه بعضاً، ولكن نزل ليُصدِّق بعضه بعضاً، فما كان من مُحكمه فاعملوا به، وما كان من متشابهه فآمنوا به**)(٤).

ج- وعن ابن مسعودٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:(**نزل الكتاب الأول من بابٍ واحدٍ على حرفٍ واحدٍ، ونزل القرآن من سبعة أبوابٍ على سبعة أحرُفٍ، زاجراً، وآمراً وحلالاً وحراماً ومحكماً ومتشابهاً وأمثالاً؛ فأحلُّوا حلاله، وحرِّموا حرامه، وافعلوا ما أُمرتم به، وانتهوا عمَّا نُهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمُحكمه، وآمنوا بمتشابهه وقولوا: آمنا به كلٌّ من عند ربنا**)(٥).

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٨١/١٧).

(٢) انظر: المرجع السابق(٣٨٦/١٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب{منه آيات محكمات}، حديث رقم ٤٥٤٧.

(٤) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، لابن أبي أسامة، كتاب التفسير، باب النهي عن الجدل بالقرآن، رقم ٧٣٥.

(٥) المستدرك على الصحيحين، للحاكم، كتاب التفسير، باب ومن سورة آل عمران، (٣١٧/٢)، رقم ٣١٤٤، وأخرجه ابن حبان برقم ٧٤٥، والطبراني في المعجم الكبير(٢٦/٩)، وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في الصحيحة، برقم ٥٨٧.

د- وعن عبد الله بن عباسٍ ﵄ قال: "أُنزل القرآن على أربعة أحرفٍ، حلالٌ وحرامٌ لا يُعذر أحدٌ بالجهالة به، وتفسيرٌ تُفسِّره العرب، وتفسيرٌ تُفسِّره العلماء، ومتشابهٌ لا يعلمه إلا الله، ومن ادَّعى علمَه سوى الله فهو كاذبٌ"[(١)].

هـ- وذُكر أنَّ رجلا يقال له: "صَبِيغُ بن عِسْلٍ قدم المدينة، وكانت عنده كتبٌ، وكان يسأل عن متشابه القرآن، فبلغ ذلك عمر، فبعث إليه وقد أعد له عراجين النخيل، فلما دخل عليه جلس، قال: من أنت؟ قال: أنا عبد الله صبيغ، قال عمر: وأنا عبد الله عمر، وأومأ عليه، فجعل يضربه بتلك العراجين، فما زال يضربه حتى شجَّه، وجعل الدم يسيل عن وجهه، فقال: حسبك يا أمير المؤمنين، فقد والله ذهب الذي أجد في رأسي"[(٢)]، وقال عمر﵁: "سيكون أقوامٌ يجادلونكم بمتشابه القرآن فخذوهم بالسُّنن، فإنَّ أصحاب السنن أعلم بكتاب الله تعالى"[(٣)].

ولم يكن ضرب عمر ﵁ لصبيغ بسبب مجرد سؤاله عن العلم؛ قال الإمام ابن كثير- رحمه الله- تعليقاً على هذا الحديث:" وكأنَّه والله أعلم إنَّما ضربه لمَّا ظهر له حالُه، أنَّ سؤالَه سؤالُ استشكالٍ لا سؤال استرشادٍ واستدلال، كما يفعله كثيرٌ من المتفلسفة الجُهَّال والمبتدعة الضُلَّال، فنسأل الله العافية في هذه الدنيا وفي المآل"[(٤)].

قلتُ: وما أحوجنا في هذه الأيام إلى عراجينَ كثيرةٍ، تُزيل ما في رؤوس المبتدعة والمتطاولين على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وعلى صحابته الكرام ﵃، من شُبهٍ وضلالات.

و- ورحم الله الربيع بن خُثيم[(٥)] حين قال: "يا عبد الله ما علَّمك الله في كتابه من علمٍ فاحمد الله، وما استأثر عليك به من علمٍ فَكِلْهُ إلى عالمه، لا تتكلَّف، فإنَّ الله يقول لنبيه:﴿ **قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ** ﴾[ص:٨٦]"[(٦)].

ز- وقال الحسن البصري- رحمه الله-:"{يتلونه حق تلاوته}، يعملون بمُحكمه، ويؤمنون بمُتشابهه، ويَكِلون ما أُشكل عليهم إلى عالِمه"[(٧)].

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري(٧٦/١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(٧٠٢/٤)، رقم ١١٣٧، وأخرجه الآجري في الشريعة (١٥٢) بإسنادٍ صحيح، وصحح إسناده ابن حجر في الإصابة (١٦٩/٥) .

(٣) انظر: الشريعة، للآجري(٤٨٣/١)، رقم١٥٣.

(٤) مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب ﵁ وأقواله على أبواب العلم، لابن كثير(٦٠٧/٢).

(٥) الربيع بن خثيم بن عائذ أبو يزيد الثوري، الإمام، القدوة، العابد، الكوفي، أحد الأعلام، روى عن: عبد الله بن مسعود، وأبي أيوب الأنصاري، وحدث عنه: الشعبي، وإبراهيم النخعي، وغيرهم، قال له ابن مسعود: يا أبا يزيد، لو رآك رسول الله ﷺ لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المخبتين، وتوفي ٦٥هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٢٥٨/٤).

(٦) الاعتصام، للشاطبي(٨٥٠/٢).

(٧) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري(٥٦٩/٢).

وقال ابن تيمية– رحمه الله–:" ما يَجيء في الحديث نعمل بمُحكمه، ونؤمن بمُتشابهه"[1]، وقال ابن كثيرٍ– رحمه الله–:" فمن ردَّ ما اشتبه إلى الواضح منه، وحكَّم مُحكمَه على متشابهه عنده، فقد اهتدى، ومن عكس انعكس"[2].

ومن أكثر الآيات التي كثُر الكلام والخلاف فيها بين الفرق أنَّها من المتشابهات، هي آيات الصفات، يقول ابن تيمية– رحمه الله–: "ولا يصحُّ إطلاق القول بأنَّ آيات الصفات من المُتشابه؛ بل لا بُدَّ من التفصيل في ذلك، فإنَّ صفات الله ﷻ لها اعتباران، اعتبارٌ من جهة المعنى، وهي بهذا الاعتبار معلومةٌ لنا، كما تقرَّر أنَّه لا يوجد شيءٌ من نصوص الشرع لا يعلمُه أحدٌ من الناس؛ لأنَّها حينئذٍ ستكون بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يُفهم، وهذا ما يُنزَّه عنه كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ؛ وعليه فإنَّ نصوص الصفات بهذا الاعتبار ليست من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وجعلها منه لا يُعرف عن أحدٍ من أئمة السلف، ولكن قد يشتبه منها على بعض الناس دون بعضٍ، وهذا التشابه سرعان ما يزول بردِّه إلى المُحكَم أو إلى أهل العلم الراسخين فيه، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[النساء:٨٣]، وأمَّا الاعتبار الثاني، فهو من جهة كيفيتها، وحقيقة ما هي عليه، فهي بهذا الاعتبار غير معلومةٍ لنا؛ لأنَّها مما استأثر الله بعلمه، ويصحُّ أن يُقال عنها من هذا الوجه أنَّها من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله؛ وعلى هذا فصفاتُ الله ﷻ معلومةٌ لنا من وجهٍ، ومجهولةٌ من وجهٍ آخر، فالمعنى معلومٌ، والكيف مجهولٌ"[3].

ويقول ابن القيم:" ولم يُعرف عن أحدٍ من الصحابة قطُّ أنَّ المتشابهات آياتُ الصفات؛ بل المنقول عنهم يدلُّ على خلاف ذلك، فكيف تكون آياتُ الصفات متشابهةً عندهم، وهم لا يتنازعون في شيءٍ منها"[4].

ومذهب السلف في آيات الصِّفات، الإيمانُ بها على حقيقتها، وتفويضُ الكيفية إلى الله ﷻ، مع تنزيهنا له سبحانه عن مشابهة المخلوقين، وعدمُ ضرب النُّصوصِ بعضِها ببعضٍ، والعملُ بالمحكم، والإيمانُ بالمتشابه.

وقد ورد عن السلف في تقرير هذا الاعتقاد آثارٌ كثيرةٌ ومشهورةٌ، فعن أمِّ المؤمنين أمِّ سلمة ﵂ سُئلت عن قوله ﷻ:﴿الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى﴾[طه:٥]، فقالت:"الكيفُ غيرُ معقولٍ، والاستواءُ غيرُ مجهولٍ، والإقرار به إيمانٌ، والجحود به كفرٌ"[5]، وقد ردَّ الإمام مالك– رحمه الله– على من سأله

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥٧/٣).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير(٤/٢).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٧٢/١٧-٣٧٩)، وانظر: المرجع نفسه(٢٩٤/١٣-٣١٣).

(٤) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٢١٣/١).

(٥) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(٤٤٠/٣)، رقم ٦٦٣.

نفس السُّؤال قائلاً: "الكيفُ غيرُ معقولٍ، والاستواء منه غير مجهولٍ، والإيمان به واجبٌ، والسؤال عنه بدعةٌ، وإنِّي أخاف أن تكون ضالاً، وأُمر به فأُخرج"[1]، وردّ أيضاً ربيعة بن عبد الرحمن على نفس السؤال قائلاً: "الاستواء غير مجهولٍ، والكيف غير معقولٍ، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق"[2].

فالسلف في هذه الصفة "أخبروا أنَّ الاستواء معلومٌ، وهذا تفسير اللَّفظ، وأنَّ الكيف مجهولٌ، وهذا هو الكيفية التي استأثر الله بعلمها، فهم يعلمون معنى الاستواء على العرش، وأنَّه يتضمن علوَّ الربِّ على عرشه، وارتفاعه عليه، وأنَّه العلوُّ والاعتدال، وهذا معنىً معروفٌ من اللَّفظ، لا يُحتمل في اللغة غيرُه، ولكنَّهم لا يعلمون الكيفية التي اختصَّ بها الربُّ، والتي يكون بها مُستوياً من غير افتقارٍ منه إلى العرش؛ بل مع حاجة العرش وحَمَلَتِه إليه، وكلُّ شيءٍ مُحتاجٌ إليه من كلِّ وجهٍ"[3].

إنَّ ترك المحكم والاعتماد على المتشابه يؤدِّي إلى الضَّلال، كما ردَّ الخوارج والمعتزلة النُّصوص المحكمة الصريحة في إثبات الشفاعة بما تشابه عندهم من قوله ﷻ:﴿ **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ** ﴾[المدَّثر:٤٨]، وكما ردَّ الجبرية النُّصوص المُحكمة في إثبات مشيئة العبد وكونه قادراً مُختاراً بما تشابه عندهم من قوله ﷻ:﴿ **وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا** ﴾[الإنسان:٣٠] .

قال ابن القيم– رحمه الله– في الردِّ على من ردَّ النُّصوصَ المُحكمةَ بمُتشابهِ القرآن: "وطريقةُ الصحابة والتابعين وأئمةُ الحديث كالشافعي وأحمد ومالك وأبي حنيفة وأبي يوسف والبخاري وإسحاق فَعَكسُ هذه الطريق، وهي أنَّهم يردُّون المُتشابه إلى المُحكم، ويأخذون من المُحكم ما يُفسِّر لهم المتشابه، ويُبيِّنه لهم؛ فتتَّفق دلالته مع دلالة المُحكم، وتوافق النصوص بعضها بعضاً، ويصدِّق بعضها بعضاً، فإنَّها كلّها من عند الله، وما كان من عند الله فلا اختلاف فيه ولا تناقض، وإنَّما الاختلاف والتناقض فيما كان من عند غيره"[4]، "وعلى هذه الطريقة مضى صدرُ الأمة وسادتُها، وإيَّاها اختار أئمة الفقهاء وقادتُها، وإليها دعا أئمة الحديث وأعلامُه، وقد أفصح الغزالي في غير موضعٍ بتهجين ما سواها، حتى ألجم آخراً في إلجامه[5] كلَّ عالمٍ أو عامِّيٍ عمَّا عداها"[6].

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(٣/٤٤٠)، رقم ٦٦٤.

(٢) المصدر السابق(٣/٤٤٠)، رقم ٦٦٥.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٧/٣٧٣-٣٧٩).

(٤) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(٢/٢١٠).

(٥) يقصد كتاب إلجام العوام عن علم الكلام آخر تصانيف الغزالي.

(٦) البرهان في علوم القرآن، للزركشي(٢/٨٠). وهذه العبارة منسوبة للإمام أبو عمرو ابن الصلاح.

خامساً: حمل النُّصوص على ظاهرها ودرء التأويل الفاسد: إنَّ الله ﷻ قد خاطب النَّاس بما يعرفونه من كلامهم ولسانهم، وأرسل رسوله ﷺ هادياً ومبشراً ونذيراً، ناطقاً بلسانٍ عربيٍ مُبينٍ؛ ليُبيِّن للنَّاس ما نُزِّل إليهم، كما قال ﷻ:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾[إبراهيم:٤] .

لقد كان الكلام بين العرب يُحمل على مدلوله المفهوم بمقتضى الخطاب، ويجرى على ظاهره المتبادَر من كلام المُتكلِم، "فكان التقيُّد بأعراف اللُّغة وسُننها في التخاطب هو طريقتهم في التَّخاطب؛ لأنَّ الأصل في وضع الكلام هو تحقُّق البيان والإفهام، ولو كان التخاطب بخلاف ذلك؛ لجرى مجرى اللغو، وذهبت فائدة الكلام أصلاً، وهذا ظاهر الفساد"[١].

قال ابن القيم– رحمه الله–:" لو أراد الله ورسوله من كلامه خلاف حقيقته وظاهره الذي يفهمه المخاطَب، لكان قد كلَّفه أن يفهم مُراده بما لا يدلُّ عليه؛ بل بما يدلُّ على نقيض مُراده، وأراد منه فهم النَّفي بما يدلُّ على غاية الإثبات، وفهم الشيء بما يدلُّ على ضدِّه"[٢]، وهذا ما يتنافى ويتعارض مع الفائدة من التشريع؛ "لأنَّ الله ﷻ أنزل كتابه ليُتدبر ويُعقل ويُهدى به علماً وعملاً، ويُبصِّر من العمى، ويُرشِد من الغي، ويُعلِّم من الجهل، ويشفي من الغيِّ، ويهدي إلى صراطٍ مستقيمٍ، وهذا القصد ينافي قصد تحريفه، وتأويله بالتأويلات الباطلة المستكرهة، التي هي من جنس الألغاز والأحاجي، فلا يجتمع قصدُ الهدى والبيان، وقصدُ ما يضاده أبداً"[٣].

إنَّ تيسير القرآن الكريم للذِّكر لهو من أصرح الأدلة أنَّه يُراد به ظاهره، "ومعلومٌ أنَّه لو كان بألفاظٍ لا يفهمُها المخاطَب، لم يكن مُيسَّراً له؛ بل كان مُعسَّراً عليه، فإذا أُريد من المُخاطَب أن يفهم من ألفاظه ما لا يدلُّ عليه من المعاني، أو يدلُّ على خلافه، فهذا من أشدِّ التَّعسير، وهو مُنافٍ للتيسير"[٤]؛ ولهذا كان من الأُسس والثوابت التي ينبني عليها فهم النَّصِّ فهماً صحيحاً، حملُ الخطاب على الظَّاهر، وأنَّ كلَّ فهمٍ يُلغي المعنى الظاهر بدون دليلٍ شرعيٍّ يصرفُه عنه فهو تأويلٌ فاسدٌ، ومردودٌ على صاحبه، "فكلُّ من ادَّعى فهم أسرار القرآن، ولم يُحكم التفسير الظاهر، فهو كمن ادَّعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب؛ فظاهر التفسير يجري مجرى تعلُّم اللُّغة التي لابد منها للفهم"[٥].

---

(١) قواطع الأدلة في الأصول، للسمعاني(٥٠/١).

(٢) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٣١١/١).

(٣) المصدر السابق(٣١٦/١).

(٤) المصدر السابق(٣٣٢/١).

(٥) البرهان في علوم القرآن، للزركشي(١٥٥/٢).

قال الإمام الشافعي- رحمه الله-:" والقرآن على ظاهره حتى تأتيَ دلالةٌ منه أو سنةٍ أو إجماعٍ بأنَّه على باطنٍ دون ظاهر"[١]، وقال أيضاً:" وليس لأحدٍ أن يُحيل منها ظاهراً إلى باطن، ولا عامَّاً إلى خاصٍّ إلا بدلالةٍ من كتاب الله، فإن لم تكن إجماعٍ من عامة العلماء،... ولو جاز في الحديث أن يُحال شيءٌ منه عن ظاهره إلى معنىً باطنٍ يحتمله، كان أكثر الحديث يحتمل عدداً من المعاني، ولا يكون لأحدٍ ذهب إلى معنىً منها حُجةٌ على أحدٍ ذهب إلى معنىً غيرِه، ولكنَّ الحقَّ فيها واحدٌ؛ لأنها على ظاهرها وعمومها، إلا بدلالةٍ عن رسول الله، أو قول عامة أهل العلم بأنَّها على خاصٍّ دون عامٍّ، وباطنٍ دون ظاهر"[٢].

وقال الإمام الطبري- رحمه الله-:" وغير جائزٍ ترك الظاهر المفهوم إلى باطنٍ لا دلالة على صحَّته"[٣].

ولقد شدَّد ابنُ حزمٍ- رحمه الله- النَّكير على من أوقع الألفاظ على غير مُسمَّياتها؛ لما في هذا الإيقاع من تحريفٍ للنَّص عن دلالته الحقيقية، حيث قال- رحمه الله-: " ...وجب أن يُطلق على كل واحدٍ من الأسماء اسماً غير الاسم الذي لغيره؛ ليقع الفهم واضحاً، ولئلا تختلط، فيُسمِّى بعضها باسمٍ آخرٍ منها، فيُوجب ذلك وضعُ معنىً في غير موضعه؛ فتبطل الحقائق، والأصل في كلِّ بلاءٍ وزعماء تخليطٍ وفسادٍ، اختلاطُ أسماءٍ ووقوعُ اسمٍ واحدٍ على معاني كثيرةٍ؛ فيُخبر المُخبِر بذلك الاسم وهو يريد أحد المعاني التي تحته؛ فيحمله السامع على غير ذلك المعنى الذي أراد المُخبِر؛ فيقع البلاءُ والإشكال، وهذا في الشريعة أضرُّ شيءٍ وأشدُّه هلاكاً"[٤]، وقال أيضاً: "فمن أراد أن يُوقع شيئاً من الألفاظ على غير موضوعها في اللُّغة، فهو مجنونٌ وقَّاح، وهو كمن أراد أن يُسميَ الحقَّ باطلاً، والباطل حقَّاً، وأراد أن يُسميَ الذهب خشباً، وهذا غايةُ الجهلِ والسخف"[٥].

ونقل ابن القيم- رحمه الله- عن شيخه ابن تيمية- رحمه الله- في هذا الأمر كلاماً فصلاً، فقال:" من أبين المُحال وأوضح الضَّلال، حملُ النَّص على خلاف حقيقته وظاهره، وأنَّ الحقَّ في أقوال النُّفاة المُعطِّلين، وأنَّ تأويلاتهم هي المُرادة من هذه النصوص، إذ يلزم من ذلك أحد محاذير ثلاثةٍ، لا بُدَّ منها أو من بعضها، وهي القدح في علم المتكلِم بها وهو الشارع الحكيم، أو في بيانه، أو في نُصحه"[٦].

---

(١) الرسالة، للشافعي، ص ٥٨٠.

(٢) اختلاف الحديث، للشافعي(٤٨٠/١).

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري(١٥/١).

(٤) الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم(١٠١/٨).

(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم(٩٣/٢).

(٦) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٣٢٠/١) .

وقال ابن تيمية- رحمه الله-:" فلئن كان الحقُّ ما يقولُه هؤلاء السالبون النافون للصِّفات الثابتة في الكتاب والسُّنة، من هذه العبارات ونحوِها؛ دون ما يُفهم من الكتاب والسنة إمَّا نصَّاً وإمَّا ظاهراً، فكيف يجوزُ على الله ﷻ ثمَّ على رسوله ﷺ ثمَّ على خير الأمَّة أنَّهم يتكلمون دائماً بما هو إمَّا نصٌ وإمَّا ظاهرٌ في خلاف الحقِّ، ثمَّ الحقُّ الذي يجب اعتقادُه لا يبوحون به قطُّ، ولا يَدُلُّون عليه، لا نصَّاً ولا ظاهراً؛ حتى يجيءَ أنباط الفُرس والروم وفروخ اليهود والنصارى والفلاسفة يُبيِّنون للأمَّةِ العقيدة الصحيحة التي يجبُ على كلِّ مُكلَّفٍ أو كلِّ فاضلٍ أن يعتقدَها، لئن كان ما يقوله هؤلاء المُتكلِّمون المُتكلِّفون هو الاعتقاد الواجب؛ لقد كان ترك الناس بلا كتابٍ ولا سنةٍ أهدى لهم وأنفع على هذا التقدير؛ بل كان وجود الكتاب والسنَّة ضرراً محضاً في أصل الدين"[١].

وقال ابن القيم- رحمه الله-:" ولو قُدِّر أن المُتكلِّم أراد من المُخاطَب حملَ كلامه على خلاف ظاهره وحقيقته من غير قرينةٍ ولا دليلٍ ولا بيانٍ، لصادم هذا الفعلُ مقصودَ الإرشاد والهداية، ولكان ترك الخطاب خيراً له، وأقرب إلى الهدى من تكليفه بصرف الكلام عن ظاهره بغير دليلٍ، وتعريضه لفتنة اعتقاد الباطل"[٢].

فالأصلُ حملُ الكلام على ظاهره، ودرء التأويل الفاسد، كما قال الإمام الأصبهاني[٣]- رحمه الله- في بيان عقيدة السلف في الصفات بناءً على هذه القاعدة: "الكلام في صفات الله ﷻ ما جاء منها في كتاب الله، أو رُوي بالأسانيد الصَّحيحة عن رسول الله ﷺ، فمذهبُ السَّلف رحمة الله عليهم أجمعين إثباتُها وإجراؤُها على ظاهرها، ونفي الكيفية عنها"[٤].

وينبغي التَّنبيه إلى أنَّ المُراد بظاهر النصوص "هو ما يتبادرُ منها إلى الذِّهن من المعاني، وهو يختلف بحسب السياق، وما يضاف إليه الكلام، فالكلمة الواحدة يكون لها معنىً في سياقٍ، ومعنىً آخر في سياقٍ، وتركيب الكلام يُفيد معنىً على وجهٍ، ومعنىً آخر على وجهٍ"[٥].

قال ابن القيم- رحمه الله-:" كلُّ موضعٍ ظهر فيه المُراد بذلك التركيب والاقتران، فهو ظاهرُه وحقيقتُه، لا ظاهر له غيره، ولا حقيقة له سواه"[٦]؛ "ولهذا قد يُنقل عن أحد الأئمة ما ظاهرُه التأويل، وهو في الحقيقة ليس تأويلاً؛ لأنَّه نحى به هذا المنحى لقرينةٍ تدلُّ عليه، أو لكون السِّياق يقتضيه،

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥/١٦).

(٢) الصواعق المرسلة، لابن القيم(١/٣١٠).

(٣) إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنّة، من أعلام الحفاظ، كان إماما في التفسير والحديث واللغة، من كتبه: الجامع في التفسير والإيضاح في التفسير، والحجة في بيان المحجة، وغيرها، وتوفي ٥٣٥ هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(١/٣٢٣).

(٤) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لقوام السنة الأصبهاني(١/١٨٩).

(٥) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، لابن عثيمين(١/٣٦).

(٦) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(١/٣٣٤).

فيكون بهذا موافقاً لمُراد الله ﷻ، ولمراد رسوله ﷺ، ولا يكون مخالفاً لمنهج السلف، ولا خارجاً عن قاعدة إجراء النُّصوص على ظاهرها؛ لأنَّ المقصود هو فهم مُراد المتكلِّم من كلامه، فإذا فُهم كان هو ظاهر كلامه، ولم يكن تأويلاً، وإن صحَّ تسميتُه تأويلاً فهو تأويلٌ صحيحٌ قامت الأدلَّة عليه، ولموافقته للنُّصوص الشرعية"[1]، "وبالجملة فالتأويل الذي يُوافق ما دلَّت عليه النُّصوص وجاءت به السُّنة ويطابقها، هو التأويل الصحيح، والتأويل الذي يخالف ما دلَّت عليه النُّصوص وجاءت به السُّنَّة، هو التأويل الفاسد، ولا فرق بين باب الخبر والأمر في ذلك، وكلُّ تأويلٍ وافق ما جاء به الرسول فهو المقبول، وما خالفه فهو المردود"[2].

فالتأويل الصحيح هو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنىً آخر يحتمله اللفظ؛ لوجود دليلٍ يدلُّ على ذلك، كقوله ﷻ:﴿ **وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا** ﴾[النساء:٩٣]؛ فظاهر الآية أنَّ القاتل مُخلَّدٌ في نار جهنَّم، وقد تواترت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنه يُخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرةٍ من إيمان، وتواترت الأحاديث كذلك في قبول توبة كلِّ تائبٍ؛ ممَّا يقتضي صرف لفظ الآية عن ظاهرها، وتأويلها بطول البقاء في النَّار لا دوام الخلود، وهو معنىً سائغٌ في لغة العرب [3].

والتأويل الباطل هو صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنىً آخر من غير دليلٍ صحيحٍ يدلُّ على إرادة هذا المعنى؛ كتأويل الجنِّ بالميكروب، وتأويل الطير الأبابيل المذكورة في القرآن بالبعوض، وتأويل حجارة السِّجيل بجرثومة الجدري[4]، وتأويل قوله ﷻ:﴿ **وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ** ﴾[الفجر:١-٢] ، بأنَّ الفجر هو الانفجار الكوني الأوَّل، والليالي العشر تعني أنَّ المادة مرَّت بعشر مراحل للتَّطور حتى أصبحت شفافةً للضوء، وأن الشفع والوتر تعني الهيدروجين، وفيه الشفع في النُّواة، والوتر في المدار[5]، وأنَّ الظلمات الثلاث المذكورة في قوله ﷻ:﴿ **يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ** ﴾[الزُّمر:٦]، هي المراحل الدَّاروينية الثلاث التي مرَّت بها الحياة على سطح الأرض[6]، وهذا من التلاعب بالنُّصوص وتحريفها عن معانيها، ومن جنس الإلحاد بآيات الله، كما

---

(١) أحاديث العقيدة المتوهم إشكالها في الصحيحين، للدبيخي(١/٧).

(٢) الصواعق المرسلة، لابن القيم(١/١٨٧).

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير(١/٧١٠).

(٤) انظر: تفسير جزء عمَّ، لمحمد عبده، ص١٥٥، وانظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا(٧/٣١٩).

(٥) انظر: الكتاب والقرآن، لمحمد شحرور، ص٢٣٥.

(٦) انظر: المرجع السابق، ص٢٠٨.

قال الله ﷻ:﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا ﴾[فصِّلت:٤٠]، قال ابن عباسٍ رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: "هو أن يُوضع الكلام على غير موضعه"[١]، وقال الإمام النسفي[٢]– رحمه الله-: "النُّصوص على ظاهرها، والعدول عنها إلى معانٍ يدَّعيها أهل الباطن إلحادٌ"[٣]، وقال ابن القيم– رحمه الله-:" فتأويل التحريف من جنس الإلحاد؛ فإنَّه الميل بالنُّصوص عمَّا هي عليه، إمَّا بالطَّعن فيها، أو بإخراجها عن حقائقها مع الإقرار بلفظها"[٤].

وقد يقصد البعض بلفظ الظاهر في صفات الله ﷻ ما يتبادرُ إلى الذِّهن من مشابهة الله بخلقه، وقياس الغائب على الشاهد، وهذا ظاهرٌ لم يعرفه السلف.

يقول ابن تيمية– رحمه الله-:" فلفظة الظاهر قد صارت مشترَكةً؛ فإنَّ الظَّاهر في الفِطرِ السَّليمة واللِّسان العربي والدِّين القيم ولسان السَّلف، غير الظاهر في عرف كثيرٍ من المُتأخِّرين، فإنَّ ظاهر هذه الألفاظ إذا أُطلقت علينا، تكون أعراضاً أو أجساماً؛ لأنَّ ذواتنا كذلك؛ وليس ظاهرها إذا أُطلقت على الله ﷻ إلَّا ما يليقُ بجلاله، ويُناسب نفسه الكريمة"[٥]؛ ولذلك فالسَّلف والأئمة لم يكونوا يُسمُّون الذي لا يليق بالله ﷻ ظاهراً، ولا يرتضون أن يكون ظاهر القرآن والحديث كفراً وباطلاً.

يقول ابن العز الحنفي– رحمه الله-:" ويجبُ أن يُعلَمَ أنَّ المعنى الفاسد الكفري، ليس هو ظاهر النَّص ولا مقتضاه، وأنَّ من فهم ذلك منه فهو لقصور فهمه ونقص علمه"[٦].

ولقد عدَّ ابن القيم التأويلَ الفاسد للصفات طاغوتاً من طواغيت الضلالة، فقال:" قولهم: إنَّ آيات الصفات وأحاديث الصفات مجازاتٌ لا حقيقة لها، فهذه من الطواغيت التي فعلت بالإسلام ما فعلت، وهي التي محت رُسومه، وأزالت معالمه، وهدَّمت قواعده، وأسقطت حُرمة النُّصوص من القلوب، ونهجت طريق الطعن فيها لكلِّ زنديقٍ ومُلحدٍ، فلا يحتجُّ عليه المُحتجَّ بحُجَّةٍ من كتاب الله أو سنَّة رسوله إلَّا لجأ إلى طاغوتٍ من هذه الطواغيت، واعتصم به، واتَّخذه جُنَّة يصدُّ به عن سبيل الله، والله ﷻ بحوله وقوته ومَنِّه وفضله قد كسر هذه الطواغيت، طاغوتاً طاغوتاً، على ألسنة خلفاء رسله،

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، للطبري(٢١/٤٧٨).

(٢) عبد الله بن أحمد بن محمود النسفي، أبو البركات، حافظ الدين، فقيهٌ حنفيٌّ، مفسرٌ، له مصنفاتٌ جليلةٌ، منها: مدارك التنزيل، وكنز الدقائق، والمنار، وكشف الأسرار، والوافي، والكافي، والمُصفَّى، وعمدة العقائد، وتوفي ٧١٠هـ. انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر(٢/٢٤٧)، والأعلام، للزركلي(٤/٦٧).

(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٤/٢٢٤).

(٤) الصواعق المرسلة، لابن القيم(١/٢١٧).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٣/١٧٥).

(٦) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/٢٥٦).

وورثة أنبيائه، فلم يزلْ أنصار الله ورسوله يصيحون بأهلها من أقطار الأرض، ويرجمونهم بشُهُب الوحي وأدلة المعقول"(١).

سادساً: درء التعارض بين العقل والنَّقل: إنَّ السلف- رحمهم الله- لا يرَون أنَّ هناك تعارضاً حقيقيَّاً بين النَّقل والعقل الصحيح؛ بل تَعارضُ النَّص الصريح من الكتاب والسنة مع العقل الصحيح السَّليم غيرُ مُتصوَّرٍ أصلاً؛ بل هو مستحيلٌ، فإذا جاء ما يُوهم ذلك فإنَّ الوحي مُقدَّمٌ ومُحكمٌ؛ لأنَّه صادرٌ عن المعصوم ﷺ، والعقل لا عصمة له؛ بل هو نظر البشر النَّاقص، وهو مُعرَّضٌ للوهم والخطأ والنسيان والهوى والجهل والعجز(٢).

إنَّ السَّلف والعلماء من بعدهم يرَون أنَّ هذا التعارض المُتوهَّم بين العقل والنقل، هو من افتراءات علماء الكلام، الذين تأثَّروا بالفلسفة اليونانية، ولم يعرفه السلف فيما بينهم، كما قال ابن تيمية- رحمه الله-:" لا يُوجد في كلام أحدٍ من السَّلف أنَّه عارض القرآن بعقلٍ ورأيٍ وقياسٍ ولا بذوقٍ ووجْدٍ ومُكاشفةٍ، ولا قال قطُّ قد تعارض في هذا العقلُ والنقلُ، فضلاً عن أن يقول يجب تقديم العقل"(٣).

ويقول ابن القيم- رحمه الله-:" والسَّمعُ الصحيحُ لا ينفكُ عن العقل الصريح؛ بل هما أخوان، وصل الله بينهما، قال ﷻ:﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك:١٠]، فاعترفوا أنَّهم خرجوا عن موجَب السَّمع والعقل"(٤).

إنَّ أهل السنة وسطٌ في باب العقل بين الذين ألغَوه وبين الذين ألَّهوه، فأهل السنة لا يُلغون العقل، ولا يُنكرونه، ولا يَحجِرون عليه؛ بل يعتقدون أنَّ للعقل مكانةً ساميةً، وأنَّ الإسلام يتيح له مجالات النَّظر والتفكير، والعقل الذي يُعطيه السَّلف تلك المكانة هو العقلُ الصريح الصحيح الواعي، "والعقل الصريح: هو الخالي من الشُّبهات والشَّهوات"(٥)، وهو الذي يمنع من الاستدلال بغير الكتاب والسنة(٦).

وفي الوقت نفسه فأهل السُّنَّة لا يُؤلِّهون العقل، ولا يجعلونه حاكماً على نصوص الشرع؛ بل يرَون أنَّ للعقل حداً يجب أن يقفَ عنده، رحمةً به لا استهانةً بمكانته وقدراته؛ ولكي لا يكون وبالاً على صاحبه؛ ولذلك فقد ذمَّ أهل السُّنَّة الطريقة التي سلكها المتكلمون في تقديم عقولهم على النَّقل

(١) الصواعق المرسلة، لابن القيم(٦٣٢/٢).

(٢) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص١٤٠، ودرء تعارض العقل مع النقل، لابن تيمية(٨٨/١) وما بعدها، والكتاب كله مفيدٌ في هذا الباب.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٨/١٣).

(٤) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٩٢/١).

(٥) مصطلحات في كتب العقائد، لمحمد الحمد، ص١٣١.

(٦) انظر: الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، لمحمد أمان الجامي، ص٣٤.

والنُّصوص الصحيحة، ولقد ظهر هذا الذَّمُّ جليَّاً من خلال أقوالهم البيِّنة، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله–: "ففي الجملة النُّصوص الثابتة في الكتاب والسنة لا يُعارضها معقولٌ بيِّنٌ قطٌّ، ولا يُعارضُها إلَّا ما فيه اشتباهٌ واضطرابٌ، وما عُلم أنَّه حقٌ لا يُعارضه ما فيه اضطرابٌ واشتباهٌ، وإنَّ النُّصوص الثابتة عن الرسول ﷺ لم يعارضها قطُّ صريحُ معقولٍ، فضلاً عن أن يكون مُقدَّماً عليها، وإنَّما الذي يُعارضها شُبَهٌ وخيالاتٌ، مبناها على معانٍ متشابهةٍ، وألفاظٍ مُجملةٍ، فمتى وقع الاستفسار والبيان ظهر أنَّ ما عارضها شُبهٌ سفسطائيةٌ لا براهين عقلية"[1]، ويقول– رحمه الله– في موضعٍ آخرٍ: "وأمَّا خبر الله ورسوله ﷺ فهو صدقٌ موافقٌ لِما الأمر عليه في نفسه، ولا يجوز أن يُعارِض خبرَه دليلٌ صحيح، لا عقليٌ ولا سمعيٌ، وأنَّ ما عارض أخباره من الأمور التي يَحتجُّ بها المُعارِضون، ويُسمُّونها عقلياتٍ، أو برهانياتٍ، أو جدلِّياتٍ، أو ذوقياتٍ، أو مُخاطَباتٍ، أو مُكاشَفاتٍ، أو مُشاهَداتٍ، أو نحو ذلك من الأمور المُدهشِات؛ أو يُسمُّون ذلك تحقيقاً، أو توحيداً، أو عرفاناً، أو حكمةً حقيقيةً، أو فلسفةً، أو معارف تقنيةً، ونحو ذلك من الأسماء التي يُسمِّيها بها أصحابها ، فنحن نعلم علماً يقيناً لا يحتمل النَّقيض أنَّ تلك جاهلياتٌ، وضلالاتٌ، وخيالاتٌ، وشبهاتٌ مكذوباتٌ، وحُججٌ سوفسطائيةٌ، وأوهامٌ فاسدةٌ، وأنَّ تلك الأسماء ليست مطابقةً لمُسمَّاها؛ بل هي من جنس تسمية الأوثان آلهةً وأرباباً"[2].

ويقول ابن القيم– رحمه الله– في ذم من قدَّموا عقولهم على النَّص المحكم: "وحرَّفوا لأجلها النُّصوص عن مواضعها، وأخرجوها عن معانيها وحقائقها، بالرأي المجرد الذي حقيقتُه أنَّه زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار، وعفارة الآراء، ووساوس الصدور؛ فملئوا به الأوراق سواداً، والقلوب شُكوكاً، والعلم فساداً، وكلٌّ من له مسكةٌ من عقلٍ يعلم أنَّ فساد العالم وخرابه إنَّما نشأ من تقديم الرأي على الوحي"[3].

ويقول ابن أبي العز الحنفي– رحمه الله– في تعارض العقل مع النقل: "وهذا لا يكون قط، ولكن إذا جاء ما يُوهم مثل ذلك، فإن كان النَّقل صحيحاً، فذلك الذي يدَّعي أنَّه معقولٌ إنَّما هو مجهولٌ، ولو حقَّق النَّظر لظهر ذلك، وإن كان النقل غير صحيحٍ، فلا يصلح للمُعارضة، فلا يُتصوَّر أن يتعارض عقلٌ صريح ونقلٌ صحيح أبداً"[4].

وقال أبو المظفر السمعاني– رحمه الله–:" واعلم أنَّ فصل ما بيننا وبين المبتدعة هو مسألةُ العقل، وأنَّهم أسَّسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الإتباع تبعٌ لذلك، ولو كان أساس الدين على

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٨٨/١).

(٢) المرجع السابق(٣١/١–٣٢).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(٦٨/١)

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص ١٩٩.

المعقول؛ لاستغنى الخلق عن الوحي والأنبياء عليهم السلام؛ ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء"[1].

فمن هذه النُّقول وغيرِها يتبيَّن أنَّ نصوص الشرع لا تأتي بما يخالف صحيح المعقول، ومة أصرح الأدلة على ذلك أنَّ الصحابة الكرام ﭫ وهم أعلمُ الأمة بمراد الله ورسوله، وأكملُ الأمة عقولاً، كانوا يسألون النبي ﷺ عمَّا يُشكل عليهم من النُّصوص، ولم يكن أحدٌ منهم يورد معقولاتٍ يُعارض بها النَّص، ولا عُرف فيهم أحدٌ عارض نصَّاً صحيحاً بعقله، ولكن في المقابل لمَّا تخلَّى أهل الكلام عن هذا الأصل وخالفوه؛ ضلوا في مصادر الاستدلال، وتباينوا مع السلف في تحديدها؛ فأوقعهم ذلك في الانحراف، ومجانبة الصواب، لا سِيَّما في تعيين مجال العقل من النُّصوص، ومنزلته منها، وذلك يشمل كل من تابع المتكلمين في ذلك، أو أعطى العقل فوق طاقته، وقدراته، وجعله حاكمًا على مسائل الدين.

لقد أنصف السلف- رحمهم الله- العقلَ، وعرفوا منزلته ومكانته ومجالاته، وكان وضوح الاعتقاد عندهم من وضوح الطريق، فهم لا يستدلُّون بالعقل على الاعتقاد ابتداءً، ولكنه يُعدُّ مدعِّماً للاعتقاد المُستقى من الكتاب والسنَّة، ومُثبتَّاً له، وتفصيل ذلك أنَّ أصول الدِّين عند السلف قامت على ثلاثة أصول، وهذه الأصول مسائل غيبية، لا يستطيع العقل أن يدرك كنهها، أو تفاصيلها، "فالأصل الأوَّل: يتضمن إثبات الصفات، والتوحيد، والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي: القصص التي قصَّها على عباده، والأمثال التي ضربها لهم، والأصل الثاني: يتضمن تفصيل الشرائع، والأمر، والنهي، والإباحة، وبيان ما يُحبه الله وما يكرهه، والأصل الثالث: يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنَّة والنَّار، والثواب والعقاب، وعلى هذه الأصول الثلاثة مدارُ الخلق، والأمر، والسعادة والفلاح موقوفةٌ عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلَّا من جهة الرسل؛ فإنَّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها، ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يُدرك وجه الحاجة إلى الطبِّ، ومن يُداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض وتنزيل الدَّواء عليه"[2].

"ولذلك فأمور الغيب عامةً، لا يمكن إدراكها بالعقل قط؛ بل إنَّ غاية إدراك العقل لما غاب عن الإنسان من أمور الدنيا، أو شيءٍ منها، ظنيٌ لا يُفيد العلم، ولا حتى العلم المُقارب، فكيف بما غاب عنه من أمور الآخرة، ونحوها؟، فلا يُحكِّم العقل في ذلك، أو يُصحِّح حكمَه فيها، إلا ناقص عقلٍ، أو من لا عقل له، ولو كان في العقول كفايةٌ، أو نوعُ كفايةٍ، لما كان الخلق في حاجة للرُّسل، ولما أرسل الله ﻷ رسله إلى عباده"[3].

---

(١) الانتصار لأصحاب الحديث، للسمعاني، ص٨١-٨٢.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٩٦/١٩).

(٣) قمع الدجاجلة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، لعبد العزيز الراجحي، ص٣٣٢- ٣٣٣.

إنَّ السَّلف– رحمهم الله– يرون أنَّ العقل الصريح مُصدِّقٌ للنُّصوص، غير مُتعارضٍ معها؛ بل إنَّه محبٌّ لها، ومُدعِّمٌ لصدقها، يقول ابن تيمية– رحمه الله–: "العقل الصريح موافقٌ لما أخبر به الرسول ﷺ، لا يُناقضه، فالعقل الصريح لا يُخالف النَّقل؛ بل هو يُوافقه، ويُعاضده، ويُؤيِّده"(١).

وقال أيضاً: "من تبحَّر في المعقولات، وميَّز بين البيِّنات والشُّبهات، تبيَّن له أنَّ العقل الصريح أعظمُ الأشياء موافقةً لما جاء به الرسول ﷺ، وكلَّما عظُمت معرفة الرجل بذلك، عظُمت موافقة الرسول ﷺ"(٢).

فثبت أنَّ ما جاء في الكتاب والسنة موافقٌ لفطرة الخلائق، وما جُعل فيهم من العقول الصريحة، والقصود الصحيحة، لا يخالف العقل الصريح، ولا القصد الصحيح، ولا الفطرة المستقيمة، وهي حقٌّ كلُّها، يصدق بعضُها بعضًا، لا تنافر بينها، ولا تكذيب(٣).

وختاماً أقول: إنَّ العقل عند أهل السنة له قيمتُه، ومنزلتُه، وله مكانُه في الاعتقاد والاستدلال، دون أن يستقلَّ بذلك، أو يتعالى عليه، والخطأ في هذا الأصل هو الذي جرَّ المتكلمين إلى لوازم لا تُحمد عاقبتها، ومن ذلك "قياسهم الغائب على الشاهد؛ وهذا الذي أوقع المُؤوِّلة في التَّأويل، والمُشبِّهة في التمثيل، فلم ترتقِ عقول المُشبِّهة بسبب هذا القياس إلى مستوى التنزيه، ولم ترتقِ عقول المعطِّلة والمؤوِّلة إلى مستوى الإثبات مع التنزيه، ومن طالع تراجم المتكلمين لم يجد أحدًا منهم يسلم من طامَّةٍ أو بليَّةٍ؛ بل هم في ذلك بين مُكثرٍ ومُقلٍّ، ومن لم يشفهِ الوحي في معرفة أصول الدين، فلا شفاه الله، ومن لم يعرفْه به فكيف وبم يعرفه؟!"(٤).

سابعاً: وسطية المنهج بين الإفراط والتفريط: إنَّ من نعمة الله ﷻ على هذه الأمة المحمدية، وتشريفه لها، أن جعلها أمَّة وسطاً خياراً عدولاً، فقال ﷻ:﴿ **وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا** ﴾[البقرة:١٤٣]، واختار لها سبحانه من خِيارها نسباً ومكانةً، خيرةَ خلقه، وأفضلَ رُسله؛ فبعثه فيها نبياً رسولاً، وأنزل عليها أشرفَ كُتبِه، وجعله مهيمناً على الكُتب قبلَه، شاملاً لخير ما جاءت به، وبهذا النَّبيِّ الكريم، وهذا الكتابِ العظيم، شَرُفت هذه الأمَّة، وبمتابعتهما والاهتداء بهديهما، كانت خيرَ الأمم وأوسطَها وأعدلَها، ثم كان أسعدُ هذه الأمَّة بهذه الخيريَّة، أسعدُها باتباعهما، وأحرصُها على هديهما، قولًا وعملًا واعتقادًا في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فهؤلاء جميعًا هم خِيار هذه الأمَّة وأوسطها(٥).

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية(٨/٥٣٥).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٥/٣١٤).

(٣) انظر: الرسالة العرشية، لابن تيمية، ص٣٥.

(٤) قمع الدجاجلة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، لعبد العزيز الراجحي، ص٣٣٣–٣٣٤.

(٥) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(١/٥–٧).

لقد حافظ النبي ﷺ على مبدأ الوسطيَّة بين أصحابه؛ ليكونوا مثالاً وقدوةَ للأمة تقتدي بهم من بعدهم، فكان إذا لمح من بعض أصحابه جنوحاً إلى الإفراط أو التفريط، ردَّهم بقوَّةٍ إلى الوسط، وحذَّرهم من مغبَّة الغُلوِّ والتَّقصير، فكان منهجُهم منهجاً وسطاً لأمَّةٍ وسط [(١)]؛ والمفلح من بعدهم من اقتفى آثارهم، والتزم طريقهم، واتَّبع الحقَّ الذي كانوا عليه، وهو الوسط والعدل.

إنَّ وسطيَّة السَّلف الصالح -رحمهم الله- ووسطية منهجهم في هذه الأمَّة؛ إنَّما هو في حقيقته امتدادٌ لوسطية هذه الأمَّة وعدالتِها وخيريتِها؛ بل إنَّ السَّلف الذين هم أصحابُ رسول الله ﷺ، ومن تبعهم بإحسانٍ على ما كانوا عليه من الهدي والتَّمسُّك بالكتاب والسنَّة، هم النموذج الأمثل لهذه الأمَّة، التي أثنى الله عليها خيرًا، وهم الذين يُمثِّلون الأمَّة الوسط المذكورة والمعنية في الآية الكريمة[(٢)].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" "دين الله وسطٌ بين الغالي فيه، والجافي عنه، والله تعالى ما أمر عباده بأمرٍ إلا اعترض الشيطانُ فيه بأمرين، لا يبالي بأيِّهما ظفر، إمَّا إفراطٌ فيه، وإمَّا تفريطٌ فيه، وقد اعترض الشيطان كثيراً على من ينتسب إلى دين الله، حتى أخرجه عن كثيرٍ من شرائعه؛ بل أخرج طوائف من أعبدِ هذه الأمة وأورعِها عنه حتى مرقوا منه كما يمرُق السَّهم من الرَّميَّة"[(٣)].

إنَّ النَّاظر في مواقف الفرق من أبواب الدين المُختلفة، تظهر له الطرفيَّة الشديدة لدى أهل الأهواء والبدع، ويرى أنَّ السَّلف- رحمهم الله- هم أهل التَّوسُّط والاعتدال بين الإفراط والتفريط، وبين الغُلوِّ والجفاء، فأهلُ السنة بين إفراط أولئك، وتفريط هؤلاء على هديٍ قاصدٍ، وصراطٍ مستقيمٍ؛ وهم وسطٌ بين فرق الأمَّة، كما أنَّ الأمَّة وسطٌ بين الأمم[(٤)]، ويدرك هذا المعنى كلُّ دارسٍ مُتفحِّصٍ لأقوال السَّلف وأقوال الفرق الأخرى في كثيرٍ من مسائل العقيدة وأبواب الدين.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" وأهل السنَّة والجماعة في الإسلام، كأهل الإسلام في أهل الملل،... فهم وسطٌ في باب صفات الله ﷻ بين أهل الجحد والتعطيل، وبين أهل التَّشبيه والتمثيل، يصِفُون الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسلُه من غير تعطيلٍ ولا تمثيلٍ إثباتاً لصفات الكمال، وتنزيهاً له عن أن يكون له فيها أندادٌ وأمثال، إثباتٌ بلا تمثيلٍ، وتنزيهٌ بلا تعطيلٍ، كما قال ﷻ:﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾[الشُّورى:١١]، ردَّاً على المُمثِّلة، وقال:﴿ **وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الشُّورى:١١]، ردَّاً على المُعطِّلة،... وهم وسطٌ في باب أفعال الله ﷻ بين المعتزلة المُكذِّبين للقدر، والجبريَّة النَّافين لحكمة الله ورحمته وعدله،... وهم وسطٌ في باب الوعد والوعيد، بين الوعيديَّة

(١) انظر: كيف نتعامل مع السنة، للقرضاوي(٢٤/١).

(٢) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(١٥٥/١-١٥٦).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٨١/٣).

(٤) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(٧/١).

الذين يقولون بتخليد عُصاة المسلمين في النار، وبين المُرجِئة الذين يجحدون بعض الوعيد، وما فضَّل الله به الأبرار على الفجار،... وهم وسطٌ في أصحاب رسول الله ﷺ، بين الغالي في بعضهم الذي يقول بإلهيَّة أو نُبوَّة أو عصمة أحدٍ منهم، والجافي فيهم الذي يُكفِّر بعضَهم، أو يُفسِّقُه، وهم خيار هذه الأمة"[(١)].

ويقول – رحمه الله– أيضاً: "وكذلك في سائر أبواب السُّنة هم وسطٌ؛ لأنَّهم مُتمسِّكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما اتفق عليه السابقون الأوَّلون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان،... ولا تجد فرقةٍ من الفِرق إلَّا وقد خالفت أهل السُّنة والجماعة في هذا الأصل العظيم، فإمَّا أن تغلوَ في جانبٍ، أو تُفَرِّط في جانبٍ، وهذا الخلل في التوازن مُطَّردٌ عند جميع أهل البدع في أبواب الاعتقاد، قلَّ ذلك أو كثُر"[(٢)]، فهم قد خالفوا ما كانت عليه الأمَّة في عهد الرسول ﷺ وصدر الخلافة الراشدة، وابتدعوا في الدِّين ما لم يأذن به الله، وانحرفوا عن سواء الصراط؛ إمَّا إلى تفريطٍ، أو إلى إفراطٍ، وشابهوا الأمم الأخرى في بعض بِدَعِها؛ فانحطَّت منزلة هذه الفرق، وابتعدت عن الوسطيَّة الثابتة لهذه الأمَّة، ولذلك كان أهل السنَّة خيرَ فرق هذه الأمة وأوسطَ طوائفها؛ لتمسُّكِهم بالسُّنة، وحرصِهم على مُتابعتها، والذبِّ عنها؛ فهم الطائفة المنصورة، وهم الفرقة الناجية، وهم كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله– عنهم: "وسطٌ في النِّحل، كما أنَّ ملة الإسلام وسطٌ في المِلل"[(٣)]، وهم الغرباء بين سائر الطوائف؛ لأنّ "السنَّة في الإسلام أعزُّ من الإسلام في سائر الأديان"[(٤)]، جعلنا الله من هؤلاء الغرباء الأخيار.

ثامناً: التَّدرج في طلب العلم للوصول إلى الفهم الكامل: إنَّ التدرج في طلب العلم من أسباب الفهم كما ذكر الباحث قبل ذلك، وقد راعى السلف– رحمهم الله– هذه المنهجية المُهمة، فكانت من معالم منهجهم في التلقي والتعليم والفهم، وذلك بأن يبدأ طالب العلم في سُلَّم التدرج أولاً بتعلم أدب الطَّلب، ثم حفظ القرآن الكريم، ثم يتنقل بعد ذلك بين العلوم، الأهم فالأهم، والأوجب فالأوجب، وقد كان السلف– رحمهم الله– يبدؤون بالتَّأدُّب والتَّعبُّد أولاً، ويحفظ الطالب أثناء ذلك كتاب الله، ثم يشرع بعد ذلك في طلب العلم على أهله المعروفين.

---

(١) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية(١/٧١-٧٥).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٧٣).

(٣) المرجع السابق(٣/٣٧٠).

(٤) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(١/٧٣)، رقم ٥٤، وهذا الأثر مروي عن أبي بكر بن عياش.

قال الحافظ الكبير عبد الرحمن بن أبي حاتم- رحمه الله-:" لم يدعني أبي أطلب الحديث حتى قرأت القرآن على الفضل بن شاذان[1]"[2]، وقال سفيان الثوري- رحمه الله-:"كان الرجل لا يطلب الحديث حتى يتأدَّب ويتعبَّد قبل ذلك عشرين سنة"[3]، وقال مالك بن أنس- رحمه الله- لفتىً من قريش:" يا ابن أخي، تعلَّم الأدب قبل أن تتعلَّم العلم"[4]، وقال ابن وهبٍ[5]- رحمه الله-:"ما نقلنا من أدب مالك أكثرَ ممَّا تعلَّمنا من علمه"[6]، وهذا الإمام أحمد – رحمه الله- "كان يجتمع في مجلسه خمسة آلاف أو يزيدون، أقلُّ من خمسمائة يكتبون، والباقي يتعلمون منه حسن الأدب، وحسن السَّمت"[7].

وجميع العلماء والناصحين والمصنفين من أهل العلم يتفقون على مبدأ التَّدرج في الطَّلب، وأنَّ أولى الخطوات في ذلك هي الاهتمام والحفظ لكتاب الله ﷻ، يقول ابن عبد البر- رحمه الله-:" طلبُ العلم درجاتٌ ومناقلٌ ورتبٌ، لا ينبغي تعدِّيها، ومن تعدَّاها جملةً، فقد تعدَّى سبيل السلف رحمهم الله، ومن تعدَّى سبيلهم عامداً ضلَّ، ومن تعدَّاه مجتهداً زلَّ، فأوَّل العلم حفظ كتاب الله ﷻ وتفهمُه، وكلُّ ما يُعين على فهمه فواجبٌ طلبه معه"[8]، وقال ابن حجرٍ العسقلاني- رحمه الله-:" وكذا تعليم العلم ينبغي أن يكون بالتدريج؛ لأنَّ الشيء إذا كان في ابتدائه سهلاً حُبب إلى من يدخل فيه، وتلقَّاه بانبساطٍ، وكانت عاقبته غالباً الازدياد، بخلاف ضدِّه"[9]، ويقول ابن الجوزي- رحمه الله-: "وأولُ ما ينبغي أن يُكلَّف حفظ القرآن متقناً؛ فإنه يثْبُت، ويختلط باللحم والدم، ثمَّ مُقدِّمةً من النَّحو، يعرف بها اللَّحن، ثمَّ الفقه مذهباً وخلافاً، وما أمكن بعد هذا من العلوم، فحفظُه حسنٌ"[10]، ويقول ابن خلدون- رحمه الله-:"اعلم أنّ تعليم الولدان للقرآن شعار الدّين، أخذ به أهل الملّة، ودرجوا عليه في جميع

---

(١) الفضل بن شاذان بن الخليل، أَبُو مُحَمَّد الأَزْدي النيسابوريّ، عالم بالكلام، له نحو ١٨٠ كتابا، منها:"الرد علي ابن كرّام"، و"الإيمان"، و"محنة الإسلام"، و"الرد على الغلاة"، والرد على الباطنية والقرامطة، وتوفي ٢٦٠هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٤١٣/١)، والكامل، لابن الأثير(٨٥/٦)، والأعلام، للزركلي(١٤٩/٥).

(٢) تذكرة الحفاظ، للذهبي(٣٤/٣).

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني(٣٦١/٦).

(٤) المصدر السابق(٣٣٠/٦).

(٥) عبد الله بن وهب بن مسلم الفهري بالولاء، المصري، أبو محمد، فقيه من الأئمة، من أصحاب الإمام مالك، جمع بين الفقه والحديث والعبادة، له كتب، منها: "الجامع" في الحديث، والموطأ في الحديث، وكان حافظا ثقة مجتهدا، وتوفي بمصر ١٩٧هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٢٧٩/١)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(٧١/٦)، والأعلام، للزركلي(١٤٤/٤).

(٦) سير أعلام النبلاء، للذهبي(٨/ ١١٣).

(٧) الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح(١٢/٢).

(٨) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، باب رتب الطلب وكشف المذهب (١١٢٩/٢).

(٩) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر(١٦٣/١).

(١٠) صيد الخاطر، لابن الجوزي(٢٥٧/١).

أمصارهم، لِما يسبق فيه إلى القلوب من رسوخ الإيمان وعقائده، فالقرآن أصل التَّعليم الذي يُبنى عليه ما يحصل بعدُ من المَلَكَات"[1]، ويقول ابن خلدون- رحمه الله- أيضاً: "اعلم أن العلوم المُتعارفة بين أهل العُمران على صنفين، علومٌ مقصودةٌ لذاتها كالشرعيات، من التفسير، والحديث، والفقه، وتسمى علوم المقاصد، وهي علومٌ مخدومةٌ، وعلومٌ هي وسيلةٌ آليَّةٌ لهذه العلوم، وهي التي يُتَوصل بها إلى فهم الكتاب والسنة، كالعربية، وأصول الفقه، ومصطلح الحديث، وغيرها وتُسمَّى علوم الآلة أو علوم الوسائل، وهي علومٌ خادِمةٌ، فأمَّا علوم المقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها، وتفريع المسائل، واستكشاف الأدلَّة والأنظار، فإنَّ ذلك يزيد طالبها تمكُّناً في ملكته، وإيضاحاً لمعانيها المقصودة، وأمَّا العلوم التي هي آلةٌ لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالهما، فلا ينبغي أن يُنظر فيها إلَّا من حيث هي آلةٌ لذلك الغير فقط، ولا يُوسَّع فيها الكلام؛ لأنَّ ذلك مُخرِجٌ لها عن المقصود، إذ المقصود منها ما هي إلا آلةٌ لفهم الشَّرعيات، فإذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فمتى يظفرون بالمقاصد؟"[2].

ويُبيِّن الإمام النَّووي- رحمه الله- منهجية التَّدرج بوضوحٍ فيقول:" فعلى طالب العلم أن يبتدئ أولاً بحفظ كتاب الله العزيز حفظاً مُتقناً، فهو أصلُ العلوم وأهمُّها، وكان السَّلف لا يُعلِّمون الحديث والفقه إلا لمن حفظ القرآن، وإذا حفظه فليحذر من الاشتغال عنه بغيره من العلوم، كالحديث والفقه اشتغالاً يؤدِّي إلى نسيان شيءٍ منه، أو تعريضِه للنِّسيان؛ بل يتعهد دراسته، وملازمة وردٍ منه كلَّ يومٍ دائماً أبداً، ويجتهد بعد حفظه على إتقان تفسيره وسائر علومه، ثمَّ يحفظ في كلِّ فنٍّ مُختصرا يجمع فيه بين طرفيه، ويُقدِّم الأهمَّ فالأهم، ومن أهمها الفقه والنحو، ثمَّ الحديثُ وعلومُه، والأصول، ثم الباقي على ما تيسَّر، ثمَّ يشتغل باستشراح محفوظاته على المشايخ، وليحذر من الاعتماد على الكُتب ابتداءً؛ بل يعتمد من الشيوخ في كلِّ فنٍّ أكثرهم تحقيقاً فيه، وتحصيلاً منه، وأحسنُهم تعليماً، ولا يقرأ في كتبٍ لا يحتملُها عقلُه ولا تصوُّره، والمطالعة في التصانيف المتفرقة يُضيِّع الزَّمان، ويُفرِّق الذِّهن؛ بل يُعطي الكتاب الذي يقرأه، والفنَّ الذي يأخذُه كليَّتَه حتى يُتقنه"[3].

فأول ما يبدأ به طالب العلم من العلوم هو تعلُّم فروض الأعيان؛ حتى يعرف العلم والعمل بها، ثمَّ يتدرج بعد ذلك في فروض الكفاية، وجزئيات العلم، ويُفضل ابتداؤه بعلوم الغاية أو علوم المقاصد، وهي العقيدة والفقه والتفسير والحديث، المبنيَّة على الأدلَّة من الكتاب والسنة، وفهم السلف الصالح، ولا بد له أن يُرطِّب قلبه بالمُرقِّقات والمُزهِّدات[4].

---

(١) تاريخ ابن خلدون(١/٧٤٠).

(٢) انظر: المرجع السابق(١/٧٣٨).

(٣) العقد التليد في اختصار الدر النضيد، لعبد الباسط الدمشقي(١/١٥٦).

(٤) انظر: اللقاء الشهري، لابن عثيمين(٣٨/١٢).

فالحاصل ممَّا سبق أنَّ منهج السلف هو التَّدرج في طلب العلم؛ للوصول إلى ملكة الفهم الكامل عند الطالب والدارس للعلم، وهذه عادة المُتقدِّمين أنَّهم يضعون العلم على مراتب، "ولا يمكن لطالب العلم أن يضبط العلم ويكون عالماً، إلَّا إذا ربط العلم بصغاره قبل كباره، وهذا أمرٌ مهمٌ في كلِّ الفنون"(١)، وإنَّ عدم تفطن طالب العلم لهذه المنهجية في الطَّلب ربما يكون من مُعوِّقات طلب العلم؛ بل ربما يكون من أسباب ترك العلم بالكُليَّة، وقد وقع بعض طلبة العلم في هذا؛ وذلك لأنَّه لم يأتِ العلم من أبوابه، فمن يبتدأ بالقراءة في الكُتب الكبار التي يكون فيها غموضٌ لا شكَّ أنَّه سيُواجهه الكثير من المشاكل، بخلاف ما لو ابتدأ بالكُتب السَّهلة الواضحة، ثم تدرَّج إلى أن يصِلَ للكُتب الكبيرة.

ومن مراعاة مبدأ التدرج في طلب العلم مراعاة الأولويات والأهم في طلب العلم، وقد نبهنا الباري ﷻ على ذلك بقوله:﴿ **الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾[الزُّمر:١٨] ، وعن عبد الله بن عباسٍ رضي الله عنه أنَّه قال:" العلم أكثر من أن يُحصى، فخذوا من كلِّ شيءٍ أحسنه"(٢)، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه:"إنَّ العلم كثيرٌ، والعمر قصيرٌ، فخُذْ من العلم ما تحتاج إليه في أمر دينك، ودع ما سواه، فلا تعانه"(٣)، وقال الشعبيِّ- رحمه الله-:" العلم أكثر من عدد القطر، فخذْ من كلِّ شيءٍ أحسنه"(٤)، وقال ابن الجوزي- رحمه الله-: "على طالب العلم أن ينظر فيما يحفظ من العلم، فإنَّ العمر عزيزٌ، والعلم غزيرٌ، وإنَّ أقوامًا يصرفون الزَّمان إلى حفظ ما غيرُه أولى منه، وإن كان كلُّ العلوم حسنًا؛ ولكنَّ الأولى تقديم الأهمِّ والأفضل"(٥)، وصدق القائل حين قال:

ما أكثرَ العلم وما أوسعَه ... من ذا الذي يقدر أن يجمعَه

إن كنتَ لا بُدَّ له طالباً ... مُحاولاً فالتمس أنفعَه(٦).

وعلى طالب العلم أن يأخذ من كلِّ علمٍ بنصيب، دون نسيان العلوم الأخرى، فيأخذ شيئاً من كلِّ شيء، ويأخذ كلِّ شيء عن شيءٍ، وذلك بأخذ أساسيات كلِّ فن، ثمَّ الفن الذي يجد نفسه فيه قادراً على التَّعمُّق تبحَّر فيه، وعلى طالب العلم أن يُرَبِّ نفسه، ويُربِّ الناس على صغار العلم قبل كباره؛ فإن غذاء الكبار كما يُقال سُمُّ الصِّغار، فلو قدَّمت لقمة لحمٍ لرضيعٍ لربما تقتله؛ ولذلك لا بُدَّ من التزام مبدأ التَّدرج في طلب العلم للوصول إلى الفهم الكامل والصحيح للنُّصوص.

---

(١) شرح زاد المستقنع، للمختار الشنقيطي(٦/٢).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٤٣٧/١)، رقم ٦٦٩.

(٣) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، للأصبهاني(١٨٨/١).

(٤) المصدر السابق(٣١٤/٤).

(٥) صيد الخاطر، لابن الجوزي(١٩٣/١).

(٦) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٤٣٧/١)، رقم ٦٧١.

وبعد ذكر منهج السلف في الفهم لا بُدَّ من التنبيه أنَّ هناك أيضاً مجموعةً من النِّقاط هي من منهج السلف في فهم النَّص الدِّيني، ولكنَّ الباحث ذكرها سابقاً في أسباب الفهم ومعوقاته بالتَّفصيل، ولذلك لا حاجة للتِّكرار والإطالة، وسأذَّكر بها هنا بايجازٍ شديدٍ، وهي: الحرص على العلم النافع مع العمل الصالح، وأخذه عن أهله الثقات، والاعتماد على الكتاب والسنة في تلقيهما بفهم الصحابة، وعدم الخوض في علم الكلام والفلسفة، وعدم تقديم مقالاتٍ مُبتدَعةٍ، ومُقدماتٍ عقليةٍ، وجعلها حاكمةً على النَّص، ثمَّ التَّجُرد للحقِّ وتجنب الجدل والخصومات في الدِّين[١].

وهذه القواعد السابقة التي ذكرها الباحث بمجموعها، إضافةً إلى التزام أسباب الفهم، واجتناب معوقاته، كلُّ ذلك كان منهجاً واضحاً، وطريقةً مستقيمةً للسَّلف الصالح في فهم النُّصوص الدِّينية، والوصول إلى مراد الله ورسوله.

وختاماً أقول: إنَّ الانشغال بتعلم عقيدة السلف هو من أشرف ما تُقضى فيه الأوقات، وهو العلم النافع بلا شكٍّ، كما قال ابن رجب الحنبلي- رحمه الله-:" فالعلم النافع من هذه العلوم كلِّها، ضبطُ نصوص الكتاب والسنَّة، وفهمُ معانيها، والتقيُّدُ في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والرقائق، والمعارف، وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحِه من سقيمِه أولاً، ثمَّ الاجتهاد على الوقوف في معانيه وتفهُّمِه ثانياً، وفي ذلك كفايةٌ لمن عقل، وشغلٌ لمن بالعلم النافع عَنِي واشتغل"[٢]، رزقنا الله العلم النافع بفهمٍ وعملٍ، اللهم آمين.

(١) للزيادة والتفصيل في هذا الموضوع يحسن الإطلاع على كتاب: قواعد الإستدلال على مسائل الإعتقاد عند السلف، لعثمان علي حسن، فالكتاب كلُّه يتحدث عن هذه القواعد.

(٢) بيان فضل علم السلف على الخلف، لابن رجب الحنبلي(٦/١).

الفصل الثاني

منهج المدرسة العقلية القديمة في فهم النَّص الدِّيني

وفيه تمهيد ومبحثان:

التمهيد: العقل والنزعة العقلية.

المبحث الأول: المعتزلة ومنهجهم في فهم النص الديني .

المبحث الثاني: الأشاعرة ومنهجهم في فهم النص الديني.

التمهيد
العقل والنزعة العقلية

وفيه ثلاث مسائل:

أولاً: تعريف العقل والعقلانية.

ثانياً: مكانة العقل في الإسلام.

ثالثاً: نشأة النزعة العقلية وعلم الكلام في الأمة.

التمهيد: العقل والنَّزعة العقلية

أولاً: تعريف العقل والعقلانية

١- العقل في اللغة: العقل هو العلم، وهو ضدُّ الحُمْق، أو هو العلم بصفات الأشياء من حُسنها وقُبحها، وهو التمييز الذي به يتميز الإنسان من سائر الحيوان، والعقل: الحَجْر والنهي والمنع والإمساك والتثبُّت في الأمور، واشتقاقه من العقل لمنعه صاحبُه ممَّا لا يليق، وقصر النفس وحبسها على الحسن، أو من المَعْقل وهو الملجأ؛ لالتجاء صاحبه إليه[١].

وعليه فالعقل في اللغة يدل على العلم والحبس والمنع والإمساك.

٢- العقل في الاصطلاح: تختلف المفاهيم والتعريفات لمصطلح العقل بين الناس باختلاف مصادرهم ومشاربهم ومناهجهم، ويمكن ايجاز التعريفات على النحو التالي:

أ- العقل في القرآن والسنة: لقد جاء العقل في القرآن والسنة بمعنى الصِّفة أو الآلة التي تقوم بالعاقل، فيُميِّز بها، ويُدرك بواسطتها المُدرَكات، وهو مناط التكليف، والتفريق بين الخير والشر، والنافع والضار، إذا نظرنا إلى أقوال علماء التفسير في بيان معنى العقل ومشتقَّاته في القرآن الكريم، فإنَّنا سنجد أنَّ معناه يدور حول العلم والفَهْم والإدراك والتدبُّر، أو الآلة التي توصل إلى ذلك[٢]، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:"العقل في كتاب الله وسنة رسوله وكلام الصحابة والتابعين وسائر أئمة المسلمين هو أمرٌ يقوم بالعاقل، سواءً سُمِّي عَرضاً أو صفةً، ليس هو عيناً قائمةً بنفسها"[٣].

ويقول ابن الجوزي- رحمه الله:" فإنَّ أعظم النِّعم على الإنسان العقلُ؛ لأنَّه الآلةُ في معرفة الإله ﷻ، والسببُ الذي يُتوصَّل به إلى تصديق الرسل، إلَّا أنَّه لمَّا لم ينهض بكلِّ المُراد من العبد بُعثت الرُّسل وأُنزلت الكتب"[٤].

ب- العقل في اصطلاح فرق المسلمين: إنَّ العقل بالمعنى الإصطلاحي عند فرق المسلمين يقع بالاستعمال على أربعة معانٍ، وهي: الغريزةُ المُدرِكة، والعلومُ الضروريَّة، والعلومُ النظريَّة، والعمل بمقتضى العلم[٥].

---

(١) انظر: تاج العروس، للزبيدي(٣٠/١٨-٢٠)، ولسان العرب، لابن منظور(١١/٤٥٨-٤٥٩)، والمفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني(١/٥٧٨)، والمخصص، لابن سيده المرسي(١/٢٥٠).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير(١/٣٠٧)، وجامع البيان، للطبري(٢/٢٤٩)، والجامع لأحكام القرآن، للقرطبي(٢/٣)، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي(١/٥٦).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٩/٢٧١).

(٤) انظر: تلبيس إبليس، لابن الجوزي(١/٣).

(٥) انظر: مصادر الإستدلال على مسائل الإعتقاد، لعثمان حسن، ص ٦٣.

فالغريزة المدركة في الإنسان هي التي يُعلم بها ويُعقل، وهي فيه كقوَّة البصر في العين، وهي مناط التَّكليف، وبها يمتاز على سائر الحيوانات، والعلوم الضروريَّة هي التي تشمل جميع العقلاء، كالعلم بالممكنات والواجبات والممتنعات، والفلاسفة[1] وبعض المتكلمين قَصَروا العقل عليها، والعلوم النظريَّة هي التي تُحصَّل بالنَّظر والاستدلال، وتفاوت الناس وتفاضلهم فيها أمرٌ جليٌّ وواقعٌ، وأمَّا العمل بمقتضى العلم، فهو ثمرة العقل وفائدته، ولا عقل لمن لم يعمل بموجب ما هداه إليه عقله، وقد أشار كثيرٌ من أهل العلم إلى هذا المعنى في مواضع كثيرةٍ من مُصنفاتهم[2].

قال ابن تيمية– رحمه الله–:" والمقصود هنا أنَّ اسم العقل عند المسلمين وجمهور العقلاء إنَّما هو صفةٌ، وهو الذي يُسمَّى عَرضاً قائماً بالعاقل، وإذا كان كذلك فالعقل لا يُسمَّى به مجرد العلم الذي لم يعمل به صاحبه، ولا العمل بلا علم؛ بل إنَّما يُسمَّى به العلم الذي يُعمل به، والعمل بالعلم؛ ولهذا قال أهل النار: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾[الملك: ١٠]"[3]، وقد قيل لرجلٍ وصف نصرانياً بالعقل: "مه، إنَّما العاقل من وحَّد الله، وعمل بطاعته"[4].

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله–:" العقل في لغة العرب يتناول العلم والعمل بالعلم جميعاً، ومن أهل الكلام من يجعله اسماً لنوع من العلم فقط، فيقول: هو نوعٌ من العلوم الضرورية، ومن الناس من يريد به العمل بالعلم فقط، وقد يُراد بالعقل القوة التي في الإنسان وهي الغريزة التي بها يحصل له ذلك العلم والعمل به؛ ولهذا كان في كلام السلف كأحمد وغيره اسم العقل يتناول هذه الغريزة، والمقصود هنا أنَّ اسم العقل في اصطلاح جميع المسلمين؛ بل وجميع أهل الملل، وعامة بني آدم يُراد به ما هو قائمٌ بغيره، سواءً كان علماً أو قوةً أو عملاً بعلمٍ، أو نحوَ ذلك، لا يُراد به ما هو جوهرٌ قائمٌ بنفسه إلا في اصطلاح الفلاسفة"[5].

والتعريف الذي يرتضيه الباحث أنَّ العقل في الاصطلاح هو: الصِّفة أو الآلة التي تقوم بالعاقل، فيُميِّز بها، ويُدرك بواسطتها العلم، ومن ثمَّ يعمل بمقتضى هذا العلم ما ينفعه.

---

(١) الفلاسفة هم الذين يزعمون أنَّ العالم مفعول ومصنوع لشيءٍ يُسمَّى العقل الفعَّال، ويعدُّونه ربَّ الكائنات، ولازمٌ للواجب بنفسه، ومعلولٌ له، وأنه يلزمه نفس وعقل وفلك، ثم يلزم ذلك العقل عقل ونفس وفلك، إلى الوصول إلى العقل العاشر، وهم يقولون بقدم العالم، وأن علته مؤثرة بالإيجاب، وليست فاعلة بالاختيار، والغالب منهم ينكرون علم الله ﷻ، وحشر الأجساد. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(٧١/١)، (٤٨/٢).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي(٨٥/١–٨٦)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٨٧/٩–٣٠٥)،(٣٣٦/١٦)، ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٨٩/١)، والفقيه والمتفقه، للبغدادي(٢٠/٢).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٨٦/٩–٢٨٧).

(٤) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني(١٣٦/١).

(٥) الصفدية (٢٥٨/٢).

وينقسم العقل إلى قسمين:

أ- عقلٌ غريزيٌّ: يهبُه الله لمن يشاء من عباده فيُسمَّى عاقلاً، ويسلِبه عمَّن يشاء فيُسمَّى مجنوناً، وتسقط عنه التكاليف، فهو مناط التَّكليف، والنَّاس تتفاوت درجاتهم في هذا العقل بين المُعدَم منه كالمجنون، ثمَّ المعتوه، وهكذا إلى مَن به خِفةٌ، إلى أن يصلِوا إلى درجة العُقلاء(١).

ب- عقلٌ مُكتسَبٌ: والمراد به العلمُ والفَهْم؛ بل هو عملُ ونتاجُ العقل الغريزي، ومتولدٌ منه، ولا ثمرة ولا فائدة للعقل الغريزي إن لم يكن عقلاً مُتحرِّكاً مُنتجاً، وهذا العقل هو الذي خصَّه القرآن الكريم بالخطاب، قال الراغب الأصفهاني- رحمه الله-: "وكلُّ موضعٍ ذمَّ الله فيه الكفار بعدم العقل، فإشارةٌ إلى الثاني دون الأول، مثل قوله ﷻ:﴿ **وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ** ﴾[البقرة:١٧١]، ونحو ذلك من الآيات، وكلُّ موضعٍ رُفع فيه التكليف عن العبد لعدم العقل فإشارةٌ إلى الأوَّل"(٢).

٣- تعريف العقلانية: تعدَّدت تعريفات العقلانية كثيراً، ويرى الباحث أنَّها تدور حول نفس المضمون، **وهو تقديم العقل في الحكم على الأشياء**، فجاء في تعريفها، أنّض العقلانية هي:

أ- "القول بأوليَّة العقل في الحُكم على الأشياء، وتقديمُه على غيره، وأنَّ كلَّ ما هو موجودٌ فهو مردودٌ إلى مبادئ عقليةٍ"(٣).

ب- "الاتجاهات والمذاهب التي تجعل العقلَ المصدر الأوَّل أو الأساس أو المُقدَّم في مصادر المعرفة والفكر والدِّين، أو تقدِّمُه، وتُحَكِّمُه على الوحي"(٤).

ج- "التفسير العقلاني لكلِّ شيءٍ في الوجود، أو تمرير كلِّ شيءٍ في الوجود من قناة العقل؛ لإثباته أو نفيه، أو تحديد خصائصه، وهو مذهبٌ قديمٌ في البشرية، يبرز أشدَّ ما يبرز في الفلسفة الإغريقية القديمة"(٥).

د- وتطلق العقلانية في المصطلح الإسلامي على أولئك الذين يُجوِّزون تقديم العقل على النَّقل، وعلى نصوص الشرع، وخاصةً في أمور العقيدة والغيب(٦).

---

(١) انظر: شرح الكوكب المنير، لابن النجار الحنبلي(٨٦/١).

(٢) المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهاني(٥٧٨/١).

(٣) المعجم الفلسفى، كمال صليبا، (٩١/٢). بتصرف يسير

(٤) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١٥.

(٥) مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب(٥٠٠/١).

(٦) انظر: الاتجاهات العقلانية، لناصر العقل، ص١٦.

٤- **أقسام العقلانيين:** ينقسم العقلانيون إلى صنفين:

أ- **الصنف الأول:** المتكلمون من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة الذين يعتمدون العقليات، ويُقدِّمونها على كلام الله ﷻ، وكلام رسوله ﷺ، ويتبعهم طوائف من أهل الكلام، ممن يخلطون بين العقليات والنقليات، ويُحكِّمون العقليات في بعض مسائل العقيدة وأمور الدين، كالأشاعرة، والماتريدية[(١)]، ومتأخري الرافضة والخوارج ونحوهم، وهؤلاء هم أصحاب المدرسة العقلية القديمة[(٢)].

ب- **الصنف الثاني:** أصحاب الاتجاهات العقلانية الحديثة، وهم من مشارب شتى، بعضُها امتدادٌ للمدرسة العقلية القديمة، وبعضُها مُقلِّدٌ للاتجاهات الغربية، كالعلمانيين والحداثيين والعصرانيين ونحوِهم، الذين يجمعُهم النزوع إلى تقديم أحكام العقل البشري على أحكام الله تعالى العليم الخبير[(٣)].

٥- **منزلة العقل عند العقلانيين:** إنَّ العقل عند العقلانيين مُقدَّسٌ؛ ولذلك يقولون: "لو وُجد المُعارِض العقلي، لقُدِّم على الدليل النقلي قطعاً"[(٤)]؛ بل وقالوا:" إذا تعارض العقل والنَّقل، وجب تقديم العقل، ثمَّ النقل إمَّا أن يُتأوَّل، وإما أن يُفوَّض، وهذا الكلام قد جعله العقلانيون قانوناً كليّاً فيما يُستدلُّ به من كتب الله ﷻ وكلام أنبيائه- عليهم السلام-، وما لا يُستدلُّ به؛ ولهذا ردُّوا الاستدلال بما جاء به الأنبياء والمرسلون في صفات الله ﷻ، وغير ذلك من الأمور التي أُنبأوا بها، وظنَّ هؤلاء أنَّ العقل يُعارضها"[(٥)]، وسأكتفي بمثالٍ واحدٍ لبيان خطر هذه النَّزعة العقليَّة، وهو أنَّ المعتزلة قرَّروا أنَّ الإنسان هو الذي يخلق فعل نفسه، فهو الذي يُقرِّر أنَّه سيفعل المعصية، أو سيفعل الخير أو غير ذلك، وأنَّ الله لا يعلم شيئاً عن ذلك إلا بعد فعل العبد للفعل، وهذا إنكارٌ لعلم الله ﷻ، ويترتب عليه نسبة الجهل إلى الله ﷻ، أو أنَّ علمه قاصرٌ لا يُحيط بكلِّ شيءٍ، ويخالفون بذلك صريح القرآن والسنة، وهذه القاعدة العقلية عند المعتزلة تتعارض معها نصوصٌ كثيرةٌ منها سورةُ المسد التي أثبتت أنَّ أبا لهبٍ سيعيش كافراً ويموت كافراً، وسيصلى نار جهنَّم، كما قال ﷻ:﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ**﴾[المسد١-٣]، ولما نزلت السورة كان أبو لهبٍ على ظهر الأرض حيَّاً، وكان من الممكن أن يقول: الله يقول أنَّي من أهل النار، إذاً: سأؤمن وأكون من

---

(١) المَاتُرِيدية: طائفة تنتسب إلى أبي منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، كان هو وشيوخه على مذهب الإمام أبي حنيفة، تُعد هذه الفرقة شقيقة الأشعرية؛ وذلك لما بينهما من الائتلاف والاتفاق حتى لكأنهما فرقة واحدة، وهم يقولون بأزلية التكوين، وهي الصفة الثامنة التي تضيفها الماتريدية على الصفات السبع عند الأشاعرة. انظر: العرش، للذهبي(١/٦٨)، وانظر: لوامع الأنوار البهية، للسفاريني(١/٢٧٤).

(٢) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص ١٧.

(٣) المرجع السابق، ص ١٧.

(٤) فصول البدائع في أصول الشرائع، للفناري(١/٣١).

(٥) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/٤-٥).

أهل الجنة، لكنَّ الله قد كتب في علمه أنَّ هذا الإنسان سيُعاند ويموت مُعانداً، ويكون من أهل النار، فوجد المعتزلة أنَّ هذه السورة تُعارض عقولهم، فحاولوا أن يُحرِّفوا السورة ما استطاعوا، فقد روي عن عمرو بن عبيد[١] وهو من رؤس المعتزلة أنَّه قال: "والله لوددتُ أن أَحُكَّ سورة تبَّت من المصحف، وأنكر أنَّها في اللوح المحفوظ"[٢].

فالعقل عند هؤلاء مُقدَّمٌ على كل شيءٍ، حتى لو ترتَّب على ذلك أن تُلغى السورة كاملةً من القرآن؛ لكي يُقرِّر فكره العقلاني.

٦- **تسمية العقلانيين بالمدرسة:** تتردد كثيراً ألفاظ المدرسة الفكريَّة، أو الإتجاه الفكريّ، أو المنهج الفكري، ويحسُن التمييز بينها، كما يلي:

أ- المدرسة الفكرية هي: "عنوانٌ لإطارٍ مرنٍ، يضمُّ العديد من الأشخاص الذين تجمعهم أصولٌ يتَّفقون عليها، ومنطلقاتٌ ينطلقون منها، وغايةٌ يرومون تحقيقها"[٣].

ب- أمَّا الاتِّجاه فهو: "مجموعة مبادئ وآراءٍ مُتصِّلةٍ ومُنسَّقةٍ لفكرٍ أو مدرسةٍ، ومنه المذاهب الفقهية والأدبية والعلمية والفلسفية"[٤].

والفرق بين الاتجاه والمنهج أنَّ المنهج أخصُّ من الاتجاه، إذ هو الطريق الواضح الذي يبيِّن كيفية تطبيق القضايا الكليَّة التي تحكم الاتجاه، فالإتجاه عامٌ وصفيٌّ، أمَّا المنهج فهو خاصٌ تطبيقيٌّ، وللحصول على الاتجاه، يلزم التعرُّف على الجزئيات، وإعمال النظر في المنهج[٥].

وأَّما عن تسمية هذه الاتجاهات العقلية مدرسةً؛ فلأنَّها ينطبق عليها مدلول مصطلح المدرسة الفكرية، فهم يجمعهم الوصف والإطار العام لهذا المصطلح، فهي مدرسةٌ من حيث وحدة أصولها ومنطلقاتها العامة، ووحدة منهجها ونشأة أساليبها، وإن اختلفت الأشكال والتعابير، ووحدة أهدافها وغاياتها الكبرى، وإن اختلفت في بعض الجزئيات والمرحليات، وهي كالمدرسة بالمفهوم التعليمي الشائع، التي تحوي مجموعةً من التخصُّصات، حيث لا يلزم أنَّ كلَّ من فيها على مستوىً واحدٍ، وهدفٍ واحدٍ، واتجاهٍ واحدٍ، إنَّما يجمعُهم المنهج العام، والهدف العام للمدرسة، ولا يمنع هذا أن يكون بين أفرادها المُنحرف الشديدُ الانحراف، والمعتدلُ، بل لقد ضمَّت بعض المفكرين والمثقفين الإسلاميين، وأساتذة الجامعات[٦]، وهذا لا يعني أنَّهم على باطلٍ مُطلقٍ؛ بل ربَّما يكون عندهم كثيراً من الحقِّ،

---

(١) عمرو بن عُبيد بن باب التيمي بالولاء، أبو عثمان البصري، شيخ المعتزلة، ومفتيها، وأحد الزهاد المشهورين، من مصنفاته: التفسير، والرد على القدرية، توفي سنة: (١٤٤هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٥/٨١).

(٢) جامع الرسائل، لابن تيمية(١/١٧٨-١٧٩).

(٣) الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية في مصر وبلاد الشام، لمحمد أسود، ص ٢٥.

(٤) المعجم الفلسفي، مجموعة من المؤلفين، ص ١٧٤.

(٥) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي، ص٢٢.

(٦) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٠-٢٢.

ولكن وجب التنبيه إلى ما وقعوا فيه من طوام في مخالفة المنهج الحق، وتقديمهم عقولهم على النُّصوص الصريحة، والعقائد الواضحة؛ لئلا يكون ذلك فتنةً لمن جاء بعدهم، وليكون ذلك أداءً لأمانة الدعوة إلى الله، وتبيين الحق، كما قال ﷻ:﴿ **وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ**﴾[آل عمران:١٨٧]، ولذلك فعندما يذكر الباحث رأياً عقلانياً لشخصيةٍ من الشخصيات فيه مخالفةٌ لما عليه السلف، ويُفنِّد الباحث هذا القول ويردُّ عليه، فهذا لا يعني أنَّ الباحث قد حكم على هذا الشخص بأنَّه عقلانيٌ بكلِّ ما للكلمة من معنىً وتبعاتٍ ولوازمٍ، ولكنَّها أمانة الكلمة والدعوة بإنصافٍ وعدلٍ، ومن غير تنقُّصٍ وتشفٍ من المخالفين، فلا صلة لكلام الباحث بتقييم الأشخاص وما لهم وما عليهم، بقدر ما له صلةٌ ببيان معالم المنهج العقلي، وأثرِه على الأمة قديماً وحديثاً؛ لاستنقاذ أنفسنا ومن له علينا حقُّ الدَّعوة والبيان من الوقوع في هذه الأخطاء التي وقع فيها من نزع إلى هذه النزعة الخطيرة.

ثانياً: مكانة العقل في الإسلام

إنَّ العقل نعمةٌ عظيمةٌ من نعم الله ﷻ، ومكْرُمةٌ منه لبني آدم، تُميِّزه عن سائر الحيوان والجماد، غير أنَّ هذا التكريم لا يتحقَّقُ إلَّا إذا كان العقل مُهتدياً بوحي الله، محكوماً بشرع الله، وبذلك ينجو صاحبُه من الضلال، ويهتدي إلى الحق، أمَّا إذا كان العقل مُقدَّماً على وحي الله، حاكماً على شرع الله، فقد ضلَّ صاحبه سواء السبيل، ومن هنا وقف الإسلام موقفاً وسطاً تجاه العقل، فلم يتخذ مسلك الفلاسفة والمعتزلة الذين غالوا في تقديس العقل، وجعلوه الأصل لعلومهم ومعارفهم، وسبيل الوصول إلى الحقائق، والحكم المُقدَّم على النَّقل والشرائع، كما أنَّ الإسلام لم يتخذ مسلك الصوفية والرافضة، الذين ذمُّوا العقل وعطَّلوه، واعتقدوا ما لا يُقبل ولا يُعقل من الحماقات والخُرافات، فإنَّ الإسلام كمنهجٍ ربانيٍ أنزله اللطيف الخبير اتخذ مسلكاً وسطاً تجاه العقل، حيث عرف للعقل قدرَه، فوضعه في مكانه اللائق به بلا إفراطٍ ولا تفريطٍ[(١)].

فالعقل هو أداةٌ ووسيلةٌ لمعرفة وتمييز ما ينفع الإنسان في أمور معاشه ومعاده، يقول القرطبي: " والصحيح الذي يعول عليه أن التفضيل إنما كان بالعقل الذي هو عمدة التكليف، وبه يعرف الله ويفهم كلامه، ويوصل إلى نعيمه وتصديق رسله، إلا أنه لما لم ينهض بكل المراد من العبد بعثت الرسل وأنزلت الكتب. فمثال الشرع الشمس، ومثال العقل العين، فإذا فتحت وكانت سليمة رأت الشمس وأدركت تفاصيل الأشياء"[(٢)].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٣٨-٣٤٠).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي(١٠/٢٩٤).

إنَّ العقل هو أحدُ الضروريَّات الخمس، التي جاءت الشريعة بحفظها، والتي لا بدَّ منها لقيام مصالح الدِّين والدُّينا، وقد حفظت الشريعة جانب العقل من نواحٍ كثيرة، ومن ذلك أنَّه لمَّا كان العلم النافع يزيد من قوة إدراك العقل، ويزيد من عمق تفكيره، جعل منه الإسلام ما يجب تعلُّمه على كلِّ مُكلَّفٍ، سواءٌ كان ذكراً أو أنثى، وهذا العلم منه ما هو فرض عينٍ لا يُعذر أحدٌ بجهله، ومنه ما يكون فرض كفايةٍ، وكذلك حفظت الشريعة المُطهَّرة العقل من كلِّ ما يُؤثِّر فيه بشكلٍ سلبيٍّ، ويتضح ذلك في تحرم الإسلام الجناية على العقل بالضرب والترويع، وجعل الدِّية كاملةً على من تسبب في إزالته، يقول ابن قدامة المقدسي- رحمه الله-:" وفي ذهاب العقل الدِّية، لا نعلم في هذا خلافاً"(١).

ومن حفظ الإسلام للعقل كذلك، النهيُّ عن كلِّ ما يُؤثِّر على وظائفه، ومن ذلك تحريم شرب الخمر، وكلِّ مسكرٍ، قال القرطبي- رحمه الله-: "إنَّ السُّكر حرامٌ في كل شريعةٍ؛ لأنَّ الشرائع مصالح العباد لا مفاسدها، وأصل المصالح العقل، كما أنَّ أصلَ المفاسد ذهابُه، فيجبُ المنع من كلِّ ما يُذهبه أو يُشوِّشه"(٢).

ومن القواعد المعلومة في هذا الدِّين الحنيف، أنَّ العقل مناط التكليف في الإنسان، وإذا زال العقل زال التكليف، فالتكليف يدور مع العقل وجوداً وعدماً، يقول الشاطبي- رحمه الله-:"إنَّ مورد التكليف هو العقل، وذلك ثابتٌ قطعاً بالاستقراء التام، حتى إذا فُقدَ ارتفع التكليف رأساً، وعُدَّ فاقدُه كالبهيمة المُهملَة"(٣)، ومن هنا تتبيَّن أهمية العقل ومكانتُه في الإسلام.

وقد جاء في القرآن والسنة أدلةٌ كثيرةٌ تُبيِّن مكانة العقل في الإسلام، فلم يهمل الإسلام العقل قط؛ بل وجَّهه إلى النَّظر والتفكير، والبحث والتدبير في غير آيةٍ من آيات الكتاب العزيز، فقال ﷻ:﴿ **كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الأَلْبَابِ**﴾[ص:٢٩]، وقال ﷻ:﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[محمد:٢٤]، ووصف ﷻ أهل العلم والفهم بالخشية فقال:﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ**﴾[فاطر:٢٨]، وكثيراً في القرآن ما يذكر الله ﷻ نعمه، ويذكر آياته التي تدلُّ على وجوده، وعلى ضرورة عبادته، ثم يقول:﴿ **أَفَلَا تَعْقِلُونَ**﴾[المؤمنون:٨٠]، وفي كتاب الله آياتٌ كثيرةٌ تُثني على من أعمل عقله واستعمله فيما خُلق له، كما في قوله ﷻ:﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ**﴾[العنكبوت:٤٣].

---

(١) المغني، لابن قدامة(٤٦٥/٨).

(٢) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي(٢٨٧/٦).

(٣) الموافقات، للشاطبي(٢٠٩/٣).

ومن هذا المنطلق أقبل المسلمون على علوم الدِّين والدُّنيا، ينهلون منها ويُعلِّمون، ويأخذون ويُعطون، حتى علا قدرُهم في المعارف كافَّةً، وأصبحت حواضر البلدان الإسلامية مراكزَ ثقافيةً، وقامت فيها جامعاتٌ علميةٌ يؤمُّها الطلبة من مختلف أنحاء العالم، وغدت مكتباتُها مراجعَ ينهل منها كلُّ من عرف قيمة الكتاب، فالإسلام قد رفع قيمة العقل، وأعلى من شأنه، وجعل التَّعقل والتَّفكير من طرق المعرفة، وجعل العقل مناط التكليف، ووسيلة الفهم؛ بل وذمَّ أولائك الذين عطَّلوا عقولهم؛ فلم ترشدهم لاتِّباع الحقِّ والهداية فهلكوا، كما قال ﷻ:﴿ **وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ** ﴾[الملك:١٠].

وبناءً على ما سبق فالعقل في الإسلام له منزلةٌ كبيرةٌ، ودرجةٌ رفيعةٌ، وليس هناك عقيدةٌ تحترم العقل الإنساني، وتعتمدُ عليه في ترسيخها كالعقيدة الإسلامية، وليس ثمَّة كتابٌ خاطب العقل، ورفع من قدره وكرامته ككتاب الإسلام، وعند النظر إلى آيات القرآن الكريم نجد عبارات﴿ **لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُون** ﴾،﴿ **لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُون** ﴾،﴿ **لِقَوْمٍ يَفْقَهُون** ﴾، تتكرر عشرات المرات، مؤكِّدةً المنهج القرآني الفريد في الاقناع العقلي، وأنه من أهم وسائل فهم نصوص الوحي، وكلُّ هذا يؤكِّد ما للعقل من منزلةٍ كبرى في الإسلام(١)، ولكنَّ "القرآن الكريم عندما يدعو العقل للتفكُّر والتَّأمل، فإنَّه لا يريد منه أن يقف عند حدود التَّأمل والنَّظر فحسب، فليس ذلك بمرادٍ لذاته؛ بل ليعبر منه إلى ثمرته وفائدته؛ فيُقوِّم به عقيدته، ويُرسي أركانها، ويُثبِّت قواعدها ثباتًا لا تُزعزعه هبات ورياح الشَّهوات؛ وحينئذٍ يكون الفلاح، وحينئذٍ يكون الإيمان الحق(٢).

إنَّ كلَّ هذا التَّكريم للعقل، وكلَّ هذه المكانة التي جعلها الشرع للعقل، لا تعني أن نجعل العقل في مقام الحاكم على النُّصوص الشرعية، ونُحمِّله ما لا يُطيق ممَّا يعجز عن إدراكه، ولا طاقة له به؛ فمن كرامة العقل ألا يُقحم فيما لا يُطيقه، ومن هنا اتَّهم الخصوم السَّلف– رحمهم الله– بأنَّهم ردُّوا تقريرات العقل حينما لم يقبلوا الأوهام التي يُسمِّيها غيرُهم عقليَّات، فقد جعل الإسلام للعقل حدوداً لا يتعدَّاها، ومن المُسَّلم به لدى العقلاء أنَّ العقل البشري كغيره من أعضاء الإنسان له طاقةٌ محدودةٌ، واختصاصٌ مُعيَّنٌ، ومن الخطأ والعبث أن يُطالب بما فوق طاقته، وأن يُطالب كذلك بما هو خارجٌ عن اختصاصه، فإذا حُمِّل فوق طاقته كان نصيبُه العجز والهلاك، وإذا استُعمل خارج نطاق اختصاصه، حاد عن الصواب، وكان نصيبه التخبُّط والانحراف.

---

(١) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي(٢/ ٧٠٩).

(٢) انظر: المصدر السابق(٢/ ٧١١).

يقول السفاريني[1]- رحمه الله-:" فإنَّ تسليط الفكر على ما هو خارجٌ عن حدِّه تعبٌ بلا فائدة، ونصبٌ من غير عائدة، وطمعٌ في غير مطمع، وكدٌّ من غير منجع"[2]؛ ولذلك فإنَّ هناك أموراً محجوبةً عن العقل، هي في طيِّ الغيب وسرِّ القدر الذي لا يعلمُه إلا علَّام الغيوب، والعقل السليم الواعي يُسلِّم لهذه الحقيقة، ويقرُّ بضرورة الإلتزام والتسليم لشرع الله ﷻ وحُكمه، واتِّباع وحيه الذي جاء عن طريق الأنبياء والمرسلين؛ وذلك لأنَّ العقل مهما أُوتي من القدرة والطاقة، فإنَّه لن يصل إلى أفضل ممَّا جاء عن الله من الوحي والهُدى؛ وعليه فتقديم العقل البشري القاصر على شرع الله وقوله وحُكمه، وإخضاعُ نصوص الوحي الإلهيِّ لمقرَّرات العقل البشري، نقصٌ وخللٌ وانحرافٌ عن الحقِّ والهدى، وعن السبيل القويم[3].

وقد حَدَّ الإسلام للعقل حدودًا لا يتجاوزُها رحمةً به، وحذَّره من الولوج فيما لا يستطيع إدراكُه؛ خشيةً عليه، وحرصاً على سلامته؛ حتى لا يضلَّ، وكيف له وهو المخلوق أن يُدرك ذات الخالق؟!؛ بل أنَّى له أن يُدرك كلَّ المخلوقات؟!، وهو لا يدرك نفسه، فليجتهد فيما يستطيع إدراكه، وما أعظمَه من توجيهٍ حين قال ﷻ:﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾[الإسراء:٨٥]، فقد صرف الجواب عن ماهيَّتها؛ لأنَّه ليس من شئون العقل ولا من مداركه، وهذا هو التوجيه السَّديد؛ حتى لا يتيه العقل فيما ليس من دركه، وليس من طاقته، وهذا بلا شك تكريمٌ وأيُّ تكريمٍ[4].

٢- تنبيهان:

أ- قد يتوهم البعض عند سماع كلام أهل العلم عن منزلة العقل من النص، أنَّ الإسلام يمقت العقل أو الفكر، أو ينتقص منهما، ويهضمهما قيمتهما، والحقَّ أنَّ الأمر على خلاف ذلك؛ فعندما حظر الإسلام على العقل الخوض فيما لا يقدر عليه من أمور الغيب، وألزمه التَّسليم، إنَّما فعل ذلك إشفاقاً على هذا العقل الكريم من العماية في متاهات المجهول، الذي لا طاقة للعقل بإدراكه؛ لأنَّه إن أقحم نفسه في غير ما سُمح له، خرج عن نطاق الواجب عليه، ولن يعود عليه فعله ذلك إلا بالحرج والعيِّ والعنت العقلي والنَّفسي، والخروج عن نطاق مصلحة الإنسان في معاشه ومعاده؛ ولذلك فإنَّ الإسلام

---

(١) محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، شمس الدين، أبو العون، عالم بالحديث والأصول والأدب، محقق، ولد في سفارين من قرى نابلس، من كتبه: الدراري المصنوعات في اختصار الموضوعات، وكشف اللثام شرح عمدة الأحكام، ولوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، وتوفي ١١٨٨ هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(١٤/٦).

(٢) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني(١٠٥/١).

(٣) انظر: الإتجاهات العقلانية المعاصرة، لناصر العقل، ص٦- ٧.

(٤) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، للرومي(٢/ ٧١٣).

احترم هذا العقل وأراحه من الخوض في الغيب، فجاءه الوحي يُخبره عمَّا فيه صلاحه من أصول العقيدة السليمة، وأمور الغيب، ورسم له سبيل الخير والسعادة، وأطلق لعقله فيما سُوى ذلك الحرية في التفكُّر والتأمُّل؛ بل وأوجب عليه النَّظر والتَّأمل في خلق الله وآلائه، وفتح له من مجالات البحث والفكر والتأمل والنظر في ملكوت السماوات والأرض ما يكفي لانشغال العقل، وإشباع رغبة التَّطلع والإنتاج المفطورة فيه[1]، ولقد أثبت التاريخ عملياً أنَّ الإسلام هو الذي دفع العقل البشري إلى النَّظر والبحث والإستنتاج، وحرَّره من الخُرافة والجمود والأوهام؛ فازدهرت الحضارة الإسلامية، وآتت أُكلها الطيب؛ بل وهل عرف الغرب أنَّ لهم عقولاً إلا حين تتلمذوا على المسلمين، ونهلوا من علومهم، ولذلك فإنَّ تخلُّف المسلمين في العصور المتأخِّرة كان بسبب انحرافهم عن الدِّين، وهيمنة البدع على عقولهم وأعمالهم[2].

ب- قد يلتبس الأمر على البعض، إذ يقول أليس الإنتساب إلى العقل شرفٌ؟، وهل أخطأ العقلانيون في انتسابهم للعقل؟، وهل معنى ذلك أنَّ غيرهم يُعادون العقل أو يرفضونه؟، أليس الإسلام هو دين العقل؟، وهل جاء في الإسلام ما يُخالف العقل؟، أو جاء العقل بما يُبطل شيئاً من الإسلام؟، والجواب على ذلك كلِّه، أنَّه لا يلزم إذا ما اتَّصفت طائفةٌ بصفةٍ مُعينةٍ، أن يكون اتِّصافُها بها حقيقةً، كما لا يلزم من تجرُّد اسمها من هذه الصفة خُلُوُّها منها، وقِسْ على هذا الملل والنحل والمذاهب والمناهج، فكثيرًا من هذه وتلك لا صلة لها بأسمائها، فمثلًا المعتزلة في العصر القديم، يُسمُّون أنفسهم أهل التوحيد!، وهل التوحيد الحقيقيُّ يعترف بأنَّ كل إنسان يخلق فعله، أم هو الاعتراف بأنَّ الله ﷻ هو الخالق لكلِّ شيءٍ؟!، ومثلًا الخوارج، يصفون أنفسهم بأنَّهم "الشُّراة"، يزعمون أنَّهم اشتروا أنفسهم ابتغاء مرضاة الله، وهل شراؤها يكون بقتال عليٍّ ﷺ ومن معه من الصحابة الكرام؟!، إذًا فلا يلزم من رفع الشِّعار الدلالة على الالتزام به؛ وعليه فوصف العقلانية لا يُفيد أصحابه رفعةً، لا لأنَّ العقل مذمومٌ، لكن لأنَّهم أُشتهروا بتقديم العقل على الشرع، فجعلوا الشرع هو المحكوم، واستهانوا بدين الله، بدعوى الرأي والعقل والفكر[3].

ثالثاً: نشأة النزعة العقلية وعلم الكلام في الأمة

١- نشأة المدرسة العقلية القديمة:

إنَّ أوَّل شبهةٍ واعتراضٍ عقليٍّ حدث مقابل أمر الله ﷻ، ما وقع من إبليس حين اعترض على أمر ربِّه عندما أمره بالسجود لآدم، فردَّ إبليس أمر ربه معترضاً:﴿ **قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ**﴾[ص:٧٦]، وبهذا الاعتراض بدأت بذور الشرِّ بين الناس، وسار على هذه النَّزعة

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٨- ٣١.

(٢) انظر: المصدر السابق، ص٣٢.

(٣) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي(٢/ ٧٠٦).

العقلية من خالف دعوة الرسل والأنبياء، فردُّوا أمر الله ﷻ بعقولهم، كما قال الله عن حالهم: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾[هود:٢٧]، وهكذا استمرَّ الانحراف بين أفراد البشرية، بسبب اتّباع البعض أهوائهم، وتقديمهم أقيستهم العقلية على شرع الله ﷻ وحُكمه، وأكثرُ الناس انحرافاً في هذا الجانب؛ بل وجرأةً على الله ورسله هم بنو إسرائيل، الذين كان لهم أثرٌ كبيرٌ في تحريف التوراة والإنجيل، ثمَّ بذر الإتجاهات العقليَّة في الإسلام[١].

وأمَّا عن نشأة الاتجاهات العقلية في هذه الأمَّة، فقبل بعثة النبي محمد ﷺ كان الناس يعيشون في ضلالٍ وظلامٍ، وقد أظلمت الأرض وتفرَّق أهلها في الباطل فرقاً وأحزاباً لا يجمعُهم جامعٌ، فقد فقدوا نور النُّبوة، ورجعوا إلى مُجرد الهوى والعقول، وكانوا كما قال ﷺ: **(إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم، إلَّا بقايا من أهل الكتاب)**[٢]، وعندها أطلع اللهُ شمسَ الرسالة في تلك الظُّلم سراجاً منيراً، فأبصر النَّاسُ بنور الوحي ما لم يكونوا بعقولهم يُبصرونه، ورأَوا في ضوء الرسالة ما لم يكونوا بآرائهم يرَونه، فمضى الجيل الأول في ضوء ذلك النور، لم تُطفئه عواصف الأهواء، ولم تلتبس به ظُلم الآراء، فكان من شأن الصحابة ﷺ أنَّهم لم يُقدِّموا عقولهم بين يدي الله ورسوله ﷺ؛ بل كان دليل أحدهم إذا استدلَّ، إنَّما هو آيةٌ من كتاب الله أو سنَّة نبيِّه ﷺ، وكان أحدهم يغضب إذا عُورض حديثُ رسول الله ﷺ بقول غيرِه من البشر، كائناً من كان، وإذا أُشكل على أحدهم شيئاً ردَّه إلى الله والرسول؛ ليستقيم له الفهم والحق[٣]، وبذلك أوصوا من بعدهم أن لا يفارقوا ذلك النُّور، وأن لا يخرجوا عن طريقتهم[٤].

وفي الاتجاه المقابل كان المنهج العقلاني يتمثَّل بدايةً في اعتراضات المشركين في زمن النُّبوة على رسول الله ﷺ وعلى الرسالة والوحي، وقد تصدَّى القرآن لهذه الاعتراضات، وقضى عليها بشكلٍ حاسمٍ، ثمَّ تمثَّلت الاعتراضات العقليّة بشكلٍ أكبرَ في شُبه المنافقين ودسائسهم داخل المجتمع الإسلامي، فقد عارضوا حُكم الله ورسوله، وحكَّموا عقولهم وأهوائهم ومصالحهم الشخصيَّة، ﴿وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾[غافر:٥]، ومواقفهم مع رسول الله ﷺ كثيرةٌ ومستفيضةٌ،

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٥- ص٣٦.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم ٢٨٦٥.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(١٠٥٢/٣) .

(٤) انظر: المرجع السابق(١٠٦٨/٣) .

وقد صوَّر القرآن أساليبهم في ذلك وفضحهم، حتى قال الله في حقِّهم: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾[التوبة:٦٥].

وقد لحق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى والمنافقون بين ظهراني المسلمين، يحاولون بثَّ الفُرقة والشُّبهات بين الصفِّ المسلم، ولكن لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، ففي زمن السَّلف الأوائل عرف المسلمون ما للعقل فدرسوه، وما ليس له فاجتنبوه؛ بل واجتنبوا مَن عُرف بالأهواء والسؤال عن المتشابه، كما في قصة صبيغ بن عسل حين جعل يسأل عن متشابه القرآن؛ فضربه عمر بن الخطاب ﷺ وأعاده إلى أرضه، وكتب إلى أبي موسى الأشعري ﷺ: ألَّا يُجالسه أحدٌ من المسلمين، فأصبح لو جاء والناس مائةٌ مجتمعين لتفرَّقوا عنه[1]، وما زال أمر المنافقين غير ظاهرٍ حتى جاء عبد الله بن سبأٍ اليهودي[2]، فأظهر الإسلام في خلافة عثمان ﷺ، وتجرَّأ لإظهار شُبهاتٍ فرَّقت المسلمين، وجرَّأت المنافقين، فألَّب الناس هو ومجموعةٌ من المفسدين على أمير المؤمنين عثمان ﷺ حتى ثار عليه بعض المفسدين وقتلوه وهو يقرأ القرآن في بيته، ثمَّ أسفرت جهود الكائدين والمنافقين عن الفتنة المشهورة بين الصحابة ﷺ، والتي أسفرت عن خروج أوَّل الفِرق وهم الخوارج الذين كفَّروا الصحابة، واستباحوا دماء المسلمين[3]، ثم أظهر ابن سبأٍ القول بوصيَّة رسول الله ﷺ بإمامة عليٍّ ﷺ وذرِّيتِه، وبذلك استخفَّ قوماً حديثي عهدٍ بكفر، وآخرين في قلوبهم مرضٌ، فبدأت بدعة التشيُّع والرفض[4]، وعندها رفع المنافقون والحاقدون رؤوسهم وأشعلوا الفتنة بين المسلمين، وانفتح بذلك بابُ الجُرأة العقليَّة، وإظهارِ البدع والآراء الشاذَّة، حتى ظهر القول بنفي القدرِ، وأوَّلُ من قال به في الأمَّة مَعْبَدُ الجُهَنِي[5]، ثم غَيلان الدِّمشقي[6]،

---

(١) انظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر(٦/٣٨٥).

(٢) عبد الله بن سبأ، أصله من اليمن، وكان يقال له "ابن السوداء" لسواد أمه، قيل: كان يهوديا وأظهر الإسلام، دخل دمشق في أيام عثمان بن عفان، فأخرجه أهلها، فانصرف إلى مصر، وجهر ببدعته، من مذهبه القول بألوهية علي، والقول برجعة النبي ﷺ، قيل أنَّ علياً نفاه إلى المدائن، وقيل حرقه بالنار، وتوفي ٤٠هـ. انظر: لسان الميزان، لابن حجر(٣/٢٨٩)، والأعلام، للزركلي(٤/٨٨).

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٩/٨٩-٩٢)،(٤/١٨).

(٤) انظر: المرجع السابق(٤/١٠٢).

(٥) مَعْبَد بن عبد الله بن عويمر الجهني البصري، أول من قال بالقدر في زمن الصحابة، في البصرة، بعد المجوسي سِيسَويه، ونقله إلى المدينة، وعنه أخذ غيلان، وكان معبد ثقة في الحديث، من التابعين، توفي سنة: (٨٠هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٤/١٨٥-١٨٧).

(٦) غيلان بن مسلم الدمشقي، وهو ثاني من تكلم في القدر ودعا إليه بعد معبد الجهنيّ، وكان قد نهاه عمر بن عبد العزيز عن أقواله هذه ومنعه من نشر شكوكه وأوهامه؛ ولكنه عاد داعياً إلى بدعته بعد موت عمر، فأمر هشام بن عبد الملك بقتله على فتوى من التابعين سنة (١٠٥هـ)،.انظر: الأعلام، للزركلي(٥/١٢٤).

وقد أخذا ذلك عن رجلٍ نصرانيٍّ يُقال له: سوسن أو سِيسَوَيْه[١]، وكانت أفكاره امتداداً للأفكار النصرانية واليهودية الموروثة عن اليونان، قال الأوزاعي- رحمه الله:" أوَّلُ من نطق في القدر رجلٌ من أهل العراق يقال له سوسن، كان نصرانياً فأسلم، ثمَّ تنصَّر، فأخذ عنه مَعبد الجُهني، وأخذ غَيلان عن معبد"[٢].

ثمَّ بعد أن اشتهرت آراء غيلان الدمشقي العقليَّة عن نفي القدر، ونفي الصفات، وأنَّ القرآن مخلوقٌ، تلقَّى هذه الأفكار من بعده الجَعدُ بن دِرهم[٣]، والجَهم بن صفوان[٤]، فقال الجعد بن درهم بخلق القرآن، وأظهرا تعطيل الصفات، وأنَّ الله لم يُكلِّم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً، قال الإمام الذهبي- رحمه الله-:" كان النَّاس في عافيةٍ وسلامةٍ وفطرةٍ حتى نبغ جهمٌ، فتكلَّم في الباري ﷻ، وفي صفاته بخلاف ما أتت به الرسل، وأُنزلت به الكتب، نسأل الله السَّلامة في الدِّين"[٥].

ثم تابع الجعد والجهم على طريقهما عمرو بن عبيدٍ، وفي تلك الفترة لم ينتشر أمر الفرق؛ بل كان أصحاب هذه الآراء يُطاردون ويُقتلون، ولم تكن لهم أصولٌ شاملةٌ مُقعَّدةٌ يجتمعون عليها، حتى جاءت المعتزلة مع بداية القرن الثاني، فجمعت أصولهم، ونشأت أوَّل فرقةٍ لها وجودٌ ونفوذٌ ومبادئ يجتمعون عليها، فكانت أجرأ الفرق في إعلان آرائها العقليَّة، ثمَّ تبعتها بعد ذلك باقي الفرق الكلاميَّة[٦]؛ فصاروا يُعظِّمون فلاسفة اليونان، وينظرون إليهم نظرة تشريفٍ وتعظيمٍ، ويضعونهم في مرتبةٍ تقْرُب من عتبة النُّبوة، ثمَّ آمنوا بأقوالهم واعتبروها مُكمِّلةً لتعاليم دينهم، وانهمكوا في إظهار الاتِّفاق الجوهريِّ بينهما، ومحاولة التوفيق بين الدِّين الإسلامي وبين الفلسفة اليونانية.

إنَّ السبب الأكبر الذي جعل هؤلاء ينحون هذا الاتجاه العقلاني هو ضعفُهم في مجال الرواية، وجهلُهم بالسنن والأحاديث، وهذا الضعفُ ألجأهم إلى المعقولات؛ ليُعوِّضوا بها ما عندهم من نقصٍ،

---

(١) سِيسَويه البقَّال، أبو يونس، من أبناء المجوس. انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٧/٣٨٤)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(٣/٥٩١).

(٢) انظر: الشريعة، للآجري(٢/٩٥٩)، وشرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(٤/٨٢٧)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي(٥/١٠٤).

(٣) الجعد بن درهم أول من ابتدع بأنَّ الله ما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولا كلَّم موسى تكليماً، وكان الجعد زنديقاً، شهد عليه ميمون بن مهران، فطلبه هشام، فظفر به، وسيَّره إلى خالد القسري في العراق، فقتله يوم النحر ١١٨هـ.انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٦/١٥١)، والأعلام، للزركلي(٢/١٢٠).

(٤) الجهم بن صفوان، المُتكلِّم الضال، رأس الجهمية وأساس البدعة، كان ينكر صفات الربِّ ﷻ، وينزهه بزعمه عن الصفات كلِّها، ويقول بخلق القرآن، ويزعم أنَّ الله ليس على العرش، بل في كل مكان، وأنَّ الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل به، وأنَّ الجنَّة والنار تفنيان وتبيدان، وقتل جزاءً على بدعته حدود الثلاثين ومائة. انظر: الفرق بين الفرق، للأسفراييني، ص١٩٩. وانظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم(٤/١٥٥).

(٥) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي(٣/٣٨٩).

(٦) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص ٣٩.

ويسدُّوا بها ثغرات مذهبهم، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ:" إنَّ أصحاب الرأي أعداء السُّنن، أعيتهم أن يحفظوها، وتفلَّتت منهم أن يعوها، واستحيوا حين سُئلوا أن يقولوا: لا نعلم، فعارضوا السُّنن برأيهم، فإيَّاكم وإيَّاهم"[١]، وممَّا صرفهم أيضاً عن السُّنن إلى تلك المعقولات هو حبُّ التمايز عن الآخرين، وشهوةُ الانفراد بشيءٍ غيرِ معروفٍ عند عامَّة الناس؛ ليُذكروا به، ولا يكونوا كغيرهم من جملة الناس، وهذا السبب لم يزل في الناس قديماً وحديثاً، ومن تدبَّر حال كثيرٍ من أهل البدع؛ لوجد النَّشأة الأولى لهم هذه الشَّهوة الخفيَّة، وقد وُفِّق الإمام الأصبهاني- رحمه الله- في وصف حالهم، فقال: "إنِّي تدبَّرت هذا الشأن فوجدتُ عِظم السبب فيه، أنَّ الشيطان صار بلطيف حيلته يُسوِّل لكلِّ من أحسَّ من نفسه بفضل ذكاءٍ وذهنٍ، يُوهمه أنَّه إن رضيَ في علمه ومذهبه بظاهر السنَّة، واقتصر على واضح بيانٍ منها، كان أسوة العامة، وعُدَّ واحداً من الجمهور والكافَّة، فحرَّكهم بذلك على التَّنطُّع في النَّظر، والتَّبدُّع بمخالفة السنَّة والأثر؛ ليتميزوا بذلك عن طبقة العوام، ويتميزوا في الرُّتبة عمَّن يرَونه دونهم في الفهم والذكاء، واختدعهم بهذه المقدِّمة حتى استزلَّهم عن واضح المِحجَّة، وأورطهم في شُبهاتٍ تعلَّقوا بزخارفها، وتاهوا في حقائقها، ولم يَخلُصوا منها إلى شفاء نفسٍ، ولا قبلوها بيقين علمٍ، ولمَّا رأوا كتاب الله ﷻ ينطق بخلاف ما انتحلوه، ويشهد عليهم بباطل ما اعتقدوه، ضربوا بعض آياته ببعضٍ، وتأوَّلوها على ما سنح لهم في عقولهم، ونصبوا العداوة لأخبار رسول الله ﷺ ولسننه المأثورة عنه، وردُّوها على وجوهها، وأساءوا في نَقَلَتِها المقالة، ووجَّهوا عليهم الظُّنون، ورموهم بالتزيُّد، ونسبوهم إلى ضعف المنَّة، وسوء المعرفة بمعاني ما يروونه من الحديث، والجهل بتأويله، ولو سلكوا سبيل القصد، ووقفوا عندما انتهى بهم التوقيف؛ لوجدوا برد اليقين، ورَوح القلوب، ولكثُرت البركة، وتضاعف النَّماء، وانشرحت الصدور، ولأضاءت فيها مصابيح النُّور، والله يهدي من يشاء إلى صراطٍ مستقيم"[٢].

٢- **نشأة علم الكلام:** إنَّ من المُتَّفق عليه، والمعلوم بداهةً أنَّ الله ﷻ قد أكمل الدِّين، وبيَّن للنَّاس ما يعتقدون، وكيف يسيرون، وبناءً عليه كان من الأمور المُقرَّرة عند أهل الحق، أنَّ كلَّ عقيدةٍ تُخالف الكتاب والسنَّة، وكلَّ منهجٍ ينحرف عنهما، هي عقيدةٌ فاسدةٌ، ومنهجٌ غير صالحٍ، وبالرغم من ذلك، إلَّا أنَّ التاريخ الإسلامي، مليءٌ بالفرق، والمذاهب، التي قامت على أُسسٍ عَقديةٍ، ذاتِ مناهج مُستحدثَةٍ، وطُرقٍ مبتكرةٍ، مُغايرةٍ لما عليه السلف، وعلى رأس هؤلاء المُتكلِّمون، أصحابُ المناهج الكثيرة، والعقائد المتباينة، الذين طلبوا الهداية بغير الكتاب والسنَّة، واعتمدوا العقل مصدرًا في تقرير مسائل الاعتقاد، فكانت النتيجة الفُرقة والاختلاف، وتهميش الحق، وتمزيق أواصر المجتمع المسلم، إضافةً إلى التَّذبذب في الاعتقاد، وعدمِ الرُّسوخ على عقيدةٍ مُعينةٍ، حيث جعلوا دينهم عُرضةً للخُصومات، فأكثروا التَّنقُّل بين المذاهب والتيارات.

(١) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، باب ما جاء في ذم القول في دين الله تعالى،(١٠٤٢/٢)، رقم ٢٠٠٣.
(٢) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، لقوام السنة الأصبهاني(٤٠٤/١).

ولم يكن الصحابة ﭫ في الصدر الأوّل يألون جهدًا في سؤال النبي ﷺ عن كلِّ ما يحتاجون إليه في العقيدة، والعبادات، والمعاملات، وفي سائر حياتهم، فكان حبل النبي ﷺ رابطًا لجميع أفكارهم ومعتقداتهم(١)، ولم يعرف الناس في ذلك الوقت سوى السنة، حيث كانت تمثِّل منهج فكرهم وحياتهم (٢)، وفي أواخر عصر الصحابة ﭫ، ظهر الكلام في بعض مسائل العقيدة، ولم يكن بعدُ قد اتَّضحت معالمُه، ولكن ظلَّ الكلام في هذه الحِقبة في بعض جوانب العقيدة دون البعض، حتى إجتمعت بعد ذلك هذه الأصول التي تكلَّم فيها المتكلمون، ولُملِم شتاتُها، وظهر علم الكلام، الذي يمثل الشقَّ والطرف المخالف لأهل السنة في إثبات وتقرير العقائد، ابتداءً على أيدي المعتزلة(٣)، فوُضعت قواعدُه في عهد المأمون(٤)، فقد كان مجلسه عامراً بأنواع المُتكلِّمين في العلوم، فغلب عليه حبُّ المعقولات، فأمر بتعريب كتب اليونان، وأقدم لها المترجمين من البلاد، فعُرِّبت له، واشتغل بها النَّاس، وغلب على مجلسه جماعةٌ من الجهمية، فحشوا بدعة التَّجهُّم في أذنه وقلبه فقبِلها، واستحسنها، ودعا الناس إليها، وعاقبهم عليها(٥)، ومنذ ذلك الحين تميَّز المتكلمون بمغالاتهم في العقل ومقاييسه، وتقديمه على ما يُظنُّ مخالفاً له من النُّصوص الشرعيَّة(٦)، وقد خضع علم الكلام بعد ذلك لتطوراتٍ متعددةٍ، ساهم فيها أعلام أئمة الكلام ومؤسسوه(٧)، وقد "بلغ قمَّته في العهد العباسي عند ترجمة العلوم اليونانية والهندية والفارسية إلى اللغة العربية، وساعد على ذلك الزنادقة والمنافقون، فاختلطت المترجمات، فلقيت صدىً كبيراً في نفوس الكثير من الناس؛ حبَّاً في التَّرف العقلي، واغتراراً في الدَّخيل على أمَّة الإسلام"(٨)، وهكذا بدأ الكلام في مسائل الاعتقاد وإن كان مُفرَّقًا، لكنَّه أشبه ما يكون بالسَّيل، يبدأ قطراتٍ، ثمَّ ما يلبثُ أن يتجمع، ثم يُطبق بعد ذلك الأرض(٩)، كما جاء في وصفهم أنَّهم "يبدءون فيكونون مرجئةً، ثم

---

(١) انظر: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، لمصطفى حلمي، ص٦٦.

(٢) انظر: العين والأثر في عقائد أهل الأثر، لابن فقيه فُصَّة، ص٦.

(٣) انظر: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، لمصطفى حلمي، ص٢٣-٣٦، ولوامع الأنوار البهية، للسفاريني(٤/١).

(٤) عبد الله بن هارون الرشيد بن محمد المهدي ابن أبي جعفر المنصور العباسي، المأمون، الخليفة، أبو العباس، كان عالمًا، فصيحًا، مفوهًا، قرأ العلم، والأدب، والأخبار، والعقليات، وعلوم الأوائل، وأمر بتعريب كتبهم، وبالغ في ذلك، وتوفي سنة: (٢١٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(١٠/٢٧٢-٣٠٦).

(٥) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم(٣/١٠٧٢).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١/٤٧٨).

(٧) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، لمانع الجهني(٢/١٠٩٧).

(٨) انظر: الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، لمحمد القحطاني، ص٩٥-٩٦.

(٩) انظر: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، للمقريزي(٤/١٩١)، والفرق الاسلامية الكلامية مدخل ودراسة، لعلي المغربي، ص١٠٠-١٠٢.

يكونون قدريَّةً، ثم يصيرون مجوساً"[1]، وكما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" فالبدع تكون في أولها شبراً ثم تكثُر في الاتِّباع حتى تصير أذرعاً وأميالاً وفراسخ"[2].

٣- تحذير السلف من علم الكلام: لقد أثبت علم الكلام في طريقته ومسالكه ضعفاً كبيراً، فهو عاجزٌ عن تلبية حاجات الإنسان الفطرية والروحية، كما أنَّه يفتقد إلى مُقوِّمات وجوده، وآليات بقائه، وخاصةً إذا لاحظنا الفرق الشاسع بين طريقة علم الكلام، وبين طريقة القرآن الكريم، في عرض العقيدة، فشتان بين صفاء القرآن، وظلام علم الكلام.

"لقد أدرك سلف هذه الأمة- رحمهم الله- أنَّ كتاب الله العزيز هو كتاب هدايةٍ، وليس كتاب فلسفةٍ، ونظرياتٍ فارغةٍ، لا تمسُّ الواقع"[3]؛ فاعتمد السَّلف على نصوص الكتاب والسنة كمصدرين أساسيين للعقيدة، والاستقامة والفلاح، "ووقفوا طويلًا أمام علم الكلام، نابذين أصحابه، مبتعدين عن الخوض فيه، ثمَّ دخلوا الميدان حينما قويت شوكة المعتزلة، فاضطروا اضطراراً إلى مجابهتهم لا سِيَّما عند محنة خلق القرآن، ولكن بمنهجٍ مُخالفٍ، فكانت طريقتُهم في الدِّفاع عن أصول الدين، مراعاةُ المعاني الصحيحة، والألفاظِ الشرعية، والردُّ على من تكلَّم بلفظٍ مُبتدعٍ، يحتمل حقَّاً وباطلاً"[4].

ولقد شهد أهل الكلام على أنفسهم بالتيه والحيرة، حتى إنَّ علماء الكلام أنفسَهم قد أقرُّوا بعجزه وضعف مسالكه، ومن ذلك أنَّ أبا حامدٍ الغزالي- رحمه الله- اعتبر أنَّ علم الكلام ليس من علوم الدِّين الأصليَّة؛ وإنَّما هو ضرورةٌ ألجأ العلماءَ إليها الردُّ على المبتدعة والفلاسفة، فيما خالفوا فيه ما جاء في نصوص الدِّين القطعية[5]، وفي ذلك يقول رحمه الله: "أمَّا مضرَّتُه فإثارة الشبهات، وتحريك العقائد، وإزالتها عن الجزم والتصميم، فذلك ممَّا يحصل في الابتداء، ورجوعُها بالدَّليل مشكوكٌ فيه، ويختلف فيه الأشخاص، فهذا ضرره في الاعتقاد الحقِّ"[6].

ويقول ابن تيمية- رحمه الله-:" ولو سُوِّغ للنَّاظرين أن يُعرضوا عن كتاب الله ﷻ، ويُعارضوه بآرائهم، ومعقولاتهم، لم يكن هناك أمرٌ مضبوطٌ يحصل لهم به علمٌ ولا هدىً"[7]، وهذا ما وقع فيه المتكلمون، فلم يصلوا إلى علمٍ، ولا هدىً.

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(٤/٧١٤).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٨/٤٢٥).

(٣) الولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، لمحمد القحطاني، ص٩٤.

(٤) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، لمصطفى حلمي، ص١٦١.

(٥) انظر: إحياء علوم الدين، للغزالي(١/٢٣).

(٦) قواعد العقائد، لأبي حامد الغزالي، ص٩٩-١٠٠.

(٧) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٦٨).

يقول ابن القيم- رحمه الله- عن ضرر علم الكلام: "وأخصُّ أوصافها أنَّها تُعطيك مناقضة الخصوم، واضطراب أقوالهم، وأمَّا أن تُعطيك علماً وهدىً فلا"[1].

ومن ضرر علم الكلام كذلك أنَّ "عقائد المتكلمين تُخالف صريح القرآن، وصحيح السنة، مخالفةً ظاهرةً، لا يمكن الجمع بينهما، وتُخالف اعتقاد المسلمين في الصدر الأول، وما تلاه من أهل القرون الفاضلة المفضَّلَة، وما عليه أهل السنة جميعًا بعد ذلك، غير أنَّ بُعْدَ المتكلمين من الحق وقربهم منه بقدر حظِّهم من علم الكلام، فمن زاد علمُه به، زاد بعدُه عن الحقِّ"[2]، ويظهر ذلك من خلال جرأة المتكلمين على نصوص الوحي، فما أجرأ المتكلمين على ردِّ نصوص القرآن الكريم وتأويلها؛ بسبب اعتمادهم على العقل، الأمر الذي أوقعهم في التناقض والشكِّ، حيث إن "وجود التناقض في المذهب، وفي طرق الاستدلال له يؤدي إلى عدم الثقة فيه"[3].

إنَّ علم الكلام قليل الفائدة، ممحوق البركة، وبسبب قلة الفائدة والبركة المتحصَّلة منه، يقول ابن قتيبة- رحمه الله-: "وقد كنتُ في عُنفوان الشباب، وتطلُّب الآداب، أُحبُّ أن أتعلَّق من كل علمٍ بسببٍ، وأن أضرب فيه بسهمٍ، فربَّما حضرتُ بعض مجالسهم، وأنا مغترٌ بهم، طامعٌ أن أصدر عنه بفائدةٍ، أو كلمةٍ تدلُّ على خيرٍ، أو تهدي لرشدٍ، فأرى من جُرأتهم على الله ﷺ وقلَّة توقيهم، وحملهم أنفسهم على العظائم؛ لاطِّراد القياس؛ أو لئلا يقع انقطاعٌ، ما أرجعُ معه خاسراً نادماً"[4].

ولم يألُ السَّلف- رحمهم الله- جُهدًا في التحذير من علم الكلام، وطُرقه، ومن عواقبه الوخيمة، التي تُفضي إلى الشكِّ، والحَيرة، والتَّذبذب في الاعتقاد، وخاصةً في وقت الاحتضار، يقول ابن القيم- رحمه الله-: "إنَّ أئمة الإسلام، وملوك السنة، لمَّا عرفوا أنَّ طرق المتكلمين إنَّما تنتهي إلى هذا، وما هو شرٌّ منه، تنوَّعوا في ذمِّها، والطعن فيها، وعيب أهلها، والحُكم بعقوبتهم، وإشهارهم، والتحذير منهم"[5].

وقد تضافرت أقوال أئمة السُّنة في النَّهي عن الاشتغال بعلم الكلام، قال الإمام أبو حنيفة- رحمه الله- وقد سأله سائلٌ: "ما تقولُ فيما أحدث الناس من الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال: مقالات الفلاسفة!!، عليك بالأثر وطريقة السلف، وإيَّاك وكلُّ مُحدَثةٍ فإنَّها بدعةٌ"[6]، وقال الإمام الشافعي- رحمه الله-: "لَأن يلقى الله ﷻ الفرد بكلِّ ذنبٍ ما خلا الشرك، خيرٌ من أن يلقاه بشيءٍ من

---

(1) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٤/١٢٧٧).

(2) قمع الدجاجلة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، لعبد العزيز الراجحي، ص٣٣٤.

(3) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٨٩١).

(4) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص١١٣-١١٤.

(5) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٤/١٢٦٣).

(6) ذم الكلام وأهله، للهروي(٥/٢٠٦).

الكلام"[١]، وقال الإمام أحمد- رحمه الله-: "إنَّه لا يُفلح صاحب كلامٍ أبداً، ولا تكاد ترى أحداً نظر في الكلام إلَّا وفي قلبه دغلٌ"[٢]، وقال الإمام مالكٌ- رحمه الله-: "أرأيتَ إن جاء من هو أجدل منه، أيدعُ دينه كلَّ يومٍ لدينٍ جديدٍ"[٣].

وقد سار على نفس الطريقة في ذمِّ الكلام وأهله من جاء بعد هؤلاء الأئمة من أهل العلم والفضل، وأوصوا بالاعتصام بالكتاب والسنة، يقول ابن عبد البر- رحمه الله-: "أجمع أهل الفقه والآثار من جميع الأمصار، أنَّ أهل الكلام أهل بدعٍ وزيغٍ، ولا يُعدُّون عند الجميع في طبقات الفقهاء؛ وإنَّما العلماء أهل الأثر والتفقُّه فيه، ويتفاضلون فيه بالإتقان والميز والفهم"[٤].

وقال الإمام الذهبي- رحمه الله-: "اهربوا بدينكم من شُبه الأوائل، وإلَّا وقعتم في الحيرة، فمن رام النَّجاة والفوز، فليلزم العبودية، وليدمن الاستغاثة بالله، وليبتهل إلى مولاه في الثَّبات على الإسلام، وأن يُتوفى على إيمان الصحابة، وسادة التابعين، والله المُوفِّق"[٥].

وقد تعددت الفرق الكلامية إلى أصناف كثيرةٍ، ومناهج شتى، فلم تعد الفرق الكلامية متفقةً؛ بل اختلفت وتناحرت، وتنازعت في مُعتقداتها، ومناهجها؛ وذلك نظرًا لاعتمادها العقل في تقرير مسائل العقيدة، وسوف يجمل الباحث في هذا الفصل أهمَّ الفرق الكلاميَّة في التاريخ الإسلامي، وهما: المعتزلة والأشاعرة، مُبيِّناً في ذلك التَّعريفَ بكلِّ فرقةٍ، وأهمِّ عقائدها، ومنهجها في فهم النَّص الديني، ولن يتعرض الباحث لذكر بعض الفرق الكلامية الأخرى مثل الماتريدية والكُلَّابية[٦]، وغيرها؛ لأنَّها ليست في الشهرة والانتشار كالفرقتين السابقتين، ولأنَّ ذكر عقائد المعتزلة والأشاعرة، ومنهجهما، والردِّ عليهما يتضمن الردَّ على غيرهما من الفرق الكلامية.

---

(١) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية، لابن بطة(٢١٧/١).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٩٤٢/٢)، أثر رقم: (١٧٩٦).

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١٥٧/٧).

(٤) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٩٤٢/٢).

(٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي(٣٢٨/١٩-٣٢٩).

(٦) الكُلَّابِية: هم أتباع عبد الله ابن كُلَّاب، يقولون: إن أسماء الله هي صفاته، وإن صفاته ﷻ لا هي هو، ولا هي غيره، وإن الله ليس له كلام مسموع، وإن القرآن حكاية عن كلام الله ﷻ، وليس كلامه على الحقيقة. انظر: مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري(٢/ ٣٩٨). وانظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم(١٥٧/٤).

المبحث الأول
المعتزلة ومنهجهم في فهم النَّص الدِّيني

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالمعتزلة وبيان أصولها الاعتقادية.

المطلب الثاني: منهج المعتزلة في فهم النص الديني.

المطلب الثالث: موقف أهل السنة من المعتزلة.

المطلب الأول: التعريف بالمعتزلة وبيان أصولها الاعتقادية

أولاً: التعريف بالمعتزلة:

إنَّ المعتزلة فرقةٌ إسلاميةٌ نشأت في بداية القرن الثاني الهجري بالبصرة في أواخر العصر الأموي، وازدهرت في العصر العبَّاسي، وقد اعتمدت على العقل المُجرَّد في فهم العقيدة الإسلامية؛ لتأثرها ببعض الفلسفات المستوردة، ممَّا أدَّى إلى انحرافها عن عقيدة أهل السنَّة والجماعة(١)، وقد كان ظهورهم في أيام عبد الملك بن مروان(٢)، وهشام بن عبد الملك(٣)، حين اعتزل واصل بن عطاء(٤)مجلس الحسن البصري، وقد كان من تلاميذه؛ لأجل حُكم مرتكب الكبيرة(٥)، عندما دخل رجلٌ على مجلس الحسن البصري، فقال: "يا إمامَ الدين، لقد ظهرت في زماننا جماعةٌ يُكفِّرون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم كفرٌ يُخرَج به عن الملَّة، وهم وعيديَّة الخوارج، وجماعةٌ يُرجئون أصحاب الكبائر، والكبيرة عندهم لا تضرُّ مع الإيمان؛ بل العمل على مذهبهم ليس ركناً من الإيمان، ولا يضرُّ مع الإيمان معصيةٌ، كما لا ينفع مع الكفر طاعةٌ، وهم مرجئة الأمَّة، فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقاداً؟، فتفكَّر الحسن في ذلك، وقبل أن يُجيب، قال واصل بن عطاء: أنا لا أقول إنَّ صاحب الكبيرة مؤمنٌ مطلقاً، ولا كافرٌ مطلقاً؛ بل هو في منزلةٍ بين المنزلتين، لا مؤمنٌ ولا كافرٌ، ثم قام واعتزل إلى ناحيةٍ من المسجد يُقرِّر ما أجاب به على جماعةٍ من أصحاب الحسن، فقال الحسن: اعتزل عنَّا واصلٌ، فسُمِّي هو وأصحابه معتزلةً"(٦).

إنَّ نشأة الاعتزال كانت ثمرة تطوُّرٍ تاريخيٍّ لمبادئ فكريةٍ وعقديةٍ وليدة النَّظر العقليِّ المُجرَّد في النُّصوص الدِّينية وقد نتج ذلك عن التَّأثُّر بالفلسفة اليونانية والهندية والعقائد اليهودية والنصرانية،

---

(١) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، لمانع الجهني(٦٤/١).

(٢) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي، أبو الوليد، من أعاظم الخلفاء ودهاتهم، نشأ في المدينة، فقيهًا، واسع العلم، متعبدًا، ناسكًا، استلم الخلافة سنة: (٦٥هـ)، وكانت وفاته في دمشق، سنة: (٨٦هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٢٤٦/٤-٢٤٩).

(٣) هشام بن عبد الملك بن مروان، أبو الوليد، من ملوك الدولة الأموية في الشام، ولد في دمشق، وتمت له الخلافة سنة: (١٠٥هـ)، كان حسن السياسة، يقظًا في أمره، توفي سنة: (١٢٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٣٥١/٥-٣٥٣).

(٤) واصل بن عطاء، المعتزلي البصري، أبو حذيفة، كان أحد الأئمة البلغاء المتكلمين في علوم الكلام وغيره، وهو المؤسس الفعلي لمذهب الاعتزال، وكان يلثغ بالراء فيجعلها غينًا، فكان يتجنبها في كل كلامه، من مصنفاته: أصناف المرجئة، والتوبة، ومعاني القرآن، والمنزلة بين المنزلتين، والخطب في التوحيد والعدل، وتوفي سنة إحدى وثلاثين ومائة. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٧/٦)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي(٤٦٤/٥)، والأعلام، للزركلي(١٠٧/٨-١٠٩).

(٥) الإيمان بين السلف والمتكلمين، لأحمد الغامدي، ص١١٩.

(٦) الملل والنحل، للشهرستاني(٤٨/١).

فقد كان هناك جدلٌ دينيٌّ فكريٌّ، بدأ بمقولاتٍ جدليةٍ كانت هي الأُسس الأولى للفكر المعتزلي، مثل الأفكار التي كان يُنادي بها معبد الجُهني، وغيلان الدمشقي، والجَعد بن درهم، والجهم بن صفوان، من نفي القدر، والقول بخلق القرآن، وغيرها، ثمَّ برزت بعدها المعتزلة كفرقةٍ فكريَّةٍ لها مبادؤها وأصولها المُجتمعة[1]، ولا يصحُّ القول بأنَّ المعتزلة سُمُّوا بهذا الاسم نسبةً إلى الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة بين عليٍّ ومعاوية ﷺ؛ وذلك لأنَّ هؤلاء الصحابة الكرام ﷺ، "لم يُسمُّوا معتزلةً بالمعنى الاصطلاحي الذي نفهمه من مدلول هذه الكلمة، وإنَّما سُمُّوا بذلك بالمعنى اللُّغوي الدالِّ على التَّنحِّي عن الفتن طلباً للسَّلامة من الإثم، وصوناً للدِّماء"[2].

ثانياً: أسماء المعتزلة: يجد الباحث أنَّ العلماء لم يتفقوا على تسميةٍ واحدةٍ للمعتزلة، ولم يقتصر كذلك المعتزلة على تسميةٍ واحدةٍ لأنفسهم، فمن أسمائهم ما يلي:

١- المعتزلة وهو الاسم المشهور لهم، وقد بيَّن الباحث سابقاً سبب هذه التسمية، في حادثة اعتزال واصل بن عطاء لمجلس الحسن البصري.

٢- ويُسمَّون أيضاً بالجهميَّة، فقد أخذت المعتزلة مبادئ كثيرةً عن الجهمية، فأخذت عنهم القول بنفي رؤية الله ﷻ، ونفي الصفات، والقول بخلق القرآن، ولسبق الجهمية في الظهور؛ أطلق العلماء اسم الجهمية على المعتزلة؛ وذلك لأنَّ المعتزلة هم الذين أحيَوا آراء الجهمية في مبدأ ظهورهم[3].

٣- ويُسَمَّون أيضاً بالقدريَّة؛ بسبب موافقتهم القدريَّة في إنكار القدر، وإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم، وهم لا يرضون بهذا الاسم، ويرون أنَّه ينبغي أن يُطلق على الذين يقولون بالقدر خيرِه وشرِّه من الله ﷻ لا عليهم، ولكن ابن قتيبة- رحمه الله- يردُّ عليهم، ويبيِّن أنَّ نفي المعتزلة للقدر من الله ﷻ، وإضافته إلى أنفسهم يُوجب أن يُسمَّوا قدريةً؛ لأنَّ مُدَّعي الشيء لنفسه أحقُّ أن يُنسب إليه[4].

٤- ويُسمَّون أيضاً بالمجوسية والثنوية[5]، وهم ينفرون من هذا الاسم، والذي حمل المخالفين لهم على تسميتهم به هو مذهب المعتزلة نفسه، الذي يُقرِّر أنَّ الخير من الله، والشرَّ من العبد، وهو يشبه مذهب الثنوية والمجوس الذي يُقرِّر وجود إلهين، أحدهما للخير، والآخر للشر[6].

---

(١) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، لمانع الجهني(٦٥/١).

(٢) الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، للأسفراييني، ص١٨.

(٣) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٦٦).

(٤) انظر: تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة(١٣٧/١).

(٥) الثنوية هم الذين يقولون بإلهين اثنين للكون هما النور والظلمة، والنور عندهم هو إله الخير المحمود، والظلمة هي الإله الشرير المذموم، وتختلف الثنوية عن المجوس أنَّ الثنوية تقول بقدم الأصلين النور والظلمة، أما المجوس فتقول بقدم النور وحدوث الظلمة. انظر: الجواب الصحيح، لابن تيمية(٣٥١/١)، مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٩٧/٣)، الملل والنحل، للشهرستاني(٢٤٤/١)، وتلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص٥٩.

(٦) انظر: عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعظيم آبادي(٤٥٣/١٢).

٥- ويُسَمَّون أيضاً بالوعيديَّة، وهو ما اشتُهروا به من قولهم بإنفاذ الوعد والوعيد لا محالة، وأنَّ الله ﷻ لا يخلف في وعده ووعيده، فلا بُدَّ من عقاب المذنب عندهم، إلَّا أن يتوب قبل الموت؛ ولذلك يُنكرون الشفاعة[(١)].

٦- ويُسَمَون أيضاً بالمُعطِّلة، وهو اسمٌ للجهمية أيضاً، ثمَّ أُطلق على المعتزلة؛ لموافقتهم الجهميَّة في نفي الصفات وتعطيلها، وتأويل ما لا يتوافق مع مذهبهم من نصوص الكتاب والسنة[(٢)].

وهذه الأسماء لا يرتاح المعتزلة إليها ، ولا يُحبِّون التسمية بها، فاختاروا لأنفسهم أسماءً أخرى، وأخذوا يُدلِّلون على الأفضل في معناها، فيُسمُّون أنفسهم بالمعتزلة من باب اعتزال الشُّرور والمُحدثَات، واعتزال الفتن والمبتدعين، قلتُ: وهل وقعت الشُّرور والمحدثات والفتن والبدع إلا بسببهم هم وأمثالهم من المبتدعة، ويُسمُّون أنفسهم أيضاً بأهل العدل والتوحيد أو العدليَّة؛ لأنَّهم ينفون القدر عن الله ﷻ، أو أن تضاف إليه أفعال العباد القبيحة، وينفون الصفات غير اللائقة عن الله ﷻ، كما يزعمون، وهذا اسم مدحٍ اخترعوه لأنفسهم؛ لينشروا بدعتهم، وليستميلوا قلوب العوام إليهم، ويُسمُّون أنفسهم أهلَ الحقِّ؛ لأنَّهم يعتبرون أنفسهم على الحقِّ، ومن عداهم على الباطل، ويُسمون أنفسهم الفرقة الناجية؛ لينطبق عليهم ما ورد في فضائل هذه الفرقة، ويُسمُّون أنفسهم المنزِّهون الله؛ لزعمهم حين نفوا الصفات أنَّهم يُنزِّهون الله، وأطلقوا على من عداهم، وخصوصاً أهل السنة، أنَّهم مُشبِّهةٌ، بدعوى أنَّهم يُثبتون الصفات لله ﷻ، فيشبهونه بمخلوقاته[(٣)].

ثالثا: المعتزلة عبر التاريخ: لقد كان لهذه الطائفة صولةٌ وجولةٌ في تاريخ الأمَّة الإسلامية، ولقد تمكَّنوا وعلا شأنُهم وقتاً من الزمن، ففي العهد العباسي برز المعتزلة في عهد المأمون، حيث اعتنق الاعتزال عن طريق بِشرٍ المريسي[(٤)]، وأحمد بن أبي دؤاد[(٥)]، وهما من رؤوس بدعة الاعتزال في عصره، ورأس فتنة خلق القرآن، فقد كان ابن أبي دؤاد قاضياً للقضاة في عهد المعتصم، وفي فتنة خلق القرآن امتحن الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله-، فرفض الرضوخ لأوامر المأمون والإقرار بهذه

---

(١) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، لغالب عواجي(٣/ ١١٦٧).

(٢) انظر: المرجع السابق (٣/ ١١٦٨).

(٣) انظر: المرجع السابق(١١٦٩/٣).

(٤) بشر بن غياث بن أبي كريمة العدوي بالولاء، أبو عبد الرحمن، فقيه معتزلي، عارف بالفلسفة، يُرمى بالزندقة، وكان والده يهودياً، صنَّف الدارمي مجلداً في الرد عليه، توفي سنة: (٢١٨هـ)، قال الذهبي:"فهو بشر الشر، وبشر الحافي بشر الخير، كما أن أحمد بن حنبل هو أحمد السنة، وأحمد بن أبي دواد أحمد البدعة. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(٢٧٧/١-٢٧٨)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي(٣٣٦/٨).

(٥) أحمد بن أبى دؤاد بن جرير، أبو عبد الله القاضي، الإيادي، جمع بين التجهم والاعتزال، قال عنه الذهبي:"جهمي بغيض"، ولي القضاء للمعتصم والواثق، وحمل السلطان على امتحان الناس بخلق القرآن، وتوفي سنة: (٢٤٠هـ). انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي(٩٧/١)، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي(٣٦٥/٤).

البدعة، فسُجن وعُذِّب، وضُرب بالسِّياط، وبقي في السجن لمدة عامين ونصف، ولمَّا تولَّى المتوكل[1] الخلافة عام ٢٣٢هـ، انتصر لأهل السنة، وأكرم الإمام أحمد، وأنهى عهد سيطرة المعتزلة على الحُكم، ومحاولة فرض عقائدهم بالقوة خلال أربعة عشر عاماً[2].

وفـي عهد دولة بني بُوَيْه[3] الشِيعيَّةً، توطـدت العـلاقة بـين الشيعة والمـعتزلة، وأصبحت علاقةً متينةً؛ فارتفع شأن الاعتزال أكثر ممَّا مضى في ظل هذه الدولة، فقد عُيِّن القاضي عبد الجبار[4]– رأسُ المعتزلة وزعيمهم في عصره– قاضيًا لقضاء الرَّي[5]، عـام:(٣٦٠هـ)[6]، وبعد سقوط هذه الدولة كاد أن ينتهي الاعتزال كفكرٍ مُستقلٍّ، وجماعةٍ ظاهرةٍ، ولكن تبنَّت بعض الفرق كالشيعة والأشعريَّة والماتريديَّة معظم عقائدهم، فتحلَّل فكرُهم في المذاهب الأخرى[7]، ولكنَّ آراء هذه الطائفة لا تزال في بعض المجتمعات إلى اليوم، حتى وإن اختلفت في بعض الأحيان المُسمَّيات، ولا يزال الخصام بينهم وبين أهل الحقِّ قائماً على أشُدِّه، كما كان سابقاً في الزمن القديم، خصوصاً بعد ظهور العقلانيين الجُدد من الكُتَّاب والمفكِّرين بمفاهيمهم الباطلة، والذين يمثلون جزءاً من المدرسة العقلانية الحديثة[8]، وهذا ما سيبُيِّنه الباحث عند الحديث عنهم خلال هذا البحث.

---

(١) جعفر (المتوكل على الله) بن محمد (المعتصم باللَّه) بن هارون الرشيد، أبو الفضل، خليفة عباسي، ولد ببغداد، وبُويع بعد وفاة أخيه الواثق سنة ٢٣٢ هـ، وكان جوادا ممدحا محبا للعمران، لما استخلُف كتب إلى أهل بغداد كتاباً قُرئ على المنبر بترك الجدل في القرآن، ونقل مقر الخلافة من بغداد إلى دمشق، فأقام بهذه شهرين، فلم يطب له مناخها، فعاد وأقام في سامراء، إلى أن اغتيل فيها ليلاً، ولبعض الشعراء هجاء في المتوكل لهدمه قبر الحسين وما حوله، وتوفي ٢٤٧هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(١٢٧/٢).

(٢) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، لمانع الجهني(٦٦/١).

(٣) قامت الدولة البويهية في القرن الرابع الهجري(٣٣٤هـ إلى٤٧٧هـ)، وسيطرت على الدولة العباسية، أسسها أبو شجاع بويه، وأولاده الثلاثة: عماد الدولة، وركن الدولة، ومعزّ الدولة، حكمت في أصفهان، وشيراز، وكرمان، وبغداد، قضت عليها الدولة السلجوقية، وفيها ارتفع شأن المذاهب الضالة. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٣٣٤/١٣)، وانظر: تاريخ ابن خلدون(٣٦٩/١)، (٥٥١/٤).

(٤) القاضي عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار بن أحمد بن خليل الهمذاني، العلامة، المتكلم، شيخ المعتزلة، أبو الحسن الهمذاني، ولي قضاء الري، وتخرج به خلق في الرأي الممقوت، من مصنفاته: الأمالي في الحديث، دلائل النبوة، وطبقات المعتزلة، مات في ذي القعدة، سنة: (٤١٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(١٧/ ٢٤٤–٢٤٥).

(٥) "الرَّي": مدينة مشهورة تقع بين جُرْجَان، وطَبَرِسْتَان في منطقة الجبل، وهي اليوم: شمال إيران، جنوب شرق طهران، وجنوب بحر قزوين، فتحت في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، سنة ثلاث وعشرين. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي(١١٦/٣–١٢٣)، وانظر: البلدان، لليعقوبي، ص٨٩–٩٠.

(٦) انظر: الكامل في التاريخ، لابن الأثير(٤٧٠/٧).

(٧) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، لمانع الجهني(٦٦/١).

(٨) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، لغالب عواجي(١١٢٩/٣–١١٣٠).

رابعاً: الأصول والعقائد عند المعتزلة:

إنَّ أصلَ مقالة المعتزلة في نفي القدر والصفات ترجع في نهايتها إلى اليهود والصابئين والمشركين والفلاسفة الضالين، يذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- فيقول:" أصلُ هذه المقالة، إنَّما هو مأخوذٌ عن تلامذة اليهود والمشركين وضُلَّال الصابئين، فإنَّ أول من حُفظ عنه أنَّه قال هذه المقالة في الإسلام، - أي أنَّ الله ﷻ ليس على العرش حقيقةً، وأنَّ استوى بمعنى استولى، ونحو ذلك-، هو الجعد بن دِرهم، وأخذها عنه الجهم بن صفوان؛ وأظهرها فنُسبت مقالة الجهمية إليه،... وقد قيل: إنَّ الجعد أخذ مقالته عن أبَّان بن سمعان، وأخذها أبَّان عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وأخذها طالوت من لبيد بن الأعصم اليهودي الساحر الذي سحر النبي ﷺ، فإذا كان أصل هذه المقالة، أي: مقالة التعطيل والتأويل، مأخوذاً عن تلامذة المشركين والصابئين واليهود، فكيف تطيب نفس مؤمنٍ؛ بل نفس عاقلٍ أن يأخذ سبيل هؤلاء المغضوب عليهم أو الضالين، ويدع سبيل الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشهداء والصالحين"(١).

وبالرغم من اختلاف فرق المعتزلة وتعدُّدها، إلا أنَّها يجمعها إطارٌ عامٌّ، وأصولٌ خمسةٌ، يقوم مذهب المعتزلة عليها، وقد أجمعوا عليها فيما بينهم، واعتبروها الجامع الذي يجمعهم، والحدَّ الذي يمنع الالتباس بهم، وإن اختلفوا في كثيرٍ من المسائل الفرعية(٢)، وهذه الأصول الخمسة هي: التوحيد على طريقة الجهمية، وهو نفي الصفات، والعدل على طريقة القدرية، وهو نفي القدر، وباقي أصولهم على طريقة الخوارج، وهي أصل الوعد والوعيد، ويقصدون به أنَّ الله لا يغفر لمرتكب الكبيرة؛ بل هو مخلَّدٌ في النَّار، وأصل المنزلة بين المنزلتين، ويقصدون به أنَّ مرتكب الكبيرة لا يُسمَّى في الدنيا مؤمناً، ولا كافراً؛ بل هو في منزلةٍ بين المنزلتين، وأصل الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، ويقصدون به الخروج على الحكام إذا جاروا وظلموا(٣).

يقول أبو الحسين الخياط المُعتزلي(٤): "وليس يستحقُّ أحدٌ منهم اسم الاعتزال، حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٠/٥-٢٥).

(٢) انظر: الأصول الخمسة عند المعتزلة وموقف السلفيين منها، لصالح الشيبي، ص٢٨.

(٣) انظر: شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص١٢٨-١٤٨، وفرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٦٤-١١٦٥).

(٤) أبو الحسين، عبد الرحيم بن محمد بن عثمان، شيخ المعتزلة البغداديين، كان من بحور العلم، وله جلالة عجيبة عند المعتزلة، من مؤلفاته: نقض نعت الحكمة، الرد على من قال بالأسباب، والاستدلال. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٢٢٠/١٤).

والنهي عن المنكر، فإذا كمُلت في الإنسان هذه الخصال فهو معتزلي"[1]، وسوف يُبيِّن الباحث الأصول الخمسة للمعتزلة مع الردِّ عليها، بشيءٍ من التَّفصيل إن شاء الله تعالى.

١- **الأصل الأول/ التوحيد:** فإنَّهم يقصدون به البحث حول صفات الله ﷻ، وما يجب لله ﷻ، وما لا يجب في حقِّه، وقد حرص المعتزلة على إنكار صفات الله ﷻ؛ بحُجَّة أنَّ إثباتها يستلزم تعدُّد القدماء، وهذا شركٌ على حدِّ زعمهم، لأنَّ إثبات الصِّفات يوحي بجعل كلِّ صفةٍ إلهاً، والمخرج من ذلك بزعمهم هو نفى الصفات، وإرجاعها إلى ذات الباري ﷻ، فيقال: الله عالمٌ بذاته، قادرٌ بذاته، وهكذا، وبذلك يتحقَّق التوحيد في نظرهم، وبنوا على ذلك أيضاً قولهم أنَّ القرآن مخلوق لله ﷻ؛ لنفيهم عنه سبحانه صفة الكلام[2].

فالمعتزلة تنكر جميع الصفات التي وصف الله ﷻ بها نفسه بحُججٍ واهيةٍ، وتأويلاتٍ باطلةٍ، مثل زعمهم إرادة تنزيه الله ﷻ، وأنَّ وصف الله تعالي بتلك الصفات التي ذُكرت في كتابه الكريم، أو في سنة نبيه ﷺ، يقتضي مشابهة الله بخلقه، فينبغي نفي كلِّ صفةٍ نُسبت إلى الله ﷻ؛ لئلا يؤدي ذلك إلى تشبيه الله بمخلوقاته التي تحمل اسم تلك الصفات، فهربوا من التشبيه، ووقعوا في التعطيل[3]، وهذه المسألة قد كتب عنها العلماء كتاباتٍ مستفيضةٍ، ومؤلفاتٍ عديدةٍ، دحضوا فيها كلَّ ما يتعلَّق به المعتزلة في نفي الصفات، وقلَّما يخلو كتابٌ من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم- رحمهما الله-، من ردٍّ وخصامٍ وجدالٍ مع هؤلاء.

وممَّا يُدركه كلُّ مسلمٍ أنَّ الله ﷻ وصف نفسه في كتابه الكريم، ووصفه نبيه ﷺ بصفاتٍ تُعرف معانيها، ولا تُدرك كيفياتها، ومعلومٌ أنَّ مذهب السلف في تقرير صفات الله ﷻ في أتمِّ وضوحٍ، وأجلى حقيقةٍ، فإنَّ السلف- رحمهم الله- يُثبتون صفات الله ﷻ كما جاءت في الكتاب والسنة، دون تحريفٍ أو تأويلٍ، مع معرفتهم بمعانيها، وتوقُّفِهم في بيان كيفياتها؛ لأنَّهم يؤمنون بأنَّ الكلام في صفة كلِّ شيءٍ فرعٌ عن تصوُّر ذاته، والله ﷻ له ذاتٌ لا تُشبه الذَّوات، ولا يعلم أحدٌ كيفيتها، وصفاته كذلك ثابتةٌ على ما يليق بذاته جلَّ وعلا، وهكذا ينبغي أن يكون مُعتقد المسلم، يصفُ اللهَ بما وصف به نفسه في كتابه الكريم، وبما وصفه به رسوله الأمين نفياً وإثباتاً، على وجهٍ لا يُوحي بأيِّ نوعٍ من المماثلة والمشابهة على ضوء قول الله ﷻ:﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الشُّورى:١١]، المُتضمِّن ردَّ التشبيه والتمثيل، وردَّ الإلحاد والتعطيل[4]، وقد وقف السلف الصالح ﷺ إزاء هذه الصفات موقفاً واضحاً جليّاً، لا لبس فيه، ولم يتنطعوا تنطُّع المشبِّهة، ولم يسلكوا مسالك المعطِّلة؛

---

(١) الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد، للخياط، ص١٢٦-١٢٧.

(٢) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(١/٣٩-٤١).

(٣) انظر: الصواعق المرسلة على الحهمية والمعطلة، لابن القيم(٢/٧٧١).

(٤) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٧٥-١١٧٩) .

لأنَّهم على معرفةٍ تامَّةٍ أنَّ الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذَّات، ومن هنا نجد أنَّه لم يُعرف عن أيِّ شخصٍ من الصحابة ﷺ أنَّه سأل النبي ﷺ عن كيفيَّة أيِّ صفةٍ من الصفات التي أخبر الله ﷻ بها في القرآن الكريم، أو أخبرهم بها النبي ﷺ، وهذه دلالةٌ على أنَّهم يعرفون بداهةً أنَّ الاشتراك في التَّسمية لا يُوجب الاشتراك والمماثلة في الذَّات، كما يُقال: رأس الرجل، ورأس الجمل، ورأس الجبل، وبين ذوات هذه الأشياء من الفروق ما لا يخفى على عاقلٍ[1]؛ ولهذا فإنَّ عُقلاء الناس حينما آمنوا بصفات الله ﷻ لم يتصوَّرا فيها أيَّ تشبيهٍ؛ بل كانوا يعتبرون مجرد التفكير في المشابهة من وساوس الشيطان؛ فيذكرون الله ﷻ؛ ليتعوذوا من ذلك، كما أنَّ إيمانهم بالصفات كان يجري كلُّه على هذا المفهوم، فما كانوا يُفرِّقون بين صفةٍ وأخرى، ولم يحصل بينهم أيُّ نزاعٍ أو جدالٍ في مسائل الأسماء والصفات، كما حصل عند من اتَّبع هواه ممَّن عطَّل أولاً، ثمَّ شبَّه ثانياً، ثمَّ زعم أنَّه ينزه الله تعالي، كما يفعل المعتزلة.

ومن العجائب أن يُثبت الله لنفسه الصفة وهم ينفونها عنه، ومَثلُهم في هذا كمَثلِ شخصٍ سأل آخر عن اسمه وهو لا يعرفه، فأخبره باسمه، فقال له: لا، إنَّ اسمك ليس هذا، فالله ﷻ يقول عن نفسه:﴿ **الرَّحْمَنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوَى** ﴾[طه:٥]، وهم يقولون: لا يجوز إثبات هذه الصفة؛ بل يجب نفيُها مُطلقاً، أو تأويلُها بمعني استولى أو قَصَد، أو غير ذلك من تأويلاتهم الباطلة، وحينما يقول ﷻ عن نفسه:﴿ **لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ** ﴾[الشُّورى:١١]، يقولون: يجبُ نفي مدلول هذا نفياً تامَّاً، أو تأويلُه، فإمَّا أن يكون بمعنى سميعٍ بلا سمع، بصيرٍ بلا بصر، أو أنَّه سميعٌ بذاته، بصيرٌ بذاته، إلي آخر مواقفهم الخاطئة تجاه كلِّ الصفات والأسماء.

إنَّ تنزيه الله ﷻ لا يمكن أن يكون بسلب صفاته، وما تدلُّ عليه من العظمة والكمال، إنَّه من الإجرام أن يُنزَّه الله عمَّا تمدَّح به:﴿ **قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ** ﴾[البقرة:١٤٠].

إنَّ التنزيه الصحيح إنَّما يكون في إثبات الصفة في أعلى كمالها لله ﷻ؛ لأنَّ الكمال المُطلق لا يُوصف به أحدٌ غير الله ﷻ، وأيُّ تنزيهٍ في أن تقول: إنَّ الله لا يكلِّم أحداً، وإنَّه لا سمع له ولا بصر، ولا يُوصف بالرحمة ولا بالغضب ولا بالمجيء، إلي آخر تلك الأوصاف التي لا تُقال إلَّا للمعدوم، إنَّها صفاتٌ سلبيةٌ نتيجتها أن لا معبود إلا العدم، ومن هنا وجد الملاحدة ضالَّتهم المنشودة في تقوية إلحادهم، واحتجاجهم على ذلك بما زعموا أنَّه من كلام المسلمين، وهم يعلمون تمام العلم أنَّ هذا الكلام الذي احتجُّوا به ليس له بالإسلام أيَّة صلةٍ؛ وإنَّما هو من أفكار ملاحدة الفلاسفة، وهم أقلُّ وأذلُّ من أن يجدوا كلاماً ما، لعلماء المسلمين فضلاً عن الصحابة، فضلاً عن الكِتاب والسُّنة، يشير إلي هذا المفهوم الذي تنبَّهوا له بزعمهم، ونفوا بموجبه صفات الله وأسمائه.

---

(١) انظر: فرق قديمة ومعاصرة تنتسب إلى الإسلام، لغالب عواجي(٣/١١٤٠-١١٤١).

وعليه فالتوحيد عند المعتزلة يقوم بنيانه على إنكار الصفات، والقول بخلق القرآن، وإنكار رؤية الله ﷻ في الآخرة، وهذا منافٍ للتوحيد الذي عليه أهل السنَّة والجماعة، فالتوحيد عندهم يقوم على إثبات الصفات كما يليق بجلال الله من غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ ولا تعطيلٍ، وعلى القول بأنَّ القرآن كلام الله منزَّلٌ غيرُ مخلوقٍ، منه بدأ، وإليه يعود، وعلى إثبات رؤية الله ﷻ في الدار الآخرة(١).

٢- **الأصل الثاني/ العدل:** يقول القاضي عبد الجبار في بيانه لمعنى العدل ودلالاته:" وأمَّا الأصل الثاني من الأصول الخمسة، هو الكلام في العدل، وهو كلامٌ يرجع إلى أفعال القديم جلَّ وعزَّ، وما يجوز عليه وما لا يجوز"(٢)، فيريدون بالعدل ما يتعلق بأفعال الله ﷻ التي يصفونها كلَّها بالحُسن، ونفي القُبح عنها، وبالتالي ينفون خلق أعمال العباد عن الله ﷻ؛ لأنَّ ذلك عندهم يُوجب نسبة الفعل القبيح إلى الله ﷻ، وهو منزَّهٌ عن ذلك، وفى هذا الفهم الخاطئ يقول القاضي عبد الجبار في شرح الأصول الخمسة: "إنَّ الله تعالى لا يحبُّ الفساد، ولا يخلق أفعال العباد"(٣)، ويقول أيضاً: "اتَّفق كلُّ أهل العدل على أنَّ أفعال العباد من تصرُّفِهم وقيامهم وقعودهم حادثةٌ من جهتهم، ولا فاعل لها ولا مُحدَث سواهم، وأنَّ من قال: إنَّه سبحانه خالقُها ومحدثها، فقد عَظُم خطؤه"(٤)، والحقُّ الذي لا مرية فيه أنَّ كلَّ الأشياء وكلَّ الأفعال لا تخرج عن خلق الله وإرادته لها، كما قال تعالى:﴿ **ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾[الأنعام:١٠٢]، وقال ﷻ:﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾[الصَّافات:٩٦]، ثم بعد هذه الآيات الصريحة يقول المعتزلة أنَّ الإنسان هو الذي يخلق فعله، فراراً بزعمهم من نسبة خلق الأفعال وإرادتها إلى الله تعالى(٥).

والذي أوقع المعتزلة في هذا الفهم الخاطئ لهذه القضيَّة هو عدم تفريقهم بين الإرادة الكونية والإرادة الشرعية، فقالوا: أنَّ كلَّ ما أراده الله ﷻ فهو يُحبه، وعليه فهو لا يريد الشرَّ، ولا يخلقه، ولا يشاؤه؛ لأنَّه لا يُحبه، وقولهم فاسدٌ مردودٌ؛ لمخالفته الكتاب والسنة والمعقول الصحيح، وعقيدة السلف في إرادة الله ﷻ على خلاف قول المعتزلة، فهم يقولون: أنَّ الله ﷻ لا يكون في كونه إلا ما يريد، وأنَّ الله ﷻ وإن كان يريد المعاصي قدَراً، فهو لا يُحبُّها، ولا يرضاها، ولا يأمر بها شرعاً؛ بل يَبغضها، ويَسخطها، ويكرهها، وينهى عنها، وهذا قول السَّلف قاطبةً، والمُحقِّقون من أهل السنة يقولون: الإرادة في كتاب الله نوعان: إرادةٌ قدريةٌ كونيةٌ خَلقيةٌ، وهي المشيئة الشاملة لجميع الموجودات، وهذه الإرادة

---

(١) انظر: فرق قديمة ومعاصرة تنتسب إلى الإسلام، لغالب عواجي(٣/١١٤٣-١١٤٥).

(٢) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص ٣٠١.

(٣) المرجع السابق، ص ٣٢٣.

(٤) المغنى في أبواب التوحيد والعدل، للقاضي عبد الجبار(٣/٨).

(٥) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٨٣).

مُتحقِّقةٌ لا محالة، ولا يخرج عنها شيءٌ مهما كان صغيراً، وهي المقصودة في قوله ﷻ:﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ** ﴾[يس:٨٢]، وهي الإرادة المذكورة في قول المسلمين: ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وإرادةٌ دينيةٌ أمريةٌ شرعيةٌ، وهي المُتضمِّنة للمحبَّة والرِّضى، كقوله ﷻ:﴿ **يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنْسَانُ ضَعِيفًا** ﴾[النساء:٢٦-٢٨]، وهذه الإرادة قد تتحقَّق كحصول الشكر لله من المؤمن، وقد لا تتحقَّق كحصول الكفر من الكافر، وهذه الإرادة هي المذكورة في مثل قول الناس لمن يفعل القبائح: هذا يفعل ما لا يُريده الله، أي: ما لا يُحبُّه، ولا يرضاه، ولا يأمر به[١]؛ وعليه فما يُريده الله كوناً لا بُدَّ أن يقع، إذ لا يحصل في ملكه شيءٌ خارجٌ عن إرادته، أمَّا ما يُريده شرعاً فقد يقع، وقد لا يقع، فمثلاً: الطَّاعة التي تحصل من العبد مُرادةٌ كوناً وشرعاً، وتنفرد الإرادة الكونية في المعصية التي تحصل من العبد فهذه مُرادةٌ كوناً لا شرعاً، وكل شيءٍ يجري بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره، بقضائه الكوني لا الشرعي، فإنَّ القضاء يكون كونياً وشرعياً، وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب[٢].

وعليه فالعدل عند المعتزلة يترتب عليه إنكار خلق الله ﷻ لأفعال العباد، وعلى إيجاب فعل الصلاح والأصلح على الله ﷻ، وعلى ترتيب الثواب والعقاب بمجرد استحسان العقل واستقباحه، دون أن يتوقَّف ذلك على الشرع، وهذا بلا شكٍّ يتنافى مع معتقد أهل السنَّة والجماعة، فمن معتقدهم أنَّ الله ﷻ خالق كلِّ شيءٍ، ومن ذلك أفعال العباد، وأنَّه لا يجب عليه سبحانه شيءٌ إلا ما أوجبه على نفسه بإيجابه هو، وأنَّ الثواب والعقاب على الحَسن والقبيح موقوفٌ على الشارع الحقِّ عند أهل السنَّة والجماعة، وأنَّ أوامر الله ﷻ لا تخلوا من مصالح، إلَّا أنَّها على سبيل التفضيل والإنعام منه سبحانه، لا على سبيل الإيجاب والإلزام عليه من أحدٍ من خلقه[٣].

إنَّ للمعتزلة في هذا الأصل شُبهٌ كثيرةٌ، وجدالٌ عقليٌّ، ومن أهمِّ تلك الشُبه أنهم يقولون: إنَّ إثبات خلق الله ﷻ لجميع أفعال العباد، فيه نسبة الظُّلم والجور إليه ﷻ، والله منزَّهٌ عن ذلك[٤].

---

(١) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/١١٣-١١٤).

(٢) انظر: المرجع السابق(١/٤٤٧).

(٣) انظر: فرق قديمة ومعاصرة تنتسب إلى الإسلام، لغالب عواجي(٣/١١٨٥-١١٨٦).

(٤) انظر: شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص ٣٥٥.

وللرد عليهم نقول: إنَّ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ أفعال الله كلُّها حسنةٌ، لا قبيح فيها، وهو غير ظالمٍ أبداً، والذي دلَّ عليه القرآن من تنزيه الله نفسَه عن ظلم العباد، يقتضي قولاً وسطاً بين قولي القدريَّة والجبريَّة[١]، ثمَّ إنَّ الظلم الذي نفاه الله عن نفسه، هو وضع الشيء في غير موضعه، أو وضع سيئات شخصٍ على آخر، أو أن يُنقِص من حسنات المُحسِن، وهذا ظلمٌ بلا شك، والله ﷻ منزَّهٌ عنه، والله ﷻ هو الخالق للعباد وأعمالهم كما هو متقرِّرٌ عند السَّلف، ولكن لا يُوجب ذلك أن يكون الله ﷻ هو الفاعل لأعمالهم كما يظنُّ الجَهلة، فالله ﷻ خلق الطاعة والمعصية، وأعطى العبد قدرةً ومشيئةً واختياراً؛ ليسلكوا الطريق التي يشاؤها، فمن فعل الظلم بأن غشَّ النَّاس، أو غصبهم أموالهم، يُقال له: غاشٌّ ومغتصبٌ وسارقٌ، ولا يُنسب ذلك إلى الله ﷻ، ولذلك حين جيء بسارقٍ إلى عمر– رضى الله عنه– لإقامة الحدِّ عليه، قال السارق: أتقطع يدي وقد سرقتُ بقدر الله، فقال عمر: وأنا أقطعُ يدك بقضاء الله وقدره[٢]؛ ولذلك فنحن لسنا مُطالبين بالوقوف على ما عند الله من الأقدار، إنَّما نحن مطالبون بالقيام بالأعمال التي يُريدها الله، والاجتناب عن ما لا يُريده، وبذلك يكون الاعتقاد الصحيح، وتكون النَّجاة عند الله ﷻ [٣].

٣- **الأصل الثالث/ الوعد والوعيد:** وقد عَّرفه القاضي عبد الجبار المعتزلي بقوله: "وأمَّا علوم الوعد والوعيد فهو أن يُعلم أنَّ الله وعد المطيعين بالثواب، وتوعَّد العُصاة بالعقاب، وأنَّه يفعل ما وعد به وتوعَّد عليه لا محالة، ولا يجوز عليه الخلف والكذب"[٤].

إنَّ مذهب المعتزلة في هذا الأصل أنَّهم يُوجبون على ربهم أن يُنفِذ وعده، وأن يُعطيَ العبد أجر ما كلَّفه به من طاعاتٍ، استحقاقاً منه على الله مقابل طاعته له، وقد أورد المعتزلة لتأييد مذهبهم هذا بعض النُّصوص التي فهموا منها وجوب إنفاذ الله وعده، وهي آياتٌ من القرآن الكريم، وبعض الشُّبه العقلية[٥]، منها قول الله ﷻ:﴿ **وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا** ﴾[النساء: ١٠٠]، وموضع الشاهد الذي يستدلُّون به هو قوله:﴿ **فقد وقع أجره على الله** ﴾، حيث فسَّروا هذا الوقوع بمعني الوجوب، أي: فقد وجب ثوابه على الله استحقاقاً، وهذا يتفرع عن مسألة دخول الجنة هل يكون استحقاقاً بالعمل كما ترى المعتزلة، أم أنَّ دخولها إنَّما هو بفضل الله مُضافاً إليه العمل؟، والخلاف في هذه المسألة نشأ عن توهُّم التعارض

(١) انظر شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبى العز الحنفي (١/٤٥٠).

(٢) انظر: المرجع السابق(١/١٣٥).

(٣) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٨٤).

(٤) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص١٣٥- ١٣٦.

(٥) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٨٨).

بين قول الله ﷻ:﴿ **وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾[الزُّخرف:٧٢]، وبين حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه:(**لن يُدخل أحداً منكم عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت؟ يا رسول الله قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدنيَ الله منه بفضلٍ ورحمة**)[1].

قال ابن أبي العز الحنفي – رحمه الله–:"وأما ترتُّب الجزاء على الأعمال، فقد ضلَّت فيه الجبريَّة والقدريَّة، وهدى الله أهل السُّنة، وله الحمد والمنَّة، فإنَّ الباء التي في النفي غير الباء التي في الإثبات، فالمنفي في قوله ﷺ: "لن يدخل الجنة أحد بعمله" باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الجنة، كما زعمت المعتزلة أنَّ العامل مستحقٌّ دخول الجنة على ربه بعمله؛ بل ذلك برحمة الله وفضله، والباء التي في قوله ﷻ: ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾[السجدة:١٧] ونحوها، باء السبب، أي بسبب عملكم، والله ﷻ هو خالق الأسباب والمُسبِّبات، فرجع الكلُّ إلى محض فضل الله ورحمته"[2].

وقال ابن حجرٍ العسقلاني– رحمه الله–: " فإن قيل كيف الجمع بين هذه الآية، وحديث لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، فالجواب أنَّ المنفي في الحديث دخولها بالعمل المجرد عن القبول، والمثبَت في الآية دخولها بالعمل المُتقبَّل، والقبول إنَّما يحصل برحمة الله، فلم يحصل الدخول إلا برحمة الله"[3]؛ ولذلك فإنَّ التوفيق للعمل من رحمة الله، ولولا رحمة الله السابقة ما حصل الإيمان ولا الطاعة التي يحصُل بها النجاة، فدخول الجنة إنَّما هو بفضل الله ورحمته أولاً وأخيراً، والعمل يرفع صاحبه في الجنَّة درجاتٍ، وليس للعبد على ربِّه أيُّ استحقاقٍ، غير أنَّ الله تعالي أوجب على نفسه أنَّه لا يظلم عمل عاملٍ من ذكرٍ أو أنثى، فجعل العمل من الأسباب في دخول الجنة، والأسباب نفسها إنَّما هي تفضُّلٌ من الله ﷻ على عباده أن وفَّقهم لها.

وأمَّا المقصود بالوعيد عند المعتزلة، فهو ما يتعلق بأحكام المذنبين من عُصاة المؤمنين، إذا ماتوا من غير توبةٍ، وقد أوضح المعتزلة رأيهم في هذا، وهو أنَّ أصحاب الكبائر إذا ماتوا من غير توبة فإنَّهم يستحقُّون بمقتضى الوعيد من الله النَّار خالدين فيها، إلَّا أنَّ عقابهم يكون أخفَّ من عقاب الكفار[4]، وللمعتزلة شبهاتٌ في تأييدهم لمذهبهم بإنفاذ الوعيد لا محالة، وقد استدلُّوا من القرآن الكريم بكلِّ آيةٍ يُذكر فيها عقاب العُصاة بالنَّار والخلود فيها، وهي آياتٌ كثيرةٌ، مثل قوله ﷻ:﴿ **بَلَى مَنْ**

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب لن يدخل أحد الجنة بعمله بل برحمة الله، حديث رقم ٢٨١٦، واللفظ له، وأخرجه البخاري في صحيحه حديث رقم ٦٤٦٣، ٦٤٦٤.

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٢/٦٤٣).

(٣) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني(١/٧٨).

(٤) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(١/٤٥).

كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[البقرة:٨١]، وآياتٌ أخرى كثيرةٌ يدلُّ ظاهرها على هذا المفهوم.

والخلاصة في هذه المسألة أنَّ استدلال المعتزلة لما يذهبون إليه من إنفاذ الوعيد لا محالة، وأنَّ أصحاب الكبائر والذنوب من المؤمنين مخلَّدون في النار، قولٌ غير مسلَّمٍ به، وهو خطأٌ في فهم النصوص، وحملٌ لها على غير معانيها الصحيحة، فإنَّ الآيات لا تدلُّ على خلود أصحاب المعاصي من المؤمنين خلوداً أبدياً في النار، وذلك أنَّ الله ﷻ قد يعفو عنهم ابتداءً، وقد يعذِّبهم بقدر ذنوبهم، ثمَّ يُخرجهم الله بتوحيدهم وإيمانهم من النار؛ لأنَّه لا يخلُد في النار إلا من مات على الشرك الذي أخبر الله ﷻ أنَّه لا يغفر لصاحبه، وأمَّا ما عدا الشرك فإنَّ الله تعالي يغفره.

ومن ناحيةٍ أخرى، فإنَّ خلف الوعيد من فعل الكرام، وهى صفة مدحٍ، بخلاف خلف الوعد فإنَّها صفة ذمٍّ، والله ﷻ يتنزه عنها، بخلاف الوعيد فإنَّه يُعتبر من باب التَّفضُّل والتَّكرُّم وإسقاط حقِّ نفسه، وهذا هو مذهب السَّلف أهلُ السنة والجماعة، وما ذهب إليه المعتزلة من منع إخلاف الوعيد، وزعمهم أنَّه من الكذب، فهو إلى سوء الظنِّ أقرب، وهو تحكُّمٌ على الله ﷻ، والله ﷻ يفعل ما يشاء[١].

وقد أجمل الطحاوي- رحمه الله- مذهب السَّلف في ذلك عندما قال: " وأهل الكبائر من أمَّة محمدٍ ﷺ في النار لا يَخْلدون إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين بعد أن لقوا الله عارفين[٢]، وهم في مشيئته وحكمه، إن شاء غفر لهم، وعفا عنهم بفضله، كما ذكر ﷻ في كتابه:﴿ **ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾، وإن شاء عذَّبهم في النار بعدله، ثمَّ يُخرجهم منها برحمته وشفاعة الشَّافعين من أهل طاعته، ثمَّ يبعثهم إلى جنَّته، وذلك بأنَّ الله تعالي تولَّى أهل معرفته، ولم يجعلهم في الدَّارين كأهل نَكَرَته، الذين خابوا من هدايته، ولم ينالوا من ولايته"[٣].

وهذه الشفاعة التي يُخرج الله بها عُصاة الموحدين من النار فلا يخلدون فيها، للمعتزلة فيها موقفٌ مخالفٌ لموقف أهل الحقِّ، وذلك أنَّ المعتزلة لا ترى الشفاعة لأحدٍ في الآخرة إلَّا للمؤمنين فقط دون الفُسَّاق من أهل القبلة، فلا شفاعة لأهل الكبائر عندهم؛ لأنَّ إثبات ذلك بزعمهم يؤدِّي إلى خلف وعيد الله، وخلف الوعيد عندهم يُعتبر كذباً، والله يتنزَّه عن الكذب، واستدلُّوا على ذلك بالآيات الواردة في نفي الشفاعة عن غير المؤمنين، كقوله ﷻ:﴿ **فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾[المدَّثر: ٤٨]، وقوله

---

(١) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/١١٩١-١١٩٢).

(٢) قال ابن أبي العز الحنفي معقبا على قول الطحاوي: "بعد أن لقوا الله عارفين" ، قال: "لو قال "مؤمنين" بدل قوله: "عارفين" كان أولى، لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر، وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها دون القول والعمل الجهم بن صفوان وقوله مردودٌ باطلٌ". شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/٢٧٣).

(٣) المرجع السابق(١/٣٦٩-٣٧٠).

تعالى:﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى ﴾[الأنبياء:٢٨]، وقالوا: الفُسَّاق غيرُ راضٍ عنهم؛ فلا تصحُّ الشفاعة فيهم، إلى غير ذلك من الآيات الواردة بهذا المعنى، ولا ريب أنَّ المعتزلة جانبوا الصواب في الحُكم بنفي الشفاعة في العُصاة؛ لأنَّ القول بإثبات هذه الشفاعة ممَّا هو ثابتٌ ومتواترٌ عن السَّلف؛ لثبوت الأحاديث المتواترة بذلك[١].

والذي أوقع المعتزلة في هذا الخطأ أنَّهم خلطوا بين الشفاعة المنفيَّة، والشفاعة المُثبتَة، "فالشفاعة شفاعتان: شفاعةٌ منفيَّةٌ، وشفاعةٌ مُثبتَةٌ، فالشفاعة المنفية: هي ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، ودليلها قوله ﷻ:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[البقرة: ٢٥٤]، والشفاعة المُثبتَة: هي التي تُطلب من الله، والشافع مُكرَمٌ بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله عن قوله وعمله بعد الإذن، كما قال ﷻ:﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[البقرة: ٢٥٥]"[٢].

قال ابن أبي العز الحنفي – رحمه الله– في ذكر أنواع الشفاعة: "شفاعته ﷺ في أهل الكبائر من أمَّته، ممَّن دخل النار؛ فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث، وقد خفي علمُ ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك، جهلاً منهم بصحَّة الأحاديث، وعناداً ممَّن علم ذلك، واستمرَّ على بدعته، وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنَّبيون والمؤمنون أيضاً، ومن أحاديث هذا النوع، حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ:(**شفاعتي لأهل الكبائر**[٣] **من أمَّتي**)[٤]، فالمعتزلة والخوارج

---

(١) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/٢٢٩–٢٣٢).

(٢) شرح القواعد الأربع، للفوزان (١/٢١).

(٣) قال الإمام النووي:"عدم طلب الشفاعة وسؤالها من الله ﷻ ظناً أنها لأصحاب الكبائر، خطأٌ فاحش، وجهالةٌ بيِّنة، فكم من حديثٍ في الصحيح جاء في ترغيب المؤمنين الكاملين بوعدهم شفاعة النَّبي ﷺ، وقد عُرف بالنقل المستفيض سُؤال السلف الصَّالح ﷺ شفاعة نبينا ﷺ، ورغبتهم فيها، لأنه ثبت في الأحاديث في صحيح مسلم وغيره إثبات الشفاعة لأقوام في دخولهم الجنَّة بغير حساب، ولقوم في زيادة درجاتهم في الجنَّة". عون المعبود شرح سنن أبي داود مع حاشية ابن القيم، للعظيم آبادي(١٣/٥٢)، وقيل في معنى ذكر أصحاب الكبائر في الحديث واختصاصهم بالشفاعة، أي: شفاعتي في العفو عن الكبائر خاصةً بأمتي دون غيرهم من الأمم، وقيل: أي شفاعتي التي تُنجِّي الهالكين مختصةٌ بأهل الكبائر، وقيل: أي ما عدا الشرك، فذكر أصحاب الكبائر نصٌّ في بعض أفراد هذا العام، ولا يُبطل العام، وإنَّما فيه بيان أنَّهم أكثر الناس انتفاعاً بشفاعته، أو لأنَّهم استحقوا العذاب المهين بذنوبهم الكثيرة، ولكن أخرجتهم شفاعة النبي ﷺ من النار، فكانوا من أسعد الناس بهذه الشفاعة والله أعلم. انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني(١٠/١٦٨)، ومرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، للقاري(٨/٣٥٦٨).

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في الشفاعة، رقم ٤٧٣٩، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم ٣٧١٤.

أنكروا شفاعة نبينا ﷺ وغيره في أهل الكبائر، وأمَّا أهل السنة والجماعة، فيُقرُّون بشفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، لكنْ لا يشفع أحدٌ حتى يأذن الله له، ويَحدَّ له حدّاً[1]، وعليه فالشفاعة تكون بأمرين: بإذن الله للشافع أن يشفع، وبرضاه عن المشفوع، كما قال ﷻ:﴿ **وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى** ﴾[النجم:٢٦].

فالمعتزلة في أصل الوعد والوعيد يرون أنَّه يجب على الله ﷻ أن يفعل ما وعد به، وما توعَّد عليه، فيجب عليه إثابة المُطيع، ومعاقبة العاصي، وإلا لزم الخلْف والكذب في وعده ووعيده، ولزم منه فساد التَّدبير، وهذا مخالفٌ لما يعتقده أهل السنة والجماعة الذين يعتقدون أنَّ الله ﷻ يفي بما وعد به، لا على أنَّه من باب الاستحقاق والمعاوضة، وإنَّما لكونه سبحانه أوجب على نفسه إثابة الطائعين، ويعتقدون أنَّ عدم معاقبة العاصي لا يُعدُّ خلفاً في الوعيد، وإنَّما هو تكرُّمٌ وتفضُّلٌ وإحسانٌ[2].

٤- **الأصل الرابع/ المنزلة بين المنزلتين:** ويقصد المعتزلة بذلك أنَّ مرتكب الكبيرة لا يستحقُّ أن يُطلق عليه اسم الإيمان والإسلام؛ لأنَّ في إطلاق ذلك عليه تشريفاً له، وهو ليس أهلاً لهذا التشريف؛ بسبب إعراضه وعصيانه، ولا يستحقُّ أيضاً أن يطلق عليه اسم الكفر والنِّفاق؛ لأنَّ أحكام الكفار والمنافقين لا تجري عليه، وإذا انتفى عنه اسم الإيمان والإسلام، واسم الكفر والنفاق، استحقَّ أن يُسمَّى فاسقاً، ولا يختلف أهل السنة مع المعتزلة في تسمية مرتكب الكبيرة فاسقاً، ولكنَّهم يختلفون معهم في القول بتخليده مع الكفار في النار؛ لأنَّ مُعتقد أهل السنَّة والجماعة أنَّ الفاسق لا يخرج بفسقه من الإسلام، ولا يُخلَّد في النار، وإنَّما حُكمه إلى الله ﷻ إن شاء غفر له، وإن شاء عذَّبه، ثم يخرجه برحمته من النار إلى الجنة.

وقد كانت هذه القضية هي أساس ظهور المعتزلة، وتسميتهم بهذا الإسم، وقد أجمعت المعتزلة على قضية المنزلة بين المنزلتين، واعتبروها أصلاً من الأصول الثابتة، وتُلقب هذه المسألة حسب ما يذكره القاضي عبد الجبار "بمسألة الأسماء والأحكام"[3]، وقد بيَّن القاضي عبد الجبار معنى المنزلة بين المنزلتين بقوله: " والأصل في ذلك أنَّ هذه العبارة إنَّما تُستعمل في شيءٍ بين شيئين، ينجذب إلى كلِّ واحدٍ منهما بشَبهٍ، هذا في أصل اللُّغة، وأمَّا في اصطلاح المتكلمين فهو العلم بأنَّ لصاحب الكبيرة اسماً بين الاسمين، وحكماً بين الحكمين"[4].

ويُردُّ على المعتزلة في ذلك ببيان حُكم مرتكب الكبيرة في الشَّرع المطهَّر، هل حُكم بكفره وإخراجه من الملَّة، أم حُكم بإيمانه الإيمان الكامل، أو هو مؤمنٌ بإيمانه، فاسقٌ بكبيرته، والواقع أنَّ

---

(١) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/٢٣٣-٢٣٥).

(٢) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٩٣).

(٣) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص ١٣٧.

(٤) المرجع السابق، ص ٦٩٧.

العاصي غيرُ خارجٍ من الملَّة بفسقه؛ بل هو مؤمنٌ ناقص الإيمان، أو مؤمنٌ بإيمانه فاسقٌ بكبيرته، ولم تُخرجه النُّصوص عن الإيمان، لا في كتاب الله ﷻ، ولا في سنَّة نبيه ﷺ، ولا في إجماع الأمة[1]، وفى هذا يُبيِّن الطحاوي- رحمه الله- عقيدة السَّلف في ذلك، فيقول: "ولا نُكَفِّر أحداً من أهل القبلة بذنبٍ ما لم يستحلَّه"[2].

والذي أوقع المعتزلة في الخطأ في هذه المسألة أنَّهم تمسَّكوا بما ورد في بعض النُّصوص من تسمية الشارع لبعض الذنوب كفراً، مثل قول النبي ﷺ: **(سِباب المسلم فسوقٌ وقتاله كفرٌ)**[3]، وأمثلةٌ أخرى كثيرةٌ يُفيد ظاهرها إطلاق كلمة الكفر على من اقترف ذنباً من الذنوب، أو كبيرةَ من الكبائر، والجواب على ذلك: أنَّ أهل السنة متفقون كلُّهم على أنَّ مرتكب الكبيرة لا يكفر كفراً ينقل عن الملَّة بالكليَّة كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملَّة، لكان مرتدَّاً يُقتل على كلِّ حالٍ، ولا يُقبل فيه عفوٌ ولا القصاص، ولا تجري الحدود عليه في الزنا والسرقة وشرب الخمر، وهذا القول معلومٌ بُطلانه وفسادُه بالضَّرورة من دين الإسلام، وأهل السنة متَّفقون على أنَّه لا يخرج مرتكب الكبيرة من الإيمان والإسلام، ولا يدخل في الكفر، ولا يستحقُّ الخلود في النار مع الكافرين، كما قالت المعتزلة، فإن قولهم باطلٌ أيضاً، إذ قد سَمَّى الله القاتل مرتكب الكبيرة أخاً لأولياء الدَّم، كما قال ﷻ:﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ**﴾[البقرة:١٧٨]، فلم يُخرج الله ﷻ القاتل من الذين آمنوا؛ بل جعله أخاً لوليِّ القصاص، والمراد أُخوَّة الدِّين بلا ريب، وقال ﷻ:﴿ **وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا**﴾[الحجرات:٩]، ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدلُّ على أنَّ الزاني والسارق والقاذف لا يُقتل؛ بل يُقام عليه الحدُّ، فدلَّ ذلك على أنَّه ليس بمرتدٍّ[4].

وعليه فالمعتزلة موافقون للخوارج في حُكم مرتكب الكبيرة في الآخرة، فإنَّهم وافقوهم على أنَّ مرتكب الكبيرة مُخلَّدٌ في النار، لكن قالت الخوارج: نُسمِّيه كافراً، وقالت المعتزلة: نُسمِّيه فاسقاً، فالخلاف بينهم لفظيٌّ فقط، أمَّا أهل السنة فإنَّهم مُتفقون على أنَّه يستحقُّ الوعيد المترتب على ذلك الذنب في الآخرة، من غير أن تجري عليه أحكام الكفر، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، مُخالفين بذلك الخوارج والمعتزلة، ومخالفين كذلك للمُرجئة الذين يقولون: أنَّه لا يضرُّ مع الإيمان ذنبٌ، ولا ينفع مع الكفر طاعةٌ!، وإذا اجتمعت نصوص الوعد التي استدلَّت بها المُرجئة، ونصوص الوعيد التي استدلَّت

---

(١) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٩٥-١١٩٦).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٢/٤٣٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعن، حديث رقم ٦٠٤٤.

(٤) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/٣٢١).

بها الخوارج والمعتزلة، تبيَّن فساد القولين!، ولا فائدة في كلام هؤلاء وهؤلاء سوى أن تستفيد من كلام كلِّ طائفةٍ في فساد مذهب الطائفة الأخرى(١).

وقد أخطأ المعتزلة خطأً فادحاً حين جعلوا العُصاة في منزلةٍ بين المنزلتين في الدُّنيا، وحكموا بخلودهم في النَّار في الآخرة، ولم يلتفتوا إلى مشيئة الله ﷻ في أولئك، وهو الفعَّال لما يُريد؛ فقطعوا عنه المشيئة، ثمَّ زادوا الخطأ بآخرٍ حينما حكموا بخلودهم في النَّار مع من مات على الشرك، ولم يسجد لله سجدةً، ولا شكَّ أنَّ العقل يأبى هذا الحُكم، مع أنَّهم ممَّن يُقدِّر العقل ويُقدِّمه على النَّقل، ولكنَّ الهوى يُغطِّي على العقل والفهم إلَّا من وفَّقه الله تعالى(٢).

٥- **الأصل الخامس/ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:** وهذا هو الأصل الأخير من أصول المعتزلة الخمسة، وهو مبدأٌ مقرَّرٌ عندهم، وواجبٌ على المسلمين؛ لنشر الدعوة الإسلامية، وهداية الضَّالين، وإرشاد الغاوين، ولكنَّهم بالغوا في هذا الأصل، وخالفوا ما عليه الجمهور، فقالوا: إنَّ الأمر بالمعروف والنَّهى عن المنكر يكون بالقلب إن كفى، وباللسان إن لم يكفِ القلب، وباليد إن لم يُغنيا، وبالسَّيف إن لم تكفِ اليد، وقد توافق أهل السنة والمعتزلة في حكم القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كونه من الواجبات على الكفاية، وهو ما قرَّره الله تعالي في كتابه الكريم، حيث قال:﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ المُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤]، إلَّا أنَّه وقع خلافٌ بين أهل السنة والمعتزلة في طريقة تغيير المنكر، فيجب عند المعتزلة معالجة المنكر بالتَّدرج من الأسهل إلى الأصعب، ولا يجوز العكس، وهذا مخالفٌ لأمره ﷺ في تغيير المنكر الذي يدلُّ على البدء بالأشدِّ ثمَّ ما دونه، فهم ساروا عكس الحديث الذي بيَّن فيه ﷺ موقف المسلم إزاء تغيير المنكرات، حين قال:**(من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)**(٣)، وما يذهب إليه أهل الحقِّ، أنَّ تغيير المنكر يبدأ بالفعل باليد إذا لم يترتب عليه مفاسدَ أكبر، ولا فَتْحَ باب فتنةٍ أكبرَ من المنكر المُرادِ إزالتُه، فإن لم يتمكَّن الشخص من التَّغيير باليد انتقل إلى التَّغيير باللسان، فإن وصل الحال إلى عدم الاستطاعة من التغيير باللسان، بأن كان الشرُّ هو الغالب على الخير، ومُتسلِّطٌ على أهل الخير، فيمكن التغيير بالقلب، من كراهة المنكر، وتمنِّي زواله، وبُغضه وبُغض أهله(٤).

---

(١) انظر: شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٣٢٢/١).

(٢) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٩٨).

(٣) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، حديث رقم ٤٩.

(٤) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٩٩-١٢٠٠).

إنَّ المعتزلة لا يُفرِّقون في هذا الأصل بين صاحب السُّلطان وغيره، وبين الكفار والمسلمين؛ فاختلفوا مع أهل السُّنة في حمل السلاح في وجوه المخالفين لهم، سواءً كانوا من الكفار أم من أصحاب المعاصي من أهل القبلة[١]، كما أنَّهم لم يُفرِّقوا في الإنكار بين الأصول الدينيَّة المُجْمعُ عليها، وبين عقائدهم الاعتزالية؛ ولذلك استعان المعتزلة بالخلفاء والحُكَّام في نشر مذهبهم بطرقٍ شتى، كانت القسوة والعذاب والقتل بعضُ وسائلها، وما فتنة خلق القرآن، وما وقع بالإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- إلا صورةٌ من صُور القسوة التي عمد إليها المعتزلة في إنزال الأذى بخصومهم[٢].

وعلى تلك الأسس نشأت انحرافاتٌ كثيرةٌ عند المعتزلة، مثل إنكار رؤية المؤمنين لربهم يوم القيامة، وإيجاب الثواب والعقاب والصلاح والأصلح على الله ﷻ، وتقديم العقل على النقل، والقول بخلق القرآن، وأصلُ معتقدهم باقٍ إلى اليوم، متمثِّلٌ في كلِّ الفرق التي تتخذ من العقل حَكَمَاً على مسائل العقيدة [٣].

---

(١) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١٢٠١).

(٢) انظر: دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، لعرفان عبد المجيد، ص ١٢٩.

(٣) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(١/٤٣-٤٤)، ومنهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، لمصطفى حلمي، ص٩١-١٠٩، وتاريخ المذاهب الاسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، لمحمد أبو زهرة، ص١٢٠-١٢٤.

المطلب الثاني: منهج المعتزلة في فهم النَّص الدِّيني

لقد كان لفرقة المعتزلة منهجٌ وطريقةٌ في التَّعامل مع النُّصوص الشرعية، خالفوا فيها ما عليه السَّلف من القواعد والأصول؛ بل وأتوا بعجائب وغرائب في االتَّأويل، وليِّ أعناق النُّصوص، لم يسبقهم إليها أحدٌ؛ ولذلك وجب التحذير من طريقتهم ومنهجهم، حيث تتَّضح معالم منهجهم في النقاط التالية:

أولاً: تقديس العقل وتقديمه على النقل: لقد قعَّد المعتزلة لأنفسهم قواعد، تتفق مع مخالفاتهم التي انحرفوا بها عن الشرع، ومن أهمِّها تقديس العقل، وتقديمُه على الشرع، فالعقل عندهم حاكمٌ على الشرع، وهو المصدر الأوَّل للاعتقاد، ومتى خالف الشرعُ العقلَ في زعمهم، فإنَّه يجب اطراحه أو تأويله[1]، يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي: "اعلم أنَّ الدلالة أربعة: حُجَّة العقل، والكتاب، والسنة، والإجماع، ومعرفة الله لا تُنال إلا بحجة العقل؛ لأنَّ ما عداها فرعٌ على معرفة الله ﷻ بتوحيده وعدله، فلو استدللنا بشيءٍ منها على الله، والحال هذه، كنَّا مُستدلِّين بفرعٍ للشيء على أصله، وذلك لا يجوز"[2]؛ فالمعتزلة قدَّسوا العقل، وقدَّموا الدلالة العقلية على الدلالة الشرعية، ومُقدَّماً عليه، وهم "يجعلون العقل وحده أصلَ علمهم، ويُفردونه، ويجعلون الإيمان والقرآن تابعَين له، والمعقولات عندهم هي الأصول الكليَّة الأوليَّة المُستغنِية بنفسها عن الإيمان والقرآن"[3]؛ ولذلك لا حاجة عندهم في معرفة الله ﷻ وأسمائه وصفاته إلى السمع والنقل، فالعقل عندهم يستقلُّ بذلك، كما يقول القاضي عبد الجبار المعتزلي:"معرفة الله تعالى لا تُنال إلا بُحجة العقل"[4]، وبناءً على تقديسهم لعقولهم فقد وقعوا في ضلالاتٍ كثيرةٍ منها:

١- حكموا على الله ﷻ بما لا يليق بجلاله، بمحض عقولهم القاصرة؛ فأنكروا الصفات الثابتة لله ﷻ بالنقل الصحيح، ووردت عنهم عباراتٌ وأحكامٌ عقليةٌ فيها جرأةٌ وتطاولٌ على الله ﷻ في ذاته وأسمائه وصفاته، وقد وصل بهم الحال إلى القول بأنَّه يجب على الله أن يفعل كذا، ولا يجوز أن يفعل كذا، ولا يقدر على كذا، ولا يستطيع كذا، وغيرها من العبارات التي لا تليق بالله ﷻ[5]، ولاعتمادهم على العقل نفوا صفات الباري ﷻ بحجة مشابهة المخلوقين.

٢- "ردُّوا الأحاديث التي أتت غير موافقةٍ لأغراضهم ومذاهبهم، ويدَّعون أنَّها مخالفةٌ للمعقول، وغير جاريةٍ على مقتضى الدليل، فيجب ردُّها: كإنكار عذاب القبر، والصراط، والميزان، ورؤية الله ﷻ في

---

(١) انظر: الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، ليحيى العمراني(٦٥/١). وانظر: مختصر معارج القبول، لهشام آل عقدة، ص٧٦.

(٢) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص٨٨.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٣٨/٣).

(٤) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص ٥٢.

(٥) انظر: شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص١٢٣، ص٣١٤-٣١٧، والفرق بين الفرق، للأسفراييني، ص٩٣، وشرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١٣٧/١-١٣٨).

الآخرة، وكذلك حديث الذباب وأنَّ في أحد جناحيه داءً وفي الآخر دواء، وأنَّه يُقدَّم الذي فيه الداء، وحديث الذي أخذ أخاه بطنُه فأمره النبي ﷺ بسقيه العسل، وما أشبه ذلك من الأحاديث الصحيحة المنقولة نقل العدول"[1].

إنَّ من أبرز الدلائل على غلوِّ المعتزلة في نظرتهم للعقل، وقلّة تعظيمهم للشَّرع، أنَّهم لا يجدون حرجاً في ردِّ أيِّ نصٍّ شرعيٍّ، يخرج عن قواعدهم العقلية، التي وضعوها لأنفسهم، وجعلوا منها حاكماً على شرع الله، فيُثبتون ويقبلون ما وافقها، ويردُّون ويُنكرون ما خالفها، ويُستدلُّ على تلبُّس المعتزلة بما ذهبوا إليه ما ذهب إليه النظّام المعتزلي[2] إلى أنَّ حُجة العقل قد تنسخ الآيات والأحاديث والآثار[3].

٣- طعنوا في أكابر الصحابة ﷺ وشنَّعوا عليهم، ورموهم بالكذب، فقد زعم واصل بن عطاء المعتزلي أنَّ إحدى الطائفتين من الصحابة يوم الجمل فاسقةٌ، إمَّا طائفة عليٍّ بن أبي طالبٍ، وعمارَ بن ياسرٍ، والحسنِ، والحسينِ، أو طائفة عائشةَ وطلحةَ والزبير، وردُّوا شهادة هؤلاء الصحابة، وقالوا: لا تُقبل شهادتُهم[4].

٤- جعلوا العقل حَكماً على المصطلحات الشرعية، دون مراعاةٍ لما تعرفه العرب من لغاتها، وما تدلُّ عليه النصوص من المعاني الشرعية؛ فأوّلوا الاستواء بالاستيلاء والاقتدار، ومعلومٌ أنَّ الاستواء في اللُّغة دالٌّ على الإرتفاع والعلو[5]، قال القاضي عبد الجبار المعتزلي:" قد بيَّنَّا أنَّ المراد بالاستواء هو الاستيلاء والاقتدار، وبيَّنَّا شواهد ذلك في اللُّغة والشعر، وبيَّنَّا أنَّ القول إذا احتمل هذا المعنى والاستواء الذي هو بمعنى الانتصاب، وجب حملُه على المعنى الأول؛ لأنَّ العقل قد اقتضاه"[6].

٥- انقسموا إلى طوائف شتَّى، وكلُّ طائفةٍ من هذه الطوائف جاءت ببدعٍ جديدةٍ تُميِّزها عن الطائفة الأخرى، فسبب اختلاف المعتزلة فيما بينهم، وتعدُّد طوائفهم، وتكفيرهم لبعضهم، هو اعتمادهم على العقل والهوى، وإعراضهم عن النصوص الصحيحة من الكتاب والسنة، فيكفي وفق مذهبهم أن يختلف التلميذ مع شيخه في مسألةٍ ما ليكون هذا التلميذ صاحب فرقةٍ قائمةٍ، وما هذه الفرق التي تشعَّبوا إليها

---

(١) الاعتصام، للشاطبي(٢٩٤/١).

(٢) إبراهيم بن سيّار بن هانئ البصري، أبو إسحاق النظّام، من أئمة المعتزلة، متعمق في دراسة الفلسفة، وإليه تنتسب الفرقة النظامية، توفي سنة: (٢٣١هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٤٣/١).

(٣) انظر: تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص٩٤.

(٤) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والفرق، لمانع الجهني(٦٩/١).

(٥) انظر: مناهج اللغويين في تقرير العقيدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، لمحمد عليو، ص٦٥.

(٦) انظر: المرجع السابق، ص ٦٦، ومتشابه القرآن(٣١٥/١).

إلا نتيجة اختلاف تلاميذٍ مع شيوخهم، فأبو الهُذيل العلَّاف[1] له فرقةٌ، خالفه تلميذه النظَّام، فكانت له فرقةٌ، فخالفه تلميذُه الجاحظ[2] فكانت له فرقةٌ، والجُبَّائي[3] له فرقةٌ، فخالفه ابنه أبو هاشم[4] فكانت له فرقةٌ أيضاً، وهكذا[5] .

٦- وقعوا في الانحراف الفكري والعقدي، وهذا عينُ مجانبة الصواب، فـ "لو كانت العقول كافيةً لما ضلَّت اليونان، وهم أهل العقل وعلومه؛ بل إنَّ ضلال اليونانيين في هذه الأبواب أعظمُ من ضلال غيرهم؛ ولهذا تجد أنَّ جميع أهل الملل والنِّحل أقرب إلى الهداية، وأكثر طلبًا لها من اليونانيين: فلاسفةً ومناطقةً"[6].

ومن الرُدود قويَّة الحُجَّة، وبارعة الأسلوب على المعتزلة في اعتمادهم على عقولهم القاصرة، ردُّ شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عليهم في كتابه القيم: درء تعارض العقل والنقل، فقد تتبَّع آراءهم وأفكارهم واحدةً واحدة، وردَّ عليها ردًّاً مُفحماً، وبيَّن أنَّ صريح العقل لا يكمن أن يكون مخالفاً لصحيح النقل.

ثانياً: تأويل وتحريف النصوص لتوافق أصولهم وأهوائهم: لقد أقام المعتزلة مذهبهم على الأصول الخمسة التى ذكرها الباحث آنفاً، ومن المعلوم أنَّ هذه الأصول لا تتفق مع مذهب أهل السُّنَّة والجماعة؛ لهذا كان من الضرورى لفرقة المعتزلة فى سبيل مكافحة خصومها، أن تُقيم مذهبها وتُدعِّم تعاليمها على أُسسٍ دينيةٍ من القرآن، وكان لا بُدَّ لها أيضاً أن تردَّ الحُجج القرآنية لهؤلاء الخصوم، وتُضعف من قوتها، وسبيل ذلك كلِّه هو النظر إلى القرآن والسُّنة أولاً من خلال عقيدتهم، ثمَّ

(١) محمد بن محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العلاف، شيخ المعتزلة البصريين، وزعيم الفرقة الهذيلية، والمقرب من المأمون والمعتصم والواثق، مشتهر بالفسق، متأثر بالفلسفة، من كتبه: ميلاس، توفي سنة: (٢٢٧هـ)، وقيل: (٢٣٥هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(١٠/٥٤٢-٥٤٣).

(٢) عمرو بن بحر بن محبوب الكناني بالولاء، الليثي، أبو عثمان، الشهير بالجاحظ، كبير أئمة الأدب، ورئيس الفرقة الجاحظية من المعتزلة، مولده ووفاته في البصرة، فلج في آخر عمره، فتلته مجلدات من الكتب وقعت عليه، له تصانيف كثيرة منها: البيان والتبيين، والحيوان، ت ٢٥٥ هـ.انظر: الأعلام، للزركلي(٥/٧٤).

(٣) محمد بن عبد الوهاب بن سلام الجُبَّائي، من أئمة المعتزلة، ورئيس علماء الكلام في عصره، وإليه نسبة الطائفة "الجُبَّائية"، اشتهر في البصرة، ولد عام: (٢٣٥هـ)، وتوفي عام: (٣٠٣هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٦/٢٥٦).

(٤) عبد السلام بن محمد بن عبد الوهاب الجبّائي، عالم بالكلام، من كبار المعتزلة، له آراء انفرد بها، وتبعته فرقة سميت "البهشمية" نسبة إلى كنيته "أبي هاشم"، وله مصنفات في الفقه، وفي في أصول الفقه. انظر: الأعلام، للزركلي(٤/٧).

(٥) انظر:الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والفرق، لمانع الجهني(١/٦٩).

(٦) قمع الدجاجلة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، لعبد العزيز الراجحي، ص٣٣٣.

إخضاعهم نصوصهما لآرائهم التى يقولون بها، وتفسيرهم لها تفسيراً يتَّفق مع عقيدتهم[1]، ومن هذا التأويل والتَّحريف الذي وقع فيه المعتزلة، ما يلي:

١- التَّصرُّف في سياقات اللغة العربية، وادِّعاء أنَّ هناك محذوفاً يجب تقديره، وهذا بابٌ لا حدود له عند المعتزلة، كتأويلهم صفة التَّجلِّي بتجلي أمر الله أو قدرته، وتأويل إتيانه ومجيئه يوم القيامة بمجيء أمره وملائكته، وتأويل نزوله إلى السماء الدنيا بنزول أمره ورحمته، وهذا من أكثر الوسائل التي استعملها المعتزلة في نفي الصفات الثابتة لله ﷻ[2].

قال قُطرب المعتزلي[3] في قوله ﷻ:﴿ **فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا** ﴾[الأعراف:١٤٣]، قال: "تجلَّى أمرُه وقدرتُه"[4].

وقال الأخفش المعتزلي[5] في معانيه: وقوله:﴿ **هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الغَمَامِ وَالمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ** ﴾[البقرة:٢١٠]، يعني يأتي أمرُه، لأَنَّ اللهَ تبارك وتعالى لا يزُولُ"[6]؛ ولهذا جعل القاضي عبد الجبار التأويل من أصولهم فقال:" وهكذا طريقتُنا في سائر المتشابه، أنَّه لا بُدَّ من أن يكون له تأويلٌ صحيحٌ، يُخرَّج على مذهب العرب، من غير تكلُّفٍ وتعسُّفٍ"[7].

٢- ردُّ معاني المدلولات اللُّغوية الشرعية بالأساليب البلاغية المستحدثة: وهذا بابٌ مشهورٌ لدى المعتزلة، تمكَّنوا من خلاله من التَّحكُّم في معاني النُّصوص الشرعيَّة، وتوجيهها حسب أصولهم الإعتقادية، بدعوى المجاز والتشبيه والكناية وغير ذلك.

---

(١) التفسير والمفسرون، للذهبي(٢٦٥/١).

(٢) انظر: مناهج اللغويين، لمحمد عليو، ص٧٨.

(٣) محمد بن المستنير بن أحمد، أبو علي، الشهير بقطرب، نحوي، عالم بالأدب واللغة، من أهل البصرة، كان يرى رأي المعتزلة النظامية، من كتبه: معاني القرآن، والنواد والأضداد، (ت ٢٠٦هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٩٥/٧)، وفيات الأعيان، لابن خلكان(٤٩٤/١).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي(٢٧٨/٧).

(٥) سعيد بن مسعدة المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، أبو الحسن، المعروف بالاخفش الأوسط، نحوي، عالم باللغة والأدب، من أهل بلخ، سكن البصرة، وأخذ العربية عن سيبويه، وصنف كتبا، منها: تفسير معاني القرآن والاشتقاق، (ت ٢١٥هـ). انظر: الأعلام للزركلي(١٠١/٣)، ووفيات الأعيان، لابن خلكان(٢٠٨/١).

(٦) معانى القرآن، للأخفش(١٨٣/١).

(٧) المغني في أبواب العدل والتوحيد، للقاضي عبد الجبار(٣٨٠/١٦).

قال ابن تيمية- رحمه الله-:" يجتهدون في تأويل هذه الأقوال إلي ما يوافق رأيهم بأنواع التأويلات التي يحتاجون فيها إلي إخراج اللُّغات عن طريقتها المعروفة، وإلى الاستعانة بغرائب المجازات والاستعارات"(١).

فالمعتزلة يتذرعون بالحجج الواهية؛ لنفي وتأويل ما يُخالف مذهبهم، فمثلاً يقول الزمخشري في قوله ﷻ:﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾[البقرة:٢٥٥]، "كرسيُّه لم يَضِق عن السموات والأرض؛ لبسطته وسَعته، وما هو إلا تصويرٌ لعظمته، وتخييلٌ فقط، ولا كرسي ثمَّةَ، ولا قعود، ولا قاعد"(٢)، فكان صرف الزمخشري للآية على أنها مجازٌ؛ لكي لا ينفي الصفة عن الله ﷻ.

إنَّ تحريف النُّصوص بهذه الطريقة ظاهرةٌ خطيرةٌ جداً، وقع فيها كثيرٌ من المبتدعة، وسلفُهم في ذلك اليهود، الذين قال الله ﷻ فيهم:﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾[البقرة:٧٥].

وقد أوضح ابن القيم- رحمه الله- وجه الشَّبه بين تحريف اليهود وتحريف المعتزلة للنُّصوص، فقال:

"أُمر اليهودُ بأن يقولوا حِطةٌ ... فأبَوا وقالوا حِنطةٌ لهوانِ
وكذلك الجهمي قيل له استوى ... فأبى وزاد الحرف للنقصان
قال استوى استولى وذا من جهله ... لغةً وعقلاً ما هما سِيَّان
نون اليهود ولام الجهمي هما ... في وحي رب العرش زائدتان"(٣).

٣- تحريف اللفظ: وهو مؤدٍّ إلى تحريف المعنى بلا شك، ومن أمثلة ذلك ما رواه عاصم الأحول(٤) قال:" رأيتُ عمرو بن عبيد يحكُّ آيةً من المصحف، فقلت له: سبحان الله، قال: إنِّي سأعيدها، فقلتُ: أعدها، قال: لا أستطيعُ، وقال لغيره: إنِّي أبدِّل مكانها خيراً منها"(٥).

ومن النُّصوص التي حرَّفها المعتزلة قول الله ﷻ:﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾[النساء:١٦٤]، حيث يَقرؤون لفظ الجلالة

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١٢/١).

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري(٣٢٨/١).

(٣) نونية ابن القيم الكافية الشافية، لابن القيم(١٢١/١).

(٤) عاصم بن سليمان الأحول البصري، أبو عبد الرحمن، من حفاظ الحديث، ثقة، واشتهر بالزهد والعبادة، وكان بالكوفة على الحسبة، وكان قاضيا بالمدائن، وتوفي ١٤٢هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٤٢/٥)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(١٢٠/٣)، والأعلام، للزركلي(٢٤٨/٣).

(٥) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي(٢٧٣/٣).

بالنَّصب؛ ليوافق مذهبهم الباطل في نفي صفة الكلام عن الله ﷻ، ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء[1] -رحمه الله-: أريد أن تقرأ:﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى﴾، بنصب اسم الله؛ ليكون موسى هو المتكلم لا الله!، فقال أبو عمرو: هَبْ أنِّي قرأتُ هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله ﷻ:﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾[الأعراف:١٤٣]؟! فبُهت المعتزليُّ!"[2].

٤- تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه: وهو ما يسميه المتأخرون بالتأويل، وهو بابٌ عريضٌ دخل منه الزَّنادقة لهدم الإسلام، حيث حرَّفوا النُّصوص، وصرفوها عن معانيها الحقيقية.

قال ابن أبي العز الحنفي- رحمه الله-: "وبهذا تسلَّط المحرِّفون على النُّصوص، وقالوا: نحن نتأوَّل ما يخالف قولنا، فسمُّوا التحريف تأويلاً؛ تزييناً له وزخرفةً ليُقبل، والعبرة للمعاني لا للألفاظ، فكم من باطلٍ قد أُقيم عليه دليلٌ مُزخرَفٌ، عُورض به دليل الحقِّ، ومن التأويلات الفاسدة، تأويل أدلَّة الرؤية، وأدلَّة العلو، وأنَّه لم يكلم موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً"[3].

ولاتباع المعتزلة لهذا المبدأ فقد نفوا الصفات التي تخالف مذهبهم، وهناك أمثلةٌ كثيرةٌ على ذلك، فمثلاً ينفون صفة الوجه عن الله ﷻ كما في قوله ﷻ:﴿ وَلِلهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة:١١٥].

يقول الزمخشري المعتزلي في تفسير هذه الآية: "وجه الله: أي جهتُه التي أمر بها، ورضيها، والمعنى أنَّكم إذا مُنعتم أن تصلوا في المسجد الحرام، أو في بيت المقدس، فقد جُعلت الأرض مسجداً، فصلُّوا في أي بقعةٍ شئتم[4].

وهم ينفون صفة العلوِّ عن الله ﷻ، ويقولون أنَّه علوّ القدر والمكانة، لا أنَّه في جهة العلو والفوقية، فيقول الزمخشري عند تفسير قوله ﷻ:﴿ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[البقرة:٢٥٥]، "عليُّ الشأن، عظيم المُلك والقدرة"[5].

(١) زَبَّان بن عَمَّار التميمي المازني البصري، أبو عمرو، ويلقب أبوه بالعلاء، من أئمة اللغة والأدب، وأحد القراء السبعة، ولد بمكة، ونشأ بالبصرة، ومات بالكوفة، وكان من أعلم الناس بالأدب والعربية والقرآن والشعر، وله أخبارٌ وكلماتٌ مأثورةٌ،وتوفي ١٥٤هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(٣/٤١).

(٢) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/١٧٠).

(٣) المرجع السابق(١/٢١٢).

(٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري(١/٢٠٦).

(٥) المرجع السابق(١/٣٢٨).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" وأمَّا هذه الصفة فلم يزلْ أهل الشريعة من أوَّل الأمر يُثبتونها لله ﷻ حتى نفتها المعتزلة، ثمَّ تبعها متأخروا الأشعرية، وظواهر الشرع كلُّها تقتضي إثبات الجهة، مثل قوله ﷻ :﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، وقوله:﴿الرحمن على العرش استوى﴾،إلى غير ذلك من الآيات، كلُّها مبنيَّةٌ على أنَّ الله في السماء، وأنَّ مِن السماء تنزل الملائكة بالوحي إلى النَّبيين، وأنَّ منها نزلت الكتب، وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ، وجميعُ الحُكماء اتَّفقوا على أنَّ الله وملائكته في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك، والشُّبهة التي قادت نُفاة الجهة إلى نفيها هي أنَّهم اعتقدوا أنَّ إثبات الجهة يُوجب إثبات المكان، وإثبات المكان يُوجب إثبات الجسمية، ونحن نقول أنَّ ذلك غيرُ لازمٍ..."[1].

ثالثاً: الاعتماد على اللغة مع مخالفة صحيح الاستدلال بها: لقد حرص المعتزلة كلَّ الحرص على الطريقة اللُّغوية التى تُعتبر عندهم المبدأ الأعلى لفهم النصوص، وهذا المبدأ يظهر أثره واضحاً فى تفسيرهم للنُّصوص التى لا يليق ظاهرها عندهم بمقام الألوهية، أو تحتوى على التشبيه، أو تصادم بعض أصولهم؛ فيُحاولون أولاً إبطال المعنى الذى يرَونه مشتبهاً فى النَّص، ثمَّ يُثبتون لهذا اللفظ معنىً موجوداً فى اللُّغة يُزيل هذا الاشتباه، ويتفق مع مذهبهم، ويستشهدون على ما يذهبون إليه من المعانى بأدلةٍ من اللغة والشعر[2] .

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١- انكارُهم رؤية الله ﷻ في الجنة، مستدلِّين بقوله ﷻ: ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾[الأعراف:١٤٣]، فزعم المعتزلة أنَّ لن في هذه الآية تُفيد نفي المستقبل على التأبيد، يعني لن تراني في الدنيا ولن تراني في الآخرة[3]، وهذا مخالفٌ لقواعد اللغة، فلن عند العرب لا تُفيد النَّفي المؤبَّد، ولو قُيِّدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفي في الآخرة، فكيف إذا أُطلقت؟[4] والدليل على ذلك من القرآن قوله ﷻ:﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾[البقرة:٩٥]، ومع ذلك تمنّوا الموت في الآخرة كما في قوله

(١) بيان تلبيس الجهمية، لابن تيمية(١٥٩/١).

(٢) انظر: التفسير والمفسرون، للذهبي(٢٦٧/١).

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل، للزمخشري(١٣٣/٢).

(٤) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١٩٢/١).

ﷻ:﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾[الزُّخرف:٧٧]؛ ولهذا قال ابن مالك[(١)]– رحمه الله– في منظومته النَّحويَّة:

"ومن رأى النفي بلن مؤبداً ... فقوله اردُد وسواه فاعضدا"[(٢)].

وقال الخازن[(٣)]– رحمه الله– في تفسيره:" وقد تمسَّك من نفى الرؤية من أهل البدع والخوارج والمعتزلة وبعض المرجئة بظاهر هذه الآية، وهو قوله ﷻ:﴿ لَنْ تَرَانِي ﴾، قالوا: لن تكون للتأبيد والدوام، ولا حجة لهم في ذلك ولا دليل، ولا يشهد لهم في ذلك كتابٌ ولا سنَّة، وما قالوه في أنَّ لن تكون للتأبيد خطأٌ بيِّنٌ، ودعوى على أهل اللغة؛ إذ ليس يشهد لما قالوه نصٌّ عن أهل اللغة والعربية، ولم يقل به أحدٌ منهم، ويدلُّ على صحَّة ذلك قوله ﷻ في صفة اليهود وكرههم للموت:﴿ وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾، مع أنَّهم يتمنون الموت في الآخرة، يدل عليه قوله ﷻ:﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾"[(٤)] .

٢– تأويل المعتزلة للاستواء بالاستيلاء، في قوله ﷻ:﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾[طه:٥]، فقد زعم المعتزلة أنَّ الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء، وأوَّلوا النَّصوص المتواترة في اثبات علوّ الله ﷻ على خلقه، وردُّوا اجماع الأمَّة.

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي: "الاستواء هنا بمعنى الاستيلاء والقهر والغلبة، وذلك مشهورٌ في اللغة، قال الشاعر:

قد استوى بِشرٌ على العراق ...... من غير سيفٍ أو دمٍ مهراق"[(٥)].

وقد ردَّ أهل السنة هذا الإفتراء، وبيَّنوا بطلانه، ومخالفته لقواعد الشرع، وقواعد اللغة، وقد ردَّ عليهم ابن القيم– رحمه الله– تفسيرهم الاستواء بالاستيلاء بأكثر من أربعين وجهاً، فكان من كلامه أن قال: "وزعم بعضهم أنَّ الاستواء هاهنا بمعنى الاستيلاء، ونزع فيه إلى بيتٍ مجهولٍ لم يقله شاعرٌ

---

(١) محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجيّاني، أبو عبد الله، جمال الدين، أحد الأئمة في علوم العربية، من كتبه: الألفية في النحو، والضرب في معرفة لسان العرب، وتحفة المودود في المقصور والممدود، والاعتضاد في الفرق بين الظاء والضاد، وتوفي ٦٧٢هـ.انظر: طبقات الشافعية، للسبكي(٢٨/٥)، والأعلام، للزركلي(٢٣٣/٦).

(٢) شرح الكافية الشافية لابن مالك (١٥١٥/٣).

(٣) علي بن محمد بن إبراهيم الشيحيّ علاء الدين المعروف بالخازن، عالم بالتفسير والحديث، من فقهاء الشافعية، بغدادي الأصل، نسبته إلى شيحة من أعمال حلب، سكن دمشق مدة، وكان خازن الكتب بالمدرسةُ السميساطية، من مصنفاته: لباب التأويل في معاني التنزيل المعروف بتفسير الخازن، وعدة الأفهام في شرح عمدة الأحكام، وغيرها، وتوفي ٧٤١هـ. انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر(٩٧/٣)، والأعلام، للزركلي(٥/٥).

(٤) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن(٢٤٥/٢).

(٥) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص ٢٢٦.

معروفٌ يصحُّ الاحتجاج بقوله،... ولو كان الاستواء هاهنا بمعنى الاستيلاء لكان الكلام عديم الفائدة، لأنَّ الله ﷻ قد أحاط علمُه وقدرتُه بكلِّ شيءٍ، وكلِّ قطرٍ وبقعةٍ من السماوات والأرضين وتحت العرش، فما معنى تخصيصه العرش بالذِّكر، ثمَّ إنَّ الاستيلاء إنَّما يتحقق معناه عند المنع من الشيء، فإذا وقع الظَّفر به قيل استولى عليه، فأيُّ منعٍ كان هناك حتى يُوصف بالاستيلاء بعده؟، فهذا تفسيرٌ لكلام الله بالرأي المجرَّد الذي لم يذهب إليه صاحبٌ ولا تابعٌ، ولا قاله إمامٌ من أئمة المسلمين، ولا أحدٌ من أهل التفسير الذين يحكون أقوال السَّلف،... وهذا البيت الذي يستشهدون به مُحرَّفٌ، وإنَّما هو هكذا: بِشرٌ قد استولى على العراق، هكذا لو كان معروفاً من قائلٍ معروفٍ، فكيف وهو غير معروفٍ في شيءٍ من دواوين العرب وأشعارهم التي يُرجع إليها"[1].

٣- ما حُكيَ عن بعض المعتزلة أنَّه قال في قوله ﷻ:﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾[النساء:١٦٤]، أنَّه من الكلْم، أي: الجُرح، فقالوا: يكون معناه: وجرَّح الله موسى بأظافر المحن ومخالب الفتن[2]، والذي ألجأهم إلى حمل (كلَّم) بالتَّشديد على (كَلَم) المُخفَّفة الدَّالة على الجُرح، هو فرارهم من اثبات صفة الكلام لله ﷻ؛ فوقعوا في التَّحريف.

٤- قراءة عمرو بن عبيد المعتزلي وبعض المعتزلة لقوله ﷻ:﴿ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴾[الفلق:٢]، بالتنوين والنفي؛ لزعمهم أنَّ الله ﷻ لا يخلق الشر، مخالفين في ذلك القراءات المتواترة باعتبار ما موصولة، والقراءة بالنفي والتنوين قراءةٌ مردودةٌ، مبنيَّةٌ على مذهبٍ باطلٍ، فالله خالق كلِّ شيء[3].

٥- المعتزلة يحاولون بكل ما يستطيعون أن يُطَبِّقوا مبدأهم اللغوى، حتى يتخلصوا من الورطة التى أوقعهم فيها ظاهر اللفظ الكريم، كما في الآيات التى تدلُّ على أن المؤمنين يرون ربهم في الآخرة، كقوله ﷻ:﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾[القيامة:٢٢-٢٣]، فإذا بالمعتزلة يقولون: إنَّ النَّظر إلى الله معناه الرَّجاء والتَّوقُّع للنِّعمة والكرامة، واستدلُّوا على ذلك بأنَّ النَّظر إلى الشيء فى العربية ليس مُختصَّاً بالرؤية الماديَّة، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ مَلِكٍ... وَالْبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَمَا[4].

٦- تصرُّفهم في صيغ الأفعال المُسندة إلى المولى ﷻ، الدالةِ على خلقه لأفعال العباد، حيث أحدثوا لها دلالاتٍ أخرى، وجعلوها تدلُّ على معنىً لا أصل له في اللُّغة؛ فراراً ممَّا تدلُّ عليه من خلق الله لأفعال العباد، وتصرُّفِه فيها، مُستندين إلى قاعدتهم في العدل، وأنَّ الله عادلٌ لا يظلم، وهو منزَّهٌ عن

---

(١) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٣٧١/١-٣٩٠). بتصرف يسير

(٢) انظر: الكشاف، للزمخشري(٣١٤/١)، واللباب في علوم الكتاب، للنعماني(١٣٦/٧).

(٣) انظر: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية(٥٣٨/٥).

(٤) انظر: الكشاف، للزمخشري(٦٦٣/٤).

فعل القبيح، ولذلك قالوا في قوله ﷻ:﴿ **وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ**﴾[الجاثية:٢٣]، وقوله ﷻ:﴿ **ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ**﴾[التوبة:١٢٧]، وقوله ﷻ:﴿ **خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ**﴾[البقرة:٧]، ونحوِها من الآيات، أنَّ معناها: سمَّاهم ضُلَّالاً، أو وجدهم كذلك، أو حكم عليهم بالضَّلال من غير اثبات خلق الله لذلك[١].

قال ابن القيم– رحمه الله–: "نعم لو نزل القرآن بلغة القدريَّة والجهمية وأهل البدع، لأمكن حمله على ذلك، أو كان الحقُّ تبعاً لأهوائهم، وكانت نصوصُه تبعاً لبدع المبتدعين وآراء المُتحيِّرين، وأنت تجد جميع هذه الطوائف تُنزِّل القرآن على مذاهبهم وبدعها وآرائها؛ فالقرآن عند الجهمية جهميٌّ، وعند المعتزلة معتزليٌّ، وعند القدرية قدريٌّ، وعند الرافضة رافضيٌّ، وكذلك هو عند جميع أهل الباطل، ... وأما تحريفهم هذه النصوص وأمثالها بأنَّ المعنى ألفاهم ووجدهم، ففي أيِّ لسانٍ وأيِّ لُغةٍ وجدتم هديتُ الرَّجل إذا وجدتُه مهتدياً، وختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوةً وجده كذلك، وهل هذا إلَّا افتراءٌ مَحْضٌ على القرآن واللُّغة"[٢].

رابعاً: ردُّ النُّصوص التي تخالف أصولهم والجرأة في الاعتراض عليها: إنَّ للمبتدعة صفاتٍ كثيرةً تُفارقهم عن أهل السنة، ولعلَّ من أبرز هذه الصفات اعراضُهم عن النُّصوص الشرعيَّة، وردِّ دلالتها القطعية، وظهر ذلك جلياً في الجرأة عند المعتزلة على ردِّ النُّصوص، ومن ذلك ما جاء عن عمرو بن عبيد المعتزلي، أنَّه قال في الحديث الصحيح الذي يرويه عبد الله ابن مسعود ﷺ أنَّه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: (**إنَّ أحدَكم يُجمع خلقُه في بطن أمِّه أربعين يوماً، ثم يكون علقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك، ثم يَبعث الله ملكاً، فيُؤمر بأربع كلماتٍ، وُيقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيٌ أو سعيد،..**)[٣]، قال عمرو بن عبيد في هذا الحديث: "لو سمعتُ الأعمش يقول هذا لكذَّبته، ولو سمعته من زيد بن وهب[٤] لما صدَّقته، ولو سمعت ابن مسعود يقوله ما قبلتُه، ولو سمعتُ رسول الله ﷺ يقول هذا لرددته، ولو سمعتُ الله يقول هذا لقلتُ: ليس على هذا

---

(١) انظر: الفرق بين الفرق، للأسفراييني ص٣٤٠-٣٤١، والكشاف، للزمخشري(٢٦/١-٢٧).

(٢) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم(٨٣/١).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، رقم ٣٢٠٨.

(٤) زيد بن وهب الجهني الهمداني، أبو سليمان، أسلم في حياة النبي ﷺ، وهاجر إليه ولم يدركه، وبلغته وفاته في الطريق، وهو معدود في كبار التابعين بالكوفة، مات سنة٧٦هـ.انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر(٥٥٩/٢)، وتاريخ بغداد، للخطيب البغدادي(٤٤١/٨)، وأسد الغابة في معرفة الصحابة، لابن الأثير(٣٧٧/٢).

أخذتَ ميثاقنا"[1]، وقال أيضاً:" لو كانت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ في اللوح المحفوظ، لم يكن لله على العباد حجةٌ"[2].

إنَّ السلطان العقلى المُطلق الذي التزم به المعتزلة، قد جَرَّهم إلى إنكار ما صحَّ من سنَّة النبي ﷺ التى تُناقض أُسسهم وقواعدهم، وإنَّ المُتتبِّع لموقف الفرق من النُّصوص، يجد أنَّ المعتزلة تُعدُّ من أكثر الفرق المنتسبة للإسلام تأويلاً للنُّصوص بما يتناسب مع مذهبهم، وتأييد رأيهم ؛ ولذلك رفع المستشرقون والمستغربون من شأنها، ومن منهجها، وخاصةً في تفسير القرآن الكريم[3].

لقد كانت المعتزلة تأخذ بالأحاديث بشرط موافقة هذه الأحاديث لمذهبهم الذي يقوم على تقديم العقل على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وقد جرَّ هذا المعتزلة إلى إنكار الأحاديث الصحيحة، وهذا يتَّضح في نفيهم صفات الله ﷻ من الكلام والقدرة والإرادة والمشيئة وغيرها من الصِّفات[4].

ومن الأحاديث الصحيحة الصريحة التي ردَّها المعتزلة، الحديث الصحيح الصريح الثابت في رؤية الله ﷻ في الآخرة، والذي هو في أعلى درجات الصحة، والذي يقول فيه ﷺ:(**إنَّكم سترون ربَّكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته**)[5].

قال القاضي عبد الجبار المعتزلي في هذا الحديث:" فيجب أن نقطع أنَّه كذبٌ على النبي ﷺ، أنَّه لم يقله، وإن قاله؛ فإنَّه قاله حكايةً عن قوم"[6].

ونتيجةً لهذه النَّظرة كان المعتزلة يكتمون النُّصوص التي تخالف عقائدهم، متشبهين بأهل الكتاب الذين كانوا يكتمون الحقَّ، ولا يُظهرون منه إلا ما تهواه نفوسهم، كما وصفهم الله ﷻ بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[آل عمران:٧١]، وبقوله:﴿وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[البقرة:٤٢]، وقد اقتدى المبتدعة بأهل الكتاب في ذلك.

قال ابن تيمية– رحمه الله– تعليقاً على هذه الآية: "هما متلازمان، فإنَّ من لبس الحقَّ بالباطل فجعله ملبوساً به، خفى من الحق بقدر ما ظهر من الباطل، فصار ملبوساً، ومن كتم الحقَّ احتاج أن يقيم موضعه باطلاً فيُلبس الحقَّ بالباطل؛ ولهذا كان كلُّ من كتم من أهل الكتاب ما أنزل

---

(١) ميزان الاعتدال، للذهبي(٢٧٨/٣).

(٢) المصدر السابق(٢٧٦/٣).

(٣) انظر: اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره، لسعود النفيسان، ص٢٢٩–٢٣٠.

(٤) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٤٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل صلاة العصر، رقم ٥٤٤.

(٦) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص ٢٦٨.

الله فلا بدَّ أن يُظهر باطلاً، وهكذا أهل البدع، لا تجد أحداً ترك بعض السنة التي يجب التَّصديق بها والعمل إلَّا وقع في بدعةٍ، ولا تجد صاحب بدعةٍ إلَّا ترك شيئاً من السنة"[١].

وقال ابن حزمٍ- رحمه الله-:" ولا أرقَّ ديناً ممَّن يوثِّق روايةً إذا وافقت هواه، ويوهِّنها إذا خالفت هواه، فما يتمسك فاعل هذا من الدِّين إلا بالتلاعب"[٢]، وقال وكيع بن الجراح[٣]- رحمه الله-:" أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم ، وأهل الأهواء لا يكتبون إلَّا ما لهم"[٤]، وقال ابن تيمية- رحمه الله-:" فلا تجد قطُّ مبتدعاً إلَّا وهو يُحبُّ كتمان النُّصوص التي تُخالفه، ويُبغضها، ويُبغض إظهارها وروايتها، والتَّحدث بها، ويبغض من يفعل ذلك، كما قال بعض السلف: ما ابتدع أحدٌ بدعةً إلَّا نُزعت حلاوة الحديث من قلبه"[٥]، وقال أيضاً- رحمه الله-:" ومن المعلوم أنَّك لا تجد أحداً ممَّن يردُّ نصوص الكتاب والسنة بقوله إلَّا وهو يُبغض ما خالف قوله، ويودُّ أنَّ تلك الآية لم تكن نزلت، وأنَّ ذلك الحديث لم يَرِد، ولو أمكنه كشط ذلك في المصحف لفعله، وقيل عن بعض رؤوس المعتزلة أنَّه قال: ليس شيءٌ أنقضَ لقولنا من القرآن، فأقرُّوا به في الظاهر، ثمَّ صرِّفوه بالتأويل، ويقال أنَّه قال: إذا احتجُّوا عليكم بالحديث فغالطوهم بالتَّكذيب، وإذا احتجُّوا بالآيات فغالطوهم بالتَّأويل؛ ولهذا تجد الواحد من هؤلاء لا يحبُّ تبليغ النُّصوص النَّبوية؛ بل قد يختار كتمان ذلك، والنَّهي عن إشاعته وتبليغه، خلافاً لما أمر الله به ورسوله من التَّبليغ عنه، وقد ذمَّ الله في كتابه الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، وهؤلاء يختارون كتمان ما أنزله الله؛ لأنَّه مُعارضٌ لما يقولونه"[٦].

ومن الأمثلة على كتم المعتزلة وردِّهم للحق، ما يلي:

١- استدلالهم بالنُّصوص للاعتضاد لا للاعتماد، فلا يستدلُّون بها إلَّا إذا رأَوا منها شيئاً يُوافق أهوائهم، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" وغالب أهل البدع يرَون أنَّ الرسول لو قال بخلاف مقالتهم لما اتَّبعوه، كما يُحكى عن عمرو بن عبيد في حديث الصادق المصدوق، وإنَّما يدفعون عن نفوسهم الحُجَّة، إمَّا بردِّ النَّقل، وإمَّا بتأويل المنقول؛ فيطعنون تارةً في الإسناد، وتارةً في المتن،

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٧٢/٧-١٧٣).

(٢) المحلى بالآثار، لابن حزم(١٨٠/٤).

(٣) وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي، أبو سفيان، حافظ للحديث، ثبت، كان محدث العراق في عصره، أراد الرشيد أن يوليه قضاء الكوفة، فامتنع، من مصنفاته: تفسير القرآن، والسنن، والمعرفة والتاريخ، والزهد، وتوفي سنة ١٩٧هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٢٨٢/١)، وحلية الأولياء، للأصبهاني(٣٦٨/٨)، وطبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى(٣٩١/١)، وميزان الاعتدال، للذهبي(٢٧٠/٣)، والأعلام، للزركلي(١١٧/٨).

(٤) سنن الدارقطني(٢٧/١)، رقم ٣٦.

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٦٢/٢٠).

(٦) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٥١٧/٥-٥٢٠).

وإلَّا فهم ليسوا مُتَّبعين ولا مُؤتمِّين بحقيقة السنَّة التي جاء بها الرسول؛ بل ولا بحقيقة القرآن"[1]، وقال- رحمه الله- في موضعٍ آخر:" وأهل البدع سلكوا طريقاً آخر ابتدعوها، واعتمدوا عليها، ولا يذكرون الحديث؛ بل ولا القرآن، في أصولهم إلَّا للاعتضاد لا للاعتماد"[2].

وأكَّد هذا المعنى ابن القيم- رحمه الله- حين قال:" وأمَّا المُتعصِّبون فإنَّهم نظروا في السنة، فما وافق أقوالهم منها قبلوه، وما خالفها تحيَّلوا في ردِّه، أو ردِّ دلالته، وإذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سنداً ودلالةً، وكان يوافق قولهم قبلوه، ولم يستجيزوا ردَّه، واعترضوا به على مُنازعيهم، وأشاحوا وقرَّروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته، فإذا جاء ذلك السَّند بعينه أو أقوى منه، ودلالته كدلالة ذلك أو أقوى منه في خلاف قولهم؛ دفعوه ولم يقبلوه"[3].

وقال الإمام الشاطبي- رحمه الله-:" سُمِّي أهل البدع أهل الأهواء؛ لأنَّهم اتَّبعوا أهواءهم؛ فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتى يصدروا عنها؛ بل قدَّموا أهواءهم، واعتمدوا على آرائهم، ثمَّ جعلوا الأدلة الشرعيَّة منظوراً فيها من وراء ذلك، وأكثرُ هؤلاء هم أهل التَّحسين والتقبيح- أي: المعتزلة – ومن مال إلى الفلاسفة وغيرهم، ويدخل في غِمارهم من كان منهم يغشى السلاطين لنيل ما عندهم، أو طلباً للرياسة، فلا بدَّ أن يميل مع النَّاس بهواهم، ويتأوَّل عليهم فيما أرادوا"[4].

وقال ابن أبي العز الحنفي- رحمه الله-:" كلُّ فريقٍ من أرباب البدع يعرض النُّصوص على بدعته، وما ظنَّه معقولاً، فما وافقه قال: إنَّه مُحكمٌ، وقَبِلَه واحتجَّ به!!، وما خالفه قال: إنَّه مُتشابهٌ، ثمَّ ردَّه، وسمَّى ردَّه تفويضاً!، أو حرَّفه، وسمَّى تحريفه تأويلاً!!؛ فلذلك اشتدَّ إنكار أهل السنة عليهم"[5].

٢- ردُّهم حديث الآحاد في العقائد؛ وبسبب هذا الضلال رُدَّت عقائد كثيرةٌ ثبتت بالنَّص الصحيح، واستغلَّ هذا المذهب قومٌ من الجهلة وأهل الأهواء في ردِّ كثيرٍ من دلائل النُّصوص المُحكمة، بحُجة أنَّها لم تَرِد وروداً قطعياً، حتى أصبح ذلك مخرجاً للمبتدعة في ردِّ كلِّ حديثٍ جاء مُخالفاً لأصولهم وما عليه أهوائهم[6].

قال الإمام النووي- رحمه الله- عن حديث الآحاد:" ذهبتْ القدريَّةُ والرافضة وبعض أهل الظاهر إلى أنَّه لا يجب العمل به"[7].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٧٣/١٩).

(٢) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٣٧/٧).

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(٦٠/١).

(٤) الإعتصام، للشاطبي(٦٨٣/٢-٦٨٤).

(٥) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٣٥٤/١).

(٦) انظر: منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، لأحمد الصويان، ص٨٧.

(٧) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للنووي(١٣١/١).

وقد ردَّ جمعٌ غفيرٌ من أهل العلم وأئمة السُّنة على شُبهة ردِّ حديث الآحاد، وبيَّنوا مخالفتها للأدلَّة الشرعيَّة والعقليَّة وإجماع الأمة، ويُلخِّص ابن عبد البر- رحمه الله- مذهب الأئمة أهل الفقه والأثر في ذلك بقوله:" وكلُّهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويعادى ويوالى عليها، ويجعلها شرعاً وديناً في معتقده، على ذلك جماعة أهل السنة"(١).

٣- اتِّباعُهم المتشابهات، وهجرُ النُّصوص الواضحة، وضربُهم النصوص بعضها ببعض، وقد ذكر ابن القيم- رحمه الله- أنَّ الذين يتمسَّكون بالمتشابه في ردِّ المحكم، لهم طريقان في ردِّ السنن، أحدهما: ردُّها بالمتشابه من القرآن أو من السُّنن، والثاني: جعلُهم المُحكم متشابهاً؛ ليعطِّلوا دلالته، ثم ذكر ابن القيم- رحمه الله- بعد ذلك ثمانية عشر مثالاً لردِّ المُبتدعة للمُحكمات وتتبُّعهم للمتشابهات(٢).

ومن الأمثلة على ذلك أن المعتزلة عندما تعرَّضوا لتفسير قوله ﷻ:﴿ **لَا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ** ﴾[الأنعام:١٠٣]، نفوا رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، كما قال الزمخشري:" فالمعنى أنَّ الأبصار لا تتعلق به، ولا تدركه؛ لأنَّه مُتعالٍ أن يكون مُبصَراً في ذاته؛ لأنَّ الأبصار إنَّما تتعلَّق بما كان في جهةٍ أصلاً أو تابعاً، كالأجسام والهيآت"(٣)، وهذا المُعتقَد الذي يدين به المعتزلة بخلاف مُعتقَد السَّلف، فقد قال ابن أبي العز الحنفي- رحمه الله- مُبيِّناً عقيدة السَّلف في هذه الآية: "فإنَّ المعنى: أنَّه يُرى ولا يُدرك ولا يُحاط به، فقوله:﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ يدلُّ على كمال عظمته، وأنَّه أكبر من كلِّ شيء، وأنَّه لكمال عظمته لا يُدرك بحيث يحاط به، فإنَّ الإدراك هو الإحاطة بالشيء، وهو قدرٌ زائدٌ على الرؤية، فالربُّ تعالى يُرى ولا يُدرك، كما يُعلم ولا يُحاط به علماً، وهذا هو الذي فهمه الصحابة والأئمة من الآية، كما ذُكرت أقوالهم في تفسير الآية"(٤).

٤- تأويلهم لآيات القرآن على ضوء ما أنكروه من الغيبيات، والحقائق الدينيَّة، فنجد أنَّ المعتزلة قد وقفوا تجاه بعض الحقائق الدينية الثابتة عند السلف موقف المعارضة والكفاح، فأهل السُّنَّة مثلاً يقولون بحقيقة السحر، ويعترفون بما له من تأثيرٍ فى المسحور، ويقولون بوجود الجن، ويعترفون بما لهم من قوَّة التأثير فى الإنسان، حتى ينشأ عن ذلك المسَّ والصَرَع، ويقولون بكرامات الأولياء... وما إلى ذلك، وكلُّ هذا يعتقده السَّلف من خلال الإيمان بما جاء في النُّصوص، ولكنَّ المعتزلة الذين ربطوا التفسير بما شرطوه من جعل العقل مقياساً للحقائق الدينية، وقفوا ضد هذا كلِّه، وجعلوه من قبيل الخُرافات، والتَّصوُّرات المخالفة لطبيعة الأشياء، وكان من وراء ذلك أن تمرَّد بعض أعلام المعتزلة

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر(٨/١).

(٢) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(٢١٠/٢).

(٣) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري(٥٢/٢).

(٤) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١٩٢/١-١٩٣).

كالنَّظام المعتزلي على الاعتقاد بوجود الجن، وثار بعضهم كالزمخشرى ضد من يقول بأنَّ الجنَّ لهم قوَّة في التَّأثير فى الإنسان، مع الاعتراف منه بوجودها[١]، فعند تفسير قوله ﷻ:﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾[البقرة:٢٧٥]، يقول الزمخشري:"وتخبُّط الشيطان من زَعَمات العرب، يزعمون أنَّ الشيطان يخبط الإنسان فيُصرع، فورد على ما كانوا يعتقدون، والمسُّ: الجُنون، ورجلٌ ممسوسٌ، وهذا أيضاً من زَعَماتهم، وأنَّ الجني يمسُّه فيختلطَ عقله، وكذلك جُنَّ الرَّجل معناه: ضربته الجنُّ، ورأيتُهم لهم في الجنِّ قصصٌ وأخبارٌ وعجائب"[٢].

فالحاصل أنَّ المعتزلة أوَّلوا ما يُصادمهم من الآيات القرآنية، وأنكروا أو تأوَّلوا ما صحَّ من الأحاديث النبوية، بجرأةٍ بالغةٍ تصل إلى حدِّ الإنكار والردِّ للنُّصوص الصحيحة الصريحة.

خامساً: العبث في المصادر الشرعية للاستدلال وتشويهها: إنَّ اختلاف المبتدعة مع أهل السنة في مصادر الاستدلال هو من أبين الأمور على المُفاصَلة بين هذه المناهج، وقد وقع المعتزلة في هذا الباب الخطير، ومن عدة جوانبٍ، منها:

١- التصديق بالقرآن دون السنة: وعلى هذا المذهب بعض غلاة المعتزلة، فقد جاء عن النَّظامية منهم أنَّهم يقولون:" يجوز أن تجتمع الأمَّة على الخطأ، فإنَّ الأخبار المتواترة لا حجة فيها؛ لأنَّها يجوز أن يكون وقوعها كذباً"[٣].

ولم يكن السلف يتهاونون مع أمثال هؤلاء الذين ينكرون السنَّة الصحيحة، وكان موقفهم في ذلك واضحاً لا لبس فيه.

قال أيوب السختياني- رحمه الله-:" إذا حدثَّتَ الرَّجل بالسُّنة، فقال دعنا من هذا، حسبُنا القرآن، فاعلم أنَّه ضالٌّ"[٤].

وكان أحد السلف يُناظر رجلاً، فقال له: حدثنا فلان، قال له الرجل: دعنا من حدثنا، إلى متى حدثنا، فقال له الشيخ: قم يا كافر، فلا يحلُّ لك أن تدخل داري بعد، ثم التفت إلى جلسائه، فقال: ما قلتُ لأحدٍ قطُّ لا تدخل داري غير هذا"[٥].

٢- الإيمان ببعض الكتاب والكفر ببعضه: وقد تقدَّم أنَّ من منهج السلف الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسُّنة، وجمع النُّصوص الواردة في الباب الواحد، ووضع كلِّ نصٍّ في موضعه اللائق به.

---

(١) التفسير والمفسرون، للذهبي(٢٧٢/١).

(٢) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري(٣٤٧/١).

(٣) أصول الدين، لعبد القاهر البغدادي ص١١.

(٤) ذم الكلام وأهله، للهروي(٥٦/٢).

(٥) المصدر السابق(٧١/٢).

إنَّ كثيراً من المبتدعة يأخذون نصَّاً، ويتركون نصوصاً أخرى، قد تكون مُخصِّصةً أو مُقيِّدةً أو مُبيِّنةً أو ناسخةً، ممَّا يؤدِّي إلى كثيرٍ من الخلط والاضطراب[1].

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه قريش بن أنس[2]- رحمه الله- قال: سمعتُ عمرو بن عبيد يقول: "يُؤتى بي يوم القيامة، فأُقام بين يدي الله، فيقول لي: لم قلتَ: إنَّ القاتل في النَّار؟ فأقولُ: أنتَ قلتَه، ثمَّ تلا هذه الآية:﴿ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٩٣] ، فقلتُ له - وما في البيت أصغر مني-: أرأيتَ إن قال لك قد قلتُ:﴿ إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا ﴾[النساء:٤٨] ، فمن أين علمت أنِّي لا أشاء أن أغفر؟، قال: فما استطاع أن يردَّ عليَّ شيئاً"[3].

٣- الكذب على رسول الله ﷺ، وعدم الإعتناء بسنته: وقد وقع المعتزلة في هذا النَّوع من العبث، "وقد لا يكذبون صراحةً، ولكنَّهم قد يروون الكذب إمَّا مع علمهم بأنَّه كذبٌ، وإمَّا جهلاً منهم به، فيروون الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ولا يعتنون بدراسة النُّقولات، وتحرير صحيحها من سقيمها، وقد جرَّ هذا التساهل والتفريط على الأمة بلاءً وشرَّاً كثيراً" [4].

يقول ابن تيمية- رحمه الله-:" وأمَّا أهل الأهواء ونحوُهم، فيعتمدون على نقلٍ لا يُعرف له قائلٌ أصلاً، لا ثقةً ولا مُعتمد، وأهون شيءٍ عندهم الكذب المُختلق، وأعلم من فيهم لا يرجع فيما ينقله إلى عُمدةٍ، بل إلى سماعاتٍ عن الجاهلين والكذَّابين، ورواياتٍ عن أهل الإفك المبين"[5].

وقال الشاطبي- رحمه الله-:"إذا تبين أنَّ للراسخين طريقاً يسلكونها في اتِّباع الحق، وأنَّ الزائغين على غير طريقهم، فاحتجنا إلى بيان الطريق التي سلكها هؤلاء؛ لنتجنَّبها، فمنها اعتمادُهم على الأحاديث الواهية الضعيفة، والمكذوب فيها على رسول الله ﷺ، والتي لا يقبُلها أهلُ صناعة الحديث في البناء عليها، فإنَّ أمثال هذه الأحاديث لا يُبنى عليها حُكمٌ، ولا تُجعل أصلاً في التَّشريع أبداً، ومن جعلها كذلك؛ فهو جاهلٌ أو مُخطِئٌ في نقل العلم، فلم يُنقل الأخذ بشيءٍ منها عمَّن يُعتمد

---

(١) انظر: منهج التلقي والاستدلال بين السنة والمبتدعة، لأحمد الصويان، ص ٧١.

(٢) قريش بن أنس الأَنْصارِيّ، وقيل: الأُمَوِي، مولاهم، أَبُو أنس البَصْرِيّ، رَوَى عَن:حماد بْن سلمة، والخليل بْن أَحْمَد، وشعبة بْن الحجاج، ورَوَى عَنه:علي بْن المديني، ويحيى بْن مَعِين، روى له الجماعة سوى ابن ماجه، مات سنة تسع ومئتين. انظر: ميزان الاعتدال، للذهبي(٣٨٩/٣)، ولسان الميزان، لابن حجر(٣٩٦/٩).

(٣) تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة(١٣٨/١).

(٤) منهج التلقي والاستدلال بين السنة والمبتدعة، لأحمد الصويان، ص ٧٥.

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤٧٩/٢٧).

به في طريقة العلم ولا طريقة السلوك، والأحاديث الضعيفة الإسناد لا يغلب على الظنِّ أنَّ النَّبي ﷺ قالها، فلا يُمكن أن يُسند إليها حكمٌ، فما ظنُّك بالأحاديث المعروفة الكذب؟!، نعم؛ الحامل على اعتمادها في الغالب إنَّما هو ما تقدَّم من الهوى المُتَّبَع"[١].

سادساً: القدح في الصحابة وهجر منهج السلف: إنَّ الفهم الصحيح لدلائل الكتاب والسنة إنَّما يُؤخذ عن الصحابة الكرام ﷺ ؛ فهم أعلم النَّاس بمراد الله ﷻ، ومراد رسوله ﷺ، وصدق عمران بن حصين ﷺ إذ يقول:" يا قوم خُذوا عَّنا؛ فإنَّكم واللهِ إلَّا تفعلوا لَتَضِلُّنَّ"[٢].

إنَّ أكثر المبتدعة قد انحرفوا بشأن الصحابة انحرافاً واضحاً؛ فلم يعتمدوا منهجهم؛ بل ومنهم من قدح فيهم، وكذَّبهم وافترى عليهم، "وعلامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر"[٣]، وقال الإمام الأوزاعي– رحمه الله–:" مَا ابتدع رَجُلٌ إلا غلَّ صدره عَلَى المسلمين"[٤].

ومن أمثلة جُرأة المعتزلة ووقوعهم في الصحابة، ما يُروى عن عمرو بن عبيد: أنَّه قال: "لو شهد عندي عليٌّ وعثمان وطلحة والزبير على شِراك نعلٍ؛ ما أجزت شهادتهم"[٥]، وقيل لعمرو بن عبيد: كيف حديث الحسن عن سمُرة[٦] ؟ فقال: "ما تصنع بسمرة؟! قبح الله سمرة"، قال الشاطبي:" بل قبح الله عَمْراً بن عبيد، فهكذا أهل الضلال يسبُّون السَّلف الصالح؛ لعلَّ بضاعتهم تُنفَق"[٧].

وقد بيَّن السلف الصالح– رحمهم الله– أنَّ الطعن في الصحابة ﷺ هو طعنٌ في الدِّين، كما قال أبو زرعة الرازي[٨]– رحمه الله– :" إذا رأيتَ الرَّجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنَّه زنديق ، وذلك أنَّ الرسول ﷺ عندنا حقٌّ، والقرآن حقٌّ، وإنَّما أدَّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنَّما يُريدون أن يُجرِّحوا شهودنا؛ ليُبطلوا الكتاب والسنَّة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقة"[٩].

---

(١) الاعتصام، للشاطبي(١/٢٨٦–٢٨٨).

(٢) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي(١/١٥).

(٣) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(١/٢٠٢).

(٤) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي(٩/٤٩٢).

(٥) الاعتصام، للشاطبي(١/١٥٨).

(٦) سَمُرة بن جندب بن هلال الفزاري، صحابي، من الشجعان القادة، نشأ في المدينة، ونزل البصرة، وكان شديداً على الخوارج الحرورية، وله رواية عن النبي ﷺ، مات بالكوفة، وقيل بالبصرة سنة ٦٠ هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٤/٢٣٦)، والأعلام، للزركلي(٣/١٣٩).

(٧) الإعتصام، للشاطبي(١/١٥٩).

(٨) عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ المخزومي بالولاء، أَبو زُرْعَة الرازيّ، من حُفَّاظ الحديث، كان يحفظ مئة ألف حديث، وتوفي بالريّ سنة ٢٦٤هـ، وله مسند في الحديث. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٧/٣٠)، وتذكرة الحفاظ، للذهبي(٢/١٢٤)، وطبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى(١/١٩٩)، والأعلام، للزركلي(٤/١٩٤).

(٩) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي(١/٤٩).

إنَّ هجر منهج الصحابة ﷺ، وعدم الاهتداء بهديهم، أدَّى إلى تخبُّط المبتدعة تخبُّطاً شديداً، فكلَّما ابتعد المرء عن منهج الصحابة علماً وعملاً، ازداد انحرافه وجهله، وتخبطه في فهم النصوص، وهجر مقاصدها ودلائلها، وكثر ضلاله وبُعده عن منهاج النبوة، فالخير كلُّ الخير إنَّما هو في تتبُّع آثارهم، والاقتداء بسنَّتهم[(١)]؛ ولهذا تجد المعتزلة وغيرُهم من أهل البدع يُفسِّرون القرآن برأيهم ومعقولهم وما تأوَّلوه من اللُّغة؛ ولا يعتمدون على أحاديث النَّبي ﷺ، ولا على أقوال الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، ولا على إجماع السلف وآثارهم؛ وإنَّما يعتمدون على العقل واللُّغة، وتجدهم لا يعتمدون على كُتب التفسير المأثورة والحديث، وآثار السلف؛ وإنَّما يعتمدون على كُتب الأدب وكُتب الكلام التي وضعتها رؤوسهم"[(٢)]؛ وبسبب تعلقهم بالكلام، واشتغالهم به؛ ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فأورثهم ذلك الشكَّ والحيرة والاضطراب[(٣)].

إنَّ الذين سلكوا هذه السبيل كلُّهم يُخبر عن نفسه بما يُوجب حيرته وشكَّه، والمسلمون يشهدون عليهم بذلك، فثبت بشهادتهم وإقرارهم على أنفسهم، وشهادة المسلمين الذين هم شُهداء الله في الأرض، أنَّه لم يظفر من أعرض عن الكتاب والسنَّة، وعارضهما بما يناقضهما، بيقينٍ يطمئنُّ إليه، ولا معرفةٍ يسكن بها قلبه[(٤)]؛ ولذلك يمكن أن نصطلح على أرباب علم الكلام بأنَّهم أناسٌ دُحَّضُ الأقدام، فهم الذين لا ثبات لهم، ولا عزيمة في الأمور[(٥)].

وقد بيَّن شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- حاجة الإنسان إلى الكتاب والسنَّة، وأثرها عليه، فقال: "وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثيرٍ من حاجة المريض إلى الطبِّ؛ فإنَّ آخر ما يُقدَّر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأمَّا إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتُها، مات قلبه موتاً لا تُرجى الحياة معه أبدًا، أو شقي شقاوةً لا سعادة معها أبداً، فلا فلاح إلَّا باتِّباع الرسول ﷺ، فإنَّ الله خصَّ بالفلاح أتباعه المؤمنين وأنصاره، كما قال ﷻ:﴿ **فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾[الأعراف:١٥٧]، أي: لا مُفلِح إلَّا هم"[(٦)]، وليس أدلَّ على ذلك من أنَّ "غالب أكابر الذين كانوا يخوضون في الفلسفة والكلام ينتهي بهم أمرهم إلى الحَيرة، وعدم الثقة بما كانوا يُقرِّرون"[(٧)].

---

(١) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٥٣٣/٨).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١٩/٧).

(٣) انظر: أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، لمحمد الخميس، ص١٦٠-١٦١.

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١٦٨/١).

(٥)ا نظر: غريب الحديث، للخطابي(٦٤٠/١).

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٩٦/١٩-٩٧).

(٧) الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشِّنقيطي في تفسيره أضواء البيان، لمحمود المنياوي(١٦٥/١).

لقد نتج عن عدم اتباع المعتزلة لمنهج السلف، ابتداع أصولٍ ومبادئ في العقيدة لم ترد عن الله ﷻ، ولم تثبت عن رسوله ﷺ، ومنها على سبيل المثال:

١- قولهم أنَّ أصول الإيمان والعقيدة خمسةٌ: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع العلم أنَّ ما جاء عن النبي ﷺ في السنة الصحيحة، وأجمعت عليه الأمة، أنَّ أركان الإيمان ستةٌ، كما جاء في الحديث:(**أن تُؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره)**[1].

٢- زعمهم أنّ القرآن مخلوقٌ، متابعةً لقول الجهم في ذلك[2].

٣- ابتداع أسماء لله ﷻ لم يرد بها الشرع مثل مُدرِك المُدركَات[3]، وتسمية الله تعالى القديم[4]، والله ﷻ قد سمَّى نفسه الأول، ولم يُسمِّ نفسه القديم، كما جاء في القرآن:﴿ **هُوَ الأَوَّلُ وَالآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾[الحديد:٣].

٤- ضربهم لله ﷻ الأمثال، وقياسهم له على مخلوقاته ومشاهداتهم في حياتهم بعقولهم القاصرة التي لا تستطيع أن تُدرك حقيقتها فضلاً عن إدراك حقيقة الخالق ﷻ.

٥- نفيهم الصفات عن الله ﷻ بطريقةٍ فلسفيةٍ لا تُطيقها العقول، فقالوا: حيٌّ بلا حياة، عليمٌ بلا علم، سميعٌ بلا سمع...وهكذا، فهم في الحقيقة جرَّدوا الله عن كلِّ صفاته؛ فهم يعبدون عدماً[5].

ولم يترك المعتزلة أصلاً من أصول العقيدة إلَّا وخاضوا فيه بعقولهم، وأحدثوا فيه بمقولاتٍ فلسفيةٍ كلاميةٍ، تخرج عن الطريق الشرعي، وقد شملت انحرافاتهم جُلَّ مسائل العقيدة، وقضايا الغيب والشهادة، من العلم بالله، والوحي، والقرآن، والرسالة والنبوة، والملائكة، والجن والشياطين، وأمور الآخرة من البعث والحساب والجنة والنار، فكلُّ هذه الأمور وغيرها بحثوها من خلال عقلياتهم، وجلُّ أحكامهم في ذلك تخالف عقيدة السلف، وما جاء عن الله ورسوله[6].

ولقد وقف أهل السُّنَّة حيال هذه المحاولات الاعتزالية فى فهم نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية، موقفاً صارماً، حيث أغضبهم هذا التَّصرف؛ فأوقفوهم عند حدِّهم، وأنكروا عليهم بالعبارات اللاذعة التي تزجرهم عن تلاعبهم بالنصوص عن مواضعها؛ تمشِّياً مع الهوى، وميلاً عن العقيدة

---

(١) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه في كتاب الطهارة (٣٦/١)، حديث رقم ٨.

(٢) انظر: الفرق بين الفرق، للأسفراييني، ص٩٤، والرد على الجهمية والزنادقة، لأحمد بن حنبل، ص١١٥.

(٣) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص١٦٨.

(٤) المصدر السابق، ص ١٨١.

(٥) انظر: الرسالة التدمرية، لابن تيمية، ص ١٢٠.

(٦) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٥٢.

الصحيحة[١]؛ ولذلك لم يستطيع منهج المعتزلة أن يقف في مجال المناظرة والحُجَّة مع عوام أهل السُّنة فضلاً عن علمائهم، فيذكر أهل العلم أنَّ أعرابياً أتى عمرو بن عبيد، فقال له: إنَّ ناقتي سُرقت، فادع الله أن يردَّها عليَّ، فقال عمرو بن عبيد: اللهم إنَّ ناقة هذا الفقير سُرقت، ولم تُرِدْ سرقتها، اللهمَّ اردُدها عليه، فقال الأعرابي: الآن ذهبت ناقتي، وأيستُ منها، قال: كيف؟، قال: لأنَّه إذا أراد أن لا تُسرق فسُرِقت، لم آمن أن يُريد رجوعها فلا ترجع، ونهض من عنده مُنصرِفاً"[٢]، وجاء أنَّ "القاضي عبد الجبار شيخ المعتزلة دخل علي الأستاذ أبي إسحاق الاسفرايني[٣]، فقال عبد الجبار: سبحان من تنزَّه عن الفحشاء، فقال الأستاذ: سبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، فقال القاضي: أيشاء ربنا أن يُعصى، فقال الأستاذ :أيُعصي ربنا قهراً، فقال القاضي: أرأيتَ إن منعي الهدى وأورثني الضلال أحسن إليَّ أم أساء ؟، فقال الأستاذ: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو له، فالله يختصُّ برحمته من يشاء؛ فبُهت القاضي"[٤] .

وممَّن أطال وأحسن الردَّ على المعتزلة شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– فكان من كلامه أن قال:" إنَّ مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً، ثمَّ حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سَلَفٌ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم، وما من تفسيرٍ من تفاسيرهم الباطلة إلَّا وبطلانه يظهر من وجوهٍ كثيرةٍ، وذلك من جهتين: تارةً من العلم بفساد قولهم، وتارةً من العلم بفساد ما فسَّروا به القرآن، إمَّا دليلاً على قولهم، أو جواباً على المُعارض لهم، ومن هؤلاء مَن يكون حسنُ العبارة فصيحاً، ويدسُّ البدع فى كلامه، وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشَّاف– يقصد الزمخشري–، ونحوه، حتى إنَّه يروج على خلقٍ كثيرٍ ممَّن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله، وقد رأيتُ من العلماء المُفسِّرين وغيرهم مَن يذكر فى كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يُوافق أصولهم، التى يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدى لذلك"[٥].

وقال ابن القيم– رحمه الله– عن منهج المعتزلة في التعامل مع النُّصوص أنَّه:" زُبالة الأذهان، ونُخالة الأفكار، وعُفارة الآراء، ووساوس الصُّدور، ملئوا به الأوراق سواداً، والقلوب شُكوكاً، والعالم فساداً، وكلُّ من له مَسْكةٌ من عقلٍ يعلم أنَّ فساد العالم وخرابِه إنَّما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل، وما استحكم هذان الأصلان الفاسدان في قلبٍ إلا استحكم هلاكُه، وفي أمَّةٍ إلا

(١) انظر: التفسير والمفسرون، للذهبي(٢٧٣/١).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة، اللالكائي(٨١٦/٤).

(٣) إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن مهران، أبو إسحاق، عالم بالفقه والأصول، كان يلقب بركن الدين، من مصنفاته: الجامع في أصول الدين، ورسالة في أصول الفقه، وكان ثقة في رواية الحديث، وله مناظرات مع المعتزلة، مات في نيسابور سنة ٤١٨ هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(٦١/١)، ووفيات الأعيان، لابن خلكان(٤/١).

(٤) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٢٥١/١).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٥٩/١٣).

فسد أمرها أتمَّ فساد، فلا إله إلا الله كم نُفي بهذه الآراء من حقٍّ، وأُثبت بها من باطلٍ، وأُميت بها من هدىً، وأُحيي بها من ضلالةٍ؟ وكم هُدم بها من معقِل الإيمان، وعُمر بها من دين الشيطان"(١).

المطلب الثالث: موقف أهل السنة من المعتزلة

إنَّ بيان موقف أهل السنة من المعتزلة، وبيان الحكم الشرعي فيهم، لا بدَّ أن يُسبق ببيان أنواع البدع، وحكم من وقع فيها عند السَّلف؛ ليكون الحُكم بعد ذلك بتحرٍ وإنصاف.

وإنَّ ممَّا لا شكَّ فيه أنَّ كلَّ من ابتدع في دين الله ﷻ فقد وقع في الضَّلال، سواءٌ كان هذا الضلال صغيراً أم كبيراً، بقدر ما أفسدت بدعتُه في دين الله ﷻ؛ وذلك لأنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٍ، كما قال ﷺ:**(عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، وعضوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومُحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ مُحدثةٍ بدعةٌ، وإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ)**(٢).

إنَّ البدع فيها مجاوزةٌ لحدود الله، واتِّهامٌ للشريعة بالنقص والقصور، وهي من هذه الجهة كبيرةٌ، ولكن تكْبُر أكثر ويعظُم جُرمها إذا أُضيفت البدع بعضها إلى بعض، لا سِيَّما إذا كانت في أمور الاعتقادات، فبعضها يقدح في أصل الإيمان وهي البدع المُكفِّرة، وآخر يقدح في كماله الواجب أو المستحب، وهي ما يكون من البدع في مرتبة الكبيرة أو الصغيرة(٣).

ولهذا قال ابن تيمية– رحمه الله–: "وممَّا ينبغي أيضاً أن يُعرف أنَّ الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجاتٍ، منهم من يكون قد خالف السنة في أصولٍ عظيمةٍ، ومنهم من يكون إنَّما خالف السنة في أمورٍ دقيقة"(٤).

فالبدع بحسب إخلالها بالدين قسمان:

١– بدعةٌ مكفرةٌ: وضابط البدعة المكفرة هو إنكار أمرٍ مُجمعٍ عليه متواترٍ من الشرع معلومٍ من الدين بالضرورة، من جحد مفروضٍ، أو فرض ما لم يُفرض، أو إحلال محرَّمٍ، أو تحريم حلالٍ، أو اعتقاد ما يُنزَّه الله ورسوله وكتابه عنه من نفيٍ أو إثبات؛ لأنَّ ذلك تكذيبٌ بالكتاب، وبما أرسل الله به رسله، كبدعة الجهمية في إنكار صفات الله ﷻ، والقول بخلق القرآن، أو خلق أيِّ صفةٍ من صفات الله، وإنكار أن يكون الله ﷻ اتخذ إبراهيم خليلاً، وكلَّم موسى تكليماً، وغير ذلك، وكبدعة القدرية في إنكار علم الله ﷻ وقضائه وقدره، وكبدعة المُجسِّمة الذين يُشبِّهون الله ﷻ بخلقه، وغير ذلك من الأهواء.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١/٥٤–٥٥).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده من حديث العرباض بن سارية، رقم ١٧١٤٤، وقال محققه شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٣) انظر: فتح المغيث بشرح الفية الحديث، للعراقي(٢/٧٣).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٤٨).

٢- **بدعةٌ غير مكفرةٍ:** وهي ما لم يلزم منه تكذيبٌ بالكتاب، ولا بشيءٍ ممَّا أرسل الله به رسله، كتأخير بعض الصلوات إلى أواخر أوقاتها، وتقديم الخُطبة قبل صلاة العيد، ونحو ذلك ممَّا لم يكن منهم على اعتقاد شرعيته؛ بل بنوع تأويلٍ وشهواتٍ وأغراضٍ دنيوية[١].

ومن الأصول العظيمة التي امتاز بها أهل السنة والجماعة عن سائر الفرق في الحُكم على المخالفين، أنَّهم يُفرِّقون بين المقالة وصاحبها، فالمقالة قد تكون كُفراً أو فسقاً، وصاحبها ليس بكافرٍ ولا فاسقٍ، كما أنَّها تكون إيماناً وتوحيداً وصاحبها ليس بمؤمنٍ ولا مُوحِّدٍ، ولكي توافق مقالة الكفر صاحبها، ويُوصف بها، لا بدَّ من تحقُّق شروطٍ، وانتفاء موانع، **أما الشُّروط**[٢] **فهي:**

١ - أن يكون صريحُ قوله الكفر، عن اختيارٍ وتسليم.

٢ - أن يكون لازم قوله الكفر، وعُرض عليه فالتزمه، أمَّا إذا لم يلتزمه؛ بل ردَّه وأنكره فليس بكافرٍ.

٣ - أن تقوم الحُجة عليه ويتبيَّنُها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" والتحقيق في هذا، أنَّ القول قد يكون كفراً، كمقالات الجهمية الذين قالوا: إنَّ الله لا يتكلم ولا يُرى في الآخرة؛ ولكن قد يخفى على بعض الناس أنَّه كفرٌ؛ فيطلق القول بتكفير القائل؛ كما قال السلف من قال: القرآن مخلوقٌ فهو كافرٌ، ومن قال: إنَّ الله لا يُرى في الآخرة فهو كافرٌ، ولا يُكفَّر الشخص المُعيَّن حتى تقوم عليه الحُجَّة، فإذا كان المتأول المخطئ في جحد وجوب الصلاة والزكاة واستحلال الخمر والزنا لا يُحكم بكفره إلَّا بعد البيان له واستتابته كما فعل الصحابة في الطائفة الذين استحلُّوا الخمر، ففي غير ذلك أولى وأحرى، فإنَّ ظهور تلك الأحكام بين المسلمين أعظم من ظهور هذه"[٣].

وقال- رحمه الله- أيضاً:" وحقيقة الأمر في ذلك، أنَّ القول قد يكون كفراً؛ فيُطلق القول بتكفير صاحبه، ويقال من قال كذا فهو كافرٌ، لكنَّ الشخص المُعيَّن الذي قاله لا يُحكم بكفره حتى تقوم عليه الحجة التي يكفُر تاركها"[٤].

ثمَّ إنَّ أصحاب البدع المكفرة "منهم من عُلم أنَّ عينَ قصده هدمُ قواعد الدين، وتشكيكُ أهله فيه، فهذا مقطوعٌ بكفره؛ بل هو أجنبيٌّ عن الدين، من أعدى عدوٍّ له، وآخرون مغرورون ملبَّسٌ عليهم، فهؤلاء إنَّما يحكم بكفرهم بعد إقامة الحُجة عليهم، وإلزامهم بها"[٥].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٢/١)، ومعارج القبول، لابن حكمي(١٢٢٨/٣).

(٢) انظر: فتح المغيث، للسخاوي(٧٣/٢)، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٠٦/٥)،(٥٢٣/١٢).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٦١٩/٧).

(٤) المرجع السابق(٣٤٥/٢٣).

(٥) معارج القبول، لابن حكمي(١٢٢٩/٣).

إنَّ هذه الضوابط تُعدُّ من أصول السَّلف في الحُكم على الأشخاص، وهو جنس ما كانوا يفعلونه مع من وقعوا في البدع الكفرية، فلم يكونوا يحكموا بالكفر على أحدٍ حتى يُبينوا له، ويُقيموا الحُجة عليه، ويتأكدوا من فهمه للحُجة، فإن أصرَّ بعدها واستكبر فلا عذر له.

وأمَّا الموانع التي تمنع من وقوع حكم الكفر على فاعله، فمنها(١):

١- أن يكون حديث عهدٍ بالإسلام.

٢- أن يكون قد نشأ ببادية بعيدةٍ، ويدخل معه من لم يجد إلا علماء الابتداع يستفتيهم ويقتدي بهم.

٣- أن يكون مُغيَّب العقل بجنونٍ ونحوه.

٤- أن لا تبلغه نصوص الكتاب والسنة، أو بلغته ولم تثبت عنده إن كانت سنَّةً، أو لم يتمكن من فهمها.

٥- أن تكون قد بلغته وثبتت عنده وفهمها، ولكن قام عنده مُعارضٌ أوجب تأويلها، وإن كان مُخطئاً، ويدخل معه المجتهد المخطئ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في بيان من كفَّر شخصاً معيناً بانياً كلامه على أقوال السلف في كفر من قال بخلق القرآن، ونفي بعض الصفات: "وحقيقة الأمر أنَّهم أصابهم في ألفاظ العموم في كلام الأئمة ما أصاب الأولين في ألفاظ العموم في نصوص الشارع، كلَّما رأوهم قالوا: من قال كذا فهو كافرٌ، اعتقد المُستمع أنَّ هذا اللفظ شاملٌ لكلِّ من قاله، ولم يتدبروا أنَّ التكفير له شروطٌ وموانعٌ قد تنتفي في حقِّ المُعيَّن، وأنَّ تكفير المُطلق لا يستلزم تكفير المُعين، إلَّا إذا وُجدت الشروط، وانتفت الموانع، ويبيِّن هذا أنَّ الإمام أحمد وعامة الأئمة الذين أطلقوا هذه العمومات، لم يُكفِّروا من تكلَّم بهذا الكلام بعينه، فإنَّ الإمام أحمد قد باشر الجهمية الذين دعوه إلى خلق القرآن، ونفي الصفات، وامتحنوه وسائر علماء وقته، وفتنوا المؤمنين والمؤمنات الذين لم يُوافقوهم على التَّجهُّم بالضرب والحبس، والقتل والعزل عن الولايات، وقطع الأرزاق، وردِّ الشهادة، وترك تخليصهم من أيدي العدو، بحيث كان كثيرٌ من أولي الأمر إذ ذاك من الجهمية؛ من الولاة والقضاة وغيرهم، ويُكفِّرون كلَّ من لم يكن جهمياً موافقاً لهم على نفي الصفات، مثل القول بخلق القرآن، ويحكمون فيه بحكمهم في الكفار...، ثمَّ إنَّ الإمام أحمد دعا للخليفة وغيره، ممَّن ضربه وحبسه، واستغفر لهم، وحلَّلهم ممَّا فعلوه به من الظلم والدعاء إلى القول الذي هو كفرٌ، ولو كانوا مرتدِّين عن الإسلام، لم يَجزْ الاستغفار لهم، فإنَّ الاستغفار للكفار لا يجوز بالكتاب والسنة والإجماع، وهذه الأقوال والأعمال منه ومن غيره من الأئمة صريحةٌ في أنَّهم لم يُكفِّروا المُعينين من الجهمية، الذين كانوا يقولون: القرآن مخلوقٌ، وإنَّ الله لا يُرى في الآخرة"(٢).

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/١٧٩)،(٣/٢٣١)، (٧/٢١٧-٢١٨)، (٢٣/٣٤٦).

(٢) المرجع السابق(١٢/٤٨٨)،(٢٣/٣٤٨).

إنَّ من كفَّرهم السلف بأعيانهم، ما كُفِّروا بأعيانهم إلَّا لأنَّهم توفرت فيهم الشروط، وانتفت عنهم الموانع، وأُقيمت عليهم الحُجة؛ فلم يرجعوا عن أقوالهم؛ فعندها قال السلف بتكفيرهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: " ومن كفَّره الإمام أحمد بعينه؛ فلقيام الدليل عنده على أنَّه وُجدت فيه شروط التكفير، وانتفت موانعه"(١).

إنَّ من كُفِّر من أهل القبلة ببدعةٍ فلا يُساوى بالكافر الأصليَّ أبداً؛ بل لا نعتبر المبتدع أعدى من أعداء الله الكفار المظهرين عداوتهم للإسلام؛ لأنه وإن ابتدع فربَّما قام في قلبه من التوحيد والخير ما يغفر الله له ذلك، قال الإمام الذهبي- رحمه الله- في تعليقه على ترجمة بشر المَرِيسي بعد أن ذكر تكفير العلماء له، قال: "ومن كُفِّر ببدعةٍ وإن جلَّت، ليس هو مثلُ الكافر الأصلي، ولا اليهودي والمجوسي، أبى الله أن يجعل من آمن بالله ورسوله واليوم الآخر، وصام وصلى وحجَّ وزكَّى، وإن ارتكب العظائم، وضلَّ وابتدع، كمن عاند الرسول، وعبد الوثن، ونبذ الشرائع، وكفر، ولكن نبرأ إلى الله من البدع، وأهلها"(٢).

إنَّ هذا الذي قاله الذهبي – رحمه الله- هو العدل والإنصاف في الحكم على الناس، وهو منهج السَّلف في التعامل مع المبتدعين، حتى إنَّ أئمة الحديث كالبخاري ومسلم- رحمهما الله- كانوا يروون روايات هؤلاء المبتدعة، ويُثبتونها في مُصنفاتهم، وذلك لأمورٍ كثيرةٍ منها، ثقة أولئك وصدقهم في روايتهم، وأنَّهم كانوا يروون عنهم ما لا يُقوِّي بدعتهم، ويروون عنهم حرصاً على حفظ العلم وتدوينه، وأهم سبب أنَّهم كانوا يروون عنهم بسبب أنَّ بعض المسائل التي خالفوا فيها، ممَّا يُتسامح في الخلاف فيه إلى حدٍ ما؛ لغموضها ولقوة الشبهة التي دفعتهم إلى ذلك، وهؤلاء الأشخاص الذين روى لهم البخاري ومسلم لم يكونوا ممَّن يُتَّهمون بمحاربة الإسلام والكيد له، وإنَّما كانت لهم أخطاءٌ ظناً منهم أنَّهم فيها على صوابٍ، فقد اجتهدوا كغيرهم من طالبي الحق، ولكن ليس كلُّ من اجتهد في طلب شيءٍ أصاب الحق فيه، ثمَّ إنَّ أخذ العلماء عن هؤلاء إنَّما هو دليلٌ قويٌّ على ذمِّ التسرع في تكفير المخالفين، وإخراجهم من الملَّة، ودليلٌ على وجوب الإنصاف، وأنَّ الحق ضالَّة المؤمن، أينما وجده أخذه، بغضِّ النَّظر عن حامله(٣).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "ومن أهل البدع من يكون فيه إيمانٌ باطناً وظاهراً، لكن فيه جهلٌ وظلمٌ حتى أخطأ ما أخطأ من السُّنة، فهذا ليس بكافرٍ ولا مُنافقٍ، ثمَّ قد يكون منه عدوانٌ وظلمٌ يكون به فاسقاً أو عاصياً، وقد يكون مُخطئاً مُتأولاً مغفوراً له خطؤه، وقد يكون مع ذلك معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه، وقد يخفى كثيرٌ من مقالات أهل البدع

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤٨٩/١٢).

(٢) سير أعلام النبلاء، للذهبي(٣٣٧/٨).

(٣) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١١٧١-١١٧٢).

على كثيرٍ من أهل الإيمان، حتى يَظنَّ أنَّ الحق معهم؛ لما يوردونه من الشبهات، ويكون أولئك المؤمنون مؤمنين بالله ورسوله باطناً وظاهراً؛ وإنَّما التبس عليهم واشتبه هذا، كما التبس على غيرهم من أصناف المبتدعة، فهؤلاء ليسوا كفاراً قطعاً؛ بل قد يكون منهم الفاسق والعاصي، وقد يكون منهم المُخطئ المُغفور له، وقد يكون معه من الإيمان والتقوى ما يكون معه به من ولاية الله بقدر إيمانه وتقواه"[1].

وقال- رحمه الله- أيضاً:" والمقصود هنا أنَّه لا يُجعل أحدٌ بمجرد ذنبٍ يُذنبه، ولا ببدعةٍ ابتدعها ولو دعا الناس إليها كافراً في الباطن، إلَّا إذا كان منافقاً نفاقاً أكبر، فأمَّا من كان في قلبه الإيمان بالرسول وما جاء به، وقد غلط في بعض ما تأوَّله من البدع، فهذا ليس بكافرٍ أصلاً، والخوارج كانوا من أظهر الناس بدعةً وقتالاً للأمة، وتكفيراً لها، ولم يكن في الصحابة من يُكفِّرهم، لا عليَّ بن أبي طالبٍ ولا غيره؛ بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين، كما ذكرت الآثار عنهم بذلك، وكذلك سائر الثنتين والسبعين فرقةٍ من كان منهم منافقاً نفاقاً أكبر فهو كافرٌ في الباطن، ومن لم يكن منافقاً؛ بل كان مؤمناً بالله ورسوله في الباطن، لم يكن كافراً في الباطن، وإن أخطأ في التأويل كائناً ما كان خطؤه؛ وقد يكون في بعضهم شعبةٌ من شعب النفاق، ولا يكون فيه النفاق الذي يكون صاحبه في الدرك الأسفل من النار، ومن قال إنَّ الثنتين والسبعين فرقةً كلُّ واحدٍ منهم يكفُر كفراً ينقل عن الملة، فقد خالف الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ﷺ؛ بل وإجماع الأئمة الأربعة وغير الأربعة، فليس فيهم من كفَّر كلَّ واحدٍ من الثنتين وسبعين فرقةً"[2].

وقال- رحمه الله- في كلامٍ هو أصرح ممَّا سبق :" وهكذا الأقوال التي يُكفَّر قائلها، قد يكون الرَّجل لم تبلغه النصوص المُوجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده، ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عرضت له شُبهاتٌ يعذره الله بها، فمن كان من المؤمنين مجتهداً في طلب الحق وأخطأ؛ فإنَّ الله يغفر له خطأه كائناً ما كان، سواءٌ كان في المسائل النظرية أو العملية، هذا الذي عليه أصحاب النبي ﷺ، وجماهير أئمة الإسلام"[3].

وأما ما جاء من قتل بعض رؤوس البدعة في الأمة، كأمثال الجهم بن صفوان والجعد بن درهم وغيلان الدمشقي، فهذا قد يكون بسبب وقوع حكم الكفر عليهم بعد إقامة الحجّة، أو لكفِّ ضررهم عن الأمة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" وأمَّا قتل الداعية إلى البدع، فقد يُقتل لكفِّ ضرره عن الناس، كما يُقتل المحارب، وإن لم يكن في نفس الأمر كُفراً، فليس كلُّ من أُمر بقتله يكون

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٥٢-٣٥٥).

(٢) المرجع السابق(٧/٢١٧-٢١٨).

(٣) المرجع السابق(٢٣/٣٤٦).

قتلُه لردَّته، وعلى هذا قَتْلُ غيلان القدري وغيرِه، قد يكون على هذا الوجه"[١]، ثمَّ إنَّ معاملة عليٍّ ﷺ للخوارج مشهورةٌ، حيث امتنع عن تكفيرهم، وقاتلهم مقاتلة البغاة، لا الكفار[٢].

إنَّه لا بدَّ في هذا الأمر من التفريق بين جاهلٍ تمكَّن من العلم ومعرفة الحق، ولكنَّه يُعرض ويستكبر، وآخرٍ لم يتمكن من ذلك، فالمُتمكن المُعرض مُفرِّط تاركٌ للواجب عليه، لا عذر له عند الله، وأمَّا العاجز عن السؤال والعلم، ولم يتمكن منه بوجهٍ، فقد يكون مُريداً للهدى، مُؤْثِراً له إن تبيَّن له، مُحبَّاً له؛ لكنَّه غير قادرٍ عليه وعلى طلبه، وذلك لعدم وجود من يُرشده، فهو يقول: يا ربِّ لو أعلم لك ديناً خيراً ممَّا أنا عليه لدنتُ به، وتركتُ ما أنا عليه، ولكن لا أعرف سوى ما أنا عليه، ولا أقدر على غيره، فهو غاية جهدي، ونهاية معرفتي[٣].

ونخلص ممَّا سبق أنَّ مخالفة منهج السلف في الاعتقاد، قد تكون كفراً صريحاً، وقد تكون دون ذلك، والمخالف قد يكون كافراً مُعلناً كفره، وقد يكون مُنافقاً مُبطناً كفره، وقد يكون مُعتدياً ظالماً، أو جاهلاً معذوراً، أو مُجتهداً مخطئاً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" ليس كلُّ من خالف في شيءٍ من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكاً، فإنَّ المُنازع قد يكون مُخطئاً يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحُجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته ...؛ بل مُوجب هذا الكلام أنَّ من اعتقد ذلك نجا في هذا الاعتقاد، ومن اعتقد ضده فقد يكون ناجياً، وقد لا يكون ناجياً"[٤].

وعليه، فالمعتزلة فرقةٌ من فرق أهل القبلة، وقد جاء في عقائدهم ما يستلزم الوقوع في الكفر، مثل: انكار الصفات، والقول بخلق القرآن، وغيرها، ولكن لا يجوز الحُكم على مُعيَّنٍ منهم بالكفر إلا بعد تحقيق شروطه، وانتفاء موانعه، وإقامة الحُجة وتفهيمها لهم، وما أُثر عن بعض السلف من إطلاق التكفير واللعن فهذا يبقى على إطلاقه وعمومه، ولا يتعيَّن في حقِّ إنسانٍ إلا بدليلٍ، فالمخالف للكتاب والسنة كما سبق إمَّا أن يكون مُجتهداً مخطئاً، أو جاهلاً معذوراً، أو مُتعدِّياً ظالماً، أو منافقاً زنديقاً كأن يُبطن الكفر ويظهر الإسلام، أو مُشركاً ضالاً وهو المُصرِّح بالكفر، وكلٌّ يُعامل بحسبه.

ومع كلِّ هذا الإنصاف والعدل فلا ينبغي أن يُفهم أنَّ من قام في حقِّه ما يمنع لحوق الوعيد به، أنَّ مخالفته للسنة جائزةٌ أو مشروعةٌ، أو أنَّنا نُقرُّه على ذلك؛ بل هو على باطلٍ، نُبيِّن له، وننصحه، ونُقيم الحُجة عليه، ولكننا لا نُكفِّره ابتداءً، إلا بعد تحقق الشرط فيه، وانتفاء الموانع عنه[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٥٠/٢٣).

(٢) انظر: الإعتصام، للشاطبي(٤٩٦/٢).

(٣) انظر: طريق الهجرتين، لابن القيم(٤١٢/١-٤١٣).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٧٩/٣).

(٥) انظر: منهج الإستدلال على مسائل الإعتقاد، لعثمان حسن، ص٧٢٨.

المبحث الثاني
الأشاعرة ومنهجهم في فهم النص الديني

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالأشاعرة وبيان أصولها الاعتقادية.

المطلب الثاني: منهج الأشاعرة في فهم النص الديني

المطلب الثالث: موقف أهل السنة من الأشاعرة.

المبحث الثاني: الأشاعرة ومنهجهم في فهم النص الديني

المطلب الأول: التعريف بالأشاعرة وبيان أصولهم الاعتقادية

أولاً: التعريف بالأشاعرة:

إنَّ الأشاعرة فرقةٌ كلاميةٌ إسلاميةٌ، تنسب لأبي الحسن الأشعري- رحمه الله-، ظهرت في القرن الثالث الهجري، وقد اتَّخذت من البراهين، والدلائل العقلية، والكلامية وسيلةً في محاججة خصومها من المعتزلة والفلاسفة وغيرهم؛ لإثبات حقائق الدين والعقيدة الإسلامية على طريقة ابن كُلَّاب[1][2]، ولم يدم أبو الحسن الأشعري- رحمه الله- على طريقة ابن كلاب، إذ رجع إلى مذهب السلف، فصار أتباعُه على أقسامٍ، فبعضهم على معرفةٍ بمذهبه الصحيح وآرائه التي استقرَّ عليها أخيراً، وبعضهم على جهلٍ تامٍّ بذلك، وبعضهم يتجاهل، ويُصرُّ على مخالفته، مع انتسابه إليه، فمن انتسب إليه في مرحلته الثالثة؛ فقد وافق السلف[3].

وقد مرَّ المذهب الأشعري بثلاث مراحل في زمن أبي الحسن الأشعري- رحمه الله-:

١- **المرحلة الأولى:** عاش فيها أبو الحسن الأشعري- رحمه الله- في كنف أبي علي الجُبَّائي، شيخ المعتزلة في عصره، وتلقَّى علومه؛ حتى صار نائبه وموضع ثقته، وظلَّ أبو الحسن يتزعم المعتزلة فترةً من الزمن[4].

٢- **المرحلة الثانية:** ثار فيها أبو الحسن الأشعري- رحمه الله- على مذهب الاعتزال الذي كان ينافح عنه، بعد أن اعتكف في بيته خمسة عشر يوماً، يُفكِّر ويدرس ويستخير الله ﷻ، حتى اطمأنت نفسه، وأعلن البراءة من الاعتزال، وخطَّ لنفسه منهجاً جديداً، يلجأ فيه إلى تأويل النصوص بما ظنَّ أنَّه يتفق مع أحكام العقل، وفيها اتَّبع طريقة ابن كُلَّاب في إثبات الصفات السبع عن طريق العقل: الحياة والعلم والإرادة والقدرة والسمع والبصر والكلام، أمَّا الصفات الخبرية كالوجه واليدين والقدم والساق فتأوَّلها على ما ظنَّ أنَّها تتفق مع أحكام العقل، وهذه هي المرحلة التي ما زال الأشاعرة عليها إلى الآن، فلا يصحُّ نسبة مذهبهم الذي استقرُّوا عليه إلى أبي الحسن الأشعري؛ لأنَّه رجع إلى مذهب السلف؛ بل حقيقة مذهبهم كُلَّابي نسبةً إلى عبد الله بن كُلَّاب[5].

---

(١) رأس المتكلمين بالبصرة في زمانه، أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب البصري، صاحب التصانيف في الرد على المعتزلة، وربما وافقهم في بعض المسائل، من تصانيفه: الصفات، خلق الأفعال، توفي سنة: (٢٤٥). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(١١/١٧٤-١٧٦).

(٢) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، لمانع الجهني(١/٨٣).

(٣) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام، لغالب عواجي(٣/١٢٠٥).

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٧/٢٣٦).

(٥) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/١٢٠٧).

٣- **المرحلة الثالثة:** إثبات الصفات جميعها لله ﷻ، من غير تكييفٍ ولا تشبيهٍ ولا تعطيلٍ ولا تحريفٍ ولا تبديلٍ ولا تمثيلٍ، وهو مذهب السلف، وفي هذه المرحلة كتب كتاب الإبانة عن أصول الديانة، الذي عبَّر فيه عن تفضيله لعقيدة السلف ومنهجهم، الذي كان حامل لوائه الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله-، ولم يقتصر على ذلك؛ بل خلَّف كتباً كثيرةً في الدفاع عن السنة وشرح العقيدة ، ولما تُوفِيَ سنة ٣٢٤هـ ، نُودِيَ على جنازته: "اليوم مات ناصرُ السنَّة"(١).

وأمَّا عن سلف الأشاعرة في اعتقادهم فتُشير المصادر إلى أنَّ سلفهم في مقالتهم هو عبد الله بن سعيد بن كُلَّاب وأصحابه الكُلَّابية، وأبي العباس القلانسي(٢)، والحارث المُحاسبي(٣).

يقول الشهرستاني- رحمه الله- بعد أن بيَّن أنَّ جماعةً كثيرةً من السلف كانوا يُثبتون صفات الله ﷻ من غير تفرقةٍ بين الصفات الذاتية منها والصفات الفعلية:"حتى انتهى الزمان إلى عبد الله بن سعيد الكُلابي، وأبي العباس القلانسي، والحارث بن أسدٍ المُحاسبي، وهؤلاء كانوا من جملة السَّلف إلَّا أنَّهم باشروا علم الكلام، وأيَّدوا عقائد السلف بحُججٍ كلاميةٍ، وبراهينَ أصوليةٍ، وانحاز الأشعري إلى هذه الطائفة، فأيَّد مقالتهم بمناهج كلامية"(٤).

ويَعتبر الأشاعرةُ ابنَ كُلَّاب، إمام أهل السنة في عصره، ويعدُّونه شيخهم الأول، فيقولون: "ذهب شيخنا الكُلابي عبد الله بن سعيد إلى كذا"(٥).

كما يذكرون ابن كلاب وكذا القلانسي في كتبهم مشيرين إلى أنَّهما من أصحابهم(٦)، وهؤلاء هم سلف الأشعرية، وقد كانوا من جملة السَّلف، ثمَّ باشروا علم الكلام، فجرَّهم ذلك إلى مخالفة السلف في بعض ما يقولون، وموافقة المعتزلة في بعض أصولهم، وأشهر ما خالفوا فيه السلف، ووافقوا فيه المعتزلة مسألة نفي قيام الأفعال الاختيارية بذات الله ﷻ، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "وكان الناس قبل أبي محمد بن كلاب صنفين: فأهل السنة والجماعة يثبتون ما يقوم بالله ﷻ من

---

(١) انظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر(١٥٢/١)، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، لمانع الجهني(٨٣/١).

(٢) أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن خالد القلانسي الرازي، ويرتبط اسم القلانسي بابن كلاب كثيراً، ومع اشتهاره إلا أن كتب التراجم لم تعن بترجمته كما فعلت مع ابن كلاب والمحاسبي، ولذلك فتاريخ ولادة القلانسي ووفاته غير معروفين. انظر: تبيين كذب المفتري، لابن عساكر، ص ٣٩٨.

(٣) الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله، من أكابر الصوفية، كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظاً مُبكياً، وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره، من كتبه: آداب النفوس، والمسائل في أعمال القلوب والجوارح، قيل: إن الحارث تكلم في شئ من الكلام فهجره أحمد بن حنبل، وتوفي سنة ٢٤٣هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(١٤٣/٢)، وصفة الصفوة، لابن الجوزي(٢٠٧/٢)، وميزان الاعتدال، للذهبي(١٩٩/١)، والأعلام، للزركلي(١٥٣/٢).

(٤) الملل والنحل، للشهرستاني(٩٣/١).

(٥) نهاية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني، ص٣٠٣.

(٦) انظر: أصول الدين، للبغدادي، ص٨٧، ص٢٣٤، والإرشاد، للجويني، ص ١١٩.

الصفات والأفعال التي يشاؤها ويقدر عليها، والجهمية من المعتزلة وغيرهم تنكر هذا وهذا، فأثبت ابن كلاب قيام الصفات اللازمة به، ونفي أن يقوم به ما يتعلق بمشيئته وقدرته من الأفعال وغيرها، ووافقه على ذلك أبو العباس القلانسي، وأبو الحسن الأشعري وغيرهما"[(١)].

وقد أنكر السلف على الأشاعرة هذه الطريقة التي سلكوها، وكان الإمام أحمد بن حنبل من أشدِّهم في ذلك؛ فقد هجر الحارث بن أسد المحاسبي حتى مات، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وأما الحارث المحاسبي فكان ينتسب إلى قول ابن كُلاب؛ ولهذا أمر أحمد بهجره، وكان أحمد يُحذِّر من ابن كلابٍ وأتباعه"[(٢)].

ثانياً: أصول الاعتقاد عند الأشاعرة.

إنَّ دراسة أصول الاعتقاد عند الأشاعرة أمرٌ يحتاج إلى تقصٍّ واستقراء؛ لأنَّ تحديد ما استقرَّ عليه مذهب الأشاعرة، أمرٌ ليس باليسير، فالأشاعرة أنفسُهم ليسوا على مذهبٍ واحد؛ بل بينهم اختلافٌ كبيرٌ، فالمذهب الأشعري مرَّ بعدَّة أطوارٍ بعد وفاة أبي الحسن الأشعري- رحمه الله-، وأخذ المذهب مع مرور الزمن وتتابع المنتسبين إليه من أئمة المذهب وواضعي أصوله يتطور، وتزيد الفجوة بينه وبين مذهب السلف، فتعدَّدت اجتهاداتهم ومناهجهم في أصول المذهب وعقائده، وتذبذبت مواقفهم واجتهاداتهم، فأئمة الأشاعرة بعد الأشعري ليسوا على قولٍ واحدٍ حتى في الأصول؛ فبعضهم يثبت سبع صفاتٍ فقط، ويُأوِّل الباقي، وبعضهم يثبت سبع صفاتٍ أخرى غيرها، وبعضهم يأخذ بأحاديث الآحاد، وآخرون لا يأخذون به، وبعضهم يثبت بعض الصفات، وآخر ينفيها أو يُأولها[(٣)].

إنَّ الرجوع عن المذهب قد وقع كثيراً لأعلام الأشاعرة الكبار، فالأشعري نفسه ترك الأشعرية، ورجع إلى عقيدة السلف، حتى إنَّ الكتب التي انتشرت عن المذهب الأشعري، وتلقَّفها الناس، وصارت من الأصول المعتمدة في المذهب، قد تراجع أصحابها عن المذهب، وتابوا ممَّا قالوه، وصرَّحوا بخلافه، من أمثال الجُويني[(٤)]، والغزالي، والرازي، والشهرستاني، وغيرهم، ولكن يمكن اعتبار أنَّ

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٦/٢).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٦٨/١٢)، ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٦/٢).

(٣) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام، لغالب عواجي(١٢٢٠/٣).

(٤) أبو محمد، عبد الله بن يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حَيُّوَيَه الطَّائي،الجُوَيـنِي النيسابوري، شيخ الشافعية، يُلقب بركن الدين، والد إمام الحرمين، كان إمامًا في التفسير، والفقه، والأصول، والأدب، والنحو، وقد رجع إلى مذهب السلف، بعد الاشتغال بعلم الكلام، من تصانيفه: التبصرة في الفقه، رسالة إثبات الحرف والصوت ومسألة العلو والاستواء، توفي سنة:(٤٣٨هـ). انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(٦١٧/١٧-٦١٨)، والبداية والنهاية، لابن كثير(٥٥/١٢).

الأرضية النهائية التي استقرَّ عليها المذهب الأشعري هي ما جاء في كتابات الإيجي[(١)]، وهذا الإمام له كتابان مُهمَّان عند الأشاعرة، كتاب العقائد العضدية وهو متنٌ مختصرٌ وُضعت عليه شروحٌ وحواشي عديدةٌ، وكتاب المواقف في علم الكلام، وهذا الكتاب له شروحٌ، وعليها حواشي كبيرة الحجم، ومنزلة هذا الكتاب عند الأشاعرة أنَّه يمثل الصياغة النهائية لمذهب الأشاعرة، لا سيِّما الطبعة التي بشرح الجرجاني[(٢)(٣)]، وهذا الكتاب يُعدُّ حصيلة تراث الأشاعرة، وهذا الكتاب يُضاهي ما بلغه كتاب المغني للقاضي عبد الجبار بالنسبة للمعتزلة، وما بلغه كتاب الشفاء لابن سينا[(٤)] بالنسبة للفلاسفة.

وقد تطور مذهب الأشاعرة مع مرور الزمن ومن أبرز مظاهر التطور الذي حصل في المذهب الأشعري، القرب من أهل الكلام والاعتزال، والدخول في التصوف، والتصاق المذهب الأشعري به، والدخول في الفلسفة وجعلها جزءاً من المذهب، فتأثَّر أئمة المذهب بعد أبي الحسن الأشعري- رحمه الله- ببعض أفكار ومعتقدات الجهمية من الإرجاء والتعطيل، وكذلك بالمعتزلة والفلاسفة في نفي الصفات وتحريف نصوصها، ونفي العلو والصفات الخبرية، كما تأثروا بالجبرية في مسألة القدر[(٥)]؛ فتطوَّر مذهب الأشاعرة وتعقَّد، وتأثر بآراءٍ كثيرةٍ من اعتقادات الفرق الأخرى، وأصبح المذهب الأشعري خليطاً من المذاهب.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "والأشعرية الأغلب عليهم أنَّهم مُرجئةٌ في باب الأسماء والأحكام، جبريةٌ في باب القدر، وأمَّا في الصفات فليسوا جهميةً محضةً؛ بل فيهم نوعٌ من التَّجهُّم"[(٦)].

---

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو الفضل، عضد الدين الإيجي، عالم بالأصول والمعاني والعربية، من أهل إيج بفارس، ولي القضاء، وأنجب تلاميذ عظامًا، من مؤلفاته: العقائد العضدية، توفي سنة: (٧٥٦ هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٢٩٥/٣).

(٢) علي بن محمد بن علي، المعروف بالشريف الجرجاني، فيلسوف من كبار العلماء بالعربية، له نحو خمسين مصنفا، منها: التعريفات، وشرح مواقف الإيجي، توفي ٨١٦ هـ.انظر: الأعلام، للزركلي(٧/٥).

(٣) هذا الكتاب له طبعات كثيرة، ومن طبعاته القديمة الطبعة الأولى سنة ١٣٢٥ هـ - ١٩٠٧م لمطبعة السعادة بمصر، وفيها كتاب المواقف لعضد الدين عبد الرحمن بن أحمد الإيجي، (بشرحه) للمحقق السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ، مع حاشيتين عليه: أحدهما/ لعبد الحكيم السيالكوتي، والثانية/ للمولى حسن جلبي بن محمد شاه الفناري.

(٤) الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو علي، الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والالهيات، كان هو وأبوه، من القرامطة الباطنيين، من كتبه: القانون، ورسالة في الحكمة، والشفاء، وتوفي سنة ٤٢٨هـ. انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(١٥٢/١)، ولسان الميزان، لابن حجر(٢٩١/٢)، والأعلام، للزركلي(٢٤٠/٢).

(٥) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب، لمانع الجهني(٩٢/١).

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥٥/٦).

ويمكن تلخيص ما استقرَّ عليه مذهب الأشاعرة أخيراً فيما يلي[1]:

١- ضرورة المُقدمات المنطقية العقلية عندهم، واستقرار القانون العقلي عند تعارض العقل والنقل، وذلك بتقديم حُجة العقل على النص.

٢- خبر الآحاد عندهم لا يُفيد اليقين؛ فلا يُحتج به في العقائد.

٣- مسألة نفي العلو والجهة أصبحت من المسائل المسلمة التي لا تقبل المناقشة.

٤- استقرَّ الأمر في الصفات على إثبات سبع صفاتٍ، وما عداها فيجب تأويلها، ونفي الصفات الفعلية الاختيارية، فالأشاعرة يثبتون لله ﷻ سبع صفات، يسمونها: صفات المعاني، وهي: العلم، والقدرة، والإرادة، والحياة، والسمع، والبصر، والكلام، ويؤولون بقية الصفات، فيقولون في العلو مثلاً: هو علو القدر والمكانة، وليس علو الجهة.

٥- في كلام الله ﷻ قالوا: هو كلامٌ نفسيٌّ، وليس حقيقياً بالحرف والصوت.

٦- في الرؤية قالوا: الرؤية ثابتةٌ، لكن مع نفي العُلو.

٧- في الإيمان مالوا فيه إلى مذهب المرجئة،

٨- فيما يتعلق بحكمهم على من خالفهم بقي المذهب متأرجحاً بين التكفير لغالب الطوائف، والإعذار لهم.

٩- في القدر أرادوا التوفيق بين الجبرية والقدرية، فجاؤوا بنظرية الكسب، وهي في مآلها جبريةٌ خالصةٌ؛ لأنَّها تنفي أيَّ قدرةٍ للعبد أو تأثيرٍ.

١٠- في التوحيد يجعلون اهتمامهم كلَّه في إثبات توحيد الربوبية، ولا يهتمون بتوحيد الألوهية الذي هو أصل بعثة الرُّسل، وقلَّما يذكرونه في كتبهم؛ لذا وقع كثيٌر منهم في بدع وطرق الصوفية.

وقد تفرعت عن هذه الأصول الكبار مسائل متعددةٌ، متفرقةٌ، كانوا في كلِّ واحدةٍ منها سالكين ومتابعين لأقوال طائفةٍ، أو فرقةٍ من الفرق المنحرفة عن منهج أهل السنة[2].

---

(١) انظر: منهج الأشاعرة في العقيدة، لسفر الحوالي، ص٧٧-٩٠، ومختصر معارج القبول، لهشام آل عقدة، ص٧٦.

(٢) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود (٧٧٣/٢).

المطلب الثاني: منهج الأشاعرة في فهم النص الديني

يمثل الأشاعرة منهجًا مستقلًا في التعامل مع النصوص، فالأشاعرة فرقةٌ كلاميةٌ انشقت عن أَصلها المعتزلة؛ ولذلك يَعتبر الأشاعرة العقل مصدر التلقي[١]، فهم:"يجعلون العقل هو الأساس، والنقل تبعًا له"[٢]، وقد استعانوا بقضايا فلسفيةٍ، ومسائل عقليةٍ خاض فيها الفلاسفة، وسلكها المناطقة[٣]، وممَّا يدلُّ على هذا المنهج قول الفخر الرازي: "ولو جوَّزنا القدح في الدلائل العقلية القطعية، صار العقل مُتهماً، غير مقبول القول، ولو كان كذلك لخرج أن يكون مقبول القول في هذه الأصول، وإذا لم نثبت هذه الأصول، خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدةً، فثبت أنَّ القدح لتصحيح النقل يُفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً، وإنَّه باطلٌ، فالدلائل النقلية بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة إمَّا أن تكون غير صحيحةٍ، أو أنها صحيحةٌ، إلا أنَّ المراد منها غير ظواهرها، وهذا أمرٌ نقطع به"[٤]؛ ولذلك كان للأشاعرة منهجٌ حاولوا فيه التقريب بين منهج المعتزلة ومنهج السلف، ولكن بطريقة ردَّة الفعل في التعامل مع القضايا التي يتكلمون فيها، فلا مع المعتزلة بقوا، ولا إلى السلف انتموا؛ بل مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، ولكن في غالب الأمر بنوا أقوالهم على ما بنى عليه المعتزلة آرائهم من الاعتماد على علم الكلام، فالأشاعرة أخذوا الكلام من المعتزلة، وتتلمذوا عليهم، فلم يكن لهم خيارٌ سوى الركون إلى مذاهبهم، والسير على طريقتهم[٥]؛ فشاركوا المعتزلة في الكثير من النقاط التي ذكرها الباحث سابقاً في منهج المعتزلة، من اعتماد المبدأ اللغوي في فهم النص، وتطويع اللغة لصالحهم بالاستشهاد بما شذَّ من وجوه الإعراب والشعر القديم، ومن القول بالتأويل، واستخدام الأساليب البلاغية مثل المجاز والاستعارة لنفي الصفات، ومن اطَّلع على كتابات الأشاعرة يجد أنَّهم قد أولوا الصفات بنفس الطريقة التي أوَّلتها بها المعتزلة، وخيرُ مثالٍ على ذلك ما فعله الجرجاني[٦] في كتابه أسرار البلاغة، فقد أوَّل فيه نصوص الصفات، ومنها صفة اليد واليمين، وقال: إنَّها أمثلةٌ لبيان قوة الله، وقدرته[٧]، مخالفاً بذلك ما عليه السلف بأنها تدلُّ على حقيقتها المُرادة منها أنَّ الله ﷻ له يدان، ليست كيدي المخلوق؛ بل له يدان بما يليق به ﷻ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ

---

(١) انظر: منهج الأشاعرة في العقيدة، لسفر الحوالي(١/٧٦-٧٧).

(٢) وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم، ص٦٣.

(٣) انظر: تاريخ المذاهب الاسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية ص ١٥٨.

(٤) أساس التقديس في علم الكلام، للرازي، ص١٣٠.

(٥) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(١/٨٠-٨١).

(٦) عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني، أبو بكر، من أئمة اللغة وواضع أصول البلاغة، ، كان شافعياً وعالماً أشعرياً، شديد الرد على المعتزلة، من كتبه: أسرار البلاغة، ودلائل الإعجاز، والمغني في شرح الإيضاح، وتوفي ٤٧١ هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(٤/٤٨).

(٧) انظر: أسرار البلاغة، للجرجاني(١/٣٦٥).

﴿شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾[الشُّورى:١١]، وفي موضعٍ آخرٍ صرَّح الجرجاني بنفي صفة الإتيان والمجيء والاستواء عن الله ﷻ، فقال:"الإتيان والمجيء انتقالٌ من مكانٍ إلى مكان، وصفةٌ من صفات الأجسام، والاستواء إن حُمل على ظاهره لم يصحَّ إلَّا في جسمٍ يشغَل حيِّزاً، ويأخذُ مكاناً، واللَّه ﷻ خالق الأماكن والأزمنة، ومُنشِئ كلَّ ما تصحُّ عليه الحركة والنُّقلة، والتَّمكُّن والسكون، والانفصال والاتصال"[١].

وبالرغم من تشابه الأشاعرة والمعتزلة في هذه النقطة، إلا أنَّ الأشاعرة أقلُّ من المعتزلة في التأويل والإنكار على كلِّ ما خالف عقولهم، وخيرُ شاهدٍ على ذلك ما فعله ابن المنير السَّكندري[٢] في تعقباته على الزمخشري في كتابه الانتصاف من الكشاف، والأشاعرة كذلك يتقبَّلون معظم ألفاظ النصوص المتعلقة بالغيبيات في الآخرة؛ ولذلك خالفوا المعتزلة في الميزان والصراط والشفاعة، وغيرها من العقائد، وردُّوا عليهم في ذلك[٣]، وتتضح معالم منهج الأشاعرة فيما يلي من النقاط:

أولاً: تقديم العقل على النقل: إنَّ من المساوئ التي أُبتليت بها بعض الفرق تقديس العقل، واعتماده مصدراً أعلى من كلام خالق العقل، ورأوا أنَّه إذا تعارض النقل والعقل في شيءٍ؛ فإنَّ العقل يُقدَّم، وهذا موجودٌ عند الأشاعرة، فيزعمون أنَّ العقل هو الأصل والأساس، وأنَّ الدلالة العقلية قطعيةٌ، بينما الدلالة النقلية ظنيةٌ، وأنَّ معرفة الله ﷻ لا تُنال إلا بُحجة العقل، وهي أصلٌ وما عداها فرعٌ، فلو قدَّمنا النقل بزعمهم لكان من باب تقديم الفرع على الأصل، فلو حكم العقل باستحالة الشيء، وحكم السمع بخلافه، فيجب تأويل السمع؛ ليتوافق مع العقل؛ فإنَّه هو الذي شهد بصدق الشرع، ولم يُعرف الشرع إلا بالعقل، فمن كذَّب العقل فقد كذَّب الشرع والعقل معاً، سواءٌ كان في الصفات أو في غيرها من الأخبار، وما ورد من آيات الصفات ينبغي عرضها على العقل، فإذا عارضها وجب تأويلها؛ لتوافق العقل، أو تفويض علمها إلى الله، وما ثبت بالتواتر وخالفه العقل، إمَّا أن يُؤول أو يُفوَّض، وما ثبت بأخبار الآحاد فإنَّه لا يُقبل بأيِّ حالٍ في العقائد[٤].

والحقُّ الذي لا مرية فيه، أنَّه لا يوجد تعارضٌ بين العقل والنقل، فإنَّ النصوص الشرعية التي صحَّت من كتاب الله ﷻ، أو من سنة نبيه ﷺ، لا يمكن أن يُعارضها العقل السليم الخالي عن الشهوات والبدع، وإنَّ ما ذهب إليه المبتدعة من إسقاطهم أخبار الآحاد في العقائد، هو من المساوئ

---

(١) انظر: أسرار البلاغة، للجرجاني(٣٩١/١-٣٩٣).

(٢) أحمد بن محمد بن منصور، من علماء الإسكندرية وأدبائها، ولي قضاءها وخطابتها مرّتين، من مصنفاته: تفسير حديث الإسراء وهو على طريقة المتكلمين، والانتصاف من الكشاف، تعقب فيه الزمخشري في كثير من المسائل، وتوفي سنة ٦٨٣ هـ. انظر: تاريخ الإسلام، للذهبي(٤٩١/١٥)، والوافي بالوفيات، للصفدي(٨٤/٨).

(٣) انظر: المواقف، للإيجي(٢٩٦/١).

(٤) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي (٣/ ١٢٤٤).

التي وقع فيها هؤلاء، وهو من الأقوال العارية عن الأدلَّة الشرعية، لا من الكتاب ولا من السنة، ولا من أقوال علماء الأمَّة المُعتبرين، وقد ناقش الباحث هذه المسألة سابقاً، وبيَّن فيها أقوال العلماء، وأنَّ الحق هو قبول خبر الآحاد في باب الاعتقاد وفى غيره ما دام ثابتاً.

ويتضح موقف الأشاعرة من العقل والنقل من خلال ما جاء في كتبهم التي يتمسَّكون بما جاء فيها إلى اليوم، حتى وإن رجع أصحاب هذه الكتب عمَّا قالوه، وبرؤوا منه، قال أبو المعالي الجويني:" وإن كان مضمون الشرع المتصل بنا مُخالفًا العقل؛ فهو مردودٌ قطعًا بأنَّ الشرع لا يخالف العقل، ولا يُتصور في هذا القسم ثبوت سمعٍ قاطعٍ"[(١)]، وبيَّن الجويني أيضاً أنَّ النقل يُقبل إذا كان مضمونه ممَّا يجوز في العقل، فقال: "كلُّ ما جوَّزه العقل، وورد به الشرع، وجب القضاء بثبوته"[(٢)].

كما أوضح أيضاً أنَّه لا يتحتم تأويل كلِّ حديثٍ ورد مُخالفًا للعقل؛ وإنَّما يجب تأويل الأحاديث التي تُوجب العلم وهي المتواترة، بخلاف الآحاد، فقال: "وليس يتحتم علينا أن نتأوَّل كلَّ حديثٍ مُختلِفٍ، كيف وقد بيَّنَّا أنَّ ما يصحُّ في الصِّحاح من الآحاد لا يلزم تأويله، إلَّا أن نخوض فيه مُسامحين؛ فإنَّه إنَّما يجب تأويل ما لو كان نصاً لأوجب العلم"[(٣)].

وقد وضع الرازي ما يُسمى بالقانون الكُلِّي، الذي يرجع إليه الأشاعرة عند تعارض العقل والنقل بزعمهم، فقال:" اعلم أنَّ الدلائل القطعية إذا قامت على ثبوت شيءٍ، ثمَّ وجدنا أدلةً نقليةً يُشعر ظاهرها بخلاف ذلك؛ فهناك لا يخلو الحال من أحد أمور أربعة:

١- إمَّا أن يُصدِّق مقتضى العقل والنقل، فيلزم تصديق النقيضين وهو محالٌ.

٢- وإمَّا أن يُبطلهما، فيلزم تكذيب النقيضين وهو محالٌ.

٣- وإمَّا أن يُصدِّق الظواهر النقلية، ويُكذِّب الظواهر العقلية، وذلك باطلٌ؛ لأنَّه لا يمكننا أن نعرف صحة الظواهر النقلية، إلا إذا عرفنا بالدلائل العقلية، ولو جوَّزنا القدح في الدلائل العقلية، صار العقل مُتهمًا غير مقبول القول، ولو كان كذلك؛ لخرج أن يكون مقبول القول في هذه الأصول، وإذا لم تثبت هذه الأصول خرجت الدلائل النقلية عن كونها مفيدةً، فثبت أنَّ القدح في العقل لتصحيح النقل، يُفضي إلى القدح في العقل والنقل معاً، وأنَّه باطلٌ، ولمَّا بطلت هذه الأقسام لم يبقَ إلا أن يُقطع بمقتضى الدلائل العقلية القاطعة بأنَّ هذه الدلائل النَّقلية إمَّا أن يُقال: إنَّها غير صحيحةٍ، أو يُقال: إنَّها صحيحةٌ إلَّا أنَّ المراد منها غير ظواهرها، ثمَّ إن جوَّزنا التأويل، واشتغلنا به على سبيل التَّبرُّع بذكر تلك

---

(١) الإرشاد، للجويني، ص ٣٥٨- ٣٦٠.

(٢) لمع الأدلة، للجويني، ص١١٢.

(٣) الشامل في أصول الدين، للجويني(٥٦١/١).

التأويلات على التفصيل، وإن لم يَجزْ التأويل فوَّضنا العلم بها إلى الله ﷻ؛ فهذا هو القانون الكليُّ المرجوعُ إليه في جمع المتشابهات"[١].

وقال الرازي أيضًا في ذِكر شروط إفادة الدَّليل اللفظي اليقين: "عدم وجود المُعارض العقلي، الذي لو كان لرجح عليه؛ إذ ترجيح النَّقل على العقل يقتضي القدح في العقل، المُستلزم للقدح في النقل؛ لافتقاره إليه، وإذا كان المُنتجِ ظنياً، فما ظنُّك بالنتيجة"[٢]، وبمثل ذلك قال الإيجي أيضًا[٣].

ونتيجة قانونهم الكلي الذي وضعوه تقضي بالرجوع عند الاختلاف إلى العقل كما تقدَّم، فما جوَّزه العقل قُبل، وما اعتبره مُستحيلاً وجب تأويله إن كان قطعيَّ الثبوت، وإن كان ظنياً اشتُغل بتأويله على سبيل التَّبرُّع، أو رُدَّ لعدم حُجيته، وبذلك ردُّوا وأوَّلوا كثيرًا من نصوص الشرع الصحيحة.

ومن مظاهر تقديم الأشاعرة لعقولهم على النَّص، ما يلي:

١- **استخدامهم طريقة الفلاسفة وعلم الكلام في إثبات العقائد**، ويظهر ذلك جليَّاً في أشهر تفاسيرهم وهو تفسير الرازي المعروف بمفاتيح الغيب، حيث جاء الرازي في تفسيره بأمثلةٍ كثيرة تدلُّ على التزامه بهذا الأصل الذي وضعوه لأنفسهم، ومن الأمثلة على ذلك:

أ- فسَّر الرازي قوله ﷻ:﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾[الأنبياء:٢٢]، بما يُعرف عندهم بدليل التَّمانُع، والمراد بهذا الدَّليل يتضح من كلام الرازي حيث يقول:"القول بوجود إلهين يُفضي إلى المُحال؛ لأنَّا لو فرضنا وجود إلهين، فلا بدَّ وأن يكون كلُّ واحدٍ منهما قادراً على كلِّ المقدورات، ولو كان كذلك لكان كلُّ واحدٍ منهما قادراً على تحريك زيدٍ وتسكينه، فلو فرضنا أنَّ أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه، فإمَّا أن يقع المُرادان، وهو محالٌ؛ لاستحالة الجمع بين الضِّدَّين، أو لا يقع واحدٌ منهما، وهو محالٌ؛ لأنَّ المانع من وجود مُراد كلِّ واحدٍ منهما مرادُ الآخر، أو يقع مراد أحدهما دون الثاني، وذلك محالٌ أيضاً؛ لوجهين، أحدهما: أنَّه لو كان كلُّ واحدٍ منهما قادراً على ما لا نهاية له، امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر؛ بل لا بدَّ وأن يستويا في القدرة، وإذا استويا في القدرة استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني، وإلا لزم ترجيح المُمكن من غير مرجحٍ، وثانيهما: أنَّه إذا وقع مُراد أحدهما دون الآخر، فالذي وقع مرادُه يكون قادراً، والذي لم يقع مُراده يكون عاجزاً، والعجز نقصٌ وهو على الله محالٌ، ....، ثم قال:" وهذه حجَّةٌ تامَّةٌ في مسألة التوحيد"[٤].

قلتُ: إنَّ كلَّ هذا الكلام الفلسفي العقلي لا فائدة منه، إلا فرض الفرضيات، وتتبعها، وارهاق العقول في نفيها أو اثباتها، والمسألة أيسر من ذلك بكثير؛ بل هي من المُسلَّمات الواضحات، ولا

(١) أساس التقديس في علم الكلام، للرازي، ص١٧٢-١٧٣.

(٢) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، للرازي، ص٥١.

(٣) انظر: المواقف في علم الكلام، للإيجي، ص٤٠.

(٤) مفاتيح الغيب، للرازي(٢٢/١٣٠-١٣١).

تحتاج إلى كلِّ هذا التعقيد، ولكن لا غرابة في ذلك، فالرازي نفسُه واضع القانون العقلي للمتكلمين معروفٌ عنه خوضه في المسائل الفلسفية والكلامية، وتقريره لكلِّ مسألةٍ بالأدلَّة التي أوردها أصحابُها، وزيادتُه على ذلك بأدلةٍ من عنده يرى أنَّها تصلح أن تكون دليلاً لكل طرفٍ؛ ولذلك قال بعد أن بيَّن أنَّه لخَّص أقوال الفلاسفة واجتهد في تحريرها: ثمَّ نضمُّ إليه أصولاً وفَّقنا الله إلى تحريرها وتحصيلها وتفصيلها، ممَّا لم يقف عليه أحدٌ من المُتقدمين، ولم يقدر على الوصول إليه أحدٌ من السالكين... ثمَّ يقول عن سبب تأليفه لكتابه:" صنَّفتُ هذا الكتاب بتوفيق الله تعالى لي، وأوردت فيه من الحقائق والدقائق ما لا يكاد يوجد في شيءٍ من كُتب الأولين والآخرين، والسابقين واللاحقين، من المخالفين والموافقين، والمرافقين والمفارقين... ثمَّ ذكر كيف أنَّه استقصى أدلَّة كلِّ مذهبٍ، وأورد الأسئلة والجوابات عليه، وتعمَّق في بحار المشكلات على وجهٍ يكون انتفاع صاحب كلِّ مذهبٍ بكتابه أكثر من انتفاعه بالكُتب التي صنفها أصحاب ذلك المذهب؛ بل إنَّه ذكر أنَّه إذا لم يجد دليلاً لأصحاب ذلك المذهب، استنبط أقصى ما يمكن أن يُقال في تقريره[1].

ولو أنَّ المتكلمين اكتفوا بالنُّصوص الثابتة في كلِّ مسألةٍ خاضوا فيها لكانت لهم غنيةً وكفايةً، وفي هذه المسألة جاء القرآن الكريم بالأدلة العقلية الواضحة على إثبات التوحيد لله ﷻ، ومنها قول الله ﷻ:﴿ **مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ** ﴾[المؤمنون:٩١][2].

ب- في تفسير قوله ﷻ:﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ** ﴾[الملك:٢]، يقول الرازي: "إنَّما قدَّم ذكر الموت على ذكر الحياة مع أنَّ الحياة مُقدَّمةٌ على الموت لوجوهٍ ...، وثالثُها: أنَّه روي عن النبيﷺ :" أنَّ مُنادياً يُنادي يوم القيامة يا أهل الجنة، فيعلمون أنَّه من قِبل الله ﷻ، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، فيقول: هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ قالوا: نعم، ثمَّ يُؤتى بالموت في صورة كبشٍ أملحٍ، ويُذبح، ثمَّ ينادي: يا أهل الجنة خلودٌ بلا موت، ويا أهل النار خلودٌ بلا موت؛ فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرح، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزن"[3] ، واعلم أنَّا بينَّا أنَّ الموت عَرضٌ من الأعراض، كالسكون والحركة، فلا يجوز أن يصير كبشاً؛ بل المراد منه: التَّمثيل؛ ليُعلم أنَّ في ذلك اليوم قد انقضى أمر الموت، فظهر بما ذكرناه أنَّ أيام الموت هي أيام

---

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٦٧٠).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٩/٣٦٩).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النَّارُ يَدْخُلُهَا الْجَبَّارُونَ وَالْجَنَّةُ يَدْخُلُهَا الضُّعَفَاءُ،(٨/١٥٢)، رقم (٧٣٦٠) .

الدنيا، وهي منقضيةٌ، وأمَّا أيام الآخرة فهي أيام الحياة، وهي متأخرةٌ، فلمَّا كانت أيام الموت مُتقدمةً على أيام الحياة، لا جرم قدَّم الله ذكر الموت على ذكر الحياة"(١).

ويلاحظ من كلام الرازي أنَّه تأوَّل الموت بأيام الدنيا، والحياة بأيام الآخرة؛ ليجد تفسيراً مُتعسَّفاً لما أُشكل عليه من تقديم الموت على الحياة، كما يُلاحظ أنَّه ردَّ الدلالة الواضحة للحديث الصحيح بالعقل؛ ليتناسب مع مذهبه، فيعتقد أنَّ المعنوي لا يُمكن أن يتجسَّد في صورة المحسوس المُشاهد، وذلك خلافاً لما عليه أهل السنة، حيث يعتقد أهل السنة والسلف أنَّ "الله ﷻ قادرٌ على أن يخلق من المعاني أجساماً محسوسةً مُشاهدةً، كما يجعل الموت في صورة كبشٍ أملحٍ يُذبح"(٢).

إنَّ التوفيق لهداية الرحمن لا يكون إلا بتقديم دينه وشرعه على ما تُخرجه عقولنا القاصرة من افتراضات، فالهداية لم تأتنا إلا عن طريق الوحي على أيدي رسل الله الكرام، فبأيِّ مُسوِّغٍ نترك طريق الهداية، ونرجع إلى تقديم العقل، فلو كان العقل يكفى للوصول إلى الحقِّ مُجرَّداً عن النقل، لما عاش المُعرضون عن الله، والمُقدِّمون لعقولهم أمثال اليونان في متاهات الكُفر والضلال، ولما احتجنا إلى الأنبياء، فمن الإجرام أن نترك طريق الهداية واضحاً مشرقاً، ثمَّ نتعلَّل بتقديس العقل في مقابل نصوص الكتاب والسنة، فللعقل حدٌّ إذا تجاوزه صاحبه انقلب إلى الجهل والمتاهات(٣)، وقد عدَّ أهل العلم بالسنة أنَّ من أهم ما يُميُّز أهل السنة من أهل البدعة، تقديمُ النَّقل والأثر على العقل، والاحتكام إليهما؛ كما يقول أبو المظفر السمعاني- رحمه الله-: "واعلم أنَّ فَصلَ ما بيننا وبين المُبتدعة هو مسألة العقل؛ فإنَّهم أسَّسوا دينهم على المعقول، وجعلوا الاتَّباع والمأثور تبعاً للمعقول، وأمَّا أهل السُّنة قالوا: الأصل في الدِّين الاتباع، والعقول تَبَعٌ، ولو كان أساس الدِّين على المعقول؛ لاستغنى الخلق عن الوحيِّ وعن الأنبياء- صلوات الله عليهم-، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء"(٤)

وقد بيَّن ابن القيم أنَّ من أهم علامات أهل السنة أنهم "عند التنازع يدعون إلى التحاكم إليها دون آراء الرجال وعقولها، بينما أهل البدع يدعون إلى التحاكم إلى آراء الرجال ومعقولاتها" (٥).

٢- **أنهم وقعوا في الخلل عند التعامل مع القضايا العقائدية الكبرى**، ويظهر ذلك جلياً عند تعريفهم للتوحيد الذي هو حقُّ الله على العباد، فقد خالف الأشاعرة السَّلف في معنى التوحيد، حيث يعتقد السلف أنَّ التوحيد هو أول واجب على العبيد، وهو إفراد الله بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته على نحو ما أثبته ﷻ لنفسه أو أثبته له رسوله ﷺ، ونفي ما نفاه الله عن نفسه، أو نفاه عنه رسوله ﷺ، من غير تحريفٍ، أو تعطيلٍ، أو تكييفٍ، أو تمثيل، ولكنَّ الأشاعرة يعتبرون أنَّ أول واجبٍ على المُكلف

(١) مفاتيح الغيب، للرازي(٣٠/٤٨-٤٩).

(٢) فتح الباري، لابن رجب الحنبلي(٢/١١٠).

(٣) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١٢٤٧).

(٤) الانتصار لأصحاب الحديث، للسمعاني(١/٨١-٨٢).

(٥) مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(١/٦٠٣).

ليس التوحيد؛ بل النظر أو القصد إلى النظر، فإذا بلغ الإنسان عندهم سنَّ التكليف وجب عليه النظر، ثمَّ الإيمان، واختلفوا فيمن مات قبل النظر أو في أثنائه، أيُحكم له بالإسلام أم بالكفر؟!، وينكرون المعرفة الفطرية، وزعموا أنَّ من آمن بالله بغير طريق النظر، فإنَّما هو مُقلِّدٌ، ورجح بعض الأشاعرة كفره، واكتفى بعضهم بتعصيته[١]، وهذا ما خالفهم فيه الحافظ ابن حجر- رحمه الله- وأنكره عليهم إنكاراً شديداً ونقل أقوالاً كثيرةً في الردِّ عليهم[٢].

يقول أبو المعالي الجويني: "أوَّل ما يجب على العاقل البالغ باستكمال سنِّ البلوغ أو الحلم شرعاً، القصد إلى النَّظر الصحيح المُفضي إلى العلم بحدث العالم، والنَّظر في اصطلاح الموحدين هو الفكر الذي يُطلب به من قام به علماً أو غلبة ظنٍّ"[٣] .

وأمَّا التوحيد عند السلف فينقسم إلى ثلاثة أقسام: توحيد الألوهية وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذا هو تقسيم السلف لأنواع التوحيد، وهذه الأنواع كانت معروفةً بالبداهة عند السلف الصالح من الصحابة ومن تبعهم بإحسانٍ، حتى ولو لم يُفصِّلوا هذا التفصيل في وقتهم، فإنَّهم كانوا يعلمون أنَّ توحيد الألوهية يتعلق بإفراد الله ﷻ بالعبادة والخضوع والإنابة له وحده جلَّ وعلا، والابتعاد عن الإشراك مع الله آلهةً أخرى.

وأمَّا توحيد الربوبية فهم يعلمون أنَّ الله هو ربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه، وهو خالق الخلق ورازقهم، ومدبرُ أمورهم كلِّها، وأنَّ هذا النوع من التوحيد داخلٌ في مضمون توحيد الألوهية إلَّا عند الخلف من المتكلمين الذين عكسوا الحقائق.

وأمَّا توحيد الأسماء والصفات فلقد كانوا على معرفةٍ بأنَّ لله ﷻ من الصفات ما أخبر به في كتابه الكريم، وما أخبر به نبيه العظيم، فيؤمنون أنَّ الله ﷻ له ذاتٌ لا تشبه الذوات، وله صفاتٌ لا تشبه صفات المخلوقين إلَّا مجرد الاشتراك في التَّسمية.

ولقد كتب علماء السنة مئات المصنفات في بيان هذه الأنواع، والواجب على الناس تجاهها، وكيفية الإيمان بها، وغير ذلك ممَّا لا يكاد يُحصر[٤].

أمَّا الأشاعرة حينما يُقرِّرون الكلام في التوحيد، فإنَّهم يقسمونه إلى ثلاثة أقسام، فيقولون:"هو واحدٌ في ذاته لا قسيم له، وواحدٌ في صفاته لا شبيه له، وواحدٌ في أفعاله لا شريك له"[٥]، وأشهر

---

(١) انظر: المواقف، للإيجي(١/١١٦)، والإنصاف، للباقلاني، ص٧، والإرشاد للجويني، ص٣، والشامل، للجويني، ص١٢٠.

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر(١٣-٣٤٩-٣٥٥).

(٣) الإرشاد، للجويني، ص ٢٥.

(٤) فرق قديمة ومعاصرة تنتسب إلى الإسلام، لغالب عواجي(٣/١٢٥٩).

(٥) مفاتيح الغيب، للرازي(٤/١٥٦).

الأنواع الثلاثة عندهم هو الثالث، وهو توحيد الأفعال، ومعناه عندهم أنَّ خالق العالم واحدٌ، ويظنُّون أنَّ هذا هو معنى قولنا: لا إله إلا الله.

يقول الرازي في تفسير قوله ﷻ:﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٦٣]، "قال أصحابنا: إنَّه سبحانه وتعالى واحدٌ في ذاته لا قسيم له، وواحدٌ في صفاته لا شبيه له، وواحدٌ في أفعاله لا شريك له"(١)، فالأشاعرة لا يعتدُّون بتوحيد الربوبية كقسمٍ من أقسام التوحيد، وهو الذي لم يوجد فيه نزاعٌ بين الأنبياء وأممهم، وهو أهم أقسام التوحيد وأوجبها معرفة، مع أنَّ الله ﷻ أخبر في كتابة الكريم أنَّ كفار قريش وغيرهم عند بعثة النبي ﷺ إليهم، كانوا يعرفون توحيد الربوبية ويعتقدون أنَّ الله هو الخالق لكلِّ شيءٍ، كما قال ﷻ:﴿ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾[العنكبوت:٦١]، وكذلك قد أهمل الأشاعرة توحيد الألوهية، فلا نجد له ذكرا في كتبهم الكلامية؛ وهذا جهلٌ بحقيقة التوحيد الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، وكانت فيه الخُصومة بين الرسول ﷺ ومشركي العرب(٢)؛ فلقد كان مشركي العرب في عهد النبي ﷺ يعرفون أنَّ معنى لا إله إلا الله نفى ألوهية أيِّ شيءٍ مع الله ﷻ؛ ولهذا وقفوا في وجوه رسلهم شعارهم:﴿ أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾[ص:٥]، فإنَّ معنى لا إله إلا الله، أي: لا معبود بحقٍّ إلا الله وحده، وهذه هي دعوة الرسل كلِّهم من أوَّلهم إلى آخرهم، كما قال ﷻ:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾[الأنبياء:٢٥](٣).

قال ابن أبي العز الحنفي– رحمه الله–:"وكثيرٌ من أهل النَّظر يزعمون أنَّ توحيد الربوبية الذي قرَّروه هو توحيد الإلهية الذي بيَّنه القرآن، ودعت إليه الرسل عليهم السلام، وليس الأمر كذلك؛ بل التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، هو توحيد الإلهيَّة المُتضمِّن توحيد الربوبية، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، فإنَّ المشركين من العرب كانوا يُقرُّون بتوحيد الربوبية، وأنَّ خالق السماوات والأرض واحدٌ، ولم يكونوا يعتقدون في الأصنام أنَّها مشاركةٌ لله في خلق العالم؛ بل كان حالهم أنَّهم يعتقدون أنَّ هذه تماثيل قومٍ صالحين من الأنبياء والصالحين، ويتخذونهم شُفعاء، ويتوسَّلون بهم إلى الله، وهذا كان أصل شرك العرب، وهؤلاء كانوا مُقرِّين بالصانع، وأنَّه ليس للعالم صانعان،

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي(١٥٧/٤).

(٢) انظر: أثر الفكر الاعتزالي في عقائد الأشاعرة، لمنيف العتيبي(٥٠٥/٢).

(٣) انظر: فرق قديمة ومعاصرة تنتسب إلى الإسلام، لغالب عواجي(١٢٣٦١/٣).

ولكن اتخذوا هؤلاء شفعاء، فعُلم أنَّ التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية"[١]، "وهذا التوحيد هو أوَّل الدِّين وآخره، وباطنه وظاهره، وهو أول دعوة الرسل وآخرها، وهو معنى قول: لا إله إلا الله، فإنَّ الإله هو المألوه المعبود بالمحبة، والخشية، والإجلال، والتعظيم، وجميع أنواع العبادة، ولأجل هذا التوحيد خُلقت الخليقة، وأُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، وبه افترق الناس إلى مؤمنين وكفار، وسعداء أهل الجنة، وأشقياء أهل النار، وهذا التوحيد هو أول واجبٍ على المُكلَّف لا النَّظر، ولا القصد إلى النَّظر، ولا الشك في الله، كما هي أقوال من لم يدرِ ما بعث الله به رسوله ﷺ من معاني الكتاب والحكمة"[٢].

أمَّا توحيد الأسماء والصفات فيُشير إليه الأشاعرة إشارةً مع نفي أو تأويل الصفات التي زعموا فيها التشبيه والتجسيم، يقول الرازي في تفسير قوله ﷻ:﴿ **الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ** ﴾[البقرة:٣]، "ليس من شرط الإيمان التصديق بجميع صفات الله ﷻ؛ لأنَّ الرسول ﷺ كان يحكم بإيمان من لم يخطر بباله كونه ﷻ عالماً لذاته، أو بالعلم، ولو كان هذا القيد وأمثاله شرطاً مُعتبراً في تحقيق الإيمان، لما جاز أن يحكم الرسول بإيمانه قبل أن يُجرِّبه في أنَّه هل يعرف ذلك أم لا"[٣].

ويقول الرازي أيضاً في تفسير قوله ﷻ:﴿ **وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ العَلِيُّ العَظِيمُ** ﴾[البقرة:٢٥٥]، نافياً علوَّ الجهة والمكان عن الله ﷻ: "واعلم أنَّه لا يجوز أن يكون المراد منه العلو بالجهة...، فلو كان علوُّ الله ﷻ بسبب المكان؛ لكان علو المكان الذي بسببه حصل هذا العلوُّ لله ﷻ صفةٌ ذاتيةٌ، ولكان حصول هذا العلوُّ لله ﷻ حصولاً بتبعية حصوله في المكان، فكان علو المكان أتمُّ وأكملُ من علوِّ ذات الله ﷻ، فيكون علوِّ الله ناقصاً، وعلوُّ غيره كاملاً، وذلك مُحالٌ"[٤].

ثانياً: التوسُّع في التأويل وتفسير العقائد باللغة المجردة والأشعار الشاذة: لقد جرَّت التأويلات الفاسدة على الإسلام والمسلمين فتناً عظيمةً، وأخرجت الكثير منهم عن عقيدتهم السَّليمة إلى عقائدَ ما أنزل الله بها من سلطان، ولقد عبَّر عن بعض مضارِّ التأويلات الفاسدة كثيرٌ من أهل العلم، ومنهم ابن أبى العز الحنفي– رحمه الله–، فقال:" ولا يشاء مُبطلٌ أن يتأوَّل النصوص ويُحرِّفها عن مواضعها إلَّا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجده مُتأوِّل هذه النُّصوص، وهذا الذي أفسد الدنيا والدين، وهكذا فعلت

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/٨١–٨٣).

(٢) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد، لسليمان عبد الله(١/٢٠–٢١).

(٣) مفاتيح الغيب، للرازي(٢/٢٥).

(٤) المرجع السابق(٧/١٢–١٣).

اليهود والنصارى في نصوص التوراة والإنجيل، وحذَّرنا الله أن نفعل مثلهم، وأبى المُبطلون إلا سلوك سبيلهم"[1].

إنَّه من وجهة نظر المتكلِّمين ما من نصٍ إلا وهو يحتمل التأويل؛ وعليه فلا تتمُّ الثقة بأيِّ نصٍّ على ظاهره؛ ولذلك صار هؤلاء المُؤولة أشرُّ من المُعطِّلة، كما قال ابن القيم- رحمه الله-:" التأويل شرٌّ من التعطيل؛ فإنَّه يتضمن التشبيه، والتعطيل، والتلاعب بالنصوص، وإساءة الظنِّ بها، فإنِّ المُعطِّل والمُؤوِّل قد اشتركا في نفي حقائق الأسماء والصفات، وامتاز المؤول بتلاعبه بالنصوص، وانتهاكه لحرمتها، وإساءة الظنِّ بها، ونسبة قائلها إلى التَّكلُّم بما ظاهره الضَّلال والإضلال"[2].

وقال ابن أبى العز الحنفي- رحمه الله-:" فإنَّه قد صار اصطلاح المتأخرين في معنى التأويل، أنَّه صرف اللفظ عن ظاهره، وبهذا تسلَّط المُحرِّفون على النصوص، وقالوا: نحن نتأوَّل ما يُخالف قولنا، فسمُّوا التحريف تأويلاً، تزييناً له، وزخرفةً؛ ليُقبل، وقد ذمَّ الله الذين زخرفوا الباطل، والعبرة للمعاني لا للألفاظ، فكم من باطلٍ قد أُقيم عليه دليلٌ مزخرف عُورض به دليل الحق"[3].

إنَّ كلَّ تأويلٍ يُخالف دلالة الكتاب والسنة، فهو تأويلٌ فاسدٌ فاتحٌ لباب الزندقة، ومُهيئٌ للتفلت من قبول الشرع، ومُسببٌ للحيرة والاضطراب، وممَّا ينبغى ملاحظتُه أنَّ التأويل المذموم إنَّما وُجد حين ظهرت الفرق البدعية، حيث أراد هؤلاء أن يُوجدوا لأفكارهم غطاءً مقبولاً، فلم يجدوا أفضل من التَّستُّر بالتأويل، وإظهار أنَّه علمٌ غزيرٌ توصَّلوا إليه، وهو في حقيقته انتكاسة عقلٍ، جرَّت إلى القول بأنَّ للنصوص ظاهراً وباطناً، وأنَّ الظاهر غير مراد، وأنَّ الباطن هو المراد؛ فتشوَّشت مفاهيمهم بما أدخلوه من تلك المصطلحات الجوفاء، ولو وقفوا عند المكان الذي وقف فيه السلف بحيث لا يتعدُّون المفاهيم الواضحة المشرقة البعيدة عن التكليفات والتأويلات الباطلة؛ لكان خيراً لهم، وأشدَّ تثبيتاً؛ ولكنَّهم تجاوزوا النصوص، وقدَّموا عليها عقولهم ومفاهيمهم القاصرة، وتأويلاتهم الباطلة؛ فجاءت خليطاً مُشوَّهاً[4].

إنَّ من أكثر النصوص التي خاض فيها الأشاعرة بالتأويل، وخالفوا فيها السَّلف هي نصوص الصفات، حيث يعتقد السلف اثباتها على حقيقتها كما جاءت، من غير تأويلٍ ولا تحريفٍ ولا تعطيلٍ ولا تشبيهٍ ولا تمثيل، وقد قسَّم السَّلف الصفات الثابتة لله ﷻ باعتبار فعل الله لها إلى قسمين:

أ- صفاتٍ ذاتيةٍ: وهى التي لا تنفك عن ذات الله ﷻ، كالعلم والحياة والقدرة والسمع والبصر..

ب- صفاتٍ فعليةٍ: وهى التي تتعلق بمشيئة الله ﷻ وقدرته، بمعنى إن شاء فعلها، وإن شاء لم يفعلها، كالاستواء على العرش والنزول والمجيء، وغيرها.

---

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/١٨٩).

(٢) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(١/٢٩٦).

(٣) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/٢١٢).

(٤) انظر: فرق قديمة ومعاصرة، لغالب عواجي(٣/١٢٥٧).

وبعض الصفات تجمع الأمرين، فتكون ذاتيةً باعتبار، وفعليةً باعتبارٍ آخر، مثل صفة الكلام فهي ذاتيةٌ باعتبار أنَّ الله ﷻ لم يزل ولا يزال يتكلم، لا تنفكُّ هذه الصفة عن ذاته، وهى فعليةٌ باعتبار أنَّ الله يتكلم حسب مشيئته.

ومن جهةٍ أخرى، فقد قسَّم السَّلف صفات الله ﷻ باعتبار ثبوتها إلى قسمين آخرين:

أ- صفاتٍ عقليةٍ: ثبتت بالنَّص وبالعقل معاً، كالعلم، والسمع، والبصر، والإرادة، والبقاء، والحياة، والقدرة، والوجود، والوحدانية، وغيرها.

ب- صفاتٍ خبريةٍ: وهى التي ثبتت بالخبر، أي: السمع والدليل، دون النَّظر إلى ثبوتها بالعقل، كالاستواء، والنزول، والمجيء، والوجه، واليدين، وغيرها[١].

وقد ذهب الأشاعرة إلى نفي الصفات الفعلية عن الله ﷻ، ويُؤوِّلون ما ثبت منها؛ بزعم أنَّها لا تليق بالله ﷻ؛ لإشعارها بالأعراض التي لا تقوم إلا بالجسم، ومع هذا فهم يُثبتون لله ﷻ الصفات الذاتية اللازمة له؛ زاعمين أنَّ الحامل لهم على هذا، هو تنزيه الله ﷻ عن قيام الحوادث به، ومتأخروا الأشعرية يذهبون إلى تأويل الصفات الخبرية، ونفي معانيها الحقيقية، ويزعمون أنَّها مجازاتٌ، فالاستواء عندهم بمعنى الاستيلاء، واليد بمعنى القدرة أو النعمة، والنزول نزول الملائكة، والمجيء مجيء أمره، والوجه الذات، والعين الحفظ، وزعموا أنَّ إثبات هذه الصفات على ظاهرها يؤدِّي إلى التشبيه والتجسيم[٢]، ويظهر هذا من خلال كُتبهم التي سطَّروا فيها عقيدتهم، فهذا الرازي مثلاً ينفي عن الله ﷻ صفة العلوِّ والفوقية، ويحصر صفات الكمال لله ﷻ في العلم والقدرة، فيقول عند تفسير قوله ﷻ:﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾[الأنعام:١٨]، :"اعلم أنَّ صفات الكمال محصورةٌ في القدرة والعلم، فقوله: "هُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ"، إشارةٌ إلى كمال القدرة، وقوله:"وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ"، إشارةٌ إلى كمال العلم[٣].

١- الردُّ على الأشاعرة في هذه المسألة:

أ- لقد وقف الأشاعرة بالنسبة للإيمان بصفات الله ﷻ موقفاً مُضطرباً مملوءاً بالتناقض، ولم يتمكنوا من الدخول في المذهب السلفي كاملاً؛ إذ وافقوا السلف في جانبٍ، وخالفوهم في جانبٍ آخر، ونفس المسلك هذا أيضاً سلكوه مع مذهب المعتزلة، فقد وافقوهم في جانبٍ، وخالفوهم في آخر، "فإثبات الصِّفات السبع فقط، خلاف قول السلف، وخلاف قول الجهمية والمعتزلة، فالنَّاس كانوا طائفتين، سلفيةً وجهميةً، فحدثت بدعتهم، واشتقَّت قولاً بين قولين، فلا للسلف اتَّبعوا ولا مع الجهمية بقَوا"[٤].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين(٧٧/١).

(٢) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١٢٢٠).

(٣) مفاتيح الغيب، للرازي(١٤٣/١٢).

(٤) التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية، لفالح الدوسري(٧١/١).

ب- لقد ألزم السَّلفُ الأشاعرة بإلزاماتٍ كثيرةٍ تنقُض ما ذهبوا إليه بالنسبة للإيمان بصفات الله ﷻ، كما ألزمهم المعتزلة أيضا بإلزاماتٍ أخرىً، وشنَّعوا عليهم؛ لأنَّهم حينما نفوا بعض الصفات على أساس أنَّ إثباتها يستلزم مشابهة الله بخلقه، لم يجعلوا ذلك قاعدةً عامةً، إذ ينقضونها بإثبات الصفات السبع، ونفي ما سواها، ثمَّ إنَّ قولهم: إنَّ الاشتراك في تلك الصفات السبع لا يُوجب المماثلة كلامٌ صحيحٌ، يلزمهم منه أن يقولوا كذلك في بقية الصفات الخبرية، من الرحمة، والغضب، والفرح، والضحك، والمجيء، والنزول.. الخ؛ لأنَّ الذي يلحظ في إثبات صفة الفرح أو الرحمة، المماثَلة بخلقه، يلزمه أن يلحظ المماثلة بخلقه في إثبات السمع والبصر والحياة أيضاً، وإلَّا كان تفريقاً بلا دليلٍ؛ فلزمهم التناقض والتفريق بين المتماثلات، ومن هنا ألزمهم المعتزلة أن ينفوا الصفات كلَّها؛ لأنَّها تدلُّ على التشبيه، فأجابهم الأشاعرة بأنَّ إثبات تلك الصفات السبع إنَّما هو على وجهٍ لا يستلزم المشابهة، فألزمهم السلف أن يقولوا هذا القول في كلِّ الصفات، وهو ما يدلُّ عليه العقل والشرع، فبقوا مُتحيِّرين شاكِّين، بين مُثبتٍ ونافٍ، ومُؤولٍ ومُفوِّض[1]؛ ولذلك قال عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" ولهذا لا يوجد لنُفاة بعض الصفات دون بعض- الذين يوجبون فيما نفوه إمَّا التفويض، وإمَّا التأويل المُخالف لمقتضى اللفظ- قانونٌ مستقيمٌ، فإذا قيل لهم: لِمَ تأوَّلتم هذا، وأقررتم هذا، والسؤال فيهما واحدٌ؟، لم يكن لهم جوابٌ صحيحٌ، وهذا من تناقضهم"[2].

ج- لقد هدى الله السلف للحقِّ فآمنوا بكلِّ ما جاء عن الله ورسوله، ونفوا عن الله ﷻ كلَّ ما نفاه عن نفسه، وأثبتوا له كلَّ ما أثبته لنفسه، بلا تنطُّعٍ ولا تأويلاتٍ باطلةٍ، فمن لم يرضَ بما رضيه الله لنفسه فقد نازع الله ﷻ، وقال على الله بلا علمٍ، وسلك غير سبيل المؤمنين[3].

ونتيجة لتوسع الأشاعرة في التأويل وقعوا في تفسير العقائد باللغة المجردة والأشعار الشاذة، وهم في ذلك تابعون لأساتذتهم المعتزلة، فقاموا بتأويل صفات الله ﷻ بخلاف ما دلَّت عليها حقائقها المرادة شرعاً، مثل تفسيرهم الإستواء بالإستيلاء أو الملك، واليد بالقدرة أو النعمة، والوجه بالذات، والنفس بالحقيقة، والمحبة بالإنعام أو الغفران، والغضب بالإنكار أو العقاب، والمكر والإستهزاء والسخرية بالمجازاة، وأمثال ذلك من التأويلات الباطلة، واللغة لا تحتمل ذلك ولا تقبله، والعربي بسليقته لا يعرف الإستواء بمعنى الإستيلاء، ولا الوجه بمعنى الذات، ولا النفس بمعنى الحقيقة، ولا المكر والاستهزاء بمعنى المجازاة[4]، ومن الأمثلة الواضحة على ذلك، ما يلي:

---

(١) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١٢٢٣).

(٢) التدمرية، لابن تيمية(١/٤٥).

(٣) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١٢٢٤).

(٤) انظر: المصدر السابق(٣/١٤٤-١٥٥)، وانظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٣/١٢١٣- ١٣٠٧).

أ- أنَّ الأشاعرة في باب الإيمان يقولون بقول المرجئة من أنَّ "الإيمان هو التصديق بالله ﷻ، وهو العلم، والتصديق يوجد بالقلب، فإن قال: وما الدليل على ما قلتم، قيل له: إجماع أهل اللغة قاطبةً على أنَّ الإيمان في اللغة قبل نزول القرآن وبعثة النبي ﷺ هو التصديق، لا يعرفون في لغتهم إيماناً غير ذلك، ويدل على ذلك قوله ﷻ: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾[يوسف:١٧]، أي: ما أنت بمصدقٍ لنا، ومنه قولهم: فلانٌ يؤمن بالشفاعة، وفلانٌ لا يؤمن بعذاب القبر، أي: لا يُصدِّق بذلك، فوجب أن يكون الإيمان في الشريعة هو الإيمان المعروف في اللغة، وهو ما وصفناه دون ما سواه من سائر الطاعات من النوافل والمفروضات"(١).

الردُّ عليهم في هذه المسألة: إنَّ استدلالهم هذا غير صحيحٍ، فإنَّ معنى الإيمان في اللغة لا ينحصر في معنى التصديق؛ بل قد يأتي بمعنى الأمان، والأمانة، والإقرار، وبمعنى الأمن من الخوف، وبمعنى الإنقياد(٢)، والإيمان قولٌ وعملٌ واعتقادٌ، يزيد وينقص، وليس تصديقاً بالقلب فقط.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" وأمَّا تعريف الإيمان بالتصديق فليس بسديدٍ، وذلك أنَّ الإيمان وإن كان يتضمن التصديق، فليس هو مُجرد التصديق، وإنَّما هو الإقرار، والطمأنينة؛ وذلك لأنَّ التصديق إنَّما يعرض للخبر فقط، فأمَّا الأمر فليس فيه تصديقٌ من حيث هو أمرٌ، وكلام الله خبرٌ وأمرٌ، فالخبر يستوجب تصديق المُخبِر، والأمر يستوجب الانقياد له والاستسلام، وهو عملٌ في القلب جِماعه الخضوع والانقياد للأمر، وإن لم يفعل المأمور به، فإذا قوبل الخبر بالتصديق، والأمر بالانقياد، فقد حصل أصل الإيمان في القلب، وهو الطمأنينة، والإقرار، وذلك إنَّما يحصل إذا استقرَّ في القلب التصديق والانقياد"(٣).

وقال- رحمه الله- أيضاً في بيان عقيدة السَّلف:" ومن أصول الفرقة الناجية أنَّ الدِّين والإيمان، قولٌ وعملٌ، قولٌ القلب واللسان، وعمل القلب واللسان والجوارح، وأنَّ الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية"(٤).

وأوضح ابن تيمية -رحمه الله- أنَّ هذا هو قول الصحابة والسَّلف، وليس قوله هو، فقال: "المأثور عن الصحابة، وأئمة التابعين، وجمهور السلف، وهو مذهب أهل الحديث، وهو المنسوب إلى أهل السنة، أنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ، يزيد وينقص، يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية"(٥).

---

(١) تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، للباقلاني،(٣٩٠/١)، والمواقف، للإيجي(٥٢٧/٣).

(٢) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري(٣٧٠/١٥-٣٧١).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥٤١/٧،٥٢٩،٢٨٩).

(٤) العقيدة الواسطية، لابن تيمية(١١٣/١).

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥٠٥/٧)، (٦٧١/٧)، وانظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٢٠٥/٥).

وقال أيضاً:" "والذي مضى عليه سلف الأمة وأئمتها أنَّ نفس الإيمان الذي في القلوب يتفاضل، وأمَّا زيادة العمل الصالح الذي على الجوارح ونقصانه فمتفقٌ عليه"[١].

وعليه فإنَّ حصر الأشاعرة لمعنى الإيمان بالتصديق، مُخالفٌ للغة، فضلاً عن قصر المعنى الشرعي عليه، ثمَّ إنَّه إذا كان للكلمة أكثر من معنى في اللغة، وجاء الشرع ببيان معنى الكلمة، فلا يجوز حمل المعنى الشرعي على غير ما جاء به الشرع، قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "وممَّا ينبغي أن يُعلم أنَّ الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث، إذا عُرف تفسيرها، وما أُريد بها من جهة النبي ﷺ، لم يُحتج في ذلك إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم، فلو أراد أحدٌ أن يُفسِّرها بغير ما بيَّنه النبي ﷺ لم يُقبل منه، وقد بيَّن النبي ﷺ المراد بلفظ الإيمان بياناً لا يُحتاج معه إلى الاستدلال على ذلك بالاشتقاق وشواهد استعمال العرب ونحو ذلك؛ فلهذا يجب الرجوع في مُسميات هذه الأسماء إلى بيان الله ورسوله؛ فإنَّه شافٍ كافٍ؛ بل معاني هذه الأسماء معلومةٌ من حيث الجُملة للخاصة والعامة؛ بل كلُّ من تأمَّل ما تقوله الخوارج والمُرجئة في معنى الإيمان علم بالاضطرار أنَّه مُخالفٌ للرسول، ويعلم بالاضطرار أنَّ طاعة الله ورسوله من تمام الإيمان، وأهل البدع إنَّما دخل عليهم الدَّاخل لأنَّهم أعرضوا عن هذه الطريق، وصاروا يبنون دين الإسلام على مقدماتٍ يظنُّون صحَّتها، إمَّا في دلالة الألفاظ، وإمَّا في المعاني المعقولة، ولا يتأملون بيان الله ورسوله، وكلُّ مقدماتٍ تُخالف بيان الله ورسوله فإنَّها تكون ضلالاً، وطريقة سائر أئمة المسلمين أنَّهم لا يعدلون عن بيان الرسول إذا وجدوا إلى ذلك سبيلاً، ومن عدل عن سبيلهم وقع في البدع التي مضمونها أنَّه يقول على الله ورسوله ما لا يعلم، أو غير الحق، وهذا ممَّا حرَّمه الله ورسوله"[٢].

ب- تفسيرهم المصطلحات العقائدية بالأشعار: ومثال ذلك تفسيرهم كلام الله ﷻ في القرآن بالكلام النفساني[٣]، مُستدلين على ذلك ببيتٍ من الشعر لا يُعرف قائلُه، وقيل إنَّ قائله شاعرٌ نصرانيٌّ، وهذا الشعر هو قول القائل:

إنَّ الكلام لفي الفؤاد وإنَّما ... جُعل اللسان على الفؤاد دليلاً[٤]

يقول الغزالي- رحمه الله-:" فإنَّا مُعترفون باستحالة قيام الأصوات بذاته، وباستحالة كونه متكلماً بهذا الاعتبار، ولكنَّا نقول الإنسان يُسمى مُتكلماً باعتبارين، أحدهما بالصوت والحرف، والآخر بكلام النَّفس الذي ليس بصوتٍ وحرفٍ، وذلك كمالٌ، وهو في حقِّ الله ﷻ غيُر مُحالٍ، ولا هو دالٌّ

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤٧٩/٦)، وانظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٢٩٦/٥) .

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٨٦/٧-٢٨٨)، بتصرف يسير.

(٣) انظر: المواقف، للإيجي(١٤١/٣).

(٤) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي(٦٧/١).

على الحُدوث، ونحن لا نُثبت في حقِّ الله ﷻ إلا كلَّام النفس، ... وما ينطق به الشعراء يدلُّ على أنَّه من الجليات التي يشترك كافة الخلق في دركها؛ فكيف يُنكر"[1].

قلتُ: سبحان الله في هذا الإستدلال ما أغربه وأعجبه؛ بل الأَولى أن يقول: وما يتكلم به الله ورسوله يدلُّ على أنَّه من الجليَّات التي يشترك كافَّة الخلق في دركها؛ فكيف يُنكر؟؟؟!!!!!

قال ابن أبي العز الحنفي– رحمه الله– عن الاستدلال بهذا البيت الشعري:" فهذا استدلالٌ فاسدٌ، ولو استدلَّ مستدلٌ بحديثٍ في الصحيحين، لقالوا: هذا خبر واحدٍ!، وهو في الحقيقة ممَّا اتَّفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول والعمل به!، فكيف استدلوا بهذا البيت، وقد قيل إنَّه منسوبٌ إلى الأخطل[2]، وعلى تقدير صحَّته عنه فلا يجوز الاستدلال به؛ لأنَّه نصرانيٌّ، والنصارى قد ضلُّوا في معنى الكلام، وزعموا أنَّ عيسى عليه السلام نفس كلمة الله، واتَّحد مع الله، أفيُستدل بقول نصرانيٍّ قد ضلَّ في معنى الكلام على معنى الكلام، ويُترك ما يُعلم من معنى الكلام في لغة العرب؟!، ولا ريب أنَّ مُسمى الكلام والقول ونحوهما ليس هو مما يُحتاج فيه إلى قول شاعرٍ، فإنَّ هذا ممَّا تكلَّم به الأولون والآخرون من أهل اللُّغة[3]، وعرفوا معناه، كما عرفوا مُسمَّى الرأس واليد والرجل، ونحو ذلك، ومعنى البيت غيرُ صحيحٍ؛ إذ لازمه أنَّ الأخرس يُسمى مُتكلماً؛ لقيام الكلام بقلبه، وإن لم ينطق به، ولم يُسمع منه"[4].

والذي عليه السلف أهلُ الحق في هذه المسألة :" أنَّ القرآن كلام الله، منه بدأ بلا كيفيةٍ قولاً، وأنزله على رسوله وحياً، وصدَّقه المؤمنون على ذلك حقّاً، وأيقنوا أنَّه كلام الله ﷻ بالحقيقة، ليس بمخلوقٍ ككلام البرية، فمن سمعه فزعم أنَّه كلام البشر فقد كفر، وقد ذمَّه الله وعابه وأوعده بسقر، حيث قال ﷻ:﴿ **إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ البَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** ﴾[المدَّثر: ٢٥-٢٦]، علمنا وأيقنَّا أنَّه قول خالق البشر، ولا يُشبه قول البشر"[5].

قال ابن أبي العز الحنفي– رحمه الله– في شرح كلام الطحاوي السابق:" وهذه قاعدةٌ شريفةٌ، وأصلٌ كبيرٌ من أصول الدين، ضلَّ فيه طوائف كثيرةٌ من الناس، وهذا الذي حكاه الطحاوي رحمه الله

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي(٦٨/١).

(٢) غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة ابن عمرو، من بني تغلب، أبو مالك، شاعر معروف، نشأ على المسيحية، وتهاجى مع جرير والفرزدق، وكان معجبا بأدبه، كثير العناية بشعره، وأخباره مع الشعراء والخلفاء كثيرة، له ديوان شعر، وتوفي سنة ٩٠هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(١٢٣/٥).

(٣) الكلام هو: اللفظ المفيد بالوضع، واللفظ هو الصوت المشتمل على بعض الحروف الهجائية، وما خلى من الحروف والأصوات فلا يُسمى كلاماً. انظر: تهذيب اللغة، للأزهري(٢٦٥/١٠).

(٤) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١٨٤/١-١٨٦)، بتصرف يسير.

(٥) المرجع السابق(١٦٨/١).

هو الحقُّ الذي دلَّت عليه الأدلة من الكتاب والسنة لمن تدبرهما، وشهدت به الفطرة السليمة التي لم تُغيَّر بالشبهات والشكوك والآراء الباطلة"[1].

ومُعتقد السلف أهل الحقِّ أنَّه ﷻ لم يزل مُتكلماً إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وهو يتكلم بصوتٍ يُسمع، وهذا المأثور عن أئمة الحديث والسنة، أنَّ الله ﷻ أنزل القرآن إلى رسوله على لسان المَلك، فسمعه الملك جبرائيل من الله، وسمعه الرسول ﷺ من المَلك، وقرأه على الناس فسمعوه صوتاً وحرفاً، وأيقنوا أنَّ القرآن كلام الله ﷻ بالحقيقة، ليس بمخلوقٍ ككلام البرية، وهذا فيه ردٌّ على من قال: إنَّه معنىً واحدٌ قام بذات الله، لم يُسمع منه، وإنَّما هو الكلام النفساني؛ لأنَّه لا يُقال لمن قام به الكلام النفساني، ولم يتكلم به أنَّ هذا كلامٌ حقيقةً، وإلَّا للزم أن يكون الأخرس مُتكلِّماً، ولزم أن يكون الملك الموكل بالوحي هو الذي أحدث نظم القرآن وتأليفه العربي عندما فَهِم من الله ﷻ معنىً قائماً بنفسه، ولم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً؛ بل فهم معنىً مجرداً، ثم عبَّر عنه، ولزم منه أيضاً أن يكون التالي للقرآن قد حكى بصوتٍ وحرفٍ ما ليس بصوتٍ وحرفٍ.

ويُردُّ عليهم ببيان معنى الكلام في الشرع، ومنه قوله ﷺ: **(إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيءٌ من كلام الناس)**[2]، وقال:**(إنَّ الله يُحدث من أمره ما يشاء، وإنَّ ممَّا أحدث أن لا تكلَّموا في الصلاة)**[3]، فاتَّفق العلماء على أنَّ المُصلي إذا تكلَّم في الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته، واتفقوا كلُّهم على أنَّ ما يقوم بالقلب من تصديقٍ بأمورٍ دنيويةٍ وطلبٍ، لا يُبطل الصلاة، وإنَّما يُبطلها التكلُّم والتلفظ بذلك، فعُلم اتفاق المسلمين على أنَّ ما كان بالقلب ليس بكلامٍ.

وفي الصحيحين عن النبي ﷺ قال: **(إنَّ الله تجاوز عن أمَّتي ما حدَّثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم)**[4]، فقد أخبر ﷺ هنا أنَّ الله عفا عن حديث النفس إلا أن تتكلم، وفرَّق بين حديث النفس وبين الكلام، وأخبر أنَّه لا يُؤاخذ بحديث النَّفس حتى يتكلم به، والمراد: حتى ينطق به اللسان باتفاق العلماء، فعُلم أنَّ هذا هو الكلام في اللُّغة؛ لأنَّ الشارع إنَّما خاطبنا بلغة العرب.

وفي السنن أنَّ معاذاً ﷺ قال: **(يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس على وجوههم في النار، إلا حصائد ألسنتهم؟)**[5]، فبيَّن ﷺ أنَّ الكلام إنَّما هو باللسان، وليس في النفس كما يزعم الأشاعرة؛ ولذلك فإنَّ لفظ القول والكلام وما تصرَّف منهما، إنَّما

---

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي ١٦٨/١).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب تحريم الكلام في الصلاة ونسخ ما كان من إباحته،(٣٨١/١)، حديث رقم ٥٣٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى:{كل يوم هو في شأن}،(١٥٢/٩).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، حديث رقم ٥٢٦٩، وقم ٦٦٦٤، وأخرجه مسلم في صحيحه، حديث رقم ١٢٧.

(٥) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، حديث رقم ٣٩٧٣، وصححه الألباني. في السلسلة الصحيحة برقم ١١٢٢.

يُعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب إذا كان لفظاً ومعنى، ولم يكن في مُسمى الكلام نزاعٌ بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وإنَّما حصل النزاع بين المتأخرين من علماء أهل البدع، ثمَّ انتشر[١].

وقال أبو نصر السِجْزِي[٢]- رحمه الله- في رسالته المشهورة المُسماة رسالة السجزي إلى أهل زَبِيد[٣] في الردِّ على من أنكر الحرف والصوت: "اعلموا أرشدنا الله وإياكم أنَّه لم يكن خلافٌ بين الخلق على اختلاف نِحَلهم من أول الزمان إلى الوقت الذي ظهر فيه ابن كلاب والقلانسي والأشعري وأقرانهم، في أنَّ الكلام لا يكون إلا حرفاً وصوتاً ذا تأليفٍ واتساقٍ، وإن اختلفت به اللغات، وعبَّر عن هذا المعنى الأوائل، فقالوا: الكلام حروفٌ مُتسقةٌ، وأصواتٌ مُقطَّعةٌ، والكلام: اسمٌ وفعلٌ وحرفٌ جاء لمعنى، فالإجماع منعقدٌ بين العقلاء على كون الكلام حرفاً وصوتاً"[٤].

وكذلك فقد ردَّ أبو محمد الجويني- رحمه الله- بعد رجوعه إلى مذهب السلف على الأشاعرة، ونصحهم في هذه المسألة وغيرها، وكتب رسالةً في ذلك سمَّاها: "رسالةٌ في إثبات الاستواء والفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد"، وبيَّن فيها اعتقاد السلف، ومن جميل ما قاله في هذه الرسالة: "كنتُ برهةً من الدَّهر مُتحيراً في ثلاث مسائل، مسألة الصفات، ومسألة الفوقية، ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد، وكنتُ متحيراً في الأقوال المُختلفة الموجودة في كتب أهل العصر في جميع ذلك، من تأويل الصفات وتحريفها، أو إمرارها والوقوف فيها، أو إثباتها بلا تأويلٍ ولا تعطيلٍ ولا تشبيهٍ ولا تمثيلٍ، فأجدُ النصوص في كتاب الله ﷻ وسنة رسوله ﷺ ناطقةً مُنبئةً بحقائق هذه الصفات، وكذلك في إثبات العلو والفوقية، وكذلك في اثبات الحرف والصوت، ثمَّ أجد المتأخرين من المتكلمين في كتبهم، منهم من يُؤول الاستواء بالقهر والاستيلاء، ويُؤول النزول بنزول الأمر، ويُؤول اليدين بالقدرتين أو النعمتين، ويُؤول القدم بقدم صدقٍ عند ربهم، وأمثال ذلك، ثمَّ أجدهم مع ذلك يجعلون كلام الله ﷻ معنىً قائماً بالذات، بلا حرفٍ ولا صوتٍ، ويجعلون هذه الحروف عبارةً عن ذلك المعنى القائم، وممَّن ذهب إلى هذه الأقوال وبعضِها قومٌ لهم في صدري منزلةٌ، مثل طائفةٍ من فقهاء الأشعرية الشافعية...، ثمَّ ذكر الجويني أدلةً كثيرة من السنة، وآثاراً عن الصحابة، تدلُّ على علوِّ الله ﷻ على عرشه فوق سماواته عُلواً حقيقياً، ثمَّ طالبهم كما أثبتوا صفات المعاني السبعة لله ﷻ أن يُثبتوا باقي الصفات له من العلو والإستواء والنزول والمجيء وغيرها مع نفي المشابهة والتمثيل كما فعلوا

---

(١) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/١٨١- ١٨٥).

(٢) عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزيّ الوائلي البكري، أبو نصر، من حفاظ الحديث، أصله من سجستان، سكن مكة وتوفي بها٤٤٤ هـ، من مصنفاته: الإبانة عن أصول الديانة في الحديث، ورسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت.انظر: الأعلام، للزركلي(٤/١٩٤).

(٣) زَبِيد: بفتح أوّله وكسر ثانيه، اسم واد به مدينة يقال لها الحصيب، ثم غلب عليها اسم الوادي فلا تعرف إلا به، وهي مدينة مشهورة باليمن، أُحدثت في أيام المأمون. انظر: معجم البلدان، لياقوت الحموي(٣/١٣١).

(٤) رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت، للسجزي(١/١١٥-١١٨)، بتصرف يسير.

ذلك في صفات المعاني التي أثبتوها؛ فألزمهم الحجة في ذلك، ثم قال: وأمَّا مسألة الحرف والصوت فتُساق هذا المساق، فإنَّ الله ﷻ قد تكلَّم بالقرآن المجيد، وبجميع حروفه، فهؤلاء ما فهموا من كلام الله ﷻ إلَّا ما فهموه من كلام المخلوقين، فقالوا: إن قلنا بالحروف فإنَّ ذلك يؤدِّي إلى القول بالجوارح واللَّهوات، وكذلك إذا قلنا بالصوت أدَّى ذلك إلى الحلق والحنجرة، عملوا في هذا من التخبُّط كما عملوا فيما تقدَّم من الصفات، والتحقيق هو أنَّ الله ﷻ قد تكلَّم بالحروف كما يليق بجلاله وعظمته، فإنَّه قادرٌ، والقادر لا يحتاج إلى جوراح، ولا إلى لهواتٍ، وكذلك له صوتٌ كما يليق به، يُسمع ولا يفتقر ذلك الصوت المقدس إلى الحلق والحنجرة، كلام الله ﷻ كما يليق به، وصوته كما يليق به، ولا ننفي الحرف ولا الصوت عن كلامه سبحانه لافتقارهما منا إلى الجوارح واللهوات، فإنَّهما من جناب الحقِّ تعالى لا يفتقران إلى ذلك، وهذا ينشرح الصدر له، ويستريح الإنسان به من التعسُّف والتكلُّف[1].

وقد ترجم الإمام البخاري– رحمه الله– في صحيحه ما يُثبت هذه العقيدة عند السَّلف، فقال في تراجم ثلاثة أبواب من صحيحه: باب كلام الربِّ مع جبريل، ونداء الله الملائكة[2]، وباب كلام الربِّ ﷻ يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم[3]، وباب كلام الربِّ مع أهل الجنة[4]، وساق تحت كلِّ بابٍ مجموعةً من الأحاديث، ومُبتغِ الحقِّ يكفيه الدليل، وصاحب الهوى لا يكفيه ألف دليل.

ثالثاً: القول بالتفويض في بعض العقائد: وهو: صرف اللفظ عن ظاهره، مع عدم التعرض لبيان المعنى المراد منه[5]، والذي أوقعهم في ذلك أنَّهم حمَّلوا عقولهم فوق طاقتها، وأقحموها فيما لا تقدر عليه، وقالوا بذلك زعماً منهم فراراً من اثبات الصفات الإلهية، زاعمين أنَّ اثبات ظاهرها يستلزم التشبيه، فهم إذا تعذَّر عندهم التأويل يقولون بالتفويض، وإلى ذلك أشار اللَّقَاني[6] الأشعري بقوله:

وكلُّ نصٍّ أوهم التشبيها ... أوِّله أو فوِّض ورُم تنزيها[7].

---

(١) انظر: رسالة في إثبات الاستواء والفوقية ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد، للجويني(١/٣٠-٧٨).

(٢) صحيح البخاري، كتاب التوحيد(١٤٢/٩)، الأحاديث رقم ٧٤٨٥، ٧٤٨٦، ٧٤٨٧.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد(١٤٦/٩)، الأحاديث رقم ٧٥٠٩ حتى ٧٥١٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التوحيد(١٥١/٩)، الأحاديث رقم ٧٨١٤، ٧٨١٥.

(٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٢٠٢/١).

(٦) إبراهيم بن إبراهيم بن حسن اللقاني، أبو الإمداد، برهان الدين، فاضل متصوف مصري مالكي أشعري العقيدة، نسبته إلى (لقانة) من البحيرة بمصر، توفي بقرب العقبة عائدا من الحج عام ١٠٤١ هـ، ١٦٣١ م، له كتب منها: جوهرة التوحيد، وقضاء الوطر حاشية على العسقلاني في مصطلح الحديث. انظر: الأعلام، للزركلي(٢٨/١).

(٧) انظر: جوهرة التوحيد، لإبراهيم اللقاني مع شرحها تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، للبيجوري، ص٥٤، ومواقف الطوائف من توحيد الأسماء والصفات، لمحمد التميمي(١١١/١).

واحتجَّ الأشاعرة بقولهم بالتفويض بما أُثر عن كثيرٍ من السلف أنَّهم قالوا في الصفات: "أمِرُّوها كما جاءت بلا كيف"[1]، فقالوا: وهذا يدلُّ على أنَّ مذهبهم فيها الإيمان والتسليم وإمرارها كما جاءت، وعدم الخوض في معانيها، والوقوف عن تفسيرها.

وقد ردَّ شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- على ذلك، فقال: "أمَّا قول السلف في الصفات أمرُّوها كما جاءت، فمعناه عندهم الإيمان بها وإثباتها، والردُّ على المُعطلة الذين أنكروها، أو خاضوا في تأويلها، فقولهم رضي الله عنهم: أمروها كما جاءت، ردٌ على المُعطلة، وقولهم: بلا كيف، ردٌّ على المُمثلة، فقول السلف هذا يقتضي إبقاء دلالتها على ما هي عليه، فإنَّها جاءت ألفاظٌ دالةٌ على معانٍ، فلو كانت دلالتها منتفيةً؛ لكان الواجب أن يُقال: أمِرُّوا لفظها، مع اعتقاد أنَّ المفهوم منها غير مرادٍ، أو أمِرُّوا لفظها مع اعتقاد أنَّ الله لا يُوصف بما دلَّت حقيقةً، وحينئذٍ فلا تكون قد أُمرَّت كما جاءت، ولا يُقال حينئذ: بلا كيفٍ؛ إذ نفي الكيف عمَّا ليس بثابتٍ لغوٌ من القول"[2].

وقد وقع الأشاعرة في هذا المُنزلق الخطير، الذي يترتب عليه التوقُّف والشكُّ في أصول الاعتقاد، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "وأبو المعالي وأتباعه نفوا الصفات الخبرية، موافقةً للمعتزلة والجهمية، ثمَّ لهم قولان: أحدهما: تأويل نصوصها، وهو أول قولي أبي المعالي، كما ذكره في الإرشاد، والثاني: تفويض معانيها إلى الرب، وهو آخر قولي أبي المعالي، كما ذكره في الرسالة النَّظامية، وذكر ما يدلُّ على أنَّ السَّلف كانوا مجمعين على أنَّ التأويل ليس بسائغٍ ولا واجبٍ، ثمَّ هؤلاء منهم من ينفيها، ويقول: إنَّ العقل الصريح نفى هذه الصفات، ومنهم من يتوقَّف ويقول: ليس لنا دليلٌ سمعيٌّ ولا عقليٌّ، لا على إثباتها ولا على نفيها، وهي طريقة الرازي والآمدي"[3].

"والفرق بين مقالة السَّلف ومقالة المُفوِّضة في الصفات، أنَّ السلف أثبتوا الألفاظ وما تدلُّ عليها من المعاني، مع فهمهم المعنى المُراد من حيث الوضع اللغوي، ومن حيث معرفة مُراد المُتكلم، فيعلمون معنى السمع والبصر والوجه واليدين، ونحوها من الصفات، لكنَّهم يُفوِّضون العلم بالكيفية دون العلم بالمعنى، أمَّا أصحاب التفويض فإنَّهم وإن أثبتوا اللفظ، لكنَّهم توقَّفوا في تعيين المراد منه في حقِّ الله، وفوَّضوا العلم بالمعنى، ومنعوا أن يكون ظاهره مُراداً؛ لاقتضائه التشبيه عندهم"[4].

والقول بالتفويض أوقع القائلين به في الحَيرة، والتوقُّف، واضطراب العقيدة، وكثرة الشكوك؛ لأنَّهم "عوَّلوا على العقول، وتأوَّلوا النُّقول، وبَنَوا معتقداتهم على علم الكلام المذموم، الذي بيَّن أهلُه الذين ابتُلوا به ما فيه من أضرارٍ، وندموا على ما حصل منهم من شغل الأوقات فيه من غير أن

---

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي، رقم ٩٣٠، والإبانة الكبرى، لابن بطة، رقم ١٨٣.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥/٤١-٤٢) .

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٥/٢٤٩).

(٤) منهج الإستدلال على مسائل الإعتقاد، لعثمان حسن(٢/٥٨٢).

يظفروا بطائلٍ، ولا أن يصِلوا إلى حقٍّ، وفي نهاية أمرهم صاروا إلى الحَيرة والندم، فمنهم من وُفق لتركه، واتِّباع طريقة السلف، وجاء عنهم عيبُ علم الكلام وذمُّه"(١)، ومنهم من لم يُوفَّق إلى اتَّباع طريقة السلف، فبقي حائراً، متوقفاً، شاكَّاً، لا يدري ماذا يعتقد، وبماذا يدين لله ﷻ، فتخلَّى عن سائر الاعتقادات، ودان بمذهب تكافؤ الأدلَّة، وهذا يعني: "أنَّه لا يُمكن نصر مذهبٍ على مذهب، ولا تغليب مقالةٍ على مقالةٍ"(٢)، وأنَّ دلائل كلِّ مقالةٍ عند القائلين بها مُكافئةٌ لدلائل سائر المقالات(٣)، وهذه من الحالات الخطيرة، والأمراض المزمنة؛ لأنَّها تؤدِّي بهؤلاء إلى أنواعٍ من الشُّكوك، التي قد يكون من آثارها زيغ القلوب(٤)، وهذه سمةٌ غالبةٌ عند المتكلمين(٥)، قال ابن القيم- رحمه الله-: "ولهذا ذهب طائفةٌ من أهل الكلام إلى القول بتكافؤ الأدلة، ومعناه أنَّها قد تكافأت وتعارضت، فلم يُعرف الحقُّ من الباطل، وصدقوا وكذبوا، أمَّا صدقهم: فإنَّ أدلتهم وطرقهم قد تكافأت وتصادمت...، وأمَّا كذبهم: فإنَّ أدلة الحقِّ وشُبه الباطل لا تتكافأ، حتى يتكافأ الضوء والظلام، والبياض والسواد، والمسك وأنتن الجيف"(٦).

لقد كان المتكلمون كثيراً ما يتوقَّفون في المسائل الكبار، "فالرازي كثيرًا ما يأتي بعبارات الشَّك، والإشكال، والحَيرة"(٧)، فمثلًا: يقول بعد ذكر الأدلة في مسألة حدوث العالم، وأنَّه ليس من شرطه أن يكون مسبوقاً بالعدم: "وعلى هذه الطريقة إشكالٌ، ثمَّ ذكره، وقال: "فقد بطلت هذه الحُجَّة، فهذا شكٌّ، لا بدَّ وأن يُتفكَّر في حلِّه"(٨)، وبعد أن عرض المسألة في موضعٍ آخرٍ قال: "هذا سؤالٌ صعبٌ، وهو ما نستخير الله فيه"(٩)، وبعد الاطالة والعرض رجع فقال: "الحيلةُ ترك الحيلة"(١٠).

وهذا الشَّهْرَسْتَاني لم تخلُ مقالاته من عبارات الحيرة، فعند حديثه في بعض المسائل كان يقول: "وهذا موضع اشكالٍ وشَكٍّ عظيم"(١١).

---

(١) قطف الجني الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لعبد المحسن العباد، ص٣٠.

(٢) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم(٥/٧٥).

(٣) الخصائص، للموصلي(١/٢٠٧).

(٤) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٨٩٣).

(٥) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٦٤)، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٨٩٣).

(٦) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٣/٨٤٢-٨٤٣).

(٧) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٦٧٠-٦٧١).

(٨) المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات، للرازي(١/٤٨٧).

(٩) الأربعين في أصول الدين، للرازي، ص٤٠.

(١٠) المصدر السابق، ص٢٣٧.

(١١) نهاية الاقدام، للشهرستاني، ص٣٤٠.

وهذا الذي قال به الأشاعرة من التفويض في الصفات بدافع عدم القطع بمعناها، وزعم تنزيه الله ﷻ، هو الذي جرَّأ الفلاسفة والملاحدة بنفي نصوص المعاد.

يقول ابن تيمية- رحمه الله-: "وبهذا احتجَّ الملاحدة، كابن سينا وغيره، علي مُثبتي المعاد، وقالوا: القول في نصوص المعاد كالقول في نصوص التشبيه والتجسيم، وزعموا أنَّ الرسول ﷺ لم يُبيِّن ما الأمر عليه في نفسه، لا في العلم بالله تعالي ولا باليوم الآخر، فكان الذي استطالوا به على هؤلاء هو موافقتهم لهم علي نفي الصفات، وإلَّا فلو آمنوا بالكتاب كلِّه حقَّ الإيمان لبطلت مُعارضتهم، ودُحضت حُجتَّهم؛ ولهذا كان ابن النفيس[١] المُتطبب الفاضل يقول: ليس إلا مذهبان: مذهب أهل الحديث، أو مذهب الفلاسفة، فأمَّا هؤلاء المتكلمون فقولهم ظاهر التناقض والاختلاف، يعني: أنَّ أهل الحديث أثبتوا كلَّ ما جاء به الرسل، والفلاسفة جعلوا الجميع تخيُّلاً وتوهيماً، ومعلومٌ بالأدلة الكثيرة السمعية والعقلية فساد مذهب هؤلاء الملاحدة، فتعيَّن أن يكون الحقُّ مذهب السلف أهل الحديث والسنة والجماعة"[٢].

رابعاً: تفسيرهم النصوص حسب نظرية الكسب أو العادة: لا بد بداية قبل الخوض في هذه العقيدة عند الأشاعرة، بيان اعتقاد السلف في ذلك؛ ليتضح الكلام، وليرسخ الحق في القلوب.

إنَّ الإيمان بالقدر عند السَّلف له أربع مراتبٍ، وهي: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق، قال ابن القيم- رحمه الله-:" مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها، لم يؤمن بالقضاء والقدر، وهي أربع مراتبٍ، المرتبة الأولى: علم الربِّ ﷻ بالأشياء قبل كونها، والمرتبة الثانية: كتابته لها قبل كونها، والمرتبة الثالثة: مشيئته لها، والرابعة: خلقه لها"[٣].

ولقد كان الإيمان بهذه المراتب محلَّ نزاعٍ بين الفرق والطوائف، وقد وفَّق الله السَّلف للإيمان الكامل بهذه المراتب كما جاء تفصيلها في القرآن والسُّنة، وقد كان الخلاف بين الطوائف في هذه المراتب على النَّحو التالي:

١- **مرتبتا العلم والكتابة:** لم يُنكرهما إلا غُلاة القدريَّة الذين يقولون: إنَّ الأمر أُنُفٌ، أي: لم يسبق لله فيه علمٌ، وقد تبرَّأ منهم الصحابة والسَّلف ﷺ، أمَّا بقية الطوائف فهم مُقرُّون بهاتين المرتبتين.

٢- **مرتبنا المشيئة والخلق:** وقع فيهما الخلاف على قولين:

أحدهما: إنكار هاتين المرتبتين، وهذا مذهب المعتزلة ومن وافقهم، الذين يقولون: إنَّ الله لا يريد الكفر والمعاصي، ويقولون: إنَّ الله لا يخلق أفعال العباد؛ وإنَّما هم الخالقون لأفعالهم.

---

(١) علي بن أبي الحزم القَرْشي، الملقب بابن النفيس، أعلم أهل عصره بالطب، أصله من بلدة قرش (بفتح القاف وسكون الراء، في ما وراء النهر)، مولده بدمشق، ووفاته بمصر، من كتبه: "الموجز في الطب" اختصر به قانون ابن سينا، والشامل في الطب، وتوفي ٦٨٧ هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(٤/٢٧٠).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/٢٠٢-٢٠٣).

(٣) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم(١/٢٩).

وثانيهما: الإقرار بهاتين المرتبتين بإثبات الإرادة والمشيئة الشاملة، والقول بأنَّ الله خالق كلِّ شيءٍ، ومن ذلك أفعال العباد، والسَّلف والأشاعرة مُتَّفقون على ذلك ابتداءً، ولكنَّ أفعال العباد لها مُتعلِّقان: أحدهما بالخالق ﷻ، وهذا قد اتَّفق فيه السلف والأشاعرة على أنَّ الله خالق أفعال العباد، والثاني بالعبد، وهل له قدرةٌ أم لا، وهل قدرته مؤثرةٌ أم غير مؤثرةٍ، وهذا موضع الخلاف بين السلف والأشاعرة[1].

وهذه القدرة التي يتمكَّن بها العبد من الفعل والترك، هي التي تُسمَّى بالإرادة والاستطاعة عند العبد، وقد وقع الخلاف في هذه الاستطاعة على أقوالٍ:

١- **قالت الجهمية:** ليس للعبد أيُّ استطاعةٍ، لا قبل الفعل ولا معه؛ بل له قدرةٌ شكليةٌ غير مؤثرةٍ في الفعل أصلاً، وتُسمَّى فعلاً له تَجوُّزاً[2].

٢- **قالت المعتزلة ومن وافقهم:** أن الله ﷻ قد مكن الإنسان من الاستطاعة، وهذه الاستطاعة قبل الفعل، وهي قدرته عليه وعلى ضده[3].

٣- **قالت الأشاعرة ومن وافقهم:** أنَّ الاستطاعة مع الفعل، لا يجوز أن تتقدمه، ولا أن تتأخر عنه؛ بل هي مقارنةٌ له، وهي من الله ﷻ، وما يفعله الإنسان بها فهو كسبٌ له[4].

٤- **وأمَّا السلف:** فقولهم هو التفصيل في هذه المسألة، وهو أنَّ هناك استطاعةٌ للعبد بمعنى الصِّحة والوسع والتَّمكن وسلامة الآلات، وهي التي تكون مناط الأمر والنهي، وهي المُصحِّحة للفعل، فهذه لا يجب أن تُقارن الفعل؛ بل تكون قبله مُتقدِّمةً عليه، وهذه الاستطاعة المُتقدمة صالحةٌ للضِّدين، ومثالُها قوله ﷻ:﴿ **وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ البَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا** ﴾[آل عمران:٩٧]، فهذه الاستطاعة قبل الفعل، ولو لم تكن إلَّا مع الفعل، لما وجب الحجُّ إلا على من حجَّ، ولما عصى أحدٌ بترك الحج، وهذه الاستطاعة هي مناط الأمر والنهي، وهي التي يتكلَّم فيها الفُقهاء، وهي الغالبة في عرف النَّاس.

وهناك نوعٌ آخرٌ من الاستطاعة، وهي التي يجب معها وجود الفعل، وهذه هي الاستطاعة المُقارِنة للفعل، المُوجِبة له، ومن أمثلتها قوله ﷻ:﴿ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** ﴾[هود:٢٠]، وقوله ﷻ:﴿ **الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا**

---

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمو (١٣٣٠/٣).

(٢) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(٨٥/١)، والفرق بين الفرق، للأسفراييني، ص٢١١ ، والإرشاد، للجويني، ص٢١٥.

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري(٣٠٠/١)، والفرق بين الفرق، للأسفراييني، ص١١٦، وشرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص٣٩٨ .

(٤) انظر: الإرشاد، للجويني، ص٢١٩، ومعالم أصول الدين، للرازي، ص٨٣.

﴿يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[الكهف:١٠١]، فالمراد بعدم الاستطاعة هنا مشقَّة ذلك عليهم، وصعوبته على نفسوهم، فنفوسُهم لا تستطيع إرادتُه، وإن كانوا قادرين على فعله لو أرادوه، وهذه حال من صدَّه هواه أو رأيُه الفاسد عن استماع كُتب الله المُنزَّلة واتِّباعها، وهذه الاستطاعة هي المُقارنة للفعل المُوجبة له(١)، وهي الاستطاعة الكونية التي هي مناط القضاء والقدر، وبها يتحقَّق وجود الفعل(٢).

إنَّه بهذا التفصيل الوسط الذي شرحه شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- يُحلُّ الاشكال، ويتضح الأمر، والذين حاولوا أن يُوجدوا حلَّاً للخلاف القائم بين المعتزلة والأشاعرة، لم يجدوه إلا بالرجوع إلى هذا التفصيل المُوافق لمذهب السلف، ومن خالف ذلك فقد وقع في الانحراف، كما حصل من المعتزلة الذين حصروا القدرة والاستطاعة عند الإنسان بأنَّها قبل الفعل، وأنكروا الاستطاعة الكونية المُقارِنة، والأشاعرة جعلوا الاستطاعة كلَّها مُقارِنةً للفعل، فلم يجدوا حلاً صحيحاً للاستطاعة والقدرة التي هي شرطٌ للعمل، والتي هي بمعنى الصِّحة وسلامة الآلات، أمَّا أهل السُّنة فجعلوا الاستطاعة نوعين، نوعاً قبل الفعل وهو سلامة الجوارح، ونوعاً معه وهو ما يجب به وجود الفعل(٣).

وترتَّب على هذه المسألة الخلاف في مدى قدرة العباد على أفعالهم، وهذه المسألة من أهم القضايا التي وقع فيها الخلاف بين الفرق، ويمكن عرض الأقوال فيها كالتالي:

١- **القول الأول:** أنَّ العباد مجبورون على أعمالهم، لا قدرة لهم، ولا إرادة، ولا اختيار، والله وحده هو خالق أفعال العباد، وأعمالهم إنَّما تُنسب إليهم مجازاً، وحركتُهم واختيارهم كورق الشجر تُحرِّكه الرِّياح، وكحركة الشمس والقمر والأفلاك، وهذا هو مذهب الجبرية وأشهر فرقهم الجهمية(٤).

٢- **القول الثاني:** أنَّ أفعال العباد ليست مخلوقةً لله، وإنَّما العباد هم الخالقون لها، ولهم إرادةٌ وقدرةٌ مُستقلةٌ عن إرادة الله وقدرته، فأفعالهم لا فاعل لها ولا مُحدث سواهم، ومن قال: إنَّ الله خالقها ومُحدثَها فقد عظُم خطؤه، وهذا هو قول المُعتزلة(٥).

٣- **القول الثالث:** قول السلف، وهم يُقرُّون أنَّ أفعال العباد داخلةٌ في المرتبة الرابعة من مراتب القدر، وهي مرتبة الخلق؛ ولذلك فهم يقولون: أنَّ الله خالق أفعال العباد كلِّها، والعباد فاعلون لها حقيقةً، ولهم قدرةٌ حقيقةٌ على أعمالهم، ولهم إرادةٌ، ولكنَّها خاضعة لمشيئة الله الكونية فلا تخرج عنها(٦).

---

(١) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٦١/١).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٧٣/٨).

(٣) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(١٣٣٣/٣).

(٤) انظر: الفرق بين الفرق، للأسفراييني، ص٢١١، والملل والنحل، للشهرستاني(٨٧/١)، ومقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري(٢٣٨/١).

(٥) انظر: شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص٣٣٦ وما بعدها.

(٦) انظر: شفاء العليل، لابن القيم، ص٩٦، وتأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة، ص١٦٠، وجامع البيان، للطبري(٥٠٤/١٠)، ومعارج القبول، لابن حكمي(٩٥٠/٣).

قال ابن أبي العز الحنفي- رحمه الله-:" فكلُّ دليلٍ صحيحٍ يُقيمه الجبري، فإنَّما يدلُّ على أنَّ الله خالق كلِّ شيءٍ، وأنَّه على كلِّ شيءٍ قدير، وأنَّ أفعال العباد من جُملة مخلوقاته، وأنَّه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يدلُّ على أنَّ العبد ليس بفاعلٍ في الحقيقة، ولا مُريدٍ ولا مُختارٍ، وأنَّ حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المُرتعِش وهبوب الرياح وحركات الأشجار، وكلُّ دليلٍ صحيحٍ يُقيمه القدريُّ فإنَّما يدلُّ على أنَّ العبد فاعلٌ لفعله حقيقةً، وأنَّه مُريدٌ له، مختارٌ له حقيقةً، وأنَّ إضافته ونسبته إليه إضافة حقٍّ، ولا يدلُّ على أنَّه غيرُ مقدورٍ لله ﷻ، وأنَّه واقعٌ بغير مشيئته وقدرته، فإذا ضممت ما مع كلِّ طائفةٍ منهما من الحقِّ إلى حقِّ الأخرى؛ فإنَّما يدلُّ ذلك على ما دلَّ عليه القرآن، وسائر كتب الله المنزلة، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان والأفعال، وأنَّ العباد فاعلون لأفعالهم حقيقةً، وأنَّهم يستوجبون عليها المدح والذم"(١).

٤- **القول الرابع:** وهو قول الأشاعرة وأتباعهم، وهؤلاء يقولون: أنَّ الله ﷻ خالق أفعال العباد، وبهذا الأصل خالفوا المعتزلة القائلين بأنَّ الله لا يخلق أفعال العباد، وهذا حقٌّ، ولكن عند عرض مذهبهم من جانب تعلُّق أفعال العباد بهم، وهل هم الفاعلون لها؟، يتضح مدى اختلافهم، وبعدهم عن مذهب السلف في ذلك، وهنا يجب التَّنبيه إلى أنَّ مذهب الأشاعرة في القدر، قد تطوَّر على يد كبار علمائهم، ومن ذلك ما صرَّح به الشهرستاني حول هذه النقطة، حيث يقول:" قال- أي: أبو الحسن الأشعري- : والعبد قادرٌ على أفعاله، إذ الإنسان يجد من نفسه تفرقةً ضروريةً بين حركات الرِّعدة والرَّعشة، وبين حركات الاختيار والإرادة، والتفرقة راجعةٌ إلى أنَّ الحركات الاختيارية حاصلةٌ تحت القدرة، مُتوقفةٌ على اختيار القادر- يقصد الإنسان القادر على فعله-، فمن هذا قال- يقصد: أبو الحسن الأشعري-: المُكتسَب هو المقدور بالقدرة الحاصلة، والحاصل تحت القدرة الحادثة، وعلى هذا فلا تأثير للقدرة الحادثة في الإحداث، لأنَّ جهة الحدوث لا تختلف، فلو أثَّرت لأثَّرت في حدوث كلِّ مُحدَثٍ حتى تصلُح لإحداث الألوان والطعوم والروائح، غير أنَّ الله ﷻ أجرى سنَّته بأن يُحقِّق عقيب القدرة الحادثة، أو تحتها، أو معها، الفعلَ الحاصل إذا أراده العبد وتجرَّد له، ويُسمَّى هذا الفعل كسباً، فيكون خلقاً من الله ﷻ إبداعاً وإحداثاً، وكسباً من العبد، حصولاً تحت قدرته، ثم جاء الباقِلَّاني(٢) فتخطَّى عن هذا القدر قليلاً، فقال: الدَّليل قد قام على أنَّ القدرة الحادثة لا تصلح للإيجاد، لكن ليست تقتصر صفات الفعل أو وجوهه واعتباراته على جهة الحدوث فقط، فجهة كون الفعل حاصلاً بالقدرة الحادثة أو تحتها نسبةٌ خاصة، ويُسمَّى ذلك كسباً، وذلك هو أثر القدرة الحادثة، وكما لا يجوز أن يُضاف إلى الباري

---

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(٤٣٧/١).

(٢) محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، أبو بكر، من كبار علماء الكلام، انتهت اليه الرياسه في مذهب الأشاعرة، كان جيد الاستنباط، سريع الجواب، وجّهه عضد الدولة سفيراً عنه إلى ملك الروم، فجرت له في القسطنطينية مناظرات مع علماء النصرانية بين يدي ملكها، من كتبه: إعجاز القرآن، والإنصاف وتوفي سنة ٤٠٣هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(١٧٦/٦).

ﷻ جهة ما يضاف إلى العبد، فكذلك لا يجوز أن يُضاف إلى العبد جهة ما يُضاف إلى الباري ﷻ، فأثبت الباقلاني تأثيراً للقدرة الحادثة وأثرِها، وهي الحالة الخاصة، وهي جهةٌ من جهات الفعل حصلت من تعلُّق القدرة الحادثة بالفعل، وتلك الجهة هي المُتعينة لأن تكون مُقابَلةً بالثواب والعقاب، ثمَّ إنَّ إمام الحرمين أبو المعالي الجويني تخطَّى عن هذا البيان قليلاً، فقال: أمَّا نفي هذه القدرة والاستطاعة- يقصد قدرة الإنسان على أفعاله- فممَّا يأباها العقل والحس، وأمَّا إثبات قدرةٍ لا أثر لها بوجهٍ فهي كنفي القدرة أصلاً، وأمَّا إثبات تأثيرٍ في حالةٍ لا يفعل فهو كنفي التأثير، فلا بدَّ إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقةً لا على وجه الإحداث والخلق، فإنَّ الخلق يُشعر باستقلال إيجاده من العدم، والإنسان كما يحسُّ من نفسه الاقتدار، يحسُّ من نفسه أيضاً عدم الاستقلال ... "[١].

فقول الشهرستاني السابق يوضح كيف أن قول الأشاعرة في أفعال العباد لم يثبت على قولٍ واحد، ولم يكن مُقنعاً لكبار علمائهم الذين بحثوا هذه المسألة، ويلاحظ في عرض هذا التطور لمذهب الأشاعرة أنَّهم يسيرون نحو القول الحقِّ الذي يقول به السلف، ولكن للأسق فقد استقرَّ مذهب الأشاعرة اليوم موافقٌ على ما قالوه أولاً، وهو أنَّه لا تأثير للقدرة الحادثة، وهو الكسب بمعنى الجبر[٢]، ويتضح هذا المعنى من خلال كُتب المُتأخِّرين منهم، مثل كتاب المواقف للإيجي، حيث يقول: "إنَّ أفعال العباد الاختيارية واقعةٌ بقدرة الله ﷻ وحدها، وليس لقدرتهم تأثيرٌ فيها؛ بل الله ﷻ أجرى عادته بأن يُوجد في العبد قدرةً واختياراً، فإذا لم يكن هناك مانعٌ أوجد فيه فعله المقدور مُقارِناً لهما؛ فيكون الفعل مخلوقاً لله إبداعاً وإحداثاً، ومكسوباً للعبد، والمراد بكسبه إياه: مقارنته وإرادته من غير أن يكون هناك منه تأثيرٌ أو مَدخلٌ في وجوده سوى كونه محلَّاً له"[٣]، وهذا هو قول جمهور الأشاعرة؛ ولذلك لمَّا لم يُثبتوا للعبد قدرةً مُؤثرةً، لم يكونوا بعيدين عن قول الجبرية الجهمية الأوائل، ولكنَّهم نسبوا إلى العبد اسم الفاعل؛ ليخرجوا من ورطة الجبرية الخالصة، مع أنَّهم في الحقيقة مُتَّفقون معهم كما ذكرنا سابقاً؛ ولذلك فالجبرية نوعان، "متوسطةٌ تثبت كسباً كالأشعرية، وخالصةٌ لا تثبته كالجهمية"[٤].

الردُّ على الأشاعرة في هذه المسألة:

إنَّ التَّحقيق الذي عليه أئمة السنة وجمهور الأمة؛ للخروج من الإشكال في هذه المسألة، هو التفريق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق، كما أوضح ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عندما قال في الردِّ على نظرية الكسب عند الأشاعرة: "من قال إنَّ الفعل هو المفعول كما يقوله الجهم بن صفوان ومن وافقه، فإنَّه يقول: إنَّ أفعال العباد هي فعل الله، فإن قال أيضاً: وهي فعل لهم، لزمه

(١) الملل والنحل، للشهرستاني(٩٦/١-٩٩) .

(٢) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(١٣٣٧/٣).

(٣) المواقف، للإيجي(٢١٤/٣)، وشرح المواقف، للجرجاني(١١٨/١).

(٤) المواقف، للإيجي، ص٤٢٨.

أن يكون الفعل الواحد لفاعلين، وإن لم يقل: هي فعلٌ لهم، لزمه أن تكون أفعال العباد فعلاً لله لا لعباده، كما يقوله جهم بن صفوان والأشعري ومن وافقهم، الذين يقولون: إنَّ الخلق هو المخلوق، فتكون أفعال العباد هي فعل الله وهي مفعول الله، كما أنَّها خلقه وهي مخلوقه، وهؤلاء لا يقولون: إنَّ العباد فاعلون لأفعالهم حقيقةً، ولكن هم مُكتسِبون لها، وإذا طولبوا بالفرق بين الفعل والكسب لم يذكروا فرقاً معقولاً، وأمَّا جمهور أهل السنة المُتبَّعون للسلف والأئمة فيقولون: إنَّ فعل العبد فعلٌ له حقيقةً، ولكنَّه مخلوقٌ لله، ومفعولٌ لله؛ لا يقولون هو نفس فعل الله، ويفرِّقون بين الخلق والمخلوق، والفعل والمفعول، فيقولون: إنها مخلوقةٌ لله ومفعولةٌ له، ليست هي نفس فعله وخلقه الذي هو صفتُه القائمة به، ويقولون: إنَّه فعل العبد، لكنَّه مخلوقٌ لله، كما أنَّ قدرة العبد وسمعه وبصره مخلوقٌ لله ﷻ، وليس هو سمع الحقِّ ولا بصره ولا قدرته، وهذا الفرق هو الذي حكاه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد[1] عن العلماء قاطبةً، وهو الذي ذكره غير واحدٍ من السلف والأئمة"[2].

وقال ابن تيمية- رحمه الله- في موضعٍ آخر: "من المستقر في فطر الناس، أن من فعل العدل فهو عادلٌ، ومن فعل الظلم فهو ظالمٌ، ومن فعل الكذب فهو كاذبٌ، فإذا لم يكن العبد فاعلاً لكذبه وظلمه وعدله؛ بل الله فاعل ذلك؛ لزم أن يكون هو المتصف بالكذب والظلم، وهذا من أعظم الباطل"[3].

وقد ردَّ ابن القيم- رحمه الله- أيضاً على الأشاعرة في نظرية الكسب فقال: "إذا كان الإنسان ليس بفاعلٍ حقيقةً، والفاعل هو الله ﷻ، وأفعال الإنسان قائمةٌ لم تقم بالله، فإذا لم يكن الإنسان فاعلها مع قيامها به، فكيف يكون الله هو فاعلها؟، ولو كان الله فاعلها لعادت أحكامها إليه، واشتقت له منها أسماء، وذلك مستحيلٌ على الله، فيلزم إذاً أن تكون أفعالاً لا فاعل لها، وهذا باطلٌ؛ بل نقول هي أفعال للعباد حقيقةً، ومفعولةٌ للرَّب، فالفعل عندنا غير المفعول، وهو إجماعٌ من أهل السنة، فالعبد فعلها حقيقةً، والله خالقه وخالق ما فعل به من القدرة والإرادة وخالق فاعليته"[4]، وبهذا التفصيل الجيد يتبيَّن غلط الأشاعرة حين جعلوا الفعل هو المفعول؛ فأوقعهم هذا في مأزق الكسب الذي اشتهروا به، ولم يستطيعوا التخلص منه.

---

(١) قال البخاري: "واختلف الناس في الفاعل والمفعول والفعل، فقالت القدرية: الأفاعيل كلها من البشر ليست من الله، وقالت الجبرية: الأفاعيل كلها من الله، وقالت الجهمية: الفعل والمفعول واحد، لذلك قالوا لكلٍّ مخلوقٌ، وقال أهل العلم: التخليق فعل الله وأفعالنا مخلوقة، ففعل الله صفة الله، والمفعول غيره من الخلق". خلق أفعال العباد، للبخاري(١/١١٣).

(٢) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(١/٤٦٠)،(٢/٢٩٨).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٨/١١٩-١٢٠) .

(٤) شفاء العليل في أحكام القضاء والقدر والحكمة والتعليل، لابن القيم(١/١٣١).

إنَّ القرآن الكريم مليءٌ بذكر إضافة أفعال العباد إليهم، ومن ذلك قوله ﷻ:﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾[الواقعة:٢٤]، وقوله ﷻ:﴿ **اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ** ﴾[فصِّلت:٤٠]، وقوله:﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾[التوبة:١٠٥]، وقوله:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾[البقرة:٢٧٧]، وغيرها كثيرٌ جداً[١].

إنَّ كسب الأشعري لا حقيقة له، ولا تفسير له، كما قال ابن تيمية– رحمه الله–:" والمعتزلة استطالوا على الأشعرية ونحوهم من المُثبتين للصفات والقدر بما وافقوهم عليه من نفي الأفعال القائمة بالله ﷻ، فنقضوا بذلك أصلهم الذي استدلُّوا به عليهم، واستطالوا عليهم بذلك في مسألة القدر، واضطروهم إلى أن جعلوا نفس ما يفعله العبد من القبيح فعلاً لله رب العالمين دون العبد، ثمَّ أثبتوا كسباً لا حقيقة له؛ فإنَّه لا يُعقل من حيث تعلُّق القدرة بالمقدور فرقٌ بين الكسب والفعل؛ ولهذا صار الناس يسخرون بمن قال هذا، ويقولون: ثلاثةُ أشياءٍ لا حقيقة لها، أو عجائب الكلام ثلاثةٌ أحوال أبي هاشم[٢]، وطفرة النَّظام[٣]، وكسب الأشعري، وهذا الكسب ينكره الأئمة وجمهور العقلاء، ويقولون: إنَّه مُكابرةٌ للحسِّ، ومخالفةٌ للشرع والعقل[٤]؛ ولذلك عدَّ المحققون هذا الكسب من مُحالات الكلام، وضربوا له المثل في الخفاء والغموض، فقالوا: أخفى من كسب الأشعري؛ بل إنَّ إنكار الاختيار في فعل العبد نقصٌ في العقل، فشتان بين دقَّة قلبٍ، ودقَّة عزفٍ، وشتان بين سقوطٍ من شاهقٍ، وقفزٍ بمظلة، وشتان بين زلقة رجلٍ وضربة كرة[٥]، ولذلك لم يقتنع الأشاعرة أنفسهم بهذه النظرية، وقد خرج إمام الحرمين الجويني وهو من تلاميذ الأشعري عن هذا الرأي، وقال بقول أهل السنة والجماعة؛ بل والأشعري نفسه في كتاب الإبانة رجع عن هذا الرأي العجيب[٦].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٢٠/٨) .

(٢) أبو هاشم الجبائي المعتزلي، جاء بلفظ الأحوال، وهي اثبات خواص مختلفة لشيءٍ واحد، وقال: أن الأحوال لا هي معلومة ولا مجهولة ولا موجودة ولا معدومة، ولا قديمة ولا محدثة. انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(٥٠/١).

(٣) الطفرة عند المتكلمين هي: النظرية التي تُخالف العقل، واشتهر بها النَّظام من المعتزلة، ومعناها عنده: أنّ الجسم قد يكون في مكان، ثم يصير منه إلى المكان الثالث، أو العاشر من غير مرورٍ بالأمكنة المتوسطة بينه وبين الذي قبله، ومن غير أن يصير معدوماً في الأول، ومُعاداً في العاشر.انظر: مقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري(٣١٨/٢)(٣٢١/٢)، والفرق بين الفرق، للأسفراييني، ص١٤٠، والملل والنحل، للشهرستاني(٥٥/١).

(٤) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٢٨/٨)، ومنهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٢٩٧/٢).

(٥) انظر: القضاء والقدر، لعمر الأشقر، ص٨١.

(٦) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٩٠/١).

ومن الأمور التي ينبغي الإشارة إليها هنا؛ لئلا يقع اللَّبس، بيان معنى الكسب عند أهل السنة والجماعة، فكثيراً ما يذكر علماء السنة أنَّ أفعال العباد كسبٌ لهم، وقد يقع الوهَم في ذلك، خاصةً وأنَّ الأشاعرة يُعبِّرون عن مذهبهم بالكسب، فيقع الإيهام أحياناً، والفرق أنَّ أهل السنة عندما يقولون: أنَّ أفعال العباد كسبٌ لهم، يقصدون أنَّها أفعالهم حقيقةً، وأنَّها هي التي تعود على فاعليها بنفعٍ أو ضرٍّ، كما قال ﷻ:﴿ لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾[البقرة:٢٨٦]، فمقصود أهل السنة أنَّها كسبٌ لهم، واقعةٌ بقدرتهم وإرادتهم، وكلُّ أفعالهم مخلوقةٌ لله ﷻ [(١)].

وبناءً على هذه النظرية، فإنَّ الأشاعرة ينفون االتأثير بين الأسباب والمسببات، يقول الغزالي: "الاقتران بين ما يُعتقد في العادة سبباً وبين ما يُعتقد مُسبِّباً ليس ضرورياً عندنا"[(٢)]، فيعتقد الأشاعرة بأنَّ الأسباب لا تأثير لها في حصول المسببات، وأنَّ التلازم الظاهر بين الأسباب والمسببات إنَّما يرجع إلى جريان العادة بحصول المُسبَّب عند وجود السبب، وإلا فالمسبَّب حاصلٌ سواءٌ وُجد السبب أو لم يوجد، ولو وُجد فإنَّه لا تأثير له في حصول المسبَّب، فالنار عند الأشاعرة لا تحرق، وأيضاً هي ليست سبباً في الإحراق، ولكن عند التقاء الخشب بالنار يخلق الله ﷻ الاحتراق، فيقولون: بأنَّ الخشب احترق عند النار، لا بالنار، والرَّجل إذا كسر الزجاجة يقولون: ما انكسرت بكسره، وإنَّما انكسرت عند كسره، والإنسان إذا أكل حتى شبع، يقولون ما شبع بالأكل، وإنَّما شبع عند الأكل، ومن قال عندهم بأنَّ النار تحرق بطبعها أو هي عِلَّة الاحتراق، فهو فهو مبتدعٌ ضالٌّ؛ بل قد يكفر عند بعضهم؛ لأنَّه لا فاعل عندهم إلا الله مطلقاً، ومن متونهم في العقيدة، قولهم:

والفعل في التأثير ليس إلَّا ... للواحد القهار جلَّ وعلا

ومن يقلْ بالطَّبع أو بالعِلَّة ... فذاك كفرٌ عند أهل الملة[(٣)].

لقد أثمرت هذه العقيدة ضرراً عظيماً على حياة المسلمين لا سيَّما في ترك الأسباب، حتى قال بعضهم :

جرى قلم القضاء بما يكون فسيَّان التحركُ والسكون

جنونٌ منك أن تسعي لرزقٍ ويُرْزق في غيابته الجنين[(٤)].

إنَّ الأشاعرة بهذه النظرية قد خرجوا عن المنقول والمعقول، وأشبه قولهم قولَ الجبرية الذين غالوا في إثبات القدر؛ فسلبوا العبد قدرته واختياره[(٥)]، ومذهب الأشاعرة هو نفس مذهب الجبرية، وإنَّما

---

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٣/ ١٣٤٨).

(٢) تهافت الفلاسفة، للغزالي، ص٢٣٩.

(٣) انظر: منهج الأشاعرة في العقيدة، للمحمود(٤٦/١).

(٤) انظر: القضاء والقدر، للأشقر، ص٧٧.

(٥) القضاء والقدر ومسئولية الإنسان، لابن العثيمين، ص٦.

التفريق هو إثبات قدرةٍ ومشيئةٍ للعبد بلا أثر، ولا يقع بها الفعل؛ ولكن معها، فيقترن وجود الفعل مع القدرة والمشيئة من غير أثرٍ لها في الفعل، فيقولون خلق الله القطع عند مرور السكين، فعندهم السكين لا تقطع، وكذلك النار لا تحرق، أمَّا أهل السُّنة فيقولون: الله يخلق القطع بالسكين، ويخلق الإحراق بالنار، فالنار تحرق، والسكين تقطع، ولا حرج في قول ذلك البتَّة[١]، وقد ردَّ ابن القيم– رحمه الله– في نونيته على الأشاعرة في هذه المسألة، فقال:

وهو القدير فكلُّ شيءٍ فهو مقدورٌ. ... له طوعا بلا عصيان

وعموم قدرته تدلُّ بأنَّه ... هو خالق الأفعال للحيوان

هي خلقه حقاً وأفعالٌ لهم ... حقاً ولا يتناقض الأمران

لكنَّ أهل الجبر والتكذيب ... بالأقدار ما انفتحت لهم عينان

نظروا بعيني أعورٍ إذ فاتهم ... نظر البصير وغارت العينان

فحقيقة القدر الذي حار الورى ... في شأنه هو قدرة الرحمن[٢].

خامساً: التناقض في كثيرٍ من المواقف والعقائد: لقد وقع الأشاعرة من خلال التزامهم بالمنهج سابق الذكر في كثيرٍ من التناقضات الغريبة، والذي أوقعهم في هذا التناقض أنَّهم يدَّعون العقل، ويُحكِّمونه في النَّقل، ثمَّ يتناقضون بعد ذلك تناقضاً يبرأ منه العقل، ويرجع معظم تناقضهم إلى كونهم لم يُسلِّموا للوحي تسليماً كاملاً، ويعرفوا للعقل منزلته الحقيقية، وحدوده الشرعية، فلم يلتزموا بالعقل التزاماً واضحاً، ويرسموا منهجاً عقلياً كالمعتزلة والفلاسفة؛ بل خلطوا وركَّبوا فتناقضوا واضطربوا، وليس هناك مذهبٌ أكثر تناقضاً من مذهب الأشاعرة، اللهمَّ إلا مذهبُ الرافضة[٣].

ومن تناقضات الأشاعرة الغريبة ما يلي:

١– قالوا: إنَّ الجهة مستحيلةٌ في حقِّ الله ﷻ، أي: جهة العلو، ثمَّ قالوا بإثبات الرؤية لله ﷻ في الآخرة؛ ولهذا قيل فيهم: "من أنكر الجهة وأثبت الرؤية فقد أضحك الناس على عقله"[٤].

٢– قالوا: "إنَّه لا أثر لشيءٍ من المخلوقات في شيءٍ، ولا فعل لشيءٍ مُطلقاً، وإنَّما هو العادة والإقتران، ثمَّ قالوا: "إنَّ للإنسان كسباً يُجازى لأجله، فكيف يُجازى على ما لا أثر له فيه مطلقاً[٥].

---

(١) انظر: القضاء والقدر، للأشقر ص٩٠–٩٣، والقضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، للمحمود، ص١٩٩–٢١٢.

(٢) نونية ابن القيم(٣٦/١).

(٣) انظر: منهج الأشاعرة في العقيدة، لسفر الحوالي(٩٠/١).

(٤) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية(٥٤١/٣).

(٥) انظر:الإنصاف، للباقلاني، ص٤٥، والإرشاد، للجويني، ص١٨٧، ونهاية الإقدام، للشهرستاني، ص٧٧، والمواقف، للإيجي، ص٣١١، وشفاء العليل، لابن القيم، ص٢٥٩.

٣- يعتقدون بنفي الحكمة والتعليل في أفعال الله مُطلقاً، ثمَّ قالوا: إنَّ الله يجعل لكلِّ نبيٍّ معجزةً؛ لأجل إثبات صدق النَّبي؛ فتناقضوا بين نفي الحكمة والتعليل، وبين إثبات الله معجزةً للرسول؛ ليُميِّز عن مدَّعي النُّبوة[١].

٤- قالوا: إنَّ أحاديث الآحاد مهما صحَّت، لا يُبنى عليها عقيدةٌ، ثم أسَّسوا أخطر الأصول والقضايا على أبياتٍ شعريةٍ شاذَّةٍ وردت عن شاعرٍ نصرانيٍ، كما في مسألة الكلام النفساني، ومسألة الإستواء[٢].

٥- قالوا: إنَّ رفع النقيضين محالٌ، وهو كذلك، ثمَّ قالوا في صفة العلوّ: "إنَّ الله لا داخل العالم، ولا خارجه، ولا فوقه، ولا تحته، ولا عن يمينه، ولا عن شماله،..."[٣].

٦- قالوا: إنَّ العقل يُقدَّم على النَّقل عند التعارض؛ بل العقل هو الأصل كما يزعمون، والنَّقل إن وافقه قُبل، وإن خالفه رُدَّ أو أُوِّل[٤]، ثمَّ قالوا: إنَّ العقل لا يُحسِّن شيئاً، ولا يُقبِّحه؛ فجعلوا مثلاً نصوص علوِّ الله مُعارِضةً للقواطع العقلية، في حين جعلوا قُبح الزنا والكذب قُبحاً شرعياً[٥]، فهلَّا أنصفوا وجعلوا نصوص الصفات أموراً شرعيةً سمعيةً نقليةً؛ فأثبتوها على حقيقتها.

٧- قالوا: "إنَّ تأويل آيات الصفات واجبٌ يقتضيه التنزيه، أمَّا تأويل آيات الحشر والأحكام كفرٌ يُخرج من الملَّة.

٨- قالوا: إنَّ من قال: إنَّ النار تحرق بطبعها كافرٌ مُشركٌ، ومن أنكر علوَّ الله على خلقه مُوحِّدٌ مُنزِّهٌ.

٩- جزموا بأنَّ من لم يبلغه الشرع فهو غير مُؤاخَذٍ بإطلاقٍ، ثمَّ قالوا: إنَّ على كلِّ مُكلَّفٍ وان كان مولوداً من أبوين مسلمين في ديار الإسلام، إذا بلغ سنَّ التكليف أن ينظر في حدوث العالم، ووجود الله، فإن مات قبل النَّظر أو في أثنائه اختلفوا في الحُكم بإسلامه، وجزم بعضهم بكفره [٦].

---

(١) انظر: المواقف، للإيجي، ص٣٣١، والنبوات، لابن تيمية، ص١٦٣، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٩٩/١٦)، وشفاء العليل، لابن القيم(٣٩١/١) وما بعدها، ومنهاج السنة النبوية، لابن تيمية(١٢٨/١).

(٢) انظر: الإنصاف، للباقلاني، ص٩٦، والإرشاد، للجويني، ص١٢٨، والمواقف، للإيجي، ص٢٩٣، وشرح الباجوري على الجوهرة، ص ٦٤-٦٦.

(٣) انظر: المواقف، للإيجي(٣٦/٣).

(٤) انظر: أساس التقديس، للرازي، ص١٦٨، والشامل، للجويني، ص٥٦١، المواقف، للإيجي(٣٩/١)، ودرء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٤/١).

(٥) انظر: نهاية الإقدام، للشهرستاني، ص٣٧٠، وغاية المرام في علم الكلام، للآمدي، ص٢٣٤، والمواقف، للإيجي، ص٣٢٣، ومجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤٣٢/٨-٤٣٨).

(٦) انظر: شرح الباجوري على جوهرة التوحيد، ص٣١، والمواقف، للإيجي، ص٣٩٢، وأساس التقديس، للرازي، ص١٦، ص١٩٦.

١٠- ومن أكبر تناقضاتهم وأوضحها، إثباتهم سبع صفاتٍ لله ﷻ، ونفي وتأويل ما سواها، فألزمهم المعتزلة بتأويل جميع الصِّفات كما نفوا وتأوَّلوا معظمها، فردُّوا على المعتزلة أنَّهم أثبتوا هذه الصفات السبع بما يقتضي عدم مشابهة الله بخلقه، فعندها ألزمهم السَّلف بإثبات جميع الصفات التي تأوَّلوها ونفوها بما لا يقتضي التَّشبيه، فلم يجدوا جواباً لذلك.

إنَّ هذه بعض الأمثلةُ من تناقضات الأشاعرة، ومكابرتهم للعقل السليم، وقد بيَّنها أهل العلم، وردُّوا عليهم فيها، وممَّن بيَّن ذلك وأفاض فيه شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-، فقد بيَّن تناقضاتهم، وردَّ عليهم من وجوهٍ كثيرة، وألزمهم الحُجة فيما خالفوا فيه، فهل فيهم من مُعتبِر[١].

سادساً: التنقُّص من خصومهم ورميُهم بالتُّهم: إنَّ الأشاعرة لم يلتزموا بالمفاهيم الواضحة عند السلف في بعض القضايا، وتخبَّطوا فيها تخبُّطاً شديداً، مثل قولهم عن الإيمان هو التَّصديق، وعن أوِّل واجبٍ على المُكلَّف هو النَّظر، وعن التوحيد هو توحيد الربوبية فقط، وعن القرآن هو الكلام النفساني، وعن العلوِّ هو علوُّ القدر فقط، وعن أفعال العباد بالجبر حسب نظرية الكسب، فكان حالهم مثل حال من يُفسِّر الواضح حتى يجعله غامضاً، فتعمَّقوا كما يظنُّون في استخراج الحقِّ الكامن خلف النصوص، ثمَّ خرجوا بزعمهم بعلمٍ غزيرٍ لم يهتدِ إليه أحدٌ قبلهم[٢].

ولقد أوضح ابن القيم- رحمه الله- في نونيته ما يدلُّ على أنَّ الأشاعرة في كتاباتهم يضمرون النقيصة في صدورهم على أهل الإثبات للصفات، فقال- رحمه الله-:

وهو الذي في كتبهم لكن بلطف عبـ ... ـارةٍ منهم وحسن بيان

يا من يظنُّ بأننا حفنا عليـ ... ـهم كتبُهم تنبيك عن ذا الشان

فانظر ترى لكن نرى لك تركها ... حذراً عليك مصايد الشيطان

فأطلق الأشاعرة كغيرهم على المثبتين لصفات الله ﷻ الفعلية: ألفاظ المُشبِّهة[٣] والمُجسِّمة[٤]،

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٣٥/١٢) وما بعدها.

(٢) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١٢٦٦).

(٣) لمَّا كان الأشاعرة لا يثبتون إلا بعض الصفات، ويؤولون البعض الآخر؛ فقد نبزوا من يثبت لله جميع ما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ بالتشبيه. انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(١٣٠/١).

(٤) وهذا اللقب يتَّهمون به من أثبت لله ما أثبته لنفسه من الصفات مثل اليدين والعين والساق والقدم والنفس. انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١١٨/١).

والحَشوية[١]، والنوابت[٢]، مُتنقِّصين بذلك لهم، وعائبين عليهم هذا الإعتقاد الصحيح الذي لم يقبلوه بعقولهم القاصرة، وهذا مزلقٌ خطيرٌ، كما قال أبو حاتم الرازي[٣]- رحمه الله-: "علامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر، وعلامة الزنادقة تسميتهم أهل السنة حشوية، يريدون إبطال الآثار، وعلامة الجهمية تسميتُهم أهل السنة مشبهةً، وعلامة القدرية تسميتهم أهل الأثر مجبرة، وعلامة المرجئة تسميتهم أهل السنة مخالفة ونقصانية، وعلامة الرافضة تسميتهم أهل السنة ناصبة، ولا يلحق أهل السنة إلا اسمٌ واحدٌ، ويستحيل أن تجمعهم هذه الأسماء"[٤]، وكلُّ هذه التُّهم هي عصبيةٌ وحسدٌ للسلف ومنهجهم، ولا يلتصق بهم ما لقبهم به أهل البدع، وهم منه برءاء، كما لم يلتصق بالنبي ﷺ تسمية كفار قريش له ساحراً وشاعراً ومجنوناً ومفتوناً وكاهناً[٥].

ومن أقوال الأشاعرة المُثبتة في كتبهم، والتي يرمون بها السلف بهذه الألقاب والتهم، ما يلي:

١- قال الشهرستاني واصفاً السَّلف بالحشوية: "وجماعةٌ من أصحاب الحديث الحشوية صرَّحوا بالتشبيه، وقالوا: معبودهم يجوز عليه الانتقال والنزول والصعود والاستقرار والتَّمكُّن"[٦].

٢- قال الرازي في تفسيره: "لا طريق إلى معرفة الله تعالى إلا بالنظر والاستدلال، وطعن قومٌ من الحشوية في هذه الطريقة"[٧].

٣- وقال في موضعٍ آخر:" وهذا يدلُّ على فساد قول الحشوية الذين يقولون لا تحصل معرفة الله إلا من القرآن والأخبار"[٨].

---

(١) وهو من الحشو، وهو أن يُودع الشيء وعاءً باستقصاء، يقال: فلان من حشوة بني فلان أي: من رذالهم، وإنما قيل ذلك؛ لأنَّ الذي تُحشى به الأشياء لا يكون من أفخر المتاع؛ بل أدونه، والحشو من الكلام: الفضل الذي لا يُعتمد عليه، وكذلك هو من الناس، ولقبوا اهل السنة بذلك؛ لأنهم -بزعمهم- جعلوا ربهم حشو هذا الكون بإثباتهم له صفة الفوقية والاستواء وأنَّه في السماء. انظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس(٢/ ٦٤)، ووسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(١/١٤٣).

(٢) وهذا لقبٌ أطلقه أهل الكلام على أهل السنة والأثر، يعنون أنهم أحداث أغمار، لا خبرة لهم بعلم الكلام ولا دراية لهم به، وأنهم نابتة شرٍّ نبتوا في الإسلام بأقوال بدعية؛ لقولهم بما دلت عليه الأحاديث والآثار التي يزعم أهل الكلام أن القول بها يفضي إلى التشبيه والتجسيم. انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(١/١٥١).

(٣) محمد بن إدريس بن المنذر بن داود، بن مهران الحنظليّ، أبو حاتم الرازي، حافظ للحديث، من أقران البخاري ومسلم، من مصنفاته: طبقات التابعين، وكتاب الزينة، وتفسير القرآن العظيم، وأعلام النبوة، وتوفي ٢٧٧هـ. انظر: تهذيب التهذيب، لابن حجر(٩/٣١)، والأعلام، للزركلي(٦/٢٧).

(٤) شرح أصول إعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(١/١٩٧).

(٥) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(١/٧٢).

(٦) الملل والنحل، للشهرستاني(١/١٠٥).

(٧) مفاتيح الغيب، للرازي(٢/٣٢٣).

(٨) المصدر السابق(٢/٣٤٧).

٤- لمَّا تكلَّم الرازي عن تلبيس اليهود للحقِّ قال:" فيُلبِّسون على الضعفاء أحد الأمرين بالآخر كما يفعله كثيرٌ من المُشبِّهة"[١].

٥- وقال الرازي أيضاً:"المشبهة احتجُّوا بقوله ﷻ:﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٥٨]، في إثبات الجهة"[٢].

٦- وقال الرازي أيضاً: "قالت المشبهة قوله ﷻ:﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾[النحل:٥٠]، هذا يدلُّ على أنَّ الإله ﷻ فوقهم بالذات، والذي نريد هاهنا أن نقوله: يخافون ربهم من فوقهم، معناه يخافون ربهم من أن ينزل عليهم العذاب من فوقهم، ويجب حمل هذه الفوقية على الفوقية بالقُدرة والقهر، كقوله:﴿ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾[الأعراف:١٢٧]"[٣].

٧- وقال الرازي أيضاً: "فإذا كان إله المشبهة مُؤلَّفاً من الأعضاء والأجزاء كان مركباً، فإذا كان على العرش كان محدوداً متناهياً، وإن كان ينزل من العرش ويرجع إليه كان موصوفاً بالحركة والسكون، فهذه الصفات الثلاثة إن كانت منافيةً للإلهية، وجب تنزيه الإله عنها بأسرها، وذلك يبُطل قول المُشبِّهة"[٤].

٨- وقال الرازي عن فرعون في تفسير قوله ﷻ: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[القصص:٣٨]،: "لعلَّه كان على دين المُشبَّهة، فكان يعتقد أنَّ الإله لو كان موجوداً، لكان حاصلاً في السماء"[٥].

٩- قال أبو المعالي الجويني:" ذهبت الحشوية من الحنابلة، وكتبة الحديث إلى أنَّ خبر الواحد العدل يُوجب العلم، وهذا خزيٌ لا يخفى على ذي لبٍّ"[٦].

١٠- سمَّى الغزالي أحد أشهر كتبه الأشعرية، بالاقتصاد في الاعتقاد؛ ليكون مقتصداً ووسطاً كما يقول بين الحشوية من جهة، والمعتزلة والفلاسفة من جهةٍ أخرى[٧].

---

(١) مفاتيح الغيب، للرازي(٨/٢٥٧).
(٢) المصدر السابق(١١/٢٦٢).
(٣) المصدر السابق(٢٠/٢١٨).
(٤) المصدر السابق (٢٦/٤١١).
(٥) المصدر السابق(١٩/٦٠).
(٦) البرهان في أصول الفقه، للجويني(١/٢٣١).
(٧) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، ص٣.

١١- قال الإيجي في المواقف: "أنَّه تعالى ليس في جهةٍ ولا في مكانٍ، وخالف فيه المُشبِّهة، وخصَّصوه بجهة الفوق اتفاقاً"[١].

وينبغي أن يُنبَّه إلى أنَّه لمَّا وُجدت بعض الفئات التي بالغت في الإثبات؛ فشبَّهت الله بخلقه، بادر السَّلف إلى ذمِّ المُشبِّهة، وقرنوا الذمَّ لهم بذمِّ المُعطِّلة، ولم يمنع السلف من هذا ما وصفهم به أعداؤهم النُّفاة بأنَّهم مُشبِّهةً؛ لأنَّ مذهب السَّلف في الصفات وسطٌ بين تعطيل هؤلاء، وتشبيه أولئك[٢].

وبعد كلِّ هذه التُّهم التي اتَّهم الأشاعرة بها السلف، يردُّ ابن القيم- رحمه الله- على الأشاعرة في نونيته بما يوضِّح أنَّ الأشاعرة هم الأحقُّ بهذه التهم ممَّن أثبت الصفات لله ﷻ على الكيفية التي تليق به سبحانه؟؟، لأنَّهم هم من عطَّلوها ونفوها، لا السَّلف[٣].

إنَّ الذي يُثبت لله ما أثبته لنفسه لا يجوز أن يُسمَّى مُشبِّهاً أو مُجسِّماً، والذي يقول: إنَّ الله في السماء، أي في جهة العلوِّ المطلق، وأنَّ السماء ليست ظرفاً له ﷻ، وإنَّما المقصود جهة العلوِّ بغير تحديد مكانٍ، لا يصحُّ أن يُسمَّى حشوياً، والذي يأخذ بظواهر النُّصوص، ويفهم معانيها فهماً جيداً، ويقول عن الكيفية: لا علم بها؛ لأنَّ الله لم يخبرنا بذلك، لا يصحُّ أن يُسمَّى خارجياً يقف على ظواهر النصوص دون فهمٍ لمعانيها، والذي نبت على معرفة الحقِّ وما جاء في كتاب الله وسنة نبيهﷺ، لا يصحُّ أن يُسمَّى نابتاً جديداً خارجاً عن الحق، والذى يحترم أهل البيت ﷺ ويُنزلهم المنزلة التي تليق بهم فلا يرفعهم إلى مرتبة العصمة أو الألوهية، ولا ينزلهم عن قدرهم، لا يصحُّ أن يُسمَّى ناصبياً، إنَّ في إطلاق تلك الأسماء كلِّها على أهلِّ الحق ظلمٌ وكذبٌ وزورٌ، فهي في الحقيقة أسماءٌ لأهل الباطل؛ لكنَّ الجاني يُسمِّي نفسه بريئاً، ويُسمِّي البريء مُجرماً، والله ﷻ يفصل بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون[٤].

---

(١) المواقف، للإيجي(٣/٢٩).

(٢) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٣/٩٦٥).

(٣) انظر: نونية ابن القيم(١/٢٧)، (١/١٤٦)، (١/١٤٨)، (١/١٦٣).

(٤) انظر: فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(٣/ ١٢٦٩)، بتصرف يسير.

المطلب الثالث: موقف أهل السنة من الأشاعرة

يزعم الأشاعرة أنَّهم هم أهل السنة والجماعة، وأهلُ الحق، وأنَّهم هم الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية، والسؤال الذي يجب أن يُجاب عنه في هذا المقام هو، هل هذه الدعوى صحيحة؟، وهل يدخل الأشاعرة في مُسمَّى أهل السنة؟.

إنَّ المُتتبِّع لكتابات الأشاعرة ومُؤلفاتهم قديماً وحديثاً، يلحظ أنَّهم ينعتون أنفسهم بذلك، حيث يقولون أهل السنة يعتقدون كذا، ويذكرون اعتقاد الأشاعرة في المسألة، ومن ذلك:

١- قال الباقلاني في صفة الكلام التي خالفوا فيها السَّلف من أهل الحديث والسُّنة: "اعلم أنَّ الله تعالى متكلمٌ، له كلامٌ عند أهل السنة والجماعة، وأنَّ كلامه قديمٌ ليس بمخلوقٍ ولا مجعولٍ ولا مُحدثٍ؛ بل كلامه قديمٌ صفةٌ من صفات ذاته، كعلمه وقدرته وإرادته ونحو ذلك"[١].

ويُلاحظ في الكلام السابق أنَّ الباقلاني جعل هذا القول هو قول أهل السنَّة والجماعة، مع أنَّ مذهب أهل السنة والجماعة أنَّه ﷻ لم يزل متكلماً إذا شاء ومتى شاء وكيف شاء، وهو يتكلَّم به بصوتٍ يُسمع، والإمام أحمد بن حنبل- رحمة الله عليه- وسائر أئمة أهل الحديث المعروفين بالإمامة في السنة، قالوا بإثبات الحرف والصوت في كلام الله، بخلاف ما تقوله الأشاعرة[٢].

وهذا يدلُّ على أنَّ الباقلاني يُطلق اسم أهل السنة والجماعة على طائفة الأشعرية، وهكذا كرَّر هذا الإطلاق في عدة مواضع من كتابه الإنصاف.

٢- قال أبي المظفر الإسفرائيني[٣]: "والفرقة الثالثة والسبعون هي الناجية، وهم: أهل السُّنة والجماعة من أصحاب الحديث والرأي وجُملة فرق الفقهاء، ثمَّ لمَّا ذكر اعتقادهم، ذكر ما عليه الأشاعرة من نفي الاستواء، والحرف والصوت عن كلام الله ﷻ، وتأويل صفة الرَّحمة وغيرها من الصفات الفعلية، وغير ذلك ممَّا هو مخالفٌ لعقيدة السلف، ومصادمٌ للكثير من النُّصوص الصحيحة الصريحة[٤].

٣- قال الجويني في مقدمة كتابه- لُمع الأدلة-: هذا وقد استدعيتم- أرشدكم الله ﷻ- ذكر لُمعٍ من الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة والجماعة، ثمَّ ذكر عقيدة الأشاعرة، كقولهم في كلام الله أنَّه كلامٌ نفسيٌّ، ليس بحرفٍ ولا صوت [٥].

---

(١) الإنصاف، للباقلاني، ص١٠٨.

(٢) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/١٦٩).

(٣) طاهر بن محمد الأسفراييني، ويقال شهفور بن طاهر، أبو المظفر، عالم بالأصول، مفسر، من فقهاء الشافعية، من كتبه: التبصير في الدين، وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين. انظر: طبقات الشافعية، للسبكي(٣/١٧٥)، والأعلام، للزركلي(٣/١٧٩)،(٣/٢٢٣).

(٤) انظر: التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، للأسفراييني(١/٢٥).

(٥) لمع الأدلة، لأبي المعالي الجويني، ص٧٥، ص٩٢.

٤- قال الرازي في كتابه -معالم أصول الدين-: "قال الأكثرون من أهل السنة: كلام الله واحدٌ"[١]، وهذا قول الكلابية والأشاعرة، وليس بقول أهل السنة الجماعة.

وليتبين صدق هذه الدعوى من عدمها، لا بدَّ وأن يكون هناك ضابطٌ لمعنى أهل السنة والجماعة يُقاس عليه انطباق الوصف من عدمه، فلا بدَّ من بيان معنى أهل السنة الذين هم أخصُّ الناس بها، وأكثرهم تمسُّكاً بها، واتباعاً لها قولاً وعملاً واعتقاداً.

وهذا اللفظ أصبح مصطلحًا يُطلق ويُراد به أحد معنيين:

١- المعنى الأول: معنىً عام يدخل فيه جميع المنتسبين إلى الإسلام ما عدا الرافضة؛ فيُقال: هذا رافضيٌّ، وهذا سُنيٌّ، وهذا هو اصطلاح العامة؛ لأنَّ الرافضة هم المشهورون عندهم بمخالفة السنة، فجمهور العامة لا تعرف ضد السنيِّ إلا الرافضي؛ فإذا قال أحدهم: أنا سنِّيٌّ؛ فإنَّما معناه: لستُ رافضيَّاً[٢].

٢- المعنى الثاني: معنىً أخصُّ وأضيق من المعنى العام، ويُراد به أهل السنة المحضة الخالصة من البدع، ويخرج به سائر أهل الأهواء والبدع، كالخوارج، والجهمية، والمرجئة، والشيعة ،وغيرهم من أهل البدع.

ويبين شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- معنى لفظ أهل السنة فيقول: "فلفظ أهل السنة يُراد به من أثبت خلافة الثلاثة، أي: أبو بكر وعمر وعثمان ﭫ، فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة، وقد يُراد به: أهل الحديث والسنة المحضة؛ فلا يدخل فيه إلا من يُثبت الصفات لله ﻷ، ويقول: القرآن غير مخلوقٍ، وأنَّ الله يُرى في الآخرة، ويُثبت القدر، وغير ذلك من الأمور المعروفة عند أهل الحديث والسنة"[٣]، ومن خالف شيئًا من ذلك عُدَّ من أصحاب البدع، ولم يكن سُنياً، حيث قال إمام أهل السنة الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- في كتابه السنة: "هذه مذاهب أهل العلم وأصحاب الأثر، وأهل السنة المتمسكين بعروتها، المعروفين بها، المقتدَى بهم فيها من لدن أصحاب النبي ﷺ إلى يومنا هذا، وأدركتُ عليها من علماء الحجاز والشام وغيرهما عليها، فمن خالف شيئاً من هذه المذاهب أو طعن فيها أو عاب قائلها؛ فهو مخالفٌ مبتدعٌ، وخارجٌ عن الجماعة، زايلٌ عن منهج السُّنة وسبيل الحق"[٤] ثمَّ ذكر رحمه الله اعتقاد أهل السنة والجماعة.

---

(١) معالم أصول الدين، للرازي، ص٦٥.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٥٦).

(٣) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(٢/٢٢١).

(٤) السنة مع كتاب الرد على الجهمية، للإمام أحمد، ص٣٣- ٣٤.

وقد نصَّ الإمام أحمد وابن المديني[1]-رحمهما الله- على أنَّ من خاض في شيءٍ من علم الكلام لا يُعتبر من أهل السنة، وإن أصاب بكلامه السُّنة حتى يدع الجدل والكلام، ويسلِّم للنصوص؛ فلم يشترطوا موافقة السنة فحسب؛ بل التلقي والاستمداد منها.

قال ابن المديني- رحمه الله-:" ولا يكون صاحب الكلام وإن أصاب السنَّة بكلامه من أهل السنة، حتى يدع الجدل ويُسلِّم ويؤمن بالإيمان"[2].

وقال الإمام أحمد- رحمه الله-:" أصول السنة عندنا، التمسُّكُ بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ، والاقتداءُ بهم، وتركُ البدع، وكلُّ بدعةٍ فهي ضلالة، وتركُ الخصومات والجلوسُ مع أصحاب الأهواء، وتركُ المِراء والجدال والخصومات في الدِّين، والسنَّة عندنا آثار رسول الله ﷺ، والسنَّة تُفسِّر القرآن، وهي دلائل القرآن، وليس في السنَّة قياسٌ، ولا تُضرب لها الأمثال، ولا تُدرك بالعقول ولا الأهواء؛ إنَّما هي الاتِّباع، وتركُ الهوى، ومن السنَّة اللازمة التي من ترك منها خصلةً لم يقلْها ويؤمن بها، لم يكن من أهلها..."[3]، ثمَّ ذكر اعتقاد أهل السنة بعد هذا الكلام.

وقال ابن بطة العكبري: "ونحن ذاكرون شرح السنَّة ووصفها، وما هي في نفسها، وما الذي إذا تمسَّك به العبد، ودان الله به، سُمِّي بها، واستحقَّ الدخول في جملة أهلها، وما إن خالفه أو شيئاً منه دخل في جملة من عِبناه وذكرناه وحذَّرنا منه من أهل البدع والزيع،..."[4] ثم ذكر أنَّ الإيمان اعتقادٌ وقولٌ وعملٌ، يزيد وينقص، وذكر الاعتقاد الصحيح في القرآن والصفات والقدر وغيرها من أمور الاعتقاد.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "أهل السنة هم الذين ليس لهم متبوعٌ يتعصَّبون له إلا رسول الله ﷺ؛ فهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهُم فقهاء فيها، وأهل معرفةٍ بمعانيها، وهم أيضاً أعظم الناس اتِّباعاً لها تصديقاً وعملاً وحُباً، وموالاةً لمن والاها، ومُعاداةً لمن عاداها، الذين يردُّون المقالات المُجمَلة إلى ما جاء به من الكتاب والحكمة؛ فلا ينصبون مقالةً عن رأيٍ أو ذوقٍ ويجعلونها من أصول دينهم وجُمل كلامهم، إن لم تكن ثابتةً فيما جاء به الرسول ﷺ؛ بل يجعلون ما بُعث به من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه، وما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات والقدر والوعيد والأسماء والأحكام، ومسائل المعاد، وحشر

---

(١) علي بن عبد الله بن جعفر السعدي بالولاء المديني، البصري، أبو الحسن، محدّث مؤرخ، كان حافظ عصره، له نحو مئتى مصنف، وكان أعلم من الإمام أحمد باختلاف الحديث، من كتبه: الأسامي والكنى، واختلاف الحديث، وعلل الحديث ومعرفة الرجال، وتوفي سنة٢٣٤هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(١٥/٢)، وتهذيب التهذيب، لابن حجر(٤٤٩/٧)، والأعلام، للزركلي(٣٠٣/٤).

(٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(١٦٦/١).

(٣) المصدر السابق(١٧٥/١).

(٤) الشرح والإبانة على أصول السنة والديانة، لابن بَطَّة، ص١٧٥- ١٧٦.

الأجساد، وغير ذلك، يردُّونه إلى الله ورسوله، فما كان من معانيها مُوافقاً للكتاب والسنة أثبتوه، وما كان منها مُخالفاً للكتاب والسنة أبطلوه، ولا يتَّبعون الظنَّ وما تهوى الأنفس؛ فإنَّ اتباع الظنِّ جهلٌ، واتِّباع هوى النفس بغير هدىً من الله ظلمٌ"[1].

ويُبرر الأشاعرة اعتبار أنفسهم أهل السنة والفرقة الناجية، أنَّهم هم من بين فرق الأمَّة الذين على ما كان عليه النَّبي ﷺ وأصحابه، وأنهم يقبلون ما صحَّ من سنَّته ﷺ [2]، كما قال ذلك أبو منصور الأسفراييني الأشعري[3]، وعند التَّحقيق في هذه الدعوى نجد أنَّهم وإن قبلوا شيئاً من سنَّته ﷺ، لم يقبلوه لكونه سنةً يجب التسليم لها؛ وإنما قبلوه لكون العقل دلَّ على ما جاءت به السنة، بدليل أنَّه إذا كان النَّص وإن صحَّ مُعارضًا للعقل في نظرهم، لم يُقبل، وعليه فإمَّا أن يُردَّ أو يُؤول كما تقدَّم من أقوالهم، ومن كان هذا حاله فإنَّه لا يُعظِّم السنَّة ويقدِّمها على كلِّ قولٍ وعقلٍ ورأيٍ وقياس[4].

لقد وقف علماء أهل السنة من دعوى الأشاعرة أنَّهم أهل السنة على درجاتٍ متفاوتةٍ ما بين مُتشددٍ، دعاه لذلك ما وقف عليه من مُخالفتهم للسنة، وموافقتهم للجهمية والمعتزلة في بعض أقوالهم؛ فبدَّعهم وحذَّر منهم، ولم يرَ استحقاقهم لقب أهلِ السنة الذي يدَّعونه، وبين مُتساهلٍ يعدُّهم من أهل السنة، لِما رأى من موافقتهم للسُّنة في بعض المسائل، وبين هؤلاء وهؤلاء حاول بعضٌ من أهل العلم التَّدقيق في المسألة، والقولَ فيها بشيءٍ من التفصيل، وفرَّق بعض أهل العلم بين متقدميهم ومُتأخريهم؛ فعدَّ المُتقدمين منهم أقرب إلى أهل الحديث والسنَّة، والمتأخرين أقرب إلى الجهمية والمعتزلة[5]، وهذه أقوالهم بالتفصيل:

١- القول الأول: أنَّ الأشاعرة ليسوا من أهل السنة؛ وإنَّما هم أهل كلامٍ، وعدادهم في أهل البدعة:

وممَّن ذهب إلى ذلك: الإمام أبو نصر السجزي؛ حيث يرى أنَّهم مُحْدِثةٌ، وليسوا من أهل السنة؛ فيقول:" "فكلُّ مُدَّعٍ للسنَّة يجب أن يُطالب بالنقل الصحيح بما يقوله، فإن أتى بذلك عُلم صدقه، وقُبل قوله، وإن لم يتمكن من نقل ما يقوله عن السلف، عُلم أنَّه مُحْدِثٌ زائغ، وأنَّه لا يستحقُّ أن يُصغي إليه، أو ينُظر في قوله، وخصومنا المتكلمون معلومٌ منهم أجمع اجتناب النَّقل والقول به، بل تمحينهم- أي: اختبارهم- لأهله ظاهرٌ، ونفورهم عنهم بيِّنٌ، وكتبهم عاريةٌ عن إسنادٍ؛ بل يقولون: قال الأشعري، وقال ابن كلاب، وقال القلانسي، وقال الجبَّائي، ومعلومٌ أنَّ القائل بما ثبت من طريق النقل الصحيح

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٤٧).

(٢) انظر: الفرق بين الفرق، للبغدادي ص٢٦، ص٣١٨.

(٣) عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور،عالم متفنن، من أئمة الأصول، من تصانيفه: أصول الدين، الفرق بين الفرق، فضائح المعتزلة، ومات في اسفرائين سنة ٤٢٩هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(٤/٤٨).

(٤) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(١/٧٢).

(٥) انظر: المرجع السابق(١/٧٧).

عن الرسول ﷺ لا يُسمَّى مُحْدِثًا؛ بل يُسمَّى سُنيّاً مُتَّبعاً، وأنَّ من قال في نفسه قولاً، وزعم أنَّه مُقتضى عقله، وأنَّ الحديث المُخالف لا ينبغي أن يُلتفت إليه؛ لكونه من أخبار الآحاد، وهي لا تُوجب علماً، وعقله موجبٌ للعلم، يستحقُّ أن يُسمَّى مُحدِثاً مُبتدعاً، مُخالفاً، ومن كان له أدنى تحصيلٍ أمكنه أن يُفرِّق بيننا وبين مخالفينا، يتأمل هذا الفصل في أول وهلةٍ، ويعلم أنَّ أهل السنة نحن دونهم، وأنَّ المبتدعة خصومنا دوننا"[١].

وممَّن عدَّ الأشاعرةِ أيضاً من أهل البدع ابنُ خويز منداد[٢]، فقال: "أهل الأهواء عند مالك وسائر أصحابنا هم أهل الكلام؛ فكلُّ مُتكلِّمٍ فهو من أهل الأهواء والبدع، أشعريًا كان أو غير أشعري"[٣].

وقال الإمام أبو العباس ابن سُريج[٤] المُلقَّب بالشافعيِّ الثاني، وقد كان معاصراً للأشعري: "لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والمُلحدة والمُجِّسمة والمُشبِّهة والكرَّامية والمُكيِّفة؛ بل نقبلها بلا تأويلٍ، ونؤمن بها بلا تمثيلٍ"[٥].

وقال الإمام أبو الحسن الكرجى[٦] وهو من علماء الشافعية: "لم يزلْ الأئمة الشافعية يأنفون ويستنكفون أن يُنسبوا إلى الأشعري، ويتبرَّؤون ممَّا بنى الأشعريُّ مذهبه عليه، وينهون أصحابهم وأحبابهم عن الحوم حواليه،...- ثمَّ ضرب مثالا بشيخ الشافعية في عصره الإمام أبو حامد

---

(١) رسالة السجزي إلى أهل زبيد، ص١٠٠- ١٠١، ويشير رحمه الله إلى ما ذكره عنهم من قولهم في القرآن: أنَّ الله تكلم به بلا أحرفٍ ولا صوت، وتأويلهم للصفات كالاستواء والنزول والفوقية وغير ذلك. انظر: ص٨٢، ١٠٦، ١٠٧، ١٧٣.

(٢) محمد بن علي بن إسحاق بن خويز منداد، وقيل هو: محمد بن أحمد بن عبد الله بن خوازمنداد، الفقيه المالكي، صنف كتبا كثيرة منها: كتابه الكبير في الخلاف، وكتابه في أصول الفقه، وكتابه في أحكام القرآن، كان يقول أن مذهب مالك أنه لا يشهد جنازة متكلم، ولا يجوز شهادتهم، ولا مناكحتهم ولا أمانتهم، وكان في أواخر المائة الرابعة.انظر: لسان الميزان، لابن حجر(٢٩١/٥).

(٣) جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر(٩٤٢/٢)، رقم ١٨٠٠.

(٤) أحمد بن عمر بن سريج البغدادي، أبو العباس، فقيه الشافعية في عصره، مصنفاته كثيرة منها: الأقسام والخصال، والودائع لمنصوص الشرائع، ولي القضاء بشيراز، وقام بنصرة المذهب الشافعيّ فنشره في أكثر الآفاق، له مناظرات ومساجلات مع محمد بن داود الظاهري، وتوفي سنة ٣٠٦هـ.انظر: الأعلام، للزركلي(١٨٥/١).

(٥) تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي(٢٩٠/٤)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي(٢٠١/١٤)، واجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، ص٦٢.

(٦) أبو طاهر، أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن بن خداداد الكرجي الباقلاني البغدادي، الشيخ الإمام المحدث الحجة، كان شيخا عفيفا زاهدا منقطعا إلى الله، ثقة فهما، وتوفي سنة ٤٨٩هـ. انظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي(١٦٩/١٤).

الاسفرائيني[1] الملقب بالشافعي الثالث-، قائلاً: "ومعلومٌ شدَّة الشيخ على أصحاب الكلام حتى ميَّز أصول فقه الشافعي من أصول الأشعري، حتى لو وافق قول الأشعري وجهاً لأصحابنا ميَّزه، وقال: "هو قول بعض أصحابنا وبه قالت الأشعرية، ولم يعُدَّهم من أصحاب الشافعي، استنكفوا منهم، ومن مذهبهم في أصول الفقه فضلاً عن أصول الدين"[2].

٢- **القول الثاني: قول من عدَّهم من أهل السنة:** ومن هؤلاء السفاريني؛ حيث قسَّم أهل السنة إلى ثلاث فِرقٍ فقال: "أهل السنة والجماعة ثلاث فِرقٍ، الأثريَّة وإمامهم أحمد بن حنبل، والأشعرية وإمامهم أبو الحسن الأشعري، والماتريدية: وإمامهم أبو منصور الماتريدي[3]"[4]؛ ولكن لم يُسلَّم للسفاريني ذلك، فقد تعقَّبه الشيخ ابن سحمان[5]- رحمه الله-، فقال: "هذا مصانعةٌ من المُصنِّف- رحمه الله تعالى- في إدخاله الأشعرية والماتريدية في أهل السنة والجماعة؛ فكيف يكون من أهل السنة والجماعة من لا يُثبت عُلوَّ الربِّ ﷻ فوق سماواته، واستواءه على عرشه، ويقول: حروف القرآن مخلوقةٌ، وإنَّ الله لا يتكلم بحرفٍ وصوتٍ، ولا يُثبت رؤية المؤمنين ربَّهم في الجنَّة بأبصارهم؛ فهم يُقرُّون بالرؤية، ويفسِّرونها بزيادة علمٍ يخلقه الله في قلب الرائي، ويقولون: الإيمان مجرد التصديق، وغير ذلك من أقوالهم المعروفة المخالفة لما عليه أهل السنة والجماعة[6]".

وكذلك تعقَّب السفاريني أيضاً الشيخ عبد الله أبو بطين[7]- رحمه الله- بقوله: "تقسيم أهل السنة إلى ثلاث فِرقٍ فيه نظرٌ؛ فالحقّ الذي لا ريب فيه أنَّ أهل السنة فرقةٌ واحدةٌ، وهي الفرقة الناجية التي بيَّنها النبي ﷺ حين سُئل عنها بقوله: هي الجماعة، وفي روايةٍ: من كان على مثل ما أنا عليه

---

(١) أحمد بن محمد بن أحمد الأسفراييني، أبو حامد، من أعلام الشافعية، ولد في أسفرايين (بالقرب من نيسابور)، ورحل إلى بغداد، فتفقه فيها وعظمت مكانته، وألف كتبا، منها مطوَّل في أصول الفقه، ومختصر في الفقه سماه الرونق، وتوفي ببغداد ٤٠٦ هـ.انظر: الأعلام، للزركلي(٢١١/١).

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٩٨/٢)، والفتاوى الكبرى، لابن تيمية(٦٠٠/٦).

(٣) محمد بن محمد بن محمود، أبو منصور الماتريدي، من أئمة علماء الكلام، نسبته إلى ما تريد (محلَّة بسمرقند)، من كتبه: التوحيد، وأوهام المعتزلة، والرد على القرامطة، وكتاب الجدل، وتأويلات القرآن، وتأويلات أهل السنة، وشرح الفقه الأكبر المنسوب للإمام أبي حنيفة، مات بسمرقند سنة ٣٣٣هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(١٩/٧).

(٤) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني(٧٣/١).

(٥) سليمان بن مصلح بن حمدان الخثعمي العسيري، ولد سنة ١٢٦٦هـ، ببلاد عسير، ثم رحل مع أبيه إلى نجد، وأخذ على علمائها، له عدة مصنفات في الدفاع عن العقيدة السلفية شعرًا ونثرًا، مات في الرياض سنة١٣٤٩هـ، انظر: علماء نجد، للبسام(٢٧٩/١).

(٦) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني(١/ ٧٣)، وحاشية الشيخ سليمان بن سحمان على الأصل، حاشية رقم "٤".

(٧) عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن أبو بطين، أحد أكابر علماء نجد، ولي القضاء في عدة أماكن منها، له مصنفات وردود على المخالفين، منها: الفتاوى، وتأسيس التقديس في الرد على ابن جرجيس، توفي بعنيزة سنة ١٢٨٢هـ. انظر: علماء نجد، للبسام(٥٦٧/٢).

اليوم وأصحابي، أو من كان على ما أنا عليه وأصحابي، وبهذا عُرف أنَّهم المجتمعون على ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابُه، ولا يكونون سوى فرقةٍ واحدةٍ، ويعني بذلك: الأثرية، وبهذا عُرف أنَّ أهل السنة والجماعة هم فرقةٌ واحدةٌ، وهم الأثريَّة والله أعلم"[1].

٣- القول الثالث: قول من يرى أنَّهم من أهل السنة فيما وافقوا فيه أهل السنة من أبواب الاعتقاد: وممَّن قال بذلك الشيخ عبد العزيز بن باز- رحمه الله- حيث قال:" المُتأوِّل لبعض الصفات كالأشاعرة لا يخرج بذلك عن جماعة المسلمين، ولا عن جماعة أهل السنة في غير باب الصفات؛ ولكنَّه لا يدخل في جماعة أهل السنة عند ذكر إثباتهم للصفات، وإنكارهم للتأويل؛ لكونهم قد خالفوهم في ذلك، وسلكوا غير منهجهم؛ وذلك يقتضي الإنكار عليهم، وبيان خطئهم في التأويل، وأنَّ ذلك خلاف منهج الجماعة، كما أنَّه لا مانع أن يُقال: إنَّ الأشاعرة ليسوا من أهل السنة في باب الأسماء والصفات، وإن كانوا منهم في الأبواب الأخرى، حتى يعلم النَّاظر في مذهبهم أنَّهم قد أخطئوا في تأويل بعض الصفات، وخالفوا أصحاب النبي ﷺ وأتباعهم بإحسان في هذه المسألة، تحقيقًا للحقِّ، وإنكارًا للباطل، وإنزالًا لكلٍّ من أهل السنة والأشاعرة في منزلته التي هو عليها"[2].

وممَّن ذهب إلى ذلك أيضاً الشيخ صالح الفوزان- رحمه الله- حيث قال: "نعم هم -يعني: الأشاعرة- من أهل السنة والجماعة في بقيَّة أبواب الإيمان والعقيدة، التي لم يخالفوهم فيها، وليسوا منهم في باب الصفات وما خالفوا فيه؛ لاختلاف مذهب الفريقين في ذلك"[3].

٤- القول الرابع: اعتبارهم من أهل الإثبات، والتفريق بين أئمتهم المتقدمين ومتأخريهم: وهو قول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-، فهو يرى أنَّهم يُعدُّون من أهل الإثبات؛ لكونهم يُثبتون بعض الصفات، وأنَّهم أقرب إلى أهل السنة من باقي الطوائف، إلا أنَّه يُفرِّق بين أئمتهم المُتقدمين وبين متأخريهم، فعدَّ المتقدمين أقرب إلى السلف وأهل السنة، وجعل المتأخرين أقرب إلى الجهمية والمعتزلة؛ لِعِظم موافقتهم لهم في كثيرٍ من أقوالهم.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عن درجات الجهمية: "وأمَّا الدرجة الثالثة: فهم الصفاتية المثبتون المخالفون للجهمية؛ لكن فيهم نوعٌ من التجهُّم كالذين يقرُّون بأسماء الله وصفاته في الجُملة، لكن يَردُّون طائفةً من أسمائه وصفاته الخبرية، أو غير الخبرية، ويتأوَّلونها كما تأوَّل الأولون صفاته كلَّها، ومن هؤلاء من يقرُّ بصفاته الخبرية الواردة في القرآن دون الحديث، كما عليه كثيرٌ من أهل الكلام، ومنهم من يقرُّ بالصفات الواردة في الأخبار أيضاً في الجُملة، لكن مع نفيٍ وتعطيلٍ

---

(١) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني(١/ ٧٣)، حاشية الشيخ الشيخ عبد الله بن عبد الرحمن أبا بطين على الأصل، حاشية رقم "٤".

(٢) تنبيهات هامة على ما كتبه محمد علي الصابوني في صفات الله ﷻ، لابن باز، ص٣٧- ٣٨.

(٣) البيان لأخطاء بعض الكُتَّاب، لصالح الفوزان، ص ٢٨.

لبعض ما ثبت بالنصوص وبالمعقول، وذلك كأبي محمد بن كلاب ومن اتبعه، وفي هذا القسم يدخل أبو الحسن الأشعري، وطوائف من أهل الفقه والكلام والحديث والتصوُّف، وهؤلاء إلى أهل السنة المحضة أقرب منهم إلى الجهمية والرافضة والخوارج، ولكن انتسب إليهم طائفةٌ هم إلى الجهمية أقرب منهم إلى أهل السنة المحضة، فإنَّ هؤلاء يُنازعون المعتزلة نزاعاً عظيماً فيما يثبتونه من الصفات، وأمَّا المُتأخرون فإنَّهم والوا المعتزلة، وقاربوهم، وقدَّموهم على أهل السنة والإثبات، وخالفوا أوليهم"[١].

وقال -رحمه الله- أيضاً:" والأشعريَّة أقربُ إلى السَّلف والأئمة وأهل الحديث من الظاهرية، ولكنَّ كثيراً من متأخري أصحاب الأشعري خرجوا عن قوله إلى قول المعتزلة أو الجهمية أو الفلاسفة"[٢].

وقد أنصف شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- أبا الحسن الأشعري – رحمه الله- فقال: "والأشعري انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنة التي خالفهم فيها المعتزلة، كمسألة الرؤية والكلام واثبات الصفات ونحو ذلك، لكن كانت خبرته بالكلام خبرةً مفصَّلةً، وخبرتُه بالسنَّة خبرةً مُجملةً؛ فلذلك وافق المعتزلة في بعض أصولهم التي التزموا لأجلها خلاف السنة، واعتقد أنَّه يمكنه الجمع بين تلك الأصول وبين الانتصار للسنَّة، كما فعل في مسألة الرؤية والكلام والصفات الخبرية وغير ذلك، وأمَّا من قال: إنَّ قولَه قولُ جهمٍ فقد قال الباطل، ومن قال: إنَّه ليس فيه شيءٌ من قول جهمٍ، فقد قال الباطل، والله يحبُّ الكلام بعلمٍ وعدلٍ، وإعطاءَ كلَّ ذي حقٍّ حقَّه، وتنزيلَ الناس منازلهم"[٣].

وقال- رحمه الله- أيضاً بكلِّ عدلٍ إنصافٍ: "وأبو الحسن الأشعري يحبُّ الانتصار لأهل السنة والحديث وموافقتهم، أمَّا أتباعُه الذين عرفوا رأيه فى تلك الأصول ووافقوه، أظهروا من مخالفة أهل السنة والحديث ما هو لازمٌ لقولهم، ولم يهابوا أهل السنة والحديث، ويعظِّموا ويعتقدوا صحَّة مذاهبهم، كما كان هو يرى ذلك، والطائفتان أهل السنة والجهمية يقولون: إنَّه تناقَض؛ لكنَّ السُّنِّي يحمد موافقته لأهل لحديث، ويذِمُّ موافقته للجهمية، والجهميُّ يذمُّ موافقته لأهل الحديث، ويحمد موافقته للجهميَّة؛ ولهذا كان متأخروا أصحابه أظهر تجهُّماً وتعطيلاً من مُتقدِّميهم، وهي مواضع دقيقةٌ يغفر الله لمن أخطأ فيها بعد اجتهاده، لكنَّ الصواب ما أخبر به الرسول ﷺ، فلا يكون الحقُّ فى خلاف ذلك قط، والله أعلم"[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في تشخيص ما حدث مع الأشعري- رحمه الله-: "والأشعريُّ وأمثالُه برزخٌ بين السَّلف والجهمية، أخذوا من هؤلاء كلاماً صحيحاً، ومن هؤلاء أصولاً

---

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية(٣٧٢/٦).

(٢) شرح العقيدة الأصفهانية، لابن تيمية(١٢٧/١).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٠٤/١٢).

(٤) المرجع السابق(٣٠٧/١٦).

عقليةً ظنُّوها صحيحةً، وهي فاسدةٌ، فمن الناس من مال إليه من الجهة السَّلفية، ومن النَّاس من مال إليه من الجهة البدعية الجهميَّة"[١].

ويقصد شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– في عبارة "جهته السلفية"، أي: ما كان من آخر أمره، وهو رجوعه إلى مذهب السلف؛ لأنَّ الأشعريَّ في كتاب الإبانة عن أصول الديانة الذي هو آخر ما ألَّف من كتبه، رجع عن كثيرٍ من آرائه الكلامية إلى طريق السلف في الإثبات وعدم التأويل، فيقول أبو الحسن الأشعري– رحمه الله– في أوَّل كتاب الإبانة:" وقولُنا الذي نقول به، وديانتُنا التي ندين بها، التمسُّك بكتاب ربنا ﷻ، وبسنة نبينا عليه السلام، وما رُوي عن الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل– نضَّر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته– قائلون، ولما خالف قوله مُخالفون؛ لأنَّه الإمام الفاضل الذي أبان الله به الحق، ورفع به ضلال الشاكِّين، فرحمةُ الله عليه من إمامٍ مُقدَّمٍ، وجليلٍ مُعظَّمٍ، وكبيرٍ مفخَّمٍ"[٢].

وبناءً على ما سبق فقد حدَّد شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– متى يُعدُّ المنتسب إلى الأشعري من أهل السنة، فقال– رحمه الله–: "أمَّا من قال منهم بكتاب الإبانة الذي صنَّفه الأشعري في آخر عمره، ولم يُظهر مقالةً تُناقض ذلك؛ فهذا يُعدُّ من أهل السنَّة؛ لكن مجرد الانتساب إلى الأشعري بدعةٌ، لا سيَّما أنَّه بذلك يُوهم حُسناً لكلِّ من انتسب هذه النسبة، وينفتح بذلك أبواب شرٍّ"[٣].

إنَّ شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– من خلال هذا المنهج سار على طريقةٍ متوازنةٍ، فالأشاعرة الذين ردَّ عليهم طويلاً لم تمنعه هذه الملاحظات من أن يقول عنهم: إنَّهم من أهل السنة، وإنَّهم ليسوا كفاراً باتِّفاق المسلمين، كما لم تمنعه من التَّنويه بجهودهم العظيمة في الدفاع عن الإسلام، والردِّ على خصومه الحاقدين من الفلاسفة والباطنية والرافضة والمعتزلة وغيرهم، وبالمقابل فاعترافه بهذه الجهود لم يُنسِه أنَّ هؤلاء بشرٌ يُصيبون ويُخطئون، وأنَّ ما وقعوا فيه من مخالفةٍ لعقيدة السلف لا يجوز السُّكوت عليه؛ بل يجبُ بيان الحقِّ للناس، والردُّ على من خالفه، ولو كان من أهل الفضل والعمل الصالح[٤].

والذي يرجحه الباحث بعد هذه الأقوال أنَّه لا بُدَّ من التفصيل في اعتبار الأشاعرة من أهل السنَّة، أو نفي ذلك عنهم، فلا يُطلق عليهم أنَّهم ليسوا من أهل السنة؛ لأنَّهم يدخلون في مُسمَّى أهل السنة؛ باعتبار أنَّهم من أهل السنة بالمعنى العام لمصطلح أهل السنة، وهم من أهل السنة كذلك في

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٦/٤٧٢).

(٢) انظر: الإبانة عن أصول الديانة، لأبي الحسن الأشعري، ص٢٠.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية،(٦/٣٥٩).

(٤) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٧٠٠).

أمور العبادات؛ لأنَّ السنَّة تشمل أمور الاعتقاد والعبادة، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- : "ولفظ السنَّة في كلام السلف يتناول السنة في العبادات، وفي الاعتقادات"[(١)]، فبهذه الاعتبارات يعدُّ الأشاعرة من أهل السنَّة.

ولكن لما كان لفظ أهل السنة إذ أطلق فُهم منه أمور العبادات والاعتقادات جميعًا؛ ولكنَّه بأمور الاعتقاد أخص، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في بيان معنى أهل السنة: "وقد يُراد به أهل الحديث والسنة المحضة، فلا يدخل فيه إلا من يُثبت الصفات لله ﷻ، ويقول: القرآن غير مخلوقٍ، وإنَّ الله يُرى في الآخرة، ويُثبت القدر، وغير ذلك من الأمور المعروفة عند أهل الحديث والسنة"[(٢)]، ولما كان الأشاعرة كما بيَّن الباحث سابقاً في عقائدهم ومنهجهم في فهم النصوص ليسوا على السنَّة المحضة في كلِّ أبواب الاعتقاد ومسائله، فلا يُطلق عليهم أنَّهم أهل السنة، أو من أهل السنة بإطلاقٍ؛ لأنَّهم ليسوا على السنَّة المحضة في كثيرٍ من أمور السنَّة في الاعتقاد، ولا يُقال: أنَّ الأشاعرة من أهل السنة إلَّا بقيد، فيُقال: هم من أهل السنة في كذا من الأبواب التي لم يخالفوا فيها مذهب أهل السنة؛ لأنَّنا إذا أطلقنا القول بأنَّهم من أهل السنة بإطلاقٍ، التبس الأمر، وظنَّ من لا دراية له بحالهم أنَّ ما يقولون به من العقائد المُخالفة لمذهب السلف هو الإعتقاد الحقُّ الذي يجب اتِّباعه والتزامه، وكذلك إذا أطلقنا القول بأنَّهم ليسوا من أهل السنة، كان ذلك حُكماً بأنَّهم خالفوا السنَّة في كلِّ أبواب الاعتقاد، والأمر ليس كذلك، فالعدل والإنصاف يقتضي أن يُذكر للشخص ما له وما عليه، وأن المرء يُمدح بقدر ما فيه من موافقة السنة، ويُذم بقدر ما فيه من مخالفتها [(٣)].

وهذا الذي رجَّحه الباحث يشبه قول من قال من أهل العلم: أنَّ الأشاعرة من أهل السنة فيما وافقوا فيه أهل السنة من أبواب الاعتقاد، وليسوا من أهل السنة فيما خالفوا فيه أهل السنة من أبواب الإعتقاد؛ وهو قول الشبخ ابن باز والفوزان- رحمة الله عليهما-.

إنَّ هذا الحُكم في الأشاعرة لا يُفهم منه أنَّ الأشاعرة ليس لهم جهودٌ في خدمة الإسلام؛ لا بل لهم جهودٌ كثيرة في الردِّ على المعتزلة والروافض والفلاسفة وغيرهم، ومن حسناتهم أنَّهم بينوا عَوار المعتزلة وتناقضاتهم؛ فيُحمدوا على مواقفهم في الدفاع عن الحقِّ، وتصدِّيهم للمعتزلة، ومحاجتهم لهم بما يقطع شبهاتهم، ويردُّ حُجتهم عليهم، وتصدِّيهم أيضاً للردِّ على الفلاسفة والروافض وغيرهم من أهل الأهواء الفاسدة والنحل الباطلة[(٤)]، والذي أعطى الأشاعرة القوَّة في الردِّ على المعتزلة بما يلزمهم الحجة في كثيرٍ من المواضع، هو بقاء الأشعري في المعتزلة أربعين سنةً، واختلاطه برؤوسهم، ومعرفة

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٧٨/٢٨).

(٢) انظر: منهاج السنة النبوية، لابن تيمية(١٦٣/٢).

(٣) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٧١٠/٢)، (١٣٨٥/٣)، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٩٢/١)، ووسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم(٨٩/١).

(٤) انظر: الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة، لمانع الجهني(٩٠/١).

تفاصيل مذهبهم، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "إنَّ الأشعري كان من المعتزلة، وبقي على مذهبهم أربعين سنةً، يقرأ على أبي علي الجُبَّائي، فلمَّا انتقل عن مذهبهم كان خبيراً بأصولهم، وبالردِّ عليهم، وبيان تناقضهم"[١].

ومن الحقِّ والإنصاف أن نقول: إنَّ الأشاعرة في العموم هم أقرب الفرق الكلاميَّة إلى أهل السنَّة، وإنَّ منهم من هو أقرب إلى السنة من سائر الفرق والطوائف، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "والأشاعرة في الجُملة أقربُ المتكلمين إلى مذهب أهل السنة والحديث، وإن كان في مقالتهم ما يُخالف أهل السنة والحديث"[٢]؛ ولذلك فإنَّهم عند التحقيق والتروِّي والتجرُّد يرجعون عن مقولاتهم إلى عقيدة أهل السنة، مثل رجوع كثيرٍ من أئمتهم وكبارهم إلى عقيدة السلف، والتَّسليم بها في آخر الأمر، أو آخر العمر، كما حصل من الإمام أبي الحسن الأشعري نفسه، حينما استقرَّ على عقيدة السلف في آخر عمره كما في كتابه الإبانة، وكما حصل من أبي المعالي الجويني، وأبي محمدٍ الجويني، والرازي، والشهرستاني، والغزالي، وغيرهم، فمنهم من رجع إلى قول أهل السنة، وترك علم الكلام، وبيَّن ذلك من خلال كتابة ما استقرَّ عليه اعتقادُه، ومنهم من أعلن تسليمه لعقيدة أهل السنة على الإطلاق قُبيل الوفاة، ولم يتمكن من الكتابة، ومنهم من ندم على ما أضاعه من وقتٍ وعمرٍ في علم الكلام الذي لا ينفع، وتمنى أن يموت على دين العجائز[٣]؛ فهلَّا رجع الأشاعرة اليوم عمَّا يقولون به، كما رجع أئمتهم، إن كانوا صادقين في متابعتهم والإقتداء بهم.

ويُنبَّه ختاماً أنَّ الحُكم على الأوصاف بالبدعة والضلالة لا يستلزم الحُكم على الأشخاص، فقد يقع الشخص في معصيةٍ، أو بدعةٍ، أو نحو ذلك، ولا يكون في الأمر نفسه عاصياً ولا مُبتدعاً، وذلك إمَّا لوجود مانعٍ من إكراهٍ، أو شُبهةٍ، أونحو ذلك، أو لفقد شرطٍ، كعلمٍ ونحوه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- بعدما وضَّح اعتقاد الفرقة الناجية: "وليس كلُّ من خالف في شيءٍ من هذا الاعتقاد يجب أن يكون هالكاً، فإنَّ المُنازِع قد يكون مُجتهداً مُخطئاً يغفر الله خطأه، وقد لا يكون بلغه في ذلك من العلم ما تقوم به عليه الحجة، وقد يكون له من الحسنات ما يمحو الله به سيئاته"[٤]؛ ولكن لا يُفهم من هذا الكلام السكوت على خطئ المخالفين لمنهج السلف، وترك الإنكار عليهم؛ بل إنكار المنكر واجبٌ، وخاصةً في مسائل الاعتقاد وأصول الدين، "وبهذا يتبيَّن أنَّ الواجب على أهل العلم بيانُ الحقِّ في أمور الاعتقاد والعبادات، والأمرُ باتِّباع نهج الصحابة والسلف الكرام ﷺ، والنهيُ عن كلِّ من خالف ذلك"[٥].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٣/٩٩).

(٢) المرجع السابق(٦/٥٥).

(٣) انظر: شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/٢٠٨-٢٠٩).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/١٧٩).

(٥) الأشاعرة في ميزان أهل السنة، لسفر الحوالي(١/٧٦٢)، بتصرف يسير.

الفصل الثالث
منهج المدرسة العصرانيَّة في فهم النَّص الدِّيني

وفيه تمهيد وثلاثة مباحث:

التمهيد: العصرانية نشأتها وأقسامها.

المبحث الأول: المدرسة العقلية الحديثة ومنهجها في فهم النص الديني.

المبحث الثاني: المدرسة الليبرالية العربية ومنهجها في فهم النص الديني.

المبحث الثالث: آثار المخالفين لمنهج السلف في الفهم.

التمهيد
العصرانية نشأتها وأقسامها

وفيه ثلاث مسائل:

أولاً: معنى العصرانية والمعاصرة.

ثانياً: نشأة المدرسة العقلية في الغرب.

ثالثا: تقسيم الاتجاهات والمذاهب المعاصرة.

الفصل الثالث: منهج المدرسة العصرانية في فهم النص الديني

بدأ الباحث بحثه بالحديث عن السَّلف ومنهجهم في فهم النص الدِّيني إقراراً بفضلهم وسبقهم، وتأكيداً على أنَّ منهجهم هو الأعلم والأحكم والأسلم، وتثبيتاً للحقِّ في النُّفوس قبل أن تدخله الشُّبه والشكوك، ثمَّ تطرَّق الباحث إلى دراسة المدرسة العقلية القديمة، وركَّز الحديث فيها على المعتزلة ومنهجهم في فهم النَّص الديني، حيث يُعدُّ المعتزلة أصحاب أولِ مدرسةٍ عقليةٍ قديمة ظهرت في التاريخ الإسلامي، وكلُّ من جاء بعدهم فهو عالةٌ عليهم في هذا الأمر، ثمَّ تحدث الباحث عن الأشاعرة ومنهجهم في فهم النَّص الديني، وبيَّن موقف أهل العلم من ذلك كلِّه، وهذا كلُّه في إطار الحديث عن السَّلف والمدرسة العقلية القديمة.

وفي هذا الفصل سيتحدَّث الباحث عن المدرسة العصرية أو العصرانية ومنهجِها في التعامل مع النصوص الدينية؛ ليوضِّح الباحث عَوار هؤلاء القوم، ويُجلِّي حقيقتهم التي اختبئوا بها خلف شعاراتٍ برَّاقةٍ، يُنادون بها، ويُغرِّرون بها ضِعاف القلوب؛ ليُصدِّقوهم ويقتنعوا بما يبثُّونه من شُبهٍ وسمومٍ.

التمهيد: العصرانية نشأتها وأقسامها

يحسن في بداية هذا الفصل أن يحصر الباحث العنوان بدقةٍ؛ ليتبيِّن ما هو المقصود بالمعاصرة والعصرانية، وكيف نشأت هذه الفكرة، وما هي أقسام المدرسة العصرية أو العصرانية التي يقصدها الباحث في بحثه، وهذا ما سنتعرَّف عليه في هذا التمهيد.

أولاً: معنى العصرانية والمُعاصرة.

١- **لفظ العصرانية:** كثُرت عبارات التعريف بهذا المصطلح، وبهذه المدرسة؛ ولكن كلُّها لا تخرج عن أصالة العقل عندهم، وتقديمِه على النقل، فقيل في تعريفها:

أ- هي وجهة نظرٍ في الدِّين، مبنيةٌ على الاعتقاد بأنَّ التقدَّم العلمي، والثقافة المعاصرة تستلزم إعادة تأويل التعاليم الدينية التقليدية على ضوء المفاهيم الفلسفية والعلمية السائدة[١].

ب- هي تحكيم الواقع الدنيوي المُعاش، وما ينتج عنه، وجعلُه المقياس للصلاحية وعدمها في حياة الإنسان، أو هي التأقلم مع المعطيات الاجتماعية والعلمية المُتجددة، وربط الإنسان في فرديته وجماعيته بها في دائرة التصور البشري، وهي بهذا المعنى تضمُّ في إطارها كلَّ التَّوجهات والتيارات التي ظهرت مناوئةً للدِّين في أيِّ جانبٍ من جوانب الحياة، منذ بداية نهضة أوروبا إلى الآن [٢].

ج- هي "مذهبٌ فكريٌّ، يزعم أنَّه يُمكن الوصول إلى معرفة طبيعة الكون والوجود عن طريق الاستدلال العقلي، بدونِ الاستناد إلى الوحي أو التجربة البشرية، وإخضاع كلِّ شيءٍ في الوجود للعقل؛ لإثباته ونفيه، وتحديد خصائصه"[٣].

د- "هي زندقةٌ عصريةٌ يروِّج لها عصابةٌ من الكتَّاب، يتسترون بالتَّجديد، وفتح باب الاجتهاد لمن هبَّ ودبّ، وكتاباتهم صدىً لما يدور في الدوائر الغربية المترصِّدة للإسلام وحركته، وأصول فكرهم ملفَّقةٌ من مذاهب المعتزلة والروافض وبعض آراء الخوارج، مع الاعتماد على كُتب المستشرقين والمُفكِّرين الأوربيين عامة"[٤].

هـ- هي اتجاهٌ فكريٌّ ظهر في اليهودية والنصرانية في أوربا؛ بسبب ماحصل فيهما من تحريفٍ، وبسبب الظروف التعيسة التي مرَّ بها الفكر الأوربي، ثمَّ انتقلت الفكرة إلى المسلمين؛ لجعل دينهم يساير العصر، ويخضع له[٥].

---

(١) انظر: المدرسة العصرانية في نزعتها المادية تعطيل للنصوص وفتنة بالتغريب، للناصر، ص١٥، والعصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، للناصر، ص٥-٦.

(٢) انظر: العصرانية في حياتنا الاجتماعية، للزنيدي، ص٢٠.

(٣) الموسوعة الميسرة للأديان والمذاهب المعاصرة، لمانع الجهني(٢/٧٩٦).

(٤) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، لسفر الحوالي(١/٦٠).

(٥) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٠.

وفي الجملة يمكن أن نقول: إنَّ المدرسة العصرانية هي اتجاهٌ يعمد إلى تطويع أحكام الدِّين ونصوصه؛ لتلبية حاجات العصر، وعُمدتهم في ذلك ما تؤدِّيه إليه عقولهم، وهم مشارب شتى، بعضها امتدادٌ للعقلانية القديمة، وبعضها مُقلِّدٌ للاتجاهات الغربية، وبعضها يُمثِّل نزعاتٍ فرديةً، ومنها ما يُمثِّل إفرازاً للإلحاد كالشيوعية والعلمانية، وكلُّ هؤلاء يجمعهم النُّزوع إلى تقديم أحكام البشر على أحكام الله ﷻ، وقد تنوعت أسمائهم وتشكَّلت عناوينهم، إلَّا أنَّهم اشتُهروا في عصرنا بعدة أسماءٍ، منها: الليبراليون، والعقلانيون، والعصرانيون، والحداثيون، والتنويريون.. وغير ذلك من الأسماء، وهذه المدرسة لها توجُّهٌ فكريٌّ يسعى إلى التَّلفيق بين النُّصوص الدينية، وبين الحضارة الغربية والفكر الغربي المُعاصر، وذلك بتطويع النصوص، وتأويلها تأويلاً جديداً يتلاءم مع المفاهيم المستقرَّة لدى الغربيين، أو ردِّ النصوص وانكارها، ويتفاوت رموز هذه المدرسة تفاوتاً كبيراً في موقفهم من النَّص الدِّيني؛ ولكنَّهم يشتركون في الإسراف في تأويل النصوص، أو ردِّ ما يستعصي من تلك النصوص على تأويلاتهم وأهوائهم[١]، ويشتركون كذلك في تمجيد العقل البشري، ويُغالون في تقديمه على الدِّين، وتحكيمه في عالمي الغيب والشهادة، ويجعلون العقل وسيلة الإثبات، وأساس الحكم على الأشياء، وطريق القبول لها[٢].

٢ – لفظ المُعاصَرة والمُعاصِرة:

أ– في اللغة: "العين والصاد والراء أصولٌ ثلاثةٌ صحيحةٌ، فالأول دهرٌ وحِينٌ، ومنه العصر"[٣]، وعاصَره أي: عاش معه في عصرٍ واحدٍ، وفي زمنٍ واحد[٤].

ب– في الاصطلاح: اختلفت الآراء حول المقصود بلفظ المعاصرة اصطلاحاً، وتفاوتت وجهات النظر فيه، وذلك حسب كلِّ علمٍ من العلوم، ومن التعريفات لمصطلح المعاصرة، ما يلي:

أ– في علم مصطلح الحديث تعني المعاصرة "وجود الراوي والمروي عنه في عصرٍ واحدٍ، سواءٌ التقيا أم لم يلتقيا"[٥].

ب– "أن يعيش الإنسان مع أهل عصره وزمانه، يُفكِّر كما يُفكِّرون، ويعمل كما يعملون، ولا يعيش في عصرٍ مضى"[٦].

---

(١) انظر: موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف، لشفيق شقير، ص١٥.

(٢) الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية، لمفرح العوسي، ص٣٣.

(٣) معجم مقاييس اللغة، لابن فارس(٣٤٠/٤).

(٤) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، لأحمد عمر(١٥٠٧/٢).

(٥) معجم علوم الحديث النبوي، لعبد الرحمن الخميسي، ص٢٢٢.

(٦) الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، ليوسف القرضاوي، ص٧٧–ص٧٨.

ب- بعض المُفكِّرين جعل المُعاصرة في مقابل التمسك بالتراث والأصالة، وأن المسلم لا بدَّ أن يتحرَّك بهما معاً؛ فيأخذ بالتَّطور والإنفتاح على الواقع، بضوابط تحفظ له جوهره، دون أن يدخل في تبعيَّةٍ لقيم مجتمعاتٍ أخرى[١].

والذي يرجحه الباحث أنَّ المعاصرة هي مواكبة الإنسان لمقتضيات عصره ومتطلباته، وعدم الجمود على الماضي.

٣- بداية التاريخ المعاصر:

لقد اختلف العلماء في تحديد بداية التاريخ المُعاصِر، حيث إنَّ تحديد بدء التاريخ المعاصِر تحديداً زمنياً دقيقاً، وحاسماً بسنةٍ معينةٍ من الأمور التي لا تخلو من صعوبةٍ؛ وذلك لأنَّ وصف حقبةٍ ما بالمعاصِرة من الأمور النسبيَّة والمتغيرة، ممَّا أدَّى إلى اختلاف العلماء في تحديد هذه البداية على أقوالٍ، منها:

أ- أنَّ المقصود من المعاصِر هو من عاش أثناء القرن الرابع عشر الهجري، وما يوازيه بالتاريخ الميلادي[٢]، وحدَّه بعضهم بأواخر الثمانينات من القرن الرابع عشر الهجري، أي من أواخر الستينات من القرن العشرين الميلادي[٣].

ب- أنَّ المقصود بالمعاصرة هو نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين، بعد أن استيقظ العالم الإسلامي بالإحتلال الأجنبي، وبدأت بعد ذلك عمليات النقل الثقافي من الغرب إلى الشرق[٤].

ج- اعتبر بعض العلماء أنَّ التاريخ المعاصِر يبدأ بالحرب العالمية الأولى ١٩١٤م، في حين يرى آخرون أن النصف الثاني من القرن العشرين ١٩٥٠م نقطة ابتداء للتاريخ المعاصر[٥].

د- اعتبر بعض العلماء أنَّ سنة (١٨١٥م) يمكن اعتبارها بداية للتاريخ المعاصر، حيث عقد في هذه السنة مؤتمر فيينا الذي افتتحت به أوربا صفحة جديدة من تاريخها بعد الحروب الأهلية فيها[٦].

والذي يُرجِّحه الباحث أنَّ المقصود بلفظ المذاهب المعاصِرة أو الحديثة، أي التي ظهرت منذ بداية القرن العشرين سنة (١٩٠٠م)، وذلك بعد اتجاه المسلمين نحو الغرب، ووجود التأثير الغربي

---

(١) انظر: المعاصرة في إطار الأصالة، لأنور الجندي، ص٢٢-ص٢٣.

(٢) انظر: جهود المعاصرين في خدمة السنة المشرفة، لمحمد أبو صعيليك، ص١١.

(٣) انظر: الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، لعبد الرحمن اللويحق، ص٢١.

(٤) انظر: التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، لبدوي طبانة، ص٥-٧، والإسلام المعاصر، ص ١٧.

(٥) انظر: مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية بمصر في العصر الحديث، لأحمد عبد الرحيم، ص ٣١.

(٦) انظر: التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، لعبد العزيز سليمان نوار ومحمود محمد جمال الدين، ص٣، وتاريخ أوروبا الحديث والمعاصر(١٨١٥- ١٩١٩) ، لعمر عبد العزيز عمر، ص٤٩.

على العالم الإسلامي، عبر الإحتلال والغزو الفكري والإعلامي والسياسي، وخاصةً بعد سقوط الخلافة العثمانية، وذهاب شوكة المسلمين[1].

ثانياً: نشأة المدرسة العقلية في الغرب.

لقد مرَّ الفكر الأوربي بمراحل متطوِّرة حتى وصل إلى وضعه الحالي، وتفصيل هذه المراحل كما يلي:

١- ظلَّت الاتجاهات الفلسفية الإغريقية، تُسيطر على الفكر الأوروبي عدَّة قرون، ولم تكن هذه الفلسفة في صورتها التي قدَّمها فلاسفة الإغريق القُدامى زاداً صالحاً لحياةٍ إنسانيةٍ مستقيمةٍ راشدةٍ؛ بل كانت لوناً من عبادة العقل وتأليهه، وإعطائه حجماً مُزيفاً أكبر بكثير من حقيقته، كما كانت في الوقت نفسه لوناً من تحويل الوجود كلِّه إلى قضايا تجريديةٍ فلسفيةٍ ذهنيةٍ بحتةٍ، تبدأ في العقل وتنتهي في العقل، ويُثبت ما يثبت منها، وينفي ما ينفى، ولا تمسُّ الوجدان البشري، ولا تُؤثِّر في سلوك الإنسان العملي[2].

٢- بقي الأمر على حاله حتى جاءت المسيحية الكنسية فغيَّرت مجرى ذلك الفكر في انعطافةٍ حادَّةٍ، تكاد تكون مضادَّةً لمجراه الأول، فلم يَعُدْ العقل هو المرجع في قضايا الوجود؛ وإنَّما صار الوحي كما تُقدِّمه الكنيسة هو المرجع، وانحصرت مهمَّة العقل في خدمة ذلك الوحي في صورته الكنسيَّة تلك، وقد نشأت عن ذلك في الفكر الأوربي مجموعةٌ من الاختلالات، ولم ينشأ هذا الخلل كما تصوَّر الفكر الأوروبي من إهمال الفلسفة والعلوم الإغريقية والالتجاء إلى الفكر الديني؛ إنَّما كان الخلل كامناً في ذلك الطرح الذي قدَّمته الكنيسة باسم الدين، وفي إخضاع العقل لما زعمت الكنيسة أنَّه الوحي، بعد تحريفها ما حرَّفت منه، وإضافتها ما أضافت إليه، وتقديمه باسم الوحي؛ فانتقل بذلك الفكر الأوروبي إلى عصر سيادة الدِّين، وكان من المفترض وقد التزم العقلُ بالوحي أن ينطلق في ميادينه الأصيلة يُبدع ويُنتج في شئون الخلافة وعمارة الأرض، ويُخرج أوربا من الجاهلية إلى النور؛ ولكنَّه في الحقيقة دخل بها إلى ظلماتٍ حالكةٍ، هي أشدُّ من ظُلمات الفلسفة الإغريقية التي كانوا يعيشونها؛ لأنَّ الكنيسة الأوروبية حجرتَ على العقل البشري أن يُفكِّر؛ فنشأت في الفكر الأوروبي المُسلَّمات والعقائد المفروضة فرضاً، والتي لا يجوز مناقشتها، لا لأنَّها من الأمور التي ينبغي للعقل أن يُسلِّم بها؛ ولكن لأنَّها مناقضةٌ للعقل، ومفروضةٌ عليه فرضاً من قِبل رجال الدين، ومن يناقش أو يعترض يكون خارجاً على سلطة الكنيسة يجوز فيه كلُّ شيءٍ حتى إهدار الدم وإزهاق الأرواح، وقد استخدمت الكنيسة كلَّ ذلك مع مخالفيها، وصنعت ذلك باسم الدين!، والدِّين الصحيح ليس في حاجةٍ إلى شيءٍ من ذلك الذي

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٢، والاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية في مصر وبلاد الشام، لمحمد عبد الرزاق أسود، ص٣٣.

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب(٥٠٣/١).

صنعته الكنيسة[١]، وفي تلك الفترة انكمش نشاط العقل الأوروبي، وعاشت أوربا ما يسمى بالعصور الوسطى المظلمة، التي استمرت ما يُقارب من عشرة قرون، خيَّم فيها على أوروبا ظلام الجهل، في ظلِّ الطغيان الكنسي المُتعدِّد الألوان، المُتشعِّب الأطراف[٢].

٣- لمّا احتكت أوربا بالمسلمين في الحروب الصليبية من ناحية، واتصلت بمراكز العلم والثقافة في الأندلس والشمال الإفريقي وغيرها، بدأت أوروبا تفيق من جهلها فيما يُعرف بعصر النهضة، وهي الفترة الزمنية الممتدة من القرن الرابع عشر الميلادي وحتى القرن السابع عشر تقريباً[٣]، فقد وجدوا العلم عند المسلمين في كلِّ مجالات الحياة في الطبِّ والفلك والرياضيات والفيزياء والكيمياء، إلى جانب العلوم الدينية الإسلامية التي كانت تُدرَّس جنباً إلى جنبٍ في الجامعات الإسلامية في ذلك الوقت، في فترةٍ كان العقل الأوروبي في حالة تشوقٍ عنيفٍ لاسترداد حريَّته في التفكير؛ فأخذت من المسلمين ما أخذت من العلوم النافعة؛ ولكنَّها رفضت أن تأخذ الإسلام عقيدةً ومنهج حياة، وكما اتَّسمت فترة العصور الوسطى المظلمة بالتطرُّف في إلغاء دور العقل، والحجر على حريَّة الفكر، اتَّسمت فترة النهضة وما بعدها بالتطرَّف في جانب إعمال الفكر في كلِّ شيءٍ، وبحريةٍ لا تقبل القيد، كردَّة فعلٍ لما مارسته عليهم الكنيسة من ظلمٍ واضطهادٍ وحجرٍ على العقول؛ فانتهى ذلك الصراع الطويل في أوربا بانتصار دُعاة التَّحرُّر والحدَّ من سلطان الكنيسة وحصره؛ فانكمش نفوذ البابا، ولم يعد يتجاوز طقوس التعميد والصلاة والزواج والجنائز، وبذلك تحقَّق فصل الدِّين عن الدولة عند الغرب[٤]، وسمَّى الأوربيون هذه الفترة بعصر الإحياء؛ فكان هو عصر العودة إلى الجاهلية الإغريقية بكلِّ انحرافاتها، مع زيادة انحرافٍ جديدٍ، وهو النُّفور من الدِّين ومحاولة إبعاده عن كلِّ مجالٍ من مجالات الحياة، فأُقيمت نهضةٌ عرجاء، يعاني منها اليوم كلُّ سكان الأرض[٥].

إنَّ هذا الاتجاه الفكري النافر من الدِّين، المُتَّجه إلى الإلحاد، لم يكن ردة فعلٍ لخطأٍ واحدٍ من أخطاء الكنيسة، وهو الحجر على العقل خوفاً من مناقشة المسلمات المفروضة؛ إنَّما كان في الحقيقة نتيجةً لأخطاءٍ مُتعدِّدةٍ في وقتٍ واحد، فالجهالة العلمية التي عانتها أوروبا عدة قرون في ظل السيطرة الكنسية، جعلت للعلم حين بدأت أوروبا تتعلم فتنةً ليست من طبيعته في الأحوال العادية، فضلاً عن

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب(٥٠٨/١).

(٢) المرجع السابق(٥١٢/١).

(٣) انظر: أصول التاريخ الأوروبي الحديث ، لأشرف صالح، ص٩، وأحياناً يحدد بعض المؤرخين بداية العصر الحديث بعام (١٤٥٣م)، الذي فتح فيه الأتراك العثمانيون القسطنطينية. انظر: الفلسفة الحديثة روحها واتجاهاتها، لعبد الرزاق المضرب، ص١١ .

(٤) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، لفهد الرومي، ص٦٨، والاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، لمحمد حسين(٢٥٤/١-٢٥٥).

(٥) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٧٣- ٧٤.

أنَّ حرب الكنيسة للعلم والعلماء باسم الدِّين، جعلت طريق البحث العلمي هو طريق معاداة الدِّين، فكان التفكير الحر معناه الإلحاد!، ذلك أن التفكير الديني عندهم معناه الخضوع للقيد الذي قيَّدت الكنيسة به العقل، وحجرت عليه أن يفكر، ولم يكن أمام أوروبا بعد أن رفضت الإسلام إلا ذلك السبيل إلى الحرية الفكرية، وهو الخروج على الدِّين!، وهكذا ظلَّ الفكر الأوروبي يتنقل من جاهليةٍ إلى جاهليةٍ حتى عصرنا الحاضر(١).

ثالثاً: تقسيم الاتجاهات والمذاهب المعاصرة

لقد وُجد أكثر من تقسيمٍ وتصنيفٍ للاتجاهات الفكرية التي ظهرت في حياتنا المُعاصِرة من حيث تعاملُها مع النَّص الدِّيني، وتفاوتت هذه التصنيفات فيما بينها؛ تبعاً لنظرة صاحب التَّقسيم، ومُنطلقه الفكري، على النحو التالي:

١- مَن قسَّمها إلى خمسة اتجاهاتٍ، وهي: العقدي، والعلمي، والعقلي، والأدبي، والمنحرف(٢).

٢- مَن قسَّمها إلى ثلاثة اتجاهاتٍ، وهي: الديني والعقلي والعلماني(٣).

٣- مَن قسَّمها إلى ثلاثة اتجاهاتٍ أيضاً، وهي: الإتجاه السلفي والإتجاه العقلي والإتجاه المُنحرف(٤).

وهذا التقسيم الأخير هو الذي اعتمده الباحث في بحثه، فعرَّف الباحث بالاتجاه السَّلفي في أول البحث، ثم ثنَّى بالحديث عن الاتجاه العقلي بادئاً بالمدرسة العقلية القديمة، وأمَّا المدرسة العصرية أو العصرانية فهي تشمل الاتجاهين العقلي والمُنحرف، وهما ما اعتمده الباحث في دراسة المدرسة العصريَّة، حيث تناول الباحث المدرسة العقلية الحديثة كنموذجٍ للاتجاه العقلي، والمدرسة الليبرالية العربية كنموذجٍ للاتجاه المنحرف.

---

(١) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب،(١/٥٠٠-٥٢٩)، والموسوعة الميسرة في الأديان والفرق، لمانع الجهني(٢/٧٩٧).

(٢) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي، ص١٤.

(٣) انظر: مدارس الفكر العربي الإسلامي المعاصر، لعبد الرزاق قسوم، ص٣.

(٤) انظر: الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية، لمحمد أسود، ص٥٠.

المبحث الأول

المدرسة العقلية الحديثة ومنهجها في فهم النص الديني.

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: نشأة المدرسة العقلية الحديثة في العالم الإسلامي.

المطلب الثاني: أشهر رجال المدرسة العقلية الحديثة وأبرز آرائهم.

المطلب الثالث: منهج المدرسة العقلية الحديثة في فهم النص الديني.

المطلب الأول: نشأة المدرسة العقلية الحديثة في العالم الإسلامي

إنَّ المدرسة العقليَّة الحديثة هي في الحقيقة امتدادٌ للمدرسة العقلية القديمة، وهذا من حيث الأصول والمناهج؛ فهم يُنادون بما نادت به المعتزلة من قبل، من تأويلٍ للنُّصوص، وردِّها بحجة مخالفتها للعقل، وهؤلاء المعتزلة الجُدد يُمجِّدون المعتزلة الأوائل، ويدعون إلى إحياء منهجهم في الأمة من جديد[1]؛ ولكن عند النَّظر إلى الوجود الفعلي في الواقع، نجد أنَّ بين المدرستين القديمة والحديثة انقطاعاً زمنياً طويلاً؛ ولذلك فقد أثَّرت عدَّة عوامل في نشوء المدرسة العقلية الحديثة، كان واحداً منها التأثُّر ببدعة الإعتزال القديمة، والشقّ الأكبر هو التَّشبه بالحضارة الغربية المعاصرة.

لقد بدأت هذه النزعة تظهر في العالم الإسلامي بشكلٍ واضحٍ بعد اقتناع الغرب الصليبي والإلحادي أنَّ الغزو العسكري وحده لا يكفي في إخراج المسلمين من دينهم، أو تشويه أفكارهم ومعتقداتهم، فاتَّجه إلى سياسة التأثير والتوجيه غير المباشر في العالم الإسلامي عن طريق الغزو الفكري؛ لتحطيم العقيدة والدِّين من الداخل، وبأيدي أبناء المسلمين أنفسهم، وسخَّر لذلك كلَّ ما لديه من قوىً وامكاناتٍ علميةٍ وعمليةٍ، وبوسائل شتَّى منها الاستشراق[2]، والتغريب[3]، والتنصير[4]، والتوجيه الإعلامي، والنفوذ السياسي، وعبر تبنِّي مجموعاتٍ من أبناء المسلمين الدارسين في الغرب، وتمكين هذه المجموعات من مراكز التَّوجيه والتأثير والإدارة؛ ونتيجةً لهذه الجهود نشأ اتجاهٌ عام في بلاد العالم الإسلامي يدعو إلى الإعجاب بالغرب وحضارته وتقدُّمه العلمي، ومن ثمَّ الاستمداد منه، وعدم التمييز بين ما يجب أن يُؤخذ، وما يجب أن يُترك، وفي تلك الفترة برزت مجموعةٌ من المُفكِّرين تُنادي بما يُسمَّى بتجديد الأفكار والمفاهيم الإسلامية بما يُساير العصر، وبما يتَّفق مع مُقرَّرات العقل البشري، وبدعوى أنَّ الغرب لم يتقدم علمياً إلَّا عندما جدَّد في مفاهيم الدِّين حسب التطورات العقلية واحتياجات الحياة، وأطلقوا على اتجاههم هذا شعاراتٍ براقةً خادعةً مثل العقلانية والعصرانية والتجديد

---

(١) انظر: المعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، ص١٢٨.

(٢) يطلق على كل من يبحث في أمور الشرقيين –أي المسلمين– وثقافتهم وتاريخهم، ويقصد به ذلك التيار الفكري الغربي الذي يتمثل في إجراء الدراسات المختلفة عن الشرق الإسلامي، والتي تشمل حضارته وأديانه وآدابه ولغاته وثقافته. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٢/٦٨٧).

(٣) هو تيار فكري كبير ذو أبعاد سياسية واجتماعية وثقافية وفنية، يرمي إلى صبْغ حياة الأمم بعامة، والمسلمين بخاصة، بالأسلوب الغربي، وذلك بهدف إلغاء شخصيتهم المستقلة وخصائصهم المتفردة وجعلهم أسرى التبعية الكاملة للحضارة الغربية. انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٢/٦٩٨).

(٤) حركة دينية سياسية استعمارية بدأت بالظهور إثر فشل الحروب الصليبية بغية نشر النصرانية بين الأمم المختلفة في دول العالم الثالث بعامة وبين المسلمين بخاصة بهدف إحكام السيطرة على هذه الشعوب.انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٢/٦٦٥).

والتنوير والحداثة، وجملة أفكارهم تدور حول تقليد الحياة الغربية المُعاصرة، وإعطاءِ العقل حقَّ النَّظر في العقيدة وأصول الدين، ومناهجه كليًّاً وجزئياً[1].

"وقد نشطت هذه الاتجاهات مع نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، نشاطاً هائلاً، ولم تطلع أوائل القرن العشرين إلا وقد آتت هذه الجهود ثمارها النكدة بين المسلمين، وهيمنت طلائع العقلانيين على مفاصل حساسةٍ في بلاد الإسلام، وبدأ على يد هؤلاء ما يُسمَّى بالصراع بين القديم والجديد، والحقُّ أنها معركة التحرر من الإسلام من الداخل"[2].

وقد اختلفت آراء العلماء في سبب نشوء هذه المدرسة وأهدافها، على عدة أقوالٍ كما يلي:

١- **القول الأول:** أنَّها وُجدت لتحقيق أهدافٍ غربيةٍ مشبوهة، وصبغ الحياة الإسلامية بالصِبغة الغربية المُعاصِرة، وأنَّ هذه المدرسة تأثَّرت بالحضارة الغربية، وتربَّت في أحضانها، حيث يرى أصحاب هذا الرأي أنَّ العالم الإسلامي قد سيطرت عليه البدع والتصوف، فأثَّرت في ضعف المسلمين، وتسببت في انحسار العقيدة والحضارة الإسلامية عن قيادة البشرية، وظهور الحضارة الغربية، وتسلمها لهذه القيادة، وفي تلك الفترة واجهت الأمَّةُ غزواً عقائدياً وأخلاقياً وفكرياً وسياسياً وعسكرياً مكثَّفاً، وحين همَّ المسلمون بأن يفيقوا من سباتهم، وجدوا الغرب قد سبقهم سبقاً بعيداً؛ فأُصيبوا بالإنبهار وعقدة الشعور بالنقص، فاستسلموا للغزو الفكري والعقدي والثقافي والعسكري، ممَّا كان له أكبر الأثر في ظهور كثيرٍ من الاتجاهات والحركات الفكرية التي تتبنَّى الفكر الغربي، ومع هذا الغزو الذي جاء من الغرب وفي أحضانه نشأت المدرسة العقلية الحديثة، واستمدت أفكارها ومفاهيمها من الأفكار والمناهج الغربية، وتساهلت في أمر العقيدة الإسلامية إلى حدِّ الهجوم عليها أحياناً؛ بدعوى التجديد أو الملائمة مع الفكر الغربي، أو بدعوى المسايرة والتطوير، أو بدعوى تجديد النظر في النصوص والأصول والقواعد الشرعية التي سلكها السلف، وغيرها من الدعاوى التي يُنادي بها رواد هذا الفكر[3].

٢- **القول الثاني:** أنَّها وُجدت كردَّة فعلٍ للاستعمار، وادِّعائه أنَّ الدِّين يُعادي العقل؛ فحاول هؤلاء اثبات عكس ذلك، وبيان أنَّ الدين لا يُعادي العقل كما تقول أوربا بسبب تجربتها مع الكنيسة؛ بل هو مبنيٌّ على العقل؛ فقام هؤلاء بإخضاع كلِّ شيءٍ للعقل، وأقحموا عقولهم فيما تقدر عليه، وفيما لا تقدر، كما فعل مَن قبلهم، فضلُّوا من حيث لا يعلمون، ويرى أصحاب هذا الرأي أنَّ المدرسة العقلية الحديثة لم تكن مساندةً للاحتلال الغربي في تشويه الدِّين؛ وإنما نشأت كردة فعلٍ عكسيةٍ لما يُروجه الغرب، وحاولت التقريب والتوفيق بين العلم والدين، وذهبت تُقيم الدِّين الإسلامي على العقل الذي لا يُقرُّ أرباب الثقافة الغربية غيره حَكَمًا، وحاولت أن تفسِّر الدين على هذا الأساس، وأخذوا ينشرون هذه

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١٨-٢١.

(٢) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، لمحمد حسين(١٩٠/٢).

(٣) انظر: المرجع السابق(١٠/١) (٧٢/١).

الثقافة، فكان لها جوانب إصلاحية محمودة، وكان لها بجانب هذا آراءٌ كثيرةٌ تخالف منهج السلف، وشطحاتٌ ما كانوا ليقعوا فيها لولا تطرفهم في تحكيم العقل في كلِّ أمور الدين؛ حتى جاوزوا الحقَّ والصواب في أمور كثيرة[١]، يقول المستشار علي جريشة: "ونحن على عكس كثيرٍ غيرنا، نُحسن الظنَّ بأصحاب هذه المدارس، ولا نقبل أن نُسمِّيهم عُملاء، وإن بدا منهم لونٌ من الاتصال أو التعاون مع العدوِّ المُستعمِر، ولكنَّنا وإن نفينا عنهم العمالة، فلا نستطيع أن ننفي عنهم السذاجة، وذلك أنَّهم ظنَّوا أنَّهم يستطيعون أن يضحكوا على الإستعمار، ويمكروا به، وأن يمتطوه؛ ليُسخِّروه لخدمة الإسلام، فإذا به أشدُّ مكراً منهم، فامتطاهم الاستعمار ليسخِّرهم لصالح التغريب والتغيير الإجتماعي"[٢].

ويقول الدكتور فهد الرومي:" وشكَّك بعض رجال الفكر الإسلامي في نزاهة المؤسِّسين لهذه المدرسة مستدلِّين على ذلك ببعض علاقاتهم وما ورد في كتاباتهم"[٣].

وللجمع بين القولين السابقين أقول: إنَّ هؤلاء العقلانيون يتفاوتون في توجهاتهم الفكرية؛ بل فيهم تنوعٌ عجيبٌ في أشخاصهم وأفكارهم وأهدافهم ومقاصدهم وارتباطاتهم ومستوى آرائهم؛ ولكن يجمعهم مسألة تعظيم العقل وتأويل النصوص، فمنهم المُتستِّر بالدِّين، ومنهم الإسلامي المُنحرف في طريقة الاستدلال ومنهجه، ومنهم بعض المُخلِّطين في الفكر والعقيدة، ومنهم منهزمون من الكُتَّاب الإسلاميين، ولهم آراءٌ تُناقض الولاء والبراء، وترفض تكفير المشركين، وتُنكر عبادة الجهاد، وتُؤمن بالتعددية والحريات إلى أبعد الحدود، بما في ذلك التصريح بنشر الإلحاد وغيره من الأفكار الشاذة، وتختلف ارتباطاتهم، فمنهم من ينادي بأفكار العدو الكافر، ويُدافع عن سياسته، ومنهم المخطوف حضارياً، المُنهزِم فكرياً، ومنهم من هو في تحسُّنٍ ووعيٍ مُستمرٍ، وتتكشف له الحقيقة يوماً بعد يوم، ومنهم المخلص لدينه وأمته؛ ولكن لقصور علمه، وعدم اتباعه للأسس الصحيحة في التعامل مع نصوص الشريعة وقع فيما وقع فيه من مخالفاتٍ ومشابهةٍ لأفكار العقلانيين؛ ولكنَّ الحقيقة أنَّ الإنسان يُعرف منهجُه من آرائه وكتاباته؛ ولذلك فإنَّ ما يعرضه رُواد هذه المدرسة من اجتهاداتٍ، وإن كان الهدف منها أن يظهر الإسلام بالمظهر المقبول عند أتباع الحضارة الغربية، ولكنَّه قاد إلى مخالفاتٍ كثيرةٍ وتجاوزاتٍ مرفوضةٍ.

وإنَّ ممَّا يجدر التَّنبيه إليه أنَّ نشر العقلانية في العالم الإسلامي هو في الحقيقة هدفٌ من أهداف اليهود؛ لأنَّ اليهود يعلمون كثرة النصوص القرآنية والنبوية الفاضحة لهم ولمخططاتهم عبر التاريخ، والكاشفة لشخصيتهم المريضة المنحرفة، والمُحذِّرة للمسلمين منهم، والمُحقِّرة لسلوكهم، فهذه النُّصوص تُعطي المسلمين شحناً نفسياً ضدَّ اليهود وأدائهم المُستحكِم لأمتنا، وتوضِّح لهم الطريق

---

(١) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، لفهد الرومي(٢/٧١٥-٧١٧).

(٢) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، لعلي جريشة ومحمد الزيبق، ص٢٠٢-٢٠٥.

(٣) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، لفهد الرومي، ص٧٠.

الأمثل في التعامل معهم، وحيث أنَّ هذه النصوص هي بين أيدي المسلمين صباح مساء، فلا سبيل إلى صرفهم عنها سوى بإحلال العقلانية بدلاً منها؛ لأنَّ هذه العقلانية التي لا تحتكم إلى نصٍّ مُقدَّسٍ يسهل تعامل اليهود معها في المستقبل، حيث لا ثوابت ولا أصول، فما يكون حراماً اليوم يكون حلالاً غداً، وبمباركة هؤلاء العقلانيين!، ومن ذلك: الموقف من اليهود وأسلوب التعامل معهم، فبعدما كان النَّص الإسلامي يحشد نفوس المسلمين لمواجهة أشدِّ الناس عداوةً للذين آمنوا، يأتي العقل المزعوم ويتجاوز تلك النصوص كلِّها مُقدِّماً هواه عليها؛ فينادي بالتسامح معهم، ونبذ العداوة تجاههم[1].

ويسعى اليهود من خلال نشر العقلانية إلى أن يتساووا مع البشر الآخرين الذين كانوا يحتقرونهم ويزدرونهم لسوء مسلكهم، يقول سارتر اليهودي: "إنَّ اليهود مُتَّهمون بتُهمٍ ثلاثٍ كبرى هي: عبادة الذَّهب، وتعرية الجسم البشري، ونشر العقلانية المُضادة للإلهام الديني"[2].

ويقول أحد الباحثين في العقلانية:" وإنَّني بالبحث لم يُخامرني دهشٌ ولا عجبٌ حين قرأت أنَّ بذور الدعوة العقلانية بذورٌ يهوديةٌ، يبرِّر ذلك سارتر اليهودي قائلاً: بأنَّ البشر ما داموا يؤمنون بالدِّين؛ فسيظلُّ يقع على اليهود تمييزٌ مُجحِفٌ، على اعتبار أنَّهم يهود، أمَّا إذا زال الدِّين من الأرض، وتعامل الناس بعقولهم، فعقل اليهودي كعقل غير اليهودي، ولن يقع عليهم التمييز المجحف"[3].

وبناءً على ما سبق ذكره فإنَّه لا بدَّ أن يتعلم العقلانيون المعاصرون من أخطاء سلفهم، وأن يعلموا أنَّ عزَّ الإسلام وظهوره هو في تميُّز منهجه، وتفرُّد شريعته، واعتبارِه المرجع الذي تُقاس عليه الفلسفات والأفكار، وفق الشريعة الشاملة التي يُمثِّلها الكتاب والسنة بفهم السلف الصالح.

---

(1) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب(530/1).

(2) العقلانية هداية أم غواية، لعبد السلام بسيوني، ص18.

(3) المصدر السابق، ص 10.

المطلب الثاني: أشهر رجال المدرسة العقلية الحديثة وأبرز آرائهم

لقد كان للمدرسة العقلية الحديثة رجالٌ وشخصياتٌ، قاموا بنشر فكرتها في العالم الإسلامي بكلِّ ما يملكون من طاقةٍ وقُدرة، ترسيخاً لمبدئهم الذي ينادون به، وهو تقديس العقل، وتحكيمه في كلِّ شيءٍ حتى في أصول الدين والمسلَّمات الدينية، وإعادة النَّظر في كلِّ شيءٍ في الدِّين، وإعادة الصياغة لمبادئ هذا الدين بما يُوافق العصر ويتلائم معه، وقد بدأت تظهر ملامح هذه المدرسة عندما عاد كثيرٌ من المبتعثين من أبناء المسلمين من الغرب إلى بلادهم؛ فجاؤوا يحملون أفكار الغربيين، لا علومهم وتقدُّمهم، فبدأت حركة التغريب في العالم الإسلامي على أيدي هؤلاء دون وعيٍ وبصيرةٍ بما يفعلون، فتشكَّلت بذور المدرسة العقلية الحديثة[١].

إنَّ الباحث في طرحه هذا لا يُريد أن يتقوَّل عليهم ما لم يقولوه؛ بل هي دراسةٌ تحليليةٌ موضوعية لتراثهم الفكري، بقصد البحث عن الحق وردِّ الباطل، يُحاججهم فيها الباحث بما سطَّروه في كُتبهم ومُؤلفاتهم.

إنَّ حياة الرجل تظل مِلكاً له ما دامت خاصةً به، فإذا تجاوزت هذه المرحلة، وأصبحت حياته جزءاً من التاريخ؛ فإنَّ الحديث عنها أمانةٌ في أعناق الباحثين، لا يفكُّ رقابهم منها إلا قولُ الحقيقة من غير تجنٍّ وتعدٍّ، أو تزلُّفٍ ونفاقٍ، فكلاهما منهجٌ ضال، والمنهج الحقُّ وسطٌ بينهما[٢]، ثمَّ إنَّ انصاف الناس هدفٌ نبيلٌ، ومن حسن خلق المسلم أن لا يبخس الناس حقَّهم؛ وعليه فالمدرسة العقلية وإن كان لها بعض المآثر؛ لكنَّها جنت على الإسلام والمسلمين جنايةً عظيمةً، وخاصةً في واقعنا المعاصر[٣].

ومن أبرز الشخصيات التي أثَّرت في وجود المدرسة العقلية الحديثة، ونموِّ فكرتها بين الناس:

أولاً: أحمد خان الهندي[٤]: يعتبر أحمد خان الهندي من أوائل الداعين إلى الفكر العقلاني المناقض للفكرة الإسلامية في العالم الإسلامي، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- تقرَّب إلى الحكومة الإنجليزية، وولي التحرير في ديوان الحاكم، وبعد مدةٍ ولي القضاء، واستقلَّ بالقضاء أربع سنوات، ولمَّا قامت الثورة ضد الانجليز في الهند، قام لنصرة الحكومة الإنجليزية، فدعا المسلمين إلى مصالحة الإنجليز المُحتلِّين لبلاده، وبذل جهوداً جبَّارة في إخماد حركة الجهاد ضد

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٨٢.

(٢) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، لفهد الرومي، ص٧٣.

(٣) انظر: رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية ومنكري السنة، لسيد العفاني، ص٩١.

(٤) أحمد بن المُتقِّي بن الهادي بن عماد بن برهان الحسيني الدهلوي، ولد سنة ١٨١٧م، كان على رقَّة في الدين، وشذوذٍ في العقيدة، وكان قليل العمل، لا يُصلِّي ولا يصوم غالباً، وتوفي سنة ١٨٩٨م.انظر: الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام، لعبد الحي الطالبي(١١٧٦/٨).

الإنجليز، وقد مُنح لقب سير من قِبل الاستعمار البريطاني، وفشا أمره في الناس؛ فكفَّره قومٌ من العلماء[1].

٢- يعد من المفتونين بالحضارة الغربية، حيث أنه بعد أن زار أوربا، وأُعجب بالغرب أيما إعجابٍ، قام بالدَّعوة إلى التعليم العصري، واقتباس الحضارة الغربية وعادات الغربيين؛ فأعلن عن حركته العقلانية التي تدعو إلى تجديد الفكر الإسلامي والمفاهيم الإسلامية حسب المفهوم الغربي، وتجاهل أصول العقيدة عند المسلمين، والدعوة إلى إعادة النظر في كلِّ مبادئ الدِّين وأصوله ومناهجه في الاعتقاد والتلقِّي والاستدلال، والتشكيك في الغيبيات والأصول الإسلامية التي لا تصدِّقها العقلية الحديثة في الغرب، وصنَّف تفسير الإنجيل وسمَّاه تبيين الكلام، واجتهد فيه في تقريب دين الإسلام إلى دين النصارى[2].

٣- يرى أنَّ القرآن الكريم فقط أساس التشريع؛ ولكنه لم يلتزم حتى بهذا القدر؛ بل تجاوزه في كثيرٍ من القضايا؛ فأحلَّ الربا في المعاملات التجارية، ورفض الإجماع، واعترض على عُقوبة الرجم والحِرابة، وقال: الإيمان تصديقٌ بالقلب فقط، فإن أقرَّ أحدٌ بالشهادتين في القلب فهو مؤمنٌ، ولو تشابه بقومٍ في خُصوصيات الدِّين وشعار الكفر كالزنَّار والصليب والأعياد، وأنشأ جامعةً في الهند تُدرِّس هذه المفاهيم التي يدعو إليها؛ فكانت حركة أحمد خان هي أولُ اتجاهٍ عقلانيٍ حديثٍ قام بشكلٍ مُنظَّمٍ في العالم الإسلامي[3].

ثانياً: أمير علي[4]: وهو تلميذ أحمد خان، وسار على درب أستاذه، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- أقحم العقل في أساسيات الدِّين والشريعة؛ فأحلَّ زواج المسلمة بالكتابي، وأحلَّ الاختلاط بين الرجل والمرأة[5]، وهنالك من الإشارات والدلالات في كتاباته ما تدلُّ على أنه كان شيعياً، وعنده نزعةٌ صوفيةٌ[6].

---

(١) انظر: الصراع بين النظرة الإسلامية والفكرة الغربية، لأبي الحسن الندوي، ص٧١، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٧٣/١).

(٢) انظر: الفكر الإسلامي الحديث، لمحمد البهي، ص٣٨-٤٢، وحوار هادئ مع الغزالي، لسلمان العودة(١٠/١).

(٣) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٨٣، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٧٣/١).

(٤) أمير علي بن سعادت علي الهندي، أحرز شهادة الحقوق، وتفقه في الشريعة والأدب العربيّ وبرع في القانون والآداب الانكليزية، واحترف المحاماة، ثم عين أستاذا للشريعة الإسلامية في كلكتة، فمديرا لمدرسة الحقوق فيها، فمستشارا في محكمة بنغالة العليا، واعتزل القضاء فذهب إلى لندن، فعُين فيها مستشاراً ملكياً في المجلس المخصوص سنة ١٩٠٩م، من كتبه: مختصر تاريخ المسليمن، وروح الإسلام أو حياة محمد وتعاليمه، وتوفي في انجلترا ١٩٢٨م. انظر: الأعلام، للزركلي(١٣/٢).

(٥) الموسوعة الميسرة في اللأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٧٣/١).

(٦) انظر: روح الإسلام، لأمير على(٢١٠/١)،(٩٢/٢).

٢- يُعتبر من أكثر العقلانيين المعاصرين انحرافاً في مفهوم الوحي، حيث يزعم أنَّ الوحي والقرآن كانا نتيجة جُهدٍ عقليٍّ وعصبيٍّ من محمد ﷺ، حيث كان يُرهق جسمه بالصوم والانقطاع والتحنُّث، ويُرهق عقله بالتأمُّل الباطني العميق؛ فيجعل الوحي كأنَّه تخيلات، وليست حقيقةً، فيقول:" وقد رأى العقل المُرهَق لدى محمدٍ في هذا صورة أطيافٍ نُورانيةٍ، أطيافٌ هي الوسيط بين الله في السماء والإنسان في الأرض"[١]؛ وقد ذهب هو وغيره إلى ذلك؛ لتقريب حقيقة الوحي حسب المفاهيم الفلسفية العقلية الغربية الحديثة، فزعم أنَّ تلقِّي الوحي هي حالةٌ من الاستغراق الروحيِّ والنَّفسي والفكري لدى العبقري، وحالةٌ من الغيبوبة واللاشعورية، وهذا التعبير له مؤدَّىً عند العقلانيين، فهم يرَون أنَّ حالة الإستغراق لدى المفكِّرين والعباقرة مصدر إلهامٍ وكشفٍ، والنبي تلقَّى الوحي بهذه الحالة، وهذا ما تُركِّز عليه المدرسة العقلية الحديثة؛ لتستريح من هذه القداسة التي يحيط بها المسلمون قرآنهم وكتاب ربهم والوحي[٢].

٣- يذهب إلى إنكار الإيمان بالملائكة والجنِّ، ويعتبر ذلك من بعض مبادئ الطبيعة، فيقول: "إنَّ ما نعتبره بعض مبادئ الطبيعة، كان أسلافُنا يعتبرونه ملائكةً"[٣]؛ ولذلك يرى أنَّ الإيمان بالملائكة قد ولَّد كثيراً من الخرافات، فيقول:" والحقُّ أنَّ الاعتقاد بالملائكة والشياطين قد ولَّد كثيراً من الخرافات"[٤].

وللردِّ عليه نقول: إنَّ الإيمان بالملائكة ووجودهم، وإعانتهم لعباد الله بأمر الله، ممَّا أخبر به الله ﷻ في صريح القرآن، وجاء في صحيح السنة، كما قال ﷻ:﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾[الأنفال:٩]، وقال ﷻ:﴿ **إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا**﴾[الأنفال:١٢]، ولكن يبدو أنَّ هؤلاء العقلانيين لا يقرؤون كتاب الله ﷻ، أو لا يتدبرونه، كما قال ﷻ:﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾[محمد:٢٤].

ثالثاً: ضياء كوك ألب التركي[٥]: من أبرز المآخذ عليه ما يلي:

---

(١) روح الإسلام، لأمير علي(٢٩/١).

(٢) انظر: المرجع السابق (٣٠/١)، والاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١٦٣-١٦٦.

(٣) روح الإسلام، لأمير علي، ص٧٨.

(٤) المصدر السابق، ص٧٩.

(٥) ضياء كوك ألب، ولد عام ١٨٧٦م، ومات عام ١٩٤٢م، درس الأدب والرياضيات والتاريخ واللغة الفرنسية والعلوم الشرقية، وأعجب بأفكار الثورة الفرنسية وفلاسفة أوربا، وعمل في حقل التعليم في بداية شبابه فتأثر بمدير معهده اليهودي ذي الميول المتطرفة، كما تأثر ببعض الأشخاص الملحدين، أصدر جريدتين في تركيا لنشر أفكاره، والتحق بجمعية الاتحاد والترقى التي ثارت ضد الخلافة العثمانية، وعين أستاذا أول لعلم الاجتماع بجامعة استنبول ثم عين رئيساً للجنة التأليف والترجمة، وكان يؤيد مصطفى كمال أتاتورك بقوة وحماس. انظر: الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية، لأبي الحسن الندوي، ص ٣٩.

١- يُعد من الرُّواد الأوائل للانسلاخ عن الحضارة الإسلامية، والارتماء في أحضان الغرب، حيث دعا صراحةً إلى سلخ تركيا من ماضيها الإسلامي، وتكوينها تكويناً قومياً على النمط الغربي[١]، ومن أقواله:" إنَّ الحضارة الغربية هى الشارع الوحيد للتَّقدم"[٢].

٢- دعا إلى تتريك القرآن، أي: تلاوته بالتركية، وتبنَّت جمعية الاتحاد والترقي هذه الفكرة الشيطانية، وأمر بها عملياً أتاتورك[٣] حين أمر رسمياً بأن يُقرأ القرآن في الصلاة وغيرها بالتركية[٤].

رابعاً: جمال الدين الأفغاني[٥]: إنَّ النشأة الفعلية للمدرسة العقلية الحديثة في البلاد العربية ترجع إلى جهود رجلين، هما: جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده[٦]، ومن أبرز المخالفات التي وقع فيها الأفغاني، ما يلي:

١- قام ببلورة وتأسيس الاتجاه العقلي في العالم العربي من خلال دعوته إلى التجديد في الدين، والاعتماد على منطق العقل، والبعد عن التقليد، وتفسير الدين تفسيراً يتلاءم مع روح العصر [٧].

٢- تجوَّل في كثيرٍ من بلدان العالم شرقاً وغرباً، يدعو إلى أفكاره، وأدخل نظام الجمعيات السرية في العصر الحديث إلى مصر،

---

(١) انظر: الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية، لأبي الحسن الندوي، ص ٢٧٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩.

(٣) من أشد الحاقدين على الإسلام والمسلمين، حيث قام من خلال الجمعيات السرية، والدعم اليهودي والماسوني والغربي باسقاط الخلافة الإسلامية، وأعلن العلمانية الإلحادية، واضطهد العلماء أبشع اضطهاد، وقتل منهم العشرات، وأغلق كثيراً من المساجد، وحرم الأذان والصلاة باللغة العربية، وألغى الأوقاف، ومنع الصلاة في جامع أيا صوفيا، وحوَّله إلى متحف، وألغى المحاكم الشرعية، وفرض القوانين الغربية، وألغى استعمال التاريخ الهجري، وحرم تعدد الزوجات، والطلاق، وساوى بين الذكر والأنثى في الميراث، وشجع الشباب والفتيات على الفجور، وأباح المنكرات، وقضى على التعليم الإسلامي، ومنع تدريس القرآن الكريم، وفتح تركيا لليهود. انظر: رسائل في الأديان والفرق والمذاهب، لمحمد الحمد، ص٤٨٦، والرجل الصنم كمال أتاتورك، لعبدالله عبدالرحمن، ص٥٠٦-٥٠٧، والمذاهب الفكرية المعاصرة، لغالب عواجي(٥٥٧/١).

(٤) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١٧٠.

(٥) جمال الدين بن صفدر بن علي بن محمد الأفغاني، المشهور بجمال الدين الأفغاني، ولد في أفغانستان، وقيل في إيران سنة ١٨٣٨م، وتوفي في الأستانة ١٨٩٧م؛ بسبب سرطان في الفم، نتيجة إدمانه السيجار الإفرنجي، كما قال طبيبه المُعالج له. انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص ٧٧، ودعوة جمال الدين الأفغاني في الميزان، لمصطفى فوزي، ص٣٨٠.

(٦) انظر: العصرانيون، لمحمد الناصر، ص٣٤.

(٧) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، لفهد الرومي، ص٧٥، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٠٦.

وانضمَّ إلى المحافل الماسونية[1]، وترقَّى في درجاتها حتى وصل إلى مرتبة عُليا فيها، وسافر في بلاد العالم ينظِّم في صفوفها الشخصيات الفاعلة[2]، "وقد وُجدت إشاراتٌ صريحةٌ في كتاب لأحد كبار رجال الماسونية في مصر تؤكِّد أنَّ جمال الدين كان رئيساً لمحفل كوكب الشرق الماسوني"[3].

٣- لا يعتدُّ بالمذاهب كلِّها، سُنِّيها وشيعيها؛ بل ما كان يعتدُّ بالأديان أصلاً!، فالجميع عنده شيءٌ واحد، والإسلام عنده دينٌ من ضمن الأديان الكثيرة التي يَدين بها أبناء الشر [4].

٤- له مخالفاتٌ صريحةٌ لما أجمع عليه العلماء، فمثلاً يقول في قوله ﷻ:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[آل عمران:١٣٠]،:"الربا لا يُحرَّم إلَّا إذا كان أضعافاً مضاعفة، ويجوز الربا المعقول الذي لا يُثقل كاهل المديون، ولا يتجاوز في بُرهةٍ من الزمن رأس المال، ويصير أضعافاً مضاعفة"[5]، وتابعه على هذا الرأي مجموعةٌ من العقلانيين المعاصرين، وعجباً لهم كأنَّهم لم يقرؤوا القرآن والسنة، ويعلموا أنَّ كلَّ رباً حرامٌ سواءٌ كان قليلاً أو كثيراً، ولو كان درهماً واحداً، كما قال ﷺ:(**درهمٌ رباً يأكله الرجل وهو يعلم، أشدُّ عند الله من ستةٍ وثلاثين زنيةً**)[6].

إنَّ العقلانيين يُمجِّدون جمال الدين الأفغاني، ويسمُّونه باعث الشرق؛ بل ويرفعونه مقاماً عالياً لا يصل إليه بشرٌ، فهذا محمد رشيد رضا يكتب إليه مُصلِّياً ومُسلِّماً عليه بعد رسول الله ﷺ وآله، فيقول:"الحمد لله على أفضاله، والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ وآله، وعلى سيدي؛ بل السيد المطلق، ذي القدح المعلَّى، والجواد المصلَّى الأسبق، سدرة منهى العرفان، وجنة مأوى المحاسن

---

(١) منظمة يهودية سرية هدامة، إرهابية غامضة، محكمة التنظيم تهدف إلى ضمان سيطرة اليهود على العالم، وتدعو إلى الإلحاد والإباحية والفساد، وتتستر تحت شعارات خداعة (حرية، إخاء، مساواة، إنسانية)، جلُّ أعضائها من الشخصيات المرموقة في العالم، ممن يوثقهم عهداً بحفظ الأسرار، ويقيمون ما يسمى بالمحافل للتجمع والتخطيط والتكليف بالمهام، وتتخذ الوصولية والنفعية أساساً لتحقيق أغراضها في تكوين حكومة لا دينية عالمية. الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٥١٠/١).

(٢) المرجع السابق(٧٠٠/٢)، وانظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، لفهد الرومي، ص٧٩، ص٨٢، ص ٩٥، وانظر: تفصيل نشاطه الماسوني بالوثائق الأصلية بخط يده في نفس المرجع السابق، ص٩٧-١٠٦.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، لمحمد حسين(٣٣٩/١).

(٤) انظر: العصرانية قنطرة العلمانية، لسليمان الخراشي، ص١٠، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٠٨.

(٥) جمال الدين الأفغاني، لمحمود أبو رية، ص ٩٨، نقلاً عن منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص٨٩.

(٦) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، حديث رقم ٢١٩٥٧، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير ٣٣٧٥.

والإحسان، الذي له بكل جوٍّ مُتنفَّس، ومن كلِّ نارٍ مُقتبَس، الإمام المُفرد، والعقل المُجرَّد، مهبِط الفيض، مَصعَد الكلم الطيب، مُجلِّي سرَّ الجمال الأكمل"[1]، قلتُ: نعوذ بالله من الخذلان وأهله.

وبحمد الله قد تكشفت حقيقة جمال الدين الأفغاني لعلماء تركيا الذين اطَّلعوا على رفضه وخُبثه، وحكموا عليه بالكفر بفتوىً من مُفتي الدولة العثمانية، وفتوى غيره من العلماء[2].

خامساً: محمد عبده[3]: كان محمد عبده أبرز تلميذٍ للأفغاني، تعرَّف عليه وهو في عمرٍ صغيرٍ، فحضر دروسه، ولازم مجالسه؛ فصادفت أفكار الأفغاني قلباً خالياً؛ فتمكَّنت منه، فأصبح يُرددها ويُبشِّر بها من حوله[4]، ولئن كان جمال الدين الأفغاني هو المؤسس لهذه المدرسة، فإن محمد عبده هو الذي أقام صروحها ودعا إليها، ونشرها بين الناس، فكان بحقٍّ هو صاحبُها، وهو أستاذها وإمامها الأول، فكان له من الأثر فيها ما لم يكن لأستاذه[5]؛ حتى لقَّبه أتباعه بالأستاذ الإمام[6]، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- فاق محمد عبده أستاذه الأفغاني في مسألة تطويع الإسلام بما يُوافق حضارة الغرب وثقافته؛ نظراً لخلفية محمد عبده الدينية التي افتقدها الأفغاني[7]، حيث يقول:"اتفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلاً ممَّن لا يُنظر إليه على أنه إذا تعارض العقل والنقل، أُخذ بما دلَّ عليه العقل"[8].

قلتُ: لا أدري من يقصد بأهل الملة الإسلامية إلا قليلاً، ربَّما قصد العقلانيين الأوائل من المعتزلة والفلاسفة وأمثالهم.

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام، لمحمد رشيد رضا(١/٨٥).

(٢) دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، لمصطفى فوزي، ص١٢، وانظر: المعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، ص١٢٩.

(٣) محمد بن عبده بن حسن التركماني المصري، ولد سنة ١٨٤٩م، كان يميل إلى التأويل العقلاني العصراني في القرآن والسنة، ويميل أيضاً إلى تقديم العقل على نصوص النقل، ناوأ الإنجليز فنُفي من مصر، فأعاد النظر في تفكيره فقرر الانتقال من الفكر الثوري إلى الفكر الإصلاحي، فعلمت الانجليز بذلك فأذنت له بالعودة إلى مصر ليكِّونَ طائفةً جديدةً ترتدي ثياب الإسلام وتقوم بمهمة تمرير الأفكار التغريبية بين أفراد المجتمع، حرر جريدة الوقائع المصرية، وأصدر مع جمال الدين الأفغاني جريدة العروة الوثقى، وكان مفتي الديار المصرية سنة ١٨٩٩م-١٩٠٥م، وتوفي سنة ١٩٠٥م. انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٢٤.

(٤) انظر: الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية، لمحمد أسود، ص٤٧٨.

(٥) انظر: المعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، ص١٢٩، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٢٤.

(٦) انظر: الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، لعبد الغفار عبد الرحيم، ص١٩.

(٧) انظر: العصرانيون، لمحمد الناصر، ص٣٧ ومابعدها.

(٨) الإسلام والنصرانية، لمحمد عبده، ص٥٩.

٢- سعى للتَّقريب بين الإسلام و الحضارة الغربية، واتَّخذ اتجاهه هذا أشكالاً مختلفةً؛ فظهر أحياناً في صورة مقالاتٍ أو مشاريعَ أو برامجَ تدعو إلى إدخال العلوم العصرية في الجامع الأزهر، وظهر تارةً أخرى في صورة تفسيرٍ لنصوص الدِّين من قرآن أو حديثٍ، يُخالف فيها ما جرى عليه السلف في تفسيرها؛ ليُقرَّ بها أقصى ما تحتمله؛ بل إلى أكثر ممَّا تحتمله في بعض الأحيان؛ لكي يصل آخر الأمر إلى أنَّ الإسلام يُساير حضارة الغرب، ويتَّفق مع أساليب تفكيره ومذاهبه[١]؛ ولذلك قام بإنشاء جمعيةٍ للتقريب بين الأديان وجمع فيها اليهود والنصارى، وحاول بكلِّ جهده أن يصل لهذه الغاية المزعومة، حيث قال:" ونستبشر بقرب الوقت الذي يسطع فيه نور العرفان الكامل، فتُهزم له ظلمات الغفلة، فتُصبح الملَّتان العظيمتان المسيحية والإسلام وقد تعرَّفت كلٌّ منهما إلى الأخرى، وتصافحتا مصافحة الوداد، وتعانقتا معانقة الألفة، فتُغمد عند ذلك سيوف الحرب التي طالما انزعجت لها أرواح الملَّتين،... وإنَّا نرى التوراة والإنجيل والقرآن ستصبح كتباً متوافقةً، وصُحفاً مُتصادقةً، يدرسُها أبناء الملَّتين، ويُوقِّرها أرباب الدِّينين، فيتمّ نور الله في أرضه، ويظهر دينه الحقُّ على الدِّين كلِّه"[٢].

قلتُ: فواعجباً لمن كان في منزلته، ويقول مثل هذا الكلام، وكأنَّه لم يقرأ قول الله ﷻ:﴿ **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ اليَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ**﴾[البقرة:١٢٠]، وكأنه لم يفقه قول الله ﷻ:﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾[آل عمران:٨٥]، وليته نادى بما نادى به القرآن الكريم من دعوة أهل الكتاب إلى الوحدة الصحيحة، بتوحيد الله ﷻ وحده، ونبذ الشركيات، كما قال ﷻ:﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ**﴾[آل عمران:٦٤].

٣- كان مُشاركاً مع أستاذه الأفغاني في المحافل الماسونية ونشاطه فيها، وتعاونه في نشر مبادئها[٣]، وكذلك علاقته المريبة بالإنجليز حيث كان يبذل لهم النصيحة خالصةً، ويُرشدهم إلى ما يوطِّد دعائم احتلالهم، ويحذِّرهم من الأخطاء التي يكادون أن يقعوا فيها، وتضرُّهم في مصالحهم، ويدلُّ على ما قدَّمه لهم من خدمات، دفاعهم عنه والوقوف بجانبه، فقد صرَّح الإنجليز بأنَّ محمد عبده سيظلُّ مُفتياً

---

(١) انظر: العصرانية قنطرة العلمانية، لسليمان الخراشي، ص٢١- ٢٢، وانظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٢/٧٠٠).

(٢) الأعمال الكاملة لمحمد عبده، جمع وتحقيق محمد عمارة (٢/٣٦٣-٣٦٤).

(٣) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٤٩.

لمصر طالما ظلَّت بريطانيا مُحتلةً لها[١]، وقد صرح الإنجليز بأنَّ العفو صدر عن محمد عبده، وعاد إلى مصر بعد نفيه منها بتُهمة المشاركة في الثورة على الدولة بسبب الضغط البريطاني على الدولة المصرية آنذاك[٢].

يقول اللورد كرومر- الحاكم الإنجليزي لمصر-:" إنَّ محمد عبده كان مُؤسِّساً لمدرسةٍ فكريةٍ في مصر، قريبة الشبه من تلك التي أسَّسها السيد أحمد خان في الهند......، وإنَّ أهميته السياسية ترجع إلى أنَّه يقوم بتقريب الهُوَّة التي تفصل بين الغرب وبين المسلمين، وأنَّه هو وتلاميذ مدرسته خليقون بأن يُقدَّم لهم كلُّ ما يمكن من العون والتشجيع، فهم الحلفاء الطبيعيون للمُصلح الأوربي"[٣].

٤- ضرب محمد عبده بسهمٍ وافرٍ في تأويل الآيات القرآنية، وتحريفها عن معانيها؛ لتوافق العقلية الغربية والنظريات الحديثة، ويعتبر عبده من أوائل من تعرَّضوا في العصر الحديث لتأويل نصوص القرآن؛ لتتفق مع النظريات الغربية، خاصةً ما يتعلق بأمور الغيب، وكأنَّه بفعله هذا يريد المصالحة والتقريب بين الذين يؤمنون بالغيب والذين لا يؤمنون به؛ لكنَّه قرَّب المؤمنين إلى الإلحاد خطواتٍ، ولم يُقرِّب الملحدين إلى الإيمان خطوة[٤]، ومن تأويلات محمد عبده الغريبة والمُنكرة، ما يلي:

أ- انكاره نزول عيسى ابن مريم- عليه السلام- في آخر الزمان كما أخبر بذلك النَّبي ﷺ في الحديث المُتفق عليه:(**والذي نفسي بيده، ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد**)[٥]، فيرى محمد عبده تأويل نزول عيسى ابن مريم – عليه السلام- وحكمه في الأرض بغلبة روحه، وسرِّ رسالته على النَّاس من الرحمة والمحبة والسلم[٦].

ب- أنكر محمد عبده أنَّ الملائكة مخلوقاتٌ خلقها الله ﷻ، وأنَّها موجودةٌ بيننا؛ بل زعم أنَّها نوازع الخير في النفوس، فقال:" ليس من المُستبعَد أن يُسمِّي الله تعالى الأفكار والخواطر التي تدفع إلى الخير ملائكةً، وكذلك الشيطان يُحتمل أن يكون هاتف الشر في النفوس"[٧].

---

(١) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام، لمحمد رشيد رضا(٩٢٢/١،٥٦٤،٥٠١).

(٢) انظر: الفكر الإسلامي المعاصر، لغازي التوبة، ص ٤٥.

(٣) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، لمحمد حسين(٣٠٧/٢)، وانظر: نفس المصدر(٢١١/٢-٢٢١).

(٤) انظر: موقف العقل والعلم والعلم من رب العالمين وعباده المرسلين، لمصطفى صبري(١٣٣/١).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، باب نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، رقم٣٤٤٨، وأخرجه مسلم في صحيحه، باب نزول عيسى ابن مريم حاكماً بشريعة نبينا محمد ﷺ، رقم ١٥٥.

(٦) انظر: الأعمال الكاملة لمحمد عبده، لمحمد عمارة(٣٢/٥).

(٧) انظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا، ص٢٦٧-٢٦٩.

ج- تأويله لقصة أصحاب الفيل، حين ذهب إلى القول بأنَّ الطير الأبابيل هي وباء الجدري[1]؛ ليُوافق العقلية الغربية المادية التي لا تُؤمن بالمعجزات والكرامات.

د- زعم أنَّه من الممكن أن يكون في القرآن بعض القصص التي لم تقع؛ وإنَّما سيقت لمجرد التمثيل، كما قال في قصة آدم وأكله من الشجرة[2]، أي: يقصد أنَّ القرآن قد يحتوي على أساطير خيالية، وهذا ما صرَّح به من جاء بعده من أتباعه العقلانيين[3].

٥- له عباراتٌ خطيرةٌ يبدو الانحراف ظاهراً في عقيدة قائلها، ومن ذلك ما كتبه لأستاذه الأفغاني قائلاً:" ليتني كنتُ أعلم ماذا أكتب إليك، وأنت تعلم ما في نفسي كما تعلم ما في نفسك، صنعتنا بيدك، وأفضتَّ على موادنا صورها الكماليَّة، وأنشأتنا في أحسن تقويم، فبك عرفنا أنفسنا، وبك عرفناك، وبك عرفنا العالم أجمعين، فعنك صدرنا وإليك المآب،... ولقد أوتيتُ من لدنك حكمةً أُقلِّب بها القلوب، وأعقل العقول، وأتصرَّف بها في خواطر النفوس،.... أمَّا ما يتعلق بنا، فإنِّي على بينةٍ من أمر مولاي، وإن كان في قوة بيانه ما يُشكِّك الملائكة في معبودهم، والأنبياء في وحيهم، ولكن ليس في استطاعته أن يشكَّ في نفسه، ولا أن يُقنع عقله إلا بالمحالات، وإن كان في طوعه أن يُقنع بها من أراد من الشرقيين والغربيين"[4].

قلتُ: وهذه كلماتٌ ولا شكَّ خطيرةٌ، تُوجب إعادة النظر في عقيدة الرَّجل عند من لا تخدعه الأسماء، حتى أنَّ محمد رشيد رضا نفسه لم يستطع أن يُنكر هذا الكلام، واستغرب منه، حيث قال بعد سياقه له:" وهو أغرب ما كتبه؛ بل هو الشاذُّ فيما يصف فيه أستاذه السيِّد ممَّا يُشبه كلام صوفية الحقائق القائلين بوحدة الوجود[5].

وفي الجملة إنَّ الباحث المُدقِّق في مسار الفكر الإسلامي في تلك الآونة وما تلاها، يجد أنَّ محمد عبده قد خلَّف كثيراً من الدَّعوات الهدَّامة، والمبادئ المنحرفة، التي مهَّدت لما جاء بعدها من محاربةٍ للدِّين بدعوى التحرُّر والتحضُّر[6].

(١) تفسير جزء عم، لمحمد عبده، ص ١٥٥.

(٢) انظر: تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا(٢٣٦/١)،(٢٦٤/١).

(٣) انظر: الفن القصصي في القرآن الكريم، لمحمد أحمد خلف الله، ص١٩٩.

(٤) هذا خطاب من محمد عبده إلى أستاذه الأفغاني بتاريخ ٥ جماد الأولى ١٣٠٠هـ، وقد جاء الدكتور فهد الرومي بنسخة مصورة من هذا الخطاب في كتابه "منهج المدرسة العقلية الحديثة". انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٥٣- ١٥٩.

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام، لمحمد رشيد رضا(٥٩٩/٢).

(٦) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص ١٦٥.

سادساً: محمد رشيد رضا[١]: كان محمد رشيد رضا تلميذاً لمحمد عبده، وتلقَّى عنه، واعتقد أنَّ صلاح المسلمين سيكون على يديه، ويُعدُّ محمد رشيد رضا هو الذي قام بتسجيل نشاط المدرسة الإصلاحية وبثِّه في العالم الإسلامي[٢]، فقد أسَّس مجلة المنار مواصلةً للسَّير على منهج العروة الوثقى التي كان يصدرها الأفغاني وعبده؛ لينشر أفكاره بين الناس[٣].

وقد ألحَّ محمد رشيد رضاعلى شيخه محمد عبده بأن يُعطي دروساً في تفسير القرآن، فوافق محمد عبده على إلقاء هذه الدروس، وبدأ في تفسير القرآن، وبقي على ذلك حتى تُوفي ووصل إلى تفسير سورة النساء، فواصل تلميذه محمد رشيد رضا التفسير من حيث توقَّف أستاذه[٤]، واختلف منهجه عن منهج أستاذه، حيث كان مُتأثِّراً بالمنهج السلفي نتيجةً لقراءته لكتب ابن تيمية وابن القيم ومحمد بن عبد الوهاب- رحمهم الله-، وظهر ذلك جلياً من خلال كتاباته التي خالف فيها العقلانيين في كثير من المسائل، وقد ظهر اختلافه عن هذ المدرسة في كثير من الأمور من خلال ردِّ أتباع محمد عبده عليه وخصومتهم له، ومن أبرز المآخذ عليه من وجهة نظر الباحث:

١- بالرغم من أنه خالف العقلانيين في كثير من الأمور إلا أنّه ما زال متأثراً بالأفغاني ومحمد عبده، ولم ينفك عنه هذا الأثر إلى وفاته[٥].

٢- تحكيم العقل في تفسير القرآن والسنة، وردِّ حديث الآحاد، وتأويل كثيرٍ من الأحاديث، أو ردِّها بحُجة عدم موافقتها للعقل، حتى ولو كانت في صحيح البخاري ومسلم، كأحاديث معجزات النبي ﷺ كانشقاق القمر، وأحاديث أشراط الساعة كطلوع الشمس من مغربها[٦].

---

(١) محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن السيد بهاء الدين بن السيد منلا علي خليفة البغدادي، ولد في طرابلس لبنان سنة ١٨٦٥م، ونشأ فيها، وتأثَّر بمجلة العروة الوثقى التي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، واشتهر بحبه وتعلقه الشديد بهما، حتى أصبح الثناء عليهما أمامه يعتبر تقرُّباً إليه، وسافر إلى مصر للاتصال بشيخه وأستاذه محمد عبده، وتوفي ١٩٣٥م.انظر: تاريخ الأستاذ الإمام، لمحمد رشيد رضا(١/٨٤-٨٧).

(٢) انظر: تاريخ الأستاذ الإمام، لمحمد رشيد رضا، ص١٧٠-١٧١.

(٣) انظر:السيد محمد رشيد رضا إصلاحاته الاجتماعية والدينية، لمحمد درنيقة(١/١٥-٣٣)، وتاريخ الاستاذ الإمام، لمحمد رشيد رضا(١/٧٦٥)، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٧٧.

(٤) انظر: السيد محمد رشيد رضا، لمحمد درنيقة(١/٧٦٨).

(٥) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٨٤-١٨٧.

(٦) انظر: الاتجاه العقلي في تفسير المنار، لفوزية المشتولي، ص١٤٠.

سابعاً: محمد مصطفى المُراغي[1]: ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- تبنى المنهج العقلاني في التعامل مع النصوص حيث تأثَّر بمحمد عبده، وتعلَّق به؛ فحضر دروسه، وكان من أكبر تلاميذ محمد عبده وأقربهم إليه[2].

٢- تقريره عن قانون الأحوال الشخصية الذي لم يتقيَّد فيه بالمذاهب الأربعة بناءً على دعوته إلى الاجتهاد، ونبذ التقليد، حيث يريد أن يُكيِّف النصوص لموافقة المجتمع، لا أن يُكيِّف المجتمع لموافقة النصوص، حيث قال لأعضاء اللجنة المُوكَّلة بصياغة الدستور:" ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنَّه يُوافق الزمان والمكان، وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنصٍّ من المذاهب الإسلامية يُطابق ما وضعتم"[3].

٣- مطالبته بحلِّ جميع الهيئات الدينية، ومن بينها جماعة الإخوان المسلمين؛ لأنَّ هذه الهيئات كما يزعم أباحت لنفسها استصدار الفتوى، ونشرها على الناس بما يتفق وأغراضها[4].

ثامناً: محمود شلتوت[5]: ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- دعوته إلى التقريب بين المذاهب والطوائف، ودعوته للسلام بين الأديان والأمم، وقد أنشأ جمعيةً لهذا الغرض[6].

٢- هو أول من أضاف تدريس القانون المقارن إلى كلية الشريعة؛ فأصبح اسمها كلية الشريعة والقانون، وأضاف تدريس فقه الشيعة إلى جانب فقه المذاهب السُّنيَّ.

---

(١) محمد مصطفى بن محمد بن عبد المنعم المراغي، ولد في قرية المُراغة في صعيد مصر سنة١٨٨١م، درس في الأزهر، وتنقَّل في الوظائف القضائية؛ حتى عُين قاضياً لقضاة السودان، وكانت له مجموعةٌ من الإصلاحات في القضاء، وفي سنة ١٩٢٨م عُين شيخاً للأزهر، ثمَّ استقال في عام ١٩٢٩م، وعاد مرةً أخرى إلى مشيخة الأزهر ١٩٣٥م، واستمرَّ في هذا المنصب إلى وفاته عام ١٩٤٥م. انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٩٠.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٨٨.

(٣) تراجم الأعلام المعاصرين، لأنور الجندي، ص٤٢٨، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٩١.

(٤) انظر: لماذا اغتيل الشهيد حسن البنا، لعبد المتعال الجبري، ص٣٩.

(٥) ولد في قرية منية بمحافظة البِحيرة بمصر عام ١٨٩٣م، والتحق بالمعهد الديني بالاسكندرية سنة ١٩٠٦م، وعُين مدرساً بالمعهد عام ١٩١٩م، ونُقل في سنة ١٩٢٧م مدرساً بالقسم العالي في القاهرة، وقد حاول في تلك الفترة مواصلة الإصلاح الذي بدأه الأفغاني ومحمد عبده والمراغي في الأزهر، لكنَّ المشرفين على سياسة الأزهر عارضوا ذلك؛ فصدر الأمر بفصله سنة ١٩٣١م، ثمَّ أُعيد سنة ١٩٣٥م، وعُين وكيلاً لكلية الشريعة الإسلامية، ثمَّ مفتشاً بالمعاهد الدينية، وفي سنة ١٩٥٧م عُين وكيلاً للجامع الأزهر، ثمَّ أُمر بتعيينه شيخاً للأزهر، واستمرَّ في هذا المنصب حتى وفاته عام ١٩٦٣م.انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، ص١٩٨.

(٦) انظر: مجلة الأزهر الجزء السادس المجلد الخامس والثلاثون ص٦٤٤، شعبان ١٣٨٣هـ.

٣- له آراءٌ تدلُّ على منهجه العقلي، مثل ردِّ خبر الآحاد في العقيدة، وانكار نزول عيسى ابن مريم في آخر الزمان، وغيرها[1].

٤- يرى أنَّ العقيدة لا تثبت إلَّا بالقرآن، فيقول:" والمسلمون الذين يعتقدون بأنَّ مصدر العقيدة في الشئون الغيبية هو القرآن وحده، وهو الحقُّ الذي نؤمن به، يقفون في الإيمان عند الحقِّ الذي أخبر به القرآن"[2]، ويقول أيضاً:" وتطبيقاً للمبادئ التي ذكرناها يتبيَّن لنا أنَّ الطريق الوحيد لثبوت العقائد هو القرآن الكريم، وذلك فيما كان من آياته قطعيُّ الدلالة"[3]، وهو بهذا الكلام يُعرض عن المتواتر والصحيح من السنة والإجماع، وهما مصدران من مصادر العقيدة، وقد تواتر في السُّنة أشياء لم ترد في القرآن، مثل شفاعة النبيﷺ يوم القيامة، والحوض، ومنكر ونكير، وغيرها من الشئون الغيبية[4].

تاسعاً: عبد العزيز جاويش[5]: لقد سار جاويش على خُطى من قبله، أمثال: الأفغاني وعبده، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- عمل على ارسال بعثةٍ أزهريةٍ من نوابغ الأزهر إلى أوربا، وقال عن هذا المشروع: "رأيتُ أن أبذر في مصر من الأزهريين رجالاً، فأرسلُهم إلى حيث يبلغون العلم الصحيح؛ ليرجعوا لنا وقد جمعوا ما يُمكنهم أن يُدرِّسوه لأمثالهم الأزهريين"[6].

٢- اقتفى آثار محمد عبده في تفسيره للقرآن بما يتوافق مع العصر، ويتلاءم مع الثقافة الغربية[7]، وله آراءٌ غريبةٌ في آيات الغيب والمعجزات، حيث يرى أنَّ بعض القصص في القرآن كانت مناماً، ولم تكن حقيقةً، مثل قصة صاحب القرية الذي قال الله ﷻ فيه: ﴿**أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللهُ مِئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ... الآية**﴾[البقرة:٢٥٩]،

(١) انظر: الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية، لمحمد أسود، ص٤٨١.

(٢) الاسلام عقيدة وشريعة، لمحمود شلتوت، ص٣٠.

(٣) المرجع السابق، ص٥٧.

(٤) انظر: تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، للسيوطي(١٨٠/٢).

(٥) ولد جاويش في الإسكندرية عام ١٨٧٦م، وبدأ دراسته فيها، ثمَّ انتقل إلى القاهرة في عام ١٨٩٢م، حيث كان يحضر مجالس محمد عبده، واتَّصل به عن قرب وأحبَّه[5]، ثمَّ ابتُعث في عام ١٨٩٧م إلى بريطانيا، ثمَّ عاد بعد عدة سنوات، وعُين مفتشاً في وزارة المعارف، ثمَّ عاد إلى بريطانيا مرةً أخرى في عام ١٩٠٢م، وعاد في عام ١٩٠٦م لعمله الأوَّل في وزارة المعارف، حتى استقال في عام ١٩٠٨م، وتفرَّغ للعمل في مجلة اللواء، وكان رئيس تحريرها، ثمَّ سافر إلى تركيا سنة ١٩١٢م، ثمَّ غادر إلى ألمانيا سنة ١٩١٨م، وعاد إلى مصر سنة ١٩٢٣م، وعُيِّن سنة ١٩٢٥م مديراً للتعليم، وظلَّ بها إلى أن توفي سنة ١٩٢٩م. انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٠٢.

(٦) عبد العزيز جاويش، لأنور الجندي، ص ١٨١.

(٧) انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، لمحمد حسين(٤٣٠/١)، وانظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص٢٠٤.

وكذلك في قصة إبراهيم -عليه السلام- مع الطيور الأربعة، وإحياء الله لها، يرى أنَّها منامٌ، وليست حقيقةً[1].

قلتُ: ولا أدري ما الذي يمنعه أن يقول بأنَّها حقيقةٌ أخبرنا الله بها في كتابه، أم أنَّ ما يفعله هو من باب مسايرة الغرب في إنكار المعجزات، وحبِّ المُخالفة والظهور، حتى ولو كان على حساب تحريف القرآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

عاشراً: عبد القادر المُغْربي[2]: يعد المغربي من أصحاب الفكر العقلاني في العالم الإسلامي، ومن المتأثرين بفكر محمد عبده والأفغاني، فيقول عن نفسه وعن الأطوار التي مرَّ فيها خلال طلبه للعلم: "غير أنِّي لمَّا اتَّصلتُ بالسيد الأفغاني، وأمعنتُ النظر في دراسة تعاليمه، انتقلتُ في حياتي الفكرية إلى الطور الثالث، وهو أن نفهم النَّص الدِّيني فهماً صحيحاً، نراعى فيه قوانين اللغة وقواعد بلاغتها، ونستوثق من مطابقة النَّص للكتاب والسنة، ثمَّ نجرُأ على التصريح بما فهمنا من النص، سواءٌ أوافق رأيَ غيرنا أم لا، وقد اقتبسنا هذه الطريقة في الفهم من أقوال السيد الأفغاني، وتعاليمه المروية المبثوثة في مجلة العروة الوثقى أولاً، ثم بسائر ما علق بأيدينا من كتاباته وكتابات تلميذه الشيخ محمد عبده ثانياً"[3].

وقد دفعه الشوق لرؤية جمال الدين الأفغاني أن يُسافر إليه بالأستانة سنة ١٣١٠هـ، عندما كان الأفغاني مقيماً هناك، وظلَّ بجواره سنةً يأخذ عنه، وأُولع بعدها بدراسة آثار محمد عبده، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- تهجُّمه على الخلافة الإسلامية وتنديده بها كسائر روَّاد هذه المدرسة[4].

٢- قام بحملةٍ على الحجاب، ودعا إلى سفور المرأة المسلمة، ووصف من أحوال نساء أوربا وأمريكا ومخالطتهن للرجال ما يُشعر باستحسانه له، وتمنِّيه لنساء المسلمين مثله؛

(١) انظر: الإسلام دين الفطرة والحرية، لعبد العزيز جاويش، ص ١٤٨.

(٢) ولد عبد القادر المغربي في اللاذقية بسوريا عام ١٢٨٤هـ، ثمَّ انتقل مع والده إلى طرابلس الشام، وتلقَّى العلم فيها، ويعد من مؤيدي الفكر العقلاني في العالم الإسلامي، وخاصة أفكار محمد عبده والأفغاني، وتوفي عام ١٣٧٥هـ. انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص٢٠٥.

(٣) جمال الدين الأفغاني ذكريات وأحاديث، لعبد القادر المغربي، ص٤٥.

(٤) انظر: محاضرات عن عبد القادر المغربي، لمحمد أسعد طلس، ص١٨

بل كان يرجو من قاسم أمين[1]- وهو حامل لواء دعوة المرأة المسلمة إلى السفور ونزع الحجاب- أن يُتحفهم بكتابٍ في المرأة، يكون ثالث القمرين، بعد كتابيه تحرير المرأة والمرأة الجديدة[2].

٣- قام بتفسير جزء تبارك، وكان ينقل كثيراً عن الأسفار القديمة من التوراة؛ بل لقد تجاوز من سبقه في روايته للإسرائيليات، فأباح لنفسه ما لم يُبحه لغيره؛ فنقل من الإسرائيليات ما خالف نصَّ القرآن الكريم، ولم ينقده أو يُبطله؛ بل حرَّف معاني نصوص القرآن الكريم؛ لتوافق ما جاء به من الإسرائئليات[3]، ومن ذلك ما ذكره في تفسير سورة نوح، حيث قال: "وكان عمر نوح ٥٠٠ سنة لمَّا أخذ يلد أولاده ساماً وحاماً ويافث، وكان عمره ٦٠٠ لما حصل الطُّوفان"[4]، وتُعلِّق مُراقبة الثقافة بالأزهر على هذا بقولها:" قوله ﷻ في سورة العنكبوت:﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ** ﴾[العنكبوت:١٤]، يُفيد أنَّ الطوفان حدث بعد أن أمضى نوحٌ بين قومه ٩٥٠ سنة، فالقرآن يُخالف في ذلك ما نقله المؤلف عن الأسفار القديمة"[5].

قلتُ: الأمر واضحٌ أشدَّ الوضوح، ولا أدري كيف يسمح هؤلاء لأنفسهم بأن يُخالفوا هذه المُخالفات الصريحة لكتاب الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

حادي عشر: أحمد مصطفى المُراغي[6]: ومن المآخذ عليه أنه يُعتبر من المكملين لمشروع محمد عبده وخاصة في التفسير العقلاني للقرآن الكريم، حيث يقول: "رأينا أنَّ الأساليب التي كُتبت بها كُتب

---

(١) قاسم بن محمد أمين المصري، كاتب وباحث، اشتهر بمناصرته للمرأة ودفاعه عن حريتها، ودعوته إلى السفور، ولد ببلدة طره بمصر سنة ١٨٦٣م، ثم انتقل إلى الإسكندرية، فنشأ وتعلم بها، ثم بالقاهرة، وأكمل دراسة الحقوق بفرنسا، وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٥، فكان وكيلا للنائب العمومي بالمحكمة المختلطة، فمستشارا بمحكمة الاستئناف، وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٠٨م، له كتاب تحرير المرأة، والمرأة الجديدة، دعا فيهما إلى التبرج والسفور. انظر:الأعلام للزركلي(١٨٤/٥).

(٢) انظر: محاضرات عن عبد القادر المغربي، لمحمد أسعد طلس، ص ٢١، ص٥٢-٥٣.

(٣) انظر: منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص٢٠٧، ص٣٢٧.

(٤) تفسير جزء تبارك، لعبد القادر المغربي، ص٥٦.

(٥) المرجع السابق، ص٥٦ في الهامش.

(٦) أحمد بن مصطفى بن محمد بن عبد المنعم، ولد ببلدة المُراغة بصعيد مصر، سنة ١٨٨٣م، وحفظ فيها القرآن صغيراً، ثمَّ رحل إلى الأزهر، والتقى بمحمد عبده، وأُعجب به، وأخذ عنه، وأكمل تعليمه، وأصبح مدرساً، ثمَّ ناظراً، ثم أستاذاً للشريعة الإسلامية بكلية دار العلوم، وله عدَّة كتب أشهرها تفسيره للقرآن الذي سمَّاه تفسير المراغي، وقد تتبَّع فيه خُطى محمد عبده ومحمد رشيد رضا، وتوفي سنة ١٩٥٢م. انظر: منهج المدرسة العقلية في التفسير، لفهد الرومي، ص ٢٠٩.

التفسير، وُضعت في عهودٍ سحيقةٍ تُناسب أهل العصور التي أُلِّفت فيها، فكان لزاماً علينا أن نلتمس لوناً من التفسير لكتاب الله بأسلوب عصرنا، موافقاً لأمزجة أهله"[١].

وقال في منهجه في التفسير:" رأينا أن لا نذكر روايةً مأثورةً إلَّا إذا تلقَّاها العلم بالقبول"[٢]، ويقصد العلم الدنيوي، والعقول القاصرة، وعدَّ من مراجعه التي اعتمد عليها في تفسيره كتاب تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، وقال عنه:" وقد كان له فضلٌ كبيرٌ فيما اقتبسناه أثناء تفسير الأجزاء التي فسَّرها"[٣]، والحقيقة أنَّ تفسيره هو اختصارٌ لتفسير المنار في الأجزاء التي فسَّرها صاحب المنار[٤].

ثاني عشر: محمد فريد وجدي[٥]: ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- مناصرته لإسقاط الخلافة العثمانية، وثناؤه على أتاتورك، وتمجيده له، وتمجيد حركته التي ثبت عداؤها للإسلام وأهله، وكذلك تأثُّره وإعجابه الشديدين بالحضارة الغربية، وانخداعه بمنهجها[٦].

٢- أنَّه يرى أنَّ معجزات النبي ﷺ غير القرآن من وضع الناس، لا سيَّما تلك المعجزات التي صحَّت روايتها، وتواتر وقوعها في السنة، فيقول: "تمتاز العصور النبوية بالخوارق للنواميس الطبيعية، فأساطير الأديان ملأى بذكر حوادث من هذا القبيل، كان لها أقوى تأثيرٍ في حمل الشعوب على الإذعان للمرسلين، وقد حدثت أمورٌ من هذا القبيل في العصر المُحمَّدي، وكانت أعظم شأناً، وأجلُّ أثراً من كلِّ ما سبق، ولستُ أقصد هنا ما تناقله الناس من شقِّ الصدر، وتظليل الغمامة، وانشقاق القمر، وما إليها ممَّا لا يمكن إثباته بدليلٍ محسوسٍ، ولكن أقصد تلك الانقلابات الأدبية والاجتماعية التي تمَّت على يد محمد ﷺ في أقل من ربع قرن"[٧].

---

(١) تفسير المراغي، لأحمد المراغي(١/١٧).

(٢) المرجع السابق(١/١٨).

(٣) المرجع السابق(١/٢٢).

(٤) منهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص٢١١.

(٥) محمد فريد بن مصطفى وجدي بن علي رشاد، ولد في الاسكندرية سنة ١٨٧٥م، وتعلَّم في مدارسها تعليماً أبعد ما يكون عن الدِّين وعن الدراسات الإسلامية، ثمَّ انتقل إلى القاهرة، وأنشأ بها جريدةً خاصةً به، أسماها: الدستور، وتوفي ١٩٥٤م. انظر: المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص١٩٤.

(٦) انظر: المرجع السابق، ص١٩٦.

(٧) مقالة بعنوان السيرة المحمدية في ضوء العلم والفلسفة في مجلة الأزهر، العدد السابع من المجلد الحادي عشر ص٣٨٥، وانظر الاتجاهات العقلانية الحديثة، د. ناصر العقل ص٢١٤.

ثالث عشر: عبد الرحمن الكواكبي(١): ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- يُعد من المُعجبين بالفكر والحضارة الغربية إلى حدٍّ كبيرٍ، ويظهر ذلك من خلال كتاباته، حيث يقول:" يا قومي أدعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأُجلُّكم من ألا تهتدوا لوسائل الاتحاد، وأنتم المتنوِّرون السابقون، فهذه أمم أوروبا وأميركا قد هداها العلم لطرائق الاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري ...، دعونا نُدبِّر حياتنا الدنيا، ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلماتٍ سواء، ألا وهي: فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طُلقاء أعزاء"(٢)، ويظهر من كلامه الافتتان بالغرب، ثمَّ هو يريد أن نجتمع على كلمةٍ سواء، وهذا أمرٌ جميلٌ؛ ولكن ما هي هذه الكلمة التي يجب أن نجتمع عليها؟، هل هي: فليحيا الوطن، فلنحيا طُلقاء أعزاء؟، هل هذا ما أراده الله منَّا؟، أم أراد الله ﷻ أن نجتمع على كلمةٍ سواء تجمع ولا تفرق، وفق القاعدة التي وضعها الله ﷻ بقوله:﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ** ﴾[آل عمران:٦٤].

٢- له آراءٌ لم تَخْلُ من إشاراتٍ مُريبةٍ تُشير إلى موالاة الدول الأوربية المستعمرة، ومن ذلك قوله: "وفتح أبواب حسن الطاعة للحكومات العادلة،- يقصد الغرب- والاستفادة من إرشاداتها، وإن كانت غير مسلمةٍ، وسدُّ أبواب الانقياد المطلق ولو لمثل عمر بن الخطاب"(٣).

٣- دافع عن الحرية، والعدالة والمساواة، من منظورٍ منفتح على التجربة الغربية، ولا شكَّ أنَّ هذه الأفكار تُشكِّل جذراً أساسياً في دعم الفكر التَّحرُّري العلماني(٤).

---

(١) عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي، ويلقَّب بالسيد الفراتي، رحالة، من الكتاب الأدباء، ومن رجال الإصلاح الإسلامي، ولد في حلب سنة ١٨٤٩م، وأنشأ فيها جريدة الشهباء، فأقفلتها الحكومة، وجريدة الاعتدال فعطلت، وأسندت إليه مناصب عديدة، ثم رحل إلى مصر، واستقر في القاهرة إلى أن توفي بها ١٩٠٢م، له من الكتب: أمّ القرى، وطبائع الاستبداد. انظر: الأعلام، للزركلي(٣/٢٩٨).

(٢) طبائع الاستبداد، للكواكبي، ص١١٢-١١٣، وانظر: المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، لغالب عواجي(٢/٩٥٨).

(٣) أزمة العصر، لمحمد حسين، ص١٨-٢٠، والولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، لمحمد القحطاني(١/٣٩٣).

(٤) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، د. عبد الرحيم بن صمايل السلمي، ص ٤١٢، ولمزيد من المعلومات عن الكواكبي وفكره يمكن مراجعة، المقدمة التي كتبها محمد جمال الطحان في مقدمة الأعمال الكاملة للكواكبي، ص٣٧-٩٤.

رابع عشر: محمد دروزة[1]: ومن المآخذ عليه أنَّه يردُّ ويُؤول كثيراً من الأحاديث الصحيحة، ولو كانت هذه الأحاديث في صحيحي البخاري ومسلم، فقد أنكر أحاديث الإسراء والمعراج، وحديث سحر النَّبي ﷺ، وحديث انشقاق القمر، والأحاديث المُتعلقة بالجنِّ، وكلُّ ذلك بحُجة مستندٍ ظنِّيٍّ قائمٍ في نفسه سمَّاه السياق العام للآيات[2].

قلتُ: وهل يسمح السياق العام للآيات بنفي ما صحَّ في السنة؟!، لا وألف لا؛ فالأدلة متوافقةٌ متعاضدة، إنَّ المشكلة ليست في السياق العام للآيات؛ بل هو الفهم الخاطئ للنصوص، والجهل والهوى، ومحاولة إرضاء الغرب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

خامس عشر: قاسم أمين: وهو تلميذ محمد عبده، ومن المآخذ عليه أنَّه يُعد من أشهر دعاة السُّفور ونزع المرأة للحجاب، وقد قاد الدعوة إلى تحرير المرأة وتمكينها من العمل في الوظائف والأعمال العامة، وقد كتب كتاب تحرير المرأة ١٨٩٩م، وكتاب المرأة الجديدة ١٩٠٠م، حيث دعا فيهما دعوةً صريحةً إلى السُّفور، ونزع الحجاب، والتشبه بالمرأة الأوربية، فقد كان معجباً شديد الاعجاب بهذه الحضارة، ومولعاً بها، داعياً إليها، مهما كان الثمن[3]، حيث يقول: "هذا هو الداء الذي يلزم أن نُبادر الى علاجه، وليس له دواءٌ إلا أنَّنا نُربي أولادنا على أن يتعرفوا على شؤون المدنية الغربية، ويقفوا على أصولها وفروعها وآثارها، وإذا أتى ذلك الحين، ونرجو أن لا يكون بعيداً، انجلت الحقيقة أمام أعيننا ساطعةً كسطوع الشمس، وعرفنا قيمة التَّمدن الغربي، وتيقنَّا أنَّه من المستحيل أن يتمَّ إصلاح ما في أحوالنا إذا لم يكن مؤسَّسَاً على العلوم العصرية الحديثة،... وهذا الذي جعلنا نضرب الامثال بالأوروبيين، ونُشيد بتقليدهم، وحملنا على أن نلفت الأنظار إلى المرأة الأوروبية"[4].

(١) محمد عزة دروزة، ولد في مدينة نابلس في فلسطين سنة ١٨٨٨م، ثمَّ هاجر إلى سوريا، وهو متأثِّر كثيراً بمحمد رشيد رضا خصوصاً، وبالمنهج العقلي عموماً، وتوفي ١٩٨٤م. انظر: محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، لفريد سليمان، ص١٢.

(٢) انظر: محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، لفريد سليمان، ص٣٣، ٦٠، ١٠٣، ١٠٨، ١٥٠، ١٦٣، ٢١٣، ٢١٨.

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٢/٧٠٠)، والمعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، ص١٢٩.

(٤) نقلاً عن كتاب العلمانية، لسفر الحوالي(١/٦٢٩).

سادس عشر: مصطفى محمود[١]: ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- يُعد من أكثر الكُتَّاب العقلانيين جُرأةً على الله ﷻ، وخوضاً في أسمائه وصفاته، وذلك لنزعته الصُّوفية الكلامية المُتطرِّفة، وجهله بالكتاب والسنة وأدلتِهما[٢]، حيث يقول عن الله ﷻ:" إنَّه مُنزَّهٌ عن الزمان والمكان، فهو لا يتحرك ولا ينتقل؛ وإنَّما هو ساكنٌ سكوناً مطلقاً"[٣].

ويقول أيضاً:" إنَّ الله تعالى هو السميع بذاته، هو البصير بدون بصر، وبدون عين، وبدون أعصاب بصرية، هو البصير بذاته"[٤]، وهذا نصُّ مذهب المعتزلة.

وقال عن الله ﷻ: "هو المتكلم بذاته، يُلقي إلينا بالمعاني؛ فنسمعها على أيِّ لغةٍ يشاء"[٥]، وهذا مذهبٌ فلسفيٌ صوفيٌّ.

ويقول أيضاً: "اللطيف: هو الذي ليس له جسمٌ أو ثقلٌ أو كثافةٌ تُعوِّقه، ومن ثمَّ فهو يتخلَّل كلَّ شيءٍ في حضورٍ كاملٍ مع كلِّ شيء"[٦]، وهذا من كلام الصوفية الذين يقولون بعقيدة الحلول، ووحدة الوجود.

إنَّ هذه الأسماء والصفات التي أطلقها مصطفى محمود على الله ﷻ فيها خوضٌ وإلحادٌ في أسماء الله ﷻ، وقولٌ على الله بغير علم، وسوء أدبٍ مع الله ﷻ؛ لأنَّ هذه الأسماء والصفات التي ذكرها لم تَرد عن الله ﷻ في كتابه، ولا في سنة نبيه ﷺ، كما أنَّها لا تليق بالله ﷻ؛ لأنَّها أسماءٌ وصفاتٌ مبنيَّةٌ على تصوراتٍ وثنيةٍ[٧].

---

(١) مصطفى كمال محمود حسين، مفكر وطبيب وكاتب وأديب مصري، ولد عام ١٩٢١م، وتلقَّى تعليمه في مدينة طنطا، ثم التحق بكلية الطب بجامعة القاهرة، وتخرج منها ١٩٥٣، اتجه مصطفى محمود إلى الكتابة في الكتب العلمية والدينية والفلسفية والاجتماعية والسياسية، إضافة إلى الحكايات والمسرحيات وقصص الرحلات، وفى السبعينيات اتجه إلي تفسير القرآن الكريم، تزوج مرتين وانتهت بالطلاق مرتين، أنشأ مسجداً ومركزاً طبياً يحملان اسمه، كانت له آراء عقلانية في القرآن والسنة والغيب والمعجزات، وتوفي ٢٠٠٩م. انظر: التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءات المعاصرين، لإبراهيم طه، ص٤٣.

(٢) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١٤٥.

(٣) الله، لمصطفى محمود، ص٩.

(٤) المرجع السابق، ص١٢.

(٥) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٦) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٧) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١٤٦-١٤٧.

٢- أتى بقولٍ وبدعةٍ لم يقل بها أحدٌ من قبله من الفِرق، حيث يُنكر الشفاعة[١] بالكليَّة لأيِّ أحدٍ من البشر، حتى ولو كان رسول الله ﷺ، وهذا ما لم يقلْ به أحدٌ من قبله؛ حتى المعتزلة[٢]، حيث أنكرت المعتزلة الشفاعة لأصحاب الكبائر[٣]، وخروج قومٍ من النار بعد أن يدخلوها، وهذا كان موطن الخلاف مع أهل السنة والجماعة الذين قالوا أنَّ عُصاة المُوحِّدين الذين ماتوا على التوحيد، وهم من أهل الكبائر، سوف تشملهم الشفاعة، وهم في مشيئة الله إن شاء عذبهم بعدله، وإن شاء عفا عنهم برحمته[٤]، أمَّا ما يقوله مصطفى محمود فهو انكار الشفاعة بالكليَّة لأيِّ أحدٍ من الأمة، وانكار الأحاديث الصحيحة الواردة فيها، فيقول:" المسلم الذي بلغ درجة التقوى في إسلامه، ينبغي أن يأخذ أحاديث الشفاعة بمنتهى الحذر، ويرفض أكثرها بلا تردُّد،.... ولهذا كان موضوع الشفاعة مُحبَّباً للشيطان؛ لاستدراج الإنسان إلى الشرك، .... والشفاعة فيها فتنةٌ؛ لأنَّها تُزيِّن للعبد مصلحةً، ومن هنا يحلو للشيطان أن يستدرجنا من خلالها لنفعل ما نشاء من موبقاتٍ وخطايا، ولا نشغل أنفسنا بتوبة، فصاحب المقام المحمود سوف يُخرجنا في النهاية من النار بإشارةٍ من يده، ولم يَسلم رواة الأحاديث من هذا المُنزلق، فهم بشرٌ، فيهم ضعف البشر، وليسوا ملائكةً، ومن هنا جاءت المشكلة"[٥].

ويقول أيضاً:" وما حفزني على الكتابة في موضوع الشفاعة إلا حديث رسولنا العظيم الذي قال فيه: (من يترك العمل ويتكل على الشفاعة يورد نفسه المهالك ويُحرم من رحمة الله) [٦]، هو حافزي الأول والأخير ونحن أمة المتواكلين"[٧].

قلتُ: عجباً لهؤلاء العقلانيين، كلَّما قرأتُ لأحدهم، وجدته يأتي بفظائع مُشينةٍ، يفوق بها غيره، وذلك أنَّ هذا الحديث الذي ذكره مصطفى محمود، والذي كان دافعه الأول والأخير لأن يكتب في

---

(١) الشفاعة هي توسل رسول الله ﷺ وسجوده بين يدي ربه، وتضرعه إليه، ليخفف عن الناس في الآخرة موقفهم، ويعجل لهم فصل القضاء وحسابهم في حشرهم، ثم تضرعه إلى الله لينقذ العصاة من أمته، بأن يسامحهم، ويخرجهم من النار بعد أن دخلوها بذنوبهم، وأن يرفع درجات بعض المؤمنين من أمته في الجنة، إظهاراً لمقامه عند ربه. انظر: الشفاعة في القرآن والسنة وعقيدة المسلمين، لفاروق حمادة، ص١٦.

(٢) شفاعة صاحب الحوض المورود والرد على شبهات مصطفى محمود، لمصطفى الذهبي، ص٤٥-٤٦، وانظر: الشناعة على من رد أحاديث الشفاعة، لعبد الكريم الحميد، ص٢٤.

(٣) الكبيرة هي ما توعد عليه الشارع في الكتاب أو السنة، كما قال ابن عباس:"الكبيرة كلُّ ذنبٍ ختمه الله ورسوله بنارٍ أو غضب أو لعن أو عذاب"، كالقتل والزنا واللواط وشرب الخمر والسرقة وشهادة الزور وقطيعة الرحم وأكل الربا وغيرها. انظر: التقرير والتحبير شرح التحرير في علم الأصول، لابن أمير حاج(٢/٢٤٢-٢٤٤).

(٤) انظر: الشفاعة حوار علمي استدلالي بين د. يوسف القرضاوي ود. مصطفى محمود، لمحمد شيخاني، ص٦-٨، وانظر: الشفاعة في الآخرة بين النقل والعقل، ليوسف القرضاوي، ص٨-١٢.

(٥) الشفاعة محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين، لمصطفى محمود، ص١١٤-١١٧.

(٦) هذا حديثٌ موضوعٌ لا أصل له.

(٧) الشفاعة محاولة لفهم الخلاف القديم بين المؤيدين والمعارضين، لمصطفى محمود، ص٧٧.

موضوع الشفاعة، لا أصل له إطلاقاً، لا في الصحيح ولا في الضعيف ولا حتى في الموضوع، والعجب أنَّه يردُّ بهذا الكذب المُصطنع الأحاديث الصحيحة التي تُثبت شفاعة النبي ﷺ في الآخرة[١].

٣- يزعم أنَّ الدجال المذكور في الأحاديث ليس شخصيةً حقيقةً؛ وإنَّما المقصود به الحضارة الغربية، حيث يقول: "تروي لنا الأديان حكاية رجلٍ يظهر في آخر الزمان، يأتي من الخوارق والمعجزات بما يفتن الناس من كافة أرجاء الأرض؛ فيسيرون خلفه وقد اعتقدوا أنَّه إلهٌ، وتصفه الروايات بأنَّه أعور، وأنَّه يملك من القوة الخارقة ما يجعله يرى بهذه العين الواحدة ما يجري في أقصى الأرض، كما يُسقط الأمطار، ويُنبت الزرع، ويكشف عن الكنوز المخبوءة، ويُحيي الموتى، ويُميت الأحياء، ذلك هو المسيح الدجال، إحدى علامات الساعة التي نقرأ عنها في كُتب الدين، والمسيح الدجال قد ظهر بالفعل، وهو التقدم المادي والقوة المادية والترف المادي، معبودات هذا الزمان، مدنيَّة العصر الذريِّ العوراء العرجاء التي تتقدم في اتجاهٍ واحد، وهو الاتجاه المادي، بينما تفتقد العين الثانية وهي الروح التي تُبصر البعد الروحي للحياة، وقد استطاع هذا المسخ فعلاً عن طريق العلم أن يسمع ما يدور في أقصى الأرض باللاسلكي، ويرى ما يجري في آخر الدنيا بالتلفزيون، وهو الآن يُسقط المطر بوسائل صناعيةٍ، ويزرع الصحاري، ويشفي المرضى، وينقل قلوب الأموات إلى قلوب الأحياء..."[٢].

٤- ألَّف كتاباً سمَّاه "القرآن: محاولةٌ لفهم عصري"، وكتابه هذا مليءٌ بالأمثلة على انحرافه في التفسير، فهو مثالٌ للتفسير المُنحرف للمُفسِّر القاصر، وقد لاقي أهل العلم هذا الكتاب بالرفض والرد، وخصُّوا كتباً في الردَّ عليه مثل: كتاب شطحات مصطفى محمود في تفسيراته العصرية للقرآن الكريم، للأستاذ عبد المتعال محمد الجبري، وكتاب ردٌّ على محاولة الفهم العصري للقرآن، للأستاذ مصطفى إسماعيل الرج؛ بل ورفض أهل العلم هذا التفسير من مصطفى محمود؛ لعدم تخصُّص المؤلف، وعدم توفر شروط المُفسِّر فيه، وعندها اعترض العقلانيون وقالوا: إنَّ الإسلام ليس حكراً على أحد، وكلامهم صحيحٌ، الإسلام ليس حكراً على أحد؛ ولكنَّ تفسير نصوصه ليس مُباحاً لكلِّ أحد، كالدواء تماماً، العلاج به ليس حكراً على أحد؛ ولكن وصفه وتركيبه ليس مباحاً لكلِّ أحد[٣]؛ فتفسير القرآن له ضوابط يجب أن يلتزم بها المُفسِّر، وإلا تنكَّب الطريق، وضلَّ وأضل.

٤- خاض في مسألة خلق آدم وحواء، وهو أمرٌ لا شكَّ أنَّه غيبيٌّ، لا سبيل إلى إدراكه ومعرفته إلا عن طريق الوحي، وقد بسط القرآن الكريم الحديث عن ذلك في آياتٍ شتَّى، وعلينا أن نُؤمن بها، ولا نصرفها بما لا تحتمله ألفاظها، حتى تُوافق نظريةً علميةً قد يبدو خطؤها بعد سنين، وقد بدأ مصطفى

---

(١) انظر: الرد على مصطفى محمود في إنكار الشفاعة، لعبد المهدي عبد الهادي، ص٥١ واكتساب المناعة في إثبات الشفاعة، لأمير شيشي، ص٥٨-٥٩.

(٢) رحلتي من الشك إلى الإيمان، لمصطفى محمود، ص١٠٤-١٠٥.

(٣) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي(١١٢١/٣).

محمود حديثه عن هذه القضية بذكر قصة داروين، وطوافه حول العالم، وجمعه العينات من البرِّ والبحر، وملاحظاته وتأملاته، ثمَّ ذكر بعضاً من ملاحظات داروين أعقبها بتساؤل:"هل الحكاية أنَّ الحيوانات أصلها واحدٌ، ثمَّ تطوَّر هذا الأصل وتباين واختلف إلى هذه الفصائل المُتباينة؛ بسبب تباين الظروف والبيئات، والحيوانات التي دبَّت على الأرض طوَّرت لنفسها أرجلا، والتي نزلت إلى البحر تحوَّرت فيها الأرجل إلى زعانف، والتي طارت في الجو تحوَّرت فيها الأطراف إلى أجنحةٍ، إذا كان هذا الاستنتاج صحيحاً؛ فلا بدَّ أن يُكشف لنا تشابه في بنية الجميع... إلى أن قال: لم يبقَ إلَّا أن يكتب داروين نظريته في أصل الأنواع؛ بل إنَّ النظرية لتكتب نفسها، فتقول إنَّ الأنواع انحدرت كلَّها من أصلٍ واحدٍ تباين واختلف إلى شجرة من الفصائل والأنواع نتيجة تبايُن الظُّروف والبيئات"[(١)].

والملاحظ أنَّه لا يُنكر هذه النظرية الباطلة التي تنفي خلق الله ﷻ لكلِّ الكائنات، وأنَّه سبحانه خلق الزوجين الذكر والأنثى، وأنَّه سبحانه خلق كلَّ الدوابِّ على الأرض، كما قال ﷻ:﴿ **وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ** ﴾[لقمان:١٠]، ولم تتطور وتترقَّى كما يقول داروين المُلحد، وقد عجز مصطفى محمود في كلامه السابق أن يجد كلمةً صريحةً، أو عبارةً واضحةً، أو دلالةً بينةً على ما ذهب إليه؛ فلم يجد بُداً من أن يحمل ما فهمه على الإشارة، والرمز، والمجاز، والاستعارة، واللمحة الخاطفة[(٢)]؛ ولكنَّه في موضعٍ آخر يُصرِّح بتبني هذه النظرية فيقول:" خَلْقُ الإنسان تمَّ على مراحل زمنيةٍ، والزمن بالمعنى الإلهي طويلٌ جداً، معنى هذا أن آدم جاء عبر مراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين، وقد كانت هناك قبل آدم صورٌ وصنوفٌ من الخلائق جاء هو ذُرْوةً لها، ويقول القرآن عن الله أنه هو: ﴿ **الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى** ﴾، أي: أنَّه هدى مسيرة التطور، حتى بلغت ذروتها في آدم، وقوله ﷻ: ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ** ﴾، إشارةٌ صريحةٌ بأن الإنسان لم يُخلق من الطين ابتداءً؛ وإنَّما خُلق من سلالاتٍ جاءت من الطِّين، هناك مرحلةٌ متوسطةٌ بين الإنسان والطين هي سلالاتٌ عديدةٌ مُتلاحقةٌ كانت تمهيداً لظهور نوع الإنسان المتفوِّق"[(٣)].

وهذا الذي يقول به مصطفى محمود فيه مخالفةٌ لصريح القرآن الكريم، حيث يقول ﷻ: ﴿ **الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ**

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصري، لمصطفى محمود، ص٤٩-٥٢.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٥٥.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٥٨-٥٩.

مَهِينٍ﴾[السجدة:٧-٨]، وهذه آيةٌ صريحةٌ في أنَّ خلق الإنسان بدأ من الطين؛ إذًا فلا يصحُّ للدكتور مصطفى ولا لغيره أن يزعم أنَّ الإنسان لم يخلق من الطين ابتداءً[١].

٥- لا يُؤمن بكلِّ ما جاء في الغيب في القرآن، ولا يُسلِّم به، فلقد عدَّ من أسباب انصرافه عن القرآن في شبابه ما قرأ عن أنهار العسل وأنهار الخمر في الجنة، وهو لا يحبُّ العسل ولا يحبُّ الخمر، وعدَّ هذا سذاجة![٢]، ويبدو أنَّه وإن غيَّر هذه النظرة، إلا أنَّه ما زال مُتأثراً بها أشدَّ التأثر، ومن ذلك أنَّه يقول:" الله لا يعذِّب للعذاب؛ وإنَّما يأتي العذاب واحتراق الصدر من إحساس مَنْ هم في أسافل الدرجات بالغيرة والحسد والهوان والخسران الأبدي الذي لا مخرج منه، وسوف يحرق هذا الإحساس الصدور كما تحرقها النار وأكثر، وسوف يكون هو النَّكال والتنكيل، ينكُل الواحد منَّا بنفسه بالدرجة التي وضع نفسه فيها، والتي انحدر إليها بأعماله في الدنيا"[٣]، وهو بهذا الكلام ينكر ما جاء في صريح القرآن من أن الكفار يُعذبون في النار بعذاب الحرق الذي يذيب أجسادهم، كما قال ﷻ:﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:٥٦] .

٦- يُشيد ويُثني كثيراً على الصوفية؛ فيصفهم بأنَّهم أهل الحضرة، وأنَّ علمهم لَدُنِّي، من لدن الله، وليسوا كالفقهاء علمهم نقليٌّ من الكتب، وأنَّهم أهل السرِّ والقرب والشهود، وأنَّهم الأولياء الصالحون حقاً، وأنَّهم الأتقياء الأخفياء[٤].

إنَّ الحقيقة أنَّه "لا توجد لهذا الرجل قاعدةٌ ينطلق منها؛ فبينما هو في أقصى الشرق، لا يلبث أن تراه في أقصى الغرب، تراه أمامك مُسلِّماً في أمرٍ، فإذا بك تراه رافضاً له بعد صفحاتٍ، ثمَّ بعد ذلك تجده مُتردداً حائراً يستدلُّ بالآيات في غير مدلولها، ويبتر الآية بتراً عن سياقها، ويغلب على تفسيره العبارات العصرية مع عدم تأدُّبه مع مقام الألوهية ومقام الأنبياء"[٥]، حيث يقول في ردِّه على من ادَّعى النبوة:" إنَّها اختلافات النَّبي الذي أراد أن يدخل مُنتدى الأنبياء بلا مؤهلات، ويتسلل إلى مائدة الخالدين دون أن يُمتحن، فأنكر المعجزة والغيب حتى لا يُطالبه أحدٌ بأوراق اعتماده في السفارة الإلهية التي ادَّعاها"[٦]، وله عباراتٌ ممجوجةٌ حشا بها كتابه، ومنها قوله: "أمَّا الذي يقول: يا ربِّ ارزقني مائة

---

(١) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي(١١٢٧/٣).

(٢) انظر: القرآن محاولة لفهم عصري، لمصطفى محمود، ص٨١.

(٣) المرجع السابق، ص٨٧-٨٨.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٣٨-١٤١.

(٥) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي(١١٣٤/٣)،(١١٣٧/٣).

(٦) القرآن محاولة لفهم عصري، لمصطفى محمود، ص١٥٥.

جنيه فهو رجلٌ يمزح مزاحاً سخيفاً؛ فهذه أمور يمكن أن يسعى إليها بأسبابها الدنيوية المعروفة وليس طريقها التصوف؟!، وكشك سجاير على ناصية عماد الدين يحُلُّ المشكلة"[١].

وقد أنصفه الدكتور فهد الرومي عندما قال:" ونحن لا نُنكر أنَّ الدكتور مصطفى محمود حريصٌ على صوغ المفاهيم الإسلامية في عباراتٍ ومعانٍ حديثةٍ، تقرب إلى الأذهان؛ لكنَّ هذا الهدف لا يُبرِّر له خوضَ غمار التفسير من غير سلاحٍ، تماماً كالشخص الجاهل في الطبِّ الذي ترتعد جوانبه إشفاقاً وعطفاً على المريض، فيصف له دواءً هو أجهل الناس به؛ فليست شفقته ونصحه بمبررٍ كافٍ لوصف الدواء والعلاج"[٢]، "وإنَّي أوجِّه له ولأمثاله النُّصح من قلبٍ خالصٍ صادقٍ أن يدع تفسير القرآن الكريم لأهله، وأن يتناول إذا أراد المشاركة ما قرَّره أولئك الأعلام في التفسير بالشرح والبسط، وبأسلوبه الخاص في مخاطبة الطبقة العامة"[٣].

سابع عشر: محمد الغزالي[٤]: إنَّ الشيخ محمد الغزالي يُعدُّ رمزاً كبيراً من رموز الدعوة بمصر، وله جهودٌ طيبةٌ لا تُنكر في الردِّ على العلمانيين والمستشرقين، ويُشكر الشيخ على هذا الجهد العظيم، إلَّا أنَّ الشيخ متأثرٌ بالمنهج العقلاني، وله آراءٌ عقلانيةٌ في التعامل مع بعض النصوص، ونحن وإن كنَّا نُحبه، إلَّا أنَّ الحقَّ أحبُّ إلينا منه[٥].

ولقد ظهرت أكثر الآراء العقلانية للشيخ الغزالي في كتابه المُسمَّى "السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث"، ومن هذه الآراء ما يلي:

١- **يُطالب بمحاكمة الصّحاح إلى نصوص القرآن، فإن وافقتها وإلا رُدَّت**[٦]، قلتُ: عجباً من هذا الضابط!، أليست السنة تُشرِّع كما يُشرِّع القرآن؟، ألم تُبيِّن السنة مجمل القرآن، وتُخصص عامَّه، وتُقيِّد مُطلقه؟؛ بل ألم تأتِ السنَّة بأحكامٍ جديدةٍ لم تُذكر في القرآن؟.

---

(١) القرآن محاولة لفهم عصري، لمصطفى محمود، ص١٣٨.

(٢) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي(١١٤١/٣).

(٣) المرجع السابق(١١٤٣/٣).

(٤) مفكر إسلامي، من دعاة مصر وعلماء الأزهر المعروفين، ومن كبار رجال الإصلاح، ولد بمحافظة البحيرة بمصر١٩١٧م، التحق بمعهد الإسكندرية الديني الابتدائي، وظل به حتى حصل على الثانوية الأزهرية، ثم انتقل إلى القاهرة، والتحق بكلية أصول الدين وتخرج منها، ثم تخصص في الدعوة، وحصل على درجة "العالمية" سنة ١٩٤٣م، وكان داعية في مصر، واعتقل أكثر من مرة، ثم سافر إلى السعودية والجزائر، ثم رجع إلى مصر في آخر حياته،، وله كتابات كثيرة، وجهود لا تنكر في الدفاع عن الإسلام ضد النصرانية والعلمانية وغيرها، من مؤلفاته: فقه السيرة والسنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، وقضايا المرأة المسلمة، وتوفي ١٩٩٦م، انظر: الوفيات والأحداث، لأعضاء موقع ملتقى أهل الحديث(٢٠١٥/١)، والمعجم الجامع في تراجم المعاصرين، لأعضاء موقع ملتقى أهل الحديث(٢٨٤/١).

(٥) انظر: رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية، للعفاني، ص٢٣٦.

(٦) انظر: السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، لمحمد الغزالي، ص١٧.

لقد ردَّ ابن القيم– رحمه الله– بكلامٍ بديعٍ على من قال بهذه الشبهة، فقال: "والسنَّة مع القرآن على ثلاثة أوجهٍ، أحدها: أن تكون موافقةً له من كلِّ وجهٍ؛ فيكون توارد القرآن والسنة على الحُكم الواحد من باب توارد الأدلة وتظافرها، والثاني: أن تكون بياناً لما أُريد بالقرآن وتفسيراً له، والثالث: أن تكون موجِبةً لحُكمٍ سكت القرآن عن إيجابه، أو مُحرِّمةً لما سكت عن تحريمه، ولا تخرج عن هذه الأقسام، فلا تُعارض القرآن بوجهٍ ما، فما كان منها زائداً على القرآن فهو تشريعٌ مبتدأٌ من النبي ﷺ، تجب طاعته فيه، ولا تحلُّ معصيته، وليس هذا تقديماً لها على كتاب الله؛ بل امتثالٌ لما أمر الله به من طاعة رسوله، ولو كان رسول الله ﷺ لا يُطاع في هذا القسم؛ لم يكن لطاعته معنى، وسقطت طاعته المُختصَّة به،... فلو ساغ لنا ردُّ كلِّ سنةٍ زائدةٍ على نصِّ القرآن لبطلت سُنن رسول الله ﷺ كلُّها، إلَّا سنةً دلَّ عليها القرآن، وهذا هو الذي أخبر النبي ﷺ بأنَّه سيقع، ولا بد من وقوع خبره"[١].

٢- **موقفه من نصوص القدر:** يظهر تأثُّر الغزالي بالنزعة العقلية من خلال تعامله مع نصوص القدر، حيث يُؤوِّلها إلى الاختيار المطلق كما تقول المعتزلة، فيقول:" فنحن بجهدنا وكدحنا ننجو أو نهلك، والقول بأنَّ كتاباً سبق بذلك، وأنَّه لا حيلة لنا بإزاء ما كُتب أزلاً، هذا كله تضليلٌ وإفك"[٢].

ويقول عن الأحاديث التي تتعارض مع هذا المذهب: "المُشكلة تكمن فى أحاديث صحيحة السند، غير أنَّ مُتونَها تُوقفنا أمامها واجمين!؛ لنبحث عن تأويلٍ لها أو مخرجٍ"[٣]، ثمَّ يقول بعد ذكرها:" وأمامنا أمران لا ثالث لهما، إمَّا صرف هذه الظواهر إلى تأويلٍ قريبٍ مقبولٍ، وإمَّا اعتبارها آثاراً بها عِلةٌ قادحةٌ تُسقطها من درجة الصِّحة، وإيرادها فى مجال التربية والتعليم لا يجوز!"[٤]، ثم يقول: "وقد نقدتُّ مروياتٍ جاءت فى الصحاح رأيتُها تمسُّ الصميم من ديننا!، وتفتح ثغراتٍ مُخوِّفةٍ، ينفذ منها عدونا"[٥].

٣- **ومن المآخذ الكبيرة على الغزالي أنَّه يرد بعض الروايات الصحيحة، حتى ولو كانت في صحيحي البخاري ومسلم:** وذلك بحجة أنَّها لا تتوافق مع المنهج العقلاني، ومن ذلك نفيه صفة الساق عن الله ﷻ، والتي يُثبتها أهل السنَّة من غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ ولا تعطيلٍ ولا تأويلٍ، بما يليق بجلال الله وعظمته، ويردُّ الغزالي حديث البخاري في ذلك، الذي يرويه أبو سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ، فيقول:(**يكشف ربُّنا عن ساقه، فيسجد له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ، فيبقى كلُّ من كان يسجد في الدنيا رياءً وسمعةً، فيذهب ليسجد، فيعود ظهره طبقاً واحداً**)[٦]، فيقول الغزالي بعد ذكر هذه الرواية:

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(٢/٢٢٠-٢٢١).

(٢) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، لمحمد الغزالي، ص١٤٣.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٦.

(٤) المرجع السابق، ص١٥٨.

(٥) المرجع السابق، ص ١٥٩.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب{يوم يكشف عن ساق}، رقم ٤٩١٩.

"الحديث كلُّه معلولٌ، وإلصاقه بالآية خطأٌ، وبعض المرضى بالتجسيم هو الذى يُشيع هذه المرويات، وإنَّ المسلم الحقَّ ليستحي أن ينسب إلى رسوله هذه الأخبار"(١).

أقول: إنَّ الذي نسب هذه الأخبار إلى النبي ﷺ هم الصحابة الكرام ﷺ، وقد خُرِّجت أقوالهم في أصحِّ الكتب بعد كتاب الله ﷻ بإجماع الأمة، ثمَّ إنَّ البخاري نفسه الذي أورد هذا الحديث، والذي يُشهد له بفقهه في تراجمه، وضع هذا الحديث في كتاب تفسير القرآن، وربطه مع الآية التي يُنكر الغزالي إلصاق الحديث بها؛ بل ويتَّهم الغزالي من يُفسِّر الآية على ما فسَّرها به السَّلف، بأنَّه مريضٌ بالتجسيم، وقد قرر ابن القيم– رحمه الله– أنَّ صفة الساق ثابتةٌ لله ﷻ بنصِّ الكتاب والسنة، أمَّا الآية فهي قوله ﷻ:﴿**يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ**﴾[القلم:٤٢]، وأمَّا السُّنَّة فحديث أبي سعيدٍ المُخرَّج في الصحيحين وغيرهما(٢).

وقال الشوكاني– رحمه الله– في تمام بحثه عند هذه الآية:"وقد أغنانا الله ﷻ في تفسير هذه الآية بما صحَّ عن رسول الله ﷺ كما عرفت، وذلك لا يستلزم تجسيماً ولا تشبيهاً، فليس كمثله شيء"(٣).

ويتعجب القارئ من ردِّ الغزالي للأحاديث الصحيحة، ومن ردِّه على من خالف رأيه، ولو كان من السابقين، كما عقَّب على كلامٍ لابن خزيمة والقاضي عياض– رحمهما الله–، وغيرهما، في مقالهم السديد في شرح حديث موسى– عليه السلام– مع ملك الموت، وهو قول النبي ﷺ:(**أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكَّه ففقأ عينه، فرجع إلى ربه فقال: أرسلتني إلى عبدٍ لا يريد الموت، قال فردَّ الله إليه عينه وقال: ارجع إليه، فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بما غطَّت يده بكلِّ شعرة سَنةٌ، قال: أي ربِّ ثم مه؟، قال: ثمَّ الموت، قال: فالآن، فسأل الله أن يُدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، فقال رسول الله ﷺ: فلو كنتُ ثَمَّ، لأريتكم قبره إلى جانب الطريق، تحت الكثيب الأحمر**)(٤)، فقال الغزالي: "نقول نحن!! هذا الدفاع كلُّه خفيف الوزن، وهو دفاعٌ تافهٌ لا يُساغ، والحقُّ أنَّ الحديث فى متنه عِلةٌ قادحةٌ، تنزل به عن مرتبة الصِّحة، ورفضه أو قبوله خلافٌ فكرى"(٥).

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، لمحمد الغزالي، ص١٢٨.

(٢) انظر: مختصر الصواعق المرسلة، لابن القيم(٣٨/١).

(٣) فتح القدير، للشوكاني(٢٧٨/٥).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب: من فضائل موسى عليه السلام، (١٨٤٢/٤)، رقم ٢٣٧٢.

(٥) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، لمحمد الغزالي، ص٢٣.

قلتُ: سبحان الله، هذا الحديث الذي يقول عن رفضه أنَّه خلافٌ فكري مخرَّجٌ في صحيح مسلم، وسنن النَّسائي، ومسند الإمام أحمد، وصحيح ابن حبان، ومستدرك الحاكم، وغيرهم[1]، وهل أصبح ردُّ الأحاديث الصحيحة خلافاً فكرياً، الله المستعان.

٤- عدم احتجاجه بحديث الآحاد في العقائد كما يذهب المتكلمون: فيقول:"الحديث الصحيح له وزنه، والعمل به في فروع الشريعة له مساغٌ وقبول، وتركه لأدلةٍ أقوى منه أمرٌ مُقرَّرٌ مأنوسٌ بين فقهائنا!"[2]، فقوله: العمل به في فروع الشريعة، تنحيةٌ لما صحَّ من السنن والأحاديث عن الاحتجاج بها في العقائد وأصول الدين، وهذه نزعةٌ اعتزاليةٌ معروفةٌ.

٥- يأخذ برأيٍ شاذٍّ في مسألة الغناء والمعازف يُخالف فيه المذاهب الأربعة: فيقول:"التَّطرف في التحريم نزعةٌ غير إسلامية"[3].

والمعلوم في هذه المسألة أنَّ الأئمة الأربعة أفتوا بتحريم المعازف، ولم يُخالف إلا الظاهرية، ومن شذَّ في ذلك، قال القرطبي- رحمه الله-:" أمَّا المزامير والأوتار والكوبة فلا يُختلف في تحريم سماعها، ولم أسمع عن أحدٍ ممَّن يُعتبر قوله من السلف وأئمة الخلف من يبُيح ذلك، وكيف لا يُحرَّم، وهو شعار أهل الخمور والفسوق، ومُهيِّج الشهوات والفساد والمجون، وما كان كذلك لم يُشكَّ في تحريمه، ولا في تفسيق فاعله وتأثيمه"[4].

والغريب أن الغزالي بعد ذلك يتَّهم من قال بالتحريم أنَّهم لم يتَّبعوا الإسلام، وإنَّما نزعوا إلى غيره من تقاليد وأديان، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وليته قال نزعة تشدُّدٍ إسلامية؛ ولكنه عدَّها غير إسلامية أصلاً.

٦- ينحو منحىً عقلانياً عند الحديث عن قضية المرأة: فنجده ربَّما يُخالف في ذلك الإجماع، ويأخذ بما شذَّ من الآراء؛ بحجة إنصاف المرأة، ومساواتها بالرجل، وتقديم صورةٍ حسنةٍ للغرب عن احترام الإسلام للمرأة، ومن ذلك أنَّ الغزالي يصف قول أهل الحديث في مسألة عليها إجماع الأمة- وهي أنَّ دية المرأة على النصف من دية الرجل- بقوله: "وأهل الحديث يجعلون دية المرأة على النِّصف من دية الرجل، وهذه سوأةٌ فكريةٌ وخُلقيةٌ، رفضها الفقهاء المُحقِّقون"[5]، ولا أدري من هم هؤلاء الفقهاء المحققون الذين رفضوا هذا؟.

---

(١) انظر: صحيح مسلم ٢٣٧٢، وسنن النسائي ٢٠٨٩، ومسند أحمد ٧٦٤٦، وابن حبان ٦٢٢٤، ومستدرك الحاكم ٤١٠٧.

(٢) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، لمحمد الغزالي، ص٦٢.

(٣) المرجع السابق، ص٥٤.

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي(٢/٣٣٧).

(٥) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، لمحمد الغزالي، ص١٣.

قال الإمام الشافعي- رحمه الله-:" لم أعلم مُخالفاً من أهل العلم قديماً ولا حديثاً في دية المرأة نصف دية الرجل"(١)، ونقل الإجماع على ذلك وأثبته: ابن المنذر(٢)، وابن حزم، وابن عبد البر، وابن رشد(٣)، والقرطبي، وقد تواتر عند العلماء نقل هذا الإجماع(٤).

وعند حديثه عن خروج النساء للصلاة في المساجد قال:" ولم يجئ في أحد الصحيحين ما يُفيد منع النِّساء من الصلاة في المساجد، فهذه الأحاديث مردودةٌ كلُّها"(٥)؛ ولكن قد جاء في الصحيحين ما يُفيد ذلك، فعن عائشة ﵂ قالت: "لو أنَّ رسول الله ﷺ رأى ما أحدث النساء؛ لمنعهن المسجد كما مُنعت نساء بني إسرائيل"(٦).

ويتبين منهجه العقلي عند الحديث عن تولِّي المرأة الولاية العامة من رئاسةٍ أو وزارةٍ أو إدارةٍ أو قضاءٍ، فيقول في حديث النبي ﷺ الذي يقول فيه:**(لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة)**(٧)، وذلك لمَّا بلغه ﷺ أنَّ فارساً ملَّكوا ابنة كسرى، وهذا حديثٌ صريحٌ كما قال أهل العلم بأنَّه لا تصحُّ إمارة النساء؛ لأنَّ هذا المنصب تُناط به أعمالٌ خطيرةٌ، وأعباءٌ جسيمةٌ، تتنافى مع طبيعة المرأة، وفوق طاقتها، وفي نفس الأمر لا يجوز للمرأة أن تتولى وظيفة القضاء، ولم يولِّ النبي ﷺ ولا أحدٌ من خلفائه ولا من بعدهم امرأةً قضاءً، ولا ولاية بلدٍ، مع وجود العالمات الفقيهات، ولو جاز ذلك لم تخلُ الكتب والمُصنفات من ذكر أخبارهنَّ، وقد قرن النبي ﷺ في الحديث السابق عدم الفلاح للأمَّة بتولي المرأة شؤونها(٨)، ثمَّ بعد ذلك يأتي الغزالي فيتأوَّل الحديث، ويقول أنَّه ليس عاما؛ وإنَّما جاء في حالةٍ خاصةٍ

---

(١) الأم، للشافعي(١١٤/٦).

(٢) محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوريّ، أبو بكر، فقيه مجتهد، من الحفاظ، كان شيخ الحرم بمكة، ولم يكن يتقيد بمذهب؛ بل يدور مع ظهور الدليل، من مصنفاته: المبسوط في الفقه، والأوسط في السنن، والإجماع والاختلاف، والإشراف على مذاهب أهل العلم، واختلاف العلماء، وتفسير القرآن، وتوفي بمكة ٣١٩هـ. انظر: تذكرة الحفاظ، للذهبي(٤/٣)، وطبقات الشافعية، للسبكي(١٢٦/٢)، ولسان الميزان، لابن حجر(٢٧/٥)، والأعلام، للزركلي(٢٩٥/٥).

(٣) محمد بن أحمد ابن رشد، أبو الوليد، قاضي الجماعة بقرطبة، من أعيان المالكية، وهو جدّ ابن رُشْد الفيلسوف، له مصنفات منها: المقدمات الممهدات في الأحكام الشرعية، والبيان والتحصيل، ومختصر شرح معاني الآثار للطحاوي، والفتاوى، واختصار المبسوطة، والمسائل، وتوفي بقرطبة ٥٢٠هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(٣١٦/٥).

(٤) انظر: المغني، لابن قدامة(٤٠٢/٨)، والموسوعة الفقهية الكويتية، لوزارة الأوقاف الكويتية(٢١/٥٩-٦٢).

(٥) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، لمحمد الغزالي، ص٤٩.

(٦) متفق عليه، أخرجه البخاري رقم ٨٦٩، وأخرجه مسلم في كتاب الصلاة، باباب خروج النساء إلى المساجد إذا لم يترتب عليه فتنة، وأنها لا تخرج مطيبة، رقم ٤٤٥، واللفظ له.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، رقم ٧٠٩٩.

(٨) انظر: الأحكام السلطانية، للماوردي، ص٢٧، والأحكام السلطانية، للفراء، ص٣١، وحاشية الدسوقي على الشرح الكبير(١٢٩/٤)،(٢٩٨/٤)، وتحفة المحتاج، لابن حجر الهيتمي(٣١١/٨)، ونهاية المحتاج، للرملي(٢٤٠/٨)، وكشاف القناع، للبهتوني(١٥٩/٦)،(٢٩٤/٦)، ومغني المحتاج، للشربيني(١٣٠/٤)، والبحر الرائق، لابن نجيم(٢٩٩/٦).

في أهل فارس في ذلك الوقت، وقال: "ولو أنَّ الأمر فى فارس شورى، وكانت المرأة الحاكمة تشبه جولدا مائير اليهودية التى حكمت اسرائيل، واستبقت دفة الشئون العسكرية فى أيدى قادتها، لكان هناك تعليقٌ آخر على الأوضاع القائمة"[(١)]، ويعني الغزالي بذلك: أن ابنة كسرى لو كانت مثل جولدا مائير؛ لم يقل رسول الله ﷺ ما قال![(٢)]، ثمَّ اعترض قائلاً بعد سرد قصة بلقيس:"هل خاب قومٌ ولَّوا أمرهم امرأةً من هذا الصنف النفيس!"[(٣)]، ويبرر ما يفعله ويتأوله بقوله:" كلُّ ما أبغى، هو تفسير حديثٍ ورد فى الكتب، ومنع التناقض بين الكتاب وبعض الآثار الواردة، أو التى تُفهم على غير وجهها!، ثمَّ منع التناقض بين الحديث والواقع التاريخى!!، إنَّ إنجلترا بلغت عصرها الذهبى أيام الملكة فيكتوريا، وهى الآن بقيادة ملكة ورئيسة وزراء، وتُعدُّ فى قمَّة الازدهار الاقتصادى، والاستقرار السياسى، فأين الخيبة المتوقعة لمن اختار هؤلاء النسوة؟ ما دخل الذكورة والأنوثة هنا؟"[(٤)].

ثمَّ يختم كلامه في هذه الجزئية بما يبُيِّن ضعفه النفسي أمام الغرب وحال العصر، فيقول عن الأوربيين ومن شابههم:"إذا ارتضوا أن تكون المرأة حاكمةً، أو قاضيةً، أو وزيرةً، أو سفيرةً فلهم ما شاؤوا، ولدينا وجهات نظرٍ فقهيةٍ تُجيز ذلك كله"[(٥)].

ثامن عشر: محمد عمارة[(٦)]: ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- الانتقاص من السلف والسلفية، حيث يقول:" أمَّا سلفيَّة الاتجاه العقلاني المستنير فهي لا تدعو للعودة إلى مجتمع السلف؛ لأنَّها تُدرك استحالة ذلك فضلاً عن خطره وضرره..."[(٧)]، فهو مقتنعٌ أنَّ السير على منهج السلف مستحيلٌ، بل هو ضارٌ أيضاً كما يزعم، ولا غرابة في ذلك فهو يذهب إلى

---

(١) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، لمحمد الغزالي، ص٤٢.

(٢) انظر: رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية، لسيد العفاني، ص٢٤٥.

(٣) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، لمحمد الغزالي، ص٤٣.

(٤) المرجع السابق، ص٤٣-٤٤.

(٥) المرجع السابق، ص٤٥.

(٦) الدكتور محمد عمارة، ولد عام ١٩٣١م بمصر، كان في شبابه يسارياً متطرفاً إبان فترة توهج الفكر الماركسي اليساري في بلاد المسلمين، ثمَّ تحول عنه في بداية السبعينات إلى الفكر العقلاني، وظل ينافح عنه وينظر له بكتاباته وآرائه، حصل على الماجستير عام ١٩٧٠م وكانت رسالته حول "مشكلة الحرية الإنسانية عند المعتزلة"، وحصل على الدكتوراه عام ١٩٧٥م وكانت رسالته حول "نظرية الإمامة وفلسفة الحكم عند المعتزلة"، عمل باحثاً في وزارة الأوقاف، ومستشاراً في الهيئة المصرية العامة للكتاب، مؤلفاته كثيرة، منها: مسلمون ثوار، قاسم أمين وتحرير المرأة، محمد عبده مجدد الإسلام، جمال الدين الأفغاني موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، عبد الرحمن الكواكبي شهيد الحرية ومجدد الإسلام، رفاعة الطهطاوي رائد التنوير في العصر الحديث. انظر: نظرات شرعية في فكر منحرف، لسليمان الخراشي(٥/٢٠).

(٧) تيارات الفكر الإسلامي، لمحمد عمارة، ص٢٨٧.

قول المعتزلة في القدر، ونفي الصفات، والقول بخلق القرآن؛ بل ويُسمِّي أهل السنة مُجبِّرة كما تُسمِّيهم المعتزلة بذلك(١).

٢- يُثني على رجال المعتزلة الأوائل، ثناءً حاراً، ويعتبرهم من أفذاذ رجال الإسلام، وأصحاب الفكر المستنير، ويتباكى عليهم، وعلى أفول نجمهم، فيقول عن غيلان الدمشقي- الذي أتى بأمورٍ مُكفِّرةٍ كثيرةٍ تُخالف اعتقاد المسلمين-:"كانت حياة غيلان نموذجاً فريداً، يُجسِّد الموقف الثوري من سلبيات مُجتمعه، كذلك كان مماته نموذجاً فريداً يُجسِّد سلبيات هذا المجتمع، ويدين هذه السَّلبيات"(٢).

وكأنَّ عمارة بكلامه هذا يدعو إلى ما يُنادي به العقلانيون من حرية الرأي والتعبير حتى ولو كان ذلك تغييراً للثوابت التي أجمعت عليها الأمة.

٣- من أكبر شطحاته أنَّه يزعم أنَّ المسلم هو من أسلم وجهه لله، وإن كان يهودياً أو نصرانياً، ويُقرر ذلك في كتبه، مثل كتابه: التراث والمستقبل، وكتاب: الطريق إلى اليقظة، فيقول:" معنى أن يكون الدِّين كلُّه لله، أن يعبد الجميع الله الواحد، بصرف النظر عن الشرائع التي يسلكونها، وبصرف النظر عن الرسالات السماوية والرسل الذين حملوها إلى أممهم"(٣).

أقول: يحقُّ للمسلم هنا أن يتساءل، هل جهل هؤلاء العقلانيون أنَّ الإسلام نسخ الشرائع السابقة؟، وأنَّ الله ﷻ لا يقبل من العباد بعد بعثة النبي ﷺ غير هذا الدين، وأنَّ اليهود والنصارى كفارٌ بنصِّ القرآن الكريم، وبحُكم الله فيهم لا بحكمنا نحن، ألم يقل الله ﷻ: ﴿**لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾[المائدة:٧٣]، ألم يقل الله ﷻ:﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ البَرِيَّةِ**﴾[البيِّنة:٦]، ألم يقل الله ﷻ:﴿**وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ**﴾[آل عمران:٨٥]، ألم يسمع هؤلاء كلَّ هذه الآيات؟، ألم يبلغهم قول النبي ﷺ كما في صحيح مسلم:**(والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثمَّ يموت ولم يُؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب**

(١) انظر: المعتزلة ومشكلة الحرية، لمحمد عمارة، ص٧٥-٨٩، ونظرة جديدة إلى التراث، لمحمد عمارة، ص٩١.

(٢) مسلمون ثوار، لمحمد عمارة، ص١٤٩.

(٣) انظر: التراث والمستقبل، لمحمد عمارة، ص١٦٤.

النار)[1]؛ ولكنَّه الهوى يُعمي صاحبه ويُصمُّه عن معرفة الحقِّ وقبول الهدى، نسأل الله السلامة والعافية[2].

ويذهب محمد عمارة إلى أبعد من ذلك حين يزعم أنَّ الفكر المستنير "طوى صفحة التاريخ الذي كان يقسم الناس إلى مؤمنين وكافرين؛ ليبسط مكانها صفحة الحضارة الحديثة التي تُميِّز بين الأمم والشعوب على أساس من التحضُّر والبداوة"[3].

قلتُ: يالعجب ألا يعلم هؤلاء أنَّ الذي قسَّم الناس إلى مؤمنٍ وكافر هو الله ﷻ، ولا يحقُّ لأحدٍ كائناً من كان أن يُلغي هذا التقسيم، أو أن يُسمِّى الكافر مؤمناً، أو يُسمِّي المؤمن كافراً، قال ﷻ: ﴿**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ**﴾[التغابن:٢].

تاسع عشر: محمود أبو ريَّة[4]: يُعدُّ محمود أبو ريَّة من أكثر العقلانيين الحاقدين على السُّنة ورواتها وحملتها، وقد ألَّف في ذلك كتابه المظلم الذي سمَّاه "أضواء على السنة المحمدية"، وفي الحقيقة هو ظلماتٌ بعضها فوق بعض، حيث يعتبر هذا الكتاب هو عصارة آراء العقلانيين وأساتذتهم المستشرقين، كما أنَّ العقلانيين أنفسهم يعتبرونه كتابهم، ويُثنون عليه ثناءً عجيباً؛ لأنه جاء موافقاً لأهوائهم[5]؛ بل إن كتابه هذا هذا قد صادف رغبة أعداء الإسلام، حتى أنَّ إحدى السفارات الأجنبية في القاهرة اشترت أكثر نسخ هذا الكتاب، وأرسلتها إلى مكتبات الجامعات الغربية؛ لتكون بين أيدي الحاقدين على الإسلام؛ ليستندوا إليها فيما أوردوه من أكاذيبٍ وأباطيل[6]؛ ولكنّ دين الله غالبٌ، ولو كره الكافرون، كما قال ﷻ: ﴿**يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ**﴾[الصَّف:٨]، ومن أبرز المآخذ علي محمود أبي رية ما يلي:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، (١/١٣٤)، حديث رقم ١٥٣.

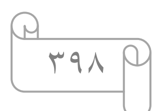
(٢) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٤١٣.

(٣) الإسلام والوحدة الوطنية، لمحمد عمارة، ص٢٣.

(٤) كاتب مصرى كان منتسباً إلى الأزهر فى صدر شبابه، فلما انتقل إلى مرحلة الثانوية الأزهرية أعياه أن ينجح فيها، اكثر من مرة ، فعمل مصححاً للأخطاء المطبعية بجريدة فى بلده، ثم موظفاً فى دائرة البلدية حتى أحيل إلى التقاعد، من مصنفاته التى طعن فيها فى السنة المطهرة كتاب: أضواء على السنة المحمدية، وقصة الحديث المحمدى، وشيخ المضيرة (أبو هريرة). انظر: السنة ومكانتها فى التشريع، لمصطفى السباعى، ص٤٦٦.

(٥) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٦١.

(٦) انظر: السنة ومكانتها في التشريع، لمصطفى السباعي، ص٤٦٧.



١- عداؤه للصحابي الجليل أبي هريرة ﷺ، فيقول مُتهكِّماً به: "وهذا الأمر قد دعانا إلى أن نُفرد ترجمةً خاصةً لمن كان أكثر الصحابة تحديثاً عن رسول الله، وأوسعهم روايةً على حين أنَّه كان من عامة الصحابة، وكان بينهم لا في العير ولا في النفير، ذلكم هو أبو هريرة"[١].

بهذا الأسلوب الساخر يتهكم من صحابيٍّ جليل؛ بل ويفرد له كتاباً كاملاً يُسميه "شيخ المضيرة أبو هريرة"، يُكثر في هذا الكتاب من التهكُّم والسخرية بهذا الصحابي، ويواصل إجرامه قائلاً عن أبي هريرة ﷺ:"إنَّه شخصيةٌ وهميةٌ لم يقف أحدٌ على اسمه، فكان حرياً عدم الثقة في شخصه، والتشكيك في كلِّ ما يُروى على لسانه"[٢].

ومن كثرة ما تهجَّم أبو ريَّة على أبي هريرة ﷺ، اسودَّ وجهه لمَّا مات، وجعل يقول: "ما لي ولأبي هريرة"[٣].

ولا أدري لماذا ضاق العقلانيون بأبي هريرة ﷺ وبما رواه، وقد دعا له رسول الله ﷺ بقوة الحفظ؛ ليكون أحد نقلة الدِّين عنه، حتى قال أبو هريرة بعد دعاء النبي ﷺ: "فما نسيت شيئاً بعده"[٤]، فقد روى أبو هريرة ﷺ جزءاً كبيراً من السنة والأحاديث الصحيحة، ببركة دعاء النبي ﷺ له، وببركة ملازمته للنبي ﷺ، ، وقد شهد له الصحابة ﷺ بهذا الفضل، فهذا عبد الله بن عمر ﷺ يقول:" يا أبا هريرة أنت كنتَ ألزمنا لرسول الله ﷺ، وأحفظنا لحديثه"[٥].

ويكشف بعضُ الكُتَّاب عن السبب في هذا الكمِّ الهائل من حقد أبي ريَّة على السنة عامةً، وذلك أنَّ أبا رية قد فشل في دراسته في الأزهر الشريف أكثر من مرَّة، فتردَّد على بعض الأديرة والكنائس، والتقى فيها بمن أوهمه بأنَّه سوف يكون رجلاً ذا شأنٍ إذا ما سلك هذه الطريق[٦].

٢- يُشكِّك في ثبوت السنَّة بالكليَّة فيقول واصفاً جُهده في تحقيق السنة: "حتى انتهيتُ إلى حقائق عجيبةٍ، ونتائج خطيرةٍ، وذلك أنَّه لا يكاد يوجد في كتب الحديث كلِّها مما سمَّوه صحيحاً أو جعلوه حسناً حديثٌ قد جاء على حقيقة لفظه ومُحكم تركيبه كما نطق به الرسول ﷺ، وتبيَّن لي أنَّ ما يسمُّونه في اصطلاحهم حديثاً صحيحاً؛ إنَّما كانت صحَّته في نظر رواته، لا أنَّه صحيحٌ في ذاته، وأنَّ ما يُقال عنه متفقٌ عليه، ليس المراد أنَّه مُتَّفقٌ على صحَّته، ومن أجل ذلك جاءت الأحاديث وليس عليها ضياء بلاغته صلوات الله عليه إلا نورٌ خافتٌ أو شعاعٌ ضئيل"[٧]؛ ولذلك فهو يُشكِّك في صحَّة أصحِّ

---

(١) أضواء على السنة المحمدية، لمحمود أبو رية، ص١٩٥.

(٢) انظر: شبهات وشطحات منكري السنة، لأحمد عبد الله، ص٣٢.

(٣) رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية، لسيد العفاني، ص٢٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب حفظ العلم، حديث رقم ١١٩.

(٥) أخرجه الترمذي في كتاب المناقب، باب مناقب أبي هريرة ، رقم ٣٨٣٦.

(٦) انظر: شبهات وشطحات منكري السنة، لأحمد عبد الله، ص٣٥.

(٧) أضواء على السنة المحمدية، لمحمود أبو رية، ص٢٠.

كُتب السنة وهو صحيح البخاري، فيقول: "وكان البخاري وهو شيخ رجال الحديث، وكتابه كما هو مشهورٌ بين الجمهور أصحُّ كتابٍ بعد كتاب الله كما يقولون، يروي الأحاديث بالمعنى، وقد كان في ذلك ضررٌ كبيرٌ على الدِّين واللغة والأدب"[١].

فانظر إلى تعبيره كالمشكك في قوله:"كما يقولون"؛ لتعرف ما يقصد بهذه العبارة، ويقول في موضعٍ آخر:" وحتى البخاري على جليل قدره ودقيق بحثه، يبثُّ أحاديث دلَّت الحوادث الزمنية والمشاهدة التجريبية على أنَّها غير صحيحةٍ"[٢]، ثمَّ يستشهد أبو رية لما يزعمه من تلاعب المحدِّثين بالروايات، بحديث التشهد في الصلاة، واختلاف صيغ الصحابة في رواية هذا الحديث[٣]، وكأنَّ أبا رية يزعم أنَّ الصحابة الكرام قد جاؤوا بهذه التشهدات من عند أنفسهم، أو أنَّ كبار المحدثين كالبخاري ومسلم قد تلاعبوا بهذه الصيغ[٤].

والحقيقة أنَّ أحاديث التشهد الصحيحة برواياتها وألفاظها كلُّها ثابتةٌ عن الرسول ﷺ، وكلٌّ منها صحيحٌ تجوز الصلاة به، وليس في هذا ما يستدعي التناقض، لأنَّه ليس هناك ما يمنع عقلاً ولا شرعاً من تعليم النبي ﷺ كلَّ واحدٍ من الصحابة ﷺ صيغةً غير الصيغة التي علَّمها لغيره[٥]، وهذا الذي يذهب له أبو رية مخالفٌ لما اتَّفق عليه المسلمون، وأجمعت عليه الأمة، وإنَّ المسلم ليحزن قلبه عندما يقرأ مثل هذا الكلام، ثمَّ يجد بعد ذلك من يمجد ويحترم هؤلاء من المسلمين.

٣- يُشكِّك في حجيَّة السُّنة عامةً، فيُعلِّق على حديث النبي ﷺ:(**ألا إني أوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه**)[٦]، بقوله: "وهذا الحديث من أغرب ما قذفته الرواية في سَيلها؛ لأنَّ النبي إذا كان قد أوتي مثل الكتاب أو مثل القرآن، فمعنى ذلك أنَّه قد أوتي ذلك ليكون تماماً على القرآن وإكمالاً له لبيان دينه وشريعته، وإذا كان الأمر كذلك فلِمَ لم يُعنَ النبي بكتابة هذا المِثل في حياته عندما تلقَّاه من ربِّه، كما عَنِي بكتابة القرآن"[٧].

٤- ردُّه أحاديث الغيبيات كالأحاديث التي تتحدث عن الدجال وعن نزول عيسى ابن مريم آخر الزمان، وقال إنَّها من وضع تميمٍ الداري ﷺ، وأنَّه جاء بها من مسيحياته قبل أن يُسلم[٨]، وكذلك ردَّ

---

(١) أضواء على السنة المحمدية، لمحمود أبو رية،، ص٢١.

(٢) المرجع السابق، ص١٧.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٨٥.

(٤) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٢٥.

(٥) انظر: المغني، لابن قدامة(٥٣٦/١).

(٦) أخرجه أبو داود في سننه كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم ٤٦٠٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، برقم ٢٦٤٣.

(٧) أضواء على السنة المحمدية، لمحمود أبو رية، ص٥٢.

(٨) انظر: المرجع السابق، ص١٨٢.

حديث الإسراء والمعراج الذي جاء في الصحيحين، والذي فُرضت فيه الصلاة خمسين صلاةً ثم خُفِّفت حتى صارت خمس صلوات؛ بل واعتبره أبو رية من الإسرائليات لمجرد اعتراضاتٍ عقليةٍ اصطنعها من نفسه، فيقول في تهكمٍ وسخريةٍ: " وفي حديث المعراج أنَّه لما فرض الله خمسين صلاةً على العباد، لم يستطع أحدٌ من الرسل جميعاً غير موسى أن يفقه استحالة أدائها على البشر!، فهو وحده الذي فطن لذلك!، وحمل محمداً على أن يُراجع ربَّه بضع مراتٍ حتى رجعت إلى خمس صلوات!، ... وهكذا ترى الإسرائيليات تنفذ إلى ديننا، وترى في معتقداتنا، فتعمل عملها، ولا تجد أحداً إلا قليلاً يُزيِّفها أو يردُّها؛ بل نرى وأأسفاه من يُصدِّقها ويعتقدها من حشوية آخر الزمان"[1].

٥- عداؤه للمشتغلين بعلم الحديث وحفظ متونه في هذا الزمان، فيقول:" وإنَّ كتاباً من كتب الحديث لا يزيد ثمنه عن بضعة قروشٍ يُغني عنهم جميعاً، ولو أنَّهم عرفوا ذلك واستيقنوه؛ لقبعوا في جحورهم، ولأراحوا الناس من نقيقهم"[2].

قلتُ: سبحان الله ما أغرب حالهم،﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾[الكهف:٥]، فإنَّ "علامات البدع على أهلها باديةٌ ظاهرةٌ، وأظهر علاماتهم شدَّة معاداتهم لحملة أخبار النبي ﷺ، واحتقارهم واستخفافهم بها"[3].

يقول ابن القيم- رحمه الله-:" فالسنة أجلُّ من أن يُقدِّم أحدٌ عليها رأياً فقهياً، أو بحثاً جدلياً، أو خيالاً صوفياً، أو تناقضاً كلامياً، أو قياساً فلسفياً، أو حكماً سياسياً، فمن قدَّم عليها شيئاً من ذلك، فباب الصواب عليه مسدودٌ، وهو عن طريق الرشاد مصدودٌ"[4].

وقال السفاريني- رحمه الله- عمَّن ينتقص أصحاب الحديث:" ولسنا بصدد ذكر مناقب أهل الحديث، فإنَّ مناقبهم شهيرةٌ، ومآثرهم كثيرةٌ، وفضائلهم غزيرةٌ، فمن انتقصهم فهو خسيسٌ ناقصٌ، ومن أبغضهم فهو من حزب إبليس ناكصٌ"[5].

---

(١) أضواء على السنة المحمدية، لمحمود أبو رية، ص١٦٢.

(٢) المرجع السابق، ص٣٢٩.

(٣) عقيدة السلف أصحاب الحديث، للصابوني، ص١٠١.

(٤) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح، لابن القيم، ص١٣.

(٥) لوامع الأنوار البهية، للسفاريني(٣٥٥/٢).

عشرون: أحمد زكي أبو شادي[1]: لقد تجرَّأ روَّاد المدرسة العقلية الحديثة على القرآن الكريم، والتنقُّص من قيمته وقداسته، ومن هؤلاء أحمد زكي أبو شادي، ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- يرى أنَّه لا بدَّ من إعادة النَّظر في فهم للقرآن وتعاليمه، فيقول: "من الحقائق التي يجب التسليم بها أنَّ القرآن الشريف يجب أن يُعاد النظر في فهم تعاليمه وتطبيقها من عصرٍ إلى عصر؛ بل من جيلٍ إلى جيل، وعلى هذا لا بدَّ من ظهور تفاسير جديدةٍ مُتمشيةٍ مع روح العصر، وتقدُّم العلم، يؤلفها المطَّلعون الواعون من المفكرين"[2]، ويفتري على القرآن بقوله:"والقرآن وحيٌّ أدبيٌّ خُلقيٌّ معاشيٌّ تشريعيٌّ، وليس سِجلاً لأحكامٍ صارمةٍ مُتزمتةٍ، والحكم بالقرآن وفاقاً لعقلية القرون المظلمة، إنما هو افتراءاتٌ على القرآن"[3]، ويقصد أبو شادي بالقرون المظلمة عصر السلف الصالح حين كان القرآن مُهيمناً على الحياة؛ فصلحت أحوالهم، وسادوا الدنيا.

٢- يتطاول على صحابة رسول اللهﷺ بالقدح والأذى، ولم يسلم منه حتى خيار الصحابة، فيقول: "ناهيك بغفلة أمثال أبي هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن عباس وكلهم انتحلوا الحديث، وتأثروا بالإسرائيليات الغريبة"[4].

٣- يعتبر أنَّ الاهتمام بكتب الحديث من أسباب التَّخلف، وأنها لا تنسجم مع القرآن الكريم، فيقول: "وأمَّا التغني بأبي داود والترمذي والنسائي ومسلم، وترديد الأحاديث المُلفَّقة التي لا تنسجم وتعاليم القرآن، فبمثابة الخيانة لرسالة الإسلام الخالدة"[5].

٤- يردُّ السُّنة الصحيحة الثابتة بمقياس عقله القاصر، فيقول: "وهذه سنن ابن ماجه والبخاري؛ بل وجميع كتب الحديث والسنة طافحةٌ بأحاديث وأخبار لا يُمكن أن يقبل صحتها العقلُ، ولا نرى نسبتها إلى الرسول الكريم صاحب أعظم شريعةٍ عقليةٍ إنسانية"[6].

٥- افتتانه بالحضارة الغربية، حيث يجعل مثله الأعلى في هذه الحياة، وأعلى أمانيه الوصول إلى مستوى الحياة الغربية، وجلَّ همِّه اللَّحاق بركب الغرب، ودعوة المسلمين لاقتفاء أثره، وقد كرّس كثيراً من وقته وجهده في الدعوة إلى ذلك، يقول أحمد زكي أبو شادي:" ولذلك قلنا مراراً إنَّ مبادئ الإسلام

---

(١) أحمد زكي بن محمد بن مصطفى أبي شادي، طبيب جراثيمي، أديب، له نظم كثير، ولد بالقاهرة سنة ١٨٩٢م، عمل في وزارة الصحة بمصر إلى أن كان وكيلا لكلية الطب بجامعة القاهرة، ترجم بعض الكتب عن الانكليزية، ضاقت به مصر، فهاجر إلى نيويورك (سنة ١٩٤٦)، وكتب في بعض صحفها العربية، وعمل في التجارة وفي الاذاعة، وتوفي فجأة في واشنطن١٩٥٥م.انظر: الأعلام، للزركلي(١/١٢٧).

(٢) ثورة الإسلام، لأحمد زكي أبو شادي، ص٣٥.

(٣) المرجع السابق، ص٧١.

(٤) المرجع السابق، ص١٧٤.

(٥) المرجع السابق، ص٢٥.

(٦) المرجع السابق، ص٤٤.

نظرياً وعملياً هي أقرب ما تكون لمبادئ الحضارة الأمريكية، والحياة الأمريكية، تفكيراً وسلوكاً، فهل ينتبه المسلمون إلى هذه الحقيقة الراسخة فيُفلحون؟"[١]، ثمَّ يقول:" وليس هدفنا سوى المواءمة مع الحضارة الأمريكية الرفيعة التي هي صفوة المدنيَّة الحديثة"[٢].

٦- التساهل والاستهانة في إطلاق الآراء والأحكام، وجهله ببدهيات الإسلام التي يعرفها من له أدنى علمٍ أو معرفةٍ بدينه من المسلمين، وإنَّ ممَّا يُدلل على ذلك أنَّه يقول:" فهم المسيحية واجبٌ على كلِّ مسلمٍ؛ بل الإيمان بها حتمٌ عليه، إذا قبل أن يكون المرء مسلماً، يجب أن يكون مسيحياً"[٣]، ويقول أيضاً:" وفهم المسيحية واجبٌ مُقدَّسٌ على كلِّ مسلمٍ ومسلمةٍ فهو كطلب العلم بمثابة الفريضة"[٤].

واحد وعشرون: محمد أحمد خلف الله[٥]: يُعدُّ محمد خلف الله من العقلانيين الذين لهم شطحاتٌ جريئةٌ، ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- لا يتورَّع أن يصف القرآن بأنه يشتمل على الأساطير والخُرافات، ومن حقِّ الإنسان أن يُنكر ما جاء فيه من أخبار، فيقول: "الإنسان غير ملزمٍ برأيٍ معينٍ في الأخبار الواردة في القصص القرآني؛ وذلك لأنَّها لم تُبلَّغ على أنَّها دينٌ يُتَّبع؛ وإنَّما بُلِّغت على أنَّها المواعظ والأحكام والأمثال التي تُضرب للناس، ومن هنا يصبح من حقِّ العقل البشري أن يُهمل هذه الأخبار، أو يجهلها، أو يخالف فيها، أو ينكرها"[٦]، ويقول عن الأمثال المضروبة في القرآن: "والأمثال لا يلزم أن تكون من الحقائق، وقد تكون من المُتخَيلات ومن الأساطير والأوهام"[٧]، ويقول أيضاً: "إنَّنا لا نتحرَّج من القول بأنَّ في القرآن أساطير، لأنّا في ذلك لا نقول قولاً يُعارض نصَّاً من نصوص القرآن"[٨]، ثمَّ بعد أن وضع هذه الفرية أخذ يدعو إلى التبشير بها وتعميمها بين أجيال المسلمين ليرتاب من في إيمانه ضعفٌ، أو في علمه

---

(١) ثورة الإسلام، لأحمد زكي أبو شادي، ص٥٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨١.

(٣) المرجع السابق، ص١٢٤.

(٤) المرجع السابق، ص١٢٩.

(٥) أديب وكاتب ومفكر وناقد، ولد بمصر سنة ١٩٠٤م، تخرَّج في كلية دار العلوم عام ١٩٢٨، وعمل مدرساً لفترة، ثم توجه إلى لندن ضمن بعثة دراسية، وحصل على درجة الليسانس في الفلسفة، ودرجة الماجستير في علم النفس من جامعة لندن، وبعد عودته إلى مصر انخرط في سلك التدريس بجامعة القاهرة، وانتقل إلى جامعة الإسكندرية وأصبح رئيساً لقسم اللغة العربية بها، ثم اختير عميداً لكلية الآداب بجامعة الإسكندرية، ثم وكيلاً لجامعة عين شمس، كما كان عضواً في مجمع البحوث الإسلامية، وقد كتب العديد من الدراسات في الأدب الإسلامي والثقافة الإسلامية، وكان عضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة، وهو أحد شعراء وخطباء ثورة ١٩١٩م، من مصنفاته: الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، وتوفي سنة ١٩٨٣م.انظر: تكملَة مُعجم المُؤلفين، لمحمد يوسف(٤٧٨/١).

(٦) الفن القصصي في القرآن الكريم، لمحمد خلف الله، ص٧٤.

(٧) المرجع السابق، المقدمة، ص (و).

(٨) المرجع السابق، ص٢٠٨.

نقصٌ، فقال: "يجب أن نحرص على فتح الباب ولا نوصده في وجه الذين يقولون بوجود الأساطير في القرآن"،... ومن هنا يجب ألا يزعجنا أن يُثبِت عالمٌ من العلماء، أو أديبٌ من الأدباء أنَّ بالقرآن أساطير "[1].

وهذه دعوى جاهليةٌ مكشوفةٌ قال بها أسلافه من قبل، حين زعموا بأنَّ القرآن الكريم أساطير الأولين، كما قال ﷻ عنهم:﴿ **وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آَذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آَيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ**﴾[الأنعام:٢٥]، ويقول ﷻ عنهم أيضاً:﴿ **وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**﴾[النحل:٢٤-٢٥].

٢- ينكر السنة الثابتة عن النبي ﷺ ؛ بدعوى أنَّها تُخالف العلم، أو تخالف العقل، ويقصدون عقولهم القاصرة، المفتونة بالغرب وحضارته، ومن الأحاديث التي أنكرها حديث التمرات الذي ورد في الصحيحين أنَّ رسول الله ﷺ قال:(**من اصطبح كلَّ يومٍ بسبع تمرات عجوة لم يضرُّه سمٌّ ولا سحرٌ ذلك اليوم إلى الليل**)[2]، فقال: "فهذا الحديث لا يُمكن أن يكون صحيحاً؛ لأنَّه مخالفٌ للعلم والواقع"[3].

ولم يُثبت هذا المُدَّعي بالعلم والبرهان أنَّ العلم والواقع يُخالفان ما جاء في هذا الحديث؛ إنَّما هو البهتان والافتراء والهوى فقط، ولا يفقه هو وأمثاله أنَّ ما ثبت عن النبي ﷺ هو العلم، ولا يُمكن أن يتعارض العلم الحقيقي الذي توصَّل إليه البشر مع ما ثبت عن النبي ﷺ.

٣- يذهب إلى أنَّ البشرية قد بلغت سنَّ الرشد، فلم تعد بحاجةٍ إلى وحي السماء، فيقول: "إنَّ الإنسانية قد بلغت سنَّ الرشد، ومرحلة تحمُّل الأعباء، وليست في حاجةٍ بعد اليوم إلى وحي السماء"[4].

ولا أدري أيُّ رشدٍ يقصده، "إنَّ البشرية في الحقيقة بلغت غاية السَّفه والانحلال والانحدار والانهيار الخُلقي والديني والاجتماعي، وأيُّ رشدٍ للإنسانية يُغنيها عن وحي السماء، وهي لا تزال تُباشر الشِّركيات والمحرمات والموبقات والفواحش والآثام، ممَّا لا يمكن تطهير الأرض منه إلا بوحي الله الذي اشتمل عليه الإسلام"[5].

---

(١) الفن القصصي في القرآن الكريم، لمحمد خلف الله، ص٢٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب الدواء بالعجوة للسحر، حديث رقم ٥٧٦٨.

(٣) الثقافة الإسلامية والحياة المعاصرة، لمحمد خلف الله، ص ١٦٧.

(٤) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة ، لمحمد خلف الله، ص٧٨.

(٥) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٥٤.

٤- يزعم أنَّ الخلفاء الراشدين ﷺ لم يكونوا يقيموا الدِّين في حياة الناس، فيقول: "إنَّ رئاسة الخلفاء الراشدين للدولة العربية لم تكن دينيةً بحالٍ من الأحوال؛ وإنَّما كانت مدنيةً صرفةً"(١)، وربما يريد بذلك أن يُمهِّد لفصل الدين عن الدولة، ونشر العلمانية في المجتمع.

اثنان وعشرون: توفيق الحكيم(٢): ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- يُعدُّ من العقلانيين المتطاولين على مقام الألوهية، فقد كتب في صحيفة الأهرام عام ١٩٨٣م سلسلةً من المقالات، كانت حيناً بعنوان: حوار مع الله، وحيناً آخر بعنوان: حديث مع الله، وحيناً بعنوان: حديث إلى الله، "فتوفيق الحكيم واحدٌ من العقلانيين الذين انحرفوا بعقولهم وفكرهم؛ ولكنَّ توفيق الحكيم قد فاق أسلافَه في هذا المجال، إذ لم نرَ واحداً منهم يزعم أنَّه قال لله أو قال الله له، فهذه أضحوكةٌ انفرد بها من بين المنتحرين عقلياً وفكرياً إلى الأبد، ولم يجد الزمان مثله يزعم ما زعم، وقد كانت كتابته هذه آخر ما يتصوره العقل من مزالق محفوفةٍ بالمخاطر عن إنسانٍ يحترم عقله وفكره، إلَّا إذا أفلت عقله من كلِّ المقاييس"(٣)

٢- يعتقد أنَّ الإسلام يجب أن يتجدد مع كلِّ عصر، ولا نظل على ما كان عليه سلفنا الصالح من استقامة الدِّين، وسلامة الاعتقاد، فيقول: "على رجال الدِّين أن يُفهِّموا المسلمين أنَّ صلاح الإسلام ليس في التجمُّد في زمنٍ واحدٍ مضى؛ بل مع الحركة المُتقدِّمة مع تنقية ما يفسد ويتعثر بالحركة الطائشة"(٤).

والزمن الواحد الذي يقصده، هو تلك النُّصوص التي حدَّدت للمسلم كلَّ دقائق حياته في نظامٍ بديعٍ يخضع له الزمان والمكان، ولا يخضع هو لهما(٥)، وبهذه النزعة العقلانية نصَّب الحكيم نفسه أستاذاً في مدرسة المتمردين على الشريعة، وتابع أسلافه في افتراءاتهم على القرآن والسنَّة وسلف الأمة الصالح(٦).

---

(١) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة، لمحمد خلف الله، ص٨٢.

(٢) حسين توفيق إسماعيل أحمد الحكيم، ولد بالإسكندرية سنة ١٨٩٨م، التحق بكلية الحقوق، ثم سافر إلى أوروبا؛ ولكنه فشل في الدراسة، وانشغل بالفن والمسرح، ثم عاد إلى مصر، وعمل مديراً لإدارة التحقيقات بوزارة المعارف، ثم مديراً للإرشاد الاجتماعي بوزارة الشؤون الاجتماعية، وعمل أيضاً مديراً عاماً لدار الكتب، ثم عضواً متفرغاً بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، ثم تفرغ للأدب، فكان بين الحين والحين يثير قضايا تثير الجدل والخلاف والمعارك الفكرية، وفي عام ١٩٨٢م تم انتخابه رئيساً لاتحاد كتاب مصر، وله آراء عقلانية جريئة، وتوفي في الاإسكندرية ١٩٨٧م. انظر: تكملة معجم المؤلفين، لمحمد يوسف(١٠٦/١).

(٣) شبهات وشطحات منكري السنة، لأحمد عبد الله، ص٣٨، بتصرف يسير

(٤) رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية، لسيد العفاني، ص٣٩.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص٤٠.

(٦) انظر: شبهات وشطحات منكري السنة، لأحمد عبد الله، ص٣٤.

ثلاث وعشرون: أحمد أمين[1]: ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- يُعد من العقلانيين المعاصرين الذين يتباكون على موت المعتزلة، ويُنادون بإعادة إحياء فكرها في الأمة من جديد؛ فيتسائل في كتابه ضحى الإسلام:" والآن يحقُّ لنا أن نتسائل، هل كان في مصلحة المسلمين موت الاعتزال وانتصار المُحدِّثين؟"[2]، ثمَّ أعلن أنَّه ليس في صالحهم القضاء على الاعتزال؛ بل كان من الواجب على المعتزلة والمُحدِّثين أن يستمرَّا كحزبين، أحدهما تقدُّميٌّ، والآخر محافظٌ؛ ليستفيد المسلمون من كليهما!"[3]، ثمَّ يُفصح عن رأيه بكلِّ صراحةٍ، قائلاً:" في رأيي أنَّ من أكبر مصائب المسلمين موت المعتزلة"[4].

٢- حذا حذو المستشرقين والمبتدعة في إنكارهم للسنة النبوية، وزعم أنَّ هناك أموراً كثيرةً تُضعف من حُجيَّة السنة، وزعم أنَّ علماء الحديث إنَّما اعتنوا بالسند، ولم يعتنوا بنقد المتن، ثمَّ شكَّك في أحاديث أبي هريرة ﷺ وفي حفظه؛ بل وتهجَّم على مبادئ الإسلام وتشريعاته، فقال عن الحجاب:" إنَّه وهمٌ صنعه الفرس والأتراك، وليس في القرآن نصٌّ يُحرِّم سفور المرأة، أو يُعاقب عليه، وأنَّ الرجال يتمسكون بالحجاب؛ ليستبدوا بالمرأة، فيُنفِّسوا عن قهرهم سياسياً واجتماعياً"[5].

٣- ألَّف كتبه الثلاث "فجر الإسلام"، و"ضحى الإسلام"، و"ظهر الإسلام"، ولم يُراعِ فيها الأمانة العلمية، والدِّقة البحثية؛ بل كان يعتمد على النُّقول المكذوبة عن المستشرقين، ويتغاضى عن النُّصوص الصحيحة والموثوقة، إلى الحدِّ الذي وصفه به بعض الكتاب ببراعة التضليل، وأنَّه مزج السمَّ بالدسم، وخلط الحقَّ بالباطل[6].

يقول أحمد أمين معترفاً بطريقته في البحث: "إنَّ الأزهر لا يقبل الآراء العلمية الحُرَّة، فخيرُ طريقةٍ لبثِّ ما تراه مناسباً من أقوال المستشرقين أن لا تنسبها إليهم صراحةً؛ ولكن ادفعها إلى

---

(١) أحمد أمين إبراهيم الطباخ، ولد عام ١٨٧٨م، عالم بالأدب، غزير الاطلاع على التاريخ، من كبار الكتاب، تولى القضاء ببعض المحاكم الشرعية، ثم عيّن مدرساً بكلية الآداب بالجامعة المصرية، وانتخب عميداً لها، وعيُن مديراً للإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، وكان من أعضاء المجمع العلمي العربيّ بدمشق، ومجمع اللغة بالقاهرة، والمجمع العلمي العراقي ببغداد، وهو من أكثر كتاب مصر تصنيفاً وإفاضة، من أعماله: إشرافه على لجنة التأليف والترجمة والنشر مدة ثلاثين سنة، ومن مؤلفاته: فجر الإسلام، وضحى الإسلام، وظهر الإسلام، ويوم الإسلام، وزعماء الإصلاح في العصر الحديث، وتوفي بالقاهرة ١٩٥٤م. انظر: الأعلام، للزركلي(١٠١/١).

(٢) ضحى الإسلام، لأحمد أمين(٢٠٢/٣).

(٣) انظر: المرجع السابق(٢٠٣/٣).

(٤) المرجع السابق(٢٠٧/٣).

(٥) انظر: العصرانيون، لمحمد الناصر، ص٢٦٣.

(٦) انظر: السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، لمصطفى السباعي، ص٢٣٦، ورياض الحنة في الرد على المدرسة العقلية، لسيد العفاني، ص٢٠.

الأزهريين على أنَّها بحثٌ منك، وألبسها ثوباً رقيقاً لا يُزعجهم مسُّها، كما فعلتُ أنا في فجر الإسلام وضحى الإسلام"[1].

قلتُ: يكفيه شهادته على نفسه، بأنَّ مرجعه هم المستشرقون، وأنَّه يقتبس أقوالهم وينسبها إلى نفسه، وهذا من أصرح الأدلة على خطئه في طريقة استدلاله.

أربع وعشرون: علي عبد الرازق[2]: ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- يُعدُّ من أشدِّ العقلانيين عداءً لتحكيم الشريعة في شتى مناحي الحياة، وألَّف من أجل ذلك كتاباً سمَّاه "الإسلام وأصول الحكم"[3]، والذي يُحاول فيه متعنِّتاً أن يُدلِّل على أنَّ أحكام الإسلام لا تصلح لهذا الزمان، وقد طار العلمانيون والمستشرقون والحاقدون بهذا الكتاب في الآفاق، وأخذوا يستدلُّون بما فيه من ضلالاتٍ وتلفيقاتٍ على ما يذهبون إليه من فصل الدِّين عن الحياة والدولة، وأنَّ الإسلام لا صلة له بالحكم.

٢- زعم عبد الرازق أنَّ عيسى- عليه السلام- تكلَّم في حكومة القياصرة، ومع ذلك أمر بأن يُعطى ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، ومحمدٌ ﷺ حين تكلَّم عن الحُكم في ذكره للإمامة والخلافة، فلا يعني أنَّه أمرنا بأن نلتزم بذلك[4]، وهذا انحرافٌ في الاستدلال، فلا تُقاس نصوص القرآن المُحكمة على ما في الإنجيل من نصوصٍ مُحرَّفةٍ، وهذا ديدن العقلانيين وطريقتهم في الاستدلال، وذلك أنَّهم يُدلِّلون لما تمليه عليه أهواؤهم بنصوصٍ من التوراة والإنجيل المُحرَّفين، ويُعرضون عن أدلة القرآن والسنة المُحكَمة، فيجعلون النصوص المحرفة المنسوخة في درجة الأدلة الثابتة، كما أنهم يُعطون الأحكام البشرية الوضعية قوة الأدلة الشرعية الثابتة عن الله ورسوله[5].

٣- يزعم أنَّ الإسلام لا يشتمل على أيِّ نظامٍ للحكم والشورى والقضاء وسائر الأمور التشريعية للدولة، وأنَّ الدِّين لا يملك نصوصاً تُحدِّد تدخُّله في الدولة، وأنَّ الخلافة الإسلامية هي أمرٌ اصطلح وتواضع

---

(١) نقلاً عن كتاب السنة ومكانتها في التشريع، لمصطفى السباعي، ص٢٣٨.

(٢) علي بن حسن بن أحمد عَبْد الرازق، ولد عام ١٨٨٨م، باحث، من أعضاء مجمع اللغة العربية بمصر، تعلم بالأزهر، ثم بأكسفورد، وأصدر كتاب "الإسلام وأصول الحكم" سنة ١٩٢٥، فسُحبت منه شهادة الأزهر، وانصرف الى المحاماة، وانتُخب عضواً في مجلس النواب، فمجلس الشيوخ، وعُين وزيراً للأوقاف، واستمر ٢٠ سنة يحاضر بجامعة القاهرة، وتوفي بمصر ١٩٦٦م. انظر: الأعلام، للزركلي(٤/٢٧٦).

(٣) صدر هذا الكتاب عام ١٩٢٥م، فأثار أكبر معركةٍ فكريةٍ في تاريخنا الحديث؛ إذ أصبح هذا الكتاب أهم وثيقة في يد العلمانيين الذين يريدون للشرق أن يعزل الإسلام عن الدولة والمجتمع، كما عزل الغرب المسيحية عنها، وقد شُكل لعلي عبد الرازق مجلس تأديب من مفتي الديار المصرية، وبعض مشايخ القضاء الشرعي في ١٧ سبتمبر ١٩٢٥م، وقرر بإجماع الآراء إثبات فصل الشيخ علي عبد الرازق من وظيفته وإخراجه من زمرة العلماء. انظر: من الحق الإلهي إلى العقد الاجتماعي، لغالي شكري، ص١٥٨-١٥٩، وأزمة الفكر الإسلامي المعاصر، لمحمد عمارة، ص ٩٢.

(٤) انظر: الإسلام وأصول الحكم، لعلي عبد الرازق، ص٤٥.

(٥) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٦٥.

عليه المسلمون، ولا يوجد له سندٌ شرعي، وحاول إثبات ذلك علمياً على حد زعمه بليِّ أعناق النصوص، ويُعتبر كتاب عبد الرازق الوثيقة أو المستند الأول لكثيرٍ من العقلانيين والعلمانيين في دعوتهم إلى فصل الدِّين عن الدولة[١].

٤- يستهزئ بالمسلمين وثوابتهم، وخاصة المحافظون منهم على أسلمة المجتمع، فيقول مثلاً:" وعندهم أنَّ الله جلَّ شأنه كما اختار محمداً ﷺ لدعوة الحق، وإبلاغ شريعته المُقدَّسة إلى الخلق، قد اختاره أيضاً لحفظ ذلك الدين، وسياسة الدنيا به"[٢]، ثمَّ يفتري على الخلافة زاعماً أنَّها من اختراع المسلمين، فقال:" ليس القرآن وحده هو الذي أهمل تلك الخلافة، ولم يتصدَّ لها؛ بل السنة كالقرآن أيضاً قد تركتها ولم تتعرض لها"[٣].

ثم يختم علي عبد الرازق كلامه متبجِّحاً بقوله:" ولكنَّك إذا تأملت وجدت أنَّ كلَّ ما شرعه الإسلام، وأخذ به النبي المسلمين من أنظمةٍ وقواعدَ وآدابٍ، لم يكن في شئٍ كثيرٍ ولا قليلٍ من أساليب الحكم السياسي، ولا من أنظمة الدولة المدنيَّة، والحقُّ أنَّ الدين الإسلامي بريءٌ من تلك الخلافة التي يتعارفها المسلمون، والخلافة ليست في شيءٍ من الخُطط الدينية، ولا القضاء ولا غيرهما من وظائف الحكم ومراكز الدولة؛ وإنَّما تلك كلُّها خُططٌ سياسيةٌ صَرفةٌ لا شأن للدِّين بها، كما أنَّ تدبير الجيوش الإسلامية، وعمارة المدن والثغور ونظام الدواوين لا شأن للدِّين بها"[٤].

ولا أدري ماذا يبقى للدِّين من شئون الدنيا إذا نُفي كلَّ هذا عن الدِّين، ثمَّ إذا كان الدِّين لا شأن له بالدولة، ولا بتدبير الجيوش الإسلامية كما يزعم، فبمَ تُفسَّر آيات الجهاد والسلم والغنائم والصلح، وآيات الحدود والعقوبات، وآيات الولاية، وآيات الحكم، إنَّ كلَّ هذه الآيات والأحكام لا يمكن تطبيقها إلَّا في نظام الدولة الإسلامية[٥].

٥- لا يعتبر أن الإسلام وحده هو الدِّين الحق؛ بل يعتبره واحداً من الخيارات المطروحة أمام الناس، والنَّاس يختارون ما يريدون من هذه الخيارات، فيقول:" الإسلام دعوةٌ دينيةٌ إلى الله تعالى، ومذهبٌ من مذاهب الإصلاح لهذا النوع البشري وهدايته إلى ما يُدنيه من الله تعالى جلَّ شأنه"[٦].

---

(١) انظر: الإسلام وأصول الحكم، لعلي عبد الرازق، ص٣٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص١٣.

(٣) المرجع السابق، ص٤٢.

(٤) المرجع السابق، ص١٧١.

(٥) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٤٠١.

(٦) المرجع السابق، ص١٥١.

قلتُ: ولا ندري أنصدقُه فيما يقول، أم نُصدِّق ربنا ﷻ الذي يقول:﴿ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ ﴾[آل عمران:٨٥]، قطعاً سنُصدِّق كلام ربنا ﷻ، ونردُّ كلام هذا الأفَّاك وأمثاله.

٦- يتأسَّف على المرتدين الذين ارتدوا بعد موت النبي ﷺ، وينكر إجماع الصحابة على قتالهم، فيقول:" كم نشعر بظُلمة التاريخ وظلمه، كلَّما حاولنا أن نبحث جيداً عن أولائك الذين خرجوا على أبي بكر، فلُقِّبوا بالمرتدين، وعن حروبهم تلك التي لقبوها حروب الردة"(١).

فهؤلاء العقلانيون لا يتورعون في ردِّ أيِّ شيءٍ يُخالف عقولهم وأهوائهم، ولو كان أمراً أجمع عليه خيار الأمة وهم الصحابة ﭫ.

خمس وعشرون: خالد محمد خالد(٢): ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- يُعد من العقلانيين المُتقلِّبين فكرياً، فقد كتب كتاباً سمَّاه "من هنا نبدأ"، يهدف به إلى ما ذهب إليه علي عبد الرزاق من التلاعب بأصول الحكم في الإسلام، وإلغاء الخلافة، ونبذ الشريعة؛ ولكن كَتَبَه بأسلوبٍ أذكى وأحدث(٣)، وبعد كتاب "من هنا نبدأ" ألَّف خالد محمد خالد كتاب "الديمقراطية أبداً"، والذي يُروِّج فيه للديموقراطية الغربية، ويدعو إلى نشرها في العالم الإسلامي؛ لتستقيم أحواله، وكان نصيب المرأة من ديمقراطيته وافراً، فقد زعم أنَّ من حق المرأة وقف تعدُّد الزوجات(٤)، وقد تراجع عمَّا قاله سابقاً في كتابه "من هنا نبدأ"؛ وذلك في كتابه "الدولة في الإسلام" الذي ألَّفه لاحقاً؛ ولكنَّ الكتاب الأول ما زال موجوداً، ولا يزال العقلانيون إلى اليوم يستدلُّون بما فيه من شبهاتٍ وتخليطاتٍ(٥).

٢- عدم التفريق بين المسلمين وغير المسلمين في الولاء والتقدير والحبِّ والاقتداء؛ فوقع في تعظيم وتقديس الكافرين المشركين، والماديين والملحدين، فها هو في كتابه" أفكار في القمة" يجعل من

---

(١) الإسلام وأصول الحكم، لعلي عبد الرازق، ص١٧٨.

(٢) خالد محمد خالد ثابت، ولد بمحافظة الشرقية بمصر عام ١٩٢٠م، وقضى حياته في مصر، حفظ القرآن الكريم، والتحق بالتعليم الإلزامي، ثم بالتعليم الديني، ثم التحق بالمعهد الأزهري الثانوي بالقاهرة، ثم بكلية الشريعة جامعة الأزهر، وعمل مدرسًا بمدينة الفيوم، ثم في الجيزة، ثم انتقل إلى الإدارة العامة للثقافة بديوان وزارة المعارف، كما عمل مشرفًا على تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب حوالي عشر سنوات، كان له نشاط سياسي وفكري مشهود، من مؤلفاته: من هنا نبدأ، مواطنون لا رعايا، دفاع عن الديمقراطية، الدين في خدمة الشعب، الديمقراطية أبدًا، وفي السبعينيات حدث ما يمكن أن يعد تحولاً في أفكاره وأسس تصوره، إذ اتجه إلى التاريخ الإسلامي والتراث، بعد نزعته الاشتراكية التقدمية الواضحة، فكتب: رجال حول الرسول، وخلفاء الرسول، وعاد منتميًا إلى الفكر الإسلامي، وتوفي بمصر ١٩٩٦م. انظر: معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين(٣٤٥/٢).

(٣) انظر: العلمانية، لسفر الحوالي(٥٨٤/١).

(٤) انظر: الديمقراطية أبداً، لخالد محمد خالد، ص١٦٤، وانظر: العلمانية لسفر الحوالي(٦٤٠/١).

(٥) انظر: العلمانية المفهوم والمظاهر والأسباب، لمصطفى السلاوي(٩٦/١).

الشخصيات الوثنية في العالم عمالقة، ويمنحهم من العظمة والتقديس كما لو كانوا من أنبياء الله المرسلين[1]، فذكر في كتابه نبيَّنا محمداً ﷺ، ولم يذكر من المسلمين غيره، وجعله مع هؤلاء الملاحدة، وكأنَّ الأمة عُدمت الطاقات والأفكار والنماذج والكفاءات؛ لنستدلَّ بهؤلاء الكفرة على قمَّة التفكير، فيقول بعد ذكر نبينا محمد ﷺ:" وحين نغادر هذه القمَّة، نلتقي بلاويش وكنفيشيوس ومنشيس، عمالقة يستنبطون الحكمة من أعماقها، ويهدون سواء السبيل"[2]، وهؤلاء كلُّهم من الوثنيين، ورغم ذلك يقول بصريح العبارة بأنَّهم يهدون سواء السبيل، وسبيلهم معروفٌ، إنَّه سبيل الضلالة، وسبيل جهنم، نسأل الله السلامة والعافية.

ثم يقول بعدها بفقرات:" وفي الهند نلتقي مع بوذا، يا له من طودٍ شامخٍ هذا البوذا العظيم"[3]، مع العلم أنَّ بوذا أسَّس ديانةً شركيةً، وقد صنع أتباعه له أصناماً يعبدونها إلى اليوم بالملايين، ثمَّ يُوصف بعد ذلك بأنَّه بوذا العظيم، تحيةً له على شركه، نعوذ بالله من الخذلان.

ثمَّ ينتقل خالد محمد خالد في كتابه إلى فرويد، اليهودي الفاجر الذي يدعو إلى إفساد الأخلاق، ونشر الزنا والرذيلة في كلِّ مكان، والذي يقول أنَّ الغريزة الجنسية هي أساس كلِّ شيءٍ في الوجود، فيقول عنه خالد محمد خالد:" وبعد ذلك نُصافح فرويد، إنَّه رجلٌ يُخشى ويُحذر، فله على فضح النفوس وكشف خفاياها قدرةٌ خارقة، بيْد أنَّه مع هذا يهدي إلينا من خير أطايب الفكر البشري، وأكثرها نفعاً"[4].

وفي العبارة السابقة يصف خالد محمد خالد فرويد بصفاتٍ لا تليق إلا بالله ﷻ، فالله وحده هو الذي يُخشى، وهو وحده الذي يكشف خفايا النفوس، وهو وحده سبحانه الذي له القدرة الخارقة، "وهذا الإطراء والإذلال للنَّفس والتبعيَّة المقيتة، هو ما يُذلُّ به العقلانيون أنفسهم عند الحديث عن ملاحدة الغرب؛ لفتنتهم بهم وبعقولهم العفنة"[5].

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص ٣٨٤.

(٢) أفكار في القمة، لخالد محمد خالد، ص٨.

(٣) المرجع السابق، ص٩.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص١٠-١٢.

(٥) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص ٣٨٥.

ست وعشرون: حسن الترابي[١]: وهو من أبرز الإسلاميين العقلانيين الذين تبنَّوا الدعوة إلى التحديث في الفكر الإسلامي المعاصر؛ لمواكبة التطور، ومواءمة ظروف العصر، وذلك من خلال كتبه وأبحاثه ومحاضراته وندواته، داخل بلده السودان وخارجها، والمآخذ عليه كثيرة، منها:

١- أنَّه يردُّ السنَّة التي تُخالف عقله، وينحرف عن قواعد وأصول الدين، ويطعن في الصحابة وينكر حدَّ الردة والرَّجم للزاني المُحصن، ويُمجِّد الفنَّ والرقص، ويرى أنَّه لا ضابط لتفسير القرآن إلَّا ما يُمليه تجديد اللغة والإعمال العقلي لفهم الدلالة دون أيَّة قيود[٢].

٢- يرى أنَّه لا بدَّ من تجديد العقيدة على غير معهود السلف، فيقول:" لا بدَّ إذن من تجديد الفكر العقدي الإسلامي في كلِّ طور؛ لأن الشرك في كلِّ عهدٍ من العهود يتخذ مظهراً مُختلفاً"[٣]، ويقول: "ينبغي لفقه العقيدة اليوم أن يتوجه إلى علمٍ جديدٍ غير معهودٍ للسلف"[٤]، ويقول:" لا تجد في مباحث العقيدة حديثاً عن الفنِّ، كأنَّ التوحيد يجمع الحياة كلَّها صلاتها ونسكها ومحياها ومماتها، ويترك الفن، ولكنَّ الواقع أنَّ مباحثنا العقدية الإسلامية مباحثُ فقيرةٌ، وليست مباحث توحيدية"[٥].

٣- يدعو إلى إحداث تجديدٍ في الفقه وأصوله، يُلائم واقع المسلمين الجديد، فيقول:" إنَّ إقامة أحكام الإسلام في عصرنا تحتاج إلى اجتهادٍ عقليٍّ كبير، وللعقل سبيلٌ إلى ذلك، لا يَسَعُ عاقلٌ إنكاره، والاجتهاد الذي نحتاج إليه ليس اجتهاداً في الفروع وحدها؛ وإنَّما هو اجتهادٌ في الأصول أيضاً"[٦].

---

(١) الدكتور حسن عبدالله الترابي، مفكر سوداني معروف، ولد في السودان ١٩٣٢م، وكان والده شيخ طريقة صوفية، فتتلمذ على يديه، تدرج في سلك التعليم حتى حصل على إجازة الحقوق من جامعة الخرطوم، ثم على الماجستير ١٩٥٧م، ثم الدكتوراة من من باريس١٩٦٤م، وحصَّل في أوربا صنوفاً من المعارف والثقافات الغربية ممَّا أثَّر في فكره، وبعد عودته إلى وطنه تولى عمادة كلية الحقوق بجامعة الخرطوم، شغل في ١٩٧٩م منصب النائب العام، وانفصل عن جماعة الإخوان، وتصاعدت الخلافات بينهم بسبب خروجه عن نهج الجماعة وطريقتها في الدعوة والتربية، واجتهاداته التجديدية التي خرج بها عن إجماع المسلمين؛ ممَّا أدى بهم إلى التشهير به والرد عليه. انظر: مجلة المجتمع، العدد ١٣٦على موقع اسلام اون لاين بتاريخ ٢٠١٤/١١/٢٢م.

(٢) انظر: رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية ومنكري السنة، لسيد العفاني، ص٧١.

(٣) تجديد الفكر الإسلامي، لحسن الترابي، ص٤٢.

(٤) المرجع السابق، ص٤٤.

(٥) رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية، لسيد العفاني، ص٧١، نقلاً عن محاضرة صوتية للترابي ألقاها في الخرطوم.

(٦) المعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، ص١٣٨، وانظر: مفهوم تجديد الدين، لبسطامي سعيد، ص١٥١.

ويقول أيضاً:" لا بدَّ أن نقف وقفةً مع علم الأصول، تَصِلُه بواقع الحياة؛ لأنَّ قضايا الأصول في أدبنا الفقهي أصبحت تُؤخذ تجريداً حتى غدت مقولات نظريةً عقيمةً، لا تكاد تلد فقهاً البتة؛ بل تُولِّد جدلاً لا ينتهي"[١].

٤- يذهب إلى القول بتجديد الإجماع عن طريق تصويت الناس على الأحكام الشرعية كالانتخابات، وهذا قولٌ لم يقل به أحدٌ من قبل، ولم يخطر ببال عالمٍ من علماء المسلمين القُدامى أو المعاصرين، حيث يُصوِّر الإجماع بصورة الاستفتاء أو التصويت من قبل عامة الناس، فيقول: "يُمكن أن نردَّ إلى الجماعة المسلمة حقَّها الذي كان قد باشره عنها مُمثلوها الفقهاء، وهو سلطة الإجماع، ويمكن بذلك أن تتغير أصول الفقه والأحكام، ويصبح إجماع الأمة المسلمة أو الشعب المسلم، وتصبح أوامر الحُكَّام كذلك أصلَين من أُصول الأحكام في الإسلام، ويُمكن أن نحتكم إلى الرأي العام المسلم، ونطمئن على سلامة فطرة المسلمين، حتى ولو كانوا جُهالاً في أن يضبطوا مدي الاختلاف ومجال التفرُّق !!"[٢].

قلتُ: ومتى كان عامة الناس يُرجع إليهم في الأمور العلمية الدقيقة التي تحتاج إلى مجامع فقهيةٍ لتخرج بجوابٍ سديد.

ويكشف الترابي عن بعض ملامح الفقه الذي يُريده، وخلاصته أنَّ كلَّ شيءٍ يحتاج إلى إعادة النَّظر وإعادة الصياغة، فيقول : "ونحن أشدُّ حاجةً لنظرةٍ جديدةٍ في أحكام الطلاق والزواج، نستفيد فيها من العلوم الاجتماعية المعاصرة، ونبني عليها فقهنا الموروث، وننظر في الكتاب والسنة، مزوَّدين بكلِّ حاجات عصرنا ووسائله وعلومه ..."[٣].

٥- التهكم بالسلف ومنهجهم، حيث يكثر الترابي في كتبه ومحاضراته من ترديد عباراتٍ يتهكَّم بها من منهج السلف، فيقول عن منهجهم أنَّه الفقه التقليدي، وعلم الأصول التقليدي، والقياس التقليدي، ونظام الإسلام التقليدي، وما شابه ذلك من العبارات التي تُوهم القارئ بأنَّ الفقه الإسلامي والعلوم الإسلامية شيءٌ من العادات والتقاليد، وليست ديناً مُستنِداً إلى أدلةٍ، ومبنياً على أصولٍ شرعية، ويركِّزُ الترابي كثيرًا على التوسُّع في مفهوم الأصول التي أصَّلها العلماء والأئمة المتقدمون، ويُصرُّ على توسعة كلِّ أصلٍ؛ ليُدخل تحته ما يوافق هواه، فيقول مثلاً: الأصول الواسعة، والقياس الواسع، والاستصحاب الواسع، والاجتهاد الحر[٤].

٦- يتهم الفقهاء بالانغلاق وضيق الأفق، وبأنَّ الحياة العامة وشؤون الاقتصاد والسياسة تدور من حولهم وهم لا يشعرون، وممَّا قاله بهذا الشأن، قوله:" إنَّ الفقهاء ما كانوا يُعالجون كثيراً من قضايا

---

(١) تجديد أصول الفقه، لحسن الترابي، ص٧.

(٢) المرجع السابق، ص٥٨.

(٣) نظرات شرعية في فكر د. حسن الترابي، لسليمان الخراشي، ص٤.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٦.

الحياة العامة؛ إنَّما كانوا يجلسون مجالس العلم المعهودة؛ ولذلك كانت الحياة العامة تدور بعيداً عنهم، ولا يأتيهم إلا المستفتون من أصحاب الشأن الخاص في الحياة"[(١)].

ويقول أيضاً: "قد يعلم المرء اليوم كيف يجادل إذا أُثيرت الشُّبهات في حدود الله؛ ولكنَّ المرء لا يعرف كيف يعبد الله في التجارة أو السياسة، أو يعبد الله في الفن، كيف تتكون في نفسه النِّيات العقدية التي تُمثِّل معنى العبادة، ثمَّ لا يعلم كيف يُعبِّر عنها عملياً، وليس ثمة من مُفتٍ يُفتِكَ كيف تسوق عربةً، أو تدير مكتباً!؛ ولكن الكتب القديمة تُفْتِكَ كيف تقضي حاجتك!"[(٢)].

٧- يُمجِّد ويُقدِّس العقل حيث يُصرِّح بالمصدر الذي يريد الرجوع إليه، فيقول: "أمَّا المصدر الذي يتعيَّن علينا أن نُعيد إليه اعتباره كأصلٍ له مكانته فهو العقل"[(٣)]؛ ولقد أدَّاه نظره العقلاني هذا إلى اعتبار أنَّ الاكتفاء بالكتاب والسنة وهمٌ شائعٌ لا فائدة منه، فقال: "ومن المعوقات أنَّ هناك من يقول: بأنَّ عندنا ما يكفينا من الكتاب والسنة، وهذا وهمٌ شائعٌ؛ إذ لا بدَّ أن ينهض علماء فقهاء، فنحن بحاجة إلى فقهٍ جديدٍ لهذا الواقع الجديد!!"[(٤)].

ويقول عن تفسير القرآن الكريم: "يبدو أنَّنا مُحتاجون فيه إلى تفسيرٍ جديدٍ، فإذا قرأتم التفاسير المُتداولة بيننا تجدونها مرتبطةً بالواقع الذي صيغت فيه، كلُّ تفسيرٍ يُعبِّرُ عن عقلية عصره إلا هذا الزمان، لا نكاد نجد فيه تفسيراً عصرياً شافياً"[(٥)].

وفي محاضرةٍ له في مؤتمرٍ للطلبة المسلمين في الولايات المتحدة الأمريكية سُئل عن الاجتهاد والتقليد فقال: "هذه الشروط، أي: شروط الاجتهاد، ليست منضبطةً كشروط الدكتوراه والماجستير هنا في الولايات المتحدة الأمريكية!!"[(٦)].

٨- دعوته إلى التقارب الديني بين المسلمين وغيرهم، حيث قال:" إنَّ الوحدة الوطنية تُشكِّل واحدةً من أكبر همومنا، وإنَّنا في الجبهة الإسلامية نتوصَّل إليها بالإسلام على أصول الملَّة الإبراهيمية، التي تجمعنا مع المسيحيين، بتراث التاريخ الديني المشترك، وبرصيدٍ تأريخيٍ من المعتقدات والأخلاق، وإنَّنا لا نريد الدِّين عصبية عداءٍ؛ ولكن وشيجة إخاءٍ في الله الواحد"[(٧)].

قلتُ: وهل أنت أحرص من الله ورسوله على ما ينفع الناس، وهل أنت أعلم من الله ورسوله بما يصحُّ أن يعتنقه الناس.

---

(١) نظرات شرعية في فكر د. حسن الترابي، لسليمان الخراشي، ص٧.

(٢) المرجع السابق، ص١٧.

(٣) تجديد الفكر الإسلامي، لحسن الترابي، ص٢٦.

(٤) تجديد أصول الفقه، لحسن الترابي، ص٢٥.

(٥) العصرانيون، لمحمد الناصر، ص٢١٨ - ٢١٩.

(٦) نظرات شرعية في فكر د. حسن الترابي، لسليمان الخراشي، ص ٢٦.

(٧) المرجع السابق، ص١١.

٩- سوء أدبه مع النبي ﷺ وسنَّته المُطهرة، فيقول الترابي بلهجته العامية: "ما برضه الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، ومرات ومرات يقول أخبار تطلع غلط"[(١)]، ويقول عن حديث الذبابة المُخرَّج عند البخاري وغيره، والذي أخبر فيه ﷺ أنَّ الذباب في أحد جناحيه داءٌ وفي الآخر دواء[(٢)]، فيقول الترابي:" إنَّه أمرٌ طبيٌّ، آخذُ فيه بقول الكافر، ولا آخذ فيه بقول الرسول ﷺ، ولا أجدُ في ذلك حرجاً البتَّة"[(٣)].

قلتُ: خذ بقول من شئت؛ ولكن اعلم أنَّك محاسبٌ على كلِّ قولٍ وعلى كلِّ فعلٍ، ثمَّ لا أدري كيف تطيب نفسك أن تُقدِّم قولاً على قول رسول الله ﷺ، والله ﷻ يقول:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾[الحجرات:١] .

ويقول الترابي عن عصمة النبي ﷺ وغيره من الأنبياء، بلهجته العاميَّة:" ولا إيه تقول في القرآن في الليى عملوه الأنبياء دول، والرسول ذاته ﴿ **لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ** ﴾، وكان الرسول يستغفر، يستغفر من إيه؟ من الصلاة؟ هآهآهآهآ"[(٤)].

١٠- يعترض على عدالة الصحابة، فيقول:" كلُّ الصحابة عدول؟ ليه؟!!"[(٥)]، ويقول في سخريته بابن عباس ﷺ:" وابن عباس ده كم مرة قال كلام كده، وززُّوه[(٦)]"[(٧)].

ويصف الترابي عصر الصحابة بأنَّه عصر طغيان الفرد وعصابات الفكر، فيقول:"إنَّ الصحابة عاشوا عهداً للبشرية تضعُف فيه وسائل الاتصال المادية بين الناس، ويسود فيه طغيان الفرد وعصابات الفكر "[(٨)].

ويقول عن تنظيمه الذي يترأسه في السودان، مُفضِّلاً له على مجتمع الصحابة:" يعني نحن الآن تنظيم جماعة كالجماعة الإسلامية، أدقُّ من تنظيم جمهور المسلمين في عهد الصحابة، نحن آخذين نفس الآيات ونفس الأحاديث، وطلَّعنا مجتمع أدق وأكفأ"[(٩)].

---

(١) الصارم المسلول على الترابي شاتم الرسول، لأحمد بن مالك، ص٧٣.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه، فإن في إحدى جناحيه داء والأخرى شفاء، رقم ٣٣٢٠.

(٣) نقلاً عن نظرات شرعية في فكر د. حسن الترابي، لسليمان الخراشي، ص١٦.

(٤) نقلاً عن رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية ومنكري السنة، لسيد العفاني، ص٧٢.

(٥) نقلاً عن دراسات في السيرة النبوية، لمحمد سرور، ص٣٠٨.

(٦) أي: ضيقوا عليه وأحرجوه حتى أقر وسلَّم بالحقيقة، وهذه الكلمة تُقال باللهجة العامية ولها أصل في اللغة من الفعل زرَّ. انظر: لسان العرب، لابن منظور(٣٢١/٤).

(٧) نقلاً عن رياض الجنة في الرد على منكري السنة، لسيد العفاني، ص٧٣، نقلاً عن محاضرة صوتية للترابي.

(٨) نقلاً عن نظرات شرعية في فكر الدكتور حسن الترابي، لسليمان الخراشي، ص٤.

(٩) نقلاً عن رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية، لسيد العفاني، ص ٧٣.

١١- ينكر الحديث المتواتر في نزول المسيح عليه السلام في آخر الزمان، فيقول:"أنا لا أُناقش من حيث سنده؛ وإنَّما يتعارض مع العقل، وهناك أحاديث قالها الرسول ﷺ بصفته البشرية، فهي ليست حُجةً رغم صحَّة أسانيدها"[١].

ولا أدري ماذا يقصد بقوله: قالها الرسول بصفته البشرية، هل يُخبر النبي ﷺ بنزول عيسى- عليه السلام- آخر الزمان بصفته البشرية؟؟، هذا أمرٌ غيبيٌّ أخبره الله ﷻ به.

١٢- ينكر الحدود الشرعية، كحدَّ الردَّة؛ بل وينكر الحكم بالردة على من بدَّل دينه، فيقول:"وأودُّ أن أقول إنَّه في إطار الدولة الواحدة والعهد الواحد، يجوز للمسلم كما يجوز للمسيحي أن يُبدِّل دينه"[٢]؛ ولذلك يُجوِّز الترابي زواج المسلمة من الكتابي، وينكر كذلك حدَّ الرَّجم بالنسبة للزاني المُحصن[٣].

١٣- يُجوِّز بعض المحظورات، كمصافحة المرأة للرَّجل الأجنبي، واختلاط الرجال بالنساء، وسفر المرأة دون محرم، وتقلُّد المرأة للإمامة العظمى، وكذلك تجويزه عملها سكرتيرة للرِّجال، وتجويزه استماع الموسيقى، وإباحته للغناء، وتضليله الشباب بقوله: "إنَّ الاشتغال بالغناء والموسيقى عبادةٌ!!"[٤]، ويقول عن الفنانين:" قد يكون باب الجنة الذي يدخلون منه، اسمه باب الفناين"[٥]، ويقول عن الرقص:" الرقص تعبيرٌ جميلٌ يُصوِّر معنىً خاصَّاً بما تنطوي عليه النفس البشرية من شعور... ولا نُنكر أنَّ في الغرب رقصاً يُعبِّر عن معانٍ كريمة"[٦].

ومن مصائبه أنَّه بعد كلِّ هذه الطَّوام والبلايا يغترُّ بنفسه ويمجِّدها، فيقول مزكياً لنفسه:" كما قدَّر الله وأرسل محمداً ﷺ خاتماً للأنبياء؛ ليُجدِّد رسالتهم، فبتوفيقٍ من الله أرسلني لتجديد فقه محمد"[٧].

---

(١) الصارم المسلول على الترابي شاتم الرسول، لأحمد بن مالك، ص٦.

(٢) نظرات شرعية في فكر الترابي، لسليمان الخراشي، ص١٢.

(٣) انظر: مفهوم التجديد بين السنة النبوية وأدعياء التجديد المعاصرين، لمحمود الطحان، ص٣١، والصارم المسلول على الترابي شاتم الرسول، لأحمد بن مالك، ص١٢.

(٤) الدِّين والفن، لحسن الترابي، ص١١٠، وانظر: نظرات شرعية في فكر الدكتور حسن الترابي، لسليمان الخراشي ص ١٦.

(٥) الدين والفن، لحسن الترابي، ص١٠٦.

(٦) الصارم المسلول على الترابي شاتم الرسول، لأحمد بن مالك، ص١٢، نقلاً عن جريدة الصحافة الصادرة في الخرطوم ١٥/١١/١٩٧٩م.

(٧) نقلاً عن كتاب رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية، لسيد العفاني، ص٧٥.

سبع وعشرون: جمال البنا[١]: وقد جعلتُه في آخر الشخصيات العقلانية التي سأتحدثُ عنها في هذا البحث، لِما لهذا الرجل من انحرافاتٍ غريبةٍ لم يسبقه إليها أحدٌ، ولِما لضلالاته من آثارٍ سلبيةٍ على المجتمع، وخاصةً أنَّنا في زمن صناعة الرموز، وتطاول الأقزام على الأئمة الأعلام، وهو زمن الرويبضة، الذي أخبر عنه ﷺ، بقوله:(**سيأتي على الناس سنواتٌ خداعات، يُصدَّق فيها الكاذب، ويُكذَّب فيها الصادق، ويُؤتمن فيها الخائن، ويُخوَّن فيها الأمين، وينطق فيها الرويبضة، قيل: وما الرويبضة؟ قال: الرجل التافه يتكلم في أمر العامة)**[٢].

يُعدُّ جمال البنا من أخطر الشخصيات العقلانيَّة في الواقع المعاصر، حيث ينادي بأفكاره المسمومة المدسوسة على الفكر الإسلامي الطاهر في كتاباته وعلى شاشات الفضائيات، وهناك عدَّة قضايا تبنَّاها في كتبه، خالف فيها إجماع المسلمين، وحرَّف لأجلها آيات القرآن الكريم، وابتدع تفسيراتٍ لها من تلقاء نفسه، ومن هذه القضايا:

١- **موقفه من مصادر التشريع**: يظهر من كتابات جمال البنا وأقواله عدم الاعتداد بمصادر الأحكام الشرعية، فالقرآن يُحرِّفه، والسنة يُنكرها أو يؤوِّلها، والإجماع يردُّه، والقياس عنده واسعٌ، يقيس على هواه ما يريد، والاجتهاد من غير ضوابط، وأكثر المصادر أهميةً في رأيه الذي تعصَّب له هو العقل الذي يستدلُّ به على مقاصد الشريعة من عدلٍ، أو تيسيرٍ، أو مصلحةٍ، وهذا وإن كان معمولاً به عند أهل السنة والجماعة، إلَّا أن المصلحة عند أهل السنة والجماعة معتَبرةٌ منضبطةٌ شرعيةٌ، لا كما يظنُّ البنا وأمثاله، أنَّ أي مصلحةٍ مرجوَّةٍ سواءٌ كانت شرعيةً أو غير شرعيةٍ نُغيِّر الأحكام لأجلها، وقد تأثَّر البنا بهذه الفكرة حتى أصبح لا يعتدُّ بتفسير أحدٍ من أهل العلم، ولا يُقيِّد القرآن بالسنة؛ بل يُخضع النَّص لسلطان العقل والفكر، فقال في بيان مصادر التشريع عنده: "... وأقوى منها جميعاً، الرجوع إلى العقل، وتحكيم المنطق السليم، وطبيعة الشريعة ومقاصدها، حتى وإن كان الموضوع عبادياً؛ لأنَّه ما دام بعيداً عن ماهية الله ﷻ وعالم السمعيات، فإنَّه يخضع لحكم العقل والنَّظر وما يهدي إليه المنطق

---

(١) جمال أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي، ابن العالم المُحدِّث الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا، وشقيق الأستاذ حسن البنا، المرشد الأول لجماعة الإخوان المسلمين، يُصنف على أنه كاتب ومفكر إسلامي، من دعاة التجديد، ألف العديد من الكتب، والمقالات، التي تبنى فيها منهجه في التجديد على حسب زعمه، منها: الأصلان العظيمان، والسنة ودورها فى الفقه الجديد، التعددية في المجتمع الإسلامي، وإخواني الأقباط، والإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة، والإسلام وحرية الفكر، وهو لا يزال على قيد الحياة ويعيش في مصر حتى وقت كتابة هذا البحث. انظر: مقال منشور على موقع العربية نت www.alarabiya.net، بتاريخ ٩ مارس ٢٠٠٦.

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب الصبر على البلاء، رقم ٤٠٣٦، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ١٨٨٧.

السليم، والقول بغير ذلك يحرِم الناس من استخدام عقولهم، ويُعطِّل ملكات التفكير، ويجعلهم أسرى للروايات"(١).

وقال أيضا وهو يقارن بين المناخ الذي عاش فيه الفقهاء الأوائل والعصر الحديث: "ولكنَّ الصورة تختلف اختلافاً جذرياً في العصر الحديث؛ وذلك لاستفاضة الثقافة والمعرفة، ونشر المراجع الإسلامية القديمة والحديثة، ومناخ الحرية، وانعتاق الفكر من أسار العقلية النقلية"(٢).

وهو بذلك يهدم حقيقة النص، ويُوسِّع التحريف، ويُسوِّغ التأويل، ويُبطل التفاسير، ويُلغى المعاني، ويجعل المحكم متشابهاً، ويقول في موضعٍ آخر:" ومثل هذا ما يقال عن أن القرآن حمَّالٌ ذو وجوه، وأنَّه يمكن أن يتضمن حكماً كما يتضمن نقيضه، ويمكن أن يفهم واحدٌ ما لا يفهمه الآخر، فهذا كلَّه من مزايا القرآن؛ لأنَّه يُفسح المجال للتعددية"(٣).

ويظهر تطبيق البنا لهذا الكلام من خلال آرائه، حيث يلجأ إلى ترك المعاني المُعتمدة من تفسير الصحابة، أو إجماع المفسرين، ويأتي بمعنىً يراه عصرياً على حسب زعمه، يتناسب مع العصر الحديث، مُعتمداً على أنَّ القرآن ذو أوجهٍ، وكلَّ ما فهمه القارئ فهو صحيح(٤).

وتجاوز جمال البنا مرحلة تقديم العقل على الشرع، إلى مرحلة أخطر منها بكثيرٍ، وهي تحكيم العقل على الشرع، ولئن كانت المرحلة الأولى تُعطِّل الشرع؛ لأنَّها تُقدِّم العقل عليه، فإنَّ المرحلة الثانية تهدم النَّص هدماً، ومن هنا تقرر لدى جمال البنا عدم الرجوع لتفاسير الصحابة، فضلاً عن غيرهم من التابعين والأئمة، وعدم الاعتداد بها؛ بل يرى أنَّ النظر فيها مضيعةٌ للوقت، وهدراً للفكر، ويُعطِّل ملكات التفكير، ويجعلهم أسرى للروايات"(٥).

إنَّ هذا الذي يقول به جمال البنا لا يقبله مسلمٌ صافي الفطرة، حتى أنَّ جمال البنا نفسه كان يحسُّ بذلك، فقد قال مرةً: "مع هذا كلِّه فنحن نعلم أنَّ هذا الكلام لن يكون سائغاً لدى كثيرٍ من الناس الذين تحجَّرت عقولهم، واستعبدتهم أقوال الأئمة منذ انغلاق باب الاجتهاد، فاستمرأوا التقليد، وعجزوا عن التفكير، وهيمنت عليهم قداسة السلف"(٦).

ويذهب جمال البنا إلى عدم حجيَّة السنة، ويرى" أنَّ مئاتٍ من الأحاديث الموضوعة لا تزال موجودةً في كتب الصحاح"(٧)، ويرفض فكرة تفسير القرآن بالسُّنة، فيقول:" لقد كفانا الله ﷻ المؤنة

---

(١) لا حرج، لجمال البنا، ص٩٤.

(٢) المرجع السابق، ص٦٠.

(٣) إستراتيجية الدعوة الإسلامية، لجمال البنا، ص٥٧.

(٤) انظر: تفسير القرآن، لجمال البنا، ص٧.

(٥) لا حرج، لجمال البنا، ص٩٥.

(٦) تجديد الإسلام وإعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية، لجمال البنا، ص٢٣٨.

(٧) الإسلام كما تقدمه دعوة الإحياء الإسلامي، لجمال البنا، ص٧٨.

عندما قال:﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ﴾، وكرَّرها أربع مرات، ولم يكن القرآن ليكرِّرها إلَّا ولها حقيقةٌ، وحقيقتها ما ذكرنا أنَّ القرآن يُعطي أثره بالانطباع لدى كلِّ واحدٍ يريد أن يذَّك"[١]، ولقد أقرَّ جمال البنا نفسه بعد ذكر هذا الرأي بأنَّ هذا المذهب يُثير البلبلة، فقال:" وقد يُقال إنَّ هذا يُحدث البلبلة، والإسلام لا يضيق بالبلبلة؛ لأنَّها هي أول خطوةٍ للوصول إلى الحقيقة"[٢]، ويُشبه كلام البنا هذا مذهب المتكلمين في ذكرهم لأول واجبٍ على المكلف، حيث قالوا:" أوَّل الواجبات الشكُّ؛ لأنَّ القصد إلى النظر بلا سابقة شكٍّ يقتضي طلب تحصيل الحاصل"[٣].

ويرى جمال البنا كغيره من العقلانيين ردَّ أحاديث الآحاد؛ وأنَّها هي التي أوجدت تفرقةً واختلافاً فى صفوف المسلمين، إذ هى التى فرَّقتهم إلى سُنِّيين وشيعة، يضرب بعضهم رقاب بعض، وهى التي فرَّقتهم إلى السلف والخلف[٤].

إنَّ جمال البنا وأمثاله من العقلانيين تلاعبوا بجميع مصادر التشريع؛ فتقبَّلوا القرآن على أن يتعاملوا مع نصوصه بانتقائيةٍ وتأويلٍ، ورفضوا السُّنة بحُجة ضعف الأحاديث والتشكيك بالرجال، وتنصَّلوا من كلِّ الثوابت عند المسلمين.

إنَّ من المنهجية المبتدعة في قبول السنة أو ردِّها عند جمال البنا، عرض السنة على القرآن، فما وافق القرآن فهو من السنة، وتكون السنة في هذه الحالة لمحض التأكيد، والحجة هو القرآن فقط، وما خالف القرآن بإثبات حكمٍ شرعيٍّ جديدٍ؛ فهو عنده ليس من السنَّة، ولم يقلْه النبي ﷺ، ولا حجة فيه، وهكذا اتخذ أعداء السنة من منهج عرض السنة على القرآن الكريم قاعدةً ينطلقون منها للتشكيك في حجية السنة المطهرة وهدمها.

يقول جمال البنا: "هناك أحاديث جاءت بما لم يأتِ به القرآن، ونحن نحكم عليها في ضوء القرآن، فما لا يخالف القرآن يُقبل، وما يخالفه يُستبعد"[٥]؛ بل وينكر بيان السنة لأركان الإسلام، فيقول: "بيان النبى فى العبادات من صلاةٍ أو زكاةٍ أو صيامٍ أو حجٍّ أو شورى... الخ، ليس تشريعاً دائماً لازماً"[٦].

ويقول أيضاً :"عرض الأحاديث على القرآن، سيؤدِّى إلى التوقُّف أمام الأحاديث التى جاءت عن المغيبات بدءاً من الموت حتى يوم القيامة، والجنة والنار، فهذه هى ما استأثر الله ﷻ بعلمها،

---

(١) تجديد الإسلام، لجمال البنا، ص٢٣٦.

(٢) الإسلام كما تقدمه دعوة الإحياء الإسلامي، لجمال البنا، ص٧٢.

(٣) المواقف، للإيجي(١/١٦٧).

(٤) انظر: كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها، للشربيني(١/٦٨٥).

(٥) المرجع السابق(١/٢١٧).

(٦) السنة ودورها فى الفقه الجديد، لجمال البنا، ص١٩٣، وانظر: المرجع نفسه، ص١٧٠، ١٩٥، ٢٠٣، ٢٢٥.

ويدخل فى الغيب التنبؤ بما سيحدث قبيل الساعة، ممَّا يُسمُّونه الفتن، ويدخل فيها المهدى، والدجال، وما إلى هذا كلِّه، والأحاديث التى تتحدث عن الفتن، والمهدى، والدجال، ثمَّ الموت، وعذاب القبر، فالحشر، والنشر، والجنة، والنار، تجاوزت المئات إلى الألوف، ونحن نطويها دون حساسيةٍ أو أسىً"[١]؛ وبناءً على ذلك فأحاديث الأمور الغيبية التى أخبر بها المعصوم ﷺ، والتى تُعدُّ من الأدلة على صدق نبوته ﷺ، هي مردودةٌ عنده من غير أسىً؛ بحجة أنه ﷺ، لا يعلم الغيب، قلتُ: سبحان الله، ما أشدَّ جرأته في الباطل، يقول عن آلاف الأحاديث أنَّه سيطويها دون حساسيةٍ أو أسى، نسأل الله ألا يميت قلوبنا، وأن تبقى حيَّةً بحبه وتعظيمه وتعظيم دينه.

يقول جمال البنا: "إنَّ النهوض بالإسلام يكون بالعودة إلى القرآن الكريم مباشرةً، دون تقيُّدٍ بتفسيرات المفسِّرين، وضبط السُّنة بمعاييرَ من القرآن، إذ ثبت أنَّ السند لا يمكن أن يكون معياراً؛ لأنَّه جزءٌ من عملية الوضع التى فشت فى الحديث، فلم يبقَ إلا الاحتكام إلى القرآن، وأخيراً عدم الالتزام بالأحكام الفقهية التى وضعها أئمة المذاهب الأربعة أو غيرهم"[٢]؛ ويقرر جمال البنا أنَّ الأمر الطبيعي للشريعة أن يُترك ما بين الفقهاء ومحابرهم، وما بين الجماهير ومشاعرهم، وأن تكون العلاقات حرةً ومتفتحةً، فهذا الوضع يدفع لازدهار الفقه، وبالتالي الشريعة، وتفتُّح آفاقها وفنونها[٣].

وبناءً على هذه المنهجية التي اتَّبعها جمال البنا كانت الدعوة إلى فتح باب الاجتهاد الذي أراد العقلانيون من وراءه إعادة قراءة النصوص القرآنية قراءةً جديدةً بعيدةً عن أدوات الاجتهاد.

٢- موقفه من السَّلف والعلماء: إنَّ من طوام جمال البنا تقليلُه من شأن العلم والعلماء، ولا يكاد مؤلفٌ من مؤلفاته يخلو من همزٍ ولمزٍ للسلف الصالح؛ بل يُصرِّح في بسيلٍ من التُّهم الموجهة لهم، فهو يرى أنَّهم أتباع سلاطين، وعلماء جماهير، يتلقَّون علمهم من قصص أهل الكتاب، وأنهم استخدموا الأسانيد في تركيبها على أحاديث لترويج مذاهبهم الفقهية أو العقائدية، حتى إنَّه قد استخفَّ بعلم الصحابة ﷺ وفعلهم، فقال: "ومعنى هذا عدم الالتزام بما روَوه من أحاديث عن النبي ﷺ، ومن باب أولى عدم الالتزام بما جاء عن الصحابة؛ لأنَّ الصحابة ليسوا مُشرِّعين"[٤].

وقال:" لا يهولنَّك جمهرة الصحابة والتابعين، تلك الروايات التي رُويت على لسانهم أقوالٌ حتى لو صحَّت جدلاً، وهي لا تصح، فلا قيمة لها؛ لأنَّ الصحابة والتابعين ليسوا ملائكةً معصومين، وليس لهم صفةٌ، وإنَّ الحديث عنهم بالجمع وجزافاً، لا بدَّ وأن يكون قابلاً للبُطلان، فليس الصحابة هم الذين

---

(١) السنة ودورها فى الفقه الجديد، ص٢٤٩-٢٥١.

(٢) المرجع السابق، لجمال البنا، ص٣٣ وما بعدها.

(٣) الإسلام وحرية الفكر، لجمال البنا، ص٩٨.

(٤) تفسير القرآن بين القدامى والمحدثين، لجمال البنا، ص٩٠.

أبصروا الرسول؛ لأنَّ الصحبة التي تستحق العدالة هي الصحبة الطويلة والملازمة الدائمة، وأن تُثبت أعمالها أقوالها"(١).

ويتطاول على ابن عباسﷺ بافتراءاتٍ من عنده لم يذكرها أحدٌ من أصحاب السير والتراجم، فيقول:" وفي حياة ابن عباس حدثٌ تاريخيٌ وقع عندما ولَّاه الإمام عليٌّ بن أبي طالبٍ ولاية البصرة، ولم يرسل ابن عباس ميزانية هذا المصر الهام، فاستحثَّه الإمام علي فتثاقل، وكانت بينهما مراسلاتٌ مؤثِّرة، انتهت بأن استحوذ ابن عباس على ما في بيت المال وأخذه، ثمَّ ذهب إلى مكة فابتنى قصراً واشترى جواري ... إنَّ هذا الحدث يُلقي ظلالاً كثيفةً على شخصية ابن عباس، وعلى المرويات التي تكون قد صدرت عنه فعلاً؛ لأنَّ لهذا الحدث؛ بل السقطة الجسيمة دلالتها السئية، ولا يُنجِّيه منها أيُّ تأويلٍ، ولا نرى ذكراً لهذا الحدث في تراجم ابن عباس لدى المحدثين إما جهلاً منهم، وإما تستُّراً، والحقُّ أحق أن يُتبع، وهو يقضي على الرجال كائناً ما كانوا"(٢).

قلتُ: هل شاهد جمال البنا ذلك أو أدركه أو قرأه في كتابٍ يدلّنا عليه؛ بل هو يعترف على نفسه بأنَّه ليس لهذا الحدث ذِكرٌ في تراجم ابن عباس؛ وأنا لا أدري من أين جاء بهذا الافتراء.

ويطعن جمال البنا في الأسانيد، ورواتها، وأهل العلم، والأئمة منهم، والرواة عنهم، ويطعن بالمناهج العلمية المُعتبرة عند الأمة، وطرائق العلم المسلوكة، فيقول:" نحن لا ندخل في صراعٍ فكريٍ مع الفقهاء في قبولهم تفسير الصحابة والتابعين؛ لاختلاف المناهج التي يدور عليها النقاش، فنحن نأخذ بمنهج طبائع الأشياء، والأمر الثابت القطعي، والعقل، والمنطق، وهم يأخذون بالأقوال فيُدافعون عن المرويَّات بالمرويات، وهذا لا يستقيم، ولا يُعملون ذهنهم أو فكرهم أبداً، وإنَّما قيل وقال"(٣).

ومن مخالفته كذلك لمنهج العلماء والسلف حصره تفسير القرآن على القرآن فقط؛ وذلك ليسلم له مذهبه في ردِّه تفسير آياتٍ كثيرة؛ وليختار من تفسيره لنفسه ما يشاء، وليحمِّل الآية ما لا تحتمل، فيقول: "إنَّ من الثابت أولاً أنَّ الله ﷻ قال:﴿ **وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ** ﴾[القمر:١٧]، فدلَّ على تيسير القرآن للذِّكر، بما لا يحتاج ضرورةً لتبيين، وأكثر من هذا وضوحاً، وصف الله تعالى القرآن بأنَّه مُبيَّنٌ، والمُبيَّن لا يحتاج إلى بيان"(٤).

---

(١) تفنيد دعوى النسخ، لجمال البنا، ص٤.

(٢) تفسير القرآن بين القدامى والمحدثين، لجمال البنا، ص٩٨.

(٣) المرجع السابق، ص٩١.

(٤) المرجع السابق، ص٨٨.

وقال:" ولأنَّ من الأفضل أن نبذل هذا الجهد في توضيح مقاصد القرآن فضلاً عن قاعدتنا المُقرَّرة، وهي لا يُفسَّر القرآن إلا بالقرآن نفسه، وأنَّ القرآن ليس في حاجةٍ للتفسير؛ لأنه يُعطي أثره بالانطباع"[١].

وقال أيضاً مُبيِّناً أنَّه لا حاجة إلى التفاسير، ولا إلى السنة التي توضِّح كثيراً من معاني القرآن:" إنَّ دعوة الإحياء الإسلامي تُستشفُّ بالقراءة المُتكرِّرة للقرآن الكريم، وما تُخلِّفه هذه القراءة من انطباعات روح القرآن، والمضامين الرئيسية التي تنطوي عليها سوره وآياته"[٢].

صحيحٌ أنَّ أفضل طرق التفسير هي تفسير القرآن بالقرآن[٣]؛ لكنَّ أهل العلم لا يحصرون الطرق عليها، ويتركون الطرق الأخرى المُبيِّنة لمعاني الكتاب العزيز، مثل التفسير بالسنة الصحيحة، وأقوال الصحابة، والفرق بين منهج السلف ومنهج جمال البنا وأمثاله من العقلانيين، أنَّ أهل العلم يسعون جادِّين لبيان المعاني؛ فيحرصون على كلِّ طريقٍ يدلُّهم على المعنى، على منهجٍ لهم في ترتيب هذه الطرق، بينما جمال البنا لا يسعى للمعنى بقدر ما يسعى لتوظيف النَّص لما يهوى.

٣- ردُّه للأحكام والحدود: حيث تبنَّى في أكثر من كتابٍ له ردَّ الأحاديث الصحيحة الواردة في الحدود، والمُخرَّجة في صحيحي البخاري ومسلم[٤]، ومن الأمثلة على ذلك إنكاره لحدِّ الردة، فهو يقول بحريَّة العقيدة والرأي بإطلاقٍ، حيث ذهب إلى أنَّ قتل المرتد أو حتى مجرد استتابته؛ إنَّما هو إكراهٌ في الدين[٥].

ويقول:" نحن نرفض رفضاً باتاً، قلباً وقالباً، كلَّ فكرةٍ عن تكفير مرتدٍّ، أو إقامة حدٍّ عليه، أو تعزيرٍ؛ بل نحن نرفض مبدأ التكفير أصلاً، ونرى أنَّ الادعاءات عن حدِّ المرتد لا تقوم على قرآنٍ أو سنةٍ؛ ولكنَّها من وضع الفقهاء، في ضوء ظروفٍ معينةٍ تحكمت فيهم"[٦].

إنَّ قوله هذا مردودٌ عليه؛ فإنَّ حُكم الردة ثابتٌ بالسنَّة الصحيحة الصريحة، وعمل الصحابة ﷺ، والإجماع مُنعقدٌ على ذلك، حيث قال ﷺ في حديثٍ صحيحٍ صريح:**(من بدَّل دينه فاقتلوه)**[٧]،

---

(١) تجديد الإسلام وإعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية، لجمال البنا، ص٢٣٢.

(٢) إستراتيجية الدعوة الإسلامية، لجمال البنا، ص٥٥.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٣/ ٣٦٣)، مناهل العرفان، للزرقاني(١/ ١١).

(٤) انظر: موقفنا من العلمانية القومية الاشتراكية، لجمال البنا، ص٢٦، والجهاد، لجمال البنا، ص٦٥، والإسلام دين وأمة، لجمال البنا، ص١٦، وتثوير القرآن، لجمال البنا، ص٧٢.

(٥) انظر: حرية الاعتقاد في الإسلام، لجمال البنا، ص٥٢-٧١.

(٦) كلا ثم كلا، كلا لفقهاء التقليد، كلا لأدعياء التنوير، لجمال البنا، ص٦٢.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتد والمرتدة واستتابتهم، حديث رقم ٦٩٢٢.

وقال ﷺ كما عند البخاري أيضاً:**(لا يحلُّ دم امرئٍ مسلمٍ، يشهد أن لا إله إلا الله، وأنِّي رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدِّين التارك للجماعة)**[1].

٤- **موقفه من الحضارة الغربية:** إنَّ جمال البنا له علاقةٌ وثيقةٌ بالمستشرقين وكتاباتهم، ومتأثِّرٌ جداً بهم، ومفتونٌ بالغرب، فقد دعا إلى التعددية في المجتمع الإسلامي، ويقصد بها التعدد في حرية الديانة؛ وذلك لانبهاره بالتعددية الغربية، فقد قال: "ولو استمرَّ التقدم الحضاري للمجتمع الإسلامي، ولم يُبتلَ بما أوقفه لكان من المحتمل أن تصل التعددية في هذا المجتمع إلى مستوىً قريبٍ مما وصلت إليه التعددية في المجتمع الأوربي"[2].

ويقول أيضاً مستهزئاً بالمسلمين:" فأشهد صادقاً غير حانثٍ أنِّي وجدتُ عشراتٍ أو مئاتٍ من الأفراد لها عقولٌ لا تفضُل عقول الأنعام، ولا تريد أن تفكر، وتسأل في كلِّ صغيرةٍ وتافهةٍ، وتستفتي المُفتي، أو تلوذ باستخارةٍ، وتتحير أمام ما تعدُّه مشاكل، وهو ما لا يقف الطفل الأوربي الصغير أمامه"[3].

ولذلك ينادي جمال البنا بترك الوقوف عند حدود الإطار السلفي القديم بزعمه، إلى إعطاء الشريعة دفعةً جديدةً؛ لإبرازها في ثوبٍ جديدٍ يتَّفق مع مقتضيات العصر، قدر ما يختلف عن الثوب التقليدي[4].

٥- **موقفه من قضايا المرأة:** لقد تبنَّى جمال البنا قضايا غريبةً، حتى أصبح قريباً من كلِّ غريب، ومُقدِّمات كتبه تشهد بذلك، حتى قال في إهداء كتابه الحجاب: "إلى الملايين المجهولة عبر الأجيال ... إلى من جعلهن الفقهاء عوراتٍ، سجينات البيوت، مكسورات الجناح، محروماتٍ من الحرية والمعرفة والعمل، فعشن مقهوراتٍ، ومتن وفي النفس غُصةٌ، اعتذارٌ عمَّا جناه الأسلاف"[5]، وكأنَّه يقصد بعبارته هذه أنَّ الإسلام ظلم المرأة، وأنّ الفقهاء ضيَّقوا عليها، فيعتذر للنساء عن هذه القسوة؛ ليستميل قلوبهن إليه، فيقتنعن بما يزينه لهن.

ويرى جمال البنا أنَّ الحجاب ليس شرعياً، وليس من الإسلام، ولا لزوم للحجاب، وليس في القرآن والسنة أمرٌ بالحجاب، ويقول بأنَّ الحجاب فُرِض على الإسلام، ولم يَفْرِض الإسلام الحجاب، الحجاب لم يكن أبداً عقيدةً أو شريعةً؛ بل مُجرَّد عاداتٍ، وشعر المرأة ليس عورةً؛ بل يُمكنها أن تؤدِّي صلاتها بمفردها وهي كاشفة الشعر، وارتداء المرأة للبنطلون أكثر حِشمةً وسترةً، والاختلاط ضروريٌ، وهو من الطبيعة والفطرة، ويرى أنَّ الزواج صحيحٌ دون شهودٍ ولا مهرٍ ولا وليٍّ؛ ولذلك يرى صحَّة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الديات، باب قوله أن النفس بالنفس، حديث رقم ٦٨٧٨.

(٢) التعددية في المجتمع الإسلامي، لجمال البنا، ص١٨.

(٣) تجديد الإسلام وإعادة تأسيس منظومة المعرفة الإسلامية، لجمال البنا، ص٤.

(٤) انظر: هل يمكن تطبيق الشريعة، لجمال البنا، ص٣.

(٥) الحجاب، لجمال البنا، ص٤.

الزواج العرفي، وصحة زواج المتعة عند الشيعة!!؛ بل وأصدر كتاباً أكَّد فيه أنَّ زواج المتعة هو الحل الوحيد للأقليَّات المسلمة؛ حتى لا تقع في الزنا، أو تدخل في زواجٍ تخسر فيه الكثير حال الطلاق، ويرى أنَّ القُبلات بين الشباب والفتيات في الأماكن العامة مباحةٌ[1].

وسُئل مرَّةً: هل قضيةُ الحجاب تُعلي من شأنِ العنصريَّة الدينية؟ قال: "بالطبع؛ لأنَّ الحجابَ كان دائمًا مَطلَبًا للرجل في كلِّ الأديان؛ لأنَّه يدخلُ من باب السيطرةِ على المرأة ليس إلاَّ، وقد تخلَّصت منه كلُّ الأديان السماوية، ما عدا الدين الإسلاميَّ، الذي كُلَّما تخلَّص منه رجع له مرةً أخرى"[2].

ويرى البنَّا أنَّ المرأة قد ظلمها تشريع الإسلام؛ لأنَّه جعل ميراثها على النصف من ميراث الرجل؛ وبناءً عليه يُطالب بمساواة المرأة بالرجل في الميراث[3].

ويرى كذلك جواز إمامة المرأة للرِّجال في الصلاة ، وأنَّه من حقها أن تخطب الجمعة في الرجال، وأنَّ المرأة الأكثر علماً تؤمُّ الرجال في الصلاة!![4].

ونَسِيَ جمال البنا أو تناسى متعمداً قول النبي ﷺ:(**لن يُفلح قومٌ ولَّوا أمرهم امرأة)**[5]، والأحاديث الكثيرة التي بيَّنت أنَّ النساء كُنَّ يصلين مع رسول الله ﷺ، ومع أصحابه، ولم يرد ولو في روايةٍ واحدةٍ، أو حادثةٍ واحدة أنَّ امرأةً أمَّت الرِّجال؛ وإنَّما كنَّ يصلين خلف الرجال والصبيان لا أمامهم، وأفضل صفوف النساء آخرها، وشرُّها أولها؛ للبعد عن الرجال، لا أن تكون أمامهم أو صاعدةً على المنبر كما يزعم هذا السفيه وأمثاله؛ بل قوله هذا مخالفٌ لجميع المذاهب.

قال الشافعي– رحمه الله–:" ولا تجمع امرأةٌ بنساءٍ؛ لأنَّ الجمعة إمامة جماعةٍ كاملةٍ، وليست المرأة ممَّن لها أن تكون إمام جماعةٍ كاملة"[6].

وذهب المالكية إلى أنَّهُ لا تصحُّ إمامة النساء مطلقاً، ولا لبنات جنسها، لا في الفرض، ولا في النفل، وكره الأحناف ذلك، وأجاز الشافعية والحنابلة صلاة النساء للنساء لورود الآثار الصحيحة في ذلك[7]، والأئمة الأربعة– رحمهم الله تعالى– يُبطلون صلاة الرجال خلف النساء، وهو إجماعٌ من أقوى الإجماعات العملية، ولم يرد ولو مرةً واحدةً من لدن رسول الله ﷺ إلى اليوم أنَّه أُجيز لامرأةٍ أن تؤمَّ رجلاً، وقد كان من الصحابيات من هن من أكابر أهل العلم في الفتوى كعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها وغيرها،

---

(١) انظر: مقال منشور على موقع العربية نت www.alarabiya.net، بتاريخ٧/٣/ ٢٠٠٨.

(٢) نقلاً عن كتاب: وَامُحَمَّدَاهُ{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}، لسيد العفاني،(١٩٩/٤).

(٣) انظر: تفنيد الشبهات حول ميراث المرأة في الإسلام، لأبي عاصم الشحات، ص٢٥.

(٤) نقلاً عن الصواعق السماوية علي منكري آيات الكتاب وصحيح السنة، ص٢٩.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر، رقم ٧٠٩٩.

(٦) الأم، للشافعي(٢٢١/١).

(٧) الموسوعة الفقهية الكويتية، لوزارة الأوقاف الكويتية(١٦٧/٢٧).

ومع ذلك لم يُسند النبي ﷺ إليهن إمامة الرجال، أو خطبة الجمعة بهم، ولا في واقعةٍ واحدة، والمرأة يجوز لها حضور الجمعة والجماعات استحباباً لا فرضاً، فكيف يُسوَّغ لها أن تتقدم الرجال فتؤمهم وتخطب فيهم(١).

إنَّ الملاحظ أنَّ جمال البنا يحبُّ الخروج عن كلِّ ما هو معروفٌ، والبحث عن كل ما شذَّ، ولديه ولعٌ بالبحث عن مخالفة ما سار عليه المسلمون، ومن أقواله الغريبة في ذلك أنَّه قال:" ويجوز للمرأة أن تتيمم بدلاً من الوضوء بالماء إذا كان الماء يُؤذي جمال وجهها، كأن يَظهر من أثر الوضوء في الشتاء ما يُشين، هذا إذا كان الوضوء يؤثِّر على جمال المرأة في وجهها"(٢).

٦- **موقفه من تاريخ الأمة:** إنَّ من مصائب جمال البنا نظرته السوداء لتاريخ الأمة المجيد، فهو يرى أنَّ مجد الأمة انتهى بمقتل عثمانﷺ، ثمَّ استحال مُلكاً عضوضاً، سيطر فيه الحكام الظلمة على الملك، وتمكَّنوا من تسخير الدِّين والعلماء لتثبيت ملكهم؛ فاضطرَّ العلماء إلى استعمال الأحاديث، وتركيب الأسانيد؛ للترويج لأولئك الحكام.

وبناءً على هذه النظرة السوداء لتاريخ الأمة أصبح جمال البنا كلَّما مرَّ عليه قولٌ مُجمعٌ عليه أرجعه لتاريخ الأمة الذي هيمن عليه الإسناد، حتى أصبح يرى أنَّ تاريخ الأمة وعلمها لا يُرجع إليه، ولا يُستأنس به، فضلاً على أن يُحتج ويُستدلَّ به، فيقول عن جهاد الأمة المُشرِّف: "الجهاد كان في الماضي والحاضر من أكبر الموضوعات التي أُسيء فهمها"(٣).

ويقول عن تفاسير السلف- رحمهم الله-:" وقد كانت مُطالعاتي عبر خمسين عاماً مُخيِّبةً؛ بل رأيتُ شيئاً من التَّطفُّل على القرآن؛ بل والجناية عليه"(٤).

ويقول عن الحجاب: "وعلى مدار ألف عامٍ قد خضعت المرأة المسلمة لرأيٍ فقهيٍ مُتزمِّتٍ، يقضي على المرأة بأن تضع نقاباً كثيفاً يُغطي وجهها، ويحرمها من التعليم والعمل، ويحول بينها وبين الاختلاط أو التعرُّف على المجتمع، ويجعل مهمتها الوحيدة إرضاء الزوج، وإنجاب الأبناء وتربيتهم... فالحجاب الذي كان مُطبَّقاً طوال القرون الماضية كان هو النقاب الذي يغطي وجه المرأة، وبالتالي يعزلها عن المجتمع، ويعزل المجتمع عنها"(٥).

"إنَّ جمال البنا هذا هو الأخ الأصغر للشيخ حسن البنا- رحمه الله-، وبونٌ شاسعٌ بين الأخوين، فذاك داعيةٌ لا نُزكِّيه علي الله، وهذا ضالٌ مُضلٌّ"(٦)، قال أحد الكُتَّاب عنه: "هو قبيح البنا

---

(١) انظر: الصواعق السماوية على منكري آيات الكتاب، ص٤٠-٤١.

(٢) نقلاً عن مقال منشور على موقع ملتقى أهل التفسير على الرابط http://tafsir.net، بتاريخ ٢٢/١٠/٢٠١٣م.

(٣) الجهاد، لجمال البنا، ص٤.

(٤) تفسير القرآن بين القدامى والمحدثين، لجمال البنا، ص٧.

(٥) الحجاب، لجمال البنا، ص٥-٨

(٦) المرجع السابق، ص٥.

وليس جمال البنا؛ لأنَّ الجمال جمال الدين، والخلق، والاستقامة، والحياء، والخوف من الله، وحب رسول الله ﷺ أكثر من أنفسنا وأولادنا وآبائنا وأموالنا .. ذلك هو الجمال"[١]، ولم نعد ندري ماذا يمكن لجمال البنا أن يُخرِّف بعد هذا التخريف الذي لم يسبقه إليه أحدٌ.

إنَّه بجهود هؤلاء الكُتَّاب والمُفكِّرين كما يُسمُّون أنفسهم، "اندلعت الاتجاهات العقلانية في كلِّ مكانٍ، وبدأ تيارها الجارف يجتاح العالم الإسلامي، مُمثَّلاً في جهود الإحتلال الغربي، والتنصير، والباحثين، والموظَّفين الغربيين، والطوائف والأقليات غير المسلمة، والمستغربين من أبناء المسلمين، واتخاذ شتى الوسائل، من جمعياتٍ سرِّيةٍ وعلنيةٍ، وصحفٍ، ومجلاتٍ، ونشراتٍ، ومدارس، ودور نشرٍ، وأحزابٍ، وهكذا جنى المسلمون علقماً يتجرعونه حين ألقوا فلذات أكبادهم في أحضان الغرب، فقد رجع أبناؤهم ناقمين على دينهم، وعقيدتهم، وحضارتهم، وأمَّتهم، وجاؤوا بالأفكار الهدَّامة، ولم يُفيدوا من العلم والتقدم شيئاً يُذكر"[٢].

وهكذا لم تتوقف مسيرة المدرسة العقلية الحديثة عند الشخصيات المذكورة سابقاً؛ بل إنَّ هناك كُتَّاباً معاصرين، ومفكرين إسلاميين يسيرون على المنهج نفسه، ومنهم بعض الذين يسيرون في ركب الدعوة الإسلامية، قد فُتنوا بهؤلاء ومنهجهم، وينادون بالمنهج العقلي في تطوير العقيدة والشريعة، وأصبحنا نسمع ونرى بين الحين والآخر رجالاً قد طالتهم أيدي هذا التيار، فتمذهبوا بمذهبه في الرفع من شأن العقل والعقلانية على تفاوتٍ في جُرعات العقل فيما بينهم، ويدْعون إلى أن يكون للعقل دورٌ كبيرٌ في الاجتهاد وتطويره، وتقييم الأحكام الشرعية، وهؤلاء العقلانيون منهم العلماني اللاديني، المُتستِّر بالدِّين، ومنهم الإسلامي المُنحرف في طريقة الاستدلال ومنهجه، ومن تأمَّل أهداف وأفكار العقلانيين وجدها نفس أهداف وأفكار العلمانية؛ لكنَّ الفارق بينهما شكليٌّ فقط[٣].

وختاماً ربَّما يجد الإنسان تفسيراً لما قام به فلاسفة اليونان وفلاسفة الغرب من تقديسٍ لعقولهم، ورجوعهم إليها في كلِّ شاردةٍ وواردةٍ من أمور الغيب وشؤون الحياة، فقد حُرموا نعمة الوحي الإلهي، الذي يكشف للإنسان عن تلك العوالم المجهولة التي تخفى عليه، ولا تطولُها حواسُّه ولا عقله، فضلُّوا وأضلُّوا كثيراً، وضلُّوا عن سواء السبيل؛ ولكنَّ اللوم والأسى على من أنار الله بصيرته بالإسلام، وشرح صدره بالقرآن، فنبذ كلَّ ذلك وراء ظهره، وآثر الضلال على الهدى، والعمى على البصيرة، مُستدلَّاً بفلاسفة اليونان الوثنيين وعقولهم، يُزاحم بها نصوص الكتاب والسنة.

قال الحافظ ابن حجر- رحمه الله-:" وقد توسَّع من تأخَّر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم، ولم يقتنعوا بذلك، حتى مزجوا مسائل الدِّيانة بكلام

(١) الصواعق السماوية على منكري آيات الكتاب وصحيح السنة، ص١٨.

(٢) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٨٥.

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب، لمانع الجهني(١/٧٣-٧٤).

اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً يردُّون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل، ولو كان مُستكرَهاً، ثمَّ لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أنَّ الذي رتَّبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وأنَّ من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عاميٌّ جاهلٌ، فالسعيد من تمسَّك بما كان عليه السلف واجتنب ما أحدثه الخلف"[١].

(١) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني(١٣/٢٥٣) .

المطلب الثالث: منهج المدرسة العقلية الحديثة في فهم النص الديني

أولاً: أهمية التعرف على منهج المدرسة العقلية الحديثة:

إنَّ التعريف بمناهج المخالفين لمنهج السلف والردِّ عليهم من لوازم هذا العصر في حقِّ طلاب العلم، أداءً للأمانة، وتحذيراً لأجيال المسلمين من حملات التَّشكيك التي يقودها هؤلاء، وممَّا زاد من دواعي البحث والتعريف بمنهج هذه المدرسة، هو ما أصاب الأمة من الانحرافات الثقافية والفكرية، من فوضى في التأويل، وانحرافٍ في التفسير، بحيث ظهر اتجاهٌ في التعامل مع النصوص، يسعى إلى التحلُّل من كلِّ الضوابط العلمية، والقواعد الحاكمة، ويُصرِّح بشكلٍ واضحٍ أنَّ الطريقة القويمة في قراءة النَّص، وتدبُّر معانيه، هي القراءة المُتحرِّرة والمُتجاوزة لكلِّ الموروث عن المفسرين والمُحدِّثين والفقهاء؛ ممَّا أدَّى بأصحاب هذه النظرة إلى إقصاء وتهميش كلِّ ما قدَّمه السابقون من مساهماتٍ مشهودٍ لها بدقَّتها العلمية والمنهجية في تفسير النصوص.

وقد حذر علماء السَّلف من أهل البدع وأهل الأهواء، وأنكروا عليهم مقالاتهم، قال الإمام أحمد ابن حنبل- رحمه الله- ردَّاً على من يتحرج في بيان أحوال أهل البدع للناس:" إذا سكتَّ أنت، وسكتُّ أنا، فمتى يَعرِف الجاهلُ الصحيحَ من السقيم"[1].

وقال ابن تيمية- رحمه الله-:" ومثل أئمة البدع من أهل المقالات المُخالفة للكتاب والسنة، أو العبادات المخالفة للكتاب والسنة؛ فإنَّ بيان حالهم، وتحذير الأمة منهم واجبٌ باتفاق المسلمين، وتطهير سبيل الله ودينه ومنهاجه وشرعته، ودفع بغي هؤلاء وعدوانهم واجبٌ على الكفاية باتِّفاق المسلمين، ولولا من يُقيمه الله لدفع ضرر هؤلاء لفسد الدين، وكان فساده أعظم من فساد استيلاء العدوِّ من أهل الحرب؛ فإنَّ هؤلاء إذا استولوا لم يفسدوا القلوب وما فيها من الدِّين إلا تبعاً، وأمَّا أولئك فهم يُفسدون القلوب ابتداء،...فلا بدَّ من التحذير من تلك البدع، وإن اقتضى ذلك ذكرهم وتعيينهم؛ بل ولو لم يكن قد تلقوا تلك البدعة عن منافقٍ؛ لكن قالوها ظانِّين أنَّها هدى، وأنَّها خيرٌ، وأنَّها دينٌ ولم تكن كذلك؛ لوجب بيان حالها"[2].

ويجب أن يُعلم أنَّ الكلام في بيان البدع وأصحابها يجب أن يكون من باب النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين، لا للتَّشفِّي، والنقيصة من المخالف، وإلَّا كان آثماً.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-:" ولا يحلُّ للرجل أن يتكلَّم في هذا الباب إلا قاصداً بذلك وجه الله تعالى، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وأن يكون الدِّين كله لله، فمن تكلَّم في ذلك بغير علمٍ، أو بما يعلم خلافه كان آثما"[3].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٣١/٢٨).

(٢) المرجع السابق(٢٣٢/٢٨).

(٣) المرجع السابق(٢٣٤/٢٨).

ثانياً: المقصود بمنهج المدرسة العقلية الحديثة:

سبق أن عرَّف الباحث المنهج بأنه الطرق والأساليب المتكررة التي يعتمدها فردٌ أو جماعةٌ في التعامل مع قضية معينة، والمدرسة الفكرية هي عنوانٌ لإطارٍ مرنٍ، يضمُّ العديد من الأشخاص الذين تجمعهم أصولٌ يتَّفقون عليها، ومنطلقاتٌ ينطلقون منها، وغايةٌ يرومون تحقيقها، وعليه فإن منهج المدرسة العقلية الحديثة هو الطريقة أو الأسلوب الذي سلكته المدرسة العقلية الحديثة في معالجة الموضوعات والأصول والأحكام الإسلامية، ويشمل ذلك: منهج الاستدلال والعرض والنقد والحكم على الأشياء، والأدلة والبراهين التي تستند عليها في ذلك، ومصدر تلقي المعلومات والمفاهيم عن الإسلام.

ثالثاً: أبرز معالم المدرسة العقلية الحديثة في فهم النَّص الديني

إنَّ المدرسة العقلية الحديثة في منهجها وأسلوبها في دراسة الإسلام عقيدةً وشريعةً ومنهاج حياة، قد سلكت طُرقاً ومناهج وأساليب منحرفةً مُعوجةً وملتويةً تعتمد على الأهواء والآراء الشخصية، أو التقليد والتبعيَّة للمناهج الوضعية الغربية؛ فهي إلى الإنحراف أقرب منها إلى الاعتدال والصواب، ومن هذه المعالم، ما يلي:

١- **الإعلاء الشديد من قيمة العقل ومكانته:** لا يُنكِر صاحب عقلٍ ما للعقل من قيمة، وما له من مكانةٍ كبيرةٍ في الحياة عامة، ولا ينكر صاحب فَهْمٍ وعلمٍ ما له من قيمةٍ ومكانةٍ في الإسلام خاصة، وتشهد لذلك النصوص الكثيرة التي تدلُّ كلُّها عليه، وتشير إليه، ومع كلِّ هذا التكريم فقد كرَّمه الشرع تكرمةً أخرى عدَّها بعض مَن لا علم له ولا معرفة امتهانًا للعقل، وعدَّها ذوو العقول والألباب لا تقلُّ عن سابقها من المكارم؛ وهذه المكرمة أنَّه حدَّ له حدوداً لا يتجاوزها، ولا يتعدَّاها، لا لشيءٍ إلَّا لأنَّه سيضلُّ فيها ويتيه؛ ولأنَّها فوق مداركه وفوق قدراته وطاقته، ومن الخير كل الخير أن يقف دونها، ولا يخوض فيها، وفي هذا ولا شكَّ تكريمٌ عظيم(١)؛ ولكنَّ هؤلاء العقلانيين قد أعطوا العقل أكثر من حقِّه، وزعموا أنَّه خُلق ليعرف، وهو قادرٌ على أن يعرف كلَّ شيءٍ، وجعلوه الحَكَمَ الذي يحكم في كلِّ شيء، حكَّموه في إيمانهم وفي جميع شئونهم الخاصة والعامة(٢)، وقد أدى بهم تحكيم العقل المُجرَّد عن النَّص إلى أن شطحوا بعقولهم شطحاتٍ في الكتاب والسنة، وفي جوانب كثيرةٍ من العقيدة؛ فأدَّى بهم ذلك إلى أمورٍ خطيرةٍ، واعتقاداتٍ باطلة، وأحكامٍ زائفة، ما كانوا ليقعوا فيها لو احترموا عقولهم وقيَّدوها بحدود الشرع الحنيف(٣).

٢- **تقديم العقل على النقل:** يذهب أصحاب الاتجاه العقلي إلى تقديم العقل على النَّقل عند افتراض التعارض بينهما، وقد وصل بهم الأمر إلى تصوير هذه الفكرة وكأنَّها محلُّ اتفاقٍ بين المسلمين جميعاً،

---

(١) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، لفهد الرومي(٢/٧٢٨-٧٢٩).

(٢) انظر: الفكر الإسلامي بين الأمس واليوم، لمحجوب بن ميلاد، ص١١٤.

(٣) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي(٢/ ٧٢٩).

يقول محمد عبده:" اتَّفق أهل الملة الإسلامية إلا قليلاً ممَّن لا يُنظر إليه على أنَّه إذا تعارض العقل والنقل، أُخذ بما دلَّ عليه العقل، وبقي في النقل طريقان: طريقة التسليم بصحَّة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الأمر إلى الله في علمه، والطريق الثانية: تأويل النَّقل مع المحافظة على قوانين اللُّغة؛ حتى يتَّفق معناه مع ما أثبته العقل"(١).

وقال عبده أيضًا: "وتقرَّر بين المسلمين كافةً إلَّا مَن لا ثقة بعقله ولا بدينه، أنَّ من قضايا الدِّين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل، كالعلم بوجود الله، وبقدرته على إرسال الرسل، وعلمه بما يُوحي به إليهم"(٢).

قلتُ: لو كان الأمر كذلك لكان اليونان والفلاسفة أعرف الناس بالله ﷻ لِما وصلوا إليه من عقولٍ وعلوم؛ ولكنَّ الحقيقة أنَّهم كانوا وثنيين، ولو كان العقل يُدرك هذه الأمور لوحده كما يقول عبده فما الفائدة من إرسال الرسل وإنزال الكتب؟!.

إنَّ المدرسة العقلية الحديثة تعتبر أنَّ تقديم العقل على النقل من المُسلَّمات عندها، فهذا محمد عبده يذكر أصول الإسلام؛ فيَعُدَّ الأول والثاني منها: النَّظر العقلي، وتقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض؛ حيث يقول: "الأصل الأول للإسلام النظر العقلي لتحصيل العلم، فأول أساسٍ وُضع عليه الإسلام هو النظر العقلي...، والأصل الثاني للإسلام تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض...، وبهذا الأصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنة وعمل النبي ﷺ، مُهِّدت بين يدي العقل كلُّ سبيلٍ، وأُزيلت من سبيله جميعُ العقبات، واتَّسع له المجال إلى غير حدٍّ"(٣).

وهذا عبد العزيز جاويش يرفع العقل إلى مرتبةٍ تستطيع أن تصل بالنفس الإنسانية إلى مراتب الكمال في الأحكام والتَّصوُّرات والنظم الاجتماعية وغيرها، فيقول: "إنَّ من الممكن أن تصل العقول البشرية بالبحث والتنقيب والتجارب إلى ما تصبو إليه النفس الإنسانية من مراتب الكمال في الأحكام، والتصورات، والنظم الاجتماعية، والمسائل العلمية، والآداب الخلقية.....، فوظيفته في البشر رسم أقرب الطرق إلى الهداية، وحفظ العباد عن مواطن الهلاك التي يغشاها طُلَّاب الحقِّ والحقيقة، لا من طريق الوحي؛ بل من طرائق التجارب"(٤).

وفي هذا المعنى أيضاً يقول محمود شلتوت:" وقد اتَّفق العلماء على أنَّ الدليل العقلي الذي سلِمت مقدماتُه، وانتهت أحكامه إلى الحسِّ أو الضرورة، يُفيد ذلك اليقين، ويُحقِّق الإيمان المطلوب"(٥).

---

(١) الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، لمحمد عمارة(٣/٣٠١-٣٠٢).

(٢) رسالة التوحيد، لمحمد عبده، ص٧.

(٣) الإسلام والنصرانية، لمحمد عبده، ص٧٢-٧٥.

(٤) الإسلام دين الفطرة والحرية، لعبد العزيز جاويش، ص١٣٧، ص١٤٥.

(٥) الإسلام عقيدة وشريعة، لمحمود شلتوت، ص٥٣.

وهذا محمد فريد وجدي يستدلُّ بأحاديث باطلةٍ أو منكرةٍ أو ضعيفةٍ؛ ليُدلِّل على عقيدته في العقل، ويصف هذه الأحاديث وهي بهذه الدرجة بأنَّها قواعد إلهية!، فأورد حديثاً باطلاً منكراً، وهو: "الدِّين هو العقل، ولا دين لمن لا عقل له"[١]، ثم عقَّب قائلًا: "بهذه القواعد الإلهية نال العقل حريَّته، وتخلَّص من وِثاقٍ كان يئنُّ منه ويتعثر في أصفاده، وصار هو المُرشد الحقيقي للإنسان، وهي الوظيفة التي خلقه لأجلها الملك الديان"[٢].

ويعتقد محمد فريد وجدي أنَّ تقديم العقل على النقل، وتأويل النَّص قاعدةٌ أصولية، فيقول في تفسير بعض الآيات: "كلُّ هذه الآيات تتناولها القاعدة الأصولية التي انفرد بها هذا الدين، وهي أنَّه لو تعارض نصٌّ وعقلٌ أو علمٌ صحيح، أُوِّلَ النَّص، وأُخِذَ بحُكم العقل أو العلم، وقد أَوَّل آباؤنا من هذه الآيات ما خالف عقولهم، أو ناقض العلم الصحيح، ونحن نجري على سُننهم؛ فنُؤوِّل ما يُخالف عقولنا منها"[٣].

٣- تأويل النُّصوص بما يوافق العقل: لقد أعطت المدرسة العقلية الحديثة لعقلها حريةً واسعةً، فتأوَّلت الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل؛ لمجرد الاستبعاد والاستغراب؛ ولكنه استبعادٌ بالنسبة لقدرة البشر القاصرة، واستغرابٌ لا يكون إلا ممَّن جهل قدرة الله ﷻ [٤]؛ وبسبب هذه الحرية العقلية الواسعة حمّلت هذه المدرسة ألفاظ القرآن الكريم من المعاني ما لم يكن معهوداً في زمن نزول القرآن، وطعنت في الأحاديث الصحيحة، ولم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة في العقائد[٥].

ومن الأمثلة التطبيقية على ذلك أنَّ محمد رشيد رضا فسَّر الإمداد في قوله ﷻ:﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾[الأنفال:٩]، بما يُخالف الأحاديث الصحيحة التي أثبتت نزول الملائكة وقتالهم مع المسلمين في غزوة بدر، فقال رضا: "وظاهر نصِّ القرآن أنَّ إنزال الملائكة وإمداد المسلمين بهم فائدته معنويةٌ، وأنهم لم يكونوا مُحاربين"[٦].

---

(١) قال الشيخ الألباني: "الدين هو العقل ومَن لا دين له لا عقل له"، باطلٌ، وقال النسائي: حديثٌ باطلٌ منكر. انظر: سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، للألباني، ص١٣.

(٢) المدنية والإسلام، لمحمد فريد وجدي، ص٥٢.

(٣) الإسلام دين الهداية والإصلاح، لمحمد فريد وجدي، ص٩٢.

(٤) انظر: التفسير والمفسرون، للذهبي(٤٠٢/٢).

(٥) انظر: المرجع السابق(٤٠٣/٢).

(٦) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا(٥٦١/٢).

وفسر أيضاً المسخ في قوله ﷻ:﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾[البقرة:٦٥]، على غير حقيقته، وزعم أنَّ المقصود به الذلَّة، وليس المسخ في الخِلقة كما هو ظاهر الآية، فقال: "والمعنى أنَّ هذا الاعتداء الصريح لحدود هذه الفريضة قد جرَّأهم على المعاصي والمنكرات بلا خجلٍ حتى صار كِرام الناس يحتقرونهم ولا يرونهم أهلاً لمُجالستهم ومعاملتهم،.... وذهب الجمهور إلى أنَّ صُورهم مُسخت فكانوا قردةً حقيقين، ولو صحّ ذلك لما كان في الآية عبرةٌ ولا موعظةٌ للعصاة"(١).

قلتُ: كيف لا يكون مسخ صورة الآدميِّ المُكرَّم إلى قردٍ أو خنزيرٍ ليس فيه عبرةٌ ولا موعظةٌ للعصاة؟!.

لقد كان للنزعة العقلية البارزة عند هذه المدرسة دورٌ مُؤثِّرٌ في اختيارهم لِما يُوافق عقولهم في كثيرٍ من المسائل، وعن هذا الأساس عندهم تولَّدت أخطاءٌ وضلالاتٌ كثيرةٌ، مثل: إنكار التقليد وذمِّه، والانتقاص من التفسير بالمأثور، وردِّ بعض الأحاديث الصحيحة، وتأويل المُعجزات والخوارق بما يُبطلها، وتأويل القصص القرآنية بالتمثيل وعدم وقوعها، وإنكار الغيبيات كالملائكة والجن، وبعض علامات الساعة وأماراتها، وإنكارهم حقيقة السحر، وغير ذلك كثيرٌ، وكلُّها أمورٌ قد تولَّدت من هذا الأساس العميق المتأصِّل في منهجهم؛ بل هو عمود منهجهم الأول(٢).

٤- تحريف مدلول آيات القرآن الكريم والدعوة إلى إعادة النظر في تفسيره: إنَّ ممَّا لا شكَّ فيه عند أهل السنة والجماعة أنَّ القرآن الكريم هو كلام الله المُنزَّل على رسولنا محمد ﷺ، المُعجِز بألفاظه، منه سبحانه بدأ وإليه يعود(٣)، والإيمان بذلك أصلٌ من أصول الدِّين.

وقد تعرَّض القرآنُ الكريمُ إلى كثيرٍ من التشكيك وإثارة الشُّبهات، على يد المدرسة العقلية الحديثة، فمن طاعنٍ في أصل الوحي وإنكار جانب التنزيل، إلى مُشكِّكٍ في تفسيره، أو زاعمٍ حصول التناقض والتعارض بين بعض آياته!؛ بل وزعموا بأنَّ القرآن جاء نتيجةَ تأثيراتٍ روحانية، أو قوىً عقليةٍ لبعضٍ من تميَّز بعبقريةٍ فذَّةٍ في جانبٍ أو أكثر من جوانب الشخصية الإنسانية(٤).

يقول محمد عبده في تعريفه للقرآن، هو:"عرفانٌ يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنَّه من قِبل الله بواسطةٍ أو بغير واسطة، والأول بصوتٍ يتمثَّل لسامعه أو بغير صوت"(٥)،

---

(١) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا (٣٤٤/١).

(٢) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، لفهد الرومي(٧٣٧/٢).

(٣) انظر: شرح العقيدة الأصفهانية، لابن تيمية، ص٢٠، ومعارج القبول، لابن حكمي(٢٨٠/١).

(٤) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١٥٨.

(٥) رسالة التوحيد لمحمد عبده، ص١٠٣.

"وعلى تعريفه هذا يدخل كلُّ شعورٍ باطنيٍّ لدى أيِّ عاقلٍ في الوحي"[1].

وهذا محمد أحمد خلف الله يفتري على القرآن قائلاً:" القرآن يتقوَّل على اليهود، ويتقوّل أموراً لن تحدث، ويُقرِّر أمراً خرافياً أو أسطورياً، ثمَّ يعود فيقرر نقيضه، ويزيد ويُنقص بحكم الحرية الفنية[2].

ويرى أحمد زكي أبو شادي أنَّه لا بدَّ من إعادة النظر في فهم القرآن وتعاليمه، فيقول: "من الحقائق التي يجب التسليم بها أنَّ القرآن الشريف يجب أن يُعاد النظر في فهم تعاليمه، وتطبيقها من عصرٍ إلى عصر؛ بل من جيلٍ إلى جيل، وعلى هذا لا بدَّ من ظهور تفاسير جديدةٍ متمشِّيةٍ مع روح العصر وتقدُّم العلم، يؤلِّفها المُطَّلعون الواعون من المفكرين[3].

يتكلم هذا المفتون بهذا الكلام، "وكأنَّ القرآن اجتهادٌ بشريٌّ قابلٌ لإعادة النَّظر فيه وفي تعاليمه، كما يريد من القرآن أن يتمشَّى مع روح العصر، وروح العصر روحٌ جاهلية ماديةٌ، لا مكان فيها للخير والفضيلة، وهكذا يزعم ويصوِّر أنَّ فهم السلف وتفسيرهم للقرآن غيرُ متمشٍّ مع روح العصر"[4]؛ ولذا فإنَّ روَّاد المدرسة العقلية الحديثة يخالفون أقوال المفسرين الأوائل في كثيرٍ من التفاسير، ويجعلون أقوال أولئك المفسرين محصورةً في زمانهم، ومقصورةً على ما أُتيح لهم معرفته من العلوم، بخلاف زماننا الذي انتشر فيه العلم وتنوَّع، فينبغي أن يُفهم القرآن في ظلٍ آخر!ِ[5].

يقول حسن الترابي عن القرآن: "يبدو أنَّنا محتاجون فيه إلى تفسيرٍ جديد، فإذا قرأتم التفاسير المُتداولة بيننا تجدونها مرتبطةً بالواقع الذي صيغت فيه، كلُّ تفسيرٍ يُعبِّر عن عقليَّة عصره إلا هذا الزمان، لا نكاد نجد فيه تفسيراً عصرياً شافياً"[6].

وبعض العقلانيين كمحمد أحمد خلف الله وغيره يتَّهمون القرآن باشتماله على الأساطير والخرافات!، يقول محمد أحمد خلف الله في أمثال القرآن: "والأمثال لا يلزم أن تكون من الحقائق، فقد تكون من المُتخيَّلات ومن الأساطير والأوهام"[7]، ويقول أيضاً: "لا نتحرج من القول بأنَّ في القرآن أساطير"[8].

---

(١) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١٦١.

(٢) انظر: العصرانيون، لمحمد الناصر، ص٣٨٧.

(٣) المرجع السابق، ص١٦٨.

(٤) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١٦٩.

(٥) نقلاً عن كتاب العصرانيون، لمحمد الناصر، ص٢١٨.

(٦) المرجع السابق، ص٢١٩.

(٧) الفن القصصي في القرآن الكريم، لمحمد أحمد خلف الله، المقدمة.

(٨) المرجع السابق، ص٢٠٨.

وهكذا نجد أنَّ رواد المدرسة العقلية الحديثة حينما يأتون إلى آيات الله، فإنَّهم يعمدون إلى تحريف النص، وإبطال ما دلَّ عليه ظاهر الآية، وإنكار وتكذيب ما ورد في كتاب الله من القصص والأمثال، واعتبارها من باب الأساطير والخرافات، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

٥- إنكار السنة كلياً أو جزئياً: ذكر الباحث في النقطة السابقة موقف العقلانيين من كتاب الله، وتبيَّن مدى الجرأة على التحريف والتكذيب لما جاء فيه، ومن كان كذلك مع كتاب الله؛ فهو على ما دونه أجرأ، وأكثر تسلُّطاً.

لقد وقف العقلانيون من السنة النبوية الصحيحة موقفاً مُشيناً؛ وذلك لأنَّ كثيراً من الأحاديث الصحيحة تقتلع أصولهم من جذورها، وتفسد عليهم منهجهم الذي أصَّلوه وبنوا عليه طريقتهم؛ ولذلك سلكوا في ردِّ الأحاديث الصحيحة التي خالفتها عقولهم المريضة طُرقاً مختلفة، فبدؤوا يؤوِّلون الحديث بما يُوافق أهوائهم وعقولهم، فإن أعياهم تأويل الحديث ولم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، لجئوا إلى ردِّ الحديث، فإن كان غيرَ متواترٍ، استراحوا وقالوا: هذا خبر آحادٍ ظنيٌّ لا نقبله مطلقاً، وهذا هو نفس منهج المعتزلة القدماء، فمردُّ الأمر عندهم إلى الهوى وتحكُّم العقل، ولا يعنيهم أن يكون الحديث المردود في الصحيحين أو في غيرهما من كتب الحديث، وإن كان الحديث متواتراً بحثوا في سنده، وفي سيرة رواته علَّهم يجدون قشَّةً يتعلَّقون بها للطعن بهم حتى يردُّوا الحديث[١].

وقد نتج عن هذه المنهجية التقليل من شأن النص في دلالاته وقيمته العلمية، فكلَّما ورد حديثٌ لا يروق لأحدهم، أو يُخالف هواه ردَّه بدعوى أنه خبر آحاد، أو أنَّ دلالته ظنيةٌ، وهذين الأمرين مدخلٌ للإلحاد في شرع الله، وانعدام الثقة في كلام الله ورسوله، وتبريرٌ للمغرضين وأهل الأهواء للتلاعب بنصوص الشرع، وعدم الأخذ بها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عن الطعن في دلالة الأدلة الشرعية، والزعم بعدم إفادة الأخبار للعلم،:" ولا ريب أنَّ هذا عمدةُ كلِّ زنديقٍ ومنافقٍ يُبطل العلم بما بعث الله به رسوله، تارةً يقول: لا نعلم أنَّهم قالوا ذلك، وتارةً يقول: لا نعلم ما أرادوا بهذا القول، ومتى انتفى العلم بقولهم أو بمعناه، لم يُستفد من جهتهم علمٌ؛ فيتمكَّن بعد ذلك أن يقول ما يقول من المقالات"[٢]، وذكر شيخ الإسلام أنَّ هذين الأمرين من قواعد الإلحاد[٣].

وقد صرَّح العقلانيون بإنكار حُجيَّة السنة، والإعراض عنها، استناداً إلى شُبهٍ هي أوهن من بيت العنكبوت، كزعمهم أنَّ في التمسُّك بكتاب الله ما يُغني عن الالتفات إلى ما سواه، سنَّةً كان أو

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٣٦-٢٣٧.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/٨٩)،(٤/١٠٤).

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٥/٣٣٥).

غير ذلك[1]، وأصل هذه المقولة الفاسدة قديمٌ، وقد جاء التحذير منها ومن أهلها على لسان رسول الله ﷺ في أحاديث عدَّة تُبيِّن خبثهم، ومن هذه الأحاديث قول رسول الله ﷺ:**(ألا إنِّي أوتيت الكتاب، ومثله معه ألا يوشك رجلٌ شبعانٌ على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلالٍ فأحلُّوه، وما وجدتم فيه من حرامٍ فحرِّموه...)**[2]، وقول النبي ﷺ:**(لا ألفينَّ أحدكم مُتكئاً على أريكته، يأتيه الأمر ممَّا أمرتُ به، أو نهيتُ عنه، فيقول: لا أدري، ما وجدنا في كتاب الله اتبَّعناه)**[3]، وبيَّن رسول الله ﷺ أنَّ ما حرَّمه هو وما حرَّمه الله ﷻ في الحكم سواء، قال رسول الله ﷺ:**(وإنَّ ما حرَّم رسول الله كما حرَّم الله)**[4].

وقد تصدَّى السلف الصالح ﷺ لمنكري السنة، وحذَّروا منهم فور ظهورهم، وحكموا عليهم بأشدِّ الأحكام، فعن عبد الله بن عبَّاسٍ ﷺ قال: "من كفر بالرجم، فقد كفر بالرحمن"[5]، ومعنى قوله: كفر بالرجم، أي: أنكر وجوب رجم الزاني المحصن، وهو حكمٌ ثبت بالسنَّة، وسكت عنه القرآن الكريم.

وقال أيوب السختياني– رحمه الله–:" إذا حدَّثت الرجل بالسنة، فقال: دعنا من هذا، وحدِّثنا من القرآن، فاعلم أنَّه ضالٌ مُضلٌّ"[6].

وقال ابن حزم– رحمه الله–: "لو أنَّ امرأً قال: لا نأخذُ إلاَّ ما وجدنا في القرآن؛ لكان كافراً بإجماع الأمَّة"[7].

ويتبين من خلال أقوال رجال المدرسة العقلية الحديثة وكتاباتهم، مدى إنكارهم للسنة وردِّها، والتجنِّي على رُواتها من الصحابة والتابعين.

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون، للذهبي(٤٢٠/٢)، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة، لفهد الرومي، ص٣٣٣، ص٢٤١-٢٥٠.

(٢) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم٤٦٠٤، وصححه الألباني في صحيح الجامع رقم ٢٦٤٣.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، في افتتاح الكتاب، باب تعظيم حديث رسول الله ﷺ، والتغليظ على من عارضه، رقم١٣، وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه،أبواب العلم، بَابُ مَا نُهِيَ عَنْهُ أَنْ يُقَالَ عِنْدَ حَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ، رقم٢٦٦٤، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٥) أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب الزنى وحد، رقم ٤٤٣٠، وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان برقم ٤٤١٣.

(٦) إسناده صحيح، أخرجه الحاكم في معرفة علوم الحديث ص٦٥، والخطيب البغدادي في الكفاية في علم الرواية، باب تخصيص السنن لعموم محكم القرآن وذكر الحاجة في المجمل إلى التفسير والبيان (١٦/١)، والهروي في ذم الكلام ص ٢٠٨.

(٧) الإحكام في أصول الأحكام، لابن حزم(٨٠/٢).

فهذا محمود أبو ريَّة لمَّا قيل له: كيف تُنكر حُجية السنة وأنت تستدلُّ على ما ذهبت إليه بأحاديث منها؟، فأجاب: "الأحاديث التي أُوردها في سياق كلامي للاستدلال بها على ما أريد في كتابي، إنَّما أسوقها لكي نُقنع من لا يقنع إلَّا بها، على اعتبار أنَّها عنده من المُسلَّمات التي يُصدِّقها ولا يماري فيها"[١].

وهذا محمد أحمد خلف الله يقول عن الحديث الصحيح الثابت في البخاري، الذي يقول فيه ﷺ: **(من اصطبح بسبع تمراتٍ عجوة، لم يضرُّه ذلك اليوم سمٌّ ولا سحر)**[٢]، :"فهذا الحديث لا يُمكن أن يكون صحيحاً؛ لأنَّه مخالفٌ للعلم والواقع"[٣].

وهذا أحمد مصطفى المراغي يقول: "ومن ثَمَّ رأينا ألَّا نذكر روايةً مأثورةً إلَّا إذا تلقَّاها العلم بالقبول، ولم نرَ فيها ما يتنافر مع قضايا الدِّين التي لا خلاف فيها بين أهله، وقد وجدنا أن ذلك أسلم لصادق المعرفة، وأشرف لتفسير كتاب الله، وأجذب لقلوب المثقفين ثقافةً علميةً لا يُقنعها إلا الدليل والبرهان ونور المعرفة الصادقة"[٤].

ومن قبله قال أستاذهم محمد عبده: "إنَّ الحديث الذي يصل إلينا من طريق الآحاد إنَّما يحصل الظنُّ عند مَن صحَّ عنده، أمَّا مَن قامت له الأدلة على أنَّه غير صحيح؛ فلا تقوم به عليه حجةٌ، وعلى أي حالٍ فعلينا أن نُفوِّض الأمر في الحديث، ولا نُحكِّمه في عقيدتنا، ونأخذ بنصِّ الكتاب وبدليل العقل"[٥]، ويقول أيضاً بعبارةٍ صريحةٍ: "وأمَّا ما ورد في حديث مريم وعيسى، من أنَّ الشيطان لم يلمسهما[٦]،

(١) أضواء على السنة المحمدية، لمحمود أبو رية، ص٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الطب، باب شرب السم، رقم ٥٧٧٩.

(٣) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٣٩.

(٤) تفسير المراغي، لأحمد المراغي(١٩/١).

(٥) تفسير جزء عم، لمحمد عبده، ص١٨١.

(٦) حديث صحيح، متفق عليه، أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب صفة إبليس و جنوده، برقم ٣٢٨٦، وفي كتاب التفسير، باب: قوله تعالى{وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم}، برقم٤٥٤٨، وأخرجه مسلم في كتاب الفضائل، باب: فضل عيسى عليه السلام، برقم٢٣٦٦، وغيرهما من طرق عن أبي هريرة ﷺ، قال: قال رسول الله ﷺ: "كلُّ بني آدم يمسه الشيطان يوم ولادته، إلا مريم و ابنها"، وفي رواية:"ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان، فيستهل صارخاً من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه"، ثم قال أبو هريرة ﷺ: اقرؤا إن شئتم:{وإني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم}.

وحديث إسلام شيطان النبي ﷺ[1]، وإزالة حظِّ الشيطان من قلبه[2]، فهو من الأخبار الظنيَّة؛ لأنَّه من رواية الآحاد، ولمَّا كان موضوعها عالم الغيب من قسم العقائد، وهي لا يُؤخذ فيها بالظنِّ، فإنَّنا غير مكلَّفين بالإيمان بمضمون تلك الأحاديث في عقائدنا"[3].

ونتيجةً لإنكار حُجيَّة خبر الآحاد عند العقلانيين نتجت مقالاتٌ فاسدة، كان من أبرزها: إنكار ما ثبت من معجزات النبي ﷺ، وعدم الإيمان بإمكانية وقوعها أصلاً، وردُّ النصوص الواردة في ذلك كمعجزة انشقاق القمر، والإسراء والمعراج، وغيرها[4]، وإنكارُ كثيرٍ من العقائد الثابتة مثل: أحاديث نزول عيسى ابن مريم- عليه السلام-، وظهور المهدي، وخروج الدجال، وأحاديث الشفاعة، وأحاديث عذاب القبر، وأحاديث الحُدود كحدِّ الرِّدة وحدِّ الرجم وحدِّ السرقة، وغير ذلك[5].

فالعقلانيون يردُّون السنة النبوية بحُججٍ واهية، وجرأةٍ عجيبةٍ، ويحاولون الفصل بين القرآن والسنة بالأسلوب الذي يضع السنة موضع الاتِّهام والشك[6].

وإذا نظرنا إلى الجانب التطبيقي لهذا المبدأ عندهم نراهم غالباً يردون الأحاديث الصحيحة الثابتة، وفي المقابل يأتون بأحاديث موضوعةٍ أو لا أصل لها، ويستدلُّون بها على ما يذهبون إليه، وهذا كثيرٌ في كُتبهم، حيث ردُّوا كثيرًا من السنة، ولم يردُّوها لضعفٍ في سندها، أو لمخالفة ما هو معلومٌ من الشريعة؛ وإنَّما فعلوا ذلك لأنَّها لا تتفق مع ما ذهبوا إليه في تفسير الآية؛ فردُّوا أحاديث صحيحةً رواها البخاري ومسلم وغيرهما من أئمة الحديث[7].

---

(١) حديث صحيح، رواه عدد من أصحاب النبي ﷺ وأخرجه مسلم في كتاب صفات المنافقين وأحكامهم، باب تحريش الشيطان، وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قرينا، برقم ٢٨١٥، من حديث أم المؤمنين عائشة ولفظه:"أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلا، قالت: فغرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: مالك يا عائشة؟! أغرت؟، فقلت: وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟ فقال رسول الله ﷺ: أوقد جاءك شيطانك؟ قالت: يا رسول الله! أومعي شيطان؟ قال نعم، قلت: ومع كل إنسان؟، قال: نعم، قلت: ومعك يا رسول الله؟!، قال: نعم، ولكنَّ ربي أعانني عليه حتى أسلم".

(٢) حديث صحيح، أخرجه مسلم في كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، برقم١٦٢،٢٦١ من حديث أنس بن مالك ﷺ، قال: إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل، وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق قلبه، فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لامه، ثم أعاده في مكانه.."، قال أنس ﷺ: قد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ.

(٣) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا(٣٩٢/٣).

(٤) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٠٦-٢٢٢.

(٥) انظر: الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية، لمحمد أسود، ص٤٧٤-٤٧٦، ص٥١٦، ص٥٤٦.

(٦) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٣٣.

(٧) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، لفهد الرومي(٧٤٦/٢-٧٤٩).

ومن الأمثلة على ذلك إنكار محمد عبده لأحاديث نهر الكوثر الذي أعطاه الله لنبيه محمد ﷺ، والذي اشتهرت الروايات وبلغت حدَّ التواتر في ثبوته، فقد روى البخاري أنَّه لمَّا عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء، قال:(**أتيتُ على نهرٍ حافتاه قِباب اللؤلؤ مُجوفاً، فقلت: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا الكوثر**)[(١)]، وفي حديثٍ آخر عند مسلمٍ من حديث أنسٍ ﷺ قال: بينما رسول الله ﷺ ذات يومٍ بين أظهرنا، إذ أغفى إغفاءةً ثمَّ رفع رأسه متبسماً، فقلنا: ما أضحكك يا رسول الله قال: أُنزلتْ عليَّ آنفاً سورةٌ، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم﴿ **إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الكَوْثَرَ، فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ**﴾[الكوثر:١-٣]، ثم قال:(**أتدرون ما الكوثر؟، فقلنا الله ورسوله أعلم، قال: "فإنَّه نهرٌ وعدنيه ربي عز وجل، عليه خيرٌ كثير**)[(٢)].

قال السيوطي- رحمه الله- عن حديث نهر الكوثر: "له طرقٌ لا تُحْصَى"[(٣)]، فهذا ما ورد في السُّنة في شأن نهر الكوثر، وهذه هي درجة هذه الأحاديث؛ ولكنَّ محمد عبده يقول عن نهر الكوثر: "وأمَّا أنَّ هناك نهراً في الجنة اسمه الكوثر، وأنَّ الله أعطاه نبيه، فلا يُفهم من معنى الآية؛ بل الذي يدلُّ عليه سياق السورة وموضع نزولها هو النُّبوة وما في معناها، أمّا الاعتقاد بوجود هذا النهر في الجنة فموقوفٌ على تواتر الأخبار التي وردت به؛ ولكنَّ التواتر لا يصحُّ أن يكون برأي جماعةٍ أو برأي آخرين، فحدُّ التواتر هو ما ترويه طبقةٌ عن طبقة، يُؤْمَنُ تواطؤ كلٍّ منها على الكذب، إلى أن وصل إليك، لا تُنكره فرقةٌ من فرق المسلمين قاطبةً، فهذا التواتر هو الذي يوجب اليقين، وليس الأمر كذلك في أحاديث النهر؛ فإنَّها وإن كثُرت طرُقها لم تبلغ هذا المبلغ؛ فلا يصدُق عليها اسم المتواتر، خصوصاً وأنَّه يُظنُّ بالرواة سهولة التصديق في مثل هذا الخبر، لما فيه من غرابة الكرامة، وجمال الوصف؛ فيسهل على كل راوٍ الميل إلى تصديق ما يُقال له، وهذا يخلُّ بشرط التواتر؛ لأنَّ أول شرطٍ فيه ألا يكون في الطبقات رائحة التشيع للمروي"[(٤)].

ويظهر من خلال الكلام السابق موقفه من السنة، وأنَّه يردُّ صحيحها لأسبابٍ واهية، لم يقل بها أحدٌ من العلماء قاطبةً، لا من علماء الحديث، ولا من سواهم، ومثل هذه المعايير المُحدثة التي ذكرها محمد عبده وغيره لا اعتبار لها البتَّة عند أهل العلم؛ ولكنَّه الهوى الذي أعمى بصائرهم، وجرَّأهم على دين الله ﷻ، فقالوا ما قالوا، نسأل الله العفو والعافية.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب:{ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره}[الزلزلة: ٨]، رقم ٤٩٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب حجة من قال: البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة، حديث رقم ٤٠٠.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي(٢/٧٥١).

(٤) تفسير جزء عم، لمحمد عبده، ص١٦٥.

٦- **تهوين الإجماع والطعن في حُجيتَّه:** يبرز الانحراف في الاستدلال عند المدرسة العقلية الحديثة من خلال ما ذكرنا سابقاً من تحريف القرآن، وإنكار السنة، ثمَّ الطعن في الإجماع وتمييعه، وإنكار حُجيته المعلومة من الكتاب والسنة بدلالة قول الله ﷻ:﴿ **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[النساء:١١٥]، وقول النبي ﷺ:**(إنَّ الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويد الله مع الجماعة)**[١]؛ إذ على الإجماع انبنى معظم أصول الشريعة[٢].

إنَّ أول من عُرف عنه الطعن في الإجماع هو أبو إسحاق النظَّام المعتزلي، قال عنه السبكي[٣]- رحمه الله-:" كان يُظهر الإعتزال؛ لكنَّه كان زنديقاً، وإنَّما أنكر الإجماع لقصده الطعن في الشريعة"[٤]، وقد تبع النَّظام على نفي الإجماع كلياً نفرٌ من أتباع العقلانية الحديثة كأحمد خان الهندي، وذهب غيره كمحمد عبده ومن تابعه إلى تقييد الإجماع بقيودٍ جديدة لم تكن معروفةً عند العلماء[٥].

إنَّ شُبهة العقلانيين في ردِّ الإجماع أنَّهم يقولون أنَّ هؤلاء الذين أجمعوا وأفتوا في أيِّ مسألة، ليسوا أنبياء ولا ملائكة، وهم رجالٌ، ونحن رجال، فلماذا يفرضون علينا آراءهم ومسائلهم الفقهية، فنحن نأتي بالأحكام، كما أتى هؤلاء بالأحكام، فهم لا ينظرون إلى قضية الخلفية العلمية، والدراسة العميقة للقضايا الفقهية؛ إنَّما ينظرون إلى قضية أنَّ هؤلاء علماءٌ لهم عقول، ونحن لنا عقول، أمَّا القضايا الأخرى فلا ينظرون إليها؛ فترتَّب على ذلك القول بالرأي والهوى، وكلٌّ واحدٍ منهم يأتي برأيٍ من عنده، ويعتبره حُكماً يدين به؛ بدعوى أنَّ الفتاوى غير محتكرةٍ على أحد، فمن أراد عندهم أن يُفتي أفتى، وتجدهم يُصدرون فتاوى في قضايا مصيريةٍ للأمة من غير وعيٍ وتدبرٍ للضوابط الفقهية والشرعية كما رأينا من أقوال مفكريهم ورموزهم في المطلب السابق.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم ٢١٦٧، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي.

(٢) التلخيص في أصول الفقه، لأبي المعالي الجويني، ص٣٧٥.

(٣) عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي، أبو نصر، قاضي القضاة، المؤرخ، الباحث، نسبته إلى سبك (من أعمال المنوفية بمصر)، انتهى إليه القضاء في الشام وعزل، وتعصب عليه شيوخ عصره فاتهموه بالكفر واستحلال شرب الخمر، وأتوا به مقيداً مغلولاً من الشام إلى مصر، ثم أفرج عنه، وعاد إلى دمشق، فتوفي بالطاعون، وقد جرى عليه من المحن والشدائد ما لم يجر على قاض مثله، من تصانيفه: طبقات الشافعية الكبرى، ومعيد النعم ومبيد النقم، وجمع الجوامع في أصول الفقه، وتوشيح التصحيح في أصول الفقه، والأشباه والنظائر، وله نظم جيد، وتوفي ٧٧١هـ. انظر: الدرر الكامنة، لابن حجر(٤٢٥/٢)، والأعلام، للزركلي(١٨٤/٤).

(٤) الإبهاج شرح المنهاج، للسبكي(٣٥٣/٢)، وانظر: التلخيص في أصول الفقه، للجويني، ص٣٦٦.

(٥) انظر: حوار هادئ مع الغزالي، لسلمان العودة ص١٠، ص١٩-٢١.

٧- **توسيع دائرة الاجتهاد من غير ضوابط وذم التقليد:** إنَّ موقف العقلانيين من التقليد يظهر في كلِّ سطرٍ من كتاباتهم، وفي كلِّ كلمةٍ من كلماتهم، حيث يرفضون التقليد ويُنكرونه، ويذمُّون أصحابه، وينعون عليهم فعلهم، ويقصدون بالتقليد اتِّباع السلف الأوائل من الصحابة والتابعين والفقهاء في المسائل التي أفتوا فيها، وأجمعوا عليها[(١)].

فهذا محمد عبده جعل تحرير الفكر من قيد التقليد أولَ أمرٍ دعا إليه، حيث يقول: "ثمَّ لم ألبث بعد فترةٍ من الزمن أن سئمتُ الاستمرار على ما يألفون، واندفعتُ إلى طلب شيءٍ ممَّا لا يعرفون؛ فعثرتُ على ما لم يكونوا يعثرون عليه، وناديتُ بأحسن ما وجدتُ ودعوتُ إليه، وارتفع صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين، الأول: تحرير الفكر من قيد التقليد"[(٢)].

ويقيس أصحاب المدرسة العقلية الحديثة فعل من يُقلِّد عالماً من السلف أو الصحابة ﷺ في مسألةٍ شرعية على فعل المشركين في اتِّباعهم لرؤسائهم في شركهم؛ فيقول محمد عبده: "فما جرى عليه المُقلِّدون من المسلمين من الأخذ بآراء بعض الفقهاء في العبادات والحلال والحرام، هو عين ما أنكره كتاب الله تعالى على أهل الكتاب، وجعله مُنافيًا للإسلام، فليعتبر المعتبرون"[(٣)].

ثمَّ يقول في كلامٍ صريحٍ في تفسيره لقوله ﷻ:﴿ **إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا العَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ** ﴾[البقرة:١٦٦]،: "لولا أن حيل بين المُقلِّدين وهداية القرآن؛ لكان لهم في هذه الآية أشدّ زلزالٍ، لجمودهم على أقوال الناس وآرائهم في الدِّين، سواءٌ كانوا من الأحياء أم الميتين، وسواءٌ كان التقليد في العقائد والعبادات، أم في أحكام الحلال والحرام، إذ كلُّ هذا ممَّا يُؤخذ عن الله ورسوله، ليس لأحدٍ فيه رأيٌ ولا قولٌ، ... في مثل هؤلاء المتبوعين والتابعين نزل قوله ﷻ في سورة الأعراف:﴿ **كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ** ﴾[الأعراف:٣٨]، فكلٌّ يُؤاخذ بعمله، فإذا حمل الأولُ الآخرَ على رأيه، ودعاه إلى اتِّباعه فيه، أو في رأي غيره الذي يُقلِّده هو فيه؛ فهو من الأئمة المضلين، وعليه إثمه ومثل إثم مَن أضلهم مِن غير أن ينقص من إثمهم شيء؛ إذ حرَّم الله عليهم اتِّخاذ الأنداد من دون الله فاتخذوهم [(٤)].

قلتُ: وهذا التفسير فيه تخليطٌ كثير، وتنزيلٌ للنصوص في غير مواضعها.

---

(١) انظر: اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، لفهد الرومي(٧٣٨/٢).

(٢) تاريخ الأستاذ الإمام، لمحمد رشيد رضا(١١/١).

(٣) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا(٣٢٧/٣).

(٤) المرجع السابق(٧٩/٢).

إنَّ العقلانين المعاصرين يدعون إلى الحرية الواسعة في الاجتهاد حتى فيما فيه نصٌّ، مع غضِّ النظر عن الشروط المطلوبة في المجتهد، ومع غضِّ النظر أيضاً عن الضوابط التي يجب أن تضبط هذا الاجتهاد، ويزعمون أنَّ الاجتهاد لا ينحصر في الفروع؛ بل لا بدَّ أن يكون في الأصول أيضاً؛ بل ويدعون إلى إلغاء اجتهادات الفقهاء السابقين، وعدم الاعتداد بها، ويتهمونهم بالعزلة والبعد عن الحياة العامة، وهذه الدعوة تهدف إلى فكرة الاجتهاد المفتوح التي لا تبالي بإجماعٍ ولا خلاف، وفي ذلك خطر الخروج عن إجماع المسلمين، وهذا يؤدِّي إلى التَّحلل من الشريعة، والتفلُّت من أصولها؛ ولذلك نجد أنَّ كثيراً منهم وقعوا نتيجةً لما يُسمُّونه بالاجتهاد المفتوح أو الواسع أو الحر أو الطليق في آراءٍ شاذةٍ ومُنكَرةٍ لم يقل بها أحدٌ من قبلهم[1].

إنَّ هذا الاجتهاد الذي يدعوا إليه العقلانيون المعاصرون يستطيع أيُّ أحدٍ تحصيله حسب زعمه، وقد وضَّح ذلك محمد عبده بقوله: "فَرَض الإسلام على كلِّ ذي دينٍ أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله في كتبه، وما قرَّره من شرعه، وجعل الناس في ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لَا بُدَّ منه للفَهْم، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المُتدينين، لا تختصُّ به طبقةٌ من الطبقات، ولا يحتكر مزيته وقتٌ من الأوقات"[2]؛ ولأنَّه سهل المنال كما يقولون فإنَّ محمد رشيد رضا يعتبر ما اشترطه العلماء في بلوغ رُتبة الاجتهاد، افتياتاً على الله ﷻ، فيقول: "وإنَّ في إطلاق مُقلِّدة المصنفين من خلف القرون الوسطى القولَ بإيجاب تقليد المُجتهدين في أمور الدِّين، وتحريم الأخذ بالدليل؛ لاشتراطهم فيه استعداد كلِّ مُستدلٍ مُستقلٍ للتشريع، افتياتاً على دين الله، ونسخًا لكتاب الله، وشرعاً لم يأذن به الله، خلاصتُه تحريم العلم وإيجاب الجهل، وهذا منتهى الإفساد للفطرة والعقل، وهو أقطع المدى لأوصال الإسلام، وأفعل المعاول في هدم قواعد الإيمان، وعلَّة العلل لانتشار البدع التي ذهبت بهداية الدِّين، واستُبدلت بها الخرافات ودجل الدجالين"[3].

قلتُ: بل ما تفعله المدرسة العقلية الحديثة من فتح باب الاجتهاد بحريةٍ مطلقةٍ لكلِّ عابثٍ في دين الله ﷻ، هو الذي قطَّع أوصال الإسلام، وهدم قواعد الإيمان، وساعد في إحداث البدع ونشرها، وشيوغ الخرافات والدَّجل بين المسلمين.

وهذا عبد العزيز جاويش يرى أنَّ الاجتهاد يلزم كلَّ مَن قدر على فَهْم القرآن، ويستهزئ بمن ينادي بالتزام فهم السلف، حيث يقول: "فكلُّ مَن يعرف لغة القرآن لا ينبغي له بحالٍ ما أن يُقلِّد غيره تقليداً، متى قدر على فَهْمِه وفهم الكتب الصِّحاح في السنة، فلم ينسد ولن ينسدَّ باب الاجتهاد برغم

---

(١) انظر: حوار هادئ مع الغزالي، لسلمان العودة، ص١٠.

(٢) رسالة التوحيد، لمحمد عبده، ص١٦٢– ١٦٣.

(٣) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا(١/١١٤).

أنف مَن أرادوا أن يحجروا على العقول البشرية، ويُقيموا عليها أوصياء من الأوَّلين؛ حتى تسير كما ساروا، وتقول بما قالوا"[1].

إنَّ الأصول الخاطئة المغلوطة لا يتولَّد عنها إلا نتائج وأحكامًا خاطئة، وهذا ما وقعت فيه هذه المدرسة، فهذا محمد مصطفى المراغي أمر بتشكيل لجنة تنظيم الأحوال الشخصية وأوصاهم بقوله: "ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنَّه يوافق الزمان والمكان، وأنا لا يعوزني بعد ذلك أن آتيكم بنصٍ من المذاهب الإسلامية يُطابق ما وضعتم"[2].

وهذا محمد رشيد رضا، يرى إباحة التيمم للمسافر حتى مع وجود الماء، حيث يقول: "ألا إنَّ من أعجب العجب غفلة جماهير الفقهاء عن هذه الرُّخصة الصريحة في عبارة القرآن، التي هي أظهر وأَوْلَى من قصر الصلاة وترك الصيام، وأظهر في رفع الحرج والعُسر الثابت بالنَّص، وعليه مدار الأحكام"[3].

وها هو محمد رشيد رضا، يجتهد في تفسير قوله ﷻ:﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ [آل عمران:١٣٠]، حيث يرى محمد رشيد رضا أنَّ الربا المحرَّم هو ما كان أضعافًا مضاعفة، فيقول:"والمراد بالربا في هذه الآية ربا الجاهلية المعهود عند المُخاطَبين عند نزولها، لا مُطلق المعنى اللغوي الذي هو الزيادة، فما كلُّ ما يُسمَّى زيادةٌ محرمٌ"[4].

ويقول محمد عبده عن اجتهادات الفقهاء والسّضلف وإجماعهم: "إنَّ الناس تحدث لهم باختلاف الزمان أمورٌ ووقائع لم يُنص عليها في هذه الكتب، فهل نُوقف سير العالم لأجل كُتبهم؟، هذا لا يُستطاع، وذلك اضطر العوام والحُكام إلى ترك الأحكام الشرعية، ولجئوا إلى غيرها، فشدَّد الفقهاء على أغنياء البلاد فصاروا يرون أنَّ الدين ناقصٌ، والفقهاء هم المسئولون عند الله تعالى عن هذا؛ لأنَّه كان يجب عليهم أن يعرفوا حالة العصر والزمان، ويُطبِّقوا عليه الأحكام بصورةٍ يُمكن للناس اتِّباعها!!، لا أنَّهم يقتصرون على المحافظة على نقوش هذه الكتب ورسومها، ويجعلونها كلَّ شيءٍ، ويتركون لأجلها كلَّ شيء"[5].

وبناءً على هذه النَّظرة فإنَّ المدرسة العقلية الحديثة تدعو إلى إعادة النَّظر في القديم، ليقوَّم من جديد، ولا تقتصر إعادة النظر على أحكام الاجتهاد فقط؛ بل يشمل الأحكام التي أثبتتها نصوص

---

(١) الإسلام دين الفطرة والحرية، لعبد العزيز جاويش، ص٧٠.

(٢) المجددون في الإسلام، لعبد المتعال الصعيدي، ص٥٤٨، والفتح المبين في طبقات الأصوليين، لعبد الله مصطفى المراغي(١٩٨/٣).

(٣) تفسير المنار، لمحمد رشيد رضا(١٢١/٥).

(٤) المرجع السابق(١٢٣/٤).

(٥) تاريخ الأستاذ الإمام، لمحمد رشيد رضا(٩٤٤/١).

الكتاب والسُّنَّة، ومعيار الترجيح عندهم أن يكون أليق بأهل زماننا، وأرفق بالناس، وأقرب إلى يُسر الشريعة، وأدعى بتحقيق مصالح الناس، حتى ولو أدى ذلك إلى تغيير الأحكام الثابتة.

ولقد ردَّ على هؤلاء العقلانيين كثيرٌ من أهل العلم بما يقطع دابرهم، ويكشف زيفهم، ومرضهم النفسي الذي وقعوا فيه، حتى قال أحدُ الكُتَّاب عن اجتهاداتهم:" إنَّ الإجتهاد في حال افتتاننا بالحضارة الغربية، خطرٌ غير مأمون العواقب، يُخشى أن يتحول المجتهد إن وُجد، إلى مسوِّغٍ للقيم الأجنبية التي هو معجبٌ بها، فإذا لم يكن هو معجباً بها، فالمجتمع الذي هو معجبٌ بها لا يقبل اجتهاده، فيُفتي حين يُستفتى وعينه على الذين يُفتيهم، يريد أن يُرضيهم، وأن يظفر بتقديرهم، فيجور على الحقِّ إرضاءً للخلق، ويذهل عمَّا عند الله تعجلاً لما عند الناس"[(١)].

٨- **الخلل والانحراف في منهج التلقي والاستدلال:** يخالف أصحاب المدرسة العقلية الحديثة منهج السلف في التَّلقي والاستدلال مخالفةً بينةً، ويظهر ذلك من خلال ما يلي:

أ- **يجعلون الدَّليل الشرعي دليلاً ثانوياً:** بل قد يردُّونه، وغالباً يعدون استدلالهم بالأدلة الشرعية للمساندة فقط، فالدليل الشرعي عندهم مُساندٌ، والأصل عندهم هو الدليل العقلي الذي هو آراؤهم وأهواؤهم؛ فيُقرِّرون مُقرَّراتٍ في أذهانهم، ثمَّ يُحاولون أن يجدوا لها أدلةً من الكتاب والسنة، وهذا انحرافٌ كبيرٌ؛ ولهذا يعتمدون على الرأي، ويُسمُّون نتائجه مقررات عقلية أو قواطع عقلية، وهي نتائجٌ مبنيةٌ على الفلسفة، وعلى النظريات، وعلى آراء المستشرقين؛ بل على بعض كتب الأدب وكتب التاريخ الغربية أحياناً.

إنَّ العقلانيين يرون أنَّه إذا كان العقل هو الذي ينظر في الشرع؛ فهو المُحكَّم، وهو المُقدَّم؛ لأنهم اعتبروا دلالة العقل قطعية، ودلالة الشرع ظنية، ثمَّ إنَّهم لم يراعوا في نظرتهم للنصوص الشرعية منهج الاستدلال، ويظهر ذلك من خلال كتاباتهم، وطريقتهم في طرح آرائهم، حيث أنَّ أغلب هؤلاء الذين يتناولون القضايا الشرعية من أدلتها، لا يعرفون منهج الاستدلال أصلاً، فيضربون الآيات بعضها ببعض، ولا يعرفون دلالتها وسبب نزولها، ولا يرجعون إلى فهم الصحابة لها؛ بل ولا يردُّونها إلى الأدلة الأخرى التي قد تُخصِّصها أو قد تُعمِّمها أو قد تنسخها، فيُفسرونها بانتقائيةٍ مبنيةٍ على الهوى[(٢)].

ب- **يجعلون النصوص المُحرَّفة كنصوص التوراة والإنجيل في درجة الأدلة الثابتة:** كما أنَّهم يُعطون الأحكام البشرية الوضعية والرأي والهوى قوَّة الأدلة الشرعية الثابتة عن الله ورسوله؛ بل ويقدمونها على أدلة الشريعة بدعوى أنَّ نصوص الشريعة نصوصٌ دينيةٌ لا شأن لها بالحياة[(٣)]، فنجد على سبيل

---

(١) الإسلام والحضارة الغربية، لمحمد حسين، ص٤٩.

(٢) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٦١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٣٦٥.

المثال أنَّ محمود أبو رية حين أراد أن يتحدث عن التسامح الديني بين أتباع الأديان، راح يُدلِّل على ذلك من التوراة والإنجيل(1)، وأعرض عن أدلة القرآن والسنة.

وهذا علي عبد الرازق من أكثر العقلانيين المعاصرين تلبيساً للحقِّ، وذلك حين أخذ يُدلِّل على أنَّ الإسلام لا صلة له بالحكم، وزعم أنَّ الإنجيل ذكر أنَّ عيسى- عليه السلام- تكلَّم في حكومة القياصرة، وأمر أن يُعطى ما لله لله، وما لقيصر لقيصر، ومحمدﷺ حين تكلم عن الحكم في ذكره للإمامة والخلافة، فلا يعني هذا أنَّه أمرنا بأن نلتزم ذلك في الحُكم!!(2).

ج- التَّلقي من المصادر غير الإسلامية في الحُكم على الإسلام عقيدةً وشريعةً وتاريخاً: إنَّ المدرسة العقلية الحديثة تتلقَّى علومها الإسلامية عن الغربيين أكثر ممَّا تتلقَّى عن المصادر الإسلامية، وتتلقَّى بالدرجة الأولى عن المستشرقين، والجامعات الغربية التي تُعنى بالبحث عن الشبهات ضد الإسلام، وهذا جعلها لا تحترم المصادر الإسلامية(3)، ولا يجد بعض رواد المدرسة العقلية الحديثة أيَّ حرجٍ في الاستدلال بأقوال الغربيين حتى ولو كانت مُناقضةً لأصول وثوابت الإسلام، ويتحرجون كلَّ الحرج، ويضيقون بالروايات الصحيحة التي تُثبت خلاف ما تمليه عليه أهواؤهم وشياطينهم(4).

٩- إهدار فهم علماء الأمة للنصوص الشرعية: وهو أساسٌ متولِّدٌ من تعظيمهم لعقولهم، وإنكارهم لحجية السنة والإجماع، وتوسيعهم لدائرة الاجتهاد حتى أصبح اتِّباعاً للهوى، حيث تعتبر المدرسة العقلية الحديثة أنَّ فهم السلف للنصوص الشرعية لا يتجاوز أن يكون قراءةً من القراءات التي يحتملها النَّص، وبالتالي فهم غير ملزمين بها، ويزعمون أنَّ فهم الصحابة والسلف للنصوص الشرعية كان مُناسباً لواقعهم وثقافة عصرهم، ولا يتناسب مع عصرنا، ويعتبرون أنَّ التقليد كان من أهم الأسباب التي أدَّت إلى النكسة التي أصابت الحضارة الإسلامية، ويقصدون بالتقليد اتِّباع أقوال السلف والفقهاء في القضايا العقائدية والفقهية وغيرها من أمور الشرع(5).

يقول حسن الترابي:" وكلُّ التراث الفكري الذي خلَّفه السلف الصالح في أمور الدين هو تراثٌ لا يُلتزم به؛ وإنما يُستأنس به"(6).

---

(١) انظر: دين الله واحد، لمحمود أبو رية، ص٦٩.

(٢) انظر: الإسلام وأصول الحكم، لعلي عبد الرازق، ص٤٥.

(٣) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٦٦-٣٦٧.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٣٦٨.

(٥) انظر: الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية، لمحمد أسود، ص٤٧٢، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، لفهد الرومي، ص٣٥٦.

(٦) تجديد الفكر الإسلامي، لحسن الترابي، ص١٠٥.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في الرد على من يقول بعدم التزام فهم السَّلف: "واستجهال السابقين الأولين واستبلاههم، واعتقاد أنَّهم لم يتبحَّروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطَّنوا لدقائق العلم، ... هذا القول إذا تدبَّره الإنسان وجده في غاية الجهالة؛ بل في غاية الضلالة"[١].

إن طريقة العقلانيين في التعامل مع النُّصوص هي تفسيرها بالتأويلات الفاسدة، المُتضمِّنة تحريف كلام الله ورسوله، وقد حذَّرنا النبيُّ ﷺ من أمثال هؤلاء فقال:**(يكون في آخر الزمان دجَّالون كذَّابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم، ولا يفتنونكم)**[٢].

ونتيجةً لهجر العقلانيين لفهم علماء الأمَّة اشتدَّت هجمتهم على حملة ونقلة الدِّين والشريعة عامة، وعلى الصحابة منهم خاصة، "فلم يرقبوا فيهم ذمةً ولا عهداً، فأعملوا فيهم الألسنة السليطة، والأقلام الحاقدة، وكانوا في قدحهم هذا بين الجاهل والمتحامل وصاحب الهوى"[٣].

فهذا أبو ريَّة يدَّعي أنَّ أبا هريرة ﷺ كان يزيد رواياتٍ في الحديث من عنده، وأنَّه استباح الكذب للمصلحة، فأحاديثه غريبة، ومفرطة في الغرابة، ولم يلازم رسول الله ﷺ إلا لأجل المصلحة، وأنَّه كان تافهاً بين الصحابة ليس له أي شأنٌ[٤]، وتبع أبا رية على هذا النهج غيره من العقلانيين كأحمد زكي أبو شادي[٥].

وقد ظهرت آثارٌ عمليةٌ لهذا الموقف المشين من السلف والفقه والفقهاء؛ فأفتى بعضهم بفتاوى شاذةٍ مخالفةٍ لمذاهب الأئمة الأربعة في عددٍ من المسائل الفقهية، ويقصدون بذلك التفلُّت من قداسة النصوص الواضحة، وتحكيم العقل والهوى[٦].

١٠- تمجيد المبتدعة وفتح الباب للأفكار الهدامة والخطيرة: في الوقت الذي يتطاول فيه روَّاد المدرسة العقلية على الصحابة والسلف الصالح- رحمهم الله-، يقومون في نفس الوقت بتمجيد أصحاب البدع، ويتباكون عليهم، ويسعَون إلى إعادة إحياء أفكارهم بين الناس من جديد[٧]، فيقولون:

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥/١٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحة، في مقدمة الكتاب، باب في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم، حديث رقم٧.

(٣) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٦٥.

(٤) انظر: أضواء على السنة المحمدية، لمحمود أبو رية، ص١٨٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧.

(٥) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٧٧.

(٦) انظر: الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة، لمحمد أسود، ص٤٧٣، واتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر الهجري، لفهد الرومي(٢/٧٤١).

(٧) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص ١٠١، ص٥١٥، والاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٥٨.

"والحقيقة أنَّ رجال المعتزلة كانوا أحراراً في آرائهم، وفي تأويلاتهم، فلم يقفوا عند حدٍّ، ولم يردعهم قيدٌ، وحكَّموا العقل في جميع القضايا، وأوَّلوا المنقولات كافَّة حسبما يقتضيه الزمن والحال"[١].

ويقول محمد عمارة:" إنَّنا إذا شئنا أن نُقدِّم لأجيالنا الحاضرة والمستقبلة تراثاً يُمجِّد العقل، ويُؤصِّل فكرنا العقلي للتقدُّم، ويُشيع في صفوفنا مناخاً ساعد على ازدهار التفكير العلمي، فلا بدَّ من البحث عن القضايا التي تركها الزمن وخلَّفتها أحداثه، من تراث المدارس الفكرية، التي أعلت من قدر العقل، ورفعت من قيمته، والتي قدَّمته على مدلولات ظواهر النصوص، وفي مقدمة هذه المدارس الفكرية المعتزلة والفلاسفة"[٢].

ويقول عمارة أيضاً:" فالمعتزلة أهل العدل والتوحيد، وهم أكثر المدارس الفكرية تعبيراً عن أصالة الشخصية العربية الإسلامية"[٣].

ويعتبر رواد هذه المدرسة أنَّ هزيمة الفرق المنحرفة، وانتصار أهل السنة، نكسةً تاريخيةً، وضرراً بالإسلام والمسلمين، وعاملاً من عوامل التخلُّف والجمود[٤]، حيث يدّعي العقلانيون أنَّ أهل السنة والجماعة كانوا يلعنون الفلاسفة والمعتزلة وأهل الفكر ومن يذهب مذهبهم، ويحرقون كتبهم تقرُّباً للجمهور الجاهل، وبهذه الطريقة النكرة انطفأت الآراء الحرَّة من رؤوس المفكرين، فكانت السبب في سقوط العالم الإسلامي من شاهق عزِّه، ولم يزل منحدراً لا يرتقي[٥].

ولم يقتصر كُتَّاب المدرسة العقلية الحديثة على الفرق المشهورة؛ بل نبشوا عن حياة أصحاب الفسق والمجون واللهو والعبث في التاريخ الإسلامي ومجَّدوهم، كما فعل أحمد أمين في كتابه فجر الإسلام[٦].

ونيجةً لتمجيد العقلانيين للمبتدعة والكفار والملحدين، لم يُفرِّقوا بين المسلمين وغير المسلمين في الولاء، ويتبيَّن ذلك من التقدير والإكبار الذي يُكنُّه العقلانيون للمستشرقين وعلماء الغرب، وروَّاد النظريات الهدَّامة في العالم[٧]؛ ولذا نجد غالب العقلانيين دعاةً إلى فكرة التقريب بين الأديان، وشارك كثيرٌ منهم في كتبٍ وبحوث لتأييدها، ونادوا بفكرة الدِّين الإبراهيمي الذي يجمع الإسلام واليهودية والنصرانية، ويُقال أنَّ أول من شارك في هذه الفكرة من العقلانيين هو محمد عبده، فأنشأ جمعيةً سياسيةً دينيةً سِريةً في بيروت، هدفها التقريب بين الأديان السماوية الثلاثة، وإزالة الشقاق بين

---

(١) هذا هو الإسلام، لفاروق الدملوجي، ص٤٩.
(٢) نظرة جديدة إلى التراث، لمحمد عمارة، ص١٦.
(٣) رسائل العدل والتوحيد، تحقيق ودراسة محمد عمارة، ص٢٢.
(٤) انظر: ثورة الإسلام، لأحمد زكي أبو شادي، ص٤٨-٤٩.
(٥) هذا هو الإسلام، لفاروق الدملوجي، ص ٦١. بتصرف يسير
(٦) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٦٥.
(٧) المرجع السابق، ص٣٨٣.

أهلها[١]، وقد انتصر لهذه الفكرة محمود أبو رية في كتابه(دين الله واحد)، ودعا إلى وجوب صهر الأديان بعضها ببعضٍ، حتى تزول الفوارق بينهما، فقال:" إنَّ النَّاس سيصلون بعلومهم وعقولهم إلى مُرتقىً تزول فيه الجنسيات الدِّينية، وتختفي العصبيات المذهبية، ويجتمعون على دينٍ واحد، يشمل الناس جميعاً"[٢].

وهذا أحمد أبو شادي يقول:" فَهْمُ المسيحية واجبٌ على كلِّ مسلمٍ؛ بل الإيمان بها حتمٌ عليه، إذا قبل المرء أن يكون مسلماً يجب أن يكون مسيحياً، ففهم المسيحية واجبٌ مُقدَّسٌ على كلِّ مسلمٍ ومسلمة"[٣].

ويذهب محمد عمارة وحسن الترابي إلى أبعد من مسألة جمع أصحاب الشرائع السماوية مع بعضهم؛ بل إلى إلغاء جميع الأديان، حيث يزعم عمارة أنَّ الفكر المستنير" طوى صفحة التاريخ الذي كان يقسم الناس إلى مؤمنين وكافرين، ليبسط مكانها صفحة الحضارة الحديثة التي تُميِّز بين الأمم والشعوب على أساسٍ من التَّحضُّر والخشونة والبداوة"[٤].

قلتُ: ألا يدري هؤلاء أنَّهم بدعوتهم هذه يدعون إلى إلغاء الإسلام، واختراع دينٍ جديد يجمع الكفرة والملحدين والوثنيين؛ ليتوافق مع فلسفة العصر، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إنَّه مهما فعل هؤلاء من محاولات الخروج عن أحكام الله وتمييع الدِّين، فسيبقى الحقُّ ظاهراً بحول الله وقوته، وسيبقى الحُكم الإله بأنَّ الناس ينقسمون إلى مسلمين وكافرين موجوداً، كما قال ﷻ:﴿ **هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ** ﴾[التغابن:٢]، وسيبقى دين الله واحدٌ وهو الإسلام، ولا يقبل الله سواه كما قال ﷻ:﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ** ﴾[آل عمران:٨٥]، ولا يُقبل من أحدٍ بعد بعثة النبي ﷺ إلا أن يُؤمن به ويتَّبعه، وإلا كان من أهل النار، كما قال ﷺ:**(والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثمَّ يموت ولم يؤمن بالذي أرسلتُ به، إلا كان من أصحاب النار)**[٥].

١١- اتباعهم للعلوم والمقاييس الغربية في تقرير المسائل الشرعية: لقد نزلت نصوص الشريعة بلسانٍ عربيٍ مبين، يفهمه الصحابة في ذلك الوقت بسليقتهم العربية، من غير حاجةٍ إلى اصطلاحاتٍ فنيةٍ، ولا إلى نظرياتٍ علمية، وإذا أُشكل عليهم شيءٌ رجعوا إلى رسول الله ﷺ فيُجلِّي لهم كلَّ إبهام،

---

(١) انظر: الفكر الإسلامي المعاصر، لغازي التوبة، ص١٩، والأعمال الكاملة لمحمد عبده، لمحمد عمارة(٢/٣٥٥).

(٢) دين الله واحد، لمحمود أبو رية، ص١٦٨.

(٣) ثورة الإسلام، لأحمد زكي أبو شادي ص١٢٤، ص١٢٩.

(٤) الإسلام والوحدة الوطنية، لمحمد عمارة، ص٢٣.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ، (١/١٣٤)، حديث رقم ١٥٣.

ويُزيل عن أذهانهم كلَّ التباس، ومضى الناس من بعدهم على هذا المنهج الأسلم والأعلم والأحكم، حتى ظهر العقلانيون القدماء من المعتزلة وأمثالهم، وأخذوا يؤولون النصوص على منطق اليونان وفلسفتهم، ويردُّونها بحججٍ واهية، وتبعهم على ذلك العقلانيون المعاصرون[1].

إنَّ رواد هذه المدرسة يتناولون علوم الحضارة الغربية من غير ضوابط، ويُقدِّمونها على النصوص اليقينية، ولا يؤمنون إلا بالعلوم المحسوسة، وينكرون ما جاء من أخبار الغيب التي لا تُوافق العلوم الغربية[2]، ويتوسَّعون في تفسير القرآن الكريم على ضوء العلم الحديث حتى ولو أدَّى ذلك إلى استحداث أقوالٍ مخالفةٍ للآيات القرآنية، وغير موافقةٍ للمنقول عن السلف- رحمهم الله-، ومن الأمثلة على ذلك، ما يلي:

أ- **يُؤوِّلون الحقائق الغيبية والقرآنية بما يوافق النظريات العلمية:** كالملائكة، والشياطين، والجن، والسحر، وقصة آدم، والطير الأبابيل، وغيرها ممَّا ورد في القرآن الكريم كما فعل محمد عبده، ومحمد رشيد رضا، وغيرهم، فهم يتناولون بعض آيات القرآن ويشرحونها شرحاً يقوم على أساسٍ من نظريات العلم الحديث، وغرضهم أن يُوفِّقوا بين معانى القرآن التى قد تبدو مُستبعَدةً فى نظر الغرب، وبين ما عندهم من معلوماتٍ مُسَلَّم بها، فمثلاً يقول محمد عبده في تفسير قوله ﷻ:﴿ **إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ** ﴾[الانشقاق:١]، :"وهو فساد تركيبها، واختلال نظامها، عندما يريد الله خراب هذا العالَم الذى نحن فيه، وهو يكون بحادثةٍ من الحوادث التى قد ينجر إليها سير العالَم، كأن يمرَّ كوكبٌ فى سيره بالقُرب من آخر؛ فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره، ويحدث من ذلك غمامٌ وأيُّ غمام، يظهر فى مواضع متفرقة من الجوِّ والفضاء الواسع؛ فتكون السماء قد تشقَّقت بالغمام، واختلَّ نظمها حال ظهوره"[3].

هل لا بدَّ فى فساد الكون من أن يترتب على مثل هذه الظاهرة الكونية؟، وهل يعجز الله عن إفساده وإخلاله بأمرٍ آخرٍ غير ذلك؟، أليس الأولى بنا أن نؤمن بما جاء به القرآن، ولا نخوض فيما وراء ذلك من تفصيلات؛ لأنَّ هذه الأمور غيبيةٌ ولا تُعرف إلا بالنَّص[4].

ومثال آخر عندما يوضح مدى جرأتهم في تحميل آيات القرآن ما يوافق النظريات العلمية، فيعرض محمد عبده لتفسير سورة الفيل، ويزعم أنَّ الذى أصابهم هو داء الجدرى والحصبة، فيقول: "وقد بيَّنتْ لنا هذه السورة الكريمة، أنَّ ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارةٍ يابسة سقطت

---

(١) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني(٦/١)، ومنهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، لفهد الرومي، ص٢٦٢.

(٢) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب، ص٢٦٣، والمدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص١٤٢.

(٣) التفسير والمفسرون، للذهبي(٤١٦/٢).

(٤) انظر: المرجع السابق(٢١٧/٢).

على أفراد الجيش، بواسطة فِرَقٍ عظيمةٍ من الطير ممَّا يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أنَّ هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض؛ وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس، الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتَّصل بجسده دخل فى مسامه، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه"[١].

ب- يردُّون الحقائق القرآنية الثابتة بنظريةٍ علميةٍ قد تكون خاطئة: ومن الأمثلة على ذلك يقول عبد القادر المغربي عن السماوات السبع الثابتة في القرآن الكريم، والثابتة في السنة الصحيحة كما في أحاديث كثيرة منها حديث الإسراء والمعراج، ومرور النبي ﷺ على الأنبياء في كلِّ سماء، وتسليمه عليهم، فيقول المغربي في تفسير قوله ﷻ:﴿**الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا**﴾[الملك:٣]، "والسماوات السبع هي طرائق السيارات ومداراتها، ولا ريب أنَّ هذه المدارات طبقات، طبقةٌ أدنى من طبقة، وفلكٌ فوق فلك، وإنَّما اقتصر الوحي من ذكر السماوات على سبعٍ مع العلم أن العلم أثبت أنَّها أكثر من ذلك"[٢].

وإذا كان رواد هذه المدرسة قد أعطوا لعقولهم الحرية الكاملة فى فهمهم للنصوص، وتتبعهم للمقاييس الغربية، فإنَّا نجدهم يُغرِقون فى هذه الحريَّة ويتوسَّعون فيها إلى درجةٍ وصلت بهم إلى التطرُّف فى أفكارهم، والغلوِّ فى آرائهم[٣]، حيث يُؤولون القرآن تأويلاً متكلَّفاً يتنافى مع الإعجاز، ويُعرِّضون القرآن للدوران مع مسائل العلوم المتغيرة في كلِّ زمانٍ ومكان، وبالتالي يُعرِّضون النصوص للتقلُّب مع هذه العلوم، وتحمُّل تبعات الخطأ فيها[٤].

والحقيقة أنَّنا لا نرفض التفسير العلمي مُطلقاً، ولا نؤيده ونسلِّم له مطلقاً؛ لأنَّ حقائق القرآن ثابتةٌ يقينيةٌ، وكثيرٌ من حقائق العلم مؤقَّتةٌ ومتغيرةٌ لا تظهر دفعةً واحدة؛ بل تتكشف يوماً بعد يوم، ولا يُمكن أن نعتبر أنَّ النظرية المكتشفة أصلٌ تُقاس عليه النصوص الصريحة[٥]، وهذا ما فعله أتباع المدرسة العقلية الحديثة مع كثيرٍ من النظريات العلمية، حتى ولو كانت باطلةً، مثل نظرية داروين في تطوُّر الكائنات كما ذكر الباحث سابقاً.

---

(١) التفسير والمفسرون، للذهبي (٢/٢١٨).

(٢) تفسير جزء تبارك، لعبد القادر المغربي، ص٥.

(٣) انظر: منهج المدرسة العقلية في التفسير، لفهد الرومي، ص٢٧٠.

(٤) المرجع السابق، ص٢٧٢.

(٥) المرجع السابق، ص٢٨٢.

وبالعموم "فإنَّ القرآن لا يُصادم ولن يُصادم الحقيقة العلمية الثابتة بالتجربة والمشاهدة؛ وإنَّما يقع التصادم عندما ندَّعي حقيقةً علميةً في الكون، وهي ليست حقيقةً علمية، أو ندَّعي حقيقةً قرآنية، وهي ليست حقيقةً قرآنية[١]".

١٢- **الإنكار والتشكيك في أصول العقيدة وأدلَّتها:** إنَّه لا يكاد أصلٌ من أصول العقيدة الإسلامية يسلم من تحريف العقلانيين المعاصرين وتشكيكهم وتأويلهم، ابتداءً من أسماء الله وصفاته، أو ما يتعلق بالرسالة والرسول، والنبوة والوحي والقرآن والمعجزات والملائكة، إلى الجنِّ والشيطان، وسائر الغيبيات التي أخبر الله عنها[٢]، فالعقلانيون يُنكرون الملائكة والأعمال الموكلة إليهم من الله ﷻ، وينكرون السحر وحقيقته، ومسَّ الجنِّ والشيطان، وينكرون المعجزات الثابتة للنبي ﷺ، وينكرون علامات الساعة من خروج الدجال ونزول عيسى ابن مريم وغيرها[٣]، ويميلون إلى تضييق نطاق الغيبيات ما أمكن، وذلك تأثُّراً بالتيار المادي الذي يسود الحضارة المعاصرة[٤]، ويتَّبعون مذهب المُرجئة في الإيمان، بأنَّه لا علاقة للعمل في الايمان، وأنَّه لا يزيد ولا ينقص، وأنَّ الذنوب لا تعلُّق لها بالإعتقاد، وبالتالي فلا أثر لها على الإيمان الذي في القلب، فهوَّنوا المعاصي، وشجعُّوا على الركون إلي الكسل والخمول في العبادات[٥].

إنَّ العقلانيين ينظرون نظرةً قاصرةً إلى صلة الدِّين بالحياة، وهذا ناتجٌ عن نظرتهم إلى الدِّين نفسه، حيث يرون أنَّ الدين لا علاقة له بكثيرٍ من شئون الحياة، وطائفةٌ منهم وهي الأكثر والأخطر تقول أنَّ الدين مقبولٌ، ويدخل في جميع جوانب الحياة؛ لكن يجب أن نُفسِّر الدين كما نشاء، وفق متطلبات العصر وتطوُّراته.

وأمَّا عن التطبيق العملي لهذا المبدأ في كتاباتهم وطرح أفكارهم، فهذا محمد أحمد خلف الله بحث في القرآن الكريم بحثاً عقلياً أساء فيه إلى الإسلام، وحرَّف العقيدة وخالف القرآن، وهذا محمود أبو رية بحث في السنة وفعل مثل سابقه، وهذا علي عبد الرازق بحث في نظام الدولة والحكم، ودعا إلى فصل الإسلام عن الدولة، وهذا أحمد أمين بحث في الحياة العقلية والفكرية والعقيدة والفرق الإسلامية وحرَّف كثيراً من الحقائق، وهذا قاسم أمين بحث في شؤون المرأة المسلمة، فدعا إلى سفور المرأة المسلمة ونزع الحجاب، وهكذا فهم يتكاملون ويتواصون بهدم الدين وتشويهه، وينصرون بعضهم البعض في التشكيك في أصوله وثوابته، ومحاولة عزل الدين عن الحياة والدولة، وقد تكاملت هذه الجهود تكاملاً شبه منظمٍ، فنجدهم يُثنون على بعضهم بعضاً في مؤلفاتهم، ويُدافعون عن بعضهم

---

(١) معجزة القرآن، لمحمد متولي الشعراوي، ص٤٧.

(٢) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٦٤.

(٣) انظر: التفسير والمفسرون، للذهبي(٤١٨/٢)، (٤٢٩/٢).

(٤) انظر: حوار هادئ مع الغزالي، لسلمان العودة، ص١٠، ص ٢٢.

(٥) فرق معاصرة تنتمي إلى الإسلام، لغالب عواجي(١١٤٦/٣).

عندما يتعرَّض أحدٌ منهم للنَّقد والرد، ويزكُّون بعضهم بعضاً في كلِّ مناسبة، ويستدلُّون بآراء بعضهم على ما يبثُّونه من سمومٍ في جسد الأمة[١].

ورغم كلِّ هذا التخبُّط والتحريف، فهم يُظهرون نبرة التعالم عند الحديث في قضايا محوريةٍ ومصيريةٍ للأمة؛ ولكنهم في الحقيقة يمتازون بالضعف في فقه النصوص وتوجيهها، حيث يرى من ينظر في أقوالهم ضعفاً واضحاً في الثقافة الشرعية، وجهلاً بخصائص الدِّين وأصوله وسماته؛ ولذلك فهم يجهلون جهلاً مركباً؛ لأنَّه جُهَّالٌ ولا يدرون أنَّهم جهلة، فهم لا يعرفون الأدلة، وإن عرفوها لا يفقهون منهج الاستدلال، ويتطاولون على أهل العلم والفضلاء، ويرمونهم بضيق الأفق، وعدم فهم الواقع، وعدم مراعاة أحوال الناس ومصالحهم، ويزعمون أنَّهم قد فهموا من أمور الدِّين ما غاب عن فهم السابقين، وهم في الحقيقة يسعون إلى إسقاط المرجعية الإسلامية بالكلام في العلماء وذمِّهم، ويتذرَّعون بالشعارات الخدَّاعة مثل التحرير، والتطوير، والتنوير، والحداثة، والتجرد العلمي والموضوعي، وعند التحقُّق في الأمر نجد أنَّهم أبعد الناس عن هذه الشعارات وهذه الحقائق[٢].

وبعد هذه الجولة في متاهات المدرسة العقلية الحديثة وسراديبها، يتبيَّن مدى التهاون والاستهتار الذي وصل إليه رُوَّاد هذه المدرسة، فلقد جمع رواد هذه المدرسة في منهجهم بين بدعٍ وشرورٍ كثيرة، فشابهوا الرافضة في التشكيك في القرآن، والقدح في الصحابة، وشابهوا المعتزلة في تمجيد العقل، ونفي القدر، والإعلاء من قيمة الحرية، وشابهوا المرجئة في التهاون والاستهتار بالمعاصي والكبائر؛ بل وأتوا ببدعٍ لم يسبقهم إليها أحدٌ ممَّن قبلهم[٣]، والحقيقة أنَّ العقلانية والعلمانية وجهان لعملةٍ واحدةٍ، ومن تأمَّل أهداف وأفكار العقلانيين وجدها نفسها أهداف وأفكار العلمانيين؛ وإنَّما الفارق شكليٌّ فقط، وهو أنَّ العقلانيين قدَّموا أفكارهم بعد أن غلَّفوها وألبسوها اللباس الشرعي، وأمَّا العلمانيون فلم يفعلوا هذا، فالطائفتان تلتقيان في نهاية الأمر حول أهدافٍ واحدة، كالتقارب بين الأديان، والدعوة للديمقراطية الغربية، والتهوين من شأن الحكم بما أنزل الله، والدعوة إلى تحرير المرأة، وغير ذلك؛ "ولهذا فإنَّ عقلاء الباحثين ممَّن ينظرون إلى مآل الأفكار لا حاضرها، لم يخفَ عليهم هذا الالتقاء بين الطائفتين، ورأوا أنَّ الطائفة العقلانية إنَّما هي بوابةٌ وقنطرةٌ للعلمانية، وأنَّه لا مكان في جميع الأفكار التي طرحوها للون الرمادي الذي يزعمون أنَّهم يتبنونه، وأنه وسطٌ بين الأبيض والأسود، فهذا اللون في الحقيقة لا يوجد إلا في الأذهان، أمَّا في أرض الواقع فلا مجال إلا بالتزام أحكام الإسلام وهو اللون الأبيض، أو اللحاق بركب العلمانيين وهو اللون الأسود، ومن ادَّعى أنَّه سيسير بينهما فهو واهمٌ، وعن

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٤٢٦-٤٢٨.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٤٢٢.

(٣) انظر: العصرانيون، لمحمد الناصر، ص١٣-٢٩، والتفسير والمفسرون، للذهبي(٣٧٢/١-٣٧٣)، والاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٥٥-٥٩، والاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية، لمحمد أسود، ص٤٦٩، والموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٧٤/١).

قريبٍ هو صائرٌ إلى أحدهما كما حدث لتلاميذ المدرسة العقلانية؛ حيث انضمَّ أكثرهم إلى العلمانية الخالصة، وتراجع قلةٌ منهم عندما عرفوا مصير السير وراء الأفكار التوفيقية الرمادية(١).

يقول أحد الباحثين عن محمد عبده وتلاميذه العقلانيين: "كان يريد أن يُقيم سدًا في وجه الاتجاه العلماني يحمي المجتمع الإسلامي من طوفانه؛ ولكنَّ الذي حدث هو أنَّ هذا السد قد أصبح قنطرةً للعلمانية، عبَرتْ عليها إلى العالم الإسلامي؛ لتحتلَّ المواقع واحدًا تلو الآخر، ثمَّ جاء فريقٌ من تلاميذ محمد عبده وأتباعه فدفعوا نظرياته واتجاهاته إلى أقصى العلمانية"(٢).

ويقول الدكتور ناصر العقل عن المدرسة العقلية الحديثة: "لهم آراءٌ ومناهج ليست علمانيةً صريحةً؛ لكنَّها في سبيل العلمنة"(٣).

ويقول الدكتور سفر الحوالي: "لم يكن محمد عبده علمانياً؛ ولكنَّ أفكاره تُمثِّل بلا شكٍّ حلقة وصلٍ بين العلمانية الأوربية والعالم الإسلامي، ومن ثمَّ فقد باركها المُخطط اليهودي الصليبي، واتَّخذها جسرًا عبر عليه إلى علمانية التعليم والتوجيه في العالم الإسلامي، وتنحية الدِّين عن الحياة الاجتماعية، بالإضافة إلى إبطال العمل بالشريعة، والتحاكم إلى القوانين الجاهلية المستوردة، واستيراد النظريات الاجتماعية الغربية، وهو قائمٌ جميعه تحت ستار الإصلاح أيضاً، أمَّا الجماهير الإسلامية فقد اتخذت أفكاره الإصلاحية مُبرِّرًا نفسيًا لتقبُّلها للتغيير العلماني"(٤).

إنَّ الحديث عن المدرسة العقلانية الحديثة ممَّا يطول مداه، وتكثر كلماته، وختام القول في هذا المنهج أنَّ العقلانيين المعاصرين يدعون دعوة مؤصلةً إلى إخضاع كلِّ النصوص الشرعية للجوانب العقلية، وخاصة مسائل العقيدة، وحال هؤلاء كما قال ابن القيم- رحمه الله-:" فإذا كان رفع الأصوات فوق صوته ﷺ سبباً لحبوط الأعمال، فما الظنُّ برفع الآراء ونتائج الأفكار على سنَّته وما جاء به"(٥)، وهكذا قاس العقلانيون العقائد بهذا المنطق، فضلُّوا وأضلُّوا، حتى وصل بهم الأمر إلى أن كثيراً منهم اليوم عنده الاختلال الواضح في توجهاتهم، وهكذا يسيرون على منهجٍ يبتعد شيئاً فشيئاً عن دين الله ﷻ، نسأل الله السلامة والعافية.

---

(١) العصرانية قنطرة العلمانية، لسليمان الخراشي، ص٤٠.

(٢) الإسلام والحضارة الغربية، لمحمد حسين، ص٧٨-٧٩.

(٣) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٨٦.

(٤) العلمانية، لسفر الحوالي، ص٥٧٩.

(٥) مدارج السالكين، لابن القيم(٢/٣٨٩).

المبحث الثاني
المدرسة الليبرالية العربية ومنهجها في فهم النص الديني.

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالليبرالية ومبادئها وعوامل ظهورها.

المطلب الثاني: أبرز تيارات ومفكري الليبرالية في العالم الإسلامي.

المطلب الثالث: منهج المدرسة الليبرالية العربية في فهم النص الديني.

المطلب الرابع: الحكم الشرعي في الليبرالية.

المبحث الثاني: المدرسة الليبرالية العربية ومنهجها في فهم النص الديني.

تتردَّد كثيراً في الآونة الأخيرة كلمة الليبرالية والليبراليين، ويُقال: فلان من الليبراليين الجُدد، ونظراً لخطورة هذا الفكر الهدَّام، وتبنِّي بعض أبناء جلدتنا له، وتحكُّمهم في كثيرٍ من مفاصل الحياة، وخاصةً وسائل الإعلام والفضائيات التي تستطيع أن تخاطب فئاتٍ واسعةً من المجتمع الإسلامي، وتؤثِّر فيهم، علاوةً على أنَّهم يختبئون خلف شعاراتٍ براقةٍ خادعةٍ، وحقيقةُ أمرِهم أنهم زنادقةٌ لا يؤمنون بربٍ معبود، ولا بيومٍ مشهود، ولا يدينون بشريعةٍ إلهيّة يلتزمونها، ولا برسولٍ يُطاع ويُتَّبَع؛ وإنما غايةُ مُرادهم، تزيينُ المنكرات، واتِّباع الشهوات، ومبدؤهم العام أن دعوا الناس يعيشون كيفما يريدون، فهم أحرارٌ في كلِّ شيءٍ، يعيشون كما يشتهون ويشاءون، ولن يحاسبهم ربهم على شيءٍ في الدنيا، وليس بعد الموت شيءٌ، لا حساب ولا ثواب ولا عقاب، وما هذه المعاناة التي نعاني منها في البلاد الإسلامية من تطبيق القوانين الوضعيَّة، وانتشار الفساد الأخلاقي، والإلحاد، وترويج مذاهب الكافرين إلَّا إفرازاً لهذا المذهب الفاسد[١].

ومن أجل هذا كله كان لا بد من تسليط الضوء على هذا الفكر الهدَّام، وبيان أفكاره وآرائه التي يُنادي بها، وكشف زيفه، وفضح عواره للأمَّة؛ لتكون على بينةٍ ممَّا يُكاد ويُدبَّر لها.

---

(١) انظر: الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر، ص٧-٩.

المطلب الأول: التعريف بالليبرالية ومبادئها

أولاً: تعريف العلمانية ونشأتها:

١- تعريف العلمانية:

لا بدَّ من التَّعريف بالعَلَمانيّة قبل التعريف بالليبرالية؛ لأنَّ العلمانية هي أصل الليبراليّة، والعَلَمانيّة تُعْرَفُ في البلاد التي نشأت فيها- وهي أوربا- بألَّا يكون الإنسان مُلزَمًا بتنظيم أفكاره وأعماله وفق معايير مفروضةٍ على أنَّها شريعةٌ أو إرادةٌ إلهيِّة، وهي ترى ضرورة أن تقوم الأخلاق والتعليم على أساسٍ غير دينيٍ، ويُطلق على هذا الفكر في اللغة الإنجليزية التي هي لغته الأصلية Secularism، وهي تعني اللادينية أو الدنيوية، وهو ما لا صلة له بالدين، أو ما كانت علاقته بالدين علاقة تضاد، غير أنَّها اشتهُرت باسم العلمانية، وهي كلمةٌ لا صلة لها بلفظ العلم ومُشتقاته على الإطلاق، فالنِّسبة في اللغة العربية من العلم لا يُقال لها: علماني؛ وإنَّما عِلمي، ولعل ذلك كان مقصودًا ممَّن أطلق عليها هذا الاسم بُغية إظهارها بمظهرٍ يجعلها مقبولةً بين المسلمين، وهذا تلبيسٌ شديدٌ، حتى يفهم الناس أنَّ هذا المذهب المقصود به العلم والانفتاح العلمي، وليس هذا هو المراد(١).

إنَّ التعبير الشائع في تعريف العلمانية في بعض الكتب هو فصل الدِّين عن الدولة، وهذا في الحقيقة لا يُعطي المدلول الكامل للعلمانية الذي ينطبق على الأفراد وعلى السلوك الذي قد لا يكون له صلةٌ بالدولة، إذ جذور العلمانية أعمق من ذلك بكثير، وفصل الدين عن السياسة يُمثِّل إحدى الثمار البدائية التي يُمكن اقتطافها من هذه الشجرة الخبيثة، فهي تمتد إلى جميع شؤون الحياة البشرية، ومنها الحياة السياسية، ولذلك لو قيل: إنَّها فصل الدِّين عن الحياة لكان أصوب؛ ولذلك فإنَّ المدلول الصحيح للعلمانية هو: إقامة الحياة على غير الدِّين، سواءٌ بالنسبة للأمَّة أو الفرد، وإقصاء الدِّين من جميع المجالات(٢).

فالعلمانية هي رؤيةٌ عقلانيةٌ ماديةٌ شاملةٌ للإنسان والكون، وفلسفةٌ عامَّةٌ للحياة تُؤمن بقدرة العقل البشري المُطلقة على فهم الطبيعة والسيطرة عليها، وتقوم على فصل كلِّ الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية عن القيم الدينية والأخلاقية، وإنكار كل ما وراء المادة، وتنحية الغيب، ونزع القداسة عن المُقدَّس(٣)، وتقوم العلمانية على قَصْر الاهتمام الإنساني على الدُّنيا فقط، وتأخير

---

(١) انظر: العلمانية، لسفر الحوالي ص٢١، والعلمانية، الليبرالية، الديمقراطية، الدولة المدنية في ميزان الإسلام، اللجنة العلمية بجمعية الترتيل، ص٧، والإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان لشحاتة صقر، ص١١-١٢، والعلمانية المفهوم والمظاهر والأسباب، لمصطفى السلاوي، ص٣٣-٣٤.

(٢) انظر: العلمانية، لسفر الحوالي ص٢٤، وانظر: العلمانية المفهوم والمظاهر والأسباب، لمصطفى السلاوي، ص٣٥-٣٧.

(٣) انظر: العلمانية المفهوم والمظاهر والأسباب، لمصطفى السلاوي، ص٥٢.

منزلة الدِّين في الحياة، وفَصْل العلم والأخلاق والفكر والثقافة عن الالتزام بتعاليم الدِّين، وإقامة دولة ذات مؤسساتٍ سياسيةٍ على أساسٍ غير ديني، فالخطاب العلماني يقف على أرضٍ إلحاديةٍ لا تُؤمن بوجود إله، ولا تعترف بدينٍ، ويتظاهر بكونه لا مشكلة له مع الدين، وأنَّه يكفل حرية الاعتقاد للجميع[1].

٢- **نشأة العلمانية:** وأمَّا عن نشأة العلمانية فإنَّ جذور هذا الفكر قد نشأت في أوروبا حين طغى رجال الكنيسة بدينهم المُحرَّف، وسيطروا على المجتمعات، وأرادوا السيطرة على حقائق العلم؛ فنفوا من هذه الحقائق ما خالف تصوُّراتهم، وأقيمت على الشعوب هناك مذابح دموية سُمِّيت بمحاكم التفتيش، قُتل فيها النساء والرجال بالآلاف، ووقع على الناس ألوانٌ شتَّى من ألوان التعذيب، وقد صاحب هذا فسادٌ في أحوالهم الدِّينية، فصكُّوا صكوك الغفران، وزعموا أنَّه لا تُقبل عبادة العباد إلا من خلال رجال الكنائس، ورويداً رويداً بدأ التَّململ والتذمُّر الذي انتهى بالثورة ضد الكنيسة وتعاليمها؛ للتخلص من سيطرة رجال الدِّين، ثمَّ قامت الثورة بحصار الدِّين الكنسي في شعائر تعبديةٍ لا علاقة لها بالحياة، فأقامت أوربا بعد ذلك حضارتها على المادية المحضة، وهي تعتقد أنَّ العلم ضدُّ الدين[2].

ونتيجةً لهذه الثورات ضدَّ الدِّين الكنسي المُحرَّف، نشأت العلمانية في الغرب، ومنها انتقلت إلى العالم الإسلامي، مع عدم توفر دواعي وجودها في العالم الإسلامي؛ لوجود الدِّين الحق، وحفظه لحقوق الناس، وتشجيعه للعلم والعلماء.

ثانياً: تعريف الليبرالية

قبل تعريف الليبرالية يُلاحظ أنَّه من الصعوبة بمكان تحديد تعريفٍ دقيقٍ لليبرالية، وذلك بسبب تعدُّد جوانبها، وتطوُّرها من جيلٍ إلى جيل، فهي من المصطلحات الغامضة وغير الواضحة، وقد أُطلق هذا المصطلح على أفكارٍ متباينةٍ، فقد أُطلق على تقييد دور الدولة في الإنتاج، وتنظيم السوق وحريات الأفراد الشخصية، واعتبر هذا الفكر دور الدولة سلبياً، بينما أُطلق اسم الليبرالية أيضاً على فكرٍ ليبراليٍ مختلفٍ يرى ضرورة تدخُّل الدولة لدعم الحريات، وتنظيم الحياة المدنية؛ لتحقيق أكبر قدرٍ مُمكنٍ من الحرية، وكلٌّ واحدٍ من هذين الفكرين يُطلق على نفسه اسم الليبرالية، ويقوم بنقد الفكر الآخر، ويعتبره غير ليبرالي[3].

وأمَّا من حيث المنهج فقد اعتمد بعض الليبراليين على المنهج العقلي، واعتمد آخرون على المنهج المادي، ومن الناحية التاريخية فإنَّه لم يوجد نقطة انبثاقٍ لليبرالية من الناحية الزمانية والمكانية،

---

(١) انظر: العلمانية، الليبرالية، الديمقراطية، في ميزان الإسلام، اللجنة العلمية بجمعية الترتيل، ص٩-١٠.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٨، والعلمانية المفهوم والمظاهر والأسباب، لمصطفى السلاوي، ص٦٤، والعلمانية نشأتها وتطورها، لسفر الحوالي، ص١٤٧.

(٣) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص١١١.

فقد نشأت الليبرالية كردَّة فعلٍ غير واعيةٍ بذاتها ضد ظلم الكنيسة والإقطاع في أوربا، ثمَّ تشكَّلت في كلِّ بلدٍ بصورةٍ خاصة[١].

أ- **الليبرالية لغةً:** إنَّ الليبرالية هي في الأصل مصطلحٌ أجنبيٌّ مُعرَّب، مأخوذ من (Liberalism) في الإنجليزية، وهي تعني: التحررية، ويعود اشتقاقها إلى (Liberty)، ومعناها: الحرية، كما يرجع لفظ الليبرالية إلى اللفظ اللاتيني (ليبراليس)، وتعني الشخص الكريم النبيل والحر، ولم يتفق صُنَّاع الليبرالية والمنظِّرين لها على تعريفٍ يُحدِّد معناها بوضُوح؛ لكنهم اتفقوا على وصفها بالحرية المطلقة[٢].

ويقوم هذا المذهب على أساسٍ علماني يُعظِّم الإنسان، ويرى أنَّه مستقلٌ بذاته في إدراك احتياجاته، تقول الموسوعة الأمريكية الأكاديمية: "إنَّ النظام الليبرالي الجديد بدأ يضع الإنسان بدلاً من الإله في وسط الأشياء، فالناس بعقولهم المُفكِّرة يمكنهم أن يفهموا كلَّ شيء، ويمكنهم أن يُطوِّروا أنفسهم ومجتمعاتهم عبر فعلٍ نظاميٍ وعقلاني"[٣].

ب- **الليبرالية اصطلاحاً:** لقد تعدَّدت تعريفات الليبرالية على عدة آراءٍ، فجاء في تعريفها أنَّها:

١- "مذهبٌ يُنادي بالحرية المطلقة في الميدانين الاقتصادي والسياسي، ويرتكز على الاستقلالية، والتحرُّر التام من كلِّ أنواع الإكراه الخارجي، سواءٌ كان من دولةٍ، أو جماعةٍ، أو فردٍ، ثمَّ التصرف وفق ما يُمْليه قانون النفس ورغباتها، والانطلاق نحو الحُريات بكلِّ صُورها"[٤].

٢- "فلسفةٌ سياسيةٌ ظهرت في أوربا في أوائل القرن التاسع عشر، تُعارض المؤسسات السياسية والدينية التي تحدُّ من الحرية الفردية، وتُنادي بأنَّ الإنسان كائنٌ خيِّرٌ عقلانيٌ، وتطالب بحقه في التعبير وتكافؤ الفرص والثقافة الواسعة"[٥].

٣- "مذهبٌ إقتصادي رأسمالي علماني، يؤكد على الحرية الفردية الكاملة، ويقوم على المنافسة الحرة، ويرى أنَّ الدولة لا يحقُّ لها التَّدخل في العلاقات الإقتصادية التي تقوم بين الأفراد والأمم، ويدعو إلى الحرية المطلقة في جميع ميادين الحياة"[٦].

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص١١٢-١١٣.

(٢) انظر: المعجم الفلسفي، لجميل صليبا(٤٦١/١)، والإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر، ص٢٣، ونقد الليبرالية، للطيب بو عزة، ص١٨.

(٣) نقلاً عن حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص١٠٢.

(٤) الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر، ص٢٤.

(٥) موسوعة المورد العربية، لمنير البعلبكي(١٠٥٠/٤).

(٦) موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد، ص ٧٢٦، ونهاية التاريخ وخاتم البشر، لفوكوياما، ص٥٥، بتصرف يسير.

٤- مذهبٌ سياسيٌ فلسفيٌ يرى أنَّ وحدة الدين ليست ضروريةً للتنظيم الاجتماعي، وأنَّ القانون يجب أن يكفل حرية الرأي والاعتقاد والفكر لكلِّ المواطنين، والسماح بحرية التعبير عن الآراء الدينية، وممارسة العبادة، حتى ولو كانت معارضةً لكلِّ الأديان والمذاهب(١).

٦- "الحرِّية الحقة بأن نُطبِّق القوانين التي اشترعناها لأنفسنا، وغياب العوائق الخارجية التي تحدُّ من قُدرة الإنسان على أن يفعل ما يشاء"(٢).

٧- "فلسفةٌ اقتصاديةٌ وسياسيةٌ ترتكز على أولوية الفرد، بوصفه كائناً حراً"(٣).

٨- "مجموعةٌ من الأفكار الإلحادية التي تعكس رؤيا ذات أبعاد اعتقادية في تفسير الوجود، ووظيفة الحياة، ودور الإنسان فيها"(٤).

٩- "مذهبٌ فكريٌ يُركِّز على الحرية الفردية، ويرى وجوب احترام استقلال الأفراد، ويعتقد أنَّ الوظيفة الأساسية للدولة هي حماية حريات المواطنين الفردية"(٥).

١٠- "حركةٌ فكريةٌ تعتمد على حرية التفكير، وانتهاج الفكر العقلاني والطريقة التاريخية في التعامل مع النصوص الدينية، وتؤكد على الحرية العقلية التي تسمح لكلِّ فرد أن يُسوِّي علاقته مع الله بطريقته الخاصة"(٦).

وبناءً على ما سبق فقد عُرِّفت الليبرالية بمجموعة تعريفاتٍ متقاربةٍ أحياناً، ومتباينة أحياناً، والحقيقة أنَّ التعريف الدقيق لهذا المصطلح، هو تعريفه بحسب المجال الذي تُدرَس من خلاله، فالليبرالية فكرةٌ ليست من صنع عَقلٍ بشريٍ واحدٍ، ولا وليدةَ بيئةٍ ثقَافيةٍ أو ظروفٍ زمَنيةٍ واحدة؛ ولذلك فقد تعدَّدت تعريفاتها وخاصةً بعد أن سادت فلسفةٌ فكريةٌ غربيةٌ وضعيةٌ، تنزع إلى المادية والفردية والتحرر من كلِّ قيدٍ أو ثابت، إلا ثابتٍ واحدٍ وهو عدم الثَّبات؛ فكل شيءٍ في المذهب الليبرالي مُتغيرٌ، وقابلٌ للجدل والأخذ والرد؛ ولذلك الصواب أن نخصصها فنقول: ليبرالية السياسة، وليبرالية الاقتصاد، وليبرالية الأخلاق، وهكذا.

يقول الدكتور يوسف القرضاوي-حفظه الله- بعد ذكر تعريفات الليبرالية: "وأمثال هذه المصطلحات التي تدلُّ على مفاهيم عقائدية ليس لها مدلولٌ واحدٌ مُحددٌ عند الأوربيين؛ لهذا تُفسَّر في بلدٍ بما لا تُفسَّر به في بلدٍ آخر، وتُفهم عند فيلسوفٍ بما لا تُفهم به عند غيره، وتُطبَّق في مرحلةٍ بما

(١) انظر: المعجم الفلسفي، لجميل صليبا(٤٦٥/١)، والموسوعة السياسية، لعبد الوهاب الكيالي(٥٦٦/٥)، ونهاية التاريخ وخاتم البشر، لفوكوياما، ص٥٤.

(٢) وسقط صنم الليبرالية، لرأفت صلاح الدين، ص٣.

(٣) نقد الليبرالية، للطيب بو عزة، ص٢٠.

(٤) معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، لعبد العزيز كامل، ص٣٧.

(٥) حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص١٠١.

(٦) موسوعة المورد العربية، لمنير البعلبكي(١١٤/٦)، وحكمة الغرب، لراسل(١٠٤/٢)، بتصرف يسير

لا تُطبَّق به في أخرى، ومن هنا كان اختلاف التعريفات لهذه المفاهيم، وكانت الصعوبة في وضع تعريفٍ منطقيٍ جامعٍ مانعٍ يُحدِّد مدلولها بدقة"[1]؛ ولذلك "فإن بلورة تعريفٍ واضحٍ ودقيقٍ لمفهوم الليبرالية، أمرٌ صعب، وربما عديم الجدوى؛ بل ونادراً ما تُوجد حركةٌ ليبراليةٌ لم يُصبها الغموض"[2].

وبالرغم من الاختلاف في تعربف الليبرالية إلا أنَّ لليبرالية جوهرٌ أساسيٌ يتفق عليه جميع الليبراليين في كافة العصور مع اختلاف توجهاتهم، وهذا الجوهر هو أنَّ الليبرالية تعتبر الحرية الفردية المبدأ والمنتهى، والأصل والنتيجة في حياة الإنسان، حيث تقوم الليبرالية على أُسسٍ فكريةٍ هي القَدْر المشترك بين سائر اتجاهاتها وتياراتها المختلفة، ولا يمكن اعتبار أي فرد ليبراليًّا وهو لا يُقرُّ بهذه الأُسس ولا يعترف بها؛ لأنَّها هي الأجزاء المُكوِّنة لهذا المذهب، والمُميِّزة له عن غيره، وتنقسم هذه الأسس المكونة لليبرالية إلى أسسٍ ذاتيةٍ مميزةٍ لليبرالية عن غيرها من المذاهب الفكرية الغربية، وهما الحرية والفردية، وأُسسٍ مُشتَرَكةٍ بين الليبرالية وغيرها من المذاهب الفكرية الغربية، وهو أساس العقلانية، فكلُّ المذاهب التي ظهرت في أوروبا في العصر الحديث خرجت من الفكر العقلاني، الذي يعتقد باستقلال العقل في إدراك المصالح الإنسانية في كلِّ أمرٍ دون الحاجة إلى الدِّين، فالليبرالية مركبةٌ من الحرية الفردية العقلانية؛ ولكنَّ هذه الأسس المُكَوِّنة لحقيقتها مُجْمَلةٌ، تعدَّدت تصورات الليبراليين في تفصيلاتها الفكرية، وآثارها العملية، والطريقة التطبيقية لها أثناء العمل السياسي أو الاقتصادي[3].

والخلاصة أنَّ الليبرالية لها مفاهيمٌ متعددةٌ بحسب ما تُضاف إليه، ويجمعها الاهتمام المُفرط بالحرية، وتحقيق الفرد لذاته، واعتبار الحرية هدفاً وغايةً في ذاتها، فالليبرالية هي نظرية الحرية، وهي نظريةٌ ذات أطيافٍ مُتعددةٍ، وجوانب مختلفةٍ، وبمقادير متفاوتةٍ[4].

ج- تطوُّر الليبرالية: لقد ساهم عددٌ كبيرٌ من المُفكِّرين الغربيين في صياغة الفلسفة الليبرالية على النحو التالي:

١- قامت فكرة الليبرالية الأساسية في الاقتصاد على الحرية الاقتصادية، بمعنى عدم تدخل الدولة في النشاط الاقتصادي، أو أن يكون تدخلاً محدوداً، وعلى أضيق نطاق، فواجبات الدولة عندها محدودةٌ، يجب أن لا تتجاوزها، وسعادة البشر وفق هذا المذهب تتحقَّق من خلال سعي كلِّ فردٍ لتحقيق مصلحته الذاتية، وتُسمَّى هذه الفترة بالليبرالية الكلاسيكية، ويُطلق على هؤلاء الليبراليون المحافظون.

---

(١) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، للقرضاوي، ص٥٠- ٥١.

(٢) الليبرالية في السعودية والخليج دراسة وصفية نقدية، لوليد الرميزان، ص١٤.

(٣) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص١٢١، والإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر، ص٣٢-٣٣.

(٤) انظر: مفهوم الحرية، لعبد الله العروي، ص٥١١.

٢- تعرضت الليبرالية لتغيُّراتٍ هامةٍ منذ منتصف القرن التاسع عشر، تحت ضغط الواقع، ومرارة التجارب، بسبب بروز الحركة الاشتراكية، وضغط الحركات العمالية، والثورات التي شهدتها أوروبا، فظهرت الليبرالية الجديدة، أو ليبرالية الرفاه أو المساواة التي سمحت بتدخلٍ أكبر في الحياة الاقتصادية؛ لضمان درجةٍ معقولةٍ من العدالة الاجتماعية، ويطلق على هؤلاء الليبراليون الجُدد.

٣- رجعت الليبرالية في القرن الحادي والعشرين إلى المفهوم الأول لليبرالية مُمثَّلاً في فرض سياسة واقتصاد القوة ذات القطب الواحد على الدول النامية، وهو ما يُعرف بالعولمة[١]، وبذلك تضمن السيطرة على هذه الدُّول[٢]؛ وإذا رفضت أيُّ دولةٍ الخضوع لهذا النظام العالمي الجديد، والاندماج في الاقتصاد الرأسمالي العالمي، فإنَّه يُستخدم ضدَّها العقوبات الاقتصادية، أو إثارة الاضطراب والفوضى الأمنية، أو العدوان العسكري المكشوف[٣].

فيُلاحظ أنَّ الليبرالية مرَّت بمراحل متطورة مختلفة، وأنها لا يُقصد بها معنى واحد، وممَّا يدلُّ على ذلك أنَّ كلمة الليبرالية تُستعمل في إنجلترا بالمعنى الاقتصادي، بينما تُستعمل في إيطاليا بالمعنى السياسي الديني، وتستعمل في أوربا بمعنى الليبرالية الكلاسيكية التي تمنع من تدخُّل الدولة، بينما تُستعمل في أمريكا بمعنى الليبرالية الاجتماعية، التى ترى ضرورة تدخُّل الدولة في الاقتصاد لحماية حريَّة الأفراد[٤].

ثالثاً: الليبرالية وعلاقتها باليهود:

الليبرالية كغيرها من الأفكار والنظريات والمذاهب الهدامة، هي نبتٌ يهوديٌّ، صنعها اليهود على أعينهم، وصاغوها، ثمَّ نشروها في العالم، وأشغلوا الناس بها؛ لأنَّها تُحقِّق لهم أهدافاً كثيرة؛ يأتي في مُقدِّمتها بلبلة الأفكار وتشويشها، وتغذية الصراعات والانقسامات التي تُمكِّنهم من إضعاف الآخرين ثمَّ السيطرة عليهم[٥]، جاء في البروتوكول العاشر للمجرمين الصهاينة: "ولمَّا أدخلنا اسم الليبرالية على جهاز الدولة، تسمَّمت الشرايين كلُّها، ويا له من مرضٍ قاتل، فما علينا بعد ذلك إلا انتظار الحشرجة وسكرات الموت، إنَّ الليبرالية أنتجت الدولة الدستورية التي حلَّت محلَّ الشيء الوحيد الذي كان يقي

---

(١) الأساس الفكري لتطبيق فكرة العولمة هو الرجوع إلى تطبيق الليبرالية الكلاسيكية. انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٣٩.

(٢) انظر: قاموس الفكر السياسي، ترجمة أنطون حمصي(١٧٨/٢)، وحقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص١٠٤-١٠٨، ص١١٥، ص١١٧-١١٨، ص١٧٨، ص٢٥٩، ص٤٢٦، ص٤٤٤.

(٣) انظر: الليبرالية المستبدة، لرمزي زكي، ص٣٧-٣٩، والليبرالية المتوحشة، لرمزي زكي، ص٢٠-٤٦.

(٤) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص١١٧-١١٩، وموسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد(٧٢٦/٢).

(٥) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣١٤-٣١٦.

الغوييم[1] السلطة المستبدَّة، والدستور كما تعلمون جيداً ما هو إلا مدرسةٌ لتعليم فنون الانشقاق والشغب وسوء الفهم، والمنابذة، وتنازع الرأي بالردِّ والمخالفة، والمشاكسة الحزبية العقيمة، والتباهي بإظهار النزوات، وبكلمةٍ واحدةٍ مدرسةٌ لإعداد العناصر التي تفتك بشخصية الدولة، وتقتل نشاطها، ومنبر الثرثارين، وهو ليس أقل من الصحف إفساداً في هذا الباب، راح ينعى على الحُكَّام خمولهم وانحلال قواهم، فجعلهم كمن لا يُرجى منه خيرٌ أو نفع، وهذا السبب كان حقاً العامل الأول في القيام على كثيرين من الحُكَّام؛ فأُسقطوا من على كراسيهم، فأطلَّ عهد الحكم الجمهوري وتحقَّق؛ فجئنا نحن نُبدِّل الحُكم بمطيةٍ مِن قِبَلِنا، ونجعله على رأس الحكومة وهو ما يُعرف بالرئيس، نأتي به من عداد مطايانا أو عبيدنا، وهذا ما كان منه المادة الأساسية المتفجرة من الألغام التي وضعناها تحت مقاعد شعب الغوييم؛ بل على الأصح شعوب الغوييم"[2].

وجاء في البروتوكول الأوّل من بروتوكولات حكماء صهيون: "لقد كنّا قديماً أوّل من هتف بكلمات: الحرية والمساواة والإخاء، وما انفكّت هذه الكلمات تردِّدها ببغاواتٌ جاهلة، يتجمهرون من كلِّ حدبٍ وصوبٍ حول هذه الشعارات المُغرية، التي حطَّموا عن طريقها ازدهار العالم، وحريَّة الفرد الشخصية الحقيقيَّة، التي كانت من قبل في حمىً يحفظها من أن يخنقها السفلة، ولم يعرف الذين يدَّعون الذكاء والعقل وسعة الإدراك من الغوييم المعاني الرمزية التي تهدف إليها هذه الكلمات، ولم يتبيَّنوا عواقبها، ولم يُلاحظوا ما فيها من تناقضٍ في المعنى، كما لم يُدركوا أنَّ الطبيعة نفسها تخلو من المساواة، وأنَّ الطبيعة قد أوجدت أنماطاً غير متساويةٍ في العقل، والشخصية، والأخلاق، والطاقة، وغيرها، إنَّ صيحتنا: الحريّة والمساواة والإخاء، قد جلبت إلى صفوفنا فرقاً كاملة من زوايا العالم الأربع، عن طريق وكلائنا المغفَّلين، وقد حملت هذه الفرق ألويتنا في نشوةٍ، بينما كانت هذه الكلمات مثل كثيرٍ من الديدان، تلتهم سعادة الغوييم وتحطِّم سلامهم واستقرارهم ووحدتهم، مدمِّرةً بذلك أُسس الدول، وقد جلب هذا العمل النصر لنا.. "[3].

وجاء في البروتوكول الثالث:" تذكَّروا الثورة الفرنسية التي نُسمِّيها الكبرى؛ إنَّ أسرار تنظيمها التمهيدية معروفةٌ لنا جيّداً؛ لأنّها من صنع أيدينا، ونحن من ذلك الحين نقود الأمم قُدماً من خيبةٍ إلى خيبة"[4].

فهذه هي حقيقة الليبرالية، وحقيقة الدَّاعين إليها، والمتأثّرين بها، علموا بذلك أم لم يعلموا.

---

(١) تنطق الغين حرف g بالإنجليزية، ويقصدون بذلك البشر غير اليهود، ويقصدون أنهم أغبياء يوجهونهم كيفما يشاؤون، ويصل بهم المستوى للقول: الغوييم هم حيوانات بصورة بشر،.انظر: موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة(٣١/٢٧).

(٢) بروتوكولات حكماء صهيون، ترجمة محمد خليفة، ص٢٦.

(٣) المرجع السابق، ص٧.

(٤) المرجع السابق، ص١٣.

وللأسف فقد فُتن بعض بني قومنا بهذه الليبرالية كما فُتنوا سابقاً بأخواتها من الأفكار الهدَّامة، وكأنَّهم لم يتفطَّنوا لحقيقة هذا الفكر الهدَّام الذي يدعو إلى التحلُّل من كلِّ الثوابت والعقائد، فالإنسان عند الليبراليين إلهُ نفسه، وعابد هواه، غير محكومٍ بشريعةٍ من الله ﷻ، والليبرالية تُبيح للشخص أن ينتسب إلى أيِّ دينٍ، وإلى أيِّ مذهبٍ دون أن يُعاب أو يُنكر عليه، فعند الليبراليين من أراد أن يكون مسلماً فليكن، ومن أراد أن يكون يهودياً فليكن، ومن أراد أن يكون نصرانياً فليكن، ومن أراد أن يكون عابداً للبقرة فليكن!!، وكذلك من كان مسلماً فله أن يكون خارجياً سفاَّكاً للدماء، وله أن يكون مُرجئاً جهمياً متفلِّتاً من الأمر والنهي، وله أن يكون رافضياً يسبُّ خيار الأمَّة وفضلاءها !!، فالليبرالي حرٌّ حريةً مطلقةً بلا قيودٍ ولا ضوابط[1].

رابعاً: عوامل ظهور الليبرالية في العالم الإسلامي:

كانت أغلب البلاد الإسلامية تحت حكم الدولة العثمانية، في القرون الأخيرة، وكانت الدولة العثمانية هي الحامية لبيضة الإسلام آنذاك، والقائمة على نشر العلم والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحاملة لراية الجهاد في سبيل الله، وقد فتحت أقطاراً واسعةً من القارة الأوروبية، وأخضعتها للإسلام، وكانت الأمة الإسلامية آنذاك ثابتةً على دينها، معتزةً به، واثقةً بصحَّته، وصلاحيته للحكم في كلِّ زمانٍ ومكان، ولكن وُجدت عوامل أضعفت ثقة الأمة بدينها، وهيَّئت المجتمع الإسلامي لتقبُّل الليبرالية، وعدم مقاومتها، وهذه الأسباب ليست أسباباً مباشرةً في وجود الليبرالية؛ ولكنَّها أوجدت أرضيةً متقبِّلةً لها، ومناخاً مُناسباً للرضى بها، والسكوت عليها[2].

ولا شكَّ أنَّ السبب المباشر لدخول الليبرالية إلى العالم الإسلامي هو الاستعمار وأذنابه من دعاة التغريب، والمنبهرين بالحضارة الغربية؛ ولكنَّ دخولها لم يكن له أن يتمَّ لولا وجود عوامل معينةٍ، ساعدت على عدم الوقوف الجاد في وجه هذه الأفكار المنحرفة، وقد تمَّ هذا الانحراف على يد الفرق الضالة كالمرجئة والصوفية، وهذه الانحرافات ساعدت على وجود الفكر الليبرالي عندما قَدِم مع الاستعمار، وقد استغلَّ المستعمرون هذه الانحرافات أبشع استغلال، ووظَّفوها في خدمة أهدافهم، ولما احتُلت بلاد المسلمين فُرضت الليبرالية في النظام السياسي والاقتصادي، ولمَّا رأى الاحتلال عدم تقبُّل المسلمين لأيِّ أمر غير مرتبطٍ بالإسلام، جاء بفكرة تطوير الإسلام وتحديثه، ومن هذه الفكرة خرج مشروع الإسلام الليبرالي[3].

ومن هذه العوامل المؤثِّرة في ظهور الليبرالية في العالم الإسلامي ما يلي:

---

(١) انظر: موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة (١١١/٣١).

(٢) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣١٩.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٣٢٠.

١- **الانحراف العقدي:** إنَّ الانحراف العقدي هو السبب المباشر في ضعف الأمة الإسلامية وتخلُّفها وانحطاطها، وتراجعها في القرون المتأخِّرة، فالضعف والهوان، والقابلية للمبادئ المنحرفة وُجدت في الأمة الإسلامية بعد التغيير والتبديل في العقائد والتصوُّرات؛ فأصبح لهذه الأفكار الوافدة رواجاً كبيراً، وانتسب لها فئاتٌ من المجتمع الإسلامي، وطُبِّقت مبادؤها، وأصبحت مناهجها تُدرَّس في المدارس والجامعات، وتغيرت الأنظمة السياسية والاقتصادية لتتوافق مع أفكار هذه المذاهب(١).

ومن الانحراف العقدي الذي وقع في الحياة الإسلامية، ما يلي:

أ- **ازدياد نشاط الفرق المنحرفة في القرون الأخيرة:** كالبهائية والقاديانية والنصيرية والدروز وغيرهم، وخروجها من سرِّيتها وتكتُّمها إلى مرحلة الظهور والإعلان، وقد انتشرت هذه الفرق بين المسلمين لغلبة الجهل، وقلة العلم، واستعملت وسائلَ وأساليبَ متدرجةً للوصول إلى ما يُريدونه من العقائد الباطلة(٢)، ومن آثار هذه الفرق على المجتمع الإسلامي، إشاعة العقائد الكفرية بين المسلمين، وإلصاق هذه العقائد بالإسلام، فهذه الفرق لا تدَّعي أنَّها أديانٌ مستقلةٌ عن دين الإسلام؛ بل يدَّعي أصحابها أنَّهم يُمثِّلون الإسلام مع المناقضة التامة بين عقائدهم وبين الإسلام، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في وصف أمثال هؤلاء:"ظاهرهم الرفض، وباطنهم الكفر المحض"(٣).

ومن آثارهم الخطيرة تفريق جماعة المسلمين، وإشاعة الفوضى والاضطراب فيها، فقد كان لهذه الفرق المنحرفة دولٌ وحكوماتٌ وحركاتٌ وجماعاتٌ، وقد قاموا بحروبٍ طاحنةٍ داخل المجتمع الإسلامي، وأشغلوا الدول الإسلامية بمقاومتهم، وردِّ كيدهم، وفي نفس الوقت تعاونوا مع أعداء الأمة للكيد بالمسلمين، وقد كان لهم دورٌ خبيثٌ في إعانة الغرب على إسقاط الخلافة العثمانية، ثمَّ إعانة الاستعمار ومساعدته في الاستيلاء على بلاد المسلمين، وقد هيَّئت هذه الفرق المنحرفة الظروف الملائمة، والأرضية الخصبة لغرس المذاهب الفكرية المعاصرة كالعلمانية والليبرالية والحداثة وغيرها(٤).

ب- **انتشار الإرجاء(٥) بين أفراد المجتمع الإسلامي:** من أخطر الانحرافات العقدية التي وقعت في العالم الإسلامي مؤخراً، وساعدت في تقبُّل المذاهب المعاصرة كالليبرالية، انتشار الإرجاء، ممَّا تسبَّب

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٢٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٢٥.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٣٧/١٣).

(٤) للتعرف على نماذج وأمثلة على ذلك، انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٢٧-٣٣١.

(٥) مذهب المرجئة في الإيمان بأنه لا يضر مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وأنه لا علاقة للعمل بالايمان، وأنه كذلك لا يزيد ولا ينقص، وأن الذنوب لا تعلُّق لها بالإعتقاد وإنما هي تابعة للأعمال، وبالتالي فلا أثر لها على الإيمان الذي في القلب، فهوَّنوا المعاصي، وشجعوا علي الركون إلي الكسل والخمول في العبادات. انظر: فرق معاصرة تنتمي إلى الإسلام، لغالب عواجي(١١٤٦/٣).

في تهوين المعاصي والمخالفات، وانحسار مفهوم العبادة في القلب فقط، فأضعف ذلك من قيمة العمل، وشجَّع على التفلُّت من التكاليف الشرعية، وأعان على ضعف الوعي السياسي والاجتماعي والأخلاقي[١]، وقد تسبب ذلك أيضاً في الجرأة على التحاكم لغير الشريعة، وموالاة أعداء الله ﷻ، وإعانتهم على المسلمين، وترك الجهاد في سبيل الله[٢]، بالإضافة إلى إهمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ممَّا أدى إلى الاستبداد السياسي، وكبت الحريات المشروعة، وترك المجال للعلمانيين في التصرُّف بأمور الحُكم والسياسة؛ لأنَّ العمل السياسي بمفهوم الإرجاء غير داخل في العبادة، وممَّا يُؤسف في ذلك افتخار بعض العلماء بترك السياسة، وعدم معرفتهم بها[٣].

ومن أسوء آثار الإرجاء، انتشار مظاهر الشرك في الأمة؛ لاعتبارهم أنَّ التوحيد هو مجرد اعتقاد قلبي بربوبية الله وأسمائه وأفعاله، واستبعادهم توحيد الألوهية من أقسام التوحيد، وبناءً على ذلك أصبح مدلول كلمة الإله عندهم هو القدرة على الاختراع والخلق، وليس معناه المعبود المُستحق لأن يُفرد بالعبادة، وهذا ما جعل عبادة القبور والأولياء والصالحين لا تُعتبر شركاً عندهم، وتحوَّل المجتمع الإسلامي إلى إحياء المقابر، وتحويلها إلى معابد وثنية يُعبد فيها غير الله تعالى[٤].

وإذا كان علماء الإرجاء لا يعتبرون الوثنية التي تُمارس عند القبور شركاً، فبأي وجهٍ يعتبرون العلمانية والليبرالية كفراً مع وجود التصديق القلبي، وهذا ما شجَّع على تقبُّل بعض المسلمين للأفكار الغربية مثل الليبرالية؛ لأنَّها لا تُعارض الإسلام كما يعتقدون، ولعدم وجود المناعة العقدية، والحصانة الفكرية عندهم[٥]، وهذا أيضاً تسبَّب في جرأة أتباع المذاهب المنحرفة على الإسلام، وكثرة المنتمين إليها؛ لأنَّهم يظنون أنَّها لا تؤثر على أصل الدين كما يقول المرجئة، ولذلك يُعتبر الإرجاء من أخطر الانحرافات العقدية المؤثرة في حياة المسلمين، فمسألة الإيمان أهم مسألةٍ عقديةٍ؛ لأنَّها أصل الدِّين وأساسه، وهي المعيار في معرفة المؤمن من الكافر، والموحد من المشرك، فالانحراف فيها لا بدَّ أن يكون له آثارٌ عظيمةٌ في المجتمع الإسلامي[٦].

---

(١) انظر: مفاهيم يجب أن تصحح، لمحمد قطب، ص٦٦-٦٧.

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، لمحمد قطب، ص١٢٩.

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعملية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، لعلي الزهراني، ص٥٩٥-٦٠٠.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢٦٩، ص٢٧٥ وما بعدها، وحقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين، لعبد اتلرحيم السلمي، ص٤٤٩، ص٤٩٨ وما بعدها.

(٥) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٤٦، والانحرافات العقدية والعلمية، لعلي الزهراني، ص١٣٢.

(٦) انظر: ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، لسفر الحوالي(١/٨٣-٨٥).

ج- انتشار التصوف البدعي في المجتمع الإسلامي: وكذلك من الانحراف العقدي الذي تسَّبب في ظهور الليبرالية، انتشار التصوُّف، حيث ظهر التصوف في فترةٍ مبكرةٍ من تاريخ المسلمين(١)، وتعود مصادره إلى نُساك الهنود والفلسفة اليونانية، والزهد المسيحي وغيرها(٢)؛ ولذلك أطلق عليهم كُتَّاب الفرق الأوائل اسم الزنادقة(٣)، وقد تطوَّر التصوف على مر الأزمان من معنى الزهد والورع إلى عقائد شركيةٍ في اعتقاد وحدة الوجود، والغلو في الأولياء والصالحين بالنَّذر لهم، والطواف بقبورهم، واعتقاد علمهم للغيب، وتحكُّمهم في أمور الكون، ولا شكَّ أنَّ التصوف بصورته الراهنة ليس له علاقةٌ بالزُّهاد والعباد الأوائل؛ بل هو بعيدٌ كلَّ البعد عن عقيدة الإسلام وسلوكه، وقد انتشر التصوف في المجتمع الإسلامي مُلازماً للإرجاء بشكلٍ كبير، وأصبح مُسيطراً على نواحي كثيرةٍ من الحياة الإسلامية(٤).

ومن أبرز انحرافات الصوفية المتسببة في تأخُّر المسلمين، سوء فهمهم للإيمان بالقدر، وقولهم أنَّ العبد مجبورٌ على أفعاله، فسلكوا طريق التواكل وعدم الأخذ بالأسباب؛ بل وانكارها؛ لأنَّ إثبات السبب شركٌ كما يزعمون؛ لأنَّ الفاعل هو الله ﷻ، ولهذا رضوا بكلِّ أمرٍ واقعٍ، ونفوا عن أنفسهم القدرة على التغيير، وأعفوا أنفسهم من المطالبة بالعمل لرفع أيِّ أزمةٍ، أو كشف أيِّ غمةٍ، وهذا التواكل أفسد عقيدة الإيمان بالقدر، وحولها من عقيدةٍ إيجابيةٍ إلى عقيدةٍ سلبيةٍ مخذولةٍ مستسلمةٍ، وإلى الرضى بالواقع، وعدم محاولة تغييره، وإلباس ذلك لباس الدين(٥)، وقد استغلَّ المستعمر الأجنبي هذه الفكرة المنحرفة لمَّا احتلت جيوشه بلاد المسلمين، فكان نابليون يُصدر منشوراته بتذكير المسلمين بأنَّ ما وقع لهم من الاحتلال والأسر كان بقدرٍ من الله، ومن يُحاول الاعتراض على ما وقع فكأنَّما يعترض على الله ﷻ (٦)، وقد ترتب على ذلك أمور خطيرة، منها ترك الجهاد في سبيل الله، وعدم السعي في عمارة الأرض بمنهج الله ﷻ، وترك المجالات الحيوية في الأمة، كالسياسة والاقتصاد والفكر والثقافة وبناء المجتمع ومعالجة القضايا المستجدة، وأدى ذلك إلى الاستسلام التام للاستبداد والظلم والطغيان من الحُكَّام الفجرة، وغيرها من النتائج المؤلمة(٧).

وقد تسبب المتصوفة أيضاً في التخلُّف الحضاري الشامل الذي أصاب الأمة؛ لأنَّه حسب نظرية الزهد والانقطاع عندهم، يجب عدم الركون إلى الدنيا، وعدم عمارتها، وقد نتج عن ذلك

---

(١) قيل: في أوائل القرن الثاني، ولم يشتهر إلا بعد القرن الثالث. انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١١/٥).

(٢) انظر: المصادر العامة للتلقي عند الصوفية، ص٦٢ وما بعدها.

(٣) انظر: التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبي الحسين الملطي، ص٧٣.

(٤) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٤٩.

(٥) انظر: واقعنا المعاصر، لمحمد قطب، ص١٤٤.

(٦) انظر: تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار، للجبرتي(٢/٢٣٩-٢٩٤)، والانحرافات العقدية والعلمية، لعلي الزهراني، ص٢١٢.

(٧) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية، لعلي الزهراني، ص٤٣٥ وما بعدها، ص٥٣٥.

الانفصام بين الدنيا والآخرة، وانحسار مفهوم العبادة في طقوسٍ وشعائر معينةٍ، وأورادٍ وأذكارٍ مُحدَّدةٍ، وبهذا قدَّم المتصوفة للعلمانيين مُبرِّراً قوياً في حصر الدِّين في زاوية طلب الآخرة بالشعائر التعبدية، أمَّا الدنيا فلا علاقة لها بالدين، فإذا كانت خرافات النصرانية ورهبانيتها من أبلغ أسباب ظهور الليبرالية في الغرب، فإن رهبانية الصوفية وخرافاتها من أبرز عوامل ظهور الليبرالية في العالم الإسلامي[1].

٢- **الاستبداد السياسي:** إنَّ ممَّا ساعد في ظهور الليبرالية في العالم الإسلامي تفشِّي الاستبداد السياسي، وقد وُجدت أسبابٌ ساعدت في نموه، وبرَّرت لوجوده، ودافعت عنه، ودعمته حتى وصل إلى هذا الحد المزري في الأمة، بأن يقتل الحاكم أبناء شعبه بالآلاف في سبيل الحفاظ على كرسيه وملكه.

ومعلومٌ في الإسلام أنَّ إدارة الأمة وولايتها تعود إليها وإلى مشورة أهل العلم منها، وإذا قام أحدٌ وغلب الناس وقهرهم في أمرٍ يهمهم جميعاً، وانفرد بإدارة أمورهم دون رضاهم، فقد وقع في العدوان والطغيان، وهذا يفتح أبواب الظلم والفساد؛ لأنَّ الحكم والولاية العامة على المسلمين حقٌ للأمة مُمثلاً في أهل الحلِّ والعقد منها، فلا يجوز الانفراد بالأمر دون مشورةٍ لهم[2]، كما قال عمر بن الخطاب ﷺ:" مَن بايعَ رجلاً عن غير مشورةٍ من المسلمين، فلا يُبايع هو ولا الذي بايعه، تَغِرَّةً[3] أن يُقتلا"[4]؛ فالبيعة والخلافة في الإسلام لا تكون إلا عن مشورةٍ، والإسلام لا يُقرُّ الاستبداد بالرأي؛ بل أمر بالشورى﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾[آل عمران:١٥٩]،﴿ **وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ** ﴾[الشُّورى:٣٨]، فالحاكم وكيلٌ عن الأمة في تطبيق أحكام الإسلام، ولهم خلعه إذا خالف مقتضى العقد بالكفر أو الظلم[5]، ولا ينبغي أن تُنسب تجاوزات الحُكام، وجعل الإمامة بالوراثة بدلاً عن الشورى واختيار الأمة إلى الإسلام[6].

وممَّا ساعد في ترسيخ هذا الاستبداد في العالم الإسلامي في القرون المتأخرة، انتشار عقيدة الإرجاء والجبر، وهاتان العقيدتان لهما تأثيرٌ كبيرٌ في ظهور روح الاستسلام للظلم، وتهوين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتراجع دور الأمة والعلماء عن محاسبة الحكام، وزاد الأمر سوءاً عندما وُجد من العلماء من يقف بجوار الحكام في ظلمهم وعدوانهم ضد شعوبهم، ويتأوَّل لهم المعاذير، ويُفتي لهم في طغيانهم وظلمهم، ممَّا ساعد في اضفاء الشرعية على استبداد الحاكم وظلمه، وهذا الوضع الكئيب شجَّع على الطغيان من قِبل الحكام دون أدنى محاسبة، في وقت انتشار الحريات ومحاسبة

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٥٣.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٥٧-٣٥٨.

(٣) تَغِرَّة مصدر، وغَرَّر بنفسه تغريراً وتغرةً إذا عرَّضها للهلاك، أي: خوفا من أن يُقتل المبايَع والمتابِع.انظر: تعليق مصطفى البغا على صحيح البخاري(١٦٨/٨).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنى إذا أحصنت، رقم ٦٨٣٠.

(٥) انظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي(٢٧١/١)، والأحكام السلطانية، للماوردي، ص١٩.

(٦) حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٦٣.

الحكام وتداول السلطة في أوربا، ممَّا بهر وفتن بعض أبناء المسلمين، فظنَّ أنَّ هذا الاستبداد هو نتاج تطبيق الإسلام؛ ولهذا هجر وعادى فكره وثقافته الأصلية، وظنَّ أنَّ المنقذ الوحيد لهذه الأمة يكون في تبنِّيها للفكر الليبرالي، ولم يترك لنفسه فرصة التفكير في أساس المشكلة، وهي ترك التطبيق الحقيقي للإسلام، كما كان في عصوره الزاخرة بالعلم والحضارة[١].

٣- **الجمود والتقليد:** إنَّ الجمود والتقليد من أبرز العوامل في ظهور الليبرالية في البلاد الإسلامية؛ لأنَّه أفقد الأمَّة أهمَّ مقومٍ من مُقوِّمات صلاحيتها لكلِّ زمانٍ ومكان، وهو الاجتهاد والتجديد وفق ضوابط شرعيةٍ، وآلياتٍ محددة، تجعل من الأمة أمةً متحركةً حيةً تُواجه المستجدات والتطورات بمنهجيةٍ إسلاميةٍ رشيدةٍ مرجعها الكتاب والسنة[٢]؛ ولذلك فإن وجود الاجتهاد والتجديد في الإسلام من أعظم الأدلة على أنَّه المنهج المصلح لأحوال الناس، مع تنوُّع مجتمعاتهم، وتطوُّر أنماط فكرهم، لا سيَّما مع كثرة المستجدات والنوازل والوقائع الجديدة، فكلَّما أحدث الناس أمراً، فلا بدَّ من إصدار أقضيةٍ وفتاوى شرعيةٍ تُحدِّد حكمها، وتُبيِّن مدى شرعيتها[٣].

كما أنَّ من نعمة الله وفضله على هذه الأمة الإسلامية أنَّ الله ﷻ يُظهر فيها من يُجدِّد دينها، بإحياء ما اندثر منه، وتصحيح ما وقع من الانحراف فيه، وردَّ الناس إليه، وبيان موقف الإسلام من القضايا الجديدة التي لم تكن معروفةً من قبل، وفي ذلك يقول ﷺ: **(إنَّ الله يبعث على رأس كلِّ مائة سنةٍ لهذه الأمة من يُجدِّد لها دينها)**[٤].

وهذا يدلُّ على أنَّ منهج الإسلام يرفض الجمود المانع من التجديد، ويرفض التقليد المانع من الاجتهاد، وأنَّ الاجتهاد والتجديد يكونان وفق ضوابط شرعية، وآليات محددة، ولا بدَّ لصاحبه من أهليةٍ له، وليس انفلاتاً دينياً، أو فوضويةً فكريةً، فهذا يُسمَّى انحرافٌ وليس تجديداً[٥].

وقد شجَّع الحكام اتجاه الجمود والتقليد؛ لأنَّ فيه إمكانيةٌ لإقصاء العلماء الذين يصدحون بكلمة الحق،؛ ولهذا استغلَّت السلطات الحاكمة منصب الإفتاء؛ لتأكيد سياساتها، وتثبيت نظمها[٦]، وقد زادت حدَّة الجمود بازدياد الجهل في الأمة، وضعف المراكز والمعاهد العلمية، وسياسة وراثة المنصب

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٦٤-٣٧٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٨٤.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٣٧٥-٣٧٦.

(٤) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة، رقم ٤٢٩١، وصحح الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٥٩٩.

(٥) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٧٦.

(٦) انظر: الانحرافات العقدية والعملية، لعلي الزهراني، ص٧١٣-٧١٤.

العلمي، كالتدريس والإفتاء والإمامة والخطابة والقضاء، ممَّا أنتج عدداً من الجهلة في مواقع التوجيه والتأثير[١].

وتفاقمت المشكلة في المجتمع الإسلامي بانتشار التعصُّب المذهبي، والتحزُّب الفكري، وقد ترتَّب على ذلك العداء الدِّيني، والمعارك الفكرية الطاحنة، والخلافات المذهبية، وأصبحت المعاهد ومراكز العلم مسرحاً لهذه الصراعات والمنافسات، " فكلٌّ واحدٍ يتعصب لمذهبه الذي نشأ عليه، ويجعل قُصارى جهده أن يُثبت تفوق مذهبه وشيوخه على المذاهب الأخرى وشيوخها، وأن يدخل في معارك كلاميةٍ من أجل المذهب، تتجاوز في كثيرٍ من الأحيان حدَّ الجدل باللسان إلى التدافع بالأيدي والأبدان، ففشت الفرقة والتنابذ بين أصحاب المذاهب المختلفة، حتى إنَّ أحدهم قد يرفض أن يصلي خلف إمامٍ من غير مذهبه؛ بل قد يقاتل أخاه في الصلاة؛ لأنه رآه إلى جواره يرفع يديه أو يضعهما على صدره بما يخالف مذهبه، ويحسُّ أن مقاتلته لأخيه في الإسلام على هذا النحو هي الخدمة التي يؤدِّيها للإسلام"[٢]، وهذا الإقصاء للرأي الآخر الذي يحتمله الدليل والفهم، جعل العقل الإسلامي عند الكثيرين واقفاً عند رأيٍ مُحددٍ في الفروع، يعتقد أنَّه الصواب، وغيره باطلٌ، ممَّا قضى على التسامح والعفو وروح الأخوة الإيمانية.

وقد كان في ذلك الوقت الذي ينتشر فيه الجمود وإقصاء الآخر في العالم الإسلامي، يظهر صعود الليبرالية في أوربا، وتمكُّنها من الوصول للحكم في أغلب القارة الأوربية، فبدأت تظهر في الأمة علامات الانبهار بالغرب ومُنجزاته الحضارية، وأمام هذا التحدِّي ظهرت دعوات التجديد والإصلاح؛ ولكن للأسف على أيدي دعاة التغريب، حيث سلكوا طريق التجديد والإصلاح على غير الطريقة الشرعية، ولأن الحاجة للإصلاح موجودة في الأمة، والساحة فارغةٌ إلا ممَّن رحم ربي، كان لكلام أصحاب هذه الدعوة المزعومة أثرٌ في الأمة، وأصبحوا عند العامة هم دُعاة التجديد ورموز الإصلاح[٣].

وليس النقد الموجه هنا لعملية الإصلاح في ذاتها، فالإصلاح مطلبٌ مشروع؛ ولكنَّ النقد مُوجَّهٌ إلى أنَّ هذا الإصلاح لم يكن مُستنداً إلى الشريعة الإسلامية؛ بل هو عمليةٌ ناتجةٌ عن ضغطٍ حضاري، وتأثُّرٍ بليبرالية أوربا؛ ولهذا كانت نتائجه كارثيةً وصلت إلى تطبيق النموذج الليبرالي العلماني في الحُكم، وإلغاء تحكيم الشريعة الإسلامية، وغيرها من الانحرافات التي لا يزال يعاني منها المسلمون إلى يومنا هذا.

---

(١) انظر أمثلة على ذلك: الانحرافات العقدية والعملية، لعلي الزهراني، ص٦٢٩-٦٩١

(٢) واقعنا المعاصر، لمخمد قطب، ص١٧٦، وانظر شواهد التعصب من كتاب الانحرافات العقدية والعملية، لعلي الزهراني، ص٦٩٣ وما بعدها.

(٣) انظر: قضية التنوير في العالم الإسلامي، لمحمد قطب، ص٦٦-٦٧، وحقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٨٣.

٤- **القوى الاستعمارية:** تعود العداوة العميقة بين أوربا النصرانية والبلاد الإسلامية إلى الاختلاف الدِّيني، وهذه حقيقةٌ قرَّرها القرآن الكريم، ويشهد بها التاريخ والواقع، يقول ﷻ:﴿ **وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ** ﴾[البقرة:١٢٠]، ويقول ﷻ:﴿ **وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا** ﴾[البقرة:٢١٧]؛ ولهذا وقعت الحروب الصليبية القديمة والحديثة، وذلك أنَّه عندما تخلَّت أوروبا عن النصرانية كدينٍ لاهوتي، واعتنقت الفكر الليبرالي المادي العلماني، بقيت معها روح التعصُّب الصليبية، وهذا ما يُفسِّر التعامل الصليبي لدول أوروبا مع البلاد الإسلامية مع أنَّها دولٌ علمانيةٌ ماديةٌ مثلها[١].

وقد تميَّز الاستعمار المعاصر باحتلال بلاد المسلمين المباشر، وسرقة ثرواتها، ونهب خيراتها، مع وضع خُطةٍ مُحكمةٍ للتأثير على هذه البلاد؛ لتبقى تحت السيطرة الدائمة بعد خروج الإحتلال، وجاءت هذه الخطة لضمان بقاء البلاد الإسلامية في احتلالٍ غير مباشر[٢]، فقد تغيَّرت استراتيجية الغرب في التعامل مع البلاد الإسلامية من الإحتلال العسكري الذي يُكلِّف الكثير من المال والرجال والعتاد، إلى الغزو الفكري الذي يُطبِّقه الغرب ونوابه من أبناء المسلمين، ويؤدِّي ذات الغرض، وهو طمس الهوية الإسلامية للأمة، وعزلها عن تاريخها المجيد، وجعلها تابعةً للغرب في كلِّ شيء.

ويمكن الإشارة إلى جهود الاستعمار في فرض الليبرالية في العالم الإسلامي، من خلال دعم الحُكام، والتحكُّم فيهم لتوجيه دفة الحكم بما يخدم مصالحهم، حتى صار الحكم في بلاد المسلمين للإتجاه الليبرالي الغربي عن طريق وكلائهم في المنطقة[٣]، وكما كانت جهود الاستعمار أيضاً واضحةً عن طريق تجنيد المستشرقين الغربيين في معركةٍ سلميةٍ؛ لمحاربة تعاليم الإسلام، ووقف انتشاره، والعمل على استخدام مسيحي الشرق في تنفيذ سياسة الغرب، والعمل على إنشاء قاعدةٍ للغرب في قلب الشرق العربي، يتخذها الغرب نقطة ارتكازٍ له، ومركزاً لقواته الحربية، ولدعوته السياسية والدينية، ومنها يمكن حصار الإسلام والوثوب عليه كلَّما سنحت الفرصة بذلك[٤]، ثمَّ لا تخفى جهودهم في إلغاء الحكم بالشريعة الإسلامية، واستبدالها بالقوانين الوضعية، وذلك من خلال حكومةٍ نيابيةٍ دستوريةٍ على النمط الغربي[٥]، وكذلك القضاء على التعليم الإسلامي، وتغيير مناهجه؛ لهدم كلِّ عائقٍ عن تقبُّل الفكر الليبرالي، ولا سيِّما عقيدة الولاء والبراء، والجهاد، ونواقض الإسلام والإيمان، ووجوب تحكيم

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٨٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٣٨٨.

(٣) انظر: الحلول المستوردة، للقرضاوي، ص٤٩، والشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، لمحمد عمارة، ص٢٣.

(٤) انظر: العلمانية، لسفر الحوالي، ص٥٣٦.

(٥) انظر: قضية التنوير، لمحمد قطب، ص٨١.

الشريعة، وتحريم الربا، وغيرها، ثمَّ لا تخفى أيضاً جهود الاستعمار في بناء المدارس الأجنبية، والمدارس التنصيرية في بلاد المسلمين بغرض التأثير على أبناء المسلمين؛ ليسهل تقبُّل الأفكار الليبرالية، والقيام بإبراز الطوائف والمذاهب غير الإسلامية، باسم حقوق الأقليات، وهذا العمل وغيره يبدو غطاؤه الظاهر حماية الحريات ونبذ الطائفية والتعصُّب؛ ولكنَّه يُبطن أمراً خطيراً وهو إبراز هذه الطوائف، وتوليتهم على المسلمين، وإضعاف الروح الدينية في المجتمع الإسلامي، ثمَّ تكوين جيلٍ من أبناء المسلمين يحمل الفكر الليبرالي، وقد تمَّ ذلك من خلال البعثات التعليمية، وبناء الجامعات المؤسَّسة على هذا الفكر، وجلب المستشرقين لها؛ ليكونوا أساتذةً ومعلِّمين للجيل الجديد(١)، وبالفعل "كانت هذه الفئات التي تخرجت على يد الثقافة الغربية هي أعمدة الحكم الليبرالي وأنصار نظامه ودُعاته"(٢).

٥- **الانبهار بالحضارة الغربية والهزيمة النفسية:** وهو ما يُعبَّر عنه بالصدمة الحضارية، وهي نتيجة لواقع المسلمين المعاصر المؤلم من حيث التخلف التقني والعملي التجريبي، وهيمنة الحضارة الغربية في جانبها المادي(٣).

وبعد هذا الانبهار والشغف بالحضارة الغربية، والاقتناع بالفارق الضخم بين واقع الغرب وواقع المسلمين عند الكثيرين، جاءت النهضة كرَّدة فعلٍ لصدمة الانهزام أمام الغرب؛ بسبب الخواء الذي كانت تعيشه الأمة في سنواتها الأخيرة، وعلى رأسه الخواء العقدي، فحين تفقد الأمة عقيدتها يُمكن أن يحدث الانبهار بأتفه الأشياء، ويمكن أن تتضخم الأمور في حسِّ المبهورين مراتٍ فوق مرات(٤).

وهذا الانبهار بالحضارة الغربية ومُنجزاتها تسبَّب في الهزيمة النفسية والضعف والانكسار أمام الهجمات المتتالية من قبل المستشرقين وتلاميذهم، الذين كتبوا وألَّفوا في الطعن في الإسلام وتشريعاته، وقدَّموا صورةً مُزيَّفةً عن الإسلام الحقيقي الذي أنزله ربُّ العالمين(٥)، وقد ظهر ذلك جليَّاً في موقفهم من قضايا عديدةٍ كالجهاد والولاء والبراء والموقف من القوانين الوضعية، وغير ذلك كثير.

٦- **اتباع الهوى والضعف في العلم الشرعي:** إنَّ من أسباب انتشار هذا الفكر والافتتان به، اتِّباع الهوى عند الكثيرين، فإنَّ الهوى يُعمي ويصم، وعند غلبة الهوى لا ينفع العلم ولا المعرفة؛ بل إنَّ صاحب الهوى يستخدم العلم والمعرفة لتأييد ما يهواه، ويُسوِّغ انحرافه، وهذا ظاهرٌ في كتابات الليبراليين من خلال بتر النصوص وإخراجها عن سياقها، ومن خلال الهجوم على رموز الإسلام ومناراته

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٩٠-٣٩٢.

(٢) الحلول المستوردة، للقرضاوي، ص٥٠.

(٣) انظر: التطرف المسكوت عنه، لناصر الحنيني، ص١٩.

(٤) انظر: قضية التنوير، لمحمد قطب، ص٣١.

(٥) انظر: التطرف المسكوت عنه، لناصر الحنيني، ص٢٠-٢١، وواقعنا المعاصر، لمحمد قطب، ص١١.

الشامخة، والإشادة برموز البدعة والانحراف؛ بل ورموز الكفر والإلحاد، ويظهر ذلك أيضاً من خلال التناقضات في أفكارهم وأُطروحاتهم، ومصادمة العقل والفطرة، وكلُّ ذلك نتاجٌ لاتِّباع الهوى.

إنَّ اتِّباع الهوى ناتجٌ عن الضعف العلمي الشرعي، فحين يقلُّ العلم، ويتلقَّف هذه الشبهات قليلو البضاعة في العلم؛ فإنَّه بالتأكيد ستُمرَّر عليهم الشبهات بكلِّ سهولةٍ، وإنَّ التلبيس الحاصل اليوم بدعاوى مختلفةٍ، كحرية النقد، أو الموضوعية، وغيرها، هي في الحقيقة دعاوى ساقطةٌ؛ لأنَّها تُخالف أصول الشريعة وضروراتها كحفظ الدين، ولأنَّ ما يطرحه علماء الإسلام ودُعاته يتوافق مع النصوص ولا يعارض ما يدعون إليه من الموضوعية والشمولية وعدم إقصاء الآخر ونحوها من العبارات المطَّاطة التي تحتمل معانٍ متعددةً منها الحقُّ ومنها الباطل.

وبهذا يتبيَّن أنَّ الليبرالية العربية ليست إنتاجاً داخليا؛ بل هي فكرٌ أجنبي فرضه الاستعمار، وتقبَّله البعض لوجود خللٍ فكريٍ أو أخلاقيٍ فيه؛ ولهذا لم يخرج الفكر الليبرالي العربي عن كونه فكراً مُكرَّراً، وتقليداً أعمى للحضارة الغربية، ولم تكن هناك حاجةٌ ذاتيةٌ للفكر الليبرالي في البلاد الإسلامية، وما يوجد من خللٍ في الأمة الإسلامية في مجال الحريات يمكن علاجه بالالتزام الحقيقي بالإسلام، وهو الكفيل بتحقيق الحرية والعدل في حياتها، وهذا يؤكِّد أنِّ الدعوة الليبرالية ذات مصدرٍ خارجيٍّ أجنبيٍّ دعمته مجموعةٌ مُعجبةٌ بالغرب، منهزمةٌ أمام حضارته المادية(١).

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٨١.

المطلب الثاني: أبرز تيارات ومفكري الليبرالية في العالم الإسلامي

أولاً: تيارات الليبرالية في العالم الإسلامي

لقد كان من أكبر أسباب مجيء الليبرالية إلى البلاد الإسلامية هو الاستعمار المباشر، وإعادة تركيب البلاد المُستعمَرة على أُسسٍ ليبراليةٍ تتوافق مع مصالح المُحتل، وقد كان للمستغربين تأثيرٌ كبيرٌ في توسيع نطاق الليبرالية والمطالبة بها، فقد ساهمت جهودٌ مشتركةٌ وعبر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، في تهيئة البيئة المناسبة لتشكيل تيارٍ فكريٍ يتبنى الدعوة للفكر الليبرالي، وتوطينه في البيئة الفكرية العربية، وقد كانت في البداية تعتمد على الدعوة العامة للحرية، واتِّباع الغرب في نهضته الجديدة؛ للوصول إلى مستواه الحضاري المادي، واعتبار ذلك من تعاليم الدين الإسلامي في الحثِّ على العلم والتفكُّر، ثمَّ ما لبث هذا الفكر أن فتح بوابة الزندقة التي تتلاعب في الدِّين باسم تعدد القراءات، أو نقد الخطاب الديني، وغيرها، فأصبحت تياراً علمانياً يُطالب بالحرية على الطريقة الليبرالية الغربية، دون الحاجة إلى الربط بالدِّين[(١)]، وقد وضَّح طه حسين[(٢)] هذا المنهج بقوله: "علينا أن نسير سير الأوروبيين، ونسلك طريقهم؛ لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة، خيرِها وشرِّها، حُلوِها ومُرِّها، ما يُحبُّ منها وما يُعاب"[(٣)].

وممَّا يؤكِّد هذا التَّوجُّه أيضاً، قول طه حسين: "نريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوةً من يومٍ إلى يوم، حتى نصبح جزءاً منها، لفظاً ومعنىً، حقيقةً وشكلاً"[(٤)].

بهذا يتبيَّن أنَّ هذا التيار الليبرالي طالب بالحرية الغربية دون تهذيبٍ أو تغييرٍ؛ ولذلك كانت هذه التيارات تهتم بالدعاية للفكر الليبرالي بصورةٍ عامة، ولم تناقشه بطريقةٍ علميةٍ عميقةٍ[(٥)].

إنَّ صعود الليبرالية في البلاد الإسلامية لم يعرف في بداية الأمر مناهج الليبرالية واتجاهاتها الفكرية، وصراعها في البلاد الغربية؛ ولكن إذا نظرنا إلى واقعنا المعاصر فإنَّنا نجد الوضع قد تغَّير، حيث تعرَّف العالم الإسلامي على الليبرالية بشكلٍ أكبر؛ ولهذا نشأت تياراتٌ متعددةٌ لليبرالية،

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٨٢.

(٢) طه بن حسين بن علي بن سلامة، الدكتور في الأدب، من كبار المحاضرين، ولد في صعيد مصر عام ١٨٨٩م، وأصيب بالجدري في الثالثة من عمره، فكف بصره، نال شهادة الدكتوراه عام ١٩١٤م، عين محاضرا في كلية الآداب بجامعة القاهرة، ثم كان عميداً لتلك الكلية فوزيراً للمعارف، وكان من أعضاء المجمع العلمي العربيّ ثم رئيساً لمجمع اللغة بمصر، ومن كتبه: في الأدب الجاهلي، ومستقبل الثقافة في مصر، وحديث الأربعاء، وتوفي بالقاهرة ١٩٧٣م. انظر: الأعلام، للزركلي(٣/٢٣٢).

(٣) مستقبل الثقافة في مصر، لطه حسين، ص٤٣.

(٤) المرجع السابق، ص٤٨.

(٥) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٨٣.

"وخصوصية الليبرالي العربي في هذه الجزئية أنَّه يعبد الحرية باندفاعٍ لم يعد يحسُّ به زميله الأوربي، والسبب في ذلك هو حالة مجتمعه الذي لم تتحقَّق فيه أية صورةٍ من صور الحرية"[١].

وكان من أبرز هذه التيارات الليبرالية في العالم الإسلامي، ما يلي:

١- **تيار الليبرالية الإسلامية:** وهذا التيار يسعى للتوفيق بين الليبرالية والإسلام، ونفي التعارض بينهما، وقد نشأ هذا التيار أول الأمر في الحركة الإصلاحية على يد محمد عبده وتلاميذه، حيث بدأوا بتأويل النصوص وتعظيم دور العقل، والاعجاب بالحضارة الغربية ومنجزاتها، وانتهت بتحوُّلهم بعد ذلك إلى الليبرالية الصرفة[٢]، ويطلق هؤلاء على أنفسهم أحياناً أنَّهم مدرسة التجديد، وكان تجديدهم مُنحصراً في ربط خطابها بتغيرات الحداثة الغربية، حيث سارت على خُطا مدرسة محمد عبده، مع غلوٍ أكثر في تأويل النَّص الديني، ووضع أدواتٍ جديدةٍ في تأويله وصرفه عن حقيقته، وبهذا أصبح من الأمور العادية لدى هذا الخطاب اعتبار قيم الليبرالية وثقافة الديمقراطية أموراً ضروريةً متوافقةً مع حقيقة الإسلام، ومن ذلك النظر إلى الآخر دون تكفيرٍ أو إقصاءٍ، فضلاً عن انكار الجهاد والقتال، واعتبار الديمقراطية وما تقتضيه من تشريعاتٍ مدنيةٍ متوافقةً مع الفكر السياسي الإسلامي، ويجب أن لا يسعى المسلمون إلى إنكارها، ومن ينكر ذلك فهو في نظرهم متشددٌ متطرفٌ[٣].

وفي السنوات الأخيرة أصبح هذا الفكر أكثر بروزاً من ذي قبل، وقد اعتنت به الدول الغربية؛ للاستفادة منه في تسويق مشاريعها في البلاد الإسلامية، وتحقيق الكثير من المصالح الحيوية لهيمنتها، فهي تعلم أنَّ إقصاء الإسلام تماماً من البلاد الإسلامية أمرٌ مستحيلٌ؛ لقوَّة تأثيره وتعلُّق المسلمين به؛ فوجدت الليبرالية في التبديل والتحريف أنجح السبل للقضاء على فاعليته وتأثيره، ومن جهةٍ أخرى فإنَّ تفسير الإسلام وتأويله تأويلاً ليبرالياً يقوِّي علاقة هذه البلاد وشعوبها بالحضارة الغربية وقيمها، ممَّا يضمن عملية استمرار الخضوع لها[٤].

وليست رؤية هذا التيار واحدةً، ولكن إطارها العام هو التوفيق بين الإسلام والحداثة الغربية، والإصلاح الديني بما يتناسب مع هذه الحداثة[٥].

والحقيقة أنَّ ما يُسمَّى بالإسلام الليبرالي ما هو إلا أكذوبةٌ وخدعةٌ، وهو جمعٌ بين النقيضين، فإذا كان لا يمكن الجمع بين الإسلام واليهودية تحت مُسمَّى اليهودية الإسلامية، ولا بين الإسلام والبوذية تحت مُسمَّى البوذية الإسلامية، فمن المستحيل أن نجمع بين الإسلام والليبرالية تحت دعوى الليبرالية الإسلامية، فإنَّ مَن لديه أدنى معرفةٍ بمعنى العبودية لله في الإسلام؛ لا يجرؤ أن يُنادي بهذه

---

(١) مفهوم الحرية، لعبد الله العروي، ص٥١.

(٢) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٥٦.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٤٨٦.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٤٥٧.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص٤٨٥.

الدعوى، ولا يُمكن أن يُنادي مُسْلِمٌ بانفلاتٍ مطلقٍ أو تطبيقٍ للقوانين التي اشترعها الإنسان بنفسه لنفسه، وليس في الإسلام حريةٌ للخروج على العقيدة والثوابت والمُسلَّمات [١].

إنَّ المُنادي بالليبرالية الإسلامية هو أحد رجلين، إمَّا أنَّه لا يعرف من الليبرالية إلا اسمها!!، فهو جاهلٌ بحقيقتها، وما تستره من وجهها القبيح!، وإمَّا جاهلٌ بتعاليم الدين الإسلامي الحنيف، وقيمه النبيلة التي تحكم حياة الفرد والمجتمع!، أما من عرف الإسلام بعقيدته الخالدة، وأحكامه العادلة كما طبقها المصطفى ﷺ، وعرف الليبرالية وما تخفيه من محاربةٍ لعقيدة التوحيد، والسلوك السوي، والحشمة والفضيلة؛ فلا يُشكُّ أنَّ بينهما تضادٌّ كما بين الأرض والسماء والنار والماء.

وأمَّا قولهم: سنُقَيّد الليبرالية بقيود الشرع!، فلا نقبل منها أي أمرٍ يُخالف شريعة الإسلام، فالجواب عليه أن يُقال: إذا قيَّدتها بهذه الأمور فلا تُسَمِّها ليبرالية؛ لأنَّها ستكون شيئاً آخر غير الليبرالية!، سَمِّهَا إسلامًا، ودَعْ هذا التلاعب[٢].

وعليه فإنَّ إطلاق مصطلح الليبرالية الإسلامية لا يجوز شرعًا؛ لأنَّه لا وجود لما يُسمَّى بالليبرالية الإسلامية؛ فهذا جمعٌ بين النقيضين، ومن يُطلق هذا المصطلح يضطر إلى أن يُفسِّر الليبرالية بتفسيرٍ يُفرِّغها من حقيقتها ومضمونها، بحيث لا يُبقى لها أيَّ معنى، ولا يجوز كذلك إطلاق هذه التسمية؛ لأنَّ هذا المصطلح المُحدَث يُوهم التقارب بين الإسلام والليبرالية، ويسمح بتمرير ضلالات الليبرالية إلى قلوب عوام الناس وعقولهم وهم لا يشعرون، وهذا لا ريب أنَّه محظورٌ عظيمٌ يجب سَدُّ الطرق المفضية إليه، فالإسلام منهجٌ عظيمٌ متكاملٌ، والجمع بينه وبين المذاهب الأرضية طَعْنٌ فيه بالنقص والحاجة إلى التكميل[٣]، وقد قال ﷻ:﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾[المائدة:٣].

ثمَّ ما الذي يريده أدعياء الليبرالية الإسلامية المزعومة؟، هل يُطالبون بأن تتحقَّق المساواة بين التوحيد والتثليث، وتعدد الآلهة وانعدام الآلهة في بلاد المسلمين؟، وهل يسرُّهم ذلك العدل بين المعبودات، فلا يُفرَّق بين عبادة خالق الكون الواحد الأحد، وبين عبادة الصلبان والنيران والفئران؟، وهل يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، وتتمُّ العودة عن الحجاب، استجابةً لدعاوى التحرير والتغرير؟، وهل يرغبون في أن تظلَّ فئاتٌ من الأمة تأكل الربا أضعافًا مضاعفة، مُعرِّضين أنفسهم

(١) انظر: الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر، ص٥٩-٦٠.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٨٧.

(٣) انظر: فتاوى موقع الشبكة الإسلامية، بإشراف الدكتور عبد الله الفقيه، رقم الفتوى ٥١٤٨٨، بتاريخ ٧/جمادي الآخر/١٤٢٥هـ، ٢٥/٧/٢٠٠٤م.

والناس معهم لحربٍ من الله ورسوله؟، لا نظنُّ الدعوة لهذا وغيره في بلاد المسلمين تصدر إلا من دعاةٍ على أبواب جهنم، مَن أجابهم إليها قذفوه فيها[١].

٢- **تيار الليبرالية القومية:** وقد نشأ هذا التيار في وقتٍ مبكرٍ، وقد كان من رواده نصارى العرب، وقد استمرت القومية منذ نشأتها ليبراليةً إلى الخمسينات، ثم بدأت مرحلةٌ جديدةٌ، وكانت البداية عن طريق الانقلابات العسكرية في الوطن العربي، وقد كانت هذه الفترة وما بعدها تشهد تبني الحكومات العسكرية العربية النظرية الاشتراكية بحجة الاستقلال عن الإمبريالية الغربية، وفي هذه المرحلة قطعت الحكومات العسكرية الصلة بالليبرالية قطعاً باتاً، ففي المجال السياسي اعتمدت فكرة الحزب الواحد مع التضييق على الحريات ومنع الأحزاب، وفي المجال الاقتصادي قامت بتوسيع دور الدولة في تنظيم الاقتصاد، ولكن هذه التجربة فشلت وبدأت رياح التحول والعودة للديمقراطية، وكان ذلك على وجه التحديد في منتصف السبعينات[٢].

ويتميز هذا التيار بقبوله لليبرالية في مجالها السياسي من خلال دعوته لتطبيق الديمقراطية، ورفضه لليبرالية في مجالها الاقتصادي المتمثل في اقتصاد السوق الحرة والنظام الرأسمالي، ولقد كان لهذا التيار دورٌ إيجابيٌ في بيان خطورة الليبرالية الاقتصادية، ودورها المدمر للاقتصاد الوطني، وضرر تبنِّي برامج الليبرالية على الأمة العربية، وقد كان لهذا التيار دوراً بارزاً في نقد الرأسمالية الليبرالية، وكشف ألاعيبها وخداعها؛ ولكن مع الأسف الشديد أنَّ المنطلق الذي انطلقت منه منطلقاً علمانياً صرفاً، فهو لا يعرف الحقَّ إلا من خلال الفكر الغربي ونتائجه، فعندما نقد وحشية الليبرالية وظلمها وعدوانها على الفقراء، وتدميرها لمستقبل التنمية العربية المستقلة، لم يبحث عن الحقِّ في الشريعة الإسلامية؛ ولكَّنه اتَّجه للاشتراكية الغربية من خلال تبنِّي أفكار طرفٍ ليبراليٍ آخر، وهذا يدلُّ على الجهل العظيم لدى هؤلاء بحقيقة الإسلام وشريعته الربانية [٣].

٣- **تيار الليبراليين الجدد:** إنَّ هذا التيار حديث النشأة، فقد نشأ بعد سقوط الشيوعية وتفكُّك الاتحاد السوفيتي في نهايات القرن الماضي، وزاد حضوره في بداية القرن الحادي والعشرين، وبالذات بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١م، ويعتمد هذا التيار على تراث الفكر الليبرالي العربي منذ نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، وخاصةً فكر حزب الأمَّة المصري[٤]، وتتلخَّص أفكارهم في

---

(١) انظر: الإسلام والليبرالية نقيضان، لشحاتة صقر، ص٦٢-٦٣.

(٢) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٨٧.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٤٨٨-٤٨٩.

(٤) حزب الأمة هو حزب ليبرالي مصري كان متعاوناً مع الاحتلال الإنجليزي، ويشابهه حزب الليبراليين الجدد في هذه الأيام، ويقابله في فكرته الحزب الوطني وهو حزب ليبرالي يقف ضد الإحتلال، ويشابه موقف الليبرالية القومية، وقد وقع خلاف بين أفراد هذا التيار أدى إلى انفصاله حزبين. انظر: الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، لمحمد حسين(٩٤/١) وما بعدها.

"حرية الفكر المطلقة، وحرية التدين المطلق، وحرية المرأة ومساواتها بالحقوق والواجبات مع الرجل، والتعددية السياسية، والمطالبة بالإصلاح الديني والتعليمي والسياسي، وفصل الدين عن الدولة، وإخضاع المقدس والتراث للنقد العلمي، وتطبيق الاستحقاقات الديمقراطية"(١).

وقد تميَّز هذا التيار عن التيارات الليبرالية الأخرى بعدة أمورٍ، منها: الوقوف في صفِّ المشروع الأمريكي في المنطقة، والمطالبة بما يُريده ويسعى له من تغيير مناهج التعليم، واستعمال القوة العسكرية لتغيير الأنظمة العربية، وفرض الديمقراطية عن طريق الاحتلال المباشر لهذه الدول؛ ولهذا فرحوا فرحاً كبيراً باحتلال أمريكا للعراق، وقد صرح بعضهم بأنَّه يتلذذ بسماع صوت القنابل، ودوي الإنفجارات في بغداد، وكأنَّها موسيقى جميلة، ويرون أنَّه لا حرج من الإتيان بالإصلاح على ظهر دبابة بريطانية أو بارجة أمريكية(٢)، كما أنَّهم يُنادون بتطبيق مقاييس النقد الغربي على نصوص الوحي، وإخضاع الوحي المُقدَّس للمنطق العقلاني، وهذا عندهم هو الأساس العلمي في معرفة الحقيقة، وصحتها، وينادون برفض العداء لغير المسلمين، واعتبار الموقف العدائي عند المسلمين ناتجٌ عن ظروفٍ سياسيةٍ واجتماعيةٍ معينةٍ، وهي لم تعد قائمةً الآن؛ فيجب تغيير هذه العقائد، كما يعتبرون أنَّ الأحكام الشرعية أحكاماً وُضعت لزمانها ومكانها، وليست أحكاماً عابرةً للتاريخ، ومثالهم على ذلك حجاب المرأة المسلمة، فيرون وجوب نزعه وتغييره(٣)؛ ولذلك فهم يرفضون الارتباط بالإسلام؛ لأنَّه ماضٍ، ويعتبرون أنَّ الموجود الآن من الدين هو عبارةٌ عن فكر علماء الدِّين، وليس الدين الرسولي، ويعتبرون أنَّ الدِّين يقف عثرةً ضد الفكر الحر، والفكر العلمي، ويتَّصفون بكره العرب واتِّهامهم بكلِّ النقائص، وذكر مثالبهم ونقائصهم، ويعتبرون أنَّ العرب والمسلمين لا يستطيعون تدبير أمورهم إلا بتوجيهاتٍ من الغرب، وخاصةً أمريكا، وبذلك يدينون لها بالتبعية المطلقة(٤).

وممَّا سبق يتبيَّن أنَّ هذا التيار تيارٌ تابعٌ للدول الاستعمارية، وخاصةً الولايات المتحدة، فهو لا يخرج عن آرائها، فمثلاً المقاومة الفلسطينية والعراقية للمحتل عند هؤلاء الليبراليين إرهابٌ وتطرفٌ، ولا يمكن حلُّ الصراع العربي الصهيوني في نظرهم إلا بالمفاوضات على الطريقة الأمريكية، وضرورة التطبيع الكامل مع إسرائيل، والدخول في العولمة من أوسع أبوابها، وغير ذلك من الآراء، ولا تكاد تجد قضية سياسية إلا وهذا التيار يتطابق في رؤيته لها مع الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا يؤكِّد أنِّ هذا التيار عبارةٌ عن احتياطٍ إعلاميٍ يستعمله الأمريكيون لتسويق أفكارهم وسياساتهم، وجناحٍ فكريٍ وثقافيٍ لمشاريعهم في العالم الإسلامي(٥).

---

(١) الليبراليون الجدد، لشاكر النابلسي، ص٢٠-٢١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢١-٢٥.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٢١.

(٤) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٩٢.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص٤٩٣-٤٩٤.

ثانياً: أبرز مفكري الليبرالية في العالم الإسلامي:

إنَّ الفكرة الليبرالية بعد أن تفاقمت سلبياتها على المجتمعات الغربية، هبت رياحها علينا منذ أمدٍ ليس بالقصير، فأصابنا منها ما أصابنا، فبعد أن اكتوى الغرب بنار هذا الفكر الهدَّام، أرادوا أن ينقلوا التجربة إلى بلاد المسلمين، ومن العجيب أن نرى دعاةً لهذه الفكرة بيننا، فيفتخرون بها، ويتسمُّون بها، وينادون أنَّ الحل في الليبرالية، دون متابعةٍ لما يجري في الغرب، من معارضةٍ وانتقادٍ لهذا الفكر، بعد ظهور سلبياته المُدمِّرة[١].

ولقد تعدَّدت كتابات المستغربين بكلِّ اتجاهاتهم في القضايا الإسلامية، ومن أبرز الجوانب التي تناولتها كتاباتهم قضية الاستدلال بالنصوص الشرعية بهدف تطوير الإسلام، وقراءته قراءةً جديدةً، تُبقي على الاسم الظاهر للإسلام، مع إلغاء حقيقته، فاعتمدوا في تفسير النصوص على منهجٍ ماديٍ، أنكروا من خلاله ألوهية مصدر الدين، واعتبروا أصله الإنسان، ويقصدون بذلك إحلال الإنسان محل الله، وإحلال القارئ محل الوحي، وجعل الوحي في النص الديني هو ما توحيه القراءة الذاتية للقارئ[٢].

إنَّ هؤلاء الكُتَّاب والمفكرين يتفاوتون في نظرتهم للدِّين والنصوص، ويختلفون في توجهاتهم الفكرية، ففيهم تنوعٌ عجيبٌ في أشخاصهم وأفكارهم وأهدافهم ومقاصدهم وارتباطاتهم ومستوى آرائهم؛ ولكن يجمعهم مسألة تأويل الإسلام لموافقة العصر، "فقمَّة هذه المدرسة مجموعةٌ من الزنادقة يُناقضون ثوابت الإسلام وأصوله الأساسية، ومنهم بعض المُخلِّطين في الفكر والعقيدة، ومنهم منهزمون من الكُتَّاب الإسلاميين"[٣]، وتتنوع أفكارهم فمنهم من يُوافق الفلاسفة والحلولية والباطنية والملاحدة في نفي حقيقة الألوهية، والنبوة، والوحي، والغيبيات، ويرفض تحكيم الشريعة، ومنهم من يفصل بين الدين والدولة، ويرى ضرورة القانون الوضعي المدني، وضرورة الربا للاقتصاد المعاصر، وينفي الحجاب عن المرأة، ويراه احتقاراً لها، ومنهم من يرى عدم الاستدلال إلا بالقرآن، وينفي السنة والإجماع، ويُطالب بتجديد أصول الفقه وغيرها من العلوم الشرعية، ولهم آراءٌ تُناقض الولاء والبراء، وترفض تكفير المشركين، وتُنكر عبادة الجهاد، وتُؤمن بالديمقراطية، والتعددية، والحريات، بما في ذلك التصريح بنشر الإلحاد وغيرها من الأفكار الشاذة[٤].

وتختلف ارتباطات هؤلاء الليبراليين، فمنهم عُملاء للصليبية العالمية يتلقَّون الدعم المادي من العدو، ويتعاونون معه، ويُشاطرونه الأفكار وأسلوب العمل، ويُدافعون عن سياسيته، ومنهم المخطوف حضارياً، المُنهزِم فكرياً، فتراه غير قادرٍ على الرفض لمبادئهم المخالفة للإسلام؛ ولكنَّه لا يتقاضى

---

(١) انظر: الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر، ص ٤٦.

(٢) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٧٣-٤٧٤.

(٣) المرجع السابق، ص٤٧٩.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٤٧٩.

شيئاً مادياً مقابل آرائه المُتولِّدة من هزيمته الفكرية والنفسية مع قصورٍ في العلم الشرعي، وتخليطٍ في تكوينه الثقافي، ومنهم من يقف ضد المشروع الأمريكي ويُناهضه، وهذا مع وجود آراءٍ تُقرِّبه من الليبيرالية إلا أنَّه في تحسُّنٍ مُستمرٍ، ووعيٍ دائم، وتتكشف له الحقيقة، وهو مظنَّة العودة للحق إذا نوقش، وتمت معه عملية حوارٍ علميٍ مفيد[١].

وتختلف مستويات آرائهم على النحو التالي:

أ- منهم من يُناقض أصل الدين في العقائد والأحكام والأخلاق والأمور الاجتماعية، مثل من يُنكر الألوهية والنبوة والغيبيات، ويرى تاريخية النص، ويرفض تحكيم الشريعة، ويُنكر الحجاب، ويُبيح الربا وغيره.

ب- ومنهم من يُناقض أصول الدين بدرجةٍ أقلَّ غُلواً، مثل من لا يُكفِّر المشركين، ويرفض الولاء والبراء، ويرى ضرورة القوانين الوضعية والربا وغيرها.

ج- ومنهم توابع ومقلدون، لا يصلون لنفس تفكير الليبراليين؛ ولكنَّ آراءهم تتشابه مع الليبراليين في بعض الأحيان، مثل من ينفي وجوب كراهة الكفار، وغير ذلك[٢].

وسيتناول الباحث في ذكر الشخصيات كلَّ هذه الأصناف دون تمييزٍ بينها؛ لأنَّ الجميع يجمعهم المناداة بالأفكار الليبرالية والدفاع عنها، والنظر إلى التشريع الإسلامي نظرةً قاصرةً بأنَّه لا يصلح لهذا الزمان، وأنَّه لا بدَّ عندهم من اتِّباع سير الغرب؛ لنستطيع فهم الحياة من حولنا.

وينبغي التنبيه قبل ذكر هؤلاء المفكرين الليبراليين أنَّ الباحث لا يقصد بذكرهم أنَّهم يعتنقون الليبرالية بالمفهوم السياسي وهي الديموقراطية الانتخابية، ولا بالمفهوم الإقتصادي وهي الرأسمالية العالمية، وإن كان مُعظمهم وخاصةً المتأخِّرين منهم من هذا النوع، إلَّا أنَّ الباحث يقصد بلبراليتهم اعتناقهم للفكر الليبرالي في التعامل مع النصوص الدينية، والذي يتمثل في الحرية المطلقة في فهم النص، وإعادة تأويله بما تُمليه عليه أهوائهم، والتلاعب بثوابت الإسلام وعقائده، بما تفرضه عليهم تبعيتَّهم للغرب الكافر في نظرته للدِّين والتاريخ من خلال نظرياته العقيمة، فالجامع بينهم استعمال المنهجية النقدية الغربية في تأويل النصوص الدينية.

ومن أبرز هؤلاء المفكرين الليبراليين الذين كان لهم أثرٌ في نشر الليبرالية في العالم الإسلامي:

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٨٠.

(٢) انظر: المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

١- **رفاعة الطهطاوي**[١]: تبرز جهود رفاعة الطهطاوي، في أنَّها ذات أهميةٍ في المساهمة في تعريف القارئ المصري باتجاهات الفكر الاجتماعي والسياسي في فرنسا، فقد نشر عدداً من الكتب، قدَّم فيها فكرةً عن الحياة في باريس، وعن الثقافة والعادات والتقاليد والقيم الفرنسية، واعتبره البعض بمثابة حجر الأساس في الفكر الاجتماعي والسياسي المصري، خلال القرن التاسع عشر، كما قدَّم لقرائه فكرةً عن الدولة العلمانية، ومفهوم الدستور والقانون، وأنماط الحياة الاجتماعية، ومكانة المرأة في المجتمع الفرنسي، وأبدى إعجاباً بالمبادئ الدستورية، ومبادئ حقوق الإنسان، وفقاً للمنظور الغربي، والرابطة الوطنية، والتسامح الديني، فقد اجتهد في تقريب صورة الغرب الأوروبي للعقل المصري، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّه قد شقَّ الطريق أمام بروز التيار الليبرالي في الفكر المصري الحديث[٢]؛ بل لقد عدَّه بعضهم مُؤسِّس الليبرالية المصرية[٣]، ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- كان من أوائل المبتعثين إلى الغرب، وكانت الدول الغربية في ذلك الوقت في أوجِّ تقدمها وكبريائها، فأُعجب بالغرب إعجاباً ملك عليه عقله، فرجع إلى بلده بنفسيةٍ منهزمةٍ، وعقليةٍ غربية، وأخذ ينادي بشعاراتٍ غربية، وأخذ يُشيد بالغرب والغربيين، ويُنادي بالحرية والوطنية والتسامح الديني ومساواة الأديان تقليداً للغرب، وحاول أن يُخضع تعاليم الإسلام وأصوله للمفاهيم الغربية التي تأثَّر بها؛ فدعا إلى تقليد الغربيين حتى في أساليب المعيشة والأخلاق[٤].

يقول إلبرت حوراني[٥]:" وكان معظم تلاميذ المدارس والبعثات الأولى من المسيحيين الأتراك أو المستشرقين، إلا أنَّ العنصر المصري ازداد فيما بعد، وكان هو العنصر الذي تألَّفت منه الطبقة

---

(١) رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي، ولد في طهطا ١٨٠١م، تعلم في الأزهر، وأرسلته الحكومة المصرية مع بعثةٍ من الشبان إلى أوربا لتلقي العلوم الحديثة، وهناك انكب على تعلم اللغة الفرنسية، والاطلاع على الثقافة الأوروبية، ولما عاد إلى مصر ولي رئاسة الترجمة في المدرسة الطبية، وأنشأ جريدة الوقائع المصرية، وألف وترجم عن الفرنسية كتباً كثيرة، كما ترجم الدستور الفرنسي، ووثيقة حقوق الإنسان، وغيرها من الكتب، التي تبشر بالقيم والمبادئ الليبرالية، من كتبه: قلائد المفاخر في غرائب عادات الأوائل والأواخر، وتعريب القانون المدني الفرنساوي، وأصدر في أواخر حياته كتاب مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، والذي يمثل النضوج الفكري له، وتوفي ١٨٧٣م. انظر: الأعلام، للزركلي(٢٩/٣)، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا(١٦٨/٤).

(٢) انظر: تطور الفكر السياسي من الاشتراكية إلى الليبرالية الجديدة، لعدنان حسين، ص٢٣-٢٧،.والمجتمع العربي المعاصر، لحليم بركات، ص٤٠١، وهموم الفكر والوطن، لحسن حنفي(٥١/٢).

(٣) انظر: الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، لمحمد عمارة(١٥٢/١).

(٤) انظر: الإسلام والحضارة الغربية، لمحمد حسين، ص١٨، والاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٨٣.

(٥) مستشرق بريطاني من أصل لبناني، له كتاب تاريخ الشعوب العربية. انظر: حقيقة الليرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٠٠.

المثقفة الأولى لمصر الحديثة،... وقد تخرَّج من بين صفوفهم أوَّل المفكرين السياسيين العظام في مصر الحديثة، أعني به رفاعة الطهطاوي"[١].

٢- لم يكن الطهطاوي مجرد انعكاس للأفكار التي تلقَّاها في باريس؛ بل أخرج هذه الأفكار في كتبه ومؤلفاته، وربط ذلك بالنصوص القرآنية والنبوية، محاولاً اثبات أنَّنا لا نتميز عن الغرب بشيء؛ بل يحاول إثبات أنَّ قيمنا مستمدةٌ من قيمهم، وأنَّهم سبقونا في ذلك، ويحاول التوفيق بين مبادئ الإسلام ومبادئ القانون الطبيعي التي ترتكز إليها قوانين أوربا الحديثة[٢].

يقول الطهطاوي:" فما يُسمَّى عندنا بعلم أصول الفقه يُشبه ما يُسمَّى عندهم بالحقوق الطبيعية، أو النواميس الفطرية، وهو عبارةٌ عن قواعد عقليةٍ تحسيناً وتقبيحاً، يؤسِّسون عليها أحكام المدنية، وما نُسميه بالعدل والإحسان يُعبِّرون عنه بالحرية والتسوية، وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدِّين والتولُّع بحمايته ممَّا يُفضِّلون به على سائر الأمم في القوة والمنعة، يُسمُّونه محبة الوطن"[٣].

٣- كان الطهطاوي يُبدي اهتماماً ظاهراً بالتاريخ الفرعوني، ويُسمِّى الفرعون رمسيس الثاني بفخر الدولة المصرية في الأزمان الجاهلية، ومصباح تاريخها، ولا عجب فقد كان الطهطاوي يعرض نظام الشركات والمصاريف الربوية دون تعليق، ويرى أنَّ الرقص الفرنسي نوعٌ من الأناقة والفتوة والرياضة، ويُشجِّع على اختلاط الجنسين، ويرى تعليم الفتيات دون قيودٍ ولا التزامٍ بحدودٍ شرعيةٍ، ومنْع تعدد الزوجات، وتحديد الطلاق، وأصبح يُردِّد شعاراً جديداً وهو أخوة الوطن، هذا الشعار الذي أصبح ديناً لدعاة القومية والعنصرية فيما بعد، وهكذا أصبح الطهطاوي يشرح المفاهيم الليبرالية بمصلحاتٍ ومفاهيم شرعية، وُيفسِّر المفاهيم الشرعية تفسيراً عصرياً يتوافق مع الحضارة الغربية[٤].

٤- اهتم الطهطاوي كثيراً بإبراز قيمة الحرية، وليس هذا من الغريب في حقِّه؛ فالليبراليون يعتبرون الحرية هي جوهر فكرهم، ويبذلون كلَّ جهدهم في الدعوة إلى الحرية، والإعلاء من أهمية هذه القيمة، والدفاع عنها، واعتبار غيابها والاعتداء عليها أحد أركان التخلُّف، واعتبار التمسك بها أسُّ التقدم والنهوض؛ بل واتخذوا منها اسماً ينتسبون إليه، وقد جعل الطهطاوي أول حقوق المواطنة التلذُّذ بالحرية، التي من شأنها أن تخلق مجتمع العدل والكرامة، وجعل من أول واجبات الدولة العدل والحرية، وسيادة القانون[٥]، وكذلك مجَّد الطهطاوي حرية الصحافة في فرنسا وأبدى إعجابه بها[٦]،

---

(١) الفكر العربي في عصر النهضة، لحوراني، ص٧٥، وانظر: المرجع نفسه، ص٩١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٠٧-١٠٨، وحقيقة الليبرالية، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٠٢.

(٣) المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين، للطهطاوي، ص٣٦.

(٤) انظر: حقيقة الليبرالية، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٠٣.

(٥) انظر: مناهج الألباب، للطهطاوي(٥٠١٩/١).

(٦) انظر: الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، لمحمد عمارة(١٧١/٢-١٧٢).

وجعلها "أقوى شيءٍ في حفظ البلاد، وراحة العباد، وتوسيع دائرة المنافع العمومية، وتأسيس قواعد تمدن الوطنية"(١).

٢- **علي مبارك**(٢): لقد واصل علي مبارك متابعة جهود الطهطاوي في حقول الترجمة والتعليم، وقد ساهم في بروز ما عُرف بالتعليم العلماني أو المدني الموازي للتعليم الديني الأزهري، فسمُّوا علي مبارك زوراً وبهتاناً أبو التعليم، وقد أسهم علي مبارك في تعريف المصريين على جوانب جديدة من الحياة في الغرب من خلال مؤلفاته وترجمته للكتب الغربية، كما فعل رفاعة الطهطاوي من قبله(٣).

٣- **خير الدين التونسي**(٤): وهو أيضاً من أوائل المبتعثين إلى الغرب لتلقِّي العلوم الحديثة، فقد أُبتُعث إلى باريس، وأقام فيها أربع سنوات(١٨٥٢- ١٨٥٦م)، ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- يعتبر من الذين تأثَّروا بمبادئ الثورة الفرنسية، واقتنعوا بأنَّ على الشرق أن يُغيِّر أساليب الحكم الاستبدادي الذي جرى عليه، فعاد مُحمَّلاً بأفكارٍ تدعو إلى تنظيم المجتمع على أساسٍ عقلاني، ومحاولة تكرار النموذج الغربي بكلِّ تفاصيله للوصول إلى مجتمعٍ حضاري، وقد أنشأ مدرستين تُدرِّسان هذه الأفكار التي كان يدعو إليها وهما: المدرسة الصادقية، والمدرسة الخلدونية، امتزجت فيهما العلوم العربية باللغات الأجنبية(٥).

يقول خير الدين التونسي مُؤيِّداً ومُستشهداً بأقوال الغرب على سبقهم للمسلمين في الحضارة، وأنَّه لا بدَّ لمن يريد أن يتحضَّر أن يتَّبعهم: "سمعتُ من بعض أعيان أوروبا قوله: إنَّ التمدُّن الأورباوي تدفَّق سيله في الأرض، فلا يُعارضه شيءٌ إلا استأصلته قوة تياره المتتابع، فيُخشى على الممالك

---

(١) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، لمحمد عمارة(٣٩٩/١).

(٢) ولد في قرية برنبال في الدقلهية عام ١٨٢٣م، سافر في بعثةٍ علميةٍ إلى باريس في الفنون العسكرية، وعاد ليعمل في الوظائف العسكرية، وتولى نظارة الأوقاف المصرية، ثم المعارف، وساهم في توسيع التعليم، وأنشأ دار الكتب المصرية، ثم تولى نظارة الأشغال العامة، ثم عاد وتولى نظارة المعارف، من مؤلفاته: الخطط التوفيقية، وعلم الدين، وغيرها، توفي في القاهرة ١٨٩٣م. انظر: الأعلام، للزركلي(٣٢٢/٤)، ولمزيد من المعلومات يمكن مراجعة مقدمة كتاب الأعمال الكاملة لعلي مبارك، لمحمد عمارة.

(٣) انظر: الأعمال الكاملة لعلي مبارك، لمحمد عمارة، ص١٠٥، ص١٨٦.

(٤) خير الدين باشا التونسي، وزير، مؤرخ، شركسيّ الأصل، ولد عام ١٨١٠م، قدِم إلى تونس، فاتصل بصاحبها الباي أحمد، وتعلم بعض اللغات، وتقلد مناصب عالية آخرها الوزارة، وفي سنة ١٨٧٧م أُبعد عن الوزارة، فخرج إلى الآستانة وتقرب من السلطان عبد الحميد العثماني فولاه الصدارة العظمى، ونصب عضواً في مجلس الأعيان، فاستمر فيه إلى أن توفي بالأستانة ١٨٩٠م، من مصنفاته: أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك. انظر: الأعلام، للزركلي(٣٢٧/٢)، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا(١٣٣/٤).

(٥) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب، لمانع الجهني(٦٩٩/٢)، والاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٨٣، والمعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، ص١٢٨، والعِلمانيَّة، لسفر الحوالي(٥٢٥/١).

المجاورة لأوروبا من ذلك التيار، إلَّا إذا أخذوه، وجروا مجراه في التنظيمات الدنيوية، فيُمكن نجاتهم من الغرق"[١].

ويقول أيضاً عن إعجابه بالدول الأوربية: "وإنَّما بلغوا تلك الغايات والتقدُّم في العلوم والصناعات، بالتنظيمات المُؤسَّسة على العدل السياسي، وتسهيل طرق الثورة"[٢].

٢- يرى أنَّ تقليد المؤسسات الأوربية في سياساتها ليس فيه أيُّ مانعٍ؛ فيرى أنَّ البرلمانات الأوربية هي مُعادِلةٌ للمشورة في الإسلام، وأنَّ أعضاء البرلمان اليوم هم العلماء والأعيان في الدولة الإسلامية قديماً، وهم أهل الحلِّ والعقد، وعلى هذا فلا يكون تبنِّي المؤسسات الأوربية عنده إلا تطبيقاً لروح الشريعة، وتحقيقاً لغاياتها[٣]، ولم يكتفِ خير الدين التونسي بهذا القدر من المُطالبة بتطبيق النظام الأوربي في الإدارة والحرية؛ بل تجاوز ذلك بثنائه على رأسمالية فرنسا وانجلترا[٤].

وبالرغم ممَّا سبق فقد كان خير الدين التونسي أقلَّ تعلُّقاً بالفكر الغربي من الطهطاوي، وكان أكثر وعياً منه في القضايا السياسية؛ ولهذا رأى أنَّ الإصلاح مُحالٌ ما دامت الضغوط والتدخُّلات الأوربية مستمرةٌ على الدولة العثمانية[٥].

٤- **أحمد لطفي السيد**[٦]: يُعد أحمد لطفي السيد فيلسوف التيار الليبرالي المصري ومنظِّره، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- انطلق بعيداً بالفكر الليبرالي في مصر عن النهج التوفيقي لمحمد عبده وتلاميذه، فقد استبعد الإسلام كتشريعٍ ومرجعيةٍ من مشروعه الفكري، وأخذ به كجانبٍ خُلقيٍ، وكمرحلةٍ تاريخية من مراحل

---

(١) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، لخير الدين التونسي، ص١٦٦.

(٢) المرجع السابق، ص٩٨.

(٣) انظر: الفكر العربي في عصر النهضة، لحوراني، ص١١٨.

(٤) انظر: الإسلام والحضارة الغربية، لمحمد حسين، ص٢٦، وفيه دراسة عن الطهطاوي وخير الدين التونسي من ص١٩-٤٠.

(٥) انظر: الفكر العربي في عصر النهضة، لحوراني، ص١١٧، وفيه دراسة وافية عن خير الدين التونسي من ص١٠٩-١٢١.

(٦) ولد في قرية برقين التابعة لمركز السنلاوين بمصر سنة ١٨٧٢م، وتخرج من مدرسة الحقوق في القاهرة ١٨٨٩م، وعمل في سلك المحاماة وشارك في تأسيس حزب الأمة ١٩٠٨م، فكان سكرتيره، وحرَّر صحيفته المسماة الجريدة حتى١٩٢٢م، وكان أحد أعضاء حزب الوفد المصري، وساهم في تأسيس حزب الأحرار الدستوريون ١٩٢٢م، وعمل مديراً لدار الكتب المصرية، ثم مديراً للجامعة المصرية عدة مرات، ثم وزيراً للمعارف، والداخلية والخارجية، ثم عضواً في مجلس الشيوخ، ثم رئيساً لمجمع اللغة العربية منذ ١٩٤٥م حتى وفاته بالقاهرة ١٩٦٣م. انظر:الأعلام، للزركلي(١/٢٠٠).

تكوين الشخصية المصرية[1].

٢- أبدى إعجاباً شديداً بالفلسفة اليونانية، فعمد إلى ترجمة بعض مؤلفات أرسطو الذي كان من فرط إعجابه به يدعوه: سيدنا أرسطو رضي الله عنه[2]، والمصيبة بعد ذلك أن يعتبره جيلٌ من الشباب المثقف أستاذاً لهم، فأسموه أستاذ الجيل[3]، فأنشأ ذلك الجيل المُغرَّر به، الذين تلقَّفوا أفكاره الليبرالية بكثيرٍ من الإعجاب والمتابعة[4]، ولا أدري أي جيلٍ سيتخرج على يد هؤلاء المُتشكِّكين في دينهم، والمُستبدلين بأحكامه العادلة النيرة ثقافة الغربيين وعاداتهم.

٣- هو الذي اشتقَّ اسم مذهب الحُرِّيين للدلالة على الليبرالية، ونادى بجعل هذا المذهب أساساً لكلِّ علاقةٍ بين الفرد والمجتمع، أو بين الفرد والحكومة[5]، ومارس تعزيز النهج التحديثي الليبرالي، عبر نشر الفكرة بالجهد الفكري والثقافي، وعبر الموقف بالمشاركة في أجهزة الدولة، كتولِّي الوزارة، ورئاسة الجامعة، وغيرها من مؤسسات التوجيه.

٤- كان من أشدِّ المؤيدين لسفور المرأة واختلاطها بالرجال، وقد حظيت دعوة قاسم أمين لتحرير المرأة بتأييد شديدٍ من لطفي السيد، وبما لم تحظَ به من كاتبٍ أو صحفيٍ آخر[6]، ولذلك كان يُمجِّد قاسم أمين، ويثني كثيراً على دعوته الفاجرة، وقد كتب في جريدته مقالاتٍ بعنوان: قاسم أمين القدوة الحسنة، يدعوا فيها لاالشباب المصري لاقتفاء خطى قاسم أمين، وتطبيقاً من لطفي السيد لهذه الدعوة الإفسادية للمرأة المسلمة قام عندما كان مديراً للجامعة المصرية هو وأصحابه، وعلى رأسهم طه حسين بخطةٍ ماكرةٍ، أقرُّوا فيها دخول البنات لأول مرةٍ في الجامعات المصرية واختلاطهن في الدراسة بالبنين، فكانوا أول من فعل ودعا إلى هذه الضلالة التي لا زالت تعيشها الجامعات العربية إلى اليوم؛ فعليه وزرها ووزر من عمل بها[7].

٥- طه حسين: يُعدُّ طه حسين من أبرز دعاة التغريب في العالم الإسلامي، وقد نشر أخطر آرائه في كتابيه الشعر الجاهلي، ومستقبل الثقافة في مصر، حيث يقول: "إنَّ سبيل النهضة واضحةٌ بينةٌ مستقيمةٌ ليس فيها عوجٌ ولا التواءٌ، وهي أن نسير سيرة الأوربيين ونسلك طريقهم؛ لنكون لهم أندادًا،

---

(١) انظر: هموم الفكر والوطن، لحسن حنفي، ص١٤٨، والنهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، لغالي شكري، ص٢٣٧-٢٣٨٩.

(٢) انظر: أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل، لحسين النجار، ص٢٠٨.

(٣) انظر: لطفي السيد والشخصية المصرية الحديثة، لحسين النجار، ص١٩٨.

(٤) حول أبرز ما قدمه من أفكار ليبرالية، انظر: أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل، لحسين النجار، ص٢٠٤.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص٢٠٤-٢٠٥، ولطفي السيد والشخصية المصرية الحديثة، لحسين النجار، ص١٣٨-١٣٩، وأدب المقالة الصحفية في مصر، لعبد اللطيف حمزة(٦/٢٤-٣١).

(٦) انظر: لطفي السيد والشخصية المصرية الحديثة، لحسين النجار، ص٢٤٣.

(٧) انظر: أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل، لحسين النجار، ص٣١٧ وما بعدها.

ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرِها وشرِّها، وحلوِها ومرِّها، وما يُحبُّ منها وما يُكره، وما يُحمد منها وما يُعاب، ومن زعم لنا غير ذلك فهو خادعٌ أو مخدوعٌ، وعلينا أن نُشعر الأوروبي أنَّا نرى الأشياء كما يراها، ونُقوِّم الأشياء كما يُقوِّمها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها"[١].

ويقول أيضاً:" التزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحُكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع، التزمنا هذا كلَّه أمام أوروبا، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال عام ١٩٣٦، ومعاهدة إلغاء الامتيازات إلا التزاماً صريحاً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأنَّا سنسير سيرة الأوربيين في الحُكم والإدارة والتشريع[٢].

ويقولها صراحةً: "نُريد أن نتصل بأوروبا اتصالاً يزداد قوةً من يومٍ إلى يوم، حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنىً وحقيقةً وشكلاً"[٣].

ويعدُّ طه حسين من أبرز دعاة الليبرالية في مصر، فبعد أن درس بداية تعليمه في الأزهر، غادره إلى الجامعة المصرية، فغادر بذلك ثقافة الأزهر؛ ليتجه في طريق الثقافة الغربية، ولمَّا انتقل للدراسة في باريس تعمَّق التوجه نحو الغرب في وجدان طه حسين وعقله، وأبدى اهتماماً بالفكر الاجتماعي منذ أن أعدَّ أطروحته لنيل درجة الدكتوراة[٤]، كما أبدى اهتماماً بالفلسفة اليونانية، والفلسفة والفكر الأوروبيين الحديثين، وارتبط بصداقةٍ فكريةٍ وسياسيةٍ حميمةٍ مع أحمد لطفي السيد، كما ارتبط بحزب الأحرار الدستوريين، ثمَّ تحول في مطلع الثلاثينيات نحو حزب الوفد[٥].

لقد سخَّر طه حسين كلَّ جهوده الفكرية والأدبية والأكاديمية والسياسية، لخدمة الفكر الليبرالي الغربي الذي آمن به، ووقف حياته للدعوة إليه، وانخرط طويلاً في معركة القديم والجديد[٦]، وكثيراً ما لجأ إلى الاستفزاز، عندما كان يعمد إلى مصادمة الناس في معتقداتهم الدينية، كما فعل في كتابه: "في الشعر الجاهلي"، واتُّهم بتقديم دراساتٍ إلحاديةٍ لطلبته في الجامعة، وتسبب ذلك في إخراجه من الجامعة عام ١٩٣١م[٧]، ورغم ذلك لم يُظهر طه حسين شيئاً من المراجعة الفكرية خلال تلك الفترة، ويُعتبر كتابه " من بعيد"، وكتابه "مستقبل الثقافة في مصر"، هما أوضح تعبيرٍ عن مشروع طه حسين

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر، لطه حسين، ص٤٦.

(٢) المرجع السابق، ص٣٦.

(٣) المرجع السابق، ص٣٣.

(٤) درس في جامعة السوربون الفرنسية، وكانت أطروحته بعنوان "فلسفة ابن خلدون الاجتماعية"، بإشراف عالم الاجتماع اليهودي إميل دوركهايم، انظر: الموسوعة الميسرة في الفكر الفلسفي والاجتماعي، ص٢٢٦-٢٢٩.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص١٢٠-١٢٢.

(٦) انظر: حديث الأربعاء، لطه حسين(٣/٣٧٥)، وقد كان خصمه في هذه المعركة مصطفى صادق الرافعي، انظر: تحت راية القرآن، المعركة بين القديم والجديد، لمصطفى صادق الرافعي، ص٣٠.

(٧) انظر: الصحافة والسياسة في مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية، لأنور الجندي، ص٤٠٢-٤٠٣.

الفكري القائم على التغريب، والعلمانية الصرفة[1]، حيث كان يسعى لترسيخ النهج العلماني، ومحاربة التفكير الديني، واتَّهم الفكر الإسلامي بأنَّه فكرٌ غيبيٌّ لا يصلح لهذه الحياة، ودافع عن علمانية الدولة الحديثة بزعم أنَّها دولةٌ وطنيةٌ لا شأن لها بالدين، واعترض على ما نصَّ عليه الدستور المصري آنذاك، من أنَّ الإسلام دين الدولة الرسمي، واعتبره نصَّاً غير ضروري، وغير ذي فائدةٍ أو غرض، فقال عن هذا القانون: " لقد أصبح مصدر فرقةٍ لا نقول بين المسلمين وغير المسلمين من أهل مصر، فقد رضيت القلة المسيحية وغير المسيحية هذا النص، ولم تُحاور فيه، ولم ترَ فيه على نفسها مضاضةً أو خطراً، وإنَّما نقول أنَّه كان مصدر فرقةٍ بين المسلمين أنفسهم، فهم لم يفهموه على وجهٍ واحدٍ، ولم يتفقوا في تحقيق النتائج التي يجب أن تترتب عليه"[2]، وفي هذا السياق نادى بضرورة تحجيم دور الأزهر في الحياة السياسية، والنظر إليه كمعهدٍ من معاهد التعليم، لا أكثر ولا أقل[3].

ومن ضلالات طه حسين الواضحة والمُخزية، ما يلي:

أ- **كثرة خوضه في الصحابة** ﷺ: فهو تارةً يتَّهمهم بأنَّهم حين طال عليهم الزمن بعد الرسول ﷺ، فسدت بينهم الأمور، وساءت بينهم الظنون، وقاتل بعضهم بعضاً، ويبدأ بالعشرة المبشرين بالجنة فيقول: "ولكنِّي مع ذلك ألاحظ أنَّ جماعةً من أصحاب النبي قد حسُن بلائهم في الإسلام حتى رضي النبي عنهم، وبشَّرهم بالجنة، أو ضمنها لهم، ثمَّ طال عليهم الزمن واستقبلوا الأحداث والخطوب، وامتُحنوا بالسلطان الضخم العظيم، وبالثراء الواسع العريض، ففسدت بينهم الأمور، وقتل بعضهم بعضاً إلى أبعد ما يمكن أن يسوء ظنُّ الناس بالناس، فما عسى أن يكون موقفنا نحن من هؤلاء، لا نستطيع أن نرضى عن أعمالهم جميعاً، ونلغي عقولنا"[4].

وتارةً نجد طه حسين يُعبِّر عن العشرة المبشرين بالجنة بأسلوب المُشكِّك الساخر، فيقول: "العشرة الذين كان الناس يرون أنَّ رسول الله ﷺ قد ضمن لهم الجنة"[5]، فهو يزعم أنَّ الناس هم الذين يرون أنَّ الرسول ﷺ شهد لهم بالجنة، ولا يُقرُّ هو بذلك[6].

ثمَّ يصف طه حسن الصحابةَ الستة أصحاب الشورى، الذين وكَّلهم عمر بن الخطاب ﷺ باختيار الخليفة من بينهم، وكأنَّهم مجموعةٌ من الانتهازيين، كلٌّ منهم يتحيَّن الفرصة ليُسيطر على

---

(١) قدَّم طه حسين في كتابه "من بعيد" رؤيةً علمانيةً للعلاقة بين الدين والعلم والسياسة، أكَّد فيه على علمانية الدولة المصرية، أمَّا كتابه "مستقبل الثقافة" فإنه يمثل خلاصة فكر طه حسين، ويُعبِّر عن الرؤية الفكرية العامة له في ميادين الحياة المختلفة، ويمكن اعتباره آخر مرافعة فكرية لطه حسين. انظر: من بعيد، لطه حسين، ص٢٠٦-٢٥٤.

(٢) من بعيد لطه حسين، ص٢٣٩- ٢٥١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٤-٢٥.

(٤) إسلاميات طه حسين الفتنة الكبرى، ص٦٨٩.

(٥) المرجع السابق، ص٧٠٠.

(٦) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٧٧.

الحكم، حيث يقول:" وقد فُوجئ المسلمون الذين كُلِّفوا حراسة هولاء المشيرين مفاجئةً أليمةً حين رأوا هؤلاء المشيرين يختلفون في غير ائتلافٍ، ويتنافسون في غير وفاقٍ، فهم كانوا يرون أنَّ الخلافة واجبٌ يجب أن يتنافس المتنافسون في النهوض بأعبائه مهما ثقلت، تقرُّباً إلى لله إن حسنُت بهم الظنون"[١]، فهو يُشكِّك في نوايا كبار الصحابة، عليه من الله ما يستحق.

ويقول طه حسين بعد ذلك عن كبار الصحابة:" وأيُّ غرابةٍ في أن يعظم ثراء هؤلاء الناس من جهةٍ، ويكثر أتباعهم وأشياعهم من جهةٍ أخرى، ويصبحَ كلُّ واحدٍ منهم رئيس حزبٍ من الأحزاب، يراه أحقَّ الناس بولاية أمور المسلمين، وينتهز الفرصة ليُمكَّن من ذلك"[٢].

ويواصل تهكُّمه وسخريته من أبناء الصحابة ﷺ كما سخر من آبائهم، فيقول:" ورأينا أبناء أبي بكرٍ وعمرَ وعثمانَ وزهرةَ الشباب الهاشمي مضطرين إلى أن يحيوا في ضياعهم، فأمَّا أكثرهم فانصرف إلى اللهو والمجون، وأمَّا أقلهم فانصرف إلى الدِّين والتلقي"[٣].

إنَّ طه حسين يفتري هذا البهتان العظيم على الصحابة وأبنائهم من غير أن يُثبت زعمه بدليلٍ شرعيٍ أو تاريخيٍ؛ بل التاريخ يُثبت خلاف ذلك، فقد كان مجتمع الصحابة وأبنائهم من القرون الفاضلة، التي جاهدت في الله حقَّ جهاده، والتي حملت الدين وأقامته وشيَّدت الدولة والحضارة الإسلامية الشامخة[٤].

ب- افتراءاته على القرآن والسنة: حيث تمتلئ كتاباته بهذه الافتراءات، مثل كتاب الشعر الجاهلي الذي حُوكم بسببه في مصر، وعُزل من عمله بالجامعة[٥].

يقول طه حسين:" إنَّ في القرآن أسلوبين مختلفين كلَّ الاختلاف، أحدهما جافٌ مُستمَدٌ من البيئة المكيَّة، ففيه تهديدٌ ووعيدٌ وزجرٌ وعنفٌ وغضبٌ وسِباب، فلمَّا هاجر النبي إلى المدينة، تغيَّر الأسلوب بحُكم البيئة أيضاً، فقد كان هنالك اليهود، وبينهم التوراة، فأصبح الأسلوب ليناً وديعاً، مسالماً تلوح عليه أمارات الثقافة والاستنارة"[٦].

ويرى طه حسين أنَّ القصص الواردة في القرآن ليس بالضرورة أن تكون قصصاً حقيقية، فيقول: "للتوراة أن تُحدِّثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يُحدثنا عنهما أيضاً؛ ولكن ورود هذين الاسمين في التوراة والقرآن لا يكفي لإثبات وجودهما التاريخي، فضلاً عن إثبات هذه القصة التي تُحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة، ... ونحن مضطرون إلى أن نرى في هذه القصة نوعاً من

---

(١) إسلاميات طه حسين الفتنة الكبرى، ص٧٠٥.

(٢) المرجع السابق، ص٧١٨.

(٣) حديث الأربعاء، لطه حسين(٢٤١/١).

(٤) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٨٢.

(٥) انظر: المعتزلة بين القديم والحديث، لمحمد العبدة وطارق عبد الحليم، ص١٢٩ .

(٦) الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٨٨.

الحيلة في إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والتوراة والقرآن، من جهة أخرى"[١].

وكذلك نجد طه حسين يُشيد بالمُشكِّكين في السنة أمثاله، وببعض مُؤلفاتهم الهدَّامة التي شكَّكوا فيها في أصول الدين، وفيمن نقلوا إلينا النصوص، فها هو يُشيد بأحمد أمين في مقدمة كتابه فجر الإسلام، وكذلك يشيد بمحمود أبي رية ويشجعه على بحثه أضواء على السنة المحمدية حين قدَّمه له، مع العلم أنَّ أبا رية هاجم السنة، وأساء إليها وإلى نقلتها من أصحاب رسول الله ﷺ بأسلوبٍ ساخرٍ ومُتهكمٍ من الصحابة الكرام ﷺ [٢]

وكذلك وصف أبو رية طه حسين بأنه" نصير الفكر والدين والعلم"[٣]، ولا أدري كيف كان نصيراً للدين وهو يقدح في الصحابة ﷺ؛ بل وفي النبوة والمعجزات وثوابت الإسلام، وبعد كلِّ هذه الفظاعات يُسميه البعض بعميد الأدب العربي، "عاملك الله بما تستحق يا طه من داعٍ إلى العلمانية في وقتٍ باكرٍ، وداعٍ إلى القضاء على الشريعة الإسلامية بالقانون الوضعي، ومن داعٍ إلى القضاء على الوحدة الإسلامية بالدعوة إلى الإقليمية والقومية الغربية"[٤].

٦- **محمد حسين هيكل**[٥]: إنَّه لا يمكن استكمال صورة الفكر الليبرالي في مصر دون التوقف مع تجربة محمد حسين هيكل، فقد تتلمذ في السياسة والفكر على لطفي السيد، ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- انفتح في باريس على الثقافة الأوروبية، وأبدى إعجاباً بها، وحماساً كبيراً لها، حيث يقول:" وليس من ريبٍ أنَّ الشرق اليوم في حاجةٍ أشدَّ الحاجة إلى النَّهل من ورد الغرب في التفكير وفي الأدب والفن،... ومن الحقِّ علينا للغرب أن نقول: إنَّ ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوثٍ نفسيةٍ في تاريخ

---

(١) الشعر الجاهلي، لطه حسين، ص٢٦، وانظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٩٤، ص١٧٢.

(٢) انظر: مقدمة الطبعة الأولى لطه حسين على كتاب فجر الإسلام لأحمد أمين، وكلمة طه حسين على كتاب أضواء على السنة بعنوان(أضواء على السنة المحمدية جهد وعبء ثقيل)، ص٧-١٤.

(٣) أضواء على السنة المحمدية، لمحمود أبو رية، ص٧.

(٤) أعلام وأقزام في ميزان الإسلام، لسيد العفاني(٢٣١/١).

(٥) محمد بن حسين بن سالم هيكل، كاتب صحفي، مؤرخ من أعضاء المجمع اللغوي، ومن رجال السياسة، بمصر، ولد بالدقهلية بمصر سنة ١٨٨٨م، درس الحقوق في مدرسة الحقوق بالقاهرة، ثمَّ سافر إلى باريس، وحصل على الدكتوراه في الحقوق من فرنسا ١٩١٢م، كان عضواً مؤسساً في حزب الأحررا الدستوريين، وتولى رئاسته عام ١٩٤٢م، وتقلّد عدداً من المناصب الوزارية كالمعارف، والشؤون الاجتماعية، وتولى رئاسة مجلس الشيوخ ١٩٤٥-١٩٥٠م، من كتبه: حياة محمد، وثورة الأدب، وتوفي بالقاهرة ١٩٥٦م.انظر: الأعلام، للزركلي(١٠٧/٦)، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا(٢٦٣/٩)، د. هيكل وتاريخ جيل، لحسين النجار، ص٩-٤٣، ص٣١٩، ص٣٥٣.

الدراسات الإسلامية والدراسات الشرقية، قد مهَّد لأبناء الإسلام وأبناء الشرق أن يتزيَّدوا من هذه البحوث وتلك الدراسات"[١].

٢- ساهم هيكل في صياغة الفكر الليبرالي في مصر عبر مؤلفاته، وعبر ترجماته المُتعدِّدة في الأدب الفرنسي[٢]، وإن كان جهده الفكري والثقافي الأبرز في رئاسة تحرير جريدة "السياسة"، أبرز منابر الفكر الليبرالي في مصر خلال تلك المرحلة[٣].

٣- كان هيكل من دعاة الإعلاء من شأن العقل، وذلك بتأكيده أنَّ العقل هو السبيل لتحقيق السعادة التي تُنشدها الإنسانية عموماً، ويعتبره المرجعية الحاكمة لكل التصرفات، بعيداً عن أي دورٍ للدين في صياغة هذه المرجعية[٤].

٤- يعدُّ من الذين طعنوا في السنة، وشكَّكوا في صحَّتها، وفي صدق الأحاديث التي جاءت بصيغةٍ قطعيةٍ، وصحَّت نسبتها إلى النبي ﷺ، فهو يردُّ معجزات النبي ﷺ، بحجة أنَّ القرآن لم يُشر إلى هذه المعجزات[٥]، والليبراليون بشكلٍ عام بسبب إعجابهم بالغرب وأفكاره المادية والإلحادية، يستحيون من ذكر معجزات النبي ﷺ، والتي صحَّ مجيئها في السنة الصحيحة مثل انشقاق القمر، والإسراء والمعراج، وشقِّ الصدر، وقصة فرس سراقة، وحنين الجذع، وغيرها من الخوارق والمعجزات التي لا سبيل إلى إنكارها أو التشكيك في صحَّتها؛ لأنَّ منها ما هو متواترٌ وعليه إجماع المسلمين، ومنها ما ورد في صحيحي البخاري ومسلم وغيرها ممَّا صحَّ في السنن والمسانيد[٦].

٥- يرى أنَّ المعجزات والخوارق التي حصلت للنبي ﷺ كانت من وضع المسلمين، إمعاناً في تقديسه، ومبالغةً في احترامه[٧]، ويزعم أنَّ هذه المعجزات لا تصمد أمام النَّقد العلمي الصحيح[٨]، ولا يُصدِّقها العقل[٩]، وأنَّ الرسول ﷺ لم تحدث له معجزةٌ أو خارقةٌ غيرَ القرآن الكريم[١٠]، فيقول في تقرير ما ذهب

---

(١) حياة محمد، لهيكل، ص١٦.

(٢) انظر: مطالعات في الكتب والحياة، لعباس العقاد، ص٢٤٣-٢٥٣.

(٣) انظر: العلمانية والفكر المصري، للشلق، ص٤٥٠.

(٤) مقال لهيكل بعنوان: "في سبيل حياة جديدة"، مجلة السياسة، العدد٧٣، ص١٠-١١، بتاريخ ٣٠ يوليو ١٩٢٧م.

(٥) انظر: رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية، لسيد العفاني، ص٢١.

(٦) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٠٩.

(٧) انظر: حياة محمد، لهيكل، ص٤٧-٤٩.

(٨) انظر: المرجع السابق، ص٥٤-٥٥.

(٩) انظر: المرجع السابق، ص١٤.

(١٠) انظر: المرجع السابق، ص٥٤.

إليه:" لقد كان ﷺ حريصاً على أن يُقدِّر المسلمون أنَّه بشرٌ مثلهم يُوحَى إليه، حتى كان لا يرضى أن تُنسب إليه معجزةٌ غير القرآن، ويُصارح أصحابه بذلك"(١).

ويقول أيضاً عند حديثه عن المعجزات:" وندع الدِّين جانباً ونقف عند سيرة النبي ﷺ، فقد أضافت أكثر كتب السيرة إلى حياة النبي ﷺ ما لا يُصدِّقه العقل، ولا حاجة إليه في ثبوت الرسالة"(٢).

قلتُ: لا أدري من أين يستدل هيكل وأمثاله على هذه الأمور إن تَرَك الدين جانباً، ربَّما استدلَّ من عقله، أو من آراء الغربيين الماديين، الذين لا يُؤمنون إلَّا بالمحسوس، وهذا من سمات الليبراليين أنَّهم يميلون إلى التَّجرُّد من كلِّ شيءٍ عند البحث، حتى من دينهم وعقيدتهم، وهذا انحرافٌ شديد، ومنزلقٌ خطير.

٦- أوَّل كثيراً من الخوارق والمعجزات، فقال في تأويل الطير الأبابيل التي أرسلها الله ﷻ على أبرهة ومن معه في حادثة الفيل:" كان وباء الجدري قد تفشَّى في الجيش، وبدأ يفتك به، وأصابت العدوى أبرهة نفسه"(٣)، وكذلك لمَّا مرَّ بقصة سراقة بن مالك الثابتة في الصحيحين، والتي جاء فيها أنَّ فرس سراقة ساخت في الأرض عندما لحق بالنبي ﷺ أثناء الهجرة إلى المدينة، ادَّعى هيكل أنَّ ما حدث مع سراقة لم يكن خارقاً؛ وإنَّما هو أمرٌ عادي، وما هو إلا كبوةٌ لفرسه(٤).

٧- يُقدِّم آراء المستشرقين على ما جاء في صحيحي البخاري ومسلم؛ بل مجرد عدم اطمئنانه لحديثٍ من أحاديث النبي ﷺ، ولو كان متواتراً عند المسلمين، يكفي للحكم عليه بعدم الصحة، فيقول هيكل عن حادثة شقِّ الصدر التي حصلت للنبي ﷺ أثناء رضاعته في بني سعد عندما كان صغيراً، وحدثت له أيضاً بعد النبوة في رحلة الإسراء والمعراج، ووردت في الصحيحين وغيرهما، يقول هيكل:" لا يطمئن المستشرقون، ولا يطمئن جماعةٌ من المسلمين كذلك إلى قصة الملكين هذه، ويرونها ضعيفة السند"(٥).

فساهم هيكل مع الليبراليين في الإساءة إلى السيرة والسنة، وردَّ روايات البخاري ومسلم وكتب السنة المعتمدة، وفي نفس الوقت يورد روايات المستشرقين ويعتمدها، ويفضِّل نصوصهم على نصوص السنة، ويقول في الرد على منتقديه في هذا الأسلوب: "ذلك قولهم أنَّني لم آخذ بما سجَّلتُه بما في كتب السيرة وكتب الحديث، ولم أنهج في التعبير عن مختلف الحوادث نهجها، ولقد كان يكفيني ردَّاً على هذا أنَّني أجري في هذا البحث على الطريقة العلمية الحديثة، وأكتبه بأسلوب العصر"(٦)؛ ولذلك لمَّا

---

(١) انظر: حياة محمد، لهيكل، ص٤٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١٤.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٤.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢١٤.

(٥) المرجع السابق، ص١١.

(٦) المرجع السابق، ص٤٧.

وصل محمد حسين هيكل إلى قصة الإسراء والمعراج في كتابته، قال:" سرد المستشرق درمنجم هذه القصة مستخلصةً من مختلف كتب السيرة، في عبارةٍ طليةٍ رائعةٍ، هذه ترجمتها"[١]، ثمَّ سرد ترجمة القصة من كلام المستشرق الكافر الذي رواها بالتخليط والكذب كما يحلو له، وأغفل القصة كما رواها البخاري ومسلم وأصحاب السنن[٢].

وهذه نماذج من الرواية التي أوردها هيكل في كتابه، حيث يقول:" استيقظ محمد على صوتٍ يصيح به: أيها النائم قُم، فإذا أمامه الملك جبريل، وضَّاء الجبين، أبيض الوجه كبياض الثلج، مُرسِلاً شعره الأشقر، واقفاً في ثيابه المزركشة بالدرِّ والذهب، ومن حوله أجنحةٌ من كل الألوان ترعش،.... فقيَّد محمدٌ دابته، وصلى على أنقاض هيكل سليمان"[٣].

وقد ظهرت في مصر موجةٌ من المُراجعات الفكرية في صفوف التيار الليبرالي، طالت عدداً من أبرز رموزه، وفي طليعة هؤلاء كان محمد حسين هيكل، فتغيَّرت كتاباته إلى كتاباتٍ إسلامية في سيرة النبي ﷺ وغيرها؛ ولكنَّه لم يستطع أن يتخلَّص من نزعته العقلية التي نشأ عليها سنين طويلة، ومن تراجعاته أنَّه عبَّر عن قناعته بأنَّ الغرب غير مُخلصٍ لقضية الحرية، وأنَّ قضيته هي الاستعمار، وأشار كذلك إلى سياسات التعليم التي اتَّبعتها بريطانيا في مصر كمؤشرٍ على حقيقة نوايا الغرب، فلم تهدف إلى شيءٍ سوى تخريج مواطنين مطواعين[٤].

وتختصر الاعترافات التي قدَّمها هيكل الكثير من الكلام في تصوير درجة خيبة الأمل التي جناها دُعاة التغريب، إذ يقول: "وقد حاولتُ أن أنقل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية، وحياته الروحية؛ لنتخذها جميعاً هدىً ونبراساً؛ ولكنَّي أدركتُ بعد أنَّني أضع البذر في غير منبته، فإذا الأرض تهضمه، ثمَّ لا تتمخض عنه، ولا تبعث الحياة فيه"[٥].

---

(١) حياة محمد، لهيكل، ص١٩٠.

(٢) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٦٨.

(٣) حياة محمد، لهيكل، ص١٩٠-١٩١.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢-٣، ص١٧.

(٥) في منزل الوحي، لهيكل، ص٢٣.

٧- **عباس العقاد**[1]: لقد أسهم العقاد بجهدٍ فكريٍ مُعتبرٍ في دعم الفكر الليبرالي في مصر، ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- دفاعه عن توجُّهات حزب الوفد الليبرالي الفكرية والسياسية، فقد بقي طيلة الفترة (١٩٢٣-١٩٣٥م)، يكتب المقال الافتتاحي في الصحافة الوفدية، فقد آمن العقاد بالديمقراطية الليبرالية، ودافع عن الحرية، وتصدَّى في هذه المرحلة للفكر الاشتراكي وللشيوعية، ودافع بحرارةٍ عن موقف الوفد الرافض لفكرة الخلافة، ولعقد مؤتمر الخلافة، كما دافع بقوةٍ عن التوجهات العلمانية للوفد؛ لكنَّه اختلف معهم وخرج عليهم شعوراً منه بأنَّ الوفد يُساوم على مبادئ الديمقراطية الليبرالية[2].

٢- يعدُّ العقاد من أكثر العصرانيين تطرفاً في قضية نشأة الدِّين وتاريخيته في الحياة الإنسانية، فهو يرى أنَّ الأمم القديمة لم تكن تعرف الإيمان بإلهٍ واحدٍ، إلا بعد زمنٍ طويلٍ من تاريخ الإنسانية، وإن كانت البشرية عرفت الإله الواحد فلم تعرف التوحيد؛ إنَّما عَرفتْ أنَّه خلق الأحياء، وخلق معهم أرباباً آخرين[3]؛ بل يقول:" من يُريد أن يبحث في الأديان البدائية ليثبت أنَّ الأولين قد عرفوا الحقيقة الكونية مُنزَّهةً عن السَّخف والغباء؛ إنَّما يبحث عن مُحال"[4].

إنَّ هذه النظرة للدِّين فيها متابعةٌ للنظريات الغربية التي ظهرت في القرنيين الماضيين، والتي تقول أنَّ الإنسان بدأ حياته في هذه الأرض همجياً وساذجاً في تديُّنه وفكره وعقله، ثمَّ تطوَّر عقله وفكره مع تطور معيشته، حتى تولَّدت عنده فكرة التدين، دون تمييزٍ واضحٍ أو تعليمٍ خارجي، فهو لم يعرف التديُّن إلا بعد أحقابٍ طويلةٍ من حياته، وقد بدأ الإنسان في تدينه وثنياً، يعبد ما حوله من قوى الطبيعة، ورموز الحياة، وتدرَّج في ذلك من الوثنية الخالصة إلى التمييز والترجيح بين المعبودات، فالثنائية، ثمَّ المعبود الواحد لكلِّ قبيلةٍ، إلى أن توصَّل إلى الاستعداد للإيمان بإلهٍ واحدٍ بعد تجاربَ كثيرةٍ، ومحاولاتٍ عقليةٍ أخذت فترةً طويلةً من الزمن[5].

---

(١) عباس بن محمود بن إبراهيم بن مصطفى العقاد، مصري، من المكثرين كتابة وتصنيفاً، ولد في دمياط سنة ١٨٨٩م، كان أحد أجداده يعمل في (عقادة) الحرير، فعُرف بالعقاد، تعلم الإنكليزية في صباه وأجادها ثم ألمَّ بالألمانية والفرنسية، عمل موظفاً بالسكة الحديدية، وبوزارة الأوقاف بالقاهرة، ثم عمل في الصحف والكتابة والتأليف، وهو متأثر بالفكر الليبرالي، وكان من أعضاء المجامع العربية الثلاثة دمشق والقاهرة وبغداد، من مصنفاته: عبقرية محمد، والمرأة في القرآن، والتفكير فريضة إسلامية، وتوفي بالقاهرة سنة ١٩٦٤م.انظر: الأعلام، للزركلي(٢٦٦/٣)، وأعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، لصلاح زكي، ص١٦٨-١٧٥.

(٢) انظر: مقال بعنوان: بصمات العقاد الفكرية والأدبية والسياسية على الواقع العربي، مجلة الطليعة، مارس، ١٩٦٦، ص١٢٩-١٤٩.

(٣) انظر: ابراهيم أبو الأنبياء، لعباس العقاد، ص٥٠٢.

(٤) الله، لعباس العقاد، ص١٤.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص١٣-٢٨، ونشأة الدين والنظريات التطورية والمؤلهة، لعلي النشار، ص٤٠-٤٣، والاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١١٥.

إنَّ هذه النظرية فيها إنكارٌ صريحٌ لما أخبر الله ﷻ به في القرآن، من أنَّه خلق الناس على الدِّين، وفطرهم على التوحيد، وأنَّه لمَّا أنزل آدم إلى الأرض أمره وذريته بعبادته وتوحيده، ثمَّ تتابعت الأجيال بعد آدم على التوحيد، حتى طرأ الشرك على النَّاس، فأرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين، بدءاً من نوحٍ عليه السلام حتى نبينا محمدٍ ﷺ، وأمرهم جميعاً بدعوة الناس إلى توحيد الله ﷻ، كما قال ﷻ:﴿ **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ** ﴾[فاطر:٢٤]، وقال ﷻ: ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اُعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾{النحل:٣٦}.

وصحَّ عن النبي ﷺ أنَّه قال فيما يرويه عن ربه، قال الله ﷻ: **(وإنِّي خلقت عبادي حنفاء كلَّهم، وإنَّهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمت عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزِّل به سلطاناً)**(١).

وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال: "كان بين آدم ونوح عشرة قرونٍ كلُّهم على شريعةٍ من الحق"(٢).

وقال الألباني- رحمه الله- بعد ذكر هذا الحديث في السلسة الصحيحة: "وفيه فائدةٌ هامةٌ، وهي أن الناس كانوا في أول عهدهم أمةً واحدةً على التوحيد الخالص، ثمَّ طرأ عليهم الشرك، خِلافاً لقول بعض الفلاسفة والملاحدة، أنَّ الأصل فيهم الشرك، ثمَّ طرأ عليهم التوحيد!"(٣).

إنَ إثبات مثل هذه القضايا الغيبية لا يخضع للاستنتاج العقلي المُجرَّد، ولا للتجارب المادية العلمية؛ بل طريقها ما يُنقل لنا من أحوال تلك الأمم عن طريق وحي الله المُنزَّل في كتابه، وقد قصَّ الله ﷻ علينا من قصص هؤلاء الأنبياء بما لا يدعُ مجالاً للشكِّ في أنَّ الإنسان في أول عهده بالأرض عرف الدين الحق، وتوحيد الله وحده، وعبادته وحده لا شريك له، قال ﷻ:﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾[الأنبياء:٢٥].

والجدير بالذكر أنَّ أحدث الدراسات الغربية، تقول أنَّ الإنسان عرف الله الواحد، وعبَدَه أولاً قبل كلِّ شيءٍ؛ ولذلك فقد رجَّح كثيرٌ من الغربيين في آخر أمرهم أنَّ الإنسان عرف الله وعَبَدَه أولاً ثمَّ انحرف إلى الشرك، وتعدُّد المعبودات، وأنَّ التوحيد هو منشأ الأديان، وليس هو نهاية التطوُّر الديني

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة أهلها، باب الصفات التي يعرف بها أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٣٢٨٩.

(٣) سلسلة الأحاديث الصحيحة، للألباني(٧/٨٥٤).

كما يزعم البعض[1]، وبعد هذا لم يبقَ للعقلانيين أمثال العقاد وغيره سندٌ دينيٌ ولا سندٌ علميٌ فيما يقولون به.

٣- يزعم العقاد أنَّ ديانات الأنبياء لا وجود لها في غير السُّلالة العربية، وأنَّ الدعوات النبوية بدأتها دعوة إبراهيم، أمَّا قبل ذلك فلا وجود لها، وأنَّهم فئةٌ من الدجَّالين والمشعوذين والكهَّان[2].

ولا أدري كيف يقول العقاد هذا الكلام، ألم يقرأ كتاب الله ولو لمرةٍ واحدة؛ ليعلم أنَّ الله ﷻ أرسل رسلاً قبل إبراهيم- عليه السلام-، وقصَّ علينا قصصهم في القرآن، مثل نوحٍ وإدريسَ وغيرهم عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه؛ ولكن يبدو أنَّ هؤلاء الليبراليين، يتجاهلون ما جاء عن الوحي والرسالات والنبوات مُفصَّلاً في كتاب الله ﷻ، تبعاً للغربيين، وإرضاءً لهم[3].

٨- **محمد أركون**[4]: يُعدُّ أركون من أخطر المُفكِّرين الذين تناولوا قضية التعامل مع النصوص بتأويلٍ غريب، والمآخذ عليه كثيرة، ومن أبرزها ما يلي:

١- هو أول من توسَّع في استخدام المناهج الغربية في تأويل النصوص الدينية، ودفع بهذ التوجُّهات إلى أقصى ما يُمكن من استخدام الآلية النقدية الغربية[5]، وهو صاحب مشروع فكريٍّ كبيرٍ في نقد العقل الإسلامي، وتطبيق المناهج الغربية في نقد النَّص الديني، وهو يريد بهذا فصل الوحي عن الله ﷻ، واثبات أنَّه جهدٌ إنسانيٌّ قابلٌ للخطأ والنقد[6].

٢- يتبنى فكرة إعادة القراءة للتراث بما فيه القرآن والسنة برؤيةٍ عصريةٍ من منظورٍ مادي علماني، وتجريده من القداسة الدينية؛ لقطع الطريق على كلِّ رجوعٍ سليمٍ للشعوب الإسلامية إلى أصول دينها

---

(١) انظر: نشأة الدين، لعلي النشار، ص٢٠٦، والدين، لعبد الله دراز، ص١٠٧.

(٢) انظر: ابراهيم أبو الأنبياء، لعباس العقاد، ص٤٨٢، ٥٠٨.

(٣) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١١٧.

(٤) محمد أركون مفكر جزائري من أصل بربري، ولد بمنطقة القبائل الكبرى عام ١٩٢٨م، قضى فترة التعليم الثانوي بوهران، ثم الجامعي بالجزائر العاصمة، ثم انتقل إلى باريس، حيث حصل على شهادة التبريز في اللغة والأدب العربي سنة ١٩٥٥م، وعمل مدرساً بثانويات ستراسبورغ، ثم أستاذاً في عدة جامعات فرنسية، ودرَّس في جامعة السربون مدةً طويلة، وحصل منها على شهادة الدكتوراه سنة ١٩٦٩م، وشغل كرسي تاريخ الفكر الإسلامي بجامعة السوربون، ومديراً لمعهد الدراسات العربية والإسلامية بها، وعمل أستاذاً زائراً في عديد من العواصم الأوربية والأمريكية، وعمل منذ عام ٢٠٠٠م مستشاراً علمياً للدراسات الإسلامية في مكتبة الكونكرس في واشنطن، جل مؤلفاته بالفرنسية وترجم البعض منها إلى العربية وإلى لغات أخرى، وتوفي في باريس بعد معاناة مع المرض بتاريخ ٢٠١٠/٩/١٤م. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، لخالد السيف، ص٦١، ومقال: كان جسراً رائعاً بين عالمين، من موقع www.alawan.com.

(٥) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٦٤.

(٦) انظر: منهج حسن حنفي دراسة تحليلية نقدية، لفهد السرحاني، ص١٥.

وشريعة ربها، وهو يطرح مشكلة الوحي من نظره بشكلٍ تاريخي مُقارني يشمل سائر الرسالات السماوية.

وبالرغم من تشرُّبه للثقافة الفرنسية منذ نشأته، ورغم كلِّ ما قدَّمه للغرب من خدمات، وتآمر معهم على دينه وأمته؛ فإنَّ الغرب لم يرضَ عنه، فهو لم يعجز فقط في تغيير نظرة الغرب إلى الإسلام؛ بل عجز حتى في تغيير نظرة الغربيين إليه هو كمُثقفٍ مسلمٍ مضى إلى أبعد مدى يُمكن المُضي إليه بالنسبة إلى من هو في وضعه من المثقَّفين المسلمين[1].

إنَّ من أهم كتب أركون التي نزل بها إلى الساحة النقدية للدِّين والوحي هو كتاب:نقد العقل الإسلامي، وكتاب: الفكر الإسلامي قراءة علمية، والمُترجَم للعربية بعنوان: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، وتُعدُّ هذه الكتابات خطيرةً جداً على المسلمين، وعن خطورة مشروع أركون، يقول مترجم كتبه هاشم صالح[2]:" يُعتبر أركون دون مبالغةٍ أو تحيُّزٍ أولَ مثقفٍ يُمارس تطبيق المناهج النقدية الحديثة على الظاهرة الإسلامية بكلِّ تمكُّنٍ واقتدار"[3]، إلى جانب أنَّه يُعدُّ واحداً من الأصوات المسموعة في الغرب فيما يخصُّ البحوث والدراسات المتعلقة بالإسلام، بالإضافة إلى أنَّ أركون طاف العالم مُبشِّراً بمشروعه في القراءات الجديدة للإسلام، وكان يُلقي محاضراته باللغة الفرنسية والإنجليزية والعربية، وممَّا ساعد في ظهور مشروعه الدعاية الإعلامية التي كانت تخصُّه بها الصحف والمجلات العربية والأجنبية، وتقديمه كمفكرٍ إسلامي، أو كمُجدِّدٍ للفكر الإسلامي[4].

٣- نظرته للوحي على أنَّه قابلٌ للنقد والخطأ والتغير ونزع القداسة عنه؛ بل ومساواته بالمناهج الشركية، فيقول:" إنَّ القرآن ليس إلا نصاً من جملة نصوصٍ أخرى، تحتوي على نفس مستوى التعقيد والمعاني الفوَّارة الغزيرة، كالتوراة والإنجيل والنصوص المؤسِّسة للبوذية أو الهندوسية، وكلُّ نصٍّ تأسيسيٍّ من هذه النصوص الكبرى، حظي بتوسعاتٍ تاريخيةٍ مُعينةٍ، وقد يحظى بتوسعاتٍ أخرى في المستقبل"[5]؛ ولذلك فهو يرى أنَّ كلَّ شيءٍ قابلٍ للتغير والتبدُّل، فيقول:"الإسلام لا يكتمل أبداً؛ بل ينبغي إعادة تجديده وتعريفه داخل كلِّ سياقٍ اجتماعي ثقافي، وفي كلِّ مرحلةٍ تاريخية"[6]، حتى مفهوم "الله" عند أركون قابلٌ للتغير، فيقول: "على عكس ما تنطق المُسلمة التقليدية التي تفترض وجود إلهٍ

---

(١) انظر: مقال: اعترافات محمد أركون، لسليمان الخراشي من موقع صيد الفوائد www.saaid.net.

(٢) هاشم صالح مفكر ومترجم سوري، مقيم في باريس، معجب بأركون ومستوعب مشروعه تماماً، ويُعد أشهر مقدمي أركون لقراء العربية. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص١٧٨.

(٣) خاتمة هاشم صالح لأحد أبحاث كتاب" الفكر الإسلامي قراءة علمية لمحمد أركون، ص١٥٤.

(٤) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص١٧٨-١٧٩.

(٥) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، لأركون، ص٣٦.

(٦) قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم، لأركون، ص١٧٤.

حيٍّ متعالٍ ثابتٍ لا يتغير، فإنَّ مفهوم الله لا ينجو من ضغط التاريخية وتأثيرها، أقصد أنَّه خاضعٌ للتحوُّل والتغيُّر بتغير العصور والأزمان"(١).

إنَّ مشروع أركون يقوم على فتح الباب لكلِّ عابثٍ في تأويل وتحريف نصوص الوحي، فيقول: "القرآن هو نصٌّ مفتوحٌ لجميع المعاني، ولا يُمكن لأيِّ تفسيرٍ أو تأويلٍ أن يُغلقه أو يستنفده بشكلٍ نهائي"(٢)؛ وبناءً على هذا فلا يحقُّ لأحدٍ بزعمه الادِّعاء بأنَّ ما توصَّل إليه من فهمٍ هو الصحيح، حتى لو كان هذا الفهم قد انعقد عليه إجماع الأمة؛ ولذلك يُصرِّح أركون بأنَّ فهم الصحابة لنصوص الوحي كان فهماً خاطئاً(٣).

إنَّ أركون بهذا المشروع الهدَّام يدعو كلَّ فردٍ لأن ينتهي في قراءته الخاصة للنَّص الديني إلى ما يرتضيه من مدلولٍ بحريةٍ مطلقةٍ، لا يحتكم فيها إلا إلى ضميره، ولذلك يقول: "إنَّ القراءة التي أحلم بها هي قراءةٌ حُرةٌ إلى درجة التشرُّد والتسكُّع في كلِّ الاتجاهات، إنَّها قراءةٌ تجد فيها كلُّ ذاتٍ بشريةٍ نفسها"(٤)؛ ولذلك يرى أركون أنَّ الإنسان اليوم في حِلٍّ من تلك الفروض التي فُرضت على الأولين، لأنَّ الخطاب القرآني بصيغة: يا أيها الناس، المقصود به كما يزعم "الجماعة الأولى التي كانت تُحيط بالنبي ﷺ، والتي سمعت القرآن من فمه لأول مرة"(٥).

٤- يشنُّ حملةً شعواء على علماء السَّلف الذين وضعوا الضوابط والقيود لفهم النَّص فهماً صحيحاً، وفي مقدمة هؤلاء الإمام الشافعي- رحمه الله-؛ لأنَّه أول من جمع القواعد والمبادئ التي يسير عليها السلف في فهمهم للنصوص الشرعية، وبيَّنها وشرحها في كتابه الرسالة، فيقول أركون عن الإمام الشافعي وكتابه الرسالة: " لقد ساهم في سجن العقل الإسلامي داخل أسوارٍ منهجيةٍ معينةٍ"(٦)، ويقول عن تحديد الإمام الشافعي لمصادر التشريع بأنَّها الكتاب والسنة والإجماع والقياس: "هذه هي الحيلة الكبرى التي أتاحت شيوع ذلك الوهم الكبير بأنَّ الشريعة ذات أصلٍ إلهي"(٧).

إنَّ هولاء الليبرالين أمثال أركون يُريدون هدم الدين في نفوس المسلمين، بتأويلاتٍ وتلفيقاتٍ مغلوطةٍ، والمصيبة أنَّهم ينسبون أنفسهم للعلم والعلماء، والعلم منهم بريءٌ، ويضيقون ذرعاً إذا وجدوا من يتصدَّى لهم، ويكشف عوارهم، ويقطع عليهم الطريق أمام إفساد العقائد والشرائع، وإنَّ أصغر مسلمٍ يعرف تهافت أقوالهم، وتصادمها مع أصول الشريعة، ولا يقبلها إلا من كان في قلبه مرضٌ، كما قال

---

(١) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، لنصر أبو زيد، ص٢٠.

(٢) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص١٤٥.

(٣) انظر: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، لأركون، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٤) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، لأركون، ص٧٦.

(٥) المرجع السابق، ص٣٠.

(٦) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص٧٤.

(٧) المرجع السابق، ص٢٩٧.

ﷻ:﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[آل عمران:٧].

٩- تُركي الحَمَد[١]: يُعدُّ تركي الحمد من الليبراليين السُّعوديين الذين لهم مقالاتٌ وكتاباتٌ في تثبيت الفكرة الليبرالية، وفتح الباب على مصراعيه في التعبير عن حرية الرأي والفكر، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- يستخدم في كتاباته أسلوباً ساخراً غير مؤدبٍ، حتى مع الله ﷻ، فيقول: "مسكينٌ أنت يا الله، دائماً نُحمِّلك ما نقوم به من أخطاء"[٢]، ويقول أيضاً: "الانتحار نصرٌ على الله، ففي الانتحار تفوت الفرصة على الله أن يختار لك مصيرك، فأنت تدخل النار بإرادتك حين تنتحر، وتعلم أنَّ مصيرك هو النار، ليس الله هو من أدخلك النار؛ بل أنت من فعل"[٣].

ويقول بكلِّ جرأةٍ: "أكلُّ هذا جزءٌ من قدرٍ إلهيٍّ، أم هو عبثٌ شيطانيٌّ، أم هي حكمةٌ لا ندريها، مختبئةٌ في عباءة قدرٍ عابث، أو عبثٍ قادر، لا أحد يدري، فالله والشيطان واحدٌ هنا، وكلاهما وجهان لعملةٍ واحدة"[٤].

٢- استهزائه بكل الثوابت الإسلامية، فيقول مُستهيناً بالثوابت الدينية: "من الذي ثبَّت الثوابت، أو جعلها من الثوابت، وهي في حقيقتها غير ذلك، لست من المؤمنين بالثوابت في هذه الدنيا"[٥].

ويقول مستهزئاً بملك الموت: "يا لهذا الموت الجبان الغادر، إنَّه يأخذ أجمل ما في الحياة ويضحك، ويهجرنا حين نريده، ويحلُّ ضيفاً ثقيلاً حين لا نريده"[٦].

---

(١) تركي الحمد البريدي الوهيبي التميمي، كاتب وروائي سعودي، وأحد رموز التيار الليبرالي بالسعودية، ولد عام ١٩٥٢م بالأردن، انتقلت أسرته إلى الدمام وعاشت بها، وكانت له في شبابه اهتمامات وقراءات في الأفكار القومية والاشتراكية، أدَّت به إلى الانضمام لحزب البعث العربي الاشتراكي، فسجن في السعودية، ثم سافر إلى أمريكا وحصل هناك على الماجستير عام ١٩٧٩م، وعلى الدكتوراه عام ١٩٨٥م، ثم عاد إلى السعودية وعمل أستاذاً للعلوم السياسية حتى عام ١٩٩٥م، ثم تفرغ للكتابة ومن أشهر ما كتبه: أطياف الأزقة المهجورة، وقد أثارت كتاباته كثيراً من الجدل، حتى أصدر عددٌ من مفتي السعودية ثلاث فتاوى بتكفير الكاتب. انظر: مقال تركي الحمد وأطياف الأزقة المهجورة، لأبي عبد العزيز الظفيري، من موقع www.saaid.net، بتاريخ ٢٠١٤/١٢/٢٢.

(٢) الكراديب، لتركي الحمد، ص٦٢.

(٣) المرجع السابق، ص١٣٦.

(٤) المرجع السابق، ص٧٨-٧٩.

(٥) مقال لتركي الحمد بعنوان"لا تعارض بين الإسلام والليبرالية"، من موقع www.humanf.org ، تاريخ النشر ٥ يناير ٢٠١١م.

(٦) الكراديب، لتركي الحمد، ص٢٤٢.

ويُكمل مشوار استهزائه فيقول مستهزئاً بالقضاء والقدر: "نهرب من قضاء الإله لنقعَ في قضاء المخلوق، وكلُّها أقضيةٌ في أقضية، هل هناك عبثٌ أكثر من ذلك"[١].

ويقول مُستهزئاً بالفقهاء: "يُقال إنَّ فقيهاً ركب مركباً في البحر، وكان معه نصرانيٌّ وله غلامٌ يهوديٌّ، فلما انتصفوا بالبحر دعا النصراني بزقٍ من الخمر وأخذ يشرب، فعرض بعضاً من الخمر على الفقيه، فسأله الفقيه: وما يدريك أنها خمر؟، فقال النصراني: ابتاعها لي غلامي اليهودي هذا حالفاً أنَّها خمر، فأخذ الفقيه الكأس وشربها دفعةً واحدةً، وهو يقول: نحن جماعة المحدثين نكذِّب خبراً عن سفيان بن عُيينة عن سفيان الثوري، وتُريدنا أن نُصدِّق خبراً عن نصرانيٍّ عن يهوديٍّ، والله ما شربتُها إلَّا لضعف الإسناد"[٢].

إنَّ هذا لا عذر له باستهزائه هذا، وحاله كما قال الله ﷻ في أمثاله:﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآَيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ** ﴾[التوبة:٦٥-٦٦].

١٠- **شاكر النابلسي**[٣]: يُعدُّ شاكر النابلسي من الليبراليين الجدد في العالم الإسلامي، وله كثيرٌ من الآراء الغريبة المخالفة لثوابت الإسلام، ومن أبرز مخالفاته ما يلي:

١- يُقلِّل من شأن الإسلام، ويطعن ويُشكِّك في القرآن الكريم، ويدافع عن الجاهليين، الذين ظلمهم الإسلام وطمس حضارتهم كما يدَّعي، فيقول:" فقد كان للعرب قبل الإسلام أدبٌ منثور، وكان هذا الأدب مظهراً من مظاهر الثقافة العربية قبل الإسلام، وكان يمكن أن نتعرف على هذا الأدب بشكلٍ أكبر بكثيرٍ لو بقي العرب وثنيين، ونكتشف حقائق كثيرة عن حياة العرب الفكرية والاقتصادية والاجتماعية والدينية قبل الإسلام، نحن نجهلها الآن، ولا وسيلة لنا لمعرفتها إلا من خلال الحفريات؛ ولكنَّ ظهور الإسلام حال دون أن يَصِلنا من هذا النثر الكم الكثير، ربَّما لأنَّه كان يُعارض الإسلام، ويقول بما لا يرضى عنه الإسلام، ولذلك تم حجبه وطمسه ومحوه"[٤]؛ بل ويذهب شاكر النابلسي إلى ما هو أبعد من ذلك، فيقول:" هذا الشعر لم يظهر لنا، ولم يصلنا، وتمَّ على ما يبدو طمسه ومنعه من

---

(١) الكراديب، لتركي الحمد ، ص٧٤.

(٢) المرجع السابق، ص١٢٢.

(٣) كاتب وباحث وناقد أردني، ولد عام ١٩٤٠م، درس الآداب في مصر، ومكث فترةً ليست قصيرة في السعودية يدعم الحداثيين والعصرانيين، ويُصنَّف بين من يوصفون بالليبراليين الجدد، انتقل إلى أمريكا في السنوات الأخيرة، يعرف بمقالاته التي تهتم بقضايا الإصلاح في الوطن العربي، ويكتب في عدد من الصحف المطبوعة والإلكترونية كإيلاف، وجريدة الوطن السعودية، ولديه ما يزيد عن ٥٠ كتاباً، منها: الليبراليون الجدد، والزلزال العراقي. انظر: مقال، شاكر النابلسي وحقائق عنه، لسليمان الخراشي، من موقع www.saaid.net، بتاريخ ٢٠١٥/١/١٥م .

(٤) لو لم يظهر الإسلام ما حال العرب الآن، لشاكر النابلسي، ص١١٨.

التداول من قبل السلطة الإسلامية الجديدة، حتى يكون القرآن هو البيان الساحر الوحيد في أيدي العرب في ذلك العهد"(١).

ويعترض شاكر النابلسي على الوحي الإلهي، فيقول عن الوثنية والجاهلية الشركية:" إنَّ الوثنية لم تكن بتلك القوة التي صوَّرها لنا القرآن"(٢).

٢- يتهم الإسلام بأنَّه انتشر بحدِّ السيف، وأنَّ المسلمين ارتكبوا مجازر كثيرةً، فيقول: "من المعروف أنَّ الإسلام وضرورة نشره بالقوة المسلحة، دفع المسلمين إلى ارتكاب مجازر عنيفةٍ"(٣).

ويرى شاكر النابلسي أنَّ الدوافع الرئيسية للفتوحات الإسلامية المباركة التي نشرت الإسلام في أصقاع الدنيا كانت نهب الأموال، فيقول:" لو لم يكن الدافع لهذه الفتوحات السريعة والمتلاحقة المال، لما حمل العرب السيوف وقاتلوا"(٤).

٣- يطعن في حجاب المرأة المسلمة، ويدعو للتبرج والسفور، فيقول:" لا علاقة للإسلام بالحجاب والنقاب، وعودة المرأة العربية إلى الحجاب والنقاب عودةٌ إلى تقاليد القرن التاسع عشر وما قبل ذلك، والمرأة المنتقبة في شوارع أوربا لم تجد وسيلةً أنجع من النقاب تلفت به نظر الآخرين، نتيجةً ربَّما لقبحها أو جهلها أو تخلُّفها أو كثرة أطفالها أو فقرها، ، فمنظر المرأة المنتقبة في شوارع أوربا منظرٌ شاذ، ويخالف العقد الاجتماعي الأوربي، كمنظر المرأة العارية،... والإسلام قد فرض الحجاب قبل خمسة عشر قرناً على المرأة، وما كان صواباً قبل خمسة عشر قرناً لم يعد كذلك الآن"(٥).

١١- **العفيف الأخضر**(٦): يُعدُّ العفيف الأخضر من الليبراليين المُتقلِّبين حيث كان مقتنعاً بالفكر الشيوعي الاشتراكي في بداية أمره، وبعد سقوط الاتحاد السوفييتي في تسعينيات القرن الماضي، تبنَّى الفكر الليبرالي بكلِّ جنوحٍ وحدَّة، ومن أبرز مخالفاته ما يلي:

---

(١) لو لم يظهر الإسلام ما حال العرب الآن، لشاكر النابلسي، ص٩٦.

(٢) المرجع السابق، ص٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص١١٩-١٢١.

(٤) المال والهلال الموانع والدوافع الاقتصادية لظهور الإسلام، لشاكر النابلسي، ص١٦٢-١٦٣.

(٥) مقال بعنوان: المرأة المنقبة كالمرأة العارية، لشاكر النابلسي، من موقع www.elaph.com، بتاريخ ٢٠/١/٢٠١٥م.

(٦) مفكر تونسي، ولد عام ١٩٣٤م، وتلقى تعليمه بجامعة الزيتونة في الخمسينات، ثم درس الحقوق ليعمل بعد ذلك محامياً، وقد انقلب من أقصى اليسار والفكر الاشتراكي إلى الليبرالية، وسافر إلى باريس ثم أقام في بيروت، واختلط هناك بالعديد من المثقفين والسياسيين العرب، ثم عاد إلى فرنسا حيث يقيم هناك منذ ١٩٧٩م وحتى الآن، تتمحور كتبه وكتاباته حول نقد الفكر الأصولي، من كتبه: التنظيم الحديث، والموقف من الدين. انظر: العفيف الأخضر سيرة ذاتية من موقع www.metransparent.com، وانظر: مقال: لماذا لم يشربوا دم العفيف الأخضر حتى الآن، شاكر النابلسي، ١٧/٥/٢٠٠٥م، من موقع www.ahewar.com، بتاريخ ٢٢/١/٢٠١٥م.

١- يُعدُّ على رأس قائمة المفكِّرين الليبراليين الداعين إلى نزع سلاح المنظمات الجهادية في العالم العربي، والعودة إلى موائد المفاوضات بين الغرب والعرب، وبين الحُكَّام والشعب، وبين العرب وأعدائهم، وهو من القائلين بفكرة أنَّ المجتمعات التي تعجز عن التغيير من الداخل يمكن أن تجد نفسها مضطرةً إلى التغيير بالفرض من الخارج، وبالتالي هو كأمثاله من الليبراليين يؤيِّد الغزو الأمريكي على أفغانستان وعلى العراق، وبسط السيطرة والنفوذ الأمريكي في المنطقة(١)؛ ولذلك يزعم أنَّ الجهاد يُشكِّل خطراً جِدِّياً على استقرار العالم وحضارته، وأنَّ الإرهاب والجهاد اسمان لمسمى واحد، وأنَّهما يُشكِّلان اليوم التهديد نفسه الذي شكَّلته الفاشية الإيطالية في الثلاثينات، والذي قاد البشرية إلى الحرب العالمية، ويرى أنَّ المسلمين كي يتصالحوا مع العالم، فعليهم ترك الجهاد، والعودة إلى السياسة، وترك الشريعة، واستبدالها بالقانون الوضعي، وترك الخلافة إلى دولة القانون(٢).

٢- دعوته إلى إلغاء الشريعة الإسلامية من حياة الناس، بزعم أنَّ السبب الأول لانحطاط المسلمين هو تشبُّثهم بهذه الشريعة الدموية التي تُعامل الإنسان على حدِّ زعمه كحشرةٍ ضارَّة، وأنَّ الحدود البدنية تُطبَّق في الإسلام بوحشية(٣).

٣- ينكر أحكام الحجاب، بزعم أنَّ الآية القرآنية التي وردت عن حجاب النساء تتعلق بزوجات النبي ﷺ وحدهن، وتعني وضع ساتر بينهم وبين المؤمنين، ويرى أنَّ الحجاب بالمفهوم الدارج الآن شعارٌ سياسيٌّ، وليس فرضاً دينياً ورد على سبيل الجزم والقطع واليقين والدوام، لا في القرآن ولا في السنة؛ بل فرضته جماعات الإسلام السياسي(٤).

١٢- حسن حنفي(٥): يُعدُّ حسن حنفي من أخطر المفكرين المعاصرين في قضية تأويل النص الديني، ويُعدُّ مشروعه من أوسع المشروعات الثقافية تناولاً لقضية القراءة الجديدة للإسلام، ويُعدُّ

---

(١) انظر: مقال بعنوان: لماذا لم يشربوا دم العفيف الأخضر حتى الآن، لشاكر النابلسي، ٢٠٠٥/٥/١٧م، من موقع www.ahewar.com، بتاريخ ٢٠١٥/١/٢٢م.

(٢) انظر: كيف نصالح الإسلام مع العالم، العفيف الأخضر، ٢٣ مارس ٢٠٠٦م، من موقع www.metransparen.com، بتاريخ ٢٠١٥/١/٢٢م.

(٣) انظر: مقال بعنوان: نداء لالغاء الشريعة، للعفيف الأخضر، الأربعاء ١٩ يناير ٢٠١١م، من موقع www.ahewar.com، بتاريخ ٢٠١٥/١/٢٢م.

(٤) انظر: مقال بعنوان: إن الحق والرجوع إليه خير من الباطل والتمادي عليه، للعفيف الأخضر، ٢٠٠٣/٧/٢٢م، من موقع www.ahewar.com.

(٥) حسن حنفي حسنين أحمد، ولد بالقاهرة ١٩٣٥م، وتخرج من جامعة القاهرة عام ١٩٦٥م، ثم سافر إلى فرنسا، وحصل على شهادة الدكتوراه من السربون عام ١٩٦٦م، ثم عاد أستاذاً في جامعة القاهرة، وعمل أستاذاً زائراً في عدد من العواصم العربية والعالمية، وهو الآن أستاذ متفرغ بقسم الفلسفة بجامعة القاهرة، ولا زال يمارس نشاطه العلمي في التأليف واللقاءات العلمية. انظر: منهج حسن حنفي، لفهد السرحاني، ص٢٩- ٣٥، وظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٦٥-٦٦.

الجانب التطبيقي منه، وخصوصاً الجانب الاعتقادي أكثر ظهوراً، بخلاف غيره ممَّن ينزع إلى الجانب النظري كمشروع أركون، ويُسمِّي حنفي مشروعه بالتراث والتجديد، وحقيقة مشروعه أنَّه تغريبيٌّ بالدرجة الأولى، فالمُكوِّن الغربي والمعايير الغربية هي المحرك الأساسي والمُنطلق الفعلي في قراءته للتراث[١]، ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- يعتبر نفسه مُجدِّداً من مجددي الإسلام، وأنَّ عليه مهمةً خاصةً في بثِّ الوعي وبعث الثورة، ويعتبر نفسه فقيهاً من فقهاء المسلمين يُجدِّد لهم دينهم ويرعى لهم مصالحهم[٢]، والعجيب أنَّ كل ما يقوم به حسن حنفي من تأليفٍ وبحوثٍ ودراسات يزعم أنَّه لا يطلب فيه ثواباً أُخروياً؛ بل مجرد تأدية رسالة، فيقول: "وإذا كان القدماء يريدون ثواباً في الجنة أو إنقاذاً من النار، فإنَّنا نريد صلاح الأمة، وتحرير أراضيها، وإعادة توزيع ثرواتها بالعدل والمساواة، ولا أرجو مفازةً، ولا أبغي جزاءً، ولا أطلب ثواباً أخروياً، ولا جزاءً دنيوياً؛ بل تأدية رسالة"[٣].

لقد كان حسن حنفي في بداية أمره مُتهيِّباً من طرح أفكاره بشكلٍ مُعلن، وخصوصاً التأويلات العقدية منها، ثمَّ جاهر بفكره بكلِّ وقاحة بعد ذلك، فيقول عن نفسه:" كانت سجادة الصلاة تحت جبهتي، ثمَّ علقتها على الحائط كعمل فنيٍّ بعد ذلك، ثمَّ أعطيتها بعد ذلك لفقيرٍ لينام عليها"[٤].

٢- يثور على كل قديمٍ على حدِّ وصفه، حتى لو كان هذا القديم ممَّا هو واجبٌ من الدِّين بالضرورة، ويقوم مشروعه على أنسنة[٥] الدِّين، وإعطاء مفاهيم إنسانيةٍ له، سواءٌ على مستوى الغيبيات والوحي والنبوة أو غيرها، مع إلغاء الغيب وإحلال عالم الشهادة بديلاً عنه، وتأويل كل ما هو إلهيٌّ أو غيبيٌّ إلى إنساني، وإرجاعه إلى الشعور الداخلي للإنسان[٦].

يقول حسن حنفي: "الانتقال من الله إلى الإنسان الكامل يُعبِّر عن كلِّ مضمون الله، فكلُّ صفات الله من العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة، كلُّها هي صفات الإنسان الكامل،

---

(١) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص ١٨٨-١٨٩.

(٢) انظر: من العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(١/٤٠-٤١).

(٣) المرجع السابق(١/٤٣).

(٤) هموم الفكر والوطن، لحسن حنفي(٢/٦٢٤).

(٥) أنسنة مأخوذة من الإنسية، أوضح سماتها السعي إلى الإعلاء من سلطان العقل، ومقاومة السلطة والجمود، وهي كلُّ دعوةٍ تجعل الإنسان مقياس كلِّ شيء، وروافدها ثلاثة: المذهب العلمي، ومذهب التطور، والإلحاد، والمقصود بأنسنة الدين هو نقل الآيات القرآنية من وضعها الإلهي إلى وضعها البشري تكريماً للإنسان كما زعموا. انظر: روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، ص١٩٧. وانظر: موسوعة الفلسفة والفلاسفة، لعبد المنعم الحفني(١/١٩٩).

(٦) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص١٩٥-١٩٦.

وكلُّ أسماء الله الحسنى تعني آمال الإنسان وغاياته التي يصبو إليها، فالإنسان الكامل أكثر تعبيراً عن المضمون من لفظ الله"(١).

وهذا المصطلح المُسمَّى بالأنسنة أو الإنسانية خطيرٌ على الثقافة الإسلامية، وربَّما يغترُّ البعض بمثل هذه المصطلحات؛ فيظنُّ أنَّ الأنسنة والإنسانية هي تكريم الإنسان، أو العلوم الخاصة به، وهذا خطأٌ كبير.

يقول محمد قطب- رحمه الله-:" يحسُن بنا أن نشير إلى أنَّ بعض جامعاتنا تُسمِّي هذه الدراسات بالعلوم الإنسانية، ظناً منهم أنَّ معنى هذه الكلمة هو العلوم المتعلقة بالإنسان، وهذا غير صحيحٍ بالنسبة للمصطلح كما يستخدمه الغربيون، فهم يقصدون به العلوم التي تُؤخذ المعرفة بها من الإنسان لا من الوحي الرباني، أي أنَّها تعني عندهم اتخاذ الإنسان مصدراً للمعرفة بدلاً من الله؛ فلنتتبه ونحن ننقل المصطلحات"(٢)، ثمَّ إنَّه "في كلِّ أوربا إذا قيل في وصف مفكرٍ إنَّه إنسيٌّ أو إنساني، فمعنى ذلك أنَّه مُلحدٌ، لا يرى وجود الله، وأنَّه يحيل كلَّ شيءٍ طيبٍ إلى الإنسان، وليس إلى الله"(٣).

إنَّ الحل الذي يراه حسن حنفي للأزمة الفكرية التي تحياها الأمة، هو أن تُدير الأمة الإسلامية ظهرها لله، كما فعلت الحضارة الغربية، وتتمركز حول الإنسان الإله الجديد كما يزعم، فيقول: "وما زلنا نحن في واقعنا المعاصر يتمركز فكرنا على الله، ولم نُطوِّر المُكتسبات الإنسانية تناغماً مع الحضارة الغربية؛ لأنَّها لم تتطور ولم تظهر فيها الدراسات المستقبلية إلا بعد أن أدارت ظهرها لله وتمركزت حول الإنسان"(٤).

ويقول في تأصيل النزعة الإنسية في التعامل مع نصوص الوحي: "إذا كانت بعض المقدمات الإيمانية تبدأ فقط باسم الله الرحمن الرحيم، فإنَّنا نبدأ باسم الأمة، وإذا كان القدماء قد بدأوا مقدماتهم التقليدية باسم الله، فإنَّنا نبدأ باسم الأرض المحتلة، وكما يستعين القدماء بالله، فإنَّنا نستعين بقدرة الإنسان على الفهم والفعل"(٥).

ويقول حسن حنفي في منهجية التجديد التي يتَّبعها: "قضية التراث والتجديد هي قضية إعادة كلِّ الاحتمالات في المسائل المطروحة، وإعادة الاختيار طبقاً لحاجات العصر، وما رفضناه قديماً قد نقبله حديثاً، وما قبلناه قديماً قد نرفضه حديثاً، فكلُّ الاحتمالات أمامنا متساويةٌ، ولا يوجد مقياس صوابٍ وخطأٍ نظريٍّ للحُكم عليها؛ بل لا يوجد إلا مقياسٌ عملي، فالاختيار المُنتِج الفعَّال المُجيب

(١) التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، لحسن حنفي، ص١٢٤.

(٢) حول التأصيل الإسلامي للعلوم الإجتماعية، لمحمد قطب، ص٥٠.

(٣) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، لعبد المنعم الحفني، ص١٢٤.

(٤) التراث والتجديد، لحسن حنفي، ص١٦٠، وانظر: دراسات فلسفية، لحسن حنفي، ص٥٦٤.

(٥) من العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(٣٠/١).

لمطالب العصر هو الاختيار المطلوب"[١]؛ ولذلك يرى حسن حنفي أنَّه: "لا يوجد نصٌّ إلَّا ويُمكن تأويله بوضع مضمونٍ معاصرٍ للنَّص؛ لأنَّ النص قالبٌ دون مضمون"[٢].

ويذهب حسن حنفي إلى أبعد من ذلك، فيقول: "نشأت العلمانية استرداداً للإنسان ولحريَّته في السلوك والتعبير، وحريته في الفهم والإدراك، ورفضاً لكلِّ أشكال الوصاية عليه، ولأيِّ سلطةٍ فوقيةٍ إلا سلطة العقل والضمير، فالعلمانية إذن هي أساس الوحي، فالوحي علمانيٌّ في جوهره، والدينية طارئةٌ عليه من صنع التاريخ"[٣].

٣- السخرية والاستهزاء بالله ورسوله والمؤمنين في حين أنَّه يقوم بتمجيد الملاحدة والمشركين، فيقول: "ربَّما كان أرسطو نبياً لم يقصُّه القرآن علينا، ومن ثمَّ لا غرابة في اتِّفاق ما يقوله مع رسالات الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن؛ ولهذا نجد كثيراً ممَّا قاله مُشابهاً لكثيرٍ ممَّا ذُكر في القرآن والحديث"[٤].

إنَّ كلام حسن حنفي يدلُّ على عظيم جهله بما قصَّه القرآن، وبما جاء به الأنبياء، حيث إنَّ أرسطو كان من المشركين الذين يعبدون الأصنام، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "والأنبياء لم يُسمِّ الله أحدٌ منهم جوهراً؛ وإنَّما سمَّاه بذلك أرسطو وأمثاله، وهؤلاء مشركين، يعبدون الأصنام، ولم يكونوا يعرفون الله المعرفة الصحيحة، ولا يقولون: إنَّه خالق السماوات والأرض، ولا إنَّه بكلِّ شيءٍ عليم، ولا على كل شيءٍ قدير؛ وإنَّما كانوا يعبدون الكواكب العلوية، والأصنام السفلية، ويعبدون الشياطين، ويؤمنون بالجبت والطاغوت"[٥].

إنَّ حسن حنفي يعترف بتحايله في كتاباته، وتلبيسه على العوام؛ ليُفلت من غضبهم، فهو يتحدث على لسان الفلاسفة مع إيمانه بما يقولون، فإذا ما غضب عليه الناس، واتَّهموه بالإلحاد، قال: "هذا ليس كلامي؛ بل كلام الآخرين، وناقل الكفر ليس بكافر"[٦].

ويستهزئ حسن حنفي بالصحابة والسلف ومن سار على دربهم في المنهج الذي سلكوه؛ لأنهم يرون الاكتفاء بالتراث القديم كما يزعم، وهذا في نظره لا يعدو كونه هروباً إلى الماضي، وفراراً من معارك العصر، ويتهم أصحاب هذه الرؤية بالنفاق والعجز، وقد حكم على هذا الحل بالفشل[٧]، فهو يعتقد أنَّ كلَّ الآراء ووجهات النظر صحيحةٌ، فيقول: "فالفلسفة تعدُّد وجهات نظر، وصراع آراء، ولا

(١) التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، لحسن حنفي، ص٢١-٢٢.

(٢) من العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(١/٣٩٧-٣٩٨).

(٣) التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، لحسن حنفي ص٦٩.

(٤) دراسات إسلامية، لحسن حنفي، ص٢٢٣.

(٥) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية(٥/٢٧).

(٦) هموم الفكر والوطن، لحسن حنفي(٢/٦٢٨)، وهذه كلمة حق أراد بها باطل، فصحيحٌ أن ناقل الكفر ليس بكافر، بشرط ألا يكون راضياً به، أمَّا إذا كان راضياً به ونقله لنشره وإذاعته بين الناس، فهو كالفاعل له.

(٧) انظر: التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، لحسن حنفي، ص٢٧-٢٩.

يوجد رأيٌ صحيحٌ والآخر باطلٌ، كما يروج عادةً في حديث الفرقة الناجية، كلُّ رأيٍ يعبِّر عن جانبٍ من الحقيقة، وكلُّ عصرٍ يُعبِّر عن روحه، ومن ثمَّ تقوم الفلسفة أساساً على التعددية، وفي الوقت الذي تتحول فيه الفلسفة إلى رأي واحدٍ ينتهي الفكر، وإنَّ شرط تخلص الفكر الوطني من التبعية هو التخلِّي عن مناهج النقل"(١).

ويقول أيضاً مستهزءاً: "وما لم تتغير جذور التخلُّف النفسية، كالخرافة والأسطورة والانفعال والتأليه وعبادة الأشخاص والسلبية والخنوع ، فإنَّ الواقع لن يتغير"(٢).

ويتجاوز حنفي ذلك كلِّه فيجعل الرجوع إلى قال الله، وقال الرسول خسارةً، حيث يقول: "وقد خسرنا نحن الآن بالرجوع إلى النَّص الخام في اعتمادنا على قال الله، وقال الرسول، وعجزنا عن تحويله إلى معنى، وعدم قدرتنا على أن نعيش في عالم المعاني، أصبحنا أسرى للنصوص بعد أن كانت النصوص أسرى لعقول القدماء"(٣).

ويخطئ في نظر حنفي من يستدل بقال الله، وقال الرسول على قضايا ومسائل الاعتقاد، حيث يقول:" ومن ثمَّ يخطئ كلُّ من يستدلُّ على العقيدة الإسلامية بقال الله وقال الرسول، كما نفعل في عصرنا"(٤)، والنص عند حنفي لا يُثبت شيئاً، وقال الله وقال الرسول عنده لا تُعدُّ حجةً، حيث يقول:" فالنقل لا يتحدث بنفسه، ولا يعرض نفسه إلا من خلال الذهن الإنساني، النقل وحده لا يُثبت شيئاً، وقال الله وقال الرسول لا يُعدُّ حجةً"(٥)، وما نجح الفلاسفة في نظر حنفي إلَّا لمَّا استغنوا عن المنهج النَّصي، وتخلَّوا عن اللغة المغلقة الخاضعة للرمز الديني من إلهٍ ورسولٍ وثوابٍ وحسابٍ وعقابٍ وملاكٍ وشيطانٍ، واستعملوا لغةً أخرى أكثر عقلانية وانفتاحاً وإنسانيةً... (٦).

٤- التناقض المتكرر في كتاباته؛ بل في المؤلَّف الواحد، وربَّما لا يفصل بين ذلك إلا صفحات قليلةٌ، فهو يجمع بين الشيء ونقيضه، ويُقرِّر نتيجةً ثمَّ ينفيها بعد ذلك، وقد يرجع سبب ذلك إلى الإزدواجية التي يعيشها حسن حنفي بين ما يُؤمن به، وما يُمكنه التصريح به، وهذه الإزدواجية وعدم الحيادية هي

---

(١) الدين والثورة في مصر، لحسن حنفي(١/٢٩٣-٢٩٤).

(٢) التراث والتجديد، لحسن حنفي، ص٥٢، ويقصد بذلك كله الإيمان بالغيب واتباع الصحابة والسلف في فهمهم للنصوص.

(٣) المرجع السابق، ص١٥٦.

(٤) دراسات إسلامية، لحسن حنفي، ص١٣.

(٥) المرجع السابق، ص٦٥.

(٦) انظر: التراث والتجديد، لحسن حنفي، ص١٥٦-١٥٧.

الطابع العام لكتاباته التأويلية، وقد وصفه الناقد جورج طرابيشي[1] بقوله:" إنَّ الورشة الضخمة التي يُباشر فيها حسن حنفي أشغال مشروع تحويل العقيدة إلى ثورة، تكشف في الواقع عن أنَّها ورشة هدمٍ وإزالةٍ لا ورشة ترميمٍ وإعادة بناء"[2].

إنَّ من الغريب في شخصية حسن حنفي أنَّه يرى في نفسه وكأنَّه المخلص لأمة الإسلام، وأنَّه المُجدِّد لهذا الزمان، مع علمه في نفس الوقت بتناقضاته واضطراباته، فإنَّه لمَّا بلغه أنَّ جورج طرابيشي يعزم على الكتابة عن تناقضاته وازدواجيته في أطروحةٍ علميةٍ، طلب منه قائلاً: "أيها الأخ جورج لي عندك طلبٌ، أترى هذا الذي يُكلمك؟، إنَّه ليس حسن؛ بل حسنان، فهناك حسن حنفي الفيلسوف، وهناك حسن حنفي النبي!، وما دمتَ قد عقدت العزم على الكتابة عن حسن حنفي، فرجائي عندك أن تدع حسن حنفي النبي جانباً، وأن تكتب عن حسن حنفي الفيلسوف، فقال له جورج: كما صارحتني أصارحك، فأنا لا أستطيع تلبية هذا الرجاء، فمعقد أطروحتي كلِّها على هذه الازدواجية بين الاثنين، وبدون هذه الازدواجية لن يعود لأطروحتي معنى"[3]، ولذلك فإن منهج حسن حنفي يقوم على "إعادة النظر في كلِّ شيءٍ، ويسعى إلى قلب كلِّ المفهومات، يثور وخاصةً في كتابه من العقيدة إلى الثورة، من أجل إعادة البناء والتأسيس، وينسف كلَّ المُقدِّمات والأصول، ويُزعزع أكثر البديهيات القارَّة في العقل العربي الإسلامي، والغريب أن يفعل كلَّ هذا لا بوصفه مُلحداً، أو مرتداً أو مُحارباً للدِّين؛ بل يُقدِّم نفسه بوصفه فقيهاً من فقهاء المسلمين، يُجدِّد لهم دينهم"[4].

٥- تجاوز كلَّ أقوال الفرق الضالة، بمسافاتٍ بعيدة، وأتى بما لم يأتِ به أحدٌ من قبله، فهو لا يؤمن بالغيب، ولا بوجود إلهٍ، ولا يؤمن بالملائكة، ولا بالكتب، ولا بالرسل، ولا باليوم الآخر، ولا بالقدر، وكتاباته طافحةٌ ومليئةٌ بالعبارات الاستهزائية والكفرية، ما يتمنَّى معه المرء أن لو خرَّ من السماء ولا يقرأ تلك العبارات القادحة في الله ﷻ أو في رسوله ﷺ أو في دينه[5].

---

(١) ناقد ومترجم سوري، ولد في حلب عام ١٩٣٩م، وتخرج في جامعة دمشق حاملاً الإجازة العالية في اللغة العربية، وعمل مدرساً وصحفياً وموظفاً ومديراً في إذاعة دمشق، ثم رئيساً لتحرير مجلة دراسات عربية، ثم سافر إلى فرنسا ليقيم بها، واشتهر بنقده للمشاريع الفكرية. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص١٩٩.

(٢) ازدواجية العقل دراسة تحليلية نفسية لكتابات حسن حنفي، لجورج طرابيشي، ص٢٣٩.

(٣) المرجع السابق، ص ٧.

(٤) نقد النص، لعلي حرب، ص١٧.

(٥) انظر: منهج حسن حنفي، لفهد السرحاني، ص٥٨٣-٥٨٤.

١٣- **طيب تيزيني**[(١)]: يُعدُّ طيب تيزيني صاحب مشروعٍ فكريٍّ في تأويل النصوص الدينية، خلاصته أنَّنا أمام حضارةٍ تاريخيةٍ صرفةٍ لا علاقة لها بالوحي، وهذه التاريخية في نظره هي المُخلِّص للواقع العربي المعاصر من الماضي والسلفية وغيرهما من النَّزعات التي تدفع الوجدان العربي إلى الدين[(٢)]، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١-يرى أنَّ النص المحكم الذي لا يحتمل إلا دلالةً واحدةً لا وجود له[(٣)]، وهو بهذا يريد هدم الدين، ويخالف ما أنزله الله صريحاً في كتابه من أنَّ معظم آيات القرآن محكمةٌ لا تحتمل إلا معنىً واحداً، عندما قال ﷻ:﴿ **هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ**﴾[آل عمران:٧].

٢- يُبالغ أكثر من غيره من المفكرين الليبراليين بالمناداة بأحقية كلِّ مسلمٍ في فهم النَّص كيفما يريد، فيرى تيزيني أنَّ من حقِّ غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي أن يُفسَّروا القرآن بما يوافق ثقافتهم ومعتقداتهم[(٤)].

إنَّه الهوى الذي ملأ قلوب هؤلاء الليبراليين؛ فأرادوا هدم الإسلام، ولكن أنَّى لهم ذلك، والله ﷻ يقول:﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ**﴾[الصَّف:٨].

---

(١) طيب تيزيني باحث ومفكر سوري، ولد في حمص عام ١٩٣٨م، وواصل دراسته العليا في ألمانيا، وحصل منها على الدكتوراه في الفلسفة عام ١٩٦٨م، ثم عاد إلى سوريا أستاذاً بجامعة دمشق، وله العديد من المؤلفات أبرزها: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي منذ بدايته حتى المرحلة المعاصرة. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٦٥.

(٢) انظر: منهج حسن حنفي، لفهد السرحاني، ص١٤.

(٣) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، لطيب تيزيني، ص٢٦١.

(٤) انظر: المرجع السابق، ص٢٢٦.

١٤- **نصر حامد أبو زيد**[1]: يُعدُّ نصر أبو زيد صاحب مشروعٍ فكريٍ في تأويل النصوص، وقد كرَّس جهوده العلمية في التأصيل لنظرية التأويل، وإعادة قراءة النصوص الدينية، إلى جانب الممارسة التطبيقية لذلك، وإلى جانب نقد المخالفين له أيضاً من هذه الناحية، وسمَّى مشروعه بنقد الخطاب الديني، ويخلُص فيه إلى وجوب إخضاع القرآن الكريم للنقد كغيره من النصوص، وأنَّ القرآن الكريم منتجٌ ثقافيٌ من صنع المجتمع[2]، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- اتَّصف مشروعه بالممارسة التأويلية غير المنضبطة والتنظير لها بالجرأة الزائدة، التي لم تكن معهودةً في الأوساط الإسلامية، ممَّا أدى به إلى الوصول إلى أروقة المحاكم، والحُكم عليه بالردَّة؛ بسبب تأويلاته للمعلوم من الدين بالضرورة، فكانت كتاباته مليئة بالحديَّة والسجالية، ولا تخلو من اللمزات الحادَّة للتيارات الإسلامية في ذلك الوقت[3].

٢- يقوم مشروعه على تأويل النصوص الدينية ليس على مستوى التنظير فحسب؛ بل على مستوى التطبيق أيضاً، ويرمي مشروعه إلى تقديم رؤيةٍ وتأويلٍ جديدين للإسلام وللنصوص الدينية، ويرى أنَّ هذا هو الجوهر الحقيقي للعلمانية التي شُوِّهت صورتها، فيقول: "ليست العلمانية في جوهرها سوى التأويل الحقيقي والفهم العلمي للدِّين، وليست ما يُروِّج له المبطلون من أنَّها الإلحاد الذي يفصل الدِّين عن المجتمع والحياة"[4].

٣- يرى أنَّه ليس للنصوص الشرعية معنىً ثابتاً، فما يُفهم عند أهل زمنٍ على أنَّه مطلوبٌ، يُصبح عند غيرهم غير مطلوب، نتيجة تغير الثقافات بين الأزمان[5]، ويقول أيضاً:" إنَّ النَّص القرآني وإن كان نصَّاً مُقدَّساً، إلا أنَّه لا يخرج عن كونه نصاً؛ فلذلك يجب أن يخضع لقواعد النقد الأدبي كغيره من النصوص الأدبية"[6].

---

(١) نصر حامد أبو زيد، ولد في طنطا بمصر عام ١٩٤٣م، نال دبلوم اللاسلكي عام ١٩٦٠م، وعمل فنياً حتى عام ١٩٧٢م، ثم درس في كلية الآداب قسم اللغة العربية وتخرج منها، وعين معيداً في جامعة القاهرة، ونال شهادة الماجستير ثم الدكتوراه عام ١٩٧٩م، وله العديد من الأبحاث والكتابات، وقد حكم عليه بالردة بسبب شطحاته في عام ١٩٩٥م، مما اضطره للخروج من مصر والعمل في جامعة ليدن، ثم استقر به المقام بعد ذلك في بيروت إلى أن عاد للقاهرة قبل وفاته بأسبوعين، وتوفي في ٢٠١٠/٧/٥م، ومن كتبه: إشكاليات القراءة وآليات التأويل، ومفهوم النص دراسة في علوم القرآن. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٦٦.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٢٠٠، ومنهج حسن حنفي، لفهد السرحاني، ص١٦.

(٣) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٢٠٣.

(٤) نقد الخطاب الديني، لنصر أبو زيد، ص٩.

(٥) انظر: النص والسلطة والحقيقة إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، لنصر حامد أبو زيد، ص١٣٩.

(٦) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، لنصر حامد أبو زيد، ص٢٤.

إنَّ هذه المنهجية التي اتَّبعها نصر أبو زيد انتهت به إلى النتيجة التي صرَّح بها في قوله: "إنَّ النَّص في حقيقته وجوهره منتجٌ ثقافي، والمقصود بذلك أنَّه تشكَّل في الواقع والثقافة خلال فترةٍ تزيد على العشرين عاماً"[١]؛ بل لقد صرح أبو زيد بأنَّ القرآن بشريٌّ، وليس من كلام الله ﷻ [٢].

إنَّ هذا الفهم الجديد الذي تُنتجه هذه القراءة هو فهمٌ قد ينتهي من حيث المبدأ إلى مخالفة كلِّ ما هو سائدٌ من فهم، سواءٌ تعلَّق الأمر بالمرتكزات العقدية، أو بالشرائع والأخلاق[٣]، ومن ذلك إنكار نصر أبو زيد لأيِّ وجودٍ للنص سابقٍ على الواقع[٤]، وزعمه أنَّ الغيبيات عموماً كالعرش والكرسي والملائكة والجن والشياطين والصراط والسِّجلات وغير ذلك، ليست إلا تصوراتٍ أسطورية[٥].

١٥- محمد شحرور[٦]: يُعدُّ محمد شحرور من أصحاب المشاريع الفكرية في إعادة فهم وتأويل النُّصوص الدينية؛ ولكنَّ الإنتاج العلمي له أقل من إنتاج غيره من المفكرين كأركون ونصر أبو زيد، إلا أنَّه لقي صدىً واسعاً في الأوساط العلمية والشعبية، وأثار جدلاً ونقاشاً لا يقلُّ عمَّا أثارته القراءات السابقة[٧]، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- ينطلق مشروعه من مُسلَّمةٍ أساسيةٍ عنده، وهي عدم وجود الترادف في اللغة، ويرى أنَّ المسلمين أخذوا مفرداتٍ متعددةٍ على أنَّها تدلُّ على معنىً واحد، وهي في الحقيقة تدلُّ على مسمياتٍ مختلفة، ويعتبر المعايير الغربية هي الأساس في هذا المنهج[٨]، ويُصرُّ على أنَّ الترادف غير موجودٍ في القرآن، وإن كان موجوداً في الشعر[٩].

وبناءً على هذا التأصيل الذي يُؤصِّله شحرور في المفارقة بين المصطلحات بفروقٍ من عنده لم يقل بها أحدٌ من قبله، يبدأ المسلسل التأويلي للنصوص، فعلى سبيل المثال، يطرح شحرور سؤالاً،

(١) مفهوم النص، لنصر حامد أبو زيد، ، ص٢٤.

(٢) نقد الخطاب الديني، لنصر أبو زيد، ص١٣٩.

(٣) انظر: النص والسلطة والحقيقة، لنصر حامد أبو زيد، ص١٣٤.

(٤) انظر: مفهوم النص، لنصر أبو زيد، ص٢٤، ص٤٢، ص١٠٢، ص١١٧، ص١٣١.

(٥) النص والسلطة والحقيقة، لنصر أبو زيد، ص١٣٥.

(٦) محمد ديب شحرور، ولد في دمشق عام ١٩٣٨م، ابتعث في عام ١٩٥٨م إلى الاتحاد السوفيتي لدراسة الهندسة المدنية، وحصل على دبلوم الهندسة المدنية عام ١٩٦٤م، وعين معيداً في كلية الهندسة بجامعة دمشق عام ١٩٦٥م، ثم أُوفد في عام ١٩٦٨م إلى جامعة دبلن بايرلندا وحصل على شهادة الدكتوراه في الهندسة المدنية، ثم عين مدرساً في كلية الهندسة بجامعة دمشق، ثم أستاذاً مساعداً، وما زال إلى الآن يدرس في جامعة دمشق، من كتبه: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، ونحو أصول جديدة للفقه الإسلامي. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٦٥.

(٧) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٢٠٨- ٢٠٩.

(٨) انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، لمحمد شحرور، ص٤٤.

(٩) انظر: إشكالية القراءة المعاصرة للنص القرآني إشكالية المنهج وأدواته، حوار مع محمد شحرور، مجلة الحياة الطيبة، ص٢٩٧، العدد الثالث عشر، خريف ٢٠٠٣م.

فيقول: هل آيات الإرث من القرآن؟، ثم يجيب: لا، هي ليست من القرآن؛ ولكنَّها من أمِّ الكتاب، وآيات أمِّ الكتاب عبارةٌ عن تشريعٍ يُمكن تحويره وتغييره كما يزعم[1].

ويقول شحرور عن إعادة قراءة النَّص، والخروج على الثوابت: "لا ضرورة للتقيُّد بالنصوص الشرعية التي أُوحيت إلى محمد رسول الله في كلِّ ما يتعلق بالمتاع والشهوات، ففي كلِّ مرةٍ نرى في هذه النصوص تشريعاً لا يتناسب مع الواقع، ويُعرقل مسيرة النمو والتقدم والرفاهية، فما علينا إلا أن نميل عنه"[2].

وبناءً على ما سبق فقد فهم شحرور من قوله ﷻ :﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾[النور:٣١]، أنَّ الجيب ما كان مكوناً من طبقتين، وعليه فحجاب المرأة الشرعي بات مقصوراً عنده على الفرج والثديين والإبطين فقط، وأما الفم والأنف والعينان فهي من وجهة نظره جيوب ظاهرة لا يجب سترها [3]، والتي ترتدي لباساً إلى أنصاف الفخذين، هي إمرأة محجبةٌ في نظره.

ويُفسِّر شحرور كذلك قوله ﷻ:﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[المائدة:٣٨]، أي: كفوا أيديهما عن السرقة بالسجن مثلاً[4]، ويرى شحرور أنَّ الخمر ليست محرمةً؛ ولكن مأمورٌ باجتنابها فقط[5].

٢- يكفي عنده أن يتحقق في الإيمان المعاصر ركنان فقط، هما: الإيمان بالله واليوم الآخر[6]، والقصد من ذلك هو إدخال اليهود والنصارى في مفهوم الإيمان، واعتبارهم ناجين يوم القيامة، وكذلك الشرك عند شحرور لم يَعُد هو التوجُّه بالعبادة إلى غير الله ﷻ، وإنَّما أصبح يعني الثبات في هذا الكون المُتحرِّك، وعدم التطور بما يتناسب مع الشروط الموضوعية المتطورة دائماً، فالتخلُّف شركٌ والتقدُّم توحيد[7].

٣- افتتانه بالغرب وعلومهم، والانبهار الشديد بالحضارة الغربية، وتفسير القرآن وفقاً لنظرياتها السقيمة العقيمة، فيقول شحرور:" تُعتبر نظرية أصل الأنواع للعالم الكبير دارون نموذجاً ممتازاً للتأويل، أي تأويل آيات خلق البشر"[8].

---

(١) انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، لشحرور، ص٣٧-٣٨.
(٢) المرجع السابق، ص٤٤٥.
(٣) انظر: المرجع السابق، ص٦٠٤.
(٤) نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، لشحرور، ص٩٩-١٠٣.
(٥) انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، لشحرور ص٦٠٦.
(٦) نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، لشحرور ص٣١.
(٧) انظر: الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، لشحرور ص ٤٩٦.
(٨) المرجع السابق، ص١٩٥.

والنتيجة النهائية للمشروع التأويلي عند شحرور هو التأويل المستمر للنصوص الدينية حسب ما تمليه الخلفيات المعرفية المتوفرة، حتى لو أدى ذلك إلى تغيير الأحكام والتشريعات؛ بل إنَّ شحرور يدعو إلى إعادة النظر تأويلاته تطبيقاً لهذه المنهجية، فيقول: "دعوتُ إلى إعادة النظر في كلِّ ما كتبته بعد خمسين سنة، لأنَّني أقف على أرضية القرن العشرين، ومن يقف على أرضية القرن الواحد والعشرين لا بدَّ أن يفهم القرآن بشكلٍ مُختلف، وأنا أقرُّ بأنَّ هذا الفهم نسبيٌّ منسوبٌ إلى القرن العشرين، وأعتقد أنَّ الآتين سيكونون في غاية التخلُّف والعجز إذا اعتمدوا قراءة شحرور، ولم ينتجوا قراءاتٍ جديدةً تخصُّهم"[١].

إنَّ ما يريد أن يصل له شحرور بهذه الدعوى، ليس نقد تأويلاته؛ بل إنَّما يُريد أن يُرسِّخ أن التأويل متجدد مع مرور العصر، وبالتالي فإنَّ فهم السلف لا يُلزمنا في هذه الأيام.

١٦- **محمد الجابري**[٢]: يُعدُّ الجابري صاحب مشروعٍ فكريٍّ في تأويل النَّص وإعادة قراءته، بدأه بكتابه "نحن والتراث"، ثمَّ أعقبه بكتاب "نقد العقل العربي"، ومشروعه ينطلق من منهجيةٍ ماديةٍ، معتمدةٍ على أفكار المدارس الفكرية الفرنسية الحديثة في ميدان العلوم الإنسانية[٣]، ومن انحرافات الجابري الناتجة عن منهجيته في إعادة قراءة النص ما يلي:

١- يرى أنَّ فريضة الزكاة التي شرعها الله ﷻ لا تؤدِّي الغرض؛ لأنَّها تراعي معهود العرب في حياتهم التي كانوا عليها، فهي تمسُّ الثروات الصغيرة والمتوسطة أكثر ممَّا تمسُّ الثروات الضخمة"[٤]، ويرى أنَّ نظام الإرث الذي يُميِّز بين الرجل والمرأة لا يتلاءم مع هذا العصر، فيجب أن يُلغى؛ لأنَّ إعطاء الذكر مثل حظِّ الأُنثيين بزعمه كان استجابةً لمتطلبات المجتمع في ذلك الوقت[٥].

٢- يطالب بوضع قواعد جديدةٍ لأصول الفقه، فيقول:" إنَّما نريد أن يتجه تفكير المجتهدين الراغبين في التجديد حقاً، والشاعرين بضرورته فعلاً إلى القواعد الأصولية نفسها، إلى إعادة بنائها بهدف الخروج بمنهجيةٍ جديدةٍ تُواكب التطوُّر الحاصل"[٦]، والهدف من هذه الدعوة هو التفلُّت من القواعد والضوابط التي وضعها العلماء للاستنباط؛ ليتمكنوا من العبث بالنصوص الشرعية كيفما شاؤوا.

---

(١) انظر: إشكالية القراءة المعاصرة للنص القرآني إشكالية المنهج وأدواته، لشحرور، ص٢٩٢-٢٩٣.

(٢) محمد عابد الجابري، كاتب ومفكر مغربي، ولد عام ١٩٣٦م، حصل على دبلوم الدراسات العليا في الفلسفة عام ١٩٦٧م، وعلى الدكتوراه من كلية الآداب بالرباط عام ١٩٧٠م، له العديد من الأبحاث والدراسات أبرزها نقد العقل العربي، وتوفي في ٣ مايو ٢٠١٠م. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٦٤.

(٣) انظر: منهج حسن حنفي، لفهد السرحاني، ص١٥.

(٤) وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، للجابري، ص١٥٠-١٥١.

(٥) انظر: التراث والحداثة دراسات ومناقشات، للجابري، ص٥٤-٥٥.

(٦) وجهة نظر، للجابري، ص٦٣.

١٧- **عبد المجيد الشرفي**[1]: يُعدُّ عبد المجيد الشرفي صاحب مشروعٍ فكريٍ في التعامل مع النصوص الدينية، وإعادة فهمها وتأويلها، ومشروعه هو المشروع التحديثي للإسلام، ويكمن مشروعه في النظرة النفعية للدِّين، مُحاولاً جعل الدين وسيلةً ليس له غاية، وهو يسير في هذه النظرة للدِّين خلف فلاسفة الغرب[2]، ومن أبرز مخالفاته ما يلي:

١- يعتقد أنَّ فهم الصحابة للدِّين كان فهماً خاطئاً، وتوالى الخطأ بالتناقل إلى اليوم، وأنَّ الصحابة قد غفلوا عن الوجه الحقِّ من الإسلام، وقد ألَّف كتاباً خصَّه لشرح هذه الفكرة، واختار له عنواناً يدلُّ على محتواه، فسمَّاه "الإسلام بين الرسالة والتاريخ"، ويقصد الشرفي بذلك أنَّ الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ، ليس هو الإسلام الذي تحقَّق في التاريخ[3]؛ بل ويُشكِّك الشُّرفي في مصداقية ثبوت المصحف على الشكل المُجمع عليه الآن[4].

٢- يرى أنَّ ما فُرض من تفاصيل العبادات والمعاملات هو أثرٌ لمقتضيات البيئة الحجازية البسيطة في عصر الرسول ﷺ دون غيرها من البيئات[5]، فالإنسان في نظره اليوم في حلٍّ من تلك الفروض بمقتضى أوضاعه الجديدة.

إنَّ كلَّ شيءٍ قابلٌ للتغيير عند هؤلاء المُفكِّرين الليبراليين، حتى العبادات المفروضة والمتواترة قابلةٌ للتغير، فطريقة العبادة التي التزمها المسلمون زمن نزول القرآن ليست مُلزمةً لمن يأتي بعدهم إذا ما تغيرت ظروف الحياة في نظر الشُّرفي؛ بل يُمكنهم أن يأتوا بعباداتٍ تُلائم ظروفهم الجديدة، فيقول: "فإذا كان النبي ﷺ يؤدِّي صلاته على نحوٍ معينٍ، فلا يعني ذلك أنَّ المسلمين مضطرون في كلِّ الأماكن والأزمنة والظروف للالتزام بذلك النَّحو"[6].

ومن طوامِّ هذا الكاتب أنَّه يرى بناءً على القول بتغير الأحكام مع تغيُّر الأزمنة أنَّ الصلاة ليست واجبةً[7]، وأنَّ الزكاة ليست واجبةً أيضاً، وإنَّما هي اختياريةٌ[8]، والصوم كذلك في نظره ليس

---

(١) عبد المجيد الشرفي كاتب ومفكر تونسي، وأستاذ الحضارة الإسلامية في الجامعة التونسية، شغل عدة مناصب أكاديمية، وأشرف على أطروحات علمية بكلية الآداب بجامعة منوبة، من كتبه: الإسلام بين الرسالة والتاريخ. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٦٦.

(٢) انظر: منهج حسن حنفي، لفهد السرحاني، ص١٦-١٧.

(٣) انظر: بدعة إعادة فهم النص، للمنجد، ص٥٠.

(٤) انظر: لبنات، لعبد المجيد الشرفي، ص١١٩-١٢٠.

(٥) انظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص٦١.

(٦) المرجع السابق، ص٦٢-٦٣.

(٧) انظر: المرجع السابق، ص٦٣.

(٨) انظر: المرجع السابق، نفس الصفحة.

فرضاً؛ وإنَّما هو للتخيير[1]، وأنظمة الأسرة كنظام القوامة والطلاق والحضانة والتعدد لا تنسجم مع تطوُّرات العصر؛ فيجب أن تُلغى أو تُعدَّل؛ لمنافاتها للعدل والمساواة بين الرجل والمرأة[2].

٣- يرى أنَّ النجاة في الآخرة لا تقتصر على المسلمين الموحِّدين؛ بل المجال مفتوحٌ لكلِّ الأديان الوضعية للدخول في سفينة النجاة، فيقول: "يعسُر على المؤمن في عالم اليوم أن يُهمل التحدِّيات التي تُمثِّلها الأديان الأخرى المخالفة لدينه الموروث، فليس من الحكمة الإلهية أن أحكم أنا المسلم على ثلاثة أرباع البشرية من معاصري غير المسلمين بالذهاب إلى الجحيم"[3].

٤- العداء للسلف وعلماء الأمة الذين وضعوا الضوابط التي تمنع من التلاعب في النُّصوص، فيقول عن الإمام الشافعي- رحمه الله-: "من غير المقبول اليوم أن نتمسَّك بمنهج الشافعي الأصولي، إذ فهم الكتاب والسنة على نحو فهم الشافعي وتأويله، لا يُؤدِّيان إلَّا إلى مأزقٍ منهجي"[4].

١٨- **محمد الشرفي**[5]: يُمثِّل محمد الشرفي استمراراً للمنهج التأويلي الذي سلكه الليبراليون من قبله، وخاصةً في موضوع النظرة التاريخية للأحكام الشرعية، وعدم اعتقاد أنَّ الإسلام بتشريعاته وأحكامه صالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان، ومن أبرز مخالفاته ما يلي:

١- يرى أنَّ أحكام الحدود إنَّما أملتها الظروف التي كان عليها المجتمع المسلم آنذاك، فيقول: " في غياب هياكل الإدارة والدولة، فلا وجود للسجون ولا لحراسها، وهو ما كانت عليه الجزيرة العربية آنذاك، وفي مثل هذه الظروف يكون التوصل إلى تهدئة الضحية، وتخفيف رغبتها في الانتقام دون قتل المعتدي، أمراً من قبيل المعجزة، ومن هنا كانت الأحكام على المعتدين بعقوباتٍ بدنيةٍ، بقطع يد السارق، وجلد مرتكبي الخيانة الزوجية، حلولاً يُبرِّرها السياق التاريخي السائد آنذاك"[6]، ومن هذا المنطلق يقوم الخطاب العلماني برفض وتأويل كلِّ الحدود الشرعية[7]؛ بل ويعتبر الحدود أحكاماً تاريخيةً لا تتناسب مع ثقافة العصر، ويري أنَّها عقوباتٌ وحشيةٌ همجيةٌ بغيضة"[8].

---

(١) انظر: لبنات، لعبد المجيد الشرفي، ص١٧٣، ١٨١-١٨٢.

(٢) انظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص٨٢.

(٣) لبنات، لعبد المجيد الشرفي، ص١٠١.

(٤) المرجع السابق، ص١٤٣.

(٥) محمد الشرفي مفكر تونسي ولد سنة ١٩٣٦م في مدينة صفاقس جنوب تونس، ودرس القانون بالجامعة التونسية، وهو رئيس سابق للرابطة التونسية لحقوق الإنسان، ومؤسس مجموعة آفاق اليسارية التونسية، وقد تولى منصب وزارة التعليم في تونس لمدة خمس سنوات، أشرف خلالها على برنامج إصلاح التعليم، وتوفي في يونيو ٢٠٠٨م. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٢٧٦.

(٦) الإسلام والحرية سوء التفاهم التاريخي، لمحمد الشرفي، ص٧٩.

(٧) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٣٣٨-٣٤٢.

(٨) الإسلام والحرية، لمحمد الشرفي، ص٨٩.

ويقول عن حدِّ الزنا: "إنَّ الأساس الذي أقام عليه الفقهاء حدَّ الزنا، يدلُّ بوضوحٍ وببساطةٍ على أنَّهم أخذوا عادةً قديمةً ووظَّفوها بما يوافق أهوائهم، وألحقوها بالإسلام، ولعدم وجود أساسٍ دينيٍ مُقنعٍ وجب إلغاء هذا الحد، والذي يُمثِّل أخطر الحدود"(١).

قلتُ: ألَّا يقرأ هؤلاء كتاب ربهم، ألم يقرؤا قوله ﷻ:﴿ **الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾[النور:٢]، ألم ينظروا في سنَّة النبيﷺ الصحيحة، كما ثبت في الصحيحين من ثبوت حدِّ الرَّجم للزاني المحصن(٢)، ألم يتيقنوا أنَّ هذه الحدود فيها صيانةٌ وحفظٌ للأعراض وللمجتمع بأسره، ألم يعلموا أنَّ كلَّ الحلول المطروحة باءت بالفشل؛ بل وبازدياد مُعدَّلات الجريمة، ألم يقتنعوا بأنَّ الله ﷻ الذي خلق الخلق هو أعلم بما يُصلح عباده كما قال ﷻ:﴿ **أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾[الملك:١٤]، ألم يعلموا أنَّ الدين كاملٌ وصالحٌ لكلِّ زمانٍ ومكان، ولا ينتظر استدراكاً أو تعديلاً من أحد، قال ﷻ: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾[المائدة:٣]، ألم يعلموا أنَّ التسليم لله ﷻ هو شرطٌ في الإيمان كما قال ﷻ:﴿ **فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا** ﴾[النساء:٦٥]، ألم يعلم هؤلاء أنَّهم محاسبون على تطاولهم على شريعة رب العالمين كما قال ﷻ:﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ، لِيَوْمٍ عَظِيمٍ،يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[المطَّففين:٤-٦].

٢- إنكار معظم الأحكام الشرعية، فهو يرى أنَّ الأحكام المتعلقة بالزواج والطلاق والعدة والعصمة، خضعت للضغوط التاريخية، والظروف البيئية في أول الإسلام، فيرى مثلاً أنَّ إباحة تعدُّد الزوجات تُمثِّل تضييقاً لفوضى امتلاك المرأة وارتهانها في ذلك الوقت، وأنَّ تحديد العدد بأربع يُمثِّل تاريخياً نقلةً نوعيةً في طريق تحرير المرأة من الارتهان الذكوري؛ وعليه فإنَّ حصر الزواج في امرأةٍ واحدةٍ بعد خمسة عشر قرناً من تطوُّر البشرية يُعدُّ نقلةً نوعيةً في الطريق الذي بدأه الإسلام(٣).

---

(١) الإسلام والحرية، لمحمد الشرفي، ص٧٤-٧٥.

(٢) انظر مثلاً صحيح البخاري، كتاب الأحكام، باب من حكم في المسجد، حديث رقم ٦٦٣٣.

(٣) انظر: الإسلام والحرية، لمحمد الشرفي، ص١٢١، وانظر: المرجع نفسه، ص١٠٢.

إنَّ هذا الكلام من الشرفي فيه إنكارٌ صريحٌ لحكم الله ﷻ بإباحة تعدُّد الزوجات بأربع زوجات في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، كما قال ﷻ:﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ**﴾[النساء:٣].

وفي أحكام المواريث يرى الشرفي أنَّه ليس من العدل أن يأخذ الرجل ضعف حظِّ الأنثى، مُخالفاً قوله ﷻ:﴿**يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ**﴾[النساء:١١]، فهو وغيره من الليبراليين يرَون أنَّ هذه الآية جاءت تمهيداً للمساواة الاجتماعية بين الرجل والمرأة في مجتمعٍ ذكوريٍّ يشهد تسلُّط الرجال على حقوق النساء؛ ولذلك فمساواة الأنصبة بين الرجل والمرأة لا تخرج عن مقصد النص كما يزعمون، وكلُّ اجتهادٍ في سبيل تحقيق هذه المساواة إنَّما هو اجتهادٌ مشروعٌ عندهم(١).

٣- إباحة بعض أنواع الزنى، وإخراجه من دائرة التجريم الذي أثبتته قطعيات النصوص، فيقول: "يتحتَّم حصر معنى الزنا في العلاقة بين رجلٍ وامرأة أحدهما متزوجٌ؛ لأنَّ هذه العلاقة فقط يُمكن اعتبارها جناية"(٢).

٤- رفض تحكيم الإسلام والدولة الدينية، فيرى أنَّ الآيات التي جاءت لتُبيِّن علاقة الدولة مع رعاياها، أو علاقتها بالدول المخالفة لها، لا تعني تحوُّل نظام الدولة إلى دولةٍ دينية، وإنَّما الأصل في الشريعة أنَّها مدنيةٌ، وأنَّ الأحكام التي طبَّقها النبي ﷺ إنَّما نفَّذها بوصفه قاضياً يقضي حسب المصلحة، وحسب الظروف الزمانية والمكانية، وليس لهذه الأحكام أيُّ امتدادٍ عبر الزمن، وعلى هذا فكلُّ مُطالبةٍ بتطبيق الشريعة كما مارسها الجيل الذي عاصر الرسالة هي مغالطةٌ غير مناسبةٍ للواقع كما يزعم(٣).

٥- يتهم منهج السلف بالظلم، ويرى أنَّ القواعد والضوابط التي أجمع عليها السلف هي ظلمٌ للبشر والإنسانية، فيقول:" وقواعد الفقه التي وضعها الفقهاء ليست في حقيقتها ذات طبيعةٍ دينيةٍ؛ وإنَّما هي قواعد من وضع بشرٍ، فكانت منافيةً للعدل والمساواة وحقوق الإنسان"(٤).

---

(١) انظر: الإسلام والحرية، لمحمد الشرفي، ص٩٦-٩٧.

(٢) المرجع السابق، ص٨٥.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٤١.

(٤) المرجع السابق، ص٦٤.

١٩- **الصادق النيهوم**[١]: يُعدُّ النيهوم من المفكريين الليبراليين الذين ينظرون إلى النَّص نظرةً تاريخيةً، ويُنادون بإعادة فهمه وتأويله حسب علوم العصر وتغيُّراته، ومن أبرز مخالفاته ما يلي:

١- يرى أنَّ الجزء الثاني من الشهادتين وهو " أشهد أنَّ محمداً رسول الله" ليس من الإسلام؛ لأنَّ المسلمين بزعمه هم الذين أضافوها؛ إذ كان الإسلام في البداية دعوةٌ إلى لقاء جميع الأديان[٢].

٢- يرى أنَّ الصلاة تُغني عنها بعض الرياضات التي يمارسها الإنسان في حياتنا المعاصرة، وهذا ما غفل عنه الفقهاء[٣].

٣- يعتبر عالم الغيب عالماً طبيعياً لا يخرج تفسيره عن عالم الحس، فيقول: "لم يعد عالم الغيب خارجاً عن سنن الطبيعة؛ بل صار طبيعياً، وصار قابلاً للتفسير العلمي"[٤]، وكلُّ تفسيرٍ غير التفسير الخاضع للتجربة، فهو عنده تفسيرٌ سحريٌ أسطوريٌّ[٥].

وبناء على هذه النظرة من النُّصوص فإنَّ النيهوم يردُّ كلَّ آيات الغيب، أو يُؤوِّلها، وكذلك المعجزات أيضاً، فهو يدَّعي أنَّه ليس هناك شيءٌ خارج المادة المُتعارف عليها، وأنَّ التي تُسمَّى معجزات، ما هي إلا قوانين الطبيعة، ولكن خفي على مشاهديها تفسيرها، وقد يكشف العلم تفسيراً طبيعياً لها[٦]، فهو يرفض أن تكون المعجزات أموراً خارقةً يُؤيِّد الله بها أنبيائه لتدلَّ على صدق نبوتهم، وفي المقابل يقبل أن تكون أموراً من فعل الطبيعة ووفق قوانينها دون تدخُّل الفعل الإلهي، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

ويذهب النيهوم إلى ما هو أبعد من ذلك فيقول في تأويل البعث الثابت بالكتاب والسنة: "البعث من الحياة الغريزية يُسمِّيه القرآن بعثاً من الموت، وحقيقة البعث هو خروج الإنسان من عالمه الطفولي الغائب في اللاوعي إلى عالم العقل الحاضر في ضوء الصحوة واليقين؛ ولكنَّ العرب الوثنيين أساؤوا فهم هذه الحقيقة الماثلة أمام أعينهم، ونقلوا الجدال إلى عالم الأموات الذي يعرفونه في لغتهم

---

(١) الصادق رجب النيهوم، كاتب ليبي، ولد في بنغازي عام ١٩٣٧م، وحصل على الليسانس عام ١٩٦١م من جامعة بنغازي، وعمل معيداً بكلية الآداب بالجامعة الليبية عام ١٩٦٢م، ثم أستاذاً مساعداً بقسم الدراسات الشرقية بجامعة هلسنكي بفلندا في الفترة من ١٩٦٨م حتى ١٩٧٢م، نشر نتاجه الأدبي في العديد من الصحف العربية والأجنبية، وأقام سنوات في جنيف أستاذاً في مقارنة الأديان بجامعة جنيف حتى وفاته عام ١٩٩٤م. انظر: مقدمة كتاب الإسلام في الأسر، للصادق النيهوم، ص٥.

(٢) انظر: محنة ثقافة مزورة، للصادق النيهوم، ص ٢٥.

(٣) انظر: الإسلام في الأسر، للصادق النيهوم، ص١٢٧-١٣٤.

(٤) المرجع السابق، ص٨٢.

(٥) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٣٢٢.

(٦) انظر: الإسلام في الأسر، للصادق النيهوم، ص١٦٦-١٦٧.

الوثنية"[١]؛ فيعتبر النيهوم أنَّ العالم الآخر أسطورةٌ اخترعها الكهنة؛ ليُسيطروا على الناس ويحكموهم[٢].

٣- عداؤه لحجاب المرأة المسلمة، فيعتقد من وجهة نظره التاريخية، أنَّ الحجاب ليس من الإسلام؛ وبالتالي لا حاجة له في زماننا[٣].

٢٠- علي حرب[٤]: تعتبر قراءة علي حرب للنُّصوص الدينية قراءةً نقديةً تجاوزت كلَّ المعايير السليمة للتعامل مع نصوص الوحي، ومن أبرز المآخذ عليه ما يلي:

١- يتعامل مع النَّص تعاملاً لا يفرق فيه بين النصوص الدينية والنصوص البشرية، فالنَّص عنده يحمل مقومات الفهم والتأويل والنقد والرد بغض النَّظر عن مصدر النص[٥].

يقول علي حرب: "تتخطَّى نقد التفاسير والشروحات إلى نقد الوحي نفسه"[٦]، ويعتبر علي حرب أنَّ مهمة القارئ الناقد هي قراءة ما بين السطور، وما لم يقله المؤلف، وعدم الأخذ بما يقوله النَّص؛ بغرض التحرُّر من سلطة النص، فالنَّص يحتاج إلى عينٍ ترى فيه ما لم يره المؤلف، وما لم يخطر على باله[٧].

٢- القول بتعدد التأويلات في عددٍ غير محصور، وأنَّ فهم النَّص يُساوي عدد القُرَّاء له، يقول علي حرب: "ولا شكَّ أنَّ القرآن يُقرأ في ضوء الابتكارات العلمية العلمية، والثورات المعرفية، كما لم يُقرأ من قبل، إنَّه يُقرأ كلَّ مرةٍ قراءةً جديدة ومختلفة، ذلك أنَّ القراءة الجديدة تقرأ في النص ما لم يُقرأ فيه من قبل، إنَّه لا يُقرأ قراءةً أحاديةً ونهائيةً؛ بل يحتمل أكثر من قراءة، ويقبل الاختلاف والتعدُّد في المعنى، ويتجدد فهمه مع كلِّ قراءةٍ، فكيف إذا كان النَّص هو القرآن، والقرآن فضاءٌ تأويلي"[٨].

إنَّ القراءة التي يقترحها علي حرب قراءةٌ غير مسبوقةٍ، لا تسترجع ما قاله العلماء الأوائل؛ بل تكشف في النص عمَّا لم يُكشف من قبل، وهذا المبدأ ليس مُقتصِراً على النصوص المتشابهة؛ بل هو

---

(١) الإسلام في الأسر، للصادق النيهوم، ص١٠٦-١٠٧.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٨٢.

(٣) انظر: الإسلام في الأسر، للصادق النيهوم، ص١١١، ١١٤، ١١٦، ١١٧.

(٤) علي حرب كاتب وناقد لبناني معاصر، كرَّس جهده في نقد المشاريع الثقافية، كان شيوعياً، ولكنه تحول ليبرالياً بعد سقوط الشيوعية. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٦٥، وحقيقة الليبرالية، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٥٥.

(٥) انظر: الممنوع والممتنع نقد الذات المفكرة ، لعلي حرب، ص٣٠-٣١.

(٦) نقد النص، لعلي حرب، ص،٢٠٥.

(٧) انظر: المرجع السابق، ص٢٢.

(٨) أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، لعلي حرب، ص١٠٣-١٠٤.

شاملٌ لكلِّ النُّصوص حتى المُحكم منها؛ ولذلك يعيب علي حرب على العلماء الأوائل طريقتهم في فهم النص، ويزعم أنَّها كانت محاولةً لإغلاق النَّص(١).

إنَّ هذه المنهجية في التعامل مع النُّصوص لا مجال فيها لفرز التأويلات إلى حقٍّ وباطل؛ بل كلُّ تأويلٍ هو حقيقةٌ مشروعةٌ بحسب ظرفه، وهذا ما يريده الليبراليون، يقول علي حرب: "في ضوء مفهوم النَّص والحقيقة لا مجال للحديث عن الخطأ والصواب في نصٍّ من النصوص"(٢).

ويقول أيضاً: "ليس هناك إسلامٌ صحيحٌ وإسلامٌ غير صحيح؛ بل كلٌّ يُمارس إسلامه، ويُنتج حقيقته، وكلُّ واحدٍ يملك حقَّه ومشروعيته"(٣)؛ ولذلك فهو يرى أنَّ الدعوة إلى الإلتزام بالدِّين الصحيح هي دعوةٌ فارغةٌ، فيقول: "لا وجود لإسلامٍ أصوليٍ صحيحٍ يمكن استعادته وتطبيقه التطبيق الأفضل"(٤).

٣- المغالاة في الجانب العقلي والدعوة إلى إحلال العقل محلَّ النبوة والوحي، فيقول: "بعد انتهاء زمن النبوة، وانقطاع الوحي المُوحَى، يعود الأمر إلى العقل؛ لكي ينهض بدوره، ويُمارس نشاطه، ويُبدع إبداعه، فيبحث ويُعلِّل، ويُحلِّل ويُنظِّر، ويُجادل ويُدافع، ويبتُّ ويُفصِّل"(٥).

٢١- علي أحمد سعيد "أدونيس"(٦): يُعدُّ علي أحمد سعيد الملقب بأدونيس من المُفكِّريين الليبرالين الذين كان لهم دورٌ في تأويل النصوص ونقد المنهجية الصحيحة في التعامل معها، ومن أبرز مخالفاته ما يلي:

١- انتقد المنهج السلفي في التعامل مع نصوص الوحي، واعتبره منهجاً مُنغلقاً؛ ولذلك قدم أطروحته العلمية في إعادة قراءة التراث بناءً على نظرته للإبداع والاتِّباع عند العرب، وخلُص إلى أنَّ الاتجاهات السلفية كرَّست الاتِّباع، بينما كرَّست الاتجاهات التقدُّمية كما يُسمِّيها الإبداع، فيرى أدونيس

---

(١) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٢٦٠.

(٢) نقد النص، لعلي حرب، ص١٣.

(٣) الممنوع والممتنع في نقد الذات المفكرة، لعلي حرب، ص١٨٠.

(٤) المرجع السابق، ص٢٨.

(٥) نقد الحقيقة، لعلي حرب، ص٧٣.

(٦) علي أحمد سعيد الملقب بأدونيس، ولد عام ١٩٣٠م، في اللاذقية بسوريا، والتحق بالخدمة العسكرية عام ١٩٥٤م، ثم غادر إلى لبنان عام ١٩٥٦م، ودرس في جامعة القديس يوسف، ونال دكتوراه الدولة في الأدب عام ١٩٧٣م، وأثارت أطروحته" الثابت والمتحول" سجالاً طويلاً، وقد عمل أستاذاً زائراً إلى جامعات ومراكز للبحث في فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة وألمانيا، وتلقى عدداً من الجوائز اللبنانية والعالمية وألقاب التكريم، وترجمت أعماله إلى ثلاث عشرة لغة. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص١٧٠.

أنَّ الحركات الثورية، والحركات الفكرية التي شذَّت عن المنظومة السلفية، هي أصول الإبداع والتحول[١].

٢- يزعم أنَّه لا يمكن أن تنهض الحياة العربية، ويُبدع الإنسان العربي إلا إذا انهدمت البنية التقليدية للذهن العربي، وتغيرت كيفية النظر والفهم التي وجَّهت الذهن العربي، وما تزال توجهه[٢]، والوسيلة المُجدية لذلك في نظره هي هدم الأصل بالأصل نفسه، والآلية المُستخدمة ما هي إلا التأويل الباطني الذي ينفي النبوة الإسلامية، ويُقيم على أنقاضها دين العقل[٣].

٣- أنَّه مفتونٌ ومصدومٌ بحضارة الغرب، ومن ذلك قوله: "الحداثة هي ظاهرةٌ تتمثَّل في تجاوز القديم العربي لتصهره في قديمٍ أشمل يونانيٍّ، مسيحيٍّ، كونيٍّ"[٤].

إنَّ أدونيس وأمثاله من الليبراليين حالهم في افتتانهم بالغرب "كالفلاح الفقير الذي يقف خجلاً بنفسه أمام الغني، فيقف مثقفنا العربي أمام نظيره الغربي، وهو يكاد يتَّهم نفسه، ويعتذر عن شكله غير اللائق، ولغته غير الحضارية، ودينه المتخلف، ويستحسن المثقف الغربي منه هذا الموقف، ويُساعده على الغوص فيه أكثر فأكثر حتى ليكاد يلعن نفسه، أو يخرج من جلده؛ لكي يصبح حضارياً أو حداثياً مقبولاً!"[٥].

٢٢- **جودت سعيد**[٦]: يُعدُّ جودت سعيد من المُفكِّرين العرب المفتونين بفلسفة الغرب وحضارتهم، ويحاول بكلِّ جهده أن ينقل أفكارهم إلى العالم الإسلامي، وله مشروعٌ فكريٌّ يحمل اسم "أبحاثٌ في سنن تغيير النفس والمجتمع"، وقد جعل شعاره منذ البداية "فردية – سلمية- علنية"، ومن أبرز مخالفاته ما يلي:

١- يكثر النَّقد والعداء للإسلاميين، فانتقد منهجهم وطريقتهم؛ بل ووقف في كتاباته مع أعداء الأمة ضد الضحيَّة من أبناء أمَّته، فهو يرى أنَّ مذهب السلم ونبذ العنف هو الأنسب والأنجح في حلِّ قضايانا، وتحقيق أهدافنا، وبرفض مبدأ الجهاد في سبيل الله رفضاً قاطعاً[٧].

---

(١) انظر: الثابت والمتحول بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، لأدونيس(٢٢٣/١-٢٤٤.

(٢) انظر: المرجع السابق، لأدونيس(٣٢/١).

(٣) انظر: المرجع السابق(٣٣/١)، (٢٠٩/٢).

(٤) صدمة الحداثة، لأدونيس، ص١٥٦.

(٥) الفكر العربي المعاصر ومسألة الحركات الأصولية، ص٧٤- ٧٥.

(٦) جودت سعيد كاتب ومفكر سوري، ولد في محافظة القنيطرة بسوريا عام ١٩٣١م، درس في الأزهر وتخرج من كلية اللغة العربية فيها، وبدأ يدعو إلى الفكر الفلسفي بعد عودته من دراسته بالأزهر، وقد تأثر بفلاسفة الغرب وأفكارهم، ويعتبر أبرز دعاة مذهب السلم ونبذ العنف، من كتبه: مذهب ابن آدم الأول، حتى يغيروا ما بأنفسهم. انظر: النزعة المادية في العالم الإسلامي، لعادل التل، ص٦٨-٦٩.

(٧) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٢٠-٢٣.

٢- يرى أنَّ الوحي والنبوة قد انتهى دورهما، وآن لنا أن نستبدل ذلك بقراءة التاريخ والسنن الكونية، ويزعم أنَّ الكتاب والسنة ممَّا يزيدنا فرقةً واختلافاً؛ ولذلك فهو يُحرِّف المعاني الشرعية، ويُؤوِّل الآيات القرآنية بما يخدم أفكاره، ويصرُّ في ذلك على تبنِّي آراء الفلاسفة الغربيين، وتعظيم أفكارهم(١).

٣- عنده نبرة التعالم والتعالي، فهو يظنُّ أنَّه وحده الذي يفهم ويُفكِّر من دون الناس، فيقول مثلاً: "ومن المؤسف أن يكون الموجِّهون الذين يُمثِّلون حلقة الوصل بين المبدعين والسواد الأعظم، لا يزالون يحملون كلَّ معاني التخلُّف التي قادت العالم الإسلامي إلى العصر الذي يمثِّل فيه المسلمون القصعة"(٢).

ويقول أيضاً: "والذي يحول دون استفادة المسلمين من سنن التغيير وتطبيقاته، أنَّ الذين يبحثون هذه الأمور ويُمارسونها- إن كان هناك من يُمارسها- لا يستطيعون ربطها بمبرِّراتها من كتاب الله وسنة رسوله(٣).

ثمَّ يتهم المسلمين بأنَّهم مُتخلِّفون، ويعيشون خارج التاريخ، فيقول: "لقد عاشت الإنسانية عصر الصناعة، فعصر المعلومات، إلا أنَّنا نحن المسلمينن ما زلنا نعيش خارج التاريخ، لم نُولد بعد، فأنَّى لنا الدخول في عصر الصناع؛ بل عصر المعلومات!!"(٤).

قلتُ: وأين كان جودت سعيد يوم كان المسلمون يحكمون الأرض لقرونٍ طويلة، في حين كان الغرب يغرق في ظلمات الجهالة، إنَّه ما تأخَّر المسلمون في هذا الزمن إلا لوجود المُثبِّطين والمفتونين بفلسفة الغرب الكافر كالليبراليين والعلمانيين.

٤- بذل جهوداً كبيرةً من أجل تقريب نظرية داروين إلى المسلمين، وهو يستغرب من العالم الإسلامي رفضه لنظرية داروين، ويستنكر عدم قبوله لها، ويُعنِّف المسلمين الذين ترسَّخت في أذهانهم فكرةٌ معينةٌ لنشوء الخلق من خلال الوقوف على حرفية النصوص المقدَّسة كتاباً وسنة(٥).

٥- يناقش مسألة الكفر والإيمان من خلال الرؤية الغربية، فهو يُنكر حد الردة، ويُشرِّع الكفر والإلحاد باسم الحرية، فيقول: "الكفر ليس ذنباً دنيوياً، الكفر ذنبٌ أخرويٌّ، فالله يحاسب الكافر عليه، والكافر له حقٌّ أن يعيش، والملحد له حقٌّ أن يعيش محترماً، وإن استطاع الملحد أن يقنع الناس بإلحاده فلا حرج عليه؛ لكنَّه لا يفرض رأيه بالقوة، ويجب أن نُزيل التنابز بالكفر، لكلِّ إنسانٍ الحق في أن يكفر، وأنت

---

(١) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٢٤.

(٢) العمل قدرة وإرادة، لجودت سعيد، ص٢٥٦.

(٣) حتى يغيروا ما بأنفسهم، لجودت سعيد ص١٦٢.

(٤) مذهب ابن آدم الأول، لجودت سعيد، ص٢١.

(٥) انظر: اقرأ وربك الأكرم، لجودت سعيد، ص١٥٣-١٥٤.

لك الحق أن تكفر، الكفر ليس عيباً دنيوياً، العيب أن تظلم الناس، ولا تُعطي الحقَّ للكافر أن يعيش بالعدل"[١].

وبناءً على قوله السابق فلا فرق عنده بين كفرٍ وإسلام، ولا بين إيمانٍ ونفاق، ولا فرق بين صِدِّيق وزنديق، والله ﷻ يقول عمَّن يستهتر بدينه:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة:٦٥-٦٦].

٢٣- **خالص جلبي**[٢]:إنَّ خالص جلبي لا يختلف كثيراً عن شيخه جودت سعيد، فهو جاء ليُكمل مشوار شيخه، ويدعم أفكاره من خلال كتاباته ومقالاته، ومن المآخذ عليه ما يلي:

١- يعترف أنَّه نشأ في بيئةٍ غير متدينة، حيث لم يكن والده يُصلِّي، ولا حتى صلاة الجمعة، ولم يره يفتح المصحف أو أيِّ كتابٍ آخر يوماً في حياته، وأمُّه كما يقول كانت تُحسن الضرب على العود الموسيقي، ولذلك نشأ من صغره على حبِّ الموسيقى، وفي قناعته أنَّ كارثةً أصابت الشرق بعدم تطوير الفن والفِرَق الموسيقية[٣].

٢- مصابٌ كشيخه جودت سعيد بنبرة التَّعالم؛ ولكن التطاول عنده أقسى من جودت سعيد، وفي أكثر مقالاته يُمارس العنف القولي ضدَّ الأمة وعلمائها ودعاتها ومُفكِّريها، وضد حدودها وضوابطها ومنهجيتها، فيقول: "الفكر الإسلامي كسيحٌ، ويحتاج للعُكَّازات دائماً، وأنتم لم تفهموا ما يُريد الأنبياء ولا العلم"[٤].

ويقول مُتطاولاً عندما سُئل عن نظرية داروين: "مرةً أخرى أتعجب وأنا أتحدث لكم عن هذه النظرية، ومثلي بينكم مثل الصيني الذي يُريد أن يتحدث بالعربية، ومرةً أخرى أجدُني عاجزاً عن الشرح لكم؛ لأنَّ ما قاله داروين كان عام ١٨٥٦م، ونحن الآن على عتبة عام ٢٠٠٣م؛ ولكنَّنا حتى اليوم

(١) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٢٢٥، نقلاً عن ندوة لجودت سعيد في المركز الثقافي بحمص في شريط مسجل.

(٢) الطبيب خالص مجيب جلبي كنجو، ولد في القامشلي بسوريا عام ١٩٤٥م، وقد نشأ في عائلة متحررة لا تصلي ولا تصوم، وتخرج من كلية الطب في جامعة دمشق، وسافر إلى ألمانيا وحصل على الزمالة الألمانية تخصص جراحة عام ١٩٨٢م، وعاد متأثراً بالفكر الغربي تأثراً شديداً، ومتعلقاً بفلاسفة الغرب وحضارته المادية، وصار يتطاول على الثوابت الإسلامية، وهو زوج أخت جودت سعيد، من كتبه: النقد الذاتي، وسيكولوجية العنف. انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٢٨.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٩.

(٤) المرجع السابق، ص٤٠.

لسنا في مستوى عام ١٨٣٥م، مثل طالب الحضانة الذي تقرأ على رأسه نظريات الفيزياء، إنَّ العلم قفز قرناً ونصف متجاوزاً داروين، ونحن لم نقترب من داروين، كل عامٍ وأنتم بخير"[١].

ويستمر في تطاوله على العلماء، فيقول: "إنَّ الكتابات الإسلامية حتى الوقت الحاضر لم تتسم تماماً بروح العلمية والموضوعية، والأدمغة الناضجة في محيطنا الإسلامي قليلة"[٢].

ولا أدري كيف سيقبل القُرَّاء قراءة كُتب من يشتُمهم، ويشتُم تاريخهم، ويُشوِّه حضارتهم، ويتهمهم بالتخلف والغفلة والجهل.

٣- يعتز بالملاحدة والمفسدين، حيث يعُد داروين من أكبر العباقرة في العالم، ومثله في العبقرية فرويد[٣].

٤- يُقرِّر الكفر والإلحاد في المجتمع المسلم بحجة حرية الرأي والفكر، فيقول: "الخطأ يحقُّ له أن يعيش، ولا يُقتل الإنسان من أجل آرائه مهما كانت"[٤].

ويقول مُعترضاً على حكم الله ورسوله في المرتد: "في المجتمع المسلم، مجتمع اللاإكراه، لا يُقتل الإنسان من أجل آرائه أياً كانت الأفكار، سواءٌ تركاً أو اعتناقاً، وهذا يُفنِّد الاتجاه العام للمفهوم السائد بقتل المرتد؛ لأنَّ المرتد هو الذي يعتنق مبدأ ثمَّ يتركه، فكيف تسمح الحرية الفكرية لاعتناق مبدأٍ ثمَّ تحبسه فيه، فلا حرية فكرية مع هذا الحجر، وقتل المرتد تدشين العصبية الفكرية باتجاهٍ واحد"[٥].

٥- تبنِّي منهج اللاعنف؛ ممَّا أدَّى إلى انقلاب الموازين عنده ، فهو يرى أنَّ معنى الجهاد هو إقامة حلفٍ عالمي لرفع الظلم عن الإنسان أياً كان، ومن أيِّ مصدر شاء، حتى ولو قاتل المسلم أخاه المسلم نصرةً للمشركين والوثنيين جاز ذلك؛ ولذلك فهو يرى أنَّ حرب أمريكا على العراق نوعٌ من الجهاد؛ لأنَّه تخفيفٌ لمعاناة شعبها[٦].

وفي تأصيل هذا المذهب السلمي، يقول خالص جلبي: "غيَّر الرسول ﷺ المجتمع بالفكر وسلمياً، ولم يذهب إلى المدينة على ظهر الدبابات بانقلابٍ عسكري؛ بل خرجوا لاستقباله في مظاهرةٍ ضخمةٍ، مع فرقةٍ موسيقيةٍ كاملة"[٧].

---

(١) المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٤١.

(٢) النقد الذاتي، لخالص جلبي، ص٢١٧.

(٣) المدرسة العصرانية، ص٥٦، نقلاً عن جريدة الرياض، العدد ١٠٦٠١، في ١٤١٨/٢/٢٨هـ.

(٤) سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص١٤٨.

(٥) المرجع السابق، ص١٢٦-١٢٧.

(٦) انظر: المرجع السابق، ص١٢٨، ص١٦٤.

(٧) المرجع السابق، ص١٢٥.

ثمَّ يقول مُتهكِّماً: "وهذه كُتب السيرة سُجلت أحداثهاعلى أساسٍ مُسلسلٍ متتابعٍ من الغزوات، كأنَّ الرسول ﷺ كان لا ينام إلا على غزوةٍ، ولا يستيقظ إلا على معركة، كما كُتبت بعبق الأجواء السِّحرية، فكلُّها سلسلةٌ من المعجزات"(١).

إنَّ هذا الأسلوب الساخر من خالص جلبي فيه تشكيكٌ في سيرة النبي ﷺ التي وصلت إلينا، والتي نقلها إلينا الصحابة الكرام كما رأوها وشاهدوها.

ويُلاحظ أنَّ خالص جلبي أيضاً يُحاول بكلِّ ما يستطيع أن ينسب النبي ﷺ لهذا المذهب الذي يتبنَّاه، ونسي أو تناسى أنَّ الله ﷻ أمر بالجهاد وإعداد القوة لملاقاة الأعداء وإرهابهم، كما في قوله سبحانه وتعالى:﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ** ﴾[الأنفال:٦٠]، وكأنَّ خالص جلبي يجهل أنَّ رسول الله ﷺ هو إمام المجاهدين، وأنَّه ﷺ قال:**(والذي نفس محمدٍ بيده، لولا أن يشقَّ على المسلمين ما قعدتُ خلاف سريةٍ تغزو في سبيل الله أبداً؛ ولكن لا أجد سعةً فأحملهم، ولا يجدون سعةً، ويشقُّ عليهم أن يتخلَّفوا عنِّي، والذي نفس محمدٍ بيده، لوددتُ أنِّي أغزو في سبيل الله فأُقتل، ثمَّ أغزو فأُقتل، ثمَّ أغزو فأُقتل)**(٢).

وقال ﷺ:**(من مات ولم يغزُ، ولم يُحدِّث نفسه بالغزو، مات على شعبةٍ من نفاق)**(٣).

قلتُ: إنَّ الواقع يشهد أنَّ العالم لا يحترم إلَّا الأقوياء، وأنَّ ما أُخذ بالقوة لا يُستردُّ إلا بالقوة، وأنَّ الحقَّ الذي لا تحميه قوةٌ يضيع، وواقع المسلمين أكبر شاهدٍ على ذلك، وسبحان الله كأنَّه طُمس على قلوب هؤلاء الليراليين ببغيهم، فلم يعودوا يعرفوا الحقَّ من الباطل.

---

(١) سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص٤٨.

(٢) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله، حديث رقم ١٨٧٦.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الجهاد، باب كراهية ترك الغزو، حديث رقم ٢٥٠٢، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود.

المطلب الثالث: منهج المدرسة الليبرالية العربية في فهم النص الديني

إنَّ من المُسلَّمات الشرعية أنَّ النَّص الشرعي الصحيح الصريح هو الفصل والمرجع عند الخلاف، وأنَّ العقل تابعٌ له؛ ولكن كان موقف المدرسة الليبرالية من هذه القضية الكبرى موقفاً مخزياً، فقد حصل منهم تعدٍ وتهوين من شأن النصوص الشرعية؛ لأنَّها هي العائق الكبير أمام ما يطرحونه من أفكارٍ تُخالف الشرع صراحةً، حيث يعتمدون على منهجٍ تلفيقيٍ لا ضوابط له، يُحارب دين الله ﷻ، ويُزعزع كلَّ الثوابت والمُسلَّمات في حياة المسلمين، من خلال إعمال النظريات الغربية في إعادة قراءة النَّص الديني، وتتمثَّل معالم هذه المدرسة فيما يلي:

١- تقديس العقل في مقابل التهوين والتهكُّم من شأن النصوص: ذهب الليبراليون العرب إلى تقديس العقل في مقابل التهوين من شأن النصوص الدينية؛ فعمدوا إلى تأويل النُّصوص حسب أهوائهم وآرائهم الفاسدة، مُقلِّدين ما زعموه في التنوير الغربي، وتولَّد من تبنِّي الليبراليين لمناهج النقد الغربي نزع القداسة عن النَّص الديني، ويظهر ذلك جليَّاً من خلال أقوالهم وكتاباتهم.

يقول الليبرالي حسن حنفي: "لا فرق بين النَّص الديني والنَّص الأدبي والنَّص التاريخي والنَّص القانوني والنَّص الفلسفي"(١).

ويقول الليبرالي نصر أبو زيد: "العقل وسيلتنا الوحيدة لفهم الواقع والعالم وأنفسنا والنُّصوص، وهو ضدُّ الحكم النهائي والقطعي واليقيني الحاسم، نتعامل مع النَّص بوصفه مشروعاً مفتوحاً مُتجدِّداً قابلاً للاكتشاف والفحص والتأويل،... علينا أن نُوسِّع مفهوم العقل، لا ليعني القيد، كما هو في التراث الإسلامي؛ بل لنؤكِّد مفهوم الحرية، وهو مفهوم تأسس في النصوص الدينية"(٢).

فالليبراليون يُحكِّمون العقل ويُقدِّمونه على النص الشرعي في الاعتبار والاستدلال والاحتكام، ويُحكِّمون العواطف والأهواء في أصول العقيدة ونصوصها، ومُقرَّرات الدِّين الثابتة، دون اعتبارٍ للوحي، ولا تسليمٍ للنَّص المعصوم، ولا احترامٍ لما جاء عن الله صريحاً، أو ثبت عن رسول الله ﷺ صحيحاً(٣).

ومن النماذج التطبيقية لمحاولة نزع القداسة عن القرآن، مشروع أركون في إعادة فهم النص، حيث يقول: "لا ينبغي أن نعتبر أنَّ القرآن كلاماً آتياً من فوق؛ وإنَّما فقط كحدثٍ واقعيٍّ تماماً، كوقائع الفيزياء التي يتكلم عنها العلماء"(٤).

---

(١) مقال بعنوان: قراءة في مفهوم النص، لحسن حنفي، منشور في مجلة فصول، فبراير ١٩٩١م، المجلد التاسع، العدد الثالث، ص٤.

(٢) نقد الخطاب الديني، لنصر حامد أبو زيد، ص٤٤.

(٣) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٦١.

(٤) تاريخية الفكر الإسلامي، لمحمد أركون، ص٢٨٤.

إنَّ النتيجة التي يدعو إليها المشروع الليبرالي في تحريف النصوص، والتي كان أركون يسعى لتحقيقها كما يرى مترجم كتاباته هاشم صالح أنَّه:" حرَّرنا من الهيبة الساحقة للنَّص، هذه الهيبة التي تحجب عنا حقيقة ماديَّته اللغوية"(١).

ويزعم الليبراليون أنَّ الخطاب الديني خطابٌ مُتخلِّفٌ تقليديٌ جامدٌ مُنغلقٌ، يريد أن يرتدَّ بالمجتمع إلى الخلف، بدون تحقيق أيِّ تقدمٍ.

يقول نصر أبو زيد: "أدركنا أنَّ هذا الخطاب في الواقع يُريد أن يرتدَّ بالمجتمع إلى الخلف، لا أن يُحقِّق تقدُّمه، والماضي الذي يُريد أن نرتدَّ إليه ليس الماضي الذي كان مُزدهراً بالحيويَّة الفكرية والعقلية؛ بل الماضي الذي ارتضى التقليد بديلاً عن الاجتهاد، واكتفى بالتكرار بديلاً عن الإبداع،... وأخيراً ينتهي الخطاب الديني إلى الإنغلاق في دائرة النصوص بعد أن جمَّدها، وقضى على حيويتها،... فالواقع هو الأصل ولا سبيل لإهداره، من الواقع تكوَّن النَّص، ومن لغته وثقافته صِيغت مفاهيمُه، فالواقع أولاً، والواقع ثانياً، والواقع أخيراً، ... وإهدار الواقع لحساب نصٍّ جامدٍ ثابت المعنى والدلالة يُحوِّل كليهما إلى أسطورة"(٢).

وهذا خالص جلبي يدعو إلى أن يتجاوز العقل نطاق النُّصوص والثوابت الدينية، ويقفز عليها، فيقول: "المواطن العربي اليوم محاصرٌ في مثلثٍ من المُحرَّمات بين الدين والسياسة والجنس، كلُّ ضلعٍ فيه مثَّل حاجزاً شاهقاً لا يستطيع أفضل حصانٍ عربيٍ رشيقٍ أن يقفز إلَّا بالقفز إلى الإعدام، فأمام حائط الدِّين يطلُّ مفهوم الردَّة، وأمام جدار السياسة يبرز مصطلح الخيانة، وعند حافَّة الجنس تُشعُّ كلَّ ألوان الحرام والعيب، فالعقل مُصادَرٌ ومُؤمَّمٌ ومُلغى حتى إشعارٍ آخر، لا بدَّ من تدريب عقولنا على النِّقاش والجدل، وذلك يفتح طُرقاً رائدةً، فالعقل النَّقدي حيٌّ، والعقل النقلي ميتٌ"(٣).

وقد طبَّق الليبراليون هذه الدعوة التي يدعو إليها جلبي؛ فتجاوزوا كلَّ الثوابت والخطوط الحمراء، وكان من نتائج هذه المنهجية عندهم أن يُلغى الفهم الصحيح للدين، فالإسلام العصري المستنير عندهم ليس من الضروري أن يقوم على خمسة أركان، فالشهادتان هما الشهادة على قضايا العصر وحوادث التاريخ(٤).

والجزء الثاني من الشهادتين ليس من الإسلام كما يزعمون؛ لأنَّ المسلمين هم الذين أضافوه، فالإسلام عندهم دعوةٌ إلى لقاء كلَّ الأديان(٥).

---

(١) من فيصل التفرقة إلى فصل المقال أين هو الفكر الإسلامي، لمحمد أركون، ص١٣.

(٢) نقد الخطاب الديني، لنصر أبو زيد، ص١٣٠.

(٣) التطرف المسكوت عنه أصول الفكر العصراني، لناصر الحنيني، ص ١٠٠ .

(٤) انظر: من العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(٤/٥٥)، (٤/٣١٥).

(٥) انظر: صوت الناس محنة ثقافة مزورة، للصادق النيهوم، ص ٢٥.

وليس من الضروري عندهم أن يحتشد الناس جماعاتٍ في مسجدٍ لإقامة الصلاة؛ لأنَّ الصلاة بزعمهم مسألةٌ شخصيةٌ وليست واجبةً، وقد فُرضت بزعمهم أصلاً لتليين عريكة العربي، وتعويده على الطاعة للقائد، وتُغني عنها رياضات معينة، وهو ما غفل عنه الفقهاء بزعمهم[1].

والصلاة كذلك لا تعني عندهم الشعائر والعبادة؛ بل تعني جهد الإنسان الدائم، وعمله المستمر، وإحساسه بالزمان، وإذا كانت الغاية منها الاطمئنان الداخلي، وحضور الفكر اليومي، فيمكن تحقيق ذلك بزعمهم من دون الصلاة عن طريق التفكُّر والتأمُّل والاكتفاء بالفنون والعلوم، وإذا كانت الغاية منها المحافظة على النظافة والطهارة؛ فيُمكن إدراك ذلك بزعمهم بالمحافظة على النظافة"[2].

والزكاة كذلك عندهم ليست واجبةً، وإنَّما هي اختياريةٌ، ولا تؤدِّي الغرض في واقعنا المعاصر[3].

والصوم كذلك ليس واجباً عندهم؛ وإنَّما هو للتخيير[4]، حيث يرى حسن حنفي أنَّ الصوم نوعٌ من الراحة للبدن؛ ولكن يُمكن للإنسان أن يُخفِّف من الطعام؛ ليحصل على ذلك[5].

وأمَّا الحج فليس من الضروري بزعمهم أن يُقام بطقوسه المعروفة، إذ يغني عنه الحج العقلي، أو الحج الروحي[6]، ويعدُّ حسن حنفي الحج من شعائر الجاهلية، فيقول: "فشعائر الحجِّ من الطواف ورمي الجمرات والسعي بين الصفا والمروة والتكبير، كلُّها شعائر جاهلية دخلت في دين إبراهيم، وهي رموزٌ يُمكن ايجاد دلالتها في التجربة البشرية، كرغبة الإنسان في زيارة الآثار، والوقوف على الأطلال، وأماكن المحبين"[7].

وأمور الإيمان والغيب والدار الآخرة ينكرونها أيضاً، يقول حسن حنفي: "الجنة والنار هما النعيم والعذاب في هذه الدنيا، وليس في عالمٍ آخر يُحشر فيه الإنسان بعد الموت، الدنيا هي الأرض، والعالم الآخر هو الأرض، الجنة ما يُصيب الإنسان من خيرٍ في الدنيا، والنار ما يُصيب الإنسان من شرٍّ فيها"[8].

---

(١) انظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص٦٣، والإسلام في الأسر، للصادق النيهوم، ص١٢٧.

(٢) انظر: من العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(٥٦/٤).

(٣) انظر:الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص٦٣، ووجهة نظر، للجابري، ص١٥٠-١٥١.

(٤) انظر: لبنات، لعبد المجيد الشرفي، ص١٧٣، والإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص٦٤.

(٥) انظر: الدين والثورة في مصر، لحسن حنفي(٥٥/٧).

(٦) مقال لأركون في مجلة الكرمي(٢٣/١)، العدد الرابع والثلاثون، ١٩٨٩م.

(٧) الإسلام والحداثة، لعبد المجيد الشرفي، ص١٥١، وانظر: من العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(٥٥/٤).

(٨) من العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(٦٠١/٤).

ويقول أيضاً: "وأمور المعاد هي الدراسات المستقبلية بلغة العصر، والكشف عن نتائج المستقبل ابتداءً من حسابات الحاضر"(١).

والنتيجة الحتمية لهذه المنهجية التي يتَّبعها الليبراليون أن يصبح القرآن والسنة ألفاظاً لا معاني لها يُرجع إليها، حيث يقول جودت سعيد: "الذي أريد أن نفهمه من هذا أنَّ دلالة الكتاب يُمكن أن تُلغي إلغاءً تاماً، وكأنَّها غير موجودةٍ، وأنَّ الذي سيعلِّمنا ليس القرآن، وإنَّما حوادث الكون والتاريخ هي التي ستُعلِّمنا"(٢).

ويقول خالص جلبي: "إنَّ النصوص لم تحل مشكلةً في يوم من الأيام، وإنَّ القرآن بذاته تمَّ توظيفه لحياكة أكبر خدعةٍ سياسيةٍ في التاريخ، وإنَّ الذي حكم تاريخياً كان الغدر والسيف"(٣).

ويقول أيضاً: "في حركة النقد الذاتي على مستوى الفكر، تُطالعنا في أوَّل الطريق مشكلة النصوص، وأعني بالنص الآية من القرآن أو الحديث، فهذه المشكلة قديمةٌ قدم النص"(٤).

فهل هناك تمرُّدٌ على النصوص الشرعية أعتى من هذا التمرد الليبرالي، وهل هناك من مُصادمةٍ لهدي الشرع كهذه المصادمة، وهل هناك خروجٌ على نصوص الكتاب والسنة كهذا الخروج.

٢- تقديم المصلحة المتوهَّمة على النص: إنَّ هذا الموقف المنحرف متفرِّعٌ عمَّا سبق من غلوِّهم في جانب العقل على حساب النقل، حيث اعتقدوا أنَّ العقل له الصلاحية الكاملة والأهلية التامة في أن يستقلَّ بإدراك المصالح والمفاسد بعيداً عن نور الوحي، وهذا بلا ريب مُصادِمٌ للحقِّ والحقيقة، إذ أنَّ العقل تابعٌ للشرع، وخاضعٌ تحت حكمه، فلا يجوز له أن يتخطَّى ما حدَّه الشرع زاعماً أنَّه يتَّبع المصلحة، ويريد الإحسان والتوفيق؛ بل الحكم الأول والأخير للشريعة، والعقل الصحيح لا يتعارض مع النقل كما ذكر الباحث سابقاً في ثنايا البحث.

إنَّ من المعلوم أنَّ العلماء جعلوا المصالح على أنواعٍ، منها مصالح معتبرةٌ يُؤخذ بها، وهي ما دلَّ الدليل على اعتبارها وجوازها وحلِّيتها ودعا إليها، ومصالح ملغاةٌ أو مهدرةٌ لا اعتبار لها، وهي ما جاء النَّص صراحةً بإلغائها، كتحريم الخمر مع اشتماله على بعض المصالح الملغاة بنصِّ الشارع الحكيم، ومنها مصالح مرسلةٌ، وهي المصلحة التي لم يقم دليلٌ خاصٌّ من الشارع على اعتبارها أو إلغائها؛ ولكنَّها تدخل في مقاصد الشرع، ولا تنافي أصلاً من أصول الشريعة، ولا دليلاً من دلائلها، ولا

---

(١) من العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(٦٠٥/٤).

(٢) رسالة انظروا، لجودت سعيد، ص ٨.

(٣) سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص٤٢.

(٤) في النقد الذاتي، لخالص جلبي، المقدمة.

تُخالف إجماعاً، ولا تُعارض قياساً[1]، ولا يمكن أن يقع تعارضٌ بين الشريعة وبين مصلحةٍ معتبرةٍ شرعاً، ومن زعم أنَّ هناك مصلحةً لم ترد بها الشريعة، فلا يخلو من حالتين، إمَّا أن يكون الشرع قد دلَّ على تلك المصلحة من حيث لا يعلم، وإمَّا أنَّ ما توهَّمه أنَّه مصلحةٌ ليس كذلك، فليس بالضرورة أن يكون كلُّ ما رآه الإنسان مصلحةً يكون كذلك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية – رحمه الله-: "ما اعتقده العقل مصلحة، وإن كان الشرع لم يرد به، فأحد أمرين لازمٌ له، إمَّا أنَّ الشرع دلَّ عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر، أو أنَّه ليس بمصلحةٍ، وإن اعتقده مصلحة؛ لأنَّ المصلحة هي المنفعة الحاصلة أو الغالبة، وكثيراً ما يتوهَّم النَّاس أنَّ الشيء ينفع في الدين والدنيا، ويكون فيه منفعةٌ مرجوحةٌ بالمضرَّة، كما قال ﷻ في الخمر والميسر: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [البقرة:٢١٩]"[2].

إنَّ أصحاب المدرسة الليبرالية يُصرِّحون باعتبار المصالح المُلغاة، ويضربون بالنصوص الشرعية التي جاءت مصادمةً لهذه المصالح المتوهَّمة عرض الحائط؛ فيُصبح الدِّين عندهم تابعاً للهوى، وما تمليه الشهوات والأهواء، لا مُنقاداً لعبودية ربِّ الأرض والسماء.

إنَّه إذا كان للعقل الصلاحية الكاملة والأهلية التامة في أن يستقلَّ بإدراك المصالح والمفاسد بعيداً عن نور الوحي كما يعتقد الليبراليون، فما الفائدة من إنزال الكتب وإرسال الرسل، إنَّ هذا الاعتقاد قد يقودهم إلى أمرٍ خطيرٍ للغاية، ألا وهو اتِّهام الله جل وعلا بالعبث في أفعاله وتقديره،؛ لأنَّ من غايات إنزال الكتب وإرسال الرسل تعريف الناس بالشرِّ والخير، وبيان المصالح والمفاسد لهم[3].

يقول أحد الليبراليين:" نحن مطلوبٌ منا أن نُمارس السياسة وفق مصالحنا، وحيث ما كانت المصلحة كان دين الله، هكذا أفهم الأمور"[4].

وهذا حسن حنفي يُعلي من شأن المصلحة تحت شعار التجديد وحاجات العصر ومتطلباته، حتى جعلها مصدر تشريعٍ مستقلٍ مساوٍ للكتاب والسنة، فهدم بها أصولاً وفروعاً كثيرةً في الدين[5].

---

(١) انظر: الاعتصام، للشاطبي(٣٧٦/٢)، (٨/٣-١٢)، والموافقات، للشاطبي(٢٨٥/٣)، والتعبير عن الرأي ضوابطه ومجالاته في الشريعة الإسلامية، لخالد الشمراني(١٦٠/١-١٦٢)، والمصالح المرسلة، لمحمد الأمين الشنقيطي، والكتاب كله مفيدٌ في هذه المسألة.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٤٥/١١).

(٣) انظر: التطرف المسكوت عنه أصول الفكر العصراني، لناصر الحنيني، ص٣١.

(٤) وهذا القول لأحد الليبراليين وهو مشاري الذايدي، انظر: موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، لمجموعة من الباحثين(٢٢١/١).

(٥) انظر: التراث والتجديد، لحسن حنفي، ص١٧٣، ومن العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(٤٦/١)، (٥٦/١-٥٧)، (٦٢/١-٦٥)، (٦٨/١-٦٩).

٣- الطعن في القواعد والمُسلَّمات وتمييع العقائد الثابتة والتشكيك فيها: لقد حاول الغرب الكافر تدمير عقائد المسلمين، وقطع صلتهم بدينهم عن طريق الغزو العسكري فلم يفلح في ذلك، فانتهج طريقةً أخرى وهي الغزو الفكري والثقافي؛ ولذلك عندما رحل من ديار المسلمين، أبقى له جنوداً من أبناء المسلمين، يتحدَّثون بلسانه، ويُدمِّرون فكرهم وعقيدتهم، وخطَّط عن طريقهم لهدم الإسلام وتعاليمه، والخوض في ثوابت الأمة وعقيدتها، حيث أيقن الغرب الكافر أنَّه لن يستطيع النيل من الأمة حتى ينال أولاً من عقيدتها وفكرها، وقد كان هؤلاء الليبراليون هم أهم معاول هدم العقيدة في نفوس المسلمين[١].

لقد وقف الليبراليون من قضايا التوحيد والإيمان موقفاً في غاية القبح والشناعة، حيث حاولوا هدم عقيدة المسلمين، وأصولهم الدِّينية، والتشكيك فيها، فدعوا إلى الثورة على العقيدة، وعلى الشريعة، والتحرُّر من كلِّ قيدٍ، ويظهر من خلال مقالاتهم التهوين والتقليل من شأن قضايا التوحيد؛ بل وصل الأمر ببعضهم إلى درجة الاستخفاف والسخرية بهذا الأصل العظيم الذي قامت من أجله السماوات والأرض، ويلاحظ في كتابات بعضهم النزعة الإلحادية كما عند حسن حنفي عندما يُريد أن يجعل الإنسان بديلاً عن الله في كلِّ شيء عندما يقول: "الانتقال من الله إلى الإنسان الكامل يُعبِّر عن كلِّ مضمون الله، فكلُّ صفات الله من العلم والقدرة والحياة والسمع والبصر والكلام والإرادة، كلُّها صفات الإنسان الكامل، وكلُّ أسماء الله الحسنى تعني آمال الإنسان وغاياته التي يصبو إليها، فالإنسان الكامل أكثر تعبيراً عن المضمون من لفظ الله"[٢].

إنَّ الليبراليين قد حرَّفوا مفهوم الإيمان، وأخرجوه عن مدلوله الشرعي، فيقول قائلهم: "الإيمان في عصرنا يعني الإنتقال إلى إدراكٍ عميق لمنهجية الخلق والتكوين، وهي مرحلةٌ إيمانيةٌ لم يصلها من قبل إلا الذين اصفاهم الله"[٣]، ويكفي أن يتحقَّق في الإيمان المعاصر لديهم ركنان فقط هما: الإيمان بالله واليوم الآخر[٤]؛ وذلك لإدخال اليهود والنصارى في مفهوم الإيمان؛ بل وعند بعض الليبراليين يُفتح المجال للبوذية وكلِّ الأديان الوضعية للدخول في سفينة النجاة[٥].

إن الإيمان بالمفهوم الليبرالي الحديث يقبل كلَّ شيءٍ غريب حتى فكرة موت الله وغياب الله عن العالم، فإنَّه يقبلها ويقرُّ بها[٦]، وبناءً على هذا المفهوم الجديد للإيمان، فإنَّ كلَّ الذين اعتُبروا مُلحدين في التاريخ الإسلامي أو الغربي، يُمكن اعتبارهم مؤمنين؛ لأنَّ لهم بالمفهوم الليبرالي إيمانهم الخاص،

---

(١) انظر: أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، لعلي جريشة ومحمد الزيبق، ص١٥-٢٠.

(٢) التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، لحسن حنفي، ص١٢٤.

(٣) العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، لمحمد حاج حمد(٢/٤٩٧).

(٤) انظر: نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، لمحمد شحرور، ص٣١.

(٥) انظر: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، لأركون، ص٨٤.

(٦) انظر: قضايا في نقد العقل الديني، لأركون، ص٢٠٧ .

ولا يمكن أن يخرجوا عن الإسلام، فقد كانت لهم طقوسهم وشعائرهم الخاصة[١]، والمرء لكي يكون مسلماً عندهم لا يحتاج إلى الإيمان بالجنِّ والملائكة[٢]، ولا يحتاج للفرائض الشعائرية أو القبول الساذج للحياة الآخرة كما يزعمون[٣].

يقول حسن حنفي: "إنَّ أمور المعاد في نهاية الأمر ما هي إلا عالمٌ بالتمني عندما يعجز الإنسان عن عيشه بالفعل في عالمٍ يحكمه القانون، ويسوده العدل؛ ولذلك تظهر باستمرارٍ في فترات الاضطهاد، وفي لحظات العجز، وحين يسود الظلم، ويعمُّ القهر، كتعويضٍ عن عالمٍ مثاليٍ يأخذ فيه الإنسان حقه،... أمور المعاد في أحسن الأحوال تصويرٌ فنيٌّ يقوم به الخيال تعويضاً عن حرمانٍ في الخبز أو الحرية أو القوت أو الكرامة"[٤].

وكذلك الشرك بالله ﷻ عند الليبراليين لم يعُد هو التوجُّه بالعبادة إلى غير الله؛ بل أصبح يعني "الثبات في هذا الكون المُتحرِّك، وعدم التطوُّر بما يتناسب مع الشروط الموضوعية المتطورة دائماً، فالتخلُّف شركٌ، والتقدُّم توحيد"[٥].

ويقول حسن حنفي: "إنَّ التوحيد هو توحيد الأمَّة والفكر، وليس توحيد الآلهة"[٦].

ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ بل يرفض بعضهم كلَّ ما جاء عن الغيب واليوم الآخر، أو يقوم بتأويله تأويلاً تلفيقياً غريباً، فمثلاً يقول محمد شحرور: "الكون ماديٌّ، والعقل الإنساني قادرٌ على إدراكه ومعرفته، ولا يُوجد حدودٌ يتوقف العقل عندها، وكلُّ ما في الكون ماديٌّ، ولا يعترف العلم بوجود علمٍ غير ماديٍّ يعجز العقل عن إدراكه"[٧].

ويقول نصر أبو زيد: "الغيبيات عموماً كالعرش والكرسي والملائكة والجن والشياطين والصراط والسجلَّات وغير ذلك ليست إلا تصوراتٍ أسطورية"[٨].

ويقول الصادق النيهوم: "العالم الآخر أسطورةٌ اخترعها الكهنة؛ ليُسيطروا على الناس ويحكموهم"[٩].

---

(١) انظر: من فيصل التفرقة إلى فصل المقال ص ٩ .

(٢) انظر: في فكرنا المعاصر، لحسن حنفي، ص٩٣ .

(٣) انظر: قضايا في نقد العقل الديني، لأركون، ص٨١ .

(٤) من العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(٤/٦٠٠).

(٥) الكتاب والقرآن، لمحمد شحرور، ص٤٩٦.

(٦) حوار المشرق والمغرب، لحسن حنفي، ص٥٤.

(٧) الكتاب والقرآن، لمحمد شحرور، ص٤٣.

(٨) النص والسلطة والحقيقة، لنصر حامد أبو زيد، ص١٣٥.

(٩) الإسلام في الأسر، للنيهوم، ص٨٢.

ويقول عن البعث: "البعث الذي يُريده القرآن ليس هو البعث بعد الموت؛ وإنَّما هو البعث من عالم الطفولة والتخلُّف إلى عالم التقدم والوعي"(١).

وفي نفس الموضوع يقول حسن حنفي: "قد لا يكون البعث واقعةً ماديةً تتحرك فيها الجبال، وتخرج لها الأجساد؛ بل يكون البعث هو بعث الحزب، وبعث الأمة، وبعث الروح، فهو مواقف شعوريةٌ تُمثِّل لحظة اليقظة في الحياة في مقابل لحظة الموت والسكون"(٢)، "والمقصود بالنفخ في الصور، وقيام الساعة صراع المتناقضات"(٣)، وأمَّا الحور العين فهي تُعبِّر عن الفنِّ والحياة بدون قلق (٤).

ولقد حذَّرنا النبي ﷺ من هؤلاء المُحرِّفين للنصوص، وسمَّاهم دجَّالين، فقال ﷺ: **(يكون في آخر الزمان دجَّالون كذَّابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإيَّاكم وإيَّاهم، لا يُضلُّونكم، ولا يفتنونكم)**(٥).

٤- رفض أحكام الشريعة والتطاول عليها: تدور محاولات الليبراليين لهدم الدِّين حول النَّيل من الإسلام عقيدةً وشريعةً وتاريخاً، ويُثيرون في سبيل ذلك الشبهات والمطاعن، ويتحدثون عن تجديد الدين، وتطوُّر الشريعة، وفصل الدين عن الحياة، وعابوا على الأمة تمسُّكها بالنصوص، وسمُّوا ذلك جموداً، وقالوا: إنَّ علوم الأمة ما عادت تصلح لهذا الزمان(٦).

لقد كان للسنة المطهرة النصيب الأكبر من هذا الرفض والتطاول من قبل الليبراليين، فناصبوها العداء، واتَّهموها بالخواء، ومارسوا عليها الإقصاء، وقاموا بردِّ وإنكار السُّنة صراحةً، ورفضوا الأحاديث الصحيحة بحُجة المصلحة، وأنَّها لا تتوافق مع مُتطلبات العصر ومُستجداته(٧).

يقول محمد شحرور: "بما أنَّ التنزيل هو كلام الله؛ فوجب أن يكون مكتفياً ذاتياً، فلنبحث عن مفاتيح التنزيل داخل التنزيل، بدون صحاحٍ ومسانيد، وبدون قول صحابيٍّ أو تابعي، وعلينا أن نتعامل مع التنزيل مباشرةً بدون خوفٍ منه، ولا خوف عليه، فالله لا ينهزم"(٨).

---

(١) الإسلام في الأسر، للنيهوم، ص١٠٦.

(٢) من العقيدة إلى الثورة، لحسن حنفي(٥٠٨/٤).

(٣) الكتاب والقرآن، لشحرور، ص٢٣٦.

(٤) انظر: العنف والمقدس والجنس في الميثولوجيا الإسلامية، لتركي الربيعو، ص١٤٠.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحة، في مقدمة الكتاب، باب في الضعفاء والكذابين ومن يرغب عن حديثهم، حديث رقم٧.

(٦) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، لمحمد الناصر، ص٥-٧.

(٧) انظر: المرجع السابق، ص٦٢، ص٤١٨.

(٨) تجفيف منابع الإرهاب، لشحرور، ص٢٧.

ويقول الليبرالي شاكر النابلسي: "فتصوَّروا كم من التحريف والتأليف طرأ على تراث الحديث النبوي، ولا سيَّما وأنَّ هذا التراث كان تراثاً شفوياً، وليس تراثاً مكتوباً ومُوثَّقاً لدى كُتَّاب العدل،... خمسة آلاف حديث رواها البخاري ومسلم كاذبة،..."[١].

لقد وقف الليبراليون ضد أحكام الإسلام التشريعية بكلِّ وقاحةٍ، فهم لا يسمحون للتشريعات بأيِّ مساحةٍ في التطبيق، ولو كان في الأحوال الشخصية كالطلاق والزواج والمواريث؛ لأنَّ الشريعة هي العدو الأول لليبراليين، فهي التي تنقل الإسلام من عالم النظريات إلى الواقع، وهي التي تُهيِّئ للمجتمع سياجاً من القوانين، يحميه من عدوان العادين، وهي التي تردع من لم يرتدع بوازع الإيمان[٢]؛ ولأنَّ تطبيق الشريعة الإسلامية شوكةٌ في حلوق أعداء الله، ولذلك كثَّف الكفار جهودهم لإقناع المسلمين للحاق بركب الغربيين في فصل الدِّين عن الحياة، وتلقَّف الليبراليون هذه الدعوة، وأصبحوا ينادون بها في كلِّ محفلٍ واجتماع.

ومن تطاولهم على الشريعة المطهرة فتحهم لباب الاجتهاد في الدِّين من غير ضوابط، بحيث يكون لكلِّ مسلمٍ منه نصيبٌ، ويكون الفقه فقهاً شعبياً، فدعوا إلى اجتهادٍ جماعيٍّ شعبيٍّ، يُشترط في المجتهد فيه أن يكون مستنيراً عقلانياً تقدُّمياً، والانعتاق من قوانين الشريعة، والعمل بالقوانين الوضعية التي تُحقِّق للإنسان الحرية والتقدُّم كما يزعمون[٣].

يقول نصر أبو زيد: "إنَّ الخطاب الديني حين يرفع في وجه العقل والاجتهاد مبدأ لا اجتهاد فيما فيه نصٌّ، يقوم في الحقيقة بعملية خداعٍ ماكرةٍ، يسعى من خلالها لتثبيت دلالته بإعلان نفي الاجتهاد، مُفسحاً المجال لنفي التعدُّد وتثبيت الواقع طِبقاً لما يطرحه هو من آراءٍ واجتهادات"[٤].

ويقول محمد شحرور: "إنَّ الإنسانية الآن لا تحتاج إلى أيَّة رسالةٍ أو نبوة؛ بل هي قادرةٌ على اكتشاف الوجود بنفسها دون نبوات، وقادرةٌ على التشريع بنفسها بدون رسالات، والإنسانية اليوم أفضل بكثيرٍ من عصر الرسالات؛ لأنَّ البشرية كانت بحاجةٍ إليها للرُّقي، أمَّا نحن فلا، فالبكاء على عصر الرسالات لا جدوى منه؛ لأنَّنا الآن في مستوى أرقى معرفياً وتشريعياً وأخلاقياً وشعائرياً"[٥]، ولذلك فإنَّ الليبراليين يصفون القوانين المُعارضة للشريعة، والمستوردة من دول الكفر، بأنَّها عصريةٌ وإنسانيةٌ

---

(١) انظر: مقال، دور الفقهاء في ذم النساء، لشاكر النابلسي، نشر بتاريخ ٢٠٠٧/١/١٧م، من موقع www.ahewar.com

(٢) انظر: الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، ليوسف القرضاوي، ص١٠٦.

(٣) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، لمحمد الناصر، ص٤١٨-٤١٩.

(٤) نقد الخطاب الديني، لنصر أبو زيد، ص١٢٥.

(٥) تجفيف منابع الإرهاب، لشحرور، ص٢٦.

ومتطورةٌ، في الوقت الذي يذمُّون الشريعة وأحكامها، ويصفونها بأنَّها جامدةٌ أو رجعيةٌ أو غير قابلةٍ للتطبيق، وأنَّ أحكامها فيها قسوةٌ ووحشية[1].

لقد أقرَّت الليبرالية القوانين الوضعية في بعض البلاد الإسلامية، فأباحت الخمور وشربها، وصنعها واستيرادها والاتِّجار فيها، ولم ترَ في ذلك جريمةً تستحق العقوبة، كما أقرَّت جريمة الزنى، ما دام وقوعها بتراضي الطرفين، وتهجَّموا على العقوبات المنصوص عليها في الكتاب والسنة[2].

يقول محمد الشرفي: "يتحتم حصر معنى الزنا في العلاقة بين رجلٍ وامرأةٍ أحدهما متزوجٌ؛ لأنَّ هذه العلاقة فقط يمكن اعتبارها جناية"[3].

ويقول محمد شحرور عن أحكام المواريث: "الخلاف على النِسب والحُصص ليس له علاقةٌ بالحلال والحرام"[4].

وترتَّب على هذه النظرة للنصوص إنكار التشريعات؛ بل وإنكار الفرائض، والزعم بأنَّ أركان الإسلام موضوعةٌ ومُحرَّفةٌ.

يقول أركون: "كما نجد أنفسنا مع أركان الإسلام المزعومة التي تضمُّ الشعائر فقط، أمام تحريفٍ خطير، فهل الشعائر من إقامة الصلاة والصوم وحجِّ البيت والزكاة التي افترضوا أنَّها أركان الإسلام فطريةٌ، إنَّ الزكاة والصوم يتعارضان مع الفطرة، والجهاد ضد الفطرة، وباختصار الشعائر كلُّها ضدُّ الفطرة"[5].

إنَّ الليبراليين يدعون دعوةً متكرِّرةً إلى تغيير الفقه، ويدَّعون أنَّ الشريعة ثابتةٌ والحياة متطورةٌ، والثابت لا يفي بمتطلبات المتطور، ومن ثمَّ كان لا بدَّ من إيجاد مصدرٍ آخرٍ للتشريع، يعتمد على العلم العصري، والتجارب الإنسانية[6].

يقول محمد شحرور: "إنَّ المسلمين في العصر الحاضر يعيشون أزمةً فقهيةً حادَّة، وثمَّة صيحاتٍ صادقةٍ تقول إنَّنا بحاجةٍ إلى فقهٍ جديدٍ معاصرٍ إذا أردنا أن نخترق الفقه الإسلامي الموروث"[7]، وعليه يُطالب بتغيير معالم الفقه، وتغيير أهم المقاصد التي شُرعت الأحكام لحمايتها وصيانتها، فيقول: "فنحن نقترح استبدال هذا البند ببندٍ آخرٍ بديلٍ هو الحفاظ على حريَّة الاختيار عند الإنسان وحمايتها، ثمَّ نرفعه بحيث يصبح هو البند الأول في مقاصد الشريعة،... ومرةً أخرى تدعونا

---

(١) انظر: الإسلام والحرية، لمحمد الشرفي، ص٨٩.

(٢) انظر: الحلول المستوردة، ليوسف القرضاوي، ص ٧٣.

(٣) الإسلام والحرية، لمحمد الشرفي، ص٨٥.

(٤) الإسلام والإيمان، لمحمد شحرور، ص٣٩٤.

(٥) الإسلام والإيمان، لأركون ص٣٦-٣٧.

(٦) انظر: العلمانية، لسفر الحوالي، ص٦٩٣.

(٧) الكتاب والقرآن، لشحرور، ص ٣٢.

مقاصد الشريعة المزعومة إلى الحفاظ على العقل،... وأمَّا قولهم إنَّ قتل المرتد هو للحفاظ على الدين، فهي حالةٌ اقصائيةٌ للآخر، ولا يوجد ملةٌ سماويةٌ أو غير سماويةٍ تحكم بالموت على الخارج منها، إلا في الفقه الإسلامي الموروث"[١].

إنَّ هذا الكلام فيه مخالفةٌ صريحةٌ للأحكام والحدود التي شرعها الله ﷻ، وهو يُكابر ويُعاند الواقع عندما يقول أنَّه لا توجد ملةٌ سماويةٌ أو غير سماويةٍ تحكم بالموت على المُخالف، وكأنَّه لا يرى آلاف القتلى الذين يقتلهم الغرب في ديار المسلمين المختلفة بدعاوى تافهةٍ، وادعاءاتٍ كاذبةٍ كما فعلت أمريكا في العراق وأفغانستان، وكما يفعل اليهود في فلسطين؛ ولكن للأسف فقد وظَّف هؤلاء أقلامهم في ذمِّ الإسلام والمسلمين، وتغافلوا عن جرائم الكفار في حقِّ أبناء جلدتهم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

لقد شكَّك هؤلاء الليبراليون في حكم الله ﷻ، وفي أوامره ونواهيه، واعترضوا على شرعه، وزعموا أنَّ الحدود كلَّها مرفوضةٌ، وأنَّ التعدد في النكاح جريمةٌ، وأنَّ الطلاق ممنوعٌ، وأنَّ جعل القوامة في يد الرجل كبتٌ للحرِّيات، وانتهاكٌ لحقوق المرأة، وفي مقابل ذلك أباحوا التعامل بالربا، وشرب الخمور، والتعرِّي والسفور، والزواج من الكافرات، وترك الصلاة والزكاة، وأباحوا الإفطار في رمضان، وبذلك تحولَّ الاجتهاد في آخر الأمر إلى مطابقة الحضارة الغربية، وجحد النصوص الواضحة المُحكمة من الكتاب والسنة"[٢]، وسنجد في نهاية المطاف أنَّ الليبراليين يدعون إلى السير في ركاب الغرب تماماً، ويُضفون عليه طابع أنَّه منهجٌ عقليٌّ متحضرٌ[٣].

٥- القول بتاريخية[٤] النَّص الشرعي: إنَّ القول بتاريخية النصوص الدينية من أظهر علامات الليبراليين المُميزة لهم في منهجهم عن غيرهم، ويقصد الليبراليون بهذه الدعوى أنَّ النَّص الديني بشريٌّ، له ظروفه التاريخية، ويجب أن يُؤوَّل إلى معانٍ حديثةٍ متوافقةٍ مع مقتضيات العصر[٥]، وأنَّ الحقيقة تاريخيةٌ، تتطوَّر بتطور التاريخ، وبناءً على ذلك اتَّجهوا إلى تفسير الدِّين تفسيراً مادياً بعيداً عن الإيمان بالغيب والوحي، معتبرين أنَّ الأديان والوحي ما هي إلا نتاجٌ لتطوُّر العقل عبر التاريخ والتجارب، مساوين بذلك بين الدِّين الحق والأديان المُحرَّفة الوضعية[٦].

---

(١) تجفيف منابع الإرهاب، لشحرور، ص٢٦٧-٢٧٠.

(٢) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، لمحمد الناصر، ص٤٠٥.

(٣) انظر: التطرف المسكوت عنه أصول الفكر العصراني، لناصر الحنيني، ص١٠٠.

(٤) النظرية التاريخية هي النظرية الشاملة التي تنطلق من أنَّ الحقيقة تتطور بتطور التاريخ، وتنظر إلى العالم بوصفه مجال فعل الإنسان، وبالتالي لا يكون هناك أي مجال للحديث عن أي معرفة إلا بالنسبة إلى الإنسان من خلال ارتباطها بالظروف التاريخية، فالإنسان هو الكائن الواعي التاريخي الوحيد. انظر: موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد(٢/٥٦١)، والمعجم الفلسفي، لجميل صليبا(١/٢٢٩)، والمعجم الفلسفي، لمراد وهبة، ص١٥٥-١٥٦.

(٥) انظر: دراسات إسلامية، لحسن حنفي، ص١٢٨، ص٣٠٠.

(٦) انظر: موقف الاتجاه العقلاني الإسلامي المعاصر من النص الشرعي، ص٤٦٣.

ويُعتبر أركون من أوائل المُفكِّرين الليبراليين الذين أثاروا قضية تاريخية القرآن، وارتباطه بلحظةٍ زمانيةٍ ومكانيةٍ معينة، ثمَّ تتابعت كتابات الليبراليين عن تاريخية النَّص الشرعي، وحاولوا توظيف بعض علوم القرآن كأسباب النزول والمكي والمدني والناسخ والمنسوخ لاثبات ذلك[١]؛ بل ويرون أنَّ "إخضاع الظاهرة الدينية للبحث التاريخي والنقدي لا يتمُّ إلا بالفصل بين النَّص الديني المُؤسِّس، والتفاسير اللاحقة له، وتعريض تلك التفاسير إلى نقدٍ جذريٍّ، يُبيِّن مدى تواطئها مع عصرها الذي ظهرت فيه، فهي تُلزم أهلها وعصرها، ولا تُلزمنا بشيءٍ"[٢].

إنَّ الموقف الليبرالي من الإسلام عموماً ليس مُستغرَباً إلَّا لكونه يصدر من أناسٍ يزعمون أنَّهم مسلمون، ويزعمون أنَّ الإسلام ما هو إلا امتدادٌ للأساطير والوثنيَّات السابقة، كعبادة القمر مثلاً؛ ولذلك يزعمون أنَّ العبادة العروبية جاءت عبادةً قمرية، وتحتفظ إلى اليوم بقدسيَّة القمر، فالشهور قمريةٌ، والتاريخ قمريٌّ، والصيام قمريٌّ، والزمن العربي كلُّه قمري[٣].

إنَّ الليبراليين يزعمون أنَّ الإسلام احتفظ ببعض الشعائر والطقوس من الجاهلية وأديان الشرق القديم مثل الحج، والاعتقاد بالجن، وتقديس الحجر الأسود، والختان وعذاب القبر، وبعض التصوُّرات الأسطورية الأخرى، واستخدمها من أجل إعادة توظيف خطابٍ اجتماعيٍّ قديمٍ، بغية بناء قصرٍ إيديولوجيٍّ جديد[٤]؛ ولذلك يُقرِّر الخطاب العلماني أنَّ الرسالة المحمديَّة لم تكن أحسن حظاً من سابقاتها[٥]، وأنَّ الإسلام لم يُفلت من قواعد التحليل التاريخي والنَّقدي[٦]، وأنَّه كظاهرةٍ دينيةٍ لا يختلف عن بقية الأديان في الخضوع للتاريخية [٧]، وسيُصبح الإسلام كما يزعمون بفعل تيار العولمة الذي لا يُقاوم، وبفعل الحداثة المُكتسِحة شيئاً بالياً لا معنى له، وسوف يتبخَّر ويذهب مع الريح[٨]، وسينهار الإسلام المثالي، ويبقى الإسلام التاريخي للذكرى والدراسة فقط كما حصل للمسيحية[٩]، فالإسلام في

---

(١) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٢٢٧، ص٢٤٤.

(٢) انظر: مجلة قضايا إسلامية معاصرة، الندوة السنوية في حج عام ٢٠٠٥، نقلاً عن حقيقة الليبرالية، لعبد الرحيم السلمي، ص٤٧٨-٤٧٩.

(٣) انظر: رب الزمان، للقمني، ص١٦٨.

(٤) انظر: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، لأركون، ص١٠٨، وتاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص٢٣١، والنص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، لطيب تيزيني، ص١١٣، والإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص٢٦.

(٥) انظر: نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي لمحمد شحرور، ص٣٤٨ .

(٦) انظر: نافذة على الإسلام، لأركون، ص١٧١.

(٧) انظر: قضايا في نقد العقل الديني، لأركون، ص٣٢٦، ص١٩٤، وأين هو الفكر الإسلامي المعاصر، لأركون، ص١٦٩، وإشكالية قراءة النص القرآني في الفكر العربي المعاصر، لإلياس قويسم، ص٢٠١.

(٨) انظر: قضايا في تقد العقل الديني، لأركون، ص٦٠.

(٩) انظر: المرجع السابق، ص٣٢٨.

نظر الليبراليين ما هو إلا نتاج الممارسة التاريخية للبشر، وبالتالي فهو يتطوَّر ويتغيَّر، وهو يخضع للتاريخية مثله مثل أي شيءٍ على وجه الأرض[١].

وبناءً على ذلك فمن الخطأ عند الليبراليين النظر لقيم الإسلام على أنَّها حقائق مطلقةٌ، ومن الخطأ انتزاعها من مشروطيتها التاريخية[٢]؛ لأنَّ الإسلام بزعمهم رسالةٌ موجَّهةٌ إلى أناسٍ بأعيانهم في القرن السابع الميلادي، ولذلك فيها ظواهر تتناسب مع ثقافة ذلك العصر كالجنة وإبليس والشياطين والملائكة وغير ذلك، وهي اليوم بعيدةٌ عن التصوُّرات الحديثة، وليست لها الدلالات ذاتها التي كانت موجودةً في ذلك العصر[٣]؛ ولذلك يرى أركون أنَّ تحقيق الإسلام لمهمته الروحية قد يحصل دون أن تُؤدَّى الطقوس والشعائر بالضرورة، فليس من الضروري في نظره أن يحتشد الناس جماعاتٍ في مسجدٍ لإقامة الصلاة، ذلك أنَّ الصلاة عنده مسألةٌ شخصيةٌ كما في الديانات الأخرى[٤].

إنَّه لكي تتحقَّق تلك النظرة التاريخية للنُّصوص من وجهة نظر الليبراليين، فلا بدَّ من الخروج من الدائرة العقائدية والمعيارية للإسلام، وإعادة تحديد الإسلام بصفته عمليةً اجتماعيةً وتاريخية، وبيان الأصل التاريخي للتصرُّفات والمُعطيات والحوادث، وهذه المهمة التاريخية في نظر الليبراليين تحتاج إلى جرأةٍ في طرح الأسئلة على التراث، وجرأةٍ في الإجابة عليها، مع الحذر من تأثير الإجابات الجاهزة؛ لأنَّ ما حُفظ لنا من التراث هو التراث الرجعي بزعمهم، وكلُّ ما لدينا هو تقليدي الصورة، وهم يريدون الصورة التاريخية الحقيقية العقلانية، كما فعل الغربيون مع الدِّين والكنيسة[٥]؛ ولذلك يرى الليبراليون أنَّ الإسلام الشائع اليوم هو الإسلام السُّني، ولا يوجد إسلامٌ حقيقي[٦]، "فلقد خُرِّب تاريخ الإسلام الأوَّلي، وأُفسد إلى الأبد"[٧] كما يزعم أركون، وما وصل إلينا ما هو إلا الإسلام الرسمي السُّلطوي[٨]، كذلك يرى غيره من الليبراليين أنَّ الإسلام ثورةٌ عربيةٌ خاصةٌ بالعرب، ومن الخطأ أن نُعمِّمه، فليس الإسلام إلا فرعاً للعروبة، وطوراً من أطوار المسيرة العربية، فالله ﷻ معبودٌ عربي

---

(١) انظر: قضايا في نقد العقل الديني، لأركون، ص١٧٤-١٧٥، ومفهوم النص، لنصر أبو زيد، ص١٦.

(٢) انظر: نافذة على الإسلام، لأركون، ص١٧٠ .

(٣) انظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص٤٥ .

(٤) انظر: قضايا في نقد العقل الديني، لأركون، ص٢٨، ص٣٦، ص٣٢٩.

(٥) انظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص٢١٧، وقضايا في نقد العقل الديني، لأركون، ص٢٩٣، ومفهوم النص، لنصر أبو زيد، ص١٤-١٧.

(٦) انظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص٥٢-٥٣.

(٧) المرجع السابق، ص٨٤.

(٨) انظر: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، لطيب تيزيني، ص١٦٧.

بزعمهم، وأوَّل بيتٍ بُني له بأرض العرب من قبل أن يكون الإسلام؛ ولهذا يُصرِّح فهمي هويدي[١] بقوله: "نستطيع أن نذهب إلى عروبة المُرسِل للرسالة التي تُعرف باسم الإسلام،... فالإسلام ليس إلا النظام الديني للأمة العربية، والنظام الذي نزل من السماء ليكون البديل عن الأنظمة الأخرى التي كانت الأمة العربية تُمارس حياتها على أساسٍ منها،... والعرب في كلِّ مكانٍ يرَون الإسلام ديناً قومياً لهم، قبل أن يكون ديناً عالمياً لكلِّ الناس،... والله حاضرٌ في ذهن الإنسان العربي قبل أن يكون الإسلام،... فالعروبة هي الأصل والإسلام هو الفرع"[٢]، ويصف بعض الليبراليين الإسلام بأنَّه حركةٌ محمَّديةٌ[٣]، أو ثورةٌ يُقارن بينها وبين الثورات المعاصرة[٤]، وأنَّ محمداً ﷺ تجسَّدت في داخله أحلام الجماعة البشرية التي ينتمي إليها، وتجسَّدت في أعماقه أشواق الواقع، وأحلام المستقبل[٥]، وقد حتَّمت الظروف، وتظافرت الأحداث بحيث صبَّت الأقدار في يد قريش، وفي البيت الهاشمي الذي أخذ على عاتقه تحقيق هذا الأمر[٦]، واتَّبع محمد ﷺ خطا جده، وأعلن أنَّه نبي الفطرة، وعندما بلغ الأربعين حسم الأمر بإعلانه أنَّه نبيُّ الأمة[٧].

هكذا يبدو الإسلام في المنظور الليبرالي، يرون أنَّه ليس إلا حلماً سياسياً راود عبد المطلب ثمَّ حقَّقه الحفيد محمد ﷺ.

ويزعم الليبراليون أنَّ الإسلام استبدل بالآلهة إلهاً واحداً، وانتسب إلى دين إبراهيم؛ لاستيعاب اليهودية والنصرانية[٨]، وبحثاً عن الهوية القومية للعرب[٩]؛ لأنَّ "تعدد الأرباب أصبح عائقاً دائماً ومستمراً في سبيل المحاولات التي قامت من أجل خلق كياناتٍ سياسية في جزيرة العرب"[١٠].

لقد طالت النَّظرة التاريخية لدي الليبراليين كلَّ الثوابت، حتى القرآن الكريم عند الليبراليين ما هو إلا مجرَّد تراكيب لغوية اقتبسها النبي ﷺ من شعر الجاهلية، وخصوصاً ما يتعلق بوصف القيامة

---

(١) فهمي هويدي كاتب وصحفي مصري، ولد عام ١٩٣٧م في محافظة الجيزة بمصر، وتخرج من كلية الحقوق عام ١٩٦٠م، وعمل في المجال الإعلامي محرراً وكاتباً في صحف ومجلات عديدة، ولا يصنف فهمي هويدي علمانياً صرفاً إلا أنه ركب الموجة في بعض المسائل التي يطرحها الليبراليون. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٢٨١.

(٢) انظر: المفترون، لفهمي هويدي، ص١٧٠، ص١٧٤، ص١٨٠، ص١٨١.

(٣) انظر: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، لطيب تيزيني، ص١١٣.

(٤) انظر: الكتاب والقرآن، لشحرور، ص٥٥٥ .

(٥) انظر: مفهوم النص، لنصر حامد أبو زيد، ص٧٤ .

(٦) انظر: رب الزمان، للقمني، ص٢٠٦.

(٧) انظر: الحزب الهاشمي، للقمني، ص٥٤، ص١٣٢، ١٥١، ١٥٣.

(٨) انظر: الخطاب والتأويل، لنصر حامد أبو زيد، ص١٣٥ .

(٩) انظر: مفهوم النص، لنصر حامد أبو زيد، ص٧٢، ٧٤، والحزب الهاشمي، للقمني، ص١١٦ .

(١٠) انظر: الحزب الهاشمي، للقمني، ص٦٦ .

والبعث والجنة والنار[١]، وحتى تسمية ديننا بالإسلام ما هي عند الليبراليين إلا من بقايا بعض الذين عاشوا في الجاهلية حيث كانوا يُسمُّون حنيفيتهم بالإسلام[٢]؛ ولذلك يحرص الليبراليون على الحديث عن إسلاماتٍ مُتعدِّدة؛ ليُمزِّقوا الإسلام تمزيقاً شديداً، فتُحُدِّثوا عن الإسلام الرسمي المرتكز على سلطة الدولة المركزية، والذي مارس بنظرهم دوره في التحريف والتزييف[٣]، وراح يُصفِّي مُعارضيه جسدياً[٤]، وتحدَّثوا عن الإسلام الشعبي[٥]، وهذا النوع من الإسلام في نظرهم لا يتفق مع الإسلام المُحمَّدي إلا في الاسم؛ لأنَّ لكلِّ شعبٍ مسلمٍ عاداته وتقاليده وإسلامه الخاص[٦]، أمَّا الإسلام الذي يطرحه الليبراليون من خلال نظرتهم التاريخية للنصوص فهو بزعمهم إسلامٌ عصريٌّ مستنيرٌ مسايرٌ لروح العصر[٧]، فالإسلام لا يكون صحيحاً بنظرهم إلا بجعله ديناً منفتحاً[٨]، وبالتخلص من الفهم الحرفي للدين، ولن يتمَّ ذلك إلا إذا تمَّت إعادة النظر في الإسلام كُليةً من منظورٍ تاريخي، بحيث يصبح من الضروري أن نُوفِّق بين الإسلام والفكر اللاديني[٩]، وبحيث يُمكن أن يُصبح الإلحاد إيماناً، والإيمان إلحاداً[١٠]، وهذا يقتضي بزعمهم التخلُّص من المفاهيم السائدة عن الإسلام بأنَّه دين الحقِّ، أو الحقيقة المطلقة، أو الدِّين القويم، أو أنَّه النسخة الأخيرة من الدِّين المقبول عند الله ﷻ[١١]، كما أنَّ الإسلام في نظرهم ليس شيئاً جاهزاً يُكتسب بصورةٍ نهائيةٍ؛ وإنَّما هو مُركَّبٌ يجري تشكيله وإعادة إنتاجه باستمرار، ويتنوَّع ويتغيَّر بتغيُّر الظروف والشروط والمُعطيات[١٢]، ولا يوجد إسلامٌ جوهريٌّ حقيقيٌّ نموذجيٌّ؛ وإنَّما الإسلام هو ما طُبِّق في التاريخ[١٣]، وكذلك لا يوجد إسلامٌ مُوَّحدٌ بزعمهم؛ وإنَّما لكلِّ

---

(١) انظر: الحزب الهاشمي، للقمني، ص١٢٢- ١٢٤ .

(٢) انظر: المرجع السابق، ص١١٧- ١١٨.

(٣) انظر: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، لطيب تيزيني، ص١٦٣ -١٦٤، وتاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص١٤٦، ٢٠٢، ٢٠٦.

(٤) انظر: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، لأركون، ص٦٣.

(٥) انظر: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، لطيب تيزيني، ص١٤٧، وتاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص٢٠٢،١٣٢،١٨٠، ونافذة على الإسلام، لأركون، ص١٤، ١٠٦، ولبنات، لعبد المجيد الشرفي، ص٧٧.

(٦) انظر: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، لطيب تيزيني، ص١٥٨-١٥٩.

(٧) انظر: الخطاب والتأويل، لنصر حامد أبو زيد، ص١٩٥- ١٩٧.

(٨) انظر: لبنات، لعبد المجيد الشرفي، ص٥٠، والإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص٤٧.

(٩) انظر: من كلام أركون في حوار مع إحدى المجلات الفرنسية، نقله عبد الرزاق هوماس في كتابه القراءة الجديدة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير، ص١٧١ .

(١٠) انظر: التراث والتجديد، لحسن حنفي، ص٥٣.

(١١) انظر: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، لأركون، ص٦٩.

(١٢) انظر: نقد النص، لعلي حرب، ص١٥٥.

(١٣) انظر: المرجع السابق، ص١٥٣.

واحدٍ تصوُّره المُختلِف للإسلام، وطريقته الخاصة في أدائه وممارسته[1]، ولا يوجد إسلامٌ أصوليٌّ صحيحٌ يمكن استعادته وتطبيقه التطبيق الأفضل[2]؛ لأنَّ الإسلام الحقيقي لم يوجد ولم يُطبَّق لا في هذا الزمان، ولا في صدر الإسلام[3]؛ ولأنَّنا بزعمهم لا يُمكننا اليوم أن نُحدِّد ما هو الإسلام الصحيح، ولا يوجد أيُّ معيارٍ لتحديد ذلك[4]، فمفهوم الإسلام يجب أن يبقى منفتحاً مستعصياً على الإغلاق؛ لكي يقبل الخضوع للتغيُّر المستمر الذي يفرضه التاريخ، فالإسلام لا يكتمل أبداً؛ بل ينبغي إعادة تحديده وتعريفه داخل كلِّ سياقٍ اجتماعيٍ ثقافيٍ، وفي كل مرحلة تاريخيةٍ مُعيَّنة، وهذا هو معنى القراءة التاريخية للإسلام عند الليبراليين، ونتيجتها ألَّا نُسلِّم بالمُسلَّم به[5]، وأن نطرح مفهوماً للإسلام يتجاوز الأطروحات القديمة[6]، ويخرج من الدائرة العقائدية[7]، حتى إن بعضهم يرفض حتى كلمة إسلام، ويستبدلها بكلمة التحرُّر؛ لأنَّ لفظ التحرُّر يُعبِّر عن مضمون الإسلام أكثر من اللفظ القديم[8].

إنَّ نقد النص تاريخياً، ونزع قداسته من نفوس المسلمين من وجهة نظر الليبراليين هو الطريق لهدم واجتثاث الدِّين، ومن أجل ذلك يسعى الليبراليون إلى إزاحة النَّص المُقدَّس من طريقهم، ويعنون بإزاحة المقدس اختراق المُحرَّمات، وانتهاك الممنوعات السائدة أمس واليوم، والتمرد على الرقابة الاجتماعية، واختراق أسوار اللامفكر فيه، والدخول إلى المناطق المُحرَّمة[9]، والسعي إلى خلخلة الاعتقادات، وزحزحة القناعات، وزعزعة اليقينيات، والخروج من الأصول العقائدية[10]، وإعادة النظر في جميع العقائد الدينية عن طريق إعادة القراءة لما قدَّمه الخطاب الديني عامة[11]، ومراجعة كلِّ المُسلَّمات التراثية، وطرد التاريخ التقليدي من منظومتنا الثقافية، وتكريس القطيعة مع الماضي كما فعل الغربيون[12].

---

(١) انظر: نقد النص، لعلي حرب، ص١٥٨.

(٢) انظر: الممنوع الممتنع في نقد الذات المفكرة، لعلي حرب، ص٢٨ .

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٢٧.

(٤) انظر: تاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص١٤٦.

(٥) انظر: نقد الحقيقة، لعلي حرب، ص٥٨ .

(٦) انظر: مفهوم النص، لنصر حامد أبو زيد، ص٢٠ .

(٧) انظر: تاريخية الفكر، لأركون، ص٢١٧.

(٨) انظر: التراث والتجديد، لحسن حنفي، ص٩٩ .

(٩) انظر: الخطاب والتأويل، لنصر حامد أبو زيد، ص١١٦، ٢٣٥.

(١٠) انظر: نقد النص، لعلي حرب، ص٧٢، ١٤٣، ١٤٤ .

(١١) انظر: القرآن من التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، لأركون، ص٦ .

(١٢) انظر: الخطاب والتأويل، لنصر حامد أبو زيد، ص٢٢٨ .

يقول عبد الله العروي[١]: "المطلوب هو اجتثاث الفكر السَّلفي من محيطنا الثقافي؛ لأنَّه كان وسيبقى سبب التخلف؛ ولأنَّه قائمٌ على ثقافةٍ ماضويةٍ، لفظيةٍ، عقيمةٍ، اجترارية، انتهازيةٍ، نفعيةٍ، مُحافظةٍ، رجعيةٍ، تقليديةٍ"[٢]، ولا يُمكن أن تنهض الحياة العربية ويُبدع الإنسان العربي إذا لم تتهدم البنية التقليدية للذهن العربي، وتتغير كيفية النظر والفهم التي وجَّهت الذهن العربي وما تزال تُوجِّهه[٣]، والوسيلة المجدية لذلك عند الليبراليين هي هدم الأصل بالأصل نفسه[٤]، عن طريق التأويل الباطني الذي ينفي النبوة الإسلامية، ويُقيم على أنقاضها دين العقل[٥].

إنَّ هذه الرؤية الليبرالية هذفها تمييع كل الشعائر الإسلامية، واعتبارها طقوساً وثنيةً تحدَّرت إلى القرآن من البيئات والأمم السابقة والجاهلية[٦]، واثبات أنَّ الفقهاء قد مارسوا دورهم في دمجها بالإسلام[٧]، بعكس الرسالة التي تميَّزت بالمرونة؛ ولكن الفقهاء ألغو هذه المرونة[٨]، فقد أصبحت المساجد في نظرهم أوكار الإرهاب[٩]، وبرزت معالم التخلُّف ومظاهره كما يزعمون في تنامي التديُّن الشخصي في صفوف المصلين، والحجاب واللحى[١٠]، وهكذا يُطمس الإسلام الرباني الذي أُرسل به محمدٌ ﷺ، ويبرز الإسلام الليبرالي المُخترَع بأركانه الجديدة العصرية المفتوحة، والقابلة لكلِّ الأفهام والتأويلات، والتي لم تتوقف عند حدٍّ معين؛ لأنَّه لا حدود يمكن الوقوف عندها في الخطاب الليبرالي.

إنَّ الليبراليين يرون أنَّ ما تضمَّنه النَّص الشرعي من أوامر ونواهٍ، إنَّما كانت موجهةً إلى الناس الموجودين في زمن نزول الوحي، وأمَّا من جاء بعدهم، وعاش واقعاً غير واقعهم، فلا يشمله النص الشرعي، ولا تتعلق بهم تلك الأحكام لا أمراً ولا نهياً، ولهم أن يتديَّنوا بخلافها فهماً وتطبيقاً، فهذا عبد

---

(١) عبد الله العروي مفكر مغربي، ولد سنة ١٩٣٣م بمدينة أزمور، وتابع تعليمه بالرباط ثم بجامعة السوربون وبمعهد الدراسات السياسية بباريس، وحصل على شهادة العلوم السياسية عام ١٩٥٦م، وعلى شهادة الدراسات العليا في التاريخ عام ١٩٥٨م، وحصل على الدكتوراه من جامعة السوربون عام ١٩٧٦م، ويعمل حالياً أستاذاً جامعياً بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، وأصدر مجموعة من الكتب باللغتين العربية والفرنسية، وتتميز كتاباته بالنقد الإيديولوجي لتاريخ الأفكار والأنظمة. انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٢٢٧.

(٢) العرب والفكر التاريخي، لعبد الله العروي، ص٢٢٥.

(٣) انظر: الثابت والمتحول، لأدونيس(١/٣٢-٣٣).

(٤) انظر: إشكالية القراءة آليات التأويل، لنصر حامد أبو زيد، ص٢٣٢.

(٥) انظر: الثابت والمتحول، لأدونيس(٢/٢٠٩).

(٦) انظر: النص القرآني، لطيب تيزيني، ص١٥٥،١٥٤ .

(٧) انظر: تاريخية الفكر، لأركون، ص٨١ .

(٨) انظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص١٢١ .

(٩) انظر: الفاشيون والوطن، للقمني، ص٢٠٠ .

(١٠) انظر: العلمانية تحت المجهر، لعزيز العظمة وعبد الوهاب المسيري، ص١٨١.

المجيد الشرفي يرى أنَّ ما فُرض من تفاصيل العبادات والمعاملات هو أثرٌ لمقتضيات البيئة الحجازية البسيطة في عصر الرسول ﷺ، دون غيرها من البيئات[1].

ويرى محمد الشرفي أنَّ أحكام الحدود إنَّما أملتها الظروف التي كان عليها المجتمع آنذاك، حيث كان المجتمع بدائياً، ليس فيه دولةٌ وليس فيه شرطةٌ، وليس فيه سجونٌ؛ وإنَّما يتواثب الناس على بعضهم للانتقام[2]، وهذا يعني عنده أنَّه إذا تغيَّرت أحوال المجتمع، وُوجدت الدولة التي تضبط الأمن، وتُوفِّر السجون، أصبحت الحدود التي تضمَّنتها النصوص غير مُلزمةٍ للمخاطبين، وهذا ما تُطبِّقه بعض الدول اليوم؛ ولكن كانت النتيجة أن امتلأت السجون بمئات الآلاف من اللصوص والمجرمين والمفسدين؛ لأنَّ ما وضعوه من قوانين ليست رادعةً، ولن تكون رادعةً طالما أنَّها تُخالف شرع رب العالمين.

يقول أحد الليبراليين عن آيات الولاء والبراء: "لا مناص من الإقرار بصحَّة الشهادات القرآنية المُقدَّمة من قبل أنصار عقيدة الولاء والبراء؛ لكنَّها تحتمل تفسيراً ربَّما كان هو الأصدق ممَّا يُقدِّمه أنصار الكراهية والدم، إنَّ هذه الآيات لا يمكن بحالٍ تعميم معناها في الزمان المطلق، والمكان المطلق، فالآيات تُحدِّثنا عن زمنٍ بعينه، وظرفٍ بعينه، ويمكن القول بملء الفم، لا لقواعد الفقه البشرية، مثل قاعدة العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، ولا لقاعدة لا اجتهاد مع النص"[3].

وكذلك أصبحت كل التشريعات عند الليبرليين مرفوضة، فالحجاب لم يعُد ملائماً للعصر بزعمهم، ولا لمكانة المرأة وتحرُّرها؛ بل حتى العبادات أصبحت قابلةً للتغيير في هذا العصر، يقول عبد المجيد الشرفي:" فإذا كان النبي ﷺ يؤدِّي صلاته على نحوٍ معين، فذلك لا يعني أنَّ المسلمين مضطرون في كلِّ الأماكن والأزمنة والظروف للالتزام بذلك النحو"[4].

وبناءً على القول بتاريخية النصوص، سينتهي الأمر بالتحلُّل من الأحكام الشرعية؛ لأنَّها نزلت بزعمهم في عصرٍ معين، وتغيُّر العصر يقتضي تغيُّر الأحكام، وسينتهي الأمر كذلك بألا يكون للنصوص الشرعية معنىً ثابت، وما يُفهم عند أهل زمنٍ من أمرٍ أو نهيٍ، يُفهم عند غيرهم بفهمٍ مُغاير، نتيجة تغيُّر الثقافات بين الأزمان، وخضوعها لمقتضيات التاريخ وتغيُّراته[5].

---

(١) انظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص٦١.

(٢) انظر: التطرف المسكوت عنه أصول الفكر العصراني، لناصر الحنيني، ص١٠٠.

(٣) مقال بعنوان:(نظرية أن كل مسلم إرهابي)، للقمني، من الرابط http://quemny.blog.com، بتاريخ ٢٠١٥/١/٣٠م.

(٤) الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، ص٦٢.

(٥) انظر: النص والسلطة والحقيقة، لنصر أبو زيد، ص١٣٩.

يقول حسن حنفي: "لا يوجد دينٌ في ذاته؛ بل يوجد تراثٌ لجماعةٍ معينةٍ، ظهر في لحظةٍ تاريخيةٍ محددةٍ، ويمكن تطويرها طبقاً للحظةٍ تاريخيةٍ قادمة"[١].

ويقول نصر أبو زيد: "إنَّ النَّص القرآني وإن كان نصَّاً مُقدَّساً، إلا أنَّه لا يخرج عن كونه نصَّاً؛ فلذلك يجب أن يخضع لقواعد النقد الأدبي كغيره من النصوص الأدبية"[٢].

ويقول أركون: "إنَّ القرآن ليس إلا نصاً من جملة نصوصٍ أخرى تحتوي على نفس مستوى التعقيد والمعاني الفوَّارة الغزيرة، كالتوراة والإنجيل ونصوص البوذية والهندوسية، وكلُّ نصٍّ من هذه النصوص الكبرى حظي بتوسعاتٍ تاريخيةٍ معينةٍ، وقد يحظى بتوسعاتٍ أخرى في المستقبل"[٣].

ويقول أحد الليبراليين: "والقرآن نثرٌ جاهليٌ، والسجع فيه يجري على طريقة الجاهلية، حين يُخاطب القلبُ الوجدانَ، ولا يُنكر مُتعنِّتٌ أنَّ القرآن وضع للصلوات والدعوات، ومواقف الخوف والرجاء، سوراً مسجوعةً، تُماثل ماكان يُرتِّله المتدينون من النصارى واليهود والوثنية"[٤].

ويقول محمد عابد الجابري: "الوحي سلطةٌ مرجعيةٌ، تُضايق الحاضر، وتُنافس المستقبل والجديد"[٥].

والخلاصة عند الليبراليين أنَّ قضية صلاحية الشريعة لكلِّ زمانٍ ومكانٍ قد انتهت، وهم يتكلَّمون وكأنَّهم مختصون بتفسير الإسلام، ومتبحِّرون في دراسة نصوصه، دون اعتبارٍ لكونه ديناً له مصادره التي تحتاج إلى تخصُّصٍ ودراية، وهي غير متوفرةٍ لدى أصحاب هذه المشاريع، وهذه القراءات جميعها تتفق على طمس الإسلام الحقيقي الذي يدين به المسلمون جميعاً، واعتباره ديناً طواه التاريخ، ومن ثمَّ تسعى لابتكار إسلامٍ جديدٍ لا يمتُّ إلى الأول بأي صلةٍ، حتى الاسم لا يُراد له أن يستمر؛ لكي لا يفهم الآخرون أنَّنا متخلِّفون كما يزعمون.

٦- القول بنسبية[٦] الحقيقة وعدم وجود حقيقة مطلقة: يُقرِّر أصحاب هذه المدرسة أنَّ النَّص الديني كتاباً وسنةً هو نصٌّ ظنيٌّ الدلالة بصفةٍ مطلقة، فهو لا يحتمل معنىً واحداً فقط؛ بل هو مفتوحٌ على

---

(١) التراث والتجديد، لحسن حنفي، ص٢٤.

(٢) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، لنصر أبو زيد، ص ٢٤.

(٣) الفكر الأصولي، لمحمد أركون، ص٣٦.

(٤) من كلام زكي مبارك نقلاً عن العصرانيون وموقفهم من النص، لمحمد الناصر، ص٣٨٧.

(٥) المرجع السابق، ص٣٨٩.

(٦) النسبية هي وضعٌ فلسفي يرى أنَّ كلَّ وجهات النظر صحيحةٌ ومتساويةٌ، وأنَّه لا توجد هناك حقيقةٌ موضوعيةٌ، فما أراه هو الحقيقة بالنسبة لي، وما تراه هو الحقيقة بالنسبة لك، فلا يوجد خطأٌ، ولا توجد حقيقة أكثر مصداقية من الأخرى، ولا يوجد مقياس موضوعي للحقيقة، وبناءً عليها يشكُّ الإنسان في وجود أية حقيقة يقينية، وهذا الشك ينصرف إلى الموضوع ثم إلى الذات، وانتهى الأمر إلى إنكار اليقينيات وأي شكل من أشكال الثبات. انظر: المعجم الفلسفي، لجميل صليبا(٤٦٦/٢)، والمعجم الفلسفي، لمراد وهبة، ص٦٤٤.

احتمالاتٍ كثيرةٍ لأكثر من معنى، ويعتقدون أنَّ: "النَّص المُحكم الذي لا يحتمل إلا دلالةً واحدةً، لا وجود له"[1]، فالليبراليون لا يؤمنون بوجود حقيقةٍ ثابتةٍ في كلِّ زمانٍ ومكان؛ بل الحقُّ عندهم نسبي، فما تراه أنت حقَّاً، يراه غيرك باطلاً، وما تظنُّه اليوم صواباً قد لا يكون غداً كذلك.

يقول أركون: "إنَّ القول أنَّ هناك حقيقةً إسلاميةً مثاليةً وجوهريةً مستمرةً على مدار التاريخ وحتى اليوم، ليس إلا وهماً أسطورياً لا علاقة له بالحقيقة والواقع"[2].

ويترتب على هذه القاعدة عند الليبراليين أنَّ أي فهمٍ جديدٍ للنَّص الديني ينبغي أن يحظى بالاحترام، إذ يمكن في زعمهم أن يكون حقاً، فليس هناك قراءاتٌ صحيحة، وأخرى خاطئةٌ؛ بل القراءات كلُّها صحيحة[3].

يقول أركون: "فالقرآن هو نصٌّ مفتوحٌ لجميع المعاني، ولا يمكن لأيِّ تفسيرٍ أو تأويلٍ أن يُغلقه أو يستنفده بشكلٍ نهائي"[4]، وبناءً على هذا فلا يحقُّ لأحدٍ الادِّعاء بأنَّ ما توصَّل إليه من فهمٍ هو الصحيح دون غيره، حتى ولو كان هذا الفهم قد انعقد عليه إجماع الصحابةﷺ، ويوظِّف الليبراليون هذه الدعوى في شعاراتهم كالمناداة بالتعدُّدية وقبول الآخر، ويقصدون بالآخر اللادينية والإلحاد والفجور، ويرون أنَّه لا بدَّ من التعامل مع جميع هذه الأفكار على قدم المساواة، ولا يحقُّ لأحدٍ الإنكار على أيِّ فكرٍ ما، أو التشنيع عليه؛ لأنَّ الحقيقة المطلقة من وجهة نظرهم غير موجودة.

يقول تركي الحمد: "لن تكون مُتقدِّماً أو صاحب أملٍ في التقدُّم؛ إذا قبلت الرأي على أنَّه حقيقةٌ، والحقيقة على أنَّها مطلقةٌ وليست نسبيةً"[5].

إنَّ الليبراليين بهذه الدعوى لا يدعون العلماء والمجتهدين إلى النظر في النصوص الشرعية التي تحتمل أكثر من معنى لحسم الخلاف فيها؛ بل يدعون كلَّ فردٍ في الأمة أن تكون له قراءته الخاصة به، حتى في النصوص المحكمة التي لا تحتمل إلا معنىً واحداً؛ لينتهي الأمر إلى ما يرتضيه كلُّ قارئٍ من مدلولٍ بحريةٍ مُطلقةٍ، لا يحتكم فيها القارئ إلَّا إلى ضميره؛ بل وتجاوز بعضهم هذا الحدَّ وزعم أنَّ من حقِّ غير المسلمين الذين يعيشون في المجتمع الإسلامي أن يُفسِّروا القرآن بما يُوافق ثقافتهم ومعتقداتهم[6].

وبناءً على هذه الرؤية يُطالب الليبراليين بتغيير المفاهيم والتصوُّرات الصحيحة عن النصوص في عقول أبنائنا، فيقول أحدهم: "إنَّ أول خطوةٍ في مكافحة العصاب الوسواسي للتعصُّب، تكمن في

---

(١) النص القرآني، لطيب تيزيني، ص٢٦١، وانظر: نقد النص، لعلي حرب، ص٢٠.

(٢) الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، لأركون، ص٢٤٦.

(٣) انظر: التراث والتجديد، لحسن حنفي، ص١١٢.

(٤) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص١٤٥.

(٥) من هنا يبدأ التغيير، لتركي الحمد، ص٣٤٧.

(٦) انظر: النص القرآني، لطيب تيزيني، ص٢٢٦.

تقديري في إصلاح مناهج المواد الدينية التي تُقدَّم للناشئة في مراحل التعليم العام، بما يؤدِّي بها إلى أن تُقدِّم مضموناً يُعلِّم الطالب التفرقة بين النَّص الديني في ذاته المتعالية وبين قراءته البشرية، بحيث يتمُّ تعبئته الذهنية الطريَّة الغضَّة بأنَّ النَّص في ذاته هو واحدٌ لا يتعدد، ولا يتنسَّب، أمَّا قراءة البشر لهذا النَّص فهي تتعدَّد وفقا للدوافع الرغبوية للقارئ، وللظروف الزمانية والمكانية والحاجات المعيشية، والنوازل الجديدة التي تُحيط به، سواءً أكان هذا القارئ فرداً أو جماعةً أو مذهباً أو طائفة"[١].

ويقول أركون: "إنَّ القراءة التي أحلم بها هي قراءةٌ حرةٌ إلى درجة التشرُّد والتسكُّع في كلِّ الإتجاهات، إنَّها قراءةٌ تجد فيها كلُّ ذاتٍ بشريةٍ نفسها"[٢]، ويقول على حرب: "النص يتسع للكل، ويتسع لكلِّ الأوجه والمستويات"[٣].

إنَّ الليبراليين يرون أنَّ من حقِّ كلِّ فردٍ أن يتعامل مع النص بالطريقة التي يراها مناسبةً، فكلمة الجيب مثلاً في قوله ﷻ:﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾[النور:٣١]، ليس شرطاً عند الليبراليين أن نفهم منها ما فهمه الصحابة، وطبَّقوه في حياتهم من ستر المرأة لجسدها بالكامل، فشحرور مثلاً يفهم منها أنَّها تعني ما كان مُكوَّناً من طبقتين، وعليه فحجاب المرأة الشرعي عنده بات مقصوراً على الفرج والثديين والإبطين فقط[٤]، ويُفسِّر قوله ﷻ:﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا ﴾[المائدة:٣٨]، أي:"كفوا أيديهما عن السرقة بالسجن مثلاً"[٥]، وآخر يفهم من قوله ﷻ:﴿ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾[النساء:١]، بأنَّ النفس الواحدة هي البروتون، وزوجها الإلكترون[٦].

إنَّ النتيجة المتوقعة من هذه الدعوى الباطلة، إهدارُ فهم علماء الأمة للنصوص الشرعية، وذلك لدعوى الليبراليين بأنَّ فهم السلف للنصوص لا يعدو أن يكون قراءةً من القراءات التي يحتملها النص؛ وبالتالي فهي غير ملزمةٍ لمن بعدهم؛ بل ويُصرِّحون أنَّ فهم الصحابة للدِّين كان فهماً خاطئاً[٧]، وأنَّهم قد غفلوا عن الوجه الحقِّ من الإسلام، وأنَّ الخطأ قد توالى بالتناقل والتوارث إلى اليوم[٨].

---

(١) نقلاً عن التطرف المسكوت عنه أصول الفكر العصراني، لناصر الحنيني، ص٣١.

(٢) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، لأركون، ص٧٦.

(٣) نقد الحقيقة، لعلي حرب، ص٤٥.

(٤) انظر: الكتاب والقرآن، لشحرور، ص٦٠٤.

(٥) نحو أصول جديدة، لشحرور، ص٩٩.

(٦) انظر: القرآن والعلم الحديث، لعبد الرزاق نوفل، ص١٣٦.

(٧) انظر: الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، لأركون، ص٣٢٦-٣٢٧.

(٨) انظر: الإسلام بين الرسالة والتاريخ، لعبد المجيد الشرفي، والكتاب كله يناقش هذه الفكرة ليثبتها.

إنَّ الليبراليين لا يريدون فهم علماء الأمة للنُّصوص، لا قديمًا ولا حديثًا بدعوى أنَّ الإسلام ليس حكرًا على أحد، فيسخرون من فهم السلف، ويزعمون بأنَّه فهمٌ صحراويٌّ بدويٌّ للقرآن والسنَّة[1]؛ ولذلك فقد شنَّ الليبراليون الحملات على من يُبيِّن ويلتزم بقواعد السلف في الفهم والتفسير، كالإمام الشافعي- رحمه الله- الذي كان من أوائل ألَّف في أصول الفقه، وبيَّن قواعد السلف في فهم النصوص.

يقول أركون عن الإمام الشافعي وكتابه الرسالة: "لقد ساهم في سجن العقل الإسلامي داخل أسوارٍ منهجيةٍ معينةٍ"[2].

ويقول عن تحديد الإمام الشافعي لمصادر التشريع بأنَّها الكتاب والسنة والإجماع والقياس: "هذه هي الحيلة الكبرى التي أتاحت شيوع ذلك الوهم الكبير بأنَّ الشريعة ذات أصلٍ إلهي"[3].

ويقول عبد المجيد الشرفي: "من غير المقبول اليوم أن نتمسَّك بمنهج الشافعي الأصولي، إذ فهم الكتاب والسنة على نحو فهم الشافعي وتأويله، لا يُؤدِّيان إلَّا إلى مأزقٍ منهجي"[4].

ولذلك ينادي الليبراليون بوضع قواعد جديدةً لأصول الفقه، يقول محمد الشرفي: "وقواعد الفقه التي وضعها الفقهاء ليست في حقيقتها ذات طبيعةٍ دينية؛ وإنَّما هي قواعد من وضع بشر، فكانت منافيةً للعدل والمساواة وحقوق الإنسان"[5].

إنَّنا لو سرنا مع الليبراليين على هذا النظريَّة في تفسير النصوص، فسينتهي الأمر إلى فوضى في الآراء والأفكار لا حدَّ لها، وبذلك تنهدم الحياة بأكملها، كما قال ﷻ: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ**﴾[المؤمنون:٧١]، ويحصل هذا الفساد؛ لأنَّ الحياة تقوم على ما تواضع عليه الناس من دلالاتٍ لغويةٍ يتمُّ التفاهم بينهم بناءً عليها، ولو انتفى ذلك، فإنَّ النتيجة تكون ألَّا يدرك أحدٌ مدلول خطاب الآخر؛ فينعدم التواصل والتعاون؛ بل لن يستطيع أحدٌ أن يُحاكم أحداً إلى أيِّ قانون، فلكلِّ واحدٍ منهم قراءته الخاصة به، فضلاً عن التعبد لله ﷻ وفق مُراده في النصوص الدينية، والنتيجة الحتمية لهذه الدعوى أن يصبح القرآن والسنَّة ألفاظاً لا معاني لها يُرجع إليها؛ لأنَّها فقدت صفة المرجعية، وفقدت القطعية، وعندها تصبح نصوص الوحي بيننا ولا نستفيد منها شيئاً ولا علماً، وقد جاء في حديثٍ صحيحٍ أن النبي ﷺ، نبَّأ بهؤلاء القوم، وحذَّر منهم، فعن زياد

---

(١) انظر: بدعة إعادة فهم النص، للمنجد، ص٥٠.

(٢) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص٧٤.

(٣) المرجع السابق، ص٢٩٧.

(٤) لبنات، لعبد المجيد الشرفي، ص١٤٣.

(٥) الإسلام والحرية، لمحمد الشرفي، ص٦٤.

بن لبيد[1] ﷺ قال: **(ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: وذاك عند أوان ذهاب العلم، قلتُ: يا رسول الله وكيف يذهب العلم، ونحن نقرأ القرآن، ونُقرئه أبناءنا، ويُقرئه أبناؤنا أبناءهم إلى يوم القيامة؟، قال: ثكلتك أمك زياد إن كنتُ لأراك من أفقه رجلٍ بالمدينة، أوليس هذه اليهود، والنصارى، يقرءون التوراة، والإنجيل لا يعملون بشيءٍ مما فيهما)**[2].

إنَّنا إذا اتبعنا هذه الفوضى في إعادة قراءة النص، سنتخبط في ضلالٍ مبين، يؤدِّي إلى زلزلة أركان الدين، وانتشار الإلحاد والزندقة؛ بحجة إعادة قراءة النص وفقاً لمبدأ نسبية الحقيقة، فقد يقوم أحد المُقرئين في بيتٍ للعزاء بطلب مبلغٍ كبيرٍ أجرةً على قراءته، وإذا قيل له: هذا كثير يا شيخ، لِمَ تأخذ أجرةً مرتفعةً على القرآن؟، سيقول لهم: أليس الله يقول:﴿ **وَلَا تَشْتَرُوا بِآَيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ**﴾[البقرة:٤١]، وكذلك آخر يُفتي بعدم وضع اليدين على الصدر في الصلاة، مستدلَّاً بقوله ﷻ:﴿ **الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ**﴾[التوبة:٦٧]، وهكذا تستمر الفوضى حتى تطال كلَّ معالم الدين.

إنَّه إذا كان الأمر كما يقول الليبراليون من أنَّ كلَّ واحدٍ يفهم النَّص كما يريد، لما كان للنَّص الشرعي فائدة، ولا كان لتخصيص القرآن بلغة العرب مغزى، ولكان أمر الله باتباع الحقِّ والتزامه عبثاً لا معنى له، أيُعقل أن يكون المراد الإلهي بالوحي الذي أنزله الله ﷻ، وحضَّ على اتباعه، وأمر بالاستسلام له، وعاقب على الإعراض عنه، متروكاً لكلِّ إنسانٍ يفهمه كما يريد، هذا يتناقض ويتعارض مع حكمة الله ﷻ، الذي خلق فسوى، وقدَّر فهدى، وأمر عباده باتِّباع سبيل الحق لا غيرِه، فأين هذا الصراط المستقيم الذي أمر الله ﷻ باتِّباعه إذا كان لا أحد يملك الحقيقة، وأين هي تلك السبل التي نهانا الله ﷻ عن اتباعها إذا كانت الحقيقة نسبية؟!.

إنَّ وجود الحقيقة المطلقة في الإسلام أمرٌ مقطوعٌ به، فإنَّ الله ﷻ قد توعَّد من خالف الطريق القويم الذي هو الحقُ المُطلق بالعذاب والخسران، فقال ﷻ:﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾[آل عمران:٨٥]، وقال ﷻ أيضاً:﴿ **وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ**

---

(١) زياد بن لبيد بن ثعلبة بن سنان بن عامر بن عدي بن أمية بن بياضة الخزرجي، ويكنى أبا عبد الله، شهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان يكسر أصنام بني بياضة، خرج إلى رسول الله بمكة فأقام معه حتى هاجر إلى المدينة فهاجر معه، فكان يقال زياد مهاجري أنصاري، شهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله، وكامل عاملا للنبي ﷺ على حضرموت، وكان له بلاء حسن في قتال أهل الردة، مات في أول خلافة معاوية.انظر: الطبقات الكبرى، لابن سعد(٣٤٨/٣)، الاستيعاب، لابن عبد البر(٥٣٣/٢)، أسد الغابة، لابن الأثير(٣٣٩/٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب ذهاب القرآن والعلم، رقم ٤٠٤٨، وصححه الألباني في المشكاة ٢٧٧.

﴿ ... بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾[النساء:١١٥]، فهو سبحانه يُريد الخير والهداية لعباده، كما قال في كتابه:﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾[النساء:٢٧].

وفي تقرير مبدأ وجود الحقيقة المُطلقة يقول الإمام الشافعي– رحمه الله–: "كلُّ ما أقام الله به الحُجة في كتابه أو على لسان نبيه منصوصاً بيِّناً، لم يحلَّ الاختلاف فيه لمن علمه"[١]، وهذه الحقائق المطلقة هي ما شرعه الله ورسوله من الأقوال والأعمال ممَّا ليس للاجتهاد فيه مجالٌ، وحقيقتها اتِّباع الرسول ﷺ والدخول تحت طاعته، وليس لأحدٍ أمام ذلك إلَّا التسليم والإذعان، كما قال ﷻ:﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾[الأحزاب:٣٦]، وقال جل وعلا:﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[النساء:٦٥].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– في الردِّ على من يقول بنسبية الحقيقة، وأنَّه لا وجود للحقيقة المطلقة في الدِّين: "فحُكي عن البعض أنَّه جعل جميع العقائد هي المؤثِّرة في الاعتقادات، ولم يجعل للأشياء حقائق ثابتةً في نفسها، يوافقها الاعتقاد تارةً، ويخالفها أخرى؛ بل جعل الحقَّ في كلِّ شيءٍ ما اعتقده المعتقد، وجعل الحقائق تابعةً للعقائد، وهذا القول على إطلاقه وعمومه لا يقوله عاقلٌ سليم العقل"[٢].

وقال– رحمه الله– أيضاً: "هذا المذهب أوله سفسطة، وآخره زندقة،... وأمَّا كون آخره زندقة؛ فلأنَّه يرفع الأمر والنهي والإيجاب والتحريم والوعيد في هذه الأحكام، ويُبقى الإنسان إن شاء أن يُوجب، وإن شاء أن يُحرِّم، وتستوي الاعتقادات والأفعال، وهذا كفرٌ وزندقةٌ"[٣].

وقال ابن الجوزي– رحمه الله–: "قد زعمت فرقةٌ من المتجاهلين أنَّه ليس للأشياء حقيقةٌ واحدةٌ بنفسها؛ بل حقيقتها عند كلِّ قومٍ على حسب ما يُعتقد فيها"[٤].

---

(١) الرسالة، للشافعي(٥٦٠/١).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٣٥/١٩).

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٤٤/١٩–١٤٥).

(٤) تلبيس إبليس، لابن الجوزي(٣٩/١).

ويُبيِّن شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- الحكم الشرعي فيمن يُشكِّك في الحقائق الثابتة في الدين، ويضرب مثالاً على ذلك بنعيم الجنَّة، فيقول:"الأكل والشرب في الجنة ثابتٌ بكتاب الله وسنة رسوله وإجماع المسلمين، وهو معلومٌ بالاضطرار من دين الإسلام، وكذلك الطيور والقصور في الجنة بلا ريب، كما وُصف ذلك في الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ، وكذلك إنَّ أهل الجنة لا يبولون ولا يتغوطون ولا يبصقون، لم يخالف في ذلك من المؤمنين بالله ورسوله أحدٌ، وإنَّما المخالف في ذلك أحد رجلين، إمَّا كافرٌ، وإما منافق"[1].

إنَّنا نقول لليبراليين بعد كلِّ هذا: هل يجوز عندكم أن يفهم أيُّ إنسانٍ نصوص علم الطب والهندسة وغيرهما حسب فهمه هو، وهل يحقُّ له أن يُمارس هذه الأنشطة عملياً في أرض الواقع إلى درجة التشرد والتسكع في كلِّ الاتجاهات كما يقول أركون عن النَّص الديني، أم هذه العلوم تحتاج لمُتخصِّصٍ؛ ليفهمها على مرادها الصحيح، ثمَّ إذا مرض أحدكم بمرضٍ عُضال، فهل يقبل أن يذهب إلى الحدَّاد أو النجَّار ليعالجه، أم يختار طبيباً حاذقاً فهماً يصف له العلاج الناجع؟، والإجابة معروفةٌ، إذاً فلمَ الجُرأة على نصوص الوحي، وتقديم كلام البشر وعلومهم عليها، نسأل الله السلامة والعافية.

إنَّ هؤلاء الليبراليين يُريدون دينًا آخر غير الإسلام، ويُريدون طريقةً أخرى لفهمه، وينتهجون سياسة بني إسرائيل في تحريف الكلم عن مواضعه، فيريدون الاستغناء عن النصوص بأهوائهم، والخلاصة التي يريدون الوصول إليها كما صرَّح بذلك أحد كُبرائهم عندما قال: "وهذا الفهم الجديد للدِّين الذي تُنتجه هذه القراءة هو فهمٌ قد ينتهي من حيث المبدأ إلى مخالفة كلِّ ما هو سائدٌ من فهم، سواءٌ تعلَّق الأمر بالمرتكزات العقدية، أو بالشرائع والأخلاق[2].

٧- **تشويه التاريخ الإسلامي والتنكُّر لجهود السابقين:** إنَّ المتأمل في مقالات الليبراليين، والدارس لها بتفحُّصٍ وتمعُّنٍ، يظهر له بوضوحٍ أنَّ موقفهم من التراث والتاريخ الإسلامي يتمثَّل في وصم هذا التراث بالرجعية، والتحجُّر، والجمود على الماضي، وعدم استشراف المستقبل؛ وبالتالي عدم جدواه في ظلِّ المستجدَّات الحديثة، وقد ترتَّب على هذا الموقف السلبي من تراث الأمة الدعوة إلى التحرُّر من هذا التراث، وضرورة نقده بدعوى التجديد والاجتهاد.

يقول محمد حسين هيكل: "وسببٌ آخر يُوجب تمحيص ما ورد في كتب السلف، ونقدها نقداً دقيقاً على الطريقة العلمية، أنَّ أقدمها كُتب بعد وفاة النبي بمائة سنةٍ أو أكثر، وبعد أن فشت في الدولة الإسلامية دعاياتٍ سياسيةٍ وغير سياسية كان اختلاق الروايات والأحاديث بعض وسائلها إلى الذيوع والغلب، فما بالك بالمتأخِّر ممَّا كُتب في أشدِّ أزمان التغلغل والاضطراب"[3].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣١٣/٤).

(٢) انظر: النص والسلطة والحقيقة، لنصر حامد أبو زيد، ص١٣٤.

(٣) حياة محمد، لهيكل، ص٤٩.

ويقول زكي نجيب محمود: "إنَّ التقيُّد بالتراث الإسلامي، بمثابة سلطانٍ للماضي على الحاضر، وسلطان الماضي على الحاضر هو بمثابة السيطرة التي يفرضها الموتى على الأحياء، وقد يبدو غريباً أن يكون للموتى مثل هذه السيطرة، مع أنَّه لم يبقَ لنا منهم إلا صفحاتٍ مرقومةٍ صامتة"[1]، ويستمر في هذا التشويه، ويذكر أنَّ أوربا لم تتقدَّم إلَّا حين تركت كُتب الأقدمين إلى كتاب الطبيعة المفتوح، وأنَّه استعرض التراث العربي، فوجد أنَّ هذه الألوف من المجلَّدات لا تُضيف حرفاً واحداً جديداً[2]؛ بل إنَّه يرى أنَّ التراث الإسلامي لا يُمثِّل ديناً ولا عقيدةً، ولا شريعةً إلهيةً، وقيماً، وأخلاقاً، وإيماناً، ودستوراً، ومنهج حياة؛ بل ما هو إلا طرائق عيش، كالتراث الأمريكي والأوربي الحاضر، فيقول: "إنَّ الثقافة هي طرائق عيش، فإذا كان عند أسلافنا طريقٌ تُفيدنا في معاشنا الراهن أخذناها، وكان ذلك هو الجانب الذي نُحييه من تراثنا، أمَّا ما لا ينفع عملياً تطبيقياً فهو الذي نتركه غير آسفين"[3].

إنَّ هذه الدعوة الخطيرة ترفع في ظاهرها شعاراتٍ خلابةً كالتجديد والاجتهاد، غير أنَّها تحمل في طياتها سُمَّاً زُعافاً، ورجساً قذراً، وذلك أنَّهم ينطلقون في حركة تجديدهم واجتهادهم من نظرة استعلائيةٍ ملؤها الغطرسة والغرور؛ حيث ينظرون إلى هذا التراث وأصحابه نظرة احتقارٍ وازدراءٍ، كما أنَّهم ينطلقون في منهج النقد من منهجٍ تغريبيٍّ خارجٍ عن تراث الأمة وقيمها الأصيلة، ويريدون من وراء ذلك تمييع الدين، وإفراغه من معانيه الأصيلة، وحقائقه الشرعية، وتطويعه بحيث يكون مُلائماً لفكر الغربيين، وهم في كلِّ ذلك لا يملكون أدوات التجديد والاجتهاد الشرعية؛ إذ أنَّهم أجهل الناس بها، ومع ذلك تراهم عبر المجلات والجرائد والقنوات الفضائية ينعقون ويصيحون بضرورة هذا الأمر، فدعواهم بالتجديد والاجتهاد في هذا التراث لا تعدوا في حقيقة الأمر إلا أن تكون تحريفاً وتخريباً وتدميراً لهذا التراث؛ ولذلك فهم يُركِّزون على إبراز الجوانب السلبية، والأخطاء والبدع والانحرافات في تاريخ الأمة، وإظهار الآراء الشاذَّة، والمذاهب المنحرفة عبر التاريخ الإسلامي، وتمجيد الفرق الضالة، وتبنِّي آرائها، ومن ثَمَّ الحكم على الإسلام من خلال ذلك كلِّه.

يقول خالص جلبي:" وعندما استقرَّ الأمر للعقل الكسيح، وطُحن التيار العقلاني من المعتزلة، أصبح التشكيك في عقيدة أيِّ إنسانٍ حتى اليوم، يكفيها أن تُنسب لهذا الخطِّ الفكري، ... وبقيت الساحة عقلاً من دون مراجعة، ونقلاً من دون عقل"[4].

---

(١) تجديد الفكر العربي، لزكي نجيب محمود، ص٥١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٥٤-٥٥.

(٣) المرجع السابق، ص١٨.

(٤) مقال لخالص جلبي في جريدة الشرق الأوسط نقلاً عن المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٥١٣.

إنَّ الليبراليين يُركِّزون على إبراز شخصياتٍ من المُتقدِّمين، تُعتبر شاذةً في الفكر والاعتقاد، ولهم مذاهب وأفكار تخالف العقيدة الصحيحة والأخلاق الحميدة، كما فعل طه حسين عندما مجَّد شخصياتٍ معروفةٍ في التاريخ إمَّا بالسُّكر، أو الشكِّ في الدِّين، أو المجون والغزل الفاضح، وكأنَّ تاريخ الإسلام قد عقم إلا من هؤلاء[1]، وفي المقابل يقوم الليبراليين بالتطاول على الصحابة والسلف الصالح–رحمهم الله– ويتهكَّمون بهم، ويُقلِّلون من شأنهم.

يقول جودت سعيد منكراً على من يتأدَّب مع الصحابة، أو يتوقف عن النيل منهم بأنَّه قد أبطل العقل وأعمل العاطفة، فيقول: "إنَّ ذكر بعض أسماء الصحابة الكبيرة المُخطِئة، أمرٌ يدعو إلى أن تحمرَّ له الأحداق، وتنتفخ له الأوداج؛ لأنَّ الدخول في هذا الموضوع يُفقَد فيه العقل والسيطرة، وتبدأ العواطف بالعمل"[2].

ويقول منكراً على من يُسلِّم لنصوص الشرع بما ورد فيها:" إننا نضحك من النعامة حين تدفن رأسها وتقع في الفخ من جراء تصرفها الغبي، ولكن هل لدينا القدرة أن نرى النماذج الرفيعة من رجال العالم الإسلامي يقعون في مثل هذا الخطأ، حين يدفنون عقولهم ويبرزون عواطفهم"[3].

ويقول أيضاً مستهزئاً بكل المسلمين: "إنَّنا نحن المسلمين مصابون بعمى ألوانٍ فكريٍّ، لا نُدرك بسببه كثيراً من الأفكار، فإنَّها لا تعمى الأبصار؛ ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، وهذا ما يصدم المسلم الذي رسخ في فكره، أنَّ عمى القلوب خاصٌ بالكافر، وكأن المسلم يملك المناعة لمجرد انتسابه إلى الإسلام، إنَّ هذه السذاجة هي نفسها من أبرز مظاهر عمى القلوب"[4].

وها هو جلبي يُهاجم مجتمع الصحابة بعباراتٍ مُقذعةٍ، فيقول: "المجتمع الإسلامي الوليد أُصيب بعسر هضمٍ، ومن مظاهر عُسر الهضم هذه الإقياءات والإسهالات، ودخول البدن الإسلامي حالةً غير سويَّةٍ؛ بسبب النزاعات والفتن والثورات التي حدثت في حالة نمو المجتمع الإسلامي الأول"[5]، ويقول أيضاً: "فالصحابة فشلوا وبوقتٍ مبكر في المحافظة على المجتمع الإسلامي الذي بناه بناه لهم رسول الله ﷺ بعد كلِّ تعبٍ وعناء"[6]، ويقول أيضاً: "وشخصياتٌ هامشيةٌ في الثورة الإسلامية الأولى من طراز عمرو بن العاص ومعاوية، حرفت مسيرة الخلافة الراشدة"[7].

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٧٣– ٣٧٨.

(٢) حتى يغيروا ما بأنفسهم، لجودت سعيد، ص٢٤٦.

(٣) العمل قدرة وإرادة، لجودت سعيد، ص١١٢.

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) النقد الذاتي، لخالص جلبي، ص٢٣١.

(٦) سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص٣٤.

(٧) جريدة الرياض، العدد ١٠٤٨١، الصادرة في ١٩٩٧/٣/١م، نقلاً عن المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص١٠٤.

ويقوم أيضاً بتكرار الغمز والتعريض، فيقول:" عندما يقلب معاوية الوضع الراشدي لبناء دولةٍ بيزنطيةٍ، ومسح الخلافة الراشدة بالتآمر الأموي"[١]، ويقول أيضاً: "إنَّ جذور الاستعمار تضرب في تربة الثقافة، وهذا المرض يعسُّ في مفاصل الثقافة العربية، مثل الرومانتيزم الخبيث، منذ الانقلاب الأموي، وقتل العقل على يد ما يسمى أهل السنة والجماعة، إنَّ العرب يؤمنون بالقتل؛ لأنَّه لا عقل لهم"[٢].

إنَّ الليبراليين يصفون التراث والتاريخ الإسلامي بشكلٍ عام بالتشدُّد والعنف والإقصاء واللاإنسانية، وأنَّه المنبع الأساسي للتكفير والتبديع والتضليل، فيدَّعون أنَّ "الجنون الذي نراه اليوم عرضٌ من أعراض المرض، والعلَّة التي استشرت في جسد هذه الأمة وثقافتها، وهذه راجعةٌ أساساً إلى تراثٍ متعفنٍ، وثقافة الصديد والضحالة التي يُربى عليها أبناؤنا صباحاً ومساءً في المساجد، وعبر خطب الجمعة، وفي دروس الدين، ومن إذاعة القرآن الكريم"[٣].

إنَّ الليبراليين في نظرتهم الاستهزائية المُتعالية يُهاجمون كلَّ منجزات الأمة الإسلامية من الفتوحات، ونشر الإسلام في أصقاع الأرض، وإقامة أكبر حضارةٍ عرفها التاريخ.

يقول خالص جلبي: "وفي بلاد العالم المتخلف، فالساحة الفكرية ما زالت تعيش عقلية الأسطورة والخوارق، وتتغذى من فكر وجو الفتوحات"[٤].

وكذلك يُساير الليبراليون الغربيين في الشماتة بانهيار الخلافة العثمانية على يد كمال أتاتورك، فيقول خالص جلبي: "إنَّ كمال أتاتورك لم يفعل أكثر من دفن تلك الجثة الميتة، والمسماة بالخلافة الإسلامية"[٥]، ولا غرابة في ذلك، فقد دأب الليبراليون على تشويه التاريخ الإسلامي، وشنِّ حملات التزوير والتخريب عليه، ولم تقتصر هذه الحملات الضارية على عصرٍ دون عصر؛ بل امتدَّت لتشمل كافة العصور الإسلامية، حتى إنَّ الصفحات المشرقة في تاريخنا لم تسلم من ذلك[٦]، فها هو خالص جلبي يتهجَّم بكلِّ شناعةٍ وفظاعةٍ على فتحٍ هو من أعظم الفتوحات الإسلامية، ويُشبِّهه بالجرائم اليهودية، فيقول:" يفرح المسلمون بسقوط القسطنطينية، ولكن هناك من يذكرها مع الدموع، فهل كان فتحها إسلاميا؟!، إنَّ السلطان محمد الفاتح يُذكِّر بشارون وهو يريد احتلال القدس، وطرد أهلها منها،

---

(١) سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص١٥٧.

(٢) الزلزال العراقي، لخالص جلبي، ص١٢٤.

(٣) انظر: موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، لمجموعة من الباحثين(٢٢٦/١).

(٤) سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص١٩٤.

(٥) النقد الذاتي، لخالص جلبي، ص١١٣.

(٦) انظر: العصرانيون، لمحمد الناصر، ص٢٨٦-٣٠٢.

وبغض النظر عن فظاعات الفتح، وحجم النهب والسلب والاغتصاب..، لم يكن هذا الفتح انتشاراً على منهج النبوة؛ بل اجتياحاً عسكرياً ونُسمِّيه إسلامياً؟!!"[١].

ولا أدري لماذا يتحامل الليبراليون على الفتوحات الإسلامية، ألأنها نشرت الإسلام ودين رب العالمين في كل مكان، وخاصةً في أوربا على يد الأمويين في الأندلس، وعلى يد الخلافة العثمانية في شرق أوربا؛ ففتحوا القسطنطينية، وجعلوها عاصمة الخلافة الإسلامية، " ويكفي العثمانيين في ميزان الله أنَّهم توغَّلوا في أوربا الصليبية، وفتحوا للإسلام ما فتحوا من أراضٍ وقلوب، فدخل الناس في الإسلام بعشرات الملايين، ويكفيهم أنَّهم حموا العالم الإسلامي من غارات الصليبيين خمسة قرونٍ متوالية، ومنعوا قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام، ولم يتمكن شُذَّاذ الآفاق من التجمُّع لإقامة دولتهم، إلَّا بعد أن زالت دولة الخلافة"[٢].

ولم يكتفِ الليبراليون بالتطاول على الصحابة والسلف، وإنما تجاوزوا الحد إلى سوء الأدب في حق النبوة والأنبياء فيعتبر خالص جلبي أنَّ النبي نوح عليه السلام " قد فشل في مهمة تغيير المجتمع، على الرغم من كثافة الجُهد مع طول الزمن المبذول"[٣]، فالليبراليون يتطاولون على كلِّ شيء، ويصفون التاريخ الإسلامي بعدم الموضوعية والانزواء عن الواقع، وأنه قائمٌ على الخرافة والتنكُّر للعقل، ويرون أنَّ الغيبيات هي من قبيل الخرافات التي تُنافي العقل، ويزعمون "أنَّ ضخ هذا الكم الهائل من الرؤى التنويرية في المجتمع، ساعد إلى حدٍّ كبيرٍ في مواجهة كُتب الخرافة التي تبحث في عالم الأرواح والشياطين، وأحوال الجانِّ، وثعابين القبور"[٤].

وهكذا يتبين بما لا يدع مجالاً للشكِّ والريب مدى موقف الليبراليين السلبي المُخزي من تراث الأمة ورموزها.

٨- **تضييع عقيدة الولاء والبراء الثابتة في النصوص:** إنَّ الولاء والبراء من قضايا العقيدة الأساسية، وهي شرطٌ من شروط الإيمان، ولازمٌ من لوازم كلمة التوحيد ومقتضياتها، وهي من أوثق عُرى الإيمان، ولقد أوجب الله ﷻ الموالاة بين المؤمنين، وبيَّن أنَّ ذلك من لوازم الإيمان، ونهى عن موالاة الكفار، وبيَّن أنَّ ذلك منتفٍ في حقِّ المؤمنين[٥]، حيث قال ﷻ: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ**

---

(١) مقال بعنوان" لا إكراه في السياسة" لخالص جلبي منشور في جريدة الشرق الأوسط بتاريخ ٢٠٠١/٨/٢٩م، نقلاً عن المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٤٧٠.

(٢) واقعنا المعاصر، لمحمد قطب، ص١٥٢، ص٣١٦.

(٣) النقد الذاتي، لخالص جلبي، ص٧١.

(٤) موسوعة المذاهب المعاصرة ، لمجموعة من الباحثين(٢٢٧/١).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٩٠/٢٨).

أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾[الممتحنة:١]، وقال ﷻ:﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾[المجادلة:٢٢]، وقال ﷻ:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[المائدة:٥١].

يقول الإمام الطبري- رحمه الله- في تفسير قوله ﷻ:﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ﴾[آل عمران:٢٨]، "من اتَّخذ الكفار أعواناً وأنصاراً وظهوراً، يُواليهم ويُظاهرهم على المسلمين، فليس من الله في شيء، أي: فقد برئ من الله، وبرئ الله منه؛ بارتداده عن دينه، ودخوله في الكفر، إلَّا أن تتقوا منهم تقاة، أي: إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتُظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتُضمروا العداوة ولا تُشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مسلم"(١).

وقال الشيخ صالح الفوزان- رحمه الله-: "إنَّ من مظاهر موالاة الكفار، إعانتهم ومناصرتهم على المسلمين، ومدحهم والذود عنهم، وهذا من نواقض الإسلام وأسباب الردة"(٢).

إنَّه عند النظر في تعامل الليبراليين مع هذه العقيدة، نجد أنَّ الليبرالية دعوةٌ خبيثة تبنَّتها جماعاتٌ مشبوهةٌ لها أهدافٌ وصلاتٌ بالمستعمر، وممَّا يُثبت ذلك مواقفهم تجاه أمتهم(٣)، فلقد مارس أرباب هذا الفكر أساليب متنوعةً، واتخذوا طرائق متعددةً، لهدم الأصول، وهزِّ الثوابت، والتشكيك بالمُسلَّمات تحت مظلة العلمية والموضوعية، والتجرُّد، والحيادية، والنقد الذاتي، والتصحيح، والنصيحة، والإنصاف، والعدل، وغير ذلك من الشعارات البرَّاقة التي ينادون بها، ولا يُطبِّقون منها شيئاً، ومن أكثر ما سعى الليبراليون لهدمه وطمسه بهذه الدعاوى والشعارات عقيدة الولاء والبراء، فقد علموا ما في هذه العقيدة من قوةٍ، فكان أخوف ما يخافونه أن ينهض الإسلام من جديد بقوة هذه العقيدة في الترابط بين أفراده؛ لذلك عملوا على إفسادها، وحرصوا على محوها من أذهان الشباب(٤).

---

(١) جامع البيان، للطبري(١٧٩٨/٣).

(٢) الولاء والبراء في الإسلام، لمحمد القحطاني، ص٥.

(٣) انظر: نقد الليبرالية، للطيب بو عزة، ص١٥٨، وأساليب الغزو الفكري، لعلي جريشة ومحمد الزيبق، ص٤٦.

(٤) انظر: آثار العولمة على عقيدة الشباب، لعبد القادر صوفي، ص٤٥.

إنَّ موقف الليبراليين من عقيدة الولاء والبراء يتضح من خلال أقوالهم وكتاباتهم، ومن خلال تصرُّفاتهم، وانتقاداتهم وعدائهم لهذه العقيدة، فهم يُصرِّحون بمحبة الكافرين، وتعظيمهم؛ بل ونصرتهم على أولياء الله ﷻ، ويتضح أيضاً من خلال الولاء للغرب بتقليده في جميع المجالات، واستيراد القوانين الكفرية، وإحلالها محلَّ الشريعة، وغمز كلّ من يُطالب بتطبيق شرع الله بالتعصب والرجعية والتخلُّف[1]، وهذه النَّظرة لدى الليبراليين ناتجةٌ عن اقتناعهم بالفكر العلماني الغربي، ممَّا أدَّى إلى تصادمهم مع فكر الأمة الإسلامية.

إنَّ التشابه الفكري بين الليبراليين العرب والغرب الكافر، جعل ولائهم للغرب ودوله الإستعمارية؛ ولذلك اختار كثيرٌ منهم الهجرة والعمل والتعليم في بلاد الغرب، ويتبين تفريطهم في الولاء والبراء من خلال موقفهم من قضايا الأمة، فهو موقفٌ مُتخاذلٌ يظهر من خلال موالاتهم لأعداء الأمة، ومناصرة الغزو الأمريكي، الذي أدخل العالم العربي في عهد احتلالٍ استعماريٍ غربيٍّ جديد، وهذا يدلُّ على أنَّ الليبرالية ما هي إلا أفكارٌ أنتجها الفكر الإستعماري طبقاً لنظرية المصالح المادية، وفرض سيطرة القوي على الضعيف[2].

إنَّ الليبراليين بتفريطهم في هذه العقيدة يسعون إلى تبرئة ساحة العدو الصهيوني من المجازر التي وقعت في حقِّ المسلمين، فيقول قائلهم: "إنَّ ما سُمِّي بمذبحة دير ياسين، والتي لم تحدث إلا في مُخيَلة من قرَّروا خوض المواجهة باصطناع الصراخ والعويل، يُشكِّل مفاجأة للقوات الإسرائيلية ذاتها برحيل الآلاف من الفلسطينيين من قراهم، هروباً من المذابح التي خلَّفها في أذهانهم قادتهم من أشاوس الصراخ والاستنجاد"[3].

إنَّ من أكثر ما يُحاربه الليبراليون في هذا المجال، هو مفهوم الجهاد بالنفس، فمسألة الجهاد العسكري عند الليبراليين مرفوضةٌ، فليس هناك شيءٌ اسمه جهاد العدو؛ بل العالم كله قريةٌ واحدةٌ، ودولةٌ واحدةٌ، ولا بدَّ أن يعيش باطمئنان، وليس هناك شيءٌ اسمه عقائد مختلفة؛ إنَّما هناك اختلافٌ في وجهات النظر، ومن الممكن أن تقترب هذه الوجهات أو تبتعد بحسب الحوار، فالليبراليون يريدون تمييع الجهاد؛ لأنَّ الجهاد يترتب عليه أن يجتمع المسلمون على منهجٍ واحد، ويتكتل النصارى على منهجٍ، واليهود على منهج، ثمَّ تقوم المعارك بزعمهم.

إنَّ هذا الذي يُنادي به الليبراليون ما هو إلا تمييعٌ للدِّين، وإماتةٌ لروح الانتماء للحق، فهذا الليبرالي شاكر النابلسي يتنكَّر للمقاومة الفلسطينية والمجاهدين من كتائب القسام الذين رفعوا رأس

---

(١) انظر: الولاء والبراء في الإسلام، لمحمد القحطاني، ص١٠.

(٢) انظر: مقال الليبرالية الأصولية في المجتمع العربي، لسميرة رجب، من موقع www.al-moharer.net، بتاريخ ١٠/٢/٢٠١٥م.

(٣) انظر: مقال الفلسطينيون وخياراتهم الكارثية، لكمال غبريال، بتاريخ ٢١/٦/٢٠٠٦م، من موقع www.ahewar.org.

الأمة عالياً في مقاومتهم للمحتل الصهيوني، ويسخر منهم، ويتهمهم بالصبيانية وعدم الواقعية، فيقول: "وما ذنب العرب الآخرين في أن يتورطوا بأعمالٍ حمساويةٍ صبيانية، يُطلق عليها المقاومة، وهي بعيدةٌ كلَّ البعد عن مفهوم المقاومة، الذي يتطلب عدة عناصر غير متوفرة على الإطلاق الآن لحماس وكتائب القسام،... ولو جاءت حماس قبل ١٩٤٨م بهذه الهيئة وبهذا الاستعداد العسكري، لربَّما كانت قد أفلحت في مهمَّتها"(١).

إنَّنا نقول والواقع يشهد أنَّ المجاهدين في فلسطين قد أدَّوا ما أمرهم الله به من الإعداد والجهاد على قدر الاستطاعة، وهم ينتظرون وعد الله لهم بالنصر والتمكين، وبحمد الله لقد أعاد المجاهدون لنا عزَّتنا وكرامتنا، وأصبحنا نعيش في غزة بعزةٍ وإباء.

وأمَّا عن حرب أمريكا على العراق، فُيبرِّئ الليبراليون أمريكا من النتائج الكارثية للحرب، ويدَّعون أنَّ الغزو الأمريكي جاء لحماية العراق، فيقول شاكر النابلسي: "لقد أيَّد الليبراليون تأييداً مُطلقاً وصريحاً وجريئاً تحرير العراق بالطريقة التي تمَّت، من أجل بناء عراقٍ جديد"(٢).

ويقول أيضاً: "حاول الغزو العسكري حماية العراق من الإرهاب الدِّيني الطائفي القادم من الداخل والخارج، ودفَع الثمن غالياً لهذه الحماية، فقُتل أكثر من أربعة آلاف جنديٍّ، ثمناً لحماية العراق من الإرهاب المتزايد"(٣)؛ بل ويُصرِّح بأنَّه مع أمريكا في حربها على العراق، ويفرح أنَّ من خلَّص العراقيين من حُكم صدام هي قوةٌ خارجيةٌ تحترف الآلة العسكرية(٤).

وها هو جودت سعيد يُحرِّف مفهوم الجهاد؛ ليجعله فقط لمنع الإكراه في الدين، ثمَّ عمَّم رأيه هذا ليشمل غير المسلمين، فإذا أُكرهوا على تغيير عقيدتهم الشركية، فمن الواجب على المسلمين أن يُجاهدوا من أجلهم(٥).

ويتابع خالص جلبي أستاذه جودت سعيد في تحريف مفهوم الجهاد وأهدافه، فكتب كتابين كاملين لهذا الغرض، هما: كتاب سيكولوجية العنف واستراتيجية الحلِّ السلمي، وكتاب: جدليَّة القوة

---

(١) انظر: مقال لشاكر النابلسي بعنوان: يا حماس يداكِ أوكتا وفوكِ نفخ، منشور بتاريخ ٢٠٠٨/١٢/٢٨م، من موقع www.ahewar.org.

(٢) مقال: الرؤية الليبرالية الجديدة للحالة العربية، لشاكر النابلسي، نُشر بتاريخ ٢٠٠٦/١١/١٨م، من موقع www.ahewar.org.

(٣) سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص٨٢.

(٤) انظر: الزلزال العراقي، لخالص جلبي، ص١٧٩.

(٥) انظر: مذهب ابن آدم الأول، لجودت سعيد ص٤١-٤٢، والنزعة المادية، لعادل التل، ص٢٤٩.

والفكر والتاريخ[١]، ويعتبر في كتاباته أنَّ حرب أمريكا لأعدائها هي نوعٌ من الجهاد، طالما أنَّها تريد رفع الظلم عن الشعوب[٢].

قلتُ: لا أدري لصالح مَن يُفتى هؤلاء مثل هذه الفتاوى؟، ويُبرِّرون لأعداء الأمة ما يفعلونه من قتلٍ وتشريدٍ وتخريبٍ ونهبٍ لبلاد المسلمين، ويا ليتهم انتصروا للمظلومين والمكلومين من أبناء فلسطين وأفغانستان والعراق وغيرهم؛ ولكن هم كما قال الله ﷻ:﴿ إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا ﴾[آل عمران:١٢٠]،والغريب في الأمر أنَّ الليبراليين في نفس الوقت الذي يُبرِّرون فيه لأمريكا والغرب قتلهم للمسلمين، يصفون مقاومة المسلمين لأعدائهم بالعنف والمرض والدموية والوحشية والتخلف، ويُنكرون كلَّ النصوص الداعية إلى الجهاد في سبيل الله، ويُصرُّون على تعطيل مفهوم الجهاد، ويدعون المسلمين للاستسلام للمحتل الغاشم.

يقول خالص جلبي: "وعلينا أن نتقدَّم بهذا الطرح دون خجلٍ أو خوف، من أجل إعلان ما أُسمِّيه ميثاق الأمن والأمان لكلِّ الأطراف، من عرقيةٍ ووثنيةٍ ودينيةٍ وجنسيةٍ، ولكلِّ من يعيش في هذا المجتمع"[٣].

ويقول أيضاً: "إنَّ إسرائيل تُراهن في العالم على تشويه صورة العربي، الذي يقوم بالعمليات الإرهابية الانتحارية؛ ولكنَّ أسلوب مقاومتها بالطريقة السلمية، يُوقظ الضمير الإسرائيلي"[٤]، ويقول أيضاً: "وفي ظلِّ هذا الصراع، أقترح أن يخرج الناس عُزَّلاً أمام الدبابات الإسرائيلية؛ لوضعها تحت الاختبار، وهذا يدفعنا لفهم المجتمع الإسرائيلي؛ لمحاولة تطبيق الأداة السلمية في الصراع مع إسرائيل"[٥].

وقد آلمت هذه الدعوة الذليلة كثيراً من الكُتَّاب المسلمين كما آلمتني، وكنتُ أريد أن أردَّ عليها؛ ولكنِّي وجدت أنَّ الدكتور سعيد بن ناصر الغامدي- حفظه الله- قد ردَّ عليها بكلماتٍ قوية، فأكتفي بردِّه، حيث قال: "ولا أدري لو خرج الدكتور خالص من مكتبه، وأقلامه الملونة، وجهاز التكييف، والراتب المتدفق، والسيارة المريحة، ومرَّ على جنين وغزة، أو لو رأى بأمِّ عينه أطفاله يُمزَّقون، وبعضهم يبكي وينزف طوال الليل، وقد منعه جنديٌّ يهوديٌّ من الوصول إلى الطبيب، أو لو رأى بيته يُهدَّم على زوجته وأبنائه، أو رأى امرأةً تضمُّ بقايا أشلاء ولدها على صدرها، وقد ذهبت القذيفة برأسه،

---

(١) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٣٥٢.

(٢) انظر: سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص١٤-١٦، ومكاشفات خالص جلبي خلال مقابلة معه في ١٤٢٣/٨/٢٨هـ، نقلاً عن المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٣٥٦.

(٣) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٣٥٢.

(٤) سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص٢١٥.

(٥) المرجع السابق، ص٢١٢.

أو شمَّ روائح الأجساد المشوية بالنيران المُلتهبة، أو فرَّ من القصف من منزلٍ لآخر، ومن قريةٍ إلى أخرى،... لو رأى هذا وأشباهه يقع على نفسه، أو على أُمِّه، وأخته، وزوجته، وابنته، وقريبته، هل سيكتب هذه الكتابات؟، أم سيختلف الحال، ويعود إلى النصوص الشرعية الآمرة بالقتال، والتي حاول أن ينسفها إلى حدِّ الإلغاء"(١).

وممَّا يبدو لي أنَّ جلبي وأمثاله من الليبراليين لا يعرف أو يتجاهل حقد اليهود على الإسلام، وقتلهم للضعفاء والأطفال، ولا يعلم أنَّهم كيانٌ عنصريٌّ استعلائيٌّ، وأنَّ ثقافة إبادة الآخر متجذرةٌ ومتأصلةٌ فيهم؛ فقد أخذوا هذه الأفكار والمعتقدات من تلمودهم الذي يقول: "سلَّط الله اليهود على أموال باقي الأمم ودمائهم، فالله لا يغفر ذنباً ليهوديٍّ يردُّ للأممي ماله المفقود"(٢).

وجاء في التلمود أيضاً: "سأل إسرائيل إلهه قائلاً: لماذا خلقت سوى شعبك المختار؟، فأجابه: لتركبوا ظهورهم، وتمتصُّوا دمائهم، وتحرقوا أخضرهم، وتُلوِّثوا طاهرهم، وتهدموا عامرهم"(٣).

وجاء في التلمود أيضاً:" اقتل صغيراً كبيراً بقراً جِمالاً حميراً، اجعل المدينة تتلألأ"(٤).

وانظر إلى ما قاله السياسي اليهودي الذي يرمز لاسمه بالحرف(z): "إنَّني لا أهتم بأن يُطلقوا علينا أفظع الألقاب، لا يهم، فكلُّ شيءٍ مُحرَّم مسموحٌ به في سبيل البقاء، حتى طرد العرب من الضفة الغربية، فليقولوا عنَّا إنَّنا نازيُّون، ماذا لو قتلنا من العرب مليوناً؟، أو حتى ستة ملايين، ماذا سيحدث؟ سيكتب التاريخ عنا صفحتين فقط مُجلَّلتين بالسواد، وسيكون ثمن ذلك عظيماً، سيأتي إلينا يهود الشتات، ونصبح أمةً تعدادها خمسة وعشرين مليوناً، ثمَّ يأتي أُدباؤنا ليكتبوا رواياتٍ عظيمةً عن المذابح التي ارتكبناها في حقِّ العرب، وسيحصلون على جوائز نوبل مثلما فعل أُدباء النازيَّة، وسنجد في جميع أنحاء العالم، من موسكو إلى بكِّين إلى واشنطن، من يتودَّد إلينا، ويخطِب وُدَّنا، برغم أيادينا المُلطَّخة بالدماء"(٥).

هذه هي نفسيَّة اليهود، وهذه هي أفكارهم ومعتقداتهم التي يدينون بها، ثمَّ بعد كلِّ هذا يأتي الليبراليون، ويدعوننا إلى إلقاء السلاح والحلِّ السِّلمي المزعزم، إنَّ حاصل كلام الليبراليين المنهزمين المنبطحين أنَّهم يُريدونا أن نكون دجاجاً على موائد اليهود، أو متوسِّلين على أبواب الأمم المتحدة؛ ولكن هيهات لهم ذلك، فالمسلمون يمتثلون قول ربهم ﷻ:﴿ **وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا**

---

(١) المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٤٠١-٤٠٢، نقلاً عن ملحق الرسالة بجريدة المدينة، د. سعيد بن ناصر الغامدي في ١٤٢٣/٩/٢٤هـ.

(٢) نقلاً عن حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، لجميل المصري، ص٥٦.

(٣) دفائن النفسية اليهودية، لمحمد الزغبي، ص٢٦.

(٤) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(٥) اليهود والتحالف مع الأقوياء، لنعمان السامرائي، ص١٠٢-١٠٣، وهذا الكلام جزء من حوار أجراه الأديب اليهودي عاموس عوزا مع شخصية سياسية أشار إليها بالحرف z.

تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:١٠٤].

٩- التشدُّق بالألفاظ والمصطلحات الغريبة بقصد الإغراب والتعالم: إنَّ الليبراليين يمتازون عموماً بالتعالم، وبتسفيه آراء الآخرين، ويظنُّون أنَّهم أصحاب وجهة النظر الصحيحة في كلِّ ما يطرحونه[1]، مُوهمين القارئ والسامع أنَّهم يفهمون كلَّ شيء، ويُجيدون كلَّ فن؛ ولذلك فهم يتشدَّقون بالألفاظ، ويتعمَّقون في المصطلحات، بقصد الإغراب والاستفزاز، واستعراض الذات؛ فيظنُّ القارئ أنَّهم علماء يتكلَّمون كلاماً فوق عقولنا، وهم يتعمَّدون ذلك؛ ليشوشوا على القُرَّاء، ولئلا يفهم القارئ حقيقتهم الخاوية.

إنَّ من تشدُّق الليبراليين وتعالمهم أنَّهم كثيرًا ما يختمون المصطلحات بلفظ (وِيَّة)، لإعطائها مدلولاتٍ جديدةٍ وغريبةٍ، لا يفهمها غيرهم، فيقولون مثلاً: الإسلاموية، السلفوية، الأصولوية، الماضوية، الرسموية، التاريخوية، الأخلاقوية، وكلُّ ذلك مصحوبٌ بأسلوبٍ ماكرٍ في استعمال المصطلحات الغامضة[2]، وهؤلاء القوم تُعجبهم أيضاً الكلمات التي تنتهي بلفظ (لوجيا)، ولذلك يختالون بها في كتاباتهم، ويتشدَّقون بها كثيرًا، فكتابات بعضهم عندما يقرأها القارئ لا يفهمها؛ لِما فيها من الإغراب والتعقيد، فيظنُّ القارئ أنَّ كلامهم لا يفهمه إلا الأذكياء، ولأنَّه ليس مُثقَّفاً أو ذكياً فلن يفهمه، والحقيقة أنَّ الكاتب نفسه تعمَّد الإغراب والرمزية في الكتابة.

يقول جودت سعيد: "في الواقع إنَّنا نفتقد رجال الفكر، والمتطلِّعين إلى أن يكونوا رجال فكر؛ بل إنَّنا نفقد الذين يعلمون كيف يصبح الرجل رجل فكر"[3]، ثمَّ يقول مهاجماً علماء المسلمين ومُتَّهماً لهم بالتخلُّف والجهل: "ومن المُؤسف أن يكون المُوجِّهون الذين يُمثِّلون حلقة الوصل بين المبدعين والسواد الأعظم، لا يزالون يحملون كلَّ عوامل التخلُّف التي قادت العالم الإسلامي إلى العصر الذي يُمثِّل فيه المسلمون القصعة"[4]، ثمَّ يتحدث بلهجةٍ حادَّةٍ مُتَّهماً المسلمين بالذلِّ والهوان، فيقول: "وكذلك نحن عالةٌ مستكبرون، لا نظنُّ أنَّ أحداً يملك شيئاً من الحقِّ له قيمةٌ، ونحن عندنا الحقُّ كلُّه، ومع ذلك لا نستطيع أن نُخفي ذلَّتنا وهواننا، وهذا الهوان الفاضح هو الزاد الوحيد الآن لنجعل المسلم يتنبَّه"[5].

---

(١) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٣٧.

(٢) انظر: بدعة إعادة فهم النص، للمنجد، ص٧٤.

(٣) العمل قدرة وإرادة، لجودت سعيد، ص١١٧.

(٤) المرجع السابق، ص٢٥٦.

(٥) حتى يغيروا ما بأنفسهم، لجودت سعيد، ص١٧٥.

وأمَّا خالص جلبي فالتعالم عنده أشد، وهو يتلذذ في ممارسة هذا الشعور ضدَّ الأمة وعُلمائها ودُعاتها ومُفكِّريها، وضدَّ جملةٍ من حُدودها وضوابطها ومنهجيتها[1]، فيقول: "لا أدري إن كنتم تعرفون مقدار المسافة بالسَّنة الضوئية، وهل تظنون أنَّ أحدكم إذا همهم ودمدم في المسجد، واكتفى بذلك عَبدَ الله، الفكر الإسلامي كسيحٌ، ويحتاج للعُكَّازات دوماً، أنتم لم تفهموا ما يريد الأنبياء ولا العلم"[2].

ويقول عن الكتابات الإسلامية والجهود المبذولة من العلماء في حفظ العلم ونشره: "إنَّ الكتابات الإسلامية حتى الوقت الحاضر، لم تتَّسم تماماً بروح العلمية والموضوعية، والأدمغة الناضجة في محيطنا الإسلامي قليلة"[3].

إنَّ الدافع الذي يدفع الليبراليين لهذا الإغراب، هو أنَّهم لا يُريدون لإنسانٍ فضح مقاصدهم، ومن جهةٍ أخرى فهم يريدون أن يتميَّزوا عن النَّاس بشيءٍ، ويريدون أن يظهروا وكأنَّهم الطبقة الأرقى؛ ولكنَّ كتاباتهم فيها من السفسطة والغباء الشيء الكثير، حتى أصبح من طُرق معرفتهم أن تجد هذه الألفاظ في كلامهم بكثرةٍ، كما قال ﷺ عن أسلافهم:﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴾[محمد:٣٠].

وقال ﷺ مُحذِّراً من أمثالهم:**(إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كلَّ منافقٍ عليم اللسان)**[4].

وقال ﷺ أيضاً في وصف أحوالهم: **(وإنَّ أبغضكم إليَّ، وأبعدكم منِّي مجلساً يوم القيامة الثرثارون[5] والمُتشدِّقون[6] والمُتفيهقون[7]، قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال:المتكبرون)**[8].

---

(١) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٤٠.

(٢) انظر كلامه في كتاب المدرسة العصرانية خلال مقابلة أجراها معه د. سعيد بن ناصر الغامدي بتاريخ ١٤٢٢/٩/١٠هـ.

(٣) النقد الذاتي، لخالص جلبي، ص٢١٧.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٤٣، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٣٩.

(٥) هم الذين يكثرون الكلام تكلُّفاً وخروجاً عن الحق، والثرثرة: كثرة الكلام وترديده. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٢٠٩/١).

(٦) هم المُتوسِّعون في الكلام من غير احتياطٍ واحترازٍ، وقيل: أراد بالمتشدق: المستهزئ بالناس يلوي شدقه بهم وعليهم.انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٤٥٣/٢).

(٧) هم الذين يتوسعون في الكلام ويفتحون به أفواهم، مأخوذ من الفهق، وهو الامتلاء والاتساع. انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير(٤٨٢/٣).

(٨) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، (٣٧٠/٤)، برقم ٢٠١٨، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٧٩١.

إنَّ العجيب في هذا الأمر أنَّ الليبراليين أنفسهم يعترفون بعدم فهمهم لكلام بعضهم، فهذا هاشم صالح الذي ترجم كتب أركون، يعترف بأنَّه "لم يستطع أن يفهم هذه المصطلحات إلا بعد عشر سنوات، وبعضها بعد ثلاث سنوات من الدراسة في المعاهد الفرنسية، حتى استطاع أن يتصوَّر معناها كما أراد مُستعملها"(١).

١٠- التهويل من شأن العلم المادي والحياة الغربية والحكم على الإسلام من خلالها: لقد عظَّم الليبراليون من شأن العلم المادي والحضارة الغربية إلى حدَّ التقديس والرغبة والرهبة التي لا تجوز إلا لله، واعتقدوا أنَّ القول الفصل في الدِّين والغيب هو للعلوم الغربية، ولم يعُد عندهم لقول الله ورسوله أيُّ اعتبار(٢)، فالعلم الذي يُريده الليبراليون هو العلم الذي يتجنَّب البحث عن الغاية من الخلق، ويعتمد النظر في عالم الحس بدلاً من عالم الغيب (٣).

إنَّه في ظلِّ الهيمنة الاستعلائية للنموذج الحضاري الغربي، اختار التيار الليبرالي العربي الطريق الأسهل، وهو التقليد والتشبُّه بالغالب المنتصر، والإعجاب الشديد به ممَّا أدَّى إلى التَّبعية الكاملة له، والتبرُّؤ من كلِّ ما يتعلق بالذات الإسلامية من خصوصيةٍ، ودينٍ وحضارةٍ، وكان حالهم كما قال ابن خلدون- رحمه الله-: "ترى المغلوب يتشبَّه أبداً بالغالب في ملبسه ومركبه وسلاحه، في اتِّخاذها وأشكالها؛ بل وفي سائر أحواله،... والسبب في ذلك أنَّ النفس أبداً تعتقد الكمال في مَنْ غلبها"(٤).

وقد ذمَّ المودودي- رحمه الله- مرض الذلِّ والاستسلام المُخزي للفكر الوافد الدخيل على الأمة الإسلامية، فقال تحت عنوان العبودية الفكرية: "لقد حاول بعض المسلمين تشكيل المجتمع المسلم على الصيغة الغربية، وقبلوا الإلحاد والمادية والدهرية في نشوء التجدُّد، بدون حيطةٍ ولا شعورٍ بالعواقب، وعدُّوا من لوازم التنوير الفكري إيمان المرء بكلِّ ما بلغه الغرب من فكرةٍ ناضجةٍ أو فجةٍ، والإفاضة فيه في مجالسهم،... وقد بلغت المهانة والانهزام الشنيع مبلغاً خطيراً، حتى قلَّدوا هازمهم بقبول إلحاده وماديته، وهم يخجلون من تاريخهم ودينهم وتشريعهم الإلهي، وكتاب ربهم، وسنة نبيه ﷺ؛ فراحوا يُوغِلون في استرضاء سادتهم الغُزاة في التأويل والتبديل، مُوافقةً لهم فيما يبتغون، وتسليماً لهم فيما يُحبُّون"(٥).

لقد انبهر الليبراليون بحضارة الغرب المادية، وما فيها من تقدُّمٍ علمي، وترفٍ مادي، وانساقوا وراء شهواتهم، وقد وافق ذلك خواءً عندهم في العلم الشرعي، وضعفاً في التربية الإيمانية؛ فصاروا

---

(١) انظر مقدمة هاشم صالح على كتاب أين هو الفكر الإسلامي المعاصر لمحمد أركون، صفحة ب.

(٢) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٤٥٢.

(٣) انظر: مذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب، ص٢٦٣.

(٤) مقدمة ابن خلدون، ص١٥١، ١٥٢.

(٥) الحجاب، لأبي الأعلى المودودي، ص٣٩.

يُحاكون الغرب في عاداته وتقاليده، ويُشيدون بالحياة الغربية فكراً وسلوكاً وتاريخاً، ويجعلونها المثل الأعلى في سلوكهم وغاياتهم وآمالهم، وفي نفس الوقت يتغاضون عن عيوب المدنية الغربية ووحشيتها وتناقضاتها[١].

إنَّ المُتأمِّل في مقالات الليبراليين، يجد أنَّهم مفتونون غاية الافتتان بالقيم الغربية؛ بل ويعتبروها مقياساً للحضارة والتقدُّم وحقوق الإنسان، ومن أكثر الليبراليين الدَّاعين إلى اتباع الحضارة الغربية، والنهل منها دون قيدٍ أو شرط، طه حسين، وسلامة موسى[٢]، فقد ألَّف طه حسين لتحقيق هذه الغاية كتاب: مستقبل الثقافة في مصر، وألَّف سلامة موسى كتاب: اليوم والغد.

يقول سلامة موسى:" لنولِّ وجهنا شطر أوروبا.. ونجعل فلسفتنا وفق فلسفتها، ونُؤلِّف عائلاتنا على غرار عائلاتها"[٣]، ويزعم علي عبد الرازق بأنَّ أوروبا المنتصرة "هي المرشد الأول، والقبلة التي يجب أن نحجَّ إليها"[٤]؛ ولذلك ينادون بأنَّه "يجب أن تكون مدارسنا كالمدارس الفرنسية، معزولةً عن الدين عزلاً قطعياً"[٥].

ويقول خالص جلبي: "يجب أن نحزن لحزن أمريكا؛ لأنَّ فشلها فشلٌ لكلِّ الجنس البشري، ولأنَّها تُمثِّل طليعة الجنس البشري"[٦]؛ ولذلك يعتبرون أنَّ "الولايات المتحدة وبريطانيا، هما الدولتان الأكثر تعبيرًا عن قيم العالم المتحضر وعن حضارته، وأنَّهما والعالم الغربي من ورائهما التجلِّي الأكبر لاتجاهات الليبرالية العالمية التي صنعت هذا العالم المُتحضِّر، وكان لها الفضل الكبير في مناعته ضدَّ الانهيار"[٧]، ويعتبرون أنَّ "الحضارة الغربية معجزة إنسانية، لم يسبق لها مثيلٌ في التاريخ البشري؛ بل لم يوجد ما يُقاربها، ولو في أدنى مستوياتها البدائية التي أفرزتها فترات الإصلاح الديني"[٨].

ويقول محمد حسين هيكل عن إعجابه بطريقة البحث عند الغرب إلى حد التقديس، حيث يُقارنها بدعوة النبي ﷺ، فيقول: "وقد تأخذ القارئ الدهشة إذا ذكر ما بين دعوة محمدٍ والطريقة العلمية

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٨١، واالمدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٢٣٧.

(٢) سلامة موسى ولد سنة ١٨٨٧ في محافظة الشرقية بمصر، مضطرب الاتجاه والتفكير، دعا إلى الفرعونية، ووصف فلسفته بالجهادية لأنه يجاهد الرجعية والاستبداد، أصدر مجلة المستقبل، والمجلة الجديدة، وجريدة المصري، مصادر فلسفته اليهودية والنصرانية والإسلام والبوذية والبوذية والهندوسية، وتوفي سنة ١٩٥٨م. انظر: الأعلام، للزركلي(١٠٧/٣).

(٣) اليوم والغد، لسلامة موسى، ص٢٤١.

(٤) من آثار مصطفى عبد الرازق، لعلي عبد الرازق، ص٨٠.

(٥) النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، لغالي شكري، ص١٧٨.

(٦) موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، لمجموعة من الباحثين(٢٢٩/١).

(٧) التطرف المسكوت عنه، لناصر الحنيني، ص٨٩.

(٨) موسوعة المذاهب المعاصرة، لمجموعة من الباحثين(٢٢٩/١).

الحديثة من شَبَهٍ قوي"[1]؛ ولذلك يعتبرون أنَّ "مبادئ الإسلام نظرياً وعملياً هي أقرب ما تكون لمبادئ الحضارة الأمريكية، والحياة الأمريكية تفكيراً وسلوكاً"[2].

قلتُ: يتكلم أحدهم وكأنَّه مُمثِّلٌ عن المسلمين، ناطقٌ باسمهم، وهو لا يعدو قدره، وكأنَّ هذا فيه تحقيقٌ لنبوءة النبي ﷺ، عندما قال:(**لتتَّبعنَّ سنن الذين من قبلكم، شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ، حتى لو دخلوا في جحر ضبٍّ لاتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله آليهود والنصارى؟ قال: فمن**)[3].

إنَّ الليبراليين يسعون إلى محاولة إخضاع تعاليم الإسلام لتُساير الحياة الغربية الحديثة، ويستحدثون في سبيل ذلك الأحكام الشرعية التي توافق النظم والتشريعات الغربية الوضعية، ويطالبون بإلغاء الأحكام الشرعية التي تمنع من الإلتقاء مع الأفكار والثقافات وأنماط السلوك لغير المسلمين[4]؛ فجعلوا المنهج الغربي هو المقياس الذي تُقاس به كلُّ العلوم، وتُعرف به الحقائق، وعمَّموا هذا المفهوم على كلِّ شيء، حتى الوحي والنبوة والمعجزات والغيبيات وأصول العقيدة والسنة وسائر أصول الدين، وهذا منزلقٌ خطير، ومنهجٌ أبعد ما يكون عن العلمية والمنهجية التي يدَّعونها، ولو كان للعلم لساناً لكذَّبهم، ولو كان يملك فعلاً وقوةً لأقام عليهم حدَّ الشرع بافترائهم على الله ﷻ وعلى رسوله ﷺ، وعلى العلم نفسه[5].

إنَّ الموقف الصحيح من الحضارة الغربية، والذي ينبغي أن يكون عليه المسلم، هو كما بيَّنه الشيخ محمد قطب- رحمه الله- عندما قال:" المسلم إذا عرف دينه، وعرف تاريخه، سينظر إلى الحضارة الغربية نظرة الأجيال الأولى من المسلمين للحضارة الجاهلية التي كانت تُحيط بهم، ففيها أشياء نافعةٌ يستفيد منها المرء من أجل ترسيخ قدمه في الأرض، وفيها مفاسد ومهاوٍ وموبقات؛ فيأخذ النافع الذي يستفيد منه، ويُطوِّعه لعقائده ولقيمه ولمبادئه ومفاهيمه، وينظر باستعلاء المؤمن إلى المفاسد والمهاوي والموبقات؛ فيبتعد عنها، ويُحاذر أن يقع فيها،... فيُكتب له الفلاح في الدنيا والآخرة"[6].

إنَّ المسلم يأخذ الإيجابيات من أيِّ حضارة، والحكمة ضالَّة المؤمن يأخذ بها أنَّى وجدها، فما يتصل بالعقل والعلم التجريبي نأخذه بشرط ألا تُنسينا الصَنعة حِكمة الصانع، فما اختراعاتهم وقوانينهم سوى كشفٍ لما أذن الله بكشفه، فهم في الحقيقة لم يُوجدوا مفقوداً؛ وإنَّما اكتشفوا موجوداً، ثمَّ إنَّ ما وُجد عند الحضارة الغربية من جميل العادات ومكارم الأخلاق هو في الحقيقة ممَّا أمرنا به ديننا، وهم قد

---

(١) حياة محمد، لهيكل، ص١٥٠.

(٢) ثورة الإسلام، لأحمد أبو شادي، ص٥٧، ص٨١.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب العلم ، باب اتباع سنن اليهود والنصارى، (٢٠٥٤/٤)، حديث رقم ٢٦٦٩.

(٤) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٤٠٥-٤٠٦.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص٣٨١.

(٦) المستشرقون والإسلام، لمحمد قطب، ص٣٠٥.

قلَّدوا آبائنا في بعض المحاسن عندما غفلنا نحن عنها؛ ولذلك فعلينا أن نُحصِّن أبناءنا ضدَّ مغريات هذه الحضارة بالخلق والدِّين، ونُحصِّنهم بالوقاية ضدَّ أيِّ مرضٍ فكري، وغزوٍ ثقافي؛ لأنَّنا لا نستطيع منع الغزو الفكري من جرائد ومجلاتٍ وإذاعاتٍ وفضائياتٍ ومواقع انترنتٍ وغيرها، عن مجتمعاتنا بالكلية؛ ولكن نستطيع أن نُعزِّز المناعة ضدَّ هذه الفتن في نفوس الجيل منذ الصغر[1]؛ ولذلك يجب علينا لزاماً "أن نُذكِّر الأجيال الناشئة بروائع حضارتنا الإسلامية، وبأُسس الحضارة الغربية بوجهها المشوَّه؛ لأنَّ الحضارة الغربية الحديثة هي خلاصة الجاهليات القديمة، فهي تعود إلى الحضارة اليونانية الوثنية بأساطيرها وفلسفتها، وتقديس العقل على حساب الروح، وتعود إلى الحضارة الرومانية التي تُقدِّس الرفاه المادي، والقوة العسكرية، والسياسية، وفرض الهيمنة على باقي الدول والشعوب، وتعود إلى الدِّين النصراني المُحرَّف الذي دخل أوربا على يد شاؤل اليهودي الذي عُرف باسم القديس بولس"[2].

إنَّ الحضارة الغربية قد استفادت إلى حدٍ كبير في نهضتها العلمية من المسلمين، أثناء صلتهم بهم عن طريق الأندلس والحروب الصليبية، وليس هناك ناحيةٌ من نواحي الازدهار الأوربي إلَّا ويُمكن إرجاع أصلها إلى مؤثرات الثقافة الإسلامية بصورةٍ قاطعة...؛ ولكنَّ تعصُّب أوربا كان سبباً في رفضها الفرصة المُتاحة لها لتهتدي إلى دين الله ومنهجه، فأخذت من المسلمين المنهج العلمي مفصولاً عن المنهج الإلهي، وكرهت الدين ورفضته بُغضاً في الكنيسة التي حاربت العلم؛ ولهذا قامت النهضة الأوربية على أساسٍ غير ديني، وعادت إلى أصولها التاريخية القديمة في الوثنيتين اليونانية والرومانية[3]؛ ولذلك فإنَّ النَّاظر اليوم إلى الغرب يجد الانحطاط الأخلاقي بأبشع صوره من إباحيةٍ جنسيةٍ ولهوٍ ومُجونٍ واغتصابٍ وجرائم وعصاباتٍ، ورذائل لا تنتهي، حتي التقدُّم العلمي فقد تحول على أيديهم إلى مخاطر وانحرافاتٍ، وأصبحت أجساد المسلمين حقول تجاربٍ لأسلحتهم واكتشافاتهم، وأصبحت الأسلحة الفتَّاكة تُهدِّد الإنسانية بالشرور والدمار، حتى بات عقلاؤهم يشتكون ويتوقعون للعالم الانقراض والزوال بسبب سياساتهم[4].

هذه هي حقيقة حضارة الغرب، إلا أنَّ الليبراليين والمفتونين يتجاهلون تاريخ أمَّتهم، ويحملون عليه حملةً شعواء، ويستمرون في طعنها من الخلف، وفي نفس الوقت يُمجِّدون حضارةً زائفةً فيها من البلايا والخطوب ما فيها، ويستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، فلا بأنفسهم نجوا، ولا أمتهم نفعوا.

(١) انظر: علماء ومفكرون عرفتهم، لمحمد المجذوب(٣/٢٢-٢٢٣).

(٢) المدخل إلى علم التاريخ، لمحمد السلمي، ص١٢٧-١٣٠، وانظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، لأبي الحسن الندوي، ص١١٦.

(٣) انظر: جاهلية القرن العشرين، لمحمد قطب، ص٣٤-٣٧.

(٤) انظر: المدخل إلى علم التاريخ، لمحمد السلمي، ص٤٧-٤٨.

١١- تبنِّي الطرح العلماني الغربي في التعامل مع القضايا الشرعية: إنَّ انبهار الليبراليين بالحضارة الغربية ومنجزاتها، دفعهم إلى تفسير النصوص الدينية بالرؤية العلمانية التي تُنحِّي الدين، وترفض الغيب؛ ولذلك تصدر عنهم آراءٌ تُطالب بإقصاء الدِّين، وتطبيق العلمانية في كلِّ مجالات الحياة، حتى في مسائل الأحوال الشخصية كالزواج والطلاق والميراث، والتي لم يَعُد يُعمل بشيءٍ من أحكام الشريعة في بلاد المسلمين ومحاكمهم إلا بها، فيُطالبون بالالتزام بالقوانين الغربية في هذه المسائل أيضاً، وتحرير شؤون الزواج من هيمنة الشرع ومحاكمه ورجاله؛ ولذلك نادوا بفكرة الزواج المدني التي تتضمَّن منع التعدد، ومنع الطلاق، وإباحة زواج المسلمة بغير المسلم، وأن لا يكون الدين عائقاً أمام الرغبة في الزواج بين رجلٍ وامرأة، وهذه الدعوة لم يعرفها الفكر العربي إلا في مرحلةٍ مُتأخِّرةٍ، فلم يتحدث أيٌّ من مفكِّري الليبرالية الأوائل عن هذه الخطوة التغريبية المتطرفة.

إنَّ الليبراليين يسعون من خلال هذه الدعاوى لإيصال المجتمع إلى العلمانية الشاملة، وتحاول هذه المنظومة بكلِّ صرامةٍ أن تُحدِّد علاقة الدين بكلِّ مجالات الحياة[١]؛ ولذلك يتميز أتباع التيار الليبرالي بقصور نظرتهم للإسلام، ونفورهم من الأحكام الشرعية كالحدود، والحجاب، والجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وغيرها، ويستوحشون من ذِكرها وتطبيقها، وتطوَّر الأمر معهم حتى أصبحوا يدعون إلى العلمنة صراحةً، ودون أيِّ استدراك[٢].

ولقد تبنَّى الليبراليون هذا المبدأ علمياً، وسعوا في تطبيقه عملياً في كثيرٍ من دول العالم الإسلامي، فمن الناحية الثقافية والفكرية اصطبغت به مناهج التربية والتعليم، والدراسات الأكاديمية، ووسائل الإعلام والتوجيه، وتربَّت عليه أجيالٌ من المسلمين بسبب غفلتها، وبُعدها عن المنهج القويم، ومن الناحية التشريعية والسياسية سارت على هذا النهج معظم الدوائر والمؤسسات التشريعية والتنفيذية كالقضاء، والأحكام المدنية، والهيئات والنظم الإجتماعية والاقتصادية والسياسية والعسكرية، والعلاقات الدولية، وغير ذلك من شئون الحياة الأخرى[٣]، فمثلاً عندما يواجه المجتمع العربي مشكلةً ما كمشكلة إقبال الشباب على الزواج من الأجنبيات، فإنَّ الليبراليين يُقدِّمون الحلَّ وفقاً لمرجعيتهم، وذلك بضرورة إباحة الاختلاط؛ ليحصل التعارف، ثمَّ الحب، ثمَّ الزواج بين الجنسين، فالمشكلة عندهم ترجع فقط إلى عدم اختلاط الجنسين اختلاطاً يُهيئ للطرفين منهما فرص التعارف.

لقد ظهر هذا الاتجاه العلماني في العالم الإسلامي أوَّل ما ظهر في تركيا، ونتجت عنه الثورة الكمالية التي كانت سبباً رئيسياً في سقوط الخلافة العثمانية، وكان حالهم "إنَّنا نحن العثمانيين، لا

---

(١) انظر: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، لعبد الوهاب المسيري(١/٢٠٩-٢١٠).

(٢) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٨٦.

(٣) انظر: المصدر السابق، ص٣٩٢.

يمكن أن نترقَّى إلا إذا نبذنا الدين وراء ظهورنا، وعصرنا العلماء عصراً، نمحقهم به محقاً"[١]، فالليبراليون يرون أنه ليس بين المسلمين وبين التقدُّم والرُّقي الحضاري إلَّا ترك الدِّين، وفصله عن الدولة وسائر مرافق الحياة؛ ولذلك يعتبر الليبراليون أنَّه قد "حصل التقدم في تركيا بعد نبذها تعاليم رجال الدِّين وفتاويهم، وفصلها الأمور الزمنية عن الدينية، واستغنائها عن قراءة البخاري في السنين البخارية"[٢].

فيعتبر الليبراليون أنَّ الدين ليس من مقومات بناء الدولة القوية؛ بل هو عندهم من المعوِّقات، وأننا نستطيه أن "نبني ولسنا بحاجةٍ لأن نُعلن الإسلام دين الدولة، فالإسلام دين الله، ودين الإنسان، وليس دين الدولة"[٣]، فعندهم أنَّ "الدين في حياة الفرد شيءٌ، وفي حياة الأمة شيءٌ آخر، ففي حياة الفرد هو تجربةٌ فرديةٌ خاصة، ينتهي إليها بمعلوماتٍ قد يتلاقى وقد لا يتلاقى بها مع سواه، وفي حياة الأمة هو دلالةٌ على تاريخٍ، أمَّا أن يكون الدِّين قاعدةً في تكوين الأمة، وبناء الدولة فهذا ما يُخالف طبيعة التاريخ البشري؛ لأنَّه ما من دينٍ على أديم هذه الأرض إلَّا وهو طارئٌ على حياة الجماعة، حديثٌ في وجود الأمة"[٤].

يقول علي عبد الرازق مُستهزئاً باعتقاد المسلمين أنَّ الإسلام يجب أن يكون دين الدولة: "وعندهم أنَّ الله جلَّ شأنه كما اختار محمداً لدعوة الحق، وإبلاغ شريعته المقدَّسة إلى الخلق، قد اختاره أيضاً لحفظ ذلك الدين، وسياسة الدنيا به"[٥].

ويتجاوز طه حسين وغيره هذا الحد من الانتقاد، لينتقد الخلافة الراشدة ويعتبرها مغامرةً وجرأةً، يقول محمد خلف الله: "إنَّ رياسة الخلفاء الراشدين للدولة العربية لم تكن دينيةً بحالٍ من الأحوال؛ وإنَّما كانت مدنيةً صرفة"[٦].

ويقول طه حسين: "وأكاد أعتقد أنَّ الخلافة الإسلامية كما فهمها أبو بكر وعمر، إنَّما كانت تجربةً جريئةً، تُوشك أن تكون مغامرةً؛ ولكنَّها لم تنتهِ إلى غاياتها، ولم يكن من الممكن أن تنتهي إلى غاياتها"[٧]، ثمَّ يقول بعدها بصفحات: "وهذه الأشياء تدلُّ على أنَّ نظام الحكم في أيام النبي وصاحبيه لم يكن إلهياً مُنزَّلاً من السماء"[٨].

---

(١) انظر: مجلة المنار، المجلد ١٦، عدد صفر ١٣٣١هـ، ص١٣٢.

(٢) هذا هو الإسلام، لفاروق الدملوجي، ص٢١٣.

(٣) الإسلام وتحديات العصر، لحسن صعب، ص٤٨.

(٤) مجلة العربي، العدد التاسع، مرآة الرأي العربي، ص٢٢، بتاريخ ٢٢ محرم ١٣٧٩هـ، أغسطس ١٩٥٩م.

(٥) الإسلام وأصول الحكم، لعلي عبد الرازق، ص١٣.

(٦) القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة، لمحمد خلف الله، ص٨٢.

(٧) إسلاميات طه حسين الفتنة الكبرى، ص٦٦٢.

(٨) المصدر السابق، ص٦٧٥.

ولا ندري كيف يكون الفهم الصحيح للخلافة وتطبيقها، وكيف نُقيم دولة الإسلام بشكلٍ صحيح عند هؤلاء الللبيراليين ؟!.

إنَّ كلام الليبراليين هذا برهانٌ على جهلهم بالإسلام الذي رضيه الله للناس ديناً، وكذلك يدلُّ على العمى الذي أصابهم من شدة افتتانهم بالغرب، واتِّباعهم لأهوائهم، ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[الحج:٤٦].

١٢- المناداة بسفور المرأة المسلمة ونزع حجابها: إنَّ من أبرز الجهود المبذولة من الليبراليين في تبنِّي الطرح الغربي العلماني المناداة بسفور المرأة المسلمة، والقضاء على حجابها؛ لِما لهذا الموضوع بالمنظور الليبرالي من أهميةٍ كبيرةٍ في إفساد المجتمع وضياعه، ولِما له بالمنظور الإسلامي من أهميةٍ كبيرةٍ في صلاح المجتمع، فالمرأة هي الركيزة الأولى في إعداد الأمة، وتربية الأجيال، وتكوين الأسرة والبيت الصالح، فإذا كانت المرأة مسلمةً، متحجبةً، محتشمةً، مُتسترةً، واعيةً بدينها وعقيدتها، مدركةً لمصلحة أبنائها وصلاحهم، ومهتمةً بمصالح دينها وأمتها، صاغت الجيل المسلم الراسخ العقيدة، القوي الأخلاق، وإذا ضاعت المرأة، وهتكت الستر، وتبرَّجت واختلطت بالرجال، وانساقت مع مُغريات الشهوة والشهرة، والمتعة الحرام، ضاع المجتمع كله[1].

لقد انشغل الفكر الليبرالي بقضية المرأة، والمرجعية الفكرية له في ذلك هي الثقافة الأوروبية، وقد أبدى الليبراليون احتراماً وإجلالاً لجهود قاسم أمين في نزع حجاب المرأة المسلمة، فعدُّوه مدافعاً عن المرأة وحقوقها؛ بل ومصلحاً اجتماعياً وقف حياته للدفاع عن حرية الفكر، وحرية المرأة[2].

ولقد ساهمت الصحافة الليبرالية في إفساد المرأة المسلمة، عن طريق نشر استفتاءاتٍ متتاليةٍ حول مسائل اجتماعية تُعارض الإسلام[3]، وتثقيف المرأة بما ينبغي أن تُطالب به من حقوق، وفقاً للمرجعية الأوروبية[4]، ونشر المقالات والصور التي تخدم فكرة وجوب تقليد المرأة العربية للمرأة الغربية في السلوك، والعادات، والأزياء، ومسابقات الجمال، والرياضة النسائية[5].

لقد شغلت الدعوة إلى السفور وخلع الحجاب، الجزء الأكبر من اهتمام التيار الليبرالي بقضية المرأة، بدايةً من الطهطاوي الذي أبدى كثيراً من الإعجاب بالسفور والاختلاط الذي تتمتع به المرأة

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٤١٧.

(٢) انظر: مقال بعنوان الاحتفال بذكرى قاسم لمناسبة انقضاء عشرين عاماً على وفاته، لمحمد حسين هيكل، السياسة الأسبوعية، العدد١١٣، ٥ مايو ١٩٢٨، ص٣-٤.

(٣) انظر مثلاً مقال عن زواج المسلمة بالكفار، مجلة الهلال، المجلد٣٢، العدد١٢، ديسمبر١٩٢٣م، ص٢٥٣-٢٥٨.

(٤) انظر: الفكر الليبرالي في الصحافة المصرية، لفاروق أبو زيد، ص٤٦٥.

(٥) انظر: المرأة بين الجاهلية والإسلام، لمحمد الناصر، ص٢٥٧-٣٠٠.

الباريسية، وباعتبار السفور والاختلاط ليس نقيضاً لعفة النساء، فيقول الطهطاوي: "إنَّ وقوع اللخبطة بالنسبة لعفة النساء، لا يأتي في كشفهن أو سترهن؛ بل منشأ ذلك التربية الجيدة والحسنة"[١]، وتابعه قاسم أمين في اعتبار التربية وليس الحجاب هي التي يُعوَّل عليها في الأخلاق والعفَّة، فيقول في تهوين أمر الحجاب: "العفَّة ملكةٌ في النفس لا ثوب يختفي دونه الجسم"[٢]، ثمَّ أطنب في تعداد مساوئ الحجاب، وشرح أضراره، مؤكِّداً أنَّه لا يمنع من الفساد، وأنَّه من بقايا هيئتنا الاجتماعية الماضية[٣]، وأنَّه ضارٌّ فلا يمكن أن يكون شرعياً، كما عدَّه مُنافياً للحرية الإنسانية؛ لأنَّه يُعيق المرأة عن ممارسة حقوقها[٤]، ونادى بالاختلاط في التعليم[٥]، وهذه هي القاعدة التي تأسَّس عليها الخطاب الليبرالي في مسألة السفور والحجاب.

لقد جرى التركيز في الخطاب الليبرالي على إبراز مثالب الحجاب، وفضائل السفور، ودعوة النساء للثورة على الحجاب[٦]، فزعموا أنَّ الحجاب يُولِّد سوء الظنِّ بين الرجل والمرأة[٧]، ويجني على الأدب والفن؛ لأنَّ الشاعر والفنان لا يجد الكائن الجميل الذي يُصوِّره، أو لا يشعر به في الناحية الاجتماعية"[٨].

يقول خالص جلبي مُستهتراً بالحجاب: "عند سكان أستراليا الأصليين، تتدلى أثداء النساء بدون أن تُثير الفتنة، وفي كهوف الفلبين يعيش الناس رجالاً ونساءً مع أطفالهم في حالة عُريٍّ كامل، فلا يصيح واعظهم أنَّ هذا مُخلٌّ بالأخلاق!!!، وبالمقابل فإنَّ كشف يد امرأةٍ متلفعةٍ بالسواد من مفرق رأسها حتى أخمص القدم في بعض المناطق من العالم العربي، يُثير الشهوة عند رجالٍ يعيشون في حالة هلوسةٍ جنسيةٍ من عالم المرأة"[٩].

---

(١) تلخيص الإبريز، للطهطاوي(١/١١٠).

(٢) تحرير المرأة، لقاسم أمين(٢/٧٨).

(٣) انظر: المرجع السابق(٢/٤٣)،(٢/٤٥-٤٨)، (٢/٥٢).

(٤) انظر: المرأة الجديدة، لقاسم أمين(٢/١٥٣)، (٢/١٩٧).

(٥) انظر: تحرير المرأة، لقاسم أمين(٢/٦٢).

(٦) انظر: العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، لمحمد الناصر، ص٢٦١-٢٦٨.

(٧) انظر: مقال بعنوان: "حجاب المصرية، وما جلبه على المجتمع المصري"، جريدة السياسة الأسبوعية، العدد١٠٣، ٢٥ فبراير ١٩٢٨، ص٧، ومقال: "البرقع"، السياسة الأسبوعية، العدد ٣٧، بتاريخ ٢٠ نوفمبر ١٩٢٦، ص ١٦٥.

(٨) انظر: مقال بعنوان: "جناية التحجب على الأدب"، لحافظ محمود، السياسة الأسبوعية، العدد١٠٤، بتاريخ ٣مارس ١٩٢٨، ص ٧.

(٩) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٣١٨، نقلاً عن: مقال في جريدة الشرق الأوسط لخالص جلبي بتاريخ ٢٠٠٢/٧/٣م.

لقد أفرد الخطاب الليبرالي العربي صفحاتٍ واسعةٍ من الصحافة الليبرالية، لتعريف المرأة العربية بأنماطٍ جديدةٍ من السفور التغريبي، في الأزياء، والسلوك، والعادات[1]، وفي هذه البيئة الفكرية تنامت الدعوة إلى تحطيم كلِّ الحواجز والحجب أمام سفور المرأة واختلاطها بالرجال[2]؛ بل وهناك من الليبراليين من يُنادي بضرورة الاستفادة من تجربة الاختلاط في الغرب، ويزعم أنَّها لم تُهدِّد الأخلاق؛ بل زادت في متانة أخلاق الشباب، وقلَّلت من النَّظر إلى المرأة بوصفها جسداً !!؛ ويزعم أنَّ الفصل بين الجنسين هو أدعى إلى إثارة الشهوات، وفيه الكثير من سوء الظن بأخلاق المرأة والرجل!![3]، لذلك يأسف على أنَّنا لم نخطُ بعدُ الخطوة الحاسمة في سبيل تطبيق روح الحضارة العصريةعلى عاداتنا وأخلاقنا وأساليب حياتنا[4].

واستمرَّ الهجوم على الحجاب، كما جرى الربط بين السفور والتقدم، واعتبار الحجاب سلوكاً مُتخلِّفاً يتنافى مع التقدُّم والمدينة، ويُعطِّل قدرات المرأة.

إنَّ التيار الليبرالي وفقاً لمرجعيته الفكرية، ورؤيته لدور المرأة في المجتمع، تبنَّى الدعوة للتعليم المختلط، واجتهد رموزه في الترويج له، وإبراز فضائله وإيجابياته، ولا يُمانع رموزه من الاختلاط في التعليم العالي في المعاهد والجامعات، إذ يزعمون أنَّ "الطالب أو الطالبة في دور العلم العالية يُقدِّرون ما يترتب على كلِّ عملٍ من أعمالهم من التبعات الخُلقية، ويعلمون طريق الخير وطريق الشر، ويفهمون معنى الفضيلة، ومعنى الرذيلة، ولهم من حُسن تربيتهم فيما مضى، ومن سلطانهم على أنفسهم، وحسن أخلاقهم، ما يُزيل أيَّ سوءٍ للخلطة ويجرُّ إلى خيرها"!![5].

---

(١) نشرت جريدة السياسة الأسبوعية، العدد ١٥٦، مارس ١٩٢٩، ص ١٥، "صور سيدات بلباس البحر، وجماعة من الشبان والشابات يرقصون على أنغام كلاسيكية، وصور مماثلة فاضحة"، وانظر أيضاً: السياسة الأسبوعية، العدد١٤٤، ٨ ديسمبر ١٩٢٨، ص١٤، والسياسة الأسبوعية، العدد١٧٦، ٢٠ يوليو ١٩٢٩، ص١٤-١٥، والسياسة الأسبوعية، العدد ١٩٢، ٩ نوفمبر ١٩٢٩، ص١٤-١٥ .

(٢) انظر: مقال بعنوان "اختلاط الجنسين طرفا الغلو"، لإبراهيم المازني، السياسة الأسبوعية، العدد١٥٩، ٢٣ مارس ١٩٢٩، ص١-٢.

(٣) انظر: مقال بعنوان: "في المنع ضرر وسوء ظن، الاختلاط بين الجنسين مشروع"، لمحمد حسني عبدالحميد، السياسة الأسبوعية، العدد٧٣، ٣٠ يوليو، ١٩٢٧، ص٨.

(٤) انظر: مقال بعنوان: "بعد السفور وجوب تكوين المجتمع المصري المختلط"، مجلة الهلال، المجلد٤٦، العدد٣، يناير ١٩٢٨، ص٢٦٩-٢٧٢.

(٥) مقال بعنوان: "التربية المشتركة بين الجنسين"، لمنصور فهمي، مجلة الهلال، المجلد٣٨، العدد٦، إبريل ١٩٣٠، ص٦٦٠-٦٦٤.

لقد ظلَّ التيار الليبرالي مؤمناً بأهمية الاختلاط ومحاسنه(١)، وتبنَّى بعضهم الدعوة إلى المفاهيم الغربية في ميدان التربية والتعليم تبنِّياً كاملاً غير منقوصٍ، فهذا أحدهم يتمنى أن يسير العالم العربي في هذا كما سارت أوروبا، ويطالب بالانفتاح على التجارب الحديثة في مجال التربية والتعليم في أوروبا وأمريكا، ويعرض نماذج من التعليم في الغرب، تؤكِّد على محاسن التعليم المختلط، وثبوت انعدام مخاطره حتى في بعض الحالات التي طُبِّق فيها الاختلاط في الأقسام الداخلية، وفي غرف النوم في سن الثامنة عشرة!!(٢).

سبحان الله، ما أسهلَ الحرامَ عندهم، وما أهونَ المعاصي في نظرهم، بكلِّ بساطةٍ يُقرِّرون ما يريدون، دون الرجوع إلى أحكام الشريعة الطاهرة، ألم يسمع هؤلاء قول النبي ﷺ: **(لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ)**(٣)، وقوله ﷺ:**(ألا لا يخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ إلا كان ثالثهما الشيطان)**(٤)، وقوله الفصل مُحذِّراً من فتنة النساء:**(ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء)**(٥)؛ ولكنَّ حال هؤلاء الليبراليين حالهم كما قال ﷻ:﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ**﴾[البقرة:١١-١٢].

ونتيجةً لهذه العلمنة يسعى الليبراليون إلى استبدال القيم والمفاهيم والمصطلحات والتصوُّرات الإسلامية بقيمٍ ومفاهيم ومصطلحاتٍ وتصورُّاتٍ غربيةٍ، بزعم التجديد والتنوير والحداثة، ويعنون بذلك تغيير أسلوب المعيشة والحياة؛ لتكون على النمط الغربي(٦)، وفي مقابل ذلك يجعلون من أهمِّ أهدافهم الترصُّد والكيد لكلِّ محاولةٍ جادةٍ لاستئناف الحياة على ضوء الإسلام، والتصدِّي لكلِّ من يدعو إلى ذلك، خاصةً الدعوات والحركات الإسلامية في كلِّ مكان تظهر أو تقوى فيه؛ فتسعى لتشويه صورتها وإسقاطها من عقول الناس؛ لتثبت بأنَّ الإسلام لا يصلح للحكم، وأنَّ الإسلاميين ضيَّعوا مجتمعاتهم بمحاولتهم ربط حياة الناس بتعاليم الإسلام، وهذا ما يحدث تماماً في هذه الأيام في بعض الدول الإسلامية، وغزة أكبر مثالٍ على ذلك.

---

(١) انظر: مقال بعنوان "اختلاط الجنسين في التعليم القومي يقوي الخلق ويصلح المجتمع، لنظمي خليل، الهلال، المجلد٤٥، العدد٧، مايو ١٩٣٧، ص٧٣٣-٧٧٥.

(٢) انظر: مقال بعنوان "تجارب جديدة في التربية للناس فيما يدرسون مذاهب"، لأمير بقطر، الهلال، المجلد٤٦، العدد٧، أول مايو ١٩٣٨، ص٧٢٦- ٧٣١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب لا يخلون رجل بامرأة إلا ذو محرم، والدخول على المغيبة، (٣٧/٧)، حديث رقم ٥٢٣٣.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة، برقم ٢١٦٥، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم ٢٥٤٦.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقى من شؤم المرأة، حديث رقم ٥٠٩٦.

(٦) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٤٠٣.

إنَّه عند النظر في الواقع والتطبيق لهذه الدعاوى المُخالفة للإسلام، فإنَّ التيار الليبرالي يُدرك جيداً أنَّ الأمة الإسلامية تنتمي إلى حضارة المُقدَّس، وأنَّ أيَّ محاولةٍ للتزوير والتحريف محكومٌ عليها بالفشل إذا لم تنطلق من خلال الإيمان والمقدَّس؛ ولذلك فقد وقع الليبراليون العرب في مأزق التصادم بين الانتماء الفكري والثقافي للغرب، والانتماء الوطني والقومي للعرب والإسلام؛ ولكي يتخلَّصوا من هذا المأزق لجؤوا إلى محاولة التوفيق بين ثقافة الغرب التي فُتنوا بها من جهة، وبين الحضارة الإسلامية التي عايشوها في مجتمعاتهم من جهةٍ أخرى، فكانت مُقدَّسات هذه الحضارة الإسلامية هي محور دراساتهم، إلَّا أنَّهم بسبب ضعفهم في المواد الأصولية اللازمة لقراءة الإسلام، وفي ذات الوقت كثرة اطِّلاعهم على العلوم الحداثية الغربية، جاءت قراءاتهم للإسلام أقرب إلى التلفيق والتزوير منها إلى التوفيق والتنوير[١].

إنَّ الليبراليين بهذا التزوير يعلمون أنَّهم يتلاعبون بالعقول، ويعبثون بالفكر، وأنَّ هذا التلاعب والعبث إذا انطلى على فئةٍ من الناس، أو جيلٍ من الأجيال، فإنَّ الزيف لا بدَّ أن يظهر، والخداع لا بدَّ أن ينكشف، ولم ولن يُوفَق الليبراليون لتحقيق أهدافهم في بلاد المسلمين؛ فليست حضارتنا هي حضارة القرون الوسطى، وليس في ديننا سيطرةٌ وتحكُّمٌ كسيطرة وظلم الكنيسة، وليس قرآننا كالعهدين القديم والجديد في التأثُّر بالصدمات النقدية والتحريف، وليس في تاريخنا محاكم كمحاكم التفتيش، ولا إباداتٍ عنصريةٍ لشعوبٍ وأممٍ بأكملها، ولا نهبٍ وامتصاصٍ لخيرات القارات الضعيفة، ورميها بين أنياب الجوع والفقر والمرض، ومهما حاول الليبراليون أن يبحثوا عن روابط في تاريخنا لتبرير مشروعاته وعلمنة الإسلام، فإنَّ الحقائق تظلُّ مشرقةً لا يمكن حجبها أبداً، وأمتنا ليست بحاجةٍ للنموذج التحرُّري؛ لأنَّ ذلك جاء كردَّة فعلٍ على نظام الرهبنة والمثالية المُتطرِفة، والانفصام بين الإنسان والعام كما فعلت الكنيسة في العصور الوسطى، وردَّة فعلٍ على النُّظم القمعية والفاشية والرأسمالية التي عاثت في الكون فساداً وقمعاً وإبادة، وانتهكت إنسانية البشر[٢].

١٣- االتناقض والتخبُّط في المواقف والمفاهيم: إنَّ اليقين والثبات من صفات أهل الحق، وإنَّ التيه والتناقض والتخبُّط من صفات أهل الباطل، وهذا ما لوحظ في هذا الفكر الليبرالي المتناقض، الذي يزعم دائماً مفكروه بأنَّهم مُتحرِّرون من كلِّ قيد؛ ولكن إذا ما حدث أدنى تعارضٍ بين الأفكار التي يحملونها وأيِّ شيءٍ آخر، فإنَّهم ينتصرون لأفكارهم، وهنا تظهر حماقة الليبراليين عندما يُطالبون المسلمين بالتنازل عن ثوابتهم[٣].

---

(١) انظر: مآل الإسلام في القرآت العلمانية، لأحمد الطعان، ص٦٥.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٦٠، والحلول المستوردة، للقرضاوي، ص١١٧-١١٨.

(٣) انظر: معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، لعبد العزيز كامل، ص٨٧.

إنَّ من التناقض في الفكر الليبرالي أنَّهم يتخذون من شعارات العلم والمعاصَرة والعقلانية وغيرها، ستاراً وتبريراً لبعث أفكارٍ باليةٍ، ومعتقداتٍ سقيمةٍ، وثورة العلم التي يدَّعونها لم تجد ما تقدِّمه للإنسان سوى إنكار الدِّين وتأليه المادة [1].

ومن أقبح تناقضات الليبرالية أنَّهم ينادون بتطبيق الديموقراطية الانتخابية في دول العالم ليتحقق العدل بزعمهم؛ ولكن إذا تعارضت الديموقراطية التي يتغنَّون بها مع مصالحهم ومع المصالح الأمريكية، فإنَّهم يضربون بها عرض الحائط، فالليبرالية تُساعد الحُكَّام الطُّغاة في كلِّ مكانٍ ما داموا مخلصين لها ولمصالحها، وهي تحارب كلَّ ديموقراطيةٍ تُهدد استغلالها وظلمها وعدوانها، فيصبح الحاكم الذي جاءت به أمريكا وارتضته، والذي يخدم ويرعى مصالح المحتل هو الذي يُمثِّل الشرعية، أمَّا الحاكم الملتزم بثوابت دينه وثوابت شعبه، والذي جاءت به الديموقراطية التي يتغنَّون بها فهو غير مرغوبٍ فيه، ولا مُعترفٍ به، كما لو اختار عامة الشعب الإسلاميين في الانتخابات السياسية، فإنَّ الليبرالية تنزعج انزعاجاً شديداً، وتشنُّ على هذا الاختيار حرباً شعواء، وتُندِّد بالشعب، وتزدري اختياره، وتُطالب بنقض هذا الاختيار، وتسميه إرهاباً وتطرُّفاً وتخلُّفاً وظلاميةً ورجعية، كما حدث مع حركة المقاومة الإسلامية حماس في فلسطين عندما فازت في الانتخابات عام ٢٠٠٥م، تآمر الجميع على الديموقراطية التي طالما تغنَّوا بها، وكان الردُّ على هذا الاختيار هو الحروب المُتكرِّرة على غزة، وتشديد الحصار الجائر على النساء والأطفال والمرضى، وكلُّ هذا لاثبات أنَّ الإسلام لا يصلح للحكم؛ ولكنَّ الله ﷻ كان لهم بالمرصاد، ومصير الليبراليين وأعوانهم كما قال ﷻ: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ**﴾[الأنفال:٣٦][2].

إنَّ "تناقض الليبراليين تجده واضحاً، فتجد مثلاً: ليبرالياً سياسياً ومحافظاً اجتماعياً، وآخر ليبرالياً اجتماعياً ومحافظاً سياسياً، وثالثاً ليبرالياً سياسياً وليبرالياً اجتماعياً؛ بل تجد ليبراليين تحت مظلة الشيوعية أو الاشتراكية أو الرأسمالية، أو الفساد الأخلاقي، أو التعصب القومي، أو الوطني، أو غير ذلك؛ ولهذا اضطُر بعض الليبراليين أن يقولوا إنَّ ليبراليتي تعني كذا وكذا، ولا تستغرب عندما تجد ليبرالياً يُدافع عن الأغنياء، وليبرالياً آخر يكره الأغنياء، وتجد منهم من يؤيِّد أمريكا، ومنهم من يقف ضدَّ أمريكا، فالتناقض الليبرالي يُثبت أنَّ الليبرالية أشبه ما تكون ببيت العنكبوت"[3].

---

(١) انظر: الإسلام والغرب، لمحمد الخير عبد القادر، ص٩٤.

(٢) انظر: دليل العقول الحائرة في كشف المذاهب المعاصرة، لحامد العلي، ص٢٠، والإسلام والعولمة، لأحمد عبد الرحمن، ص٩٧.

(٣) الليبرالية الضائعة، لعيد الدويهيس، ص٧٩-٨٠.

ومن تناقضات الليبراليين أنهم يكيلون بمكيالين، فباسم الليبرالية الدينية والفكرية باركوا تطاول السفهاء على شخص النبي ﷺ، مع أنَّهم لا يتأخرون عن إطلاق نيرانهم الكلامية فور أيِّ تخطٍ للدبلوماسية، وخاصة فيما يتعلق بقضايا اليهود، فهم يعتبرون أنَّ التطاول على النبي ﷺ من باب حرية الرأي، وفي الوقت ذاته يعتبرون أنَّ أيَّ انتقادات لسياساتهم الهمجية ضد المسلمين هي من باب التحريض، وليست من باب حرية الرأي؛ ولذلك قاموا بإغلاق الكثير من الفضائيات الإسلامية بتهمة التحريض وإشعال الفتن، ووصفوها بأنَّها فضائيات فتنة، في حين أنَّهم أطلقوا العنان للفضائيات المثيرة للشهوات، والمثيرة للفتن، والمدمرة للمجتمع(١)، فمناداتهم بالحرية عبارة عن كذبٍ، ودعوةٍ إلى الانحلال، إذ أنَّهم علاوةً على ما سبق ذكره يعيبون على المسلمات ارتداء الحجاب، وينتقدونه بشدة، ويتهمونهن بالتخلُّف والرجعية، ثمَّ يقولون عن السفور والتبرج بأنَّه حريةٌ شخصيةٌ، لا يجوز التدخُّل فيها، أو التعدِّي عليها.

ومن عجيب أمر الليبراليين وتناقضهم الفاضح أنهم يُلصقون بالإسلام انحراف المنحرفين، في حين أنَّهم لا ينسبون له عدل العادلين؛ فتراهم حين يُواجهون قيادات إسلامية فذة في عدالتها واستقامتها لا يُرجعون فضائلها إلى الإسلام؛ بل إلى أمورٍ إنسانيةٍ كالعبقرية والذكاء، فهم لا يقولون عند الحديث عن النماذج المشرقة هذا هو الإسلام؛ بل يقولون هذا هو الإسلام حيث وقع الظلم أو الوهن أو الانحراف أو الفسق، كما سمَّى أحد العلمانين كتابه بعنوان: هذا هو الإسلام، وذكر فيه ما يذمُّ وينتقص به الإسلام(٢).

إنَّ هناك تناقضاً واضحاً بين الشعارات التي يرفعها الليبراليون، وبين الممارسات العملية على أرض الواقع، فهم يتعاملون بمنطقين مختلفين، منطق مع الإسلاميين، ومنطق مع أنفسهم ومع الغرب المنتمين إليه، ويحمِّلون الإسلام المسؤولية عن كلِّ الأخطاء والانحرافات في التاريخ، ولا يقولون أن الإسلام شيء والأخطاء الفردية الصادرة من بعض الأشخاص شيءٌ آخر، في حين أنَّهم مع المذاهب الأخرى يُفرِّقون بين صلاحية المبدأ في ذاته، وبين سوء التطبيق(٣)؛ ولذلك فإنَّ الحلَّ الليبرالي قاتمٌ وسقيمٌ، والغرب أكبر شاهدٍ على هذا، فقد عاش الحياة الليبرالية بالمفهوم الذي وُضِع لها، أكثر من قرنين، وها هو ينتقدها ويُعارضها، بعدما طحنت شعوبهم، فنشرت فيهم الأمراض المُهلكة، والمخدِّرات والخمور والزنا والشذوذ والإلحاد والجريمة، والغرب اليوم من وراء الفكر الليبرالي، يُصدِّر للعالم مشاكله وجرائمه وعدوانه، فقد اعترف مسئولون في وزارة العدل الأمريكية في تقريرٍ بأنَّ عدد العصابات

---

(١) انظر: معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، لعبد العزيز كامل، ص١٠٤.

(٢) انظر: الإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، ليوسف القرضاوي، ص١٧١.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص١٦٩.

الناشطة في الولايات المتحدة يفوق الـ ٢٨ ألف عصابة، وأشارت احصاءاتٌ رسميةٌ إلى أنَّ الجرائم في الولايات المتحدة تحصد كل عام ما يقارب ١٧ ألف شخص[١].

إنَّ الليبرالية فكرٌ متهافتٌ متناقضٌ، وهو مبنيٌّ على أنَّ الحرية هي القيمة العليا، فالفرد بدعوى الحرية سيفعل ما يشاء، ولو كان فيه شقاؤه، سيشرب الخمر، ويزني، ويخدع، ويحتال، وكلُّ هذه آفات تقتل السعادة، ويقر بذلك كلُّ العقلاء[٢].

ومن أعجب تناقضات الليبراليين أنّ الحرية عندهم كصنم عجوة، يُقَدَّس ويُعبد، وتُنْزَعُ القداسة عن كل ما سواه، ثمَّ لا يلبث أن يُؤكل أمام جوعةٍ من الجوعات، فهم يُنادون بالتعدُّدية، وبأن يُسمح في المجتمع بالاختلاف والتعدُّد في كلِّ شيء، حتى لو كان هذا الاختلاف بين الحقِّ والباطل، وحتى لو كان في المجتمع من يعبدون إبليس نفسه، فيجب أن يُسْمَح لهم في نظر الليبراليين بإظهار دعوتهم، وتمكينهم من دعوة الناس إليها، ونشر كلِّ ما يُزيِّنها ويشجع على اعتناقها، وعلى الصعيد السياسي يجب أن يُسمح لهم بتأسيس حزبٍ سياسيٍ يحمي معتقداتهم، ويُسمح لهم بنشرها، والعجيب في التعددية الليبرالية أنَّها عندما يأتي دور الإسلام، لا يُسمَح لهُ بالتعددية؛ بل يُحارَب حرباً ضروساً، ويُضيَّق عليه، وهذا مصداق قوله ﷻ:﴿ وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآَخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[الزُّمر:٤٥]، فالمقصود بالتعددية عند الليبراليين هو الإذن بإظهار الدعوة إلى الكفر والمنكر، وحماية الداعين إلى ذلك بالقوانين العلمانيّة الوضعيّة تحت شعار الديمقراطيّة[٣].

ومن تناقضاتهم أنه عندما يتصدى الليبراليون لمعالجة بعض الآفات الاجتماعية، فلا يوجد لهم نهجٌ واضحٌ، أو معيارٌ منطقيٌّ، أو اتساقٌ في الرؤية؛ بل تجد نوعاً من التضارب، فهذه جريدة السياسة الليرالية المصرية، تحمل على إحدى الوزارات في ذلك الوقت؛ لسماحها بافتتاح كازينو للقمار في حلوان، وتقول في افتتاحيتها: "ما بالك ومصر دولةٌ يقرر دستورها أنَّ الإسلام دينها، وينصُّ القرآن﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، فهل تُقرُّ حكومةٌ إسلاميةٌ في بلادٍ مسلمةٍ رجساً من عمل الشيطان[٤]؛ ولكنَّ

---

(١) انظر: الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر، ص٥٤-٥٥.

(٢) المرجع السابق، ص٥٣.

(٣) انظر: المرجع السابق، ص٣٥-٤٣.

(٤) انظر: مقال بعنوان: قمار في مصر والإسلام دين الدولة، جريدة السياسة، العدد٨٢٧، ٢٨ يونيو ١٩٢٥، ص٤.

نفس الجريدة وهي تستشهد بالآية الكريمة التي تقرن القمار بالخمر، لا تتورع عن نشر دعايةٍ للخمور في الصفحة السابقة، ولا يخلو عددٌ من أعدادها من دعايةٍ لأحد أنواع الخمور[١].

وكذلك من تناقضاتهم دعوتهم إلى الحرية المطلقة في كلِّ شيء؛ ولكن عندما يتعلق الأمر بخصوصياتهم يتوقفون عند ذلك، فهم يُبيحون الزنا والفجور، ويعتبرونه حريةً شخصية؛ ولكن لو جاء رجلٌ لأحد الليبراليين وأراد أن يُمارس الجنس مع زوجته أو ابنته أو أمه أو أخته، فهل سيمنعه من هذه الحرية الشخصية، أم لا؟، وإذا أراد أن يمنعه فبأيِّ حُجةٍ يمنعه؟، وليبراليته تُخالف المنع!، وماذا سيفعل إن كانت زوجته أو أمُّه أو أخته أو ابنته موافقةً على هذا الفعل بدعوى الحرية الشخصية؟!، هل سيمنعهما ويتدخل في حريتهما الشخصية أم يعتز بليبراليته؟، وكذلك الليبرالي إذا أرادت زوجته أو ابنته البالغة أن تسير في الشارع عاريةً كما ولدَتْها أمُّها، هل سيشجعها على هذه الحرية الشخصية أم سيُعلن كفره بالليبرالية ويمنعها، فيُصبح مُتشدِّدًا متخلفاً رجعياً متعصباً، كما يحلو لليبراليين أن يصفوا الملتزمين من المسلمين، وإن مَنَعها فهل سيمنعها باسم الدين الإسلامي الذي يمنع ذلك، أم باسم التقاليد أو عُرف الناس، وعلى أيِّ حالةٍ هو يُخالف ليبراليته المزعومة التي تنادي بالحرية المطلقة؛ لأنه قيَّد هذه الحرية المطلقة بحدودٍ معينة[٢]، هذه هي الليبرالية والحرية، نسأل الله العفو والعافية[٣].

إنَّ هذا التناقض والتخبط والنزعة الفردية والأنانية في جميع المستويات، تسببَّت في فشل الليبرالية في كلِّ مكانٍ حاولوا تطبيق نظريتهم فيه[٤]؛ ولأنَّها فكرٌ دخيلٌ على المجتمع المسلم، ويتعارض مع قيمه ومبادئه[٥]؛ ولأنها لم تُراعِ المُقدَّسات لدى الشعوب الإسلامية، حيث كان هجومها على الإسلام نفسه، وعلى الرموز التاريخية للمسلمين، ممَّا ولَّد ردَّة فعلٍ لدى الشعوب الإسلامية تمقت الليبرالية، وتزدري المروِّجين لها.

وقد كثرت الأزمات الناتجة عن هذا الفكر، فالأزمات في النظام الليبرالي ليست حدثاً عارضاً، ولا نتيجة خاطئة لتطبيقات غير سليمة لسياسات هذا النظام، وإنما الأزمات أمرٌ لازمٌ في تركيبة هذا النظام، نابعةٌ من داخله، وهي وثيقة الصلة بالأساس الفكري الذي بُني عليه هذا النظام، وهي تدل على عقم هذا النظام، وأنه يحمل أداة فنائه فيه؛ ولهذا كثرت أزماته، وتعددت مشكلاته، وتنوعت

---

(١) انظر: مقال بعنوان: "الوطن يناديكم، ساعدوا بلادكم اقتصادياً، شجعوا صناعة مصر وأقبلوا عليها"، دعاية للبيرة المصرية، السياسة الأسبوعية، العدد١٦٦، ١١ مايو ١٩٢٩، ص٨.

(٢) انظر: الإسلام والليبرالية نقيضان، لشحاتة صقر، ص٥٧-٥٨.

(٣) العلمانية، الليبرالية، الديمقراطية، الدولة المدنية في ميزان الإسلام، اللجنة العلمية بجمعية الترتيل، ص٢٧.

(٤) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣١١.

(٥) انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد، لعثمان حسن، ص٢١٠.

انهياراته[1]، فقد فشل الفكر الليبرالي في كلِّ مجالٍ خاضه، ففي الجانب الاقتصادي فشل في إقامة حياةٍ اقتصاديةٍ سليمةٍ، تزدهر فيها الموارد الاقتصادية وتتقدم التنمية، بل زادت مشكلات البشرية تعقيداً، وقد استعملت الأنظمة الليبرالية الغربية ألوان الاستعمار الاقتصادي من خلال الهيئات الدولية التي يسيطرون عليها، مثل صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، والتي يتم من خلالها فرض الليبرالية على الدول الأخرى[2]، وتبرير شريعة الغاب في المجتمع، أو لما أسماه البعض بالليبرالية المتوحشة[3].

وأمَّا من الناحية العسكرية فالحروب والاستعمار أكبر شاهدٍ على ذلك، فإنَّ طبيعة الروح الليبرالية التنافسية والأنانية جعلت من النتائج الطبيعية لها، الاعتماد على الحروب والهيمنة والاستعمار والتهميش للأمم الأخرى، فقد عملت الرأسمالية الليبرالية على أن تكون هي مركز الاقتصاد العالمي، ويكون البقية بمثابة الأطراف، يُمارس ضدها التهميش والإقصاء، ويدخل في هذا الصدد الآثار التدميرية للاستعمار، والمبرر الوحيد لهذا الاحتلال هو الإشراف على الأمم القاصرة المُتخلِّفة التي تحتاج إلى من يُعلِّمها كيف تنعم بالحرية كما يزعمون، فبسبب الحرية المزعومة يُستعبد ملايين البشر بقوَّة السلاح الفتَّاك، وتُنهب خيرات الشعوب وثرواتها[4].

وكذلك فشلت الليبرالية في المجال الأخلاقي، إذ بُني موقفها من القيم والأخلاق على أساسٍ ماديٍ لا يرتبط بالقيم والأخلاق، فنتج عنها الأنانية واتباع الهوى والأثرة والظلم، ففشلوا في الحفاظ على أخلاق الأمَّة وفضائلها وقِيمها الأصيلة، وحوَّلت الإنسان إلى مادةٍ اقتصاديةٍ يسعى لإشباع نزواته وشهواته، دون أيِّ قيمٍ أو أخلاقٍ أو عواطف روحية، وجعلت من المجتمع شبكةً من العلاقات النفعية، وحوَّلت الحياة كلَّها إلى أهدافٍ اقتصادية، ومعيار الفضيلة عندهم هو الكسب المُجرَّد، ومقياس الرذيلة هو الخسارة المالية، وهذا يعني نفي الإنسان لقيمه وأخلاقه وروحه وثقافته ودينه، والنظر إليه بأنَّه فقط مجالٌ للربح والخسارة المادية المجردة، ومن الطبيعي في هذا المجتمع انتشار معدلات الجريمة بكلِّ صورها وأشكالها[5]، "ويصحُّ أن نقول إنَّ الفلسفة الأخلاقية الليبرالية هي في جوهرها غير أخلاقيةٍ؛ بل لن نبالغ لو قلنا: إنَّه لم يسبق لمذهبٍ فلسفيٍّ أن ابتذل الأخلاق، وحوَّل قيمها، مثلما فعلت الليبرالية بنزعتها الموغلة في الرؤية النفعية"[6].

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٢٨٤-٢٨٥، والفجر الكاذب، ص٢٧٣، ص٢٨٢، ٣٠٤.

(٢) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٣٠٦.

(٣) انظر: الليبرالية المتوحشة، لرمزي زكي، والكتاب كله مفيد في هذا الموضوع، ويوجد به ملاحظات وانتقادات حول التوجهات الجديدة للرأسمالية المعاصرة.

(٤) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرخيم السلمي، ص٦٠٢-٦٠٣.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص٣٠١-٣٠٢، ص٥٩٠-٦٠٣، والفجر الكاذب، ص٢٤.

(٦) نقد الليبرالية، للطيب بو عزة، ص١٥١.

وأما في الجانب الأسري والاجتماعي، فقد كانت الرأسمالية الليبرالية وراء تغيير المفهوم التاريخي والفطري للأسرة، الذي يقضي بأن الأب يعمل لينفق على الأسرة، والأم تقوم بعملية التربية والرعاية الأسرية، ولهذا تغير هذا المفهوم إلى أنماطٍ غربيةٍ من التكوين الأسري، رقيقة العلاقة إلى درجة أنه لا يبقى إلا صورتها الشكلية فقط(١)، ومن جراء الليبرالية انتشرت الرذيلة والفساد الأخلاقي، والاتجار بالنساء والأطفال من خلال عصابات الجريمة في دور البغاء، وتحت قسوة البطالة والحاجة للمال، وانعدام العناية الاجتماعية تمَّ استغلال الآلاف من النساء والأطفال جنسيا، ولا مانع لدى الليبراليين من تجارة المخدرات والاتجار الإباحي بالنساء والشاذين بدعوى الحريةً(٢)، فشاعت الفاحشة وانتشر الزنا، وأُبيح الاختلاط بين الجنسين في المدارس والجامعات والمؤسسات والوظائف، وأُبيحت الخمور، وراجت المخدرات، وانتشرت صالات الرقص والمسابح المختلطة لتسهيل الفجور والعبث، وعرفت بلاد المسلمين أولاد الزنا، ودور اللُّقطاء، وقتل الأجنة، وظهرت ألوانٌ كثيرةٌ من الفواحش والموبقات(٣).

وكذلك فشلت الليبرالية في المجال الرُّوحي؛ بسبب خلوِّها من العنصر الروحي؛ بل وإغفالها له إغفالاً مقصوداً ومُتعمَّداً، وبسبب مصادمتها للفطرة البشرية(٤)، فظلَّت الأمة مستمسكةً بإيمانها الذي تعتزُّ به، وتعتبره أساس وجودها وبقائها.

إنَّ هذا الفشل في كلِّ المجالات هو حصاد الفكر الليبرالي المبني على الأنانية والفردية المطلقة، وهذه نتيجة البعد عن منهج الله ﷻ، والقبول بأفكارٍ شيطانيةٍ لا تمتُّ للأخلاق والقيم بصلة(٥)، وإنَّ الإسلام بمنظومته الرسالية الكاملة لا يستطيع أن يبقى مكتوف الأيدي أمام كلِّ من يُحاول سحق الشعوب، ويُحطِّم الكينونة الروحية للإنسان، فالإسلام هو الوحيد القادر على استنهاض شعوب العالم الفقيرة، وإنقاذ الطبقات المُستضعفة في جميع جوانب الحياة اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً(٦).

ويتبيَّن من كلَّ ما سبق ذكره من منهج الليبراليين مدى خطر هذا الفكر على الإسلام والمسلمين، ويتضح أنَّهم يسعون للانتشار في العالم الإسلامي؛ لإخراج حقدهم الدفين ضدَّ الإسلام،

---

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٢٩٩-٣٠٠، ومعركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، لعبد العزيز كامل، ص١١٥.

(٢) انظر: معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، لعبد العزيز كامل، ص ١٢٨-١٣٢، والفجر الكاذب، ص١٦١.

(٣) انظر: التطرف المسكوت عنه، لناصر الحنيني، ص١٤٦، والحلول المستوردة، للقرضاوي، ص٧١-٧٣.

(٤) انظر: الحل الإسلامي فريضة وضرورة، للقرضاوي، ص٥٢، ومذاهب فكرية معاصرة، لمحمد قطب، ص ٦٤٨، والحلول المستوردة، للقرضاوي، ص١١٢، وحركات ومذاهب في ميزان الإسلام، لفتحي يكن، ص٤، وحقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٥٩٠.

(٥) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٢٩٦.

(٦) انظر: الإسلام والعولمة، لأحمد عبد الرحمن، ص١١١.

والواقع الذي لا مراء فيه، أنَّ غاية ما عند هؤلاء الليبراليين هو مسخ هُوية المجتمع المسلم، والانقلاب على الذات، وتلميع الفكر الغربي، واستنساخه بدون وعيٍ أو صدقٍ مع الذات أو مع المجتمع!، وذلك من خلال تعطيل الحكم بالشريعة الربانية، وتحكيم القوانين الجاهلية الوضعية، وتشويه عقيدة المسلمين، وزعزعة مُسلَّماتهم، وتضييع عقيدة الولاء والبراء، والدعوة لإفساد المرأة باسم تحريرها، وفتح بوابة الإلحاد والمذاهب المنحرفة باسم حرية الفكر، والعمل على فتح البلاد الإسلامية للتدخُّل الدائم من الغرب، وكذلك تفريق البلاد الإسلامية، وغير ذلك كثير، عافانا الله من خبثهم وكيدهم.

المطلب الرابع: الحكم الشرعي في الليبرالية

إنَّ الليبرالية فكرةٌ غربيةٌ مستوردةٌ، وليست من إنتاج المسلمين، وهي تنفي ارتباطها بالأديان كلِّها، وتعتبر كافة الأديان قيودًا ثقيلةً على الحريات، لا بدَّ من التخلص منها، فهي مناقضةٌ للإسلام في أصوله ومنهجه وأخلاقه وقيمه، ومحاولة التوفيق بين الليبرالية والإسلام هي تغييرٌ لمفهوم كلِّ واحدٍ منهما، وتبديلٌ لمعناه، يُخرجه عن حقيقته إلى مفهومٍ مُشَوَّهٍ، وصورةٍ غير صحيحةٍ لكلٍّ منهما، فالليرالية لا تقف من الإسلام موقف الحياد؛ بل تُحاربه وتُناصبه العداء، وتزعم أنَّ التديُّن تحجُّرٌ وقسوةٌ وظلامٌ ورجعيةٌ.

إنَّ الليبرالية فكرةٌ دخيلةٌ على ديننا، وأصحابها لهم تاريخٌ غير تاريخنا، ومفاهيم غير مفاهيمنا، وقيمٌ غير قيمنا، وعقيدةٌ غير عقيدتنا، وقوانين غير شريعتنا، وإن فلاسفة الليبرالية ومفكريها الذين وضعوا أصولها في فتراتٍ مختلفةٍ، قد شكَّلوها خارج إطار الأديان جميعاً، ولم يدَّعي أحدٌ منهم ارتباطها بدينٍ من الأديان، حتى ولو كان ديناً مُحرَّفاً، ومع كلِّ هذا الوضوح يبقى من يُصرُّ من المسلمين على أنَّه بالإمكان الجمع بين منهجٍ ماديٍ يرفض قيود الأديان، وبين منهج الإسلام الرباني؛ ولهذا سنجد بما لا يدع مجالًا للشكِّ أنَّ الليبرالية تعني في الإسلام ألوانًا متعددةً من الكفر والشرك المناقض لحقيقة الإسلام وأصوله ومنهجه، وأشكالاً مختلفةً تُنافي أخلاقه وقيمه الكريمة [(١)].

إنَّ الإسلام يرفض النظام الليرالي، كما يرفض سائر الأنظمة الوضعية، ويعتبر أنَّ بشرية النظم الوضعية هو سبب فشلها، وجرثومة فنائها، كما يعتبر أنِّ كلَّ نظامٍ وضعيٍّ إنَّما هو تطاولٌ على حقِّ الله ﷻ في التشريع[(٢)]، ومخالفةٌ لدين الإسلام الذي يجهل الليبراليون معناه، والذي توعَّد الله من خالفه بالخيبة والخسران، كما قال ﷻ:﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآَخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ** ﴾[آل عمران:٨٥]، فالإسلام هو الاستسلام والخضوع لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك في عبادته، والقبول لما أنزله، وهذا يعني: الخضوع التام لأوامره وأحكامه، وعدم الاعتراض عليها، وتصديق أخباره، كما قال ﷻ: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا** ﴾[الأحزاب:٣٦]؛ ولهذا كان الإسلام دين الرسل والأنبياء جميعاً؛ لاتِّفاقهم في الاستسلام والخضوع

---

(١) انظر: الإسلام والليرالية نقيضان، لشحاتة صقر، ص٦٩-٧٠، والإسلام والعلمانية وجهاً لوجه، ليوسف القرضاوي، ص٩٠، وأساليب الغزو الفكري، لعلي جريشة ومحمد الزيبق، ص٦١، وحقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٥٧٠-٥٧١.

(٢) انظر: حركات ومذاهب في ميزان الإسلام، لفتحي يكن، ص٤٦-٤٨.

والانقياد والقبول لكلِّ ما جاء من عنده سبحانه؛ ولذلك لا يتمُّ إسلام العبد إلا بتجريده التوحيد لله ﷻ، ولا يتمُّ اعتبار المرء مسلماً إلَّا بنطق كلمة التوحيد مُلتزماً بمعناها، وعاملاً بمقتضاها ولوازمها، ومجتنباً لنواقضها[1].

إنَّ دين الإسلام شاملٌ لاعتقادات الإنسان وأعمالهم، فكلُّ أقوال الإنسان واعتقاداته وأعماله يجب أن تكون خاضعةً لأمر الله ﷻ وشرعه، كما أنَّه يتضمن البراءة من كلِّ دينٍ غير هذا الدين، وأنَّه لا يصحُّ إسلام العبد بدون اعتقاد بُطلان العقائد والأديان والمذاهب الأخرى غير الإسلام، كما قال ﷻ: ﴿**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾[البقرة:٢٥٦]، وكما قال ﷺ:**(من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله، حرُم ماله ودمه وحسابه على الله عز وجل)**[2].

إنَّ الدارس والمتفحص للمفاهيم والمعتقدات الليبرالية يجد أنَّها لا تُخالف الإسلام فقط؛ بل تقف ضدَّه بشراسةٍ، ويجد أنَّها دعوةٌ إلى الإلحاد ورفض الأديان، فهي تريد أن تُعطي الإنسان حريَّته المطلقة بالتحلُّل من قيود الدِّين والقيم والأخلاق، وهذا كافٍ في معرفة حُكم الليبرالية، ألم يستحق إبليس وصف الكفر والخلود في جهنم بردِّه على الله ﷻ أمراً واحداً ، فكيف بمن يردُّ جملةً ضخمةً من أحكام الدِّين ونصوص القرآن العظيم؟!![3]، ولذلك فقد وقعت الليبرالية في أنواعٍ من الكفر والشرك، منها:

١- **كفر الاستحلال:** وهو أن يعتقد الشخص في المُحرَّمات أنها مباحةٌ، وأنَّه يجوز فعلها مع علمه بأنَّ الله ﷻ حرَّمها[4]، وقد أجمع العلماء على أنَّ المستحلَّ لِما حرَّمه الله ﷻ ممَّا هو معلومٌ من الدِّين بالضرورة، ومتواترٌ، فهو كافرٌ خارجٌ عن دين الإسلام، مثل من يستحل الزنا والربا وأكل الخنزير وغيرها[5].

يقول القاضي عياض- رحمه الله-: "وكذلك أجمع المسلمون على تكفير كلِّ من استحلَّ القتل أو شرب الخمر أو الزنا ممَّا حرَّم الله بعد علمه بتحريمه"[6]، وتكفير المُستحلِّ للمُحرَّمات لا خلاف فيه بين العلماء.

---

(١) انظر: حقيقة الليرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٥٧٢.

(٢) أخرجه مسلمٌ في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمداً رسول الله ويقيموا الصلاة، (٥٣/١)، حديث رقم ٢٣.

(٣) انظر: حقيقة الليرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٥٧٧، وفتوى الشيخ سعيد بن ناصر الغامدي في الليبرالية، بتاريخ ٢٠٠٧/٩/١٢م، من موقع www.lebraly.com.

(٤) انظر: الصارم المسلول على شاتم الرسول، لابن تيمية(٩٦٢/٣).

(٥) انظر: شرح السنة، للبغوي(١٠٣/١)، والمعتمد في أصول الدين، لأبي يعلى، ص٢٧٢.

(٦) الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض(١٠٧٣/٢).

يقول ابن قدامة المقدسي- رحمه الله-: "ومن اعتقد حِلَّ شيءٍ أُجمع على تحريمه، وظهر حكمه بين المسلمين، وزالت الشبهة فيه للنصوص الواردة فيه، كلحم الخنزير والزنا وأشباه هذا ممَّا لا خلاف فيه، كَفَر"(١)؛ ولهذا عدَّ العلماء كفر الاستحلال من أنواع الكفر، وذكروه في مُصنَّفاتهم(٢)، ولا فرق بين استحلال الكبائر والصغائر، "فإنَّ استحلال المعصية صغيرةً كانت أو كبيرة، كفرٌ إذا ثبت كونها معصيةٌ بدلالةٍ قطعيةٍ"(٣).

وسبب كفر المستحل التكذيب أو العناد، فإن اعتقاد إباحة أمرٍ محرمٍ يدل على تكذيبه لمن حرمه أو عناده له، وكلاهما مناقضٌ لحقيقة الإيمان، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: " ومن جحد وجوب بعض الواجبات الظاهرة المتواترة: كالفواحش والظلم، والخمر والميسر، والزنا وغير ذلك، أو جحد حل بعض المباحات الظاهرة المتواترة: كالخبز واللحم والنكاح، فهو كافرٌ مرتدٌ، يُستتاب فإن تاب وإلا قُتل"(٤).

وهذا النوع من الكفر موجودٌ في الليبرالية؛ بل هو أساس فكرتها؛ لأنَّ الليبرالية تقوم على مبدأ الحرية المطلقة للفرد، والتي لا تُقيَّد بقيدٍ، ولأنَّ من مفاهيم الليبرالية المتعلقة بالحرية منع التحريم، فلا يمكن أن يجتمع الفكر الليبرالي مع التحريم الإلهي المُقيِّد لحرية الفرد كما يزعمون، ومن بديهيات الليبرالية إباحة الربا، وهي إباحةٌ عقائديةٌ، وليست مجرَّد ممارساتٍ عملية، ولا يُمكن أن يكون الرجل ليبراليًّا وهو يعتقد تحريم الربا؛ لأنَّ هذا يتعارض مع حرية التجارة والاقتصاد، كما أنَّه لا يُمكن أن يكون الشخص ليبراليًّا وهو يعتقد تحريم الزنا والتبرج والشذوذ الجنسي؛ لأنَّ هذا يُناقض الحرية الشخصية(٥).

٢- **كفر الشك:** الشكُّ هو عدم اليقين، والتردُّد بين شيئين، وعدم القطع بالصِّحة أو البطلان، أو الخطأ أو الصواب، وعدم وجود القطع واليقين هو من الريب والشك، ومن أساسيات الإسلام وجود اليقين في التوحيد والإيمان، فالتوحيد والإيمان لا يُغْنِي فيه إلا اليقين الجازم؛ ولهذا عَدَّ العلماء اليقين المنافي للشكِّ شرطًا أساسيًّا من شروط لا إله إلا الله؛ كما قال ﷻ:﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِالله وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ الله أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ** ﴾[الحجرات:١٥]،

---

(١) المغني، لابن قدامة(١٣١/٨).

(٢) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣٦٧/١)، ومعارج القبول، لابن حكمي(٥٩٣/٢).

(٣) انظر: شرح الفقه الأكبر، لملا علي قاري، ص١٢٦.

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤٠٥/١١).

(٥) انظر: الإسلام والليبرالية نقيضان، لشحاتة صقر، ص٧١-٧٢، وحقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٥٧٩.

فاشترط ﷺ في صحَّة إيمانهم عدم الرِّيبة، وهي الشكُّ والظن[1]، ولقد جاء في الحديث الصحيح ما يشهد لهذا المعنى، وهو أنَّ الإيمان لا يصحُّ بالشك، ولا ينفع فيه إلا اليقين، كما قال ﷺ:**(أشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة)**[2]، وجاء في حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعاً:**(من لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مُستيقناً بها قلبُه فبشِّره بالجنَّة)**[3]، "فاشترط في دخول قائلها الجنَّة أن يكون مُستيقناً بها قلبه غير شاكٍّ فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط"[4].

ويقول ابن حزمٍ- رحمه الله-:" أوَّل ما يلزم كلَّ أحدٍ، ولا يصحُّ الإسلام إلا به، أن يعلم المرء بقلبه علم يقينٍ وإخلاصٍ لا يكون لشيءٍ من الشكِّ فيه أثرٌ، وينطق بلسانه بأن لا إله إلا الله وأنَّ محمداً رسول الله"[5].

ويدخل في كفر الشك من شكَّ في أمرٍ من أمور الغيب، كأركان الإيمان، أو الجنِّ، أو القدر، أو غيرها، وكذلك من شكَّ في كفر المشركين الأصليين، أو الكفار المُجمع على كفرهم[6].

يقول القاضي عياض- رحمه الله-: "من أضاف إلى نبيِّنا الكذب فيما بلَّغه وأخبر به أو شكَّ في صدقه، أو سبَّه، فهو كافرٌ بالإجماع، ونُكفِّر من دان بغير ملة المسلمين من الملل، أو وقف فيهم، أو شكَّ أو صحَّح مذهبهم، وإن أظهر مع ذلك الإسلام"[7].

إنَّ كفر الشكِّ موجودٌ في الليبرالية، فالحرية الفكرية عندهم تقتضي عدم الجزم بصحة أمرٍ أو بطلانه؛ لأنَّ الجزم يُوصل لمصادرة آراء الآخرين كما يزعمون، ويتنافي مع حرية التفكير والتعبير عن الرأي، وهم يريدون بذلك أن يُروِّجوا لكلِّ كفرٍ وإلحادٍ وضلالٍ بدعوى نسبية الحقيقة، وعدم وجود حقٍّ مطلق، وهذا هو كفر الشك بعينه، فالفكر الليبرالي لا يعتقد عقائد جازمةً غير حقِّ الفرد في الحرية الفردية، مهما نتج عنها من أفكارٍ وعقائد وآراء، فهو لا يملك عقيدةً يقينيةً محددةً؛ لأنَّ كلَّ عقيدةٍ عنده قابلةٌ للتغيير، ومن حقِّ الآخر أن يعتقد خلافها، فالمنتسب للإسلام منهم يعتقد أنَّ إسلامه صحيحٌ

---

(١) انظر: لسان العرب لابن منظور، (٤٥١/١٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة، حديث رقم ١٣٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أن من مات على التوحيد دخل الجنة، حديث رقم ١٤٦.

(٤) معارج القبول، لابن حكمي(٣٧٨/١-٣٧٩).

(٥) المحلى بالآثار، لابن حزم(٢/١).

(٦) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٦٨/٢).

(٧) الشفا في حقوق المصطفى، للقاضي عياض(١٠٦٩/٢).

يحتمل الخطأ، ويعتقد أنَّ عقيدة الكافر خطأٌ يحتمل الصواب، فهم يرفضون الجزم العقائدي في جانب الصحة أو البطلان، وهذا هو كفر الشكِّ بعينه[١].

إنَّ هذا الفكر لا يملك جوابًا مُحدَّداً على أوضح الأمور مثل وجود الله ﷻ، وربوبيته؛ لأنَّ المنهج المُتميِّع الذي يعتمد عليه يجعل كلَّ أمرٍ قابلاً للصواب أو الخطأ، وربَّما أوصلت المنهجية الليبرالية إلى عقائد متناقضة، وهذا كثيرٌ في الفكر الليرالي كما ذكره الباحث سابقاً[٢].

٣- كفر الإباء والامتناع: إنَّ حقيقة الإباء والامتناع هي عدم الانقياد والاستسلام لأمر الله ﷻ وشرعه، ومن المعلوم أنَّ الإيمان يتضمن أخباراً تقتضي التصديق، وأوامر تقتضي الانقياد والتسليم، ومناقضة التصديق تكون بالتكذيب، ومناقضة الانقياد والتسليم تكون بالإباء والامتناع[٣]، وقد يُضاف إلى الإباء والامتناع، الاستكبار مثل كفر إبليس وفرعون واليهود[٤].

وقد أجمع أهل العلم على أنَّ الطائفة الممتنعة عن التزام شريعةٍ من شعائر الإسلام الظاهرة يجب قتالها، كما فعل الصحابة مع الممتنعين عن أداء الزكاة، وقد رجَّح شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- أنَّ الطائفة الممتنعة إذا قاتلهم الإمام على ذلك، فقاتلوه فهم كفارٌ وليسوا بُغاة[٥]، وقد ذكر الإمام البخاري في صحيحه هذا الحكم في كتاب استتابة المرتدين، فقال: باب قتل من أبى قبول الفرائض، ثمَّ ساق قصة قتال أبي بكرٍ الصديق لأهل الردة ومانعي الزكاة[٦].

ولا ريب أنَّ الفكر الليبرالي مُؤسَّسٌ على الامتناع عن شرائع الإسلام في شتى المجالات؛ ولهذا تكوَّنت الدول الليبرالية بعيدةً كلَّ البعد عن شرائع الإسلام في نُظمها السياسية والاقتصادية، ومن ذلك الامتناع عن تحريم الربا في البنوك والمؤسسات المالية؛ بل والامتناع عن أداء الفرائض كالصلاة والزكاة والصوم كما ذكر الباحث سابقاً من تأويلاتهم وتحريفاتهم لهذه الفرائض[٧].

٤- كفر الاستهزاء: إنَّ هذا النوع من الكفر معناه أن يتنقِص أو يسخر أحدٌ بالله ﷻ، أو برسوله صلى الله عيه وسلم، أو بشريعته وأحكامه، فمن فعل ذلك فقد كفر، كما قال ﷻ: ﴿ **وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ، لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ**

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٥٨١-٥٨٢.

(٢) انظر: الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر، ص٧٣-٧٤.

(٣) انظر: نواقض الإيمان الإعتقادية وضوابط التكفير عند السلف، لمحمد الوهيبي(١٨٠/٢).

(٤) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم(٣٦٦/١)، ومعارج القبول، لابن حكمي(٢٢/٢).

(٥) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥٤٨/٢٨-٥٥١).

(٦) انظر: صحيح البخاري، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب قتل من أبى قبول الفرائض وما نسبوا إلى الردة، حديث رقم ٦٩٢٤، ٦٩٢٥.

(٧) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٥٨٣.

إِيمَانِكُمْ﴾[التوبة:٦٥-٦٦][1]، وقد دلَّ هذا النص القرآني على أنَّ الاستهزاء بالله وآياته ورسوله كفرٌ، وأنَّ كلَّ من تنقَّص رسول الله ﷺ جادًّاً أو هازلاً فقد كفر، وكذلك من سبَّ الله ﷻ أو كتابه أو دينه أو رسوله ﷺ[2].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- تعليقاً على الآية السابقة: "تدلُّ على أنَّ الاستهزاء بالله كفرٌ، والاستهزاء بالرسول كفرٌ"[3].

إنَّ الاستهزاء بشيءٍ ممَّا جاء به الرسول ﷺ كفرٌ، كالاستهزاء بالعلم الشرعي وأهله، وكالاستهزاء بالآمرين بالمعروف، والنَّاهين عن المنكر؛ لأمرهم به، أو نهيهم عنه، وكالاستهزاء بالصلاة والمصلِّين، وكذلك الاستهزاء بمن أعفى لحيته، أو الاستهزاء بتارك الربا، من فعل كلَّ ذلك فهو كافرٌ، ويجب على المسلم أن لا يُجالسه، ولو كان أقرب الناس إليه؛ لأنَّ جلوسه معه يدلُّ على رضاه باستهزائه، وعندها يكون مثله في الحُكم، كما قال ﷻ:﴿ **وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا**﴾[النساء:١٤٠][4].

إنَّ "الاستهزاء بشيءٍ فيه ذكر الله ﷻ أو القرآن الكريم أو الرسول ﷺ، مُنافٍ للتعظيم؛ ولهذا كان كفراً أكبر بالله جلَّ وعلا، إذ لا يصدر الاستهزاء بالله ﷻ وبرسوله ﷺ، أو بالقرآن الكريم، من قلب مُوحِّدٍ أصلاً؛ بل لا بدَّ أن يكون إمَّا منافقاً، أو كافراً مشركاً، والهزل والاستهزاء منافٍ لأصل التوحيد، وكفرٌ مخرجٌ من الملة"[5].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "الذين لا يُقرُّون بوجوب الصلوات الخمس، ولا وجوب صوم رمضان، ولا وجوب الحج، ولا تحريم ما حرَّمه الله ﷻ ورسوله ﷺ من الميتة والخمر، وإن أظهروا الشهادتين مع هذه العقائد، فهم كفارٌ باتفاق المسلمين، والذين يقولون إنكار المعاد، وإنكار واجبات الإسلام ومُحرَّماته، هم أكفر من اليهود والنصارى ومشركي العرب"[6].

---

(١) انظر: التمهيد لشرح كتاب التوحيد، لصالح آل الشيخ، ص٤٨٠-٤٨٢.

(٢) انظر: تقريب الصارم المسلول على شاتم الرسول، لصلاح الصاوي، ص١٧-٢١، ص٢٧٣-٢٧٤.

(٣) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٥/٤٨).

(٤) انظر: التبيان شرح نواقض الإسلام، لمحمد عبد الوهاب، ص٣٧-٣٨.

(٥) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، لصالح آل الشيخ، ص٤٨٠-٤٨١.

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٨/٩٨).

إنَّ هذه الأوصاف التي ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-، هي عين ما وقع فيه الليبراليون عندما قالوا بتاريخيَّة النص، وأنَّه يتناسب مع البيئة التي نزل فيها، ولا يناسب هذا العصر بتطوراته وتغيراته، وبالتالي فهم غير ملزمين بتشريعاته.

لقد كان الاستهزاء بالدِّين والمتدينين من مُسلَّمات الخطاب الليبرالي، وقلَّما تجد مقالاً ليبرالياً إلا وفيه استهزاءٌ بدين الله وأحكامه وشرائعه، وفيه تنقُّصٌ من المتدينين والإسلاميين؛ بل وتشعر أنَّ أكبر همِّهم هو تقويض المشروع الإسلامي ومحاربة الشريعة؛ لاثبات أنَّ الإسلام وأحكامه لا تصلح لهذا الزمان.

٥- **تشريع القوانين الوضعية المضادة لشريعة الله:** تقوم الليبرالية على استحلال الحكم بغير ما أنزل الله، من خلال تشريع القوانين المُضادَّة لأحكام الشريعة، والتي تُحلُّ الحرام كالزنا والربا والخمور، وتُحرِّم الحلال كالطلاق والتعدُّد، ومن المعلوم أنَّ من جحد أحقيَّة وأفضليَّة حكم الله ورسوله، واعتقد أنَّ حكم غير الرسول ﷺ أحسن من حُكمه، أو مثله، أو اعتقد جواز الحكم بما يُخالفه، أو اعتقد أنَّ حكم الله ورسوله لا يصلح للتطبيق في أيِّ زمنٍ وأيِّ وقت، أو زعم بأنَّه سبب التخلُّف، أو زعم أنَّ الإسلام لا يتضمن منهجاً للحُكم، ولا دخل له بشؤون الحياة، كلُّ هذا كفرٌ مُخرجٌ من الملَّة[1].

إنَّ التشريع حقٌّ خالصٌ لله ﷻ، ومَن نَصَّبَ نفسه مُشرِّعاً مِن دون الله ﷻ فقد نازع الله في ربوبيته، كما قال ﷻ:﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾[التوبة:٣١]، وحقيقة فعل هؤلاء الذين اتخذوا الناس أرباباً من دون الله أنَّهم أحلُّوا لهم الحرام، وحرَّموا عليهم الحلال؛ فاتبعوهم على ذلك، فعن عَدي بن حاتمٍ رضي الله عنه قال: **أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليبٌ من ذهبٍ، فقال:(يا عَدي اطرح هذا الوثن من عنقك، فطرحته، فانتهيتُ إليه وهو يقرأ سورة براءة، فقرأ هذه الآية ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله﴾ حتى فرغ منها، فقلت: إنَّا لسنا نعبدهم، فقال: (أليس يُحرَّمون ما أحلَّ الله فتُحرِّمونه، ويُحلُّون ما حرَّم الله فتستحلونه؟، قلتُ: بلى، قال:(فتلك عبادتهم)**[2]، فمن فعل شيئاً من ذلك، فقد اتَّخذ هؤلاء المُشرِّعين والمُبدِّلين أرباباً من دون الله.

إنَّ كلَّ من تصوَّر الليبرالية، وعرف حقيقتها التي تقوم على الحرية الفردية، وتعتمد على العقلانية المنكرة للوحي، والمادية المضادة للقيم والأخلاق؛ فإنَّه يجزم أنَّها لا تعترف بحكم الله، ولا تُقرُّ

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥٨/٢٧)، والحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه، لعبد الرحمن المحمود، ص١٥٩ وما بعدها.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة التوبة (٢٧٨/٥)، رقم ٣٠٩٥، وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٩٢/١٧)، رقم ٢١٨ واللفظ له، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم ٣٢٩٣.

بشريعته، وترى أنَّ الحرية الإنسانية كافيةٌ في إصدار التشريعات، دون الرجوع إلى جهةٍ إلهيةٍ خارج نطاق العقل الإنساني[1].

وبناءً على ما سبق ذكره من اشتمال اللييبرالية على جميع أنواع الكفر المذكورة، فإنَّ الليبراليِّة ما هي إلاّ وجهٌ آخرٌ للعَلَمانيِّة، التي بُنِيَت أركانها على الإعراض عن شريعة الله ﷻ، والكفر بما أنزل الله ﷻ، والصدِّ عن سبيله، ومُحاربة المُصلحين، وتشجيع المُنكرات الأخلاقيِّة، والضلالات الفكريِّة، تحت ذريعة الحريِّة الزائفة، والتي هي في حقيقتها طاعةٌ للشيطان وعبوديةٌ له.

إنَّ المذهب الليبرالي بهذا المنهج الضال، يُبطل دين الله كلَّه، ويطوي أحكامه التشريعيَّة كلَّها، ويضع بدلها أحكاماً أخرى من عنده، أحكاماً لا تُقيم وزناً لما أنزله الله ﷻ من البيَّنات والهدى والكتاب المنير[2].

وقد سُئل الشيخ الفوزان– حفظه الله– عن الليبرالية، وعن الدعوة إلى الفكر الليبرالي في البلاد الإسلامية؟، وهذا نصُّ السؤال: المُكرَّم فضيلة الشيخ صالح بن فوزان الفوزان، حفظه الله، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، ما قول فضيلتكم في الدعوة إلى الفكر الليبرالي في البلاد الإسلامية؟، وهو الفكر الذي يدعو إلى الحرية التي لا ضابط لها إلا القانون الوضعي، فيُساوي بين المسلم والكافر بدعوى التعددية، ويجعل لكلِّ فردٍ حريَّته الشخصية، التي لا تخضع لقيود الشريعة كما زعموا، ويُحَاد بعض الأحكام الشرعية التي تُناقضه؛ كالأحكام المُتعلِّقة بالمرأة، أو بالعلاقة مع الكفار، أو بإنكار المنكر، أو أحكام الجهاد ... الخ؟، وهل يجوز للمسلم أن يقول: أنا مسلمٌ ليبرالي؟ وما نصيحتكم له ولأمثاله؟.

فأجاب رحمه الله: إنَّ المسلم هو المسلم لله بالتوحيد، المُنقاد له بالطاعة، البريء من الشرك وأهله، فالذي يُريد الحرية التي لا ضابط لها إلا القانون الوضعي، هذا مُتمرِّدٌ على شرع الله، يُريد حُكم الجاهلية وحُكم الطاغوت، فلا يكون مسلماً، والذي يُنكر ما عُلم من الدِّين بالضرورة، من الفرق بين المسلم والكافر، ويُريد الحرية التي لا تخضع لقيود الشريعة، ويُنكر الأحكام الشرعية من الأحكام الخاصة بالمرأة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومشروعية الجهاد في سبيل الله، هذا قد ارتكب عدَّة نواقض من نواقض الإسلام، نسال الله العافية، والذي يقول: إنَّه مسلمٌ ليبرالي، متناقضٌ إذا أُريد بالليبرالية ما ذُكِر، فعليه أن يتوب إلى الله من هذه الأفكار ليكون مسلمًا حقًّا[3].

إنَّ التكفير الوارد حول هذا المذهب يقعُ ابتداءً على العقائد، والأفكار، والآراء التي يتضمَّنها، وهذا يُسمى كفر النوع، وهو تحرير المسائل الكفرية دون النظر للمُعَيَّنين، أمَّا الفرد المُعَيَّن فإنْ وُجِدَتْ فيه هذه العقائد والأفكار، والآراء، فإنَّه لا بدَّ من توفر شروط التكفير فيه، وانتفاء موانعه عنه، مثل قيام

(١) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٥٨٦.

(٢) انظر: الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر، ص٣٠–٣١.

(٣) انظر: موقع الشيخ على شبكة الإنترنت www.alfawzan.ws، بتاريخ ٢٠١٥/٢/١٥م.

الحُجة وانتفاء الشبهة والتأويل، وعدم الإكراه، في حال تلبُّسه بهذه المكفرات[١]، أمَّا مُجرَّد الانتماء لهذا المذهب وحده، فهو غير كافٍ في اعتباره متلبِّساً بهذه المُكفِّرات؛ لأنَّ الواقع يشهد بأنَّه يُوجد من ينتمي إلى مذهبٍ معين، فإذا سُئل عنه، وصفه بغير حقيقته دون إقرارٍ بالمُكفِّرات التي هي مناط الكفر[٢].

وبناءً على ذلك، فإن المُعَيَّنين من الليبراليين تختلف أحوالهم، وأوضاعهم، وهم على ثلاثة أصناف:

١- **الصنف الأول:** وهو أسوؤهم، وهو من يعرف مناقضة الليبرالية لكثيرٍ من أحكام الإسلام؛ ولكنَّه يستمرُّ في الدعوة إليها، ويرتضيها مُعتقَداً، ويُقبل عليها على علم، فهذا قد باع دينه، ومعلومٌ حُكم هذا ومآله كما بيَّن الباحث سابقاً.

٢- **الصنف الثاني:** المُقلِّد، وهو من يُردِّد هذه الكلمة دون فهمٍ لما تدلُّ عليه، وما يترتب عليها، فهو مفتونٌ بكلِّ فكرةٍ غريبةٍ، إمَّا بدعوى حبِّ الشذوذ، أو لانخداعه بكلمة الحُريَّة التي تقوم عليها هذه الفكرة، فيظنُّ أنَّها لا تُخالف الإسلام، ومعلومٌ أنَّ الإنسان مجبولٌ على حبِّ الحرية؛ لكنَّه بين حريةٍ يُقيِّدها الشرع، أو حريةٍ تُقيِّدها الأحكام الوضعية؛ لأنَّه لا يوجد حريةٌ دون قيود، فإن تقيَّدت حريَّتُه بحدود الشرع مُحتسباً الأجر من الله، فقد فاز، وإن تقيَّدت حريَّتُه بالأحكام الوضعية مُتعدِّياً حدود الشرع؛ فقد خاب وخسر.

٣- **الصنف الثالث:** وهو من يعرف مناقضة الليبرالية لكثيرٍ من أحكام الإسلام؛ لكنَّه يقول: أنا سأقيِّد هذه الليبرالية بأحكام الشرع، وسأنبذ كلَّ ما يُخالفه فيها، وهذا متناقضٌ؛ لأنَّه إذا قيَّد الليبرالية بقيود الشرع، خرجت عن كونها ليبرالية!، فلاداعي لأن يدعو لها ويعتنقها، وهو يُخالف أساساتها[٣].

إنَّ العقائد والأفكار التي بُني عليها هذا الفكر، يبقى الحكم عليها ثابتاً وهو الكفر، ولا يُعكِّر على ذلك اختلاف أحوال المُعيَّنين وأحكامهم، فهؤلاء لهم شأنٌ آخر، وهذا أمرٌ معروفٌ عند علماء السلف الصالح، حيث يُطلقون وصف الكفر على المقالة، ويُبيِّنون وجه مناقضتها لأصل الدين، دون أن يقتضي هذا تكفير كلَّ مُعَينٍ يقول بهذه المقالة، فضلاً عن تكفير المنتمي لفرقةٍ تقول بها؛ لمُجرَّد انتمائه[٤].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "وحقيقة الأمر في ذلك أنَّ القول قد يكون كفراً، فيُطلق القول بتكفير صاحبه، ويُقال من قال كذا فهو كافرٌ؛ لكنَّ الشخص المُعين الذي قاله لا يُحكم

---

(١) انظر: نواقض الإيمان الاعتقادية وضوابط التكفير عند السلف، لمحمد الوهيبي(٢/٢٠١) وما بعدها، وضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة، لعبد الله القرني، ص٢٧٥ وما بعدها.

(٢) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٦٠٦.

(٣) انظر: مقال بعنوان: حكم الدعوة إلى الفكر الليبرالي في البلاد الإسلامية، لسليمان الخراشي، من موقع www.saaid.net، بتاريخ ٢٠/٢/٢٠١٥م.

(٤) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٢/٤٨٨-٤٨٩).

بكفره، حتى تقوم عليه الحجة التي يكفر تاركها،... فلا يُشهد لمعينٍ من أهل القبلة بالنار؛ لجواز أن لا يلحقه الوعيد لفوات شرطٍ، أو ثبوت مانعٍ، فقد لا يكون التحريم بَلَغَه، وقد يتوب من فعل المحرم، وقد تكون له حسناتٌ عظيمةٌ تمحو عقوبة ذلك المُحرَّم، وقد يُبتلى بمصائب تُكفِّر عنه، وقد يشفع فيه شفيعٌ مُطاعٌ، وهكذا الأقوال التي يكفر قائلها، قد يكون الرجل لم تبلغه النُّصوص الموجبة لمعرفة الحق، وقد تكون عنده ولم تثبت عنده، أو لم يتمكن من فهمها، وقد يكون قد عَرضت له شبهاتٌ يعذره الله بها"[١].

إنَّ التكفير حكمٌ شرعيٌ تترتب عليه لوازمٌ في الدنيا والآخرة، فيجب الاحتياط فيه، والحذر من الاستعجال؛ ولهذا قد تكون المقالة كفراً ناقلاً عن الملَّة، ولا يكون القائل بها كافراً، إذا لم تَقُم عليه الحجة، أو كان متأوِّلاً؛ ولكنَّ هذا لا يعني أنَّ المعَيَّن لا يُكَفَّر إذا وُجِدَتْ فيه الشروط، وانتفت عنه الموانع، حيث إنَّه إذا تمَّ التأكُّد من ذلك، فإنَّه يُكَفَّر بعينه، وقد أفتى علماء الإسلام بردَّة عددٍ ممَّن أعلنوا الكفر، وتحقَّقت فيهم شروط الكفر[٢]، ويدخل في هذا الصَّدد قتال الصحابة لمانعي الزكاة، وفتوى شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تكفير التتار وقتالهم[٣]، كما أنَّ الأزهر قد أفتى بكفر عددٍ من العلمانيين والليبراليين المعاصرين مثل نصر أبو زيد، وغيره[٤].

إنَّ بيان الحكم الشرعي في المذاهب الإلحادية المعاصرة أمرٌ ضروريٌ؛ لتَعْلَمَ الأمة الإسلامية خطورة هذه المذاهب، وتحْذَر منها، ومن ذلك: ما قرَّره مجمع الفقه الإسلامي المُنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي من تكفير العلمانية، وهي المنبع الذي خرجت منه سائر المذاهب المعاصرة بما فيها الليبرالية[٥]، وفي السياق نفسه أصدر مجلس علماء أندونيسيا فتوى بتكفير الليبرالية، وقد جاءت هذه الفتوى ضد منظمةٍ جديدةٍ في أندونيسيا تُسمى شبكة الإسلام الليبرالي، وهي منظمةٌ مدعومةٌ من الولايات المتحدة الأمريكية، ونصَّت الفتوى على أنَّ التعاليم الدينية المُتأثِّرة بالأفكار العلمانية والليبرالية هي تعاليم منافيةٌ لحقيقة الدِّين الإسلامي، وعلى المسلم أن يعتقد أنَّ دين الإسلام هو الدين الحق، وأنَّ ما سواه هو الباطل[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٣/٣٤٥-٣٤٦).

(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(٢/٣١٩)، والرد على الجهمية، للدارمي، ص٣٥٢-٣٥٣.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٢٨/٥٠١) وما بعدها.

(٤) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٦٠٨.

(٥) الدورة الحادية عشر المنعقدة باليمامة في دولة البحرين من ٢٥-٣٠ رجب ١٤١٩هـ، انظر: جريدة الوطن السعودية، العدد ١٧٢٧، بتاريخ ٢٢/ ٦/٢٠٠٥م، والإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر،ص٨٢-٨٣.

(٦) انظر: حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، لعبد الرحيم السلمي، ص٦١٠-٦١١، وموقع الجزيرة نت www.aljazira.net، منشور بتاريخ ٧/٥/٢٠٠٥م.

إنَّه قد يقول قائلٌ: ما الفائدة من هذه الفتاوى إن قلنا بعدم كفر كلِّ ليبرالي؟!، والجواب: الفائدة أن يعلم الناس عامَّةً، والدعاة إلى هذه الليبرالية خاصّةً، أنَّ ما يدعون إليه كفرٌ وضلالٌ، وأنَّهم قد يكفروا ويخرجوا من الملة في أيِّ لحظةٍ إذا توفرت فيهم الشروط، وانتفت عنهم الموانع، وأنَّهم يتعرضون بذلك لسخط الله وعذابه، وأنَّهم على شفا هلكةٍ بفعلهم هذا، فلا يُلبِّسون على النَّاس هذا الفكر بإلباسه لباساً شرعياً إسلامياً، أو يتبجَّحون بأنَّه لا يتعارض مع الثوابت الدينية والعقدية، وهم الذين يُشكِّكون في هذه الثوابت ليل نهار، وأن يعلموا أنَّ دعوى الإسلام الليبرالي ما هي إلا أكذوبةٌ؛ لتمرير هذا الفكر على المسلمين، واستغفال أصحاب القلوب الضعيفة؛ للاقتناع بفكرتهم التي يُروِّجون لها، فكيف يستقيم لمن يدَّعي الإسلام، ويفهم هذه الحقائق عن الليبرالية، أن يدعو لها، ويزعم صلاحها، وهي مُعارضةٌ تماماً للإسلام[1].

ولقد كان من المفروض أن تبقى شعوب الأمة الإسلامية منيعةً مُحصَّنةً، لا تسمح بتسلل ضلالات المذاهب الفكرية المعاصرة إليها؛ وذلك لأنَّ الإسلام الذي تدين به هذه الشعوب، هو الدِّين الرباني الحق الذي لم يدخله تحريفٌ ولا تبديلٌ، وهو الدِّين الذي يُنوِّر العقول والأفكار بسلطان الحقِّ وبراهينه، ويُهيمن على النفوس والقلوب بكماله وملاءمته للفطرة الإنسانية، وتلبيته لكلِّ حاجات الناس أفراداً وجماعات، ولديه الحلُّ الأمثل لكلِّ مشكلات الحياة، والذي يكفل بأن يُوفِّر للنَّاس الأمن والطمأنينة والاستقرار والرفاهية والتقدُّم العلمي والحضاري[2]، فلا مُبرِّر لقيام تلك الأفكار والمذاهب في بلدان من أغناهم الله بالإسلام، وأعزَّهم به في الدنيا والآخرة، وشهد له الموافقين والمخالفين بأنَّه خيرُ دينٍ يُنظِّم شؤون الحياة كلها، وأنَّ تعاليمه ونُظمه فيها السعادة والحل لكلِّ المشكلات بطرقٍ لن يهتدي إلى مثل عدالتها أحدٌ من البشر، إنَّه لأمرٌ غريبٌ أن يتطفَّل أحدٌ من المسلمين على موائد الغرب الآسنة؛ ليبحث فيها عن النجاة والسعادة[3]، قال ﷻ: ﴿ **أَفَحُكْمَ الجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ** ﴾[المائدة:٥٠]، وقال ﷻ: ﴿ **الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ المُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ العِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ للهِ جَمِيعًا** ﴾[النساء:١٣٩].

إنَّ واجب المسلم اليوم أمام هذه التحدِّيات والأفكار أن يتمسَّك بدينه وعقيدته، وأن يحذر من كلِّ مذهبٍ يُخالف دين الإسلام، وأن يكون على بصيرةٍ تامَّةٍ بما يدور حوله، فأعداء الإسلام يُحاولون هدم الدين بكلِّ ما يستطيعون، وتفريغ المسلمين من عقيدتهم، وشحنهم بشحنات الكفر والإلحاد؛ لأنَّ أعداء الإسلام لا يُرضيهم أن تُحبس أفكارهم في حدود بلادهم؛ بل يسعون في إشاعتها ونشرها في كلِّ

---

(١) انظر: الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، لشحاتة صقر، ص٤٧.

(٢) انظر: كواشف زيوف، لعبد الرحمن حبنكة، ص٩١.

(٣) انظر: المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف الإسلام منها، لغالب بن علي عواجي، (٦٧/١).

أنحاء الأرض، ولقد ساعدهم على ذلك ما وُضع في أيديهم من وسائل الإعلام المختلفة، التي تُعبِّر القارات وتتخطى المحيطات، وتغزو الناس في عُقر دارهم، فالأمر يحتاج إلى أن يحمل كلٌّ منَّا ما علَّمه الله ﷻ، وينزل به إلى ساحة الميدان؛ ليُوضِّح لأبناء أمِّته زيف المزيفين، وضلال المضلين(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "فكلٌّ من لم يُناظر أهل الإلحاد والبدع مناظرةً تقطع دابرهم، لم يكن أعطى الإسلام حقَّه، ولا وفَّى بموجب العلم والإيمان، ولا حصل بكلامه شفاء الصدور، وطمأنينة النفوس، ولا أفاد كلامه العلم واليقين"(٢).

شبهة وردُّها:

في ختام الحديث عن المدرسة العقلية القديمة والمعاصرة، أُنبِّه على أمرٍ مهمٍ، وهو أنَّه قد شاع اطلاق مصطلح العقلانيين وصفاً لأصحاب المناهج المنحرفة عن المنهج الصحيح في فهم الدِّين وتفسير نصوصه، وهذا مصطلحٌ غير سديدٍ في وصف حالهم، ونحن إذا أطلقناه فإنَّما نُطلقه تجوُّزاً منَّا ليُعرفوا؛ لأنَّهم يُسمُّون أنفسهم بهذا الاسم، وهم في الحقيقة ليسوا عقلانيين، وإنَّما هم أهل أهواءٍ، ولا يصحُّ نعتُهم بالعقلانيين؛ لأنَّ فيه اعترافاً ضمنياً بأنَّ العقل يمكن أن يكون مُخالفاً للشرع؛ ولأنَّنا لا نجد في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ أنَّ إنساناً ضلَّ بسبب عقله الصحيح الواعي؛ وإنَّما نجد أنَّ الضالِّين هم الذين لا يعقلون، ولا يتدبرون، ولا يتفكرون، ولا ينظرون، وأنَّ المهتدين هم أصحاب العقول وأولو الألباب؛ ولأن هنالك فرقاً بين العقل والهوى؛ فالإنسان يضلُّ بهواه لا بعقله؛ ولذلك كان السَّلف يُسمُّون المعتزلة وأمثالهم أهل الأهواء لا العقلانيين؛ ولأنَّ وصف أمثال هؤلاء بالعقلانيين فيه فتنةٌ لهم؛ فقد يزيد أحدهم غروراً فيذهب يقول متباهياً: أجل نحن العقلانيون، نحن المُفكِّرون، وما أنتم إلا جامدون مُردِّدون لما لا تفقهون؛ ولأنَّ أئمة أهل السنة من أمثال ابن تيمية- رحمه الله- وغيره، لم يكتفوا بالكلام المُجمل في أنَّ المذهب الحق هو الموافق للعقل؛ بل بيَّنوا ذلك بياناً مفصَّلاً شافياً، كما ساقوا البراهين العقلية الدالة على مخالفة أهل الأهواء لمقتضيات العقل، ودلَّلوا على أنَّ ما ادَّعوا بأنه عقلياتٌ، إنَّما هو جهلياتٌ، ما أنزل الله بها من سلطانٍ عقليٍ ولا شرعيٍ(٣).

---

(١) انظر: المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ، لغالب عواجي، ص ١٥.

(٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٣٥٧/١) .

(٣) انظر: مقال ليسوا عقلانيين بل هم أهل أهواء، من موقع http://www.alkashf.net .

المبحث الثالث

آثار المخالفين لمنهج السلف في الفهم

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول: رد النص الشرعي بتأويله أو تعطيله.

المطلب الثاني: تشويه التاريخ الاسلامي والتطاول على الصحابة والسلف رضي الله عنهم.

المطلب الثالث: انتشار البدع والشبهات والشهوات والفتن والاستهزاء بالدين.

المطلب الرابع: رواج المذاهب الكلامية والأفكار الفلسفية بين المسلمين.

المبحث الثالث: آثار المخالفين لمنهج السلف في الفهم

إنَّ مخالفة منهج السلف الصالح الذين كانوا أعلم الأمة بمراد الله ورسوله ﷺ في النصوص، له آثارٌ وخيمةٌ على الفرد والمجتمع؛ بل وعلى العالم أجمع، فإذا كان الله ﷻ هو الذي ارتضى ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ديناً ومنهجاً، فكيف يُتصوَّر أن تكون نتائج تركه، والعدول عنه، ومخالفته؟، إنَّ كلَّ عدولٍ عن المنهج الصحيح في فهم النصوص الدينية هو بمثابة الدمار، الذي يحلُّ بالأمة المسلمة، في دينها ودنياها.

إنَّ الآثار الحاصلة نتيجة مخالفة منهج السلف إلى مناهج المخالفين لهم، ليست محصورةً فيمن خالفوا فقط؛ بل إنَّها تتعدَّى إلى أكثر من ذلك، فهي تعود على المجتمع بشكلٍ عام، وما من أحدٍ ينتهج نهجاً غير منهج السلف، ويبذل جهداً في الدعوة إلى مخالفتهم بالتلفيق والتزوير، إلَّا وتجد له أتباعاً ومعجبين، ممَّن ضَعُف دينهم، ودخل الزيغ في قلوبهم، كما قال ﷻ:﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾[آل عمران:٧]، ممَّا يُسهم بشكلٍ كبيرٍ في إحداث تغيُّراتٍ متعددة الجوانب في عقيدة المجتمع.

لقد كان المخالفون لمنهج السلف، بمثابة من يدسُّ السمَّ في العسل، حيث خلطوا الحق بالباطل، واستدلُّوا بالنصوص في غير مواضعها ومناطاتها، فكثَّروا سواد المبتدعة، وأحدثوا الفرقة والاختلاف، وساهموا في نشر البدع، ورواج الشبهات، وظهور المذاهب الكلامية والفلسفية، والعقائد الباطلة في داخل المجتمع[1]، وعلاوةً على ذلك كلِّه لم يكفُّوا أيديهم عن أهل الحق؛ بل انتقصوا منهج السلف، وضيَّقوا على أتباعه، ووجَّهوا ضدَّهم كثيرًا من الملاحقة والاضطهاد؛ ولكنَّ توفيق الله ﷻ لعباده وأوليائه بالثبات على عقيدة السلف وإظهارها، كان سبباً رئيسياً في ظهور منهج السلف بصفائه ونقائه حتى يومنا هذا.

إنَّ مخالفة منهج السلف يترتب عليه مخاطرُ كثيرةٌ، وقد ردَّ ابن القيم- رحمه الله- ردَّاً مُفحماً على من خالفوا منهج النبي ﷺ وأصحابه، فقال: "وبناءً على قولكم فثمَّ أمرين: وهو أنَّه هل كان يُمكنه ﷺ التعبير والإفصاح عن الحقِّ كما فعلتم أنتم بزعمكم، أو لم يكن ذلك مُمكناً له، فإن لم يكن ذلك ممكناً له، كان تعجيزاً له ولمرسله عن أمرٍ قدر عليه أفراخ الفلاسفة وتلامذة اليهود وأوقاح المعتزلة الجهمية، وإن كان مُمكناً له ولم يفعله، كان ذلك غُشَّاً للأمَّة وتوريطاً لها في الجهل بالله وأسمائه وصفاته، واعتقاد ما لا يليق بعظمته فيه، وأنَّ الجهمية والمعتزلة وأفراخ اليونان وورثة الصابئين

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص١٥٩-١٦٠، ٢٣٧-٢٣٨، والعصرانيون، لمحمد الناصر، ص٣٧٩- ٣٩٨.

والمجوس هم الذين نزَّهوا الله ﷻ عما لا يليق به، ووصفوه بما يليق به، وتكلَّموا بالحق الذي كتمه الرسول"[1].

إنَّه يجب على المسلم أن يحذر من هؤلاء، الذين ما فتئوا عن النيل من عقيدة السلف؛ "فلا نجاة لنا إلا بإتباع دُعاة الصلاح، الذين يدعون إلى منهج السلف الصالح، وإلى إتباع الكتاب والسنة، هؤلاء هم الخير على الأمة"[2]، ولا بدَّ من التسلُّح بالكتاب والسنة بفهم سلف الأمة؛ لحمل هذا العلم إلى الناس بحقٍّ، ونفي تحريف وتأويل الجاهلين والمبطلين عنه؛ ولأنَّ "الطريق إلى الله لا بدَّ له من أعداءٍ، قاعدين عليه، أهل فصاحةٍ، وعلمٍ، وحُججٍ، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحًا لك، تقاتل به هؤلاء الشياطين...، فجند الله هم الغالبون بالحجة واللسان، كما أنَّهم الغالبون بالسيف والسنان، وإنَّما الخوف على المُوحِّد الذي يسلك الطريق، وليس معه سلاح، وقد منَّ الله ﷻ علينا بكتابه الذي جعله تبياناً لكلِّ شيءٍ، وهدىً، ورحمةً، وبشرى للمسلمين، فلا يأتي صاحب باطلٍ بحجةٍ إلَّا وفي القرآن ما ينقضها، ويُبيِّن بطلانها، كما قال ﷻ:﴿ **وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا** ﴾[الفرقان:٣٣]، وهذه الآية عامَّةٌ في كلِّ حُجةٍ يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة""[3].

وهذا المبحث فيه تفصيلٌ لهذه الجوانب والآثار، في مخالفة منهج السلف، والعدول عنه إلى غيره من المناهج المُستحدثة، والعقائد المُخالفة، والله المُستعان.

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٨٦٨/٣).

(٢) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، لصالح الفوزان(٣٣٦/١).

(٣) كشف الشبهات، لمحمد بن عبد الوهاب، ص١٣-١٤.

المطلب الأول: ردُّ النَّص الشرعي بتأويله أو تعطيله

إنَّ مخالفة منهج السلف الصالح في فهم النصوص، لم يكن مجرَّد نظريةٍ كلاميةٍ بعيدةٍ عن التطبيق؛ بل رافقها تطبيقٌ عمليٌ سواءٌ في العقائد أو في الأحكام، أصولاً وفروعاً، حيث شمل الرد والتأويل للنَّص كُليَّات الدِّين كالنبوة والوحي والشريعة، ممَّا ترتَّب عليه تغيير كثيرٍ من المفاهيم الشرعية المُتفق عليها بين عموم المسلمين، وقد أثَّر ذلك في موقف قارئ النص من حيث الثبوت والمصداقية، أو من حيث الاستدلال والحجية[١].

إنَّ الله ﷻ قد أكمل لنا الدِّين، وأتمَّ علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام ديناً؛ ليكون لنا نوراً مبيناً يهدينا ويرشدنا ويخرجنا من الظلمات إلى النور، ثمَّ يأتي البعض بعد ذلك، ويُحاول قطع الصلة بين العباد وبين ربهم، ويزعم استحالة وصول أحدٍ من البشر إلى مراد الله ورسوله ﷺ من النصوص المُنزَّلة، فمثلاً قال نصر حامد أبو زيد: "بفرض وجود دلالةٍ ذاتيةٍ للنَّص القرآني، فإنَّه من المستحيل أن يدَّعي أحدٌ مطابقة فهمه لتلك الدلالة"[٢]، والنتيجة الحتمية لهذا القول أن يُصبح القرآن والسنة ألفاظاً لا معاني لها يُرجع إليها، والغاء الفهم الصحيح للدِّين، وفتح الباب لاحتمالاتٍ غير متناهيةٍ من القراءة التحريفية للنَّص، ويصبح كلَّ شيءٍ بعد ذلك قابلاً للتغيير والتحريف.

إنَّ المخالفة لمنهج السلف في الفهم تؤدِّي إلى إحداث فهمٍ جديدٍ، وقراءةٍ جديدةٍ للنَّص، وهذا الأمر له نتائجٌ خطيرةٌ، لعلَّ من أبرزها ردُّ النَّص بتأويله أو تعطيله، ممَّا يُؤدِّي إلى نزع الثقة من مصدر الدِّين قرآناً وسنةً، وإلغاء العمل بالنصوص التي نزلت لتكون مرجعاً ومنهاجاً للعالمين؛ لأنَّ كلَّ إنسانٍ سيفهم منها فهماً مُغايراً لفهم الآخر، ممَّا ينتج عنه ألا يكون هناك معايير يحتكم إليها الجميع، وهذا ما يُريده المخالفون لمنهج السلف؛ ليتسنَّى لهم ابتداع ما يُريدون، دون نكيرٍ من أحد، حتى إذا احتججت على أحدهم بآيةٍ من التنزيل، أو حديثٍ صحيح، سيقول: هذا فهمك للآية ولا يُلزمني، أو: هذه قراءةٌ من جملة قراءاتٍ كثيرةٍ أخرى مُمكنةٍ، وعندها يُردُّ النَّص، ويُفتح الباب لكلِّ ناعقٍ بأن يفعل ما يريد[٣].

ومن أساليب المبتدعة في ردِّ النُّصوص الدينية، ضرب بعضها ببعض، أو الإيمان ببعضٍ والكفر بالبعض الآخر، كما قال ﷻ:﴿ **أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ القِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ العَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ** ﴾[البقرة:٨٥]، وقد تقدَّم أنَّ من منهج السلف جمع النصوص الواردة في الباب الواحد،

---

(١) انظر: ظاهرة التأويل الحديثة، لخالد السيف، ص٣٦٥.

(٢) نقد الخطاب الديني، لنصر أبو زيد، ص٢١٩.

(٣) انظر: العلمانيون والقرآن الكريم، لأحمد الطعان، ص٨١٥ وما بعدها.

ووضع كلِّ نصٍّ في موضعه اللائق به شرعاً، فلا يجوز أن يُؤخذ نصٌّ، ويُترك نصٌّ آخر ورد في الباب نفسه، فإنَّ كثيراً من البدع والضلالات في القديم والحديث إنَّما ظهرت بسبب إهمال هذه القاعدة الجليلة، فبعض المبتدعة يأخذون نصَّاً، ويتركون نصوصاً أخرى، قد تكون مُخصِّصةً أو مُقيِّدةً أو مُبيِّنةً أو ناسخةً أو غير ذلك، ممَّا يُؤدِّي إلى كثيرٍ من الخلط والاضطراب[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله–: "ومن هنا تبيَّن أنَّ الضلالات المبتدعة في هذه الأمة، هي من الإيمان ببعض ما جاء به الرسول دون بعضٍ، وإمَّا ببعض صفات التكليم والرسالة والنبوة دون بعضٍ، وكلاهما إمَّا في التنزيل وإمَّا في التأويل"[٢].

ويقول الشاطبي– رحمه الله–: "كثيراً ما ترى الجُهَّال يحتجون لأنفسهم بأدلةٍ فاسدةٍ، وبأدلةٍ صحيحةٍ اقتصاراً بالنَّظر على دليلٍ ما، وإطراحاً للنَّظر في غيره من الأدلة الأصولية والفروعية العاضدة لنظره، أو المعارضة له"[٣]؛ بل ومن عجائبهم أنَّهم أحياناً في الحديث الواحد، قد يأخذون ببعض دلالته لموافقته لما يقولون، ويردُّون بعض دلالته لمخالفته لرأيهم[٤].

لقد وصل الأمر ببعض المبتدعة في ردِّ النصوص ليس إلى التشكيك في دلالتها فحسب؛ بل إلى التشكيك في صحَّتها وثبوتها بالصورة التي وصلت بها إلينا، وخاصةً النَّص القرآني، وهذا الأمر ليس جديداً في المعاصرين؛ بل هو في أسلافهم القدماء، فقد ذُكر عن عمرو بن عبيد وهو من رؤس المعتزلة، أنَّه قال: "والله لوددتُ أن أحكَّ سورة تبَّت من المصحف"[٥]، وقال أيضاً: "لو كانت ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ في اللوح المحفوظ، لم يكن لله على العباد حجة"[٦].

ومن طرق ردِّ النَّص الشرعي عند المخالفين لمنهج السلف، محاولة تحريف لفظه، كما فعل المعتزلة في قول الله ﷻ:﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾[النساء:١٦٤]، حيث يقرؤون لفظ الجلالة بالنَّصب؛ ليوافق مذهبهم الباطل في نفي صفة الكلام عن الله ﷻ، ولقد قال بعضهم لأبي عمرو بن العلاء– رحمه الله– أحد القراء السبعة: أريد أن تقرأ: ﴿ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى ﴾، بنصب اسم الله؛ ليكون موسى هو المتكلم لا الله!،

(١) انظر: منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، لأحمد الصويان، ص٧١.

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٢/١٥).

(٣) الاعتصام، للشاطبي(١/٢٢٢).

(٤) انظر: إعلام الموقعين، لابن القيم(٢/١٩٦–٢٠٨).

(٥) انظر:جامع الرسائل، لابن تيمية(١/١٧٨–١٧٩).

(٦) ميزان الاعتدال، للذهبي(٣/٢٧٦).

فقال أبو عمرو: هب أنّي قرأتُ هذه الآية كذا، فكيف تصنع بقوله ﷻ:﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾[الأعراف:١٤٣]؟! فبُهت المعتزلي!"[١].

وأمَّا المعاصرون فالجرأة فيهم أفحش، يقول طيب تيزيني: "خضع القرآن أثناء جمعه بتأثيرٍ من المصالح السياسية المُتصارعة، لعملياتٍ أدَّت إلى اختراق متنه زيادةً ونقصاناً"[٢]، وشكَّك أيضاً عبد المجيد الشرفي في ثبوت القرآن الكريم[٣]، أمَّا أركون فيدَّعي أنَّه في أثناء جمع النص القرآني قد حصل نوعٌ من الانتخاب لآياته، وتمَّ حذف بعضها لمصالح معينةٍ، فقال: "إنَّ الانتقال من مرحلة الخطاب الشفهي إلى مرحلة المُدوَّنة النَّصيَّة الرسمية المغلقة، لم يتم إلا بعد حصول الكثير من عمليات الحذف والانتخاب والتلاعبات اللفظية التي تحصل دائماً في مثل هذه الحالات"[٤]، والنقد الموجَّه للقرآن من هؤلاء، ينمُّ عن جهلهم وحقدهم، ولا تخرج محاولاتهم من الانطلاق من خلفياتٍ تُساوي النَّص الإلهي مع النص البشري، يقول أركون: "ينبغي أن ننظر إلى القرآن من خلال مقارنته مع الكتب المشابهة له في الثقافات الأخرى، فالمقارنة هي أساس النَّظر والفهم"[٥].

وأمَّا السنة النبوية المصدر الثاني من مصادر التشريع، فقد كان الردُّ لها، والتشكيك فيها أشد، فإذا كان النَّص القرآني المقطوع بثبوته قد تعامل معه المخالفون للسلف بهذا الشكل، فكيف بالنَّص النبوي، لقد كانوا أكثر جرأةً في ردِّه وتأويله، فأنكر بعضهم ثبوت السنَّة أصلاً، وأنكر آخرون حُجيَّتها بالكليَّة، وأنكر غيرهم دلالة ألفاظها وحرَّفوها، وردَّ بعضهم أحاديث الآحاد منها كالمعتزلة والأشاعرة، وكم أودى ترك الاحتجاج بالآحاد إلى الانحراف في العقيدة، فبسبب هذا رُدَّت عقائد كثيرةٌ جداً، ثبتت عن النبي ﷺ في أحاديث صحيحةٍ، واستغلَّ هذا المذهب قومٌ من الجهلة وأهل الأهواء والزنادقة في ردِّ كثيرٍ من دلائل النصوص الشرعية المحكمة؛ بل إنَّ بعضهم ردَّ الأحاديث المتواترة القطعية، حتى أصبح ذلك سُلَّماً للزنادقة والعابثين، ومخرجاً لهم في ردِّ كلِّ حديثٍ جاء مخالفاً لأصولهم وما عليه أهوائهم[٦].

لقد وفق الله ﷻ السلف للأخذ بالسنة في مجال الاعتقاد؛ ولذلك كان موقفهم واضحًا منها، وقد أجمع السلف على حجية السنة في العقيدة والشريعة وفي سائر أمور الدين، وهذه من القواعد الكبرى

---

(١) شرح الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي(١/١٧٠).

(٢) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، لطيب تيزيني، ص٦٥.

(٣) انظر: لبنات، لعبد المجيد الشرفي، ص١١٩-١٢٠.

(٤) قضايا في نقد العقل الديني، لأركون ص١٨٨-١٨٩، وانظر: تاريخية الفكر الإسلامي، لأركون ص٢٢٨، والفكر الإسلامي نقد واجتهاد، لأركون، ص٨٥.

(٥) انظر: مفهوم النص، لأركون، ص٢٠.

(٦) انظر: منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، لأحمد الصويان، ص٨٧.

في منهج السلف– رحمهم الله–، تميَّزوا بها عن كثيرٍ من أهل الأهواء والبدع، وبذلوا في سبيل ذلك جهودًا منقطعة النظير، كلُّ ذلك إنَّما كان منهم حفاظًا على المصدر الثاني، الذي هو وحيٌ يُوحى، ولم يُميِّزوا بين الأحاديث المتعلقة بالأحكام، والأحاديث المتعلقة بالعقائد(١).

وقد لخَّص ابن عبد البر القرطبي– رحمه الله– مذهب الأئمة أهل الفقه والأثر في ذلك بقوله: "وكلُّهم يدين بخبر الواحد العدل في الاعتقادات، ويُعادي ويوالي عليها، ويجعلها شرعاً وديناً في معتقده، وعلى ذلك جماعة أهل السنة"(٢)، وعلى ذلك سار"الأئمة والعلماء والمُحقِّقون من السَّلف والخلف، ومن دانوا لله ﷻ بالاتِّباع، لا الابتداع؛ فكان ذلك سببًا في ثباتهم، ورسوخهم على العقيدة الغراء، فبهؤلاء السلف فلنقْتدِ، ولتُعظَّم السنن في قلوبنا، ولنربِّ الأجيال على احترامها وتطبيقها، وما لم يكن يومئذٍ دينًا فلن يكون اليوم دينًا"(٣).

وقال الإمام السيوطي– رحمه الله–: "فاعلموا رحمكم الله أنَّ من أنكر كون حديث النبي ﷺ، قولًا كان، أو فعلًا، بشرطه المعروف في الأصول حجةً، كفر، وخرج عن دائرة الإسلام، وحُشر مع اليهود والنصارى، أو مع من شاء الله من فرق الكفرة"(٤).

وقال ابن تيمية– رحمه الله–: "وغالب أهل البدع يرون أنَّ الرسول لو قال بخلاف مقالتهم لما اتَّبعوه، وإنَّما يدفعون عن نفوسهم الحجَّة، إمَّا بردِّ النقل، وإمَّا بتأويل المنقول، فيطعنون تارةً في الإسناد، وتارةً في المتن، وإلَّا فهم ليسوا مُتَّبعين، ولا مُؤتمِّين بحقيقة السنَّة التي جاء بها الرسول؛ بل ولا بحقيقة القرآن"(٥).

وقال– رحمه الله– أيضاً عن طريقة أهل البدع: "والآيات التي تُخالفهم يشرعون في تأويلها، شروع من قصد ردَّها كيف أمكن، ليس مقصوده أن يفهم مراد الرسول؛ بل أن يدفع مُنازعه عن الاحتجاج بها"(٦).

وذكر ابن القيم– رحمه الله– أنَّ المبتدعة: "نظروا في السنَّة، فما وافق أقوالهم منها قبلوه، وما خالفها تحيَّلوا في ردِّه أو ردِّ دلالته، وإذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سنداً ودلالةً، وكان يوافق قولهم قبلوه، ولم يستجيزوا ردَّه، واعترضوا به على مُنازعيهم، وأشاحوا وقرَّروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته، فإذا جاء ذلك السند بعينه أو أقوى منه، ودلالته كدلالة ذلك أو أقوى منه في خلاف قولهم، دفعوه ولم

---

(١) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٦٠/١).

(٢) التمهيد، لابن عبد البر(٨/١).

(٣) شبهات القرآنيين، لعثمان شيخ علي، ص١١.

(٤) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، للسيوطي، ص٥.

(٥) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٧٣/١٩).

(٦) المصدر السابق(٥٩/١٣).

يقبلوه!"[1]؛ ولذلك لم تسلم السنَّة المطهَّرة من الردِّ والتأويل والتشكيك من قبل المبتدعة؛ ولكن بتطرفٍ أشد من تعاملهم مع القرآن، فكلُّ ما خالف أهوائهم ردُّوه ورفضوه، ومن ذلك ما جاء عن عمرو بن عبيد المعتزلي، أنَّه قال عن الحديث الصحيح الذي يرويه عبد الله ابن مسعود ﷺ، والذي يقول فيه: حدَّثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق، قال: **(إنَّ أحدَكم يُجمع خلقُه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقةً مثلَ ذلك، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك، ثم يَبعث الله ملكاً، فيُؤمر بأربع كلماتٍ، وُيقال له: اكتب عمله، ورزقه، وأجله، وشقيٌ أو سعيد،...)**[2]، قال عمرو بن عبيد في هذا الحديث: "لو سمعتُ الأعمش يقول هذا لكذَّبته، ولو سمعتُه من زيد بن وهب لما صدقته، ولو سمعتُ ابن مسعود يقوله ما قبلته، ولو سمعتُ رسول الله ﷺ يقول هذا لرددتُه، ولو سمعتُ الله يقول هذا لقلتُ: ليس على هذا أخذتَ ميثاقنا"[3]، وكذلك ردِّ القاضي عبد الجبار المعتزلي الحديث الصحيح الصريح والذي هو في أعلى درجات الصحة، والذي يقول فيه ﷺ:**(إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته)**[4]، فقال:" فيجب أن نقطع أنَّه كذبٌ على النبي ﷺ، وأنَّه لم يقلْه"[5].

وأمَّا المعاصرون فردُّهم للسنَّة أفظع، ومن ذلك قول أركون مُشكِّكاً في السنة الصحيحة الثابتة: "لقد تعرَّض الحديث النبوي لعملية الانتقاء والاختبار والحذف التعسُّفية التي فُرضت في ظلِّ الأمويين والعباسيين أثناء تشكيل المجموعات النَّصية المدعوَّة بالصحيحة، لقد حدثت عملية الانتقاء والتصفية هذه لأسبابٍ لغويةٍ وأدبيةٍ وتاريخيةٍ"[6]، وبنفس اللهجة العدائية يزعم طيب تيزيني أنَّ عملية الانتخاب هذه تمَّت بناءً على مُؤثِّرات الصراعات السياسية والاقتصادية والدينية المتنامية[7].

إنَّ الهدف من كلِّ هذه الافتراءات هو هدم الدِّين، واسقاط النصوص، وهذا ما صرَّح به طيب تيزيني بقوله: "إنَّ الإقرار بوجود حديثٍ نبويٍ متكاملٍ لفظاً ومعنى، مسألةٌ تفتقد المصداقية الوثوقية التاريخية، أو تستثير تحفُّظاً وشكَّاً شديدين"[8].

يقول ابن حزمٍ– رحمه الله-: "ولا أرقَّ دينا ممَّن يُوثِّق روايةً إذا وافقت هواه، ويُوهِّنها إذا خالفت هواه، فما يتمسك فاعل هذا من الدِّين إلا بالتلاعب"[9].

---

(١) إعلام الموقعين، لابن القيم(٧٦/١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، حديث رقم ٣٢٠٨.

(٣) ميزان الاعتدال، للذهبي(٢٧٨/٣).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلاة، باب فضل صلاة العصر، حديث رقم ٥٤٤.

(٥) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار، ص٢٦٨.

(٦) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص١٤٦.

(٧) النص القرآني أمام اشكالية البنية والقراءة، لطيب تيزيني، ص٦٦.

(٨) المرجع السابق، ص٧٣.

(٩) المحلى بالآثار، لابن حزم(١٨٠/٤).

وقال ابن تيمية- رحمه الله-: "ومن المعلوم أنَّك لا تجد أحداً ممَّن يردُّ نصوص الكتاب والسنة بقوله، إلَّا وهو يبغض ما خالف قوله، ويودُّ أنَّ تلك الآية لم تكن نزلت، وأنَّ ذلك الحديث لم يَرِد، ولو أمكنه كشط ذلك في المصحف لفعله"[١].

ويقول رحمه الله أيضاً: "ولهذا يوجد في هؤلاء وأتباعهم من ينفرون عن القرآن والشرع، كما تنفر الحُمر المُستنفِرةِ التي تفر من الرُّماة ومن الأسد؛ ولهذا يُوصفون بأنَّهم إذا قيل لهم: قال المصطفى ﷺ: كذا، نفروا"[٢].

وقال ابن أبي العز الحنفي- رحمه الله-: "كلُّ فريقٍ من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته، وما ظنَّه معقولاً، فما وافقه قال: إنَّه مُحكمٌ، وقَبِله واحتجَّ به، وما خالفه قال: إنَّه مُتشابهٌ، ثمَّ ردَّه، وسمَّى ردَّه تفويضاً، أو حرَّفه، وسمَّى تحريفه تأويلاً؛ فلذلك اشتدَّ إنكار أهل السنَّة عليهم"[٣].

إنَّ النتيجة الحتميَّة لهذا الردِّ والتأويل للنصوص الدينية هي نزع القداسة عن النُّصوص الدينية، كما يقول أركون: "لا ينبغي أن نعتبر القرآن كلاماً آتياً من فوق، وإنَّما فقط كحدثٍ واقعيٍ تماماً كوقائع الفيزياء التي يتكلَّم عنها العلماء"[٤].

إنَّ هذا الفهم الجديد للدِّين "سينتهي من حيث المبدأ إلى مخالفة كلِّ ما هو سائدٌ من فهمٍ، سواءٌ تعلَّق الأمر بالمرتكزات العقدية، أو بالشرائع والأخلاق"[٥]، وإنَّ هذه القراءة الجديدة نتيجةً لكثرة ردِّها وتحريفها للنُّصوص، سينشأ عنها دينٌ، يُمكن أن يُسمَّى أيَّ شيءٍ إلا الإسلام[٦].

إنَّ هذا التأويل والرد للنَّص الشرعي هو سبب خراب الدنيا والدين، قال ابن القيم- رحمه الله-: "أصل خراب الدين والدنيا إنَّما هو من التأويل الذي لم يُرِدْه الله ورسوله بكلامه، ولا دلَّ عليه أنَّه مُراده، وهل اختلفت الأمم على أنبيائهم إلا بالتأويل؟!، وهل وقعت في الأمة فتنةٌ كبيرةٌ أو صغيرةٌ إلا بالتأويل، فمن بابه دُخل إليها، وهل أريقت دماء المسلمين في الفتنة إلا بالتأويل؟، وليس هذا مُختصَّاً بدين الإسلام فقط؛_ بل سائر أديان الرُّسل لم تزل على الاستقامة والسداد، حتى دخلها التأويل، فدخل عليها من الفساد ما لا يعلمه إلا ربُّ العباد"[٧].

وقد نتج عن ردِّ النَّص الشرعي وتأويله اتباع الهوى، فالابتداع واتباع الهوى أمران متلازمان لا ينفكان عن بعضهما غالباً؛ ولهذا سُمِّي المبتدعة بأهل الأهواء، قال الإمام الشاطبي- رحمه الله-:

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٥/٥١٧).

(٢) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(١٩/٢٢٤).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص٣٩٩.

(٤) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص٢٨٤.

(٥) انظر: النص والسلطة والحقيقة، لنصر أبو زيد، ص١٣٤.

(٦) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل، لأركون، ص ٢٢.

(٧) إعلام الموقعين، لابن القيم(٤/٢٥٠).

"سُمي أهل البدع أهلَ الأهواء؛ لأنَّهم اتَّبعوا أهوائهم، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها، والتعويل عليها، حتي يصدروا عنها؛ بل قدَّموا أهوائهم، واعتمدوا على آرائهم، ثمَّ جعلوا الأدلة الشرعية منظوراً فيها من وراء ذلك"[١].

ونتيجةً لردِّ النص الشرعي أيضاً كان الجدال بالباطل لدحض الحق، كما قال ﷻ عن أهل الأهواء:﴿ وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ ﴾[غافر:٥]، فترى المخالفين لمنهج السلف يشتغلون بالجدل بغير حجةٍ، ويُكثرون لقيل والقال؛ بل ويُجادلون بالشَّغب والتمويه، نصرةً للباطل بعد ظهور الحقِّ وبيانه[٢].

ونتيجةً لرد النَّص الشرعي وتأويله أيضاً، ابتدع المُخالفون لمنهج السَّلف أصولاً بدعيةً جديدة للاستدلال والتَّلقي، إمَّا بديلةً عن الأصول الشرعية، وإمَّا مُزاحمةً لها[٣]، كالتقليد للسابقين وموافقتهم على خطئهم وبدعتهم، كما كان يفعل من قبلهم، كما وصفهم الله ﷻ، يقولون لدُعاتهم:﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴾[الزُّخرف:٢٣]، وكما بيَّن ﷻ حالهم، عندما قال:﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾[المائدة:١٠٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله–: "من أوجب طاعة أحدٍ غير رسول الله ﷺ، في كلِّ ما يأمر به، وأوجب تصديقه في كلِّ ما يُخبر به، وأثبت عصمته أو حفظه في كلِّ ما يأمر به، ويخبر به من الدِّين، فقد جعل فيه من المكافأة لرسول الله ﷺ، والمضاهاة له في خصائص الرسالة بحسب ذلك"[٤].

ولقد شدَّد شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– في ذلك فقال: "مُعارضة أقوال الأنبياء بآراء الرِّجال، وتقديم ذلك عليها هو من فعل المُكذِّبين للرُّسل؛ بل هو جماع كلِّ كفرٍ"[٥].

وقال العز ابن عبد السلام– رحمه الله–: "فسبحان الله، ما أكثر من أعمى التقليد بصره، حتى حمله على ردِّ الحقِّ، وفَّقنا الله لاتِّباع الحقِّ أينما كان، وعلى لسان من ظهر"[٦].

---

(١) الاعتصام، للشاطبي(١٧٦/٢).

(٢) انظر: الفقيه والمتفقه، للبغدادي(٢٣٣/١).

(٣) انظر: منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، لأحمد الصويان، ص١٠٢.

(٤) جامع الرسائل، لابن تيمية(٢٣٧/١).

(٥) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٢٠٤/٥).

(٦) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، للعز بن عبد السلام(١٣٦/٢).

ومن الأصول الجديدة التي ابتدعها المخالفون لمنهج السلف العقل، فقدَّموه على النَّص والنَّقل، قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– عن هؤلاء: "فهم يجعلون العقل وحده أصلَ علمهم، ويُفردونه، ويجعلون الإيمان والقرآن تابِعَين له"[1]، وهؤلاء المُقدِّسون لعقولهم، المخالفون للنُّصوص، يقولون: إنَّ الأنبياء لم يعرفوا الحقَّ الذي عرفناه، أو عرفوه ولم يُبيِّنوه للخلق كما بيَّنَّاه، ويقولون: أنَّ السلف لم يعرفوا معاني هذه النصوص التي قالوها، ونحن عرفنا الحقَّ بعقولنا، ثمَّ اجتهدنا في حمل كلام الأنبياء على ما يُوافق مدلول العقل[2]، "واقتدى بهؤلاء في الجرأة على النصوص بالتحريف والاعتراض والردِّ، أفراخهم من المعاصرين الذين يُسمُّون أنفسهم عقلانيين، فكما أنَّ أولائك انبهروا بالفكر اليوناني، وراحوا يُقلِّدونه، فقد انبهر هؤلاء بالفكر الغربي، وضعُفوا أمامه، وراحوا يلهثون في ركابه"[3].

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣/٣٣٩).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٩).

(٣) منهج التلقي والاستدلال بين أهل السنة والمبتدعة، لأحمد الصويان، ص١١٣.

المطلب الثاني: تشويه التاريخ الاسلامي والتطاول على الصحابة والسلف

يتميز منهج السلف الصالح بكونه المنهج الآخذ بوصية النبي ﷺ في التمسك بسنته، ولزوم الجماعة حال افتراق الأمة، ولكونه منهجاً لا يروق للمخالفين مسلكه؛ إذ يصادم تقريراتهم العقلية الفاسدة؛ اتَّخذوا ضدَّه موقف العداء، وسلكوا في الصدِّ عنه جملةً من الوسائل، فوجَّه أصحاب المذاهب الضالة سهامهم إلى منهج السلف الصالح، وكان من أظهر علاماتهم أنَّهم انحرفوا في شأن الصحابة انحرافاً واضحاً، ولم يعتمدوا منهجهم؛ بل ومنهم من كذَّبهم وافترى عليهم، "وعلامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر"[1]، قال الأوزاعي– رحمه الله–:"مَا ابتدع رَجُلٌ إلا غلَّ صدره عَلَى المسلمين"[2].

ومن أمثلة جُرأة المبتدعة على الصحابة، ما يُروى عن عمرو بن عبيد: أنَّه قال: "لو شهد عندي عليٌّ وعثمان وطلحة والزبير على شراك نعلٍ؛ ما أجزتُ شهادتهم"[3]، وقيل له: كيف حديث الحسن عن سمرة ؟ فقال: "ما تصنع بسمرة؟! قبح الله سمرة"، قال الشاطبي: "بل قبح الله عَمْراً بن عبيد، فهكذا أهل الضلال يسبُّون السلف الصالح؛ لعلَّ بضاعتهم تُنفق"[4].

وقد بيَّن السلف الصالح– رحمهم الله– أنَّ الطعن في الصحابة هو طعنٌ في الدِّين، كما قال أبو زرعة الرازي– رحمه الله–: "إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنَّه زنديقٌ، وذلك أنَّ الرسول ﷺ عندنا حقٌّ، والقرآن حقٌّ، وإنَّما أدَّى إلينا هذا القرآن والسنن أصحاب رسول الله ﷺ، وإنَّما يُريدون أن يجرحوا شهودنا؛ ليُبطلوا الكتاب والسنة، والجرح بهم أولى، وهم زنادقةٌ"[5].

وقال الإمام أحمد– رحمه الله–: "إذا رأيت رجلاً يذكر أحداً من الصحابة بسوءٍ فاتَّهمه على الإسلام"[6].

إنَّ هدف المبتدعة من القدح في الصحابة هو إحداث الانفصام بين المسلم وتراثه وتاريخه، فعندما يُطعن في نَقَلَة الدِّين، وتُردُّ أقوالهم، وتكثُر الآراء المخالفة، ووجهات النظر المبنيَّة على الهوى، فإنَّ هذا هو طريقٌ للعزلة الشعورية عن مصدر العزة والكرامة، وهو طريقٌ للنفرة من الثوابت الأساسية التي يقوم عليها الدين؛ ولذا نجد المبتدعة في زماننا هذا يحذون حذو أسلافهم في تشويه التاريخ الإسلامي المُشرِق، والهجوم على أتباع الحق، والتَّطاول على الصحابة والسلف، والتهكُّم بهم، والتقليل

(١) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(١/٢٠٢).
(٢) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي(٩/٤٩٢).
(٣) الاعتصام، للشاطبي(١/١٥٨).
(٤) المرجع السابق(١/١٥٩).
(٥) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي(١/٤٩).
(٦) البداية والنهاية، لابن كثير(٨/١٣٩).

من شأنهم، مُعرضِين بذلك عن تزكية الله لهم، وثناء رسول الله ﷺ عليهم، فلم يرقبوا فيهم ذمةً ولا عهداً، وأعملوا فيهم الألسنة السليطة، والأقلام الحاقدة[١].

فهذا محمود أبو رية عدوُّ أبي هريرة ﷺ يزعم أنَّ أبا هريرة كان يزيد رواياتٍ في الحديث من عنده، وأنَّه استباح الكذب للمصلحة، وأنَّ أحاديثه مُفرِطةٌ في الغرابة، وأنَّه لم يُلازم رسول الله ﷺ إلا لأجل المصلحة، وأنَّه كان بين الصحابة ليس له أيُّ شأنٍ[٢]؛ بل ويُكثر من التهكُّم والسخرية بهذا الصحابي، فيقول عنه: "إنَّه شخصيةٌ وهميةٌ لم يقف أحدٌ على اسمه، فكان حَرِيَّاً عدم الثقة في شخصه، والتشكيك في كلِّ ما يُروى على لسانه"[٣].

وهذا خالص جلبي يقول عن مجتمع الصحابة: "المجتمع الإسلامي الوليد أُصيب بعسر هضمٍ، ومن مظاهر عسر الهضم هذه الإقياءات والإسهالات، ودخول البدن الإسلامي حالةً غير سويةٍ؛ بسبب النزاعات والفتن والثورات التي حدثت في حالة نمو المجتمع الإسلامي الأول"[٤].

ويقول أيضاً مُتهكِّماً بالصحابة: "فالصحابة فشلوا وبوقتٍ مبكرٍ في المحافظة على المجتمع الإسلامي الذي بناه لهم رسول الله ﷺ بعد كلِّ تعبٍ وعناء"[٥].

وهذا حسن الترابي يقول عن منهج السلف: "وكلُّ التراث الفكري الذي خلَّفه السلف الصالح في أمور الدين هو تراثٌ لا يُلتزم به، وإنَّما يُستأنس به"[٦].

إنَّ المبتدعة المخالفين لمنهج السلف، وخاصةً المُعاصرين منهم، يصفون التراث والتاريخ الإسلامي بشكلٍ عامٍّ بالتشدُّد والعنف والإقصاء واللاإنسانية، وأنَّه المنبع الأساسي للتكفير والتبديع والتضليل، يقول أحدهم بكلِّ وقاحةٍ: "الجنون الذي نراه اليوم، عَرَضٌ من أعراض المرض والعلَّة التي استشرت في جسد هذه الأمة وثقافتها، وهذه راجعةٌ أساساً إلى تراثٍ مُتعفنٍ، وثقافة الصديد والضحالة التي يُربى عليها أبناؤنا صباحاً ومساءً في المساجد، وعبر خطب الجمعة، وفي دروس الدِّين، ومن إذاعة القرآن الكريم"[٧].

ويقول زكي نجيب محمود: "إنَّ التقيُّد بالتراث الإسلامي، بمثابة سلطانٍ للماضي على الحاضر، وسلطان الماضي على الحاضر هو بمثابة السيطرة التي يفرضها الموتى على الأحياء، وقد يبدو غريباً أن يكون للموتى مثل هذه السيطرة، مع أنَّه لم يبقَ لنا منهم إلا صفحاتٍ مرقومةٍ

---

(١) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٢٦٥.

(٢) انظر: أضواء على السنة المحمدية، لمحمود أبو رية، ص١٨٣، ١٩٤، ١٩٥، ١٩٧.

(٣) شبهات وشطحات منكري السنة، لأحمد عبد الله، ص ٣٢.

(٤) النقد الذاتي، لخالص جلبي، ص٢٣١.

(٥) سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص٣٤.

(٦) تجديد الفكر الإسلامي، لحسن الترابي، ص١٠٥.

(٧) انظر: موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، لمجموعة من الباحثين(١/٢٢٦).

صامتة"[1]، ويستمرُّ في هذا التشويه، ويذكر أنَّ أوربا لم تتقدَّم إلا حين تركت كتب الأقدمين إلى كتاب الطبيعة المفتوح، وأنَّه استعرض التراث العربي فوجد أنَّ هذه الألوف من المجلدات لا تُضيف حرفاً واحداً جديداً"[2].

إنَّ المخالفين لمنهج السلف وأتباعهم من المعاصرين يهتمون بإبراز الجوانب السلبية والأخطاء والبدع والانحرافات في تاريخ الأمة، ويتبنُّون الآراء الشاذة والمذاهب المنحرفة عبر التاريخ الإسلامي، ويُمجِّدون الفرق الضالة، ومن ثمَّ يحكمون على الإسلام من خلال ذلك كلِّه.

قال خالص جلبي: "وعندما استقرَّ الأمر للعقل الكسيح، وطُحن التيار العقلاني من المعتزلة، أصبح التشكيك في عقيدة أيِّ إنسانٍ حتى اليوم، يكفيها أن تنسب لهذا الخطِّ الفكري، ... وبقيت الساحة عقلاً من دون مراجعة، ونقلاً من دون عقل"[3].

إنَّ هؤلاء المخالفين لمنهج السَّلف يعتبرون أنَّ هزيمة الفرق المنحرفة، وانتصار أهل السنة، نكسةٌ تاريخيةٌ، وضررٌ على الإسلام والمسلمين، وعاملٌ من عوامل التخلُّف والجمود[4]، يقول أحدهم: "وكان أهل السنة والجماعة يلعنون الفلاسفة والمعتزلة وأهل الفكر ومن يذهب مذهبهم، ويحرقون كتبهم تقرُّباً للجمهور الجاهل، وبهذه الطريقة النكرة انطفأت الآراء الحُرَّة من رؤوس المفكرين، فكانت السبب في سقوط العالم الإسلامي من شاهق عزِّه، ولم يزل منحدراً لا يرتقي"[5].

ولم يقتصر المخالفون لمنهج السلف في واقعنا المعاصر على تمجيد الفرق المشهورة فقط؛ بل نبَّشوا عن حياة أصحاب الفسق والمجون واللهو والعبث[6]، ونتيجةً لتمجيد هؤلاء للمبتدعة والكفار والملحدين، فإنَّهم لم يُفرِّقوا بين المسلمين وغير المسلمين في الولاء، ويتبيَّن ذلك من تقديرهم وإكبارهم الذي يُكنُّوه للمستشرقين وعلماء الغرب، وروَّاد النظريات الهدامة في العالم[7]؛ ولذا نجد غالبهم دعاةً إلى فكرة التقريب بين الأديان، وقد شارك كثيرٌ منهم في كتبٍ وبحوثٍ لتأييدها ودعمها، ونادوا بفكرة الدين الإبراهيمي الذي يجمع الإسلام واليهودية والنصرانية[8]، حتى قال أحمد أبو شادي: "فهم

---

(١) تجديد الفكر العربي ، لزكي نجيب محمود، ص٥١.

(٢) انظر: المرجع السابق، ص٥٤-٥٥.

(٣) انظر: المدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٥١٣، نقلاً عن مقال لخالص جلبي في جريدة الشرق الأوسط.

(٤) انظر: ثورة الإسلام، لأحمد زكي أبو شادي، ص٤٨-٤٩.

(٥) هذا هو الإسلام، لفاروق الدملوجي، ص٦١.

(٦) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٦٥.

(٧) المرجع السابق، ص٣٨٣.

(٨) انظر: الفكر الإسلامي المعاصر، لغازي التوبة، ص ١٩، والأعمال الكاملة لمحمد عبده، لمحمد عمارة(٢/٣٥٥).

المسيحية واجبٌ على كلِّ مسلمٍ؛ بل الإيمان بها حتمٌ عليه، إذا قبل المرء أن يكون مسلماً يجب أن يكون مسيحياً، ففهم المسيحية واجبٌ مُقدَّسٌ على كلِّ مسلمٍ ومسلمة"[١].

ويذهب محمد عمارة إلى إلغاء جميع الأديان، حيث يزعم عمارة أنَّ الفكر المستنير "طوى صفحة التاريخ الذي كان يُقسِّم النَّاس إلى مؤمنين وكافرين؛ ليبسط مكانها صفحة الحضارة الحديثة التي تُميِّز بين الأمم والشعوب على أساسٍ من التحضُّر والخشونة والبداوة"[٢].

ويُهاجم هؤلاء الضُلَّال كلَّ منجزات الأمة الإسلامية في التاريخ من الفتوحات، ونشر الإسلام في أصقاع الأرض، وإقامة أكبر حضارةٍ عرفها التاريخ، يقول خالص جلبي مُستهزئاً بالمسلمين: "وفي بلاد العالم المُتخلِّف، فالساحة الفكرية ما زالت تعيش عقلية الأسطورة والخوارق، وتتغذى من فكر وجوِّ الفتوحات"[٣].

ولم يكتف المخالفون لمنهج السلف بما جنوه على أنفسهم، ومجتمعاتهم من مخالفتهم للمنهج الحق؛ بل تعدَّى الأمر إلى أبعد من ذلك، فقد جعلوا السلف محطَّ رميهم، وذمِّهم؛ فنالوا منهم، وأسَّسوا العلاقة معهم على أساسٍ من البُغض والمعاداة، وتأليب الناس ضدَّهم، وقد اتخذت المعاداة من جانب المبتدعة لعلماء السلف والمتَّبعين للمنهج الحق، صوراً متعددةً، مثَّلت صوراً للاضطهاد، والمعاداة، والبغض الأعمى، منها:

١- رميهم السلف بالنقائص والألقاب المشينة: وذلك من خلال نعتهم بأسماءٍ قبيحةٍ تنتقص من قدرهم، وهم منها براء، حيث إنَّ "خصوم أهل السنة نادراً ما يذكرونهم باسم أهل السنة، أو أهل الحديث، أو غير ذلك من الأسماء المَرضيَّة عند أهل السنة، فقد درجوا على الإشارة إليهم في كتبهم وأقوالهم بألقابٍ وأسماءٍ ابتدعوها من عند أنفسهم؛ بقصد الحطِّ والتشنيع عليهم وعلى مذهبهم"[٤].

قال الإمام أحمد- رحمه الله-: "وقد أحدث أهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء قبيحةً شنيعةً، يُسمُّون بها أهل السنة؛ يُريدون بذلك الطعن عليهم؛ والإزراء[٥] بهم عند السفهاء والجُهَّال"[٦]، ولا نشكُّ في كذب هؤلاء المبتدعة، فهم أولى بكلِّ لقبٍ قبيحٍ من أهل الحق، فالحمد لله على نعمة الهداية[٧].

٢- ممارسة الأذى الجسدي ضدَّهم: حيث لم يسلم أهل السنة من بطش المبتدعة وأذاهم، فقد ساهم الكثير منهم في تعذيب أهل السنة، والتنكيل بهم، وأعظم دليلٍ على ذلك، ما حدث في القرن الثالث

---

(١) ثورة الإسلام، لأحمد زكي أبو شادي، ص ١٢٤، ص١٢٩.

(٢) الإسلام والوحدة الوطنية، لمحمد عمارة، ص ٢٣.

(٣) سيكولوجية العنف، لخالص جلبي، ص١٩٤.

(٤) وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم، ص١٢٦.

(٥) "الإزراء": الاحتقار والانتقاص. انظر: لسان العرب، لابن منظور (٣٥٦/١٤).

(٦) السنة، للإمام أحمد بن حنبل، ص٤٠.

(٧) انظر: إبطال التأويلات لأخبار الصفات، لأبي يعلى(٤٦/١).

الهجري من امتحان العلماء، في الفتنة المشهورة بفتنة خلق القرآن، حين دعا المأمون للقول بخلق القرآن، وفرض رأيه بالقوة، وأكره الناس عليه، إلى أن أفضت الخلافة إلى المتوكِّل، فأمر بترك هذا القول المبتدَع، ونبذ قائليه، فأظهر السنَّة بعد المحنة[١]، ولقد سجَّل التاريخ موقف أعظم رجلٍ صبر على تلك المحنة، وهو الإمام أحمد بن حنبل- رحمه الله- الذي "تعرَّض لأصناف التعذيب، وأنواع التهديد والتنكيل، ما لم يتعرَّض لمثله أحدٌ"[٢].

إنَّ هذه المحنة التي وقعت لأهل السنة، لم تكن مقصورةً على المعتزلة فقط؛ بل كانت مع طوائف متعددةٍ، كما نبَّه إلى ذلك شيخ الاسلام ابن تيمية- رحمه الله-[٣]، ولم يزل أهل الباطل في كلِّ زمانٍ ومكانٍ ينتهزون الفُرص لاضطهاد أهل السنة، والنيل منهم، مستخدمين في ذلك كلَّ ما أمكنهم من الوسائل والأساليب، والواقع خير شاهدٍ على ذلك، حيث يُحارب الإسلاميون في كلِّ بلد، ويُضيَّق عليهم، ويُكاد لهم من أهل البدع والأهواء، "وهكذا حُوربت عقيدة السلف حرباً لا هوادة فيها، وشنَّ عليها المبتدعة هجوماً عنيفاً، واستطالوا على أتباعها، وتعدَّوا عليهم بألوانٍ من الإيذاء، فقد أُمر بنفي بعضهم، وهجرُ فريقٍ منهم، وسجن طائفةٍ أخرى، واستحلال دمائهم، وإجبارهم بحدِّ السيف على التراجع عن معتقدهم، وأخيراً التآمر والخيانة والتواطؤ مع الكافرين ضدَّهم"[٤].

ونتيجةً لما جُوبهت به عقيدة السلف وأتباعها من صدٍّ ورفضٍ وإعراضٍ من المبتدعة، أُغلقت على المسلمين أبوابٌ من الخير، كانت جديرةً بانتشالهم وإخراجهم ممَّا هم فيه من ضعفٍ وتفرُّق، وكفيلةً بإصلاح أوضاعهم؛ ولكنَّ ذلك لم يحدث بسبب سيادة أهل البدع، وتسلُّطهم على الناس، فكان لذلك الصدِّ العنيف تأثيرٌ كبيرٌ في زيادة التخلُّف، وانزلاق الأمة في دركات الجهل والضعف والفرقة[٥].

إنَّ الناظر في أمر المُتَّبعين لمنهج السلف والمخالفين لهم، لا بدَّ أن يلحظ أمراً مهماً، وهو أنَّ أهل السنة إنَّما ذمُّوا المخالفين والمبتدعة؛ "لاشتمال بدعهم على معانٍ باطلةٍ، مخالفةً للكتاب والسنة، ومخالفةً للعقل الصريح، وكلُّ ما خالف الكتاب والسنة فهو باطلٌ قطعًا"[٦]، في حين نجد أنَّ المُسوِّغ للمبتدعة في عدائهم للسلف هو الجهل بعقيدتهم، والجهل بالكتاب والسنة، وليس ذلك بالمُستغرَب عليهم؛ لأنَّهم لم يقصدوا دراستهما، ولم يفكروا في الاستدلال بهما، إلا من جهة التأويل، والتحريف.

قال شيخ الاسلام ابن تيمية- رحمه الله-: "ولم يكن الواحد من هؤلاء يعرف البخاري ومسلمًا، وأحاديثهما، إلا بالسماع، كما يذكر ذلك العامة، ولا يُميِّزون بين الحديث الصحيح المتواتر، عند أهل

(١) انظر: سيرة الإمام أحمد بن حنبل، لصالح بن أحمد بن حنبل، ص٤٩-٦٥.

(٢) الرد على الجهمية والزنادقة، لأحمد بن حنبل، ص٣٤.

(٣) انظر: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية(٢/٦٠٣-٦٠٤).

(٤) الانحرافات العقدية والعملية، لعلي الزهراني، ص٢٤٠.

(٥) انظر: المرجع السابق، ص٢٤١.

(٦) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/٢٣٢-٢٣٣).

العلم بالحديث، وبين الحديث المُفترى المكذوب، وكُتبُهم أصدق شاهدٍ على ذلك، ففيها عجائب"[١]؛ "بل يذكر أحدهم في المسألة عدَّة أقوالٍ، والقول الذي جاء به الكتاب والسنة لا يذكرونه، وليس ذلك لأنَّهم يعرفونه ولا يذكرونه؛ بل لا يعرفونه"[٢]، "ويكون كلَّ ما ذكروه أقوالاً فاسدةً، مخالفةً للشرع والعقل"[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في الردِّ على من يقدح في علم السلف: "واستجهال السابقين الأولين واستبلاههم، واعتقاد أنَّهم لم يتبحَّروا في حقائق العلم بالله، ولم يتفطَّنوا لدقائق العلم، وأنَّ الخلف حازوا قصب السبق في هذا كلِّه...، هذا القول إذا تدبرَّه الإنسان وجده في غاية الجهالة؛ بل في غاية الضلالة"[٤].

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/٧١-٧٢).

(٢) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية(٥/٢٦٨).

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٩/٦٧).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥/١٠).

المطلب الثالث: انتشار البدع والشبهات والشهوات والفتن والاستهزاء بالدين

إنَّ الناظر في أحوال المخالفين لمنهج السلف يجد ما للبدع من ذيوعٍ وانتشار في مذاهبهم وسلوكياتهم، وخاصةً في مسائل الاعتقاد، وهي التي تُسمَّى بالبدع الاعتقادية، وهي دائرةٌ حول ذات الله ﷻ، والرسل، والغيبيات[١]، فهي أمورٌ "لا يُسوَّغ فيها الاجتهاد؛ وإنَّما هو الاتِّباع، لا الابتداع، ومن خالف فهو مبتدعٌ"[٢]، وعلى رأس تلك البدع الاعتقادية، ما عليه من قدَّسوا عقولهم في مقابل النَّص، فإنَّ هؤلاء أهل بدعٍ، وأحكامهم متفاوتةٌ، بحسب بُعدهم وقربهم من الصواب[٣].

إنَّ من الأمور المُقرَّرة والمُسلَّمة أنَّ الله ﷻ قد أكمل لنا الدين، دون أن يبقى شيءٌ بلا بيانٍ، أو توضيح، حيث قال ﷻ:﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾[المائدة:٣]، يقول سيد قطب- رحمه الله- في تفسير هذه الآية: "فأعلن لهم إكمال العقيدة، وإكمال الشريعة معاً، فهذا هو الدِّين، ولم يَعُد للمؤمن أن يتصوَّر أنَّ بهذا الدِّين نقصاً يستدعي الإكمال، ولا قصوراً يستدعي الإضافة، ولا محليةً أو زمانيةً تستدعي التطوير أو التحوير، وإلَّا فما هو بمؤمنٍ، وما هو بمقرٍّ بصدق الله، وما هو بمرتضٍ ما ارتضاه الله للمؤمنين"[٤].

إنَّ كلَّ بدعةٍ أُحدثت في الدِّين، وليس لها أصلٌ في الكتاب ولا في السنة، مردودةٌ على أصحابها، وأهلها مذمومون بحسب بُعدها عن الدِّين، سواءٌ كانت من البدع القولية الكلامية، كالتجهم، والرفض، والاعتزال، أو من البدع العملية، كالتعبُّد لله بعباداتٍ لم يُشرِّعها الله ولا رسوله[٥]، كما قال ﷺ: **(من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه، فهو ردٌّ)**[٦].

---

(١) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها، لسعيد الغامدي(٢/٦٠).

(٢) قمع الدجاجلة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، لعبد العزيز الراجحي، ص٨.

(٣) انظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري، لابن عساكر، ص٣٣٤، والموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، لمحماس الجلعود(٢/٤٦٥)، والحث على إتباع السنة والتحذير من البدع وبيان خطرها، لعبد المحسن العباد، ص٥٢.

(٤) في ظلال القرآن، لسيد قطب(٢/٨٤٣).

(٥) انظر: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، لعبد الرحمن عبد الله، ص١٧.

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود، (٣/١٨٤)، رقم (٢٦٩٧). ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور(٨)، (٣/١٣٤٣)، رقم(١٧١٨).

قال الإمام العيني[1]– رحمه الله– في شرح هذا الحديث: "فيه ردُّ المُحدثات، وأنَّها ليست من الدِّين؛ لأنَّه ليس عليها أمره ﷺ، والمراد به أمر الدين"[2].

لقد أرشد النبي ﷺ أمته إلى الاتِّباع، وعدم الابتداع، حيث يقول النبي ﷺ في حديث العِرْباض بن سارية رضي الله عنه:**(فعليكم بسُنَّتي وسنَّة الخلفاء المهديين الراشدين، تمسَّكوا بها وعضُّوا عليها بالنواجِذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ مُحدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ)**[3]، "وفي الحديث التمسُّك بالسنَّة في الاعتقاد، والأعمال، والأقوال، والتحذير من البِدع، وهي ما أُحْدِث في الدِّين ممَّا لا أصل له في الشريعة"[4].

إنَّ النَّجاة لا تتأتَّى إلَّا بالتمسُّك بالكتاب والسنة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله ﷻ:﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ** ﴾[آل عمران:١٠٦]، "تبيضُّ وجوه أهل السنَّة والجماعة، وتسودُّ وجوه أهل البدع والضلالة"[5].

إنَّ السبب الرئيسي لضلال المبتدعة هو ضعف الصلة بالكتاب والسنة والأثر، وبمنهج السلف الصالح، والتعصُّب والغرور، ثمَّ عدم الالتزام بعقيدة أهل السنة والجماعة التي تقضي بوجوب الاجتماع على الحق، والاعتصام بحبل الله المتين، وتزول بها أسباب الاختلاف في الدين.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله–: "وهذا الأصل العظيم، وهو الاعتصام بحبل الله جميعاً، وأن لا نتفرَّق، هو من أعظم أصول الإسلام، وممَّا عظمت وصية الله ﷻ به في كتابه، ومما عظم ذمه لمن تركه من أهل الكتاب وغيرهم، ومما عظمت به وصيَّة النبي ﷺ في مواطن عامةٍ وخاصَّة"[6].

إنَّ من أحدث البدع في بلاد المسلمين، أو سار عليها، وقلَّد أصحابها، فقد ساهم في تخريب عقيدة المسلمين، قال الإمام مالك– رحمه الله–: "إيَّاكم والبدع، قيل: يا أبا عبد الله، وما البدع؟، قال: أهل البدع الذين يتكلمون في أسماء الله، وصفاته، وكلامه، وعلمه، وقدرته، ولا يسكتون عمَّا سكت

---

(١) محمود بن أحمد بن أحمد، أبو محمد، من كبار المحدثين، أصله من حلب ومولده في عينتاب، وإليها نسبته، من مصنفاته:المسائل البدرية، طبقات الشعراء، المقاصد النحوية، توفي سنة: (٨٥٥هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(١٦٣/٧).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري(٢٧٤/١٣).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه، كتاب العلم عن رسول الله، باب ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع، ص٦٠٣، رقم(٢٦٧٦).

(٤) تطريز رياض الصالحين، لفيصل النجدي، ص١٢٨.

(٥) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي(٢٩١/٢).

(٦) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٣٥٩/٢٢).

عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان"[1]؛ ولذلك كان الخوض في هذه الأمور والتلبيس فيها على العوام من البدع[2]، فكلٌّ من لزم غير مذهب السلف، فقد أعان على نشر البدع، وعلى هدم الإسلام.

لقد كان موقف السلف من البدع وأصحابها موقفاً حاسماً، فقد ذمُّوهم، وحذَّروا النَّاس منهم، وكشفوا الستار عن حقيقتهم، وذلك باجماعٍ منهم، وقد جعل الامام ابن عبد البر القرطبي- رحمه الله- حديث كعب بن مالك ﷺ، وهجر النبي ﷺ والمسلمين له، أصلًا في مجانبة من ابتدع، وهجره، وقطع الكلام معه[3]، "ولم يزل أهل السنة يعيبون أهل الأهواء المُضلَّة، وينهون عن مجالستهم، ويُخوِّفون من فتنتهم، ويُخبرون بخَلاقهم، ولا يرَون ذلك غيبةً لهم، ولا طعنًا عليهم"[4]، وهم مُجمعون على معاداة أهل البدع، ومُهاجرتهم[5].

وأمَّا عن انتشار الشُّبهات بسبب مخالفة منهج السلف، فإنَّ هذا من أصعب الأمور التي تدخل على قلب المسلم، فالفتن نوعان: فتن الشَّهوات، وفتن الشُّبهات، وفتن الشهوات تُدفع بالاستعاذة بالله من الشيطان، وبالاستغفار والعمل الصالح، وسرعان ما تذهب، كما قال ﷻ:﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ**﴾[الأعراف:٢٠١]، وأمَّا فتن الشُّبهات فإنَّها تعلق بالقلب، وتتشبَّث به، وتُلبِّس على المسلم دينه واعتقاده، ولا تخرج بعد عون الله ﷻ إلَّا بالعلم الشرعي الصحيح، الذي يورث الهداية والبصيرة، كما قال ﷻ:﴿ **قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾[يوسف:١٠٨]؛ ولأجل هذا كان لا بدَّ من مقارعة الشيطان، وجهاده، وذلك بدفع ما يُلقي في القلب من الشُّبهات والشُّكوك القادحة في الإيمان؛ ليتحقَّق الإيمان في قلبه[6]، فالإيمان الصحيح يَدفعُ الشُّبهات[7].

قال ابن القيم- رحمه الله-: "الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشُّبه بعدد أمواج البحر، ما زالت يقينه، ولا قدحت فيه شكَّاً؛ لأنَّه قد رسخ في العلم؛ فلا تستفزُّه الشُّبهات؛ بل إذا وردت عليه ردَّها حرسُ العلم وجيشُه مغلولةً مغلوبةً،... وقال لي شيخ الإسلام، وقد جعلتُ أُورد عليه إيراداً بعد إيراد: لا تجعل قلبك للإيرادات والشبهات مثل السفنجة، فيتشرَّبها، فلا ينضح إلا بها؛ ولكن اجعله كالزجاجة

(١) شرح السنة، للبغوي(٢١٧/١).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١٨٦/٧).

(٣) انظر: التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، لابن عبد البر(٨٧/٤).

(٤) أصول السنة، ومعه رياض الجنة بتخريج أصول السنة، لابن أبي زمنين، ص٢٩٣.

(٥) انظر: شرح السنة، للبغوي(٢٢٧/١).

(٦) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم(١٠/٣).

(٧) انظر: الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، للسعدي، ص٤٠.

المُصمَتة، تمرُّ الشُّبهات بظاهرها، ولا تستقرُّ فيها؛ فيراها بصفائه، ويدفعها بصلابته، وإلَّا فإذا أشربتَ قلبك كلَّ شبهةٍ تمرُّ عليه، صار مَقرًّا للشبهات، فما أعلم أنِّي انتفعتُ بوصيةٍ في دفع الشُّبهات كانتفاعي بذلك؛ وإنَّما سُمِّيت الشبهة شبهةً؛ لاشتباه الحقِّ بالباطل فيها"[١].

إنَّ المقارنة بين عقيدة السلف وعقائد المُخالفين، تُشعر الإنسان لأوَّل وهلةٍ بالبون الشاسع بينهما، فالعقيدة الصحيحة قامت على أُسسٍ راسخةٍ، وبيِّناتٍ واضحةٍ، فهي تُوطِّن أبناءها على رسوخ الإيمان، خِلافًا للعقائد الأخرى، فإنَّ أُسسها لا تقوى على حملها، ولا ترقى لتثبيت الإيمان في نفوس أفرادها.

قال الشيخ صالح الفوزان-رحمه الله-: "وهكذا يجب أن تُبنى العقائد على أدلَّة الكتاب والسنَّة، وعلى النَّظر في آيات الله الكونية؛ من أجل أن تَرسخ وتثَبُت في القلب، وتَزول جميع الشُّبه، وأمَّا العقائد المبنيَّة على الشُّبهات، وعلى الشُّكوك، وعلى أقوال النَّاس، والتقليد الأعمى، فإنَّها عقائد زائلةٌ، لا تثبت، وهي عُرضةٌ للنَّقض، وعرضةٌ للإبطال، فلا تثبت العقيدة، ولا سائر الأحكام الشرعية إلَّا بأدلَّة الكتاب والسنة، وبالأدلة العقلية المُسلَّمة"[٢]؛ ولذلك فإنَّه لا بدَّ أن تُحرَّر الدلائل العقلية من الشُّبهات والشُّكوك[٣]، أمَّا إذا لم تُحرَّر، فإنَّها تُفسد العقيدة، وتُحيِّر العقول، وتُذبذب الإيمان، وتُفضي إلى الشكِّ والحيرة في الدين[٤]؛ ولهذا كان المنتسبون إلى علم الكلام من المعتزلة والأشاعرة أكثر الناس وقوعاً في الشُّبهات، وهم أكثر الناس تصديراً لها.

قال ابن القيم- رحمه الله-: "ما على الشريعة أضرُّ من مبتدعة المتكلمين، يُفسدون العقول بتوهماتٍ وشبهاتٍ تُشبه المعقول"[٥].

وقال الحسن البصري- رحمه الله-: "شرار عباد الله ينتقون شواذَّ المسائل، يُعمُّون بها عباد الله"[٦]؛ ولذلك "لم يكن علم الكلام بعيداً عن السُّيول الجارفة التي حمى الله ﷻ عقيدة السلف منها؛ وما ذلك إلا لأنَّه آثر الوديان، وارتمى في القيعان، فانعكس الهدف المنشود وبالاً على أهله، حيث صار علم الكلام مشحوناً بالشُّبهات، ومثَّل أكبر مصدرٍ لها، وليس حيرتهم وندمهم إلا واحدٌ من الأدلة على بُطلانه وفساده، فأهل الكلام معهم شبهاتٌ، يظنُّها من يتأملها بينات"[٧]، فـ"أفسدوا فطرتهم العقلية،

---

(١) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، لابن القيم(١/١٤٠).

(٢) شرح الأصول الثلاثة، للفوزان، ص٩٤-٩٥.

(٣) انظر: الوحي والإنسان، للجليند، ص٩٩.

(٤) انظر: موقف أصحاب الأهواء والفرق من السنة النبوية ورواتها، لمحمد الزهراني، ص٣٠.

(٥) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٤/١٣٤٦).

(٦) الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي(١/١١).

(٧) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٥/٢٩١).

وشِرْعتهم السمعية"[١]، "ومن أمعن النَّظر في مناهج المتكلمين، يجدها تُثير من الشُّبه ما تعجز معه عن الإقناع؛ لأنَّها تمثل منهجاً شيطانياً، يؤدِّي إلى الفُرقة والاختلاف؛ ولذلك كان مصير أَساطِينِه[٢] الحيرة، والاعتراف بالعجز، وعدم الاهتداء، ورجوع كثيرٍ منهم إلى مذهب السلف، بعد أن أدركوا إفلاس مناهجهم، وتملَّكتهم الحيرة؛ فأعلنوا التوبة، وعضُّوا أصابع النَّدم على ما فات من حياتهم التي قضوها في القيل والقال، الذي يهدم ولا يبني، ويُفسد ولا يُصلح، ويُفرِّق ولا يُجمع"[٣].

لقد قدَّر الله ﷻ أنَّ الإيمان لا ينبني إلا على التسليم المطلق، والانقياد لله ﷻ في كلِّ الأمور؛ ولكن قد يجد الإنسان مسائل لا يستطيع العقل إدراكها، أو لا يستطيع أن يُدرك وجه الحكمة الإلهية فيها، فتكون لديه موضع شبهةٍ؛ ولذلك على الإنسان أن يحذر من تحكيم عقله فيها، فإذا فعل ذلك فسُرعان ما يقوده إلى عدم التسليم لله ﷻ، وحينها يقع في المحذور، فيجب على الإنسان أن يستسلم لله ﷻ في جميع مسائل الدين، ففي الحديث عن النبي ﷺ أنَّه قال:**(إنَّ أخوف ما أخاف عليكم شهوات الغيِّ في بطونكم، وفروجكم، ومُضلَّات الفتن)**[٤]، "والمعرضون عن الطريقة النَّبوية السَّلفية يجتمع فيهم هذا وهذ، إتباع شهوات الغيِّ، ومُضلَّات الفتن؛ فيكون فيهم من الضلال والغيِّ بقدر ما خرجوا عن الطريق الذي بعث الله به رسوله"[٥].

إنَّ الاعتقاد السليم القائم على التسليم والانقياد يُجنِّب الإنسان الوقوع في الشُّبهات، وعلى العكس من ذلك، فإنَّ الاعتقاد القائم على إعمال العقل في مسائل الاعتقاد، وفي المسائل الغيبية لن يعصم الإنسان من أن تضلَّ قدمُه في ظلمات الشُّبهات، وهذا ما حصل مع المخالفين لمنهج السلف، والمُقدِّسين لعقولهم، فكثيراً ما تجد في كلامهم وكتاباتهم الشُّبهات المطروحة ضدَّ النصوص الشرعية، وضدَّ فهم الصحابة والسلف لها، وكثيراً ما تجد الحيرة والشكَّ في سلوكهم، نتيجةً لسيطرة هذه الشبهات والتشكيكات على قلوبهم، ولقد عرضت الشبهات لمن خالف منهج السلف؛ فوقعوا بذلك في فساد الاعتقاد، فضلًا عن فساد المنهج، المُتمثِّل في الوقوع في البدع، فإنَّ أهل البدع هم أهل الشُّبهات، ابتدعوا بدعاً خلطوها بما جاءت به الرسل، وفرَّقوا دينهم وكانوا شيعاً، فكان في كلِّ فريقٍ منهم حقٌّ وباطلٌ، وهم يُكذِّبون بالحق الذي مع الفريق الآخر، ويُصدِّقون بالباطل الذي معهم؛ وبسبب ذلك وقعت الشُّبهة، وهذا حال من يبنون عقيدتهم على الشُّبهات، وينقلون علمهم إلى الناس، فيُحيِّرونهم، ويخلطون في عقولهم بين الحق والباطل، ويفرضون عقولهم وأفكارهم على الناس في مسائل النزاع، كما قال ابن

(١) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية(٥/٢٧١).

(٢) "أَساطِينِه": أصله من سَطَنَ، والمراد: أعلامه. انظر: تاج العروس من جواهر القاموس، للزبيدي(١/١٠٩).

(٣) الاقتصاد في الاعتقاد، لعبد الغني المقدسي، ص٦٥.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، (١٨/٣٣)، رقم(١٩٧٧٢)، والبزار في مسنده (٢٩٢/٩)، رقم(٣٨٤٤)، والطبراني في المعجم الصغير(٣٠٩/١)، رقم(٥١١)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (٢١/١)، رقم(٥٢).

(٥) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١٦٦/١).

تيمية- رحمه الله-: "وهكذا عامَّة ما تنازع فيه الناس يكون مع هؤلاء بعض الحق، وقد تركوا بعضه، كذلك مع الآخرين، ولا يشتبه على النَّاس الباطل المحض؛ بل لا بدَّ أن يُشاب بشيء من الحق"[١].

إنَّ الانحراف العقدي لدى المعتزلة والأشاعرة والعصرانيين في زماننا لم يكن ليتمَّ، لولا تأثُّرهم بالشُّبهات، "فكان المعتزلة لا يرجعون إلى كتابٍ، ولا إلى سنَّةٍ في مسائل الصفات، ولا في أحكامهم على المُخالفين لهم؛ وإنَّما يأخذون ما تُمليه عليهم عقولهم، إضافةً إلى الشُّبهات التي تلقفوها من علماء الكلام"[٢]، أمَّا الأشاعرة فهم كما قال عنهم شيخ الإسلام: "يُوردون الشُّبهات، ولا يستطيعون الردَّ عليها"[٣]، وأمَّا العصرانيون الذين يقولون بنسبية الحقيقة، وأنَّ كلَّ وجهة نظرٍ صحيحةٌ، فما أكثر الشُّبهات والتشكيكات في معتقدهم؛ بل وحتى في أظهر قضايا العقيدة مثل وجود الله ﷻ؛ وذلك لفتنتهم بالعلوم الغربية، وتقديسهم لعقولهم، فجعلوها كمعيارٍ لقبول النصوص الدينية، فوقعوا فيما وقعوا فيه[٤]، ونتيجةً حتميةً لذلك انتشرت البدع والخرافات في المجتمع المسلم؛ فزعزعت العقيدة، وشكَّكت الناس في دينهم[٥].

لقد اهتم القرآن الكريم بأسئلة الناس، ووضع لها أجوبةً وحلولًا، ولم يترك خيراً إلا وحثَّ عليه، ولا شراً، أو مُحدثاً إلا ردَّ عليه، وأبطله، وحذَّر منه، قال مسروق[٦]- رحمه الله-: "ما أحدٌ من أصحاب الأهواء إلَّا في القرآن ما يردُّ عليهم، ولكنَّا لا نهتدي له"[٧].

وقال الإمام الشعبي- رحمه الله-: "ما ابتدع أحدٌ في الإسلام بدعةً إلَّا وفي كتاب الله ﷻ ما يُكذِّبه"[٨].

وقال الإمام أحمد- رحمه الله-: "لو تدبر إنسانٌ القرآن، كان فيه ما يردُّ على كلِّ مبتدعٍ بدعته"[٩]، فلا شكَّ في نجاة المتمسكين به، والمعتصمين بحبله.

---

(١) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٨/٣٧).

(٢) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، لغالب عواجي(١/٢٠٢).

(٣) النبوات، لابن تيمية(٢/٩٣٧).

(٤) انظر: النص القرآني، لطيب تيزيني ص٢٦١، ونقد النص، لعلي حرب، ص٢٠، والفكر الإسلامي نقد واجتهاد، لأركون، ص٢٤٦، وتاريخية الفكر العربي الإسلامي، لأركون، ص١٤٥، والتراث والتجديد، لحسن حنفي، ص١١٢.

(٥) انظر: الانحرافات العقدية والعملية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لعلي الزهراني(١/٢٧١)، (١/٣٧٣)، (١/٤٢٩).

(٦) مسروق بن الأجدع بن مالك الهمداني الوادعي، أبو عائشة، تابعي ثقة، من أهل اليمن، قدم المدينة في أيام أبى بكر ﷺ، وسكن الكوفة، وكان أعلم بالفتيا من شريح، وشريح أبصر منه بالقضاء، توفي سنة: (٦٣هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٧/٢١٥).

(٧) ذم الكلام وأهله، للهروي، ص٦٩.

(٨) السنة، للخلال (٣/٥٤٧)، رقم٩١٤

(٩) المرجع السابق(٣/٤٥٦)، رقم٩١٢.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: "فالقرآن قد دلَّ على جميع المعاني التي تنازع الناس فيها، دقيقها، وجليلها"[١].

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب[٢]- رحمه الله- عن التعامل مع الشُّبهات: "وجوب التسلُّح بالكتاب والسنة؛ لدحض شبهات الأعداء، إذا عرفتَ ذلك، وعرفتَ أنَّ الطريق إلى الله لا بدَّ له من أعداءٍ، قاعدين عليه، أهلُ فصاحةٍ، وعلمٍ، وحُججٍ، فالواجب عليك أن تعلم من دين الله ما يصير سلاحًا لك، تُقاتل به هؤلاء الشياطين...، فجند الله هم الغالبون بالحُجَّة واللسان، كما أنَّهم الغالبون بالسيف والسِّنان، وإنَّما الخوف على المُوحِّد الذي يسلك الطريق، وليس معه سلاحٌ، وقد منَّ الله ﷻ علينا بكتابه الذي جعله تبياناً لكلِّ شيءٍ، وهدىً، ورحمةً، وبشرى للمسلمين، فلا يأتي صاحب باطلٍ بحجةٍ إلا وفي القرآن ما ينقضها، ويُبيِّن بطلانها، كما قال ﷻ: ﴿**وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا**﴾[الفرقان:٣٣]، قال بعض المفسرين: هذه الآية عامَّةٌ في كلِّ حُجةٍ يأتي بها أهل الباطل إلى يوم القيامة"[٣].

وبناءً على ما سبق ذكره، فالشُّبهات من أخطر الأمور المُؤثرِّة في عقائد الناس، ومشاربهم، وأفكارهم، وخير دواءٍ لها هو التسلُّح بسلاح العلم الشرعي، فهو الذي يعصم المسلم من تلبيسات المُلبِّسين، وتشكيكات المُتشكِّكين؛ فليتمسك المسلم بكتاب ربه ﷻ، وسنة نبيه ﷺ، فإذا تمسَّك الإنسان بالكتاب والسنة، كان ذلك عاصماً له من الشُّكوك والشُّبهات، ومُثبِّتًا لقدمه في الإيمان، أمَّا إذا لم يقنع بذلك، وعصفت به الشُّبهات من كلِّ الجهات، فقد ساء توحيده، ونقص إيمانه.

قال الإمام الطحاوي- رحمه الله-: "فإنَّه ما سَلِم في دينه إلَّا من سلَّم لله ﷻ، ولرسوله ﷺ، وردَّ علمَ ما اشتبه عليه إلى عالمه"[٤]، فليحذر المسلم من الشُّبهات وأصحابها، الذين ما فتئوا عن النيل من عقيدة السلف؛ فـ "لا نجاة لنا إلا بإتباع دعاة الصلاح، الذين يدعون إلى منهج السلف الصالح، وإلى إتباع الكتاب والسنة، هؤلاء هم الخير على الأمة"[٥]؛ ولذلك يجب على المسلمين أن يبنوا عقائدهم على التسليم والانقياد، والرضا، وسلامة البصيرة، كما قامت على ذلك عقائد السلف؛ حتى يحافظوا على سلامة عقيدتهم الصحيحة، أمَّا العقائد المبنية على الشُّبهات، وعلى الشكوك، وعلى

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٥/٥٦-٥٧).

(٢) محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي النجدي، نهج منهج السلف الصالح، ودعا إلى التوحيد الخالص، ونبذ البدع، وتحطيم ما علق بالإسلام من أوهام، من مصنفاته: التوحيد، وكشف الشبهات، توفي سنة: (١٢٠٦هـ). انظر: الأعلام، للزركلي(٦/٢٥٧).

(٣) كشف الشبهات، لمحمد بن عبد الوهاب، ص١٣-١٤.

(٤) العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص٤٣.

(٥) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، للفوزان(١/٣٣٦).

أقوال الناس، والتقليد الأعمى، فإنَّها عقائد زائلةٌ، لا تثبت، وهي عرضةٌ للنَّقض، وعرضةٌ للإبطال، فإنَّ فساد الاعتقاد ناشئ من جهة الشبهات(١).

وأمَّا عن انتشار الشهوات والفتن، فهذا ناشئٌ عن اضطراب المفاهيم، وتضييع الثوابت والعقائد، ويظهر هذا جلياً في منهج العقلانيين المعاصرين الذين فرَّطوا في الثوابت والقيود الشرعية، فضيَّعوا مفهوم الولاء والبراء، وتعاونوا مع الكافر المحتل ضدَّ المسلمين، وفتحوا بلاد المسلمين للغزو الفكري من قبل الغرب؛ بل وشاركوا في ذلك، فنقلوا إلى المجتمع المسلم عادات الغرب وسفالاته، وتشبَّهوا بهم في لباسهم وأخلاقهم، ونادوا بسفور المرأة المسلمة، ونزع الحجاب، واستحلُّوا الخمور والمعازف والغناء، وشجَّعوا على الاختلاط بين الجنسين، وعلى الزنا والفجور، وغيرها من الشهوات والفتن الكثيرة التي تسبَّب بها هؤلاء المخالفون لمنهج السلف، المعرضون عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ(٢).

ونتيجةً لانتشار هذه البدع والشُّبهات والشَّهوات، دبَّ الضعف والفرقة والاختلاف في جسد الأمَّة؛ فضعُفت قوَّتها، وكُسرت شوكتها، وتشتَّت شملها، وتسَّلط عليها أعداؤها، بعد أن كانت مُهابة الجانب، يخشاها أعداؤها؛ فأصبحت كالقصعة يجتمع عليها الأَكَلة من كلِّ جانب، يقتسمون خيراتها، وينهبون ثرواتها(٣)، ونتيجةً لذلك حُرمت الأمة من البركة والتوفيق والراحة النفسية والمعنوية.

قال القاضي عياض– رحمه الله–: "المخاصمة والمنازعة مذمومةٌ، وهي سببٌ في العقوبة المعنوية، أي: الحرمان"(٤).

وبذلك: يكون المخالفون لمنهج السلف، قد فتحوا على الناس أبواب الشرِّ والفساد، بإثارة الشبهات والشهوات والفتن، في داءٍ لا يُرجى شفاؤه إلا بالإيمان الراسخ، والعلم الشرعي الصحيح، والجهود الحثيثة من العلماء وطلبة العلم.

---

(١) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية(١/١١٨–١١٩)، وإعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم(١/١٠٦).

(٢) انظر: الاتجاهات العقلانية الحديثة، لناصر العقل، ص٣٧٨–٤١٧، والمدرسة العصرانية، لمحمد الناصر، ص٢٣٣–٢٥١، ص٣١٧–٣٢٢، والانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لعلي الزهراني(١/١٤١–٢٠٠)،(١/٦٠٠)، (٢/١٧٦)، (٢/٢٤٦)،(٢/٣٠٨).

(٣) انظر: : الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لعلي الزهراني(١/٧٣)، (٢/١١١)، (٢/٢٠٩).

(٤) فتح الباري، لابن حجر العسقلاني(١/١١٣).

المطلب الرابع: رواج المذاهب الكلامية والأفكار الفلسفية بين المسلمين

إنَّ دخول المذاهب الكلامية والفلسفية في العالم الإسلامي يُعدُّ من أنماط الغزو الفكري الوافد على ديار المسلمين، ومن النتائج الحتمية لمخالفة منهج السلف الصالح، وقد كان لهذه المذاهب الدور الكبير في التأثير على عقيدة المسلمين، حيث جرّتَ كثيراً من المسلمين إلى دراستها، والعكوف عليها علماً وتعليماً، فأودت بهم إلى الانحراف عن عقيدة السلف؛ "وكلُّ ذلك لأجل أنَّهم خاضوا في علم الكلام والفلسفة؛ وتركوا الاعتماد على الكتاب والسنة، وما كان عليه السلف الصالح"(١)؛ ولذلك جرت عادة السلف على التحذير من النظر في كتب المتكلمين(٢)، فهم يعتقدون بأنَّ المسلمين ليسوا بحاجةٍ إلى تلك الوافدات الغربية، والدخيلة على بلاد الإسلام.

إنَّ ممَّا لا شكَّ فيه "أنَّ منهج علم الكلام يقوم على أسسٍ غريبةٍ عن المنهج الذي كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، وأيَّة محاولةٍ للعودة بالمسلمين إلى الإسلام، لا بدَّ أن تكون أولى مُسلَّماتها، العودة إلى صفاء العقيدة، وتخليصها ممَّا ران عليها من شوائب علم الكلام والفلسفة"(٣)؛ ولذلك: كان من الأصول التي انادى بها السلف، "عدم الخوض في علم الكلام، والفلسفة، والاقتصار في بيان وفهم العقيدة على ما في الكتاب والسنة"(٤)؛ لِما ما في الاشتغال بالكلام والفلسفة من المفاسد، على عقيدة الإنسان، وسلوكه.

وقد تواترت أقوال السلف– رحمهم الله– في ذمِّ الكلام وأهله، فهذا الإمام الشافعي– رحمه الله– يقول: "لأن يلقى اللهَ العبدُ بكلِّ ذنبٍ ما خلا الشرك بالله، خيرٌ من أن يلقاه بشيءٍ من هذه الأهواء"(٥).

وقال أيضاً: "حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد، ويُحملوا على الإبل، ويُطاف بهم في العشائر والقبائل، ويُنادى عليهم: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة، وأقبل على الكلام"(٦)، فإذا كان هذا حكمه فيمن أعرض عن الكتاب والسنة، فكيف حكمه فيمن عارضهما بغيرهما؟!(٧).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله–: "فإذا كان فُحول النظر، وأساطين الفلسفة، الذين بلغوا في الذَّكاء والنَّظر إلى الغاية، وهم ليلهم ونهارهم يكدحون في معرفة هذه العقليات، ثمَّ لم يَصِلوا فيها إلى معقولٍ صريحٍ، يُناقض الكتاب؛ بل إمَّا إلي حيرةٍ وارتيابٍ، وإمَّا إلي اختلافٍ بين الأحزاب،

---

(١) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٨٩١).

(٢) انظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي(١/٢٠١).

(٣) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(١/٥٧).

(٤) المرجع السابق(١/٥٥).

(٥) مناقب الشافعي، للبيهقي(١/٤٦٠)، والحجة في بيان المحجة، لقوام السنة الأصبهاني(١/٢٢٤).

(٦) ذم الكلام وأهله، للهروي(٤/٢٤٦).

(٧) جامع المسائل، لابن تيمية(٣/٢٠٦).

فكيف غير هؤلاء ممَّن لم يبلغ مبلغهم في الذهن والذكاء ومعرفة ما سلكوه من العقليات؟"(١)؛ ولذلك فقد مثَّل علم الكلام السبب الأعظم في اختلاف الأمة وتفرقها، فكلَّما كان الإنسان أكثر إيغالًا في الكلام، كان أبعد عن منهج السلف، وكان أعظم فُرقةً واختلافًا(٢)، وفي ذلك يصرح شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه الله– بقوله: "فليتدبَّر المؤمن العالِم كيف فرَّق هذا الكلام المُحدَث المبتدع بين الأمَّة، وألقى بينها العداوة والبغضاء"(٣).

ولذلك فإنَّ علم الكلام يُمثُّل مصدر خطرٍ يُهدِّد عقيدة كلِّ مسلمٍ؛ لأنَّه مشحونٌ بالفلسفة، والتأويلات الشاذَّة، وصرف الآيات القرآنية عن معانيها الظاهرة، فلا يعود على صاحبه إلا بالمضرَّة والخذلان(٤).

إنَّ "مناهج المتكلمين العقلية، مذمومةٌ في جُملتها من جانب السلف؛ لأنَّها بلغت بهم إلى حدِّ تمجيد العقل، وجعله مهيمناً حتى على النَّص، وما خالفه من نصوصٍ أوَّلوها؛ لتوافق تصوَّر العقل"(٥)، وقد ثبت بطلان علم الكلام بإجماع السلف، وهذه المسألة ممَّا لا يختلف عليها اثنان من أهل الحق، وبالرغم من ذمِّ السلف لعلم الكلام، ومحاربته، والتحذير منه، إلا أنَّه لقيَ انتشاراً واسعاً، وراجت أفكاره شرقًا وغربًا(٦)، ولقد ساهم اعتناق المذاهب الكلامية، والتأثر بها، في تكثير سوادها، ونشرها، وسيادتها في بعض الأحيان، حتى غصَّت بلاد العالم كله بمختلف الطوائف والفرق(٧)؛ بل وأصبح في فترةٍ من الفترات من يذمُّ علم الكلام من السَّلف وأصحاب الحديث موضع سخريةٍ، وهمزٍ، ولمزٍ، وانتقاصٍ؛ بسبب ذلك(٨).

لقد بذل المبتدعة كلَّ جهودهم من أجل نشر المذاهب الكلامية والأفكار الفلسفية بين المسلمسن، حيث حمل التلاميذ المخلصون لمذاهبهم الكلامية، عبء الدعوة إلى مذاهبهم، والعمل على نشرها، فعملوا على نشر أفكارهم، وترويجها، والدفاع عنها(٩)، واتَّخذ علماء الكلام طلابهم وسيلةً في نشر مذاهبهم؛ وفي التأثير على الناس، وذلك من خلال تعليمهم علم الكلام، وتمكينهم منه، ومن ثَم

---

(١) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٦٩).

(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/٥١–٥٢).

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٢/٣٠٦).

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/٣٠٩)، والتعليقات على متن لمعة الاعتقاد، لابن جبرين ص١٨٣. وانظر: منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، لمصطفى حلمي، ص١٠٧.

(٥) الإيمان بين السلف والمتكلمين، لأحمد الغامدي، ص١٠–١١.

(٦) انظر: الانحرافات العقدية والعملية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين، لعلي الزهراني، ص٢٦٢.

(٧) انظر: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، للبشاري، ص٣٢٣–٣٢٤.

(٨) أثر علم الكلام على المنتسبين إليه وموقف أهل السنة والجماعة وكبار المتكلمين منه، لوليد باصمد، ص٩٠.

(٩) انظر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الأشعري، لابن عساكر، ص١١٧–١١٨.

إرسالهم إلى البلدان؛ لتعليم الناس المذهب، ومن ذلك ما ذُكر عن واصل بن عطاء زعيم الاعتزال، أنَّه أنفذ أصحابه إلى بلدانٍ متعددةٍ؛ لنشر مذهبه، وبثِّه بين الناس، وقد كان لتلك البعثات أثرها الكبير في كثيرٍ من الناس، حيث استجابوا لدعوتهم، فتأثَّروا بالاعتزال، ودانوا به ولزموه[1]، ومنهم من صار داعياً له، فكانت هذه البعثات بمثابة رحلاتٍ دعويةٍ للترويج للمذاهب الضالة والأفكار الهدامة، وقد كان أبو الهذيل العلاف ثمرةً من ثمار هذه البعثات[2].

ومن أبرز عوامل انتشار المذاهب الكلامية كذلك، النشاط البالغ في ميدان التصنيف في علم الكلام[3]؛ ولذلك نشط المتكلمون في تأليف الكتب، ولم يقتصر تأليفهم في مجال مُحدَّدٍ؛ بل كان في مجالات متعددةٍ، وخاصةً العقيدة، فأثَّروا فيها، ولقد بلغ نشاط المتكلمين ذروته في التأليف، حتى إنَّنا نجد علم الكلام مُقحماً في الكثير من العلوم الشرعية وغير الشرعية، كأصول الفقه[4]، واللُّغة، والنَّحو[5]، والبلاغة[6]، والتفسير[7]، وكذلك نشط تأليف الكتب في عقيدة المذهب، وهي صورةٌ من صور الدَّعوة إلى المذهب، ونصرته، فلم يكن المعتنقون للمذاهب الكلامية مجرَّد منتسبين؛ بل كانوا دعاةً إلى مذاهبهم الكلامية؛ ولذلك ألَّفوا الكتب العديدة، وتخرَّج على أيديهم عددٌ كبيرٌ من التلاميذ[8].

إنَّ الكتب التي ألَّفها بعض المتكلمين لهي من أعظم المصائب التي ابتُليت بها الأمة؛ فإنَّها لا تفنى بفنائهم؛ بل إنَّها تبقى دليلاً لأتباعهم؛ ولذلك نجد شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- يمدح العائدين من المتكلمين إلى مذهب السلف؛ ولكنَّه لا يغفل عن التراث الخطير الذي خلَّفوه للأمة، حيث قال: "وأمَّا اعتراف المُتكلِّمة فكثيرٌ، قد جمع العلماء فيه شيئاً، وذكروا رجوع أكابرهم عمَّا كانوا يقولونه،

---

(١) انظر: المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، لأحمد المرتضى، ص١٩-٢٠، ومعجم المؤلفين، لعمر رضا(١٣/١٥٩).

(٢) انظر: الملل والنحل، للشهرستاني(١/٤٩).

(٣) انظر: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، لمانع الجهني(١/١٠٤).

(٤) من ذلك: كتاب"العمد"، للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمذاني المعتزلي، وكتاب"البرهان"، للجويني إمام الحرمين.

(٥) كان كثير من النحاة قد سلكوا طريقة المتكلمين في التأليف، وقويت صلتهم بالفلسفة اليونانية، فمن هؤلاء: الزمخشري، الجاحظ، الفراء، القاضي عبد الجبار، وابن جني، وغيرهم. انظر: المدارس النحوية، لشوقي ضيف، ص٢٠-٢٢.

(٦) كان حذاق العلماء الذين أسسوا علوم البلاغة، وبرعوا فيها من المتكلمين أمثال: عبد القاهر الجُرجاني، والرماني، والباقلاني. انظر: الإعجاز البياني للقرآن، لعائشة عبد الرحمن، ص٩٤.

(٧) من ذلك: كتاب: "تنزيه القرآن عن المطاعن" لعبد الجبار الهمذاني، وكتاب: "الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل" للزمخشري، وكتاب: "مفاتح الغيب" للفخر الرازي، انظر: أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، لمساعد آل جعفر، ص٣٣١-٣٣٩، ويُنظر في هذا الباب: كتاب: "المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات"، لمحمد الغراوي.

(٨) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٥٠٢-٥٠٣).

وتوبتهم إمَّا عند الموت، وإمَّا قبل الموت، وهذا من أسباب الرحمة إن شاء الله تعالى في هذه الأمة؛ فإن الله يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، وهذا أصحُّ القولين في قبول توبة الداعي؛ لكنَّ بقاء كلامهم، وكتبهم، وآثارهم، مِحنةٌ عظيمةٌ في الأمَّة، وفتنةٌ عظيمةٌ لمن نظر فيها، ولا حول ولا قوة إلا بالله"[1].

إنَّ علم الكلام قد بان بُطلانه باعترافات أهله المتكلمين أنفسهم، فقد أقرَّ علماء الكلام بما في هذا الفن من الإشكالات، والمسائل المحيِّرات؛ بل إنَّهم شهدوا على اتِّفاق السَّلف على ذمِّ الكلام، واعتبارهم له من الطرق المبتدعة، المذمومة، المخالفة للشرع[2]، وليس أدلَّ على ذلك من أنَّ "غالب أكابر الذين كانوا خاضوا في الفلسفة والكلام انتهى بهم أمرهم إلى الحيرة، وعدم الثقة بما كانوا يُقرِّرون"[3]؛ ولذلك "تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قولٍ إلى قولٍ، وجزماً بالقول في موضعٍ، وجزماً بنقيضه وتكفير قائله في موضعٍ آخر، وهذا دليل عدم اليقين"[4]، "وهكذا كلُّ من أمعن في معرفة هذه الكلاميَّات والفلسفيَّات، التي تُعارَض بها النصوص، من غير معرفةٍ تامةٍ بالنصوص ولوازمها، وكمال المعرفة بما فيها، وبالأقوال التي تنافيها، فإنه لا يصل إلي يقينٍ يطمئنُّ إليه؛ وإنَّما تفيده الشكَّ والحيرة"[5]، وهذا ما يحياه المتكلِّمون، فقد كانوا أكثر الناس شكَّاً عند الموت[6]، وقد صرح أبو حامد الغزالي بذلك، فقال: "أكثر الناس شكَّاً عند الموت أهلُ الكلام"[7].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عن أهل الكلام: "فلا يثبتون على دينٍ واحد، وتغلب عليهم الشُّكوك، وهذه عادة الله فيمن أعرض عن الكتاب والسنة"[8].

وقال ابن أبي العز الحنفي- رحمه الله-: "وتجد أحدَ هؤلاء عند الموت يرجع إلى مذهب العجائز، فيقرُّ بما أقرُّوا به، ويُعرض عن تلك الدقائق المُخالفة لذلك، التي كان يقطع بها ثمَّ تبيَّن له فسادُها، أو لم يتبيَّن له صحَّتها؛ فيكونون في نهاياتهم بمنزلة أتباع أهل العلم، من الصبيان، والنساء، والأعراب"[9]؛ بل "إنَّ تلك العقيدة الفطرية التي للعجائز، خيرٌ من هذه الأباطيل، التي هي من شُعب

(١) الاستقامة، لابن تيمية(١/٧٩-٨٠).

(٢) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(٧/٢٧٤-٢٧٥)، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٨٦٥)، (٢/٨٩٢).

(٣) الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشِّنقيطي في تفسيره أضواء البيان، لمحمود المنياوي(١/١٦٥).

(٤) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/٥٠).

(٥) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٦٤).

(٦) انظر: إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل، لسليمان بن سحمان، ص٥٣.

(٧) نقض المنطق، لابن تيمية، ص٢٦.

(٨) مجموع الفتاوى، لابن تيمية(٤/١٥٧).

(٩) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص٢١٠.

الكفر والنفاق، وهم يجعلونها من باب التحقيق والتدقيق"[١]، وهذه هي نتيجة علم الكلام، وهذه هي نهاياتهم المؤلمة، حيث "استولت عليهم الحيرة، واستوحشوا مع أنفسهم، بعد أن فقدوا الأنس بالله"[٢]، وصاروا يخلطون الأقوال الكلامية ببعضها، ويضربون بعضها ببعض، حتى جلسوا حائرين، فمنهم من وُفِّق لاتِّباع الحق، ومنهم من كان جاهلاً به، فلم يُوفَّق إليه، حيث ماتوا دون أن تُحلَّ عُقدهم وحيرتهم، وتُشفى ممَّا أصابها وأربكها[٣].

إنَّ علم الكلام قد حمل أسباب فشله من داخله، ولقد كانت الحيرة، والندم أعظم شهادةٍ شهدها المتكلمون على علم الكلام، حيث شهدوا بأنفسهم على قبح الكلام، وسوء نهاياته، وفساد ما كانوا عليه من الاعتقاد.

قال ابن الجوزي- رحمه الله-: "وقد نُقل إلينا إقلاع منطقي المتكلمين عمَّا كانوا عليه؛ لِما رأوا من قبح غَوائله"[٤].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عن حيرة المُتكلِّمين وشكِّهم: "ولو جمعتُ ما بلغني في هذا الباب عن أعيان هؤلاء، كفلان، وفلان، لكان شيئاً كثيراً، وما لم يبلغني من حيرتهم وشكِّهم أكثر وأكثر؛ وذلك لأنَّ الهدى هو فيما بعث الله به رسله، فمن أعرض عنه لم يكن مهتدياً، فكيف بمن عارضه بما يُناقضه، وقدَّم مُناقضه عليه؟!"[٥] .

إنَّ هذا الاضطراب الذي وقع فيه المتكلمون جاء بخلاف ما عليه أهل الحقِّ الثابتين على عقيدتهم، فإنَّ "عقيدة أهل السنة والجماعة مبنيةٌ على الدَّليل من كتاب الله ﷻ، وسنة رسوله ﷺ، وما كان عليه صحابته الكرام ﷺ، فهي صافيةٌ نقيةٌ، واضحةٌ جليةٌ، ليس فيها غموضٌ ولا تعقيدٌ، بخلاف غيرهم الذين عوَّلوا على العقول، وتأوَّلوا النقول، وبَنَوا معتقداتهم على علم الكلام المذموم، الذي بيَّن أهله الذين ابتُلوا به ما فيه من أضرار، وندموا على ما حصل منهم من شغل الأوقات فيه من غير أن يظفروا بطائلٍ، ولا أن يصلوا إلى حقٍ، وفي نهاية أمرهم صاروا إلى الحيرة والندم، فمنهم من وُفق لتركه، وإتباع طريقة السلف، وجاء عنهم عيب علم الكلام وذمه"[٦]، ومنهم من لم يُوفَّق إلى اتِّباع طريقة السلف، فبقي حائراً، متوقفاً، شاكَّاً، لا يدري ماذا يعتقد، وبماذا يدين الله ﷻ، فتخلَّى عن سائر الاعتقادات، ودان بمذهب تكافؤ الأدلة، وهذا يعني عنده: "بأنَّه لا يمكن نصر مذهبٍ على مذهب، ولا

---

(١) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية(٤٠٨/١).

(٢) تصحيح المفاهيم في جوانب العقيدة، لمحمد أمان الجامي، ص١٠٣.

(٣) انظر: الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٦٦٦/٢-٦٦٧).

(٤) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص٧٧.

(٥) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١٦٦/١)، وانظر: بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، لابن تيمية(٣٦٦/٢).

(٦) قطف الجني الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لعبد المحسن العباد البدر، ص٣٠.

تغليب مقالةٍ على مقالة"[1]، وأنَّ دلائل كلَّ مقالةٍ عند القائلين بها مكافئةٌ لدلائل سائر المقالات[2]، وهذه من الحالات الخطيرة، والأمراض المُزمنة، لأنَّها تؤدِّي بهؤلاء إلى أنواعٍ من الشُّكوك، التي قد يكون من آثارها زيغ القلوب ولا حول ولا قوة إلا بالله[3]، ومن المُلاحَظ أن القول بتكافؤ الأدلة سمة غالبة على المتكلمين[4].

إنَّ وقوع المتكلمين في الاضطراب، ولجوأهم إلى القول بتكافؤ الأدلَّة، راجعٌ إلى اعتمادهم على المعقُولات، ومعارضة الوحي بآرائهم، والجهل بعقيدة السلف ومنهجهم في الاستدلال.

قال الإمام الأصبهاني– رحمه الله–: "أهل البدعة أخذوا الدِّين من المعقولات والآراء، فأورثهم الافتراق والاختلاف، فإنَّ النَّقل والرواية من الثقات والمتقنين قلَّما يختلف، وإن اختلف في لفظٍ أو كلمةٍ، فذلك اختلافٌ لا يضرُّ الدين، ولا يقدح فيه، وأمَّا دلائل العقل فقلَّما تتفق؛ بل عقلُ كلِّ واحدٍ يُري صاحبه غير ما يرى الآخر"[5].

وقال ابن القيم– رحمه الله–: "إنَّ من عارض بين الوحي والعقل فقد قال بتكافؤ الأدلة؛ لأنَّ العقل الصحيح لا يَكذب، والوحي أصدق منه، وهما دليلان صادقان"[6].

وقال ابن تيمية– رحمه الله–: "ومن صار من أهل الكلام إلى القول بتكافؤ الأدلة والحيرة؛ فإنَّما ذلك لفساد استدلاله؛ إمَّا لتقصيره؛ وإمَّا لفساد دليله"[7].

إنَّ هذا الذي يحصل للمتكلمين والفلاسفة ومن سلك طريقهم من الشكِّ والحيرة والاضطراب، أمرٌ ليس بالمستغرب؛ بل هو ردَّة فعلٍ للابتعاد عن الكتاب والسنة، واعتدادهم بعقولهم التي أدَّت بهم إلى الحيرة إذا ما تناقضت حججهم، ولم يستطيعوا معالجتها.

قال ابن تيمية– رحمه الله–: "ثمَّ من جمع منهم بين هذه الحجج أدَّاه الأمر إلى تكافؤ الأدلة، فيبقى في الحيرة والوقف، أو التناقض، وهو أن يقول هنا قولاً، ويقول هنا قولاً يُناقضه، كما تجد من حال كثيرٍ من هؤلاء المتكلمين والمتفلسفة؛ بل تجد أحدهم يجمع بين النقيضين، أو بين رفع النقيضين،

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم(٥/٧٥).

(٢) انظر: الخصائص، للموصلي(١/٢٠٧).

(٣) انظر: موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٨٩٣).

(٤) انظر: درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/١٦٤)، وموقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٢/٨٩٣).

(٥) الحجة في بيان المحجة، لقوام السنة الأصبهاني(٢/٢٤١)، وقد نسب ابن القيم هذا القول إلى أبي المظفَّر السمعاني، انظر: مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، ص٦٠٠، والانتصار لأصحاب الحديث، لأبي المظفر السمعاني، ص٤٧.

(٦) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم(٣/٩٨٩).

(٧) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية(١/٢٧٥).

والنقيضان اللذان هما الإثبات والنفي، لا يجتمعان، ولا يرتفعان؛ بل هذا يُفيد صاحبه الشكَّ والوقف"[١]؛ "ولهذا اتَّفق كلُّ من خبر مقالة هؤلاء المتفلسفة في العلم الإلهي، أنَّ غالبه ظنونٌ كاذبةٌ، وأقيسةٌ فاسدةٌ، وأنَّ الذي فيه من العلم الحقِّ قليلٌ"[٢].

إنَّه بسبب تعلُّق المبتدعة بعلم بالكلام والفلسفة؛ واشتغالهم بها، ابتعدوا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ[٣]، ولذلك "تجد عقائد المتكلمين تخالف صريح القرآن، وصحيح السنة، مُخالَفةً ظاهرةً، لا يمكن الجمع بينهما، وتخالف اعتقاد المسلمين في الصدر الأول، وما تلاه من أهل القرون الفاضلة المفضَّلة، وما عليه أهل السنة جميعاً بعد ذلك، غير أنَّ بُعد المتكلمين من الحقِّ وقربهم منه بقدر حظِّهم من علم الكلام، فمن زاد علمه به، زاد بعده عن الحق[٤]، والأدهى من ذلك جُرأتُهم على دين الله ﷻ؛ ولذلك فإنَّ السبيل الوحيد للتخلُّص من الاضطراب في الاعتقاد، يتمثَّل في لزوم طريق السلف، والسير على نهجهم؛ لأنَّ التمسك بالكتاب والسنة من أعظم وسائل الثبات على العقيدة، ولا خير في عقيدةٍ لا تستند إليهما، والخوض في علم الكلام قد جرَّ أصحابه إلى مخالفة السلف، وتعكير صفاء مُؤلَّفات العقيدة[٥].

ولقد ذاد السلف عن عقيدتهم الصحيحة، وقارعوا علم الكلام وأهله بالحُجَّة والبرهان، "فكان لعلماء السلف في كلِّ زمنٍ جهودٌ مشكورةٌ في الدفاع عن عقيدة السلف، والردِّ على خصومها"[٦]، حيث دعَوا إلى الالتزام بالعقيدة الصحيحة، وتحرِّي آثار الكتاب والسنة؛ لضمان الهداية، والنجاة من الضلالة، ومن أبرز من كان لكتاباتهم أثرٌ في تقرير عقيدة السَّلف، والردِّ على المتكلمين، شيخ الإسلام ابن تيمية، وتلميذه ابن القيم– رحمهما الله–، حيث كانت "جهود هذين الإمامين تُمثِّل دراسةً تقويميةً لكُتب المتكلمين الأصولية، ونقداً لقواعد المتكلمين ومناهجهم، وبياناً لما لها وعليها، انطلاقاً من منهج السلف الصالح[٧].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية– رحمه اله– عن المُتكلِّمين والفلاسفة: "إذا نظرتَ إليهم بعين القدر، والحيرة مُستولِيةٌ عليهم، والشيطان مُستحوِذٌ عليهم، رحمتهم ورفقت عليهم، أوتوا ذكاءً، وما أوتوا زَكَاءً، وأُعطوا فهوماً، وما أُعطوا علوماً، وأُعطوا سمعاً، وأبصاراً، وأفئدةً، ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ

---

(١) الصفدية، لابن تيمية(٢٩٤/١).

(٢) الاستقامة، لابن تيمية(٧٩/١).

(٣) انظر: أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، لمحمد الخميس، ص١٦٠–١٦١.

(٤) قمع الدجاجلة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، لعبد العزيز الراجحي، ص٣٣٤.

(٥) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق، لمحمد باكريم، ص٧٤، والولاء والبراء في الإسلام من مفاهيم عقيدة السلف، لمحمد القحطاني، ص٩٣.

(٦) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، للمحمود(٩/١).

(٧) معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، لمحمد الجيزاني، ص٣٨.

﴿وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾[الأحقاف:٢٦]، ومن كان عليماً بهذه الأمور، تبيَّن له بذلك حِذْق السلف، وعلمهم، وخبرتهم، حيث حذَّروا من الكلام، ونهوا عنه، وذمُّوا أهله، وعابوهم، واعلم أنَّ من ابتغى الهدى في غير الكتاب والسنة، لم يزدد إلا بعداً"(١).

وقال ابن القيم- رحمه الله-: "ومن فارق الدَّليل ضلَّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنَّة، سوى الكتاب والسنَّة، وكلُّ طريقٍ لم يصحبها دليل القرآن والسنة، فهي من طرق الجحيم، والشيطان الرجيم"(٢).

وقال ابن أبي العز الحنفي- رحمه الله-: "كيف يُرام الوصول إلى علم الأصول بغير اتِّباع ما جاء به الرسول ﷺ؟!"(٣).

ويحسن في الختام أن أورد هذه المناظرة بين العقل والعلم، توالتيُ بيِّن فضل العلم على العقل، حيث يقول الشاعر:

علمُ العليمِ وعقلُ العاقل اختلفا ... من ذا الذي فيهما قد أحرز الشرفا

فالعلم قال أنا أحرزتُ غايتَه ... والعقلُ قال أنا الرحمن بي عُرِفا

فأفصح العلم إفصاحاً وقال له ... بأيِّنا اللهُ في فُرقانه اتّصفا

فأيقن العقلُ أنَّ العلم سيِّدُه ... فقبَّل العقل رأس العلم وانصرفا(٤).

ويتبين ممَّا سبق ذكره أنّ مخالفة منهج السلف في فهم النصوص الدينية له آثار وخيمةٌ على الفرد والمجتمع، من انتشار البدع والشبهات والعلوم الفلسفية والتذبذب في الاعتقاد، وأنَّه لا نجاة إلا بلزوم ما كان عليه سلف الأمة الصالح في علومهم واعتقادهم.

---

(١) الفتوى الحموية الكبرى، لابن تيمية، ص٥٥٥-٥٥٦.

(٢) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، لابن القيم(٢/٤٣٩).

(٣) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، ص٧٦.

(٤) انظر: صفوة التفاسير، للصابوني (١/١٧٦)، وانظر: العقلانيون أفراخ المعتزلة، لعلي الحلبي، ص٢١٥.

الخاتمة

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، الحمد لله أولاً وآخراً، وظاهراً وباطناً، الحمد لله على نعمه وآلائه، الحمد لله على إتمام هذا البحث وإنجازه، وهذا من فضل الله ونعمته عليَّ، وعطائه الذي لا يُعدُّ ولا يُحصى، فلك الحمد يا ربنا على ما يسَّرت ووفقت وأعنت، ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[هود:٨٨]، ثمَّ الصلاةُ والسلامُ على خير خلقه، وخاتم رسله، نبيِّنا محمدٍ ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فقد تحرَّيتُ في بحثي هذا الدِّقة والأمانة العلمية ما استطعتُ إلى ذلك سبيلاً، وتحمَّلتُ عناءً كثيراً، وسهرتُ الليالي الطِّوال، ومع ذلك لا بدَّ أنَّه قد صدرت مني أخطاءٌ لغفلةٍ، وغفوةٍ، وهفوةٍ، وضيق باعٍ في العلم، لا سِيَّما في مثل هذه الرسالة الواسعةِ الأرجاء، البعيدةِ الأطراف، وقد بذلتُ قُصارى جُهدي في هذا البحث؛ إحقاقاً للحقِّ، وإبطالاً للباطل، فما كان فيه من صوابٍ، فبمحض الفضل والتوفيق من الله وحده، وما كان فيه من خطأٍ أو زللٍ أو نسيانٍ فمنِّي ومن الشيطان، والكمال لله وحده، والعصمةُ دُفنت يوم أن دُفن النبي ﷺ، وكلٌّ يُؤخذ من قوله ويُردُّ عليه إلا النبي ﷺ، والخطأُ والنَّقصُ والتقصيرُ من طبيعة البشر، فمهما حقَّق ودقَّق الكاتب في علمه؛ فلا بدَّ من قصورٍ وفتورٍ وخللٍ وزللٍ فيه، وقد قيل: "من صنَّف فقد استهدف"[1]، وما كتب أحدٌ كتاباً في يومه، إلَّا رأى في غده أنَّه لو قدَّم أو أخَّر، أو زاد أو أنقص لكان أفضل، ومن ذا الذي يكون قولُه كلُّه سديداً، وعملُه كلُّه صواباً، إلا المعصوم ﷺ، لا سِيَّما وأنَّ الكاتب والمؤلف تُنازعه أمورٌ، وتعتريه صروفٌ، تُشغل قلبه، وتُشعِّب فكره، من كلامٍ يُنسِّقه، وتأليفٍ يُنظِّمه، ومعنىً يتعلق به ويشرحه، وحجةٍ يُوضِّحُها؛ لذا كان القارئُ والمُتصفِّح أبصرَ بمواضع الخلل من الكاتب[2]؛ ولذلك كلِّه أمتثل في هذا المقام قول الإمام الشافعي- رحمه الله- عندما قال:" قد ألَّفتُ هذه الكتب، ولم آلُ فيها جهداً، ولا بدَّ أن يُوجد فيها الخطأ؛ لأنَّ الله ﷻ يقول:﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾، فما وجدتُّم في كتبي هذه ممَّا يُخالف الكتاب أو السنة فقد رجعتُ عنه"[3].

---

(١) أي: انتصب كالغرض يُرمى بالأقاويل، أو صيَّر نفسه هدفاً لسهام النقد. انظر: تاج العروس، للزبيدي(١/١٢٣)، والمصباح المنير، للفيومي، ص٢٤٣.

(٢) انظر: مقدمة كتاب معجم الأدباء، لياقوت الحموي، ص١١-١٢.

(٣) عُجَالة الإملاء، لأبي إسحاق الناجي(١/١٤١).

وأستأنسُ بقول الربيع بن سليمان[١]- رحمه الله- عندما قال: قرأتُ كتاب الرسالة على الشافعي نيِّفاً وثلاثين مرةً، فما من مرةٍ إلَّا وكان يُصحِّحُه، ثمَّ قال الشافعيُّ في آخره: أبى اللهُ أن يكون كتابٌ صحيحاً غيرَ كتابه"[٢].

وبقول الإمام المزني[٣]- رحمه الله- عندما قال:" قرأتُ كتاب الرسالة على الشافعي ثمانين مرةً، فما من مرةٍ إلَّا وكنَّا نقف على خطأٍ، فقال الشافعي: هيه- أي حسبك واكفف- أبى الله أن يكون كتابٌ صحيحاً غيرَ كتابه"[٤]؛ ولذلك قال الإمام المزني- رحمه الله-: "لَو عُورض كتابٌ سبعين مرّةً، لوُجد فِيهِ خطأٌ، أَبى الله أَن يكون كتابٌ صَحِيحاً غير كِتَابه"[٥].

وما أجمل ما قاله القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني[٦]- رحمه الله-، وقد كتب إلى العماد الأصفهاني[٧] – رحمه الله-مُعتذِراً عن كلامٍ استدركه عليه، فقال: "إنَّه قد وقع لي شيءٌ، وما أدري أوقع لك أم لا؟، وها أنا أخبرُك به، وذلك أنِّي رأيتُ أنَّه لا يكتبُ إنسانٌ كتاباً في يومه، إلَّا قال في غَدِه: لو غُيِّر هذا لكان أحسن، ولو زِيد هذا لكان يُستحسن، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل، ولو تُرِك هذا

---

(١) أبو محمد، الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي، بالولاء، المصري، أبو محمد: صاحب الإمام الشافعيّ وراوي كتبه، وأول من أملى الحديث بجامع ابن طولون، كان مؤذنا، ومولده ووفاته بمصر.انظر: الأعلام، للزركلي(١٥/٣).

(٢) تفسير الإمام الشافعي(٦٣١/٢)، وانظر: عجالة الإملاء، لأبي إسحاق الناجي(١٤٢/١).

(٣) إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل، أبو إبراهيم المزني، صاحب الإمام الشافعيّ، من أهل مصر، كان زاهداً عالماً مجتهداً قوي الحجة، وهو إمام الشافعيين، من كتبه: الجامع الكبير، والجامع الصغير، والمختصر، والترغيب في العلم، نسبته إلى مزينة من مضر، قال الشافعيّ: المزني ناصر مذهبي، وقال في قوة حجته: لو ناظر الشيطان لغلبه!، وتوفي ٢٦٤هـ. انظر: الأعلام، للزركلي(٣٢٩/١)، ووفيات الأعيان، لابن خلكان(٧١/١).

(٤) كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، لعبد العزيز البخاري الحنفي(٤/١).

(٥) موضح أوهام الجمع والتفريق، للخطيب البغدادي(١٤/١).

(٦) عبد الرحيم بن علي بن الحسن بن الحسن بن أحمد البيساني، المعروف بالقاضي الفاضل، كان أبوه يلي قضاء بيسان في فلسطين فنُسب إليها، وهو من أئمة الكتّاب، كان من وزراء السلطان صلاح الدين، ومن مقرّبيه، وُلد بعسقلان، وانتقل إلى الإسكندرية، ثم إلى القاهرة، وتوفي فيها، كان سريع الخاطر في الإنشاء، كثير الرسائل، من مصنفاته: ترسل القاضي الفاضل، ورسائل إنشاء القاضي الفاضل، وتوفي سنة ٥٩٦هـ .انظر: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي(١٠٧٣/١٢)، وانظر:الأعلام، للزركلي(٣٤٦/٣).

(٧) أبو عبد الله، محمد بن صفي الدين، المعروف بابن أخي العزيز، الملقب عماد الدين، الكاتب الأصبهاني، كان فقيهاً شافعي المذهب، وكانت بينه وبين صلاح الدين الأيوبي مودةٌ شديدة، وكان بينه وبين القاضي الفاضل مكاتبات ومحاورات، فمن ذلك ما يحكى عنه أنه لقيه يوماً وهو راكب على فرس، فقال له: سر فلا كبا بك الفرس، فقال له الفاضل: دام علا العماد، وهذا ممَّا يُقرأ مقلوباً وصحيحاً سواء، من تصانيفه: خريدة القصر وجريدة العصر، والبرق الشامي، والفتح القدسي، وتوفي سنة٥٩٧هـ . انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان(١٤٧/٥)، وسير أعلام النبلاء، للذهبي(٤٤٥/١٥)، الوافي بالوفيات، لصلاح الدين الصفدي(١١٩/١).

لكان أجمل، وهذا من أعظم العِبَر، وهو دليلٌ على استيلاء النقص على جملة البشر"[1]؛ ولذلك أسأله سبحانه أن يتجاوز عنَّي، ويغفر لي زلَّتي فيما أخطأتُ أو قصَّرتُ فيه، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة، ويعلم اللهُ ﷻ أنَّ النية عُقدت على بيان الحقِّ وإظهاره، والكشفِ عن ضلال ما يُخالفه، وحسبي أنَّي قد بذلت غاية جهدي، وإن كان جُهدَ المُقل، وأتيتُ فيه بمبلَغِ علمي، واستفرغتُ وُسعي ما استطعت إلى ذلك سبيلاً في إخراج هذا البحث على الوجه الذي رجوتُ فيه السَّداد والصواب من الله ﷻ، وأرجو من كلِّ طالب علمٍ يقرأ بحثي هذا، إن وجد فيه ما يُخالف كتاب الله ﷻ، أو سنة رسوله ﷺ، وما عليه سلف الأم-، أن يُبادلني النصيحة الصَّادقة، وسأكون له شاكراً مُمتنَّاً.

ولقد جرى العُرف العلمي أن تكون في نهاية البحوث العلمية خاتمةٌ، يعرض فيها الباحث أبرز النتائج والتوصيات؛ لإتمام ثمرة البحث من الناحية العلمية، ولدلالة الباحثين من بعده إلى ما توصَّل إليه الباحث من نتائج؛ ليُكملوا دراسة الموضوع من نواحٍ أخرى.

ومن أبرز النتائج التي توصَّل إليها الباحث ما يلي:

أولاً: إنَّ مصطلح السلف له إطلاقان، الأول: إطلاقه على الحقبة التاريخية لصدر هذه الأمة، وهم الصحابة والتابعون وأتباع التابعين، الذين شهد لهم النبي ﷺ بالخيرية، والثاني: إطلاقه على المصطلح المنهجي، وهو الطريقة التي كان عليها الصحابة والتابعون، ومن تبعهم بإحسان، من التمسُّك بالكتاب والسنة ظاهراً وباطناً، قولاً وعملاً، وذلك شاملٌ لما كانوا عليه في الاعتقادات والعبادات والمعاملات والسلوك والأخلاق، فمن التزم بذلك فهو سلفيٌّ، وإن كان من العصور المتأخرة.

ثانياً: إنَّ للسلف الصالح مكانةً عظيمةً، ومنزلةً رفيعةً في نفس كلِّ مسلمٍ صادق، فحبُّهم دينٌ وإيمانٌ، وموافقتهم اتباعٌ واقتفاءٌ، ومخالفتهم ضلالٌ وانحرافٌ، وبغضهم نفاقٌ وطغيان.

ثالثاً: الانتساب إلى السلف ليس كلمةً تُقال، ولا شعاراً يُرفع، والحال يُخالف ذلك؛ بل إنَّ الانتساب الحقيقي يكون من جهة التزام منهجهم في التلقِّي والاستدلال، ومن جهة الاعتقاد باعتقادهم في مسائل الدِّين العلمية والعملية، التي تُميِّزهم عن غيرهم من أهل البدع والأهواء.

رابعاً: فهم السلف للنصوص هو ما علمه وفقهه واستنبطه الصحابة والتابعون وأتباعهم من مجموع النُّصوص الشرعية أو أفرادها، مُراداً لله ﷻ ولرسوله ﷺ، ممَّا يتعلَّق بمسائل الدِّين العلمية والعملية،

(١) اشتُهر عند كثيرٍ من المؤلفين أن ينسبوا هذا الكلام للأصفهاني، ولكن الصواب أنه من كلام القاضي البيساني. انظر: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، لحاجي خليفة(١/١٤).

وهذا الفهم يقتضي إجماعهم، أو إجماع جمهورهم على تلك المسائل، أو انتشار قول آحادهم مع عدم وجود مُخالفٍ لهذا القول.

خامساً: منهج السلف الصالح هو الأعلم والأسلم والأحكم، وفهمهم للنصوص الدينية هو السبيل الوحيد لمعرفة مراد الله ﷻ، ومراد رسوله ﷺ، وهو الحَكَم في فهم دَلالات النصوص، وهو الحاسمُ لمادة الابتداع، المُغلِقُ لبابها، الضابطُ في معرفة السنَّة من البدعة، العاصمُ من الفُرقة والاختلاف، المُورِّثُ للطمأنينة النفسية، القاضي على عوامل الشكِّ والارتياب، هو حجةٌ مُلزمةٌ لمن بعدهم، ثبتت حُجيَّته بالكتاب، والسنة، والإجماع، والمعقول الصحيح.

سادساً: إنَّ أكبر أسباب الابتداع في الدِّين، والانحراف عن المنهج الحق، والوقوع في الغلوِّ والإفراط، أو في الجفاء والتفريط، قديمًا وحديثًا، هو الانحراف في فهم النصوص الشرعية، والتفلُّتُ من فهم السلف لها، وهو الذي تشعَّبت عنه الأمة إلى فرقٍ مختلفة، فالمشكلة في الفهم العليل لا في صحَّة الدليل.

سابعاً: الفهم الصحيح للنصوص الدينية له أسبابٌ لا بدَّ من توفُّرها لتحقُّقه، مثل: تقوى الله، وطلب العلم، وسؤال العلماء، وغيرها، وهناك موانعُ لا بدَّ من انتفائها؛ ليصل النَّاظر في الدَّليل إلى الحق، مثل: الجهل، واتِّباع الهوى، وتقديس العقل، وتقديمه على النص، وغيرها.

ثامناً: إنَّ للسلف الصالح قواعدَ واضحةً في التعامل مع النصوص، من حيث تعظيمها والتصديق بها، وطريقةِ التلقي والاستلال بها، ثمَّ العملِ والتعبد لله ﷻ بمراده منها، مثل الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة واعتقاد حجيتها، والجمع بين الأدلة في الباب الواحد، ورد المتشابه للمحكم، وغيرها.

تاسعاً: إنَّ المدرسة العقلية هي الاتجاهات والمذاهب التي تجعل العقل المصدر الأول في مصادر المعرفة والفكر والدِّين، وتُقدِّمه وتُحَكِّمه على الوحي، فهي مدرسةٌ من حيث وحدة أصولها ومنطلقاتها العامة، ووحدة أهدافها وغاياتها الكبرى، ووحدة منهجها ونشأة أساليبها، وإن اختلفت الأشكال والتعابير في بعض الجزئيات والمرحليات.

عاشراً: العقلانيون صنفان: المتكلمون الأوائل الذين يعتمدون العقليات، ويُقدِّمونها على النقليات، مثل: المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، وهؤلاء هم أصحاب المدرسة العقلية القديمة، وأصحاب الاتجاهات العقلانية الحديثة، وهم من مشارب شتى، بعضها امتدادٌ للمدرسة العقلية القديمة، وبعضها مُقلِّدٌ للاتجاهات الغربية، كالإصلاحيين أتباع الأفغاني ومحمد عبده، والليبراليين العلمانيين، والذين تجمعهم النظرة التأويلية التلفيقية التحريفية للنصوص الدينية.

حادي عشر: إنَّ علم الكلام من العلوم الدخيلة على الأمة المسلمة، نتيجةً لترجمة الكتب اليونانية والهندية والفارسية، والفتنة بها، وقد خالف المتكلمون السلف في عقيدتهم، وفي منهجهم؛ ممَّا ساهم في تشعُّب طوائفهم، وحيرتهم وشكِّهم في حياتهم، وعند موتهم.

ثاني عشر: كانت فرقة المعتزلة أول فرقةٍ كلاميةٍ لها وجودٌ ونفوذٌ ومبادئٌ يجتمعون عليها، فكانت أجرأ الفرق في إعلان آرائها العقلية، ثمَّ تبعتها بعد ذلك باقي الفرق الكلامية.

ثالث عشر: لقد خالف المعتزلة السَّلف في أصولٍ كثيرة، حيث عطَّلوا الصفات الثابتة لله ﷻ، وقالوا بخلق القرآن، ونفوا كثيراً من العقائد كالإيمان بالقدر، والحوض، والميزان، والرؤية لله في الآخرة، وردُّوا السنَّة الصحيحة، وحرَّفوا النُّصوص بما يُوافق أصولهم وأهوائهم، وقدحوا في الصحابة والسلف وانتقصوهم.

رابع عشر: الأشاعرة هم أقرب الفرق الكلامية لأهل السنة؛ ولكن لا يُطلق عليهم أنَّهم أهل السنة والجماعة، أو من أهل السنة بإطلاق؛ لأنَّهم ليسوا على السنَّة المحضة في كثيرٍ من مسائل الاعتقاد، فلا يُقال أنَّهم من أهل السنة إلَّا بقيدٍ، فيقال: هم من أهل السنة في كذا من الأبواب التي لم يخالفوا فيها مذهب أهل السنة، وليسوا من أهل السنة فيما خالفوا فيه أهل السنة من أبواب الاعتقاد.

خامس عشر: تطوَّر مذهب الأشاعرة مع مرور الزمن، وذلك بالقرب من أهل الكلام والاعتزال، والدخول في التصوُّف والفلسفة، فتأثَّروا بآراءٍ كثيرةٍ من اعتقادات الفرق الأخرى، واستقرَّوا على بعض أفكار ومعتقدات الجهمية في الإرجاء والتعطيل، والمعتزلة والفلاسفة في نفي الصفات وتحريف نصوصها، كما تأثَّروا بالجبرية في مسألة القدر، فوقعوا في تناقضاتٍ كثيرةٍ في المواقف والعقائد.

سادس عشر: إنَّ كثيراً من المُخالفين للسلف من كبار أهل الكلام وغيرهم، رجعوا إلى المنهج الحق، وإلى ما فهمه السلف من النُّصوص، بعد أن ذاقوا مرارة البعد عن الحق، وعلموا ضياع أنفسهم حين نأوا عنه، وأقرُّوا على أنفسهم بالخطأ.

سابع عشر: إنَّ المدرسة العصرانية هي اتجاهٌ فكريٌ يسعى إلى التلفيق بين النصوص الدينية وبين الحضارة الغربية والفكر الغربي المعاصر، وذلك بتطويع النصوص، وتأويلها تأويلاً جديداً يتلاءم مع المفاهيم المستقرَّة لدى الغربيين، أو ردِّ النصوص وإنكارها، وهم من مشارب شتى، بعضها امتدادٌ للعقلانية القديمة، وبعضها مُقلِّدٌ للاتجاهات الغربية كالشيوعية والعلمانية، واشتُهروا في عصرنا بعدَّة أسماءٍ، منها: الليبراليون، العقلانيون، العصرانيون، الحداثيون، التنويريون، وغيرها من الأسماء.

ثامن عشر: نشأت الاتجاهات الفكرية المعاصرة في الغرب، كالليبرالية والعلمانية، كردَّة فعلٍ لأخطاءٍ مُتعددةٍ في وقتٍ واحد، كظلم وتسلط الكنيسة ورجال الدِّين، والحَجْر على العقل، وقتل العلماء، والسيطرة على الأراضي من قبل الكنيسة، ممَّا أدَّى إلى ظهور فكرٍ يعتقد بأنَّ سبب تخلُّف أوربا في ذلك الوقت هو التمسُّك بالدين وسيطرة الكنيسة؛ فرفضوا الدِّين جملةً وتفصيلاً.

تاسع عشر: بدأت الاتجاهات الفكرية الغربية تظهر في العالم الإسلامي بشكلٍ واضحٍ بعد اقتناع الغرب الصليبي والإلحادي أنَّ الغزو العسكري وحده لا يكفي في إخراج المسلمين من دينهم، أو تشويه أفكارهم ومعتقداتهم، فاتَّجه إلى سياسة التأثير والتوجيه غير المباشر في العالم الإسلامي عن طريق الغزو الفكري؛ لتحطيم العقيدة والدِّين من الداخل، وبأيدي المسلمين أنفسهم، وسخَّر لذلك كلَّ ما لديه من قوىً وامكاناتٍ علميةٍ وعملية.

عشرون: إنَّ نشر ثقافة تحريف النصوص في العالم الإسلامي هدفٌ من أهداف اليهود؛ لأنَّ اليهود يعلمون كثرة النصوص القرآنية والنبوية الفاضحة لهم ولمخططاتهم، ولا سبيل إلى صرف المسلمين عنها سوى إحلال النزعة العقلانية في التلاعب بالنصوص، فيتغير الموقف من اليهود من خلال تكوين جيلٍ من المُنهزِمين يقبلون بوجود دولة اليهود وكيانهم المسخ في المنطقة.

حادي وعشرون: إنَّ النزعة التحريفية في التعامل مع النصوص، قد تبنَّاها عددٌ من الكُتَّاب المعاصرين، تستَّروا بالتجديد؛ ففتحوا باب الاجتهاد لكلِّ من هبَّ ودبَّ، ونادوا بتقديس العقل، وتحكيمه في كلِّ شيء، وطالبوا بإعادة النظر في جميع الثوابت والمُسلَّمات، وإعادة الصياغة لمبادئ الإسلام بما يُوافق الفكر الغربي، ويتلائم معه.

ثاني وعشرون: إنَّ الليبرالية فكرةٌ غربيةٌ مستوردةٌ، وليست من إنتاج المسلمين، وهي تنفي ارتباطها بالأديان كلِّها، وتعتبر كافة الأديان قيودًا ثقيلةً على الحريات، لا بدَّ من التخلُّص منها، فهي مناقضةٌ للإسلام في أصوله ومنهجه وأخلاقه وقيمه، ومحاولة التوفيق بين الليبرالية والإسلام هي تغييرٌ لمفهوم كلِّ واحدٍ منهما، وتبديلٌ لمعناه يُخرجه عن حقيقته إلى مفهومٍ مُشَوَّهٍ، وصورةٍ غير صحيحةٍ لكلٍّ منهما.

ثالث وعشرون: تميَّز منهج العقلانيين المعاصرين في التعامل مع النصوص، بتتبع الآراء الشاذة، والأقوال الضعيفة، وتشويه النصوص بكلِّ وسائل التحريف والتأويل، والهدف عندهم هدم القديم أكثر من بناء أيِّ جديدٍ؛ ولذلك لجأوا إلى تزوير التاريخ الإسلامي، ومجَّدوا الشخصيات والأفكار المنحرفة، ولجأوا لتحريف الإسلام؛ كي يُساير الحضارة الغربية فكراً، وتطبيقاً، وانحرافاً فكرياً وسلوكياً.

رابع وعشرون: لقد كان للالتزام بمنهج السلف آثارٌ نافعةٌ، وثمراتٌ يانعةٌ، شملت الفرد والمجتمع، مثل وحدة الصفِّ والكلمة، والسلامة من الشُّبهات والبدع، وغيرها، كما كان لمخالفة منهج السلف آثارٌ

سلبيةٌ، انعكست على الفرد والمجتمع بأسره، كردِّ النَّص الشرعي وتعطيله، وإحداث الفُرقة والخلاف، ونشر البدع والمذاهب الكلامية والفلسفية، وغيرها.

خامس وعشرون: إنَّ الأمَّة الإسلامية لا يُمكن أن تخرج من أزمتها الحالية، إلَّا بالعودة الصادقة إلى الكتاب والسنَّة، والالتزام بمنهج وفهم السلف الصالح، بعيداً عن آراء الفرق الضالة، وذلك بتربية الأجيال عليه، والتكاتف بين فئات الأمَّة في تطبيقه.

وأمَّا التوصيات والمُقترحات التي توصَّل إليها الباحث، فهي كالتالي:

أولاً: أوصي نفسي وإخواني بتقوى الله ﷻ، ولزوم طاعته، والاعتصام بحبل الله المتين، واتِّباع منهج السلف– رحمهم الله–، ونبذ الفُرقة والاختلاف، وكثرة الدعاء بالسلامة من الفتن، ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ ﴾[آل عمران:٨].

ثانياً: الالتفاف حول العلماء الربانيين، والأئمة الأتقياء الصالحين، علماء أهل السنة والجماعة، وترسيخ الحقِّ في النفوس بطلب العلم الشرعي، والسماع والقراءة لأهله الراسخين فيه، والقراءة في سير العلماء العاملين، والاطلاع على حرصهم الشديد على العلم والعمل، ونهيهم عن الجدل.

ثالثاً: عقد دوراتٍ علميةٍ عمليةٍ لخطباء وأئمة المساجد والدعاة، يُبيَّن لهم فيها أهمُّ ما يجب على المسلم اتخاذه تجاه الفتن المعاصرة، مع بيان منهج أهل السنة والجماعة، بغية أن يُبَيِّن الدعاة والخطباء لعامة الناس ما أخذوه واستفادوه من تلك الدورات.

رابعاً: عقد الأيام الدراسية والمؤتمرات العلمية التي تُوضِّح منهج السلف بصفائه ونقائه، والردُّ على المخالفين، وإقامةُ برامجَ إعلاميةٍ دوريةٍ توعويةٍ يُشرف عليها علماء متخصصون، تُرشد الناس إلى الطريق الصحيح، وتفعيل دور الصحف الصادرة يوميّاً، والإذاعات المسموعة والمرئية في ذلك.

خامساً: الحذر من الانسياق خلف المفتونين بالفرق الضَّالة، والمعجبين بالغرب وحضارته المادية من المفكرين المعاصرين، والابتعاد والنأي عن القراءة لكتاباتهم، أو متابعة نشاطاتهم؛ لئلَّا تعلق شبهاتهم بالقلوب فتفتنها.

سادساً: العمل على نشر كتب السلف، وآثارهم العلمية في مختلف المجالات، من قِبل مراكز البحوث العلمية، ودور النشر، فذلك من أقوى الأسباب الداعية إلى فهم المنهج السلفي وإبرازه وإيضاحه، وقطع الطريق على الخصوم المُلَبِّسين.

سابعاً: ضرورة استثمار شبكة المعلومات العالمية(الانترنت)، وإقامة رابطةٍ للتنسيق بين المواقع الإسلامية، وتبنِّي كلِّ موقعٍ مجموعةً من طلبة العلم المُتخصِّصين؛ لمناقشة ورصد جانبٍ من الأفكار

المعاصرة، والردَّ عليها، والعمل على إيجاد هيئاتٍ شرعيةٍ، ولجانٍ توعويةٍ؛ لمتابعة ما يغزو المجتمع السُّني من الأفكار الهدَّامة؛ لتبصير الناس، وإرشادهم، ودعوتهم إلى لزوم طريق السلف.

ثامناً: إنشاء مراكز للبحوث والدراسات الفكرية والثقافية المتخصِّصة؛ لتقديم الأبحاث والتقارير حول القضايا الفكرية المعاصرة، ووضع الحلول المقترحة لمواجهتها، ووضع خطةٍ تربويةٍ إسلاميةٍ شاملةٍ في المدارس والجامعات، وشبكات المعلومات، وتأهيل القائمين على تنفيذها تأهيلاً يستجيب لمقتضيات العصر، مع الحفاظ على مقاصد الشريعة الغراء.

تاسعاً: توجيه طلبة الدراسات العليا من أصحاب التخصُّصات الشرعية إلى اختيار موضوعات رسائلهم الجامعية في دراسة الأفكار والمذاهب وأصحاب الاتجاهات الفكرية المعاصرة، وتحذير الأمة من خطرهم، ممَّا يُسهم في نشر الحقائق، والردِّ الجاد على آرائهم ومزاعمهم.

عاشراً: أن يقوم الباحثون والمُتخصِّصون في قسم العقيدة، بإكمال موضوع هذا البحث، وتطبيق الدراسة على باقي الفرق التي لم تتم دراستها في هذا البحث.

حادي عشر: توسيع مجال الحوار المنهجي الإيجابي مع حملة هذه الأفكار، وتوضيح الحقِّ، وإزالة سوء الفهم الحاصل، فإنَّ بعض هؤلاء لديهم مفاهيم خاطئةٌ تزول مع المناقشة والحوار البنَّاء.

وبعد كل هذا لَعلِّى أكون قد طوَّفتُ بالقارئ الكريم فى نواحٍ شتَّى خلال هذا البحث، وأرجو أن لا أكون قد أسأمتُ القارئ من الطول في عرض الموضوع، دعانى إليه ضرورة البحث، ودفعنى إليه رغبة الاستيفاء والاستقصاء لكلِّ منهجٍ، وفي اعتقادى رغم هذا الطول، أنَّ فى هذا البحث اختصاراً كثيراً؛ إذ أنَّ كلِّ موضوعٍ من موضوعاته يصلحُ لأن يكون كتاباً وحده، وما أجمل ما ذكره الزركشي– رحمه الله– عندما قال: "واعلم أنَّه ما من نوعٍ من هذه الأنواع إلَّا ولو أراد الإنسان استقصائه لاستفرغ عمره، ثمَّ لم يُحكم أمره؛ ولكن اقتصرنا من كلِّ نوعٍ على أصوله، والرمز إلى بعض فُصوله، فإنَّ الصناعة طويلةٌ، والعمر قصير"(١).

فهذا ما يسَّره الله لى، وأعاننى عليه، وربَّما يستغرب القارئ خلال قراءة هذا البحث من جُرأة المخالفين لمنهج السلف في ردِّ النُّصوص وتأويلها، وله الحق في الاستغراب والدهشة، فقد عانيتُ طويلاً خلال قراءتي وإعدادي لهذا البحث، بسبب ظلمة البدعة التي وقع فيها هؤلاء المخالفون لمنهج السلف، وكنتُ أُصاب بالدهشة كلَّما وقفتُ على مصادمةٍ واضحةٍ للنُّصوص من قبل هؤلاء المخالفين.

---

(١) البرهان في علوم القرآن، للزركشي(١/١٢).

وختاماً: أرجو أن يكون هذا البحث إسهاماً في الجهاد في سبيل الله، وخدمةِ دينه، والذبِّ عن شريعته، وأعتذرُ عن كلِّ ما فيه من ضعفٍ وتقصير، فإنَّ الموضوع لا يزال بحاجةٍ إلى من هم أقدرُ منِّي من أساتذتنا وعلمائنا، والأمر بحاجةٍ إلى المزيد من الجهد والجهاد، وأسأل الله العلي القدير أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه الكريم، وأن يتقبَّله منِّي، وأن يجعل ذلك في ميزان حسناتي، وحسنات كلِّ من ساهم في إنجاح هذا العمل، وأن ينفعني به والمسلمين، وأسأله سبحانه أن يهدينا لمنهج الكتاب والسنة، منهج السلف الصالح، وأن يُثبِّتنا عليه حتى نلقاه، إنَّه ولي ذلك والقادر عليه، اللهم آمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، والله أعلم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلِّم.

تمَّ بحمد الله الانتهاء من كتابة الرسالة: فجر يوم الإثنين، ٧/ شعبان/ ١٤٣٦هـ، الموافق: ٢٠١٥/٥/٢٥م، في مدينة بيت حانون-حرسها الله- شمال قطاع غزة.

وتمَّ بحمد الانتهاء من المراجعة الأولى للرسالة: ظهر يوم الثلاثاء، ٨/ ذو الحجة/١٤٣٦هـ

الموافق:٢٠١٥/٩/٢٢م، في جوار بيت الله الحرام بمكة المكرمة- شرَّفها الله عز وجل-.

وتمَّ بحمد الله الانتهاء من تعديل الرسالة بعد مناقشتها من قبل اللجنة المُشكَّلة من الجامعة، عصر يوم الجمعة، ٣/جمادى الأول/١٤٣٧هـ، الموافق٢٠١٦/٢/١٢م، في مدينة بيت حانون- حرسها الله- شمال قطاع غزة- فلسطين.

الباحث

عبد الرحمن حمد

الفهارس العامة

أولًا: فهرس الآيات القرآنية.

ثانيًا: فهرس الأحاديث النبوية.

ثالثًا: فهرس الأعلام المترجم لهم.

رابعًا: فهرس المصادر والمراجع.

خامسًا: فهرس الموضوعات.

أولًا: فهرس الآيات القرآنية

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِينًا﴾	المائدة	٣	٢٠٧، ٤٧٣، ٥١١، ٦٠٤
﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾	لقمان	١٤	ت
﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾	الأعراف	٢٠١	٦٠٦
﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾	مريم	٩٦	٦٨
﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾	الأنعام	١٥٩	٨١
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾	النساء	٥٦	٣٩٠
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾	البينة	٦	٣٩٧
﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾	الأنفال	٣٦	٥٦٨
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾	النساء	١٠	١٠
﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾	فصلت	٤٠	٢٢٩
﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾	فاطر	٦	١٧٣
﴿إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾	لقمان	١٨	١٤
﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾	النساء	٤٨	٢٩٣
﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	يوسف	٥٣	١٧١
﴿إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ﴾	النساء	١٧٦	١٢

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿بَلْ رَفَعَهُ اللهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾	النساء	١٥٨	٣٤٢
﴿بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾	البقرة	٨١	٢٧١
﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾	المسد	١–٣	٢٤٥
﴿ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾	التوبة	١٢٧	٢٨٦
﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾	فاطر	٣٢	٧٠
﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾	الجاثية	١٨	١٥٧
﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	الواقعة	٢٤	٣٣٦
﴿جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾	السجدة	١٧	٢٧١
﴿خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾	البقرة	٧	٢٨٦
﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾	النساء	١	٥٤١
﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الكَرِيمُ﴾	الدخان	٤٩	١٣٧
﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾	الحج	٣٢	٧١
﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾	الأنعام	١٠٢	٢٦٨
﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الوَهَّابُ﴾	آل عمران	٨	٦٢٨
﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾	النساء	١٦٥	٧٩
﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ﴾	الأعراف	١٤٦	١٦٩
﴿ظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ وَالبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾	الروم	٤١	١٦٠
﴿عَفَا اللهُ عَمَّا سَلَفَ﴾	المائدة	٩٥	٢٥
﴿فَإِذَا قَرَأْتَ القُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾	النحل	٩٨	١٧٢

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾	النحل	٤٣	١٢٧
﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾	الأنبياء	٧	١٩٠
﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾	الزخرف	٥٤	٨٦
﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾	الحشر	٢	١٨٣
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾	الروم	٣٠	٨٦
﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾	الأعراف	١٥٧	٢٩٥
﴿فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾	البقرة	١٣٧	٥٤,٧٨، ١٤٩
﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾	القصص	٥٠	١٢٠
﴿فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾	النساء	٣	١٦٦، ٥١٢
﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾	الحج	٤٦	٥٦٣
﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾	آل عمران	١٥٩	١١٧، ٤٦٥
﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾	مريم	٥٩	٢٧
﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾	الأنبياء	٧٩	٣، ١٢٥
﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا﴾	هود	٢٧	٢٥٢
﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾	الإسراء	٢٣	١٠
﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾	النساء	٦٥	١٦٤، ٥١١، ٥٤٤

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾	النور	٦٣	٧٤
﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾	الأحقاف	٢٦	٦١٨
﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾	المدثر	٤٨	٢٢٤، ٢٧٢
﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾	طه	١٢٣	١٧٥
﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾	البقرة	١٧٨	٢٧٥
﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾	البقرة	١٨٤	١٠
﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾	الكهف	١١٠	٩٦
﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾	البقرة	١٩٦	٩
﴿فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾	الأنعام	١٢٥	٦٧
﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾	البقرة	٢٥٦	٦٣٠، ٥٧٦
﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾	ص	٧٦	٢٥١
﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾	طه	٢٥-٢٨	٩٣
﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾	البقرة	٣٢	٩٢
﴿قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللهُ﴾	البقرة	١٤٠	٢٦٧
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾	آل عمران	٣١	٦٨

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾	النور	٣٠	٨٩
﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ﴾	ص	٨٦	٢٢٢
﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾	يوسف	١٠٨	٦٠٦
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾	آل عمران	٦٤	٣٧٥، ٣٨٤
﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾	الكهف	٥	٤٠١
﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ﴾	هود	١	٢١٩
﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾	ص	٢٩	٢٤٨
﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾	فصلت	٣	١٦٥
﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾	البقرة	٢١٦	١٣٩
﴿كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا﴾	الأعراف	٣٨	٤٣٩
﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ﴾	المجادلة	٢٢	٥٥٠
﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾	الأنعام	١٠٣	٢٩١
﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾	آل عمران	٢٨	٥٥٠
﴿لَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾	البقرة	٢٨٦	٣٣٧
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾	الحديد	٢٥	١٣٦
﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾	المائدة	٧٣	٣٩٧
﴿لَقَدْ مَنَّ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾	آل عمران	١٦٤	٦٣

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾	البقرة	٤٣	١٨
﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾	محمد	١٧	٧٥، ١١٢
﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾	الحشر	١٠	٤٠
﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾	النور	٤	١١
﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾	التوبة	١٠٠	٣١، ٦٠
﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللهِ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾	المائدة	٣٨	٥٠٧، ٥٤١
﴿وَالفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾	الفجر	١–٢	٢٢٨
﴿وَاللهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾	الصافات	٩٦	٢٦٨
﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾	البقرة	٢٢٨	٢١٨
﴿وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾	البقرة	١٦٣	٣١٧
﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾	فصلت	٣٦	١٧٢
﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾	الشورى	٣٨	٤٦٥
﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾	الحجرات	٩	٢٧٥
﴿وَإِنْ كُنَّ أُولَاتِ حَمْلٍ فَأَنْفِقُوا عَلَيْهِنَّ حَتَّى يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾	الطلاق	٦	١١
﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾	الأنعام	١٥٣	ج
﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾	الأعراف	١٢٧	٣٤٢

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾	النحل	٤٤	١٣٠
﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾	البقرة	١٩٥	١٣٥
﴿وَأُولَاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾	الطلاق	٤	٢١٨
﴿وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾	لقمان	١٠	٣٨٩
﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا العَالِمُونَ﴾	العنكبوت	٤٣	٢٤٨
﴿وَتِلْكَ الجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾	الزخرف	٧٢	٢٧١
﴿وَجَادَلُوا بِالبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الحَقَّ﴾	غافر	٥	٢٥٢، ٥٩٦
﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾	القيامة	٢٢-٢٣	٢٨٦
﴿وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾	النساء	٢٣	١٤
﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾	النساء	١٦٤	٢٨٢، ٢٨٦، ٥٩١
﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ﴾	البقرة	٢٥٥	٢٨٢
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾	الفرقان	٦٣	١٥٣
﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾	يوسف	٧٦	١١٤
﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾	الذاريات	٢١	٦٩
﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا﴾	الفرقان	٣٢	١٠٤
﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا المَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾	القصص	٣٨	٣٤٢
﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾	الملك	١٠	٢٣٠، ٢٤٣،

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
			٢٤٩
﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللهَ جَامِعُ المُنَافِقِينَ وَالكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾	النساء	١٤٠	٥٨٠
﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾	الإسراء	١٠٦	١٠٤
﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالمُؤْمِنُونَ﴾	التوبة	١٠٥	٣٣٦
﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾	المؤمنون	٩٧	١٧٢
﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾	البقرة	١٤٣	٢٣٣
﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الفَجْرِ﴾	البقرة	١٨٧	١١
﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾	النجم	٢٦	٢٧٤
﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾	البقرة	١٦٨-١٦٩	١٧٣
﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ فَيَسُبُّوا اللهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾	الأنعام	١٠٨	١٤١
﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ﴾	البقرة	٤١	٥٤٣
﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللهُ﴾	البقرة	٢٢٢	٩
﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالبَصَرَ وَالفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾	الإسراء	٣٦	٢١١
﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى البِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾	النور	٣٣	١٤
﴿وَلَا تَلْبِسُوا الحَقَّ بِالبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾	البقرة	٤٢	٢٨٨
﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ القَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾	النساء	١٠٤	٥٥٤
﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾	الفرقان	٣٣	٥٨٩،

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
			٦١٠
﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾	البقرة	٢١٧	٤٦٨
﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾	الأنبياء	٢٨	٢٧٣
﴿وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾	البقرة	٢٥٥	٢٨٣، ٣١٨
﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾	آل عمران	١٠٤	٢٧٦
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾	العنكبوت	١٤	٣٨٢
﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾	النحل	٣٦	٤٩١
﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾	البقرة	٦٥	٤٣١
﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾	النساء	١٣١	٨٨
﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾	القمر	١٧	٤١٨، ٤٢٠
﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾	آل عمران	٧٩	١٠٤
﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾	المنافقون	٨	٦٤,٧٧
﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾	البقرة	١١٥	٢٨٣
﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾	آل عمران	٩٧	٣٣١
﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ	الأعراف	١٤٣	٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤، ٥٩٢

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾			
﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾	البقرة	١٢٠	٣٧٥، ٤٦٨
﴿وَلَنْ يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾	البقرة	٩٥	٢٨٤
﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾	المؤمنون	٧١	٥٤٢
﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾	الأعراف	٩٦	٧٧
﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾	النساء	٨٣	٢٢٣
﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾	محمد	٣٠	٥٥٦
﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ﴾	النور	٣١	٥٠٧، ٥٤١
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾	التوبة	٦٥-٦٦	٢٥٣، ٤٩٦، ٥١٨,٥٧٩
﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾	العنكبوت	٦١	٣١٧
﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾	الحشر	٧	١٧٩
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾	إبراهيم	٤	٢٢٥
﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾	الأنبياء	٢٥	٣١٧، ٤٩١
﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾	الشورى	٣٠	١٦٠
﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾	يوسف	١٧	٣٢٢

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾	الإنسان	٣٠	٢٢٤
﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِالله عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾	هود	٨٨	٩٣
﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾	الذاريات	٥٦	٤٠
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾	الأحزاب	٣٦	٥٤٤، ٥٧٥
﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾	الإسراء	١٥	٧٩
﴿وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحَقِّ شَيْئًا﴾	النجم	٢٨	٢١٢
﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾	البقرة	١٧١	٢٤٤
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾	الحج	٨	١٢١
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾	الحج	٣–٤	١٢١
﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾	الروم	٢٢	١٢٥
﴿وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾	النساء	٢٥	١٢
﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾	آل عمران	٨٥	٢٠، ٣٧٥، ٣٩٧، ٤٠٩، ٤٤٦، ٥٤٣,٥٧٥
﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا، وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾	الطلاق	٢–٣	٨٩
﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾	الطلاق	٣	٩٢
﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ المَوْتُ فَقَدْ	النساء	١٠٠	٢٧٠

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللهِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾			
﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾	المؤمنون	١١٧	١٤
﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾	النساء	١١٥	٥٣، ١٨١، ٤٣٨، ٥٤٣
﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾	النساء	٩٣	٢٢٨، ٢٩٣
﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾	الأنعام	٢٥	٤٠٤
﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾	الزخرف	٧٧	٢٨٤
﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾	الأنعام	١٨	٣٢٠
﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾	مريم	٧٦	١١٢
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾	الإسراء	٨٥	٦٩، ٢٥٠
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾	آل عمران	٧١	٢٨٨
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾	الأحزاب	٤٩	٢١٨
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾	النساء	٥٩	١١٦، ١٦٣، ٢٠٧
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾	الأنفال	٢٩	٦٨,٨٨
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾	الحجرات	٦	١١,١٣ ٢١١

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾	البقرة	٢٥٤	٢٧٣
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾	المائدة	٩٠	٥٧٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾	المائدة	١٠٥	٢١٦
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ...﴾	النساء	١٣٥	١١٤، ١١٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾	المائدة	٨	١١٤
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾	آل عمران	١٣٠	١٤، ٣٧٣، ٤٤١
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾	المائدة	٥١	٥٥٠
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾	الممتحنة	١	٥٤٩
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾	الحجرات	١	٧٣، ٤١٤
﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾	المائدة	٦٧	٢١١
﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾	ص	٢٦	١١٩، ١٥٧
﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾	النحل	٥٠	٣٤٢
﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾	الزمر	٦	٢٢٨
﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا	المجادلة	١١	٦٩

الآية	السورة	رقم الآية	الصفحة
تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾			
﴿يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾	النساء	٢٦–٢٨	٢٦٩، ٥٤٤
﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الكَافِرُونَ﴾	الصف	٨	٣٩٨، ٥٠٤
﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾	البقرة	٢١٩	١٤٠، ٥٢٥
﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	النور	٣٥	١١٧
﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الأَلْبَابِ﴾	البقرة	٢٦٩	١٢٦
﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾	النساء	١١	٥١٢
﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾	آل عمران	١٠٦	٧١، ٦٠٥
﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾	الشعراء	٨٨–٨٩	٩١
﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ﴾	الإسراء	٧١	١٣١
﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾	القلم	٤٢	٣٩٣

ثانيًا: فهرس الأحاديث النبوية

الرقم التسلسلي	طرف الحديث	أخرجه	الصفحة
١.	أتدرون ما الكوثر؟	مسلم	٤٣٧
٢.	اتَّقوا الله ربكم، وصلُّوا خمسكم، وصوموا شهركم،	الترمذي	٨٨
٣.	اتقوا فِراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله	الترمذي	١١٨
٤.	أتى النبي صلى الله عليه وسلم المقبرة، فسلَّم على المقبرة	مسلم	٧٠
٥.	أتيتُ على نهرٍ حافتاه قِباب اللؤلؤ مُجوفاً،	البخاري	٤٣٧
٦.	إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا	الترمذي	٩٤، ١٠٢
٧.	إذا نهيتكم عن شيءٍ فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمرٍ فأتوا منه ما استطعتم	البخاري ومسلم	١٤٠
٨.	أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكَّه ففقأ عينه،	مسلم	٣٩٣
٩.	أشهد أن لا إله إلا الله وأنِّي رسول الله، لا يلقى الله بهما عبدٌ غير شاكٍّ فيهما إلا دخل الجنة	مسلم	٥٧٨
١٠.	ألا إني أوتيتُ الكتابَ ومثلَه معه	أبو داود	١٧٩، ٤٠٠، ٤٣٤
١١.	ألا لا يخلونَّ رجلٌ بامرأةٍ إلا كان ثالثهما الشيطان	الترمذي	٥٦٦
١٢.	ألا وإنَّ في الجسد مضغةً، إذا صَلُحت صَلُح الجسد كلُّه، وإذا فسدت فسد الجسد كلُّه، ألا وهي القلب	البخاري ومسلم	٩٠
١٣.	إنَّ أبغض الرجال إلى الله تعالى الألَدُّ الخَصِم	البخاري ومسلم	١٢٢
١٤.	إنَّ أحدَكم يُجمع خلقُه في بطن أمِّه أربعين يوماً، ثم يكون علقةً مثلَ	البخاري	٢٨٧،

الرقم التسلسلي	طرف الحديث	أخرجه	الصفحة
	ذلك،		٥٩٤
١٥.	إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كلَّ منافقٍ عليم اللسان	أحمد	٥٥٦
١٦.	إنَّ الشيطان قد أَيِسَ أن يعبدَه المصلون في جزيرة العرب، ولكن في التحريش بينهم	مسلم	١٢٢، ١٧٢
١٧.	إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم	البخاري	١٧١
١٨.	إنَّ العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه	ابن ماجه	١٥٩
١٩.	إنَّ العلماء ورثة الأنبياء	أبو داود	٩٤
٢٠.	إنَّ الله أوحى إليَّ أنْ تواضعوا؛	مسلم	١١٣
٢١.	إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم	البخاري	٣٢٥
٢٢.	إنَّ الله حجب التوبة عن كلِّ صاحب بدعةٍ حتى يدع بدعته	الطبراني	٧٨
٢٣.	إنَّ الله رفيقٌ يحب الرفق،	مسلم	١١٧
٢٤.	إنَّ الله لا يجمع أمتي، أو قال: أمَّة محمدٍ صلى الله عليه وسلم على ضلالةٍ، ويدُ الله مع الجماعة	الترمذي	٦١، ١٨١، ٤٣٨
٢٥.	إنَّ الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء،	البخاري ومسلم	١٠٧
٢٦.	إنَّ الله لا ينظر إلى صُوَركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم	مسلم	٩٠
٢٧.	إنَّ الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عربهم وعجمهم،	مسلم	٢٥٢
٢٨.	إنَّ الله يبعث على رأس كلِّ مائة سنةٍ لهذه الأمة من يُجدِّد لها دينها	أبو داود	٤٦٦
٢٩.	إن الله يُحدث من أمره ما يشاء، وإن ممَّا أحدث: أن لا تكلَّموا في الصلاة	البخاري	٣٢٥

الرقم التسلسلي	طرف الحديث	أخرجه	الصفحة
.٣٠	إنَّ النَّاس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمَّهم الله بعقاب	أبو داود	٢١٦
.٣١	إنَّ بني إسرائيل تفرقتْ على ثنتين وسبعين ملةً،	الترمذي	١٨٩,٣٠
.٣٢	أن تُؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر	مسلم	٢٩٦
.٣٣	أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأكل بثلاث أصابع	مسلم	١٤٣
.٣٤	إنَّ شرَّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة	أبو داود	١١٧
.٣٥	إنَّ لله عباداً يعرفون الناس بالتوسُّم	الطبراني	١١٨
.٣٦	إنَّ مما أخشى عليكم شهواتِ الغيِّ في بطونكم وفروجكم ومضلاتِ الهوى	أحمد	١٥٨، ٦٠٨
.٣٧	إنَّ منكم من يقاتل على تأويل القرآن كما قاتلتُ على تنزيله	أحمد	ج
.٣٨	إن هذا الدين متينٌ، فأوغل فيه برفق،	البيهقي	١٠٦
.٣٩	إنَّ هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس	مسلم	٣٢٥
.٤٠	أنا زعيمٌ ببيتٍ في رَبَضِ الجنة لمن ترك المِراء، وإن كان مُحقاً	أبو داود	١٢٢
.٤١	أنتم أعلم بأمر دنياكم	البخاري	١٣٥
.٤٢	إنَّك تقدُم علي قومٍ أهلَ كتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله،	البخاري	٢١٢
.٤٣	إنَّكم سترون ربَّكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضامون في رؤيته	البخاري	٢٨٨، ٥٩٤
.٤٤	إنَّما الأعمال بالنيات، وإنَّما لكلِّ امرئٍ ما نوى،	البخاري	٩٦، ٢١٢
.٤٥	إنَّما ذلك عرقٌ فانظري إذا أتى قُرؤُكِ فلا تصلِّي،	أبو داود	٢١٨

الرقم التسلسلي	طرف الحديث	أخرجه	الصفحة
٤٦.	إنها ستكون فتن، قالوا: فكيف لنا يا رسول الله؟ أو كيف نصنع؟ قال:ترجعون إلى أمركم الأول	الطبراني	٥٦
٤٧.	إني خلقتُ عبادي حنفاء، فاجتالتهم الشياطين عن دينهم	مسلم	٨٧، ١٧١، ٤٩١
٤٨.	بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر،	أبو داود	٢١٧
٤٩.	ثلاثٌ مهلكاتٌ، وثلاثٌ مُنجِّيات،	الطبراني	١٥٨
٥٠.	ثمَّ ذكر الرجل يطيلُ السفر أشعثٌ أغبرٌ	مسلم	١٦١
٥١.	خيرُ ما يُخلِف الرجل من بعده ثلاثٌ: ولدٌ صالحٌ يدعو له، وصدقةٌ تجري يبْلُغه أجرُها، وعلمٌ يُعمل به من بعده	ابن ماجه	٨٢
٥٢.	خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم	البخاري	٢٦، ٣٢، ٥٥
٥٣.	درهمٌ رباً يأكله الرجل وهو يعلم، أشدُّ عند الله من ستةٍ وثلاثين زنيةً	مسند أحمد	٣٧٣
٥٤.	ذكر النبي ﷺ شيئاً، فقال: وذاك عند أوان ذهاب العلم	ابن ماجه	٥٤٣
٥٥.	سِباب المسلم فسوقٌ وقتاله كفرٌ	البخاري	٢٧٥
٥٦.	سدِّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيءُ من الدُلجة، والقصدَ القصدَ تبلغوا	البخاري	١٠٤
٥٧.	السواك مطهرة للفم مرضاة للرب	البخاري	١٤٣
٥٨.	سيأتي على الناس سنواتٌ خدَّاعاتٌ،...	ابن ماجه	٤١٦
٥٩.	شاتُك شاةُ لحم	البخاري	٩٩
٦٠.	شفاعتي لأهل الكبائر من أمَّتي	أبو داود	٢٧٣

الرقم التسلسلي	طرف الحديث	أخرجه	الصفحة
٦١.	عليكم بالجماعة وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، من أراد بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة	الترمذي	١٧٣
٦٢.	فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم	البخاري	٢٢١
٦٣.	فإنَّما المؤمن كالجملِ الأنفِ، حيثما قِيد انقاد	ابن ماجه	١٦٩
٦٤.	فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنَّتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين، عَضُّوا عليها بالنواجذ، وإيَّاكم ومحدثات الأمور، فإنَّ كلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وإنَّ كلَّ بدعةٍ ضلالةٌ	الترمذي وأحمد	٥٥، ١٤٥، ٢٩٨، ٦٠٥
٦٥.	قتلوه قتلهم الله، ألا سألوا إذ لم يعلموا، فإنَّما شفاء العِيِّ السؤال	أبو داود	١٥٣، ١٩٧
٦٦.	قد تركتكم على البيضاء، ليلُها كنهارها، لا يزيغ عنها بعدي إلا هالكٌ، ومن يَعشْ منكم، فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين	ابن ماجه	٣٢، ٤٤، ٥٧، ٧١
٦٧.	كلمتان حبيبتان إلى الرحمن،	البخاري	٢١٣
٦٨.	كيف بكم وبزمانٍ يُوشك أن يأتيَ، يُغربَل الناسُ فيه غربلةً،	ابن ماجه	٢١٧
٦٩.	كيف تقضي إذا عرض لك قضاءٌ؟	أبو داود	١٨٣
٧٠.	لا ألفينَّ أحدكم مُتكئاً على أريكته، يأتيه الأمر ممَّا أمرتُ به	ابن ماجه	٤٣٤
٧١.	لا تسبوا أحداً من أصحابي	البخاري	٣١، ٥٦
٧٢.	لا تعلَّموا العلم لتُباهوا به العلماء؛	ابن ماجه	١٢١
٧٣.	لا تلعنوه، فوالله ما علمتُ إلا إنَّه يحبُّ الله ورسوله	البخاري	١٨٧
٧٤.	لا يبولن أحدُكم في الماء الدائم ثمَّ يتوضأ منه	البخاري ومسلم	١٢٦

الرقم التسلسلي	طرف الحديث	أخرجه	الصفحة
٧٥.	لا يتحدث الناس أنّ محمداً يقتل أصحابه	البخاري	١٤٠
٧٦.	لا يحكم أحدٌ بين اثنين وهو غضبانٌ	مسلم	١٢٨
٧٧.	لا يحلُّ دم امرئٍ مسلمٍ، يشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّي رسول الله، إلا بإحدى ثلاث	البخاري	٤٢٢
٧٨.	لاَ يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ	البخاري	٥٥٦
٧٩.	لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقالُ ذرةٍ من كِبْر	مسلم	١٩٥
٨٠.	لا يزال من أمتي أمةٌ قائمةٌ بأمر الله،	مسلم	٢٥
٨١.	لا يُصيب عبداً نكبةً فما فوقها أو دونها إلا بذنبٍ،	الترمذي	١٦٠
٨٢.	لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان	ابن ماجه	١٢٨
٨٣.	لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به	ابن بطة	١٢٠، ١٥٨
٨٤.	لا، ولكن الكبر من بطر الحق وغمط الناس	أبو داود	١٦٩
٨٥.	لتتَّبعنَّ سنن الذين من قبلكم، شبراً بشبرٍ، وذراعاً بذراعٍ،	مسلم	٥٥٩
٨٦.	لعن الله الخمرَ، وشاربَها، وساقيَها، وبائعَها، ومبتاعَها، وعاصرَها، ومعتصرَها، وحاملَها، والمحمولَة إليه	أبو داود	١٨٧
٨٧.	لن يُدخل أحداً منكم عملُه الجنة،	مسلم	٢٧١
٨٨.	لن يفلح قوم ولَّوا أمرهم امرأة	البخاري	٣٩٥، ٤٢٣
٨٩.	اللهم انفعني بما علَّمتني، وعلِّمني ما ينفعني، وزدني علمًا	ابن ماجه	٩٢
٩٠.	اللهم إني أسألك علماً نافعاً، ورزقاً طيباً، وعملاً متقبلاً	ابن ماجه	٩٣

الرقم التسلسلي	طرف الحديث	أخرجه	الصفحة
٩١.	اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع،	مسلم	١١٠
٩٢.	اللَّهمَّ فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، ربَّ كلِّ شيءٍ ومليكه،	الترمذي	١٧١
٩٣.	لو أنَّكم توكلون على الله حقَّ توكله	الترمذي	٩٢
٩٤.	لولا أنَّ قومك حديثو عهد بجاهليةٍ	مسلم	١٤١
٩٥.	ما أخافُ على أُمّتِي إلا ثلاثاً: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوىً متَّبعٌ وإمامُ ضلالٍ	البزار	١٥٨
٩٦.	ما تركتُ بعدي فتنةً أضرَّ على الرجال من النساء	البخاري	٥٦٦
٩٧.	ما ضلّ قومٌ بعد هُدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل	الترمذي	١٢٢
٩٨.	ما من نبيٍ بعثه الله في أمَّةٍ قبلي، إلا كان له من أمته حواريون	مسلم	٤٥
٩٩.	من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو ردٌّ	البخاري	٩٩، ٦٠٤
١٠٠.	من اصطبح كل يوم بسبع تمرات عجوة لم يضره سم ولا سحر	البخاري ومسلم	٤٠٤، ٤٣٥
١٠١.	من بدَّل دينه فاقتلوه	البخاري	٤٢١
١٠٢.	من تعلم العلم ليباهي به العلماء،	ابن ماجه	٩٧
١٠٣.	من تعلّم علمًا مما يُبتغى به وجه الله تعالى،	ابن ماجه	٩٧
١٠٤.	من تواضع لله رفعه	الطبراني	١١٣
١٠٥.	من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان	مسلم	٢١٦، ٢٧٦
١٠٦.	من رمى بسهم في سبيل الله فبلغ العدو أخطأ أو أصاب	النسائي	١٤٢

الرقم التسلسلي	طرف الحديث	أخرجه	الصفحة
١٠٧.	من عادى لي وليَّاً فقد آذنته بالحرب	البخاري	١٢٥
١٠٨.	من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد	مسلم	٩٩
١٠٩.	من قال لا إله إلا الله، وكفر بما يُعبد من دون الله،	مسلم	٥٧٦
١١٠.	من لا يشكر الناس، لا يشكر الله	الترمذي	ت
١١١.	من لقيتَ من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبُه	مسلم	٥٧٨
١١٢.	من مات ولم يغزُ، ولم يُحدِّث نفسه بالغزو، مات على شعبةٍ من نفاق	أبو داود	٥٢٠
١١٣.	من يحرم الرفق يحرم الخير كله	مسلم وأبو داود	١١٧
١١٤.	من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين وإنما أنا قاسم والله يعطي	البخاري ومسلم	٤، ٩٢، ٩٤
١١٥.	النجوم أَمَنَةٌ للسماء،	مسلم	٥٦
١١٦.	نزل الكتاب الأول من بابٍ واحدٍ على حرفٍ واحدٍ، ونزل القرآن من سبعة أبوابٍ على سبعة أحرُفٍ	الحاكم والطبراني	٢٢١
١١٧.	هم على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي	الترمذي	٣٨
١١٨.	والذي نفس محمدٍ بيده، لا يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة يهوديٌّ، ولا نصرانيٌّ، ثمَّ يموت ولم يُؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار	مسلم	٣٩٧، ٤٤٦
١١٩.	والذي نفس محمدٍ بيده، لولا أن يشقَّ على المسلمين ما قعدتُ خلاف سريةٍ تغزو في سبيل الله أبداً	مسلم	٥٢٠
١٢٠.	والذي نفسي بيده، ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد	البخاري ومسلم	٣٧٦

الرقم التسلسلي	طرف الحديث	أخرجه	الصفحة
١٢١.	وإنَّ أبغضكم إليَّ، وأبعدكم منِّي مجلساً يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيهقون،	الترمذي	٥٥٦
١٢٢.	وإنَّ ما حرَّم رسول الله كما حرَّم الله	الترمذي	٤٣٤
١٢٣.	ورجلٌ تعلَّم العلم، وعلَّمه، وقرأ القرآن، فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم، وعلمتُه وقرأتُ فيك القرآن،	مسلم	٩٧
١٢٤.	ولا أرى الأجل إلا قد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نعم السلف أنا لك	البخاري	٢٥
١٢٥.	ومن خاصم في باطل وهو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه	أبو داود	١٢٢
١٢٦.	يا حيُّ يا قيومُ، برحمتك أستغيث،	الحاكم	٩٢
١٢٧.	يا عَدي اطرح هذا الوثن من عنقك، فطرحته،	الترمذي	٥٨١
١٢٨.	يا قومِ لا تُجادلوا بالقرآن، فإنَّما ضلَّ من كان قبلكم بجدالهم،	مسند الحارث	٢٢١
١٢٩.	يا معشر من آمن بلسانه، ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين،	أبو داود	١١٤
١٣٠.	يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ	ابن ماجه	٣٢٥
١٣١.	يأتي في آخر الزمان قومٌ، حدثاءُ الأسنان، سفهاءُ الأحلام،	البخاري	١٨٧
١٣٢.	يحمل هذا العلم من كل خلف عدولُه، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين	البيهقي	ح، ١٥٣، ١٦٤
١٣٣.	يعيش هذا الغلام قرناً، فعاش مائة سنة	الحاكم	٢٨
١٣٤.	يكشف ربُّنا عن ساقه، فيسجد له كلُّ مؤمنٍ ومؤمنةٍ،	البخاري	٣٩٢
١٣٥.	يكون في آخر الزمان دجَّالون كذَّابون،	مسلم	٤٤٤، ٥٢٨

ثالثاً: فهرس الأعلام المترجم لهم

رابعاً: فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

أولًا: الكتب:

١) الإبانة الكبرى، أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن محمد بن حمدان العُكْبَري المعروف بابن بَطَّة العكبري (المتوفى: ٣٨٧هـ)، تحقيق: رضا معطي، وعثمان الأثيوبي، ويوسف الوابل، والوليد بن سيف النصر، وحمد التويجري، ، ط(٢)١٤١٥هـ-١٩٩٤م، دار الراية للنشر والتوزيع، الرياض- السعودية.

٢) الإبانة عن أصول الديانة أبو الحسن علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبد الله بن موسى بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري، تحقيق: د. فوقية حسين محمود، ط(١) ١٣٩٧هـ، الناشر: دار الأنصار – القاهرة – مصر.

٣) الإبانة عن شريعة الفرقة الناجية ومجانبة الفرق المذمومة، عبيد الله بن محمد بن حمدان بَطَّة، تحقيق: عثمان عبد الله آدم الأثيوبي، ط(٢)١٤١٨هـ، دار الراية للنشر والتوزيع – الرياض- السعودية.

٤) إبطال التأويلات لأخبار الصفات، القاضي أبو يعلى، تحقيق: محمد بن حمد الحمود النجدي، دار إيلاف الدولية – الكويت، بدون طبعة.

٥) ابن قيم الجوزية وجهوده في خدمة السنة النبوية وعلومها، جمال بن محمد السيد، ط(١)١٤٢٤هـ- ٢٠٠٤م، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية- المدينة المنورة- السعودية.

٦) الإبهاج في شرح المنهاج (منهاج الوصول إلي علم الأصول للقاضي البيضاوي المتوفي ٧٨٥هـ)، تقي الدين أبو الحسن علي بن عبد الكافي بن علي بن تمام بن حامد بن يحيي السبكي وولده تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٥ م، دار الكتب العلمية -بيروت.

٧) أبو الحسن الأشعري، حماد بن محمد الأنصاري الخزرجي السعدي (المتوفى: ١٤١٨هـ)، الطبعة: السنة السادسة – العدد الثالث – رجب ١٣٩٤هـ – فبراير ١٩٧٤م، الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٨) اتباع لا ابتداع قواعد وأسس في السنة والبدعة، حسام الدين بن موسى محمد بن عفانة،(٣٥/١)، الطبعة الثانية، مصححة ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م (بيت المقدس / فلسطين).

٩) الاتجاه العقلي في تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا، فوزية عاشور للمشتولي، رسالة ماجستير، كلية التربية والآداب جامعة عين شمس، القاهرة.

١٠) الاتجاه العلماني المعاصر في علوم القرآن دراسة ونقد د/ أحمد محمد الفاضل 2008م الطبعة الأولى سوريا دمشق مركز الناقد الثقافي.

١١) اتجاهات التفسير في القرن الرابع عشر، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م، طبع بإذن رئاسة إدارات البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد في المملكة العربية السعودية برقم ٩٥١/ ٥ وتاريخ ١٤٠٦/٨/٥.
١٢) الاتجاهات العقلانية الحديثة، أ.د/ناصر بن عبدالكريم العقل، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ ، الناشر دار الفضيلة.
١٣) الاتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في القرن الثالث الهجري، الدكتور عبد المجيد محمود عبد المجيد، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩م، مكتبة الخانجي، مصر.
١٤) الاتجاهات المعاصرة في دراسة السنة النبوية في مصر وبلاد الشام، د. محمد عبد الرزاق أسود، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، دار الكلم الطيب- دمشق.
١٥) الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر د/ محمد محمد حسين، مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة السادسة ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.
١٦) الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة: ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤ م.
١٧) آثار البلاد وأخبار العباد، زكريا بن محمد القزويني، دار صادر - بيروت- لبنان، بدون طبعة.
١٨) آثار العولمة على عقيدة الشباب، عبد القادر بن محمد عطا صوفي، طبعة ١٤٢٧هـ- ٢٠٠٦م، بدون دار نشر.
١٩) الأثبات في مخطوطات الأئمة: شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم، والحافظ ابن رجب، علي بن عبد العزيز بن علي الشبل، ط: ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض- السعودية.
٢٠) أثر الإيمان في تحصين الأمة الإسلامية ضد الأفكار الهدامة، عبد الله بن عبد الرحمن الجربوع، ط(١)١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- السعودية.
٢١) أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي، د. مساعد مسلم عبد الله آل جعفر، ط(١)١٤٠٥هـ-١٩٨٤م، مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان
٢٢) أثر الفكر الاعتزالي في عقائد الأشاعرة ، عرض ونقد ، د/ منيف عايش مرزم العتيبي، رسالة دكتوراه بإشراف: أ.د / أحمد سعد حمدان الغامدي،١٤٢٠هـ-١٩٩٩م ، كلية الدعوة وأصول ا لدين - جامعة أم القرى - السعودية.

٢٣) أثر علم الكلام على المنتسبين إليه وموقف أهل السنة والجماعة وكبار المتكلمين منه (رسالة ماجستير)، وليد بن صالح بن عبد القادر باصمد، إشراف: د/ عبد العزيز بن أحمد الحميدي، للعام الدراسي: ١٩٢٩-١٤٣٠هـ، بدون طبعة، أو ناشر.
٢٤) اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، تحقيق: عواد عبد الله المعتق، ط(١)١٤٠٨هـ-١٩٨٨م، نشر: مطابع الفرزدق التجارية – الرياض- السعودية.
٢٥) الاجتهاد والتجديد في الفكر المعاصر وفيها :أولويات أمام الاجتهاد والتجديد منير شفيق مركز دراسات العالم الإسلامي سلسلة الفكر الإسلامي المعاصر ٢ الطبعة الثانية ١٩٩١م.
٢٦) أحاديث العقيدة التي يوهم ظاهرها التعارض في الصحيحين، سليمان محمد الدبيخي، دار البيان الحديثية، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م.
٢٧) أحاديث تناقض القرآن...إذن تستبعد جمال البنا موقع جريدة المصري اليوم ص١٣ بتاريخ ٢٠/٠٦/٢٠٠٦م.
٢٨) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، أبو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي البشاري، ط(٣)١٤١١هـ-١٩٩١م، دار صادر- بيروت- لبنان.
٢٩) الأحكام السلطانية لأبي يعلى، الأحكام السلطانية للفراء،القاضي أبو يعلى ، محمد بن الحسين بن محمد بن خلف ابن الفراء (المتوفى : ٤٥٨هـ)،صححه وعلق عليه : محمد حامد الفقي، الطبعة الثانية ، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠م، دار الكتب العلمية - بيروت ، لبنان
٣٠) الأحكام السلطانية،أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، بدون طبعة، دار الحديث – القاهرة.
٣١) أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ)، تحقيق محمد عبد القادر عطا، الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
٣٢) الإحكام في أصول الأحكام، لأبي الحسن سيد الدين علي بن أبي علي بن محمد بن سالم الثعلبي الآمدي (المتوفى: ٦٣١هـ)، تحقيق: عبد الرزاق عفيفي، المكتب الإسلامي، بيروت- دمشق، بدون طبعة.
٣٣) الإحكام في أصول الأحكام، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، تحقيق الشيخ أحمد محمد شاكر ،بدون طبعة، دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٣٤) أحمد لطفي السيد أستاذ الجيل، حسين فوزي النجار، ط٢، ١٩٧٥،الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣٥) إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي ، المتوفى ٨٠٦ هـ ، ط : دار المعرفة ، بيروت – لبنان .

٣٦) اختلاف الحديث (مطبوع ملحقا بالأم للشافعي)، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، دار المعرفة – بيروت.

٣٧) اختلاف المفسرين أسبابه وآثاره ، أ.د. سعود بن عبد الله النفيسان ، ط (١) ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، مركز الدراسات والإعلام ، دار اشبيليا – الرياض– السعودية.

٣٨) الاختلاف في اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة ، عبدالله بن مسلم بن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ ، مطبوع ضمن مجموعة (عقائد السلف) بعناية : النشار والطالبي سنة ١٩٧١ م

٣٩) آداب الشافعي ومناقبه، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، قدم له وحقق أصله وعلق عليه عبد الغني عبد الخالق، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان

٤٠) الآداب الشرعية والمنح المرعية، محمد بن مفلح بن محمد بن مفرج، أبو عبد الله، شمس الدين المقدسي الرامينى ثم الصالحي الحنبلي (المتوفى: ٧٦٣هـ)،بدون طبعة، عالم الكتب.

٤١) أدب الاملاء والاستملاء، عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي السمعاني المروزي، أبو سعد (المتوفى: ٥٦٢هـ)، الطبعة الأولى، ١٤٠١ – ١٩٨١، دار الكتب العلمية – بيروت.

٤٢) أدب الدنيا والدين، المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ)، بدون طبعة، ١٩٨٦م، دار مكتبة الحياة.

٤٣) أدب الطلب ومنتهى الأدب، للشوكاني، تحقيق: عبد الله يحيى السريحي، ط(١)١٤١٩هـ– ١٩٩٨م، دار ابن حزم – بيروت– لبنان.

٤٤) الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار البشائر الإسلامية – بيروت، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٩ –١٩٨٩.

٤٥) أدب المقالة الصحفية في مصر، عبداللطيف حمزة، الطبعة الثانية ١٩٦١م، دار الفكر العربي.

٤٦) الأدلة الرضية لمتن الدرر البهية في المسائل الفقهية، محمد صبحي بن حسن حلاق، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت– لبنان، بدون طبعة.

٤٧) الأربعين في أصول الدين، للفخر الرازي، ص٤٠، ط(١)، دائرة المعارف العثمانية بالهند، ١٣٥٣هـ.

٤٨) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)، الطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ، المطبعة الكبرى الأميرية، مصر.

٤٩) إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني اليمني، تحقيق: أحمد عزو عناية، قدم له: خليل الميس، ولي الدين صالح فرفور، ط(١)١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، دار الكتاب العربي- بيروت - لبنان.

٥٠) الإرشاد إلى مواضع الأدلة في أصول الاعتقاد، عبد الملك بت عبد الله بن يوسف الجويني، تحقيق: د/ محمد يوسف موسى، أ/ علي عبد المنعم، مطبعة السعادة، ١٣٦٩هـ، القاهرة -مصر.

٥١) إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى : ١٤٢٠هـ)، إشراف: زهير الشاويش، الطبعة: الثانية ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥م، المكتب الإسلامي - بيروت.

٥٢) ازدواجية العقل دراسة تحليلية نفسية لكتابات حسن حنفي، جورج طرابيشي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م، دار بترا للنشر والتوزيع- دمشق.

٥٣) الأزمة العقيدية بين الأشاعرة وأهل الحديث خلال القرنين الخامس والسادس الهجريين: مظاهرها، آثارها، أسبابها، والحلول المقترحة لها، د/ خالد كبير علال، ط(١)١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، دار الإمام مالك- البليّدة- الجزائر، مع بعض التعديل والإضافة.

٥٤) أزمة الفكر الإسلامي المعاصر، د.محمد عمارة، دار الشرق الأوسط للنشر- القاهرة.

٥٥) أزمة المثقفين العرب تقليدية أم تاريخانية د / عبد الله العروي ترجمة ذوقان قرقوط المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروتا لطبعةالأولى١٩٧٨م.

٥٦) أزمة المثقفين تجاه الإسلام في العصر الحديث د/ محسن عبد الحميد مكتبة أسامة بن زيد الرباط ،الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.

٥٧) أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، أحمد بن محمد المقري، تحقيق: مصطفى السقا، إبراهيم الإبياري، عبد العظيم شلبي، الناشر: مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- مصر، عام النشر: ١٣٥٨هـ-١٩٣٩م.

٥٨) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة، محمد كامل الفقي، بدون طبعة، عدد الأجزاء: ٣،المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف.

٥٩) أساس البلاغة، للزمخشري، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط(١)١٤١٩هـ-١٩٩٨م، دار الكتب العلمية- بيروت - لبنان.

٦٠) أساس التقديس في علم الكلام، للفخر الرازي، ط(١)١٤١٥هـ-١٩٩٥م، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت - لبنان.

٦١) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، علي محمد جريشة، محمد شريف الزيبق، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م، دار الاعتصام.
٦٢) أسباب نزول القرآن، أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (المتوفى: ٤٦٨هـ)، تحقيق عصام بن عبد المحسن الحميدان الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م،دار الإصلاح – الدمام.
٦٣) الاستبصار في عجائب الأمصار، كاتب مرَّاكُشي (ت: ق٦هـ)، الناشر: دار الشؤون الثقافية- بغداد- العراق، عام: ١٩٨٦م، بدون طبعة.
٦٤) الاستقامة، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق د. محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى، ١٤٠٣، الناشر: جامعة الإمام محمد بن سعود – المدينة المنورة.الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، شهاب الدين أحمد بن خالد السلاوي، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب- الدار البيضاء- المغرب، بدون طبعة.
٦٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر، تحقيق: علي محمد البجاوي ط(١)١٤١٢هـ-١٩٩٢م، دار الجيل- بيروت- لبنان.
٦٦) أسد الغابة، لأبي الحسن علي بن الأثير، (٤٠٩/٢)، ترجمة رقم: (٢٥١٥)، دار الفكر- بيروت- لبنان، تاريخ النشر: ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، بدون طبعة.
٦٧) أسرار البلاغة، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (المتوفى: ٤٧١هـ)، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، بدون طبعة، مطبعة المدني بالقاهرة، ودار المدني بجدة.
٦٨) الأسس المنهجية للقراءة الحداثية للنص القرآني محاولة في التفكيك والتأسيس فؤاد بوعلي منشور على موقع مجلة التسامح التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في سلطنة عمان العدد ٢٤، ٢٠٠٨م-١٤٢٩هـ.
٦٩) الإسلام أصالة ومعاصرة، د/ محمد أركون، ترجمة خليل أحمد، بدون طبعة.
٧٠) الإسلام المعاصر، د.علي مراد، الطبعة الأولى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
٧١) الإسلام بين الرسالة والتاريخ، عبد المجيد الشرفي، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، دار الطليعة – بيروت.
٧٢) الإسلام دين الهداية والإصلاح، محمد فريد وجدي، مراجعة محمد زهري النجار، الطبعة الأولى ١٩٩١م، دار الجيل، بيروت.
٧٣) الإسلام في الأسر، الصادق النيهوم، الطبعة الثالثة ١٩٩٥م، رياض الريس للكتب والنشر – دمشق.

٧٤) الإسلام وأصول الحكم، علي عبد الرازق، تقديم جابر عصفور، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣م.

٧٥) الإسلام والإيمان، محمد شحرور، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، دار الأهالي للنشر.

٧٦) الإسلام والحداثة د/ عبد المجيد الشرفي الدار التونسية للنشر الطبعة الثانية ١٩٩١م.

٧٧) الإسلام والحرية سوء التفاهم التاريخي، محمد الشرفي، طبعة ٢٠٠٨م، دار بترا – دمشق.

٧٨) الإسلام والحضارة الغربية د/ محمد محمد حسين مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة الثامنة ١٤٠٦هـ –١٩٨٦م.

٧٩) الإسلام والعولمة، أحمد عبد الرحمن، الدار القومية العربية.

٨٠) الإسلام والغرب، محمد الخير عبد القادر، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، دار الجيل –بيروت.

٨١) الإسلام والليبرالية نقيضان لا يجتمعان، شحاتة محمد صقر، بدون طبعة، دار الخلفاء الراشدين، دار الفتح الإسلامي.

٨٢) الإسلام وحرية الفكر، جمال البنا، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ م، القاهرة، دار الشروق.

٨٣) إسلامية لا وهابية، د/ ناصر بن عبد الكريم العقل، الناشر: دار كنوز أشبيلية للنشر والتوزيع– الرياض– السعودية، تاريخ النشر: ١٤٢٥هـ، بدون طبعة.

٨٤) الأسماء والصفات، للبيهقي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: عبد الله بن محمد الحاشدي، قدم له: فضيلة الشيخ مقبل بن هادي الوادعي، ط(١)١٤١٣هـ–١٩٩٣م، مكتبة السوادي– جدة – السعودية.

٨٥) أسئلة الحقيقة ورهانات الفكر، علي حرب، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، دار الطليعة – بيروت.

٨٦) الأشاعرة في ميزان أهل السنة، أبو عثمان فيصل بن قزار الجاسم، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ المبرة الخيرية لعلوم القرآن والسنة، الكويت.

٨٧) الأشباه والنظائر على مذهب أبي حنيفة بن النعمان، زين الدين بن إبراهيم بن محمد، المعروف بابن نجيم المصري (المتوفى: ٩٧٠هـ)، وضع حواشيه وخرج أحاديثه الشيخ زكريا عميرات، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ – ١٩٩٩ م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٨٨) إشكاليات الفكر العربي المعاصر محمد عابد الجابري بلا تاريخ طبع الدار البيضاء المركز الثقافي العربي.

٨٩) إشكالية قراءة النص القرآني في الفكر العربي المعاصر نصر حامد أبو زيد نموذجاً ، إلياس قويسم، بحث لنيل شهادة الدراسات المعمقة في الحضارة الإسلامية، جامعة الزيتونة – تونس ١٤٢٠ هـ ١٩٩٩ – ٢٠٠٠ م.

٩٠) الإصابة في تمييز الصحابة، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ)، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، الطبعة: الأولى - ١٤١٥ هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.

٩١) الأصول الخمسة عند المعتزلة وموقف السلفيين منها، صالح زين العابدين الشيبي، رسالة ماجستير بإشراف: أ.د/ عوض الله جاد أحمد حجازي، ١٣٩٧هـ- ١٩٧٧م، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الملك عبد العزيز - مكة المكرمة- السعودية، بدون طبعة.

٩٢) أصول الدين عند الإمام أبي حنيفة، محمد بن عبد الرحمن الخميس، دار الصميعي- الرياض- السعودية، بدون طبعة.

٩٣) أصول الدين، أبو منصور عبدالقاهر البغدادي، المتوفى سنة ٤٢٩ هـ، ط: ثانية ١٤٠٠هـ ، بيروت - لبنان ، مصورة عن الطبعة الأولى باستانبول - تركيا .

٩٤) أصول الدين، المسمى معالم أصول الدين ، فخر الدين الرازي، مراجعة عبدالرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة - مصر.

٩٥) أصول السنة، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ، دار المنار - الخرج - السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١١هـ.

٩٦) أصول السنة، ومعه رياض الجنة بتخريج أصول السنة، لابن أبي زَمَنِين المالكي، تحقيق وتخريج وتعليق: عبد الله بن محمد عبد الرحيم بن حسين البخاري، ط(١)١٤١٥هـ، مكتبة الغرباء الأثرية- المدينة النبوية- السعودية.

٩٧) أصول الفرق والأديان والمذاهب الفكرية، د/ سفر بن عبد الرحمن الحوالي، بدون طبعة.

٩٨) أصول الفقه تاريخه ورجاله، د/ شعبان محمد إسماعيل، ط(١)١٤٠١هـ-١٩٨١م، دار المريخ للنشر- الرياض- السعودية.

٩٩) أصول مسائل العقيدة عند السلف وعند المبتدعة، سعود بن عبد العزيز الخلف، ط:١٤٢٠هـ- ١٤٢١هـ، بدون ناشر.

١٠٠) الأصول من علم الأصول، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الطبعة ١٤٢٦هـ، دار ابن الجوزي.

١٠١) الأصول والفروع حقيقتهما والفرق بينهما والأحكام المتعلقة بهما (دراسة نظرية تطبيقية)، د/ سعد بن ناصر الشثري، ط(١)١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع - الرياض- السعودية.

١٠٢) أضواء على السنة المحمدية، محمود أبو رية، الطبعة الثالثة، دار المعارف- مصر.

١٠٣) إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، أبو بكر (المشهور بالبكري) عثمان بن محمد شطا الدمياطي الشافعي (المتوفى: ١٣١٠هـ)، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
١٠٤) إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، ط(٣)١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، مؤسسة الرسالة- بيروت - لبنان.
١٠٥) الاعتصام، إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي (المتوفى: ٧٩٠هـ)، تحقيق: سليم بن عيد الهلالي، الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، دار ابن عفان، السعودية.
١٠٦) اعتقاد الأئمة الأربعة، محمد بن عبد الرحمن الخميس، ط(١)١٤١٢هـ-١٩٩٢م، دار العاصمة - الرياض- السعودية.
١٠٧) الاعتقاد الخالص من الشك والانتقاد، لابن العطار، تحقيق وتعليق: علي حسن علي عبد الحميد الحلبي الأثري، ط(١)١٤٠٨هـ، دار الكتب الأثرية- الزرقاء- الأردن.
١٠٨) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق أحمد عصام الكاتب، الطبعة الأولى، ١٤٠١، دار الآفاق الجديدة - بيروت.
١٠٩) اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للفخر الرازي، تحقيق: علي سامي النشار، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، بدون طبعة.
١١٠) الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، عائشة محمد علي عبد الرحمن (بنت الشاطئ)، ط(٣)، دار المعارف- الرياض- السعودية.
١١١) الأعلام ، خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس الزركلي الدمشقي (ت ١٣٩٦هـ) ، ط (١٥) - أيار / مايو ٢٠٠٢م ، نشر : دار العلم للملايين- بيروت- لبنان.
١١٢) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، أبو حفص البزّار، تحقيق: زهير الشاويش، ط(٣)١٤٠٠هـ، المكتب الإسلامي- بيروت- لبنان.
١١٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، ط(١)١٤١١هـ-١٩٩١م، دار الكتب العلمية- بيروت - لبنان.
١١٤) أعلام النهضة العربية الإسلامية في العصر الحديث، صلاح زكي أحمد، ط١،٢٠٠١، مركز الحضارة العربية- القاهرة.
١١٥) الإعلامُ بـ حُرمةِ أهلِ العلمِ والإسلامِ، محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، دارُ طيبة - مَكتبةُ الكوثر، الرياض.

١١٦) الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)، عبد الحي بن فخر الدين بن عبد العلي الحسني الطالبي (المتوفى: ١٣٤١هـ)، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ، ١٩٩٩م، دار ابن حزم – بيروت، لبنان.
١١٧) أعلام وأقزام في ميزان الإسلام،سيد بن حسين بن عبد الله العفاني، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م، دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع، جدة – السعودية.
١١٨) الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي، محمد عمارة (دراسة وتحقيق)، الطبعة الأولى ١٩٧٣م، المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت.
١١٩) الأعمال الكاملة لعلي مبارك، د. محمد عمارة (دراسة وتحقيق)، الطبعة الأولى ١٩٧٩م،المؤسسة العربية للدراسات والنشر – بيروت.
١٢٠) الأعمال الكاملة للكواكبي، محمد جمال الطحان، ط، ١٩٩٥، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت.
١٢١) أعيان العصر وأعوان النصر، صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: د/ علي أبو زيد، د/ نبيل أبو عشمة، د/ محمد موعد، د/ محمود سالم محمد، تقديم: مازن عبد القادر المبارك، ط(١)١٤١٨هـ–١٩٩٨م، دار الفكر المعاصر بيروت– لبنان، دار الفكر– دمشق–سوريا.
١٢٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، تحقيق: محمد حامد الفقي، مكتبة المعارف– الرياض– السعودية، بدون طبعة.
١٢٣) إقامة الحجة والدليل وإيضاح المحجة والسبيل، سليمان بن سحمان النجدي، تحقيق: عبد السلام بن برجس بن ناصر العبد الكريم، ط: ١٤٠٩هـ–١٩٨٩م، دار العاصمة الرياض– السعودية.
١٢٤) أقاويل الثقات في تأويل الأسماء والصفات والآيات المحكمات والمشتبهات، مرعي الحنبلي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط(١)١٤٠٦هـ، مؤسسة الرسالة– بيروت– لبنان.
١٢٥) الاقتصاد في الاعتقاد، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، وضع حواشيه عبد الله محمد الخليلي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤م، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.
١٢٦) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، ط(٧)١٤١٩هـ–١٩٩٩م، دار عالم الكتب– بيروت– لبنان.
١٢٧) اقتضاء العلم العمل، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الرابعة، ١٣٩٧هـ،المكتب الإسلامي – بيروت.
١٢٨) اقرأ وربك الأكرم، جودت سعيد، طبعة ١٤١٥هـ، دار الفكر المعاصر – بيروت.

١٢٩) أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك، خير الدين التونسي، تحقيق المنصف الشنوي، بدون طبعة، مطبعة تونس.

١٣٠) اكتساب المناعة في إثبات الشفاعة، أمير فتوح شيشي، الطبعة الأولى، مكتبة البلد الأمين- القاهرة.

١٣١) آل رسول الله وأولياؤه، محمد بن عبد الرحمن العاصمي الحنبلي، بدون طبعة أو ناشر.

١٣٢) إلجام العوام عن علم الكلام، أبو حامد الغزالي، ط(٢)1390 هـ.، ضمن مجموعة القصور العوالي، راجعها وحققها: إبراهيم أمين محمد، المكتبة التوفيقية- القاهرة- مصر، بدون طبعة.

١٣٣) الأم، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي، طبعة١٤١٠هـ/١٩٩٠، دار المعرفة – بيروت.

١٣٤) الأماكن، أو ما اتفق لفظه وافترق مسماه من الأمكنة، محمد بن موسى الهمداني، تحقيق: حمد بن محمد الجاسر، الناشر: دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، عام النشر: ١٤١٥هـ، بدون طبعة.

١٣٥) أمالي ابن الحاجب، لأبي عمرو عثمان بن الحاجب، دراسة وتحقيق: د/ فخر صالح سليمان قدارة، ط١٤٠٩هـ-١٩٨٩م، دار عمار- عمان- الأردن، دار الجيل- بيروت- لبنان.

١٣٦) الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير، عبد الغفار عبد الرحيم، الطبعة الأولى، دار الأنصار- القاهرة.

١٣٧) إنباه الرواة على أنباه النحاة، جمال الدين علي بن يوسف القفطي، ط(١)١٤٢٤هـ، المكتبة العصرية- بيروت- لبنان.

١٣٨) الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، أبو الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني، تحقيق: سعود بن عبد العزيز الخلف، ط(١)١٤١٩هـ-١٩٩٩م، أضواء السلف- الرياض- السعودية.

١٣٩) الانتصار لأصحاب الحديث، أبو المظفر السمعاني، تحقيق: محمد بن حسين بن حسن الجيزاني، ط(١)١٤١٧هـ-١٩٩٦م، مكتبة أضواء المنار – السعودية.

١٤٠) الانتصار لأهل السنة والحديث في رد أباطيل حسن المالكي، عبد المحسن بن حمد البدر، ط(١)١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، دار الفضيلة- الرياض- السعودية.

١٤١) الانتصار والرد على ابن الروندي الملحد، أبو الحسين الخياط، مقدمة وتحقيق وتعليقات: د/ نيبرج، ط(٢) بيروت ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، مكتبة الدار العربية للكتاب للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة- مصر، أوراق شرقية للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان.

١٤٢) الانتقاء في فضائل الثلاثة الأئمة الفقهاء: (مالك والشافعي وأبي حنيفة ﷺ)، لابن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي، دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان، بدون طبعة.

١٤٣) الانحرافات العقدية والعملية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر الهجريين وآثارهما في حياة الأمة، علي بخيت الزهراني، بدون طبعة، دار الرسالة- مكة المكرمة.
١٤٤) الأنساب، عبد الكريم بن محمد السمعاني، تحقيق: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي اليماني وغيره، ط(١)١٣٨٢هـ-١٩٦٢م، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد- الهند.
١٤٥) الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، للقاضي أبو بكر الباقلاني، الطبعة الثانية ١٣٨٢ هـ، مؤسسة الخانجي.
١٤٦) أوضح التفاسير محمد محمد عبد اللطيف بن الخطيب (ت: ١٤٠٢هـ)، ط٦، ١٣٨٣ هـ - ١٩٦٤ م، المطبعة المصرية ومكتبتها.
١٤٧) أول واجب على المكلف: عبادة الله تعالى وضوح ذلك من كتاب الله ودعوات الرسل، عبد الله بن محمد الغنيمان، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- السعودية، بدون طبعة.
١٤٨) إيثار الحق على الخلق في رد الخلافات إلى المذهب الحق من أصول التوحيد، ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين اليمني (المتوفى: ٨٤٠هـ)، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية - بيروت.
١٤٩) الإيديولوجيا العربية المعاصرة د / عبد الله العروي المركز الثقافي العربي بيروت الدار البيضاء الطبعة الأولى ١٩٩٥م.
١٥٠) إيضاح الدلالة في عموم الرسالة ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، نشر مكتبة الرياض الحديثة ، الرياض ، المملكة العربية السعودية .
١٥١) إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم البغدادي، عنى بتصحيحه وطبعه على نسخة المؤلف: محمد شرف الدين بالتقايا، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان.
١٥٢) إيقاظ همم أولي الأبصار للاقتداء بسيد المهاجرين والأنصار، صالح بن محمد العَمْري المعروف بالفُلَّاني المالكي، دار المعرفة - بيروت- لبنان، بدون طبعة.
١٥٣) الإيمان ، الحافظ محمد بن إسحاق بن منده ، المتوفى سنة ٣٩٥ هـ ، تحقيق : د . علي بن محمد الفقيهي ، ط : ثانية ١٤٠٦ هـ .
١٥٤) الإيمان بين السلف والمتكلمين، أحمد بن عطية بن علي الغامدي، ط(١)١٤٣٢هـ-٢٠٠م، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة- السعودية.
١٥٥) الإيمان، لابن تيمية، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط(٥)١٤١٦هـ-١٩٩٦م، المكتب الإسلامي- عمان- الأردن.
١٥٦) أين هو الفكر الإسلامي المعاصر لأركون،الطبعة الأولى ١٩٩٧م، دار الساقي- لندن.

١٥٧) الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، لابن كثير، أحمد محمد شاكر، ط(١)، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.

١٥٨) البحث العلمى أساسياته النظرية وممارسته العملية، رجاء وحيد دويدري، الطبعة الأولى ١٤٢١ هـ، ٢٠٠٠م، دار الفكر المعاصر -بيروت، دار الفكر -دمشق.

١٥٩) البداية والنهاية، لابن كثير، دار الفكر- بيروت- لبنان، عام النشر: ١٤٠٧هـ-١٩٨٦م، بدون طبعة.

١٦٠) بدائع الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، بدون طبعة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان.

١٦١) البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، للشوكاني، دار المعرفة- بيروت- لبنان، بدون طبعة.

١٦٢) البدع والنهي عنها، أبو عبد الله محمد بن وضاح بن بزيع المرواني القرطبي (المتوفى: ٢٨٦هـ)،تحقيق ودراسة: عمرو عبد المنعم سليم، الطبعة الأولى، ١٤١٦ هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة- مصر، مكتبة العلم، جدة – السعودية.

١٦٣) البدعة ضوابطها وأثرها السيء في الأمة، علي بن محمد بن ناصر الفقيهي،(١/١٣) الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ، الجامعة الاسلامية.

١٦٤) براءة الأئمة الأربعة من مسائل المتكلمين المبتدعة (رسالة دكتوراه)، د/ عبد العزيز بن أحمد بن محسن الحميدي، ط(١)١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، دار ابن عفان للنشر والتوزيع- القاهرة- مصر.

١٦٥) البرهان في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ)،تحقيق صلاح بن محمد بن عويضة، الطبعة الأولى ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، دار الكتب العلمية بيروت – لبنان.

١٦٦) البرهان في علوم القرآن، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه.

١٦٧) بروتوكولات حكماء صهيون، محمد خليفة التونسي، الطبعة الخامسة- مصر، نقلاً عن http://saaid.net.

١٦٨) بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، أبو محمد الحارث بن محمد بن داهر التميمي البغدادي الخصيب المعروف بابن أبي أسامة (المتوفى: ٢٨٢هـ)، المنتقي: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان بن أبي بكر الهيثمي (المتوفى: ٨٠٧ هـ)، تحقيق د. حسين أحمد صالح الباكري، الطبعة الأولى، ١٤١٣ - ١٩٩٢ ،مركز خدمة السنة والسيرة النبوية – المدينة المنورة.

١٦٩) البلدان، لابن الفقيه، تحقيق: يوسف الهادي، ط(١)١٤١٦هـ -١٩٩٦م، عالم الكتب- بيروت- لبنان.
١٧٠) البلدان، لليعقوبي، ط(١)١٤٢٢هـ، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
١٧١) بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله، تحقيق: عبد الكريم بن رسمي الدريني، ط(١)١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية.
١٧٢) بيان تلبيس الجهمية في تأسيس بدعهم الكلامية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشق(المتوفى: ٧٢٨هـ)، الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
١٧٣) تاج العروس من جواهر القاموس، محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني، حققه: جمع من المحققين، دار الهداية، بدون طبعة.
١٧٤) تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، أحمد شوقي ضيف، دار المعارف- الرياض- السعودية، بدون طبعة.
١٧٥) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، تحقيق عمر عبد السلام التدمري، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣م،دار الكتاب العربي، بيروت.
١٧٦) تاريخ الخلفاء، للسيوطي، تحقيق: حمدي الدمرداش، ط(١)١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، مكتبة نزار مصطفى الباز- مكة المكرمة- السعودية.
١٧٧) تاريخ الرسل والملوك (تاريخ الطبري)، للإمام الطبري، وصلة تاريخ الطبري لعريب بن سعد القرطبي، ط(٢)١٣٨٧هـ، دار التراث - بيروت- لبنان.
١٧٨) تاريخ الفلسفة في الإسلام، ت.ج دي يور، نقله للعربية وعلق عليه: د/ محمد عبد الهادي أبو ريدة، ط(٥)، مكتبة النهضة المصرية- القاهرة- مصر.
١٧٩) تاريخ المذاهب الاسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي- القاهرة- مصر، بدون طبعة.
١٨٠) تاريخ بغداد، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: الدكتور بشار عواد معروف، ط(١) ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، الناشر: دار الغرب الإسلامي - بيروت- لبنان.
١٨١) تاريخ دمشق، لابن عساكر، تحقيق: عمرو بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع- بيروت- لبنان، عام النشر: ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، بدون طبعة.

١٨٢) تاريخية الفكر العربي الإسلامي، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، الطبعة الثالثة ١٩٩٨م، مركز الإنماء القومي- بيروت.

١٨٣) التأويل بين ضوابط الأصوليين وقراءات المعاصرين،إعداد : إبراهيم محمد طه بويداين،إشراف : الأستاذ الدكتور حسام الدين عفانه، رسالة ماجستير . جامعة القدس . الدراسات العليا . قسم الدراسات الإسلامية.

١٨٤) تأويل مختلف الحديث، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، ط(٢)١٤١٩هـ- ١٩٩٩م، المكتب الإسلامي، مؤسسة الإشراق- بيروت، الدوحة.

١٨٥) تأويل مشكل القرآن، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (المتوفى: ٢٧٦هـ)، تحقيق إبراهيم شمس الدين، بدون طبعة، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

١٨٦) تبصير المنتبه بتحرير المشتبه، لابن حجر، تحقيق: محمد علي النجار، مراجعة: علي محمد البجاوي، المكتبة العلمية- بيروت- لبنان، بدون طبعة.

١٨٧) التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، طاهر بن محمد الأسفراييني، أبو المظفر، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط(١)١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، عالم الكتب- بيروت- لبنان.

١٨٨) التبيان شرح نواقض الإسلام لمحمد بن عبد الوهاب، سليمان ناصر العلوان، الطبعة السادسة، دار المسلم.

١٨٩) التبيان في آداب حملة القرآن، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، حققه وعلق عليه محمد الحجار، الطبعة الثالثة مزيدة ومنقحة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع – بيروت – لبنان.

١٩٠) التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق محمد حامد الفقي، بدون طبعة، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

١٩١) تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق وحاشية الشِّلْبِيِّ، عثمان بن علي بن محجن البارعي، فخر الدين الزيلعي الحنفي (المتوفى: ٧٤٣ هـ)، الحاشية: شهاب الدين أحمد بن محمد بن أحمد بن يونس بن إسماعيل بن يونس الشِّلْبِيُّ (المتوفى: ١٠٢١ هـ)، الطبعة الأولى، ١٣١٣ هـ، المطبعة الكبرى الأميرية – بولاق، القاهرة.

١٩٢) تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، لابن عساكر، ط(٣)١٤٠٤هـ، دار الكتاب العربي- بيروت – لبنان.

١٩٣) تجديد الفكر الإسلامي، لحسن الترابي، الطبعة الثانية ١٤٠٧هجري،الدار السعودية للنشر.

١٩٤) تجديد الفكر العربي ، زكي نجيب محمود، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، دار الشروق- القاهرة.

١٩٥) التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن عاشور، الناشر: الدار التونسية للنشر- تونس، سنة النشر: ١٩٨٤هـ، بدون طبعة.

١٩٦) تحريم النظر في كتب الكلام، ابن قدامة المقدسي، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد سعيد دمشقية، ط(١)١٤١٠هـ-١٩٩٠م، عالم الكتب - الرياض- السعودية.

١٩٧) التحف فِي مَذَاهِب السّلف، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، علق عليه وخرج أحاديثه: محمد صبحي حسن حلاق، الناشر: مكتبة ابن تيمية، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ.

١٩٨) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفورى، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، بدون طبعة.

١٩٩) تحفة المحتاج في شرح المنهاج، أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي، المكتبة التجارية الكبرى بمصر، طبعة، ١٣٥٧ هـ - ١٩٨٣ م.

٢٠٠) التحفة المدنية في العقيدة السلفية، حمد بن ناصر التميمي الحنبلي، تحقيق: عبد السلام بن برجس بن ناصر آل عبد الكريم، (وطبع الكتاب باسم: الفواكه العذاب في معتقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب (في الصفات) بتحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي - مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان، بدون طبعة.

٢٠١) تحفة المريد شرح جوهرة التوحيد، ابراهيم البيجوري، الطبعة الأولى ١٤٠٣، دار الكتب.

٢٠٢) التحفة المهدية شرح العقيدة التدمرية، فالح بن مهدي بن سعد بن مبارك آل مهدي، الدوسري (المتوفى: ١٣٩٢هـ)، الطبعة الثالثة، ١٤١٣هـ،مطابع الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٢٠٣) التحفة الوسيمة شرح على الدرة اليتيمة، أبو عبد الله محمد عبد القادر بن محمد بن المختار بن أحمد العالم القبلوي الجزائري المالكي الشهير بالشيخ باي بلعالم (المتوفى: ١٤٣٠ هـ)،بدون طبعة وبدون دار نشر.

٢٠٤) تخريج العقيدة الطحاوية (متن الطحاوية)، أبو جعفر الطحاوي، شرح وتعليق: محمد ناصر الدين الألباني، فقرة رقم: (٣٦)، ط(٢)١٤١٤هـ، المكتب الإسلامي - بيروت- لبنان.

٢٠٥) تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، للسيوطي، حققه: أبو قتيبة نظر محمد الفاريابي، دار طيبة - الرياض - السعودية، بدون طبعة.

٢٠٦) تدوين السنة النبوية نشأته وتطوره من القرن الأول إلى نهاية القرن التاسع الهجري، أبو ياسر محمد بن مطر الزهراني، ط(١)١٤١٧هـ-١٩٩٦م، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض- السعودية.

٢٠٧) تذكرة الحفاظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية بيروت-لبنان.

٢٠٨) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، بدر الدين ابن جماعة الكناني الشافعي، خرج نصوصه وحقق أحاديثه وعلق عليه: عبد السلام عمر علي، ط(١)١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م، مكتبة ابن عباس- سمنود- مصر، دار الآثار للنشر والتوزيع- القاهرة - مصر.

٢٠٩) تذكرة المؤتسي شرح عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر،ط(١)١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، غراس للنشر والتوزيع- الكويت.

٢١٠) التراث والتجديد موقفنا من التراث القديم، حسن حنفي، الطبعة الخامسة ١٤٢٢هـ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر- بيروت.

٢١١) التراث والحداثة دراسات ومناقشات، محمد عابد الجابري، الطبعة الأولى ١٩٩١م، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت.

٢١٢) التربية الإسلامية أصولها وتطورها في البلاد العربية، محمد منير مرسي، ط: ١٤٢٥هـ- ٢٠٠٥م، عالم الكتب- بيروت- لبنان.

٢١٣) ترتيب المدارك وتقريب المسالك، القاضي عياض، ط(١)، الناشر: مطبعة فضالة- المحمدية- المغرب.

٢١٤) تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله بن عبد العزيز بن حمادة الجبرين، ط(٢)، دار العصيمي للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية.

٢١٥) التسهيل لعلوم التنزيل، أبو القاسم، محمد بن أحمد بن محمد بن عبد الله، ابن جزي الكلبي الغرناطي (المتوفى: ٧٤١هـ)، المحقق: الدكتور عبد الله الخالدي، الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ، شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم - بيروت.

٢١٦) تشنيف المسامع بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي، أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي الشافعي (المتوفى: ٧٩٤هـ)، تحقيق د سيد عبد العزيز - د عبد الله ربيع، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م، مكتبة قرطبة للبحث العلمي وإحياء التراث.

٢١٧) تصحيح المفاهيم في جوانب العقيدة، محمد أمان الجامي، ط: السنة الحادية عشرة، العدد الثاني، غرة ذي الحجة، عام: ١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- السعودية.

٢١٨) التطرف المسكوت عنه، أصول الفكر العصراني "السعودية أنموذجاً"، د. ناصر الحنيني، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ، دار الكتب المصرية، القاهرة.

٢١٩) تطريز رياض الصالحين، فيصل بن عبد العزيز المبارك النجدي، تحقيق: د/ عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد، ط(١)١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، دار العاصمة للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية.

٢٢٠) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ، محمد بن علي الشوكاني ، المتوفى سنة ١١٨٢ هـ ، تعليق : محمد عبدالمنعم خفاجي ، ط : أولى ، مكتبة ومطبعة محمد صبيح - مصر .

٢٢١) تطور الفكر السياسي من الاشتراكية إلى الليبرالية الجديدة، عدنان السيد حسين، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، دار أمواج للنشر والتوزيع- بيروت.

٢٢٢) التعارض والترجيح عند الأصوليين في الفقه الإسلامي، محمد إبراهيم الحفناوي، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الوفاء- مصر.

٢٢٣) التعبير عن الرأي ضوابطه ومجالاته في الشريعة الإسلامية، خالد بن عبد الله الشمراني، رسالة دكتوراة، كلية الشريعة، جامعة أم القرى عام ١٤٢٣هـ.

٢٢٤) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت ٨١٦هـ)، ضبطه وصححه: جماعة من العلماء، بإشراف الناشر، ط(١)١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، دار الكتب العلمية- بيروت - لبنان.

٢٢٥) التعليق المختصر على العقيدة النونية، المسماة بالكافية الشافية في الانتصار للفرقة الناجية، لابن القيم، تعليق: صالح بن فوزان العبد الله الفوزان، أشرف على طبعه وإخراجه: عبد السلام بن عبد الله السليمان، بدون طبعة أو ناشر.

٢٢٦) التعليقات على متن لمعة الاعتقاد، عبد الله بن جبرين، اعتنى به: أبو أنس علي بن حسين أبو لوز، ط(١)١٤١٦هـ-١٩٩٥م، دار الصميعي للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية.

٢٢٧) تفسير الإمام الشافعي، أبو عبد الله الشافعي، محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، جمع وتحقيق ودراسة: د. أحمد بن مصطفى الفرَّان، الطبعة الأولى ١٤٢٧ - ٢٠٠٦م، دار التدمرية - المملكة العربية السعودية

٢٢٨) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، طبعة ١٩٩٠ م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٢٢٩) تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ)، المحقق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز ، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثالثة ١٤١٩ هـ .

٢٣٠) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط(٢)١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، دار طيبة للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية.

٢٣١) تفسير المراغي، أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ)، الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر.

٢٣٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د/ وهبة بن مصطفى الزحيلي، ط(٢)١٤١٨هـ، دار الفكر المعاصر – دمشق– سوريا.

٢٣٣) تفسير جزء عم، محمد عبده، دار ومكتبه الهلال، ١٩٨٥.

٢٣٤) التفسير والمفسرون، الدكتور محمد السيد حسين الذهبي (المتوفى: ١٣٩٨هـ)، عدد الأجزاء ٣، والجزء الثالث هو نُقول وُجدت في أوراق المؤلف بعد وفاته ونشرها د. محمد البلتاجي، بدون طبعة، مكتبة وهبة، القاهرة.

٢٣٥) تفنيد الشبهات حول ميراث المرأة في الإسلام، أبو عاصم الشحات شعبان محمود عبد القادر البركاتي المصري، تقديم الشيخ وحيد عبد السلام بالي، الطبعة الأولى، ٢٠١٠ م، دار الصفا والمروة بالاسكندرية.

٢٣٦) تقريب التدمرية، لابن عثيمين، ط(١)١٤١٩هـ، دار ابن الجوزي– الدمام– السعودية.

٢٣٧) تقريب الصارم المسلول على شاتم الرسول لابن تيمية، صلاح الصاوي، الطبعة الأولى، دار الإعلام الدولي.

٢٣٨) التقريب والتيسير لمعرفة سنن البشير النذير في أصول الحديث، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، تقديم وتحقيق وتعليق محمد عثمان الخشت، الطبعة الأولى، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م، دار الكتاب العربي، بيروت.

٢٣٩) التقرير والتحبير، أبو عبد الله، شمس الدين محمد بن محمد بن محمد المعروف بابن أمير حاج (المتوفى: ٨٧٩هـ)، الطبعة: الثانية، ١٤٠٣هـ – ١٩٨٣م، الناشر: دار الكتب العلمية.

٢٤٠) تقييد العلم، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، بدون طبعة، إحياء السنة النبوية – بيروت.

٢٤١) تَكملَة مُعجم المُؤلفين، محمد خير بن رمضان بن إسماعيل يوسف، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ – ١٩٩٧م، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

٢٤٢) تلبيس إبليس، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م، دار الفكر للطباعة والنشر، بيرزت، لبنان

٢٤٣) التلخيص في أصول الفقه، عبد الملك بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني، أبو المعالي، ركن الدين، الملقب بإمام الحرمين (المتوفى: ٤٧٨هـ)، المحقق: عبد الله جولم النبالي وبشير أحمد العمري، دار البشائر الإسلامية – بيروت.

٢٤٤) تمهيد الأوائل في تلخيص الدلائل، محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر بن القاسم، القاضي أبو بكر الباقلاني المالكي (المتوفى: ٤٠٣هـ)، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، مؤسسة الكتب الثقافية – لبنان

٢٤٥) التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، دار التوحيد.
٢٤٦) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، يوسف بن عبدالبر، ت: مصطفى العلوي، محمد البكري، وزارة أوقاف المغرب، المغرب، ١٣٨٧هـ.
٢٤٧) تنبيه ذوي الألباب السليمة عن والوقوع في الألفاظ المبتدعة الوخيمة، سليمان بن سحمان بن مصلح العسيري النجدي، دار العاصمة – الرياض- السعودية، بدون طبعة.
٢٤٨) التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، محمد بن أحمد بن عبد الرحمن، أبو الحسين المَلَطي العسقلاني (المتوفى: ٣٧٧هـ)، تحقيق محمد زاهد بن الحسن الكوثري،طبعة ١٤١٣هـ، المكتبة الأزهرية للتراث – مصر.
٢٤٩) تنبيهات هامة على ما كتبه محمد علي الصابوني في صفات الله عز وجل، عبد العزيز بن باز، "ط. الأولى ١٤٠٤ هـ، الدار السلفية – الكويت".
٢٥٠) التنكيل بما في تأنيب الكوثري من الأباطيل، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي، مع تخريجات وتعليقات: محمد ناصر الدين الألباني، زهير الشاويش، عبد الرزاق حمزة، ط(٢)١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، المكتب الإسلامي – بيروت- لبنان.
٢٥١) تنوير القلوب في معاملة علام الغيوب محمد أمين الكردي، ط(١)١٤١٦هـ-١٩٩٥م، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان
٢٥٢) تهذيب الأسماء واللغات، للامام النووي، عنيت بنشره، وتصحيحه، والتعليق عليه، ومقابلة أصوله: شركة العلماء، بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان، بدون طبعة.
٢٥٣) تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، تحقيق: د/ بشار عواد معروف، ط(١)١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، مؤسسة الرسالة – بيروت- لبنان.
٢٥٤) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط(١)٢٠٠١م، دار إحياء التراث العربي – بيروت- لبنان.
٢٥٥) التوبة، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس البغدادي الأموي القرشي المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، تحقيق وتعليق مجدي السيد إبراهيم، بدون طبعة، مكتبة القرآن، مصر.
٢٥٦) توجيه النظر إلى أصول الأثر، طاهر بن صالح السمعوني، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط(١)١٤١٦هـ-١٩٩٥م، مكتبة المطبوعات الإسلامية – حلب- سوريا.
٢٥٧) التوحيد وإثبات صفات الرب – عز وجل ، الإمام أبو بكر بن خزيمة ، تحقيق: د .عبد العزيز بن إبراهيم الشهوان ، ط : أولى دار الرشد ، بالرياض – المملكة العربية السعودية

٢٥٨) التوسل ، أنواعه وأحكامه ، محمد ناصر الدين الألباني ، بعناية محمد عيد العباسي ، ط : ثانية ١٣٩٧ هـ ، المكتب الإسلامي .
٢٥٩) توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، محمد بن عبد الله الدمشقي، ابن ناصر الدين، تحقيق: محمد نعيم العرقسوسي، ط(١)١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.
٢٦٠) توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، تحقيق: زهير الشاويش، ط(٣)١٤٠٦هـ، المكتب الإسلامي- بيروت- لبنان.
٢٦١) تيارات الفكر الإسلامي، محمد عماره، دار الشروق،١٩٩١م.
٢٦٢) التيارات المعاصرة في النقد الأدبي، د. بدوي طبانة، بدون طبعة، دار المريخ- الرياض.
٢٦٣) تيسير التحرير، محمد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمير بادشاه الحنفي (المتوفى: ٩٧٢هـ)، بدون طبعة، دار الفكر – بيروت.
٢٦٤) تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد الذى هو حق الله على العبيد، سليمان بن عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب (المتوفى: ١٢٣٣هـ)،تحقيق زهير الشاويش، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م،المكتب الاسلامي، بيروت، دمشق.
٢٦٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن السعدي، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، ط(١)١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة – بيروت – لبنان.
٢٦٦) الثابت والمتحول بحث في الإبداع والاتباع عند العرب، أدونيس، الطبعة الثامنة ٢٠٠٢م، دار الساقي- بيروت.
٢٦٧) ثبات عقيدة السلف وسلامتها من التغيرات، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، منار السبيل الجزائر، بدون طبعة.
٢٦٨) الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة، د. يوسف القرضاوي، الطبعة الاول، مؤسسة الرسالة- بيروت.
٢٦٩) الجامع (منشور كملحق بمصنف عبد الرزاق)، معمر بن أبي عمرو راشد الأزدي مولاهم، أبو عروة البصري، نزيل اليمن (المتوفى: ١٥٣هـ)، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣ هـ، المجلس العلمي بباكستان، وتوزيع المكتب الإسلامي ببيروت.
٢٧٠) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط(١)١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.
٢٧١) جامع الرسائل، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى : ٧٢٨هـ)،تحقيق د. محمد رشاد سالم، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، دار العطاء – الرياض.

٢٧٢) الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير ، جلال الدين السيوطي ، ط : أولى ١٤٠١ هـ ، دار الفكر ، بيروت – لبنان .
٢٧٣) جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم، زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، المحقق: شعيب الأرناؤوط – إبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: السابعة، ١٤٢٢هـ – ٢٠٠١م.
٢٧٤) جامع المسائل، لابن تيمية، تحقيق: محمد عزير شمس، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، ط(١)١٤٢٢هـ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع– مكة المكرمة– السعودية.
٢٧٥) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (صحيح البخاري)، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة ، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.
٢٧٦) جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق: أبي الأشبال الزهيري، الناشر: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الأولى، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م.
٢٧٧) الجامع لأحكام القرآن(تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت ٦٧١هـ)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط٢، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م، دار الكتب المصرية – القاهرة.
٢٧٨) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف – الرياض.
٢٧٩) الجامع لمسائل أصول الفقه وتطبيقاتها على المذهب الراجح، عبد الكريم بن علي بن محمد النملة، مكتبة الرشد – الرياض – المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م.
٢٨٠) جاهلية القرن العشرين، محمد قطب، الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ.
٢٨١) جزء فيه ذكر اعتقاد السلف في الحروف والأصوات، للإمام النووي، تحقيق: أحمد بن على الدمياطي، ط(١)، مكتبة الأنصار للنشر والتوزيع– القاهرة– مصر.
٢٨٢) جلاء العينين في محاكمة الأحمدين، نعمان بن محمود الآلوسي، قدم له: علي السيد صبح المدني، الناشر: مطبعة المدني– القاهرة– مصر، عام النشر: ١٤٠١هـ–١٩٨١م، بدون طبعة.
٢٨٣) جلال الدين السيوطي عصره وحياته وآثاره وجهوده في الدرس اللغوي، طاهر سليمان حمودة، الطبعة الأولى، ١٤١٠ هـ – ١٩٨٩م، المكتب الاسلامى – بيروت.

٢٨٤) الجموع البهية للعقيدة السلفية التي ذكرها العلامة الشِّنقيطي في تفسيره أضواء البيان، جمع: أبو المنذر محمود بن محمد المنياوي، ط(١)١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، مكتبة ابن عباس- مصر.
٢٨٥) جهد المُقل، للمَرْعَشي، دراسة وتحقيق: د/ سالم قدُّوري الحمد، ط(٢)١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، دار عمان للنشر والتوزيع- عمان- الأردن.
٢٨٦) جهود الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في تقرير عقيدة السلف، عبد العزيز ين صالح بن إبراهيم الطويان، ط(١)١٤١٩هـ-١٩٩٩م، مكتبة العبيكان- الرياض- السعودية.
٢٨٧) جهود المعاصرين في خدمة السنة المشرفة، محمد عبد الله أبو صعيليك، الطبعة الأولى، دار القلم – دمشق.
٢٨٨) جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية (رسالة دكتوراه)، شمس الدين بن محمد بن أشرف الأفغاني، ط(١)١٤١٦هـ-١٩٩٦م، دار الصميعي- الرياض- السعودية.
٢٨٩) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار المعرفة – المغرب.
٢٩٠) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، محمد عرفه الدسوقي، تحقيق محمدعليش،بدون طبعة، دار الفكر-بيروت
٢٩١) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (كفاية الحاجة في شرح سنن ابن ماجه)، محمد بن عبد الهادي التتوي، أبو الحسن، نور الدين السندي، دار الجيل – بيروت- لبنان، بدون طبعة.
٢٩٢) حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، د. جميل عبد الله المصري، طبعة ١٤٠٩هـ، دار أم القرى – عمان.
٢٩٣) الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشافعي وهو شرح مختصر المزني، أبو الحسن الماوردي، تحقيق: علي محمد معوض، عادل أحمد عبد الموجود، ط(١)١٤١٩هـ-١٩٩٩م، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
٢٩٤) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، طبعة ١٤١٤هـ، دار الفكر المعاصر – بيروت.
٢٩٥) الحث على إتباع السنة والتحذير من البدع وبيان خطرها، عبد المحسن بن حمد البدر، ط(١)١٤٢٥هـ، مطبعة سفير – الرياض- السعودية.
٢٩٦) الحث على إتباع السنة والتحذير من البدع وبيان خطرها، عبد المحسن بن حمد البدر، ط(١)١٤٢٥هـ، مطبعة سفير – الرياض- السعودية.
٢٩٧) الحجة في بيان المحجة وشرح عقيدة أهل السنة، إسماعيل بن محمد بن الفضل بن علي القرشي الطليحي التيمي الأصبهاني، أبو القاسم، الملقب بقوام السنة (المتوفى: ٥٣٥هـ)، تحقيق

محمد بن ربيع بن هادي عمير المدخلي، الطبعة الثانية، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، دار الراية - السعودية / الرياض.
٢٩٨) حجية السنة النبوية ومكانتها في التشريع الإسلامي، عبد القادر بن حبيب الله السندي، ط: السنة الثامنة- العدد الثاني- رمضان ١٣٩٥هـ سبتمبر ١٩٧٥م، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة - السعودية.
٢٩٩) حجية السنة ودحض الشبهات التي تثار حولها، أبو حفص محمود بن أحمد النعيمي، ط: السنة الرابعة، العدد الثالث، محرم١٣٩٢هـ- فبراير ١٩٧٢م، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- السعودية.
٣٠٠) حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام، ربيع بن هادي المدخلي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة- السعودية، بدون طبعة.
٣٠١) حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام، عامر بن حسن صبري، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة- السعودية، بدون طبعة.
٣٠٢) حجية خبر الآحاد في العقائد والأحكام، فرحانة بنت علي شويتة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة- السعودية، بدون طبعة.
٣٠٣) الحداثة من منظور إيماني د/ عدنان علي رضا النحوي دار النحوي للنشر والتوزيع الرياض الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ -١٩٩٣م.
٣٠٤) الحداثيون العرب في العقود الثلاثة الأخيرة والقرآن الكريم دراسة نقدية د/ الجيلاني مفتاح دار النهضة سوريا الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.
٣٠٥) حديث الأربعاء، طه حسين، الطبعة الأولى ١٩٦٥، بدون دار نشر.
٣٠٦) الحديث والمحدثون، محمد محمد أبو زهو، ط: ١٣٧٨هـ في القاهرة، دار الفكر العربي- بيروت- لبنان.
٣٠٧) حركات ومذاهب في ميزان الإسلام لفتحي يكن، الطبعة الثانية عشر، ١٤١٨ هـ، مؤسسة الرسالة،
٣٠٨) حز الغلاصم في إفحام المخاصم عند جريان النظر في أحكام القدر،شيث بن إبراهيم بن محمد بن حيدرة، أبو الحسن القفطي، ضياء الدين المعروف بابن الحاج القناوي (المتوفى: ٥٩٨هـ)،تحقيق عبد الله عمر البارودي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥،مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت.
٣٠٩) الحزب الهاشمي، سيد القمني، الطبعة الرابعة١٤١٦/ ١٩٩٦، مكتبة مدبولي.
٣١٠) حقيقة البدعة وأحكامها، سعيد بن ناصر الغامدي، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد- الرياض- السعودية.

٣١١) حقيقة التوحيد بين أهل السنة والمتكلمين، عبد الرحيم بن صمايل السلمي، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ، دار المعلمة للنشر والتوزيع- الرياض.

٣١٢) حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها، د.عبد الرحيم صمايل السلمي، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م-١٤٣٠هـ، مركز التأصيل للدراسات والبحوث- جدة.

٣١٣) حقيقه السنة والبدعة، الأمر بالاتباع والنهي عن الابتداع، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، المحقق: ذيب بن مصري بن ناصر القحطاني، طبعة ١٤٠٩ هـ، مطابع الرشيد.

٣١٤) حكم الإسلام فيمن زعم أن القرآن متناقض، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ط(٧)، العدد الأول، رجب ١٣٩٤هـ -١٩٧٤م، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- السعودية.

٣١٥) الحكم بغير ما أنزل الله أحواله وأحكامه، عبد الرحمن المحمود، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع- الرياض.

٣١٦) حكمة الغرب، برتراند راسل، ترجمة فؤاد زكريا، طبعة ١٤٠٤هـ، عالم المعرفة.

٣١٧) الحكمة، ناصر بن سليمان العمر، بدون طبعة ودار نشر.

٣١٨) الحل الإسلامي فريضة وضرورة، يوسف القرضاوي طبعة١٣٩٤هـ- ١٩٧٤م، مؤسسة الرسالة.

٣١٩) الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، د. يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، مؤسسة الرسالة- بيروت.

٣٢٠) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، أبو نعيم الأصبهاني، مكتبة السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م، بدون طبعة.

٣٢١) حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر، عبد الرزاق بن حسن الميداني، حققه ونسقه وعلق عليه حفيده: محمد بهجة البيطار، ط(٢)١٤١٣هـ-١٩٩٣م، دار صادر- بيروت- لبنان.

٣٢٢) حوار هادئ مع محمد الغزالي، سلمان بن فهد العودة، ط(١)١٤٠٩هـ، بدون ناشر.

٣٢٣) حول التأصيل الإسلامي للعلوم الإجتماعية، محمد قطب،الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ، دار الشروق- القاهرة.

٣٢٤) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، عبد القادر بن عمر البغدادي (المتوفى: ١٠٩٣هـ)، تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون، الطبعة الرابعة، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٣٢٥) الخصائص، أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الطبعة الرابعة، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

٣٢٦) الخطاب الفلسفي المعاصر من العام إلى الأعم"؛ السيد محمد، دار قباء – القاهرة – ط (١)، ٢٠٠٠م.
٣٢٧) الخطوط العريضة للأسس التي قام عليها دين الشيعة الإمامية الاثني عشرية، محب الدين بن أبي الفتح بن عبد القادر بن صالح بن عبد الرحيم بن محمد الخطيب (المتوفى: ١٣٨٩هـ)، تقديم محمد نصيف.
٣٢٨) خلق أفعال العباد، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة البخاري، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٥٦هـ)،تحقيق د. عبد الرحمن عميرة، بدون طبعة، دار المعارف السعودية – الرياض.
٣٢٩) د. هيكل وتاريخ جيل، د. حسين فوزي النجار، طبعة ١٩٨٨م، الهيئة المصرية العامة للكتاب.
٣٣٠) الدر المنثور في التفسير بالمأثور، للسيوطي، دار الفكر– بيروت– لبنان، بدون طبعة.
٣٣١) الدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، علق عليه وخرج أحاديثه: أبو عبد الله الحلبي، ط(١)١٤١٤هـ، دار ابن خزيمة للنشر والتوزيع الرياض– السعودية.
٣٣٢) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، تحقيق: د/ محمد رشاد سالم، ط(٢)١٤١١هـ–١٩٩١م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية– السعودية.
٣٣٣) دراسات إسلامية، حسن حنفي، مكتبة دار الأنجلو المصرية– القاهرة.
٣٣٤) دراسات أصولية في القرآن الكريم، محمد إبراهيم الحفناوي، الطبعة الأولى١٤٢٢ هـ – ٢٠٠٢ م، مكتبة ومطبعة الإشعاع الفنية – القاهرة.
٣٣٥) دراسات فلسفية، حسن حنفي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة.
٣٣٦) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية ، د/ سعد بن عبد العزيز الخلف، ط (١) ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م ، مكتبة أضواء السلف – الرياض _ السعودية .
٣٣٧) دراسات في السيرة النبوية، لمحمد سرور بن نايف، طبعة ١٤٠٦ هجري، دار الأرقم.
٣٣٨) دراسات في الفرق والعقائد الإسلامية، د. عرفان عبد الحميد، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ– ١٩٨٦م، مؤسسة الرسالة– بيروت.
٣٣٩) دراسات في علوم القرآن الكريم، أ. د. فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة: الثانية عشرة ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م، بدون دار نشر.
٣٤٠) الدرة البهية شرح القصيدة التائية في حل المشكلة القدرية، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، ط(١)١٤١٩هـ–١٩٩٨م، أضواء السلف– الرياض– السعودية.
٣٤١) الدرر السنية في الأجوبة النجدية، علماء نجد الأعلام، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط(٦)١٤١٧هـ–١٩٩٦م، بدون ناشر.

٣٤٢) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، تحقيق: محمد عبد المعيد ضان، ط(٢)١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م، مجلس دائرة المعارف العثمانية- صيدر أباد- الهند.
٣٤٣) دعاوى المناوئين لشيخ الإسلام ابن تيمية (عرض ونقد)، د/ عبد الله بن صالح بن عبد العزيز الغصن، ط(١)١٤٢٤هـ، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع- السعودية.
٣٤٤) الدعوة الإصلاحية في بلاد نجد على يد الإمام محمد بن عبد الوهاب وأعلامها من بعده، عبد الله بن محمد بن عبد المحسن المطوع، ط(٣)١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، دار التدمرية الرياض- السعودية.
٣٤٥) دعوة التوحيد ، أصولها والأدوار التي مرت بها ومشاهير دعاتها ، د. محمد خليل هراس ، ط : مكتبة الصحابة ، طنطا – مصر .
٣٤٦) دعوة جمال الدين الأفغاني في ميزان الإسلام، مصطفى فوزي، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤٠٣.
٣٤٧) دفائن النفسية اليهودية، د. محمد علي الزغبي، الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة – بيروت.
٣٤٨) الدلائل الوفية في تحقيق عقيدة النووي، سلفية أم خلفية، أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، وهو في أصلها: محاضرة صوتية، قام بتفريغها، والتعليق عليها: أبو رأفت الأثري، ط(١)١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، الدار الأثرية- عمان- الأردن.
٣٤٩) دليل البحث والتقويم التربوي، أحمد الخطيب وآخرون، طبعة ١٩٨٥م، بدون دار نشر.
٣٥٠) دليل العقول الحائرة في كشف المذاهب المعاصرة، حامد بن عبد الله العلي، بدون طبعة ودار نشر.
٣٥١) الدواء العاجل في دفع العدو الصائل، ضمن مجموعة رسائل الشوكاني التي تنشرها الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة- مركز شئون الدعوة ط١٤١٠هـ.
٣٥٢) دول الإسلام، للإمام الذهبي، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٤م.
٣٥٣) الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج، للسيوطي، حقق أصله، وعلق عليه: أبو إسحاق الحويني الأثري، ط(١)١٤١٦هـ-١٩٩٦م، دار ابن عفان للنشر والتوزيع- السعودية.
٣٥٤) الديمقراطية أبداً، خالد محمد خالد، مطبعة مصر ١٩٥٣م.
٣٥٥) الدين بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، د/ محمد عبد الله دراز ، دار القلم _ الكويت ، بدون طبعة .
٣٥٦) الدين والثورة في مصر، حسن حنفي، مكتبة مدبولي – القاهرة.
٣٥٧) الدين والفن لحسن الترابي، الطبعة الأولى١٤٠٨هجري، الدار السعودية للنشر.

٣٥٨) ديوان أبي إسحاق الإلبيري، إبراهيم بن مسعود بن سعيد، أبو إسحاق التُّجيبي الإلبِيري (المتوفى: ٤٦٠هـ)،تحقيق: د. محمد رضوان الداية، دار قتيبة – دمشق، الطبعة: الثانية، ١٤٠١ – ١٩٨١.

٣٥٩) ديوان الإسلام، شمس الدين أبو المعالي محمد بن عبد الرحمن بن الغزي، تحقيق: سيد كسروي حسن، ط(١)١٤١١هـ–١٩٩٠م، دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان.

٣٦٠) ديوان الإمام الشافعي، تحقيق د. محمد عبد المنعم خفاجي، بدون طبعة، ودار نشر.

٣٦١) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر (تاريخ ابن خلدون)، عبد الرحمن ابن خلدون، تحقيق: خليل شحادة، ط(٢)١٤٠٨هـ–١٩٨٨م، دار الفكر– بيروت– لبنان.

٣٦٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة، للراغب الأصفهاني، تحقيق: د/ أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار النشر: دار السلام– القاهرة– مصر، عام النشر: ١٤٢٨هـ–٢٠٠٧م، بدون طبعة.

٣٦٣) ذم التأويل ، الموفق بن قدامة المقدسي ، المتوفى سنة ٦٢٠ هـ ، تحقيق : بدر بن عبدالله البدر ، ط : أولى ١٤٠٦ هـ .

٣٦٤) ذم الفرقة والاختلاف في الكتاب والسنة، عبد الله بن محمد الغنيمان، ط: السنة السابعه عشرة (العدد: الخامس والستون، السادس والستون) محرم– جماد الأخرة ١٤٠٥هـ–١٩٨٥م، الجامعة الاسلامية بالمدينة المنورة– السعودية.

٣٦٥) ذم الكلام وأهله، أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي (المتوفى: ٤٨١هـ)، تحقيق عبد الرحمن عبد العزيز الشبل، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ –١٩٩٨م،مكتبة العلوم والحكم – المدينة المنورة.ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلي، تحقيق: د/ عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، ط(١)١٤٢٥هـ–٢٠٠٥م، مكتبة العبيكان– الرياض– السعودية.

٣٦٦) رأس الحسين، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق الدكتور السيد الجميلي، بدون طبعة ودار نشر .

٣٦٧) رب الزمان، سيد القمني، الطبعة الثانية ١٩٩٨، دار قباء.

٣٦٨) رد المحتار على الدر المختار، ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي (المتوفى: ١٢٥٢هـ)، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م، دار الفكر–بيروت.

٣٦٩) رد شبهات حول عصمة النبى صلى الله عليه وسلم، عماد السيد محمد إسماعيل الشربيني، رسالة دكتواره . جامعة الأزهر . كلية أصول الدين بالقاهرة . قسم الحديث وعلومه.

٣٧٠) الرد على الجهمية والزنادقة، للإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: صبري بن سلامة شاهين، ط(١)، دار الثبات للنشر والتوزيع– الرياض– السعودية.

٣٧١) الرد على الجهمية، أبو سعيد عثمان بن سعيد الدارمي، تحقيق: بدر بن عبد الله البدر، ط(٢)١٤١٦هـ-١٩٩٥م، دار ابن الأثير- الكويت.

٣٧٢) الرد على المنطقيين، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الطبعة الأولى، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٣٧٣) الرد على مصطفى محمود في إنكار الشفاعة، د. عبد المهدي عبد الهادي، دار الإعتصام- القاهرة.

٣٧٤) الرسالة التبوكية = زاد المهاجر إلى ربه، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق د. محمد جميل غازي،مكتبة المدني – جدة.

٣٧٥) الرسالة التدمرية: تحقيق الإثبات للأسماء والصفات وحقيقة الجمع بين القدر والشرع، لابن تيمية، تحقيق: د/ محمد بن عودة السعوي، ط(٦)١٤٢١هـ-٢٠٠٠م، مكتبة العبيكان- الرياض- السعودية.

٣٧٦) رسالة التوحيد، محمد عبده، الطبعة السادسة عشر ١٩٦٠م، مكتبة القاهرة- القاهرة.

٣٧٧) رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت، عبيد الله بن سعيد السجزيّ، تحقيق: محمد با كريم با عبد الله، ط(٢)١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- السعودية.

٣٧٨) الرسالة العرشية، لابن تيمية، ط(١)١٣٩٩هـ، المطبعة السلفية- القاهرة- مصر

٣٧٩) رسالة في إثبات الاستواء والفوقية، ومسألة الحرف والصوت في القرآن المجيد، وتنزيه الباري عن الحصر والتمثيل والكيفية، لأبي محمد الجُويني، تحقيق: د/ أحمد معاذ بن علوان حقي، ط(١)١٤١٩هـ-١٩٩٨م، دار طويق للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية.

٣٨٠) رسالة في أصول الفقه، أبو علي الحسن بن شهاب بن الحسن بن علي بن شهاب العكبريّ الحنبلي (المتوفى: ٤٢٨هـ)، المحقق: د. موفق بن عبد الله بن عبد القادر، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ-١٩٩٢م، المكتبة المكية – مكة المكرمة.

٣٨١) الرسالة، الشافعي أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)، تحقيق أحمد شاكر، الطبعة الأولى، ١٣٥٨هـ/١٩٤٠م، مكتبة الحلبي، مصر.

٣٨٢) رسائل ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، تحقيق إحسان عباس،الطبعة الأولى،١٩٨٣، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

٣٨٣) رسائل في العقيدة ، محمد بن صالح العثيمين ، ط : أولى ١٤٠٤ هـ ، دار طيبة بالرياض – المملكة العربية السعودية .
٣٨٤) رفع الملام عن الأئمة الأعلام، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، ط٢ ١٤٠٣هـ–١٩٨٣م، الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الرياض – المملكة العربية السعودية.
٣٨٥) روح الإسلام، سيد أمير على، نقله إلى العربية عمر الديراوى، دار العلم للملايين بيروت – الطبعة الأولى.
٣٨٦) روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية، طه عبد الرحمن، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م، المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء.
٣٨٧) الروح في الكلام على أرواح الأموات والأحياء بالدلائل من الكتاب والسنة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، بدون طبعة، دار الكتب العلمية – بيروت.
٣٨٨) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، محمد بن قاسم بن يعقوب الأماسي الحنفي، محيي الدين، ابن الخطيب قاسم (المتوفى: ٩٤٠هـ)، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ، دار القلم العربي، حلب.
٣٨٩) الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم صلى الله عليه وسلم –(وعليه حواشٍ لجماعةٍ من العلماء منهم الأمير الصّنعاني)، ابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني القاسمي، أبو عبد الله، عز الدين، من آل الوزير (المتوفى: ٨٤٠هـ)، تقديم فضيلة الشيخ العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، اعتنى به علي بن محمد العمران، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع.
٣٩٠) روضة الطالبين وعمدة المفتين، للإمام النووي، تحقيق: زهير الشاويش، ط(٣)١٤١٢هـ– ١٩٩١م، المكتب الإسلامي، بيروت– دمشق– عمان.
٣٩١) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، محمد بن حبان الدارمي البُستي، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان، بدون طبعة.
٣٩٢) روضة المحبين ونزهة المشتاقين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣ م.
٣٩٣) روضة الناظر وجنة المناظر في أصول الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)،الطبعة الثانية ١٤٢٣هـ–٢٠٠٢م، مؤسسة الريّان للطباعة والنشر والتوزيع.

٣٩٤) رياض الجنة في الرد على المدرسة العقلية ومنكري السنة، سيد العفاني، بدون طبعة ودار نشر.
٣٩٥) زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)،تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤٢٢ هـ.
٣٩٦) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم، ط(٢٧)١٤١٥هـ-١٩٩٤م، مؤسسة الرسالة- بيروت – لبنان، مكتبة المنار الإسلامية- الكويت.
٣٩٧) زهر الأكم في الأمثال والحكم، الحسن بن مسعود بن محمد، أبو علي، نور الدين اليوسي (المتوفى: ١١٠٢هـ)، تحقيق د محمد حجي، د محمد الأخضر، الطبعة الأولى، ١٤٠١ هـ – ١٩٨١ م، الشركة الجديدة – دار الثقافة، الدار البيضاء – المغرب.
٣٩٨) الزواجر عن اقتراف الكبائر،أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي السعدي الأنصاري،شهاب الدين شيخ الإسلام، أبو العباس (المتوفى: ٩٧٤هـ)،الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م، دار الفكر.
٣٩٩) زيادة الإيمان ونقصانه وحكم الاستثناء فيه، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر، ط(١)١٤١٦هـ-١٩٩٦م، مكتبة دار القلم والكتاب- الرياض- السعودية.
٤٠٠) سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)، (٦٣٩/٥)، الطبعة الأولى، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض.
٤٠١) السلفية مرحلة زمنية مباركة لا مذهب إسلامي، محمد سعيد رمضان البوطي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٨، دار الفكر- دمشق.
٤٠٢) السلفيون والأئمة الأربعة ﷺ، عبد الرحمن بن عبد الخالق اليوسف، ط(٢)١٣٩٨هـ-١٩٧٨م، الدار السلفية- الكويت.
٤٠٣) السنّة ، الحافظ عمرو بن أبي عاصم ، المتوفى سنة ٢٨٧ هـ ، تخريج وتعليق : محمد ناصر الدين الألباني ، ط : أولى ١٤٠٠ هـ ، المكتب الإسلامي .
٤٠٤) السنّة ، عبدالله بن أحمد بن جنبل ، تحقيق : د . محمد بن سعيد القحطاني ، ط: أولى
٤٠٥) السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، محمد الغزالي، الطبعة الأولى ١٩٨٩م، دار الشروق- مصر.
٤٠٦) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى بن حسني السباعي (المتوفى: ١٣٨٤هـ)، الطبعة: الثالثة، ١٤٠٢ هـ – ١٩٨٢م ، المكتب الإسلامي: دمشق – سوريا، بيروت – لبنان.

٤٠٧) السنة، أبو بكر الخَلَّال، تحقيق: د/ عطية الزهراني، ط(١)١٤١٠هـ-١٩٨٩م، دار الراية- الرياض- السعودية.

٤٠٨) السنة، للإمام أحمد بن حنبل، تصحيح: إسماعيل الأنصاري، الرئاسة العامة لإدارة البحوث العلمية والافتاء والدعوة والارشاد بالسعودية، بدون طبعة.

٤٠٩) سنن ابن ماجه، ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، وماجة اسم أبيه يزيد (المتوفى: ٢٧٣هـ)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بدون طبعة، دار إحياء الكتب العربية - فيصل عيسى البابي الحلبي.

٤١٠) سنن أبي داود، حكم على أحاديثه وآثاره وعلق عليه: محمد ناصر الدين الألباني، اعتنى به: مشهور بن حسن آل سلمان، ط(١)، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية.

٤١١) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ)،تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، الطبعة الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥م، عدد الأجزاء: ٥ أجزاء، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر.

٤١٢) سنن الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ)، حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم، الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.

٤١٣) السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣م، دار الكتب العلمية، بيروت.

٤١٤) السيد محمد رشيد رضا إصلاحاته الاجتماعية والدينية، د.محمد أحمد درنيقة، الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة-بيروت

٤١٥) سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق: مجموعة من المحققين، بإشراف الشيخ: شعيب الأرناؤوط، ط(٣)١٤٠٥هـ-١٩٨٥م، مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.

٤١٦) سيرة الإمام أحمد بن حنبل، صالح بن الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: د/ فؤاد عبد المنعم أحمد، ط(٢)١٤٠٤هـ، دار الدعوة – الاسكندرية- مصر.

٤١٧) سيكولوجية العنف، خالص جلبي، طبعة ١٤١٩هـ، دار الفكر المعاصر- بيروت، ودار الفكر – دمشق.

٤١٨) الشامل في أصول الدين، أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله الجويني إمام الحرمين، تحقيق د. علي سامي النشار وفيصل بدير عون وسهير محمد مختار، طبعة ١٩٦٩م، منشأة المعارف بالإسكندرية .
٤١٩) شبهات القرآنيين، عثمان بن معلم محمود بن شيخ علي، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة- السعودية، بدون طبعة.
٤٢٠) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد العَكري الحنبلي، تحقيق: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، ط(١)١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، دار ابن كثير- دمشق، بيروت.
٤٢١) شرح "مسائل الجاهلية لمحمد بن عبد الوهاب"، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، ط(١)١٤٢١هـ-٢٠٠٥م، دار العاصمة للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية.
٤٢٢) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، أبو القاسم هبة الله اللالكائي، تحقيق: أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي، ط(٨)١٤٢٣هـ-٢٠٠٣م، دار طيبة - الرياض- السعودية.
٤٢٣) شرح الأربعين النووية، محمد بن صالح العثيمين(ت١٤٢١هـ)، بدون طبعة، دار الثريا للنشر.
٤٢٤) شرح الأصول الثلاثة، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، ط(١)١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.
٤٢٥) شرح الأصول الخمسة، للقاضي عبد الجبار بن أحمد، تعليق: أحمد بن الحسين بن أبي هاشم، حققه وقدم له: د/ عبد الكريم عثمان، ط(٣)١٤١٦هـ- ١٩٩٦م، مكتبة وهبة- القاهرة - مصر.
٤٢٦) شرح الرسالة التدمرية، محمد بن عبد الرحمن الخميس، ط: ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، دار أطلس الخضراء- الرياض- السعودية.
٤٢٧) شرح السنة، محيي السنة، أبو محمد الحسين البغوي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، محمد زهير الشاويش، ط(٢)١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م، المكتب الإسلامي- دمشق سوريا، بيروت- لبنان.
٤٢٨) شرح السنة، أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري،، بدون طبعة، أو ناشر.
٤٢٩) شرح الصدور بتحريم رفع القبور،محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)،الطبعة الرابعة، ١٤٠٨هـ،الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.
٤٣٠) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٧٤٣هـ)،المحقق: د. عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة - الرياض).
٤٣١) شرح العقيدة الأصفهانية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق محمد بن رياض الأحمد،الطبعة الأولى - ١٤٢٥هـ، المكتبة العصرية - بيروت.

٤٣٢) شرح العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية)، لابن عثيمين، ط(١)١٤٢٦هـ، دار الوطن للنشر- الرياض- السعودية.

٤٣٣) شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، تحقيق: جماعة من العلماء، تخريج: ناصر الدين الألباني، ط(١)١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة- القاهرة- مصر.

٤٣٤) شرح العقيدة الطحاوية، صدر الدين محمد بن علاء الدين عليّ بن محمد ابن أبي العز الحنفي، الأذرعي الصالحي الدمشقي (المتوفى: ٧٩٢هـ).تحقيق: شعيب الأرنؤوط - عبد الله بن المحسن التركي، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة: العاشرة، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

٤٣٥) شرح العقيدة الواسطية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، تحقيق سعد فواز الصميل، الطبعة الخامسة، ١٤١٩هـ، دار ابن الجوزي، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٤٣٦) شرح الفقه الأكبر، للملا علي القاريء الحنفي،الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية- بيروت.

٤٣٧) شرح القواعد الأربع، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، تحقيق خالد الردادي، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ -٢٠٠٣م، مؤسسة الرسالة.

٤٣٨) شرح الكافية الشافية، محمد بن عبد الله، ابن مالك الطائي الجياني، أبو عبد الله، جمال الدين (المتوفى: ٦٧٢هـ)، المحقق: عبد المنعم أحمد هريدي، الطبعة: الأولى، جامعة أم القرى مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية مكة المكرمة.

٤٣٩) الشرح الكبير لمختصر الأصول من علم الأصول، أبو المنذر محمود بن محمد بن مصطفى بن عبد اللطيف المنياوي، المكتبة الشاملة، مصر، الطبعة الأولى، ١٤٣٢ هـ - ٢٠١١.

٤٤٠) شرح المقاصد في علم الكلام، سعد الدين التفتازاني، ط(١)١٤٠١هـ-١٩٨١م، دار المعارف النعمانية - باكستان.

٤٤١) شرح الورقات في أصول الفقه، عبد الله صالح الفوزان، الطبعة الرابعة ١٤٣٤هـ، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع- الرياض.

٤٤٢) شرح تنقيح الفصول، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن المالكي الشهير بالقرافي (المتوفى: ٦٨٤هـ)، المحقق: طه عبد الرؤوف سعد، الطبعة الأولى، ١٣٩٣ هـ - ١٩٧٣ م، الناشر: شركة الطباعة الفنية المتحدة.

٤٤٣) شرح حديث النزول، لابن تيمية، ط(٥)١٣٩٧هـ-١٩٧٧م، المكتب الإسلامي- بيروت- لبنان.

٤٤٤) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الطبعة الأولى ١٤٢٦ هـ، دار الوطن للنشر، الرياض.

٤٤٥) شرح كتاب التوحيد من صحيح البخاري، عبد الله بن محمد الغنيمان، ط(١)١٤٠٥هـ، مكتبة الدار – المدينة المنورة– السعودية.

٤٤٦) شرح مختصر الروضة، سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري، أبو الربيع، نجم الدين (المتوفى : ٧١٦هـ)، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، مؤسسة الرسالة.

٤٤٧) شرحُ مُسْنَد الشَّافِعيِّ، عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم، أبو القاسم الرافعي القزويني (المتوفى: ٦٢٣هـ)، تحقيق أبو بكر وائل محمَّد بكر زهران، الطبعة الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧ م، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية إدارة الشؤون الإسلامية، قطر.

٤٤٨) شرح مشكل الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة: الأولى – ١٤١٥ هـ، ١٤٩٤م، مؤسسة الرسالة.

٤٤٩) شرح معاني الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ)، حققه وقدم له: (محمد زهري النجار – محمد سيد جاد الحق)، راجعه ورقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: د يوسف عبد الرحمن المرعشلي، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ، ١٩٩٤ م، عالم الكتب.

٤٥٠) الشرح والإبانة على أصول السنّة والديانة، الإمام عبيد الله محمد بن بطة ، المتوفى سنة ٣٨٧ هـ ، تحقيق : رضا بن نعسان معطي ، ط : ١٤٠٤ هـ ، المكتبة الفيصلية بمكة المكرمة

٤٥١) شرف أصحاب الحديث،أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، تحقيق د. محمد سعيد خطي اوغلي، بدون طبعة، دار إحياء السنة النبوية – أنقرة.

٤٥٢) الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية، محمد عمارة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ–٢٠٠٣م، دار الشروق.

٤٥٣) الشريعة، أبو بكر محمد بن الحسين الآجُرِّيُّ البغدادي، تحقيق: د/ عبد الله بن عمر بن سليمان الدميجي، ط(٢)١٤٢٠ هـ–١٩٩٩م، دار الوطن– الرياض– السعودية.

٤٥٤) شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ – ٢٠٠٣ م، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند.

٤٥٥) الشفا بتعريف حقوق المصطفى،عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل (المتوفى: ٥٤٤هـ)، الطبعة الثانية – ١٤٠٧ هـ، دار الفيحاء – عمان.

٤٥٦) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل،محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)،(٨٣/١)، طبعة ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م،دار المعرفة، بيروت، لبنان.

٤٥٧) الشفاعة حوار علمي استدلالي بين د. يوسف القرضاوي ود. مصطفى محمود ، الدكتور محمد شيخاني، الطبعة الأولى، دار قتيبة– دمشق.

٤٥٨) شفاعة صاحب الحوض المورود والرد على شبهات مصطفى محمود، د. مصطفى الذهبي، الطبعة الأولى، دار الفتح– القاهرة

٤٥٩) الشفاعة في الآخرة بين النقل والعقل، د. يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى، دار نهضة مصر – القاهرة.

٤٦٠) الشفاعة في القرآن والسنة وعقيدة المسلمين، د. فاروق حمادة، دار الكلم الطيب– دمشق.

٤٦١) الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، لابن فارس، تحقيق: الطباع، مكتبة المعارف– بيروت– لبنان، ١٤١٤هـ.

٤٦٢) الصارم المسلول على الترابي شاتم الرسول لأحمد بن مالك، جامعة أم درمان، قسم الدراسات العليا

٤٦٣) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط(٤)١٤٠٧هـ–١٩٨٧م، دار العلم للملايين – بيروت– لبنان.

٤٦٤) الصحافة والسياسة في مصر منذ نشأتها إلى الحرب العالمية الثانية، أنور الجندي، مطبعة الرسالة– القاهرة.

٤٦٥) صحيح الترغيب والترهيب، للألباني، ط(٥)، مكتبة المعارف– الرياض– السعودية.

٤٦٦) صحيح الجامع الصغير وزيادته ، محمد ناصر الدين الألباني ، ط : ثالثة ١٤٠٢ هـ ، المكتب الإسلامي .

٤٦٧) صدمة الحداثة، أدونيس (د. علي أحمد سعيد)، الطبعة الرابعة، دار العودة– بيروت.

٤٦٨) الصفات الإلهية في الكتاب والسنة النبوية في ضوء الإثبات والتنزيه، أبو أحمد محمد أمان بن علي جامي علي (المتوفى: ١٤١٥هـ)، ط(١) ١٤٠٨هـ، الناشر: المجلس العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة– المملكة العربية السعودية.

٤٦٩) الصفات، الحافظ أبو الحسن علي بن عمر الدارقطني ، المتوفى سنة ٣٨٥ هـ، تحقيق : د. علي بن محمد الفقيهي (مع نزول الكتاب) .

٤٧٠) صفة الصفوة، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ)، تحقيق أحمد بن علي، الطبعة ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، دار الحديث، القاهرة، مصر.

٤٧١) صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم من التكبير إلى التسليم كأنك تراها، محمد ناصر الدين الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ) بدون طبعة، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع – الرياض
٤٧٢) الصفدية، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى : ٧٢٨هـ)،تحقيق محمد رشاد سالم،الطبعة الثانية، ١٤٠٦هـ، مكتبة ابن تيمية، مصر.
٤٧٣) الصمت وآداب اللسان، أبو بكر عبد الله ابن أبي الدنيا، دراسة وتحقيق: نجم عبد الرحمن خلف (رسالة دكتوراه)، بإشراف: د/عبد المجيد النجار، ط(١)١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، دار الغرب الإسلامي- بيروت- لبنان.
٤٧٤) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، لابن القيم، تحقيق: علي بن محمد الدخيل الله، ط(١)١٤٠٨هـ، دار العاصمة- الرياض- السعودية.
٤٧٥) صيد الخاطر، لابن الجوزي، اعتنى به: حسن المساحي سويدان، ط(١)١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، دار القلم – دمشق – سوريا.
٤٧٦) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، بدون طبعة، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت.
٤٧٧) ضوابط التكفير عند أهل السنة والجماعة ، د. عبد الله القرني، الطبعة الثانية، مؤسسة الرسالة- بيروت.
٤٧٨) ضوابط فهم السنة، د. عبد الله بن وكيل الشيخ، بحث مؤتمر مقدم لندوة فهم السنة النبوية " الضوابط والإشكالات"، المنعقدة بالرياض، بتاريخ ١٤٣٠/٦/٤هـ.
٤٧٩) طبائع الاستبداد، عبد الرحمن الكواكبي، الطبعة الأولى ١٣٥٠هـ، مصر.
٤٨٠) طبقات الحفاظ، للسيوطي، ط(١)١٤٠٣هـ، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
٤٨١) طبقات الحنابلة، أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار المعرفة – بيروت- لبنان، بدون طبعة.
٤٨٢) طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين عبد الوهاب السبكي، تحقيق: د/ محمود محمد الطناحي، د/ عبد الفتاح محمد الحلو، ط(٢)١٤١٣هـ، هجر للطباعة والنشر والتوزيع-القاهرة- مصر.
٤٨٣) طبقات الشافعية، أبو بكر بن أحمد ابن قاضي شهبة، تحقيق: د/ الحافظ عبد العليم خان، ط(١)١٤٠٧هـ، عالم الكتب – بيروت- لبنان.
٤٨٤) طبقات الشافعيين، لابن كثير، تحقيق: د/ أحمد عمر هاشم، د/ محمد زينهم محمد عزب، الناشر: مكتبة الثقافة الدينية، تاريخ النشر: ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، بدون طبعة.

٤٨٥) طبقات الفقهاء الشافعية، لابن الصلاح، هذبه، واستدرك عليه: الإمام النووي، بيض أصوله، ونقحه: أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المِزِّي، تحقيق: محيي الدين علي نجيب، ط(١)١٤١٣هـ-١٩٩٢م، دار البشائر الإسلامية- بيروت- لبنان.

٤٨٦) طبقات الفقهاء، أبو اسحاق إبراهيم بن علي الشيرازي، تحقيق: إحسان عباس، تهذيب: محمد بن مكرم ابن منظور، ط(١)١٩٧٠م، دار الرائد العربي- بيروت- لبنان.

٤٨٧) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ / ١٩٩٩ م، دار الكلمة.

٤٨٨) ظاهرة التأويل الحديثة في الفكر العربي المعاصر، د. خالد بن عبد العزيز السيف، الطبعة الثانية ١٤٣٢هـ-٢٠١١م، مركز التأصيل للدراسات والبحوث- جدة.

٤٨٩) العالمية الإسلامية الثانية جدلية الغيب والإنسان والطبيعة، محمد أبو القاسم حاج حمد، الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، دار الهادي – بيروت.

٤٩٠) عُجَالة الإملاءِ المتَيسرةِ من التذنيب عَلى ما وقَع للحَافِظ المنذِري مِنَ الوَهْم وغيره في كِتابه الترغيب والترهيب، إبراهيم بن محمد بن محمود بن بدر، برهان الدين، أبو إسحاق الحلبي القبيباتي الشافعيّ الناجي (المتوفى: ٩٠٠هـ)، تحقِيق وَدِرَاسة: الدكتور إبراهيم بن حماد الريس، الدكتور محمد بن عبد الله بن علي القنّاص، الطبعة الأولي، ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩م، مَكتَبة المعَارف للنشر وَالتوزيع، الرياض.

٤٩١) عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي، بدون طبعة، بيروت.

٤٩٢) العدة في أصول الفقه، القاضي أبو يعلى الفراء، حققه وعلق عليه وخرج نصه: د/ أحمد بن علي بن سير المباركي، ط(٢)١٤١٠هـ-١٩٩٠م، بدون ناشر.

٤٩٣) العرش، للذهبي، تحقيق: محمد بن خليفة بن علي التميمي، ط(٢)١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية- المدينة المنورة- السعودية.

٤٩٤) العصرانية في حياتنا الاجتماعية، عبدالرحمن بن زيد الزنيدي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، دار المسلم، الرياض.

٤٩٥) العصرانيون بين مزاعم التجديد وميادين التغريب، محمد حامد الناصر، الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، دار الكوثر – الرياض.

٤٩٦) العقد التليد في اختصار الدر النضيد (المعيد في أدب المفيد والمستفيد)، عبد الباسط بن موسى بن محمد بن إسماعيل العلموي ثم الموقت الدمشقي الشافعيّ (المتوفى: ٩٨١هـ)، تحقيق الدكتور/ مروان العطية، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ-٢٠٠٤م، مكتبة الثقافة الدينية.

٤٩٧) العقد الفريد، أبو عمر، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عبد ربه ابن حبيب ابن حدير بن سالم المعروف بابن عبد ربه الأندلسي (المتوفى: ٣٢٨هـ)، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، دار الكتب العلمية – بيروت.
٤٩٨) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي (المتوفى: ٧٤٤هـ)، تحقيق محمد حامد الفقي، بدون طبعة، دار الكاتب العربي – بيروت.
٤٩٩) عقيدة السلف أصحاب الحديث ، أبو إسماعيل الصابوني . تحقيق : بدر البدر ، ط : الدار السلفية ، ط أولى ١٤٠٤ هـ .
٥٠٠) العقيدة الصحيحة وما يضادها، عبد العزيز بن عبد الله بن باز، ط: السنة السابعة، العدد الثالث، محرم ١٣٩٥هـ- يناير١٩٧٥م، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- السعودية.
٥٠١) العقيدة الواسطية: اعتقاد الفرقة الناجية المنصورة إلى قيام الساعة أهل السنة والجماعة، لابن تيمية، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، ط(٢)١٤٢٠هـ-١٩٩٩م، أضواء السلف- الرياض- السعودية.
٥٠٢) علم أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف (المتوفى : ١٣٧٥هـ)،الطبعة الثامنة ، مكتبة الدعوة - شباب الأزهر ودار القلم.
٥٠٣) علماء نجد، عبد الله بن عبد الرحمن البسام، "ط. الأولى ١٣٩٨هـ، مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة بمكة.
٥٠٤) العلمانية – المفهوم والمظاهر والأسباب، أبو سفيان مصطفى باحُّو السلاوي المغربي، الطبعة الأولى، ١٤٣٢هـ – ٢٠١١م، مطبعة جريدة السبيل، المغرب.
٥٠٥) العِلمانيَّة – نشأتهَا وتطوّرهَا وآثارُهَا في الحيَاة الإسلاميَّة المُعَاصِرَة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، بدون طبعة، دار الهجرة.
٥٠٦) العلمانية تحت المجهر، عزيز العظمة وعبد الوهاب المسيري، الطبعة الأولى ١٤٢١/ ٢٠٠٠، دار الفكر بيروت ودمشق.
٥٠٧) العلمانية، الليبرالية، الديمقراطية، الدولة المدنية في ميزان الإسلام، جمع وترتيب: اللجنة العلمية بجمعية الترتيل، تحت إشراف: الشيخ محمد عبد العزيز أبو النجا، قدم له: الأستاذ الدكتور محمد نعيم محمد هاني الساعي، الطبعة الثالثة، بدون دار نشر.
٥٠٨) العلمانيون والقرآن الكريم، د. أحمد إدريس الطعان، الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ، مكتبة ودار ابن حزم للنشر والتوزيع- الرياض.
٥٠٩) علو الهمة، محمد بن أحمد بن إسماعيل المقدم،الطبعة الاولى٢٠٠٤ م، دار القمة – دار الإيمان، مصر.

٥١٠) العلو للعلي الغفار في إيضاح صحيح الأخبار وسقيمها، للذهبي، تحقيق: أبو محمد أشرف بن عبد المقصود، ط(١)١٤١٦هـ-١٩٩٥م، مكتبة أضواء السلف- الرياض- السعودية.

٥١١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ)، بدون طبعة ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٥١٢) العمل قدرة وإرادة، جودت سعيد،الطبعة الثانية ١٤١٤هـ، دار الفكر المعاصر – بيروت.

٥١٣) عناية المسلمين باللغة العربية خدمة للقرآن الكريم، أ. د. أحمد بن محمد الخراط، أبو بلال،بدون طبعة، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

٥١٤) العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي ﷺ، لا بن العربي، قدم له وعلق عليه: محب الدين الخطيب، ط(١)١٤١٩هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- السعودية.

٥١٥) عوامل وأهداف نشأة علم الكلام في الإسلام، د/ يحيى هاشم فرغل، مطبوعات مجمع البحوث الاسلامية، ١٣٩٢هـ.

٥١٦) عون المعبود شرح سنن أبي داود، ومعه حاشية ابن القيم: تهذيب سنن أبي داود وإيضاح علله ومشكلاته، محمد أشرف بن أمير بن علي بن حيدر، أبو عبد الرحمن، شرف الحق، الصديقي، العظيم آبادي (المتوفى: ١٣٢٩هـ)،الطبعة الثانية، ١٤١٥ هـ، دار الكتب العلمية – بيروت.

٥١٧) العين والأثر في عقائد أهل الأثر، عبد الباقي بن عبد الباقي، ابن فَقِيه فُصَّة، تحقيق: عصام رواس قلعجي، ط(١)١٤٠٧هـ، دار المأمون للتراث- بيروت- لبنان.

٥١٨) غاية المرام في علم الكلام، للآمِدي، تحقيق: حسن محمود عبد اللطيف، المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، دمشق- سوريا، بيروت- لبنان.

٥١٩) غريب الحديث، عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، تحقيق: د/ عبد الله الجبوري، ط(١)١٣٩٧هـ، مطبعة العاني- بغداد- العراق.

٥٢٠) غريب الحديث، للخطابي، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم الغرباوي، خرج أحاديثه: عبد القيوم عبد رب النبي، ط: ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، دار الفكر- بيروت- لبنان.

٥٢١) الغلو في الدين في حياة المسلمين المعاصرة، عبد الرحمن بن معلًّا اللويحق،الطبعة الأولى، مؤسسة الرسالة- بيروت.

٥٢٢) غمز عيون البصائر في شرح الأشباه والنظائر، أحمد بن محمد مكي، أبو العباس، شهاب الدين الحسيني الحموي الحنفي (المتوفى: ١٠٩٨هـ)، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار الكتب العلمية بيروت.

٥٢٣) الفاشيون والوطن، سيد القمني، الطبعة الأولى ١٩٩٩م، المركز المصري لبحوث الحضارة- القاهرة.
٥٢٤) الفائق في غريب الحديث والأثر، أبو القاسم محمود الزمخشري جار الله، تحقيق: علي محمد البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط(٢)، دار المعرفة-بيروت- لبنان.
٥٢٥) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، ط(١)١٤٠٨هـ-١٩٨٧م، دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان.
٥٢٦) فتح الباري بشرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، عليه تعليقات العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.
٥٢٧) فتح الباري، زين الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن شهاب الدين البغدادي ثم الدمشقي الشهير بابن رجب، تحقيق : أبو معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، ط(٢) دار النشر : دار ابن الجوزي -الدمام - السعودية ١٤٢٢هـ.
٥٢٨) فتح القدير، محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، الطبعة: الأولى - ١٤١٤ هـ، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت
٥٢٩) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب بن سليمان التميمي (المتوفى: ١٢٨٥هـ)،تحقيق محمد حامد الفقي، الطبعة السابعة، ١٣٧٧هـ/١٩٥٧م، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، مصر.
٥٣٠) فتح المغيث بشرح الفية الحديث للعراقي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي بكر بن عثمان بن محمد السخاوي (المتوفى: ٩٠٢هـ)، تحقيق علي حسين علي، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م،مكتبة السنة - مصر.
٥٣١) فتح رب البرية بتلخيص الحموية، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، دار الوطن للنشر- الرياض- السعودية، بدون طبعة.
٥٣٢) الفتوى الحموية الكبرى، لابن تيمية، تحقيق: د/ حمد بن عبد المحسن التويجري، ط(٢)١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، دار الصميعي- الرياض- السعودية.
٥٣٣) الفرق الاسلامية الكلامية مدخل ودراسة، د/ علي عبد الفتاح المغربي، ط(٢)١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، مكتبة وهبة - القاهرة - مصر.
٥٣٤) الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية عبد القاهر بن طاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي الأسفراييني، أبو منصور (المتوفى: ٤٢٩هـ)، الطبعة الثانية، ١٩٧٧، دار الآفاق الجديدة - بيروت.
٥٣٥) فرق معاصرة تنتسب إلى الإسلام وبيان موقف الإسلام منها، د. غالب بن علي عواجي، الطبعة الرابعة، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١م، المكتبة العصرية الذهبية للطباعة والنشر والتسويق، جدة.

٥٣٦) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، شيخ الإسلام ابن تيمية . تعليق : محمد بن عبدالوهاب فايد ، نشر رئاسة البحوث بالمملكة العربية السعودية .

٥٣٧) الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم الأندلسي، مكتبة الخانجي– القاهرة –مصر، بدون طبعة.

٥٣٨) فصول البدائع في أصول الشرائع، محمد بن حمزة بن محمد، شمس الدين الفناري (أو الفَنَري) الرومي (المتوفى: ٨٣٤هـ)، تحقيق محمد حسين محمد حسن إسماعيل، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦ م – ١٤٢٧ هـ، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

٥٣٩) فضائل الصحابة ، الإمام أحمد بن حنبل ، المتوفى سنة ٢٤١ هـ . تحقيق : وحي الله بن محمد عباس . ط : أولى ١٤٠٣ هـ . مؤسسة الرسالة ، بيروت – لبنان .

٥٤٠) فضل علم السلف على الخلف، عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي (المتوفى: ٧٩٥هـ)، مطبوع ضمن مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي، المحقق: أبو مصعب طلعت بن فؤاد الحلواني، الطبعة: الثانية، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣ م، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر.

٥٤١) الفقه الإسلامي وأدلته أ. د/ وهبة الزحيلي، ط(٢)١٤٠٥هـ–١٩٨٥م، دار الفكر– دمشق– سوريا.

٥٤٢) فقه اللغة وسر العربية، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: ٤٢٩هـ)، تحقيق عبد الرزاق المهدي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ – ٢٠٠٢م، دار إحياء التراث العربي.

٥٤٣) الفقيه والمتفقه، الخطيب البغدادي، تحقيق: أبو عبد الرحمن عادل بن يوسف الغرازي، ط(٢)١٤٢١هـ، دار ابن الجوزي– السعودية.

٥٤٤) الفكر الإسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربي د/ محمد البهي دار المعارف المصرية الطبعة،العاشرة،١٩٩١م.

٥٤٥) الفكر الإسلامي المعاصر، غازي التوبة، طبعة ١٩٧٧م، دار المعرفة– بيروت.

٥٤٦) الفكر الإسلامي قراءة علمية"، محمد أركون، الطبعة الثانية ١٩٩٦م، مركز الإنماء القومي– بيروت.

٥٤٧) الفكر الإسلامي نقد واجتهاد، محمد أركون، ترجمة وتعليق هاشم صالح، دار الساقي بيروت، الطبعة الثانية.

٥٤٨) الفكر الأصولي واستحالة التأصيل نحو تاريخ آخر للفكر الإسلامي، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح،، الطبعة الثانية ٢٠٠٢م، دار الساقي– بيروت.

٥٤٩) الفكر العربي في عصر النهضة، ألبرت حوراني، ترجمة كريم عزوقيل، بدون طبعة، دار النهار– بيروت.

٥٥٠) الفكر الليبرالي في الصحافة المصرية، فاروق أبو زيد، عالم الكتب– القاهرة.

٥٥١) الفن القصصي في القرآن الكريم، محمد أحمد خلف الله، الطبعة الرابعة ١٩٩٩م، دار ابن سينا– القاهرة.

٥٥٢) فهم القرآن الحكيم التفسير الواضح حسب ترتيب النزول، محمد عابد الجابري ٢٠٠٩م بيروت لبنان مركز دراسات الوحدة العربية.

٥٥٣) فهم القرآن ومعانيه، الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٤٣هـ)، تحقيق حسين القوتلي، الطبعة الثانية:١٣٩٨ ، دار الكندي ، دار الفكر – بيروت.

٥٥٤) الفوائد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، الطبعة: الثانية، ١٣٩٣ هـ – ١٩٧٣ م، دار الكتب العلمية – بيروت.

٥٥٥) في حاجة إلى الإصلاح، محمد عابد الجابري، المنشور في مجلة مواقف العدد٣٢ ص٣٣

٥٥٦) في ظلال القرآن، سيد قطب، ط(١٧)١٤١٢هـ، دار الشروق– بيروت– لبنان، القاهرة– مصر.

٥٥٧) في قراءة النص الديني"؛ عبدالمجيد الشرفي، كمال عمران، المنصف بن عبدالجليل، الباجي القمرتي، داد القاضي، الدار التونسية للنشر، ط (٢)، ١٩٩٠م.

٥٥٨) في قضايا الدِّين والفكر محمَّد عابد الجابري مجلة فكر ونقد المغرب، السنة الأولى، العدد ٩، ماي ١٩٩٨م.

٥٥٩) فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة، لأبي حامد الغزالي، قرأه، وخرج أحاديثه، وعلق عليه: محمود بيجو، ط(١)١٤١٣هـ–١٩٩٣م، بدون ناشر.

٥٦٠) فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي، تعليق: ماجد الحموي، ط(١)١٣٥٦هـ، المكتبة التجارية الكبرى– مصر.

٥٦١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة ، شيخ الإسلام ابن تيمية ، ط : ثانية ١٣٩٨ هـ ، المكتب الإسلامي ، بيروت – لبنان .

٥٦٢) قاموس الفكر السياسي، مجموعة من المختصين، ترجمة د. أنطون حمصي، الطبعة الأولى ١٩٩٤م، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية– دمشق.

٥٦٣) القاموس المحيط، للفيروزآبادى، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، ط(٨)١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع– بيروت– لبنان.

٥٦٤) القائد إلى تصحيح العقائد "وهو القسم الرابع من كتاب "التنكيل بما تأنيب الكوثري من الأباطيل"، المعلمي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، ط(٣)١٤٠٤هـ–١٩٨٤م، المكتب الإسلامي– بيروت– لبنان.

٥٦٥) القراءات المعاصرة للقرآن الكريم في ضوء ضوابط التفسير د/ محمد محمود كالو، دار اليمان، سوريا الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ- ٢٠٠٩م.

٥٦٦) قراءات في الفلسفة العربية المعاصرة؛ كمال عبداللطيف، دار الطليعة، بيروت، ط (١) ١٩٩٤م.

٥٦٧) قراءة علمية للقراءات المعاصرة؛ د.شوقي أبو خليل، دار الفكر، سوريا، ط (١) ١٤١١هـ.

٥٦٨) القرآن الكريم ومناهج تحليل الخطاب د/ عبد الرزاق هرماس جامعة قطر حولية كلية الشريعة والقانون والدراسات الإسلامية العدد التاسع عشر ١٤٢٢هـ.

٥٦٩) القرآن والتشريع...قراءة جديدة في آيات الأحكام، الصادق بلعيد مركز النشر الجامعي تونس،١٩٩٩م.

٥٧٠) القضاء والقدر ، أ.د. عمر سليمان عبد الله الأشقر، ضمن سلسلة العقيدة في ضوء الكتاب والسنة، ط (١٣) ١٤٢٥هـ _ ٢٠٠٥م، دار النفائس للنشر والتوزيع _ عمان _ الأردن.

٥٧١) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه ، د/عبد الرحمن بن صالح المحمود ، ط (٢) ١٤١٨هـ _ ١٩٩٧، دار الوطن _ الرياض _ السعودية.

٥٧٢) القضاء والقدر، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: محمد بن عبد الله آل عامر، مكتبة العبيكان - الرياض / السعودية، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٥٧٣) قضايا في نقد العقل الديني كيف نفهم الإسلام اليوم، محمد أركون، ترجمة هاشم صالح، الطبعة الثالثة ٢٠٠٤م، دار الطليعة -بيروت.

٥٧٤) قضية التنوير في العالم الإسلامي، محمد قطب، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ، دار الشروق- القاهرة.

٥٧٥) قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، القِنَّوجي، ط(١)١٤٢١هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - السعودية.

٥٧٦) قطف الجني الداني شرح مقدمة رسالة ابن أبي زيد القيرواني، عبد المحسن بن حمد البدر، ط(١)١٤٢٣هـ-٢٠٠٢، دار الفضيلة- الرياض- السعودية.

٥٧٧) قمع الدجاجلة الطاعنين في معتقد أئمة الإسلام الحنابلة، عبد العزيز بن فيصل الراجحي، ط(١)١٤٢٤هـ، مطابع الحميضي- الرياض- السعودية.

٥٧٨) قواطع الأدلة في الأصول، أبو المظفر، منصور بن محمد بن عبد الجبار ابن أحمد المروزى السمعاني التميمي الحنفي ثم الشافعي (المتوفى: ٤٨٩هـ)، المحقق: محمد حسن محمد حسن اسماعيل الشافعي، الطبعة: الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٩م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٥٧٩) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، أبو محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء (المتوفى: ٦٦٠هـ)، راجعه وعلق عليه طه عبد الرؤوف سعد، ١٤١٤ هـ - ١٩٩١ م، مكتبة الكليات الأزهرية – القاهرة، ودار الكتب العلمية – بيروت، ودار أم القرى – القاهرة.

٥٨٠) قواعد الاستدلال على مسائل الاعتقاد، عثمان علي حسن، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، دار الوطن للنشر–الرياض.

٥٨١) قواعد العقائد، لأبي حامد الغزالي، تحقيق: موسى محمد علي، ط(٢)١٤٠٥هـ–١٩٨٥م، عالم الكتب– بيروت – لبنان.

٥٨٢) القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)، الطبعة الثالثة، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة.

٥٨٣) قواعد المنهج السلفي في الفكر الإسلامي، د/ مصطفى حلمي، ط(١)١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية– بيروت– لبنان.

٥٨٤) القول السديد شرح كتاب التوحيد، عبد الرحمن بن ناصر آل سعدي، ط(٢)١٤٢١هـ، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – السعودية.

٥٨٥) القول المفيد على كتاب التوحيد، لابن عثيمين، ط(٢)١٤٢٤هـ، دار ابن الجوزي– السعودية.

٥٨٦) القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد، للإمام الشوكاني، تحقيق: عبد الرحمن عبد الخالق، ط(١)١٣٩٦م، دار القلم – الكويت.

٥٨٧) الكامل في التاريخ، أبو الحسن ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، ط(١)١٤١٧هـ–١٩٩٧م، دار الكتاب العربي– بيروت – لبنان.

٥٨٨) كتاب التوحيد، صالح بن فوزان بن عبد الله الفوزان، ط(٤)١٤٢٣هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد – السعودية.

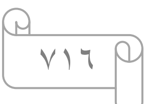
٥٨٩) كتاب العلم، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ)،(٢٢/١)، تحقيق: صلاح الدين محمود، مكتبة نور الهدى، ط١ ، بدون سنة طباعة.

٥٩٠) الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي (المتوفى: ٢٣٥هـ)، المحقق: كمال يوسف الحوت، الطبعة: الأولى، ١٤٠٩، مكتبة الرشد – الرياض.

٥٩١) الكتاب والقرآن قراءة معاصرة، محمد شحرور ،بدون طبعة ، دار الأهالي– دمشق.

٥٩٢) كتابات أعداء الإسلام ومناقشتها، عماد السيد محمد إسماعيل الشربينى، الطبعة الأولى١٤٢٢هـ–٢٠٠٢م، دار الكتب المصرية .

٥٩٣) الكراديب، تركي الحمد، بدون طبعة، دار الساقي– بيروت.



٥٩٤) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان .
٥٩٥) كشف الأسرار عن أصول البزدوي، عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي (المتوفى: ٧٣٠هـ)، دار الكتاب الإسلامي.
٥٩٦) كشف الشبهات، محمد بن عبد الوهاب، ط(١)١٤١٨هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد– السعودية.
٥٩٧) كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مصطفى بن عبد الله حاجي خليفة، مكتبة المثنى– بغداد– العراق، ١٩٤١م.
٥٩٨) الكفاية في علم الرواية، للخطيب البغدادي، تحقيق: أبو عبد الله السورقي، إبراهيم حمدي المدني، المكتبة العلمية – المدينة المنورة – السعودية، بدون طبعة.
٥٩٩) الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، المحقق: عدنان درويش – محمد المصري، طبعة ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م، مؤسسة الرسالة – بيروت.
٦٠٠) كواشف زيوف، عبد الرحمن بن حسن حَبَنَّكَة الميداني الدمشقي (المتوفى: ١٤٢٥هـ)، الطبعة الثانية، ١٤١٢ هـ – ١٩٩١م، دار القلم، دمشق.
٦٠١) كيف نتعامل مع السنة النبوية – معالم وضوابط، يوسف عبد الله القرضاوي، الطبعة السادسة، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٣ م، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة – مصر.
٦٠٢) اللباب في تهذيب الأنساب، أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير (المتوفى: ٦٣٠هـ)، الطبعة الأولى، دار صادر – بيروت.
٦٠٣) اللباب في علوم الكتاب،أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (المتوفى: ٧٧٥هـ)، تحقيق الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض،الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م ،دار الكتب العلمية – بيروت / لبنان.
٦٠٤) لبنات، عبد المجيد الشرفي، طبعة ١٩٩٤م، دار الجنوب– تونس.
٦٠٥) لسان العرب ، محمد بن مكرم بن على أبو الفضل جمال الدين ابن منظور، المتوفى سنة ٧١١ هـ. ط(٣)١٤١٤هـ ، دار صادر ، بيروت – لبنان .
٦٠٦) لسان الميزان، لابن حجر، تحقيق: دائرة المعرف النظامية– الهند، ط(٢)١٣٩٠هـ–١٩٧١م، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات– بيروت – لبنان.
٦٠٧) لطفي السيد والشخصية المصرية الحديثة، حسين فوزي النجار، طبعة ١٩٦٣، مكتبة القاهرة الحديثة.

٦٠٨) لقاء الباب المفتوح، محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى : ١٤٢١هـ)، [لقاءات كان يعقدها الشيخ بمنزله كل خميس، بدأت في أواخر شوال ١٤١٢هـ وانتهت في الخميس ١٤ صفر، عام ١٤٢١هـ]، وهي دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية _ http://www.islamweb.net، وعدد اللقاءات ٢٣٦ لقاء.

٦٠٩) لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، محمد عجاج الخطيب، ط(١٩)١٤٢٢هـ-٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.

٦١٠) لمع الأدلة، لأبي المعالي الجويني، تحقيق د. فوقية حسين محمود، الطبعة الأولى ١٣٨٥هـ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف.

٦١١) لمعة الاعتقاد ، الموفق بن قدامة المقدسي ، ط : رابعة ، المكتب الإسلامي .

٦١٢) لو لم يظهر الإسلام ما حال العرب الآن، شاكر النابلسي، الطبعة الأولى ٢٠٠٣م، دار الآفاق الجديدة، بيروت- لبنان.

٦١٣) لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، لشمس الدين، أبو العون محمد بن أحمد بن سالم السفاريني الحنبلي (المتوفى: ١١٨٨هـ)، ط(٢)١٤٠٢هـ-١٩٨٢م، مؤسسة الخافقين ومكتبتها- دمشق- سوريا.

٦١٤) الليبرالية الضائعة، عيد الدويهيس، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م، بدون دار نشر.

٦١٥) الليبرالية المتوحشة، د. رمزي زكي، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، دار المستقبل العربي – القاهرة.

٦١٦) الليبرالية المستبدة ، د. رمزي زكي، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، دار سيناء – القاهرة.

٦١٧) الليبرالية في السعودية والخليج دراسة وصفية نقدية، وليد بن صالح الرميزان، الطبعة الأولى ٢٠٠٩م- ١٤٣٠هـ، بيروت- لبنان.

٦١٨) الليبراليون الجدد جدل فكري، شاكر النابلسي، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، منشورات الجمل – ألمانيا.

٦١٩) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين لأبي الحسن الندوي، الطبعة الرابعة، عام ١٤٠٤هـ، ١٩٨٤م، بدون دار نشر.

٦٢٠) مآل الإسلام في القرآت العلمانية، د . أحمد إدريس الطعان، كلية الشريعة – جامعة دمشق.

٦٢١) المال والهلال الموانع والدوافع الاقتصادية لظهور الإسلام، شاكر النابلسي، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، دار الساقي- بيروت.

٦٢٢) ماهية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه، الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله (المتوفى: ٢٤٣هـ)، تحقيق: حسين القوتلي، ط(٢) ١٣٩٨هـ، الناشر: دار الكندي، دار الفكر – بيروت – لبنان.

٦٢٣) المباحث المشرقية في علم الإلهيات والطبيعيات، للفخر الرازي، ط:١٩٦٦م، مكتبة الأسدي- طهران- إيران.
٦٢٤) مباحث في عقيدة أهل السنة والجماعة وموقف الحركات الإسلامية المعاصرة منها، د/ ناصر بن عبد الكريم العقل، ط(١)١٤١٢هـ، دار الوطن للنشر- الرياض- السعودية.
٦٢٥) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، الطبعة ٢٤، ٢٠٠٠م، دار العلم للملايين.
٦٢٦) مباحث في علوم القرآن، مناع بن خليل القطان (ت ١٤٢٠هـ)، ط٣ ١٤٢١هـ- ٢٠٠٠م، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.
٦٢٧) المبسوط، محمد بن أحمد بن أبي سهل شمس الأئمة السرخسي (المتوفى: ٤٨٣هـ)، طبعة١٤١٤هـ-١٩٩٣م، دار المعرفة - بيروت.
٦٢٨) متن القصيدة النونية، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)،الطبعة: الثانية، ١٤١٧هـ، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.
٦٢٩) المجتمع العربي المعاصر، حليم بركات، الطبعة الأولى ١٩٨٤م، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت.
٦٣٠) المجلى في شرح القواعد المثلى في صفات الله وأسمائه الحسنى للعلامة محمد صالح العثيمين، كاملة بنت محمد بن جاسم بن علي آل جهام الكواري، ط(١)١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، دار ابن حزم- بيروت- لبنان.
٦٣١) مجمل اعتقاد أئمة السلف، عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط(٢)١٤١٧هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - السعودية.
٦٣٢) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ)، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، طبعة ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية.
٦٣٣) المجموع شرح المهذب ، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)، بدون طبعة، دار الفكر.
٦٣٤) محاسن التأويل، محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي (المتوفى: ١٣٣٢هـ)، المحقق: محمد باسل عيون السود، الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ، دار الكتب العلميه - بيروت.
٦٣٥) المحدث الفاصل بين الراوي والواعي، أبو محمد الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الرامهرمزي الفارسي (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق محمد عجاج الخطيب، الطبعة الثالثة، ١٤٠٤، دار الفكر - بيروت.

٦٣٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ)،تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، الطبعة الأولى – ١٤٢٢ هـ، دار الكتب العلمية – بيروت.
٦٣٧) محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازي، تقديم طه عبد الرؤوف سعد، بدون طبعة، مكتبة الكليات الأزهرية.
٦٣٨) المحلى بالآثار، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، بدون طبعة، دار الفكر – بيروت.
٦٣٩) محمد عزة دروزة وتفسير القرآن الكريم، د. فريد مصطفى سليمان، الطبعة الأولى، مكتبة الرشد – الرياض.
٦٤٠) مختار الصحاح، زين الدين محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: يوسف الشيخ محمد، ط(٥)١٤٢٠هـ–١٩٩٩م، المكتبة العصرية– الدار النموذجية– بيروت – صيدا– لبنان.
٦٤١) مختصر التحرير شرح الكوكب المنير، لابن النجار الحنبلي، تحقيق: محمد الزحيلي، نزيه حماد، ط(٢)١٤١٨هـ–١٩٩٧م، مكتبة العبيكان الرياض– السعودية
٦٤٢) مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، مؤلف الأصل: ابن القيم، اختصره: محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان البعلي شمس الدين، ابن الموصلي، تحقيق: سيد إبراهيم، ط(١)١٤٢٢هـ–٢٠٠١م، دار الحديث– القاهرة – مصر.
٦٤٣) مختصر معارج القبول، أبو عاصم هشام بن عبد القادر آل عقدة، ط(٥)١٤١٨هـ، مكتبة الكوثر – الرياض– السعودية.
٦٤٤) المخصص،أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، تحقيق خليل إبراهم جفال،الطبعة الأولى، ١٤١٧هـ ١٩٩٦م،دار إحياء التراث العربي – بيروت.
٦٤٥) مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (ت ٧٥١هـ)، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط٣، ١٤١٦ هـ – ١٩٩٦م، دار الكتاب العربي – بيروت.
٦٤٦) المدارس النحوية، شوقي ضيف، دار المعارف– الرياض– السعودية، بدون طبعة.
٦٤٧) المدخل إلى السنن الكبرى، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)، المحقق: د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي، بدون طبعة، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي – الكويت.
٦٤٨) مدخل إلى القرآن الكريم محمد عابد الجابري الطبعة الأولى ٢٠٠٦م لبنان بيروت مركز دراسات الوحدة العربية.

٦٤٩) المدخل إلى علم التاريخ، د. محمد بن صامل السلمي، طبعة ١٤٢٣هـ، دار الوطن – الرياض،
٦٥٠) المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، عبد القادر بن أحمد بن مصطفى بن عبد الرحيم بن محمد بدران (المتوفى: ١٣٤٦هـ)، تحقيق د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الثانية، ١٤٠١، مؤسسة الرسالة – بيروت.
٦٥١) مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، د/ عثمان جمعة ضميرية، د/ عبد الله بن عبد الكريم العبادي، ط(٢) ١٤١٧هـ-١٩٩٦م، مكتبة السوادي للتوزيع.
٦٥٢) المدرسة العصرانية في نزعتها المادية تعطيل للنصوص وفتنة بالتغريب، محمد بن حامد الناصر، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، مكتبة الكوثر – الرياض.
٦٥٣) المذاهب الفكرية المعاصرة ودورها في المجتمعات وموقف المسلم منها، د. غالب بن علي عواجي، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م،المكتبة العصرية الذهبية-جدة.
٦٥٤) المذاهب المعاصرة وموقف الإسلام منها ، د. عبد الرحمن عميرة ، بدون طبعة، مكتبة الدعوة.
٦٥٥) مذاهب فكرية معاصرة، محمد بن قطب بن إبراهيم، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، دار الشروق.
٦٥٦) مذكرة في أصول الفقه، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ)، الطبعة الخامسة، ٢٠٠١ م، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة.
٦٥٧) مذهب ابن آدم الأول، جودت سعيد، طبعة ١٤١٤هـ، دار الفكر المعاصر – بيروت.
٦٥٨) المرشد الأمين في تعليم البنات والبنين، رفاعة الطهطاوي، طبعة ١٣٨٩هـ، بدون دار نشر.
٦٥٩) مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، أبو الحسن عبيد الله بن محمد المباركفوري، ط(٣)١٤٠٤هـ-١٩٨٤م، إدارة البحوث العلمية والدعوة والإفتاء – الجامعة السلفية – بنارس الهند.
٦٦٠) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح،علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري (المتوفى: ١٠١٤هـ)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م،دار الفكر، بيروت – لبنان.
٦٦١) مرهم العلل المعضلة في الرد على أئمة المعتزلة، أبو محمد اليافعي، تحقيق: محمود محمد محمود حسن نصار، ط(١)١٤١٢هـ-١٩٩٢م، دار الجيل- بيروت- لبنان.
٦٦٢) المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ)، تحقيق فؤاد علي منصور(٤٠/١)، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية – بيروت.

٦٦٣) مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، أحمد بن يحيى القرشي العدوي العمري، ط(١)١٤٢٣هـ، المجمع الثقافي- أبو ظبي- الإمارات.
٦٦٤) مساهمة في النقد الإيديولوجي، د/ محمد عابد الجابري، ضمن كتاب محاورة فكر عبد الله العروي، جمع وترتيب بسام الكردي، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء و بيروت.
٦٦٥) المسائل والرسائل المروية عن الإمام أحمد بن حنبل في العقيدة، جمع وتحقيق ودراسة: عبد الإله بن سلمان بن سالم الأحمدي، ط(١)١٤١٢هـ-١٩٩١م، دار طيبة- الرياض- السعودية.
٦٦٦) مستخرج أبي عوانة، أبو عوانة يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم النيسابوري الإسفراييني (المتوفى: ٣١٦هـ)، تحقيق أيمن بن عارف الدمشقي، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، دار المعرفة – بيروت.
٦٦٧) المستدرك على الصحيحين، أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ)، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة: الأولى، ١٤١١ – ١٩٩٠، دار الكتب العلمية – بيروت.
٦٦٨) المستصفى، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، تحقيق محمد عبد السلام عبد الشافي، الطبعة الأولى، ١٤١٣هـ – ١٩٩٣م، دار الكتب العلمية.
٦٦٩) المستطرف في كل فن مستطرف، محمد بن أحمد الأبشيهي أبو الفتح، ط(١)١٤١٩هـ، عالم الكتب – بيروت – لبنان.
٦٧٠) مستقبل الثقافة في مصر، طه حسين، الطبعة الأولى ١٩٣٨م، مطبعة القاهرة.
٦٧١) مسند الإمام أحمد، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط(١)١٤٢١هـ-٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.
٦٧٢) مسند البزار (البحر الزخار)، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار (المتوفى: ٢٩٢هـ)، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، ط(١) (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م)، مكتبة العلوم والحكم- المدينة المنورة- السعودية.
٦٧٣) مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)، لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (ت ٢٥٥هـ)،(٣٣٩/١)، تحقيق حسين سليم أسد الداراني، ط١، ١٤١٢ هـ – ٢٠٠٠ م، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية.
٦٧٤) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المعروف بصحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، ط١ ،١٤٧٣هـ، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٦٧٥) مسند الموطأ للجوهري، أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بنُ عَبْدِ اللهِ بنِ مُحَمَّدٍ الغَافِقِيُّ، الجَوْهَرِيُّ المالكي (المتوفى: ٣٨١هـ)، تحقيق لطفي بن محمد الصغير، طه بن علي بُو سريح، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٩٩٧ م.

٦٧٦) مسند أمير المؤمنين أبي حفص عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأقواله على أبواب العلم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ)، تحقيق عبد المعطي قلعجي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ - ١٩٩١م، دار الوفاء - المنصورة.

٦٧٧) المسودة في أصول الفقه، آل تيمية (بدأ بتصنيفها الجدّ: مجد الدين عبد السلام بن تيمية، وأضاف إليها الأب: عبد الحليم بن تيمية، ثم أكملها الابن الحفيد: أحمد بن تيمية)، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان، بدون طبعة.

٦٧٨) مشاهير علماء الأمصار وأعلام فقهاء الأقطار، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ)، حققه ووثقه وعلق عليه: مرزوق على ابراهيم، الطبعة: الأولى ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة.

٦٧٩) مشكاة المصابيح، محمد بن عبد الله الخطيب العمري، أبو عبد الله، ولي الدين، التبريزي (المتوفى: ٧٤١هـ)، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني،، الطبعة الثالثة، ١٩٨٥،المكتب الإسلامي - بيروت.

٦٨٠) المشوق إلى القراءة وطلب العلم، علي بن محمد بن حسين العِمران، ط(٢)١٤٢٢هـ، دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع- مكة المكرمة- السعودية.

٦٨١) مصادر الاستدلال على مسائل الاعتقاد، عثمان علي حسن، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، دار الوطن للنشر - الرياض.

٦٨٢) المصادر العلمية في الدفاع عن العقيدة السلفية، محمد بن عبد الرحمن المغراوي، ط(١)١٤١٧هـ، دار الراية للنشر والتوزيع - الرياض- السعودية.

٦٨٣) مصارعة الفلاسفة، للشَّهْرَسْتَاني، تحقيق: سهير مختار، ط(١)١٩٧٦م، القاهرة- مصر.

٦٨٤) المصالح المرسلة، محمد الأمين الشنقيطي، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، مطابع الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة.

٦٨٥) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)، بدون طبعة، المكتبة العلمية - بيروت.

٦٨٦) المصطلحات الأربعة في القرآن، أبو الأعلى بن أحمد حسن المودودي (المتوفى: ١٣٩٩هـ)، تخريج: محمد ناصر الدين الالباني، بدون طبعة.

٦٨٧) مصطلحات في كتب العقائد، محمد بن إبراهيم بن أحمد الحمد، ط(١)، درا بن خزيمة، الرياض–السعودية.

٦٨٨) مطالعات في الكتب والحياة، عباس محمود العقاد، دار الكتاب العربي– بيروت.

٦٨٩) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد بن علي الحكمي، تحقيق: عمر بن محمود أبو عمر، ط(١)١٤١٠هـ–١٩٩٠م، دار ابن القيم– الدمام– السعودية.

٦٩٠) المعاصرة في إطار الأصالة، أنور الجندي، الطبعة الأولى، دار الصحوة – القاهرة.

٦٩١) معالم أصول الدين، للفخر الرازي، تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد، دار الكتاب العربي – بيروت– لبنان، بدون طبعة.

٦٩٢) معالم أصول الفقه عند أهل السنة والجماعة، محمد بن حسين الجيزاني، ط(٥)١٤٢٧هـ، دار ابن الجوزي الدمام– السعودية.

٦٩٣) معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود، أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي (المتوفى: ٣٨٨هـ)، الطبعة الأولى ١٣٥١ هـ – ١٩٣٢ م،المطبعة العلمية – حلب.

٦٩٤) معانى القرآن للأخفش،أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (المتوفى: ٢١٥هـ)، تحقيق الدكتورة هدى محمود قراعة، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ – ١٩٩٠ م، مكتبة الخانجي، القاهرة.

٦٩٥) معاني القرآن وإعرابه، إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، تحقيق عبد الجليل عبده شلبي، ط١، ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م، عالم الكتب – بيروت.

٦٩٦) المعتزلة بين القديم والحديث، محمد العبدة، وطارق عبد الحليم، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ– ١٩٨٧م، دار الأرقم.

٦٩٧) معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، ياقوت الحموي، تحقيق: إحسان عباس، ط(١)١٤١٤هـ–١٩٩٣م، دار الغرب الإسلامي– بيروت– لبنان.

٦٩٨) المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ)، تحقيق طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين – القاهرة، بدون طبعة.

٦٩٩) معجم البلدان، ياقوت الحموي، ط(٢) ١٩٩٥م، دار صادر– بيروت– لبنان.

٧٠٠) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، عبد المنعم الحفني، الطبعة الثالثة ٢٠٠٠م، مكتبة مدبولي – القاهرة.

٧٠١) المعجم الصغير (الروض الداني)، للطبراني، تحقيق: محمد شكور محمود الحاج أمرير، ط(١)١٤٠٥هـ– ١٩٨٥م، المكتب الإسلامي– بيروت– لبنان، دار عمار– عمان– الأردن.

٧٠٢) المعجم الفلسفى بالألفاظ العربية والفرنسية والإنجليزية واللاتينية، جميل صليبا، طبعة ١٩٨٢م، دار الكتاب اللبناني- بيروت.
٧٠٣) المعجم الفلسفي معجم المصطلحات الفلسفية، مراد وهبة، طبعة ٢٠٠٧م، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع- القاهرة.
٧٠٤) المعجم الفلسفي، مجموعة من المؤلفين، طبعة ١٤٠٣هـ، مجمع اللغة العربية، والهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية- القاهرة.
٧٠٥) المعجم الكبير، للطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، ط(٢)، مكتبة ابن تيمية- القاهرة- مصر.
٧٠٦) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: ١٤٢٤هـ)، الطبعة الأولى، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م، عالم الكتب.
٧٠٧) معجم المؤلفين، عمر بن رضا بن محمد، مكتبة المثنى- بيروت، دار إحياء التراث العربي بيروت- لبنان.
٧٠٨) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى، أحمد الزيات، حامد عبد القادر، محمد النجار)، دار الدعوة- الإسكندرية- مصر، بدون طبعة.
٧٠٩) معجم علوم الحديث النبوي، د. عبد الرحمن بن إبراهيم الخميسي، الطبعة الأولي دار ابن حزم - بيروت.
٧١٠) المعجم لابن المقرئ، أبو بكر محمد بن إبراهيم بن علي بن عاصم بن زاذان الأصبهاني الخازن، المشهور بابن المقرئ (المتوفى: ٣٨١هـ)، تحقيق: أبي عبد الرحمن عادل بن سعد، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م، مكتبة الرشد، الرياض، شركة الرياض للنشر والتوزيع.
٧١١) معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عبد الله بن عبد العزيز محمد بن البكري الأندلسي، ط(٣)١٤٠٣هـ، عالم الكتب- بيروت- لبنان.
٧١٢) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر- بيروت- لبنان، عام النشر: ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٧١٣) معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، عبد العزيز مصطفى كامل، بدون طبعة، مجلة البيان.
٧١٤) معركة الثوابت بين الإسلام والليبرالية، عبد العزيز مصطفى كامل، مجلة البيان، بدون طبعة.
٧١٥) المغني لابن قدامة، أبو محمد موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، الشهير بابن قدامة المقدسي (المتوفى: ٦٢٠هـ)، طبعة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م، مكتبة القاهرة.
٧١٦) مفاتيح الغيب، فخر الدين محمد بن عمر التميمي الرازي الشافعي ، ط (١) ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م ، دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان.

٧١٧) مفاهيم يجب أن تصحح، محمد قطب، الطبعة السابعة ١٤١٢هـ، دار الشروق– القاهرة.

٧١٨) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، للسيوطي، ط(٣)١٤٠٩هـ–١٩٨٩م، الجامعة الإسلامية– المدينة المنورة– السعودية.

٧١٩) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، بدون طبعة، دار الكتب العلمية – بيروت.

٧٢٠) المفترون لفهمي هويدي، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، دار الشروق.

٧٢١) المفردات في غريب القرآن، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ)، تحقيق صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى – ١٤١٢ هـ، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت.

٧٢٢) المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات، محمد بن عبد الرحمن الغراوي، ط(١)١٤٢٠هـ–٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة– دار القرآن– بيروت– لبنان.

٧٢٣) مفهوم التجديد بين السنة النبوية وأدعياء التجديد المعاصرين، للشيخ محمود الطحان، الطبعة الأولى، مكتبة دار التراث.

٧٢٤) مفهوم الحرية، عبد الله العروي، الطبعة السادسة ٢٠٠٢م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء– المغرب.

٧٢٥) مفهوم العقل د / عبد الله العروي المركز الثقافي العربي الدار البيضاء بيروت الطبعة الثالثة ٢٠٠١م.

٧٢٦) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، الطبعة الخامسة٢٠٠٠م، المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء.

٧٢٧) مفهوم النص دراسة في علوم القرآن، نصر حامد أبو زيد، الطبعة الخامسة ٢٠٠٠م، المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء.

٧٢٨) مفهوم تجديد الدين، بسطامي محمد سعيد، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، دار الدعوة– الكويت.

٧٢٩) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبي الحسن الأشعري، تحقيق: نعيم زرزور، ط(١)١٤٢٦هـ–٢٠٠٥م، المكتبة العصرية.

٧٣٠) مقالة التعطيل والجعد بن درهم، محمد بن خليفة بن علي التميمي، ط(١)١٤١٨هـ–١٩٩٧م، أضواء السلف– الرياض– السعودية.

٧٣١) مقدمة في أصول التفسير، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ)، الطبعة الأولى ١٤٩٠هـ/ ١٩٨٠م، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

٧٣٢) مكانة أهل الحديث ومآثرهم وآثارهم الحميدة في الدين، ربيع بن هادي المدخلي، طبعت بدار الأرقم بالبحرين.

٧٣٣) الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، الطبعة الأولى، مؤسسة الحلبي– القاهرة.

٧٣٤) الممنوع والممتنع نقد الذات المفكرة ، علي حرب، الطبعة الرابعة ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي– الدار البيضاء.

٧٣٥) من آثار مصطفى عبد الرازق، (جمع وتقديم): علي عبد الرازق، طبعة ١٩٥٧م ، دار المعارف، القاهرة.

٧٣٦) من أجل صحوة راشدة تجدد الدين وتنهض بالدنيا د/ يوسف القرضاوي الدار البيضاء المغرب دار المعرفة ١٩٩٦م.

٧٣٧) من أسرار التنزيل، للفخر الرازي، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار المسلم– القاهرة – مصر. وهو مطبوع باسم عجائب القرآن، لنفس المحقق، انظر: ط(١)١٤٠٢هـ–١٩٨٢م، دار الكتب الاسلامية– القاهرة– مصر.

٧٣٨) من الحق الإلهي إلى العقد الاجتماعي، د.غالي شكري، طبعة ١٩٩٣م، الهيئة المصرية العامة للكتاب– القاهرة.

٧٣٩) من العقيدة إلى الثورة، حسن حنفي، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء.

٧٤٠) من النص إلى الفعل أبحاث التأويل، بول ريكور، ترجمة محمد برادة وحسان بورقيبة، الطبعة الأولى ٢٠٠١م، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والإجتماعية.

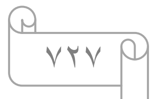
٧٤١) من بعيد، طه حسين، طبعة ١٩٦٧م، دار العلم للميلاين– بيروت.

٧٤٢) من هدي السلف في طلب العلم، أبو ياسر محمد بن مطر بن عثمان آل مطر الزهراني (المتوفى: ١٤٢٧هـ)، الطبعة الثانية، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م،دار طيبة، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٧٤٣) المنار المنيف في الصحيح والضعيف، لابن القيم، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، ط(١)١٣٩٠هـ–١٩٧٠م، مكتبة المطبوعات الإسلامية– حلب– سوريا.

٧٤٤) مناقب الشافعي، للبيهقي، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط(١)١٣٩٠هـ–١٩٧٠م، مكتبة دار التراث– القاهرة– مصر.

٧٤٥) مناهج الاستدلال على مسائل العقيدة الإسلامية بمصر في العصر الحديث، أحمد عبد الرحيم، رسالة دكتوراة، كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.



٧٤٦) مناهج اللغويين في تقرير العقيدة إلى نهاية القرن الرابع الهجري، د.محمد الشيخ عليو محمد، الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ، مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع- الرياض.

٧٤٧) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني (المتوفى: ١٣٦٧هـ)، الناشر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، الطبعة: الطبعة الثالثة.

٧٤٨) المنتقى شرح الموطأ، أبو الوليد الباجي الأندلسي، ط(١)١٣٣٢هـ، الناشر: مطبعة السعادة - بجوار محافظة مصر.

٧٤٩) منح الجليل شرح مختصر خليل، محمد بن أحمد بن محمد عليش، أبو عبد الله المالكي (ت ١٢٩٩هـ)، بدون طبعة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، دار الفكر - بيروت.

٧٥٠) المنقذ من الضلال، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (المتوفى: ٥٠٥هـ)، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود،بدون طبعة، دار الكتب الحديثة، مصر. منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط(١)١٤٠٦هـ-١٩٨٦م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- المدينة المنورة- السعودية.

٧٥١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج (شرح النووي على مسلم)، ط(٢)١٣٩٢هـ، دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان.

٧٥٢) منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، عثمان بن علي حسن، ط(٦)١٤٢٩هـ-٢٠٠٨م، مكتبة الرشد- الرياض- السعودية.

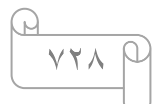
٧٥٣) منهج الأشاعرة في العقيدة، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، الطبعة: السنة السادسة عشرة، العدد الثاني والستون ربيع الآخر- جمادى الآخرة ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م الناشر: الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٧٥٤) منهج التلقي والاستدلال بين السنة والمبتدعة، أحمد الصويان، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، دار السليم.

٧٥٥) منهج الشيخ محمد رشيد رضا في العقيدة، تامر محمد محمود متولي، ط(١)١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، دار ماجد عسيري- جدة- السعودية.

٧٥٦) المنهج الكلامي ملامحه وآثاره على مناهج التعليم الديني المعاصر في العالم الإسلامي، د/ سهل بن رفاع بن سهيل العتيبي، ضمن ندوة مناهج التعليم في العالم الإسلامي (التحديات والآفاق، الجامعة الاسلامية العالمية بماليزيا، ص٢، المعهد العالمي لوحدة الأمة الاسلامية، ٦-٩/٧/٩-٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ، كولالمبور- ماليزيا.

٧٥٧) المنهج الكلامي ملامحه وآثاره على مناهج التعليم الديني المعاصر في العالم الإسلامي، د/ سهل بن رفاع بن سهيل العتيبي، ضمن ندوة مناهج التعليم في العالم الإسلامي (التحديات



والآفاق، الجامعة الاسلامية العالمية بماليزيا، المعهد العالمي لوحدة الأمة الاسلامية، ٦/٩-٧/٩-٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ، كوالالمبور- ماليزيا.

٧٥٨) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير، د.فهد بن عبدالرحمن بن سليمان الرومي، الطبعة الرابعة ١٤٢٢هـ ، الناشر :مؤسسة الرسالة.

٧٥٩) المنهج المقترح لفهم المصطلح، حاتم بن عارف بن ناصر الشريف العوني، ط(١)١٤١٦هـ-١٩٩٦م، دار الهجرة للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية.

٧٦٠) منهج حسن حنفي دراسة تحليلية نقدية، د. فهد بن محمد السرحاني القرشي، الطبعة الأولى ١٤٣٤هـ، مكتبة الملك فهد الوطنية

٧٦١) منهج علماء الحديث والسنة في أصول الدين، د/ مصطفى محمد حلمي، ط(١)١٤٢٦هـ، دار الكتب العلمية – بيروت- لبنان.

٧٦٢) المنية والأمل في شرح كتاب الملل والنحل، باب ذكر المعتزلة، أحمد بن يحيى المرتضى، طبعة دار المعارف النظامية- حيد آباد الدكن- الهند، ١٣١٦هـ.

٧٦٣) المهذب في علم أصول الفقه المقارن،عبد الكريم بن علي بن محمد النملة، الطبعة الأولى: ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م، مكتبة الرشد – الرياض.

٧٦٤) المهذب في فقة الإمام الشافعي، أبو اسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي (المتوفى: ٤٧٦هـ)، بدون طبعة، دار الكتب العلمية.

٧٦٥) المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، تقي الدين المقريزي، (١٩١/٤)، ط(١)١٤١٨هـ، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان.

٧٦٦) الموافقات، للشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، ط(١)١٤١٧هـ-١٩٩٧م، دار ابن عفان- السعودية.

٧٦٧) مواقف الطوائف من توحيد الأسماء والصفات، محمد بن خليفة بن علي التميمي، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، أضواء السلف، الرياض، المملكة العربية السعودية.

٧٦٨) المواقف، عبد الرحمن بن أحمد عضد الدين الإيجي، تحقيق: عبد الرحمن عميرة، ط(١)١٤١٧هـ-١٩٩٧م، دار الجيل- بيروت- لبنان.

٧٦٩) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس بن عبد الله بن محمد الجلعود، ط(١)١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، دار اليقين للنشر والتوزيع- المنصورة- مصر.

٧٧٠) الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس بن عبد الله الجلعود، ط(١)١٤٠٧هـ-١٩٨٧م، دار اليقين للنشر والتوزيع- المنصورة- مصر.

٧٧١) الموجز في الأديان والمذاهب المعاصرة عرض عقدي وتاريخي ميسر تأليف ناصر بن عبد الله القفاري وناصر بن عبد الكريم العقل ، ط(١) ١٤١٣هـ – ١٩٩٢م ، دار الصميعي للنشر والتوزيع .
٧٧٢) موسوعة الرد على المذاهب الفكرية المعاصرة، جمع وإعداد : علي بن نايف الشحود، بدون طبعة ودار نشر.
٧٧٣) الموسوعة السياسية، عبد الوهاب الكيالي، بدون طبعة، دار الهدى للنشر والتوزيع، بيروت– لبنان.
٧٧٤) موسوعة العلامة الإمام محمد ناصر الدين الألباني، أبو عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني (المتوفى: ١٤٢٠هـ)،صَنَعَهُ شادي بن محمد بن سالم آل نعمان، الطبعة الأولى، ١٤٣١ هـ – ٢٠١٠ م، مركز النعمان للبحوث والدراسات الإسلامية وتحقيق التراث والترجمة، صنعاء – اليمن.
٧٧٥) موسوعة الفقه الإسلامي، محمد بن إبراهيم بن عبد الله التويجري، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩ م، بيت الأفكار الدولية.
٧٧٦) الموسوعة الفقهية الكويتية، صادر عن: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية – الكويت، ط(١)، مطابع دار الصفوة – مصر.
٧٧٧) موسوعة الفلسفة والفلاسفة، عبد المنعم الحفني، الطبعة الثانية ١٩٩٩م، مكتبة مدبولي – القاهرة.
٧٧٨) موسوعة المورد العربية، منير البعلبكي، الطبعة الثلاثون ١٩٩٦م، دار العلم للملايين– بيروت.
٧٧٩) الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، إشراف وتخطيط ومراجعة: د/ مانع بن حماد الجهني، ط(٤)١٤٢٠هـ، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع– الرياض– السعودية.
٧٨٠) موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، د. عبد الوهاب المسيري، نسخة الكترونية مصورة على موقع الدكتور.
٧٨١) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي (المتوفى: بعد ١١٥٨هـ)، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الطبعة: الأولى – ١٩٩٦م، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت.
٧٨٢) موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، الطبعة الأولى ١٩٩٦م، منشورات عويدات– بيروت.

٧٨٣) موضح أوهام الجمع والتفريق، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: ٤٦٣هـ)، المحقق: د. عبد المعطي أمين قلعجي، الطبعة الأولى، ١٤٠٧،دار المعرفة – بيروت.

٧٨٤) الموطأ، مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني (المتوفى: ١٧٩هـ)، المحقق: محمد مصطفى الأعظمي، الطبعة: الأولى، ١٤٢٥ هـ - ٢٠٠٤ م، مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية – أبو ظبي – الإمارات.

٧٨٥) موقف ابن تيمية من الأشاعرة، عبد الرحمن بن صالح بن صالح المحمود، ط(١)١٤١٥هـ-١٩٩٥م، مكتبة الرشد – الرياض- السعودية.

٧٨٦) موقف أصحاب الأهواء والفرق من السنة النبوية ورواتها جذورهم ووسائلهم وأهدافهم قديمًا وحديثًا، محمد بن مطر بن عثمان الزهراني، ط(١)١٤١١هـ، مكتبة الصديق للنشر والتوزيع- الطائف- السعودية.

٧٨٧) موقف العقل والعلم والعلم من رب العالمين وعباده المرسلين، مصطفى صبري، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ، دار إحياء التراث العربي- بيروت.

٧٨٨) موقف المتكلمين من الاستدلال بنصوص الكتاب والسنة، عرضًا ونقدًا، سليمان بن صالح بن عبد العزيز الغصن، دار العاصمة للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية، بدون طبعة.

٧٨٩) موقف المدرسة العقلية الحديثة من الحديث النبوي الشريف، شفيق بن عبد الله شقير، الطبعة الأولى، المكتب الإسلامي- بيروت.

٧٩٠) الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية-دراسة نقدية-، د. مفرح بن سليمان العوسي، الطبعة الأولى، دار الفضيلة – الرياض.

٧٩١) ميزان الاعتدال في نقد الرجال، للذهبي، تحقيق: علي محمد البجاوي، ط(١)١٣٨٢هـ-١٩٦٣م، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان.

٧٩٢) النبوات، لابن تيمية، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، ط(١)١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، أضواء السلف- الرياض- السعودية.

٧٩٣) نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي"؛ محمد عابد الجابري، المركز الثقافي العربي، ط (٦)، ١٩٩٣م.

٧٩٤) نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي، محمد شحرور، الطبعة الأولى ٢٠٠٠م، دار الأهالي- دمشق.

٧٩٥) النخبة والأيديولوجيا والحداثة د/ سعيد شبار دار الهادي بيروت الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ 2005م.

٧٩٦) النزعة المادية في العالم الإسلامي، عادل النل، طبعة ١٤١٥هـ، دار البينة للنشر والتوزيع.

٧٩٧) نشأة الدين والنظريات التطورية والمؤلهة، علي سامي النشار، بدون طبعة، مكتبة الخانجي- مصر.
٧٩٨) نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، د/ علي سامي النشار، ط(٩)، دار المعارف- القاهرة- مصر.
٧٩٩) النص الإسلامي في قراءات الفكر العربي المعاصر د/ سعيد شبار منشورات الفرقان المغرب،الطبعةالأولى،١٩٩٩م.
٨٠٠) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة، طيب تيزيني، الطبعة الثانية ٢٠٠٦م، دار الينابيع – دمشق.
٨٠١) النص والسلطة والحقيقة إرادة المعرفة وإرادة الهيمنة، نصر حامد أبو زيد، الطبعة الخامسة ٢٠٠٦م، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء.
٨٠٢) نظرية التلقي، روبرت هولب، ترجمة عز الدين إسماعيل، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، إصدارات النادي الأدبي- جدة.
٨٠٣) نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، ط(٢)١٤١٢هـ-١٩٩٢م، الدار العالمية للكتاب الإسلامي- الرياض- السعودية.
٨٠٤) نفحة اليمن فيما يزول بذكره الشجن، أحمد بن محمد بن علي بن إبراهيم الأنصاري الشرواني (المتوفى: ١٢٥٣هـ)، الطبعة الأولى، ١٣٢٤ هـ، مطبعة التقدم العلمية، مصر.
٨٠٥) نقد الحقيقة، علي حرب، الطبعة الثالثة ٢٠٠٥م، المركز الثقافي العربي- الدار البيضاء.
٨٠٦) نقد الخطاب الديني، نصر حامد أبو زيد، الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار سينا- القاهرة.
٨٠٧) النقد الذاتي، خالص جلبي، الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ، مؤسسة الرسالة.
٨٠٨) نقد الليبرالية، الطيب بو عزة، الطبعة الأولى ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، الرياض.
٨٠٩) نقد النص، علي حرب، الطبعة الثالثة ٢٠٠٠م، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء- المغرب.
٨١٠) نقض المنطق، لابن تيمية، تحقيق: محمد عبد الرزاق حمزة، سليمان الصنيع، تصحيح: محمد حامد الفقي، ط(١)١٣٧٠هـ-١٩٥١م، مطبعة السنة المحمدية- القاهرة- مصر.
٨١١) نهاية الإقدام في علم الكلام، للشَّهْرَسْتَاني، حرره وصححه: الفردجيوم، بدون طبعة، أو ناشر.
٨١٢) نهاية التاريخ وخاتم البشر، فرانسيس فوكوياما، ترجمة حسن أحمد أمين، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ-١٩٩٣م، مركز الأهرام.
٨١٣) نهاية السول شرح منهاج الوصول، عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي الشافعيّ، أبو محمد، جمال الدين (المتوفى: ٧٧٢هـ)،الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ- ١٩٩٩م، دار الكتب العلمية – بيروت-لبنان.

٨١٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى، محمود محمد الطناحي، الناشر: المكتبة العلمية- بيروت- لبنان، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٨١٥) النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث، غالي شكري، ط١٩٨٣م، الدار العربية للكتاب.
٨١٦) نواقض الإيمان الإعتقادية وضوابط التكفير عند السلف، محمد بن عبد الله الوهيبي، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ-١٩٩٦م، دار المسلم للنشر والتوزيع – الرياض.
٨١٧) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ)، تحقيق محمد أحمد الحاج، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م، دار القلم- دار الشامية، جدة – السعودية.
٨١٨) هموم الفكر والوطن، حسن حنفي، الطبعة الثانية ١٩٩٨م، دار قباء للطباعة والنشر- القاهرة.
٨١٩) الوافي بالوفيات، للصفدي، تحقيق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، دار إحياء التراث – بيروت – لبنان، عام النشر:١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م، بدون طبعة.
٨٢٠) واقعنا المعاصر، محمد قطب، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ، مؤسسة المدينة للصحافة- جدة.
٨٢١) وَامُحَمَّدَاهُ{إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ}، أبو التراب سيد بن حسين بن عبد الله العفاني، الطبعة: الأولى، ١٤٢٧ هـ – ٢٠٠٦م، دار العفاني، مصر.
٨٢٢) وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، محمد عابد الجابري، الطبعة الثانية ١٩٩٤م، مركز دراسات الوحدة العربية- بيروت.
٨٢٣) وجوب الأخذ بحديث الآحاد في العقيدة ، محمد ناصر الدين الألباني ، سلسلة رسائل الدعوة السلفية (٥) ، ط : ١٣٩٤ هـ .
٨٢٤) الوجيز في عقيدة السلف الصالح (أهل السنة والجماعة)، عبد الله بن عبد الحميد الأثري، مراجعة وتقديم: صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ط(١)١٤٢٢هـ، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد- السعودية.
٨٢٥) الوحي والإنسان (قراءة معرفية)، محمد السيد الجليند، دار قباء للطباعة والتشر والتوزيع- القاهرة- مصر.
٨٢٦) وسطية أهل السنة بين الفرق، محمد با كريم محمد با عبد الله، ط(١)١٤١٥هـ-١٩٩٤م، دار الراية للنشر والتوزيع- الرياض- السعودية.
٨٢٧) وسقط صنم الليبرالية، رأفت صلاح الدين، بدون طبعة وبدون دار نشر.
٨٢٨) الوسيط في علوم ومصطلح الحديث، محمد بن محمد بن سويلم أبو شُهبة (المتوفى: ١٤٠٣هـ)،بدون طبعة،دار الفكر العربي.
٨٢٩) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر- بيروت- لبنان.

٨٣٠) الوفيات، لابن قنفذ، تحقيق: عادل نويهض، ط(٤)١٤٠٣هـ-١٩٨٣م، دار الآفاق الجديدة- بيروت- لبنان.
٨٣١) الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، تقديم عبد الرزاق عفيفي، الطبعة السادسة ١٤١٣هـ، دار طيبة- مكة المكرمة.
٨٣٢) اليهود والتحالف مع الأقوياء، د. نعمان السامرائي، طبعة ١٤١٢هـ، كتاب الأمة- قطر.
٨٣٣) اليوم والغد، سلامة موسى، طبعة ١٩٢٧م، المطبعة العصرية- القاهرة.

ثالثاً: المواقع الإلكترونية

١) منتديات الهدى والنور السلفية http://alhouda-wannour.com.
٢) موقع الألوكة الإسلامي، المجلس العلمي، http://majles.alukah.net.
٣) موقع شبكة العلوم السلفية http://aloloom.net.
٤) موقع ملتقى أهل التفسير http://tafsir.net.

خامساً: فهرس الموضوعات

مُلَّخص البحث

تُقدِّم هذه الدراسة، وصفاً تحليلياً وتأصيلياً لقضية فهم النَّص الدِّيني بين السلف الصالح، وبين من غالوا في تعظيم العقل، وقدَّموه على النص، قديماً وحديثاً.

وقد بيَّن الباحث هذه القضية من خلال التعريف بمصطلحات البحث في الفصل التمهيدي، ثمَّ بيان أسباب الفهم الصحيح للنَّص عند السلف، ومعوقاته المانعة من تحقُّقه عند غيرهم، وتأصيل المنهجية التي اتَّبعها السلف للوصول إلى مراد الله، ومراد رسوله –صلى الله عليه وسلم–في النَّصوص الدينية، واثبات أنَّ منهج السلف هو الأعلم والأسلم والأحكم، وأنهَّ حجةٌ على مَن بعدَهم، وأنَّ الالتزام به له آثارٌ طيبةٌ على الفرد والمجتمع.

وقد أجرى الباحث دراسةً مقارنةً بين السلف من جهةٍ، والعقلانيين القدماء والمعاصرين من جهةٍ أخرى، ممثلين في فرقتي المعتزلة والأشاعرة قديماً، والمدرسة العقلية الحديثة، والمدرسة الليبرالية العربية حديثاً، وذلك بالتعريف بكل مدرسةٍ فكريةٍ من هؤلاء، وبيان أبرز آرائهم وتوجهاتهم من خلال استعراض أقوال رموزهم ومفكريهم في الكتابات المعتمدة عند كل مدرسةٍ واتجاه من هؤلاء، وبيان المنهجية التي اعتمدوها في التعامل مع النصوص الدينية.

وختم الباحث بحثه ببيان النتائج الخطيرة على الفرد والمجتمع المسلم، من جرَّاء اتِّباع المناهج التلفيقية في التعامل مع النَّص الديني، والتي توضِّح مدى الانحراف الذي وصل إليه هؤلاء؛ بسبب تعظيمهم لعقولهم في مقابل النص.

وأسأل الله أن أكون قد وُفقت في بيان هذه القضية، وإرساء المعالم الواضحة التي تعصم المسلم من الزيغ والضلال عند التعامل مع نصوص الوحي، ومحاولة فهمها على مراد الله عز وجل ومراد رسولهﷺ.

والله ولي التوفيق، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

Abstract

This study provides a description of analytical and rooting to the issue of religious understanding text between the Righteous Ancestors and those who exaggerated in maximizing their mind by putting it before the text in ancient and modern time.

The researcher shows this issue through the definition of search terms in the introductory chapter and identifies the reasons of the correct understanding of the Salaf and its obstacles that prevent others to achieve and rooting the methodology which is followed by the Salaf to get to Allah satisfaction and his Messenger, peace be upon him in religious texts and prove that the approach of the Salaf is the safest, familiar and wiser and is considered an argument on those who come after them, and that commitment of this approach has good effects on the muslim individual and society.

The researcher has held a comparative study between the Salaf from one hand and the ancient and modern rational on the other hand, presented in Mu'tazila and Ash'aris adding to modern mental school and modern Arab liberalism, through the definition each school of thought of those and stating the most prominent views and attitudes through a review of the words of symbols and thinkers in their writings at each school of these and identifying the methodological statement that followed in dealing with religious texts.

the Researcher concluded his study by stating the serious consequences on the individual and the Muslim community as a result of following false approaches in dealing with religious text, which describes the extent of deviation, which they reached because they are glorifying their minds on text.

I ask Allah that I have been able in identifying this issue and establishing a clear-cut concepts which prevent Muslim from aberration and misguidance when dealing with the texts of revelation and trying to understand Allah Satisfaction Almighty and his Prophet peace be upon him.